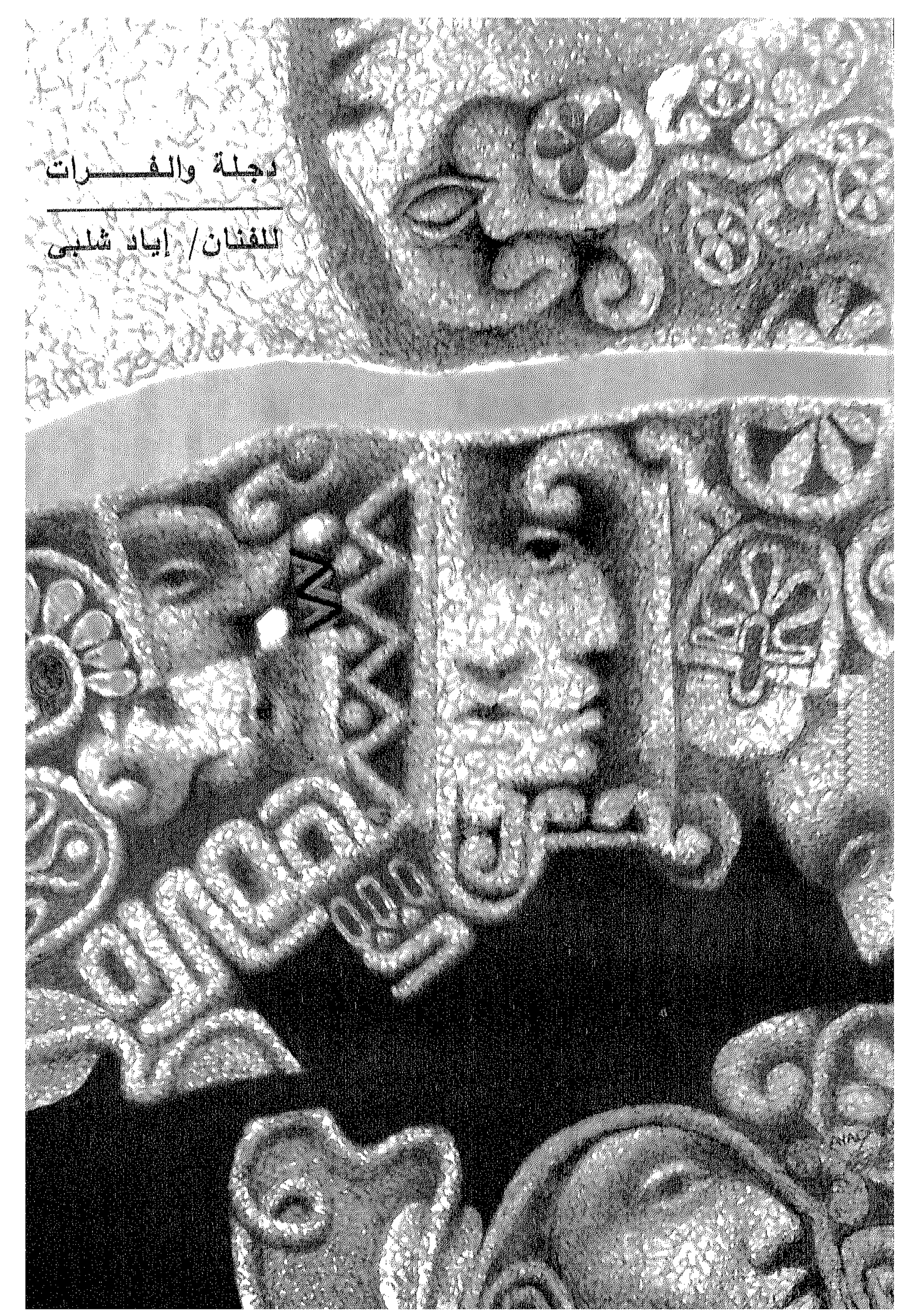
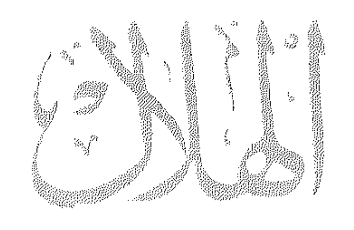


١٩٩٩
آفاق المستقبل
الهلال
يناير ١٩٩٩ • الثمن ١٥٠ قرشاً
رمضان كريم



دجلة والفـــرات

للفنان/ إياد شلبى



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام السابع بعد المائة

يناير ١٩٩٩ ● رمضان ١٤١٩ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمى التونى المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

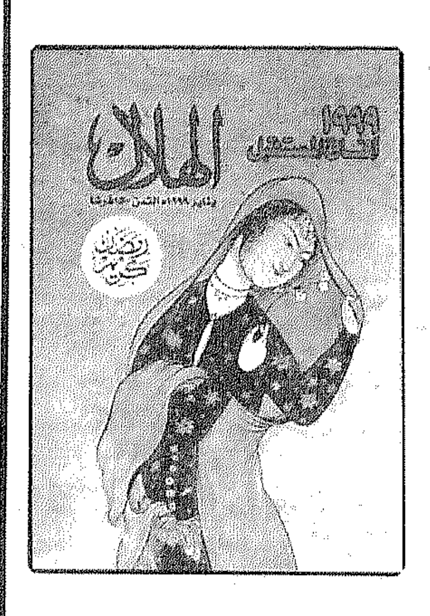
ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

●وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـــذا
العــــدد



الغلاف تصميم الفنان:
حلمى التـــونى

فكر وثقافة

١٩٩٩ ـ آفاق المستقبل

جزء خاص



كل سنة وأنت طيب

فالمسلمون فى كل بلاد العالم يعيشون هذه الأيام أرق رحلة إيمانية من خلال صومهم لشهر رمضان الكريم وقد امتلأت نفوسهم بالتسامح والتقرب إلى الله.

وكذلك يعيش المسيحيون فرصة أعياد الميلاد وقد استبشروا بعام جديد يبتسم بعد عبوس.

عام منصرم شهد أحداثا وعواصف لم يكن لمتفائل أن يشهدها.

وفى غمرة هذه الاحتفالات الدينية والايمانية لأغلب شعوب العالم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، فمازال يحدونا الأمل فى أن يتحقق للإنسان الخير العميم، ويبتعد عن شبح الحروب المدمرة الطاحنة، والتى يكون الانسان ضحية لها، وبسببها يعم الدمار والخراب، وبدلا من أن يواصل الإنسان حياته السعيدة. يلملم جروحه، ويحاول إعادة إعمار هذا الخراب الذى صنعه بنفسه، ويضيع الوقت والمال الكثير!.

لقد حقق الإنسان خلال القرن العشرين الكثير حديث هبط على سطح القمر، ومازال يواصل صراعه من أجل التعرف على الحياة هناك، وتعتمد المليارات لهذا الغرض، برغم فقر الإنسان وموته جوعا فى الكثير من قارات العالم الخمس!.

شاهدنا ثورة الاتصالات الهائلة، وأصبح العالم قرية واحدة، ومن خلال شبكة الانترنت، يمكن فى أى وقت أن نتعرف على كل جديد فى هذا الكوكب إلى الحد الذى سوف نستغنى فيه عن هذه الصحافة المقروءة، فسوف تنتهى الحضارة الطباعية، وأن الحضارة المقبلة هي حضارة الصوت والحضارة التكنولوجية، ففى بعض الدول المتقدمة مثل أمريكا أصبح البعض لا يذهبون يوميا إلى وظائفهم، بل ينهون كل أعمالهم بواسطة الكمبيوتر والكمبيوتر يقوم بكل الاتصالات وكل التكليفات.

عزيزى القارىء..

فى ظل التقدم الهائل الذى حققته العلوم الطبيعية وما حققه

علماء الهندسة الوراثية، فهناك الخوف والشك فى مستقبل الجنس البشرى كله.. لكن هل تتوقف مسيرة التقدم؟..

لقد بدأنا نعيد خريطة مصر من جديد ، من خلال المشروعات العملاقة، وخرجنا إلى الوادى لكى نعيد صياغة جديدة لحياة المصريين فبدأنا بمشروع توشكى والذى يحقق طفرة فى حياة المصريين، ثم بدأت انطلاقة أخرى فى شرق العوينات ، وتم زراعة مئات الآلاف من الأفدنة مستخدمين فى ذلك التكنولوجيا المتقدمة فى العالم فى أساليب الزراعة والرى ، وتركنا إلى غير رجعة ما توارثناه عن الأجداد والآباء.

وسوف يستتبع هذا التطور فى مجال الزراعة والرى رخاء اقتصادى يعم على أبناء الوطن.

وكل الطموحات فى مستقبل مشرق فى مجال الثقافة والعلوم ، تتوقف على مدى الاهتمام بالتعليم الذى لازمته ثمرات كثيرة، ابتداء من مراحله الأولى وحتى المرحلة الجامعية، فمازالت التجارب والنظريات الغربية تدخل فى هذا المجال، مما جعلنا نتأخر كثيرا، ولايتحقق المنشود من التعليم، وبالتالى لم نجد جيلا من العلماء الذين يحققون لمصر التقدم فى مجالات العلوم وتطورها ، والأمل يحدونا فى وقفة شجاعة نحاسب أنفسنا ، ونعترف بالأخطاء التى واجهتنا من أجل تصحيح مسار التعليم من مراحله الأولى وحتى الجامعية ، ونعيد للتعليم فى مصر سمعته التى بدأ يفقدها فى الآونة الأخيرة.

لقد حقق برنامج القراءة للجميع كل الفائدة ، وشد الكثير من أبناء الوطن لمواصلة رحلة المعرفة والعودة إلى تراثنا الثقافى والحضارى، ولكن هذا لايكفى فمازالت الأمية تستشرى بين أفراد الوطن وهناك أسباب كثيرة ينبغى دراستها ، لكى نخرج من هذا المأزق الخطير !.

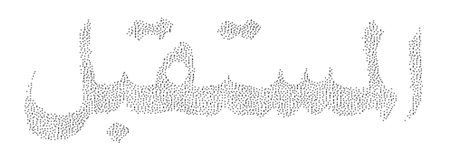
علينا أن نفكر فى مستقبل مصر فى ظل الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة، وعلينا أن نزيل الظلم والعدوان الذى يقع على البعض من منطلق النفوذ والسطوة، فلم نعد نطيق أن نتشدق بشعارات جوفاء لا يتم تطبيقها!.

إن المستقبل سوف يبتسم لنا، يوم يعرف كل منا ما له وما عليه، ويتساوى الجميع بحق فى العيش فى ظل حياة كريمة وآمنة.

وكل عام وأنتم بخير

المحرر

١٩٩٩ آفاق المستقبل



كما يراه العلماء والأدباء والمفكرون

عاطف مصطفى

الألفية الثالثة تقترب، والمستقبل فى أيام أجمل وأفضل يداعب الخيال، ويدفعنا إلى التعرف عما يحمله إلينا القادم وبسرعة مع انقضاء الأيام والليالى !.

وكما مرت الألفية الأولى وتقترب الألفية الثانية من الانتهاء كانت الأجيال السابقة لنا تحلم بالأمل فى حياة أفضل وأن يستطيع الإنسان بما أتاه الله من عقل وفكر أن يتغلب على كثير من مشكلات الحياة فى كل مجالاتها المتشعبة.

والكل يحلم بغد أجمل وحياة أفضل مع هذا التطور الهائل الذى شهدناه فى العشرين سنة الأخيرة .. لكن ماذا يقول المفكرون عن المستقبل ؟!.

فى هذا التحقيق نقرأ شهاداتهم ورؤاهم، ومع الأيام القادمة نتابع كيف يمكن ترجمة ذلك إلى واقع ملموس وما هى رؤيتهم للقرن الحادى والعشرين ؟!

يقول الدكتور أحمد مستجير ردا على سؤال ..

كيف ترى المستقبل ؟

– أفهم أن المقصود هو مستقبل الإنسان على الأرض، بعد أن أصبح العالم الآن، مع ثورة الإتصالات قرية واحدة بالفعل يقول المثل الصينى القديم «إن التنبؤ – لاسيما بالمستقبل – أمر صعب» ولقد غدا الآن أكثر صعوبة مما تخيله ذلك الصينى القديم الحكيم.

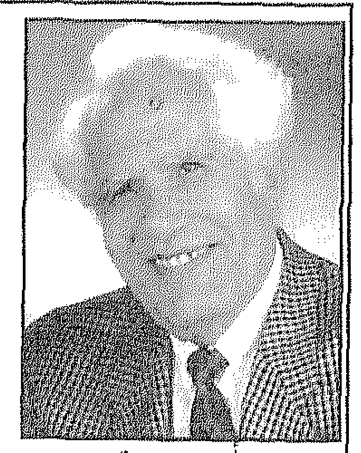
لم يكن لأحكم الحكماء فى نهاية القرن الماضى أن يتنبأ بهبوط الإنسان على القمر هل كان فى مقدوره أن يتنبأ بشئ كشبكة الإنترنت؟ أو ببكتريا تفرز الأنسولين البشرى، عندما اكتشف الناس أن عمر الأرض يبلغ بضعة آلاف الملايين من السنين، وليس كما قد تصوروا مجرد بضعة آلاف، لم يصدقوا فى البداية ورفضوا الفكرة ثم أصيبوا بهزة عنيفة عندما استوعبوا الأمر رغم أن ذلك لم يكن يعنى الكثير بالنسبة لحياتهم.

لقد تضاعف المدى مليون مرة ومثل هذا التغير الرهيب فى المدى يخيف الإنسان ويصيبه بالذهول، عندما بدأوا مشروع الجينوم البشرى كان غاية مايتطلع اليه العلماء هو أن يسلسل الواحد منهم مجمله فى العام مائة ألف قاعدة من البلايين الثلاثة التى تشكل جهازنا الوراثى.

ومنذ شهور قليلة ابتكرت آلة تسلسل أكثر من أربعمائة ألف قاعدة فى اليوم.

تنتظرنا هزات وهزات كهذه بل وأقسى ينتفض لها

● إذا غابت العدالة .. فربما يموت الإنسان فى حادثة رغم قوانين الوراثة.


د. أحمد مستجير

كياننا من الأعماق ستزداد سيطرة العلم وأفكاره على حياتنا، ستفك طلاسم وطلاسم حتى طلسم المادة الوراثية للإنسان وغيره من الكائنات مع كل ما يعنى ذلك من تحكم فى الإرث الجينى الذى تشكل عبر الملايين بل البلايين من السنين.

تنقضى إلى لا عودة تلك الراحة الحنون التى يسبغها الجهل علينا. تتراجع خيالات التأمل الجميل فى المجهول إذ ينحسر رويدا رويدا.

سيطلع علينا العلم فى كل يوم بجديد لم نتوقع تحقيقه أبدا !

لم يعد العلم يفاجئنا الآن بالتضاعف المذهل فى المدى، إنما أيضاً بالتسارع المخيف فى طرح منجزات أبعد فعلا من الخيال.

لقد تزايد تعداد البشر وتزايد بالتالى عدد من يفكرون وسيتزايد إذن ما سنتعرض له من أفكار جديدة تتحول سريعا إلى منجزات تقنية. فلقد اختلط العلم بالتكنولوجيا

تتحول الأفكار التى قد تمتعنا ذهنيا إذ نجلس نقرأها ونتأمل إلى منجزات تكنولوجية عملية تسهل أمور حياتنا تتحول فى لا زمن وسنتعود على تلقى الجديد منها كل يوم والإنسان كما يقال ودونا عن بقية الكائنات يتعود على كل شئ !.

إننا نخطو نحو عصر تحول حقيقى خطير سيسيطر فيه العلم وتتردى - لا تضيع - سيطرة الجسد، الذى تحكم فى أمور البشر منذ كانوا وحتى عصر قريب ستصبح مقاليد الأمور أكثر وأكثر فى يد الأذكى عقلا لا الأقوى جسدا. وستتزايد حاجة الناس إلى الفنون والآداب والروحانيات تعادل العبء العقلى الذى يغمرهم وتوفر ملاذا للراحة النفسية يأوون اليه.

ربما كانت أهم التقنيات التى سيطورها الإنسان هى ماسيعالج قضايا ومشاكل يبدو حلها بسيطا حقا ..أليس من الغريب أن يبحث الإنسان عن الماء العذب يروى به أرضه ثم لا يستخدم بخار الماء الذى يملأ الجو من حوله ؟ .

أليس لنا أن نتوقع أن تبتكر تقنية سهلة تحيل الرطوبة بالهواء إلى ماء يسقط يروى المزروعات فلا نحتاج حتى إلى تسوية الأرض وشق القنوات بها؟ وتقنية أخرى تحلل الماء إلى مكوناته ليستخدم مصدرا للطاقة بديلا عن البترول فتنخفض بذلك أسعار كل شئ ؟

فى ذهنى الكثير لكنى لا أود أن أستمر فما يحدث الآن عن تلاقى العلوم ينتج ما لا يمكن التنبؤ به ..

بالله من يستطيع أن يتنبأ بخصائص الماء إذا هو عرف خصائص غازى الأكسجين والإيدروجين ؟

المستقبل كما يراه العلماء والأدباء والمفكرون

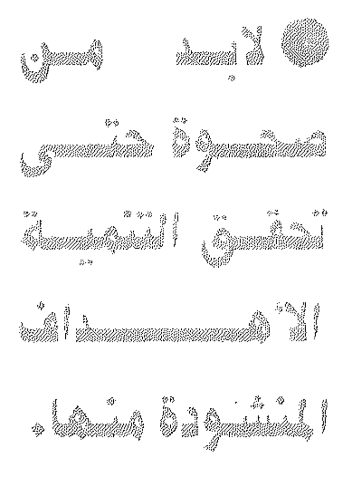
●●●

●**ويؤكد الدكتور الطاهر أحمد مكي** أننا ونحن نفكر فى القرن القادم لابد أن نعى أن الأمة كالجسد الإنسانى، لا يصلح ولا يبدع إلا إذا صلح كله فليس ممكنا أن نتصور مثلا أن الثقافة سوف تتقدم بينما الناس جياع والتعليم مهترىء والطرق متخلفة والديمقراطية متعثرة والمثقفون إما منعزل سلبى، لايكاد يهتم بما يجرى حوله، أو مغرور متعال يحجبه جهله عن رؤية الصواب، أو منافق منتفع بما يعرف وصناعته التبرير. وفى جو كهذا يضعف الانتماء ويبهت الولاء وتصبح دعوة الشباب إليهما وعظا ثقيلاً. وما تقوله أجهزة الإعلام ضلالا مفضوحا.. ومع الزمن وعوامل التعرية الاجتماعية تتآكل الحماسة عند الشباب فيصبحون عبئا على الوطن، وليسوا عونا له.

الحقيقة مرة ولكن معرفتها بداية الطريق لمعرفة واقعنا، وما يمكن أن يصبح عليه حالنا فى الغد القريب والبعيد.

لم نعد القوة الوحيدة الفاعلة فى المنطقة والميزة الجغرافية وحدها لاتكفى والموروث الحضارى وهو ضخم حقا يعين ولكنه يتراجع أمام تقدم الآخرين، ويصبح مجرد ذكرى يلوذ بها العجزة عن صنع الحاضر.

... وماذا عن التعليم وهو أساس أى نهضة؟ ما قبل الجامعى أسوأ بكثير جدا مما كان عليه منذ نصف قرن، فى المعلم والمنهج والكتاب والمبنى، ولم نتقدم خطوة واحدة فى مكافحة الأمية رغم تصريحات الحكومة وإعلانات التليفزيون والإدارة المتخصصة ومهرجانات القراءة للجميع! والتدهور فى التعليم الجامعى أفدح وأعمق وأشد سوادا وسادت طبقة جديدة لا يهمها العلم، وإنما يهمها اللحاق بالذين كونوا ثروات خرافية، وفى سبيل ذلك شاع البحث عن العمل فى جامعات نفطية تدفع رواتب أكثر ولو اقتضى الأمر التزوير فى أوراق رسمية مثل عقد عمل لزوجة لا تحمل الابتدائية ثم يصحبها الزوج مرافقا وهناك يعمل فى ظلها، أو اصطناع وظيفة رئيسية كذبا ليزيد فى عدد سنواته فإذا لم يحسن هذا ولا ذاك استقال ولا بأس أن يعود بعد زمن طويل، بعد أن تلفظه الجامعة النفطية، فيقف بباب جامعته الأولى المصرية يطلب وظيفة لله يا محسنين !



● لابد من صحوة حتى تحقق التنمية الأهداف المنشودة منها.



د. الطاهر مكى

والذين لم يستطيعوا الإعارة أخذوا يتاجرون فى المذكرات علنا يرهقون الطلاب ويحملونهم على شرائها حملا أو انصرفوا إلى الدروس الخصوصية وهى أمور أتت تماما على ما بين الطلاب وأساتذتهم من علاقات ومن العادى أن تجد مدرسا له فى وظيفته عشر سنوات دون أن يتقدم للترقية ومثله الأستاذ المساعد مع أن الجامعات الحقيقية تعتبر ذلك عجزا وتطلب من الاثنين أن يتقدما للترقية أو يبحثا لهما عن مكان آخر غير الجامعة !

مفتاح النهضة هو الارتقاء بالتعليم ويبدأ ذلك بالعناية بمعلم المدرسة الابتدائية وأستاذ الجامعة العناية بهما ماديا واجتماعيا وعلميا.

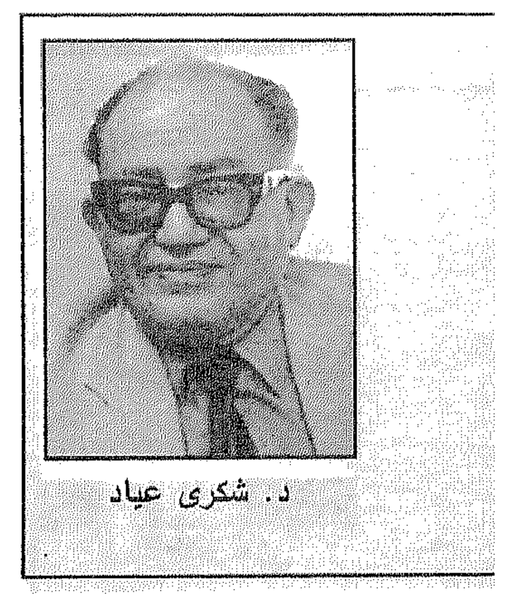
مع النهضة التعليمية الجادة والشاملة تتساقط الأوراق الصفراء والدعية فى حياتنا الثقافية وهى تسد الأفق الآن على خيار المبدعين ففى عالم الإبداع والفكر لا يبقى غير ما هو حق ولايخلد إلا ما هو جميل وأظن أن من الضرورى أن نواجه القرن القادم واصدار الصحف والمجلات متاح لمن يملك الوسيلة والأداة.

مرة أخرى : لا نهضة بلا تعليم راق وحقيقى !.

وخارج حقلى التعليم والثقافة هناك أشياء مبشرة بالتقدم ولدت بين فلاحى جنوب

الصعيد (وليس جنوب الوادى، لأن هذه تطلق جغرافيا وتاريخيا وقوميا على السودان) فقد غزوا الصحراء حولهم واستزرعوها ونجحت المحاولة وأثمرت محاصيل جيدة من شتى أنواع الفاكهة ... كل هذا دون عون من الحكومة أو تكليفها شيئا، وكل ما هو مطلوب أن ترفع البيروقراطية يدها وأن تهتم وزارة النقل بإيجاد الطرق الحديثة ليسهل الوصول إلى هذه الأمكنة ويتيسر لأهلها تسويق مايزرعون وسوف تمتد هذه المزارع مع القرن القادم حتى تبلغ حدود ليبيا ... لكى تمضى نهضة جنوب الصعيد قدما فإن المرء يأمل (ويخجل لأن هذا تأخر طويلا) أن تكون هناك مواصلات تكون على الأقل بمستوى هذه الأيام فى الوجه البحرى، فضلا عن مواصلات تتفق وتقدم القرن القادم: مطارات فى المدن الكبرى، هواتف لا تتعطل وتسمع، وقطارات سرعتها ٣٢٠ك/م فى الساعة كبقية العالم، وطرق متسعة وفى هذا الجانب لم تصنع الدولة فى جنوب الصعيد تقدما يذكر.

إن الصلة بين التقدم والحضارة ووسائل المواصلات لاتنفصم! لاتبنى الأمم بالأمل ولا الأحلام ولا الكلام وإنما بالجهد الشاق المتواصل ولايعطى المواطن كل ما عنده إلا إذا أحس بالعدالة والأمان، وأن الوطن يعطيه بقدر ما يأخذ منه وقبل ذلك أن يحس واقعا أن حرية الكلمة مكفولة وأن صوته الفيصل فى اختيار الحكام، وهما أمران جوهريان التحايل عليهما لا يجدى ومع فقدانهما تحل السلبية المقوتة المدمرة لكل تقدم ولكل عمل عظيم.


د. شكرى عياد

●●●

لست متفائلاً

● **يقول الدكتور شكري عياد :** لست متفائلا : فالتقدم الهائل الذى حققته العلوم الطبيعية خلال نصف القرن الأخير، سوف يكون على الأرجح بداية النهاية للجنس البشرى.

لقد قرأت مقالا لأحد علماء الهندسة الوراثية يقول فيه :

إن هذا الكائن - الإنسان - بحسب قوانين علم الوراثة لم يتعد مرحلة الشباب، ولكن مشكلة هذا الكائن أو مشكلة العلوم الطبيعية التى تدعى أنها قادرة على تفسير سلوكه، والتنبؤ بمستقبله هى أنه يملك دون غيره من الكائنات عقلا وإرادة، وأنه قادر بعقله وإرادته على أن يصنع شيئا يسمى الخير، وشيئا آخر يسمى الشر، وأن التمييز بين ماهو خير صالح، وما هو شر مهلك يرجع إلى شئ ثالث إسمه العدالة وبفضل العقل والإرادة أيضا أمكن للإنسان حتى الآن أن يحول الأشياء والكائنات إلى أدوات لتحقيق أغراضه، هذه الأغراض التى يمكن أن تكون خيرا ويمكن أن تكون شرا.

● مفتاح النهضة هو الارتقاء بالتعليم ولا نهضة بلا تعليم راق وحقيقى

والجنس البشرى الآن قسمان: قسم مسيطر على الأشياء والكائنات إلى درجة مكنته من أن يفكر ويخطط ويعمل للخروج من الكوكب الذى نبت من طينه إلى الكون العريض.

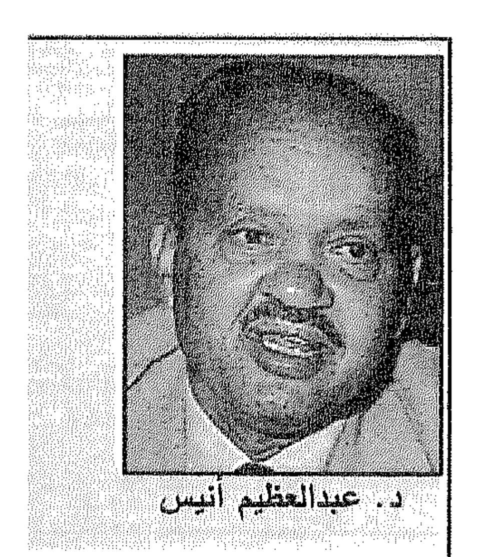
وقسم آخر دخل في جملة الكائنات التى سيطر عليها القسم الأول.

ونظرا لأن هذا القسم الثانى يمتلك هو أيضا عقلا وإرادة فإنه غير راض عن هذه الحالة، لذلك نراه كل يوم يطالب بالعدالة التى كادت تنمحى من فطرة القسم الأول لأنه لايهتم إلا بالمحافظة على قوته، ويسمى ذلك «المصلحة» وإذا استمرت العدالة غائبة عن العالم القوى المتقدم فلا يبعد أن يموت الإنسان فى حادثة رغم قوانين الوراثة !.

●●●

مشكلات فى التنمية !

● **أما الدكتور عبدالعظيم أنيس** فيشير إلي أن كل محاولة للتنبؤ بمستقبل وطن مثل مصر، أو لمجموعة من الأقطار العربية لابد أن تكون محاطة بكثير من التحفظات التى تشير إلى احتمالات وقوع أشياء فى القرن القادم، قد لانعرف عنها شيئا اليوم.


د. عبدالعظيم أنيس

ومن هذه الأشياء فى الجانب المتفائل، تطورات تكنولوچية باهرة تقلب الموازين الاجتماعية والاقتصادية رأسا على عقب وتدفع إلى تنظيم اجتماعى آخر غير هذه الرأسمالية المتوحشة التى نعرفها اليوم.

وفى الجانب المتشائم احتمالات انهيارات اقتصادية فى بلد قائد، أو مجموعة من البلدان تدفع بالملايين إلا مستوى الفاقة والجوع والمرض، كما يحدث اليوم فى بعض أقطار اسيا وتفتح الباب لثورات اجتماعية جديدة مما يطرح بالتالى قضية الاشتراكية مرة أخرى، وإن كانت ذات وجه إنسانى.

وحتى ندرك صعوبة الحديث الجاد عن المستقبل، يكفى أن نتذكر واقعة انهيار المعسكر الاشتراكى عام ١٩٨٩ وهو أمر لم يكن يخطر ببال أحد، وواقعة إنهيار اقتصاديات ما كان يعرف باسم «نمور اسيا» مثل كوريا الجنوبية وتايلاند واندونيسيا .. إلخ.

لذلك أفضل أن أشير إلي العوامل التى سوف تحدد فى رأيى مستقبل مصر فى القرن الواحد والعشرين، وفى مقدمتها، مصير الصراع العربى الإسرائيلى.

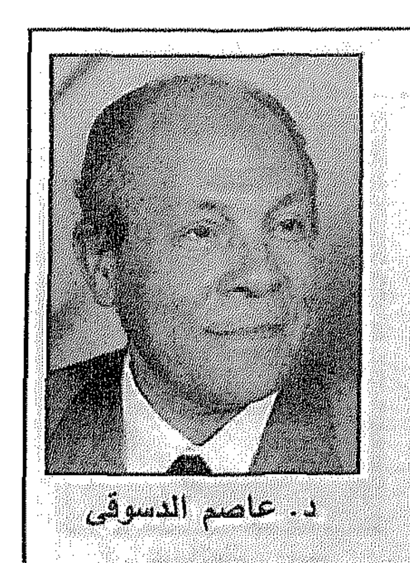
إننى أحد الذين لا يعتقدون أن الوطن العربى بما فى ذلك مصر، يسير إلى سلام

دائم مع إسرائيل فى السنوات القليلة القادمة، وذلك لاختلال الموازين العسكرية والاقتصادية وأيا كانت الاتفاقيات المعقودة، فإنها فى رأيى بمثابة هدنة مؤقتة، لا تلبث أن تنفجر الأمور مرة أخرى.

ولما كانت مصر هى قلب الوطن العربى، كان من الطبيعى أن يتأثر مستقبلها بمصير هذا الصراع.

والعامل الثانى الذى أود أن أشير إليه كعامل مؤثر فى مستقبل مصر، هو مستقبل التنمية الإقتصادية والإجتماعية.

وهناك من يعتقد أن مصر تسير اليوم بخطى حثيثة فى طريق التنمية، لكنى لست واحدا من هؤلاء وإننى أعتقد أن مصر لو استمرت فيما هى عليه اليوم، فإن مستقبل التنمية سوف يكون مليئا بالمشاكل الصعبة.. فالصادرات المصرية تتدهور عاما بعد عام والعجز فى الميزان التجارى ضخم، والاستثمارات الأجنبية فى القطاعات الإنتاجية لا تأتى كما ينبغى، والبطالة على عكس ما تزعم الحكومة تتفاقم، والفقر يزداد إتساعا، وكذلك الفساد والغنى الفاحش الذى لامبرر له !



د. عاصم الدسوقى

وفى هذا الجو المفعم بالفوضى، لا يرجى للتنمية أن تحقق الآمال التى نعلقها عليها وتنهار أمام أعيننا خدمات أساسية كخدمات الصحة والتعليم.

وإذا أردنا أن نحقق شيئا جادا فى القرن القادم، فلا مفر من رفع معدلات الإدخار إلى أعلى من النسب الحالية بكثير ولا مفر من وضع حد للفساد المستشرى فى قطاعى الحكومة والقطاع العام، ولامفر من عناية أكبر بالقطاعات الإنتاجية والصناعة ، خصوصا.

ومن الضرورى إعادة تنظيم البناء السياسى للدولة على أسس ديمقراطية بما يفتح الباب لتقدم حقيقى مع دعم الارتباط الاقتصادى العربى.

أما العامل الثالث كعامل مؤثر فى مستقبل مصر، فهو مدى إندماج مصر فى النظام الرأسمالى العالمى.

إن مصر تمضى فى هذا الطريق بخطى حثيثة عن طريق الخصخصة وبيع القطاع العام بما فى ذلك البنوك الرئيسية للأجانب وفتح باب المضاربة على أوسع نطاق والسماح للواردات الأجنبية أن تنافس الإنتاج المصرى ! .

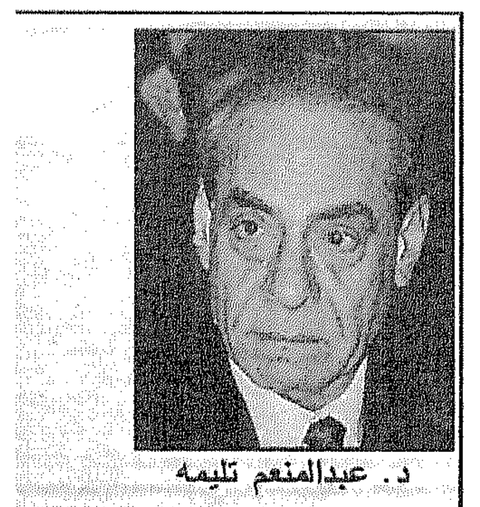
ولكن كل هذا يفتح باب تدهور الجنيه المصرى على أوسع نطاق فى المستقبل ويجعل مصير مصر مليئا بالمخاطر ولا حل لكل هذا إلا بالإعتماد على قاعدة التنمية المستقلة فى ظل وجود تكتل اقتصاد عربى يكون قادرا على حماية مستقبل الأقطار العربية فى

مواجهة التكتل الأوروبى والأمريكى والآسيوى .. هذه هى بعض العوامل الأساسية التى ستحدد مصيرنا فى القرن الواحد والعشرين.

● سيطلع علينا العلم فى كل يوم بجديد لم نتوقع تحقيقه أبداً.

حلم لوطن المستقبل !!

● **ويقول الدكتور عاصم الدسوقى:** إننى أحلم بأن تستقبل مصر القرن الحادى والعشرين وقد خلت عناوين صحافتها وأخبار اذاعاتها المسموعة والمرئية من أخبار «الفتنة الطائفية»، وأن جمهور منتدياتها الفكرية والإجتماعية قد انصرف عن تناول هذه الحوادث فى جلساتهم الخاصة، وأن الأحزاب السياسية قد اسقطت من برامجها عبارات «العمل على صيانة الوحدة الوطنية» وأن يسقط السياسيون والمفكرون من أدبياتهم عبارة «وحدة عنصرى الأمة على مر التاريخ»، وأن نتوقف عن اجترار وقائع ثورة ١٩١٩ حين تعانق الهلال والصليب فى مواجهة المحتل البريطانى والاسراع بتنظيم لقاءات بين شيخ المسلمين وبطريرك الأقباط بالقاهرة وبين سائر الشيوخ والقساوسة فى قرى مصر ونجوعها إبراء للذمة واظهارا لعمق الوحدة الوطنية !!.


د. عبدالمنعم تليمه

وأحلم أن يتوقف الدعاة عن استخدام مصطلح «أهل الذمة» الذى يشهرونه كلما وقعت الكارثة، وما يرتبط بهذا المصطلح من أحاديث: لهم ما لنا وعليهم ما علينا .. ومن آذى ذميا فقد آذانى .. ذلك أن الكلمات مهما كانت سامية قد فقدت معانيها من كثرة استخدامها دون تفعيل .. وان يتوقف السياسيون عن اشهار مواد الدستور الخاصة بمبادئ المساواة بين المصريين ذلك أن المشكلة تتعلق بالممارسات وليس بالمبادئ إذ لا قيمة للمبادئ ما لم تكن فاعلة ومطبقة ومحترمة .. وأن يكف الجميع عن التعامل فيما بينهم من واقع الاسم والدين وإلحاق صفات ذميمة وقبيحة باسم من يختلف فى العقيدة وتعطيل مصالحه بحجة أو بأخرى .. وأن ينصرف الجميع إلى شئون دنياهم بما تزخر به من هموم حقيقية تبحث عن حلول عاجلة تاركين الدين للديان جل جلاله، ومتمسكين بالوطن الواحد الذى هو التراب الذى نمشى فوقه، والهواء الذى نتنسمه، والنيل الذى يروى عطشنا وزروعنا، والسكن الذى نأمن فيه وقت الخوف، والملاذ الذى نحتمى فيه من غائلة الأعداء، والعزوة التى يستمد كل مصرى شخصيته منها .

إن هذا الحلم دعوة للتماسك الحقيقى لأبناء الأرض الواحدة ليتجاوزا الفروق المذهبية التى خلقوا بها ولم يكن لأحد خيار فيها، وأن يقدم المسلم المصرى والمسيحى

المصرى نفسه للآخرين بأنه مصرى وفقط.

ومن شأن هذا التماسك أن يبطل دعاوى القوى الخارجية المعادية فى تبرير التدخل فى شأننا الداخلى بحجة حماية الأقليات، ومن شأنه أيضا أن يفوت الفرصة على منظمات حقوق الانسان فى استخدام ذات الحجة ويجعل هذه المنظمات تتفرغ لمتابعة الأخطار الحقيقية على الإنسان المصرى فيما يتعلق بالحريات السياسية ومواجهة طغيان الصالح الخاص على الصالح العام الذى يؤدى الى اشاعة السلبية بين الغالبية. ومن شأنه أيضا وهو الأهم الغاء الوعى بالذات الدينية التى توجد سلوك التعصب الذى يعمى أصحابه عن رؤية فضائل من يخالفونهم فى العقيدة.

وليس هذا الحلم ببعيد .. ولكنه لن يتحقق بالاعتماد على النيات الصادقة والضمائر النقية على أهميتها، وانما لابد من إعمال سلطة القانون حتى تتحقق نقطة التوازن المنشود، وحتى تكون الممارسات امتثالا للقانون وتطبيقا للدستور الذى يساوى بين الجميع، وحتى تكون «المصرية» الثوب الذى يرتديه الجميع فى الحياة وفى الممات !!.

المستقبل كما يراه العلماء والأدباء والمفكرون

●●●

المشترك الثقافي الإنساني

يقول الدكتور عبدالمنعم تليمه: لم يعد المستقبل رجماً بالغيب، بل صار الطريق اليه ينهض على رؤى وخطط تعتمد الحقائق والنتائج والأسانيد .وفى رأيى أن مستقبل البشرية يتحدد بما يجرى اليوم على ظهر هذا الكوكب، وما يجرى هو عملية تاريخية عظمى، هى الأعمق والأهم فى تاريخ البشرية كله لهذه العملية آيات ولها خطوات آياتها أن نظاماً جديداً يتشكل لإعادة تنظيم الحياة البشرية وإدارتها على كوكب الأرض، وقوام الأمر أن العلم وتطبيقاته يتجه إلى أن يكون قوة الانتاج المهيمنة بما يعنى أن المعلومة ستكون أروج السلع وأهمها وقوامه أيضاً أن الإتصال وتدفقاته يتجه إلى عبور الحدود ومحو المسافات بما يعنى أن المحاورة - لا المصارعة - ستكون الأصل فى علاقات الشعوب والأمم والنحل والمذاهب والأديان والحضارات والثقافات وبما يعنى كذلك سقوط ثنائيات (شرق / غرب - شمال / جنوب) والتصنيفات اللونية للمجموعات البشرية (شعوب بيضاء، صفراء، سوداء).

هذه هى الآيات أما الخطوات التى تمت - بقريب من الاجماع - فهى : الاتفاق على أن التعدد الثقافى مصدر ثراء للمشترك الثقافى فى الانسان - اذا ما توجه هذا التعدد إلى التفتيش عن وجوه الاتفاق - وهى الأكثر والأعم - بدل الالحاح على وجوه الاختلاف

التى تبدد وتفرق ولهذا مغزاه ونتيجته وهو الإقرار بتعدد الأقطاب والمراكز والقوى الثقافية والحضارية والسياسية بما يفضى إفضاء إلى أفق ديمقراطى رنت اليه البشرية عبر تاريخها الطويل. والاتفاق على أن (البيئة) شأن بشرى عام ومسئولية جماعية ينهض بها الكل متعاونين وعلى أن السوق واحدة تعمل بآليات موحدة محددة، وعلى أن الصراعات والتناقضات يمكن علاجها بأسس سياسية وتمثيلية متوازنة عادلة تقوم عليها قوة مسلحة جماعية تحمى الأمن والسلام فى أركان الأرض الأربعة .نظام جديد يجرى تشكله لعالم المستقبل، وبدهى أن الأمر يستغرق زمناً حتى تستقر للنظام الجديد مفهوماته وتصوراته وسياساته وقواعده ومنظماته ومؤسساته، وبدهى أيضاً أن النظام القديم الآفل سيظل مقاوماً متشبثاً بآفاقه من المصالح المتناقضة والصراعات المحتدمة والتباينات الثقافية المتواجهة، حتى تسطع معالم الجديد ويقوم ميزانه.

● ستصبح مقاليد الأمور فى يد الأذكى عقلا لا الأقوى جسدا.


د. عبده بدوى

أين مصر من كل هذا ؟

مصر فى قلب العالم، لم تغب عنه يوماً منذ عرف للإنسان تاريخ، قانون وجودها التفاعل فى ذاتها وفى علاقاتها، التفاعل فى ذاتها بين عناصرها البشرية والثقافية المتعددة، والتفاعل فى علاقاتها مع كافة الشعوب والأجناس والأديان بيد أن لمصر المعاصرة عثراتها الجمة المعطلة، وإنما تصح حركتها إلي المستقبل بإعمال قانون وجودها التفاعل والتعددية: أن تتسع هويتها لمراحل تاريخها الفرعونية والقبطية والعربية والاسلامية، وأن تقل أرضها وتظل سماؤها قواها التاريخية، الليبرالية والاشتراكية والسلفية والقومية، وأن تزيل التناقضات الوهمية بين ثنائيات تعسة (قديم /جديد (أصالة /معاصرة – موروث/ وافد) – تنمية / حريات – خاص / عام استقرار /. استمرار ... الخ) وأن تتأسس خريطة علاقاتها على حقائقها الافريقية الآسيوية المتوسطية العالمية. وأن تحمل ألوية الغفران والتسامح بين كافة الملل والنحل والعقائد والأديان والشعوب والأمم حتى يتعادل صعود ايديولوجى مواز للصعود التكنولوجى الراهن.

●●●

ويقول الدكتور عبده بدوي : أعجبنى مقال للأستاذ فتحى رضوان أعيد نشره وكان عنوانه «المصرى الجديد فى العهد الجديد» وهو ينتهى إلى القول بأن المصرى

الجديد فى العهد الجديد هو المصرى القديم فالمصرى لم يتغير على الرغم من أمواج الفساد التى كانت تحيط به ، ذلك لأن هذه الأمواج كانت تتلاطم ، ولكنها تقف دائما بعيدة عن الجوهر ، وفى ضوء هذا لم تتغير نظرته فى الحياة ولا نظراته إلى الحياة .

فإذا أخذنا مثالا قريبا رأيناه فيما قامت به ثورة ١٩٥٢ ، فما أكثر التعديل الذى تناولها ، والذى أصبح يمثل الثورة على الثورة وإذا أخذنا مثالاً بعيداً بعض الشىء فى العهد التركى ، وجدنا الشعب هادئاً طوال قرنين من الزمان ، ولكنه فى عام ١٨٠٥ م رأيناه يزحف إلى المحكمة الشرعية ، ويهتف بكلمة واحدة هى «يسقط العثمانلى» وهو قد فعل هذا من قبل مع المماليك إلى حد بيعهم كالسلع فى الأسواق .. وفى كل عصر يتجدد هذا المثال بعقلانية ، ودون دماء !

المستقبل كما يراه العلماء والأدباء والمفكرون

فما يسيطر على الشعب كان الهدوء المتعقل ، وكان الصلح مع النفس والبعد عن «التوتر» بقدر الإمكان ، فلو كان التوتر يلزم عنه حدوث التغيير ، لوجب أن تكون قدرة التحرك الذاتى أصيلة فى المادة ، كما يذكر بعض الفلاسفة.

ولعل وراء هذا عقيدة المصرى التى كانت تميل إلى الجدل ، وترفض فى الوقت نفسه تضارب القوى واستمرار الصراع ، فما كانت تؤمن به كان «التدرج» فى كل شىء ، ثم إن السلوك كان يتفق مع «العقيدة» فى الغالب على نحو ما قرره أرسطو قديما .

.... من هنا يمكن أن يكون «القياس» فيما سيحدث فى القرن الحادى والعشرين ..

ففى القرن العشرين ، وقف على قمته بجدارة الأفغانى ومحمد عبده ، وكان الانفتاح المتعقل على الحضارة الغربية، وكان توالى قمم كبيرة كالعقاد وطه حسين وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ومطران وسلامه موسى واحمد حسن الزيات .. الخ كان وجود إنجازات متعلقة .. قد يطيش بعضها ، ولكنها لا تلبث حتى تستقر على الحق وعلى العدل، والوصول إلى سلوك جديد .. يتفق مع العقيدة ومع الجوهر المصرى ، فكما أن التاريخ لا يسمح بهروب الناس من تراثهم ، فهو لا يسمح بهروب الناس من مستقبلهم ، ومن ثم تكون المساحة الكبيرة ، للتعقل والتروى والتدرج ، ويكون التعامل مع الآخر على قدم المساواة ..

صحيح أننا فى فترة قريبة ارتبكت خطواتنا ، وأردنا أن نغير الآخر فجأة ، ولكننا عدنا إلى الطريق الصحيح ، فقد كان هناك إرهاص بأنه لا يحق إلا الحق ، وقد كان الحق، وكانت ظاهرة التدرج التى دندن حولها كثيرون فى مقدمتهم ابن خلدون ، والتى كانت أثيرة عندنا ، وستبقى أبدا .□

أقــوال معاصرة

● «نحتاج أحيانا لموتنا لندرك أننا كتاب»
الأديبة الجزائرية أحلام مستغنمي الفائزة روايتها،ذاكرة الجسد، بجائزة ،نجيب محفوظ،

● «الموت أمر مؤسف لأن العالم جميل أكثر مما نظن»
جوزيه ساراماجو
الكاتب البرتغالي الفائز بجائزة نوبل ١٩٩٨

● « الحرية بدون مسئولية تتحدر إلى فوضوية»
رود شتايجر
النجم الأمريكي الفائز بأوسكار أفضل ممثل (١٩٦٧)

● « الناس يريدون إدارة يشترون منها الخدمات بالضريبة، وليس بالرشوة والضريبة»
العماد إميل لحود عند تسلمه رئاسة لبنان

● «ترددنا يتسبب فى خسارتنا على كل الجبهات»
د. هنري كيسنجر
وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● «لم أقل قط أننا سنتبع سياسة خارجية تقوم على الأخلاق»
روبن كوك
وزير خارجية بريطانيا حاليا

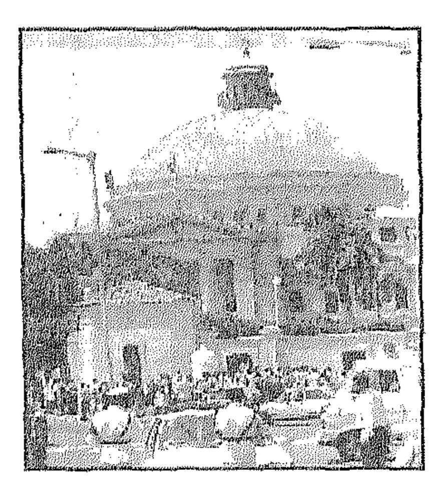
● «الحرية هى المبتدأ والخبر، القيمة والوسيلة، الحاجة والغاية فى آن واحد».
الكاتب اللبناني عصام نعمان

● «الإصرار على الصمود المزيف أحد أنماط التخلف»
الكاتبة الفلسطينية زها بسطامى

● ««يجب ألا يحتكر أي طرف الالم والفضيلة»».
من خطاب ،بيل كلينتون، امام المجلس الوطنى الفلسطينى


أميل لحود


سارا ماجو



التعليم الجامعى وتحديات المستقبل

بقلم : د. شبل بدران

يعد التعليم الجامعى - فى إطار السياسة التربوية الشاملة - من الأدوات التى تسهم فى تكوين الفرد والمجتمع وبلورة ملامحه فى الحاضر والمستقبل معاً، وضمان طرق التطور السليم للأمة فى مسيرتها نحو أهدافها فى التقدم والرقى فى مختلف ميادين الحياة، فهو السبيل الأكيد إلى إعداد القوى البشرية المتخصصة، وهو الذى يعد الباحثين الذين يسبرون أغوار المستقبل، وهو أيضا مبرز المواهب الفكرية والطاقات الخلاقة المبدعة التى تعطى الثقافة أبعادها، وتدفع بها نحو الابداع وتجاوز الواقع، إلى جانب أنه أيضا يمد الواقع الاجتماعى والسياسى بالقوى الوطنية والفكرية التى تعمل جاهدة فى سبيل التصدى لقضايا الواقع وطرح بدائل وتطوير هذا الواقع.

وهناك العديد من مظاهر أزمة التعليم العالى والجامعي والذى نقصده بمفهوم الأزمة، إنها أزمة على مستوى البنى والوظائف والأهداف، وأزمة معرفية أيضا من حيث أن ما يسود مناهج التعليم الجامعي من تخلف وركود، حيث لا تساير تلك المناهج المستجدات على الساحة المعرفية أو التقدم العلمي والتكنولوجي، فغالبية تلك المناهج ولاسيما في جانبها النظرى تعود إلى عقود كثيرة مضت ، وأن النظرية في تلك المجالات تكون قد تجاوزت بكثير ما يقدم لأبنائنا من معارف وعلوم وسنعرض هنا لبعض مظاهر تلك الازمة.

أزمة البنى :

يمثل التعليم العالى والجامعى بنى هرمية، تحتل الجامعة القمة فيه، وأن هذه القمة محكومة بما دونها من مستويات، وتعبر هذه الحقيقة عن نفسها فيما تعكسه الجامعات من خلال تنظيمها ووظائفها من خصائص ومشكلات نجدها ضاربة بجذورها في مراحل التعليم قبل الجامعي، ولاشك في أن كل المشتغلين بالعلم التربوى وبشأن التعليم الجامعي يعرفون ويفهمون ما يجرى من عمل وما يتم من إنجاز في التعليم قبل الجامعي.

وتأسيسا على ماسبق فإن الجامعة، كوجود منظم يمكن رصد مظاهره، حيث تتمحور حول بنية تابعة ينتظم ديناميتها ذات المنطق الذى يحكم ما دونها من بنى وأولى النتائج السلبية المرتبطة بهذه الخاصية البنيوية تتمثل في التحول التدريجي للممارسات الجامعية إلى ممارسات مدرسية لها ما للأخيرة من خصائص مشهورة ومؤكدة : تلقين، إستظهار آلى للمعلومات، حفظ، سلبية تامة من جانب المتعلمين في عملية التعلم، محتوى دراسى متخلف، تجاهل الواقع والاكتفاء بالكتاب الجامعي أو المذكرات ... إلخ ، وإلى جانب كل ذلك من الخصائص التى تسلب عملية التعليم كل قيمة ومعنى وتحوله إلى مجرد طعام لا يحقق الفائدة المرجوة منه لأكلة، من نمو وتطور وتقدم.

والنتيجة السلبية الثانية لتقوقع الجامعات في هذه البنى التابعة، تتمثل في العزلة التى تعيش فيها هذه المؤسسات داخل مجتمعاتها، وتحرم هذه العزلة الجامعة من أهم مصدر لتجديد محتواها وأدائها، وهو التفاعل الإيجابى مع قطاعات العمل والانتاج والتى ما تكون عادة دائمة المرونة والتغير والتطور وتفقد بذلك الجامعات قدرتها في توجيه النشاط داخل مجالات العمل والانتاج مكتفية بأن تطرح كل عام بألوف عديدة من شباب الخريجين إلى سوق العمل دونما مراعاة

للحاجات الفعلية لهذه السوق وما يتطلب من كفايات فى هؤلاء الخريجين، سواء على مستوى المعارف أو المهارات التى يتطلبها سوق العمل فى ظل سياسة إقتصادية جديدة تسعى إلى الخصخصة وتحرير الاقتصاد والاعتماد على المشروعات الانتاجية الصغيرة عالية التقنية والتكنولوجيا.

أزمة الوظائف :

تتمثل وظائف التعليم الجامعى فى ثلاث وظائف جوهرية : الأولى التدريس أو إعداد الكوادر والشباب لتولى دورها فى العملية الإنتاجية بعد التخرج، والثانية : البحث العلمى، والثالثة : خدمة المجتمع وتطويره من خلال خلق قنوات للتواصل بين مؤسسات التعليم الجامعى والمجتمع الخارجى. ونحن هنا لن نتعرض لتلك الوظائف جميعها، ولكننا سوف نقصر الحديث حول الوظيفة الأولى وهى التدريس أو إعداد القوى العاملة فى ضوء مستجدات العصر وتداعيات الثورة العلمية والتكنولوجية.

يمثل إعداد القوى العاملة فى مختلف التخصصات التى تؤهله للقيام بالأعمال التى يتطلبها سوق العمل، أهم وظائف الجامعة على الإطلاق، حيث تستحوذ من الجهود المبذولة والامكانات المتاحة على نصيب الأسد، ولا تكاد تترك للوظائف الاخرى شيئا ذا أهمية وأول علل هذا الإعداد تتمثل فى تأسيسه على مبدأ :

* **الفصل بين التعليم والعمل :**

ففى مختلف الكليات - باستثناءات قليلة - يتم إعداد الشباب والقوى العاملة داخل قاعات الدرس وأمام مناضد المخابر وبين جدران المكتبات دون أى اتصال بمجالات العمل الفعلية الذى من أجله يتم هذا الاعداد، ولايخفف من حدة العزلة بين الإعداد الجامعى ومجالات العمل التى يعد لها، ما تلجأ اليه بعض الكليات من اصطناع بيئات عمل مصغرة مزرعة، معمل، ورشة .. إلخ ، والسبب فى ذلك أن ما يجرى داخل هذه البيئات المصطنعة من طقوس مدرسية يختلف كما وكيفا عما يجرى فى مجالات العمل الحقيقى.

وأول ما يترتب على هذه العزلة هو حرمان الطلاب من أهم مقومات الاعداد المتميز وهى الخبرات العملية التى تسمح ممارسة العمل الحقيقى باكتسابها. بل أن المعلومات والحقائق التى يكتسبها الطلاب أثناء إعدادهم تظل - مع عدم الممارسة

للعمل – أفكاراً مجردة لا وزن لها ولا سبيل لادراك قيمتها طوال فترة الاعداد الجامعى.

كما يترتب على هذه العزلة مشكلة تتعاظم يوماً بعد يوم، وهى عدم قدرة خريجى الجامعة على الالتحاق بالعمل الذى أعدوا له والوفاء بمتطلباته مباشرة بعد التخرج، بل يحتاج الأمر أن تقوم الجهات التى سيعملون فيها بتنظيم برامج تدريب قصيرة المدى عدة أشهر أو طويلة المدى سنة أو أكثر كى يكتسبوا المعلومات والخبرات العملية اللازمة لممارسة العمل، ويكتشف الخريجون خلال هذه البرامج إنهم أضاعوا عمراً طويلاً بلا طائل بين جدران الجامعة وأن شطراً كبيراً من معارفهم وعلومهم فى الجامعة لا علاقة له بمتطلبات التخصص الذى أعدوا له.

كما تؤدى هذه العزلة من ناحية ثالثة، إلى جمود وتخلف محتوى الاعداد الجامعى فى مواجهة متطلبات سوق العمل الذى لايتوقف تعرضه لمحاولات التطوير والتجديد، ففى الوقت الذى يتعرض فيه هذا السوق لمحاولات تحديث أساليب تنظيم العمل ووسائل وأدوات الانتاج، تظل الجامعة حبيسة نظريات لم يعد لها القدرة على تفسير وإحتواء ما يجرى داخل هذه السوق، وقد أدى ذلك إلى ظهور البنى التعليمية الموازية للجامعة، والتى يلجأ إليها الخريجون ليتمكنوا من الحصول على فرص عمل من الأعمال الجديدة. ومن ذلك لجوء خريجى كليات التجارة – على سبيل المثال – لدراسة نظم تخزين المعلومات بالطرق الآلية، واستخدامات الحاسب الآلى وتصميم برامجه وإلى غير ذلك من التطورات الجديدة والتى لم يعدوا لها أثناء تعليمهم الجامعى.

* **إعداد للحياة بأسرها** : ومن أوجه قصور الإعداد الذى توفره الجامعة للطلاب والشباب، إرتكازه على القناعة بصلاحيته كى يستمر مع الطلاب والشباب طيلة عمره، فلا يحتاج بعد تخرجه إلى مزيد، ولانعرف جامعة عربية واحدة تأخذ فى حسابها فتح أبوابها أمام قدامى الخريجين ليجددوا ما أصابوا من العلم، وما اتقنوا من مهارات وما وعوه من خبرات، والشهادة الجامعية، كما نلاحظ فى بلادنا تضمن لحاملها أن يحتفظ بمكانه فى العمل حتى بلوغه سن المعاش واذا ما حدث – وذلك أمر نادر – إن

يحتاج صاحب الشهادة الجامعية حاجة الى اكتساب معرفة أو إتقان مهارة فإن ذلك أمر تتكفل به جهة العمل، وإعداد كهذا يؤهل لحياة بأكملها، يحكم على نفسه بالفشل وعدم المقدرة لمواجهة متطلبات سوق العمل والانتاج وحاجات مجتمع تلهبه سياط التطور من كل صوب.

* **التلقين** : ويستند الاعداد الجامعى إلى طريقة التدريس التقليدية التى إعتدنا أن نسميها «بالتلقين» وفيها يتم التعليم فى اتجاه واحد، من المعلم إلى المتعلم. وينحصر دور الأخير فى تلقى المعلومات والحقائق دون أن تتاح له فرصة مناقشتها أو فهمها فهما صحيحاً، ويتخذ التعليم فى الجامعة شكل المحاضرة التى تجسد هذه الطريقة أعظم تجسيد، وعلى أساس من هذه الطريقة لا تتكون لدى الطلاب الاتجاهات الايجابية نحو التعلم الذاتى ولايكتسبون المهارات اللازمة لذلك ومن ثم يفقد إعدادنا الجامعى مقوما مهما من مقومات التعليم الذى يحتاجه إنسان عصر يركض بخطوات عملاقة نحو التقدم، بل ويهدد من جهة المتعلم إمكانية تشكيل عقول شبابنا وإكسابها القدرات العقلية التى يستند إليها التفكير الصحيح والفهم المتسق والتوظيف الفعال للمعرفة وأخذ المبادرة والابتكار والخلق.

استنادا إلى ما سبق يمكننا أن نؤكد بدرجة عالية من الثقة، من أن تعليمنا الجامعى يعيش فى ثقافة الذاكرة ويكرسها ويدعمها، وتلك الثقافة تعتمد بالدرجة الأولى على مفاهيم مغلوطة عن الذكاء والقدرات العقلية، وتختزل التعليم فى عمليات التذكر والاسترجاع، وتلك العمليات ترتبط بالدرجة الأولى بنمط وأسلوب من التدريس هو التلقين، وكل من ثقافة الذاكرة، وتقنية التلقين فى غرس المعارف والعلوم فى عقول شبابنا تكرس نمطا من التعليم الجامعى لا يسعى ولا يعرف طريق تغيير الواقع أو الاستجابة لمستجدات العصر على الصعيد السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو الثقافى.

ثانياً: تحديات المستقبل

وتواجه الجامعة المصرية تحديات تربوية عديدة، تعوق حركتها وإنطلاقها نحو أفق من التحرر العلمى والمعرفى، وتلك التحديات متداخلة ومتشابكة، منها ما هو متعلق بالأهداف والسياسات، ومنها ما هو متعلق بالمحتويات الدراسية وطرائق التدريس وفنياته، ومنها ما هو متعلق

بالأبنية الجامعية والتمويل. والمسلمة التى ننطلق منها، هى تداخل وتشابك كل تلك التحديات بما يعنى أن مواجهتها تستلزم جهودا عديدة وجادة على الصعيدين السياسى والاقتصادى، وليس على الصعيدين التربوى والتعليمى فقط، لأن اختزال تلك التحديات فى بعديها التربوى والتعليمى يعنى بالأساس ضيق النظر والأفق فى فهم تلك التحديات وفهم المواجهة لها. ولعل أهم تلك التحديات التى تواجه الجامعة المصرية والتعليم الجامعى مايلى :

تخليص العلم من الخرافات :

لاشك أن العلم دين الانسان الحديث، ونجاح العلم خلال القرنين الاخيرين أمر لا مراء فيه، ويوحى بالرهبة، ولكن كما يعلمنا قانون حركة تطور المجتمع فإنه «لاشئ يخفق كالنجاح» لقد حقق العلم نجاحه بالاهتمام والتركيز على المشكلات أو المسائل التى يمكن استخلاصها من الواقع باستخدام عدد صغير من المتغيرات، أى أن نجاح العلم إرتبط بالاساس بمشكلات الواقع ومحاولة تجاوزها وكشف التناقضات أو رفعها، من هنا فإن تحدى تخليص العلم من أية خرافات تعوق مسيرته يعد أمراً جوهرياً، ومطلباً ملحا على الجامعة أن تتجاوزه.

وثمة دروس مهمة هنا للمؤسسة التربوية – الجامعة – فقد كانت الأجيال الماضية تتعلم مواضيع كهندسة «أقليدس» مع القناعة التامة بأنها كانت تمثل الحقيقة المطلقة. الآن نعرف أن هندسة «رايمان» و «لوبا تيشفان» صحيحة أيضا. وكل منها مبنية على مجموعة من البديهيات، لاتتفق مجموعة مع أخرى بالضرورة، بينما النظريات الناتجة عن ذلك لاتصح إلا بالنسبة لعلاقتها مع البديهيات المستعملة، وذلك يعنى أن العلم فى تغير ولا ينشغل بالحقائق المطلقة، بل هو يسعى إلى المعارف النسبية، وعلينا هنا أن ننشغل بتاريخ العلم وليس فقط بالنظريات العلمية مؤكدين أن الحقيقة نسبية ولا مجال فى العلم سواء على مستوى النظرية أو تاريخ العلم المطلق.

الإنشغال بالمستقبل :

هناك ضرورة حياتية لأن يكون المستقبل نصب أعيننا واهتمامنا، فمن الخصائص الانسانية عدم الاهتمام بالمستقبل، وتركيز الاهتمام على الحاضر والماضى، وبالمثل فإن الأحداث التى تجرى بعيداً عنا من ناحية المسافة أقل أهمية عندنا بكثير من الأحداث التى تجرى على مقربة منا. وبعبارة أخرى فإننا نسقط من الاعتبار أموراً زمنية ومكانية، هى

بالضرورة تؤثر فينا وترتبط مصالحنا بها بدرجة أو بأخرى.

وهذا الاتجاه معقول جداً ومقبول فى عالم غير مزدحم، بطئ التغير والحركة، أما فى عالم مزدحم سريع التغيير والحركة، فإنه اتجاه محفوف بالمخاطر والمحاذير، وهو عمل أشبه ما يكون بالنزول مسرعا ليلا عن طرق جبلية مزدحمة، ولكنها غير مضاءة وفى سيارة ذات أضواء أمامية خافتة.

زخم المعلومات والمعرفة المتجددة :

فى الماضى القريب كانت القدرة على السيطرة على الطاقة مفتاحاً للقوة. أما فى الغد فسيكون استخدام المعلومات هو السبيل الى السلطة (المعرفة قوة). وسيكون الفقراء والضعفاء أولئك العاجزين عن استغلال المعلومات أكثر من كونهم أولئك الذين تعوزهم موارد الطاقة والثروة المادية. وسيثبت أن دور التعليم فى تنمية القدرة على الوصول إلى المعلومات أكثر أهمية من دوره فى تقديم المعلومات الأساسية، حيث أن وسائل الاتصال والحاسبات تعد امتدادات للجهاز العصبى والدماغ عند الإنسان، وعلى هذا فهى أكثر أهمية من الأدوات الميكانيكية التى هى امتداد للعضلات والذراعين والساقين.

وفى المستقبل فإن الشخص المتعلم والعاجز عن الوصول الى المعلومات عن طريق الحاسب قد يكون معاقا كالأمى فى مجتمع صناعى، وخلال جيل من الآن فإن المنزل الذى يخلو من أجهزة الحاسب الآلى سيكون مماثلا للمنزل الخالى من الهاتف هذه الأيام. كما أن مكتبة أيامنا هذه ستكون فى متناول يد الفرد فى المنزل، تماما كالطقس وحالة الجو والوقت الذى نستطيع الآن معرفتهما بإدارة قرص الهاتف، ولعل ذلك يطرح التحدى التالى :

ماذا نعلم وكيف نتوصل ؟!

هل نستطيع أن نعلم أبناءنا ما لم نتعلمه نحن ؟ هل يستطيع الجيل الراهن أن ينتج معرفة جديدة من خلال نظام التعليم تبنى جيلا جديداً قادراً على الاستجابة لتحديات الواقع، تلك التحديات التى لم نستطع نحن أن نفهمها وندركها بصورة خلاقة ومبدعة ؟ هل تستطيع المعارف التى نعلمها لابنائنا فى جامعاتنا أن تؤهلهم لتجاوز واقعهم والإمساك

بتلابيب المتغيرات العالمية التى تدور حولنا؟

كل هذه أسئلة مشروعة، ومشروعيتها ترتبط بجديتها، وتلقى على النظام التعليمي مسئولية بناء وتكوين بشر قادرين على تجاوز الواقع والسعى نحو أفق من الفهم والادراك بآليات جديدة عن تلك التى عاشها جيلنا.

كل ذلك يقودنا إلى ضرورة إعادة النظر فى النظام التعليمي فى جامعاتنا ومعاهدنا ومدارسنا لانه نظام قائم على ثلاثية «التلقين والتذكر والذكاء» وهى ثلاثية غير قادرة بصورتها الراهنة للاستجابة لتحديات النظام التعليمي نفسه. وعند إعادة النظر، ستظهر أمامنا إشكالية قائمة بين انفجار المعرفة وانفجار السكان. فانفجار المعرفة نقلة كيفية، بينما انفجار السكان نقله نوعية، وهنا يثار سؤالان : ماذا نعلم فى ضوء انفجار المعرفة ؟ وكيف نعلم فى ضوء انفجار السكان ؟ .

وهنا ثمة مفارقة، وهى أننا نقول عن انفجار المعرفة أنه نقلة كيفية، والسؤال عنه كمى، ونقول عن انفجار السكان أنه نقله كمية والسؤال عنه كيفى وهل تلك الاشكالية بتداعياتها تعد عقبة فى حاجة إلى إدراك جديد ووعى جديد بدور التعليم وتكوين المعارف والنظر إلى الحقيقة ... إلخ .

إننا نطلب الكثير من الجامعة، فعليها أن تضطلع بدورها الرئيسى والتقليدى المتمثل فى إعداد الكوادر وتدريب الأطر، ويفترض فيها تشجيع تكافؤ الفرص التعليمية بفتح أبواب التعليم العالى والجامعى أمام الفئات الاجتماعية الاقل حظا من السكان ، وكذلك ينتظر منها أن تسهم فى توسيع حدود المعرفة عن طريق بحوث رفيعة النوعية والجودة، وأن تخدم الاقتصاد الوطنى من خلال بحوث ودراسات تنفع الصناعة والتجارة والزراعة.

إن الأعباء الملقاة على عاتق الجامعة كبيرة وكثيرة، ولذلك فإن الخروج بها من مأزقها ليس مقصوراً على المشتغلين بالعلم التربوى والخبراء، ولكنه يجب أن يكون حد الشواغل الأساسية للعمل الوطنى من جميع قوى المجتمع التى تسعى نحو تغيير الواقع الى واقع أفضل يحقق مصالح الغالبية من الناس ويسعى لايجاد مكان لوطننا تحت الشمس، وذلك من خلال مشروع وطنى يصوغه ويحمله على اكتافه الوطنيون والمثقفون، وليس من الجهاز البيروقراطى المسئول وظيفيا عن نظام التعليم □

١٩٩٩ آفاق المستقبل
نحو القرن الـ ٢١

نحن والبيئـــة الإجتمـاعية

بقلم

د . مصطفى سويف

يشير مفهوم البيئة أساسا إلي سياق العوامل المحيطة بالكائن الحي والتي تؤثر فى بقائه وفيما يطرأ عليه من تغيرات في اتجاه النمو أو التدهور . وعندما نتحدث عن هذا السياق بالنسبة للإنسان بوجه خاص فلابد من التفرقة في الذهن بين وجهين رئيسيين لهذه البيئة ، هما الوجه الطبيعي (أو الفيزيقي/الكيميائي) والوجه الاجتماعي .ومع أن الوجه الطبيعي بالغ الأهمية بالنسبة للإنسان ، وخاصة في أمور الصحة والأمراض البدنية ،وهو ما يستثير معظم الكتابات والتعليقات الإعلامية لدينا في السنوات الأخيرة ، فإن الوجه الاجتماعي (للبيئة) لا يقل عن ذلك أهمية ، ومن ثم لا يجوز إغفاله في الدعوة إلي العناية بالبيئة .

ولا يجوز التهوين من وزنه في هذا الصدد لأن هذا التوجه (بالإغفال أو التهوين) من شأنه أن يعود علينا بعواقب وخيمة ، لا تقل في وخامتها عما يترتب علي إهمال شئون البيئة الطبيعية ، وإن اختلفت في نوعيتها وجدير بالذكر هنا أن اهتمامنا بالوجه الطبيعي للبيئة جاء متأخرا عدة عقود ، وجدير بالذكر أيضا أننا اعتدنا نمط البدء المتأخر في مجالات أخري كثيرة من مجالات الإصلاح فهلا بدأنا مراجعة هذا النمط والخروج من أسره ونحن بصدد مطلب العناية بأمر البيئة الاجتماعية الآخذة في التردي بسرعة متنامية ، حتي لقد أصبحت أحاديث المواطنين في جدّهم وفي لهوهم لا تخرج معظمها عن الشكوي من منغّصات لا حصر لها تطفح بها هذه البيئة ؟! .

ولما كان هذا الموضوع بالغ التعقيد كما أنه زاخر بعناصر تكاد لا تقع تحت حصر ، فقد رأيت أن أقدم فى المقال الراهن إطارا يساعدنا في تنظيم رؤيتنا . ومن ثم يعينـنا على الإلمام بأطراف الموضوع من ناحية وبجزئياته ودلالاتها من ناحية أخرى .

الأبعاد الرئيسية للبيئة الاجتماعية :

يمكن النظر الى البيئة الاجتماعية من زوايا متعددة ، من هذا القبيل مثلا زاوية النظر التى تغلّب أمور الصحة والاضطرابات النفسية ، وفى هذه الحال يكون السؤال الرئيسى الذى يشغل الدارس هو : إلى أى مدى تبدو هذه البيئة بظروفها الراهنة ملائمة أو مواتية لمقتضيات الصحة النفسية بالنسبة للمقيمين فى رحابها ؟ ومن هذا القبيل أيضا زاوية النظر التى تهتم بالجوانب التاريخية ، وفى هذه الحال يتساءل الباحث أساسا عن التغيرات أو التطورات التاريخية الكبرى التى مرّت بها هذه البيئة على امتداد القرن العشرين أو على أى امتداد زمنى يمليه موضوع البحث أو البحوث التى تشغله . وهناك أيضا زاوية النظر التى تهتم بالجوانب الاقتصادية وما فرضته وما تفرضه علي هذه البيئة من تشكيل . وهناك زوايا أخرى كثيرة غير هذه وتلك، ويتوقف أمر الاختيار بين هذه الزوايا فى نهاية المطاف على وجهة الاهتمام التى يتابعها الكاتب أو الدارس أو المصلح أو المخطط الذي يعنيه الأمر . وما يعنينى فى هذا المقال هو زاوية النظر التي تعنى بأمور الصحة والمرض النفسى، وهو ما يملى طبيعة الإطار الذى أرجو أن أقدمه للقارىء فى هذه الجولة ، متمثلا فى أبعاده الرئيسية التى من شأنها أن تعيننا على الخروج برؤية لجزئيات الموضوع واضحة المعالم والدلالات .

النقطة المركزية فى هذا الإطار هى ما نسميه وَقْع البيئة الاجتماعية على الفرد. والمقصود بالوقْع هنا الإشارة إلى التأثير فى جملته من حيث ثقله ، وطبيعة مفرداته والقالب الذى تنتظم فيه هذه المفردات . ونحن نتكلم عن الفرد هنا لأن مفاهيم الصحة والمرض وما يتداعى عنهما هي مفاهيم نستخدمها لوصف أحوال الفرد أساسا ، وإن كنا نستخدمها أحيانا على سبيل المجاز لوصف أحوال المجتمع أو بعض التجمعات الصغيرة نسبيا .

نحن والبيئة الاجتماعية

والمهم إذن أن نتنبه إلى أن نقطة البداية المنطقية لموضوعنا هى إبراز أن مركز الإطار الذى نحن بصدده هو وقع البيئة على الفرد . من هذا المنطلق نجد أن الأبعاد الكبرى للإطار الذى يلزمنا لفهم أمور البيئة الاجتماعية ، وتقدير أوزانها ، والتمهيد بذلك لحسن معالجتها هى الأبعاد المتصلة بشكل مباشر أو غير مباشر بأمور الصحة النفسية سلبا أو إيجاباً .

وفى هذا الصدد نجد أنفسنا بصدد أبعاد ثلاثة رئيسية ،هى : بعد الأمان أو الاطمئنان فى مقابل التهديد ، ويقصد به الجانب من البيئة الذى نرى فيه تأثيراتها متفاوتة فى شدة وقعها ومعناها على الفرد وقد تدرج هذا التفاوت والتنوع على طول المسافة بين قطبين أحدهما يثير مشاعر الأمان والاطمئنان والآخر يثير مشاعر التهدد والتوجس أو توقع الأذى فى كل لحظة. والبعد الثانى هو بعد الإشباع والارضاء فى مقابل الاحباط والتثبيط، وهو البعد الذى نرى من خلاله تأثيرات هذه البيئة على الفرد وقد شغلت فى تنوعها مواضع مختلفة على امتداد ما يشبه أن يكون تدريجا متصلا بين أعلى درجات الارضاء والاشباع من ناحية وأسوأ درجات الاحباط والتثبيط من ناحية أخرى. والبعد الثالث هو بعد الاعلاء فى مقابل الحط والتهبيط، وهو ينتظم مختلف التأثيرات التى تتراوح بالفرد بين الارتقاء سلوكا وشعورا من ناحية والهبوط والتدنى سلوكا وشعورا كذلك. هذه هى الأبعاد الثلاثة الرئيسية التى أكرس هذا المقال للحديث عنها. وجدير بالذكر أنها أبعاد ذات طبيعة خاصة، ونحن نحدد هذه الطبيعة بأنها «علائقية»، أى أنها أبعاد تقدم لنا البيئة الاجتماعية من حيث علاقاتها الرئيسية بالفرد، وهو ما تمليه مسألة النقطة المركزية للاطار. وجدير بالذكر أيضا أنه يمكن الحديث عن أبعاد أخرى لهذه البيئة لها معناها كذلك بالنسبة للصحة والمرض، ولكننا نقتصر على تقديم هذه الأبعاد الثلاثة لأنها فيما نرى أهم الأبعاد وأرسخها فى هذا المجال.

وفيما يلى من الفقرات نلقى مزيدا من الضوء على حقيقة هذه الأبعاد، ونرجىء الحديث إلى فرصة أخرى عن الكيفية التى

تؤثر بها البيئة الاجتماعية فينا بالصحة والمرض، والسبيل إلى الاستعانة بهذه الأبعاد فى فهم هذه التأثيرات.

الأمان والاطمئنان في مقابل التهديد:

يمكن التمييز بين ثلاثة مصادر رئيسية فى بيئتنا الاجتماعية تنهال منها التأثيرات التى تتوزع على هذا البعد، وتقع معظم هذه المصادر خارج بيوتنا، فى الطريق العام، أو عند اتصالنا ببعض المؤسسات العامة، والحادث أن معظم ما نتلقاه هو التأثير المهدد لكياننا ويمكن التمييز بين نوعين من المصادر فى هذا الصدد، مصادر للتهديد المباشر ومصادر للتهديد غير المباشر. ومن أوضح وأهم مصادر التهديد المباشر الآن فوضى المرور فى شوارع عاصمتنا وسائر المدن الكبرى. فهى تثير طوال الوقت عند الراجلين والراكبين توقعا حادا بوقوع الأذى العنيف قريبا إن لم يكن فى التو واللحظة، ويكفى فى هذا الصدد أن نلاحظ الممارسات الشبابية فى قيادة السيارات والدراجات البخارية، فإذا أضفنا إلى ذلك ما نعلمه من أن نسبة لا يستهان بها من بينهم يكونون أثناء هذه القيادة تحت تأثير المخدرات أو الخمر، واذا أضفنا كذلك أن معظمهم يكتمل استمتاعهم بهذه القيادة وهم يستمعون إلى الموسيقى الصاخبة، وإذا أضفنا أيضا أن هذا النمط من قيادة السيارات ليس قاصرا على الشباب الذكور بل أصبح شائعا كذلك بين الشباب والإناث، بل وقد أخذ فى الآونة الأخيرة يشيع بين من تعدوا سن الشباب من الجنسين تحققنا وتأكدنا من أن مشاعر التهديد صادقة وليست مجرد أوهام فى نفوس أصحابها وهم الكثرة من المواطنين. ولا تقتصر فوضى المرور لدينا على استثارة مشاعر التهديد هذه، ولكنها تستثير بالاضافة إليها مشاعر القلق عند أعداد كبيرة من أن الموقف سوف يستتبع غالبا تعطيلا لهم عن قضاء حاجاتهم على اختلاف أنواعها وإلحاح كل نوع منها.

فإذا تركنا موضوع فوضى المرور وما يترتب عليها فالموضوع الذى يليه ويفرض نفسه علينا مباشرة هو ازدحام المواصلات العامة وما يترتب على هذا الازدحام من عدوان مزعج وقبيح على الكرامة الجسمانية للمواطنين المضطرين إلى ركوب هذه المواصلات، وهم الأغلبية. ومن هنا أصبحت هذه المواصلات العامة

نحن والبيئة الاجتماعية

بحالتها هذه من الازدحام القبيح مصدر عدوان على المواطن العادى وتهديداً مباشراً بمزيد من العدوان. وإذا تركنا موضوع ازدحام المواصلات العامة هذا إلى غيره التقينا مباشرة بموضوع زيادة التنبيهات السمعية والبصرية أضعافا مضاعفة عما تسمح به مقتضيات الصحة النفسية، وقد تضاف إليها تنبيهات شمية كريهة ومؤذية (مما يصدر عن بعض الورش والمصانع المنتشرة عشوائيا فى أنحاء المدينة)، فإذا تركنا هذا الموضوع كذلك إلى غيره التقينا فى التو بما هو أسوأ منه وهو الانخفاض الشديد للإضاءة فى عدد لا يستهان به من الشوارع ولا يقتصر الأمر على شوارع فى الأحياء الجانبية أو الضواحى من المدينة ولكنه يمتد ليشمل العديد من الشوارع فى قلب العاصمة، وحيث ينتشر الظلام يسود الخوف ويخرج علينا بالفعل ما يبرر هذا الخوف. هكذا تقوم لدينا أربعة مصادر للتهديد المباشر بأنواع خطيرة من الأذى يواجهها المواطن بشعور التوقع أو التهيب الذى لا يكاد يفارقه، هذه المصادر هى فوضى المرور، وازدحام المواصلات العامة، وطوفان المنبهات السمعية والبصرية المزعجة فى الطريق العام، وضعف الاضاءة فى كثير من الطرق حتى فى قلب العاصمة.

وهناك مصادر أخرى للتهديد غير المباشر، من هذا القبيل أخبار حوادث البلطجة، وحوادث خطف الإناث، والتسمم الجماعى لأعداد كبيرة من تلاميذ وطلاب الجامعات، وسقوط العمارات على ساكنيها، واستيراد وتخزين الأطعمة الفاسدة.. إلخ . هذه الأنباء كلها تثير أول ما تثير فى ذهن من يقرأ عنها فى صحافتنا أو يعلم أيا كان مصدر علمه، تثير فى الذهن شعورا مقبضا بأننى ربما أصبحت واحدا من ضحاياها فى المرة القادمة، أو ربما أصبح أبنائى أو بعض أعزائى من بين ضحاياها فى المرة القادمة. من هنا كان تصنيفها على أنها من مصادر التهديد غير المباشر، ولا يعنى ذلك بالضرورة أنها أقل أذى فى وقعها على النفوس من مصادر التهديد المباشر. هكذا تتبلور أمامنا حقيقة هذا البعد من أبعاد بيئتنا الاجتماعية: التهديد فى مقابل

الأمان والاطمئنان.

الإشباع فى مقابل الإحباط:

الأصل فى علاقة الانسان بالبيئة أنها الملجأ الأول والأخير أمامه لقضاء حاجياته التى تضمن استمرار بقائه، ومن خلال هذه الصيغة نفسها نفهم الوظيفة الأساسية للشق الاجتماعى من هذه البيئة، فقد كان هذا الشعور ولايزال وسيظل هو الشرط الرئيسى لبقاء الانسان، لأن هذا الشق هو أخطر الأدوات التى استعان بها لتطويع البيئة ولإعادة خلقها بحيث تقترب شيئا فشيئا من أن تصبح من صنعه. فإذا كان هذا هو التوجه العام الذى فطرت عليه علاقة البيئة باحتياجات الانسان فلنا أن نتصور إلى أى عمق فى نفس الإنسان المصرى يصل الأذى الذى يترتب على كون بيئتنا الاجتماعية تزداد جنوحا إلى أن تصبح محبطة أكثر منها مشبعة لاحتياجاتنا. ولا أظن أن هذا المعنى يحتاج إلى إطالة فى الشرح أو إسهاب فى التفصيل. ولذلك أكتفى هنا باشارات موجزة إلى بعض المظاهر التى قلبت العلاقة بيننا وبين بيئتنا بحيث كادت هذه العلاقة أن تصبح فى أساسياتها مجلبة للإحباط أكثر منها للإشباع، وللتثبيط أكثر منها للتشجيع.

وفى هذا الصدد فإن أسبق الأمور إلى الظهور على صفحة الوجدان موضوع انهيار الخدمات، بدءا بالكهرباء والتليفونات وانتهاء بخدمات الشرطة إذا ما فكر المواطن فى الاستعانة بها طلبا للنجدة من طارىء وقع عليه من حيث لا يحتسب أو طلبا لأداء خدمة روتينية. أقول هذا الكلام وأنا وغيرى نعلم أن معظم القيادات الحكومية لا يرحبون به، وربما أنكروه أحيانا وقد يكونون إذ ذاك على صواب ولكن هذه الأحيان التى يصيبون فيها تكون دائما مؤقتة ومحدودة، إذ لا تلبث جهودهم أن تتبخر وتعود الخدمة المعنية إلى سابق قصورها أو إلى أنواع أخرى جديدة من القصور، وهذا ما يجعل الشعور بالاحباط أقسى على المواطن ويدفعه دفعا إلى درجات مؤسفة من التشاؤم والتبشير بمزيد من التشاؤم.

وقريب من موضوع انهيار الخدمات فى استثارة الشعور بالاحباط مصدر آخر وهو ما نسميه تأدبا باسم «الكلام الكبير»، وهى كناية عن أن وعوده قلما تتحقق، ومما يؤسف له أن صحافتنا (حتى الصحافة الوقورة) لا تكاد تخلو يوما من

نحن والبيئة الاجتماعية

هذا النوع من الكلام على لسان هذا المسئول أو ذاك، ولو قيض لى أن أقدم المشورة الأمينة لهؤلاء المسئولين فى هذا الشأن لأوصيت مخلصا بالاقتصاد الشديد فى الإدلاء بمثل هذا الكلام، لأن من أهم نتائجه على المدى البعيد مزيد من شحن المواطن بمشاعر الاحباط التى تنتهى بالبعض إزكاء مشاعر الغضب المكتوم، وبالبعض الآخر إلى مشاعر التبلد واللامبالاة، والخاسر فى نهاية الأمر هو المستقبل متمثلا فى أبنائنا.

وأخيرا وليس آخرا فإن أسوأ ما ينتظم على بعد الاحباط الذى نحن بصدده أمران تغلب عليهما الملامح السياسية، هما تقلب السياسات بتغير الرئاسات، وندرة المشاركة (وأكاد أقول إنعدامها) فى صنع القرارات، كبيرها وصغيرها، ومن أسف أنه لا منظومات العمل لدينا ولا أساليب العمل داخل هذه المنظومات تحتوى على العناصر اللازمة لتصحيح هذا الوضع (الخاص بصنع القرار)، مما يجعل الأمل فى التخلص من أضرارها بعيد المنال.

الإثراء والإعلاء في مقابل الإفقار والتهبيط:

ونأتى الآن إلى البعد الثالث من أبعاد بيئتنا، وهو الجانب الذى يتعامل مباشرة مع قيمنا. والخطير فى أمر القيم أنها هى المبادىء الأساسية لتنظيم سلوكياتنا، بإجازة ما يجوز والحيلولة دون ما لا يجوز بأوسع معانى هذا التعبير، وهى بذلك الأصل النفسى الاجتماعى لنشوء مفهوم القانون، ولكن قيام القانون ورسوخه كمؤسسة لم يكن ليستنفد مبررات استمرار عناية الانسان حيثما كان بمنظومة القيم ككيان نفسى يحتكم إليه فى أمور لا يطالها القانون وأمور لا شأن للقانون بها. وهذهِ وتلك أكبر من حجمها وأثقل فى وزنها كثيرا من العالم الذى يحكمه القانون. لهذه الأمور ولكل ما يترتب عليها من نتائج لا آخر لها كان واجبا علينا أن نهتم أعظم الاهتمام بوجه البيئة الاجتماعية الذى يتعامل مباشرة مع هذه المنظومة فى نفوسنا. من زاوية النظر هذه نستطيع أن نتعرف ما هى الكيانات والنشاطات التى ينتظمها هذا البعد. فهى كل ما يتعلق بمفهوم الثقافة بأوسع

وأضيق معانيها، بموروثها ومستحدثها. ولا جدال فى أن أوضح الكيانات وأبرز النشاطات فى هذا الصدد إنما يتمثل فى كل ما يجسد الفنون بأنواعها المختلفة حديثها وقديمها، كالمسارح وما يدور فيها، والمتاحف والمعارض وما يقدم فى رحابها، وقاعات الموسيقى، ودور السينما، والإذاعة المسموعة والمرئية، وقاعات اللقاءات الثقافية وما تحفل به من أحاديث ومناقشات ينتهى بها المطاف غالبا إلى إدخال أقدار من الدعم وأقدار محدودة من التعديل والتطوير على منظومة القيم التى تحكمنا. هذا هو الفلك الذى يحيط بالبعد الذى نحن بصدده. والسؤال المطروح هنا هو: ما الذى يغلب على ما يدور فى هذا الفلك؟ ومفردات هذا السؤال هى: إلى أىَ مدى تآكل المسرح الجاد لحساب المسرح غير الجاد (أو بالأحرى غير المحترم)؟ وماذا عن دور السينما وما يعرض فيها؟ وماذا عن قنوات الإذاعة المرئية وقد تضخمت كأوعية ديناصورية؟ ماذا يملأ جوف هذه الأوعية؟ ولماذا التدنى الفنى فى معظم المسلسلات العربية؟ والسوقية فى الإعلانات التجارية؟ والعنف والجنس فى المسلسلات الأجنبية؟ واستبعاد معظم العروض الفيلمية الجادة (على ندرتها) بعيدا عن ساعات الذروة؟.... لا أريد أن أسرف فى الحديث بهذه الصورة، لأن ما أتحدث عنه معروض أمام عقولنا وأذواقنا تفصيلا. ومن الخير فى مثل هذه الأحوال أن نعمل بالحكمة القائلة: «خير الكلام ما قل ودل». ولكن ما يحيرنى حقا هو التردد بين بديلين لوصف المشهد كما أراه، هل أصفه بأنه يتجه إلى مزيد من الإفقار والتصحر الثقافى، أم إلى مزيد من التهبيط والتلوث القيمى؟ كلا البديلين مر وإن قريبا من الحقيقة، وأمر منهما معا أن أضطر إلى الشهادة بأن طوفان التدنى يزداد مع الأيام اندفاعا واتساعا. هذا هو حال البعد الثالث الذى يتعامل مع قيمنا.

خلاصة القول:

إننى حاولت أن أقدم فى هذا المقال مفهوم البيئة الاجتماعية لكى يحتل المكانة اللائقة به من يعنيهم الأمر إلى جانب ما يلقاه مفهوم البيئة الطبيعية (ولو على مستوى الكلام). وقد حرصت فى هذا الشأن على أن أقدم المفهوم من خلال إطار يمكننا من شمول النظرة دون الضياع فى خضم الجزئيات التفصيلية. ويبدو من هذا الإطار أن ظروف البيئة الاجتماعية لدينا تدفعها دفعا (رغم جهود القلة الواعية) إلى الاقتراب المتنامى من الأقطاب السلبية على أبعادها الثلاثة: أقطاب التهديد، والإحباط، والتهبيط.

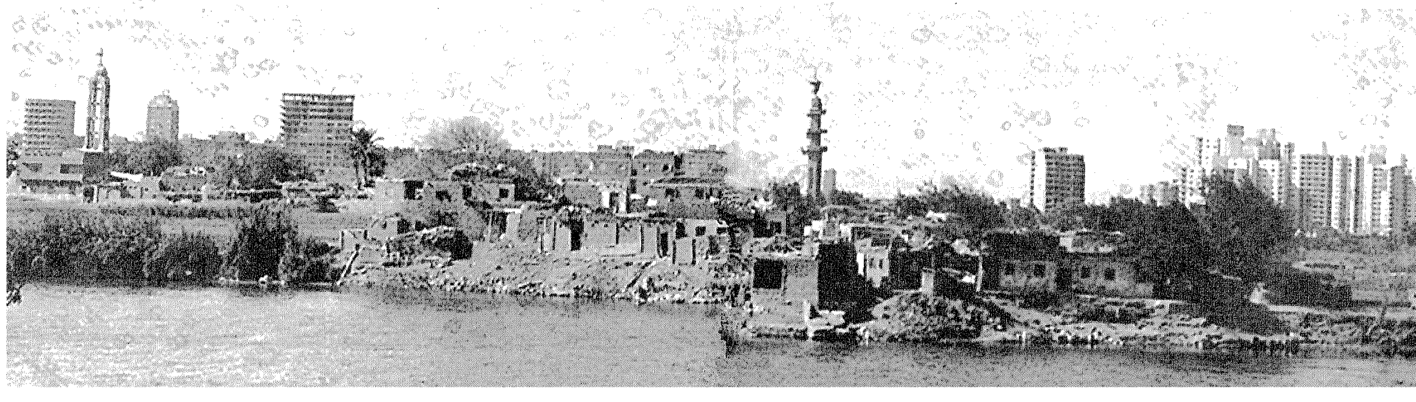
المياه واحتمالات المستقبل

بقلم : د. رشدي سعيد

تقع منطقة الشرق الأوسط فى حزام الصحارى المدارية التى لا تطولها أمطار كثيرة ولا تجرى بها أنهار ذات تصرف يذكر والقليل من الأنهار الكبرى التى تشقها تنبع من خارجها ومن مناطق لا تقع تحت سيطرتها. ولذا فقد كان الصراع على مصادر المياه العذبة فيها من أهم العناصر التى كيفت حياتها وشكلت تاريخها - وقد تصاعد الصراع فى العصر الحديث مع تزايد السكان وتزايد الطلب على المياه. وكما سنبين فى هذا البحث فإن المستقبل سوف يحمل من المخاطر ما يمكن أن يكون تحدياً للبقاء ذاته.

ولكل البلاد العربية وباستثناءات قليلة مشاكل كبرى تتعلق بتأمين المياه العذبة الكافية لحاجات سكانها - وفى هذه المحاضرة سأقصر حديثى على مشاكل المياه فى بلاد الشام فقط والمقسمة فى الوقت الحاضر إلى خمس دول هى سوريا ولبنان والأردن واسرائيل وفلسطين وذلك لإلحاح هذه المشاكل ولخطورة ما يمكن أن يحمله عدم مواجهتها من معاناة وعواقب - ولا تختلف مشاكل المياه فى هذه الدول عن مشاكل الدول العربية الأخرى إلا فى درجة إلحاحها ولذا فإن الحديث عنها يمكن أن يتخذ مثالا لما يمكن أن يحدث للكثير من الدول العربية المجاورة.

وليس الحديث عن مشاكل المياه بجديد فقد أصبح محل اهتمام الكثيرين منذ انعقاد مؤتمر مدريد للسلام فى أعقاب حرب الخليج ووضعه لهذه المشاكل على جدول أعمال إحدى اللجان الثنائية التى انبثقت منه - وكنت شخصيا واحدا ممن اهتموا بهذه القضية منذ وقت طويل وألقيت بشأنها محاضرة بجمعية الاقتصاد السياسى والتشريع بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٩١ نشرتها فى مجلة الاهرام الاقتصادى ثم أعدت نشرها فى كتابى «الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى» الذى صدر عن دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٩٦ - يمكن للراغب فى معرفة الحقائق الأساسية عن كمية المياه المتاحة لبلاد منطقة الشرق الأوسط واستخداماتها أن يعود إليها بل وإلى العديد من المراجع والكتابات عن هذا الموضوع الذى أصبح اليوم شائعا ومعروفاً. ولذا فلن أخوض فيه وسأقصر حديثى على احتمالات ما يمكن أن يحدث لبلاد المنطقة نتيجة الصراع الذى أتوقع له



أن يتزايد مع مرور الأيام على مصادر المياه المحدودة بمنطقة الشرق الأوسط وعلى الاختيارات المطروحة أمام دول هذه المناطق لتفادى مصيرها المحتوم لأنها أجلت أو أهملت اتخاذ القرارات المناسبة لتفادى هذا المصير.

إسرائيل تسيطر على مصادر المياه

ولمشكلة المياه فى منطقة الشام خصوصية معينة بسبب بروز الدور الكبير الذى تلعبه اسرائيل فى ترتيب مصائرها وفى السيطرة على مصادر المياه فيها وتوجيه الجزء الأكبر منها إليها دون مراعاة لحقوق الدول الأخرى التى تشاركها فيها. وقد أتاحت حرب سنة ١٩٦٧ الفرصة لاسرائيل لمد سيطرتها على معظم هذه المصادر فقد استولت خلالها على الضفة الغربية التى تنساب من تحت أرضها المياه الأرضية ناحية اسرائيل ومنعت أهل الضفة من دق آبار جديدة أو سحب المزيد من المياه من الآبار القائمة لضمان وصولها إليها وللمستوطنين من الاسرائيليين الذين تزايدت أعدادهم فيها منذ سنة ١٩٦٧ حتى بلغوا قرابة المائة وخمسين ألفا فى سنة ١٩٩٧. كما استولت على هضبة الجولان التى تقع فيها منابع نهر بنياس أحد روافد نهر الأردن ولم يبق من روافد هذا النهر خارج سيطرتها غير نهر الحصبانى الذى تقع منابعه فى لبنان وإن كان الجزء الأكبر من مجراه قد سقط فى أيدى اسرائيل بعد هذه الحرب، أما منابعه فقد كانت ولازالت تحت تهديد الغارات المستمرة لإيقاف تنميتها ولضمان استمرار تدفق كل مياهها إلى الخزان الكبير الذى أقامته فى بحيرة طبرية. وفى هذه الحرب تحقق للحركة الصهيونية ما كانت تأمل أن تحققه عند نشأتها فى آخر القرن التاسع عشر فقد استهدفت الحركة حينئذ توطين اليهود فى فلسطين وربطهم بالأرض ونشرهم عليها عن طريق تشغيلهم بالزراعة وهى المهنة التى كان اليهود قد هجروها منذ زمن طويل مما تسبب، حسب منظرى الحركة، فى قبولهم الهجرة من أرض الأجداد - وقد أدرك مؤسسو الحركة الصهيونية ومنذ البداية أهمية توفير المياه لأرض فلسطين العطشى حتى تصبح صالحة لما يمكن أن يوفر زراعة متقدمة تفوق زراعة الكفاف التى كانت سائدة فيها وحاولوا الضغط على بريطانيا، التى كانت قد وعدتهم بإنشاء وطن قومى لهم بفلسطين لكى تضم إلى دولة فلسطين عند رسم حدودها التى كانت توضع فى مؤتمر لوزان الذى انعقد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى لتقسيم أملاك الدولة العثمانية بين القوى المنتصرة فى هذه الحرب، كافة منابع نهر الأردن واليرموك وحوض الليطانى. وقد نجح الصهاينة جزئياً فى مسعاهم فلم يدخل فى فلسطين بعد رسم حدودها من منابع نهر الاردن إلا نهر دان أحد أهم

المنابع والذى يبلغ متوسط تصرفه السنوى ٢٤٥ مليون متر مكعب بالمقارنة بمتوسط تصرف نهرى المنبع الآخرين الحصبانى وبنياس الذى يبلغ ١٢٠ مليون متر مكعب لكل منهما - أما نهر الليطانى فقد بقى فى لبنان كما بقيت منابع الحصبانى وبنياس فى لبنان وسوريا على التوالى وكل اليرموك خارج فلسطين فيما عدا الكيلومات العشرة الأخيرة منه.

بعض من الحقائق الأساسية عن المياه:

تبلغ جملة المياه المتجددة والمتاحة لبلاد الشام الخمسة مجتمعة حوالى ١٤,٨ مليار متر مكعب فى السنة تضاف إليها حوالى ٥,٧ مليار متر مكعب تصل سوريا من نهر الفرات الذى ينبع من تركيا والتى لا تربطها معها علاقات طيبة أو أهداف مشتركة - ويبلغ عدد سكان هذه الدول الخمس حسب تعداد سنة ١٩٩٧ حوالى ٣٢,١ مليون نسمة مما يجعل نصيب الفرد من المياه المتجددة حوالى ٤٦٠ متراً مكعباً فى السنة وهى كمية متدنية لاتكاد تصل إلى واحد على عشرين من نصيب الفرد فى الولايات المتحدة أو فى قارة أوربا. وفيما عدا لبنان فإن كمية المياه المتاحة لباقى بلاد الشام هى أقل مما يكفى حاجة سكانها بما يضطرها إلى السحب الجائر من مخزون المياه فيها بما يزيد عن قدرة تجديدها. ففى الأردن وعلى الرغم من تدنى نصيب استخدامات الفرد من المياه إلى حوالى ٢٠٠ متر مكعب فى السنة (أى بأقل من ثلث نصيب الفرد فى أوربا) فإن متوسط المياه. المتجدد المتاح للفرد سواء ما جاء منه من داخل البلاد أو من خارجها لايزيد على ١٨٥ متراً مكعباً أى أن نسبة الماء المستخدم إلى المتاح هى ١٠٨٪.

وفى اسرائيل يصل متوسط استخدام الفرد إلى ٤١٠ مترات مكعبة فى السنة فى الوقت الذى يبلغ فيه نصيبه من المياه المتجددة حوالى ٣٨٠ متراً مكعباً. وفى سوريا تبلغ نسبة المياه المستخدمة للفرد حوالى ١٠٨٪ من المياه المتاحة له.

تحديات المستقبل :

وإذا كان هذا هو حال اليوم حيث يتدنى نصيب الفرد من المياه تدنياً يجبر معظم دول المنطقة على الجور على مخزونها المائى فماذا يمكن أن تحمله الأيام عندما يتزايد السكان ويتضاعف عددهم كما هو منتظر فى خلال الثلاثين سنة القادمة إذا ما استمرت معدلات الزيادة الطبيعية للسكان فى تطورها الطبيعى أو فى خلال أقل من ذلك إذا تعرضت المنطقة للهجرات الجماعية التى كثيراً ما حدثت فى تاريخها الحديث، والتى كان آخرها فى تسعينيات القرن العشرين عندما تدفق مع الأردن الآلاف ممن أجبروا على الخروج من منطقة الخليج فى أعقاب الحرب التى حدثت فيها، وعندما تدفق على اسرائيل سيل المهاجرين

من يهود الاتحاد السوفيتى بعد تحلله.

إن مجابهة هذا الموقف الصعب وتدبير المياه الكافية لهذا الفيض المنتظر من السكان يتطلب إما إيجاد مصادر جديدة للمياه لإشباع مطالبها أو التكيف مع الوضع الجديد فى حالة عدم إمكان إيجاد هذه المصادر - وسأحاول أن استعرض معكم إمكانات زيادة امدادات المياه فى هذه المنطقة سواء بالطرق التقليدية أو غير التقليدية، والتى ستجدون معى أنها محدودة بالفعل مما سيتطلب من هذه الدول أن تعيد تنظيم اقتصادها وطرق معائشها للتكيف مع هذا الوضع الجديد قبل أن يهجرها الناس وتندرس حضارتها كما حدث للكثير من الحضارات على طول التاريخ والتي تطل علينا أطلالها شاهداً عليها.

إمكانات زيادة إمدادات المياه:

تنحصر الطرق التقليدية لزيادة امدادات المياه فى بناء الخزانات على الانهار أو فى الوصول بالآبار إلى أعماق أكبر لضخ المياه من الطبقات العميقة. أو فى نقل المياه عبر القنوات أو الأنابيب من مكان لا تستغل فيه إلى مكان يمكن استخدامها فيه، وهناك القليل الذى يمكن القيام به فى اسرائيل وفلسطين والأردن والأجزاء المتاخمة فى سوريا فى جميع هذه المجالات فليس بأى من هذه الأقاليم من الأنهار مايزال فى حاجة إلى ضبط مياهه إلا نهر اليرموك، والذى قد يكون أمر تنميته غير مجد نظراً لقيام سوريا بالاستفادة بالجزء الأكبر من مياهه عن طريق سلسلة من السدود الصغيرة التى أقامتها عليه.

كما أن مياه الطبقات العميقة فى خزانات المياه الارضية بالاردن وفلسطين واسرائيل نصف مالحة وغير صالحة للاستخدام دون معالجة مما يجعلها غير قابلة للاستغلال الاقتصادى - ويوجد بالأردن خزان كبير للمياه الأرضية لم يستغل بعد هو خزان «قاديزي» الذى يقع في جنوب الأردن ويمتد عبر الحدود بداخل المملكة العربية السعودية وهو بعيد عن مراكز العمران وتحتاج تنميته ونقل مياهه إلى حيث يمكن استخدامها إلى إنفاق باهظ قد يرفع من سعر المتر المكعب لمياهه إلى أكثر من دولار.

ومن الطرق التقليدية لزيادة إمدادات المياه حجز مياه السيول الموسمية وتخزينها ، وبالأردن دراسة لإقامة السدود على وديان الجانب الشرقى لنهر الأردن لحجز هذه المياه مما يمكن أن يزيد إمدادات المياه بها بحوالى ٣٥٠ مليون متر مكعب.

وتزيد كفاءة استخدام مياه المجارى المائية المشتركة لو أنها أديرت كوحدة واحدة تتعاون فى ادارتها كل دول المجرى إلا أن هذا الوضع المثالى غير قائم فى عالم اليوم وعلى الأخص فى منطقة الشرق الأوسط المليئة بالتوترات - وفى

الحقيقة فإنه لا يوجد فى الوقت الحاضر قانون دولى مقبول من دول العالم ينظم استخدام المجارى المائية المشتركة - صحيح أن الجمعية العامة المتحدة اتخذت قرارا فى دورتها الواحدة والخمسين لسنة ١٩٩٧ أوصت فيه الدول على التوقيع على «اتفاقية قانون استخدام المجارى المائية الدولية فى غير أغراض الملاحة» إلا أن الاتفاقية لم تلق القبول ولم يوقعها حتى اليوم غير ثلاث دول فقط .. وتحمل اتفاقية القانون هذه نفس المبادئ التى كانت قد أقرتها جمعية القانون الدولى فى اجتماعها الذى عقد بمدينة هلسنكى فى سنة ١٩٦٦، والتى كان من أهمها حق كل دولة من دول الحوض فى الحصول على نصيب معقول ومنصف من مياه المجرى المائى. وقد حل هذا المبدأ الجديد محل مبدأ هارمون الذى كان سائداً لمدة طويلة والذى يعطى للدولة السيادة الكاملة على المجارى المائية التى تمر فيها، والحد فى استخدام مياهها بالطريقة التى تراها صالحة لها ودون اعتبار لمصالح دول الحوض الأخرى.

ويجد المبدأ الجديد الذى اقترحته جمعية القانون الدولى وأقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة صعوبة كبيرة فى التطبيق ذلك لأن توزيع مياه الكثير من المجارى المائية المشتركة يتم اليوم حسب قوة بلاد الحوض وقدرتها على فرض إرادتها على الآخرين وتعتبر الكثير من دول المنبع أن مياه المجرى المائى حق لها وثروة تستخدمه لنفسها أو أن تتصرف فيها بالبيع لغيرها - وفى حالة بلاد الشام فإن توزيع المياه فيها يتم حسب مشيئة اسرائيل وتركيا القوتين الأعظم فيها - وتقوم تركيا اليوم ببناء السدود على منابع نهرى دجلة والفرات دون أدنى اعتبار لدول أدنى النهر ويصرح مسئولوها بأن مياه هذين النهرين جزء من مصادر ثروة بلادهم الطبيعية مثالها مثل البترول فى البلاد العربية الذى تقوم هذه البلاد باستغلاله وبيعه للغير.

أما فى حالة اسرائيل فالأمر بيّن فهى التى تقرر الطريقة التى توزع بها مياه المجارى المائية لمنطقة الشام فكلها تحت إمرتها وليس أدل على ذلك مما فعلته كبادرة لحسن النوايا نحو الأردن عندما وقعت معاهدة السلام معها بالسماح له بسحب ما بين ١٥٠، ٢٠٠ مليون متر مكعب إضافية من المياه من نهر الأردن.

يتبين من هذا العرض أن الطرق التقليدية لن تزيد إمدادات المياه لدول منطقة الشام بأى زيادة كبيرة، فموارد المياه ذاتها محدودة ومستغلة لما يكاد أن يكون إلى أقصاها - وهنا يلزم أن ننوه بالبرنامج الذى تقوم به اسرائيل لاعادة الاستخدام للمياه (Recycling) والذى سيكلفها حوالى ٥٥٠ مليون دولار ويزيد من إمداداتها بحوالى ٢١٠ ملايين متر مكعب بحلول عام ٢٠٠٥ وببرنامج الأردن

المماثل والذى ينتظر أن يضيف إلى امداداتها حوالى ٧٠ مليون متر مكعب فى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين - وهذان البرنامجان يظهران بوضوح وفى حد ذاتهما الامكانات المحدودة لزيادة امدادات المياه بالطرق التقليدية والتى تضطرها للدخول فى برنامج على هذه الدرجة العالية من التكلفة لزيادة امداداتها بهذه الكميات الصغيرة.

أما عن الطرق غير التقليدية فيكاد أن يكون الأمر مغلقاً أيضاً على الأقل فى المستقبل المنظور. فتحلية مياه البحار بإزالة الملوحة منها عملية باهظة النفقة تحتاج إلى مورد رخيص ومستمر من الطاقة وهى غير صالحة إلا لتزويد النشاطات ذات العائد العالى كمياه الشرب مثلا - وحتى فى هذه الحالة فإن الأمر لا يبدو أنه سيكون اقتصاديا فبالإضافة إلى أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر أو فى المستقبل المنظور مصدر رخيص للطاقة فى منطقة الشام فإن معظم مناطق العمران بعيدة عن البحار مما سيضيف تكلفة كبيرة لنقل المياه إليها - هناك بطبيعة الحال الأمل فى أن يحدث اختراق فى تقنية تحلية مياه البحار أو فى إيجاد مصادر رخيصة للطاقة المتجددة من الشمس أو الرياح أو المد والجزر أو فى استغلال تضاريس أرض الشام واستخدام الفرق فى ارتفاع منسوب البحر الميت عن البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر وشق القنوات بينهما لتوليد الكهرباء - وحتى تتحقق هذه الآمال فإن المياه التى يمكن توفيرها بالطرق غير التقليدية والمطبقة فى الوقت الحاضر ستكون باهظة النفقة لا يمكن استخدامها إلا فى النشاطات الاقتصادية ذات العائد العالى كما سبق القول.

نقل الماء عبر الحدود

نقل الماء عبر الحدود هو من الطرق التقليدية لزيادة موارد بلد فقير فى الماء من بلد غنى فيها وهو طريق يصعب تصور حدوثه طوعا فى منطقة الشام التى تشح فيها المياه، ولكن يمكن فرضه بالقوة وهو أمر لا يتيسر إلا لدولة اسرائيل والتى تخطط بالفعل لتنفيذ مخططها الصهيونى الأول بنقل مياه بعض الأنهار المجاورة إليها - ومن هذه الأنهار نهر الليطانى الذى يقع فى لبنان ولا تفصله إلا مسافة صغيرة عن نهر الحصبانى يمكن عن طريق حفر قناة قصيرة بتحويل جزء من مياهه تقدر بحوالى مائة مليون متر مكعب إليه. وتعرض اسرائيل على لبنان شراء هذه الكمية من المياه وهو أمر رفضته لبنان رفضا قاطعاً.

ومن الأنهار الأخرى التى وردت فى المشروع الصهيونى الأول نهر النيل الذى أريد تحويل جزء من مياهه إلى فلسطين عبر قناة تمد فى سيناء - وقد أحيى مشروع القناة فى سنة ١٩٧٨ فى أعقاب توقيع مصر لمعاهدة السلام مع اسرائيل

وتطوع الرئيس أنور السادات بالقيام به - وكان هذا المشروع محل اهتمام الأمم المتحدة فى أعقاب نكبة فلسطين فى سنة ١٩٤٨ التى قامت بإعداد رسومه الهندسية لمد مياه النيل إلى غزة ولتعمير شمال سيناء بغرض توطين الفلسطينيين الذين كانوا قد أخرجوا من وطنهم فيها - وهو المشروع الذى رفضته حكومة مصر الوفدية فى وقته وحكومة الثورة بعد قيامها - وقام السادات بتسمية القناة التى أراد مدها من نهر النيل إلى اسرائيل ترعة السلام - وقد أدت المعارضة الشعبية الكبيرة للمشروع إلى التراجع عنه - إلا أن الكلام عن مد الترعة إلى سيناء قد عاود الظهور فى الثمانينيات ولقى قبولا بعد أن أعلن أن القناة ستكون لدى أراضى سيناء فقط وأنها لن تصل إلى اسرائيل تحت أى ظرف. وقد بدئ بالفعل فى شق القناة فى أوائل التسعينيات وهى الآن فى طريقها إلى سيناء عبر أنفاق حفرت تحت قناة السويس - على أن الشئ الذى يلفت النظر ويثير الريبة هو أن رسوم المشروع الأصلية لم تعدل لتتناسب وهدف القناة الجديد فقد قامت مصر ببناء أربعة أنفاق تحت القناة كما جاء فى الرسوم الأولى - وكان الواجب يقتضى إنقاص عددها لو أن القناة ستزود أرض سيناء فقط بالماء.

وتصل أطماع اسرائيل فى مياه النيل لدرجة التخطيط لأن تكون لها حصة فيها تحجز لها ومن منابعها فى إثيوبيا والتى توثق علاقاتها معها وتعرض عليها شراء الماء منها وتحويله إليها عن طريق مصر. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو بعيدا اليوم فإنه مطروح ينتظر اليوم الذى يتم فيه على العلن.

ومهما كان الأمر فقد أدت معاهدة السلام الموقعة بين مصر وإسرائيل إلى استفادة اسرائيل من مياه النيل بطريقة مباشرة بزراعة أراض فى وادى النيل إما بنفسها أو بالمشاركة. أو بطريقة غير مباشرة باستيراد المنتجات الزراعية التى تحتاج إلى مياه كثيرة كالطماطم والخيار والزهور منها مما أتاح لاسرائيل توفير مياهها للاستخدامات الأخرى العالية العائد.

ومن المشروعات الأخرى التى فكر فيها لنقل المياه عبر الحدود مشروع الأردن لنقل حوالى ١٦٠ مليون متر مكعب من نهر الفرات إليها عبر قناة تصل إلى العاصمة والذى عدل عنه نظراً لتكلفته الباهظة وللنقص الذى حدث لإمدادات الفرات بعد أن قامت تركيا ببناء سلسلة من السدود على منابع النهر - ومن المشروعات الأخرى المشروع الذى اقترحته تركيا فى سنة ١٩٨٧ لمد أنبوبين لنقل المياه العذبة من نهرى سيهان وجيهان إلى دمشق وعمان والرياض وإلى بغداد ومدن الخليج وهو المشروع الذى رفضته كل الدول المعنية على الرغم من حملة الدعاية

الهائلة التى صاحبته والتى أشرف عليها رئيس جمهورية تركيا تورجوت أوزال بنفسه - فبالإضافة إلى تكلفته الباهظة فإن إحدى هذه الدول المعنية رغبت فى أن يكون اعتماده على مياه شربه من دولة أخرى.

العيش فى عالم فقير فى الماء :

يتبين من العرض السابق أن المياه المتاحة فى منطقة الشام محدودة يصعب إمكان زيادتها على الأقل فى المستقبل المنظور بما يتناسب واحتياجات الزيادة السكانية المتوقعة فيه وليس هناك من طريق أمام دول هذه المنطقة للخروج من هذا المأزق الذى يمكن أن يؤدى بها إلى التهلكة والعدم إلا التواؤم مع حقائق ومتطلبات العيش فى عالم فقير فى الماء.

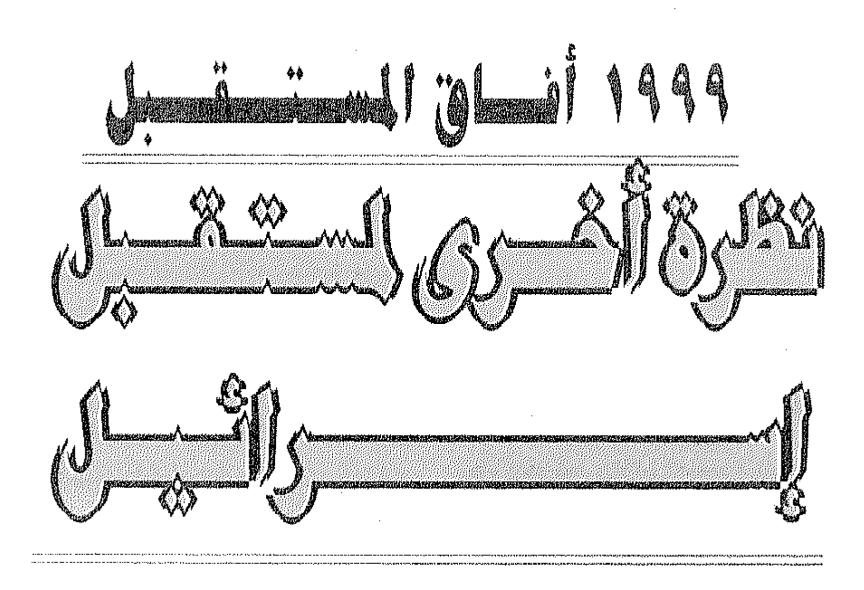
وأول متطلبات هذا العالم الجديد هو إدارة الطلب على المياه بحيث لا توجه إلا إلى الأنشطة ذات العائد المجزى الذى يتناسب وسعر الماء الذى ستزداد تكلفة استخراج ونقل الجديد منه، ويعتبر قطاع الزراعة المروية أكبر الأنشطة استخدامها للماء وأقلها فى العائد الذى يأتى منها ولذا فإن مجابهة المستقبل ستكون على حساب هذا القطاع فى المقام الأول، والذى ينبغى التفكير فى تطويره لكى يستهلك ماء أقل وأن ينتج عائدا أكبر لكل وحدة ماء تستخدم فيه - ومثل هذا التطوير يحتاج الى التخلى عن طرق ومحاصيل الزراعة التقليدية التى خبرها الناس منذ قديم الزمان وتبني طرق ومحاصيل جديدة مبنية على تطبيقات العلم الحديث. ويحتاج الانتقال إلى هذه الزراعة العلمية إلى بنى تحتية لا يبدو أن أياً من دول المنطقة فيما عدا اسرائيل تملكها - وتقوم اسرائيل فى الوقت الحاضر بتغيير أنماط زراعتها وترك التقليدى منها مثل البدء فى إحدى الدعوات الايديولوجية الأساسية للحركة الصهيونية عند نشأتها بغرض توطين اليهود بأرض فلسطين والدفاع عنها فى الكيبوتزات الزراعية التى نثرتها عليها وتخفت فيها وراء شعار تخضير الصحراء وتعميرها - ولم تعد اسرائيل اليوم فى حاجة إلى هذه الكيبوتزات أو إلى التباهى بتخضير الصحارى بعد أن أصبحت القوة الاقليمية الأولى - ويحدث تغيير الزراعة والانتقال بها إلى الزراعة العلمية بمساندة مراكز البحوث المتميزة وعن طريق خدمة من السياسات الاقتصادية لتشجيع هذا الإنتقال ويأتى فى مقدمة هذه السياسات تسعير الماء المستخدم فى الزراعة ورفع سعره إلى ٢٠ سنتاً أمريكيا للمتر المكعب الواحد حتى لا يقوم باستخدامه إلا القادر على الزراعة العلمية ذات العائد العالى وقد قلت كمية المياه المستخدمة فى

الزراعة في اسرائيل من ٧٩٪ من جملة المستخدم في سنة ١٩٨٩ إلى ٦٨٪ في سنة ١٩٩٦ – وفي هذه الفترة زاد العائد من الزراعة لكل وحدة ماء تستخدم فيها زيادة هائلة حتى لأصبح يساوي ثمانية أضعاف عائد نفس هذه الوحدة في مصر بلاد الزراعة العريقة، واقتصر الانتاج الزراعي في اسرائيل على منتجات التصدير ذات التقنية العالية كالبذور والنباتات المهجنة وذهب أغلبه بالفعل للتصدير وأصبحت الزراعة، التي لم تعد تكتتب في جملة الناتج الاجمالي في اسرائيل بأكثر من ٢٪ مسئولة عن ٩٪ من جملة الصادرات وأدى التحول إلى هذا النوع من الزراعة العلمية المتقدمة إلى إعادة توزيع خارطة العمالة والتي لم يعد يعمل بها أكثر من ٣٪ من جملة قوة العمل بها، أما باقي حجم العمالة فقد انتقل للعمل في قطاعي الخدمات والصناعة واللذين نالهما أكبر التطور للدخول في عصر المعلوماتية وما بعد الحداثة. وقد أدت كل هذه التطورات إلى زيادة الدخل القومي الاجمالي لاسرائيل التي يبلغ عدد سكانها أقل من ٦ ملايين إلى ٩٢ مليار دولار بما يفوق جملة الدخل القومي لدول الشام العربية الأربع مضافا إليها مصر والتي يبلغ عدد سكانها أكثر من ٨٠ مليوناً بأكثر من ١٠ مليارات دولار.

وكان مما ساهم في تفعيل هذا التطوير العمالة العالية التدريب التي تدفقت على اسرائيل نتيجة الهجرات الجماعية التي حدثت في سني تسعينيات القرن العشرين من الاتحاد السوفيتي والدعم الهائل الذي يناله البحث العلمي ومراكزه المميزة من داخل اسرائيل ومن خارجها والتي يحرص الجميع على أن تدار بنظام الكفاءة الصارم فلا يلتحق للعمل بها إلا أفضل العقول التي تترك لها حرية العمل لتجسيد خطط التحديث التي تضعها بنفسها.

وإذا أرادت دول الشام أن تجابه تحديات المستقبل والتي تزيدها تعقيداً مشاكل تناقص كميات المياه المتاحة لها للاستخدام فليس أمامها من طريق غير تطوير نفسها لكي تتواءم وهذا العالم الجديد والانتقال لعصر الصناعة والزراعة العلمية والمتقدمة حيث يتعاظم العائد من وحدة الماء. ويتطلب هذا الانتقال إلى ضرورة الدخول في عملية تحديث شاملة تمس كيانها كله بدءا من نظم الحكم وطرق الإدارة وحتى بناء مراكز البحث العلمي المتميزة وإقامة معاهد التعليم القادرة على إخراج الكوادر اللازمة للدخول في هذا العصر الجديد.

وفي يقيني أنه لايوجد أمام هذه الدول، إن أرادت البقاء، طريق آخر.



بقلم : د . عبد العظيم أنيس

أعترف أننى مشغول بالتفكير فى هذا الموضوع منذ سنين، لكن ما دعانى إلى الكتابة فيه اليوم هو مقال إليوت كوهين في عدد الهلال الماضى . ومن الواضح أنه يهودى أمريكى وأستاذ بمعهد الدراسات الاستراتيجية بجامعة جونز هوبكنز ، وأنه متشائم من مستقبل الدولة اليهودية لأسباب عديدة ذات تأثير كبير على مستقبل اسرائيل ، خصوصا بعد اغتيال رابين أحد بناة هذه الدولة اليهودية ، ومن هذه الأسباب الصراع الطويل الأمد بين العلمانيين والأصوليين ، وتدهور أحوال الجيش الاسرائيلى «فاليوم لم تعد الخدمة العسكرية تذكرة مرور حيوية للحياة العامة وأكثر من ربع أعضاء الكنيست لم ينضموا للجيش الذى يعانى من أزمة داخلية بالغة السوء» . لقد ولت أيام عظمة جيش الدفاع الاسرائيلى وانتصاراته الساحقة لتحل محلها لعبة الكمائن القاتلة فى جنوب لبنان ودور الشرطى المعرض للقتل أو الجرح فى الأراضى المحتلة . ويقول كاتب المقال إنه فى ذكرى اغتيال رابين الأخيرة نعى رئيس أركان الجيش ليس فقط الزعيم الراحل بل المكانة المتآكلة للجيش الإسرائيلى .

ويعتقد إليوت كوهين أنه ، رغم أن معدل المواليد فى اسرائيل مرتفع نسبيا – مقارنة بالمعايير الغربية – فإن الهجرة هى التى يمكن أن توفر الكتلة البشرية اللازمة لبناء الدولة. لكن آخر هجرة ذات وزن لإسرائيل هى الهجرة الروسية (٧٠٠ ألف) التى تزامنت مع بداية انهيار الدولة السوڤييتية أو أعقبته . وفى رأى اليوت كوهين أن هذه ستكون آخر الهجرات الكبيرة التى ستفد إلى اسرائيل ، إذ من غير المرجح أن تترك الجاليات اليهودية الكبرى فى أمريكا وأوربا بلدانها التى تآلفت معها لتهاجر إلى اسرائيل .

ويتجرأ إليوت كوهين ليتساءل حول السؤال المحورى : هل ستظل اسرائيل دولة يهودية ؟ وهو يقول إن السؤال ربما يبدو سخيفا عند البعض ، لكنه سؤال حقيقى فى ذهن العديد من الاسرائيليين إلى درجة أن أحد كبار الضباط أخذ يتساءل عما إذا كانت أرض اسرائيل سيسكنها «غير اليهود الذين يتحدثون العبرية» ! مشيرا فيما أعتقد إلى أن نحو ٤٠٪ من المهاجرين الروس غير يهود ، وإلى عرب ١٩٤٨ الذين لم يتركوا اسرائيل .

احزان الحاضر

قارن هذا برأى أديب عربى وروائى بارز مهتم بتاريخ الوطن العربى ، وهو يحاول كما يقول أن يقرأ أحزان الحاضر فى آلام الماضى ، مما أدى به إلى الاعتماد فى رواياته على مرجعية تاريخية ضخمة . إنه الأديب السورى خيرى الذهبى صاحب الثلاثية «حسيب وفياض وهشام». لقد سئل فى العدد الأخير من مجلة «دفاتر» الفلسطينية عن اهتمامه الواسع بتاريخ المنطقة العربية فى رواياته فأجاب :

«قد يكون أحد أمراضى الشخصية تعلقى الشديد بالتاريخ .. نحن الآن نواجه غزوة خزر الاشكنازيين الذين يحتلون فلسطين. هؤلاء الغزاة لم يتعظوا كفاية من الدرس الذى ناله الغربيون الذين سبقوهم إلى هذه المنطقة وأعنى بهم الصليبيين ، كان يمكن للصليبيين أن يعايشونا كما عايشنا الكثير من الذين أتوا إلى هذه المنطقة ، ولكنهم أصروا على أن يظلوا أوربيين وعلى أن يظل حبل المشيمة مربوطا بينهم وبين الغرب ، فكانت النتيجة أنهم اختفوا تماما بعد مائتى عام» .

ولا ينبغى أن يغتر أحد بالصلح القائم بين دولة اسرائيل وبعض الدول العربية اليوم. ففى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر عقد الكثير من اتفاقات الصلح بين حكام المشرق العربى والصليبيين ، لكنها كما أثبت التاريخ كانت اتفاقات مؤقتة سرعان ما انهارت وعاد الصراع على أشده من جديد ، حتى تم إجلاء آخر دولة صليبية فى حيفا على يد ابن السلطان قلاوون فى أواخر القرن الثانى عشر .

ولقد جاء وقت ليس بعيدا كثر الكلام فيه من تصريحات مسئولين عرب عن ثقافة السلام وعن أبدية الوئام بيننا وبين اسرائيل ، لكن التاريخ يثبت دائما أبدا أن سلاما لا يقوم على أساس العدل ورد الحقوق لأهلها لا يمكن أن يستمر وأنه لن يكون غير هدنة مؤقتة .

ولقد تغير هذا المناخ الآن ، وصار رجال مثل المشير الجمسى يصرح فى أحاديثه الصحفية أن حرب اكتوبر ليست آخر الحروب بيننا وبين اسرائيل ، لأنه مادامت النظرية الأساسية لاسرائيل هى السيطرة على مقدرات المنطقة العربية . فستكون هناك حروب أخرى فى المستقبل .

وبالطبع فإن الشعوب العربية قد لجأت – وسوف تلجأ – إلى أساليب مختلفة فى المقاومة .. أحد اشكالها المقاومة الناجحة للاحتلال الاسرائيلى فى جنوب لبنان ، وشكل حرب العصابات ، والهجمات الانتحارية على قواعد الجيش الاسرائيلى وغير ذلك من أشكال مقاومة تبتكرها الشعوب من خبراتها الخلاقة . والنضال العربى قادر على تجديد قياداته متى حتمت الضرورة ذلك . وهذا النضال اليوم يضم قوة وطنية إسلامية ويسارية وناصرية وقومية .

وفى المشرق العربى اليوم أصبح الاسلام راية وطنية فى النضال ضد اسرائيل وصار من الواضح أن المستقبل القريب سوف يكون لهذه الراية ، وأنه ليس من مصلحة الشعوب العربية الوقوف ضد هذه الراية ، بل لا مفر من التفاهم مع أصحابها .

ومن الضرورى أن يكون واضحا لنا أن زمن الصراع بين العرب واسرائيل هو زمن طويل قد يمتد عقودا طويلة وربما اكثر لأن الهجمة الاسرائيلية على المشرق العربى هى هجمة استيطانية هدفها انتزاع الأرض من أصحابها ، وكل الهجمات الاستيطانية الغربية أخذت زمنا طويلا حتى استرد السكان الأصليون أرضهم من الغزاة ، فالغزو الاستيطانى الفرنسى للجزائر استغرق النضال ضده مائة وثلاثين عاما ، والغزو الاستيطانى الاوربى لروسيا وجنوب افريقيا استمر مئات السنين حتى استطاع الأفارقة استرداد أرضهم وحقوقهم . ولم يتردد الغزاة الأوربيون فى استخدام أحط الوسائل لاحتلال الارض وزراعتها ، حتى الدين المسيحى لم يترددوا فى استخدامه .

ولعل هذا يذكرنا بكلمة القس ديزموند توتو فى احتفال النرويج عندما منح جائزة نوبل ، وقد عبر عن الحقيقة السالفة أجمل تعبير عندما قال :

«عندما أتى المبشرون الأوربيون لأول مرة إلى افريقيا كان معهم الانجيل ، وكانت الأرض معنا . وقالوا لنا : فلنصل وعلمونا أن نغلق أعيننا عند الصلاة ، وعندما فتحنا أعيننا كان الانجيل معنا وكانت الأرض معهم » .

سوف أعبر عن رأيى فى أن مستقبل اسرائيل مرتبط ارتباطا وثيقاً بمستقبل الاستعمار الغربى ، وأنه عند زوال هذا الاستعمار أو حتى ضعفه فسوف تنتهى اسرائيل كدولة يهودية نقية كما يريدون .

هل هذه دعوة لإلقاء اليهود إلى البحر ؟

كلا بالطبع وإنما أن نقتنع أن

المستقبل – لصالح اليهود والعرب معا – لابد أن ينتهى إلى تكوين دولة علمانية فى فلسطين تجمع العرب واليهود معا ويكون الحكم فيها للأغلبية كما حدث فى جنوب افريقيا . وعندئذ سوف يدخل اليهود فى النسيج الاجتماعى للمنطقة كما حدث للآشوريين والأرمن وغيرهم ، وتسترد العلاقات العربية اليهودية (وهنا أعنى اليهود الشرقيين) طبيعتها كما كانت أيام الأندلس وفى شمال افريقيا على مر التاريخ.

تبقى نقطة أخيرة لابد أن تثير تساؤل القارىء : وهل كل استعمار استيطانى فشل وانتهى إلى استرداد أصحاب الارض حقوقهم ؟

إستعمار جديد

كلا بالطبع إننى لا أقول ذلك وأجد فى مثال الاستيطان الاوربى للولايات المتحدة وكندا مثالا على نجاح الحركة الاستيطانية الاستعمارية وهزيمة للسكان الاصليين (الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية) والواقع أن تجربة استيطان امريكا الشمالية لم تعد قابلة للتكرار لأسباب عديدة منها أن أعداد الهنود الحمر (السكان الاصليين) كانت ضئيلة بالنسبة للغزاة الأوربيين الذين وصلوا لأمريكا على دفعات كبيرة تفوق أعداد الهنود الحمر بكثير .

والأمر الآخر ان الفارق فى السلاح بين الغزاة الاوربيين وبين الهنود الحمر كان كبيرا جدا بحيث كان من السهل على الاوربيين إبادة الهنود الحمر .

والأمر الثالث أن الاوربيين لجأوا فى هذه الابادة إلى أساليب خسيسة يستحيل على أحد الدفاع عنها اليوم ، مثل تعمد نشر أمراض لم يعرفها الهنود الحمر مثل الحصبة ، مما ساعد على سرعة إبادتهم .

وكل هذه الاسباب ليست متوافرة فى الصراع بيننا وبين اسرائيل . فالوضع الديموجرافى لصالحنا بالطبع ، فنحن نتفوق على يهود اسرائيل بنسبة أربعين إلى واحد وفارق السلاح بيننا وبين اسرائيل ليس كبيرا إلى حد الماضى . وإذا كانت اسرائيل تملك قنبلة ذرية فهناك دول عربية تملك أسلحة كيميائية وبيولوجية تنافس القنبلة الذرية أو على الأقل تكون رادعا عن استخدام اسرائيل لسلاحها الذرى .

ومهما كانت خسة حكام اسرائيل فمن الصعب تصور لجوئهم إلى الاسلحة التى لجأ إليها الاوربيون فى صراعهم مع الهنود الحمر . وعلى أى حال فهناك قدرة على الرد على مثل هذه الاساليب الخسيسة .

وخلاصة الأمر أن الغزو الاستيطانى الذى نجح فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية يصعب تكراره اليوم ، خصوصا أن الهنود الحمر كانوا معزولين عن العالم ولم يكونوا يدرون أن هناك سكانا على هذه الارض غيرهم ، وأن المستقبل سوف ينتهى فى رأيى إلى إقامة دولة علمانية تجمع العرب واليهود معا على أرض فلسطين .

ثـــلاثـــة تحـذيرات للمنجمين

بقلم : د. جـلال أمـيـن

إذا كـانت بيـدك كـرة ، وأردت أن ترمى بهـا إلى الأمـام ، كـان عليك أن ترجع بيـدك قليـلا إلـى الخلف . وكلمـا أردت بالكرة أن تذهب أبعد فأبعد إلى الأمـام ، كـان عليك أن ترجع بيدك أكثر فأكثر إلى الخلف .

كـذلك ، فيـمـا يبـدو ، هو مـا يجب أن تفـعل إذا أردت أن تتكهن بما يمكن أن يكون عليه المستقبل : أن تتـأمل مـا كـان عليـه الماضى ، ولكن كلمـا أردت أن تذهب أبعـد فـأبعـد فى التكهن بالمستقبل كـان عليك أن ترجع فى الماضى إلى الأبعد فالأبعد .

فـإذا حـاولنا التنبـؤ بما سـيكون عليه الحـال بعد سنة أو سنتين من الآن ، فقد يكفى فى ذلك أن نتأمل ما نحن عليـه الآن، أو مـا كنا عليـه قـبل سنة أو سنتين ، وإذا أردنا أن نتكهن بما يمكن أن يكون عليه حـالنا بعـد عشر سنوات فقد يتطلب هذا أن نرجع إلى الوراء عـشـر سنوات أو عـشـرين ، أمـا إذا أردنا أن نخمن ما سيكون عليه العالم خلال القرن الواحـد والعشـرين ، فـربما كان علينا أن

نتأمل ما حدث خلال عدة قرون مضت .

ولكن أيا كـان الأمـر ، فـالأرجح أن التفكير في مستقبل العالم فى القرن القادم محفوف بعدة مخاطر ، نذكر منها المخاطر الآتية :

أولا : هناك خطر الاستسلام للاعتقاد الكسول بأن المستقبل سيكون مجرد امتداد للحاضر أو للاتجاهات التى سادت فى الماضى القريب ، على الرغم من أن استقراء التاريخ يدلنا المرة بعد الأخرى ، على أننا معرضون دائما للمفاجآت ، وأن اتجاها معينا كنا نظنه سيستمر فى المستقبل قد انقطع فجأة ، وإذا بالمسار يتخذ تحولا حادا فى اتجاه آخر . من كان يظن مثلا ، في مطلع القرن العشرين ، وبعد نحو قرن كامل من سيادة السلام في أوربا ، أن العالم سيشهد بعد أعوام قليلة حرباً لم يشهد العالم مثيلا لها في تاريخه كله ، فى حجم الدمار وعدد الضحايا ؟ أو أن بعد ذلك مباشرة ستقوم ثورة اشتراكية فى روسيا ، ثم بعد ذلك بقليل سيشهد العالم الغربي ، بعد أكثر من قرن من النمو الاقتصادى السريع ، أزمة اقتصادية طاحنة كان أكبر الاقتصاديين عند وقوعها يعتقدون أن وقوعها مستحيل؟

قد يقال وما فائدة هذا التحذير مادام الأمر يستحيل التنبؤ به والاحتياط له ؟ بعبارة أخرى : مادام الأمر يتعلق بمفاجآت وانكسارات حادة فى الاتجاهات السائدة مما لا يمكن اكتشافه من مجرد ملاحظة الحاضر أو استقراء الماضى ، فما الذي يستطيع أن يفعله إزاء ذلك من يحاول استشراف المستقبل والاحتياط له ؟ الرد على هذا أن المقصود بهذا التحذير هو عدم الاكتفاء بملاحظة ما يجرى على السطح دون الغوص إلى الإعماق ، والانتباه إلى ضرورة التمييز بين الظواهر العارضة والظواهر الأكثر دواما . فالمفاجآت لا تبدو كذلك إلا لمن اكتفى بالنظر الى السطح ولم ينفذ إلى الجوهر، وكلما زادت قدرة المرء على التمييز بين العوامل الثانوية والعوامل الحاسمة زادت قدرته على التنبؤ بما يمكن أن يأتى به المستقبل ، دون أن يستأصل هذا بالطبع احتمال وقوع المفاجآت استئصالاً تاما .

ثانيا : هناك خطر الظن بأن الفترة الزمنية التى قد تستغرقها ظاهرة معينة في المستقبل سوف تكون مشابهة للفترة التى استغرقتها ظاهرة مماثلة فى الماضى، دون الالتفات إلى أنه مع استمرار التقدم التكنولوجى ، وتسارع معدلات التطور نتيجة لذلك ، لابد أن تتسارع الأحداث بدرجة لم نعهدها من قبل ، فما كان يستغرق نصف قرن فى الماضى قد يستغرق الان عشر سنوات أو أقل ، وما كان يأتي ويذهب خلال عقد من الزمان ، قد لا يدوم فى أيامنا هذه إلا بضعة شهور . فمثلا ظاهرة كظاهرة أم كلثوم أو محمد عبدالوهاب ، اللذين

تربعا على عرش الغناء والموسيقى فى مصر لمدة تقرب من ثلاثة أرباع القرن ، يصعب جدا أن نتصور تكرارها فى القرن المقبل ، حيث لا يتوقع أن تستمر شهرة المطرب إلا سنوات قليلة أو أن يدوم نجاح الأغنية سوى بضعة أشهر .

ثالثا : من الخطأ فى رأيى الارتكان إلى الاعتقاد بأن التقدم الإنسانى هو قانون مطرد باستمرار ، وأن هذا التقدم يلحق كل جوانب الحياة الإنسانية ، بل الأرجح والأقرب إلى المنطق السليم أن نجاح الإنسان فى أمور لابد أن يكون على حساب نجاحه فى أشياء أخرى ، وأن ما نحرزه من تقدم فى جانب لابد أن يكون له ثمن هو التأخر فى جوانب أخرى .

لقد سحرنا التقدم التكنولوچى الذى استمر الإنسان فى إحرازه عبر القرون الخمسة الماضية ، وعلى الأخص فى القرنين الماضيين ، حتى رسخ فى أذهاننا الاعتقاد بأن الإنسان يتقدم بصفة عامة ، وأن التاريخ الإنسانى هو فى مجموعه ، تاريخ الانتقال من الأسوأ إلى الأفضل ، مع أن بعض التأمل لابد أن يؤدى بنا إلى اكتشاف أن التقدم التكنولوچى كان على حساب أشياء أخرى تتعلق بالعلاقات الاجتماعية وبالتطور الروحى للإنسان وبعلاقة الإنسان بالطبيعة .. الخ .

وسوف أتخذ من هذا التحذير الأخير نقطة انطلاق لاستعراض بعض من أهم ما مر به الإنسان خلال القرون الخمسة الأخيرة ، من تقدم وتخلف ، من نجاح وفشل ، على أمل أن يؤدى هذا إلى تحصيننا من المبالغة فى التفاؤل بمصير العالم فى القرن الواحد والعشرين .

● انتصارات مؤكدة

ولنبدأ مع بدايات عصر النهضة ، ولننظر إلى القرنين التاليين ، أى السادس عشر والسابع عشر (١٥٠٠ - ١٧٠٠) فإذا بنا نجد أن الأوربيين وإن كانوا قد حققوا فى تلك الفترة انتصارات مؤكدة نحو مزيد من التحرر ، فقد أصابتهم فى نفس الوقت انتكاسات مهمة فى ميدان الحرية نفسها . لقد أحرز الأوربيون خلال هذين القرنين تحررا ملموسا من سلطان الكنيسة ومن القيود التى فرضتها على الفكر والتقدم العلمى ، عن طريق الانجازات الفكرية والفنية التى ترتبط فى أذهاننا بعصر النهضة وحركة الاصلاح الدينى . ولكن الأوربيين بدأوا فى نفس الفترة فى الخضوع لسلطان جديد لم يكن ذا سطوة من قبل هو سلطان الدولة المركزية القوية . فى بداية القرن السادس عشر نجح هنرى الثامن فى انجلترا فى تحرير بلاده من سلطان البابا فى روما ،

ولكنه قطع في نفس الوقت رأس واحد من أكبر المفكرين فى أوربا وأكثرهم تحررا وهو توماس مور .

فى القرنين التاليين (١٧٠٠ – ١٩٠٠)، أحرز الغرب تقدما ملموسا فى ميدان التحرر السياسى والاقتصادى ، على يد مفكرى الثورة الفرنسية من ناحية، وإنجازات الثورة الصناعية من ناحية أخرى ، فسار خطوات واسعة نحو تحقيق المزيد من الديمقراطية السياسية ونحو رفع متوسط الدخل ، ولكن الغرب دفع ثمنا لذلك يتمثل في ازدياد حجم التفاوت فى الثروة والدخل ، وقهر الطبقة العاملة الصناعية وقهر شعوب المستعمرات ، فإذا بمبادىء الديمقراطية السياسية ومبادىء الاقتصاد السياسى فى ذلك العصر يستحقان الوصف الذى أطلقه عليها كارل ماركس وهو «طرائف البورجوازية» .

فى القرن العشرين شهدنا إنجازات أخرى فى طريق المزيد من التحرر ، فحققت الطبقة العاملة (فى الدول الغربية على الأقل) تحررا ملموسا من الفقر والعوز ، وخفت حدة التفاوت فى الدخول ، وحصلت المرأة على مزيد من الحقوق السياسية والاجتماعية ، وقد يضيف البعض ما حققه الإنسان في الغرب من حريات جديدة فى إشباع رغباته الجنسية، بما في ذلك ما كانوا يعتبرونه ، حتى وقت قريب «شذوذا» فلم يعودوا يعتبرونه كذلك، و«تحرير» صغار السن من سلطة الكبار . ولكن الجميع فيما يبدو قد استبدلوا قهرا بقهر ، وقيودا جديدة بقيودهم القديمة .

لقد ضعف سلطان الدولة حقا ، ولكن زاد سلطان الشركات والمنتجين فى تشكيل رغبات المستهلكين . خفت قيود الفقر المادي والعوز ولكن زادت القيود التى تفرضها حملات الإعلان والتسويق . ربما زادت إمكانية التعبير عن الرأى السياسى المخالف ، ولكن زادت قوة وسائل غسيل المخ مما دفع مفكرا مثل ناعوم شومسكى إلى الكلام عن «حدود التفكير المسموح به». زاد ما تتمتع به المرأة من حرية إزاء الرجل ، وحرية الشاذ جنسيا إزاء غير الشواذ ، وحرية صغار السن إزاء الكبار ، ولكن إطلاق وصف «التحرر» على كل هذا، قد يكون شبيها بوصف الموت بأنه «تحرير» للروح من الجسد ، إذ بتحرر كل هؤلاء ، ماتت العائلة وضعفت روابط الأسرة التى كانت تمد أفرادها بحريات من نوع آخر .

***

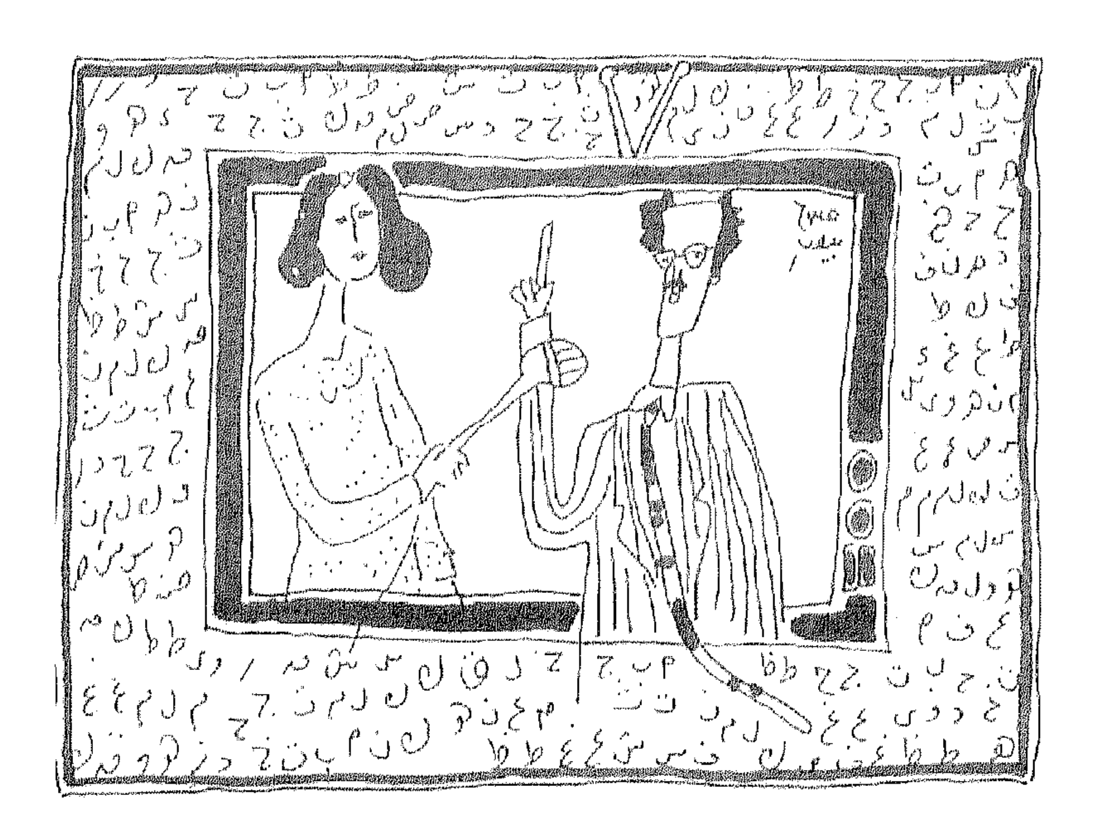
ما الذى يمكن أن ننتظره إذن من القرن الواحد والعشرين ؟ مزيدا من التحرر ؟ لا يكاد المرء يشك فى هذا . ولكن إذا كان هناك أى درس يمكن استخلاصه من استعراض تاريخ القرون الخمسة الماضية ، فهناك على الأقل الدرس التالى ، وهو أنه مع كل تحرر يحرزه الإنسان إذا به يقيد نفسه بقيود جديدة . لا بأس إذن من التفاؤل بالقرن الجديد ، ولكن بشرط أن يكون تفاؤلا مشوبا بالكثير جدا من الحذر .

مستقبل اللغة العربية

بقلم : د. عاطف نصار (★)

حاورتنى مذيعة ذكية تعمل فى تليفزيون جمهورية مصر العربية، حاورتنى هذه المذيعة أكثر من مرة فى شأن اللغة العربية، وفى كل مرة، كانت تسألنى : «هل اللغة العربية فى خطر؟». وفى كل مرة كانت إجابتى واحدة. إن اللغة ليست فى خطر بل أصحاب هذه اللغة هم الذين فى خطر. فليس هناك أخطر من أن يفقد الإنسان لغته، فيصبح بلا لسان، ويعيش بلسان مستعار. واليوم عندما طلبت هذه المجلة العريقة (مجلة الهلال)، أن أكتب مقالاً فى موضوع مستقبل اللغة العربية أيقنت أن الموضوع ليس مستقبل اللغة العربية بل هو مستقبل الأمة العربية . هذه هى القضية . وهذا هو اجتهادنا نضع فيه خلاصة عمرنا وتجاربنا وشواهدنا ورؤيتنا ، وهى قضية عامة لابد أن تخرج بتصور يقبل التطبيق . فماذا نقول؟

(★) رئيس جمعية لسان العرب للغة العربية .



● معنى البحث فى المستقبل

المستقبل كلمة محددة تعنى الزمن الذى يلى الزمن الحاضر ، إلا أن هذه الكلمة قد تحتمل تعتيماً بلا حدود، كما تحتمل تنويراً بلا حدود . وما بين التعتيم والتنوير درجات من الدلالات بحسب توظيف الكلمة وبحسب هدف الكلام أو التفكير أو البحث أو صنع القرار أو اتخاذ القرار . وحتى ندخل فى موضوعنا دخولاً مباشراً فإننا نقول بأن شأن اللغة العربية عندما يبحث ، استشرافاً لكيان هذه اللغة فى المستقبل فإننا نجد أنفسنا أمام ثلاثة اتجاهات ، الاتجاه الأول هو الإيمان بأن هذه اللغة لن تخضع أبداً لعوامل التآكل والانهيار، فإنها لغة القرآن الذى تكفل الله بحفظه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ «الحجر : ٩».

ولقد عاشت اللغة العربية أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان وانتشرت فى كل أرجاء المعمورة ويتكلمها حوالى أربعمائة مليون عربى، ويتعبد بها حوالى مليار مسلم . الاتجاه الثانى هو اتجاه برد فعل مضاد يهاجم اللغة العربية، ويشكك في صلاحيتها لحمل اغراض الحياة العلمية والعملية والتعليمية والتجارية ، وتتشعب عن هذا الاتجاه دعوة إلى إحياء اللهجات المحلية العربية أى ما يصطلح عليه بالعامية كما يتشعب أيضاً عنه اتجاه إلى إحياء لغات إقليمية اندثرت أو توارت عن الاستعمال . أما الاتجاه الثالث فهو التناول العلمى الهادىء للقضية فهو لا

يأخذ بالأمانى وبمجرد أن اللغة العربية هى القرآن وهى لغة الرسول ﷺ وهى لغة أهل الجنة . إن البحث العلمى الذى يعبر عنه هذا الاتجاه يتجاوز مرحلة الأمانى إلى مرحلة اقتحام الموضوع بصيغة علمية لا تعانى من أى حساسية . وهذا هو منطوق القرآن الكريم فى بحث مسائل اللغة كما سيأتى فى صلب هذا المقال، ويتميز هذا الاتجاه بأنه لا ينفعل ولا يغضب من رد الفعل العنيف لأصحاب الرأى الذى يشكك فى قدرة اللغة العربية ويحاول أن يعلن وفاتها أو يحاول أن يحصرها فى أروقة المساجد يحولها إلى لغة طقوس دينية وليست لغة للحياة العلمية والعملية .

● دراسة المستقبل

إن الاقتراب الصحيح من مفهوم كلمة المستقبل هو أنه ليس رجماً بالغيب وليس ركوناً إلى قدرة خارقة وتغنياً بالأمانى كما أنه ليس انفعالاً غير محسوب . المستقبل عبارة عن دراسة تخطيطية محضة تستند إلى معلومات وحقائق ، تضع أهدافاً لإنجازات محددة بزمانيات محددة وإمكانيات محددة ، ومراجعات محددة، فهى تقفز على المستقبل تضع له القواعد وترسمه رسماً دقيقاً بأرقام وزمان ومكان وبشر، ومؤسسات واعتمادات . هذه هى مفردات صناعة المستقبل ورؤية المستقبل أو بعبارة أخرى التخطيط للمستقبل بخطط ذات برامج وتوقيتات ومراجعات . ومرة أخرى نحاول أن نربط هذه المفردات بصناعة مستقبل اللغة العربية فماذا نقول؟.

● أطراف صناعة مستقبل اللغة العربية : المفهوم أولا :

المفهوم : لا يستند المفهوم العلمى لأى لغة إلى عصبية ، ولا يغذى جاهلية أو نزعة عرقية . وقد بلغ هذا المفهوم منتهاه فى اللغة العربية . وينبع هذا المفهوم من القرآن الكريم وهذه حقيقة علمية ، كان من الطبيعى أن يبدأ بها البحث ، حيث إن القرآن الكريم هو المرجع الأساسى فى بحوث اللغة العربية ونظرة هذه اللغة إلى غيرها من اللغات . يقول القرآن الكريم ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار واختلاف ألسنتكم. إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾ «سورة الروم ٢٢». تعدد اللغات والتعارف بين اللغات هو الأساس ويأتى هذا تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ «الحجرات: ١٣» وهذه هى حقيقة علمية تؤكدها أيضاً الدراسات الإنسانية الحديثة. وهناك حقيقة علمية أزلية أخرى هى أن اللغة ليست موهبة وليست عطية أو هبة خارقة يختص بها فرد دون فرد أو شعب دون آخر ، فإن الحقيقة العلمية الأزلية التى تنزل بها القرآن الكريم هى مبدأ التعليم ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ . أى أن التعليم هو أساس اكتساب اللغة تسانده حقيقة علمية أزلية أخرى هى

القراءة. وقد كانت هذه الحقيقة هى القاعدة التى انطلق بها رسول الله ﷺ صادعاً بأمر الله تعالى ﴿إقرأ﴾ ومثبتا لمفهوم التعليم بالكتابة فى قوله تعالى : ﴿الذى علم بالقلم﴾.

هذا هو مفهوم اللغة فى القرآن الكريم وهو مفهوم متكامل سبق ما وضعه علماء اللسان والإنسان فى شأن اللغة ، وتستند أحدث النظريات العلمية التى انتهى إليها اجتهاد الإنسان فى الكلام إلى أن هذا النشاط هو حصيلة لعملية بيولوچية تبادلية بين مراكز ثلاثة من المخ البشرى، المركز الأول هو الاستماع والمركز الثانى هو تسكين الاستماع فى صور يتعرف من خلالها المتكلم على ما سمعه وصوره ثم حفظه فى ذاكرته أما المركز الثالث فهو الذاكرة . والعملية فى مجملها عملية تعليمية توظف لها مراكز محددة من المخ البشرى فى اكتساب قدرة محددة ، وتنمو هذه القدرة بنمو الطفل وازدياد المحصول من المفردات ، بالتقليد والتلقين والتعليم والقراءة.

هذه العملية البيولوچية لا تحمل جنسية لغة معينة فهى ذات المنظومة التى تتكون بها القدرة اللغوية بصرف النظر عن جنسية المتكلم. وأما اختلاف اللغة واختلاف الأسماء على المسميات، فيرجع إلى عوامل بيئية وتراثية وتراكمية، مثلما يرجع اختلاف الألوان والأطوال والأجسام إلى تلك العوامل .

واللغة بهذا المفهوم هى كائن حى مصنوع. هى كائن حى لأنها تحمل كل أنشطة الإنسان العلمية والعملية والتعلمية والروحية والإبداعية بأنواعها . وهى كائن مصنوع لأنها تصنع فى هذا المعمل الإلهى العظيم وهو المخ البشرى بمراكزه المكونة لمهارة الاستماع والتصوير والكلام والتخزين . وهذه كلها تأتى بالأداء التلقائى ثم تتدرج بالتلقين والتقليد ، ثم تتدرج أكثر على مراحل تنموية مرسومة مخططة بالتعليم والقراءة، وتكون تراكمية مهارات الاستماع والكلام والقراءة والكتابة والإبداع التى تعيش وتزدهر بالمتابعة والرعاية . وإذا تحدثنا عن الرعاية فى الحاضر أو المستقبل فنحن نتحدث عن رصد للواقع وتحديد لأهداف مستقبلية وتخطيط لسد الفجوة بين الواقع والمستقبل . ولا يكون هذا بالطبع بتبادل الأمانى أو الاستسلام للواقع بسلبياته وإيجابياته، ولكنه يكون بتحديد دور كل صاحب علاقة فى مجتمع تعددت فيه الكيانات واشتبكت ولكنها تؤثر فى بعضها البعض وتكون المجموع الواحد للشكل العام سواء كان هذا الشكل اقتصاديا أو اجتماعياً أو سياسياً أو تعليمياً أو إبداعياً. والعجيب أن اللغة هى نسيج الأوعية الدموية التى توفر الحياة لكل هذه الكيانات.

● أطراف العلاقة فى مستقبل اللغة العربية

بدأت هذه الأطراف محدودة بسيطة معدودة شأنها شأن البداية فى كل اللغات بالمنشد والشاعر والزعيم . أما جمهور

المستمعين فهم عامة الناس الذين يستمعون فيطربون أو يستمعون فيطيعون. كانت حصيلة هؤلاء ثروة لفظية جاءت من قصص الملاحم والأساطير وقصائد الشعراء ثم من الخطباء وربما الحكماء.

هذه مرحلة لا ندخل فى بيان تفصيلاتها ونموها حيث كانت الفطرة وتطور الحياة الطبيعية هما اللذان يوفران الرعاية للغة فى تلك الفترة وحيث لعب نشاط التجارة والتعليم ونشاط الحكماء والفلاسفة ، دوراً فى هذه الرعاية. أما فى العصر الحاضر فقد تعددت أطراف العلاقة فى رعاية وتحديد مستقبل اللغة العربية ودور هذه الأطراف على الوجه التالى :

● المؤسسات التشريعية

المؤسسات التشريعية هى روح الأمة وعقلها وطموحها . وفى ضوء ذلك فإن دورها فى رعاية مستقبل اللغة العربية هو تنقية التشريعات السائدة مما يؤثر على حماية ورعاية اللغة العربية، مع ضرورة نص جامع تلتزم به المؤسسات التنفيذية.

● المجامع اللغوية العربية

نشأت مجامع اللغة العربية بمفهوم الحراسة والحماية. وقد تطور نشاط هذه المجامع قليلاً وأصبح ينظر إلى المستقبل بتطلعات إصلاحية تعليمية تمنع من تآكل اللغة وتساعد على استيعابها لتطورات الحياة العلمية والعملية. ولكننا وبعد استعراض جهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة على سبيل المثال لا نرى أن أعمال المجمع تسير علي خطط محددة ببرامج محددة كما أنها تعيش فى عزلة عن سائر مؤسسات الأمة الأمر الذى يحول دون وصول منجزات هذه المؤسسات الضخمة إلى جمهور المستعملين ، وهذا يتطلب بطبيعة الحال إعادة صياغة مفهوم المجامع اللغوية ونظام عملها وتشكيلها .

● كليات اللغة والآداب والألسن والمعلمين

قد يبدو مزج هذه المؤسسات تحت عنوان واحد كما لو كان نوعا من اللبس أو الخطأ . والحقيقة أن هذه الكليات جميعاً تغذى أول ما تغذى جهاز التعليم . هى بالطبع تغذى القطاع الثقافى لكن تغذيتها للقطاع الثقافى تكاد تكون محدودة . أما تغذيتها للقطاع التعليمى فهى كبيرة تحتاج إلى تطوير شديد كما أنها تحتاج أيضاً إلى اقتحام قطاع الحياة العملية . فإذا ركزنا على القطاع التعليمى فلابد أن يركز التطوير والتخطيط للمستقبل على تدعيم اللغة العربية أولاً ثم تدعيم تعليم اللغات الأجنبية بحيث يكون المتخرج بعد التعليم العالى على دراية وافية بلغة أجنبية واحدة على الأقل إلى جانب لغته الأصلية . وأما اقتحام الحياة العملية فيكون بتكوين المحرر والمترجم والمهندس والطبيب والفيزيائى والقانونى ورجل الأعمال ، وهكذا باقى التخصصات.

وقد كان هذا النشاط مزدهراً بالفعل فى الخمسينات ولابد له من عودة وإحياء . أما التطور الآخر فيكون بتخريج المصحح والمراجع اللغوى الذى يتواجد فى كل مؤسسة أيا كان نشاطها فتكون مهمته مراجعة وتنقيح كل ما يصدر عن هذه المؤسسات ومراجعة وتنقيح ما يصدر من تصريحات وأحاديث على لسان رؤساء هذه المؤسسات . وهذا نشاط معروف ومطبق لدى كل الأمم المتقدمة .

● كليات العلوم الأساسية والتطبيقية

تكاد تعيش هذه الكليات فى عزلة عن التخطيط لرعاية اللغة العربية فى الحاضر أو المستقبل إلا من جهود فردية ، ومن ثم ينحصر الدور المرحلى لهذه الكليات فى تعريب وتدريس العلوم الأساسية والتطبيقية باللغة العربية وإنشاء شبكات معلومات تخصصية فى كل مجال تحقيقا للتكامل ، ونفياً للازدواجية.

● مؤسسات الإبداع والإعلام

كان المسرح هو المعين الأكبر لازدهار اللغة العربية خاصة فى مجالات فنون الحديث والإلقاء . وقد تنوعت مجالات عرض الإبداع التمثيلى . فهو الآن على خشبة المسرح وعلى شاشة السينما وعلى الشاشة الصغيرة للتليفزيون ، وهو عبر الأسماع من خلال الإذاعة . وفى ضوء كل ذلك فإن دور هذه المؤسسات هو التحول تدريجياً فى كل التمثيليات الإذاعية والتليفزيونية خاصة الفضائية إلى العربية الفصحى، ويسرى هذا على سائر البرامج كلما أمكن ذلك، فإذا تعذر فيكون بالعامية السليمة . إن العامية إذا كانت سليمة كانت نوعاً من الحديث العربى الفصيح. وقد نشأ نشاط جديد فى الحياة العصرية هو النشاط الإعلامى والإعلانى وأصبحت واجهته الكبرى هى السينما والتليفزيون وهذا يتطلب أيضاً رعاية للغة العربية السليمة فى نشاطها أسوة بما هو متبع فى كل الألسن وحيث يركز الإبداع فى هذا النوع من النشاط على إمتاع الصورة والحوار وليس إمتاع التدنى فى الألفاظ أو خلطها بألفاظ دخيلة .

● المؤسسات التجارية

تتسلل كل دواعى الهدم والحروب الاقتصادية المستعرة من خلال الترويج الضخم للمنتجات غير القومية التى تدخل إلى البلاد بأسمائها الأجنبية والتى تغير من نمط كل شيء بدءاً بنمط الاستهلاك إلى نمط العادات وأسماء المحلات والعلامات التجارية بل وأسماء العلامات التجارية للمنتجات العربية، حيث تعطى أيضاً أسماء أجنبية ، ومن هنا فإن دور المؤسسات التجارية هو أن تكون مؤسسات عربية . أما تبادل المنتجات وتبادل الأنشطة فيكون إما بلغة البلاد أو بلغتين أولاهما اللغة الوطنية وثانيتهما لغة المنشأ.

● المؤسسات التعليمية الخاصة

انتشرت موجة طاغية فى عدد من البلاد العربية تحمل اسم مدارس اللغات تكون فيها اللغة الأجنبية هى لغة التدريس

الأولى وكأن اللغة العربية ليست لغة علم أو تعليم . وقد انتشرت هذه المؤسسات بكل أسف على المستويين الرسمى والأهلى، وكونت أخطبوطاً رهيباً قد لاتصعب مواجهته والقضاء عليه ، ونحن لا نريد القضاء عليه قضاء مبرماً ولكننا نريد ترشيده بتقديم اللغة العربية أولاً ثم لغة أخرى. وقد لايتسنى هذا إلا من خلال مبادرة فردية قوية تقدم النموذج الذى ليس بعده نموذج، وذلك بإنشاء سلسلة من المدارس تسمى مثلاً مدارس لسان العرب تهتم بالعربية المكثفة جنباً إلى جنب مع لغة أجنبية واحدة على الأقل . والطريف أن مثل هذه المدارس نشأت فى عقر الولايات المتحدة الأمريكية ونحتاج بشدة إلى وجودها القوى فى عقر لسان العرب.

● الجمعيات الأهلية والأفراد

قامت الجمعيات الأهلية والأفراد فى دول كثيرة بالاهتمام برعاية لسانها داخل الوطن الأم وخارج الوطن الأم، مثال ذلك مؤسسات معاهد جوته الألمانية ومراكز الثقافة الفرنسية ومراكز المعاهد البريطانية المنتشرة فى أنحاء كثيرة من المعمورة تحت عنوان المجلس البريطانى. ولا توجد جمعية واحدة عربية تقوم بمثل هذا النشاط . والطريف أن مثل هذه الجمعيات الأهلية تسبق المجهود الحكومى فى رعاية التعارف بين اللغات وذلك بنشر لغاتها فى غير أوطانها . وقد أصبحت جمعيات لسان العرب ضرورة ملحة بعد أن تزايد الطلب على اللغة العربية، فقد تزايد هذا الطلب عليها من كثير من الدول التى تتعبد باللغة العربية . ومع ذلك فإن المطلوب ليس رجال الدين ولكن المطلوب هو رعاة لتعليم اللغة العربية والثقافة العربية تمكيناً لهؤلاء المتعبدين من الرجوع إلى مصادر العلم بدون وسيط ، وبدون بيروقراطيات المؤسسات الحكومية .

● المؤسسات العلمية الرسمية والأهلية

ونقصد بها مؤسسات البحث العلمي على إطلاقها ، ويقع نشاطها كله تحت باب المستقبليات ، أى تحت باب التخطيط للمستقبل ، ولا أحسب أن كثيراً منها يبحث فى شأن اللغة العربية والمستقبل، فهى تتصور أن بحوث اللغة العربية، هى بحوث النحو والصرف والبلاغة، وما يتفرع عن ذلك من إبداع وأدب ونقد، وهذه ليست كل علوم اللغة العربية بل هى فرع من تلك العلوم، أما علوم اللغة العربية فهى كل العلوم التى تُدْرَس وتُدَرَّس ويجرى البحث فيها باللغة العربية، ويتبع ذلك كل التقنيات التى تدخل على تدريس هذه العلوم، وأوضح مثل على ذلك هو استخدام الحاسوب فى اللغة وتوظيف الحاسوب فى رعاية هذه اللغة فى الحياة العلمية والعملية. وأما دور مثل هذه المؤسسات تحديداً فهو متابعة المصطلح العلمي وترويج استعماله، ومتابعة وتنشيط عمليات البحث والتأليف فى كل العلوم

باللغة العربية ، وإذا تصورنا على هذا النحو حجم النشاط فى أى مؤسسة علمية، فإن المستقبل بل والحاضر يحتمان أن يكون حجم النشاط مناصفة، النصف الأول للترجمة أما النصف الآخر فيختص بالبحث والمتابعة والتأليف.

هذه أمثلة للمؤسسات ذات العلاقة فى تحديد ورسم مستقبل اللغة العربية ، فهل هناك خطة وهل هناك دور، وما هى حدود الفجوة بين الواقع والخطة وما هو نوع الفرص والمنجزات المتاحة. وباختصار شديد جداً ماهى أبعاد صورة الواقع وما هى المحاذير والمعوقات التى قد ينحدر إليها هذا الواقع أو ما هى فرص العمل الحقيقية التى تمنع من الانحدار فى مصيدة المعوقات وبالتالى فى الأخطار، وهل هى بالفعل أخطار خاصة باللغة أم أخطار خاصة بالأمة .

● الفجوة بين الواقع والمستقبل

نستطيع بعملية حسابية بسيطة أن نحدد الفرق بين الواقع والمستقبل . المستقبل هو الخطة والهدف الذى تسعى إليه الخطة، والواقع الذى تحاول الخطة أن تتخطاه إلى المستقبل، وقد أوضحنا فى حديثنا عن أطراف العلاقة فى تحديد المستقبل، لمحات فى وصف واقع اللغة العربية ، فإذا أضفنا ما أشرنا إليه من لمحات مما استطعنا أن نجمعه من رصد واقع اللغة العربية ، اتضحت لنا الفجوة بين الواقع والمستقبل الذى يجب أن نستهدفه أى عملية تخطيطية قصيرة أو متوسطة أو بعيدة المدى على الوجه التالى:

١ – حدوث اغتراب بين عملية تعليم اللغة العربية والمتعلمين ، وربما بين المعلمين لهذه اللغة وما يصنعون فيها كمعلمين ، وتشخيص هذه الظاهرة ، يشير إلى الكتاب وإلى المناهج ، والتوجه والتوجيه نحو تكوين مهارات الاستماع والقراءة والكتابة والإبداع، ومهارة البحث، ثم مهارة إنشاء المحبة بين كل الأطراف بدءاً بالطفل واللغة والمعلم والكتاب.

٢ – حدوث اغتراب بين اللغة العربية ولغة الإعلام بكل أنواعه المسموع والمشهود والمقروء.

٣ – حدوث تهاون بين لغة العمل واللغة العربية .. ابتداء من لغة المكاتبات ، ولغة الخطاب الرسمي والشعبى، إلى لغة الإعلام المقروء والمسموع والمشهود ، وبرغم طغيان برامج اللغة العربية السليمة فى الإذاعة، إلا أن التهاون العام فى استعمال اللغة السليمة تجاوز المدى، وتنطبق هذه الظاهرة على كل الوسائل الإعلامية ، لا فرق بين جريدة وجريدة ، أو بين إذاعة وإذاعة أو بين فضائية وغيرها.

٤ – نشأت دعوة قوية منذ الخمسينيات تدعو إلى تعريب تدريس العلوم وبخاصة العلوم الصحية والطبيعية، وكذا تعريب تدريس العلوم التطبيقية ،

وتشهد هذه الدعوة الآن نكسة مخططة إذ تنشأ موجة عارمة تدعم انتشار التعليم باللغة الانجليزية والفرنسية مما يؤدى إلى اندثار اللغة العربية سواء فى التعليم العام أو العالى ، وبذا لم تعد الدعوة الآن إلى تعريب تعليم الطب والهندسة والعلوم، بل إنها تمتد لتشمل تعريب تعليم القانون والإدارة والتجارة.

٥ - انتشر توظيف الحوسبة فى خدمة كل العلوم، وامتد بالتالى إلى اللغة العربية، وقد أصبح هذا النشاط نشاطاً تجارياً رائجاً ، وقد تبدو هذه الظاهرة ظاهر محمودة ، ويلاحظ أن معظم القائمين على هذا النشاط من الأجانب ، وقد يكون هذا أيضاً شيئاً مقبولاً ، إلا أن مخرجات هذا النشاط ينصرف بشدة إلى خزن وتبويب وتصنيف كل النصوص والمعلومات الدينية وما فى حكمها ، وهذا أيضاً نشاط محمود، إلا أن خطورة هذا الاتجاه أنه ينصرف فقط إلى شئون المعرفة الدينية، ولا يمتد إلى شئون العلم والحياة على إطلاقها ، وهذا معناه هو تحويل اللغة العربية تدريجياً إلى لغة دينية فقط ، وليست لغة دين ودنيا كما قصد بها أن تكون .

٦ - وتوجد مؤسسات إعلامية غير عربية تحرص حرصاً شديداً على رعاية اللغة العربية، وتنمية ذخيرتها من المصطلحات بتغذيتها بمصطلح عربى لكل ما يطرأ على الحياة من مستجدات، وهذا أيضاً اتجاه محمود، إلا أن خطورته تشير إلى أن تعليم العربية الصحيحة وترويجها، لن يكون بجهود أبنائها، وإذا كان بجهود غير أبنائها ، فلن يكون بالسعر الذى يقدر عليه عامة أبنائها.

هذه لمحات من رصد واقع اللغة العربية وما يشير إليه من فجوة عميقة بين ما هو كائن، وما ينبغى أن يكون فى المستقبل .

● حديث الخطر

بدأنا هذا المقال بهذا التساؤل، هل اللغة العربية فى خطر؟ وأما موضوع هذا المقال فهو مستقبل اللغة العربية ، ولا يكون حديث عن المستقبل إلا حديثاً بأمل، أو حديثاً بخوف من خطر ، وفى كلا الحالين، فإن السؤال يحتاج إلى رد حتى يستوفى هذا المقال الغرض منه ، والإجابة بسيطة ، إن مستقبل اللغات جميعاً، العربية والفرنسية والألمانية ولغات أخرى غيرها، ليس هنا مجال لحصرها، مستقبل هذه اللغات جميعها فى خطر، هى تشعر بذلك ، وتستشعر مكامن الخطر، وتواجهه بخطط تعليمية قومية سياسية، سيادية. اللغة هى علم الأمة، وهويتها وليس هذا كلام شعراء أو كلام منشدين. اللغة هى قاعدة العلوم كلها. وهى قاعدة الأمن والأمان لأى أمة.وعندما قامت قاعدة علمية عريقة من بغداد إلى الأندلس، قامت على أعناق لغة عربية تحمل فى رأسها كل مخزون مصطلحات العلوم العربية واليونانية بل والهندية والفارسية وقليلاً من الصينية، وعندما قامت قاعدة للعلوم على

عهد محمد على باشا والى مصر العظيم رغم الجدل، قامت على قاعدة متينة من اللغة العربية، قامت عليها قاعدة علمية فى الهندسة والطب وعلوم الحرب والدفاع. وعندما كسرت مصر والدول العربية جميعاً فى حرب ٦٧، كان رد الفعل هو إقامة قاعدة علمية عسكرية مهولة بلغة عربية، أساسها أن كل علوم العسكر منذ عهد محمد على باشا حتى الآن تدرس بالعربية، ولو كانت بغير العربية لكانت إسرائيلية، ولن يهزم الأمم علمياً وعسكرياً إلا بناء قواعدها العلمية والعسكرية والإبداعية بلغة غير لغتها الوطنية..

وأنا لاأدعى أننى تناولت فى هذا المقال رسم صورة للغة العربية فى المستقبل، ولا أدعى القول أن اللغة العربية فى خطر ، بل إننى تناولت فى هذا المقال، قضية واحدة هى أن الأمة العربية كلها فى خطر ، لأنها تكاد تفقد لسانها فى الشارع وفى المدرسة وفى الفندق وفى المستشفى بل وفى البيت، لأن مربية البيت لم تعد حليمة السعدية إنما أصبحت الفلبينية كما أن المنتج أصبح أيضاً باسم غير عربى حتى أسماء المخبوزات وأسماء اللقيمات الشعبية أصبحت تأخذ أسماء غير عربية.

● وثيقة لسان العرب

ومع ذلك فإن الأمة العربية لم تعد جثة هامدة، ولذلك لا أجد ختاماً لهذا المقال، إلا تلك الوثيقة التى وقعها كل المشاركين فى المؤتمر السنوى الخامس لجمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية الذى عقد فى جامعة الدول العربية بالقاهرة فى نوفمبر ٩٨ بعنوان : «دور المؤسسات فى تخطيط مستقبل اللغة العربية».. والقول بعد ذلك قول المجتهدين جميعاً، أما الوثيقة فتقول :

«نحن الموقعين علي هذه الوثيقة نقرر بأن عملية تخطيط رعاية مستقبل اللغة العربية ، هي ضرورة قومية ملحة ، تحتاج إلي تضافر كل الجهود، وتنسيق الأدوار، وصولاً إلي تحقيق الهدف، أن تكون اللغة العربية لغة حاوية لأنشطة الحياة العلمية والعملية والتعليمية والإعلامية والثقافية، والترويحية ، وأن يكون النقل من اللغة العربية وإليها نشاطاً مستمراً منتظماً ومخططاً، يخضع للمتابعة الدقيقة، وتنظيم مخرجات هذا النشاط، وأن يكون هذا النشاط متوازياً مع مخرجات العلوم والمعرفة والأدب، بألسن غير عربية، وعلي أن يكون التنسيق حياً متواصلاً مع جهود كل المؤسسات العربية، وأن تقوم علاقات متكافئة مع اتحادات المؤسسات العربية والمؤسسات غير العربية، وذلك كله فى إطار الدور المقترح لكل مؤسسة عربية كما هو موضح فى ملحق هذه الوثيقة» .

وأما ملحق وثيقة لسان العرب بصياغة مستقبل اللغة فهو يحدد تصوراً بدور مرحلى محدد للمؤسسات الرسمية والأهلية، وقد جاء هذا التصور متسقاً مع ما جاء فى مضمون هذ المقال.

بقلم : د . شكرى محمد عياد

أصل الحكاية

«حكايات من عصر الفرسان» هو العنوان الذى اختاره الأستاذ محمود عبدالوهاب لمجموعته الصادرة هذا العام . ومع ذلك فقد أضاف إلى العنوان ، وعلى الغلاف نفسه ، التصنيف المعهود «قصص قصيرة» .

فما هو أصل الحكاية ؟ هل هو نوع من التردد بين شكل قديم وشكل مستحدث ، أو شكل شعبى وآخر أدبى ، أم أصبح القديم جديداً ، والجديد أصيلا ، فإذا قلنا «حكاية» لم تعرف حقيقتها إلا بردها إلى الجنس الأدبى المعروف «قصة» ؟ أم إن هناك فارقا جوهريا ، حقيقياً ، بين الحكاية والقصة ، بحيث يجوز لنا أن نقول للكاتب: أوقعتنا فى الشك ، فنحن الآن لا ندرى : هل نقرأ كتابك على أنه حكايات ، أو على أنه قصص ؟

نحن دائما فى صراع مع الأسماء ، ولكننا - حين نتخاطب - نضطر أن نلزمها حدوداً معينة. وفى هذا الموضوع بالذات ، موضوع القصة والحكاية ،نعرف مواضع لا يمكن أن تحل فيها إحداهما محل الأخرى : فنحن نقول مثلا : قصص الأنبياء ، ولا نقول أبداً «حكايات الأنبياء» ،وإذا رأيت إنساناً يبدو عليه الهم ، فإنى أسأله : «ما القصة» أو «ما قصتك؟» أى ما الذى حدث لك هذا

الصباح ،أو بالأمس القريب ، فجعلك تبدو بهذه الحالة ؟ ولكننى إذا رأيته غاضبا ، وشككت أنه ربما كان يفتعل الغضب ، فإننى أسأله : «ما حكايتك؟» وإذا سمعت لغطاً كثيرا حول موضوع ما ، أو إنسان ما ، فإننى أسأل من أتوسم فيه الصدق . «ما أصل الحكاية ؟» وفى الغالب سيكون أصل الحكاية هذا واقعة بسيطة ، أما إذا كانت «الحكاية» طويلة ومعقدة، فهنا يمكن أن يقول لى : «إسمع يا سيدى القصة» .

إن كان ثمة فارق جوهرى بين القصة والحكاية فأغلب ظنى أنه هذا : أن القصة تحمل دليل صدقها (أو مصداقيتها كما يقال الآن) فى ذاتها ، فى منطقها أى تسلسل أحداثها ، أو فى مصدرها الذى لا ينبغى أن يرقى إليه الشك . أما الحكاية فتحمل دليل صدقها فى شواهد خارجية، يمكن اختبارها . وبما أن «طرق اختبار الوقائع الخارجية» تختلف من عصر إلى عصر ، ومن ثقافة إلى ثقافة ، فإن وقائع السحر والجان فى ألف ليلة وليلة مثلا لا تخرجها عن كونها حكايات ، لأن السحر والجان حقائق مختبرة فى مستوى معين من الثقافة ، وأنت تصادف ، ولاشك ، أشخاصاً مستعدين أن يحلفوا لك أنهم رأوا جنيا ، أو على الأقل أن قريبهم فلانا رأى جنيا ، وأن الساحر فلانا استخرج «عملاً» من قاع بئر، الخ .. الخ .. ولذلك تمتزج هذه الوقائع فى حكايات ألف ليلة وليلة بأدق المشاهدات فى الأسواق والبيوت دون أن يبدو فى ذلك أقل غرابة، بشرط أن تضع نفسك فى جو الحكاية الثقافى .

مرجعية القّص هى مفتاح القراءة الصحيحة لأى عمل قصصى ، وهذه المرجعية ترجع إلى طرفين : طرف التسليم والاعتقاد ، وهنا يظهر تأثير الوجدان ، والعقل الباطن ، والموروث الثقافى ، وطرف الخبرة والمعرفة ، وهنا يظهر تأثير العلم ، والملاحظة الدقيقة ، والتجربة المباشرة . وبين هذين الطرفين يمكن للإبداع أن ينطلق ، فيكون لكل عصر أشكاله القصصية السائدة تبعاً لمعتقدات ذلك العصر ونظامه المعرفى ، ويكون لكل قصاص ، ضمن هذه الأشكال أو ضد هذه الأشكال ، اختياره الخاص بحسب تكوينه الفكرى والنفسى .

فيم يتجسد هذا الاختيار ؟

هل يمكن أن يتجسد فى شىء آخر غير اللغة؟

لقد عودتنا الدراسة التقليدية للغة أن ننظر إليها فى حدود الجملة : مفرداتها وأنواع الارتباط بين هذه المفردات ، أى الصرف والاشتقاق من ناحية ، والنحو من ناحية أخرى . ولكننا يجب أن نتعلم النظر إلى «الفعل اللغوى» على أنه وحدة : يمكن أن تكون بسيطة بحيث لا يخرج الفعل اللغوى عن كلمة واحدة ، كصيحة تعجب

أو فـرح أو فـزع الخ ، ويمكن أن تكون الوحدة اللغوية مركبة وطويلة ، بحيث تبلغ مئات الصفحات ، كما فى الأعمال الروائية الكبيرة ، فكل عمل أدبىء طال أو قصر ، هو عند التحليل الأخير فعل لغوى ، يراد به إحداث تأثير معين . وبديهى أن هذا التأثير يمكن أن يتفاوت تبعا لمقدرة كل قارىء على استيعابه ، وأن الاستيعاب لا يكون بالنظرة الإجمالية ، التى تتوقف عادة عند جوانبه الأكثر قرباً من تجربة القارىء الذاتية . وإنما يتطلب الاستيعاب أن نحلل «هذا الفعل اللغوى المعقد» بنفس الدقة التى يحلل بها النحوى أى جملة من جمله.

علاقة الكاتب بموضوعه

وربما كانت التفرقة التى أجملناها بين الحكاية والقص مفتاحاً جيداً لتحليل الأعمال القصصية ، من حيث إنها تبين لنا علاقة الكاتب بموضوعه ، وتظل ماثلة أمامنا فى اختياره للغته القصصية . وقد أجمل بعض النقاد أنواع اللغة القصصية فى نوعين اثنين : لغة وصفية ، تعامل الموضوع فى إطاره العام وتفاصيله الجزئية كما لو كان شيئا ثابتا ، ومهما تعددت المشاهد تظل العلاقة بينها ثابتة ، ولغة درامية ، تعامل الموضوع على أنه سلسلة من الأحداث المتحركة ، المتغيرة ، فمنها ما يصدر فيها التغيير عن إرادة وقصد ، وقد تتعارض الإرادات فيكون الصراع ، وقد تكون ثمة إرادة مهيمنة نسميها القدر مثلا . ومهما فصلنا فى هذا التقسيم الإجمالى فإن العلاقة بالموضوع ، أو الواقع ، أو الوجود ، تظل أوسع من كل تفصيل ، وتظل الدلالة عليها باللغة همًّا يغوى الكاتب ويجهده . على أن العلاقة بالموضوع ليست كل شىء فى صنع اللغة القصصية ، فهناك العلاقة بالقارىء أيضا ، وهو موجود دائماً فى النص ، إما صراحة وإما ضمنا ، مثل الكاتب نفسه . ولغة القص يمكن أن تكون طُعماً لاصطياد القارىء ، ويمكن أن تكون موجا يستلقى عليه (إن كان يحسن السباحة) ويتأمل البحر فى امتداده حتى يلتقى بالأفق ، ويمكن أن تجعله يضحك أو يبكى أو يغضب ، وهو يشارك أبطال القصة فى نوع الحياة التى يحيونها . وهناك أخيراً علاقة الكاتب باللغة نفسها ، فاللغة تميل بحكم وظيفتها الاجتماعية إلى أن تكون حيادية ، فكل تعبير ، مهما يكن فى أصله نابضا بالعاطفة ، أو دقيقا فى رسم الصورة ، لا يلبث أن يستحيل إلى معنى جامد، ولغة القص تخلو من هذه الحيادية وإن لم تفقد علاقتها باللغة الاجتماعية (وفى هذا تختلف عن لغة

الشعر) . وإن لغة قصصية محايدة تماما - وإن سميناها موضوعية أو واقعية الخ - لن تعطينا إلا عالماً ميتا ، مثل مدينة النحاس فى ألف ليلة وليلة . لا جرم أن الشعر والقصص معا هما اللذان يحميان اللغة - ومن ورائها المجتمع - من هذا المصير.

والشعراء لهم كلام كثير عن معاناتهم مع اللغة ، ولكن الروائى أو القصاص قلما يصفان هذه المعاناة .

ومن هذا القليل - وإن ظل واقفاً على الشاطىء ، ولم يدخل فى غمار التجربة اللغوية - ما يقوله محمود عبدالوهاب فى تقديم مجموعته إلى «صديقه القارىء» (ولابد أن يكون القارىء صديقا) :

«كتبت هذه الحكايات فى الفترة من أواخر الستينيات إلى أوائل السبعينيات .. وطوال هذه السنين كنت أعيد قراءتها من آن لآخر ، أحذف منها وأضيف إليها فى محاولة يبدو أنها بلا نهاية لإيضاح الغامض وإضاءة المعتم وبتر الزاعق ونفى النشاز» .

معنى ذلك أن إخراج النص استمر اكثر من عشرين سنة . ومن المسلم به أننا إذا نظرنا إلى عمل الكاتب - أى كاتب - على أنه وحدة ، فسوف نلاحظ فيه مثل هذا الاستمرار ، ولكن ثمة وقفات بين عمل وآخر ، وقفات يفرض فيها الموضوع مع ما يحيط به من مناخ ثقافى ونفسى ، خاص أو عام ، اكتمالاً جزئياً ، وإن يكن قلقا ، وهنا حالة مختلفة ، سواء نظرنا إليها من جهة الكاتب أم من جهة الكتاب . وقد نتساءل: هل تمثل هذه الحكايات بدايات الكاتب الإبداعية ، أو على الأقل . البدايات التى قرر أن يواجه بها القراء ؟ إنها توافق ، من الناحية العمرية ، المرحلة الممتدة من الخامسة والعشرين إلى الثلاثين ، أو بعد الثلاثين بقليل ، وهذه هى - بالفعل ، المرحلة الحرجة فى حياة أى كاتب ، حين يسعى جاهداً لإنضاج رؤيته الخاصة وأسلوبه الخاص . وقد وافقت مرحلة ، لا تقل صعوبة ، فى نضج الوعى الاجتماعى المصرى بين هزيمة ٦٧ المدوية ونصر أكتوبر ٧٣ المحدود، ولدى الأدباء الشبان بداية الانسلاخ التدريجى من المنهج الواقعى إلى المنهج الحداثى . وإذا كان لنا أن نقول جملة واحدة نصف بها موقف محمود عبدالوهاب كما عبرت عنه مجموعته هذه فهو أنها خرجت على المنهجين كليهما، وحاولت أن تصوغ رؤية مختلفة بأسلوب مختلف ، رؤية جدية لولا روح التشاؤم الغالبة عليها لجاز لنا أن نصفها بأنها ملحمية ، وأسلوب لولا نزوعه إلى الخطابية وندرة الومضات الساخرة

فيه لقلنا إنه أسلوب هجائى . لقد رأينا من العنوان أن الكاتب متردد بين مسلكين : مسلك الحكّاء الذى يعرض الواقع - متأثرا ، ولاشك - بذوق عصره ، ومسلك القاص الذى يفرض للأحداث منطقاً وغاية (تسمية الأنواع الأدبية مثل القصة القصيرة والرواية الخ . قد تحجب بعض الحقائق المهمة) وسوف نلاحظ ، طوال القراءة ، مسلكا أسلوبياً يتكرر بكثرة شديدة ، وهو قطع الحبل ، وهو مسلك لا يوحى بالتردد والشك فقط ، بل يمكن أن يوحى بالخجل ، أو الاشمئزاز ، أو الملل من تكرار نفس الأفكار . مثلا ، هذا «البوح» من صديق لصديقه القديم :

«وبدأت الرحلة الطويلة نحو تأمل خطوات الإنسان فوق ذلك الدرب القديم .. واكتشفت أننا لا نحيا إلا من أجل .. أقصد أننا لا نحيا إلا حين .. أقصد أننا ساعة نرى نحيا .. أقصد أننا ما أن تسقط عنا أننا فإننا .. معذرة ها قد تساقطت أجنحة الكلمات.. ها قد هوت قبل أن تلمس ظلا من أشعة أبراجنا السامقة» (النقط لا تمثل حذفا قام به كاتب هذا المقال) .

وهذا حديث شخص يظن أنه قد وصل إلى اليقين . يمكن أن يقال ببساطة إن هناك درجة من اليقين لا تقدر أن تعبر عنها الكلمات . ولكن إليك هذا الحوار بين شاب وفتاة لم يلتقيا منذ مدة طويلة :

« - عدت أعمل موديلاً مرة أخرى.

- ....

- اكتشفت أننى لم أعد أصلح للعمل وأنهم يطلبوننى من أجل ...

- ....

- رفضت أول الأمر .

- ... ...

- لكننى وافقت فى النهاية .

- ... ...

- الأسباب .. لا أبدا .. يمكننى أن أحدثك عنها لكن الكلام فى هذا الموضوع ليس مسليا كما قد تظن .

- ...

- البنت ؟ حاولت لفترة أن .. لكنها الآن تعرف الفرق بين الضيف وبين الـ...».

ولعلك تلاحظ أن الكلام يأتى دائما من طرف واحد ، رغم «شكل» الحوار، وكأننا نسمع فقط من طرف خط تليفونى . وهذه سمة أسلوبية أخرى ممتدة فى القصص - أو الحكايات - كلها . وهى تعبر بوضوح عن رؤية الكاتب للأزمة ، وهى أنها أزمة عامة ، ولكن كل فرد يعيش داخل سور بناه لنفسه ، وينظر إلى الآخرين من خلف السور ، بشىء من التعالى أحيانا ، وبيأس من قدرتهم على

المهم دائما . هذا الشعور بالانفراد عن الآخرين يصنع «الفارس» حقا ، ولكن إن لم يستطع ، أو لم يحاول ، اجتذاب الاخرين إليه ، فلابد أن ينتهى أمره بالهزيمة.

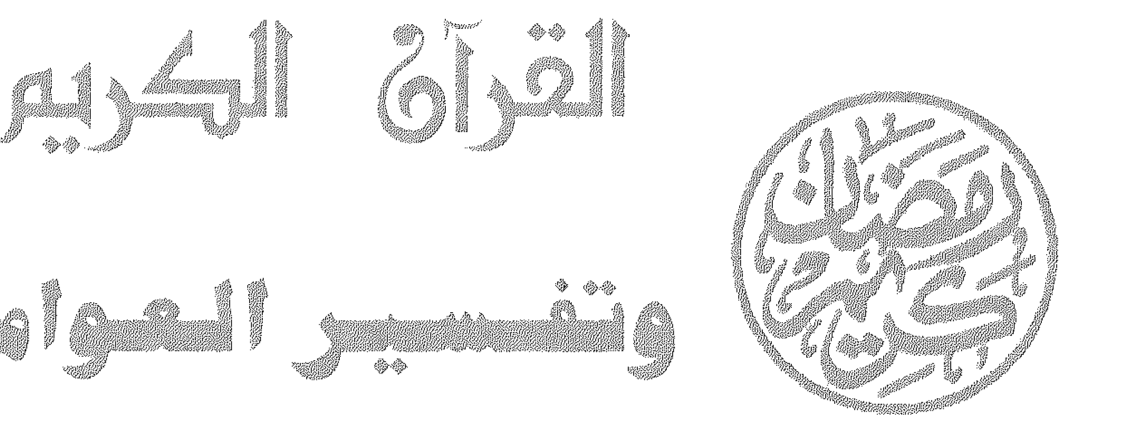
من هنا يبدو لنا ، حين نفرغ من قراءة الحكايات ، أن العنوان ينطوى على شيء من السخرية ، لولا أن لدينا فرساناً حقيقيين ، تمثلوا قضية كبرى ، وحاولوا أن يجمعوا الصفوف للدفاع عنها ، ولكنهم انتهوا نهاية مأساوية ، وعلى رأسهم أبو الشهداء الحسين ابن على رضى الله عنهما ، وأبو الفوارس عنترة ابن شداد العبسى والذى يبدو لى - رغم السمات الأسلوبية المشتركة التى أشرت إليها ، ووجود نوع من القرابة بين النظرة المأساوية التشاؤمية والنظرة الساخرة المرة، بل وبعض الروابط الفكرية أيضا - أن هذه المجموعة التى تطمح إلى ضرب من الوحدة يتجاوز وحدة الكاتب ووحدة النوع الأدبى ، كما تعودنا أن نرى فى معظم المجموعات القصصية ، كان الأحرى بها أن تنقسم إلى مجموعتين : المجموعة الأولى هى تلك الحكايات المستوحاة من التاريخ العربى والسير الشعبية من الأمويين والعباسيين إلى محمد على وعمر مكرم ، ومن عنترة ابن شداد إلى الظاهر بيبرس . فهل تنسحب التسمية «عصر الفرسان» على هذه القرون مجتمعة ؟ إن المقارنة بين هذه الحكايات تشعرنا بأن الكاتب يتخفى وراء أبطاله و«يحكى» بطريقة موضوعية (فهو يقلل من السرد جداً ويعتمد دائما على المنولوج ، سواء أكان المتكلم طوال الحكاية شخصاً واحداً أم جملة أشخاص) ليثبت معنى واحداً : أن الشر له صولة ، وقد ينتصر مرة بعد مرة ، ولكن هناك دائما قوة خيرة ، قوة الفارس الذى يتحدى الظلم ، ويدافع عن المظلومين . يتغير اسم هذا الفارس من جيل إلى جيل ، ولكنه يوجد دائماً ، وهو دائماً صاحب العصر ، أو صاحب الوقت كما يقول الصوفية . لقد قتل يزيد الحسين، ولكن روح الحسين ، روح الاستشهاد ، باقية بعد ألف يزيد ، يرمز لهذا المعنى انعكاس صورة الحسين فى ألوف المرايا . وترمز لهذا المعنى نفسه ، بصورة أخرى ، شخصية على الزيبق ، الذى يتنكر فى عشرات الأشخاص ، وكلما قبض على شخص يقول إنه على الزيبق ، وظنوا أنهم أعدموه ، ظهر على الزيبق من جديد ، بشخصية أخرى وعمل جرىء آخر .

الشكل الفنى

ليس بين هذه المجموعة والمجموعة

الأخرى ، مجموعة الثوريين المحبطين التى نقلنا منها نصين فيما سبق ، رابط أوضح من الشكل الفنى الذى يعتمد على المونولوج . ولعل الكاتب أراد بحكايته «عن مجدلية معاصرة» أن يستثمر هذا الرابط، فالمجدلية المعاصرة فتاة كانت تمثل دور المجدلية على مسرح المدرسة ، وقد أصبحت ثورية ، واعتقلت وعذبت وديست كرامتها ، ولكنها خرجت من السجن لتجد نفسها «قصيدة وراية» للمناضلين . لست أجد علاقة بين هذه البطلة و«فرسان» المجموعة الثانية ، التى اشتملت على شخصيات نسائية كلها مدمّرة ، ولكن ربما كانت «رباب» هى الأكثر تمثيلا من بينها ، فالجميع يدّعون وصلا بها، ولكنها لا تنيل أحداً منهم شيئا، ولا تعشق سوى جسدها، وفوق ذلك فهى - مثل الكثيرين منهم - على صلة بالمخابرات . «المجدلية المعاصرة» ، إذن ، ليست إلا صورة مثالية مستوحاة من التراث، مثل صور المجموعة الأولى دون استثناء . وكونها «معاصرة» لا يقربها من الشخصيات المعاصرة التى تتألف منها المجموعة الثانية . ولكن ذلك لا ينفى أنها شخصية «حكائية» ، وليست «قصصية» فقط ، بمعنى أن لها مرجعية فى الواقع ، وليست مجرد تعبير عن حلم ، أو إمكانية، فى ذهن الكاتب .

ربما كانت محاولة الكاتب أن يجمع بين كثير من المتناقضات فى هذا العمل الواحد ، تعبيراً أميناً عن المتناقضات التى عاشها أبناء جيله . ولا غرابة - والحالة هذه - أن تأتى لغته القصصية ، رغم الشكل المبتكر ، أشبه بطريق غير ممهد : فيها من خطابية الأسلوب الكلاسيكى نصيبه (التكرار ، التشبيهات القريبة ، وغير قليل من الكليشيهات المحفوظة) مع حقنها أحيانا بشعر التفعلية ، وذلك كله للارتفاع بنبرة الحكاية إلى نوع من الفخامة الملحمية ، وفيها أيضاً من جرأة التعبير العامى ، التى تتلاءم مع التعبير عن الاضطراب النفسى . ومن الصعب أن نتبين لغة خاصة للكاتب بين هذين الطرفين. نعم ، إن «تحريك» اللغة القصصية ، بحسب المواقف ، ضرورى كانتقال اللحن بين المقامات الموسيقية ، ولكن هذا التحريك لا يتم بسلاسة ونعومة إلا حين تتحقق وحدة النظرة ، والكاتب ، كما رأينا ، مشدود بين النظرة البطولية والنظرة الساخرة ، بل إنه ، فى مستوى الوعى العميق ، مشدود بين المرجعية الحكائية والمرجعية القصصية ، ولذلك يبدو أسلوبه خائفاً ، لا يريد أن يغامر فى هذا الاتجاه أو ذاك ، وربما كان «التردد» ، الذى رأينا أحد مظاهره فى «قطع الجملة» ، هو أوضح السمات التى تميز أسلوبه، ولكنه يشفق - أيضاً - من أن يستثمره على نطاق واسع، لأنه فيما يبدو، ولأسباب خاصة به ، يكره أن يوصف بالتردد ●



بقلم : د. محمود الطناحى

مع هلال رمضان من كل عام تنبعث ذكرى أعظم حادثة فى تاريخ البشر، وأكبر شأن من شئون المسلمين، وهو القرآن الكريم الذى نزل به جبريل الأمين على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى أمر بأن يبلغه للناس ويتلوه عليهم، وأمرت الأمة الإسلامية أيضا بتلاوته وتدبر آياته، قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) المائدة ٦٧، وقال عز من قائل: (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك) الكهف ٢٧، وقال تعالى : (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) المزمل ٢٠، وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار» فضائل القرآن لأبى عبيد ١/٢٥٦، ومعنى «لا توسدوا القرآن» أى داوموا قراءته، وحافظوا عليها، ولا تناموا الليل عن قراءته، فيكون القرآن متوسدا معكم، وهو من الوسادة. النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ٥/١٨٣، وقال تقدست أسماؤه : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) سورة ص٢٩.

وتدبر القرآن لا يكون إلا بمعرفة وجوه تفسيره، والكشف عن مراد الله وفق طاقة البشر. ومن هنا كان لعلم تفسير القرآن منزلة عالية، ثم كان للقائم عليه والمعنى به مكانة سامية، روى أن على بن أبى طالب ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال رجل: جعلت فداك ، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) القصص ٨٥، وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل، وقال الحسن البصرى: والله ما أنزل الله آية إلاّ أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها، وقال عكرمة فى قوله عز

وجل (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) النساء ١٠٠، يقول عكرمة: طلبت اسم هذا الرجل الذى خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب. وقال النبى صلى الله عليه وسلم: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة. انظر المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ١/٢٦.

● فقه التفسير

وقد أوحى الله إلى نبيه المصطفى، القرآن ومعانيه، فكان عليه السلام يفهم القرآن جملة وتفصيلا، ليبينه للناس، قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون) النحل ٤٤، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون القرآن كذلك، لأنه نزل بلغتهم، وما خفى عليهم منه كشفه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم مع ذلك كانوا يتفاوتون فى الفهم، وذلك رزق الله المقسّم على خلقه، قال ابن قتيبة: إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل بعضا، ولذلك فقد اشتهر بعض الصحابة بفقه التفسير، كان من أبرزهم عبد الله بن عباس؛ وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال: «اللهم علّمه التأويل وفقهه فى الدين» والتأويل: هو التفسير. انظر معناه وتخريجه فى تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٩٩.

وللتفسير أدوات وشروط، ينبغى على من يتصدى له جمعها والتزامها، يقول الزركشى: «التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ» البرهان فى علوم القرآن ١/١٣.

وقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجرأة على تفسير كلام الله بغير علم، فقال فيما رواه ابن عباس: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» حسّنه وصححه الترمذى. انظر عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى ١١/٦٧ (أبواب التفسير)، وكذلك أخرجه أحمد فى مسنده ٣/٤٩٦، ولعل هذا التحذير من المنزّل عليه صلى الله عليه وسلم هو الذى خوّف بعض كبار الصحابة من تفسير ما لم يعرفوه من كتاب ربهم عز وجل، فقد روى أن أبا بكر الصديق سئل عن تفسير الفاكهة والأبّ، فى قوله تعالى: (وفاكهة وأبّا) سورة عبس ٣١، فقال: «أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم». وكذلك روى عن عمر أنه قرأ هذه الآية على المنبر، ثم قال: «كل هذا عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك ألاّ تدرى ما الأب، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه» انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٦/٣١٧، وكان الأصمعى مع تبحره فى اللغة وسعته فى الرواية يحتمى تفسير القرآن وإعرابه. وهذا التوقف والحذر من هذا النفر الكريم

إنما كان فيما لم يعلموه، بدليل قول أبى بكر «إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم» وبدليل أنه قد تكلم فى أحكام الشرع والدين بما علم.

قال نجم الدين الطوفى الحنبلى المتوفى ٧١٦ هـ : «وأما الأصمعى رحمه الله فإن كان احتماؤه للكلام فيه بما لا يعلم فهو فى غاية التوفيق والصواب؛ لأن كلامه إذن فيه يحرم، وإن كان مع العلم ، فذلك إما جمود وجبن، وإما خروج إلى السلامة، واكتفاء بمن تكلم فيه قبله وفى عصره من الأئمة الذين هم حجة عليه وله» انظر الإكسير فى علم التفسير ص ١٠. وقول الطوفى «وإما خروج إلى السلامة» هو ما نقوله الآن فى أيامنا : «الهروب من تحمل المسئولية» فانظر إلى حلاوة كلامهم وركاكة كلامنا!.

● غاية دينية

ومع ذلك التوقى والحذر، فقد رأى علماء السلف من التابعين ومن بعدهم ، أنه من الواجب عليهم أن ينهضوا لتفسير كلام الله، بعد أن أخذوا له أخذه، وأعدوا له عدته، من تأمل الكتاب الكريم كله، ورد بعضه إلى بعض، ثم النظر فيما انتهى إليهم من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه القولية والفعلية، وما هدى إليه كبار الصحابة من تفسير وتأويل. وقد أعان هؤلاء السلف أيضا ما قام به جامعو اللغة ورواة الشعر، مما وضع أمامهم زاداً وفيراً من الألفاظ والتراكيب والمعانى، فتمت لهم أدوات التفسير والتأويل والبيان. وكان وراء هذا الذى قام به علماء السلف غاية دينية، هى حفظ ذلك الكتاب العزيز، من أن تتناوله أيدى الجهلة وأصحاب الأهواء والملل والنحل، وبخاصة أن الأمة الإسلامية كانت قد انفتحت فى ذلك الزمان على ثقافات ومعتقدات الأمم الأخرى، يؤنس بهذا ما ذكره العلامة الطوفى، فى الموضع المذكور من كتابه، قال : لعل علماء السلف رحمهم الله رأوا أن الكلام فى القرآن متعين عليهم، وأنهم أولى به ممن أتى بعدهم، لقربهم من التنزيل ومعرفة التأويل، فيكون ورعهم وزهدهم وخشيتهم هى الحاملة لهم على الكلام فيه، خشية أن يدرس من علم شريعة الله ودينه ما لا يمكن تداركه، ورأوا أن الخطأ عنهم فى ذلك موضوع (أى مرفوع معفو عنه) كالأحكام الفرعية الاجتهادية، وذلك كما حكى عن موسى بن عقبة، لما رأى ما دخل على مغازى النبى صلى الله عليه وسلم، من الزيادة والنقص، جمع ما صح عنده من المغازى؛ ليحرسها بذلك من الكذب».

وهكذا اندفع علماء هذه الأمة يوماً بعد يوم فى استثارة كنوز هذا الكتاب الحكيم، وكشفها والإبانة عنها، بل إن علوماً بأكملها قامت ابتداء لخدمة ذلك الكتاب العزيز، ثم صارت بعد ذلك علوماً مستقلة، لها مناهجها وأدواتها وغاياتها ، مثل النحو وإعجاز القرآن الذى صار أساساً لعلوم البلاغة. ومن هنا أصبح علم التفسير جامعاً لعلوم العربية كلها، وقد سبق تعريف الزركشى لعلم التفسير، والعلوم المطوية تحت جناحه، وقد جاءت كتب التفسير كلها بعد ذلك دائرة فى فلك علوم العربية كلها، إلا ما قد يكون عند مصنفى التفسير من غلبة فن على فن، فالطبرى يغلب عليه الاهتمام بالآثار وتفسير القرآن فى ضوئها، والزمخشرى يميل إلى البلاغة، والقرطبى يغلب عليه الاهتمام بالفقه والأحكام، والفخر الرازى يهتم بعلم الكلام وما إليه من العلوم العقلية، والواحدى يغلب عليه الغريب – أى علم الغريب فى القرآن، من حيث اللغة –

والثعلبى يحتفل بالقصص. وبذلك لم يحظ كتاب سماوى بمثل ما حظى به هذا الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، من التأليف فى لغته ونحوه وبلاغته وقراءاته وأشباهه ونظائره وناسخه ومنسوخه وفضائله، سيل متدافع من الكتب: طوالها وأوساطها ومختصراتها، بحيث أصبح من السهل اليسير على من يريد معرفة معنى لفظ من القرآن الكريم، أو معنى عام منه، أو حكم من أحكامه، أن يجد بغيته من أيسر سبيل، ولم يقصر علماؤنا رضوان الله عليهم فى كشف المشكل وإيضاح المبهم. لكن قوماً ضعفت سلائقهم العربية، أو قعدت بهم هممهم فتكاسلوا عن البحث والتفتيش والمراجعة، فسروا بعضا من القرآن العزيز بآرائهم، ومن عند أنفسهم ، فضلوا وأضلوا، حين تابعهم الناس على هذه الوجوه من التفسير، وهذه آفة الآفات. وهذا هو الذى أراده الجاحظ بقوله: «وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة» انظر الأوائل للعسكرى ٣٣٣/١، وهو أيضا ما قاله الشيخ عبد القاهر: «وتلك جريرة ترك النظر وأخذ الشيء من غير معدنه» دلائل الاعجاز ص ٣٦١.

ويلاحظ أن معظم وجوه الخطأ فى تفسير القرآن الكريم تأتى من سرعة الاستشهاد بالآية القرآنية معزولة عن سياقها، منتزعة من أسباب نزولها، مع الغفلة عن وجه الاعراب فيها، إلى أشياء أخرى تظهر إن شاء الله من الأمثلة.

ومن العجب أن بعض هذه الوجوه الخاطئة من التفسير قديمة، وقد استمرت إلى يومنا هذا، وهو ما أسميه «تفسير العوام» وأريد بالعوام هنا: غير أهل العلم، الذين يتحرون الصواب، ولا يقولون إلا بعد المراجعة والمفاتشة والتقصى.

● تفسير العوام!

وقد بدا لى أن أجمع قدرا يسيرا من هذه الأوجه الخاطئة أو الضعيفة، وأبين وجه الصواب فيها، أو ما هو الأرجح والأولى منها. وأود أن أنبه إلى أننى أعرضت عما جاء من ذلك فى أخبار الحمقى والمغفلين، وما أثر عن الخطباء والوعاظ والقصاص ، مما ذكره ابن الجوزى وغيره، ثم مما كان يحفل به الجاحظ، من ذكر غفلات المعلمين والقراء والمفسرين، فإن ذلك باب واسع، ولا تؤمن فيه بواعث الوضع أو التشنيع أو المفاكهة واستخراج الضحك. وأود أيضا أن أنبه إلى أن هذه النماذج من تفسير العوام ، إنما هى من بابين. الباب الأول : ما وقع من بعض الأقدمين، واستمر فهمه والعمل به إلى يوم الناس هذا. والباب الثانى: ما رصدته أنا وتتبعته من فهم بعض المعاصرين وتفسيراتهم، وسأرتب ذلك على الآيات بحسب ترتيب السور فى المصحف الشريف.

وقبل ذلك أحب أن أشير إلى أن بعض خطباء الجمعة فى زمننا ، وكذلك بعض المتحدثين فى إذاعة القرآن الكريم، يتساهلون كثيرا ويجترءون على تفسير كلام الله عز وجل، بما تمليه عليهم النظرة العجلى، وكثيراً ما ينساقون وراء خداع الألفاظ، وتوجيه المعانى وفق ما هو متعارف بين الناس الآن من الدلالات الخاطئة. وأمثلة ذلك كثيرة أكتفى منها بمثال واحد موثق باليوم والساعة: فى صباح يوم السبت ٢٠ من نوفمبر ١٩٩٨ استمعت فى إذاعة القرآن الكريم إلى أحد الدكاترة - وهو رجل فاضل أعرفه - يفسر قوله تعالى : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون)

التوبة ٥٥، قال الأستاذ الدكتور : «الزهق في الآية معناه الضجر والسأم والملل» ثم رأى أن معنى الآية : أنهم إذا كثرت أموالهم وأولادهم انتهوا إلى حالة من الملل والسآمة ، وذكر أن ذلك يرجع إلى نظرية قال بها أحد الأساتذة الأمريكيين ، وهى نظرية «الاستهلاك الكبير» التى تدفع الناس بعد الشبع والامتلاء (أو الامتلاك - الشكّ منّى أنا ومن سَمْعى) إلى ملالة الحياة ومحاولة التخلص منها، وفسر بذلك ظاهرة الانتحار فى المجتمع السويدى، وهو مجتمع سعيد جدا؛ لأنه ليست له مشاكل داخلية أو خارجية، ومع ذلك تكثر فيه ظاهرة الانتحار». انتهى كلام الأستاذ الدكتور! فانظر كيف فسر «الزهق» تفسير العوام ، ثم بنى عليه ذلك الكلام. وليس «الزهق» هو الملل، إنما هو البطلان والهلاك والاضمحلال، ومنه قولى تعالى: (إن الباطل كان زهوقا) الاسراء ٨١ ، ومعنى (وتزهق أنفسهم) فى الآية الكريمة: أى تخرج، قال أبو عبيدة: «أى تخرج وتموت وتهلك» مجاز القرآن ٢٦٢/١، وقال القرطبى فى تفسيره ٦٤/٨: «وتزهق أنفسهم وهم كافرون» نص فى أن الله يريد أن يموتوا كافرين. سبق بذلك القضاء» وقال الطبرى فى تفسيره ٢٩٧/١٤ «وتخرج أنفسهم فيموتوا على كفرهم بالله وجحودهم نبوة نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم».

وواضح أن الدكتور الفاضل قد ظن أن الهمزة فى قول العوام «الزهأ - وأنا زهآن» إنما هى القاف الفصيحة التى تأتى غالبا فى لغة المصريين والشوام همزة، مثل «ألت» مكان «قلت» و«أريب» موضع «قريب»، ويسرف الشوام فى ذلك فيقولون «الموسيئا» بدل «الموسيقى» ولا يفعل عوام المصريين ذلك فى مثل هذه الكلمة ، لأنها من الكلمات الثقافية التى يحافظون على صواب نطقها.

وهنا فائدتان: الأولى أن المعجم العربى لم يذكر مادة (زهأ) أصلاً، فى أى معنى، أما قولهم «زهاء مائة» بمعنى قدر مائة، فأنت تجدها فى المعاجم فى مادة (زهى) لأنها من زهوْت القوم · أى حزرتهم وقدرت عددهم. وهذه الهمزة التى فى «زهاء» ليست أصلية ، وإنما هى منقلبة عن واو، وأصلها: زهاو ، ومثل ذلك: سماء ودعاء ورجاء، فأصلها كلها : سماو ودعاو ورجاو، لأن أفعالها : سموت ودعوت ورجوت. ويقول الصرفيون: تطرّفت الواو بعد ألف زائدة فقلبت همزة.

الفائدة الثانية : أن قلب القاف همزة عند عوام المصريين ليس وليد اليوم، وإنما هو قديم وقد وجدت ذلك فى ترجمة «جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز الحجازى ثم المليجى المصرى، المولود سنة (٥٥٠ هـ) والمتوفى (٦٢٣ هـ) فقد قال الحافظ الذهبى فى ترجمته من سير أعلام النبلاء ٢٥٧/٢٢ «وكان شديد الأُدْمة (أى السمرة) يلثغ بالقاف همزة» فهل هذه الظاهرة خاصة بذلك الرجل، لقول الذهبى «يلثغ» أم أنها كانت معروفة عند المصريين؛ ويلاحظ أن الرجل من «مليج» وهى من قرى المنوفية الآن.

وسمعت أستاذا جامعيا آخر - فى حديث إذاعى - يترضّى على الصحابة فيقول : «وهم أهل التقوى وأهل المغفرة» وهذا انتزاع خاطىء من القرآن الكريم؛ فإن عبارة «أهل التقوى وأهل المغفرة» إنما هى فى حق المولى عز وجل، وذلك قوله تعالى من آخر سورة المدثر : (وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) قال الزجاج : «أى هو أهل أن يُتّقَى عقابه، وأهل أن يعمل بما يؤدى إلى

مغفرته» معانى القرآن وإعرابه ٥/٢٥٠، وأخرج الترمذى من حديث أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية : «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهل أن أغفر له» عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى ١٢/٢٢٩ (أبواب التفسير) هكذا يكون الكلام، فاتقوا الله يا أساتذة فى قرآنكم ودينكم !.

وهذا أوان الشروع فى المقصود، والله المستعان:

يقول الله تعالى . (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) البقرة ١٩٥، يستشهد الناس بهذه الآية الكريمة عندما يرون أحدهم يقدم على خطر، كأن يعترض سيارة مسرعة، أو يسير بجانب جدار يريد أن ينقض، أو يمر يده على نار مشتعلة، أو يصارع من هو أقوى منه، ونحو ذلك من ألوان المشتقات التى لا طاقة له بها، فيقولون له : حسبك (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)، والاستشهاد بالآية لهذه الحالة إرث قديم ، وقد تناقلته الألسنة حتى وصل إلينا، والصحيح أن الآية الكريمة نزلت فى النفقة فى سبيل الله والحض عليها، بتصوير الإمساك والبخل بأنهما هلاك يلقى فيهما الممسك والبخيل نفسه، وصدر الآية وختامها يدلان على ذلك، قال تعالى : (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ، ثم إن سبب نزول الآية ينفى هذا التفسير الخاطئ، فقد روى عن أسلم أبى عمران، قال : «كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجُهنى، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، وصففنا لهم صفا عظيما من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلا ، فصاح الناس فقالوا : سبحان الله! ألقى بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : أيها الناس ، إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، إنا لمّا أعز الله تعالى دينه وكثر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض سرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى فى كتابه يرد علينا ما هممنا به ، فقال : (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة). انظر أسباب النزول للواحدى ص ٥١، وسنن أبى داود ٣/١٢ (كتاب الجهاد) والدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١/٢٠٧، هذا وقد ذكر الطبرى آثاراً أخرى تدل على أن المراد من الآية ترك النفقة فى سبيل الله. راجع تفسيره ٣/٥٨٣ - ٥٨٩ .

★★★

يقول الله تعالى: (والفتنة أشد من القتل) ويقول تعالى: (والفتنة أكبر من القتل) البقرة ١٩١، ٢١٧، ويستشهد الناس بهاتين الآيتين فيمن ينقل كلاما سيئا من واحد إلى واحد، أو من طائفة إلى طائفة، ليوقع فتنة أو وحشة بينهما، فهى النميمة. والفتنة فى اللغة هى المحنة والاختبار والابتلاء. قال الشاعر :

وقد فتن الناس فى دينهم
وخلى ابن عفان شرا طويلا

ونعم إن النميمة تفضى إلى الفتنة، ولكن ليست هى هى، فكأن العوام فسروا الفتنة فى الآيتين بما تؤول إليه النميمة،

لكن هذا ليس دقيقا، كما أن سبب نزول الآيتين ينفى هذا الفهم والتأويل. وسياق الآية الأولى هكذا: (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) فالفتنة فى الآية هى الشرك الذى أراده الكفار من المؤمنين. قال الطبرى: فتأويل الكلام: وابتلاء المؤمن فى دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركا بالله من بعد إسلامه، أشد عليه وأضر من أن يُقتل مقيماً على دينه، متمسكا عليه، محقاً فيه» تفسير الطبرى ٣/٥٦٥.

وكذلك تفهم الآية الثانية (والفتنة أكبر من القتل) فى سياقها وسبب نزولها: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد بعث عبد الله بن جحش وناساً معه من المسلمين، إلى المشركين، فقتلوا عمرو بن الحضرمى، وذلك فى أول يوم من رجب، فاستنكر المشركون ذلك، وقالوا: ألستم تزعمون أنكم تحرمون القتال فى الشهر الحرام؟ فنزل قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) يقول: هذا كله أكبر عند الله من الذى استنكرتم، والفتنة التى أنتم مقيمون عليها، يعنى الشرك أكبر من القتل، أى من قتل ابن الحضرمى. راجع أسباب النزول ص ٦١، وتفسير مجاهد ص ٢٣٢، وسيرة ابن هشام ١/٦٠٤.

***

يقول الله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) البقرة ٢٢٤، يستشهد كثير من الناس بهذه الآية على النهى عن الحلف، وليس الأمر على ذلك، ويظهر ذلك من تمام الآية، ومن معرفة سبب نزولها، وقول أهل التفسير فيها. يقول الله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) قيل إنها نزلت فى أبى بكر الصديق إذ حلف ألا ينفق على مسطح بن أُثاثة، حين خاض فى حديث الإفك، ورمى عائشة الطاهرة بالباطل. وقيل: نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلم بشير بن النعمان - وكان زوجه على أخته - ولا يصلح بينهما. وقد روى عن التابعى الجليل إبراهيم النخعى أن المعنى: «لا تحلف ألا تتقى الله، ولا تحلف ألا تبر ولا تعمل خيرا، ولا تحلف ألا تصل، ولا تحلف ألا تصلح بين الناس، ولا تحلف أن تقتل وتقطع»، وقال ابن قدامة فى المغنى ١٣/٤٤٠ «معناه لا تجعلوا أيمانكم بالله مانعةً لكم من البر والتقوى والاصلاح بين الناس» ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمُرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير» أخرجه البخارى فى أوائل كتاب الأيمان والنذور ٨/١٥٩، وانظر أسباب النزول ص ٧٢، وتفسير الطبرى ٤/٤٢٢.

فالآية لا تنهى عن الحلف والأيمان، كيف والأيمان تُطْلَب، وتدور عليها وبها أحكام كثيرة فى الشرع؟ ومع هذا البيان والتوضيح والتصحيح لموضع الاستشهاد من الآية الكريمة، ينبغى أن يكون معلوماً أن الإفراط فى الحلف مكروه ومذموم، لأنه يؤدى إلى الكذب. وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: (واحفظوا أيمانكم) المائدة ٨٩ إن المعنى: بترك الحلف، فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكليفات. راجع تفسير القرطبى ٦/٢٨٥.

***

يقول الله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) البقرة ٢٨٢، يستشهد كثير من الناس بهذه الآية على أن التقوى طريق وسبب لتعليم الله وتوفيقه لعباده ويسوون بينها وبين قوله تعالى : (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) الأنفال ٢٩، وقوله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق ٢، ٣، وهذا التفسير غير صحيح، وبدعة ذى بدء فإن آيتى الأنفال والطلاق مبنيتان على أسلوب الشرط والجزاء، وليس كذلك آية البقرة، فانتفت التسوية . هذا أولا، وثانيا:

فإن هذا الجزء المتلوّ من الآية إنما هو ختام لآية المداينة (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ....) الآية ، وهى أطول آية فى الكتاب العزيز، وقد اشتملت على أحكام فى كتابة الدين والإشهاد عليه، والرهن، وقد ختمت الآية بقوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) أى : واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ويعلمكم الله أحكامه المتضمنة لمصالحكم. وقال الطبرى: «يعنى بقوله جل ثناؤه (واتقوا الله) : وخافوا الله أيها المتداينون فى الكتاب والشهود، أن تضاروهم .. ويعنى بقوله (ويعلمكم الله) : ويبين لكم الواجب لكم وعليكم» تفسير الطبرى ٦/٩٣.

وهذا هو التوجيه الصحيح للآية الكريمة ، لكن بعضا من قدامى المفسرين وجهوا الآية على المعنى الذى يشيع عند العوام، ومن هؤلاء القدامى: ابن عطية فى المحرر الوجيز ٢/٥٢٠، والقرطبى ٣/٤٠٦، وابن كثير ١/٥٠٠، لكن المحققين على غير ذلك. قال الزركشى فى البرهان ٤/١٤٣: «وأما ما قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) فظن بعض الناس أن التقوى سبب التعليم، والمحققون على منع ذلك، لأنه لم يربط الفعل الثانى بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل : «واتقوا الله يعلمكم» ولا قال : «فيعلمكم الله» وإنما أتى بواو العطف، وليس فيه ما يقتضى أن الأول سبب للثانى، وإنما غايته الاقتران والتلازم ، كما يقال: زرنى وأزورك، وسلم علينا ونسلمُ عليك، ونحوه ، مما يقتضى اقتران الفعلين والتعارض من الطرفين، كما لو قال عبد لسيده : أعتقنى ولك علىَّ ألف، أو قالت المرأة لزوجها : طلقنى ولك ألف، فإن ذلك بمنزلة قولها: بألف أو علىَّ ألف، وحينئذ فيكون متى علم الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك. ونظير الآية قوله تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) هود ١٢٣.

وقال أبو حيان فى البحر المحيط ٢/٣٥٤ : «ويعلمكم الله: هذه جملة تذكر بنعم الله التى أشرفها التعليم للعلوم ، وهى جملة مستأنفة لا موضع لها من الاعراب، وقيل: هى فى موضع نصب على الحال من الفاعل فى (واتقوا) تقديره: واتقوا الله مضمونا لكم التعليم والهداية... وهذا القول - أعنى الحال - ضعيف جدا: لأن المضارع الواقع حالا لا يدخل عليه واو الحال إلا فيما شذ من نحو: قمت وأصكُّ عينه، ولا ينبغى أن يحمل القرآن على الشذوذ».

★★★

يقول الله تعالى : (ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم) آل عمران ٧٣.

وهذه آية يضل فى فهمها كثير من الناس ، وبخاصة تلك الطائفة من المتعصبين الجهلة ، يقولون : إن الله نهانا أن نسمع لمن ليس من ديننا، وألا نتبع إلا من هم على ديننا الإسلامى الحنيف. وسياق الآية وسبب نزولها ينفيان ذلك، فالآية السابقة تقول : (وقالت طائفة من

أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) فالآية نزلت في اليهود، حيث قال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار، ثم قال بعضهم لبعض : ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، فكان يهوديا . فالآية تحكى عن مكر اليهود، ومحاولتهم تشكيك المؤمنين في دينهم، ورغبتهم في أن يرجعوهم عن دينهم، ولا تخاطب الآية المؤمنين وتنهاهم عن متابعة غير المسلمين. وانظر أسباب النزول ص ١٠٤، وتفسير الطبرى ٥/٥١١.

★★★

في يوم جمعة وفى أثناء الخطبة اندفع الخطيب يحث المصلين على اصطحاب أطفالهم لحضور الجمعة والجمعات ، وأخذ يحشد الأدلة والشواهد، إلى أن انتهى إلى قوله تعالى: (خذوا زينتكم عند كل مسجد) الأعراف ٣١، فكبا كبوة لا ينهض منها، وعثر عثرة يصعب عليه التخلص منها، وذلك أنه رد «الزينة» في هذه الآية إلى اختها في سورة الكهف ٤٦ (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ويابُعْدَ ما بينهما ! وقد غفل هذا الخطيب عن سبب نزول تلك الآية، وهو ما روى عن ابن عباس أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول وهي تطوف :

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله

فالزينة في آية سورة الأعراف : هي الثياب، وما وارى العورة، وكذلك تفسر «الزينة» في الآية التي تلي ذلك (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) وانظر أسباب النزول ص ٢٢٢، وتفسير الطبرى ١٢/٣٨٩.

★★★

يقول تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) الإسراء ٧٨.

يخطىء بعض الناس في تفسير «قرآن الفجر» هنا بأنه القرآن الذى يتلى ساعة الفجر، ثم يخطىء بعض المذيعين حين يقدمون التلاوة في ذلك الوقت، فيقولون : قرآن الفجر يتلوه الشيخ فلان. والصحيح أن المراد بقرآن الفجر، هو صلاة الفجر، أي صلاة الصبح، وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها. إذ قراءتها طويلة ومجهور بها. قال القرطبي : «وقد استقر عمل المدينة - أي عمل أهل المدينة ، وعملهم حجة - على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه» تفسير القرطبي ١٠/٣٠٥، والدر المنثور ٤/١٩٦.

★★★

وبعد : فهذا قليل من كثير ، مما يقع فيه الناس من أوهام وتخليط في تفسير كلام الله عز وجل، وقد أمسكت عن ذكر أشياء من هذه البابة لأني رأيتها تحمل صوراً من الهزل والفكاهة، ونحن نُجل كتاب ربنا عز وجل أن تكون آياته البينات معرضا للتفكه والمنادمة . ولا يبقى إلا أن نتوجه إلى مشايخنا الخطباء والوعاظ، ثم إلى زملائنا الجامعيين الذين أخذوا ينازعون المشايخ سلطانهم في الوعظ والتذكير، بل والفُتيا في دين الله، نتوجه إلى هؤلاء وهؤلاء أنْ يتقوا الله في كتابه العزيز ، ولا يجترءوا على القول فيه دون حجة أو دليل ، وأن يراجعوا الكتب ويستفتوا المراجع . والله يعصمنا وإياهم من الزلل □

الإسلام والسلطة

بقلم : مصطفى نبيل

رمضان كريم

عندما نطبق المنهج النقدى على إحدى المراحل التاريخية المهمة، أي فى فجر الإسلام خلال فترة الرسول والخلفاء الراشدين، يقودنا هذا المنهج إلي الكثير من التصورات الحية التى تكشف طبيعة وخصائص المجتمع الاسلامي، ونصل عندها إلى ما يمكن أن نطلق عليه «النظرية السياسية» فى الإسلام.

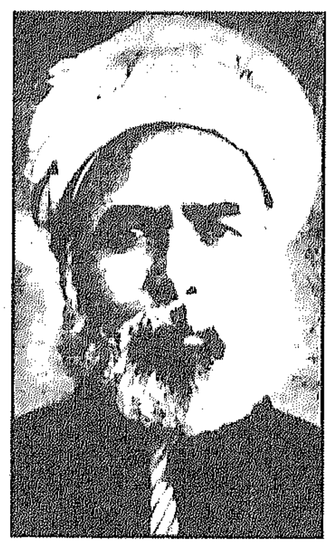
كان التاريخ هو لقاء الماضى بالحاضر من جانب وتسجيل الماضى بلغة العصر.

وهذه المجموعة الكبيرة من تراكمات الخبرة الحضارية، سجلت الكثير من صور البحث والتأمل ، فالتاريخ الاسلامى يتضمن الكثير من الممارسات، ولم تكن الخبرة الإسلامية يوماً مغلقة وهى تقدم نموذجاً حضارياً متميزا من حيث خصائصه ومقوماته.

تعتبر الخلافة الإسلامية التى قامت فى المدينة النموذج الذى يحتذى، وهى الفترة التى يستخلص منها الباحثون القواعد التى قامت على أساسها الدولة الإسلامية ، فهى أول محاولة قامت فى الجزيرة العربية لتنظيم الجماعة على أساس جديد لا يقوم على القبيلة وإنما على أساس من المعتقد والإيمان بالله الواحد، ولم تكن صدفة أن النواة الأولى للدعوة الجديدة ، تكونت من بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى وعمار ابن ياسر الذى لم يكن قريشيا ولا مكيا بل يمنيا، وخباب بن الأرت الذى كان مجرد أسير عراقى.

ولم يقم النظام الجديد على أساس هرمى كهنوتى ، وإنما كانت الجماعة فى المدينة مثالاً لما بثه الإسلام فى رجاله من مساواة بصرف النظر عن الجنس أو اللون.

وحقق العرب وحدتهم لأول مرة فى التاريخ ، وقوضت الدولة الجديدة الدولتين العظميين دولتى الروم والفرس ، فهزمت الدولة البيزنطية وأجلتها عن كل من الشام ومصر ، وأنهت دولة كسرى وظفرت بأملاكها فى حملات عسكرية قام بها خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن


الشيخ
محمد عبده


د. عبد الرزاق
السنهوري

أبى وقاص فى أعظم الحملات التى عرفها التاريخ . وبلغ الفتح العربى الذى دفع به أبو بكر ذروته أيام عمر ، فامتدت دولة الإسلام من نهر جيحون فى آسيا حتى أقصى طرابلس الغرب فى أفريقيا ، وأصبحت هذه الدولة فى مدة قصيرة أعظم قوة فى العالم، وتم فتح إيران وأذربيجان وجزء من آرمينيا أيام عثمان ابن عفان .

وما حققته هذه المرحلة من نجاح وازدهار جعلها بحق الدولة النموذج، التى تقدم أصولا ومنهجاً للتصور الإسلامى ، فعصر الخلفاء جزء من التكوين السياسى لتلك الدولة البازغة، فالاسلام الذى يصلح لكل زمان ومكان ، فيه ثوابت مثل العقائد والعبادات ، وفيه متغيرات تتغير بتغير الزمان ، كطرق تطبيق وتنفيذ هذه المبادىء حتى تتكيف مع الظروف الجديدة.

وإذا حددنا معالم الدولة الإسلامية تبين لنا تلك الثوابت والمتغيرات. فقد استمرت الخلافة الإسلامية تسعة وعشرين عاماً من سنة ١١ هـ حتى ٤١ هـ (٦٣٢ م – ٦٦١م) ، تولى الخلافة خلالها أبو بكر الصديق لمدة سنتين، وعمر بن الخطاب عشر سنوات ، وعثمان بن عفان إثنى عشر عاماً ، وعلى بن أبى طالب خمس سنوات.

ويمكن استخلاص عدد من الإشارات والتنبيهات من هذا النموذج التاريخى، أولها أن الإسلام لا يفرض نظاماً محدداً للحكم ويكتفى بوضع مجموعة من المبادىء تطبق فى كل عصر بمنطقه ومستجداته ، فقد ترك تنظيم الدولة لتبدل الأحوال وتغير الزمان ، مراعاة للتطور الإجتماعى وما يشهده العالم من مستجدات.

ويعتبر هذا العصر الذهبى الذى مر كالشهاب هو المرحلة النموذج، وبعدها استمر الحكم بصورة ناقصة .

ونظام الشورى من المبادىء الثابتة التى لا تتغير بتغير الظروف والأحوال للحكم، ويقوم على نصوص قرآنية .. «وأمرهم شورى بينهم» .. و .. «شاورهم فى الأمر» . وفى عهد النبى الكريم كانت

الشورى تتم فى يسر، يجلس النبى ﷺ مع كبار الصحابة يستطلع رأيهم ، ولكن بعد إتساع دولة الإسلام كان لابد من الأخذ بما يتناسب مع هذا الإتساع ، وخاصة أن الخلافة الإسلامية قد استمرت نحو أربعة عشر قرنا ، واستمرت الخلافة حتّى نهاية الدولة العثمانية فى ٣ مارس ١٩٢٤ أى سنة ١٣٤٣ هـ.

ويقوم الفكر السياسى على الشورى وعلى البيعة أو ميثاق أو عقد إجتماعى ، كما يقوم على التراضى والمصالح المتبادلة بين طرفين ، الحكام والمحكومين ، وتولى الحكم خلفاء يتم اختيارهم بالبيعة، وبعد هذا العصر الذهبى تعطلت الشورى وتوقف الاجتهاد ، وسيطر الحكام المستبدون إلا فى حالات نادرة ، وكان غياب الشورى أحد أسباب التدهور والتخلف العلمى والجمود الإجتماعى .

ويمكن إجمال المبادىء التى سادت هذا العصر فيما يلى:

- الاحتكام لإرادة الشعب التى تتحقق عن طريق الإجماع والبيعة الحرة فى اختيار الحاكم.
- سقوط البيعة إذا خرج عليها الحاكم، أو تجاوز حدود سلطته أو أساء استعمالها.
- لا يستطيع الحاكم أن يكون حاكما مطلقا ، فنزعت عنه سلطة التشريع.

كما يؤكد ذلك د. عبد الرزاق السنهورى فى كتابه «أصول الحكم فى الإسلام» - واقتصرت سلطات الحاكم على السلطتين التنفيذية والقضائية .

وكان عصر هؤلاء الخلفاء عصر تقشف فى العيش وبساطة فى الحياة. وفى العصر الحديث لم يعد لهذه البساطة مكان ، وأخذت الشورى صورة المجالس النيابية ، وظهرت وسائل الاقتراع العام والانتخاب ، وغيرها من الوسائل للتعرف على إتجاهات الرأى العام الذى يمكن أن يتحقق بلمسة على جهاز الكمبيوتر.

أما ما يؤكد فكرة الفارق بين الثوابت والمتغيرات تظهر للعيان فى اختلاف طريقة اختيار الخلفاء الراشدين ، فالطريقة التى تولى بها الخلافة الصحابى الجليل أبو بكر الصديق تختلف عن الطريقة التى تولى بها عمر بن الخطاب التى تختلف بدورها عن تولى عثمان وعلى ، فقد تم إختيار أبى بكر اختياراً حراً فى اجتماع علنى مفتوح حضره من شاء من المسلمين، وشرعوا فى انتخاب الخليفة قبل أن يدفن الرسول ﷺ ، مما يؤكد صفة الاستعجال وأهمية اختيار الحاكم. وأبدى كل منهم رأيه حتى استقر الأمر عن رضا واقتناع ، وبويع بشكل أقرب للانتخاب ، وسبق وصدرت عن النبى إشارات عندما قال .. «انظروا هذه الأبواب فى المسجد، فسدوها إلا بيت أبى بكر» ، وكان فى باحة المسجد أبواب تؤدى إلى عدد من بيوت كبار الصحابة ، وامتثل الجميع.

وعندما اشتد المرض بالنبى ﷺ قال .. «مروا أبا بكر فليصلى بالناس» وصلى

خلفه النبى.

واختار أبو بكر عمر للخلافة من بعده، بعد أن استشار فى ذلك بعض كبار الصحابة مثل عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان قبل أن يختار عمر، وتأكد بذلك من موافقة الأمة لهذا الاختيار، فضلا على أن هذا الاختيار قد تم بمبايعة المواطنين له .

ويأتى بعد ذلك ما قام به عمر الخليفة الثانى ، عندما إختار ستة من المرشحين هم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب وكلفهم باختيار مرشح منهم وعلى ألاّ يجعلوها لابنه، وهذا يعنى أنه رجع إلى الرأى العام فى اختيار واحد من هؤلاء المرشحين ، وأنه عندما إجتمع الستة وفوضوا عبد الرحمن بن عوف أن يختار من بينهم المرشح للخلافة ، فإنه قد بذل جهده للتأكد من إتجاه المحكومين ، وقام بهذه المهمة بكل دقة لمدة ثلاث ليال ، وعندما وقع إختياره على عثمان فإن هذا الإختيار قد أقره المواطنون كما حدثَ عند تولية عمر.

وعقب مقتل عثمان بويع على بن أبى طالب بالمدينة ، واعترف بالبيعة كل العالم الإسلامى واستتب الأمر لعلى ، وجعل الكوفة عاصمة له . وبدأ التنافس بين الكوفة ودمشق أو بالأحرى بين العراق والشام.

وبمقتل على انقضى عصر الخلفاء الراشدين، وأخذت الحياة تدور فى صراع أزلى بين الطبائع والشرائع ، بين الوقائع والمبادىء ، وقامت معارك ذات طابع سياسى ، الدين منها براء ، وليس هناك - كما يدعى البعض - سلف صالح وخلف طالح ، ولكنها أجيال يتوالى بعضها فى إثر بعض ، يظهر فى كل جيل الصالح والطالح .

الانتخاب والصحيفة

وهناك فى فجر الإسلام بعض صور النظام السياسى التى وضعت اللبنات الأولى لفكرة إجراء الانتخابات وإصدار الدستور ، ذلك عندما طلب النبى من الأنصار فى المدينة إنتخاب إثنى عشر نقيباً يمثلونهم ، قال عليه الصلاة والسلام .. «أخرجوا إلى منكم إثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس» ، ولعله بذلك كان يقرر أحد القواعد الأساسية لقيام المجتمع .

ومن جانب آخر صدرت وثيقة دستورية بعد حوالى شهرين من استقرار الرسول فى المدينة وقيام المسجد الذى أصبح ملتقى المسلمين ، وأطلق عليها اسم الصحيفة والتى تحدد الحقوق والواجبات للموقعين عليها ، واستند الرسول إلى بعض نصوصها فى بعض الأحكام والمناسبات ، ويجب أن تعالج كوثيقة سياسية ذات طابع خاص وأساس للتفكير السياسى.

ويلاحظ أن هذه الوثيقة لم تكتب مرة واحدة ، بل كتبت على أجزاء، وتطورت

مع توالى الخطوب والأحداث ، وكما جاء فى الأثر ، احتفظ بها على بن أبى طالب فى قراب سيفه.

مما يؤكد حاجة المجتمع إلى دستور من أجل قيام بناء تشريعى لبناء الأمة ، ونبعت هذه الصحيفة من القرآن الكريم وهى تطبيق لأحكامه ، وإصدارها يعنى تسجيل المسئوليات فى ميثاق مكتوب ، وعدم الاكتفاء بالتعهدات الشفهية ، وهى قاعدة إسلامية مقررة ، والعقد بين الحاكم والمحكوم لابد أن يكون مسجلا وواضحا ومحددا فيه الحقوق والواجبات يقلل قدر الإمكان من فرص التملص والخلاف.

الاسلام والحكم

ولعب الدين دوراً حيوياً فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويكفى قربهم الزمنى من نزول الوحى، ودائماً يلعب الدين دوراً إيجابيا فى التأثير على وجدان أبنائه، يهذب أخلاقهم يحببهم فى العدل وينفرهم من الفساد والظلم ، ولكن السؤال هنا .. هل قدم الاسلام نظاما خاصا وطريقة محددة لاختيار الحكام؟ وقد شاهدنا التجربة التاريخية التى لم تقدم هذه الطريقة المحددة ، وبالتالى تجد أن الاسلام والحكم المدنى يسيران جنبا إلى جنب فى اتساق وانسجام.

فأقسى أنواع الاستبداد هو ذلك الذى يمارس باسم الدين ، عندما تجد الحاكم وكأنه يملك تفويضا إلهيا . أعماله مقدسة، ومعارضوه مارقون خارجون ، رغم أن إرادة الأمة هى التى تعبر عن إرادة الله.

ورأينا بعد إنتهاء العصر الذهبى ، كيف قام الحكم بالقوة ، فكل أسرة حاكمة سواء فى ذلك الأمويون أو العباسيون ، أو من جاء بعدهم يجمعون بين أيديهم السلطتين الزمنية والدينية ، ويعتبر الحاكم كل من خرج عليه إنما خرج على الدين ..

وظهرت آراء سياسية بلا سند مثل أن الخليفة ينبغى أن يكون قريشياً، بينما يرى الشيعة أنه لا يكفى أن يكون قريشياً بل يجب أن يكون هاشميا. وتصدى لهم بعض الفقهاء منهم ابن خلدون والمعتزلة ، يرون أن الخلافة متاحة لأى مواطن ، وحجتهم الحديث الشريف .. «إسمعوا وأطيعوا لو ولوا عليكم عبدا حبشيا».

وأفضل جهاد عند الله قول كلمة حق أمام سلطان جائر.

وفى العصر الذى نعيشه أصبحت السيادة للشعب بلا منازع ، والتيار الفكرى الذى عبر عن روح الإسلام هم أولئك الذين قرروا أن تنصيب الحاكم هو «طريق الاختيار والبيعه والعقد ، واستناد الحاكم إلى الشعب، وعزله وارد يأتى من الأمة وهو جزء من مهامها .. وهو بالتالى منصب سياسى.

كما يلاحظ أن فكرة فصل السلطات التى جاءت مع عصر النهضة فى أوربا، هى أحد المعالم الرئيسية للنظام السياسى أيام الخلفاء الراشدين خاصة بالنسبة للسلطة التشريعية المستقلة تماما عن

الخليفة ، فسلطة التشريع لمجموع الأمة يتولاها أهل الحل والعقد .

وشرط الإجماع كمصدر للتشريع ، هو نواة المبدأ الحديث الذى يجعل إرادة الأمة هى مصدر السلطات، خاصة أنه لا يشترط اليوم وجود الإجماع بمعنى أن تتفق الأمة بكل أفرادها ، بل يرى د. السنهورى أن إتفاق الأغلبية كان لتحقيق الاجماع.

فإذا كان الحاكم لا يملك أن يصدر تشريعاً ، فكيف يعطى لنفسه حق التعبير عن الإرادة الإلهية، وإذا كان هذا الحق لا يملكه الحاكم، فكيف يعطى اليوم بعض المتعصبين لأنفسهم حق الفتوى والتشريع.؟!.

ويمكن القول أن السيادة فى الإسلام لا يملكها فرد مهما تكن مكانته ، وإنما هى للأمة فى مجموعها، كما أنه ليس فى الاسلام كنيسة تقرر له.

الاستبداد الشرقى

وهذا الحديث الذى يبدو واضحاً ، كان محل جدل طويل خدمة للحاكم، لذلك لايزال التراث الإسلامى السياسى غامضا بالنسبة لأبنائه ومشوها من غير أبنائه. ويلاحظ ندرة الأبحاث السياسية والفقهية التى تبحث السلطة السياسية فى الاسلام، ولعل سبب هذه الندرة هى حساسية تناول علاقة الحكام بالمحكومين فى زمن الاستبداد، وهى علاقة حكمتها فى أغلب الأحيان الطبائع وليس الشرائع، وكان أبرز ملامحها التاريخية هو الاستبداد، حتى أصبحت فكرة الاستبداد الشرقى إحدى النظريات التقليدية التى شاعت فى الفكر الأوربى خلال القرن العشرين.

وهذه بعض النماذج لتلك الكتابات، فما كتبه «أبو الحسن على الماوردى» فى كتابه «الأحكام السلطانية»، يخدم به السلطان لا القرآن ، ويضع السلطان فوق الناس والتشريع ويجيز الاستبداد ، ومما يقوله بالحرف الواحد .. «إن أهل الرأى إذا عقدوا بيعة إمام (حاكم) ، لا يجوز نقضها لمخلوق لأن الرعية عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للامام ما وسعتهم الطاعة».

ويدعى «أبو حامد الغزالى» فى كتابه ، «الاقتصاد فى الإعتقاد» أن : «القضاة معزولون ، الولايات باطلة ، والأنكحة غير منعقدة ، وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العالم غير نافذة ، والخلق كلهم مقدمون على الحرام ، عند الخروج على الحاكم» .

ويقول فى ذات السياق الفقيه محمد ابن إبراهيم بن جماعة (٦٣٩ - ٧٣٣ هـ) (١٢٤١ - ١٣٣٢م) .. «إذا خلا الوقت من إمام ، فتصدى لها من ليس من أهلها ، وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو إختلاف ، إنعقدت بيعته ولزمت طاعته .. ولا يقدح فى ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً..»!!.

وكان من مصلحة السلاطين أن يتخذوا من الدين درعاً يحمى عروشهم،

ويصدوا الخارجين عليهم ، حتى روجوا أن عصيانهم من عصيان الله ، وجعلوا السلطان ظل الله فى الأرض، وهذا أدى إلى البعد عن النظر فى علوم السياسة.

وبقى «التاريخ الحى» وعدد غير قليل من الفقهاء الذين تصدوا لهذه القضية وألقوا الضوء عليها ، ومنهم من دفع ثمنا غاليا لموقفه هذا .

فالعلاقة السياسية فى الاسلام ، هى علاقة مباشرة وبسيطة ، لا تعرف الوسيط، والعلاقة بين المواطن والحاكم هى علاقة بين متساويين ، والتميز لا يعدو أن يكون تميزا وظيفيا ، ويجمع النموذج الإسلامى بين خصائص كثيرة ، ويخلق توازنا بين الحاكم والمحكوم ، ولا يتجاهل أن السيادة وليدة القوة ، وأن القوة هى الشرعية .

ابن خلدون

ومن الذين تناولوا نظرية الاسلام السياسية ، العلامة ابن خلدون ، والذى قدمها فى مقدمته فى إطار رؤيته الاجتماعية ، وقرر أن الخلافة الخالصة كانت فى الصدر الأول للإسلام وإلى آخر عهد على بن أبى طالب ، ثم تحول الأمر إلى ملك، وبقيت الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والسير على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا ، وهكذا .. ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها ، واستعملت فى أغراضها ، من القهر والتقلب فى الشهوات والملذات، واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب ، والخلافة والملك فى الطورين ملتبسا بعضهما ببعض، ثم ذهبت رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم ، وتلاشى أحوالهم ، وبقى الأمر ملكا بحتا كما كان فى ملوك العجم»..

أما السياسة عند ابن خلدون فهى قوانين سياسية يسلم بها الكافة وينقادون إلى أحكامها ، ويميز بين ثلاثة أنواع من نظم الحكم ، الحكم الواقعى الذى تسيطر عليه القوة ، والحكم السياسى المبنى على قواعد العقل ، والحكم الاسلامى المبنى على شريعة الله.

الحكومة الدينية

ومن المفكرين المعاصرين الذين أدركوا خطر الاستبداد على الشرق ونادى بمدنية السلطة والحكام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وعارض المحاولات الرامية لإقامة حكومة دينية . ولا يمكن إغفال كتابات عبد الرحمن الكواكبى فى هذا المجال.

ويذكر فى كتابه الإسلام والنصرانية .. «الآمة أو نائب الأمة هو الذى يختار الحاكم ، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه»..

ويقول في موضع آخر .. «ليس في الاسلام سلطة دينية سوى الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير» ويقول .. «ليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .. إن الشورى في الأمور الشرعية واجبة ، ومن رامها فقد رام أمراً شرعياً قضت به الشريعة وحتمته على الحاكم والمحكوم جميعا، بحيث لو منعناه لاكتسبنا بذلك إثما مبينا.

وقد أدرك الأستاذ الإمام أن أكثر ما يشهرونه في وجه الاسلام الزعم بأنه ينادي بحكومة دينية تتعرض في ظلها قيم الحرية للخطر، وهي تسلب الناس حرية عقولهم، ويخشون سطوة الحاكم الذي يدعي أنه يحكم باسم الدين، ولا يمنعه شئ من الاستبداد بالمحكومين.

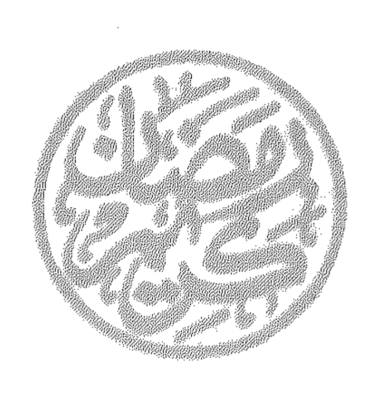
وشهدت أوربا في القرون الوسطى الحكومة الثيوقراطية أي التي تستمد شرعيتها من السماء، والتي تقوم على الإيمان بالحاكم وما ينادي به باعتباره أوامر مقدسة لا تناقش، وباعتبار الحاكم رجلا ملهما معصوما لا يخطئ، وهو دائما الأقوى والأذكى من سواه، وكانت أيام سوداء سادها الظلم والظلام.

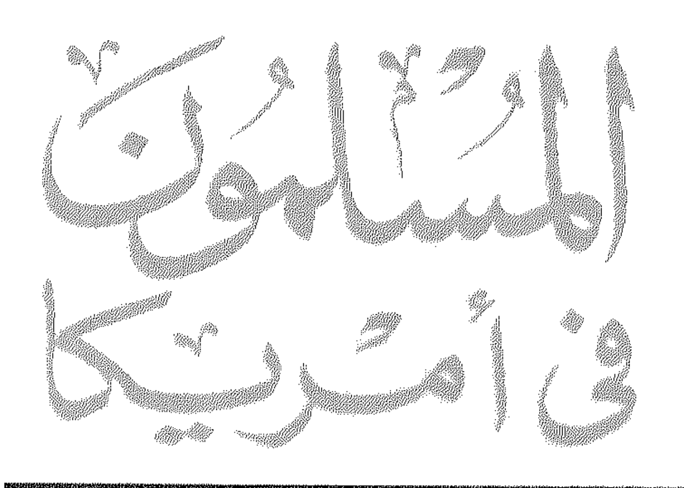
ودفعت أوربا من دماء أبنائها الكثير لكي تتخلص من وطأة هذا النوع من الحكم، وصاحب هذا التطور تغيراً في الأفكار والقيم السائدة. وتطور الفكر السياسي مع عصر النهضة، فكان الفيلسوف توماس هوبز يدعي أن سلطان الملوك مقدس وحقهم إلهي، وذلك الذي يضفي عليهم شرعية مقدسة، وظهر بعده جون لوك الذي أكد أن سلطان الحاكم يستمد من العقد الاجتماعي بينه وبين شعبه، ووجدت الحركات الإصلاحية في هذه الأفكار متكأ لها في التغيير من أجل النهضة.

ويبحث العالم العربي اليوم - بل والشرق - على من يغوص في أعماق الخبرة التاريخية وينقل معانيها بلغة العصر، ويصل إلى مجموعة القيم والأفكار التي يتكون من نسيجها التصور العام للعلاقة بين المواطن والسلطة، آخذين في الاعتبار صعوبة إنقطاع الاستمرار والإتصال، ونسعى إلى تحديد المفاهيم وتطوير النظم القائمة.

خاصة وتجتاز اليوم العرب حالة من الحيرة والتجاذب بين التعصب والتجديد، وفي التجديد الملاذ والخلاص. مما يلقي على المسلمين مهمة أن يصلحوا أمورهم ويلحقوا بركب الحضارة، ويفهموا دينهم ودنياهم على ضوء عصرهم، لا من خلال أحلامهم وأمانيهم.

ونظام الحكم في الإسلام يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن عصر إلى آخر لأن القرآن الكريم لم يورد بيانا عن نظام حكومة خاصة، والسبيل إلى إقامة هذه الحكومة هو ما تدلهم عليه أوضاعهم، وقدرتهم على أن ينصهر الماضي والحاضر في بوتقة واحدة ويعيشا متناغمين متصالحين ☐





بقلم: د. حسان حتحوت

أخطاء شائعة :

اتصل بى ذات مرة رئيس تحرير مجلة عربية كبيرة بالتليفون قائلا «نريد أن تكتب لنا مقالا عن المسلمين فى أمريكا ، فقد سمعنا أخيراً أن كلينتون قد أفسح لهم مزيدا من الفرصة ووسع لهم المجال في أمريكا» .. صدمتنى عبارته تماما وأحسست أنه رمى رأسى بحجر ورغم أن حديثنا كان بالعربية فقد أحسست بفقدان اللغة المشتركة بيننا . وغفرت له فيما بعد بيني وبين نفسى فلعلها معلومة جديدة عليه أن كلينتون لا يملك من أمر ذلك شيئا وليس من شأنه ولا من سلطته أن يضيّق أو يوسع على أحد ، فما هو إلا رئيس جمهورية يحكمه قانونها كما يحكم أى مواطن آخر ، وما أنباء قضاياه ومثوله أمام التحقيقات المتتالية ببعيد . وآلمنى أن ينسب التقدم الذى أحرزه المسلمون هنا إلى إرادة فرد وأن يُجحد ما بذلوا من جهد ومن سعىٍ على مدى سنين طويلة...

والحق أن المسلمين إن كانوا حققوا شيئا قليلا أو كثيرا من النجاح فقد كانوا موكولين تماما إلى نصيبهم من الشطارة أو الخيابة ، سواء بين بعضهم وبعض أو تجاه بقية الشعب الأمريكى أو إزاء القوى الجبارة التى وقفت مواردها الهائلة على الإساءة للإسلام والمسلمين ، ومن الإنصاف أن نقول إن المسلمين فى ذلك كان لهم نصيبهم من الشطارة ومن الخيابة جميعا .

وهناك خطأ شائع آخر لحظته فى مصر وكل البلاد العربية . وهو الافتراض التلقائى أن المسلمين الأمريكان هم – بطبيعة الحال – عرب أو من أصول عربية. وليس الأمر كذلك . فنسبة العنصر العربى بين المسلمين الأمريكان لا تجاوز خمس عشرة بالمائة ، وهى تقريبا نسبة العنصر العربى بين مسلمى العالم . وبطبيعة الحال فإن المسلمين المستنيرين هنا (وليسوا على الإطلاق مائة بالمائة من المسلمين) حريصون على صهر المسلمين الأمريكان فى بوتقة إسلامية واحدة ، وتنقيتها من سلبيات العرقية والمذهبية التى تغتال أمة الإسلام فى المشرق ، فالمواطنة أمريكية ، والهوية إسلامية ، ولا حرج بعد ذلك أن يحترم كل واحد الرحم التى أنجبته والشجرة التى أثمرته ، وسائر الشعب الأمريكى باستثناء الهنود الحمر مكون من مهاجرين أتوا من بلاد مختلفة ليتخذوا من أمريكا وطنا وليس الأمريكان المسلمون استثناء من ذلك ، ويخطىء من يظن أن مجرد الانتساب للإسلام يجعل المسلم فى أمريكا أجنبيا . وكثيرا ما سمعنا تعبير «أبناؤنا فى الغربة» من بعض الأساتذة

العرب إشارة إلى المسلمين الأمريكان العرب ، وهو تعبير كثيرا ما يثير الدهشة هنا وإن كان يُعذر قائلوه . ومنذ سنوات زارت هنا كاتبة مصرية كبيرة وشخصية عظيمة ، وأعد المركز الإسلامى ضمن برنامج الزيارة لقاء مع الأحداث وصغار الشباب ، وكان تعقيبها فيما بعد «الأولاد متأمركون زيادة عن اللزوم» .. فاتها أنهم ليسوا متأمركين لكنهم أمريكان . ولا ينفى كلامى أن الكتلة الإسلامية هنا على اختلاف أصولها (ومنهم من أصله انجليزى أو ألمانى أو إسبانى أو صينى أو كورى ...) يعتبرون أنفسهم جزءا من الأمة الإسلامية فى عمومها ، ويهتمون لها ولقضاياها وللمظالم الواقعة عليها ويبلون فى ذلك أحسن البلاء ، بل إن بلاءهم عادة أجدى من الفورات العاطفية العقيمة التى ليس وراءها شىء. هذا وفى أمريكا كذلك عدد من الجمعيات العربية الأمريكية للأمريكان من أصل عربى ، ورغم أن أجندتهم عربية بالمقام الأول إلا أنها منسجمة تماما مع الأجندة الإسلامية العامة وبينهما مودة وتعاون والحمد لله ، وحجمها بطبيعة الحال محدود بالنسبة للمسلمين .

● الأصول

جاءت إلى أمريكا موجات متعاقبة من المسلمين .. يعنينا منها الثلاث الأخيرة. ففى زمان تجارة الرقيق التى ولغت فيها كثير من الدول ذات الأساطيل الكبيرة ، صار اختطاف ملايين من البشر من إفريقيا لبيعهم فى أسواق النخاسة فى أمريكا ليكونوا عبيدا وعمالا فى مزارع القصب (وملايين أكثر هلكوا خلال الرحلة وألقوا فى المحيط) .. وكانت الكثرة منهم مسلمين . ولكن بطبيعة الحال لم تستطع هذه الموجة أن تستبقى عليها دينها فقد مُنعوا من ذلك وأُجبروا على تغيير أسمائهم إلى أسماء يقررها مالكوهم؛ وكثيرا ما كانت الأسرة تباع فالوالد فى جهة والأم فى جهة والأبناء كل فى جهة ، وهى صحيفة سوداء فى التاريخ الأمريكى لكن الخلاصة أن هذه الموجة انتهت إسلاميا وإن ظلت تتكاثر بيولوجيا ودُفعت إلى اعتناق المسيحية وأفضت إلى الأربعين مليونا من الأمريكان الذين عرفوا بالأمريكان السود ثم الأمريكان الأفارقة ، وشهدت العقود الأخيرة تحول عدد كبير منهم إلى الإسلام كما سنروى فيما بعد .

أما الموجة الثانية فكانت فيما بين الحربين العالميتين وكان مصدرها بالأكثر المشرق العربى ، وقد كانت هجرتهم سعيا وراء الحياة الأرغد والثروة الأوفر والحلم الأمريكى ، يستوى فى ذلك المسلمون والمسيحيون . ولم تكن لها اهتمامات عقيدية فنجحت اقتصاديا لكنها ذابت إسلاميا واتخذت لأبنائها أسماء أمريكية وتبنت التقاليد والأخلاق الجديدة وفقدت بقية الإسلام إن كانت جاءت بشىء منه .

والآن الموجة الثالثة . فهل يا ترى تزول كما زالت سابقتاها أو هى جاءت لتبقى هذه المرة ؟ نعتقد أن الأمر بيدها هى ففى

وسعها أن تزول ولكن - وهذا هو المهم - في وسعها أن تبقى كذلك . والمؤشرات التى أمامى تدل على أنها باقية إن شاء الله ولهذا أسباب . فالمهاجرون المسلمون فى هذه المرة على العموم أغنياء بالكفاءات العلمية والمهنية العالية التى تفرض على المجتمع احترامها والتى تحتاج إليها أمريكا ، وليسوا كما هو الحال فى أوربا من أهل الثقافة الخفيضة والعمالة الدانية. وكثير منهم اصطحبوا معهم فى هجرتهم عقيدة راسخة وإسلاما حيا يحرصون أن يعيشوه ويورثوه أبناءهم وذراريهم. ثم إن أمريكا قائمة على التعددية فليست فيها الالتهابات العنصرية التى فى أوربا. والأمريكى منفتح للجديد استماعا وتجربة، وليس بين أمريكا والعالم الإسلامى تراث الحروب الصليبية أو الغزوات العسكرية والفظائع الاستعمارية ، ويبقى فى الحساب الختامى أن الإسلام فى أمريكا قد بدأ يستقر وينتشر .

● حكاية المسلمين السود :
● اليجا محمد

رجل ذكى من سلالة العبيد ساءه حال قومه فرغم الغاء الرق إلا أنهم قاسوا تفرقة عنصرية بغيضة من البيض ليس هنا محل لتفصيلها ، وبحكم نفسيتهم المهزومة وأوضاعهم الذليلة عاشوا فى قاع المجتمع وافترستهم الخمر والمخدرات والفحش والجريمة . فكّر أن يقوم بحركة ولكن كانت المسيحية خارج البحث فلم يكن مسموحا للأسود أن يعبد الله فى كنيسة البيض . وسمع مصادفة عن دين لا يفرق بين الأجناس والألوان اسمه الإسلام فعثر على ضالته . ودعا قومه وأقنعهم بأن أجدادهم كانوا مسلمين ، ونجح فى تعليمهم الصلاة وفى تبطيلهم الخمر والمخدرات والزنى ، وفى تزكيتهم روحيا وبث قيهم العزة واحترام النفس وأن العمل واجب والبطالة عيب والنظافة من الإيمان وأنشأ المعابد وفتح المدارس والتف حوله الكثيرون ووصلت دعوته إلى السجون فأسلم المجرمون وانصلحت حالهم بعدها وكان لهم شأن كبير . إلا أنه كان من بين تعاليمه كذلك أن الجنس البشرى أصله أسود وأن الجنس الأبيض نتج نتيجة خلل فى المورثات وأن الله خلقه ليجعل منه الشياطين . وفى تعاليمه أن الصيام فى ديسمبر بدلا من رمضان ، وأن كل أبيض شرير . وادعى أن الله لقيه على هيئة رجل اسمه مستر «فرض» وكلفه بالقيام بتلك الدعوة التى سماها «أمة الإسلام» .. وكان أكبر مساعديه وأبلغهم رجلاً اسمه مالكولم إكس (أسلم فى السجن وفى مكتبة السجن انتقل من جهل تام إلى ثقافة واسعة) . وحدث أن دُعى مالكولم إكس إلى أداء الحج ، فوجد أن المسلمين يلتقون على اختلاف الألوان لقاء الأخوة والأسرة الواحدة فانخلع من مسألة العصبية اللونية، وعاد إلى أمريكا يبشر بالإسلام الصحيح .. ولكن فى خلال عام قُتل بالرصاص وهو يلقى محاضرة . وبعد قليل مات اليجا محمد ورشح لخلافته اثنان : ابنه وزوج ابنته. وانقسمت الجماعة؛ فإن الابن - ولاس محمد - الذى

سمى نفسه وريث الدين محمد ذهب إلى الشرق وعاد مؤمنا وعالما بالإسلام الصحيح ، فى حين ظل زوج ابنته لويس فرخان يضع مسألة اللون على رأس القائمة؛ وهو رجل ذكى وجذاب إلا أن باقى المسلمين يعتبرونه سياسيا أولا ولا يرتاحون إلى فقهه؛ ومنذ قريب استطاع أن يحشد فى واشنطن مظاهرة من مليون رجل للتوبة والمطالبة بالعدالة الاجتماعية .

● تاريخ

أثناء عملى أستاذا للتوليد وأمراض النساء بكلية الطب بجامعة الكويت كنت أقضى بعض إجازتى السنوية فى المركز الإسلامى لجنوب كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس .. ودلتنى الخبرة على أن للإسلام فى أمريكا فرصة حقيقية وتاريخية ، إن ضيعناها فشيمتنا وعادتنا وما أكثر ما ضيعنا ، وإن انتهزناها فقد تعود بخير كثير على الإنسانية كلها .. فأمريكا ذات نفوذ على العالم ، وهى من العالم كالقلب من الجسم إن صح صلح وإن اعتل مرض .. وهى على قمة حضارة لم تعرف لها الإنسانية من قبل مثيلا ، ولكنها مع ذلك حضارة تحمل فى جسدها جراثيم فنائها ولو بعد حين ، حضارة الثراء المادى لكن مع الإفلاس الروحى ، والإغراق فى المتع الحسية مع الإعراض عن القيم الإنسانية . وحضارة هذا شأنها فى غاية الحاجة إلى التعرف على تعاليم الإسلام فمن يصلها بهذه التعاليم ؟

ثم إن أمريكا فى كثير من القضايا تحتل منصة القضاء وتصدر أحكامها مدعومة بقوتها الاقتصادية أو آلتها الحربية أو سطوتها السياسية . وتجىء أحكامها فى بعض الأحيان مجانبة للعدل واقعة فى التحيز ، إما نتيجة لغسيل مخ يصور لها المسلمين همجا ووحوشا ومعتدين ، أو لضغوط فى أروقة الساسة والسياسة احترفتها وأتقنتها بعض الجهات : فمن يبين ويعادل ويضغط ويهدى إلى سواء الصراط، ويكشف للقوم أن بعض سياساتهم تصب فى غير صالحهم كما تصب بلايين من الدولارات يؤديها دافع الضرائب الأمريكى ؟

ثم من قبل ذلك ومن بعده فإن الله لم يجعل مهمة النبى أن يسلم الناس ولكن أن يعرفوا ما هو الإسلام فقال له «**ما على الرسول إلا البلاغ**» . ولكنه لم يجعلها مهمة النبى وحده بل أيضا الذين يتبعونه فقال «**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**» .
ورأيت من نعمة الله علىّ ما يجعلنى مؤهلا لذلك ، فنشأت فكرة الهجرة ، وكان تحديد الموعد أصعب قرار فلا أضمن عمرى ولا صحتى ، وقدمت استقالتى من الجامعة ، واستدعانى الشيخ سعد العبد الله الصباح ولى العهد الكويتى ورئيس الوزراء فقال: كنت أحسب أنك أحلت للتقاعد من أجل السن فأوشكت أن أصدر الأمر باستبقائك لكن قيل إنك ذاهب لخدمة الإسلام وهو ما لا أستطيع أن أمنعك منه، ولقد خدمت الكويت وخدمت الإسلام ، وخدمت العلم فهذا بلدك يرحب بك فى كل وقت . وأذكرها له بالخير .. وجئت إلى

أمريكا بالكرت الأخضر أخذته لأن أخى أمريكى قديم ، وحصلت على الجنسية بعدها بسنوات وطويت صفحة الطب الذى عشقته ، وفتحت صفحة العمل الإسلامى الذى أعشقه كذلك ، وأشعر بمحبة الله وتوفيقه ، مضيفا جهدى إلى جهود الآلاف من الدعاة المخلصين أكرمهم الله .

● عقبات وسلبيات

واستميح القارىء ان أبادره بالجوانب السيئة مفضلا ان أجعل الجوانب السارة مسك الختام . ويدهش القارىء إن قلت له إن من أكبر المصاعب هنا ما يعود إلى المسلمين أنفسهم . فقد صدّر الشرق الأوسط إلى أمريكا كل سلبياته وطوائفه بما بينها من خلافات . فهنا سلفيون وصوفيون وحزب التحرير (الخلافة أولا) وجماعة تسمى الأحباش وامتدادات للجمعيات الإسلامية فى باكستان والبلاد العربية .. وجلها لا يسكن أمريكا إلا جغرافيا لكنه عمليا مازال فى المشرق ، ولا يمكن اعتباره جزءا من الشعب الأمريكى (إلا بالجنسية وجواز السفر) ، فهم أجانب بمعنى الكلمة لا يؤثرون ولا يتأثرون بأمريكا ولا يأتى من ورائهم إلا الخلافات التى بينهم أو التى يصطنعونها مع سائر المسلمين . ومنهم من يلوم المسلمين على خروجهم إلى العمل العام وانغماسهم فى العمل السياسى بدعوى أنه نظام كافر . وليت شعرى ماذا لو أن النبى عليه السلام عندما بعث قرر أن قريشا والعرب كفار فلن يتصل بهم أو يذهب إليهم . ولا يجد أصحابنا جوابا عندما نقول لهم إن كنتم تعتبرون أمريكا دار كفر فقد وجب عليكم شرعا أن تغادروها إلى دار الإسلام فلم لا تفعلون ؟ ومن المؤسف كذلك أن حكومات بعض الدول فى المشرق الإسلامى تحاول أن تشترى العمل الإسلامى فى أمريكا بالمال ، بغية قصره على القوالب الجزئية التقليدية والشعائر والطقوس والمظهريات ، ودون أن يتطرق إلى الحريات وحقوق الإنسان وجلاء الصلة بين الحكم والشعب ، وهى من أبواب الفقه التى مازالت مهملة فى كثير من البلاد .

ولا شك أن واقع الحال فى العالم الإسلامى يسبب لنا حرجا كثيرا ونحن نقوم بشرح الإسلام. من الأسئلة المتكررة أنه إذا كان الإسلام دين السلام كما تقولون فلماذا يتحارب المسلمون فيما بينهم بلا هوادة ؟. وإذا كان دين العلم فما نسبة الأمية فى بلاده؟ وإذا كان دين التراحم فما هذه الهوة السحيقة بين فقرائكم وأغنيائكم أفرادا ودولا؟ وإذا كان الإسلام قد أنصف المرأة فما هذا الذى يحدث فى أفغانستان وفى غيرها؟.. ونرد الرد المناسب ببيان الفرق بين تعاليم الإسلام وما يفعله المنتسبون إليه ، تماما كما لو حاكمت العالم المسيحى إلى تعاليم عيسى عليه السلام .. ومع ذلك يعتصرنا الألم لأن مَنظر العالم الإسلامى وخاصة العالم العربى كما يرى من أمريكا سيىء للغاية .

ثم ننتقل بعد ذلك إلى القوى غير الإسلامية وهى اللوبى الصهيونى وحلفاؤه من اليمين المسيحى المتطرف ثم وسائل

الإعلام والتسلية التى يملكون منها النصيب الأوفر . ويحاولون بقوة أن تكون صورة المسلمين والعرب سيئة فى أعين صناع القرار السياسى فى الكونجرس وفى أعين الرأى العام على عمومه لكى يصبح مهيأ لتقبل أى قرار ظالم بحسبان أن ذلك هو العدل الذى يستحقه المسلمون. وهم متغلغلون فى الأوساط السياسية بشكل ملحوظ لدرجة أن كلينتون عندما قامت بينه وبين نتانياهو مشادة بخصوص عملية السلام فى الشرق الأوسط ، هدده نتانياهو بأنه سيحتكم إلى الكونجرس الأمريكى وسيطربق عليه واشنطن؛ وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى نشبت فضيحة مونيكا لوينسكى وكأنما كانت مهيأة وجاهزة للنشر .. ومن المصرح به هنا أن رئيس الوزراء الإسرائيلى يملك من النفوذ فى الكونجرس الأمريكى أضعاف نفوذه فى الكنيست الإسرائيلى وأكثر مما يملكه الرئيس الأمريكى فى الكونجرس الأمريكى. ومن ناحية أخرى فإن الإعلام خاصة الإعلام الترفيهى ناشط فى الترويج للإباحة الجنسية والانحرافات الخلقية بشكل مثير وفعال فى أسوأ استغلال الحريات المتاحة ، مما يجعل العفة والاستقامة أمرا بالغ الصعوبة على الشباب والقابض على دينه كالقابض على الجمر .

● إنجازات وإيجابيات

وتحت هذا العنوان نبدأ بخبرين سارين . الأول هو وجود الحرية واحترام القانون.. صحيح أن الحرية متاحة لأهل الفساد وأهل الإفساد ولكنها متاحة للمسلمين كذلك ، وما دمت فى حدود القانون فلا يجرؤ أحد أن يحد من نشاطك .. وإذا أتيحت الحرية للجميع فالإسلام هو الرابح على المدى الطويل فى حين أن شجرة الإسلام تذوى فى غياب الحرية. ولا أقصد بالنسبة للمسلمين حرية العبادة فقط ولكن حرية التحدث عن الإسلام وشرحه للآخرين بصورة لا يمكن أن تتوافر فى أغلب البلاد الإسلامية .

أما الخبر السار الثانى فهو أن أغلب السلبيات التى أوردناها سواء على جبهة المسلمين أو غير المسلمين قد بدأت فى الانكماش والتراخى لا تلقائيا بطبيعة الحال بل نتيجة الجهد الجيد الذى يبذله المسلمون المخلصون بلا كلل أو ملل . نتيجة الزيارات والمحاضرات فى المراكز الإسلامية عدلت كثير منها وجهتها إلى النافع المفيد . وكثير من المراكز التى كانت تنعى علينا أصبحت فيها لجان للتحاور بين أتباع الأديان وحملات مكثفة ليسجل المسلمون أنفسهم فى سجلات الناخبين ويمارسوا حقهم الانتخابى فى بلاد يتقرر كل ما فيها بأغلبية الأصوات ، واستقر أن حديث النبى عليه السلام «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» يشتمل بدون شك على استعمال الصوت الانتخابى . فالانتخابات هنا حقيقية وليست نتائجها مقررة سلفا ولكل صوت لذلك قيمته ، ومنذ أصبحت أمريكيا لم

أتوان عن الإدلاء بصوتي . وقد اكتشف السياسيون هذه الظاهرة حتى من قبل أن تتضح للمسلمين .. فلو تكونت من الملايين الخمسة من المسلمين الأمريكان كتلة انتخابية موحدة تعدادها نصف مليون من الأصوات فهي قوة يحسب لها ألف حساب. وبعد أن كان المسلمون كمًا مهملا حتى سنوات قريبة أصبح المرشحون يحرصون على زيارة التجمعات الإسلامية في مراكزها للتعرف على آراء المسلمين والرد على استفساراتهم وسماع ملاحظاتهم. وبعد أن كان السياسيون حتى سنوات خلت يستنكفون أو يخافون من الاتصال بالمسلمين تبدل ذلك خاصة عندما لبت السيدة الأولى هيلارى كلينتون دعوة مركزنا لتكريمها على اهتمامها بقضايا الأسرة والطفولة فكان ذلك فتحا مبينا رغم إغاظته لأطراف أخرى ، وفي عيد الفطر الفائت احتفل المسلمون بالعيد في ضيافتها في البيت الأبيض وتبودلت الكلمات المناسبة . وتكونت أجنحة سياسية إسلامية وصلت بوجهات النظر الإسلامية في الداخل والخارج إلى السياسيين والحكام في الكونجرس والولايات ، وانفتحت مكاتب السياسيين أمام المتدربين من الشبان المسلمين أثناء المعركة الانتخابية ، وتمت إنجازات مهمة رغم حداثة العهد وضآلة الموارد في بلاد وقودها المال. كذلك اتسع الإسلام أفقيا ففي أمريكا الآن ألف مركز إسلامي كل منها في منطقته يعمل عمل المغناطيس .. صحيح أنها ليست جميعا في حالة مثالية

ولكنها على وجه العموم اجتذبت أعداداً كبيرة من المسلمين الذين كانوا قد ضاعوا من الإسلام تماما . وبالترتيب مع الجامعات والمدارس والكنائس شرحت الإسلام على حقيقته لمئات الألوف ، كلهم يقولون لم نكن نعرف ذلك، والبعض يتعمق في التفكير فيعتنق الإسلام ، ولا يمر يوم واحد دون أن تدخل في الإسلام أعداد جديدة من الرجال والنساء على تعدد الجنس واللون والخلفية العرقية ، وهم في إسلامهم محترمون جدا بالنسبة الكثيرين منا، فالإسلام عندهم جد لا هزل ، وكم صدم منهم زوار للشرق العربي رأوا أن كثيرا من الناس لا تتعامل بالإسلام أو لا تصلي أو تتخذ من شهر الصيام موسم تسلية وتسرية . والدعوة كذلك ناشطة في السجون وقد أعلنت أجهزة الشرطة أن المسجون الذي يعتنق الإسلام لا يعود إلى السجن مرة أخرى. وعرف عن بعض التجمعات الإسلامية أنها تطهر أحياءها من المجرمين وتجار المخدرات. واستقر الإسلام كمكون أصيل من الكيان الأمريكي . ولأول مرة تفتتح دورة برلمانية بدعاء من واعظ مسلم بعد أن كانت قصرا على القسيس والحاخام . وعينت البحرية الأمريكية إماما مسلما لأفرادها المسلمين، وكذلك فعل الجيش الامريكي ، وعينت السجون أئمة للمساجين المسلمين ، ولا ينقطع سيل طلبات المحاضرة من أول التعريف بالإسلام إلى القانون المقارن إلى

الأخلاقيات الطبية والبيولوجية إلى المستشفيات وكيف تتعامل مع المريض المسلم .

وقد اتجه المسلمون أخيرا إلى قضية التعليم وإنشاء المدارس الإسلامية بحماس كبير . إن التعليم الحكومى فى أمريكا هو رسميا «تعليم خال من القيم» بدعوى فصل الدين عن الدولة وحتى لا تفرض قيم ناس على أبناء ناس آخرين . والحصيلة أن إدارة التعليم فى لوس أنجلوس أعلنت فى عام ١٩٨٩ أن شهر يونيو من كل عام عيد للشواذ جنسيا ، بدعوى تدريب الأطفال على سعة الصدر وعدم التعصب . وفى مقرراتها تعلم المدرسة الحكومية أن هناك خمسة أنواع من «الأسرة» هى رجل تزوج امرأة ، ورجل يعيش مع امرأة، ورجلان معا ، وامرأتان معا، ثم الأسرة وحيدة الوالدية (أم فقط أو أب فقط) وذلك بتسطيح كامل دون أدنى إشارة إلى حلال وحرام أو خير وشر . وأدرك المسلمون من قريب أن بناء المدارس أولى من بناء المساجد ، والمدرسة الإسلامية مدرسة خاصة بمصروفات طبعا تدرس المقرر الحكومى وفوقه الإسلام قرآنا وعبادة ولغة وقيما وأخلاقا . ويملك مركزنا أربع مدارس والخامسة على الطريق إن شاء الله ، وفى اعتقادى أن هذا الاتجاه من أجدر الأنشطة بزكاة أموال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وبدأ جدار الإعلام ينشرخ فلم يعد سدا مصمتا ضد المسلمين . بدأت تظهر مقالات منصفة وتنشر لنا مقالات ونظهر على شاشات التليفزيون فى لقاءات أو محاورات. وبدأ قسس وحاخامات بمتدحون الإسلام ، ويقولون إن تعبير «الحضارة اليهودية - المسيحية» تعبير مغلوط فهى فى الحقيقة «إسلامية يهودية مسيحية» وضع أساسها المسلمون. وأذكر مرة أن حاخاماً صهيونيا نشر مقالا جائرا فى جريدة لوس انجلوس تايمز وهى من أكبر الصحف ، فرد عليه حاخام يهودى آخر فى الصحيفة نفسها يقول: قرأت مقالة زميلى فلان فلم أجد بها حقوق الفلسطينيين .

لقد انكسر الاحتكار الصهيونى للأذن الأمريكية .. وهذا يزعجهم إزعاجا مخيفا .. فهذا الاحتكار رأس مالهم ويدافعون عنه بشراسة وقد نالنى وأخى من ذلك نصيب . ولقد استطعنا النفوذ إلى عالم السياسة ، ونعلم أن من سنة الديمقراطيات أنها تغير مواقفها من أسفل إلى أعلى وليس العكس ، والحرب الڤيتنامية لم يوقفها السياسيون وإنما أوقفها طلاب الجامعات ، والمجال مفتوح أمام المسلمين الأمريكان تماما ليبذروا الحقائق بين الطلاب والمثقفين وشرائح الشعب الأخرى . ومازلت أذكر أننى من عشر سنوات بالضبط جلست أفكر فتمنيت على الله أن يكتشف الأمريكان على مدى

السنوات العشر التالية أن المسلمين «بشر» .. مجرد بشر مثل سائر البشر! فأين نحن الآن من تلك الأمنية القديمة ؟ تشعر أمريكا الآن أن الخيط الإسلامي جزء من صميم نسيجها .. وتشعر أن فيها ثلاثة أديان رئيسية وليس المسيحية واليهودية فقط ، وجاوز الإسلام مرحلة التوجس إلى مرحلة التقبل ثم الاحترام . ولم يعد لبس الحجاب عذرا للتفرقة فى التعليم أو التوظيف ، وبمقدار ما يتمسك المسلمون بقيم الإسلام وأخلاقه (وليس فقط بقشوره ومظهرياته) يزداد احترام الناس لهم وثقتهم بهم .

وانبثقت صحافة إسلامية راقية وواعدة، وظهرت كتب إسلامية مبينة ومقنعة ، وكما حدث لحائط برلين هدمت الانترنت الاحتكار الإعلامى ، وللمسلمين عليها صفحات كما أن خطبنا فى صلاة الجمعة أو المحاضرات تذاع عليها صوتيا فى أرجاء المعمورة .

أما بعد :

فهنا أمريكا .. ويحدث فيها كل ذلك ويتسامع به الإخوة المسلمون فى المشرق وكأنما يحدث فى المريخ . عندما أزمعت القدوم إلى هنا انتقدتنى بعض الشخصيات فكيف أخدم الإسلام فى أمريكا وكان أولى أن أخدمه فى بلاده . فاتها أن السبب الوحيد لتغلب عدونا علينا أنه أقام موطىء قدم فى أمريكا وبنى عليه نفوذا كبيرا .. وفاتها أن خدمة الإسلام فى بعض بلاده أصعب بكثير من العمل له هنا وكلها بلاد الله .. وفاتها أن خدمة الإسلام فى أمريكا قد ينتج عنها أكبر الخدمات للمسلمين فى بلادهم كما هى لأمريكا وللعالم كله . ولكن الإنسان عجول، ويريد النتائج السريعة ولا يرى أن البذرة التى يغرسها قد تؤتى ثمارها بعد أجيال وأجيال فلا يحاول أن يغرسها . وكثيرون منا لا يبصرون من أمريكا إلا عيوبها مع أن فيها من المزايا كذلك ما يجل عن الحصر . وكثيرون لا يقتبسون من أمريكا إلا عيوبها وليْتهم أخذوا أيضا بالنافع ولم يقتصروا على الهلس (الكلمة عربية صحيحة) . وكثيرون أعماهم البريق والزخرف المصدر إليهم ففقدوا احترام النفس والاعتزاز بقيمهم الدينية والروحية والأخلاقية وكنا نرجو أن يصدروها هم إلى العالم المفتقر إليها . ننظر إليهم من أمريكا بكل الأسى والأسف والإشفاق .. لا احترموا أنفسهم ولا احترمهم الناس .

ننظر إلى دول كان ينبغى أن تلتحم فافترقت ، وشعوب كان ينبغى أن تصطلح مع أنفسها ومع حكامها ومع ربها ولكنها لا تفعل ، فما أسعد حظ العدو .

أما فى أمريكا فالإسلام جاوز نطاق المصادرة حتى ولو كانت المعركة لا تزال سجالا ، وهو هنا ليبقى إن شاء الله ، وهو هنا ليحب لا ليكره ، وليداوىَ لا ليقتل ، وليهدى لا ليضل .. « **ولتعلمنّ نبأه بعد حين** » .

أجمل وأرق مراحل الفن الاسلامى :

الفن الفارسى

بقلم : د. صبرى منصور

●● حين يتبادر إلى الأذهان اسم بلاد فارس (أو إيران) فإنه فى الغالب يأتى مقترناً بأنواع السجاد الذى طبقت شهرته الآفاق بأنواعه المتعددة وأصنافه المختلفة، وعرفت مراكز صناعته كالسجاد التبريزى والشيرازى، وكذلك يقترن ببلاد فارس ذلك النوع من البلاطات الخزفية الأنيقة المعروفة بالقيشانى نسبة إلى مدينة قاشان ، وذوو الثقافة الأدبية ربما يتذكرون الشاعر الفارسى عمر الخيام ورباعياته الشهيرة التى ترجمها أحمد رامى وشدت بها أم كلثوم ، ومؤخرا اقترن الاسم بأكبر ثورة اسلامية فى العصر الحديث وهى ثورة آيات الله بزعامة آية الله الخمينى ●●

وهكذا فإن معظم المصريين ربما لا يدركون أهمية الدور الذي لعبته تلك البلاد البعيدة في صياغة التاريخ الحضاري لمنطقة الشرق الاوسط منذ العصور القديمة، ومدى تأثرها بثقافة الأمم المجاورة وكذلك مدي فاعليتها وتأثيرها في تشكيل ثقافة وفنون تلك الأمم.

ولقد مرت إيران عبر تاريخها الطويل بتقلبات سياسية عديدة، وتوالت على حكمها أسر ملكية من أجناس شتي ، وتعرضت مدنها الكبرى للتدمير والتخريب مرات عديدة، وتغيرت عاصمتها عشرات المرات ، واتحدت دويلاتها فى مرات وفى أخري انقسمت وتوزعت بين الأمراء، فهى لم تهنأ بنعمة الاستقرار السياسى والإجتماعى إلا فى فترات تاريخية محدودة. ومع كل ذلك فقد خلفت تلك البلاد للإنسانية تراثا غنيا بالإبداع الفنى الرفيع فى مجالات عديدة كالعمارة والنسيج والخزف وأشغال المعادن لكن أكثر وجوه

◄ صفحة من مختارات سور القرآن الكريم موقعة باسم أبو محمد عبد القيوم تبريز ١٣٧٠ م

العقاب وانه لغفور رحيم

سورة الكهف مائة واحد عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي انزل على

عبده الكتاب ولم يجعل

الحضارة الفارسية إشراقاً وأعظمها تأثيرا وامتداداً فى فنون الشرق الأوسط (من الأناضول حتى الهند) كان فن رسم الكتاب (المخطوطات) الذى وصل بفضل الحماية والرعاية الملكية الى قمة ازدهاره وتألقه فى إيران خلال العصور الوسطى .

بلاد فارس القديمة :

منذ زمن موغل فى القدم يقدر بحوالى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد بدأت بعض القبائل فى الاستقرار بالوديان الإيرانية ، وتسمت تلك الوديان بالقبائل التى استوطنتها، وقد اختارت قبائل الفرس الولايات الغربية التى عرفت باسمهم فيما بعد، وقبل الميلاد بحوالى ٥٥٠ ق.م استطاعت هذه القبائل السيطرة على كل إيران بل وامتد سلطانها ليشمل المستعمرات الإغريقية شرق آسيا، وبسقوط بابل عام ٥٣٨ق.م إمتد حكم فارس إلى بلاد الشام وفينيقيا وفلسطين، وأضحت فارس بذلك سيدة الشرق الأوسط، وفى عصر الملك قمبيز تم غزو مصر وبلاد النوبة عام ٥٢٩ ق.م، كما حاول الملك دارا غزو الهند عام ٥١٢ ق.م ووصلت جيوشه الى نهر الدانوب فى أوربا ولكن سرعان ما انتاب دولة الفرس الشاسعة الضعف الذى جعلها لقمة سائغة للاسكندر المقدونى الذى ورث ممتلكات الدولة الفارسية التى سقطت وسلمت له عام ٣٣ق.م بعد أن حكمت منطقة الشرق الأوسط حوالى قرنين من الزمان.

وقد عاش الفن الفارسى فترة ازدهاره القديم فى الفترة من أواسط القرن السادس قبل الميلاد وحتى أواخر القرن الرابع ، واستفاد فى البداية من فنون حضارة بلاد ما بين النهرين (العراق) وكان انشغال الفرس بالحروب سبباً فى عدم الإلتفات للفنون، واكتفوا باستقدام العمال المهرة والفنانين من البلاد التى وقعت تحت سيطرتهم مثل بابل وآشور وبلاد اليونان ، واقتبسوا عناصر كثيرة من فنون تلك البلاد التى كانت تتمتع بانجازات حضارية سابقة، واستطاع الفرس أن يجمعوا بين تلك العناصر فى صورة زخرفية جديدة تناسب الذوق الفارسى، ومما ساعد علي هذا الدمج بين الثقافات والفنون ما أبداه الاسكندر من تشجيع على صبغ العادات والتقاليد الفارسية بالروح الهيللينية، كما أعترف بالديانة الفارسية التى كانت قد ظهرت فى إيران منذ زمن بعيد وتمثلت فى عبادة الشمس التى آمن الفرس بأنها مصدر النور فشيدوا المبانى الحجرية ذات الشكل المربع حيث توقد فيها النار ويظهر اللهب من فتحات بالجدران .

الطراز الساسانى :

وقد تأسست الدولة الساسانية فى إيران حوالى عام ٢٣٨م واستمر حكمها حتى الفتح الاسلامى عام ٦٤٢م. وقد قامت بين الملك أردشير الساسانى مؤسس الدولة وبين الرومان حروب ومناوشات كثيرة استمرت فى عهد ابنه شاهبور الاول الذى حارب الرومان فى بلاد الشام وتمكن من تكوين امبراطورية كبيرة ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون ، وفي عهد الملك

شاهبور الثانى (٣١٠-٣٧٩م) امتد سلطان الدولة الفارسية مرة ثانية ليشمل منطقة الشرق الأوسط بعد أن انتصر على الامبراطور الرومانى قسطنطين. كانت الديانة المسيحية قد صارت الدين الرسمي للامبراطورية في تلك الفترة .

وفى عام ٥٤٠م استطاع كسرى الأول (أنوشران) فتح انطاكية ، كما قام الملك كسرى الثانى بتوسيع آخر للدولة حين فتح مصر واستولي على جزء من آسيا الصغرى وحاصر القسطنطينية مركز حكم الامبراطورية البيزنطية ، وربما كانت تلك الانتصارات المتوالية هى السبب الذى أغراه برفض الدعوة التى وجهها إليه الرسول عليه السلام للدخول فى دين الإسلام، وسرعان ما تمكن الملك البيزنطى هرقل من قتله وطرد الجيش الساسانى من مصر وآسيا الصغرى.

ولم يستطع الملك يزدجرد الثالث (٦٣٢-٦٥١م) الصمود أمام الجيوش العربية الزاحفة بعد أن استولت على سوريا والعراق، واستغرق الفتح الاسلامى لإيران من عام ٦٤٢م (التى انتصر فيها العرب في موقعة النهاوند) إلى عام ٦٥١م التى قتل فيها الملك يزدجرد، وبذلك طويت صفحة الحكم الساسانى ودخلت إيران مرحلتها الحضارية الجديدة داخل نطاق العالم الإسلامى .

وترجع أهمية الفن الساسانى إلى إمداده الفنين البيزنطى والإسلامى بكثير من عناصره حين اقتبس الفنانون فى العهود الإسلامية كثيراً من العناصر والزخارف الساسانية التى اتسمت بالثراء والرقة والتنوع، ويظهر ذلك بصفة خاصة فى آثار العهدين العباسى والفاطمى .

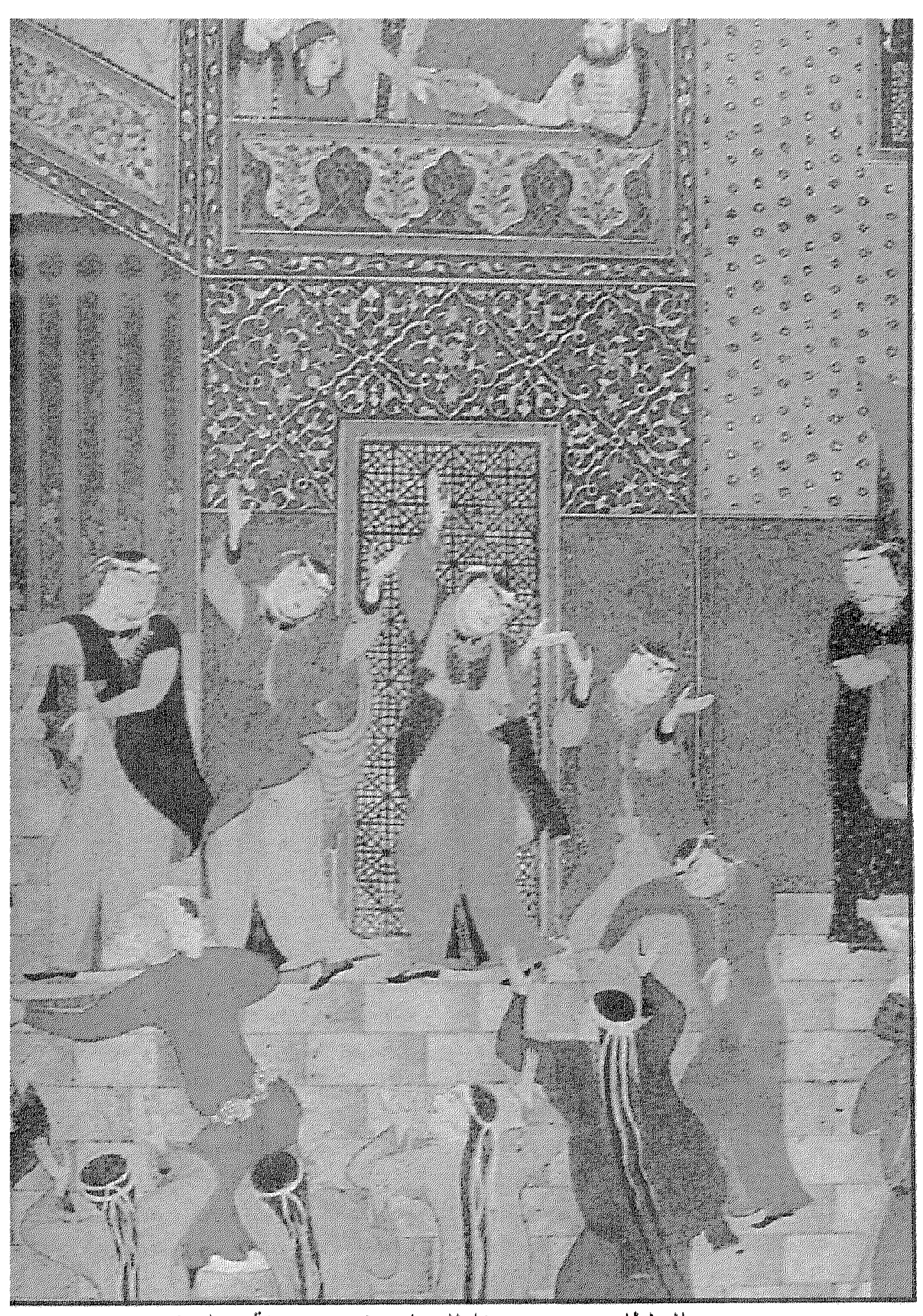
إيران في العصر الإسلامي :

أتقن الإيرانيون صناعة المعادن فى العصر الساسانى قبل الإسلام، واستمرت التقاليد متبعة فى هذه الصناعة سواء فى شكلها العام أو فى الزخارف المنقوشة عليها، فظهرت العناصر المعروفة قبل الإسلام مثل الحيوانات المجنحة وذوى الرؤوس الآدمية، وشجرة الحياة التى يحيطها حيوانان أو طائران، والآدمى الذى يصارع أسدين، أو جنيين ، وكان ذلك حوالى القرن العاشر الميلادى .

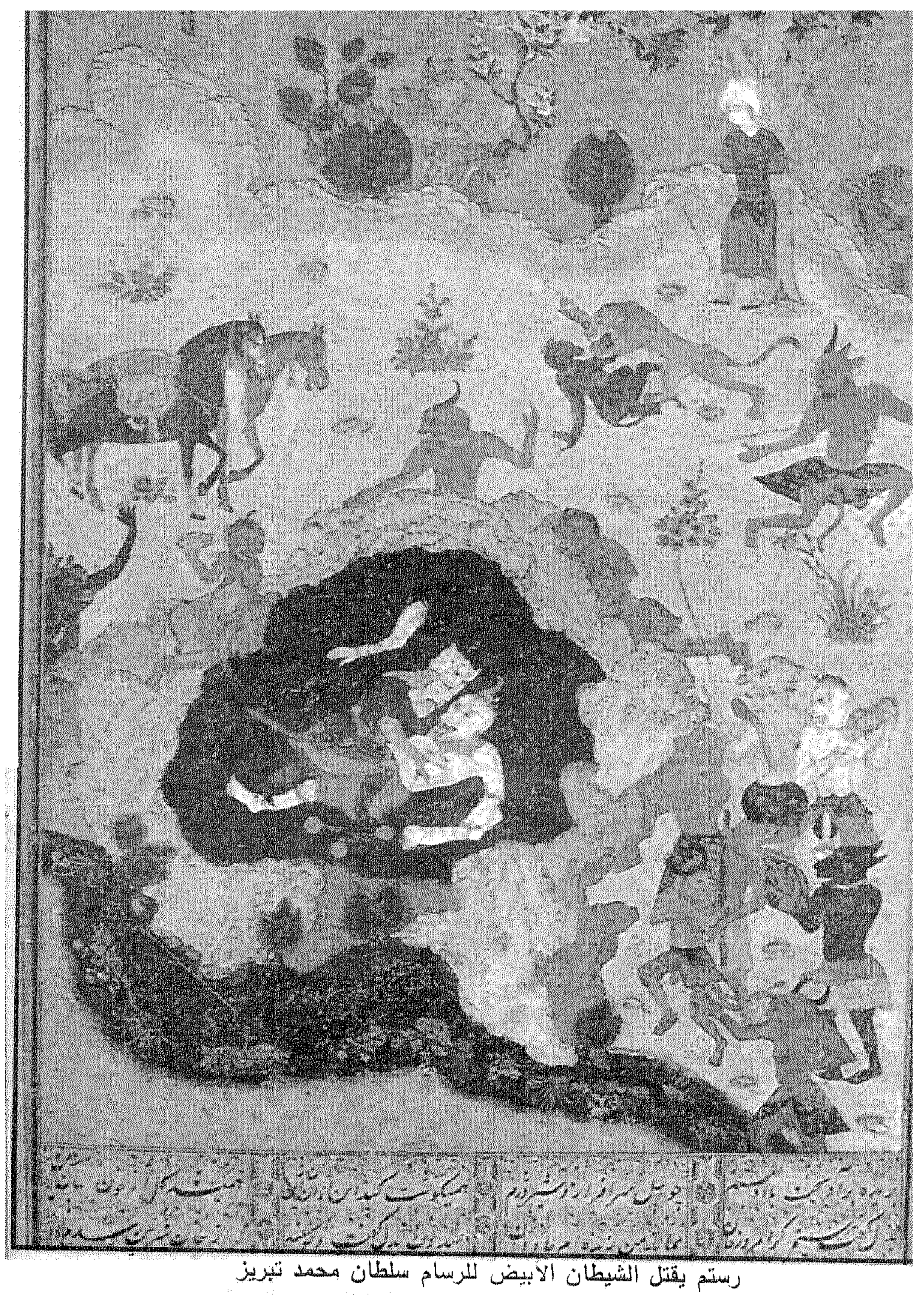
وفى العصر الإسلامى اشتهرت بعض المدن بالانتاج الفنى المتميز مثل سمرقند وخراسان في النسيج والخزف، كما كان لانتقال الخلافة الإسلامية من دمشق إلى العراق أثره الكبير على الثقافة الإسلامية التى كانت متأثرة حتى ذلك الوقت بالعناصر الغربية الموجودة فى سوريا ، كما كان من نتائج انتشار الثقافة الفارسية على يد الخبراء الذين استعان بهم الحكام، فى الخمسين سنة الأولى من حكمهم - بدء حقبة جديدة فى الفن الإسلامى ظهرت فيه المؤثرات الساسانية فى الوقت الذى قلت فيه الأساليب الهيللينستية والبيزنطية .

المغول في إيران :

زحف طوفان المغول - القادمين من صحراء جوبى بالصين - على البلاد الإسلامية تحت قيادة جنكيزخان عام



حريم السلطان حسين ميرزا للرسام منصور مدينة هراه ١٤٦٩م .



رستم يقتل الشيطان الابيض للرسام سلطان محمد تبريز
١٥٢٥ وهي رسم لمقطع من الشاهنامة للفردوسي .

١٢١٨م الذى تمكن فى فترة وجيزة من غزو البلاد الإسلامية واحدة بعد الأخرى، وأسس خليفته هولاكو خان فى منتصف القرن السابع الهجرى اسرة مالكة فى إيران عرفت باسم الدولة الألخانية شمل حكمها العراق وإيران واستمر حتى عام ١٣٣٦م وكانت مدينة تبريز - المدينة المشهورة لدينا بسجادها الفاخر - هى عاصمة الدولة .

وقد اعتنق الملوك المغول الدين الإسلامى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، واقتبسوا الكثير من مظاهر الحضارة والفنون الإسلامية، لكنهم - في نفس الوقت - لم يقطعوا الصلة بالثقافة والفنون الصينية التى عرفوها فى بلادهم، لذلك تميز عهدهم بظهور عناصر وأساليب فنية جديدة امتزجت لأول مرة بعناصر الفن الاسلامى وخلقت مزيجا فنياً فريداً.

وبالرغم من أن المغول كانوا غرباء على إيران، فإنهم ساعدوا على ازدهار الفن القومى للبلاد ، وفى عهدهم استمرت مراكز الانتاج الفني العريقة فى إبداعها مثل مدينة قاشان التى واصلت تفوقها فى انتاج الأنواع الرائعة من الأوانى والبلاطات الخزفية ذات الزخارف المتعددة الألوان وذات البريق المعدنى، مع استعارة عناصر من الفن الصينى كوحدات الحيوانات الخرافية مثل التنين والعنقاء مع اقتراب أكبر من الشكل الطبيعى فى رسم النباتات والحيوانات والطيور، وكذلك مدينة شيراز التى تأسست فيها مدرسة عظيمة فى فن التصوير ، وكانت تمثل مع بغداد فى ذلك الوقت ثنائية إبداعية كبرى .

فن التصوير الإيرانى :

لم يكن لكراهية التصوير فى الإسلام أثر واضح فى إيران كما كان فى البلاد الإسلامية الأخرى، فقد عثر على نماذج كثيرة لفن تصوير المخطوطات ترجع إلى العصر المغولى وتحمل صفات فنية خاصة جعلت لها طابعاً مميزاً يختلف عن الأساليب الأخرى، إذ يعد مزيجاً من الأساليب القديمة مضافا إليها خصائص الفن الصينى مثل تحديد الأشكال بخطوط بسيطة ثم تكوين بعض أجزائها الداخلية بألوان محدودة ، بالإضافة إلى رسم الاشخاص ذوى السحنة المغولية بأسلوب أقرب إلى الشكل الواقعى .

الشاهنامة :

وتتضح الصفات المميزة للمدرسة الإيرانية فى التصوير فى نهاية العصر المغولى ، ومن أهم المخطوطات التى يظهر فى صورها تطور هذه المدرسة تطورا كاملاً نحو الأساليب الإيرانية مخطوطة الشاهنامة «كتاب الملوك» التى كان الشاعر الفردوسى قد أتم نظمها للملك محمود الغزنوى ، ولقد أقبل المصورون الإيرانيون على تصوير هذه المخطوطة ونسخها للملوك فى إيران على مر العصور، ومن المحتمل أن تكون أقدم نسخة مصورة هى التى تعرف بشاهنامة «ديموت» نسبة إلى مقتنيها والتى يرجح أنها كتبت وصورت فى تبريز عام ١٣٢٠م.

وتضم هذه المخطوطة خمسا وخمسين

صورة اشترك فى تنفيذها مجموعة من أبرز مصورى ذلك العهد، ومما يلاحظ فى صورها الجمع بين العناصر الصينية والإيرانية ، كما أنها مزدحمة بالاشخاص التى اهتم الفنان بتسجيل حركاتها المختلفة مع ابراز لسحناتهم المغولية ، وكذلك تظهر التأثيرات الصينية واضحة من خلال السحب الصينية والبط الطائر وكذلك زخارف الملابس .

الأسرة التيمورية :

حدث فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى غزو مغولى جديد لإيران قام به تيمورلنك وكان أحد حكام المغول المحليين الأقوياء ، وقد اكتسحت جيوشه جميع الأقاليم المحيطة به ووصلت عام ١٤٠٣م حتى آسيا الصغرى .

وقد اهتم تيمور لنك - رغم قسوته المشهورة فى تدمير المدن - برعاية الفن هو وخلفاؤه، ووصلت البلاد فى عهدهم الى درجة كبيرة من الرقى الفنى، وأضحت سمرقند العاصمة أضخم وأعظم عاصمة فى الشرق الإسلامى ، حيث استقدم لها تيمور لنك العمال المهرة من جميع ولاياته، واستمرت الأساليب الفنية ، المغولية فى عهده، ولم يبدأ الطراز الخاص بالأسرة فى الظهور إلا فى عهد خلفائه .

ولقد ازدهر فن تصوير المخطوطات فى العصر التيمورى، وظهرت له مراكز فنية متعددة تميزت بأساليب وموضوعات وطنية خاصة، واستمدت مقوماتها من تقاليد إيران وثقافتها، وكان من أهم العوامل المساعدة على هذا الازدهار اهتمام الحكام التيموريين بالفنون وتقديرهم للقائمين بها ، ولقد كان هناك تنافس بين أمراء المقاطعات على تشجيع الانتاج الفنى واتقانه مما أدى فى النهاية الى نهضة كبرى فى فن الكتاب .

بهزاد :

كانت قد ازدهرت في مدينة هراة - العاصمة الإيرانية للتيموريين - مدرسة فنية في التصوير ذات أسلوب خاص مميز، وكان عصر السلطان حسين ميرزا (١٤٦٨-١٥٠٦) آخر حكام الأسرة التيمورية ، عصراً ذهبياً للفنون والآداب فى تلك المدينة ، ولقد ظهر فى هذا العهد اشهر رسام إيرانى على الإطلاق وهو المصور بهزاد الذى ولد فى هراة عام ١٤٢٠م وتتلمذ على يد مصور يدعى ميراك ، وذاع صيته فيها كما عمت شهرته أرجاء إيران وخارجها .

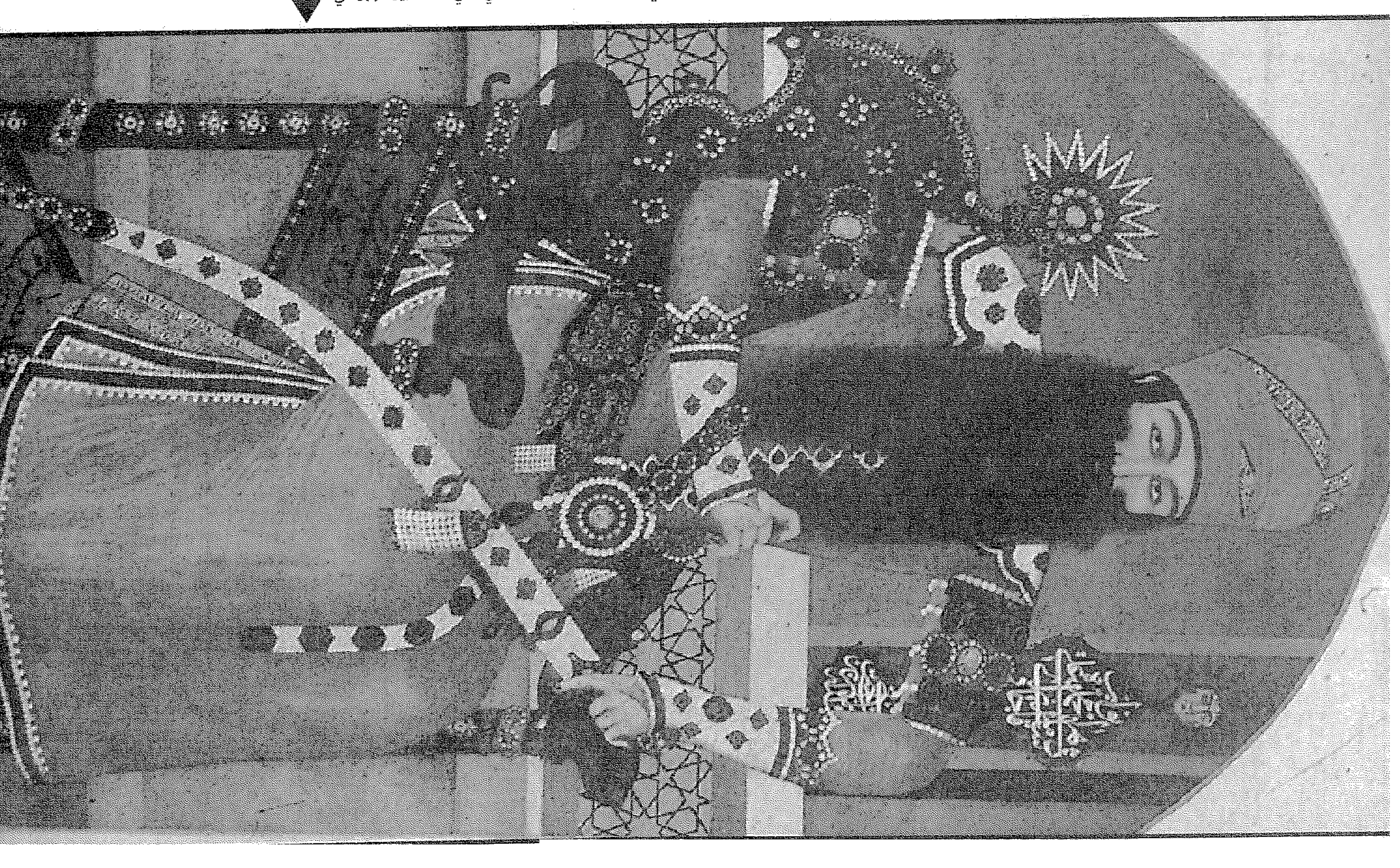
ولقد بقى بهزاد فى هراة فى خدمة السلطان أزبك الشيبانى بعد هزيمة الاسرة التيمورية حتى سقطت فى يد الشاه اسماعيل الصفوى عام ١٥١٠ م فانتقل معه الى تبريز وتوفى عام ١٥٣٥م .

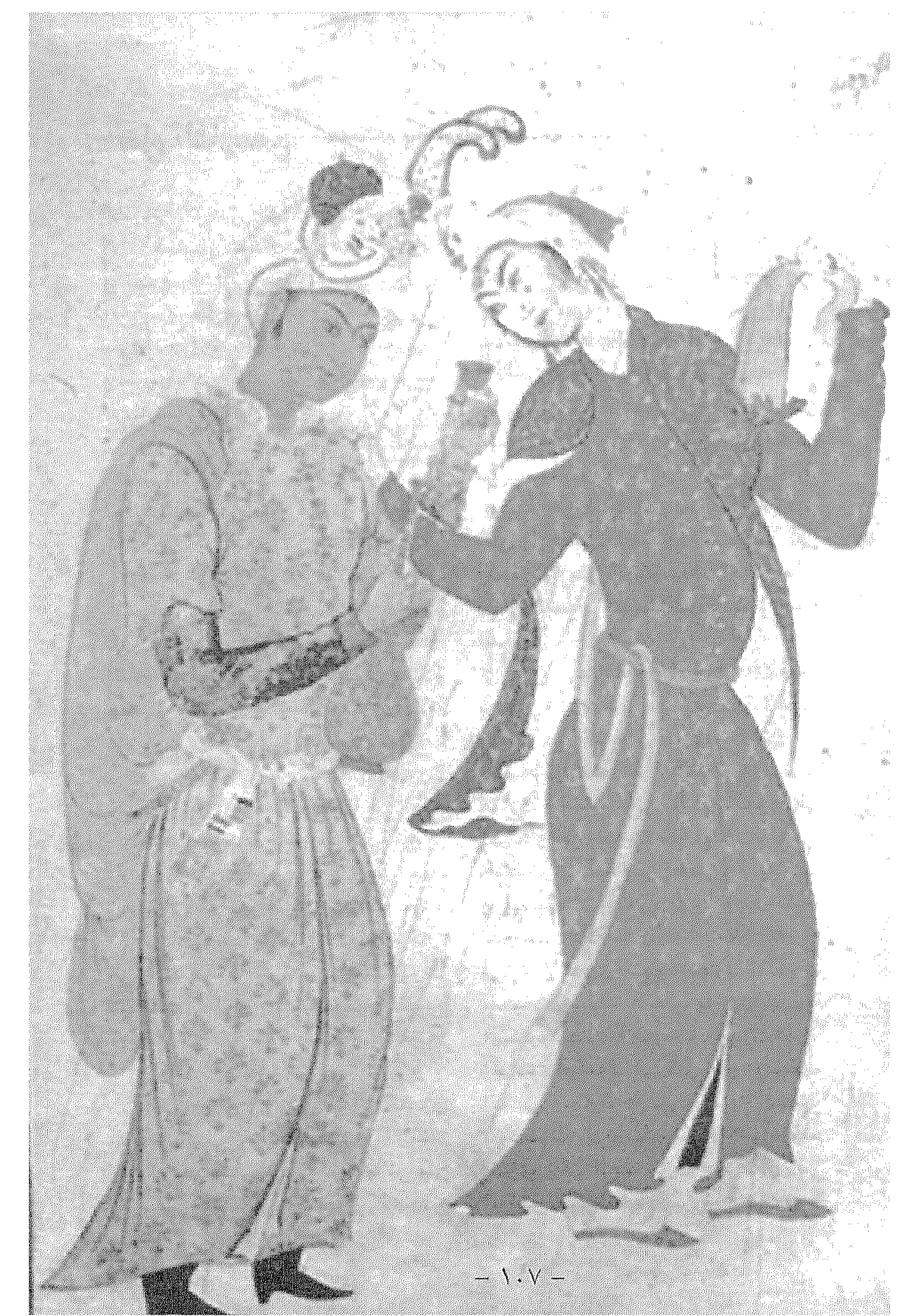
وأسس بهزاد فى هراة - التى عاش فيها طويلاً - مدرسة فى التصوير تميزت بأسلوب فنى جديد، من سماته تسجيل تفاصيل الطبيعة بدقة مع قدرة فائقة على توزيع الألوان ، وكان من أوائل المصورين المسلمين الذين اهتموا بوضع توقيعاتهم على أعمالهم الفنية .

وتوجد بدار الكتب المصرية مخطوطة

الأمـراء المحـبين للرسـام مـيـرزا علي قـزوين ١٥٤٤م

الأمير محمد علي ميرزا للرسام جعفر طهران ١٨٢٠ نموذج علي ظهور تأثير الفن الأوربي علي التصوير الإيراني





للشاعر الإيرانى «سعدى» مؤرخه عام ١٤٨٨م تحمل صورها توقيع بهزاد، وكانت قد كتبت للسلطان حسين ميرزا ، وتحتوى على ست صور توضح براعة بهزاد فى رسم المناظر الطبيعية والحيوانات واهتمامه الشديد برسم الزخارف الهندسية الدقيقة .

ويرجع الفضل إلى بهزاد فى ظهور الاهتمام برسم موضوعات من الحياة اليومية لم تكن مطروقة من قبل، ومن الفنانين الذين نبغوا فى مدرسة بهزاد بمدينة هراة قاسم على وعبد الرازق وشيخ زاده ، وينسب للأخيرين صورة نادرة فى فن التصوير الإسلامى تمثل النبى محمداً عليه الصلاة والسلام ممتطياً جواده وسط السحاب وتحف به الملائكة فى رحلته الى السماء .

ولقد كانت مدارس التصوير التيمورية أعظم مراكز فن التصوير شأنا فى العالم الإسلامى ، ويتضح فى انتاجها ظهور المرحلة الفنية الإيرانية التى توصل اليها الفنانون الإيرانيون بعد مرورهم بعدة تجارب استغرقت وقتا طويلا، ولقد تمكنوا فى النهاية من التخلص من التأثيرات الاجنبية وأضافوا بأعمالهم ذات الطابع الإيرانى الخالص دوراً فنيا لتاريخ الفن .

العصر الصفوى :

ظهرت فى إيران فى بداية القرن السادس عشر أسرة حاكمة قوية ينتمى مؤسسها الشاه اسماعيل إلى ولى فارسى يدعى الشيخ صفى الدين وعنه أخذت الأسرة اسمها، وقد تمكن من فرض نفوذه على إيران التى أصبح المذهب الشيعى فى عهده هو المذهب الرسمى للدولة الإيرانية لأول مرة. وكان ذلك أساسا لما زالت تقوم عليه حتى اليوم الدولة الإيرانية ، وانتقلت العاصمة الى مدينة أصفهان عام ١٦٢٦ وكانت من أجمل مدن الشرق الأوسط الى أن سقطت فى يد الافغان بعد حوالى قرن من الزمان، وتقلبت على الحكم من بعدهم عدة دول إلى أن تمكنت الأسرة البهلوية من الاستيلاء على الحكم عام ١٩٢٦م وظلت حتى قضت عليها الثورة الاسلامية الحالية .

وفى عهد الصفويين ازدهرت الثقافة والفنون الايرانية، وظهرت حركة فنية عظيمة فى العاصمة تبريز وما لبث هذا النشاط أن انتقل الى مدينة قزوين عندما صارت العاصمة ثم انتقل مرة أخرى الى أصفهان حين صارت مقر الحكم الرسمى، واشتهرت أصفهان بعمارتها الفخمة ومساجدها الرائعة مثل مسجد الشاه الذى يمثل قمة ما وصل اليه فن المعمار فى إيران بعد أن صقلته تجارب استمرت مئات السنين . كما بلغت صناعة المنسوجات قمة مجدها وتميزت بثروة زخرفية لم تعرف من قبل حين استخدم الفنانون زخارف الزهور والفروع النباتية بالاضافة الى رسوم تمثل الأمراء وهم يتنزهون فى الحدائق أو يصطادون فى المناظر الطبيعية وقد وقع مصممو

المنسوجات عليها . كما يعد العصر الصفوى هو العصر الذهبى لصناعة السجاد فى إيران حين زاد طلب الغرب عليها ، وتم انتاج أعداد كبيرة من السجاد لا مثيل لها فى العالم، إذ احتوت على موضوعات زخرفية غاية فى الثراء والتنوع والاتقان الفنى، وقد أفردت لها مساحات واسعة فى متاحف العالم الكبرى .

أما فن التصوير فقد كان للمدرسة التى أسسها بهزاد وازدهرت فى تبريز حيث قلد الفنانون فى العصر الصفوى أسلوب بهزاد فى رسم الاشجار والاشخاص ، وضمت المدرسة أسماء شهيرة مثل سلطان محمد وشيخ زاده ومظفر على وميرسيد على ومحمدى .

ومن الصور التى تنسب الى سلطان محمد.. من مخطوطة المنظومات الخمس.. صورة قصة الاسراء والمعراج ..

ولقد تميزت المدرسة الصفوية في أواخر عهدها بأساليب جديدة في فن التصوير ظهرت واضحة في مخطوطات القرن السابع عشر الميلادي حيث قل عدد الاشخاص المرسومين في الصورة واكتفي الفنان برسم شخص أو شخصين بقدٍّ أهيف وخطوط منحنية وفي أوضاع متكلفة ، كما شاع في تلك الفترة رسم الصور الكبيرة المستقلة عن الكتاب لتزيين الجدران. ولقد تأثر المصورون الإيرانيون بأساليب الفن الأوربي الذي تعرفوا عليه من خلال الصور الأوربية التي كان يحملها التجار أو المبشرون وينتسب هذا الأسلوب الجديد في التصوير الذي ظهر في أواخر القرن السابع عشر إلي المصور والخطاط الشهير رضا عباسى الذي ساد أسلوبه الفني التصوير الإيراني حتي القرن الثامن عشر ، ومن أبرز المصورين في تلك الفترة كان محمد يوسف وحيدر نقاش ومحمد تبريزي ومعين مظفر الذي كان من أشهر مصوري هذه المدرسة وأبدي مهارة خاصة في رسم الوجوه والاشخاص بطريقة معبرة.

ولقد تدهور أسلوب الفن الإيراني خلال حكم الشاه عباس الثاني ١٦٤٢-١٦٦٦ الذي كان معجبا بالفن الغربي فأرسل المصور محمد زمان ليدرس فن التصوير في روما، وأدخل هذا المصور كثيراً من الأساليب الأوربية علي مدرسة التصور الإيرانية منذ عام ١٦٧٦م وخلال القرن الثامن عشر ازداد تأثر الفنانين الإيرانيين بالأساليب الغربية وكان ذلك إيذانا ببدء اضمحلال الفن القومي في إيران وطوى صفحة من أجمل وأرق صفحات الفن الإسلامي .



هو.. في السادسة والثلاثين

بقلم: جـهـاد الرملى
بريشة: صلاح بيصار

الاسم: أحمد عبدالفتاح
السن: ٣٦ سنة.
المهنة: موظف بوزارة المواصلات.
الطول: ١٦٩ سم.
لون العينين: عسليتان.
الهوايات: لا يوجد .. الوقت لا يسمح.
العمل الاضافي: بائع في محل ـ أعمل صباحا ومساءً.. مكافح رغم أنفي.
أمارس رياضة الجرى وراء الاتوبيسات والتاكسيات وألهث وراء ارتفاع الاسعار..
لا أدخن ولا أقرب الخمر ولا أشم.. أدمن الفرجة على مباريات كرة القدم واتعاطى المسلسلات التليفزيونية بحكم العادة.. وأشاهد الافلام العربية المعادة ثلاث مرات في الاسبوع. الحالة الصحية: حديد مع استثناء الصداع المزمن والقرف.. آسف للتعبير، أقصد الملل والاكتئاب.
الأمنية : الحصول على شقة حجرتين.
اللون المفضل : الازرق .. الأكلة المفضلة : لحم الجمعية المدعوم والخبز المدعوم وكل ما يؤكل مدعوما..
الحكمة التي أؤمن بها: تجرى جرى الوحوش.. فلسفتي: لا يوجد ودعت زمانها من زمن.
مؤهلاتي: شهادة على الجدران وخيبة ترقد داخل برواز. لون الشعر: اسود.. لون الحياة : شرحه.
لون المكتب الذى أكتب عليه بني .. لون الورق أبيض والقلم رمادى والساعة الآن الثامنة والربع مساء واليوم ٢٦ من الشهر وربما ٢٥ منه لا يهم حتى لو كان اليوم هو أول الشهر شخصيا.
أغنيتي المفضلة الاطلال.. مطربي عبدالحليم.. طول قدمي اليسرى مثل طول قدمي اليمنى تماماً.. ألبس نظارة طبية ربما لضعف النظر.. بكيت يوم ولدتني أمي.. وبكيت يوم طارت مني الشقة التي كنت ابحث عنها.. ضحكت من قلبي آخر مرة من خمس سنين.. مشيت على الأشواك.. قفزت فـوق السنـيـن او قفزت فوقي السنين.. لون حذائي الوحيد بني.. لون قميصي أخضر ولون الكوسة أخضر.. الكوسة كثرت في هذه

الأيام.. ارتفع سعرها.. الخيار تساوى مع أعظم الخضراوات.. القوطة مجنونة.. رأيت أخيرا فيلم طار فوق عش المجانين.. هل سأجن من الغيظ؟.. قالوا عن الولد الذى قتل أبواه فى الشهر الماضى مجنون هل صحيح؟ هل سيبرئ ولو كان مجنونا؟! والله أعلم .. لماذا زاد عدد الذين يقتلون الآباء والأمهات وعدد الأزواج المقتولين؟ ولماذا تفضل الزوجات تقطيع أوصال رجالهن داخل أكياس؟.

لون ساعتى ابيض فى اسود.. قمت بتصليحها عشرات المرات لابد من شراء ساعة جديدة ولكن كيف؟.

لون السماء زرقاء .. ويقولون أن لون السحاب الحقيقى أسود.. شاهدت فى التليفزيون فيلم خرج ولم يعد.. أفكر فى أن أخرج أنا أيضا ولا أعود .. لا أعرف كيف يكتبون قصص كل هذه الأفلام.. لا أعرف كتابة القصص ولا قرض الشعر.. ماذا أكتب الآن؟ بل ماذا كتبت؟ ما الذى فعلته طوال هذه الساعة؟ ماذا جنيت فى حياتى لاسقط ضحية هذا العبث ؟.. أقرأ الشعر أحياناً.. سمعت عن عمر الخيام الفندق والشاعر.. الخيام هو الذى قال ماذا جنيت.. لا بل قال لماذا جئت .. نعم لماذا جئت أين المفر؟.

●●●

توقف القلم فجأة عن الكتابة.. أنتبه.. رفع رأسه من على الورق دون سبب واضح.. ربما كانت عيناه وظهره فى حاجة لراحة بعد تلك الانكفاءة الطويلة على مكتبه الصغير الذى تؤنسه تلك الاباجورة المتواضعة والمطلة على أوراقه تمطى وتثاءب ونظر حوله .. أمه فى الغرفة المجاورة مريضة.. أخوته الصبيان ربما خرج بعضهم والبعض الآخر غالباً تمدد على الكنبه أو على كرسى الانتريه القديم فى الصالة مشدوداً أمام التليفزيون.. وهو لايزال جالساً فى هذه الحجرة التى شهدت طفولته وصباه وشبابه.. شبابه الذى يكر مع الايام مثل خيوط البكره..

سرح قليلاً فى لا شئ سقطت عيناه لاشعورياً على الورقة الممدودة أمامه على المكتب.. ماهذا الذى كتبه؟ شعر بثقل الفرا غ.. فرا غ لايملأه إلا الملل.. دوامات وحلقات متصلة من الملل والضيق.. كل حلقة تسلمه للأخرى والنتيجة تلك الافعال العبثية المتصلة بلا بداية أو نهاية واضحة المعالم.. يشرد أحياناً.. يلهو بالقلم راسماً مرة

وكاتباً مرة بضع
عبارات.. آية عبارات ..
يترك خواطره تجرجره
وراءها بلا رابط..
تأخذه الخاطرة إلى
خواطر والخواطر إلى
خواطر كالسابح مع
الموج يجذبه الموج
فيمضى ويمضى بلا
هدف.

انتبه مرة أخرى..
هرش فى رأسه.. كمن
يشعر أن عليه شيئا
لابد أن يؤديه فى ساعة
معينة، قام من على
مكتبه وخطا خطوتين ثم
عاد.. شئ كان عليه أن
يفعله قبل أن يمضى مع
تلك اللعبة العبثية التى
كان يمارسها على
الورق.. مؤكد كان ينوى
عمل شئ ما.. كان هذا
قبل أن يفكر أصلاً فى
الجلوس إلى مكتبه..
ولكن ماهو هذا الشئ
بالضبط؟ .. آه لو
يتخلص من تلك الآفة
التى أصبحت تلازمه
والمسماه بالنسيان.
منذ شهور بدأ يعانى
من داء النسيان.. يدخل
حجرته لأمر ما ثم
يخرج وقد نسى سبب
دخوله.. يضع أشياء فى
مكان ثم يدور يبحث
عنها بعد قليل فى مكان
آخر .. يتعرف على
أشخاص جدد ثم ينسى
أسماءهم.زملاء العمل
لاحظوا .. آخرها كان
بالأمس فقط عند أخذ
ملف احد العاملين
وذهب الى حجرة زميل
يسأله فتوى روتينيه..
عاد يواصل عمله
وبعدها اخذ يبحث عن
الملف الذى كان معه منذ
دقائق، خبط رأسه بيده
مدهوشا عندما عاد
زميله بالملف وفمه
المبتسم يقول له «فوق يا
مسطول» ومن وراء
المكتب رفع رئيس القسم
وجهه من على الاوراق
ورن صوته المميز
الاجش يغطى على
الاصوات خارج الحجرة
وداخلها ..

– جرى ايه يا احمد
.. أنت يا بنى بقيت
تنسى كده ليه؟.
يا أخى أنت بطولك لا
زوجة ولا عيل ولا تيل..
آمال لو اتجوزت وبقى
عندك نص دسته زى
حالاتنا هتعمل إيه؟
إتجوزت؟!! الزواج..
آه نعم.. تذكر الآن..
الآن فقط تذكر يالله..
معقوله ؟ قالها لنفسه
وابتسم والعجب يملأه
الآن فقط تذكر ماذا
كان ينوى أن يفعل قبل
آن يجلس على مكتبه
ويسود تلك الورقة
الممددة أمامه بكل تلك
العبارات البلهاء.
ولكن متى كانت
البداية .. متى بدآ يعتاد
على تلك العادة أو هذا
الفعل الذى تحول الى
عادة ثم الى كتابات
بلهاء.. منذ شهور
بالتأكيد.. سنة ونصف؟
لا اكثر.. سنتين قد
تزيد شهرين أو تنقص
قليلا لا يدرى بالضبط،
المهم ان المسألة تحولت
الى عادة وقانون العادة
درسه وحفظه .. مثير
ورد فعل انعكاسى ..
يتكرر المثير فيتكرر رد
الفعل.. فى ساعة معينة

يجد نفسه فى فراغ من
العمل المضنى، ومن
جوى الوحوش، وفى
لحظة الفراغ تمتد يده
الى نفس المكان فى
نفس الساعة المعتادة،
تخرج من الدرج العلوى
الايمن لمكتبه ورقة
بيضاء ثم يشرع فى
تسجيل البيانات ..
يغلق الورقة ويضعها
فى الظرف .. يلصق
الطابع ثم يرسل الظرف
الى المجلة أو الجريدة
على نفس العنوان.
وعندما أخذت عقارب
الزمن تمضى به من
الثالثة والثلاثين رفعت
أمه الحاجة يدها إلى
أعلى وزفرت دعاءها
الحار.. إلهى يا بنى
اشوفك فى بيت
عروستك قبل ما أموت..
وبعد الدعاء يأتى
السؤال عن متى ينوى
ثم النقاش ثم البحث
عن العروسة المطلوبة.
وفى الماضى كانت
كلمة الزواج تقترن
بكلمة الحب.. جارته فى
الحى وحبيبته القديمة

تزوجت.. زميلته فى
الكلية تزوجت قبل ان
تتخرج بعام، وأين هى
الفتاة الطالبة التى
تتزوج من طالب مثله؟.
فكر اول ما فكر فى
بنت عمه التي تصغره
باحدى عشرة سنة.
عمه لم يكن على وفاق
مع المرحوم والده.. عمه
اصبح غنيا من تجارة
المقاولات، ولكن هل
سيساعده وهل سيقبل
تزويجه من بنت عمه
حتى لو قرر هو أن
يتزوجها متناسياً فرق
السن بينهما؟.
فكر فى زميلات
العمل، كلهن تزوجن الا
اثنتين إحداهما عانس
فى الثامنة والثلاثين اما
الثانية فهى سوسن، هو
وسوسن متقاربان فى
السن.. العين عليهما،
والرغبة فى الزواج لا
تحتاج لشرح والصداقة
والعشرة فى إطار العمل
تمهد للحديث عن
الزواج.
فى البدء كانت
المناورات والتلميحات
والسؤال عن وجود
ارتباط لدى كل طرف
من عدمه.. يأتى اللقاء
خارج العمل.. تختفى
فرحة اللقاء الاولى بعد
أن يبدأ الطرفان
مباحثاتهما الجدية حول
صورة المستقبل.. تتبدد
الآمال، تختفى نهائيا
بعد أن تجرى الحسبة
الدقيقة التى تشير
نتائجها إلى تعذر
الحصول على شقة قبل
عشر سنوات على الاقل
إذا بدأ الادخار للشقة
من الآن
.. وتتوالى
التصريحات المبطنة
بالرفض.
«لا أعيش مع أمك
واخوتك فى شقة
واحدة».
- «ماما تعارض
تعارض وخالى كذلك» -
«بصراحة مسألة الشقة
المستقلة لا يبدو لها
حل».
وكان أن دفن بيده

مشروع الزواج من
سوسن كما دفن من
قبل أحلام الزواج من
حبيبة العمر جارته ثم
من رفيقة سنوات الكلية
الاربع.
عرفت قدماه طريقها
لأول مرة الى مجلة
البسمة.. تردد قبل
الدخول .. لم يكن
مقتنعا تمام الاقتناع
بهذا الاسلوب فى
البحث عن الزوجة
والمعروف باعلانات
الزواج، ولكن هل بقي
أمامه طريق آخر؟ إذاً
فليتوكل على الله.
وطئت قدماه عتبة دار
المجلة، بسمل فى سره
واستعد للقاء المسئول..
طالعت عيناه عالم يضج
بالحركة والأصوات
كعش الدبابير.. مكن
يدق.. سكرتير المجلة
يصرخ فى تليفون
موضوع أمامه
يستعجل (الشغل)..
صحفى يهرول.. عمال
يدخلون ويخرجون
بالشاى والقهوة.. وفى
الدور الثانى وفى الغرفة
المزدحمة بالزوار قابل
الاستاذ محمد شرف
الدين مسئول باب
الاجتماعيات .. تصور
قبل أن يدخل انه
سيكون امامه فرصة
للتداول والنقاش حول
العروسة المرتقبة وعن
ظروفه وأحواله .. أعد
نفسه للموقف تماما كما
لو أن الاستاذ شرف
الدين هو والد
العروسة..
بدت المسألة ابسط من
ذلك بكثير بعد ان
دخل.. بكلمات مقتضبة
جدا اعتادها طلب منه
الاستاذ شرف كتابة
بياناته.
ـ اكتب أيه بالضبط؟
رد الاستاذ شرف
وهو يقوم من مكتبه
ليفتح دولاباً – حروف
اسمك الاولى وسنك
ودخلك وشكلك وحاجات
زى كده يعنى!
ثم اضاف وهو يغلق
الدولاب منبها «بس
اختصر شوية فى اللى
مالوش لازمه».
انتهى من المهمة
تشيعه عبارة هنبقى
نبعت لك بالرد .
الأيام تمر ويختتم
الاسبوع دورته فيدفعه
الشوق واللهفة الى
شراء المجلة وتفر يده
بسرعة الصفحات
لتصل إلى صفحة
الاجتماعيات.. تقفز
عيناه فوق السطور..
يقرأ بياناته التى تبدأ
بكلمة هو ثم يتلوها
السن والعمل والدخل..
الخ..
تنتابه فرحة طفولية إذ
يرى كلماته التى كتبها
بيده والتى تصف
أحواله وقد سطرت فى
صفحة مجلة مشهورة..
ولكن بحروف المطبعة
الدقيقة الواضحة.. أما
الرد فلم يصل بعد..
وتنتقل عيناه الى
البيانات المسجلة تحت
كلمة «هى».
هى فى الاربعين..
أرملة ولديها طفلان..
هى سمراء طويلة
مطلقة.. هى وهى ولا
واحدة تنطبق عليها
مواصفات الزوجة

المنشودة.
تتكرر اللعبة كل اسبوع مع هو وهى ومعها خيبة أمل جديد... فالعروس التى تملك الشقة غالبا إما أرملة أو مطلقة أو تشى بياناتها دون ان تفصح بانها عاطلة تماما من الجمال.
وشهور أخرى تمر ولا رد من المجلة.. والعثور على العروس الملائمة فى صفحة الاجتماعيات مثل العثور على بئر بترولية.
أو تحفة أثرية مطمورة فى جوف الأرض.. ولكن لماذا عليه أن ينتظر أسبوعاً كاملاً فى كل مرة؟ لماذا اختار المجلة الاسبوعية إلا أنها مجلته المفضلة.
واتخذ قرارا جديداً فليتجه إلى الصحيفة اليومية التى تضم باب الاجتماعيات، ومع هذا القرار اتخذ قراراً آخر هو ألا يذكر كل الحقيقة.. ماذا مثلاً لو كان فى الثالثة والثلاثين

قصة قصيرة

بدلا من الرابعة والثلاثين؟ لماذا يذكر حقيقة عمله الاضافى بالتحديد ولماذا لا يكتفى بعبارة له دخل اضافى طيب أو حسن بدلاً من عبارة «ذو دخل ثابت أو دخل متوسط؟».. فليعدل البيانات وليجملها بعبارات توحى للعروس المرتقبة بالثقة فى المستقبل دون اشارة لتفاصيل تكشف المستور.

●●●

« هى عذراء خمرية البشرة، فى الثامنة والعشرين.. لديها شقة من حجرتين».. لم يصدق. تسمرت عيناه امام السطور.. أعاد القراءة أكمل القراءة هى ولا سواها، لا يطمع فى اكثر من ذلك.. هل غمزت السنارة وأخيرا بعد كل تلك الشهور الطوال وراء إعلانات الزواج وارسال إعلانات الزواج؟

بعد يومين فقط كان قد استطاع وبشق النفس انتزاع اجازة عارضة.. من عمله ليهرول بعدها إلى جريدة اليوم.. كانت قدماه قد عرفت طريقها بسهولة إلى غرفة الاعلانات المتابعة للجريدة.

- استاذ حسن.
- افندم.
- قرأت إعلانا للزواج من الآنسة م. ص.

لم يمهله الاستاذ المسئول وجاء الرد سريعا مع ابتسامة.

- آه تقصد الآنسة مرفت اللى عندها شقة.
- نعم.
- آه.. لا.. معلهش يا سيدى جت أوت.. اتقدم لها ابن عمها.
- ابن عمها؟ انا أقصد الخمرية الـ ..
- أيوه .. آيوه اللى عندها شقة وسنها ثمانية وعشرين فاهم ..ابن عمها لما لاقاها نشرت الاعلان يظهر

حليت في عينيه قال
أنا أولى».
وفي نيل كلمة «اولى»
خرجت ضحكة مجلجلة
من الاستاذ الموظف
كأنما تسخر من خيبة
أمله.. ولكن هل هناك
يأس مع الحياة، أو مع
البحث عن شريكة
الحياة؟ لقد كان قاب
قوسين، أو ادنى من
الهدف، ما الذى يمنعه
فى المرة القادمة من
الوصول إليه..
لاشك أن هناك
الملايين من الفتيات
الراغبات فى الزواج
وبين الملايين ملايين
أخرى أو ألوف يرسلن
اعلانات طلب عريس
الى الصحف والمجلات،
ولاشك في ان بين
الالوف ألوفاً أو مئات
اخرى لديهن شقة أو
فى الثامنة والعشرين أو
ربما أقل أو أكثر سنه
لا يهم..
ومع الوقت وطد
صداقته مع مسئولى
إعلانات الزواج فى
الصحف والمجلات
واكتسب خبرة فى قراءة
اعلانات الزواج
واستشفاف الحقيقة
من خلف السطور،
واكتسب معها خبرة
اخرى فى كتابة البيانات
بالصيغ الملائمة التى
تجتذب عروس المستقبل،
وكل قوله ولها كيال،
وكل مجموعة بيانات
ومواصفات وشروط ولها
مايقابلها.

●●●

تثاءب مرة اخرى بعد
ان مر أمام عقله شريط
تلك المحاولات اليائسة
للبحث عن زوجة.. تطر
مرد اخرى الى الورقة
المسودة امامه وهرش
رأسه.
اليوم حار .. بل شديد
الحرارة.. نعم هو فى
أجازة صيفية قصيرة
والفراغ مع الحر يولدان
الملل. ولا حل سوى أن
يلقى بنفسه فى موج
البحر المتوسط وينسى
العالم.. الاسكندرية
وبحرها صاراً حلما
من الاحلام.. كم يتكلف
السفر.. كم يبلغ ثمن
شاليه مؤجر لاسبوع
واحد؟ أو حتى كابينة
على البحر لايام. هرش
رأسه لرابع مرد
وتساءل ماذا يفعل؟
لم يعد أمامه إلا أن
ينضم لاخوته المنومين
مغناطيسياً..
امام غول التليفزيون..
شعر بالقرف وطرد من
رأسه فكرة التسمر
امام التليفزيون.. خطر
له سؤال: لماذا لا
يشترى فيديو ولو
بالتقسيط .. غداً
سيصبح هذا الجهاز
الوافد من الضروريات
مثل كل الكماليات التى
أصبحت من
الضروريات.. ومع فكرة
الفيديو سرحت خواطر
وانطلقت مع صور
لممثلات وراقصات فى
افلام ممنوعة أو نصف
ممنوعة.. قارن فى خياله
بين انماط مختلفة من
الجمال الانثوى ومع
المقارنة تسربت الى
عقله خواطر جنسية لها
طغيان آسر..
فليخرج الآن ليطرد

من ذهنه تلك الألوان من العذاب الفكرى..
يعرف أين ستقوده قدماه.. الى المقهى.. توقفت قدماه وتذكر أن ذلك اليوم هو السادس والعشرين من الشهر ولعبة التسلى بالجلوس على المقهى أصبحت مكلفة خاصة بالنسبة له مع الارتفاع المستمر فى الاسعار .. فتح إحدى المجلات المكومة بفوضى على أحد الارفف.. ومرة أخرى تقتحم حواسه صورة لجسد انثوى ممدد هذه المرة بطول صفحة المجلة.. ماذا يفعل أعزب فى سنه وتستعر روحه وجسده بالرغبة الآسرة كالطوق، الجامحة كالطوفان .. قفزت الى ذهنه عبارة الزواج نصف الدين.. تلك العبارة التى طالما سمعها منذ كان حدثا صغيرا لا يفهم شيئا من تلك الامور.. الآن فقط يعى ويفهم ويشعر جيداً فحوى تلك العبارة بكل ما تتضمنه فى جوفها من معان.. مرة ثانية.. فكر فى الخروج الى المقهى ولكنه توقف وحسب الحسبة من جديد. هو يعيش فى عالم الموظفين فى أواخر شهر من شهور الصيف والمرتب ضئيل، وبعد أربعة شهور.. وثلاثة أيام بالتمام والكمال سيعبر عمره السادسة والثلاثين ليقف على عتبة السابعة والثلاثين وقطار الزواج يتأهب للرحيل عنه.. ربما بعد شهور أو سنوات قليلة جداً.

إن عليه ان يستعد وان يدخر كل مليم ليوم الزواج الموعود فليدخر قروش المقهى لذلك اليوم، فلا وقت للهزل ولا مساحة للفراغ، فليفرغ من قضية الساعة، وليكن جاداً.. فليبحث عن زوجة لديها شقة أو زوجة مستعدة للعيش مع والدته وإخواته لحين الحصول علي شقة وليبدأ الآن في البحث عن زوجة طالما أن البحث عن الشقة لم يثمر عن شيء حتى الآن..

فليبحث عن الشقة والزوجة معا، وليبدأ فوراً.. غداً.. سيبدأ البحث من جديد عن الشقة والآن عليه الا يؤجل عمل اليوم الى الغد.. فليكتب إعلانا للزواج.و .. ومد يده إلى مكان تعرفه تلك اليد جيداً وفتح الدرج العلوى الايمن من مكتبه، وأندست يده فى مكان معلوم وأخرج ورقة بيضاء.. شرعها أمامه على المكتب ، وبحركة اعتادها طويلاً تحركت اليد كالآلة، وبدون أدنى تفكير خطت عدة عبارات ألفها طويلاً......

الاسم: أحمد عبدالفتاح حسن.
السن: ٣٦.
المهنة: موظف على الدرجة الثالثة.
الطول.. لون العينين.. لون الشعر.. الدخل.. الـ.. الـ.. الـ...

خميلة الجمال

شعر/ أمين محمد على

جمالك يسبح فوق الذرى تغلفه الفتنة الساحره

ويسلب حسنك لب الورى ويبهر حلم الرؤى الشاعره

يطوف بصبحك نور الوجود وفجرك ضاحٍ بكف الندى

كأن الجمال سبيل الخلود وسر الحياة ووحى الهدى

وبين الخميلة طاب ابتسام وأهدى الضياء لثغر الورود

يفيض بصدرك نبع الوئام على كل قلب رؤوم ودود

تضوّع عطرك بين الربوع وكان رفيقا يحيىّ القمر

وأهدى إلينا عروس الربيع على وجنتيها أطلّ الخفر

عيونك تشدو بسحر الحدق يفوق التسامى بلحظ المها

وترمى بسهم فيجلو الغسق تمد الكواكب من نورها

أبجّل فيك انسجام الخصال تبين الصفاء وتجلو الفتن

وأفق السناء يذكّى الجمال وينسى الشريد عناء الشجن

عهدت جمالك حلو الجنى كريم القطوف خصيب النماء

يلف بهامك أوج السنا يرقّش قلبك حلو الوفاء

أبو الأطفال بابا شارو

عبقرى الفن الإذاعى

محمد محمود شعبان

حين أقول إننى مدينة لبابا شارو بطفولة مبتهجة، وصبا حالم وشباب نهم نحو الثقافة والفن، فأنا أكون مقتصدة جداً فى تحديد أهمية بابا شارو فى حياتى. ربما لو قلت إنه مُكوّنى الثقافى الأول أكون أقرب إلى الدقة فهو الذى أهّلنى، منذ إلتصقت أذنى بالمذياع لأنصت له طويلا، لطرق كل أبواب المعرفة والثقافة والفن التى طرقتها بشغف وثقة شرقا وغربا، وعندما قلت مرّة : «أنا من بابا شارو»، كنت شاطرة جداً فى تلخيص ماذا يعنى بابا شارو بالنسبة إلى .

بقلم : صافى ناز كاظم

كلما عدت من مناسبة تحتفل ببابا شارو - مثل إحتفال عمر بطيشة ومجموعة من الإذاعيين بعيد ميلاده الرابع والثمانين ٢٥ سبتمبر ١٩٩٦، أو مثل حفل تكريمه الذى أقامه المجلس الأعلى للثقافة ٢٦ نوفمبر ١٩٩٨ وتسليمه درع المجلس بمناسبة مرور ٦٠ عاماً على مشواره الإذاعى الفذ - أعود وبى غيظ وتمتمة: بابا شارو لم ينل حتى الآن جائزة الدولة التقديرية، عار كبير هذا محفور على جبين كل الجهات المسئولة طوال السنين الماضية عن ترشيح المرشحين لجوائز الدولة التقديرية، لعل علاج هذا الأمر يكون بترشيحه للفوز بجائزة مبارك، ليس فقط لأحاديثه للأطفال على مدى عشرين عاما من ١٩٤٠ حتى ١٩٦٠ ، تلك الأحاديث التى فاز بها الأطفال مواليد الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات، فلم يكن هناك مثلها من قبل ولا من بعد، حتى أن مواليد العشرينيات، شباب الأربعينيات كانوا يحرصون على ألا تفوتهم أحاديث بابا شارو المتعة للأطفال، لكن بابا شارو كان هو ذاته محمد محمود شعبان الذى أخرج بفنه الإذاعى المبتكر ألف حلقة من حلقات ألف ليلة وليلة، و٣٠٠ حلقة من كتاب الأغانى للأصفهانى، وهو صاحب الأعمال الإذاعية الخالدة من الأوبريتات والدراما الغنائية والصور الموسيقية، إلى جانب أنه الذى أنشأ معهد التدريب الإذاعى والتليفزيونى وقام بالتدريب فيه، وهو الذى

أنشأ كلية الإعلام بجامعة الملك عبدالعزيز بالسعودية حين كان أستاذا متفرغاً بها بين عام ١٩٧٨ إلى ١٩٨١ مفيداً بأبحاثه ودراساته فى فروع الفن الإذاعى المختلفة التى كانت قد عرضت ونوقشت بين ١٩٥٩ و١٩٧٤ فى حلقات عقدها إتحاد الإذاعات الأوربية وأوروبا الشرقية واتحاد الإذاعات الآسيوية والإفريقية . كان محاضراً لعدة سنوات بمعهدى السينما والفنون المسرحية، وعضوا بمجلس إدارة كلية الإعلام بجامعة القاهرة وعضو لجنة ثقافة الطفل بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وكان أول مصرى يدرس فنون التليفزيون وكان له جهده فى اللجنة التى أنشأت التليفزيون المصرى عام ١٩٦٠ . هو .. هو .. هو. سجل حافل بالنشاط والعطاء والإبتكار والوعى النبيل برسالة الإعلام الإذاعى والتليفزيونى. أين تاه عنه ترشيح كلية الإعلام جامعة القاهرة له لجائزة الدولة التقديرية الذى كان يجب أن يتم منذ سنوات؟، وأين تاه عنه ترشيح أكاديمية الفنون له الذى كان يجب أن يكون كذلك منذ سنوات عديدة؟ . ما هذه الخيبة القوية؟! - عسى أن نكون قد تجاوزناها مع نهاية ١٩٩٨ الذى يغلق فيه باب الترشيحات لجوائز الدولة لعام ألفين!

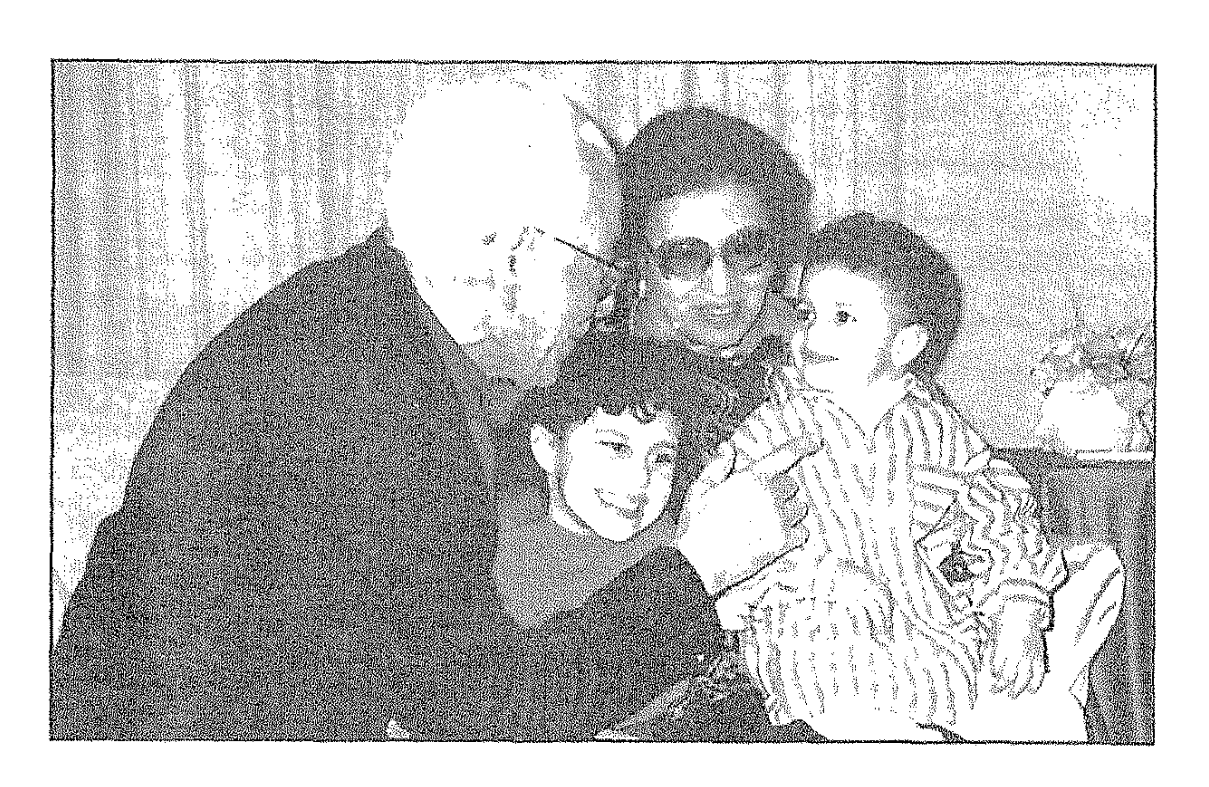
★★★

لو قلت إن شعلة البهجة المتوهجة بأعماقى دوماً لا تنطفىء، بحول الله وقوته، مهما اشتدت حولى عواصف الأحزان كان وقودها سنوات طفولتى السعيدة، لما صدق أحد أننى كنت، على الرغم من تلك



الطفلة صافى ناز كاظم
وطفولة مبتهجة وراءها بابا شارو

السعادة، طفلة يتيمة مات أبوها الجميل وهى فى السادسة من عمرها ١٩٤٤/٤/٤ - (الشهر والسنة التى ولد بها د. جابر عصفور!) - وكانت أمى كلما واجهتها مشكلة تردد فى ألم غائر: «يا قلّة الأب»!. لكن حكاية وفاة أبى تلك كانت تدهشنى، فقد كان متأصلا فى شعورى أن أبى لم يمت منذ تصورته نائماً فقط فى سريره . وبشكل ما لا أستطيع تفسيره أو التعبير عنه وقر فى إحساسى، وهو غير إعتقادى، أنه داخل مذياعنا التليفونكن الخشبى الكبير. الذى ساعدنى على التشبث بهذا الإحساس هو إنتقالنا من بيتنا فى الإسكندرية إلى بيتنا فى القاهرة حيث لم يكن هناك المكان الثابت الذى يجعلنى أقول: «اعتدت أن أرى أبى هنا». ومن ثم كان الخاطر الذى دفعنى إلى



بابا شارو وصفية المهندس مع أصغر الأحفاد (سلمى وعمر)

الاعتقاد أنه دخل مذياعه، الذى مازلت أذكره يحرك مؤشره باحثا عن محطة الشرق الأدنى ليتابع أخبار الحرب العالمية الثانية. وهكذا بدأ إلتصاقى بالمذياع، بمذياعنا التليفونكن الخشبى بالذات، فأنا لا أذكر أى إلتصاق بالمذياع قبل إنتقالنا عام ١٩٤٤ إلى منزلنا ٩ شارع العباسية الذى تم هدمه عام ١٩٥٠ وظل فى وجدانى إلى أن أعدت نقل أجزاء من ملامحه إلى شقتى الحالية عند جامعة عين شمس التى إنتقلت إليها ١٩٩٥/٣/٢٣.

★ ★ ★

كان هناك بالمذياع أحاديث للأطفال - أو بلغة اليوم الرذيلة «برامج» للأطفال - يقدمها بابا صادق وأبله إحسان هدايت وأبله إحسان شفيق. كنت أستظرف بابا صادق وكذلك أبلة إحسان شفيق بصوتها الغليظ الضاحك الملىء بالشفقة ، لكنى لا أذكر أن أحداً منهم أخذ لُبِّى وأحاطنى بالإنبهار وحلّق بى فى أحلام وخيالات الطفولة الرومانسية، التى تظل دائما أساس الحس الشعرى، حتى بدأ «بابا شارو» دوره ليتبلور الموقف ويصبح هو وحده صاحب أحاديث الأطفال كل ثلاثاء وأحد، الساعة الخامسة والنصف والجمعة الساعة العاشرة صباحاً (مازلت حتى الآن أحب أيام الثلاثاء والأحد والجمعة). إستطاع «بابا شارو» أن يكون بحق «بابا» داخل مذياعنا التلفنكن. لم يكن هناك أى تشابه بين صوت أبى الذى ولدنى وصوت «بابا شارو» الذى يكلمنى من المذياع لكنه كان المالىء لفراغ «الأبوة» بقوة العطاء

الخارقة للفن الإذاعي التربوي، الشعري، الرومانسي الجميل الموجّه لمخاطبة الأطفال بمحبة واحترام: كل الأطفال بأحوالهم وشرائحهم وطبقاتهم ومستوياتهم المادية والتعليمية. صوته حنون بلا تكلف وبود بصدق، له قدرة تلقائية على إلتقاط العبارات والصياغات التي تجعلك منتبها ومستوعبا ومأخوذا ومطيعا للنصائح. يقرأ أسماء الأطفال فلا نمل منتظرين مقولته: «وبابا شارو كمان بيرحب بصداقتكم». يقولها بصدق دافيء ومقنع يؤكده باختياراته الفنية التي يقدمها من أغنيات ومسلسلات تمثيلية وحكايات وأوبريتات ومعه فريق من المؤلفين والملحنين والممثلين - صغاراً وكباراً مثل حسين فياض وعبدالمنعم مدبولي وفؤاد المهندس - حين أسترجع هذه الأعمال وأقيمها بمعيار حكمي اليوم، الذي طاف وشاف على مدار نصف قرن، لا أندهش لرفعتها ورقيها وإتقانها وتميزها فقد كان من بين من ألفوها: بيرم التونسي ومحمود أبو الوفا وإحسان شفيق وعطيات عبدالخالق وأستاذة التربية النفسية فوزية دياب - زوجة د. حسن الساعاتي وأم د. سامية الساعاتي - إلى جانب عبقري التأليف والتلحين للأطفال الأستاذ العظيم «أحمد خيرت» الذي لا يكاد يذكره أحد. لم يكن من الممكن أبدا أن تسمع غلاظة في القول - (في مساء ١٩٩٨/١١/١٩ في إحدى القنوات التليفزيونية كانت هناك مذيعة مع طفل في زي أزهري، يؤدي شخصية طه حسين، وهي تحاول أن تستنطقه الإساءة للأزهر الشريف في غلاظة وجهل وغباء لا مثيل له في الكون). - ولم يكن من الممكن أبداً أن تسمع خشخشة في لفظ أو لحن يخرج إلى السوقية أو الركاكة أو السماجة كمثل تلك الأغنية البشعة التي إلتقطتها أذني عفوا مرة من مرات مروري النادر من أمام جهاز المذياع المرئي تقول فيها المغنية عن الصابونة:

«لما بغسل إيدي،
تتزفلط في إيديا ،
ولما بغسل وشي،
بتشعوطلي عنيه!»

أما عن أسنان المشط فتقول : «بتعضعض في شعوري» أين هذا الكلام المعادي للنظافة والترتيب من أغنية قديمة في حديث بابا شارو للأطفال . «قبل الأكل أغسل إيديا، وأدعكهم بصابون وميه، بعد الأكل أغسلهم تاني، وأغسل بقى كمان وسناني..».

★ ★ ★

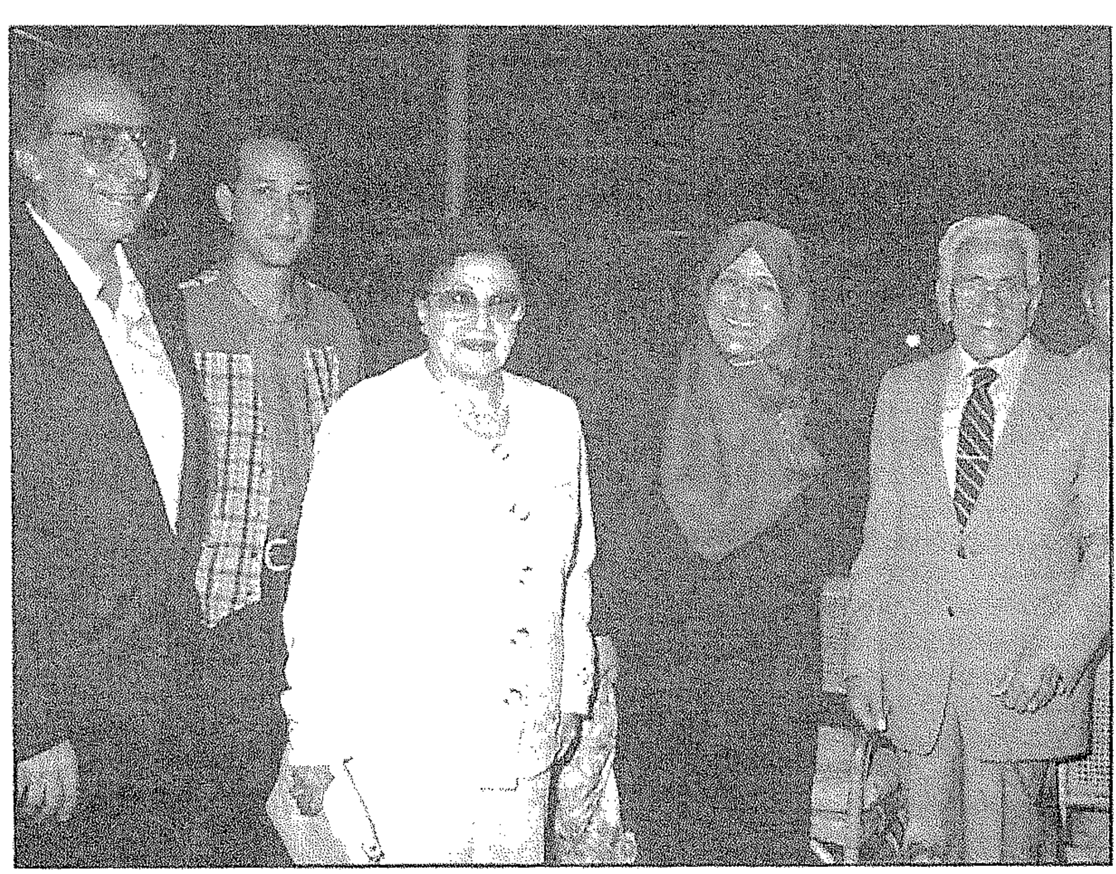
كان هناك في منهج «بابا شارو» التوازن المستمر بين العامية والفصحى - مع التجنب الكامل لأي لفظ غير عربي - فكانت هناك أغنيات فصيحة لأطفال تبدأ أعمارهم من بداية تعلمهم النطق مثل : «من علّم الخروف، أن ينطق الحروف، فقال ماء ماء ، وما درى الهجاء!». ومثل . «هل تعلمون تحيتي، عند الحضور إليكمو. أنا إن رأيت جماعة، قلت السلام عليكمو». ومثل «الطائر الصغير مسكنه في العش».. و «لا تخافي يا حمامة، والقطي الحَبَّ الكثير، ثم عودي بالسلامه، واشكري الله

القدير». – (كنت أغنيها مفتونة بلحنها وأنا أطعم الحمام الذي كانت تربيه أمي في غـرفـة بسطح منزلنا..) – كـانت الأغنيات تتوجه تدريجيا إلى الاكبر فالاكبر حتى مدخل المراهقة مثل : «يا قارىء القرآن رتله ترتيلا» و «قرآن ربي هدى ونور لكل قلبي» و «نحن الإسكيمو أهل التندورة» و «طوفـوا ببـيـت الله يا معشر الحجاج».. – (كانت تغنيها نجاة الصغيرة وتلعلع بها) – و «فلسطين لبيك نحن الفدا..» وكانت هناك واحدة ظريفة حكاية في أغنية تقول : «قد قيل للصبيان جُحا اشترى خروفا، فجمعوا جموعهم ووقفوا صفوفا ، وكلما جرّ جحا خروفه تعجبوا وقال منهم قائل، هذي أمور عجب: كيف تجر يا جحا كلبا وأنت طاهر، فترك الحبل لهم وعاد وهو حائر!».

أما العامية عنده فهي أيضا لغة لها أناقتها وشفافيتها وحلاوة منطقها وظلها الخفيف الذي تبدى في أغنيات مثل «في أوان التوت نشرب شربات ونلم التوت صبيان وبنات». و«يوم الجمعة يا يوم الجمعة. حلو ونادي وشمسك طالعة، بنبطل ما تروحش الروضة. وبنلبس فساتين الروضة. وتفوت ست أيام نستنى يوم الجمعة يوم الجمعة» – (لم تكن الاجازة سبت أو أحد !) – ومثل أغنية الحوار بين طفل وأمه . وهي من تأليف وتلحين إحسان شفيق:

يا ماما أنا عاوز أعرف .
إيه الجلاء والإستعمار ؟
دول كلمتين مش بفهمهم ،
وخلّو عقلي كمان يحتار .
الأم – إقرض يا إبني ناس دخلوا،
على جنينتنا بتاعت الدار،
قعدوا لنا فيها كده وسكنوا ،
وقَطعوا كل الأزهار .
الإبن – أنا كنت حالاً أطردهم
وأجرى وراهم بالمشوار
وهي كانت بتاعتهم؟
الأم – أهو ده يا إبني الإستعمار .
أما الجلاء أقول لك معناه،
هوّ الخروج من كل الدار ،
ويبعدوا لنا بعون الله ،
عن الجنينة والأشجار .
وده يتم بالإتحاد
والاتفاق مع أخوك والجار
ونبقى دايما إيد واحدة
ونحرس البيت م الأشرار».

– (خذوا بالكم هذه كلها أغنيات مازلت أحفظها وأكتبها من الذاكرة رغم إندثارها تقريبا.) – وكان هناك الأوبريت الذي إشتهر وقتها شهرة واسعة بين الصغار والكبار «أنا في الروضة ويا صحابي ساعة للعبي وساعة لكتبي. اعرف أصور وارسم صورة فيها شجرة وفيها عصفورة .. وقد عرفت من بابا شارو أن بيرم التونسي هو الذي كتب الأغنيتين الرائعتين «يا أطفال يا أبطال



فى حفل عيد ميلاد بابا شارو ٢٥/٩/١٩٩٦ التى أقامها عمر بطيشة فى نادى الاعلاميين : بابا شارو والاذاعية اللامعة قرينته ورفيقة الدرب صفية المهندس وبينهما صافى ناز كاظم ومعهم فهمى عمر وعمر بطيشة والمذيع الشاب على مراد

إنتم فين؟ ، إحنا ف مصر ف أرض النيل، الله ع النيل إتهجوا النيل، نون ياء لام ، يا سلام يا سلام .. إلخ» والأخرى «رب القدرة سبحانه ، دايم عزّه وسلطانه، خلق الشمس وفيها النور، من حواليها الأرض تدور، واحنا عليها صغار وكبار، نضحك نلعب ليل ونهار، .... يبقى ف مصر الناس نايمين ، وف أمريكا الناس صاحيين ، وميكى ماوس فى سريره، وعم شحاته ف دكانه، دورى يا دنيا يا دواره، زى الساقية أم طاره..» ثم منها «آدى الشتا، إيه ف الشتا؟، فيه يوسفندى وبرتقان، فيه الجميز والرمان، ولا نعرفش الواحدة بكام .. الخ»

★ ★ ★

حشد رائع من الأغانى والحكايات المخزونة لعلها لازالت فى مكتبة الإذاعة، توازى فى قيمتها - لو تم طرحها فى السوق - كاسيتات أغنيات عبدالوهاب وأم كلثوم وليلى مراد وأسمهان القديمة. لا يشدك إليها فقط الحنين، بل القيمة الكامنة الثابتة التى لم تزل تبث شذاها وتشمخ برونقها وتسد بالجمال الفراغ الحالى الذى إمتلأ بالهبل والبلاهة فى ساحة الغناء للطفل والتعامل الفنى معه . فى

تربية إبنتى - طفولة نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات - لم تسعفنى سوى الذخيرة التى مازلت أحفظها من تراث بابا شارو، خاصة حكاية «جوز الحمام والفيل والضفدع» التى كانت كلها بإيقاع السجع الجميل من تأليف بابا شارو نفسه وكان يؤدى فيها الراوية وغناء الضفدع ويقوم بإحداث كافة المؤثرات الصوتية: «كان فيه تلاته صحاب، عايشين لوحديهم، ساكنين ف وسط الغاب بيحبوا بعضيهم، والأصدقاء الظراف ضفدع مؤدب لطيف وجوز حمام هزاز ريشه أبيض نضيف. وف يوم بديع الجوْ، اللعب فيه يحلوْ، كان الحمام الظريف بينطط الضفدع، وجنبه عشه النضيف بالشمس متمتع، وجنبهم زهور الله يا محلاها، منظر ف غاية العجب والله ما أبدع : نط الحبل رياضة مفيدة، نُط وفُط يا أجمل ضفدع. أنا متشكر يا إخوانى يا اللى وجودكم أُنس وفرحة، نط الحبل صحيح خلانى زى البمب فى أجمد صحة»... وتستمر الحدوته تضفر الشعر بتربية التذوق الجمالى والحس الأخلاقى حتى تنتهى بانضمام الفيل - الذى كان شريراً - للثلاثى الآمن. هذه الحكاية التى مازلت أحفظها كلها لم تفقد رونقها حتى فى جيل أحفاد شقيقتى الذين ظلوا يطالبوننى بإعادتها كلما إنتهيت منها رغم كونهم جيل كمبيوتر وخلافه !

★★★

حين بدأ بابا شارو مساهمته الفذة فى تقديم وإخراج ما كان يسمى «برنامج غنائى خاص» باسمه الحقيقى «محمد محمود شعبان» أحسسنا ، نحن الأطفال، أننا تفضلنا على الكبار بإعارتهم جانبا من عبقرية «بابا شارو» . وفى هذا المضمار، الذى شعرنا أنه مكمل لرسالته فى تثقيفنا ، قدّم من روائع الأساطير الاغريقية: «عذراء الربيع» - (وهو يباع شريط كاسيت فى منفذ صوت القاهرة لمن يريد أن يعاين جماله بنفسه) - و«الراعى الأسمر». وقدم «جلنار» و«ولد العم» و«عرايس البحر» و«أصل الحكاية» و«الدندرمة» و«قِسَمْ» التى بها تاج الجزيرة «السلطانية»!. كنت أحفظ معظم هذه البرامج من أول : «هنا القاهرة» حتى «قدم لكم محمد محمود شعبان...»، وكنا نتحلق فى المدرسة نتبارى فى تسميعها أداءً وغناءً والبهجة تشملنا من مذاق السُكّر ، من عبق الفن، من طلاوة البساطة، من حلاوة الأصالة ، ومن عمق الصدق والإخلاص والإحسان.

★★★

ياه يا بابا شارو محمد محمود شعبان: أنت نفسك جائزتنا ، نحن أطفالك الذين تتراوح أعمارهم الآن بين الخمسين والستين ونحو السبعين. حفظك الله وأجزاك عنا خير الجزاء.



الآلة

وعجز المجتمع الإستهلاكى غير المنتج

بقلم : حسن سليمان

(أنا لم أمت ، إلا أنه لا شيء من حياة تبقى)
«دانتى»

قد تهدم مدينة وتحرق ، إلا أن سكانها بكل ما يمتلكون من دافع للحياة وعزيمة لايلبثون أن يعيدوا بناءها ثانية. وقد يحدث ألا تمس مدينة على الإطلاق لكن مع يأس سكانها وتفككهم نرى المدينة تتحلل وتتآكل وكأنها برمتها مصابة بالجذام.

تهدمت برلين ودخلها الروس والحلفاء . استولى الروس على جميع الآلات السليمة من مصنع «زيس» للعدسات . عمال المصنع ومديروه لم يستسلموا . أخذوا يبحثون وسط الحطام والركام عن بقايا الآلات، وكلما توصلوا إلى إكمال آلة تعمل هتفوا لنصرهم. استمروا وبنوا من البقايا مصنعا يعمل . لم ينتظروا مشروع مارشال أو غيره. عملوا دون نقود أو انتظار نفع مادى ، بل هو الولاء للمصنع وللجنس الألمانى ولألمانيا. إنه التحدى والإصرار.

مع إحكام قبضة السلطات فى المجتمعات الاستهلاكية غير المنتجة نجد أن المجتمع قد يفقد خصائصه الاجتماعية مثل العمل والتعاطف الإنسانى . يفقد مبادرته للعمل الإيجابى إلى درجة الشلل. فهو لايشعر أنه يتحمل مسئولية وجوده، ولم ينتق أبطاله. همشته السلطة وفرضت عليه الموانع. والسلطة من موقعها تطلب منه العون، لكنها تطلب العون من مشلول معوق ، تتآكل روحه جزءا جزءا كمريض الجذام.

الآن أصبحت الحقيقة واضحة، ألا

وهى أن التكنيك كان سريعا فى تقدمه بينما مجتمعات العالم الثالث لاتتلاءم معه تماما، لأن تطورها بطىء فى كل مظاهر حياتها اليومية . ومثل هذه المجتمعات لا تملك القدرة على تقدم يوازى تقدم التكنيك ، فى حين أنها تستورد مظاهره. فمثلا ظل فأس الفلاح منذ آلاف السنين دون تغيير يذكر فى شكله ووظيفته، وبالتبعية فلن تتغير قيم ذلك الفلاح المتوارثة بسهولة. وهكذا لم يحدث أى تغيير فى نفسية إنسان العالم الثالث. وإن كان هناك ثمة تغيير.. فنتيجته أن العلاقات التى كان يجب أن تكون سوية لتكوين بنية سليمة للمجتمع قد أصبحت مع دخول مظهرية التكنيك علاقات هدامة.

ما مدى تأثير هذا التغير الهدام على الفلاح الذى لايزال يعيش بنفس معاييره الميتافيزيقية ولايزال يستخدم فأسه، وفى الوقت نفسه يستخدم أحدث الآلات الترفيهية مثل التليفزيون والفيديو. وما مدى تأثره برؤية رائد الفضاء على شاشة التليفزيون سابحا خارج مدار الأرض. وبناء على ذلك فإننا نرى أن الثورة التكنيكية تطرح مشكلات نفسية جديدة، قد تكون أكبر من تحمل الفرد العادى فى المجتمع النامى . لكن الخطورة هى أن السواد الأعظم مشغول بتطلعاته الطبقية فى مجتمعه الاستهلاكى غير المنتج، دون تصور للمستقبل، ودون تفكير فى ذلك المنحدر الخطير الذى يندفعون نحوه.

إذن ما هو دور الإنسان الواعى فى مثل مجتمعاتنا الاستهلاكية غير المنتجة، وما هو واجبه ؟ .

إن العمل بمعناه السليم لم يعد حتمية بيلوجية فى تلك المجتمعات الاستهلاكية كما هو عند كل الكائنات الحية وفى المجتمعات السليمة. لقد تكونت المجتمعات السليمة عبر التاريخ من تلك الحتمية البيلوجية. أما الآن فقد فقد الإحساس بالمسئولية بل أصبح مجرد وجود فى المكان. إن مسئولية العمل تتطلب الالتزام من الجميع، وأن يذهب الكل من العامل إلى المدير فى لياقة ذهنية وحسية وجسمانية عالية، لكن الفرد قد يكون معذورا فالواقع يقول إن الأغلبية لا تتوافر لهم احتياجاتهم الأساسية. يؤدى ذلك إلى أن يتوجه الفرد إلى عمله منسحقا عاجزا. من المسئول؟ إن عدم تحمل المسئولية يحول المجتمع إلى الاستهلاك.. أكثر فأكثر . فعدم تحمل المسئولية بالنسبة للمهندس المدنى مثلا يجعل كل التركيبات الصحية تنشع فى الجدران، ويضطر الساكن إلى

تغطية الجدران بالقيشانى، حسب التصعيد الإعلامى فى التليفزيون للدعاية عن شكل حمامات تلبى التطلعات ونعرة التفاخر، لتدفعه لتغيير لون الحمام كل سنة، بينما تتسرب المياه وتبقى داخل الجدران.

إذن ليست المسألة هى افتعال قضايا سياسية واجتماعية، وإلقاء المسئولية على المرحلة التاريخية التى نمر بها. إن المشكلة تنصب فى استمرارية تسطيح الفكر، وتوجيهه نحو الاستهلاك، حتى أصبحنا نعجز عن مواجهة أبسط مشكلاتنا.

يقولون : إن هناك حرية فى بعض البلدان المستهلكة غير المنتجة. نعترف بوجود حرية .. لكنها فى الحقيقة قاصرة على الفئة التى سمح أو سهل لها أن تملك وتسيطر . أما الآخرون، العاجزون ، فعند الصفر تتساوى كل القيم . إنها حرية مبادرة القادر ماديا على السيطرة على السوق. إنها أشبه بسيطرة الاحتكار. إذن فلا حرية لرجل يطحنه الغلاء . ونؤكد أن الثراء المادى لدى بعض الأفراد فى مجتمع ما لا يمكن به قياس ثقافة أو حضارة . ومن الصعب أن يتحقق شىء له قيمة مع سيطرة طبقة تكونت عشوائيا، وفى ظل هيمنة علاقات اجتماعية غير سليمة تشل فاعلية المجتمع. وإذ بالأب يرحب بحصول ابنه خريج الهندسة على وظيفة جرسون أو مرشد سياحى أو سمسار إعلانات، أو يوافق على عمل ابنته طالبة الطب فى إعلانات الدعاية فى التليفزيون عن البضائع الاستهلاكية أو الأغنيات الهابطة.

ونتساءل : هل هذا هو النموذج الحضارى العصرى؟ النموذج الذى تريد أمريكا أن تصبغ به بلدان العالم الثالث؟ إن ملايين الدولارات ترصد من المعونة الأمريكية لتثبيت النموذج الأمريكى الذى يجب أن يحتذى . ثم بعد ذلك نكتشف أنه لا أكثر أو أقل من دفع الجمهور لاستهلاك منتجات وسلع مفروضة عليه. هذا فى مجتمعات بلغت فيها خسائر القطاع المملوك للدولة نسبة مخيفة كصناعات السكر والقطن. وتآكل فيها رأس المال العام، واستدانت وعجزت عن السداد، حتى خضعت تماما لصندوق النقد والبنك الدوليين.

هل نتج هذا عن عدم وجود وعى ، أم

هى البلادة ، ونزعة الأنانية والاستسهال؟

الفـرد يقـرأ الكوارث والأزمـات التى تحيط به كأنها تحدث فى المريخ ، ويكتفى الجميع بمناقشة النتائج تحت ما يسمى بالنقد الذاتى ، الذى لايقترب من الأسباب التى أدت إليها. لا أحد يريد أن يبدأ ، كل فـرد يخـشى المبـادرة، رغم أنه يتـمنى التـغيـير. يفـضل أن ينتظر .. وسـيطول الانتظار.

وتنتـشـر حـمـلات التـشكيك فى أى مـحاولة للإصلاح من داخل النظام، ويلقى اللوم على الشعب الذى لم يعد يملك شيئا. وهكذا تتـحـول المجـاميع البـشـرية إلى السلبية المطلقة.

....

فى صـفحة واحـدة فى جـريدة قومـية نجـد تسـتـرا على أذناب للنظام يفلتـون بمئات الملايين من الجنيهات ، محققين ثراء غير مشروع. وفى الصفحة نفسـها دفاع عن لص له حـصانة، وتستر على متـهرب من الضرائب، ومنح قروض بنكية لأفراد دون ضـمـانات . وعلى الصـفـحة نفسـها يناقش مشروع بيع جزء من جسم إنسان لا يجد القوت. وأخيرا ينتهى الأمر إلى بلبلة فكرية. كـيف تراكـمت هذه المظاهر على بعضها حتى وجدنا نماذج غريبة من المسئولين بلغ بهم الأمر للدروشة والهوس الدينى الذى غـيب رؤيتـهم عن أى منهج علمى ، أولئك هم الجـيل الأول للنظام الذى استفاد بحكم الموقع والمنصب بشكل شـخصى، إلا أنه كان غير واع أو مقدر لغبة الأمور : وتم التـخريب. وتلاهم جيل من أبنائهم . فكان جيلا أفسده التفسخ الأسرى والتدليل ، لغياب الهدف والقدرة وفقدان الارتباط بمعايير الخطأ والصواب. فتكالبوا على خدمة الشركات الأجنبية كعملاء ، على حساب أية شركة قومية.

وسـادت المقـولة الفينيقيـة (الذهب لا رائحـة له كى تخـبرنا عن مـصـدره) . ورويدا رويدا حدث التحول فى المجتمع . ويظل يلح التسـاؤل : ما هـو الآن مفـهوم الانتماء للوطن؟ .

تسن قوانين مليئة بالثغرات التى يمكن النفاذ منها . ولا آخر لقوانين تسن ، ولا آخـر للشـغـرات بهـا ، وذلك كى تعطى الفرصة للبعض كى يثرى.

إن مقولة حرية السوق تفرض وضعا بشـعا، وليس هناك مـا يحـدها من يقظة

ضمير . الكل يريد أن يثرى على حساب الغير . فلا وجود لقيمة يلتف حولها الجميع. الكل يكذب على بعضه وأمام بعضه، حتى أصبح الإنسان قيمة مستهلكة لها عمر افتراضى ، يبنى على مدى مصلحة الفرد لدى الآخر. ويضيع الإنسان كرمز .

....

مع الإحساس بالمهانة لم يعد الفرد خلية حية فى المجتمع وتتفسخ روابطه وعلاقاته بالآخرين. فهو مع مهانته تتساوى لديه كل القيم. يتحول إلى السلبية، ويكون همه الحصول على أجره مع بذل أقل جهد. يتهرب من أية تبعة أو مسئولية تلقى عليه. ونتساءل : لماذا عم هذا الموقف؟ ولماذا يشعر الفرد فى بلاد مثل اليابان أو ألمانيا أنه جزء من المصنع ، وجزء من الوطن ، وجزء من تحديد الأهداف العامة؟ نعلم أن معظم السكان فى المجتمع الاستهلاكى غير المنتج تحت مستوى الفقر . فكيف يمكن الوصول إلى مستوى معيشى معقول للفرد فى ظل هذا الغلاء المستمر؟ هل يتأتى هذا بزيادة الأجور؟ يجب أن يكون ذلك بحذر . فدائما مع زيادة الأجور ترتفع الأسعار ويؤدى ذلك إلى التضخم، وتستمر الحلقة المفرغة. يقال إنه لابد أن تكون سياسة الدولة العمل على تمتع عملتها بشىء من الاستقرار . لكن الكلام سهل، لأن دعم العملة يجب أن يقوم على سياسة شاملة لتوسيع القاعدة الإنتاجية، الصناعية والزراعية. هل هذا سهل الآن فى ظل الأوضاع الراهنة. وكيف يتم هذا والمجتمع بحكم تكوينه الآن، ومع هيمنة أصحاب رؤوس الأموال الطفيلية، وسيطرة السماسرة، والترويج للبضائع الاستهلاكية، أصبح لا ينتج، وسياسة الديون والمعونات تكبل الدولة النامية وتجعلها تابعة للمقرض والمعين. وزاد الطين بلة أن هذه القروض لا تستخدم فى الانتاج، ولا تصل كاملة للشعب، والمستفيد الحقيقى هم أصحاب رؤوس الأموال الاحتكارية. أو تصرف هذه الأموال لاجتذاب فئات سياسية واجتماعية كعملاء.

وحينما كانت مشاكل الخمسينيات تناقش امتصاص الأقطار العربية للعمالة، كحل جزئى لمشكلة الفقر، لم يوضع فى الاعتبار أنه بخروج العمال المهرة من الوطن فإن تدفق أموالهم دون التوجيه

المناسب سيتسبب فى زيادة التضخم وتناقص الرقعة الزراعية نتيجة حركة البناء الضخمة.

ومع كل هذه المشاكل يبدو للأنظمة الحاكمة فى تلك المجتمعات أن الأولوية هى للمحافظة على الاستقرار والاستمرارية . فتسن قوانين للردع ، كقوانين طوارىء وعيب وقيم .. إلخ، فينخرط الشعب فى طابور موجه، لايأخذ إلا ما يقدم إليه. ومع غياب الوصاية السليمة، وترجيح كفة أهل الثقة والصخب الإعلامى والتهريج على الكفاءة العلمية والفنية تنتشر البطالة، والانحرافات ، وتعم الأمية والاستهلاك المظهرى.

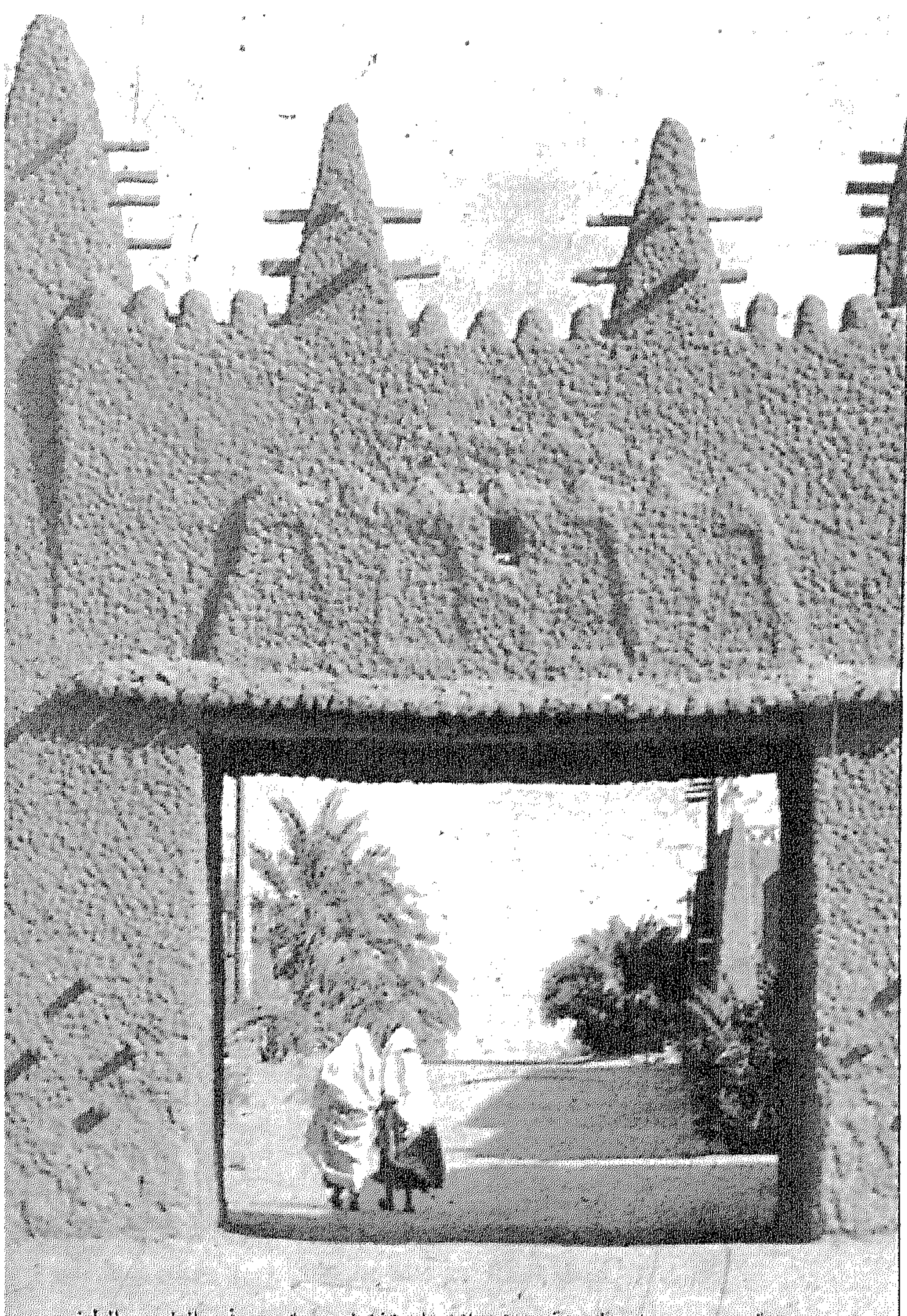
....

إن تقدم التكنيك بتلك السرعة الفائقة فى البلاد المنتجة للتكنولوجيا ، متزامنا مع كل تلك المشاكل فى البلاد المتخلفة غير المنتجة سيجعل من الصعب على تلك البلاد أن تأخذ مكانا لائقا فى مجال التصنيع، كما لن يمكنها أن تصل للاكتفاء الذاتى .

نحن نعلم الآن مدى احتياجنا إلى ملايين الأفدنة للزراعة، ونعلم أننا نملك من مياه النيل والمياه الجوفية الكميات القادرة على رى تلك الأراضى : لكن .. هل ستسمح الدول مالكة التكنولوجيا المتقدمة بمساعدتنا بدلا من منحها الاستهلاكية؟.. أشك .

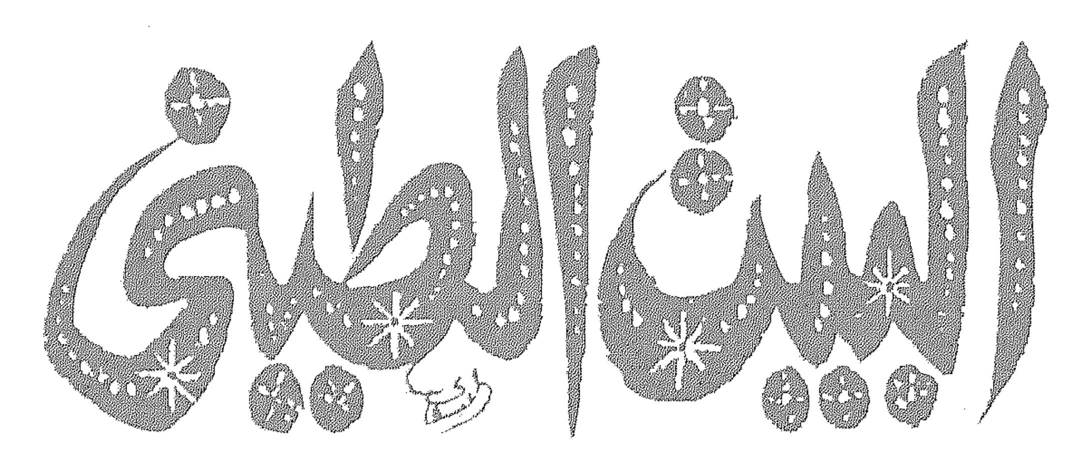
وبينما نزداد نحن فقرا وانحطاطا وتبعية ، يزداد العالم المنتج غنى وتقدما. (ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

تقول الأسطورة إن زيوس رب الآلهة عند اليونانيين القدماء أراد أن ينتقم من بروميتيوس وجميع الرجال الذين تحدوه فأرسل إلى شقيقه إبيميثيوس «بندرورا» رائعة الجمال . ورغم تحذير بروميتيوس لأخيه بعدم قبول هدايا، فان ابيميثيوس لم يقاوم جمالها ووقع فى حبائلها وأفسح لها مكانا بين الرجال . وكانت بندورا تحمل بين يديها وعاء كبيرا سمى فيما بعد بصندوق بندورا ، حينما رفعت بندورا الغطاء من على الوعاء انطلقت كل الشرور وعمت الدنيا. فقط فقدان الأمل هو الذى لم يقدر له أن يفر من وعاء بندورا. وهكذا بقى الأمل فى الحياة وطالما استمرت الحياة فسيبقى الأمل .❑



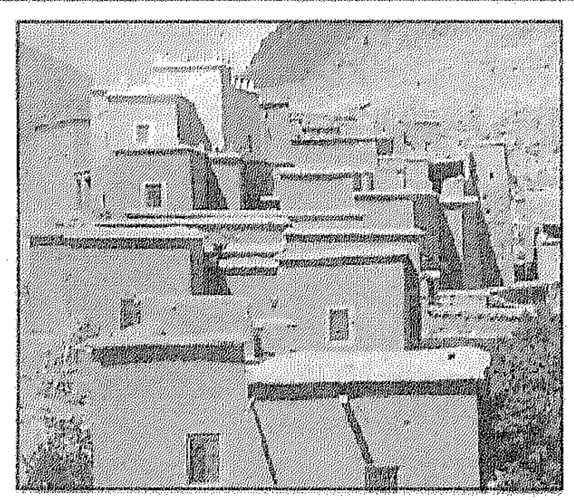
بوابة من نيجيريا منذ سنة ١٩٣٠ إنسجام تشكيلى، وتجديد فى الملمس الطينى

مستقبل البناء



نجوى صالح

- كيف ارتبط البناء بالطين عند الفراعنة بالشموخ وخلود النهر!؟
- وكيف أثبتت نظرية البيت الطيني صلاحيتها لكل زمان ومكان؟



قرية جبلية من الطين «دادس تل» بمراكش

منذ بدأت حاجة الإنسان إلى الحماية والملاذ، وتفكيره فى إقامة مسكن ليكون له حماية وسكنا وسترا، فكر فى الطبيعة حوله، وإلى الأرض من تحته، تجذبه بل وتحيطه بزخمها المحمل بأنفاس الحياة، وانحنى الإنسان وأخذ بملء يديه الطين، وبنى ساترا، ثم مسكنا، ثم مدينة.

وإذا كان بعض المؤرخين يرون أن أول مدينة أقيمت من الطين كانت مدينة «أنوكاتال هيوك» أو أريحا بفلسطين قبل عشرة آلاف سنة، وتلتها مدينتا «هاريا» و«موهيمودار» فى باكستان فى الفترة ما بين سنة ٧٠٠٠ إلى ٥٨٠٠ قبل الميلاد، فإن مدن الطين قد بدأت فى الانتشار فى بلدان أخرى، فأقيمت فى النصف الأول من سنة ٢٠٠٠ قبل البلاد، مدينة «أخت آتون» فى مصر، ومدينة «بابليون» فى العراق ومدينة «خان خان» فى بيرو، ومدينة «أزهرة» فى قرطبة «باسبانيا» ومدينة «كيروليثيا» فى جزيرة كريت.

وقد أقيمت بتلك المادة الخالدة حضارات باقية آثارها إلى يومنا هذا ومازالت أدلة تاريخية دامغة.

وبجانب مدن الطين أقيمت الأهرام والمعابد الطينية، ففى صحراء دهشور بمصر مازال هرم «الملك أسيدس» المبنى من الطين صامداً لعوامل الزمن منذ عصر الملك «سنفرو» صاحب هرم دهشور، وهو والد الملك «خوفو» بانى الهرم الأكبر، وقد كتب على واجهة الهرم الطينى «لا تغفلنى حينما تقارنني بالهرم المنفذ من الأحجار، فإن شموخى نابع من طين النهر»!.

لماذا الطين

رغم مرور آلاف السنين على بناء المنزل الطينى، ورغم التقدم المذهل فى أسلوب بناء البيت الحديث من بناء سابق التجهيز، إلى بناء البيوت الزجاجية ذات

المواصفات الخاصة، إلى بناء البيوت الأسمنتية، اضطر إنسان هذا العصر إلى التفكير فى العودة إلى بناء «بيت الطين» لماذا؟.

لقد طرح أربعة من المهندسين الألمان بجامعة ميونيخ أخيراً نظريتهم مجددا، فى كتاب سموه «بناء الطين» بعد أن قاموا بتنفيذ عدة تجمعات سكنية من الطين النيىء فى ألمانيا، وأدخلوا عليها بعض التعديلات فى الخلطة الطينية لمقاومة الجو الرطب والأمطار، العدو الأول للبناء الطينى.

وإذا كانت أصلح المناطق لبناء البيت الطينى، هى البلاد ذات الجو الصحو والشمس المشرقة مثل منطقة الشرق الأوسط وإفريقيا والمكسيك وبعض مناطق آسيا وصمود تلك البيوت آلاف السنين، لذلك بدأت بعض الدول الأوربية تفكر أيضا فى مثل هذه التجربة المثيرة.

ويرى العلماء المؤيدون لفكرة بناء بيت الطين أن الطين مادة طبيعية متوازنة، ولها خاصية عدم توصيل شدة الحرارة فى الصيف ، وأيضا عدم توصيل شدة البرودة فى الشتاء، بل إن خاصيتها هو الحد من درجة الحرارة والبرودة صيفا وشتاء .

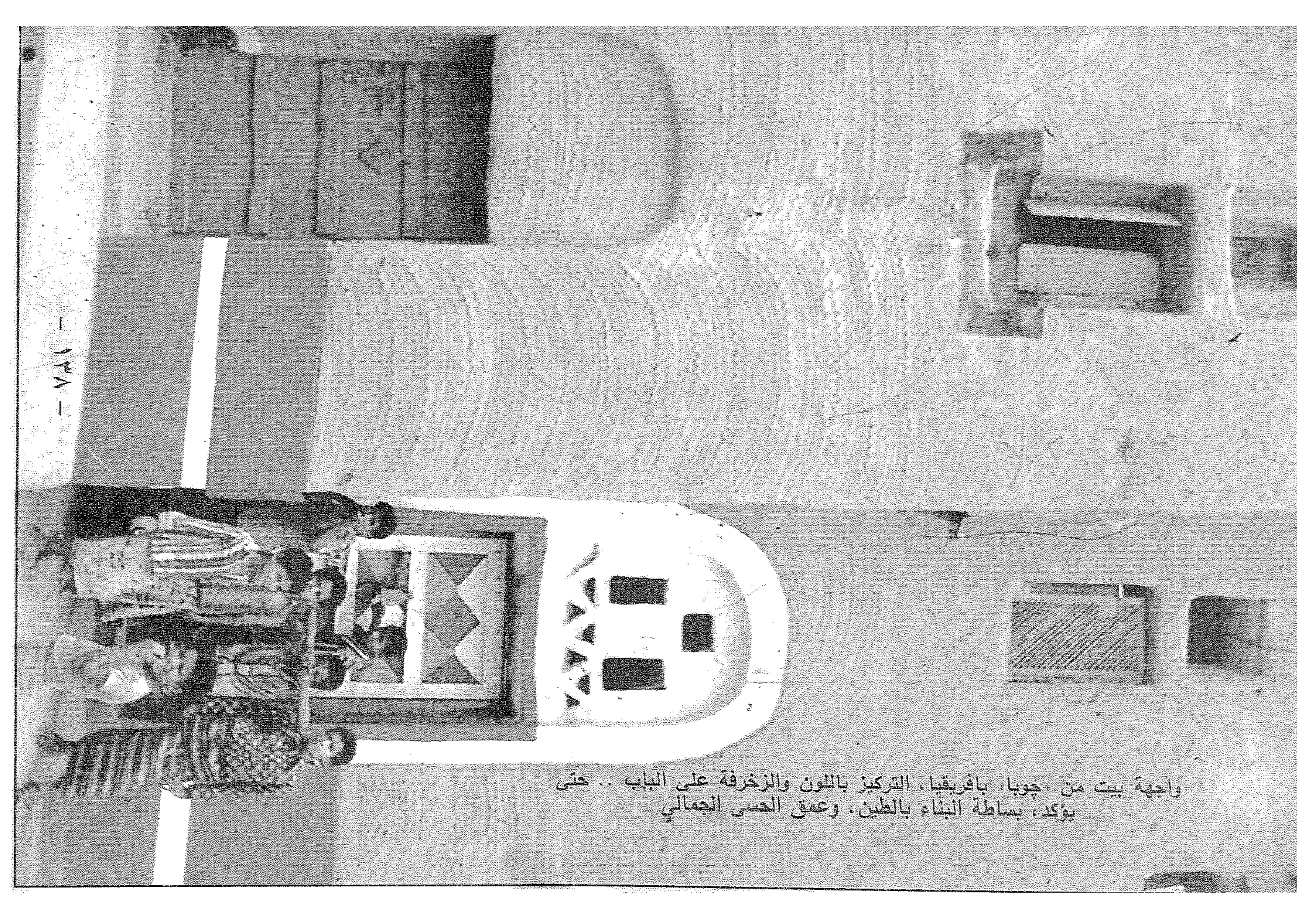
والسر فى ذلك هو امتزاج الطاقة الطبيعية التى تتفاعل مع أشعة الشمس، والتى تولد الطاقة والذبذبات.

وقد بدأ العلماء مؤخرا فى إدخال التكنولوجيا فى صناعة الطين، لما يحمله من ذبذبات طبيعية، حيث بدأت فى آسيا وأوربا قبل ثلاثين عاما استخدام مولدات كهربائية بواسطة مشتقات من الطين صلبة مع القوة الكهربانية من الماء والطين لتوليد الكهرباء. حين مرت آسيا وإفريقيا بمشكلة الطاقة النفطية، فاستبدلوا تلك الطاقة بالطين لتوليد الكهرباء. وبالطبع فإن مادة «الطين» موجودة بكثرة فى أنحاء المعمورة، ولا تحتاج لنقل من مكان لآخر، أو استخدام القوى البشرية الهائلة، أو الميكنة عالية المستوى.

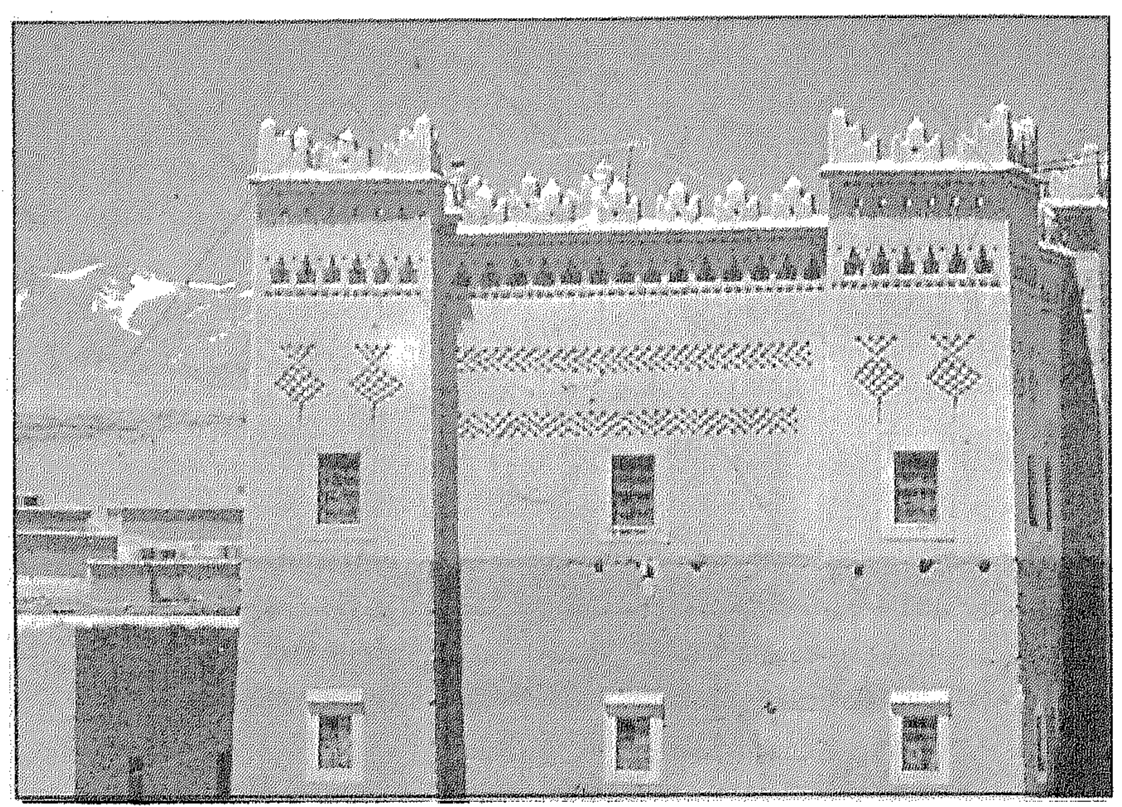
عمارة الفقراء

وقد أطلق على بيت الطين، «عمارة الفقراء» نظراً لقلة تكلفته ، وظل هذا الوضع قائما، حتى أدرك القادرون مدى امكانيات مثل هذا البيت من النواحى الصحية والعملية ، فبدأوا هم أيضا يبنون بيوت الطين، لتصبح هذه النوعية من البيوت صالحة للفقراء والقادرين.

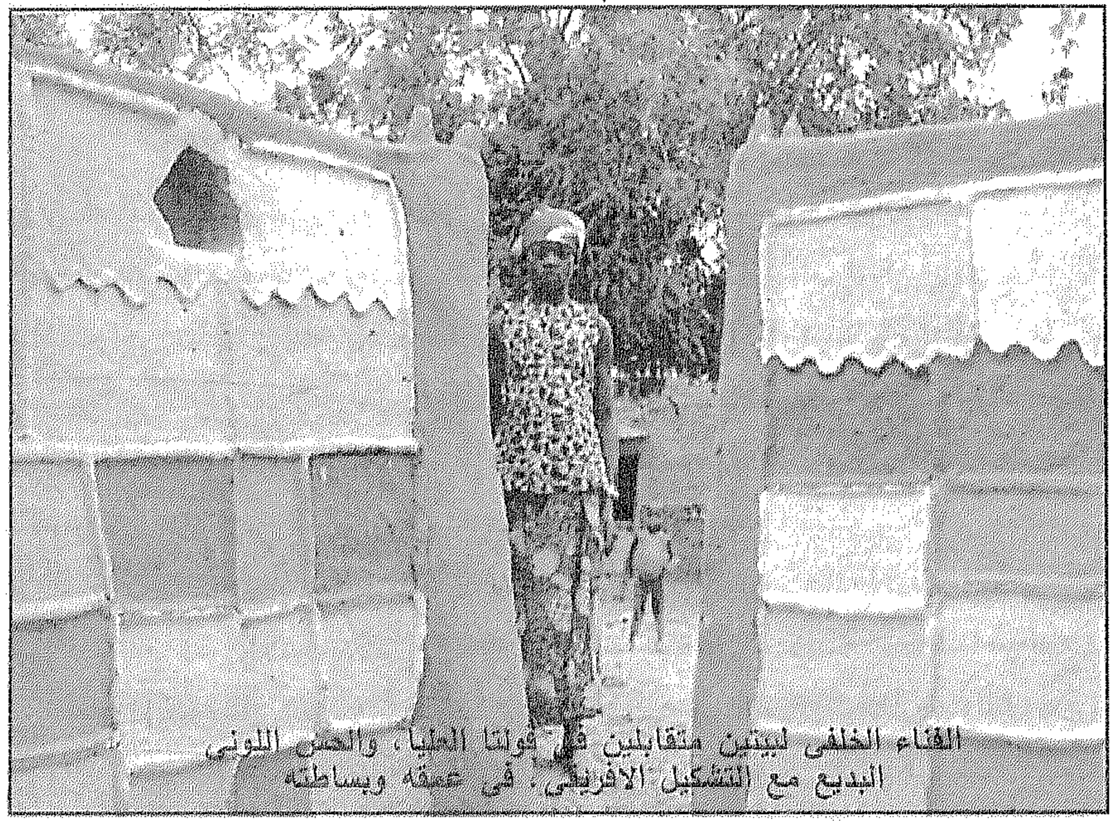
إن تاريخ بناء الطين فى العالم، يبدأ منذ عهد الفراعنة، حين بنوا بالطين أول هرم فى منطقة «دهشور» فى مصر وهذا الهرم مازال قائما منذ أربعة آلاف سنة. وقد تآكلت منه بعض الأجزاء. ولكنه مازال صامداً، يشهد العالم على صلابة هذه المادة الأولية!.



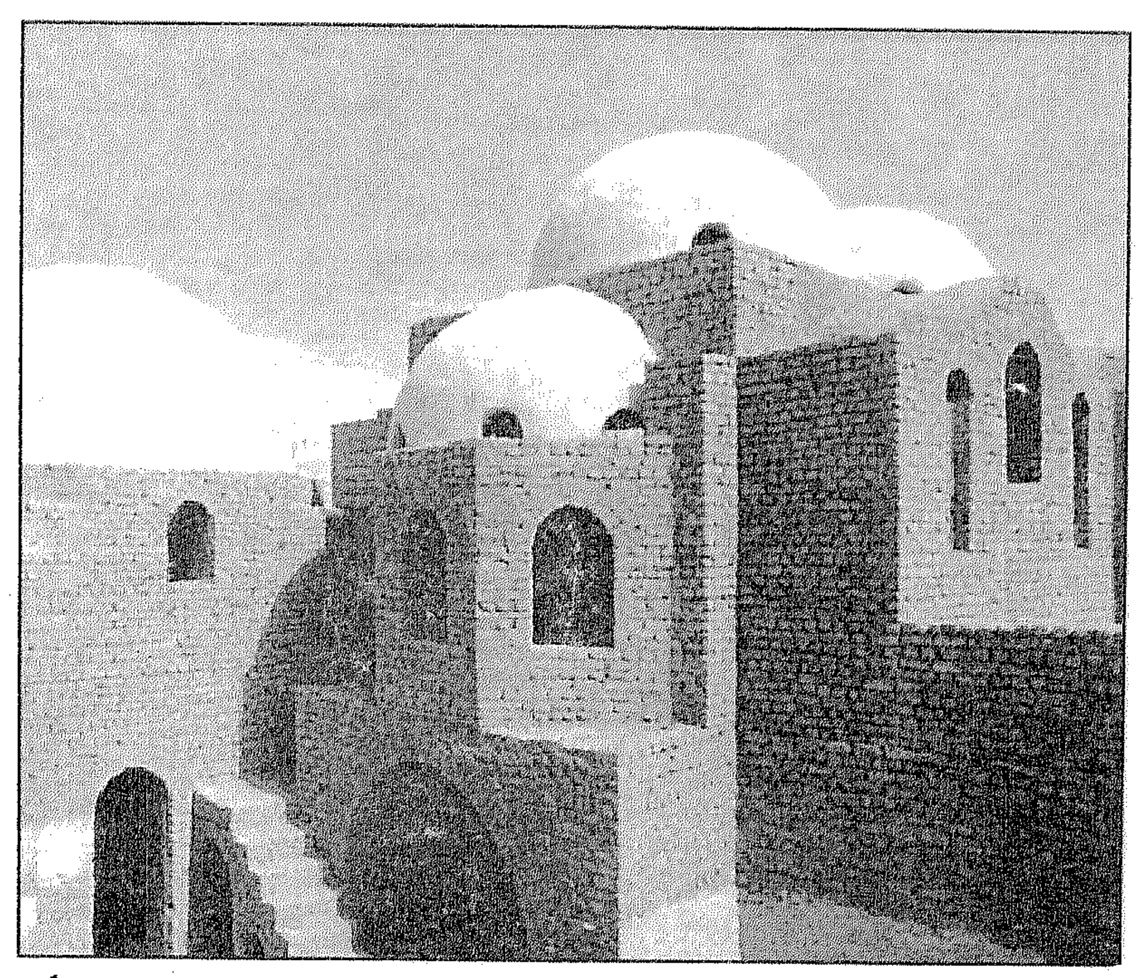
واجهة بيت من «جوبا» بافريقيا، التركيز باللون والزخرفة على الباب .. حتى يؤكد، بساطة البناء بالطين، وعمق الحس الجمالي



المنطقة الباردة فى مراكش ، دادس تل. وصمود هذا البناء الطينى ، الزخـــرفة وخـــط الأفق لم يتأثـــرا بالعوامـــل الجويـــة



الفناء الخلفى لبيتين متقابلين فى فولتا العليا ، والحس اللونى البديع مع التشكيل الافريقى . فى عمقه وبساطته



فيللا لأحد الأعيان قرب الأقصر بمصر ، بناها «حسن فتحى» وكان مساعده مهندساً فرنسياً هو «أوليفييه صدناوى» حتى يتعلم منه طريقة بناء القباب

وبناء الطين ليس مقصوراً على بيت «الفلاح»، بل أقيمت بواسطته مدن وحضارات أهمها وأقدمها الحضارة اليمنية التى اعتمدت على بناء الطين فى تشييد القلاع والقصور، البيوت المكونة من عدة طوابق، تصل إلى خمسة وستة طوابق من الطين بنيت جوامع بمآذنها، وكنائس، بأبراج شاهقة، منذ آلاف السنين.

بين التكنولوجيا والطين

وإذا كان تطور أساليب البناء قد استخدم لمواجهة الزيادة المضطردة فى عدد سكان العالم، لبناء أبراج سكنية تستوعب الكثافة السكانية العالية، فمازال لبيوت الطين أهميتها وفوائدها الصحية والعملية، ولم يعد قاصرا على الفقراء فقط، بل أصبح اختيار شخصى للإنسان يتواءم مع احتياجاته الأولية البسيطة ، والبعد عن النمطية السكنية، والتلوث الجوى والسمعى والبصرى، ولذلك بدأوا فى أوربا يعودون إلى فكرة بناء بيوت

الطين بعد أن اندثر ولكنهم عادوا إلى مثل هذا البناء بالاستعانة بالتكنولوجيا الحديثة لتلافى الثغرات التى كانت تعرض بيوت الطين للانهيار أو التآكل، مثل ما فعله المهندس الفرنسى «فرانسوا كوانترو» الذى بدأ قبل حوالى ٢١١ سنة فى إنشاء بيوت من طين مخلوطة بمواد من مشتقات «البوتومين» وقليل من الأسمنت، مما يعد عاملا فعالاً للحماية ضد الماء فى تلك المناطق.

وبعد ذلك جاء المهندس العالمى المصرى حسن فتحى الرائد الفنان فى مجال الدعوة إلى بناء بيت الطين، بهدف حماية المعمار التقليدى ، واحياء استخدام هذه المادة التى تلائم البيئة فى جميع أنحاء المعمورة، ما عدا القطب الشمالى بالطبع!.

وقد حاول «كوانترو» أبو البناء الطينى فى العالم أن يكتب مسرحيات عن مزايا السكن فى البيت الطينى، بل إنه أنشأ قسما فى جامعة «جرونوبل» بباريس عن فن بناء الطين، لمحاولة تشجيع هذا الاتجاه.

أما حسن فتحى فقد جاء إلى الدنيا بعد ١١٦ سنة من وفاة «كوانترو» ، فأنشأ معهد بحث دولياً، تبنته الأمم المتحدة ، والمنظمات التابعة لها، لتخطيط البرامج للبلاد النامية لإقامة تجمعات سكنية بطريقة اقتصادية للفقراء وكان شعارهم «العودة للجذور» وقد سمى حسن فتحى ذلك «بعمارة الفقراء»!.

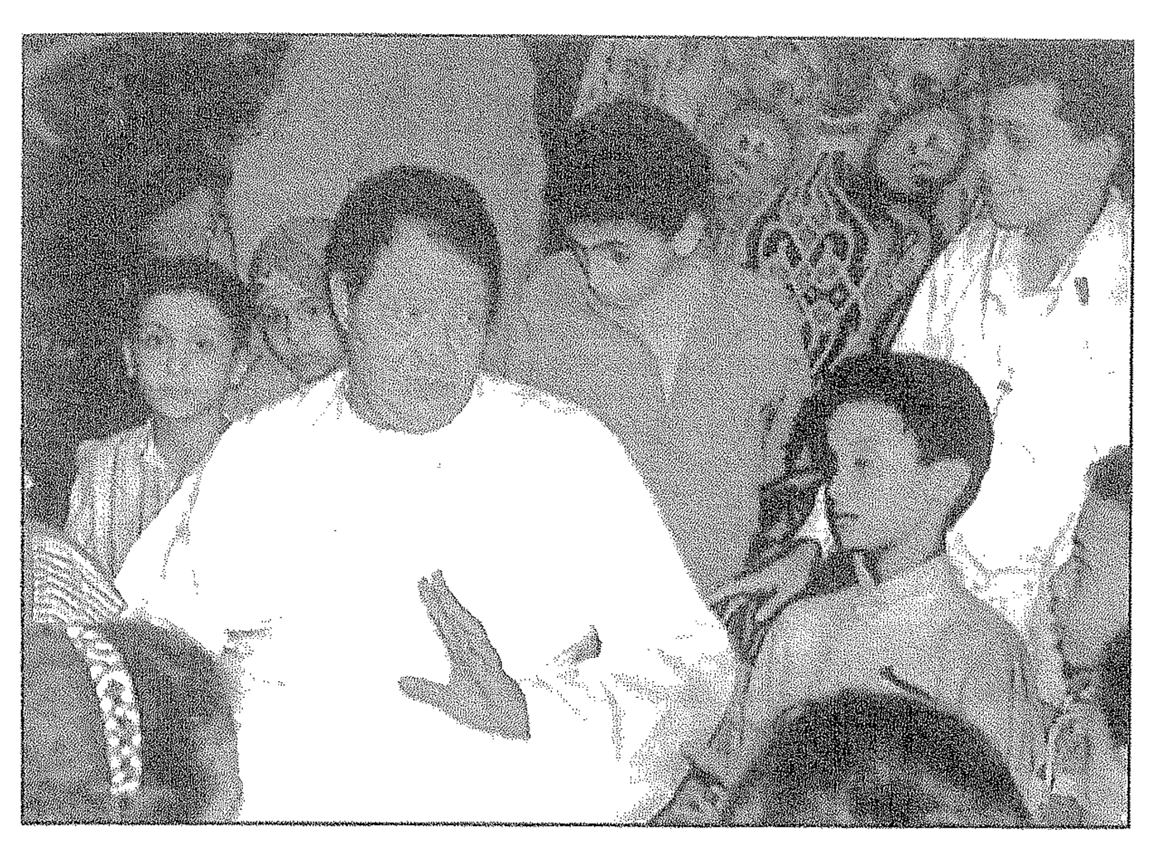
ولم يتمكن «كوانترو» الفرنسى و«حسن فتحى» المصرى من تحقيق هذا الحلم على الطبيعة فى بلديهما بشكل كبير، ولكن بسبب اصرارهما وفكرهما العلمى العميق ومصداقيتهما استطاعا فرض هذه الفكرة واقناع الآخرين بها، بل والتفكير فى التوسع فى تنفيذها فى بلاد كثيرة فى الشرق والغرب.

وعندما بنى حسن فتحى قرية النوبة الجديدة فى مصر لم يقبل عليها السكان المحليون فنفذ فكرته فى صحراء الأريزونا بنيو مكسيكو ونجح نجاحا كبيرا.

وبنى الفرنسى «كوانترو» حلمه فى انجلترا وحقق نجاحا كبيرا أيضا.

ويبقى فى النهاية أن الأعمال العظيمة التى يقف وراءها عظماء لابد يوما أن تجد الصدى ، وأن تجد من يتبناها.

وهكذا فإن العودة إلى بناء «بيت الطين» أصبحت فلسفة معمارية لها أنصارها ومريدوها الذين يرون أن مثل هذا البيت سيوفر لساكنه الحماية والراحة ضد عوامل الطبيعة وتأثيرات البشر الضارة، لتصبح «العودة للجذور» هى الحقيقة الصالحة لكل زمان ومكان ! ❑



يحيى الفخرانى فى دور العمر (مبروك)

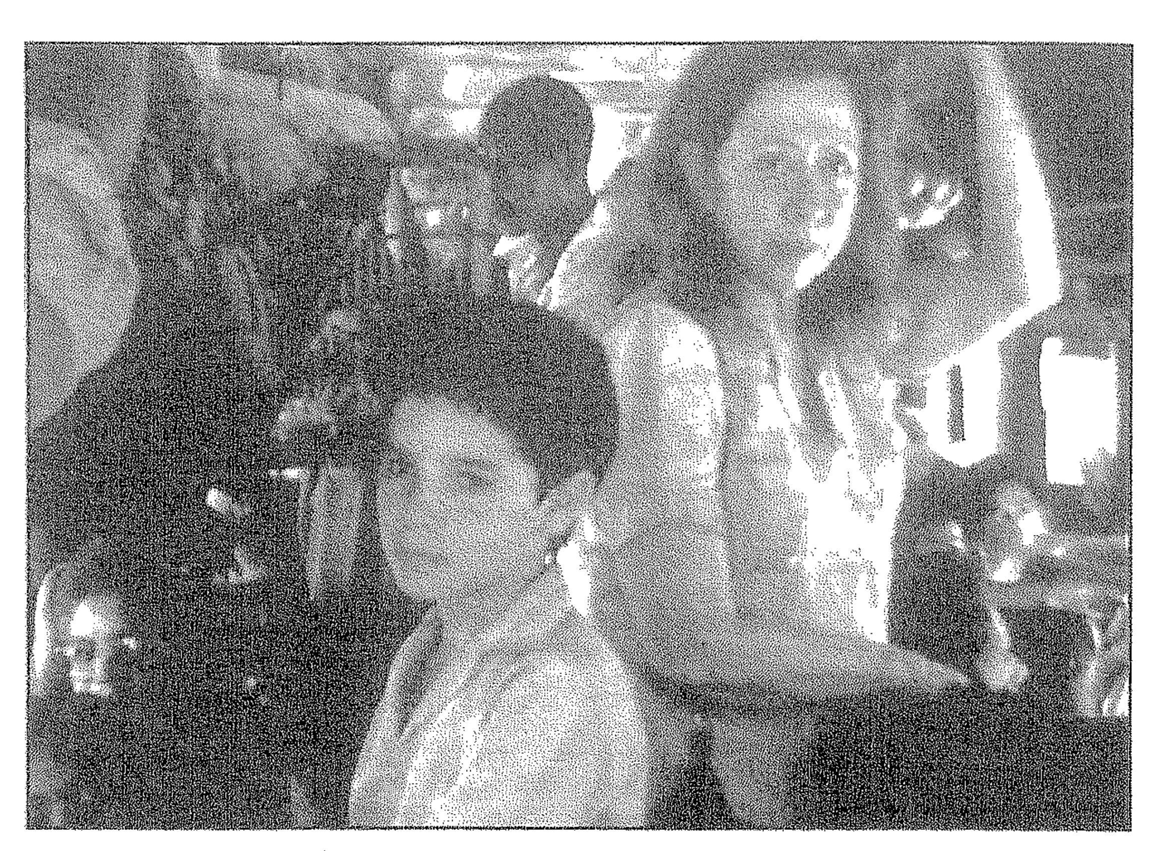
سينما واقعية

وأخرى زائفة.. دعية

ما أقل الأفلام التى تدهشنا بجدتها وجديتها ، وتنعشنا بإنسانيتها، ما أقلها فى هذه الأيام.

وما أكثر الأفلام التى على طرف نقيض من ذلك تماما، بحيث تشعرنا، بعد الخلاص من عذاب مشاهدتها ، بفراغ نحس معه، وكأننا نجونا من كابوس ثقيل.

بقلم : مصطفى درويش



المحطة الرئيسية .. درة السينما البرازيلية

ومن بين تلك الأفلام القليلة، المدهشة، المنعشة التى شاهدتها خلال الربع الرابع من السنة التى رحلت عنا، قبل ساعات ، آذكر «مبروك وبلبل» لصاحبته المخرجة «ساندرا نشأت»، و«المحطة الرئيسية» لصاحبه المخرج والتر ساليز ، وهو آول فيلم برازيلى يفوز بالجائزة الكبرى «الدب الذهبى» لمهرجان برلين (١٩٩٨) ، فضلا عن الفوز باكثر من جائزة رفيعة فى مهرجانات عالمية أخرى.

فاذا ما انتقلت إلى نقيضهما من الافلام، وهى كثيرة، فقد يكون من المفيد ان اكتفى بذكر اثنين من بينها، اتيحت لى فرصة مشاهدتهما، خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة، وهما «القتل اللذيذ» و«عرق البلح».

وأولهما من انتاج التليفزيون ، شأنه فى ذلك شأن «مبروك وبلبل».

وصاحبه «أشرف فهمى» ، ذلك المخرج المخضرم الذى بدأ مشواره السينمانى ، قبل سبعة وعشرين عاما والآن له رصيد كبير من الافلام ، لعل اهمها «ليل وقضبان» (١٩٧٣) .

أما «عرق البلح» فصاحبه «رضوان

الكاشف». وهو مخرج فى بداية الطريق ، لم يبدع حتى ذلك الفيلم سوى «ليه يا بنفسج» الذى جرى عرضه قبل خمسة اعوام.

ولا ابدأ بـ«مبروك وبلبل» و «المحطة الرئيسية» وانما بـ«القتل اللذيذ» و«عرق البلح» ، مرجئا الحديث عنهما إلى النصف الثانى من المقال .

خيبة أمل

واقف عند «القتل اللذيذ» قليلا، لأقول إنه فيلم شارك فى صنعه كوكبة من كبار فنانى السينما المصرية، اذكر من بينهم «حسن شاه» كاتبة القصة، «احمد صالح» كاتب السيناريو والحوار ، «رمسيس مرزوق» مدير التصوير، وأشرف فهمى المخرج ذو الرصيد الكبير.

ومع ذلك فالمحصلة النهائية كانت مخيبة للآمال وآغلب الظن ان ذلك مرجعه إلى السيناريو الذى جاء مشوبا بعيب جسيم، آلا وهو التخليط.

فوفقا له الطالبة «منى زكى» آدمنت الهيروين وهى ابنة لـ «سمير صبرى» رجل الاعمال الذى يعيش فى الخليج، و«ميرفت آمين» المحامية ، والاستاذة فى كلية الحقوق.

والسيناريو يطرح عدة اسباب لسقوطها فريسة فى براثن مهربة سموم بيضاء «إلهام شاهين» ، لعل اهمها.

اولا: انشغال الوالدين عن رعايتها، الاب بغيابه الطويل خارج مصر ، والام باستغراقها فى العمل، ليل ، نهار.

ثانيا : فقدان الجيل الجديد للهدف، ومعاناته من فراغ مميت، انتهى به جيلا ضائعا، باحثا عن اللذات، متحالفا فى سبيلها مع الشيطان.

وثالثا : اهمال التوعية والتوجيه للشباب فى المدارس والجامعات، الامر الذى ادى إلى اختلاط المعايير، وفقدان الصغار الثقة فى كل ما ينصح به الكبار.

الفشل .. لماذا؟

وبفضل تعدد الاسباب على هذا النحو، وتداخلها احتلط الحابل بالنابل فى الفيلم.

فكان ان دار الحوار ، مع الاسف ، حول معان كثيرة دون ان يقدمها السيناريو لنا بجلاء ، وبطريقة مباشرة، فجة ، تثير الغثيان.

وكان ان تمحور الفيلم حول فكرة واحدة ، هى تحبيذ ثأر آباء الضحايا من تجار السموم البيضاء، وذلك دون انتظار

حكم القضاء ، بل وبالتحدى له فيما لو كان قد صدر بتبرئة المتهم، أو بمعنى اصح المتهمة «إلهام شاهين» بترويج الهيروين.

وكل هذا كان سببا فى عجز الفيلم عن ان يبعث فينا ، نحن المتفرجين، الإحساس بمأساة الإبنة، ومعها مأساة الجيل الجديد فى صورها المختلفة.

ومن هنا ما لاحظته من ان المتفرجين قد غادروا دار السينما ، بعد انتهاء الفيلم بلقطات ختام اقرب إلى التهريج والكاريكاتور ، وهم فى معظمهم غير مكترثين بهموم ذلك الجيل، بل ساخرين ، ولا اقول ضاحكين مقهقهين من احداث فيلم، لم يحاول اصحابه الصدق والاقتراب من الواقع ، ولو قليلا.

وداعا للتقاليد

وإلى «عرق البلح» انتقل لاقول إنه الفيلم الذى اختتمت به عروض المهرجان القومى للسينما المصرية وبداية فذلك المهرجان تحت رئاسة مدير الرقابة الحالى، قد خرج على تقليد حميد، استنه رؤساء المهرجانات السابقة، وهو عدم عرض فيلم جديد.

وأيا ما كان الامر فى ذلك الخروج على تقليد حميد ، فالأكيد ان عرضه قد افاد الصفوة السينمائية، التى نادرا ما يجتمع شملها فى صعيد واحد جاد، إلا فى مثل هذه المناسبات.

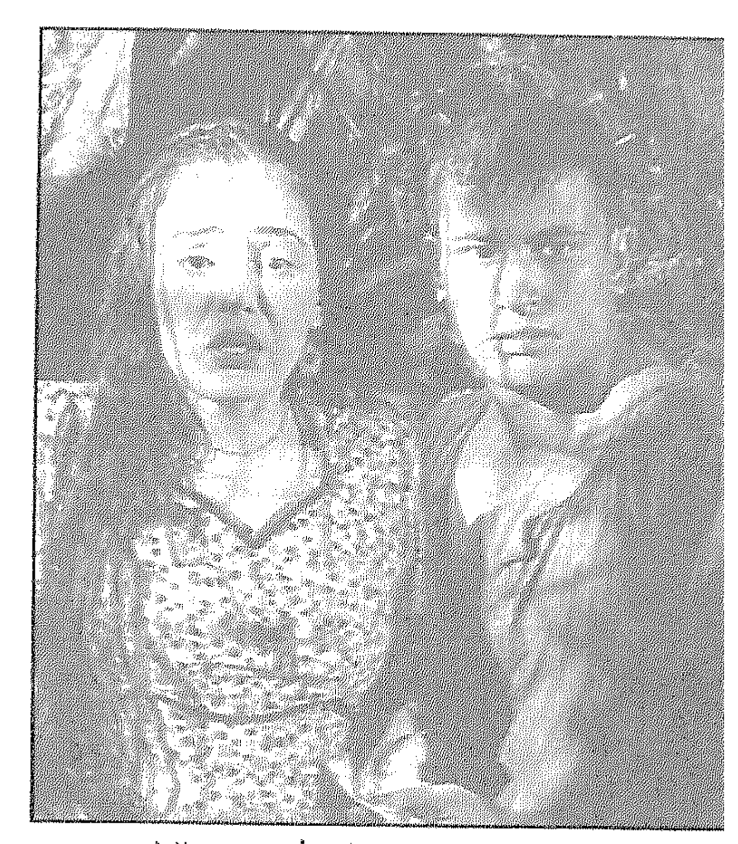
فبدون ذلك العرض ، ما كان فى وسعها، ولاكان فى وسعنا ، نحن النقاد، ان تتاح لنا فرصة مشاهدة فيلم «رضوان» فى مستقبل قريب.

كان المتاح لنا سيظل منحصرا فى قراءة ما يكيل له من مديح ، حيثما يجرى عرضه خارج مصر ، فى مهرجانات ، تعد الآن بالمئات .

ولأمر ما، شاء لى قدرى ، بعد مشاهدتى له ببضع ساعات ، ان ارى «طعم الكرز» ، ذلك الفيلم الايرانى الذى قام «عباس كياروستامى» ، قبل عامين، بإخراجه ، وبفضله فاز بالسعفة الذهبية لمهرجان كان «١٩٩٧» وكان امرا لافرار منه ان اجرى مقارنة بينه وبين فيلم «رضوان».

وان تجىء المقارنة ، لسوء الحظ لصالح الفيلم الفائز بسعفة كان.

ولعل السبب الرئيسى لمجىء المقارنة


شيريهان فى عرق البلح

لغير صالح فيلم «رضوان» هو ان المخرج الايرانى قد قنع لفيلمه بآن يكون بسيطا، رقراقا، متفاديا اى تعقيد.

فى حين ان «رضوان» لم يقنع لفيلمه الا بخيوط متعددة، متشابكة، وفق حساب هرجلة وغموض معتم، مما جعله فيلما شديد التعقيد.

والحق ، آنه بين الفيلمين فرق بعيد فى كل شىء، بعد النقيض من النقيض.

ففيلم «كياروستامى» ابطاله جميعا من الرجال ، ففيما عدا لقطتين لفتاتين ظهرتا لثوان، فعالم الفيلم خال من النساء، عالم موحش ، كئيب ، كل ما فيه يدفع إلى الفرار بالانتحار .

وعلى النقيض من ذلك كله فيلم رضوان ، حيث القرية، أو الواحة التى تدور فيها الاحداث خالية، او تكاد تخلو من الرجال.

فباستثناء شيخ فان «حمدى احمد» ، وغلام نام «محمد نجاتى» ، وحشد من الاطفال وعدد من الرجال عادوا من بلاد النفط ، والفيلم يقترب من النهاية، باستثناء ذلك فعالم الفيلم مسكون بجنس النساء «شيريهان» «عبلة كامل» ، «منى عفيفى» ، وغيرهن كثير.

عالم هو الآخر موحش ، كئيب ، الصراع فيه لايدور إلا حول ذلك الغلام الوحيد، رمز الفحولة الغائبة.

ولن ادخل فى تفصيل صراع النسوة المحرومات من دفء الرجال حول الغلام، فذلك شىء ممل ولن يفيد واكتفى بان اقول ان صاحب الفيلم فى عرضه لصراعهن ومعاناتهن، قد خانه التوفيق، فكان ان ضاع جهده المبذول هباء مع الهباء.

انتصار الشباب

وانتقل الآن إلى «مبروك وبلبل» ، اول

وأخرى زائفة ، دعية

فيلم روائى طويل لمخرجة ليس لها من العمر سوى ثمانية وعشرين ربيعا، لأقول ان فيلمها مأخوذ عن قصة للدكتورة «لميس جابر» ، زوجة النجم «يحيى الفخرانى» وهو فى الفيلم يتقمص شخصية رجل طفل اسمه «مبروك» توقف ذهنه وادراكه عن النمو فى مرحلة مبكرة ، منذ ان كان صغيرا.

وعندى انه قد تقمص تلك الشخصية على نحو قل ان يكون له فى الاجادة مثيل.

ولو قارناه باعظم الممثلين قديما وحديثا فى السينما لساوت قامته خاصة قامتهم الطويلة ، بل ولربما جاوزتها كثيرا.

أما «بلبل» ، وهو اسم الدلع «لنبيلة» ، فتؤدى دورها «دلال عبدالعزيز».

وهى بدورها ، ينبغى ان اثنى الثناء كله على ادائها، وذلك لاتسامه بالاتزان ، فلازعيق، ولاتشويح ، وانما تعبير يعتمد على الحركة المتئدة، وعلى ملامح الوجه، دون أدنى افتعال ، رغم انها تلعب فى الفيلم دور بائعة هوى.

والمعتاد عندنا فى اداء ادوار النساء والساقطات، السقوط فى المبالغة المثيرة للتقزز والاشمئزاز ولايفوتنى هنا ان اشيد بكل من «كريمة مختار» و«ماجدة زكى» ،



دلال عبد العزيز فى دور بلبل

الاولى بفضل ادائها المنساب دون افتعال لدور ام «مبروك» الحنون ، وهو دور قصير.

والثانية بفضل ادائها الطبيعى لدور الفلاحة، شقيقة «مبروك» العطوف ، المدافعة عنه ضد عاديات الزمان .

ولقد كان من اثر اشتراك كل من «محسن نصر» و«صلاح مرعى» فى ابداع الفيلم ، الاول بالتصوير ، والثانى بالديكور ان تشكيل الكادرات، جاء متسما بجانب

جمالى أخاذ.

أعداء النجاح

واعود إلى صاحبة الفيلم «ساندرا» لاقول انها أولا : عرفت كيف تحرك الممثلات، وتنطقهن دون تشويح وتقصيع .

ثانيا : عرفت كيف تنقل الينا من خلال التفاصيل جو القرية التى يعيش فيها «مبروك»، بحيث احسسنا، وكأننا فى قرية مصرية، تنبض بالحياة.

ثالث : نجحت فى تشكيل المجموعات وتحريكها ، على نحو يحسدها عليه بعض كبار مخرجينا.

ومن عجب ان يتعطل عرض فيلمها، رغم رفعة مستواه اكثر من عامين.

والسؤال: بأى ذنب جرى حبس فيلمها فى ظلام العلب كل هذه المدة الطويلة.

وألا يدل ذلك ، ودون ما حاجة إلى انتظار الجواب، على جنوح لوأد المواهب، واغتيال المال العام؟

درة نادرة

ولايبقى الآن سوى الفيلم البرازيلى «المحطة الرئيسية» ، الذى يعتبر، وبحق ، واحدا من اهم افلام عام ١٩٩٨ ، بل وربما ، واحدا من الدرر السينمائية النادرة التى جادت بها قريحة صانعى الاطياف فى اثناء العقد الاخير من القرن العشرين ولولا مهرجان القاهرة السينمائى ، لما اتيحت لنا فرصة مشاهدة تلك الدرة ، التى مر عرضها فى زحمة الافلام ، مرور الكرام.

ومع ذلك ، فعرضه ، دون شك من افضال مهرجان متعثر، تغلب فيه السيئات على الحسنات.

ومن تلك السيئات قصر عرض الدرة البرازيلية على الكبار، رغم مجيئها خالية من اى مشهد من تلك المشاهد الموصومة فى نظر رقابتنا الشريفة، العفيفة، بالعنف والفحشاء .

ولا ادل على ذلك من مشهد سرقة جرت احداثه فى المحطة الرئيسية، حيث نرى شابا، يجرى هاربا بشىء سرقه من أحد الباعة فى تلك المحطة.

فاذا ما تعقبه احد رجال الامن حتى شريط السكة الحديدية، حيث امسك بخناقه، اسرع الشاب برد الشىء المسروق، مستعطفا اخلاء سبيله.

وهنا ، ودون ان نرى بفضل قطع لاهث ، نسمع طلقا ناريا، نفهم منه مقتل الشاب.

وان نسمع دون ان نرى كان وقعه على النفس اشد من وقع عشرات المشاهد العنيفة فى الافلام الامريكية ، حيث تمتلىء

الشاشة بالجثث والدماء.

الجمال في البساطة

أما لماذا فاز الفيلم بالجائزة الكبرى لمهرجان برلين وبجوائز اخرى كثيرة ، فذلك لقيامه على فكرة بسيطة كل البساطة مدارها حول شخصيتين محوريتين ، استأثرتا بالاحداث من البداية وحتى النهاية.

إحداهما امرأة فى خريف العمر «دورا» وتؤدى دورها «فرناندا مونتينيجرو»، والاخرى لصبى ليس له من العمر سوى تسعة اعوام ، ويؤدى دوره «فينيسيوس دى اوليفييرا».

وباختصار بليغ ، سرعان ما نعرف ان «دورا» كانت تعمل مدرسة، فلما احيلت إلى المعاش، احترفت فى المحطة ، مقابل جعل لرجل الامن ، كتابة الرسائل للأميين، وهم فى البرازيل مثل الحال عندنا كثير.

ولن احكى كيف التقت بذلك الصبى مع امه التى قامت بإملائها رسالة إلى زوجها والد ابنها، الغائب منذ اعوام.

ولا كيف ماتت تلك الام امام المحطة فى حادث سيارة يشيب من هوله الولدان ولاكيف التحم مصير «دورا» بمصير الصبى اليتيم على نحو لم يكن فى الحسبان.

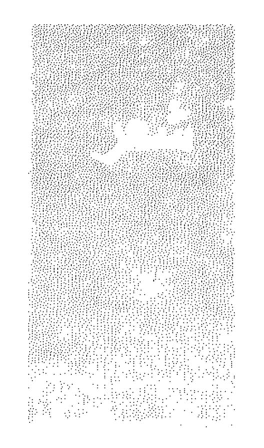
طريق الخلاص

فذلك شىء يطول ، وانما اكتفى بأن أقول بانه من خلال هذا التلاحم نجح صاحب الفيلم فى ان يقدم لنا فى تصوير بديع اولا لجو عاصمة البرازيل، وثانيا لجو ريفها الفقير، بمساحاته الشاسعة، وتخلفه المريع: مجتمعا ، وان كان يبدو انه تقدم ماديا، فانه لم يتقدم انسانيا.

والمدهش ان كل هذا قد جرى رسمه بقلم ساخر ، يقطر حبا لجميع شخصيات الفيلم ، لاسيما شخصية «دورا» التى بدأت بها الاحداث امرأة فقدت الايمان بالانسان ، وانتهت بها، ورحلة البحث عن والد الصبى اليتيم تقترب من الختام، وقد استردت ذلك الايمان.

والفيلم بوقائعه ، وبأسلوبه فى السرد، وبصدقه ، وبنبله ، وببراعته الآسرة للقلب والعقل معا، انما يذكرنا بأروع افلام الواقعية الجديدة التى جرى انتاجها فى ايطاليا، فور انتهاء الحرب العالمية، باندحار الفاشية.

ويا حبذا لو تنبه لاهميته المشرفون على معهد السينما ، فبادروا بشراء نسخة منه، تتيح لطلبة المعهد مشاهدته ودراسته، بدلا من ساقط الأفلام !! □



أرجوك

فريد قرنى

عسكر بقلبى ورابط فى الهوى بدمى ... واسكن بجسمى من رأسى إلى القدم

واتفذ بحبك فى كلى .. وسُدّ على ... سواك روحى .. وقُد واملك زمام فمى

وأطبع خيالك فى عقلى أعانقه ... فى يقظتى .. وأناجى الرسْم فى الحلم

وحط فوق وجودى .. خاطراً ثملا ... أهيم فيه من الأعماق .. للقمم

واحبس عليك كيانى .. واقتحم خلدى ... لا يبغ غيرك إن أرغب وإن أهم

واصلنى فى انبهار أرتضيه .. فلا ... أميز يوما وجودى فيه من عدمى

وذب بذراتى السكرى .. عصير سنا ... إن يمتزج بجنانى البكر يحتدم

وطف بمهجتى الحرى .. لهيب جوى ... إن يحتضن شوقى المخدور يضطرم

وعنك أو منك لا تبرح مُخيّلتى ... إن ارتحل قيد أنملة وإن أقم

واقبع بأمسى ويومى ماثلاً بغدى ... إن أصح ألقاك أو ألقاك إن أنم

وألق كرمك فوق العمر يغمرنى ... يحلو فيض الخير اشبع به نهمى

وصل وجل فىّ تحنانا يزلزلنى ... ويستلذ صداه المبتغى ألمى

ويستحيل صبابات .. أغيب بها ... ويستطيب شذاها المشتهى سقمى

مستوطنا حدقات العين فى ثقة ... من أن قلبى مضى : عمن سواك عمى

هذى مقاليد وجدانى طواعية ... تلقى المحيا .. بثغر منك مبتسم

وفى خلاياى عش .. عشش بها وأقم ... وشارك العمر نبض القلب واقتسم

أرجوك أرجوك .. لا ترفض رجاى ولا ... تثر إذا لعب الإعجاب بى ندمى

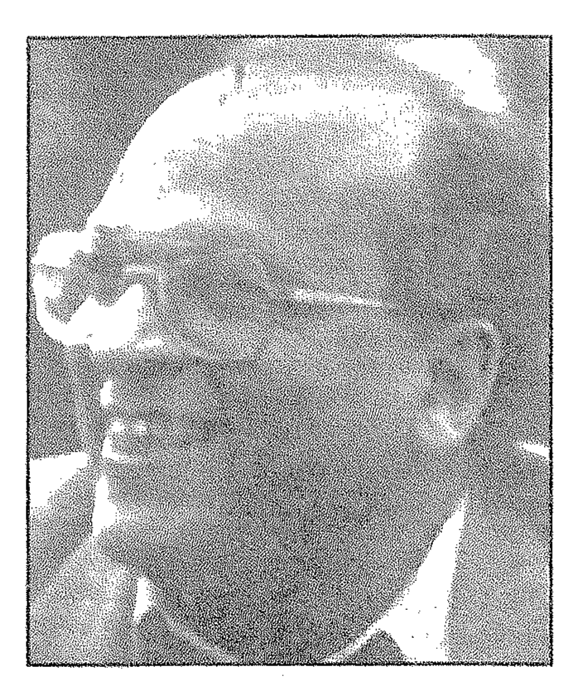
دلائل العمران فى أسفار البنيان :



بقلم : د. ناصر الرباط*

العمارة ، كما ذكَّرنا ڤيكتور هوجو فى رائعته «نوتردام دوپارى» Notre Dame De Paris ، صندوق التاريخ ومرآته وكتاب الإنسانية الأعظم والأسطع تعبيرا والاكثر ديمومة، وقد كانت العمارة فى الماضى، قبل ان تنافسها الطباعة فى القرن الخامس عشر والكمبيوتر والانترنت اليوم، مستودع مشاعر الانسانية الجماعية الاول. تحمل فى نماذجها واشكالها ومواقعها وواجهاتها وفراغاتها وزخارفها اشارات واشارات الى حوادث ووقائع مضت والى عواطف وآلام وآراء وأذواق وافكار وارادات وعقد عظمة او نقص وصراعات ولت ولا يمكننا استكناهها بالآنية نفسها من مصادر اخرى.

* أستاذ العمارة بجامعة (الإم . آي . تى) ببوسطن



ومدينة القاهرة، ولا غرابة، كنز
معمارى وتاريخى شديد الروعة

تمتد آثاره على مدى الالف عام من حياة هذه الحاضرة الاسلامية العظمى، وتومىء شمالا وجنوبا عبر النيل الى آثار أقدم وأعرق؛ آثار الجيزة وسقارة ودهشور ومنف وأون (هليوبوليس)، وأنا واحد من الكثيرين المفتونين بعمارات القاهرة تأملا ودرسا، بل ويخيل الى احيانا ان التواريخ المبثوثة فى تضاعيفها لا تنضب وأن العواطف والافكار والاحاسيس المحفورة على واجهاتها وفى دهاليزها وخلف بواباتها لا تُحصر. ولست وحدى فى انطباعى هذا؛ فقد خلبت هذه المدينة العريقة بحواريها ومآذنها ومساجدها وقصورها ومدارسها وخانقاهاتها وزواياها وأسبلتها لب الكثيرين من أبنائها والوافدين اليها والمارين بها على مر العصور، وكتب الكثير منهم عنها وحاولوا فك ألغاز عماراتها وقراءة تاريخها فى تلك العمارة، بل وتجاوز بعضهم التاريخ وراح ينسج من عمارات القاهرة وفراغاتها ومحيطها العمرانى بأدوات روائية أو شعرية قصصا جديدة، أضافت للعمارة معانى جديدة، لا مادية وخيالية وغامضة وغنية بسحر الإيماء وقوة الرمز.

فالقاهرة مثلا، كما نعرف، وكما أثبت محسن مهدى أخيرا بما لا يدع مجالا للشك، هى مسرح قصص ألف ليلة وليلة وخلفيتها. فيها ساح خيال ناقلى تلك القصص من جعبة التراثات الهندية والفارسية والعربية ومجمعيها عن لسان راويتها المدهشة شهرزاد ومحرريها فى القرنين الثالث عشر و الرابع عشر الميلاديين بشكلها المكتوب، ومن عمارتها وعمرانها استقوا تلك الأوصاف العجائبية المدهشة لقصور «ألف ليلة وليلة» وحاراتها ومدنها . ومن عادات سكانها وطرق معيشتهم وآمالهم وهمومهم نحتوا تلك التفاصيل الإنسانية الدقيقة والبالغة الصراحة التى مازالت تثير فينا تعاطفا مع أبطال القصص الخياليين وفهما لمآزقهم وولعا بمغامراتهم. وقاهرة «ألف ليلة وليلة» هى فى الحقيقة قاهرة الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد، أعظم سلاطين المماليك، الذين حولوا حاضرتهم إلى «أم البلاد، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط الضعيف والقادر، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة

مكانها» على حد قول ابن بطوطة الذى زارها عام ١٣٢٦، مضافا اليها بعض التحوير الذى تستلزمه طبيعة القصص السردية وأجواؤها الخيالية.

ومازالت القاهرة اليوم بعمارتها وعمرانها تستقطب الكتاب والروائيين الذين يجعلون من معالمها وخفاياها اطارا لأحداث قصصهم ومسرحا لحركات ابطالهم. بل ان اكبر روائيي مصر، نجيب محفوظ، استمد منها أرضية احداث غالبية رواياته ونكهاتها المميزة التى تؤرخ بطريقة غير مباشرة للتحولات الثقافية والاجتماعية والسياسية التى مرت بها المدينة وناسها منذ بدايات القرن العشرين وحتى وقتنا الحاضر. ولكني لا اظن ان احدا من الروائيين المحدثين تفاعل مع عمارة القاهرة وبيئتها وتاريخها فى قصصه، بل ربما تماهى معها تماهيا معماريا وتصعديا وتصوفيا، كجمال الغيطانى وهذه العلاقة لا تنحصر فقط بقاهرة اليوم او قاهرة القرن العشرين وإنما هى علاقة لها امتداد فى الزمان ، امتداد يتأرجح بين العصرين المملوكى والعثمانى والعودة الى عصر التأسيس التخيلى ، العصر الفرعونى، حين كانت القاهرة ماتزال فى علم الغيب وحين كانت عواصم مصر تتنقل على ضفاف النيل صعودا وهبوطا من منف الى طيبة الى تل العمارنة فالاسكندرية قبل ان تستقر على الفسطاط فى بداية العهد الاسلامى.

فمنذ كتابه «الزينى بركات» الذى صدر عام ١٩٧١ والذى يعتمد فيه على شخصية حقيقية من القرن الخامس عشر الميلادى، المحتسب المرعب زين الدين بركات بن موسى الذى تولى الحسبة مرارا فى القاهرة أواخر عهد المماليك، ضمن مجموعة اكبر من الشخصيات الأقل شأنا، بعضها تاريخى وبعضها متخيل من ممكن تاريخى كالرحالة البندقى ڤياسكونتى جانتى. التى يستخدمها كشواهد لتمرير نقده لأحوال مصر المملوكية ومنها الى أوضاعها المعاصرة، يبدو انغماس الغيطانى بأجواء المماليك، خاصة قاهرة السلطان قانصوه الغورى، وافتتانه بتاريخها واضحا. ومنذ كتابه المؤسس ذلك استهوته عملية مقاربة التاريخ من خلال كتب المؤرخين المماليك، وبشكل خاص ابن إياس مؤرخ قاهرة نهاية المماليك والفتح العثمانى لمصر فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» واستحضاره فى قصصه اطارا وحوادث وشخصيات وأسلوب سرد وحتى لغة وحوارا ومعاناة، حتى انه يعمد لخلط سرده الروائى بمقتبسات من نص ابن إياس ربما كإثبات لاعتباره تلك النصوص التاريخية جزءاً من تراثه الروائى، كما صرح أكثر من مرة، أو كدليل على تحايثه مع التاريخ الذى تؤطره تلك النصوص.

وتابع الغيطانى تجربته تلك وعمقها فى كتاباته اللاحقة، فنراه مثلاً يتقمص دور تقى الدين المقريزى، مؤرخ القاهرة الأعظم فى العصر المملوكى، وعنوان كتابه

«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» فى مجموعته الصغيرة «خطط الغيطانى» (١٩٨٠) التى يمكن رؤيتها كاستكمال معنوى لتأريخ عمران القاهرة الذى بدأه المقريزى فى محاولة منه لحفظ ذكرى العصر الذهبى الذى ولى برأيه، وتبعه فى ذلك على مبارك في خططه التوفيقية الجديدة فى منتصف القرن التاسع عشر. ولكن خطط الغيطانى تؤرخ لقاهرة معاصرة بأسلوب فرادنى، غير سردى أساساً، يتمحور حول علاقة الغيطانى نفسه الحميمة والخاصة بأجزاء محددة من القاهرة الشعبية المعاصرة، كالجمالية وسيدنا الحسين، وحول رؤيته السياسية النقدية لتغير ملامح المدينة وطبوغرافيتها بتغير رموز وأشكال السلطة فيها وتطور وسائل قمعها وسيطرتها على الرأى العام. ونراه أيضاً خلال مشواره الإبداعى يخرج من قالب الروائى مرات ليمتشق حسام المؤرخ المحب لمدينته ويكتب عنها كتباً صغيرة هى بين الدراسة والحكاية التاريخية والانطباعات مثل «ملامح القاهرة فى ألف عام» (١٩٨٣) و«أسبلة القاهرة» (١٩٨٤) وإعادة تحقيقه لمقامات بديع الزمان الهمذانى (١٩٨٨).

ثم خطا تماهى الغيطانى مع عمارة القاهرة خطوة نوعية جديدة فى أقصوصته الرائعة «رسالة فى الصبابة والوجد» عندما تقمص عن طريق بطله - الذى لعله هو نفسه - شخصية معمارى موله بالقاهرة القديمة، مفتون بمدارسها وجوامعها، ومأخوذ بدروبها وسككها. يرمم معالمها ترميم المحب والابن، وينوب كيانه فيها. بل ويشخصها ويسميها تكرارا «قاهرتى» واحيانا «قاهرتى الحانية» التى تفتح له ذراعيها، وتزيل عنه همه بعد عودته خائبا من وسط آسيا إثر مغامرة عاطفية خاطفة وعميقة هزت كيانه مع معمارية روسية اسمها ڤاليريا. هذا البطل ليس فقط معماريا محبا لمهنته. او ضالعا فيها، بل هو انسان رقيق الاحساس مرهفه، شديد الكآبة والوجد، يجد توازنه المعنوى والحسى فقط فى حضرة مبانى القاهرة المملوكية الرائعة: قبة قلاوون، مسجد السلطان حسن ، وخانقاه برقوق فى الصحراء، وحتى عندما كان بعيدا عن مبانيه القاهرية فى زيارته لاوزبكستان يسعى للتواصل مع ساحرته الروسية وكان كل تفكيره مأخوذا بها، بحضورها ، بذكراها، بإيماءاتها، وبنظراتها، لم يغب عنه مطلقا ان يسجل نشوته بالعمارة التيمورية فى سمرقند وبخارى وأن يقارب بين مساجدهما ومعالمهما ومساجد قاهرته ومعالمها.

وفى نهاية سعيه الخائب للتواصل مع ڤاليريا، عندما اسقط فى يد صاحبنا المعمار وايقن قرب الفراق، قرر ان يبث لصاحبه لوعته فى كتابه. وهنا نراه يستشهد ببيت من الشعر «بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع» يذكرنا بمقولة ڤيكتور هوجو عن ديمومة العمارة، أو المصانع، حين تفنى

الذكريات وأصحابها، وكأنما هذه اللمحة المعمارية فى قمة اندلاع العاطفة لا تكفى، فنحن نجد صاحبنا يستطرد مباشرة مصرحا بأنه سينقش هذا القول على واجهة معمار نابع من صميمه بعدما استوت حبيبته فى لبه: تأكيد على تأكيد: المبنى الذى يحلم به صاحبنا لتثبيت اللحظة التى انفلتت منه عندما خاب سعيه فى التواصل مع الحبيبة يعبر بالحجر وبالخط فى آن واحد عن قدرته على البقاء ومواصلة إضفاء المعنى بعد زوال المسبب الاول اى المعمار نفسه ونسيان قصة حبه البائس. هنا يتصعد الغيطانى من تقريرية هوجو عن معنى العمارة الى مأساوية فلسفية قدرية تنتظمه فى سلك واحد مع مجموعة من اعظم شعراء العربية، كالبحترى والمتنبى، الذين تجاوزوا المفهوم الضيق للبكاء على الاطلال لولوج حيز تأملى فى المغزى الرئيسى للأوابد التى مازلنا ندهش لرؤيتها اليوم: الرسالة أصمد فى وجه الدهر من المرسل، خاصة تلك التى قدت من حجر. ولكن الغيطانى يجمع بين التفكر والفعل، فهو لا يدع مبناه يعبر عن تلك الرسالة ضمنيا وانما ينطقه بها عن طريق نقشها على واجهته، وكأنما خاف الروائى اللاعب بالكلمات - الغيطانى - فى آخر لحظة من ان تكون الرسالة بالشكل وبالمعمار غير كافية فأراد ان يدعمها بالرسالة المكتوبة التى تضعها الثقافة العربية عموما على رأس القائمة التعبيرية قبل العمارة والفن والرقص وعلى حسابهم احيانا.

ولكن تلك كانت لحظة تردد وحيدة وواحدة لم تؤثر كثيرا على توجه الغيطانى الواضح والدؤوب الذى ثبت عبره تماهيه مع شخصية المعمار المتعلق بتراثه المعمارى والثقافى كله. فبعد ذلك المنعطف التكوينى والسردى العميق والقوى التأثير، الذى أنتج لنا بالاضافة الى «رسالة فى الصبابة والوجد» السيرة الذاتية التخيلية الممتعة «كتاب التجليات» (١٩٨٣ - ١٩٨٧)، نجد الغيطانى يحلق الى مستوى اعلى عندما يتماهى مع العمارة نفسها وأحيانا مع عناصرها المكونة، محولا اياها الى أدوات تعبيرية عن فلسفته الوجودية التى طورها بشكل حثيث من خلال تواصله مع الكتابات التصوفية الاشراقية القروسطية، وبخاصة فلسفة ابن عربى وأتباعه، وتجاربه فى إعادة صياغتها روائيا وتعبيريا. وهنا يأتى كتابه الجديد - «سفر البنيان» (روايات الهلال، سبتمبر ١٩٩٧) كخلاصة مركزة لتجارب متتابعة غرسها فى معظم كتبه التى نشرها فى الثمانينات وبدايات التسعينات ، يستلهم فيها من العمارة الكثير ويحملها من المعانى ما يتجاوز المباشر والصريح الى «بث لرسائل خفية يصعب التصريح بمضامينها لصعوبة العوامل المدبرة للوقت».

سفر البنيان سلسلة حكايات أبطالها أبنية وبناؤون ولحظات حاسمة فى تاريخ مصر العمرانى أو تاريخ الغيطانى الذاتى (هل يمكننا هنا أن نلمس تماهيا أوسع مع تاريخ البلد ككل؟)، تتخللها ومضات قصيرة يشرح فيها الغيطانى مصطلحات معمارية بتعبير رمزى ونفس صوفى يرى الشىء وانعكاسه ويفتش عن المعنى ونقيضه، الأبنية أغلبها من مصر تمتد من العصر الفرعونى إلى بداية القرن العشرين، عدا مسجد عقبة بن نافع فى القيروان والمستشفى الأمريكى فى كليفلاند حيث خضع الغيطانى لجراحة دقيقة فى القلب يبدو أنها أثرت فى نفسيته وفى نظرته للوجود والعدم. والمصطلحات المعمارية مثل باب، فناء، قبو، درج ، وموقد عناصر مجردة ولكنها مستقاة من صميم العمارة الإنسانية التقليدية الذى سرح الغيطانى فى محيطها عندما كان طفلا فى قريته جهينة فى الصعيد واختار الالتصاق بها فى يفاعته وشبابه وكهولته من خلال تمسكه بقضاء جل وقته فى الجمالية فى القاهرة القديمة. وبالتالى فاللحمة بين العناصر السردية فى الكتاب ميتا ـ فراغية، والهندسة الروائية تتواقع مع التخطيطات والمعانى المعمارية التى تتمحور حولها مقاطع الكتاب. والانسياب الزمانى الذى يؤطره ويمنحه اتجاها يتبع تطور العمارة نفسها وإن اخترقته فجأة التجربة الشخصية فى امريكا التى قلبت المعايير التاريخية، وكشفت من الطابع الذاتى والعميق للكتاب كله، ولعلها كذلك ربطته اكثر بالأسلوب الحميمى الذى طوره الغيطانى فى كتاباته كلها حيث يشعر القارىء كأنه جالس بمواجهة الكاتب الذى يخاطبه فى امور جد شخصية وخاصة بقدر كبير من الألفة ورفع الكلفة.

ولكن ليست كل الحكايات على نفس الدرجة من الحميمية، وليست كلها معمارية أو عمرانية الروح، بل ان تجربته فى المستشفى نفسها تظهر وكأن العمارة أقحمت فيها إقحاما للمحافظة على التوجه العام للكتاب، خاصة عندما يتذكر مئذنة قايتباى عبر رؤيته الضبابية لشكل مسجد للسود فى كليفلاند. ولعل ذلك عائد الى ابتعاد الغيطانى هنا عن مناخاته المعهودة، وربما علينا ايضا ان نأخذ فى الاعتبار طبيعة التجربة الجراحية المؤلمة التى زعزعت كيانه اساسا. فما ان نعود مع الغيطانى الى قاهرته ـ أو مصره ـ حتى نلاحظ عودة التوائم التام بين الحميمية والروح المعمارية التاريخية فى حكاياته. فقصة الهودج مثلا، التى استقاها الغيطانى من الواقعة التاريخية الحقيقية التى يوردها المقريزى عن الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله (حكم ١٠٩٤ ـ ١١٠١) وتدنفه فى حب بدوية بنى لأجلها قصر الهودج فى جزيرة الروضة وما سلت عن حب ابن عمها ابن مياح ، تمثل موضوعا

(topos) ذائعا فى التراث العربى يعود الى قصة معاوية مع زوجته الكلبية وقصة عروة بن حزام العذرى وحبيبته عزة، ويأتى الغيطانى هنا ليجعل قصر الهودج فى المركز من العلاقة المتشعبة الاطراف بين الخليفة والبدويه وابن عمها وشاد العمائر، وليستعمل تلك المركزية القصصية المكتسبة للعمارة ليطرح عبرها صعوبة قهر العاطفة بالبذخ واستحالة كسب الود بالاغداق ان لم يكن له اصلا بذرة فى القلب، ويتركنا الغيطانى قبل نهاية الواقعة كما اوردها المقريزى فلا يخبرنا بمصير الهودج الذى تهدم بعد مقتل الآمر بقليل وعفت آثاره كأنه لم يكن على حين ذاع صيت البدوية، وابن مياح حتى صارت رواياتهما فى هذا الشأن كأحاديث الف ليلة وليلة كما ذكر المقريزى. ولعل الغيطانى اضرب عن ذكر هذه التفصيلة المهمة بسابق إصرار حفاظا منه على مكانة العمارة التى أسسها كحامل طويل النفس للمعنى، فلن يتركها هنا تخبو او تفقد تفوقها أمام الاخبار المتناقلة شفاها، مع ان الواقع التاريخى يؤكد عكس ذلك.

ويصل تموضع سرد الغيطانى حول العمارة ذروته فى الحكايات الفرعونية وفى اقصوصتى النزل والبربا، التى يتجاوز فيها مجال العمارة الواحدة ليحتوى على مداها العمرانى ، مدينة كانت ام قرية ام قطرا بحاله، ومداها الزمانى من لحظة بزوغها كفكرة فى رأس مصممها الى اكتمال وجودها كعمارة ذات اساس الى زوالها المادى ورسوخها فى ذاكرة الناس كحلم او ككابوس. فى هذه المقطوعات القصصية، تستدعى العمارة بوجودها او بذكراها بعد زوالها الى قلم الكاتب (أو بديله القصصى) مشاعر جياشة وتأملات عميقة فى معانى الحياة الانسانية كلها، وخاصة فى محدودية الادراك والعلم والوجود وفى التتالى الازلى للوجود والفناء، ويطالعنا فى هذه المشاعر بعض من عبق اقصوصة رائعة للروائى الايطالى الراحل «ايتالو كالڤينو» عنوانها «المدن اللامرئية» استعمل فيها كالڤينو وصفا ميتا ـ معماريا لمدن خيالية كإطار لتمرير نظراته الانطباعية عن التاريخ والذات وعن استحالة فصل المرئى الخارجى عن المحسوس الذاتى الداخلى من خلال حديث ذى شجون بين ماركو پولو، الرحالة البندقى الداهية، وقبلاى خان، خان المغول الاعظم، الذى يجهد فى نهاية عهده وقرب افول يومه للحفاظ على سيطرته على امبراطوريته الشاسعة المتفلتة عن طريق استرجاع ذكرى مدنها فى خياله.

ولكن العمارة فى سفر البنيان تجاوزت المواقع الروائية على تنوعها والشطحات الفلسفية الاشراقية على غناها وتغلغت فى معاناة الغيطانى

الكتابية كمحرض لذلك السؤال الازلى الذى تعاطاه كل من كتب او غنى او رسم او نحت او بنى او فكر او احس فقط: كيف ننتج ونبث ونتلقى المعنى؟ هنا ينسج الغيطانى من اهتماماته الكتابية والمعمارية معا تفسيرا نظريا وابداعيا لتوالد المعانى من الاشكال وينهى كتابه بمناقشة مصطلح «كتابة» وان كان قطعا يقصد بها اكثر من خط الحروف على الورق.

فى هذه الخاتمة الشديدة الوعى بمنطقيتها بالرغم من تسترها خلف حجاب الكلام التصوفي المبهم، يتجاوز الغيطانى الثنائية التضادية القهرية التى وجدت العمارة والكتابة نفسيهما فيها بعد حكم ڤيكتور هوجو بأن سهولة انتشار الثانية ستقتل دور الاولى فى حمل المعنى (التى لخصتها عبارته الشهيرة فى «نوتر دام دوپارى (Ceci tuera cela) ويخلق احادية تتوالد فيها الكتابة من العمارة بالمعنى المجرد والشامل. فكما اكتشف الانسان ان لكل عنصر، طبيعيا كان ام انسانيا، مأوى او مقراً، يعنى عمارة على حد قول الغيطاني. فهو قد توصل بعد زمن الى ان المعاني والاشارات بحاجة ايضا الى بناء أو إلى مثوى . ومن هذه البديهية المنطقية، يستنتج الغيطانى ان الحروف واتصالها ككلمات هى مفردات عمارة المعنى وأنها فى بداية ظهورها كانت شديدة الالتصاق بالعمارة المادية نفسها: منقوشة على جدرانها وحول اطارات بواباتها لتقتبس لنفسها منها الاحساس بالدوام والاستمرار. ثم انفكت عنها بالتدوين وباختراع وسائل اسهل لنقلها وانتشارها وان حافظت على خصائصها المعمارية الاولى من تصميم وتركيب وتوالج وترتيب.

وتأتى آخر أفكار الغيطانى لترفع درجة التقاطع بين العمارة والكتابة الى مستوى اعلى من تداخلهما التاريخى: كلتاهما ظاهرة ومعناها غائب وطريق الوصول اليها هو قراءة او استنباط دلالتها. ولعل الغيطانى هنا يقترح علاقة اقرب الى التماهى الانطولوجي الذى قاربه بعض السيميوطيقيين (وبشكل خاص امبرتو ايكو) فى نظرياتهم عن الدال والمدلول والدلالة او الإشارة. ولكن الغيطانى لا يتركنا مع اللحظة النظرية ، فهو مازال فى النهاية قاصا ومحاورا حميميا ، فها نحن نجده يعطف بنا فى الصفحة الاخيرة عودة الى حالته الصحية الشخصية ويذكرنا بقلبه الواهن. وهنا يصل اعلى درجاته التعبيرية الاشراقية اذ انه يدغم نبض قلبه بكتابته، فكلاهما دليل حياة وكلاهما عمارة، ونحن بانتظار المزيد مما يعدنا به الغيطانى من مداومة الكشف عن عمارات ودلالات حكاياته التى لمح اليها والتى حجبها ، راجين لقلبه دوام الخفقان.

إذا رفرفت فراشة بجناحيها في بكين قامت عاصفة في «نيويورك»

بقلم : على يوسف على

هل صحيح أن رفرفة فراشة بجناحيها فى بكين يمكن أن يتسبب فى عاصفة هوجاء بعد عدة أسابيع فى نيويورك ؟ هذا ما يقوله علماء الهيولية chaos مطلقين على هذه الظاهرة «تأثير الفراشة» butterflyâ†Effectفما قصة هذه الفراشة التى فجرت الثورة العلمية الثالثة للقرن العشرين ؟.

جلس إدوارد لورنز Edward† Lorenzعالم الطبيعة الجوية في معهد ماساشوستس التكنولوجي يحدق فى مخرجات حاسوبه بشعور امتزجت فيه الدهشة بالإحباط ، وهو يرى حلمه الذى داعب خياله لشهور طويلة ينهار. لقد دخل مجال التنبؤ بالطقس خلال الحرب العالمية الثانية بميزة على أقرانه ، هى تمكنه من الرياضيات التى تخصص فيها قبل الحرب . وكانت تربطه صلة صداقة بجون فون نيومان john von Neuman الأب الروحى للحاسوب كما نعرفه اليوم . وإحساسا بالقدرات الواعدة لهذا الكشف الجديد اجتمع العالمان على أمل أن يحققا طفرة فى التنبؤ بالطقس على غرار تنبؤ الفلكيين بحركات الأجرام السماوية لسنوات طويلة تالية . وليس مستبعدا أن يكون ذلك خطوة فى التحكم فى الطقس برياحه وأمطاره ، وتسخيره لخدمة البشرية .

ونشط لورنز لتحقيق هذا الأمل ، مستغلا تمكنه الرياضى فى الوصول إلى نموذج الطقس على أساس من اثنتى عشرة معادلة ، رأى أن يبسطها فى ثلاث معادلات كخطوة

مبدئية . وسارت الأمور سيرا حسنا ، وهو يرى مخرجات حاسوبه على هيئة أشكال بيانية تمثل الرياح فى حنوها وغضبها ، ودرجة الحرارة فى ارتفاعها وهبوطها ، وغير ذلك من ظواهر مناخية تتغير طبقا لتلاعبه فى معاملات معادلاته .

إلى أن كان ذلك اليوم من عام ١٩٤٨ ، لقد عَنَّ له فيه أن يكرر تجربة سابقة ، فأعاد إدخال بياناتها ، وجلس فى هدوء منتظرا النتائج ، فلم تكن الحاسبات فى عصره فى نفس عجلة حاسبات أيامنا هذه ، ولم يندهش حين رأى المخرجات على غير ما كانت فى المرة السابقة ، فالخطأ البشرى من جانبه فى إدخال البيانات أمر وارد ، وحدوث خلل فى حاسوبه كان فى تلك الأيام الخوالى من عصر الحاسوب أمرا أكثر ورودا . ولكن دهشته البالغة كانت حين لم يكن أى الاحتمالين هو السبب ، بل مجرد عناد من الحاسوب ألا يكرر مخرجاته ، رغم تطابق المدخلات . ومهما كانت أسباب هذه التصرف الشاذ من الحاسوب ، فإن مضمونه كان جليا ، لقد ذهب الحلم الذى جمع بين العالمين أدراج الرياح.

وعندما طابق لورنز بين مخرجين من المخرجات ، شاهد ما أكد له هذا الظن . نعم ، لقد تطابقت المخرجات فى الدورات القلائل الأولى ، إلا أن اختلافا لا تلحظه العين بدا فى الأفق ، أخذ يتفاقم مع كل دورة تالية إلى أن ضاع التشابه تماما بين المخرجين.

لقد كان الحاسوب المستخدم يخزن الأرقام بدقة خمسة عشر رقما عشريا ، وكان لورنز يدخل بياناته بدرجة دقة لستة أرقام عشرية ، عالما أن الحاسوب سوف يملأ بقية الخانات بأرقام عشوائية ، دون أن يعير الأمر اهتماما . إن درجة الدقة التى يدخل بها بياناته تمثل ترفا عاليا ، فأين ذلك الجهاز الذى يقيس درجة حرارة أو نسبة رطوبة بدقة جزء من الألف ،وليس من المليون كما يدخل بياناته ؟ وهل يمكن لخطأ فى الكسر العشرى السابع – لا يمثل بالنسبة لعوامل الطقس إلا رفرفة جناحى فراشة – أن يكون له هذا الأثر الجسيم ؟.

وقدح لورنز زناد فكره بحثا عن سبب هذه الظاهرة ، وما أن وصل للحل ، حتى كتب له أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه ، كأب روحى لعلم هز العالم بعد سنوات قلائل ، ألا وهو علم الهيولية الذى تحدثنا عنه فى العدد الماضى .

لقد لاحظ أن معادلاته الثلاث تحمل خصيصة تتميز بها ، وهى أن المخرجات كما تكون نتيجة للمدخلات فتتأثر بها ، تعود مرة أخرى لتؤثر فيها . فدرجة الحرارة مثلا تتأثر بالرطوبة ، ولكنها تؤثر فيها أيضا . إن هذه العلاقة المتشابكة بين المخرجات والمدخلات أمر ليس بالجديد ، فهو يعرف عند علماء التحكم باسم «التغذية الخلفية Feedback» ، وهى فى حدود معينة ذات تأثير حسن على نظم التحكم ، إذ تؤدى

لاستقرارها . على أنه حين يزيد معامل التقارن بين العوامل المؤثرة والمتأثرة عن ذلك الحد يختل النظام ، فيبدو النظام وقد استحال إلى العشوائية.

ولكنها العشوائية الظاهرية التى أشرنا إليها فى المقال السابق ،والتى اتضح أنها حالة الهيولية . وهكذا وجد لورنز نفسه وقد توصل لنمذجة نظام يجمع بين الانضباط وبين العشوائية ، يخرج عن أى تنبؤ ، ناهيك عن تحكم . لقد اكتشف فى الواقع لغة الطبيعة !.

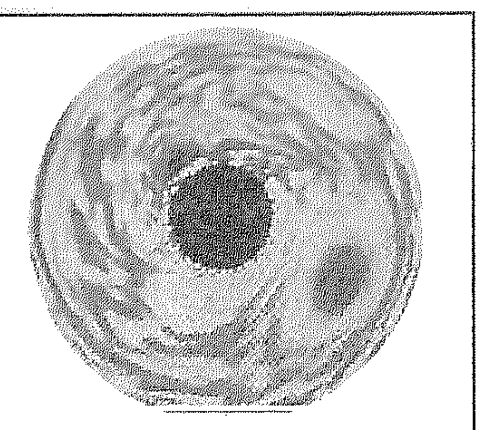
اللاخطية

من زاوية أخرى ، فإن هذه التغذية الخلفية تعطى المعادلات صفة أخرى يعرفها العلماء ، وهى «اللاخطية nonlinearity ». إن النظم اللاخطية تفزع العلماء على مر القرون ، إذ ليس تحت أيديهم من الوسائل لمواجهتها . ولكن لورنز – دون قصد منه – نجح فى نمذجة نظام لها ، ليكون ذلك فتحا علميا جاء على غير توقع . لقد بنى أول لبنة فى علم ينتمى حاليا للرياضيات البحتة ، يعرف رسميا باسم النظم الديناميكية اللاخطية non -linear dynamics والذى اشتهر على سبيل التبسيط باسم «علم الهيولية». (١) وهى نظم تتميز بالحساسية المرهفة للتغير فى العوامل الأولية ، وهى الخصيصة التى أطلق عليها لورنز تندرا «تأثير الفراشة» .

وليس من الضرورى أن يكون النظام معقدا لينتج حالة العشوائية ، فمعادلة واحدة كفيلة بذلك . هذا ما وجه إليه روبرت ماى Robert May – العالم الذى جمع بين الرياضيات والبيولوجيا كما جمع لورنز بين علمى الطبيعة الجوية والرياضيات – نشاطه . وكانت المعادلة التى انبرى لها تعرف باسم «معادلة الفروق اللوجستية logestic dif-ferance equation يمكن استغلالها لتمثيل انتشار فيروس فى بيئة معينة بين الكائنات (أو حتى بين أقراص الحاسوب) . لقد اكتشف بالفعل كيف يتحول النظام من الانضباط إلى الهيولية ، فتتفجر الحالات الوبائية ثم تنحسر دون سبب ظاهر . ففى حالة مواجهة وباء مثلا ، قد تتعجب لو قيل لك إن نجاح الحملة فى تحجيم انتشار الوباء تتسبب بصورة غير مباشرة فى ازدياد فرصة الفيروس فى الانتشار. فزيادة عدد الأصحاء الخالين من المرض تعنى بالنسبة للفيروس اتساع مجال انتشاره . بهذه الصورة تتداخل العوامل الإيجابية والسلبية فى الحالات الهيولية .

فإذا ما خططت دولة لحملة تطعيم لمواجهة وباء ما ، ثم فوجىء منظموها بانتشار المرض رغم مجهوداتهم ، فإن الأمر الطبيعى أن يظنون بأنفسهم الفشل ، وقد يرجعون

ذلك لعدم فعالية الأمصال المستخدمة ، وعذرهم فى ذلك أنهم غير مدركين أن للمسألة وجها آخر ، فقد يكون انتشار الوباء رغم الحملة الناجحة أمرا طبيعيا حكمت به الصفة الهيولية لعملية انتشار الوباء ، تحتاج لتحليل متخصص فى الظواهر الهيولية ،يضع أمام الأطباء نظرة أرحب فى تقييم نتائج مثل هذه الحملات .



البقعة الحمراء للمشتري

لقد أنقذ التحليل الهيولى بالفعل حملة تطعيم ضد مرض الحصبة فى بريطانيا ، أجريت فى السبعينات ، بعد أن ظن منظموها بها الفشل ، وبين لهم المحللون الرياضيون أن ازدياد الوباء هو أمر وقتى بسبيله للانحسار لو ظلوا على خطتهم، وهو مثال نضربه على أثر علم الهيولية فى إثراء نظرة العلماء إلى الطبيعة .

وكان لعلماء الفلك نصيب أن يكشف لهم علم الهيولية عن حل للغز استعصى عليهم قرونا طويلة ، يعرف بالبقعة الحمراء للمشترى . لقد ضرب العلماء أخماسا فى أسداس منذ أن رصد جاليليو بقعة حمراء فى موضع ما من المشترى ، لا تتزحزح عن موضعها ، وإن كانت تتأرجح حواليه تأرجحا طفيفا . وتباينت الآراء ، بين كونها بركانا ثائرا ، أو عاصفة لا تهدأ إلى عشرات من الآراء المتضاربة . وقد توقع العلماء عند إطلاق مركبة فوياجير أن يجدوا فيما تبثه من صور للكوكب حلا لذاك اللغز . ولكن أملهم ذهب أدراج الرياح ، فما حملته الصور من بيانات لم تفعل أكثر من زيادة اللغز غموضا .

وبعد أن وقف علم الهيولية على قدميه، انبرى علماء له لشرح اللغز ، فهو ببساطة حالة هيولية انتابت هذا الموضع بالذات لوفرة ما فيه من غازات وموقعه بالنسبة لحركة دوران الكوكب .

ومنذ ظهرت معادلات لورنز البريئة فى بساطتها حتى طبقت شهرتها الآفاق ، فانبرى من كل مجال رواد يطبقون فكرتها على تخصصهم ، كما رأينا فى علمى البيولوجيا والفلك ، ويا له من فتح علمى تحقق على أنقاض أمل ضائع .

---

(١) ينسب اقتراح هذا الاسم إلي العالم جيمس يورك من جامعة ماريلاند ، والذي خاض أبحاث الهيولية من وجهة نظر تكاثر الكائنات .



بنت الشاطىء

راهبة فى محراب أبى العلاء

بقلم :
د. ماهر شفيق فريد

ما أكثر ما كتب عن الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) عقب وفاتها ، على صفحات «الأهرام» وغيره ! وما أصعب أن يضيف المرء إلى هذا الذى قيل شيئا جديدا ! لكن تعدد جوانب إنتاجها العلمى والابداعى يجيز لى أن أدلى بدلوى فى بئرها الثر العميق ، وقد كنت من مريدى زوجها الأستاذ أمين الخولى ، أتردد على دارتهما بشارع العجم (أصبح اسمه الآن شارع أمين الخولى) بمصر الجديدة منذ عام ١٩٦١ ، وكتبت ذات مرة مقالة ساخرة عن كتابها «الشاعرة العربية المعاصرة» قدمتها للأستاذ الخولى كى ينشرها فى مجلته «الأدب» - ثقة منى برحابة صدره وسعة أفقه - ولكنه بعد أن أعمل فى المقالة قلمه بالحذف والتخفيف أعادها إلىّ وقد عدل عن نشرها . وأحسبه الآن - إذ أجيل النظر فى تلك المقالة غير المنشورة - كان على حق ، إذ كان فيها الكثير من جموح القلم واندفاع الشباب !

سأقتصر على جانب واحد من جوانب بنت الشاطئ هو جانب الدارسة المشتغلة بتوثيق المخطوطات وتحقيق النصوص . لقد حققت «مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث» و«محاسن الاصطلاح» للسراج البلقينى و«معجم المحكم» لابن سيده الأندلسى ، ولكن أخلد أعمالها فى هذا الباب هو - ولا ريب - تحقيقها لـ «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى ، أنفس أثر نثرى فى التراث العربى ، مع نص محقق من رسالة ابن القارح .

وينبغى قراءة نص الرسالة مع كتاب بنت الشاطئ «الغفران : دراسة نقدية» وهو أطروحتها للدكتوراه التى نوقشت بكلية آداب القاهرة فى الخامس من أبريل سنة ١٩٥٠ فنالت بها الباحثة الشابة درجة الدكتوراه فى الآداب بتقدير ممتاز . والرسالة عمل جليل ينم على علم أصيل وجهد سخى بازل (إذا كان لى أن أستعير بعض مفرداتها الأثيرة) وتعمق فى البحث ، وهى خير تتمة لثلاثية طه حسين العظيمة : تجديد ذكرى أبى العلاء ، مع أبى العلاء فى سجنه ، صوت أبى العلاء .

يمكن تقسيم «رسالة الغفران» - كما تقول بنت الشاطئ - إلى قسمين : ففى

يشير أبو العلاء إلى ورود رسالة من ابن القارح إليه ، ويذكر ما أعد لابن القارح من ثواب على تمجيده الله فى رسالته ، ويصف شجر الجنة وأنهارها وكؤوسها وأباريقها وخمرها وعسلها ، ويذكر بيتين للشاعر النمر بن تولب يذكر فيهما العسل المصفى، وحكاية للنحوى البصرى خلف الأحمر عن القافية فى الشعر . ويفرع أبو العلاء على هذه الحكاية ثم يعود إلى الحديث عن عسل الجنة وأسماكها .

ابن القارح فى جنة الغفران

وفى جنة الغفران يلتقى ابن القارح بندامى الفردوس : المبرد وابن دريد ويونس بن حبيب الضبى والأخفش الأوسط وثعلب وسيبويه والكسائى وأبو عبيدة والاصمعى ، ويتنزه ابن القارح فى الفردوس سائلا عن شعراء الجنة ، وبم غفر لهم ؟ وهناك يجد الأعشى وزهير بن أبى سلمى وعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد الذى يخرج مع ابن القارح فى رحلة صيد بالجنة ، ويصف وحوش الجنة ، وأبا ذؤيب الهذلى وناقته ، والنابغتين : الجعدى والذبيانى وقصريهما فى الجنة ، ومجلس منادمة وأدب ، وقيان مغنيات من أوز الجنة ، ولبيد بن ربيعة ، وغناء القيان من أوز الجنة بميمية الشاعر المخبل السعدى، ومنافرة بين الأعشى والجعدى ، وشجارا فى الجنة ، وحسانا بن ثابت الذى يمر بالمجلس فيدعى إليه . ثم يفترق المجلس ويلتقى ابن القارح بعوران قيس : الشماخ والباهلى وتميم بن أبى بن مقبل وقد أصبحوا من أحسن الناس عيونا .

ويعجب تميم إذ بقى على ابن القارح حفظه للأدب وقد شهد أهوال القيامة .

ويروى ابن القارح قصة الحشر وما كان من شفاعة أهل البيت له كى يراح من هول الموقف . وينشب عراك أدبى فى الحشر بين أبى على الفارسى وعدد من الشعراء فيما روى من شعرهم . ونعود إلى عوران قيس : النميرى وحميد بن ثور الهذلى . ويدعو لبيد ابن القارح ورفاقه إلى منزله فى حى القيسية بالجنة ، ويولم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وأدباء وعلماء ، ونرى طواحين من در وعسجد تديرها الحور العين وأصناف اللحوم يأتى بها الولدان المخلدون وطهاة المأدبة والأشربة والسقاة والمغنين : الغريض ومعبد وابن مسجع وابن سريج والموصليان ، والمغنيات : بصبص ودنانير وعنان والجرادتان . وتغنى الجرادتان بحائية عبيد (أوأوس) بينما تغنى قينة أخرى بفائية الشاعر جران العود ، وترقص الحور على أبيات منسوبة إلى الخليل بن أحمد ، ويدور حوار لغوى على موائد الطعام فى المأدبة ويخلو ابن القارح - بعد انفضاض المجلس - بحوريتين من حور الجنة فتتذكران له أنهما حمدونة الحلبية وتوفيق

السوداء . كانت أولاهما من آقبح نساء حلب طلقها زوجها لرائحة كرهها فى فيها فأصبحت من أجمل النساء ، وكانت الثانية سوداء فأصبحت أنصع من الكافور. ويزهد ابن القارح فيهما ويسأل أحد الملائكة عن حور عين لم يكن فى الدار الفانية ، ويصف شجر الحور .

وفى أطراف الجنة جنة العفاريت المؤمنين حيث نسمع طرفا من شعر الجن ، وأحدهم أبو هدرش الخيثعور يروى مغامراته قبل أن يتوب ثم ينشد قصيدتين من شعره ، والحطيئة الهجاء فى كوخ حقير بأقصى الجنة ، والخنساء فى طرف الجنة تشهد أخاها صخرا والنار تضطرم فى رأسه .

جانب من جحيم الغفران

ننتقل بعد ذلك إلى جحيم الغفران فنجد إبليس يسأل ابن القارح عما يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين . ويلقى ابن القارح شعراء النار ويناقشهم فى بعض المسائل اللغوية والقضايا الأدبية . وهؤلاء الشعراء هم : بشار بن برد وامرق القيس وعنترة العبسى وعلقمة بن عبدة الفحل وعمرو بن كلثوم والحارث اليشكرى وطرفة بن العبد وأوس بن حجر وأبو كبير الهذلى وصخر الغى والأخطل التغلبى ومهلهل التغلبى : عدى بن ربيعة والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر والشنفرى الأزدى وتأبط شرا .

ثم نعود إلى الجنة فيلتقى ابن القارح فى الطريق بآدم ويسأله عن شعر منسوب إليه . ويصف روضة الحيات · حيث حية فقيهة عالمة تتحدث فى قراءات القرآن الكريم وتغرى ابن القارح بالبقاء معها فيذعر منها ويمضى مهرولا . وهناك خيمة للرجز نجد فيها : أغلب بنى عجل والعجاج ورؤبة وأبا النجم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس وآبا مخيلة . وينشب شجار بين ابن القارح ورؤبة ثم تنتهى الرحلة ويقبل ابن القارح على نعيم الفردوس .

الرد على رسالة ابن القارح

بهذا ينتهى القسم الأول من رسالة الغفران ، كما لخصته بنت الشاطئ . أما القسم الثانى فيتضمن الرد على رسالة ابن القارح . وفيه – كما تقول المحققة – يرد أبو العلاء على قول ابن القارح : «جعلنى الله فداء مولاى الشيخ» ويعجب لانفراد ابن القارح بالوفاء والعالم مجبول على الخديعة والنفاق ، ويتبرأ مما يقال عن علمه وفضله ، ويقسم أنه مكذوب عليه ، ويعبر عن اغتباطه بورود ابن القارح حلب وفرحتها به . ويذكر أبو العلاء انه هم بالانتحار ثم رهب قدومه على الجبار ، ويعزى ابن القارح عمن فقد من الاصدقاء عندما رجع إلى حلب . ويستغفر آبو العلاء للذين غلوا فى مدحه ، ويأسف لفقد الرسالة التى بعث بها الزهرجى إليه مع ابن القارح فسرقها عديل له . ثم يتحدث أبو العلاء عن تشاكى الأدباء وحرفة الأدب وهمومها وحساد ابن القارح .

يلى ذلك حديث عن الزندقة والزنادقة :

فيرد أبو العلاء على ما أخذه ابن القارح على قول المتنبى «أذم إلى هذا الزمان أهيله» ويفسر ولع المتنبى بالتصغير حتى ليقول «أهيله» بدلا من «أهله» ، ويقول إن نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان ، ويتحدث عن دعبل وأبى نواس ، ذاكرا أن الإلحاد قديم فى بنى أدم ، وعن سادات قريش والزندقة ، ويعود إلى أبى الطيب المتنبى وادعائه النبوة ، ويشير إلى الكتاب الذى ذكر ابن القارح أن القطربلى وابن أبى الأزهر اجتمعا على تأليفه ، فى أخبار المتنبى ، قائلا إنه قل أن يشترك اثنان فى تأليف كتاب ، ويعود إلى الحديث عن المتنبى والزمان والدهرية . ويدعو لابن القارح بالأجر لغيظه على الزنادقة والملحدين واحتمال مشقة الحج قائلا إنه ما من ملة إلا ولها قوم ملحدون . ثم يتحدث عن بشار بن برد واتهامه بالزندقة وخصومته لسيبويه ، وكتمان الزندقة تقية ومداراة ، وإظهارها تظرفا ، وقتل صالح بن عبدالقدوس بعد أن شهر بالزندقة ، والقصار الأعور والصناديقى ، واستعباد الطغام بتملق أهوائهم ، والفلاسفة والنبوة ، وربيعة بن أمية وهربه إلى الروم ، وإجلاء أهل الذمة عن الجزيرة أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، ويلاحظ أبو العلاء أن اليمن مازال منذ كان معدنا للمتكسبين بالدين ، ويتحدث عن القرامطة والوليد بن يزيد وأبى عيسى بن الرشيد وديك الجن والجنائى والعلوى البصرى وإدعاء علم الغيب ، والتنجيم ، والحسين ابن منصور الحلاج ، والحلولية والتناسخ ومذهب الهنود فيه ، والتظاهر بالمذهب توصلا إلى الدنيا ، وابن هانئ الأندلسى وابن أبى عون وأبى جعفر الشلمغانى . ويقول أبو العلاء إن التأله موجود فى الغرائز ، والدين تلقين وتقليد . ويتحدث أبو العلاء عن طوائف الإمامية والمعتزلة والأشاعرة والشيعة وعبدالله بن ميمون القداح وابن الراوندى وكتبه : التاج ، الدامغ ، القضيب ، الطريد ، المرجان ، وعن ابن الرومى والتطير ، وأبى تمام ورقة دينه ومأتم القصائد عليه لو قذف فى النار ، وعن المازيار والأفشين وبابك الخرمى وأبى مسلم الخراسانى وغلاة الشيعة وعبدالله بن سبأ والكيسانية ، وشاباس وأبى جوف .

توبة ابن القارح

ثم يعود إلى حديث ابن القارح فيرد على شكواه من بلوغ السن العالية ، ويعلق على ما قيل عن رغبته فى الزواج ويرد على إشفاقه من العكوف على الأمانى والشهوات فيذكره بمن أسرفوا فى اللهو ثم تابوا كالفضل ابن عياض وعمر بن عبدالعزيز ومالك بن أنس وأبى حنيفة ، ويذكره بأن الصحابة كانوا قبل الإسلام على خلال ويشير إلى الإمام أحمد بن حنبل وأقوال المنافقين فى شرب الخمر منتهيا إلى أنه قد آن لابن القارح أن يتوب، ويتخيل توبة ابن القارح فيتمثله

جالسا للوعظ فى أحد مساجد حلب ومعه خنجر يمزق به زقاق الخمر بينما جواريه المعدات له فى الجنة يتسامعن بتوبته فيفرحن ونهنئهن جاراتهن . ويتحدث أبو العلاء عن المشيب والخمر ، وعن عبدالله بن المعتز والمبرد وأبى عثمان المازنى وابراهيم بن المهدى والمعتصم ، وعن النوبة وأهل العصر . ويروى أبو العلاء أول ما سمع بابن القارح وشيوخ هذا الأخير وعلاقته بأبى الحسن المغربى ، ثم يتحدث عن آل جوهر وما لقوه من محن بعد أن كانت الدنيا لهم ، ويعود إلى ابن القارح وأبى القاسم المغربى ، ثم ينتقل إلى ابن خالويه وفضله وأبى الطيب اللغوى، ويرد على ما ذكره ابن القارح من ميله فى مصر إلى الملذات ، ويتحدث عن لعنة الخمر وعن دنانير لابن القارح قال : إن ابنة أخته سرقتها فيعقد فصلا عن الدنانير وعن لفظ ثمانين ، لأن هذا هو عدد الدنانير المسروقة ، ثم عن الخئولة لصلة ابن القارح بالسارقة . وأخيرا يتحدث أبو العلاء عن الهجرس بن كليب وخاله جساس ، وابن مضرس وخاله ، ويتحدث عن النساء والأدب ، وأبى بكر الشبلى ، وأخيرا يعتذر لابن القارح عن تأخره فى الاجابة عليه ، وبهذا تنتهى رسالة الغفران.

بين أبى العلاء وملتن

وفى كتابها «الغفران : دراسة نقدية» تطرقت بنت الشاطئ إلى ما يثار عن تأثير المعرى فى قصيدة دانتى «الكوميديا الإلهية» وفى ملحمة ملتون «الفردوس المفقود» . ولأقتصر هنا على صلة المعرى بملتون : عندى أن الصلة ضعيفة ، ولا أحسبها تحتمل كثير خلاف . لقد انقسم الدارسون فى شأنها ثلاث طوائف : فهناك المحايدون كالدكتور طه حسين الذى يقول فى كتابه «تجديد ذكرى أبى العلاء» : «إن الفرنج يشبهون رسالة الغفران بـ «كتاب (ملتن) الانجليزى الذى سماه (الجنة الضائعة)» ، وهناك مؤيدو دعوى التأثير كصاحب مقالة «أبو العلاء المعرى وجون ملتن الانجليزى» التى ظهرت فى شهر مايو ١٨٨٦ بمجلة «المقتطف» الذى يلاحظ أن الشاعرين يشتركان فى «شكوى العمى والتعود على المكاره ومتاعب المناصب وعدم استئمان جانب الناس والحذر من المكايد» . من مؤيدى الدعوة أيضا سليمان البستانى الذى ترجم إلياذة هوميروس إلى العربية ، وقال فى مقدمة هذه الترجمة المنشورة عام ١٩٠٤ : إن المعرى جمع شتيت المعانى وأوغل فى التصور حتى سبق ملتن الانجليزى إلى بعض تخيلاتها ، وجورجى زيدان الذى كتب فى الجزء الثانى من كتابه «تاريخ الآداب العربية» ان أبا العلاء سبق ما فعله ملتن الانجليزى فى ضياع الفردوس فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه ، وعبدالعزيز الميمنى الذى يقول فى كتابه «أبو العلاء وما إليه» : «وما ملتن الانجليزى صاحب الفردوس الغابر إلا من الاتباع» .

بنت الشاطئ

وهناك من يرفضون الدعوى كبنت الشاطئ التى تقول فى «الغفران : دراسة نقدية» : «أما نحن فما نرى اتفاق شاعرين فى الحديث عن عالم آخر سببا يكفى للحكم بالأخذ ، إذا ما اختلف الجو والموضوع وتباعدت الروح وتغاير التناول وتباين الأداء» .

يا لملتون المسكين ! لقد اتهمه الناقد الأمريكى برتون راسكو فى كتابه «عمالقة الأدب» الذى نقله إلى العربية وراجعه درينى خشبة وأحمد قاسم جودة بأنه سرق موضوع «الفردوس المفقود» بحذافيره من أديب إيطالى غير مشهور ، استنادا إلى ما قاله بلس برى الاستاذ بجامعة هارفرد ، والدارس الإيطالى فرانشسكو زيكارى ، ونورمان دوجلاس ، من أن ملتون سرق «الفردوس المفقود» من مسرحية «آدامو كانوتو» للكاتب الإيطالى سيرافينو دللا سالاندرا . واليوم يتهم ملتون بأنه سرقها من المعرى . والله أعلم بما سوف يتهم به غدا .

المعرى وملتون موروث أدبى

إن كاتب هذه السطور ينكر أثر أبى العلاء فى ملتون ، وينتهى - مع ذلك - إلى نتيجة أهم من مسائل التأثر والتأثير : وهى كون هذين الاثنين حلقتين متصلتين فيما يمكن أن ندعوه «أدب الآخرة» حيث يورد الأديب قضايا الميتافيزيقا من خلال الوجدان ، ويبحث في علاقة الإنسان بالقوى السماوية بعد أن بحث فى علاقته بنفسه وعلاقته بالآخرين ، إن المعرى وملتون جزء من موروث أدبى متصل ، وهذه صلة أعمق من أى تأثير سطحى ، ولئن حرم المعرى شرف التأثير فى ملتون ، فإنه لم يحرم شرف كونه الأديب العربى الوحيد الذى رشحه البعض - من بين الغربيين أنفسهم - لكى يقف فى صحبة هوميروس ولوسيان وفرچيل ودانتى وملتون وغيرهم من الخالدين .

وفى كتاب لاحق لهما «قراءة جديدة فى رسالة الغفران» استأنفت بنت الشاطئ البحث من حيث توقفت أطروحتها للدكتوراه ، شأن الباحث العاشق لموضوعه ، الحريص على تتبع كل جديد فى ميدانه ، فأضافت إلى ما قالته هناك ، وعدلت بعضه ، ورأت فى الكشوف الحديثة عن مخطوطات المعرى وما ظهر عنه من دراسات ما يُعدّل من النظرة التقليدية إليه .

وفى ١٩٧٥ أخرجت دار المعارف لبنت الشاطئ فى سلسلة «ذخائر العرب» النص المحقق لكتاب أبى العلاء «رسالة الصاهل والشاحج» (أى الجواد والبغل) عن نسختين أصيلتين بالخزانة الملكية بالرباط (كانت المحققة آنذاك أستاذ الدراسات القرآنية العليا بجامعة القرويين بالمغرب) مع مدخل تاريخي وموضوعى عما حول النص ، وتحدثت عن عالم الإنسان فى منطق الحيوان ، مقارنة بين «كليلة

ودمنة» و«رسالة الصاهل والشاحج» ، مع توثيق للنص وتتبع لمسار الرسالة من عصر أبى العلاء إلى اليوم ، وذلك على امتداد نيف وثمانمائة صفحة تنطق بالضمير العلمى اليقظ لهذه الأستاذة وعلمها الواسع الذى لا يدانيها فيه – من المعاصرين – سوى ذلك الدارس الآخر العظيم ، شوقى ضيف ، والراحل الأكثر من عظيم : محمود شاكر .

البعد النفسى فى أبى العلاء

وأخرجت بنت الشاطئ ثلاثة كتب عن أبى العلاء : «الحياة الإنسانية عند أبى العلاء» (١٩٤٤) ، «مع أبى العلاء فى رحلة حياته» ، «أبو العلاء المعرى» فى سلسلة «أعلام العرب» . وهذا الكتاب الأخير الصادر فى سلسلة مبذولة للقارئ العادى من أقرب كتبها متناولا ، وأبرعها جاذبية عرض . فهو أشبه بـ «يوميات وجودية» (إذا استعرنا تعبير جابريل مارسيل) يقدم سيرة روحية وعقلية لهذا الشاعر والمفكر العظيم ، ويكشف عن صراعاته الداخلية الحادة . فهذا الذى يوصف بالزهد إنما صدف عن ملذات الحياة كارها لا مختارا إذ وجد نفسه مستطيعا بغيره ، وأبت عليه عزة نفسه أن يتهالك على لذة – ولو كانت أكل الدبس – فيكون موضع سخرية وتندر ، أو موضع إشفاق ورثاء . وتورد بنت الشاطئ – على امتداد فصول كتابها – أقوالا ، نثرية وشعرية ، لأبى العلاء تنم على عمق الصراع الذى خاضه ، والأمانة العقلية الفائقة التى راح يعرى بها صفحة روحه للأجيال القادمة :

وقال الفارسون حليف زهد
وكذبت الظنون وما فرسنه
ورضت صعاب آمالى فكانت
جيادا فى مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات إلا
لأن خيارها عنى خنسنه

و

والمرء ليس بزاهد فى غادة
لكنه يترقب الإمكانا

و

وإذا الفتى كره الغوانى واتقي
مرضا يعود ولم يرقه المطعم
فقد انطوت عنه الحياة وكاذب
من قال عنه يبيت وهو منعم

وهو القائل : «أحب الدنيا وآلتها ليست فىَّ» ، وتلك القطعة التى لا تنسى التى يقول فيها ما معناه : يا هذا انا امرؤ مبتلى بالصدى ، إلخ ...

على أن الأمانة تلزمنا أن نقول إن بنت الشاطئ لم تكن سابقة إلى اكتشاف هذا البعد النفسى فى أبى العلاء ، وانما كانت تابعة فيه لأستاذها أمين الخولى صاحب كتاب «رأى فى أبى العلاء» الذى سبق إلى هذه الأفكار ، كما كان سابقا لها فى الانحاء على المتنبى والغض من شأنه وغمز قناته باعتباره نقيضا لأبى العلاء

* بنت الشاطئ • وذلك في تهالكه على متاع الدنيا من مال ونفوذ ، وسعيه إلى الولاية ، وتقربه بالمدح إلى كل ذى سلطان، وربما أيضا ادعائه النبوة .

وحين تتحدث بنت الشاطئ عن البيئة العامة لأبى العلاء وأثرها فى رسالته (الجانب السياسى ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، الحياة الدينية ، الحياة الأدبية ، إلخ ....) لا نخطئ دينها لأطروحة طه حسين الرائدة «تجديد ذكرى أبى العلاء» حيث كان طه أول من أوضح ، بمناهج المحدثين ، كيف أن أبا العلاء كان «ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل فى انضاجها الزمان والمكان ، والحال السياسية والاجتماعية ، والحال الاقتصادية . ولسنا نحتاج إلى أن نذكر الدين فإنه أظهر أثرا من أن نشير إليه» . نشأ أبو العلاء وقضى حياته فى العصر العباسى الثانى «وأظلته بمعرة النعمان دول ثلاث ، وهى الحمدانية والفاطمية والمرداسية» . واتسم عصره بـ «فساد الحياة السياسية ، واختلال النظام الاقتصادى ، وضعف الأثر الدينى فى النفوس» فلحق بالحياة الاجتماعية الوهن والانحلال ، وكان نصيب الحياة الخلقية من الفساد موفورا . على أن هذه المساوئ كلها يقابلها - كما لاحظ الدكتور طه حسين - ازدهار للحياة العقلية فى العلوم الفلسفية والتاريخ والجغرافيا والفلك والآداب من شعر ونثر وخطابة والعلوم الأدبية كاللغة والرواية والنحو والصرف والعروض والقافية والخط .

على أن العصر وحده لا يكفى لتفسير نبوغ المعرى . فلابد أن هناك عوامل أخرى وراثية وفطرية أعانت على هذا النبوغ . وفى هذا الصدد نجد أنه ينتمى إلى بيت علم وأدب وأن قبيلته تنوخ كانت - كما يقول المؤرخون - «من أكثر العرب مناقب وحسبا ومن أعظمها مفاخر وأدبا». وعرف أبو العلاء منذ حداثته بالذكاء وقوة الذاكرة وسعة الاطلاع على علوم العربية وازداد معرفة بالطبيعة البشرية وإن لم يمنعه ذلك من الوقوع فى الخطأ :

واعجب منى كيف أخطئ دائما
على أننى من أعرف الناس بالناس

وقد رحل إلى بغداد ولكنه عاد منها مخيب الآمال بعد أن رأى أسواقها الأدبية تقوم على الغش والنفاق فاستقر عزمه على مفارقتها .

هذى بضاع الناس معروضة
فخالطوا العالم أو فارقوا

ولزم بيته فى المعرة نحو نصف قرن . متقشفا نباتيا يرفض الزواج على حد قوله الذى أوصى بأن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى علىّ
وما جنيت على أحد

ويقول عن نفسه : «ثم توالت محنى فأشبه شخصى العود المنحنى ، ومنيت فى آخر عمرى بالاقعاد وعدانى عن النهضة - أى النهوض - عاد» . ورغم عزلته وفقره وانزوائه فى محبسه ، توافد عليه طلاب

العلم يأخذون عنه اللغة والأدب . ويوم ورى الثرى وقف على قبره أربعة وثمانون شاعرا يرثونه .

بنت الشاطئ أحسن الدارسين لأبى العلاء

والواقع أن الاهتمام بالمعرى - من جانب الأدباء المبدعين والباحثين الدارسين على السواء - قد ميز قرننا العشرين ، فهناك - إلى جانب من ذكرنا - العقاد صاحب «رجعة أبى العلاء» ، ومحمود حسن زناتى الذى حقق «الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ» ، وأمين عبدالعزيز الخانجى محقق «اللزوميات» بتقديم كامل كيلانى ، ولويس عوض صاحب «على هامش الغفران» ، ومحمد الحديدى الذى كتب عن تعريف القدماء بأبى العلاء ، وصلاح عبدالصبور الذى نشر على صفحات مجلة «المجلة» مقالة عنوانها «الحديقة الموحشة» يشرح فيها أبياتا من أبى العلاء بأسلوب أدبى رفيع على نحو ما فعل طه حسين فى «صوت أبى العلاء» ، ومحمد ابراهيم أبو سنة الذى حلل فى كتابه «قصائد لا تموت» مرثية المعرى التى مطلعها «أحسن بالواجد من وجده ..» وفيها يرد بيته العظيم :

يا دهر يا منجز إيعاده
ومخلف المأمول من وعده

وبيته الذى لا يقل عظمة ، بصدقه المفحم :

أمس الذى مر على قربه
يعجز أهل الأرض عن رده

لكن بنت الشاطئ تظل - فى النهاية - أحسن الدارسين العرب ، بعد طه حسين ، فقها للمعرى ومعرفة بأدبه وفكره ، وتحقيقها لـ «رسالة الغفران» ، و«رسالة الصاهل والشاحج» آيات نفيسة من آيات الدرس العلمي والانكباب الصبور على أصعب النصوص وأكثرها إغرابا . هذه أستاذة للأدب شامخة الهامة ، تستحق أن يرفع لها المرء قبعته وأن يجلس منها - وهى التى حفظت القرآن الكريم منذ طفولتها واستوعبت علوم العربية من نحو وصرف وأدب وبلاغة وعروض وقافية وتفسير وحديث وغيرها - مجلس المتعلم الذى يرنو إلى شيخه بعين الاحترام بل التوقير .

علام يدل وقوف بنت الشاطئ - من مبدأ حياتها العلمية إلى قرب منتهاها - بمحراب المعرى راهبة من راهبات العلم لا تضن عليه بوقت أو جهد أو مال ؟ وفيم لجوء أدباء من قرننا العشرين إلى استيحاء هذا الشاعر الضرير الذى رحل عنا منذ عشرة قرون ؟ إن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن المعرى مازال معاصرا لنا يجابه نفس حيرتنا إزاء معضلات الكون ، وتمزقنا بين العلم والإيمان ، وان آياته «شعرا ونثرا - اللزوميات ورسالة الغفران - مازالت حية فى العقول والنفوس والضمائر ، يفخر بها الأدب العربى ويفاخر ما عداه من آداب .

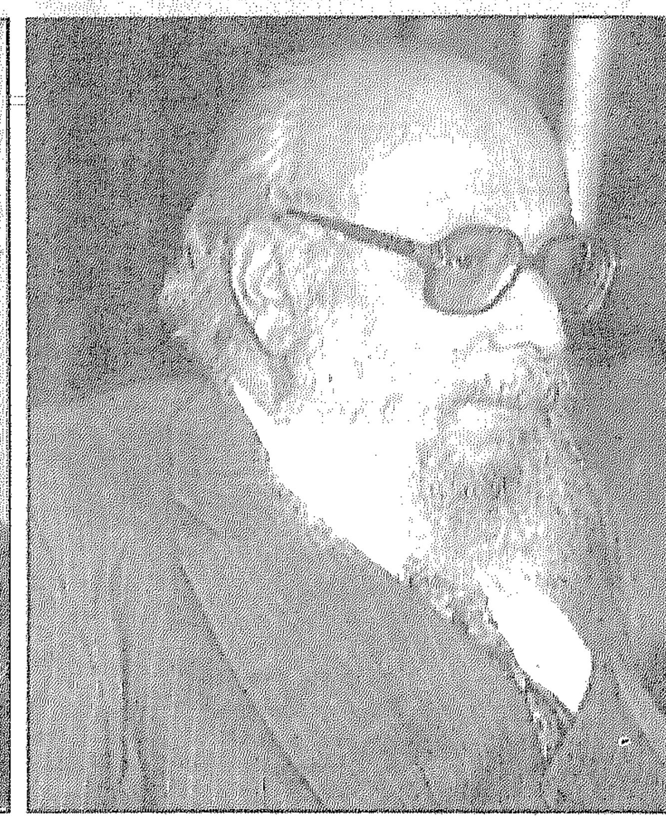


من الشعر إلى احتراف السياسة

عبد الرحمن شاكر

كانت البذور الأولى لتكوينى «الثقافى» مزيجا من العربية الفصحى ، لغة القرآن الكريم والشعر، ومن الدين والسياسة ، ولا أذكر فى أى سن لم أعد اكتفى بقراءة القصص التى تحتويها كتب المدرسة ، بل أحرص على شراء مجموعة «القصص المدرسية» التى يصدرها محمد سعيد العريان، لأترقى بعدها إلى قصص كامل كيلانى اشتريها أو استعيرها من مكتبة المدرسة .

وفى الثامنة من عمرى جاء الدور على الصحف والمذياع ليشاركا فى تكوينى الثقافى ويغذيا اهتمامى بالسياسة، حيث نشبت الحرب العالمية الثانية ومازلت أذكر أول اتصال لى بالصحف وهو مطالعة أخبار وصور الغزو الروسى لفنلندا ، إحدى مقدمات تلك الحرب العالمية ، أما المذياع فكانت أول نشرة أخبار لفتت سمعى منه فهى التى كانت تحوى سقوط مدينة طبرق المصرية فى يد القوات الإيطالية الزاحفة من ليبيا .





مارس ١٩٩٨ فى مؤتمر عن الوحدة العربية بالقاهرة

شاعر من مدرسة أسيوط الثانوية ١٩٤٥

لا أذكر متى بدأت أحلم بأن أكون شاعراً وأحاول نظم الشعر ، وأعتبر «شوقى بك» أمير الشعراء مثلى الأعلى لشعر قرأته له ، مذكورا أنه قد نظمه فى صباه! وأظن أننى نجحت فى نظم بيتين «موزونين» فى معنى ساذج وأنا فى العاشرة من عمرى بعد انتقالى مع والدى إلى مدينة «منيا القمح» بالشرقية، حتى انتقلنا وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية إلى أسيوط.

وأظهرت فى أسيوط تفوقا دراسيا فى مدرستها الابتدائية ، كنت أول الفصل، وفى النشاط «الثقافى» أسند إلىّ الأستاذ «حامد عبد المجيد» دورين متناقضين أؤديهما فى الحفل المدرسى، الأول إلقاء قصيدة من الشعر على لسان صبى يتيم من أبناء الملاجىء، والثانى تمثيل دور النعمان بن المنذر فى تمثيلية «الوفاء» المشهورة، ونجحت فى الدورين معا، وجاء بعض أصدقاء أبى من مدرسى اللغة العربية بالمدرسة يهنئونه على براعتى فى التمثيل .. «ولا يوسف وهبى» ! فغضب أبى غضبا شديدا وقال لى إنه لا يريدنى أن أكون «مشخصاتيا» ، وقادنى إلى خزانة كتبه وقال لى إن بها علما وأدبا وشعرا هى أولى باهتمامى ، ولاحظت أن أبى كان يختم كل كتاب يقتنيه بخاتم خاص مكتوب عليه : «الخزانة العلوية بمصر – السيد أبو تراب على محمد شاكر»!.

كان يضن بهذا الختم على «روايات الجيب» التى كان يحرص على اقتنائها وقراءتها ثم يطرحها فى أى مكان من البيت فتتلقفها أيدينا أنا واخواتى وكنا شديدى الولع بشخصية «ارسين لوبين» أو «اللص الشريف» ، كما كانت تسميه تلك الروايات .

وشرعت أفتح «دواليب» المكتبة «الرسمية» وكانت لها أبواب نصفها العلوى من الزجاج والسفلى من الخشب، لاكتشف كنوزا من المتعة القصصية خلاف روايات الجيب ، مثل ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة ، وترجمات مصطفى لطفى المنفلوطى ، للروايات الفرنسية مثل الشاعر ، والفضيلة .. إلخ وبعد أن أتيت على كل هذا شرعت أقرأ عن الشعر والشعراء فى كتاب طريف جدا اسمه «شعراء العصر» ، كان يبدأ بالبارودى ويسميه ملك الشعر ثم أمير الشعراء «شوقى» ، ثم شاعر النيل حافظ إلى شعراء لم أسمع بهم من قبل مثل أحمد محرم ، وأحمد نسيم، وشعراء من الأقطار العربية الأخرى مثل عبد المحسن الكاظمى وجميل صدقى الزهاوى من العراق ، وكتابا آخر عن «شعراء السودان» ، وتعرفت على دواوين البارودى وشوقى وحافظ والمتنبى والبحترى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى، وبعض المحدثين مثل على محمود طه وزكى مبارك وسيد قطب، ولكن أحب دواوين الشعر إلىّ كانت المختارات مثل مختارات البارودى والمفضليات، التى شرعت فى حفظ بعض قصائدها. وحينما لمس أبى اهتمامى بالشعر دلنى على كتاب «العمدة» لأبى رشيق فى صناعة الشعر ونقده.

كنت قد انتهيت من المدرسة الابتدائية وبدأت الدراسة فى مدرسة أسيوط الثانوية، وهناك اكتشفت مكتبتها التى كنت أقضى فيها «فسحة الغداء» الطويلة التى كانت تمتد لأكثر من ساعة واستعير منها ما لا أجده فى مكتبة أبى ، شدنى فيها كتاب بعنوان «حضارة الإسلام فى دار السلام» زرع فى نفسى الاعتزاز بما فى التاريخ الإسلامى وضرورة إعادة أمجاده! وقد اكتشفت فى طريقى من المدرسة وإليها مكتبة بلدية أسيوط ، التى كنت أتوجه إليها لألتمس فيها ما لا أجده فى مكتبة أبى أيضا ، مثل بعض كتب توفيق الحكيم وحسين هيكل ، حتى تفسير القرآن ، كنت أرجع فيها إلى «تفسير القرطبى» الذى لا أجده عندنا، بل أجد تفاسير الألوسى والطبرى وغيرهما.

شاعر المدرسة

وتجرأت أكثر فأكثر على نظم الشعر، ونشرت بعضه فى جريدة محلية كانت تصدر فى أسيوط اسمها «الأمانى القومية»، وكتبت قصيدة فى ذكرى مصطفى كامل أرسلتها إلى فتحى رضوان لينشرها فى مجلة كان يصدرها، فلم يفعل ولكنه نوه بها بعد أن أضاف إلى اسمى لقب «الشاعر»!.

وبلغت شيئا مما كنت أريد، حينما أقيم احتفال فى المدرسة بالعام الهجرى الجديد، وكنت وقتها فى السنة الرابعة الثانوية، وحضر الاحتفال مفتش للغة العربية كان قبل ذلك مدرسا أول بالمدرسة، وكان يعرفنى حيث كان مشرفا على جمعية الخطابة التى كنت عضوا بها ، وسبق له أن منحنى جائزة التفوق وأنا فى السنة الثانية ، وكانت عبارة عن مجلد ضخم من كتاب «المنتخب فى أدب العرب»، وترك الاشراف على تنظيم الحفل «لحضرة» المفتش، ولمحنى واقفا بين عدد من الطلبة كل منهم يمسك أوراقا فى يده، ملتفين حول المنصة يريد كل منا أن يلقى كلمة بعد أن فرغ الأساتذة من إلقاء كلماتهم وقصائدهم، فدفعنى إلى المنصة قائلاً : «الولد ده كويس»! ووقفت ألقى قصيدة ، ودوت القاعة بالتصفيق ، واستعيدت أبيات القصيدة عدة مرات ، فوقف المفتش ليلقى محاضرة عنى، قال فيها · إنه كان يتوقع لى أن أصبح شاعرا أو خطيبا، فردت عليه القاعة بأننى قد أصبحت شاعرا وخطيبا.

وكان يوما من الزهو عظيما.

فى حديقة الفردوس بمدينة دوشنبى عاصمة طاجيكستان «السوفييتية» ١٩٧٦



التكوين

عالم السياسة

لم يطل مقامي في أسيوط لأجنى ثمرة هذا « المجد » الشعرى ، فقد انتقلت بعد أيام مع أبى من عاصمة الصعيد إلى عاصمة القطر ، إلى مدينة القاهرة ، حيث التحقت بمدرسة «بنبا قادن» الثانوية بحى الحلمية الجديدة ، الذى يقع بين شارع محمد على من جهة القلعة ، وحى عابدين.

أما الاقامة فكانت فى بيت كبير ، عبارة عن الجناح الرئيسى فى قصر قديم ، كان قد بناه اسماعيل المفتش ، وزير مالية الخديو اسماعيل ، واشتراه جدى لأمى .

كان «خالى أحمد» شريكنا فى البيت ، محاميا ، وكانت لديه مكتبة عامرة ، بالاضافة إلىّ بقايا مكتبة أبيه ، وفيها قرأت عن الثورة الفرنسية ما أثار اهتمامى ، فضلا عن ترجمات لأعمال أدباء فرنسيين مثل جى دى موباسان وبلزاك وفيكتور هوجو ، وباللغة الانجليزية قرأت أعمالا لبرنارد شو وأوسكار وايلد، وكتابا مترجما لأميل لودفيج عن نابليون، وأشعارا لحافظ الشيرازى ، والمستطرف من كل فن مستظرف ، والكامل لابن الأثير فى التاريخ الإسلامى، وغير ذلك .

كانت المكتبات فى انتظارى فى كل مكان تدعونى إليها.

أما اللقاء الأكبر فكان مع دار الكتب التى كانت تقع فى باب الخلق على مسافة يسيرة من البيت ، حيث عرفت فيها فهارس المؤلفين والعناوين ، أطلب من أحدها ما أشاء مما أريد الإطلاع عليه ، فضلا عن المراجع الشامخة التى تضمها قاعة المطالعة وتعرفت فيها على دائرة المعارف البريطانية ، التى جاوزت فيها «دائرة معارف القرن العشرين» من تأليف فريد وجدى ، التى كانت لدى والدى، وكنت أطالع فيها كثيرا ، كذلك كان من كنوز دار الكتب المبذولة كتاب تاريخ كمبردج الضخم وكانت سعادتى بهذه الكنوز الثقافية لا تكاد توصف!.

وأتوجه إلى المدرسة وكنا فى أوائل عام ١٩٤٦ ، وقد احتدمت الحركة الوطنية المطالبة بجلاء القوات البريطانية عن مصر، بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ويحتشد الطلبة فى فناء المدرسة منادين «الجلاء بالدماء» ويتعاقب الخطباء منهم محرضين الطلبة على الاضراب والخروج فى مظاهرة ، وانتحى جانبا لمدة عشر دقائق أكتب فيها قصيدة حماسية ثم أقف لإلقائها ، ويلتفت إلىّ ممثلو مختلف التيارات السياسية من وفديين وأخوان مسلمين وشيوعيين!.

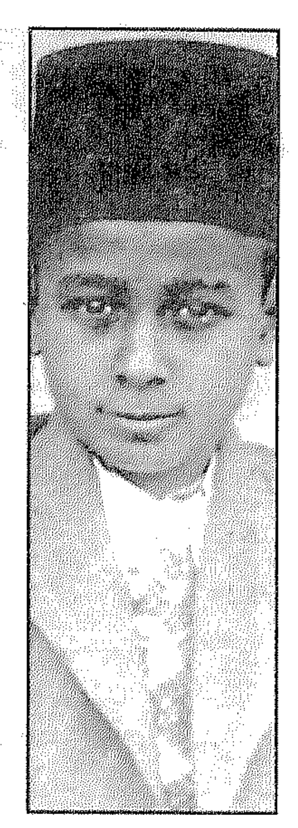
الزلزال

ثم جاء الزلزال ، وكان عنيفاً مزدوجاً.

كنت قد اخترت اللحاق بالقسم العلمى فى السنة التوجيهية (الثانوية العامة الآن) طمعا فى دخول كلية الطب ، وفيه بدأت

فى دراسة علم الأحياء ، وقد أولعت فيه بتشريح الكائنات الصغيرة (الضفادع، الصراصير ... إلخ) ، ولكن صدمة كبرى كانت تنتظرنى ، حينما شرح لنا الأستاذ نظرية دارون فى النشوء والارتقاء ، وعلمنا أن هناك ما يسمى بالمملكة الحيوانية التى تبدأ من الحيوانات وحيدة الخلية مثل الأميبا ، إلى الثدييات ، وأن الإنسان هو صنف من هذه الأخيرة! وأذهب إلى حديقة الحيوان ، التى كنت أقصدها من قبل لاهيا مستمتعا فحسب ، لأتسمر أمام قفص حيوان يسمى «إنسان الغابة»، وأحاول دون جدوى أن أتلمس الحد الفاصل بيننا وبينه خلاف أننا على درجة فى «تطور المخ» والقدرة على الإدراك ، فلا أجد ! وأنظر إلى اللافتة المعلقة إلى جوار القفص ، فيغيظنى أن أقرأ عليها : «القردة العليا - رتبة البشر»!! إذن فنحن مجرد «رتبة» من هذه الكائنات جميعاً ، فأين هذا من قصة خلق الإنسان كما تعلمناها فى كتب الدين وهى ترشحنا للخلود إما فى الثواب أو العقاب طبقاً لأفعالنا؟! .

وساخت فى نفسى أسس الثقافة



تلميذ فى ابتدائى عام ١٩٣٨



عام ١٩٤٨ قبيل احتراف الثورة



الرفيق عامر محترف ثورى وطالب جامعى عام ١٩٥٢



عام ١٩٥٦ نهاية الدراسة وبداية التأليف

التقليدية التى نشأت وتربيت عليها طيلة عشر سنوات وأكثر!.

وبدأت استمع إلى الشيوعيين ومناقشاتهم وتحليلاتهم السياسية ، وكان هذا هو الشق الثانى من الزلزال ، فاقتنعت معهم بأن الاستعمار هو محاولة لاستغلال الشعوب المغلوبة على أمرها ، من جانب طبقات هى فى بلادها مستغلة أيضا للطبقات العاملة ، وأن مواقف الساسة المحليين من الاستعمار ، ليست مسألة وطنية أو خيانة ، وإنما هى مسألة مصالح طبقية ، تدفع بعضهم إلى ممالأة الاستعمار ، وأخرين إلى مقاومته ، وهكذا. وانفتحت أمامى مكتبة أخرى من نوع جديد ، تتكون أساساً من المكتبات السرية للمنظمات الشيوعية ، وقرأت فيها البيان الشيوعى ، لكارل ماركس وفريدريك انجلز ، وأسس اللينينية ، والمادية الديالكتيكية والتاريخية لجوزيف ستالين، والاقتصاد السياسى لليونتيف ، وأعمالا كثيرة من هذا القبيل ، وأصبحت قضية الاشتراكية هى الهدف الرئيسى لنشاطى السياسى والفكرى ، وأهملت الشعر والأدب ، بل زهدت دراسة الطب ولم أجتهد فى الحصول على المجموع الذى يؤهلنى لذلك فى التوجيهية ، وأصبح العلم بالنسبة لى هو كل شىء ، العلم الطبيعى من ناحية «والعلم» الاجتماعى ممثلا فى الفكر الماركسى من ناحية أخرى، وصار الأخير هو موضع اهتمامى الأول .. ووجدتنى فى النهاية مضطرا إلى قبول الالتحاق «بالمعهد العالى للعلوم المالية والتجارية ، الذى أصبح بعد قليل كلية التجارة» بجامعة إبراهيم ، والتى أصبحت تحمل اسم جامعة عين شمس بعد ثورة ٢٣ يوليو.

ثوار قبل الثورة!

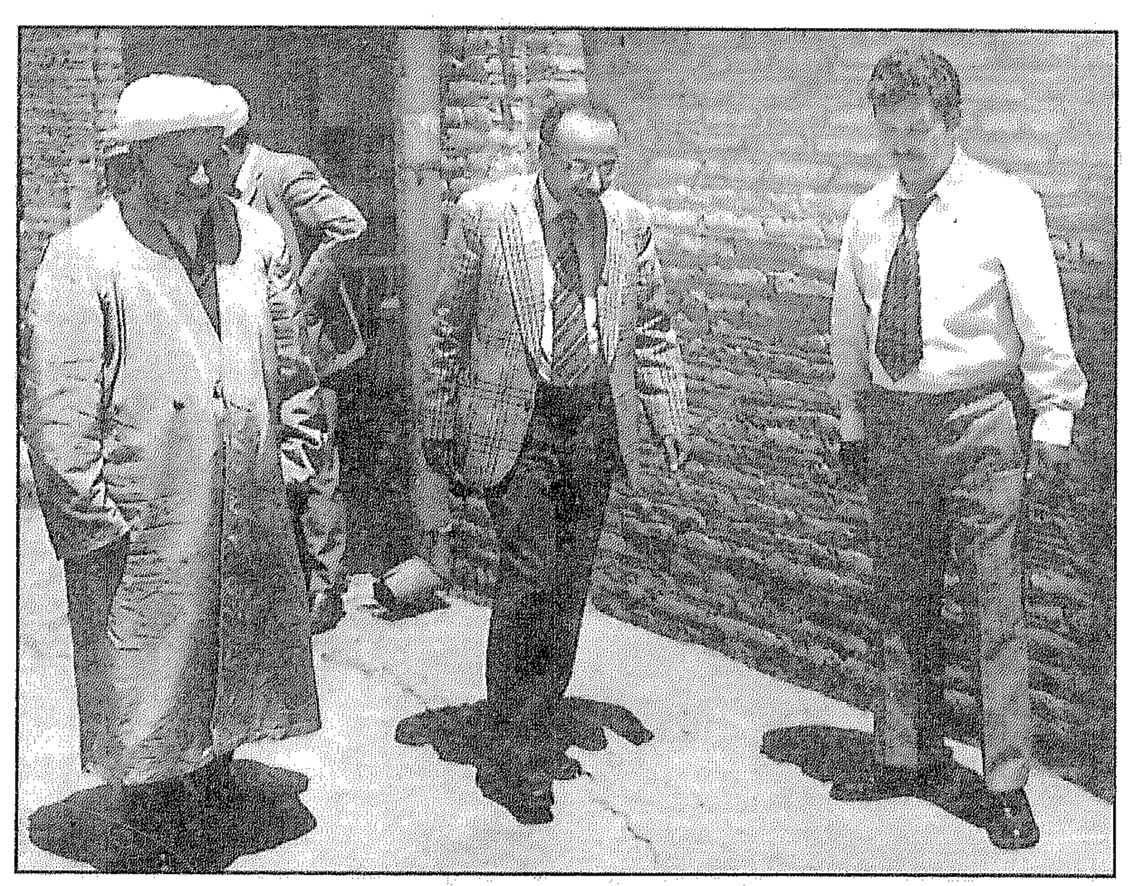
كان هدفى من دخول الكلية المذكورة (تجارة عين شمس) ، هو مجرد الحصول على شهادة جامعية ، تؤهلنى للحصول على عمل أرتزق منه لو دعت الضرورة ولكن المستقبل الشخصى «البرجوازى بالنسبة لى، لم يعد موضع اهتمامي وانما الثورة هى همى الأول ، والثورة على الاستعمار ، وعلى النظام الملكى الموالى له، ثم على نظام الاستقلال برمته وصولا إلى الاشتراكية.

قلت إنى أهملت الأدب والشعر فى هذه المرحلة ، إلا الأدب الروسى ، حيث كان لى صديق يسارى يعمل مدرسا، وينفق كثيرا من دخله على شراء الترجمات اللبنانية والسورية للأدب الروسى، وكان يعيرنى كتبه بسخاء ، وعن طريق هذه المكتبة الأخرى ، قرأت أعمالاً كثيرة لتولستوى ، وجوجول ، وبوشكين ، وتورجنيف ، وتشيكوف ، ومكسيم جوركى ودستيوفسكى وغيرهم . أما رأس المال المترجم إلى العربية فقد ذكرت فى مقال سابق «بالهلال» أننى قرأته ، بل درسته فى دار الكتب ، التى كثيراً ما كنت أقف على بابها لمطالعة

صفحات الأهرام المعلقة على جدار مدخلها[١].

انضممت إلى منظمة شيوعية تحمل اسم «الحزب الشيوعى المصرى» ، وكانت تركز أكثر ممن سبقها من المنظمات على ضرورة القضاء على النظام الملكى كمرحلة أولى للثورة ، واكتسبت ثقة قادتها بسرعة حيث كانت ثقافتى الماركسية قد اتسعت بعد قراءة تاريخ الحزب البلشفى بالانجليزية وكذلك كتاب «ديموقراطية جديدة» لماوتسى تونج، وأرسلت نسخة منه إلى قيادة «الحزب» فاستفادت منه فى تعديل برنامجها الثورى الذى كان ينص من قبل على مرحلتين إحداهما للثورة السياسية والأخرى للثورة الاجتماعية، وأصبحت مسئول الطلبة والعمال فى لجنة منطقة القاهرة بالحزب وعضوا احتياطيا بلجنته المركزية .

كانت ظروف النشاط الثورى فى تلك الفترة مواتية بعد إقدام حكومة الوفد على إلغاء معاهدة ١٩٣٦، واحتدام الحركة المطالبة بجلاء القوات البريطانية عن أرض مصر ، وازدياد نشاط الفدائيين ضد معسكرات الجيش البريطانى فى قناة



مع المفتى السوفيتى بابا خانوف عام ١٩٧٦

السويس.

وفى أواخر عام ١٩٥١ أقدم الملك فاروق على تعيين حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى ، مما اعتبر تآمرا على حكومة الوفد التى تسمح بتزايد النشاط الوطنى تمهيدا لتصفية هذا النشاط ، واجتمعت مع «الرفاق» من الطلبة والعمال، ونقلوا إلىّ الغضب الجماهيرى المحتدم ضد الملك ونظامه والذى فجرته هذه الخطوة ، فكان توجيهى لهم هو الدعوة إلى إقامة جبهة وطنية تضم كل القوى الثورى من أجل إسقاط النظام الملكى وإقامة جمهورية ديمقراطية تتولى إدارة النضال الوطنى ضد قوات الاستعمار!.

وانزعجت قيادة الحزب من هذا التوجيه ، وعزلتنى عن الرفاق ، واعتبرت موقفى مغامرة يسارية ، وأن التوجيه الصحيح ينبغى أن يكون هو المطالبة باسقاط حافظ عفيفى فحسب!.

وبعد عدة أسابيع وقع العدوان العسكرى البريطانى على محافظة الاسماعيلية ، وذلك فى ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ ، وفى اليوم التالى انفجرت المظاهرات ، بدءا من مظاهرة قوات بلوكات النظام التى خرجت بقيادة أحد الضباط من معسكراتها المجاورة لجامعة القاهرة ، وانضم إليها الطلبة وانحدرت المظاهرة إلى شوارع القاهرة تهتف بسقوط الملك والاستعمار البريطانى معا ، وبدأت أعمال الشغب والسلب والنهب والاحراق فيما عرف بحريق القاهرة ، حتى أمر الملك فى الخامسة مساء بنزول الجيش إلى الشوارع لفرض النظام ، وأعلنت حكومة الوفد الأحكام العرفية ، ولكن ذلك لم يمنع الملك من إقالتها وإسناد رئاسة الحكومة إلى نجيب الهلالى ، المنشق عن الوفد وشرعت الحكومة الجديدة فى إلقاء القبض على العناصر الوطنية والثورية وإيداعهم المعتقلات ، وكان من بينهم شقيقى المرحوم زهير الطالب بكلية الهندسة بجامعة القاهرة آنذاك .

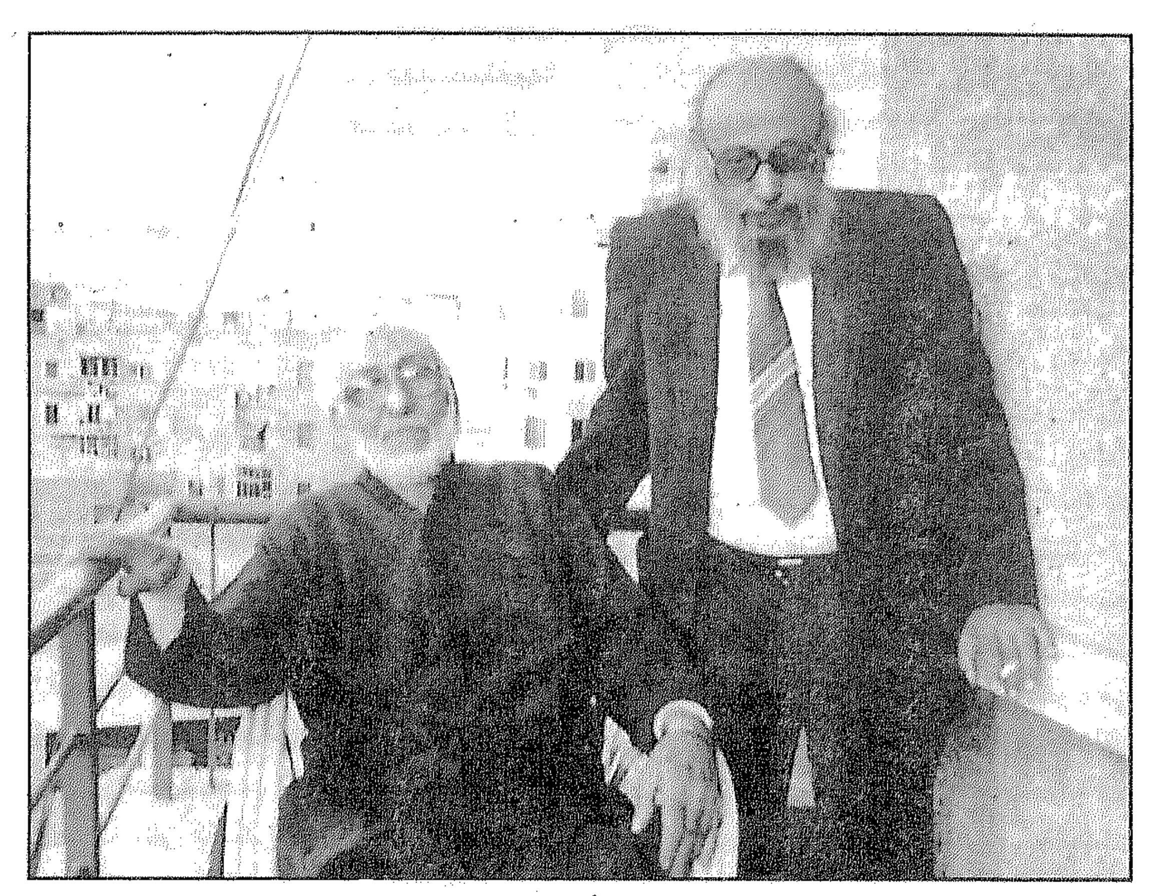
وجاء إلىّ بعض «الرفاق» من الطلبة من أبناء الصعيد الذين يدرسون فى القاهرة ، وناشدونى أن أقبل استضافتهم لى فى الصعيد قبل أن يلقى القبض علىّ أنا الآخر ، خصوصا وأنه كان هناك توجس من أن توجه تهمة إحراق القاهرة إلى الشيوعيين واحتمال أن تصدر ضدهم أحكام بالإعدام!.

واستجبت إلى هذه الدعوة ورحلت معهم إلى مدينة ملوى فى «مديرية» المنيا آنذاك . أنا وبعض الرفاق الآخرين من القاهرة، ثم عاد المضيفون إلى القاهرة لاستكمال دراستهم ، وبعد أن استأجروا شقة متواضعة فى مدينة المنيا نختبىء فيها نحن لاجىء القاهرة ! وكان معنا بعض الكتب من أهمها أعمال لنين المختارة باللغة الانجليزية، فعكفت على دراستها، ولكن أهم من ذلك عكفت على كتابة تقرير سياسى بعنوان «ثورة

١٩٥٢»!.

فى هذا التقرير اتهمت قيادة الحزب الشيوعى بالعجز عن فهم المرحلة الثورية التى كانت تمر بها البلاد، وبالتقصير فى تشكيل الجبهة الوطنية على النحو الذى أشرت إليه فيما سبق، فلم تجد الجماهير التى انفجرت ثورتها فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، قيادة توجهها التوجيه السياسى الصحيح، فقادتها الرجعية إلى الهزيمة المنكرة، عبر الدمار والتخريب. وطالبت فى نهاية التقرير بالدعوة إلى مؤتمر للحزب لمناقشة هذا الموقف.

وكتب سكرتير الحزب ردا ضافيا على هذا التقرير يحذر فيه من «عامر» اليسارى! وكان «عامر» هو الاسم الحركى الذى عرفت به، ولم يتح لى الإطلاع على هذا الرد. وبعد أن وجهت الحكومة الاتهام باحراق القاهرة إلى أحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكى فى ابريل عام ١٩٥٢، لم تعد هناك ضرورة لاختفائى فى الصعيد، فعدت إلى القاهرة، وتم فصلى من الحزب الشيوعى، وفى يوليو من العام ذاته وقعت الثورة العسكرية التى أطاحت بالنظام الملكى، وبعدها بأسابيع جاءنى



عام ١٩٩٣ مع عمى المرحوم الأستاذ محمود شاكر فى شرفة منزله

بعض الرفاق بمنشورات للحزب يتباهى فيها قادته أن شباب الحزب هم الذين اشعلوا الثورة وسط الطلبة والعمال ضد النظام الملكي!! فيم إذن كانت إدانتهم لي؟!!.

وانصرفت إلى دراستى الجامعية التى كنت قد اهملتها فى فترة احتراف الثورة! وألقى القبض عليّ بعد حل الأحزاب فى أوائل عام ١٩٥٣، وأودعت مع شقيقى زهير معتقلا للطلبة الجامعيين فى مدرسة الصناعات الميكانيكية، وفي المعتقل وبعد الخروج منه وجدتنى مختلفا مرة أخرى مع الشيوعيين فى الحكم على الثورة العسكرية والتعامل معها، فقد صنفوها بأنها فاشية عسكرية من صنع الأمريكان، أما أنا فقد اعتبرتها ثورة وطنية وأن موقفنا منها ينبغى أن يكون مطالبتها باجراءات أكثر ثورية، بدلا من التحالف مع الرجعية لاسقاطها كما كانت تدعو تلك المنظمات!.

في مكتبة محمود شاكر

فى خريف ١٩٥٤ انتقلت مع أسرتى من الحى القديم فى القلعة لنسكن فى ضاحية مصر الجديدة، التى يقيم بها سائر أعمامى. وتلقتنى مكتبة عمى العلامة المرحوم محمود شاكر كنت أتوجه إلى بيته فى الصباح الباكر، وخاصة فى أيام الأجازات ولا أعود إلا عند منتصف الليل! وحينما كان يسافر كان يترك معي مفتاح البيت، حيث كان وقتها يقيم وحده. وفى هذه المكتبة العامرة قرأت مئات الكتب، من أهمها سلسلة الرافعى عن الحركة القومية، تاريخ الجبرتى، معالم التاريخ لـ «هـ. ج. ويلز» وقصة الحضارة لويل ديورانت، كنت أقرأها بالإنجليزية فى مكتبة عمي قبل أن تبدأ الجامعة العربية فى ترجمتها، وكتاب توينبى فى التاريخ أيضا وقصة الفلسفة برتراند رسل، فضلا عن عشرات من كتب المازنى وطه حسين والعقاد، وبعض أعمال سومرست موم بالانجليزية، وما أشبه من الأدب الانجليزي، وكنت استعير من عمى بعضها لأطالعه فى المترو فى أيام الدراسة ذهابا وإيابا إلى الكلية ومنها.

ولم يكن الخلاف الفكرى بينى وبين عمى فى ذلك الحين حائلا دون التواصل الثقافى معه، بل كنت أدخل معه فى مناقشات حامية حول كل شئ، من الدين إلى السياسة إلى الأدب إلى الأخلاق، وكذلك مع بعض أصدقائه من الساسة والأدباء أمثال فتحى رضوان وعلال الفاسى وأحمد حسن الباقورى ويحيى حقي ومحمود حسين اسماعيل وداود سكاكيني وتامر الأسد وإحسان عباس ومحمد يوسف نجم وغيرهم كثير من زواره من طلاب العلم والأدب من جميع أرجاء الوطن العربى والاسلامى. بل لقد أشركنى عمى معه فى تلك الفترة فى مراجعة تجارب الطبع لكتب التراث التى كان يحققها، فقرأت معه عدة أجزاء من تفسير الطبرى، وتهذيب الآثار فى الحديث للطبرى أيضا ، ودلائل الاعجاز للجرجانى وغيرها.

وقد أهدانى عمى كتبا قيمة من أهمها كتاب الأغانى الذى قرأت معظمه، ولسان العرب الذى أعود إليه كثيرا فى مادة اللغة، وساعدنى ذلك على استعادة بعض اهتمامى المفقود بالأدب والشعر وإن كان قد فاتنى منه الكثير بسبب السياسة! وبالفعل قرأت كثيرا فى حماسة أبى تمام وأمالى القالى وعيون الأخبار وغيرها.

بريسترويكا متقدمة!

كان على أن أفرغ بأى شكل من دراستى الجامعية لكى أخلو إلى عمل كثير ينتظرنى في حرفتى السياسية! كان ذلك فى عام ١٩٥٦، حيث عقد المؤتمر العشرون للحرب البلشفى، وفيه أعلن سكرتير الحزب آنذاك نيكيتا خروشوف إدانته لسياسة عبادة الفرد التى كان يتبعها سلفه الديكتاتور الراحل جوزيف ستالين الذى توفى فى عام ١٩٥٣.

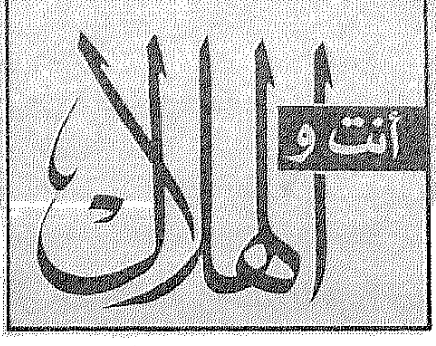
وحصلت على وثائق المؤتمر المذكور وهى بيانات الزعماء السوفيت الذين تكلموا فيه، واستطعت أيضا الحصول على ما وصف بأنه التقرير السرى الذى ألقاه خروشوف عن فظائع عهد ستالين.

وتوصلت إلى نتيجة مؤداها أن مرحلة جديدة من الفكر الاشتراكى قد بدأت بعد أن وصلت الثورة الاشتراكية إلى انتصارها العالمى حيث أصبحت نظاما عالميا لا يمكن قهره، وسقوط النظام الاستعمارى للإمبريالية بتحرر معظم المستعمرات السابقة، وغلبة الفكر الاشتراكى وتفوقه فى أرجاء العالم. وكان على أن أقرأ كثيرا سواء فى أعمال مفكرى الاشتراكية أو من أرخوا لها مثل ج. د. هـ. كول مؤلف موسوعة «تاريخ الفكر الاشتراكى» وهارولد لاسكى وغيرهما، فضلا عن تاريخ أوربا، والصين والهند فى آسيا، وكثير من بلدان العالم، بل وأعمالا فى نقد الاشتراكية مثل الطبقة الجديدة لميلوخان جيلاس ومجلات كانت تصدر فى ألمانيا (الغربية) والولايات المتحدة لدراسة أحوال المعسكر الاشتراكى.

وفى أواخر عام ١٩٦١ فرغت من تأليف كتاب بعنوان «الثورة الاشتراكية العالمية» وصفه لمعى المطيعى، بأنه «يعد بحق بداية لارهاصات البريسترويكا التى جاءت بعده بنحو ثلاثين عاما»!

والواقع أننى قد دعوت فى الكتاب المذكور إلى كل ما قامت به بريسترويكا جورباتشوف بداية من عام ١٩٨٥، من إقرار الديموقراطية وسحب القوات السوفيتية من شرق أوربا، والسماح بتوحيد ألمانيا وإنهاء الحرب الباردة وسباق التسلح، وإنقسام العالم إلى معسكرين. ولا أدرى هل لو كان الشيوعيون فى العالم قد «سمعوا كلامى» حينما قلته منذ ذلك التاريخ .. هل كان مصير الاشتراكية سوف يكون أفضل منه الآن بعد أن تأخروا فى «سماع الكلام» طوال هذه المدة؟!

أترك الحكم فى ذلك للتاريخ ومزيد من التحليلات ليس هذا مكانها. □



● عام ٢٠٠٠ م ●

● وجه إلينا القارىء محمد أحمد ماهر من العجوزة بالجيزة سؤالا عن عام ٢٠٠٠ م . هل هو متمم للقرن العشرين أم بداية للقرن الحادي والعشرين ؟.

وبسؤال جميع المتخصصين في مجالي العلوم الرياضية والطبيعية أشاروا بأنه متمم للقرن العشرين . ويبدأ القرن الحادي والعشرون في عام ٢٠٠١ م.

● الأقباط والمسلمون الكل فى واحد! ●

● تداعت لدى المعانى وأنا أطالع كتاب الأعمدة السبعة للشخصية (المصرية) للأستاذ الدكتور/ ميلاد حنا المفكر المصرى الكبير، وما حدث أخيرا من تشويه الإعلام الأجنبى لصورة الوحدة الوطنية عن طريق ما يسمى بحادث الكشح فى صعيد مصر، تذكرت صفحات خالدة من نضال الاقباط من أجل وطنهم وكنيستهم العريقة، وصورة الأنبا اثناسيوس فى نضاله وكفاحه من أجل دينه ووطنه وكيف التف حوله رهبان الصحراء وجماهير الشعب المصرى، وخاض غمار الكفاح الوطنى ضد المستعمر الرومانى ومن أجل صلابة وعزيمة هذا البطريرك قيل «اثناسيوس ضد العالم»، وتحقق بكفاحه ونضاله حرية الوطن واستقلال الكنيسة.

وكانت مصر دائما أقباطا ومسلمين فى تاريخها القديم والحديث، الكل فى واحد، أو أن التاريخ ـ كما يقول العقاد ـ ينقض كل مايقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية. فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والاقباط سواء فى تكوين السلالة القومية، ولا فرقة بين عنصرى هذه الأمة فى الأصالة والقدم فى الانتساب لهذه البلاد.

وفى القرن الماضى وفى إطار المجتمع المدنى قام البطريرك المستنير «كيرلس الرابع» الملقب بأبى الإصلاح، والذى اتسمت رئاسته للكنيسة القبطية سنة ١٨٥٤، ١٨٦١ بالمحاولة الجادة للنهوض بالتعليم حيث أنشئت مدرسة الأقباط، كما أقيمت مدرسة أخرى فى حارة السقايين، وكذلك قامت أول مدرسة لتعليم البنات، وفتحت هذه المدارس أبوابها للمصريين، جميعا دون تفرقة أو تميز، بين أقباط ومسلمين، وعندما وقعت مصر فريسة للإحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢، واجهت الكنيسة القبطية موجات تبشيرية جاءت فى صورة حملات ثقافية وتعليمية، ولم تنجح إلا فى استقطاب عدد ضئيل من الأقباط إلى المذهب البروتستانتى، ووقفت الكنيسة القبطية تدافع ببسالة ووطنية عن وجودها فى مواجهة غزو الكنائس الأجنبية.

علاء الدين عمرو حموده
كلية الإعلام ـ جامعة القاهرة

● عشنا معا ●

أقباط مصر ومسلموها كبّروا ... يوم العبور فمصر صاحت انفروا
وخصومنا كادوا لنا ولنيلنا ... وسعوا بغير الحق حتى يغدروا
أعماهم سفه الحلوم ومالهم ... إلا التباهى بالغرور وخنجر
وسياسة للغرب باتت تهتدى ... بالحقد نحو العرب ماتتغير
أرسوا هنا فى أرض يعرب دولة ... تحت اسم يعقوب النبى تُسخَّر
تحمى قضايا الغرب فى الشرق دائما ... لكنها ككلاب صيد تعقر
حرب الخليج قضت على أوهامهم ... من زيف إسرائيل جهلا تصوروا
قالوا افتراء مصر مزقها العدا ... أهل الهلال مع الصليب تشاجروا
وكلاهما أهل لمصر وأرضها ... عاشوا عليها هانئين وعمروا
عشنا معا شدنا معا سدنا معا ... فى السلم أو فى الحرب نبنى نعبر
حطين أو عين جالوت معا ... سيفا على من يعتدى ويزور
(صنداى) قطعت الروابط فرية ... تسعى وراء الساقطات تكبر!!
سيبوء بالخسران من يرجو لنا ... سوءا وتحيا مصر دوما تنصر
فبلادنا تحمى الحقوق لنفسها ... ولغيرها من غير مَنّ تثأر
أرض الكنانة حصن دين محمد ... أقباطها فى حضن مصر تحرروا
«فالدين للديان جل جلاله» ... والأرض بالإنسان تربو تثمر
النيل جمعنا بفيض وفائه ... تغيان أو عثمان بالحب يذكر
مصر الحبيبة إن دعت أبناءها ... لبى النداء جميعهم وتآزروا

سعيد عبدالقوى محمد
بنى سويف

● المصريون شعب واحد على مر التاريخ ●

● أعتقد أن الكثيرين منا قد أدرك المزاعم التى أطلقتها إحدى الصحف البريطانية، والدور الذى يلعبه بعض الصهاينة ومحاولاتهم المستمرة لضرب الوحدة الوطنية فى مصر.

ولهؤلاء أقول: إن الأقباط والمسلمين هم الذين عانوا من المعتدين الصهاينة، وهم الذين عبروا معا فى أكتوبر ١٩٧٣ ليحققوا الانتصار الكبير.

ومنذ عهد الزعيم سعد زغلول والذى نشأ فى الأزهر، إلا أنه ضاعف من مسئولية الأقباط فى العمل الوطنى، فرشح القبطى ويصا واصف لمنصب وكيل مجلس النواب عام ١٩٢٤، قبل أن يحصل ويصا على منصب رئيس مجلس النواب بعد وفاة سعد، ودخل الأزهر إثنان من زعماء القبط هما القس مرقس سرجيوس والقس بولس غبريال لكى يشتركا فى مؤتمرات الأزهر أثناء ثورة ١٩١٩.

إيهاب عمر ـ القاهرة

● الهلال ●

إن مثل هذه الحملات المعادية لمصر لن تتوقف أبدا، ولن تثنى عزمنا على مواصلة العمل ورحلة البناء من أجل الرخاء، وعلينا ألا نلتفت إلى الوراء، فهذه الحملات تظهر عادة حينما يجدون الأمل يطل برأسه لكى تحقق مصر النماء، أو يزداد رصيدها سياسيا ضمن المنظومة العالمية، ولاينبغى الدخول مع هؤلاء فى قضايا تصرفنا عن المهام الرئيسية لهذه المرحلة التى تسعى فيها مصر للتغلب على مشكلاتها، وإيجاد الحلول المناسبة لها.

لابد للقافلة أن تسير، وأن تكون كل طوائف الشعب يدا واحدة فى مواجهة دعاوى المغرضين!.

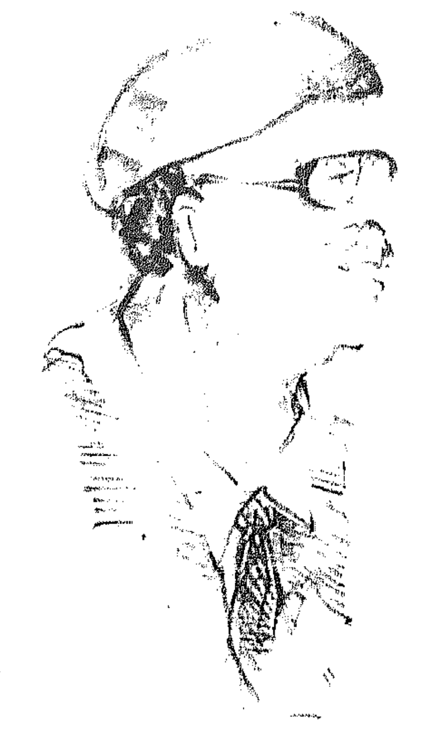
● جدلية خرساء ●

كانت ترّتب ما تقول
ولم يكن . فى خلدها
أن الكلام سينتهى
فى جب صمت قد سقط
واستنكرت لغة التفاصيل التى
قد خزنتها فى صناديق الزمن
بعد استطالات مضت
واستحكمت
كل الحروف تجمعت وتكثفت
وتجمدت
ثلج المرايا قد برق
حفظ الكلام وصانه
لاينسكب
لاينسرب
لايطرق الأبواب يشحذ نظرة
لايقترب
من هوة الجدل المثير السخرية
وعجائز الوعظ المضمخ بالعطور
عبر العصور المقفرة
وعصائر الحكم التى قد قطرت
لكنها لاتستطيع الآن غزل جدائل من قولها
أو تصنع القطع الثمينة من شفق
أو تخرج الأبطال من قبو الزمن
يغزون عين الشمس فوق الأسرجة
أو تنسج الثوب الذى

يكسو تفاصيل التضاد
أو تشتبك فى معركة
عند الصباح تثير نقصا مرسلا بين البشر
فى الألسنة

د. حسنة عبدالحكيم
كلية بنات عين شمس





أشعر بكل السعادة أننى إحدى القارئات المتابعات لمجلة الهلال المصرية، وأوجه شكرى وامتنانى لكل من يساهم فى إصدار مجلتنا المفضلة «الهلال» وهى التى مازالت تحافظ على عطائها المستمر لأكثر من قرن من الزمان، يتوارثها جيل بعد جيل، لاتنطفىء شعلتها والتى تشع بالثقافة رفيعة المستوى على أبناء العرب والمسلمين فى كل بقاع الدنيا، إننى أحيى كل من شارك فى إعداد الجزء الخاص عن توفيق الحكيم، وأتمنى مستقبلا أن تفرد الهلال عددا مستقلا لهذا الكاتب الكبير.

عالية بوزيدى
تونس

● الهلال ●

نشكر للقارئة العزيزة من تونس الخضراء هذه التحية الرقيقة، ونؤكد على هذا التواصل بيننا وبين القراء وقد أصدرنا فى منتصف الستينيات عددا خاصا عن توفيق الحكيم، وننشر تباعا كل جديد عن فكر هذا المفكر الذى أحدثت كتبه ثورة فكرية.

● بين الإبداع والأدب ●

قرأت الرسالة التى وصلت إلى الهلال من القارىء سمير أيوب تعليقا على قصتى المنشورة فى عدد أغسطس ١٩٩٨ بعنوان «أنا أحبك»، وأعلق عليها بالآتى:

فى عام ١٩٦٨ كنت مجندا فى وحدة للدفاع الجوى عن مطار أسوان.. كان الموقف مؤسيا فقد كنت أجلس على مدفع ٣٥ مم مداه ١٥٠٠ متر والطائرات الإسرائيلية تصورنا يوميا وهى تحلق على ارتفاع عدة كيلومترات، دون أن أستطيع أن أفعل لها شيئا، وفى صقيع أسوان فى الليل وساقاى متجمدتان على المدفع لا أحس بهما تقريبا، ولدت قصة «أنا أحبك» وكانت عن «محمد» الذى أصابته حرب ٦٧ بالشلل، والذى يجاهد للتخلص من

شلله ليحارب وينتصر.. وقد كان ذلك جوهر وجودى ـ ومن معى ـ كمقاتل يدافع عن المطار، بل وجوهر وجود مصر كلها آنئذ.

فى عزلتنا فى الصحراء أيامها رحت ألتهم الكتب الموجودة فى مكتبة عسكرية متواضعة بالوحدة ولفت نظرى فيها مآثر عسكرية متعددة، كان من بينها مأثرة الطيار السوفييتى الكسى ميرسييف الذى قاتل بلا ساقين، وكانت ساعتها لقية من الناحية الإنسانية فيما يخصنى.

خلال بعثة إلى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٧١ طلبت مساعدة مترجمتى فى العثور على مواد عن ميرسييف، وكان من بين ماتوفر بين يدى، ومن مكتبة عامة، رواية بوريس بوليفوى عنه، ورغم العناء الذى وجدته فى قراءتها أيامها بالروسية جاهدت لإكمالها.. أساسا جريا وراء حكاية ميرسييف، التى دونها بوليفوى عن لسانه.. وقد دونت آنئذ منها ومن غيرها بعض تفاصيل قصة ميرسييف.

فى هذه الآونة كنت قد درست الإبداع دراسة منهجية مسهبة، وفهمت أن هناك أوهاما شائعة حول مايحيط به من مفاهيم كالإلهام و... وللإيضاح يصلح مثال فتح العابرين ثغرات فى الساتر الترابى على القناة فى أكتوبر ١٩٧٣.

إن ماتعودنا أن نطلق عليه إلهاما فى الإبداع ليس تجربة بعيدة عن الفهم إذا ماخلصناها من هالات الغموض والتصورات الرومانسية والنرجسية.. إنه تفاعل وتجل لخبرات مفهومة، أو كد مخلص لذهن مهموم بمشكلة يحاول المبدع من خلالها حشد خبرات البشر السابقة، وتطويرها وتوظيفها لمواجهة المشكلة المهموم بها، وليس ذلك فى المجال العلمى أو التقنى أو الاجتماعى وحده وإنما فى كل المجالات، ولمن يهمه الأمر يمكن الرجوع إلى دراستى «السادس من أكتوبر والأوهام الشائعة حول الإلهام والعملية الإبداعية»، مجلة إبداع (٩٥/١٠) ومقالى «طريق العبقرية مفتوح للجهد والعرق»، مجلة الهلال (٨٥/١٢)، أو كتابين لى هما «لماذا لايبدع المصريون؟» ـ الهيئة العامة للكتاب ٩٨، «أنت عبقرى ولكن» ـ دار الأمين ٩٣.

وقررت الاستعانة بحكاية الطيار ميرسييف، وهى غير رواية بوليفوى الفائزة بجائزة الدولة، لقد استخدم بوليفوى الحكاية، وقدم من خلالها رؤية لايمكن أن تكون إلا: «أنظروا كيف انهار الجيش النازى أمام المقاتل الشيوعى الذى حارب تحت قيادة البطل العظيم ستالين»، وهى رؤية لاتعنينى هنا.. كما استخدم غير بوليفوى الحكاية نفسها لميرسييف، كل فى رؤية أخرى خاصة به، وأذكر أننى شاهدت فيلما عنها و... وقررت أن أستخدم حكاية ميرسييف فى تطوير قصة «أنا أحبك»، يوم ارتفع حديث الحمائم، وأن أستخدمها فى إطار رؤيتى المختلفة»، إن مصر لم تنته وأنها ستتغلب على الإعاقة التى حلت بها فى عام ٦٧ وستنتصر»، وكان رمز مصر هو صقر بطل القصة.

هل يجوز ذلك أدبيا؟ وهل خلطت بين مايجوز فى مجالات الإبداع الأخرى وبين مايجوز فى مجال الأدب؟.

لنترك الرد ليحيى حقى وهو يرحب بقصة توفيق الحكيم «أهل الكهف» (فجر القصة المصرية ص ١٢٥): و«اختيار المؤلف لموضوع معروف يذكرنا بقول جوته «لو بدأت حياتى الفنية مرة أخرى، لما شغلت نفسى بتأليف قصة من ذهنى ولاقتصرت دائما على إعادة كتابة القصص القديمة مع تموينها بمعان جديدة حيوية».. ويذكرنا كذلك بالتراجيديات اليونانية فى أدوارها الأولى، فقد كان أغلبها يدور حول موضوع قديم تعرفه النظارة قبل

أن يرتفع الستار.. «كقصة أوديب الملك التى انتفع بها أكثر من مؤلف واحد».. (ص ١٢٥).

إن الفيصل فى النهاية أن يكون لكاتب العمل الفني رؤية وأن تحس بصدقها وإمكانيتها أو إقناعها، وفى القصة القصيرة أن يكون هناك «أثر كلي واضح» وهو ما أعتقد بوجوده فى «أنا أحبك»، ومن المستحيل أن يوجد - هذا الأثر الكلى - فى عمل مسهب (أكثر من ٥٠٠ صفحة) مثل كتاب بوليفوى عن ميرسييف الذى أتذكر أنى قرأت فيه عن الكولخوزات ومحاكمة نورنبرج و.... وللأسف ليس بين يدى كتاب بوليفوى، وما أذكره أنه كان حافلا بالدعاية، والتزيد الذى يقتل التدفق الدرامي، والحيل «الفنية» الساذجة، وهذا مايجعل بالإمكان أن تصدر منه (ترجمة مختصرة) كما جاء فى رسالة الأستاذ سمير، فالعمل الفني لايختصر.. هل يعقل مثلا أن يأتى أحد ليختصر ثلاثية نجيب محفوظ بدعوى طولها؟! إن العمل الفني يقوم أساسا على «الوشي والحشو و....»، فقصة فلان أحب فلانة مثلا تناولها ملايين الكتاب والحشو والوشى هو ما اختلفوا فيه، وجعل أعمالهم رغم موضوعها الواحد أعمالا فنية.

بقيت إشارة إلى المبرر الفنى الذى جعلنى أفضل مأثرة ميرسييف، على غيرها من المآثر الكثيرة الشبيهة، لاتخذها رمزا فى قصتي، وهى ملابسات بداية حرب ٦٧ بضرب الطيران، وخدمتي فى الدفاع الجوى عن مطار أسوان، مما جعل عالم الطيران الموضوع الذى دارت حوله «أنا أحبك» منذ ولادتها عام ١٩٦٨، ناهيك عن التوظيف الفني لتفاوت درجة الحرارة في أسوان وإحساسى مع تقدم الليل والصقيع بفقد ساقيَ والشلل، لأعود واستردهما وأقاتل مع طلوع الشمس فى أول صياغة لـ «أنا أحبك».. وأخيرا لأن حكاية ميرسييف الواقعية تحجم مايبدو خطابية بعيدة عن الواقع فى تناول مثل هذه الموضوعات.

هذا عن قصة «أنا أحبك» أما عن المسابقة:

لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها لم أتعود الإلتفات إلى نشر قصة كتبتها ما لم تكن تشكل موقفا ملحا، لأن الفعالية الاجتماعية - وليس الشخصية - لذلك واهية فى ظروفنا الثقافية الراهنة، ولعل الأستاذ مصطفى نبيل يذكر أننى قدمت له قصة «اللقاء والفراق» للنشر عام ١٩٨٩ أيام تداعي الاتحاد السوفييتى وهجرة السوفييت إلى إسرائيل. وكانت القصة موقفا فى حينه، ولما لم تنشر لم أهتم بنشرها حتى تاريخه، وقد ساهم موقف شبيه فى ركن قصة «أنا أحبك» منذ اكتملت عام ٧٣ دون نشر.

إننى غير مغرم بالمشاركة فى المسابقات الأدبية (من المنطلق نفسه)، ولم أعرف بمشاركة «أنا أحبك» فى المسابقة المعنية إلا بعد أن حدثت، والحكاية أني كنت قد تزوجت حديثا، وعهدت بترتيب أوراقي لزوجتي، التي لم يرقها موقفى من كثير من الأعمال المنتهية المركونة.. وقرأت خبرا عن المسابقة فاستلت نسخا من «أنا أحبك» من على الكمبيوتر وتبرعت بإرسالها دون علمي، ولم يكن هناك مبرر للتنكر للقصة، بالذات وأن قيمتها الحقيقية تكمن فى رؤيتها الخاصة».. إن مصر التى عوقت فى يونيو ٦٧، استطاعت الجهاد حتى استعادت عافيتها فى أكتوبر ٧٣، وأثرها الكلى الخاص، وهما مادفعا أساتذة أجلاء إلى اختيارها للفوز، والإشادة بما فيها من انجازات فنية.

لعلى أكون قد أوضحت الأمر دون مبالغة فى الحديث عن عبق دماء الشهداء وعرق الأبطال و.... مع شكرى وتقديرى.

محمد فتحى

فيض اليقين

مطر يتلثم عارضه   بالهجر وكيف أعارضه؟
يستنكف فى سمت صباحى   عن وهج النهر فيومضه
وفراغ بين براثنه   يهدر ترحالى يدحضه
ما تبزغ من حولى إلا   أمشاج النزق تروضه
تتملق أفقى أعينهم   من حدب الجرز تقوضه
وعلى ألسنة تطلبنى   قلت وفيافى تفرضه
أيتها الساعات الرمدى   أعليك الليل أفاوضه؟
ونشيد الحلم على عينى   لفح من أسل يقرضه؟!
الجبل القابع فى نفسى   ما ألفى الدمع يمخضه
والظمأ الجاثم فى صدرى   لأيا للعارض يغمضه
برباى أغتر ولم يسأل   ما عن أغوارى يعرضه
بشق الغبنة تلو الأخرى   ماذا فى النجد يحرضه؟!
ياشجنا يأمت عن بوح   العنت ابستآبق معرضه
لست تصوب آفونا تربو   أو يأنت نبضك تركضه
تتداعى بى فى غبنته   وتئيض برهط تقبضه
فهوى قد سيق بشرعته   يلفظه القلب ويمهضه
لن يقهر صب أكبادى   رنقى خانته مرابضه
أثل الأمال به يربأ من   سفح القيد وينهضه
فيض بأرومة أبعادى   يرفع بيتى لا يخفضه
فيض يقين لا يوجنه   مطر يتلثم عارضه

محمد محمود عبدالجواد
الفيوم ـ البارودية البحرية

قياجرا!

لم أعد كهلا ضعيفا   زار قبل الموت قبرا
أمست الدنيا نجوما   ببحار الجنس سكرى
لم أعد لحنا كئيبا   فى الدرارى ليس يشرى
لى مع الأفراح ميعاد   بشط ضم بحرا
أيها المقهى ستمنا   النرد والشطرنج عصرا
وانتهى عصر سخيف   كان للأكفان جسرا
كم غدير فى انتظارى   كى أريق الشوق تبرا
أين إحباطى؟ لقد طار   مع الأطيار فجرا
إننى فذ فى كفى   أقراص (القياجرا)

د. هيثم الحويج العمر
دمشق

● بنت الشاطىء
وكفاح مشرف للمرأة المصرية ●

ولدت عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) فى ٦ نوفمبر ١٩١٣ بمدينة دمياط. ووالدها أحد علماء الأزهر الشريف، كانت أولى الناجحات في مصر في كفاءة المعلمات سنة ١٩٢٩، ثم حصلت على ليسانس اللغة العربية بامتياز سنة ١٩٣٩، وتزوجت من الشيخ أمين الخولى وكانت رحلتها في الدراسات العليا مشرفة حيث حصلت على الماجستير بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤١ ثم الدكتوراه فى الأدب بتقدير ممتاز من آداب القاهرة عام ١٩٥٠م.

هى نموذج مشرف لكفاح المرأة المصرية فى العمل الأكاديمي، وخلال تنقلها مابين المغرب والسعودية ومصر، تعمل فى حقل العلم، نالت احترام الجميع، وحققت الجوائز العلمية الرفيعة

لها أكثر من ٥٠ مؤلفا من بينها تحقيق رسالة الغفران ـ نساء النبى ـ أم النبى ـ التفسير البيانى للقرآن الكريم.

رحم الله بنت الشاطىء جزاء ماقدمت لوطنها

رجب عبدالحكيم بيومى
القاهرة ـ المعصرة

نموذج الإشتراك فى مجلة الهلال

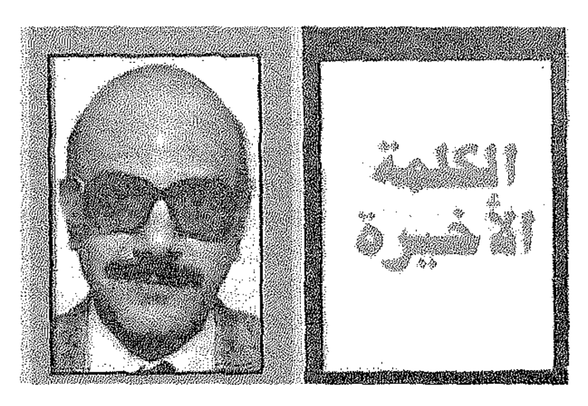
يمكنكم الحصول على خصم ١٠٪ من قيمة الاشتراك فى مجلة الهلال . بإرسال هذا الكوبون مرفقا به حواله بريديه غير حكومية داخل (ج.م ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الإشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لادارة الاشتراكات

الاسم ....

العنوان ....

مدة الاشتراك .... التليفون ....

	داخل ج.م ع	البلاد العربية	آسيا -أوربا أفريقيا	أمريكا الهند-كندا	باقى دول العالم
	جنيه	دولار	دولار	دولار	دولار
اشتراك سنوى	١٦	١٨	٣١	٣١	٤٠
إشتراك ٦ شهور	٨	٩	١٦	١٦	٢٠



بقلم : محمود أحمد

نحن .. و «الميديا» العالمية !

حملت إلينا صحف الصباح، فى الساعات الأولى الباردة، نبأ اعتزام مجلة «نيوزويك» الأمريكية إصدار طبعة عربية لكى توزعها فى منطقة الخليج وبلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا! .

ووجدت الخبر مزعجا.. ومستفزا!.

فأنا - كإعلامى قديم - يثيرنى ما أراه فى السنوات الأخيرة من طغيان تمارسه ضدنا «الميديا» العالمية التى تحقق كل يوم انتصارا على الإعلام العربى فى عقر داره وعلى امتداد ساحته الواسعة من المحيط إلى الخليج. وأظن أن زملائى من الإعلاميين المصريين والعرب يشعرون مثلى بالاكتئاب وهم يتأملون - فى عجز - كيف تستولى شبكات التليفزيون ومحطات الراديو العالمية (وأشهرها محطة «سى . إن . إن» الإخبارية والـ «بى. بى. سى» والهيرالد تريبيون) على جمهورنا من القراء والمشاهدين العرب. والمحزن، أن الإعلام العربى، فى عمومه، لايزال سادرا فى إتباعه أساليب وسياسات عفى عليها الزمن.. وهو بذلك «ينزف» مصداقيته كل يوم، ويخسر باستمرار لصالح «الميديا» العالمية التى تزداد توحشا وضراوة..

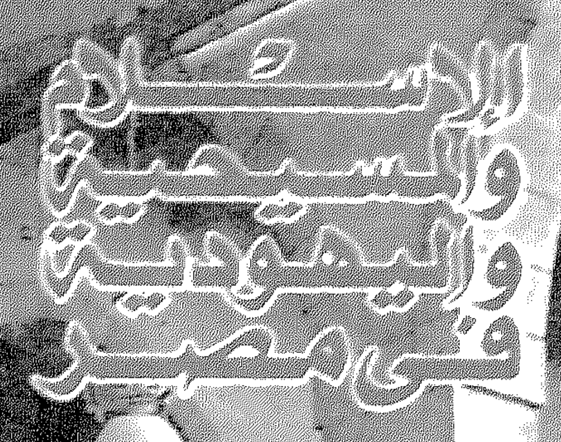
لقد كان الوضع مزعجا بما فيه الكفاية، رغم توجه وسائل الإعلام العالمية الطاغية إلى الجمهور العربى بلغتها هى - أى الإنجليزية أو الفرنسية مثلا - مما يجعل قدرتها على الانتشار محدودة إلى حد كبير. أما الآن وبعد أن بدأت «المطبوعات» أيضا تخطط للتوجه إلى جمهورنا بلغته الأصلية، وهو ما كان يقتصر من قبل على الإذاعة العربية الناجحة للـ «بى بى. سى» فإن الوضع يوشك أن يتحول إلى كارثة .. ولا أظننى مبالغا .

إن جميع الإعلاميين، المصريين والعرب، مدعوون إلى التحرك بسرعة .. لإنقاذ مصداقيتهم أمام جمهورهم وقرائهم ، باعتماد الأساليب الحديثة وإعلاء واحترام «الحقيقة» كأساس للعمل الإعلامى الناجح والفعال . فبدون ذلك ، لن تستطيع وسائل إعلامنا أن تسترد جمهورها الطبيعى، وبالتالى فإنها لن تتمكن من التصدى لطغيان «الميديا» العالمية التى تزداد مع الأيام ضراوة وتوحشا .

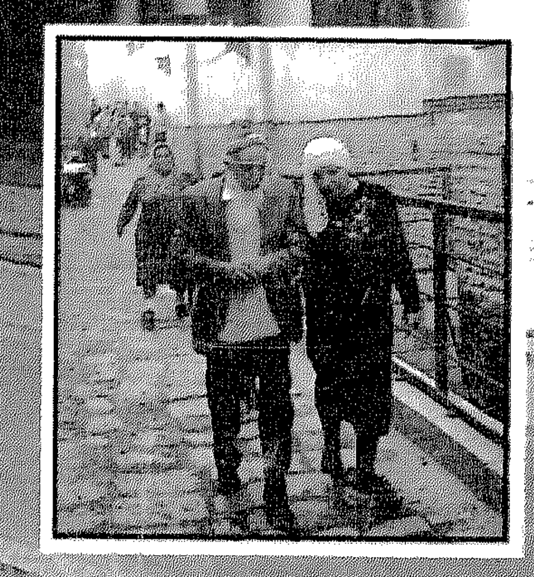
وأمل ألا يكون قد فات الأوان!.



فبراير ١٩٩٩ . الثمن ١٥٠ قرشاً



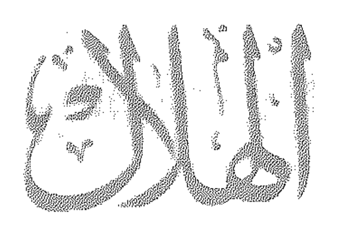






شخصية الأخ الأكبر

للفنان العالمى رامبرانت



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام السابع بعد المائة

فبراير ١٩٩٩ ● شوال ١٤١٩ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

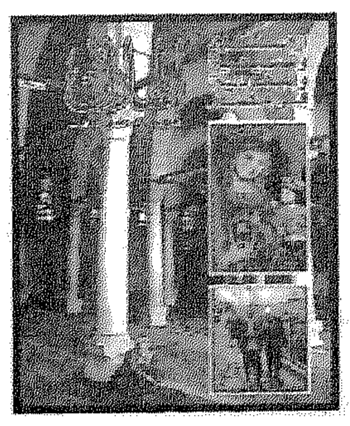
ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



الغلاف تصميم : حلمى التونى

فكر وثقافة

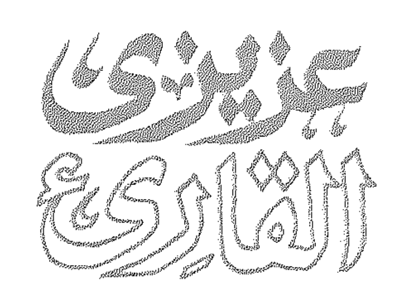
دائرة حوار

فنون

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة



لقـــاء الأديان

فى بقعة صغيرة من الأرض التى لا تتجاوز مساحتها كيلو متر مربع واحد ، يقوم دليل ساطع على ما عرفته مصر من سماحة ، وهى أرض الأنبياء بها أبرز علامات الأديان الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية ، شاهد على ذلك تلك البقعة التى ليس لها نظير فى أى مكان فى العالم ، والتى تضم رموز الأديان الثلاثة: جامع عمرو بن العاص أول مسجد أقيم فى مصر وأفريقيا، وأقدم كنائس مصر القبطية كنيسة أبى سرجة والكنيسة المعلقة ، ومعبد بن عزرا ، وغيرها من الكنائس والمساجد التى تلتف حول حصن بابليون فى مصر عتيقة .

ويدهش المرء فلماذا هذه البقعة من الأرض التى تطل على نهر النيل، والتى توالت عليها الأحداث الدينية ، فمنها على ضفاف النيل ألقى النبى موسى عليه السلام فى اليم ، ولجأ السيد المسيح والعائلة المقدسة الى أحد كهوفها هربا من بطش الامبراطور الرومانى، وأقام فيها الصحابى الجليل عمرو بن العاص جامعه .

وفى دروب هذا المكان تسمع الأذان الى جوار أجراس الكنائس مع ترانيم المعبد اليهودى ، وبها يؤدى أبناء الأديان الثلاثة شعائرهم فى طمأنينة وسلام .

يقوم فيها جامع عمرو بن العاص الذى بنى سنة ٢١ هـ / ٦٤ م الذى كان المسجد الجامع الذى يتشاور فيه المسلمون ويقيمون شعائرهم ، وكان الجامع عند قيامه يطل على نهر النيل ، وانحسر النهر مع الأيام الى الغرب ، وكان موضع الجامع - كما يذكر ابن عبد الحكم - جنانا وبساتين ، ولا يحتفظ اليوم الجامع من بنائه القديم سوى بالقليل .

ويلاحظ أن فن البناء خطا فى مصر خطوات كبيرة وله ملامح خاصة منذ قيام مسجد عمرو بن العاص ، وأخرج أشكالا يمكن ان يسمى كل منها طرازا قائما بذاته ، فالبون واسع بين جامع عمرو فى وضعه الأول وبين الجامع نفسه كما وصفه أبو عبد الله القضاعى فى القرن الرابع

الهجرى بعد تجديده ، وكذلك بينه وبين جامع ابن طولون والمساجد الفاطمية والمساجد المملوكية التى تطورت تطورا كبيرا خلال القرون الثلاثة التى عاشتها دولة المماليك.

ولمدة طويلة كانت تقام صلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فى هذا الجامع فى احتفال مهيب .

وتقوم فى هذا المكان كنيسة أبى سرجة، الكنيسة الأثرية العتيقة التى آوت العائلة المقدسة ، وقد عاش السيد المسيح فى فلسطين ولم يغادرها سوى إلى مصر التى أتى إليها فى طفولته، فرارا من الامبراطور هيرودس الذى أمر بقتل جميع أطفال بيت لحم الذى قال العراف أن أحدهم سيهدد ملكه. فجاءت العائلة المقدسة إلى مصر، ومروا بنحو عشرين مدينة كبيرة وقضوا فيها أربع سنوات، وورد فى سفر أشعياء النبى قول الرب «مبارك شعبى مصر»، وأقامت العائلة المقدسة فترة طويلة فى مغارة صارت اليوم جزءا من كنيسة «أبا سرجه» ويضم هذا المكان عددا كبيرا من الكنائس الأثرية التى يعود تاريخ بنائها إلى ما بين القرنين الرابع والثامن الميلاديين، كما تضم هذه المنطقة المتحف القبطى الذى يعرض ذخائر الفن المسيحى من الأيقونات والمخطوطات.

وفى هذه البقعة المقدسة وضعت أم موسى وليدها فى التابوت وألقته في اليم، واحتجزت سيقان نبات البردى الصندوق، ورأته إمرأة فرعون، فأمرت باحضاره ووجدت فيه طفلا جميل الطلعة، وقالت «لا تقتلوه»، «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا»، لذا أقيم معبد يهودى قديم يسمى معبد بن عزرا، وكان يعرف بمعبد الشوام يستقبل اليهود القادمين من الشام، وأقيم أيام مصر الطولونية وبه مخطوطات قديمة للتوراة والمزامير التى كتبت على جلود الغزلان..

وندعو اليوم إلى الاهتمام بهذه الآثار وترميمها وإعدادها لاستقبال الزائرين من كل أنحاء العالم، ويلمسون بما تتمتع به البلاد من سماحة وتعايش ويرون تعانق الأديان وتعايشها، كما يعيشون فى دروب التاريخ.

وهى أصدق تعبير عن التعايش والتسامح من المشروع القديم الذى يبنى فى وادى الراحة فى سيناء جامع وكنيسة ومعبد يهودى.

وسبق واستجاب د. ممدوح البلتاجى للمشروع الذى طرحناه بترميم واحياء طريق العائلة المقدسة فى مصر، ونطالب هذه المرة كلا من وزير السياحة د. ممدوح البلتاجى ووزير الثقافة فاروق حسنى باعداد هذه المنطقة حتى تجذب إلى مصر أبناء الأديان الثلاثة.

المحرر

تطور مصر السياسى

بقلم : د. رءوف عباس

يعد القرن العشرون من أهم قرون الألفية الثانية، وأكثرها خطراً. وأسرعها إيقاعاً ، وأغناها بالتغيرات السياسية الدرامية التى كانت لها انعكاساتها الاجتماعية والثقافية: ولما كانت مصر تحتل موقعاً بارزا على خريطة العالم، فإن سمات القرن العشرين تركت بصماتها على تطورها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى بصورة شديدة الوضوح . ويعنينا هنا ما جمعته مصر من حصاد القرن العشرين فى المجال السياسى.

جاء تغيير الوضع الدولى لمصر فى مقدمة مظاهر التغير السياسى التى شهدتها مصر فى القرن العشرين ، فقد افتتح القرن ومصر ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، ذات وضع خاص كفلته الفرمانات التى حصل عليها محمد على والخديو اسماعيل ، وصل إلى مرتبة الاستقلال الذاتى الكامل ، وهو وضع لم تغيره بريطانيا عند احتلالها مصر عام ١٨٨٢ حتى لا تصطدم بمقاومة فرنسا وغيرها من الدول الكبرى المنافسة لها ، وخاصة أن وضع مصر القانونى فى ظل الحكم الذاتى الكامل أتاح لبريطانيا السيطرة على البلاد دون حاجة إلى تغيير

وضعها طالما كانت السيادة العثمانية مجرد سيادة إسمية.

ولم تعن بريطانيا بتغيير وضع مصر الدولى إلا عندما انضمت تركيا إلى ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، فأعلنت الحماية على مصر فى ١٩١٤ وعينت الأمير حسين كامل ابن الخديو اسماعيل سلطاناً على مصر، أى أن مصر أصبحت سلطنة تخضع للحماية البريطانية، واتجه جهد المصريين عند نهاية الحرب إلى إلغاء الحماية التى عدها سعد زغلول باشا باطلة قانونا لأنها فرضت على مصر دون طلب منها ، فكان تشكيل «الوفد المصرى» عند نهاية الحرب يهدف إلى طرح قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح المنعقد فى باريس عام ١٩١٩.

واضطرت بريطانيا أن تعلن استقلال مصر فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ تحت ضغط الحركة الوطنية المصرية من طرف واحد فى تصريح مشهور سلب مصر لب الاستقلال بالتحفظات الأربعة التى أبقت مصر – من حيث الواقع – تحت الهيمنة البريطانية، لتصبح موضع مفاوضات دارت بين مصر وبريطانيا حتى انتهت بتوقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤ ، وتحولت مصر فى ظل دستور ١٩٢٣ إلى مملكة.

وطويت صفحة حكم أسرة محمد على بإعلان الجمهورية (١٨ يونيو ١٩٥٣) ثم قيام الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨) بوحدة مصر وسوريا، واستمرار الاحتفاظ باسم الدولة بعد الانفصال (١٩٦١) حتى تغير إلى جمهورية مصر العربية فى أوائل عهد السادات .

وهكذا شهد القرن العشرون تغير وضع مصر الدولى من ولاية عثمانية يحكمها خديو إلى سلطنة تحت الحماية إلى مملكة إلى جمهورية ، كما شهد مشكلة البحث عن الهوية.

انتماء مصر لدولة الخلافة

فقد كانت مصر فى مطلع القرن تتبنى فكرة الجامعة الاسلامية التى كانت خطا أساسياً فى حركة الحزب الوطنى ، طالما كانت هذه الفكرة تعنى الحفاظ على سلامة ووحدة أراضى الدولة العثمانية ، وتتمسك بانتماء مصر إلى دولة الخلافة الاسلامية، لأن الحزب الوطنى بنى نضاله على أساس أن الوجود البريطانى فى مصر وجود غير شرعى لأن مصر تخضع للسيادة العثمانية ، فكان التمسك بالتبعية للدولة العثمانية هو طوق النجاة من الاحتلال البريطانى ، ومن ثم كان التشيع لفكرة الجامعة الاسلامية التى يرعاها السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى يواكب التمسك بالتبعية العثمانية ، ويغطى على فكرة القومية المصرية التى طرحها أحمد لطفى السيد قبل الحرب الأولى على استحياء ، ويرفض فكرة القومية العربية باعتبارها تهدف إلى تمزيق أوصال الدولة العثمانية إلى كيانات قومية، قد يترتب عليها (لو قدر لها النجاح) أن تكرس الوجود الاستعمارى البريطانى فى مصر والفرنسى فى شمال افريقيا ، لذلك

وصمت الحركة الوطنية المصرية دعاة القومية العربية بالخيانة والعمالة للدول الأوربية الاستعمارية، ونفرت من الدعوة إلى القومية العربية .

ولكن قيام الحرب العالمية الأولى واعلان الحماية البريطانية على مصر، وهزيمة الدولة العثمانية (تركيا) فى الحرب، وضع مصر فى مفرق طرق البحث عن هوية، فاختفاء الدولة العثمانية بدد فكرة الجامعة الإسلامية ، وهناك ازدراء ونفور من فكرة القومية العربية ، فلم يكن هناك مفر من التمسك بالهوية القومية المصرية التى عبر عنها «الوفد المصرى» وقيادته التى تنتمى أصلاً إلى تيار القومية المصرية ، وعبرت عنه الجماهير فى ثورة ١٩١٩، وغذاه الكتاب الذين راحوا يروجون للفكرة المصرية باستدعاء تاريخ مصر القديم ، والتقليل من شأن الحقبة الاسلامية من تاريخ مصر .

غير أن الأمر لم يحسم لصالح القومية المصرية ، فقد أسال إلغاء الخلافة فى تركيا لعاب بعض حكام البلاد الاسلامية لحمل لقب الخليفة بما يضفيه على صاحبه من أبهة ونفوذ فى العالم الاسلامى، وكان من بين هؤلاء الملك فؤاد ، ورغم فشل هذا المسعى أعيد طرح الفكرة وتجديد المحاولة فى بداية عهد الملك فاروق. وكان التطلع إلى الخلافة يستلزم استخدام الاسلام كأداة سياسية فى يد الملك، ومن ثم النفخ فى الأزهر، وتحويله إلى مؤسسة دينية رئيسية يستخدمها الملك لتحقيق أطماعه فى الحصول على الخلافة بقدر ما يستخدمها فى تدعيم سلطته الأوتقراطية وتبرير اعتدائه على الدستور.

الانتماء القومى

هذا اللعب بفكرة إحياء الخلافة ، وما استلزمه من تضخيم دور الأزهر وما سمى بهيئة كبار العلماء ، أعاد طرح الفكرة الاسلامية بإلحاح ترك آثارا سلبية على الانتماء القومى المصرى، وفتح الطريق أمام قيام جماعة الإخوان المسلمين التى تبنت هذه الفكرة مستفيدة من فشل التجربة الليبرالية ذات التوجه العلمانى التى كان رموزها دعاة القومية المصرية .

ورغم حرص ثورة يوليو ١٩٥٢ على ابراز التوجه القومى المصرى فى سنواتها الأولى من خلال بعض الإيماءات مثل نقل تمثال رمسيس إلى ميدان باب الحديد واعادة تسمية الميدان وشارع الملكة إلى ميدان وشارع رمسيس ، ونقل رفات محمد فريد إلى ضريح مصطفى كامل فى موكب مهيب ، والتركيز على الهوية المصرية فى مناهج التعليم العام والاعلام ، إلا أن النظام ظل يحتفظ بالدين كأداة سياسية من خلال الإبقاء على حجم الأزهر ودعم المؤسسة الدينية لتصبح سندا للنظام ، وخاصة بعد الاصطدام بالإخوان المسلمين وتصفية دورهم .

وإذا كانت ثورة ١٩٥٢ قد اكتشفت التوجه القومى العربى وأهميته لدعم دور

مصر الاقليمى نتيجة موقف الشعوب العربية المساند لمصر أيام العدوان الثلاثى (١٩٥٦) ، وتأكيد هذا التوجه من خلال الوحدة مع سوريا وقيام الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨). فإن الطريقة التى قدمت بها القومية العربية فى مناهج التعليم العام ووسائل الاعلام بمصر ، ركزت على الأخوة فى الدين واللغة المشتركة .. الخ ، واستدعت الأمجاد الاسلامية التى كانت مصر طرفا رئيسياً فيها إلى جانب الشام، فأضاف التوجه القومى العربى الجديد فى مصر إلى رصيد الفكرة الاسلامية خصما من رصيد الفكرة القومية المصرية، دون أن يؤدى إلى تأصيل التوجه القومى العربى بين الجماهير المصرية تأصيلا حقيقيا.

ولعل ذلك يلقى بعض الضوء على أزمة الانتماء التى تعانى منها مصر عند ختام القرن ، بقدر ما عانت فى بدايته ، فقد نشأ جيل العشرينات مشبعا بالزهو القومى المصرى الذى أطلقته ثورة ١٩١٩، وعانى جيل الأربعينات من الحيرة بين التوجه الاسلامى والتوجه القومى المصرى حتى استقر عند الانتماء القومى المصرى مع قيام ثورة ١٩٥٢ ثم يفاجأ بالانتماء القومى العربى، ثم يعود السادات إلى صرح اتجاه مصرى إسلامى هجين ، وانعكس ذلك كله على خطة الاعلام وخطة التعليم العام ، فلم يجدد الشباب استقرارا إلا لفكرة الانتماء الاسلامى الذى غذاه السادات بإطلاق العنان للإخوان والجماعات الإسلامية ، بينما ازدادت حيرة من شغلتهم قضية الانتماء والهوية.

ثورتان فى القرن العشرين

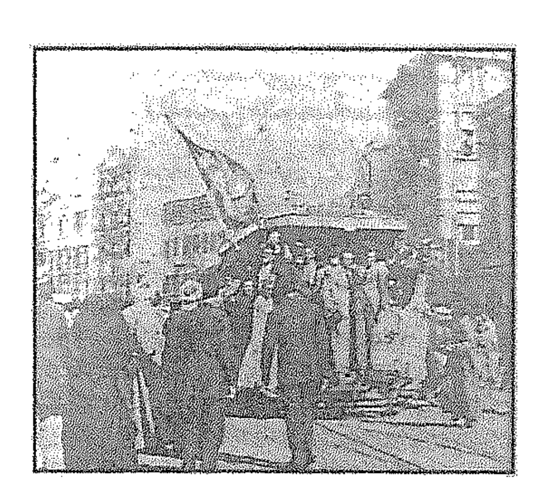
وقد شهد القرن العشرون ثورتين: ثورة ١٩١٩، وثورة ١٩٥٢. وكانت الأولى ثورة شعبية بكل المقاييس، هبت فجأة دون قيادة عندما يئس الشعب من امكانية تحقيق أمانيه الوطنية فى الاستقلال والعدالة الاجتماعية، وعندما وجد الانجليز ينفون الساسة الذين يمثلون التيار المعتدل المتعاون مع الانجليز لمجرد تحركهم فى اتجاه «السعى كلما وجدوا للسعى سبيلا لتحقيق الاستقلال»، فكان اندلاع بركان الثورة التى شارك فيها العمال والفلاحون والطلبة، واتسمت بالعنف الموجه ضد رموز السلطة ورموز الاستغلال الاجتماعى معا . وقد سارعت قيادة «الوفد المصرى» التى فاجأتها الثورة على غير توقع، إلى احتواء الثورة من خلال لجان الوفد ومن خلال الجهود المضنية التى بذلها عبد الرحمن فهمى بك الذى يرجع إليه فضل صناعة الصورة السياسية لسعد زغلول كرمز للعمل الوطنى وكقائد للثورة . وكان الطابع التلقائى الذى اتسمت به الثورة وغياب التنظيم الثورى المعبر عن الجماهير التى شاركت فى اشعال جذوتها، كافيا لتحويل حصادها لخدمة البورجوازية المصرية التى تصدت لقيادة العمل السياسى ، والتى



محمد على



الخديو عباس



ثورة ١٩١٩

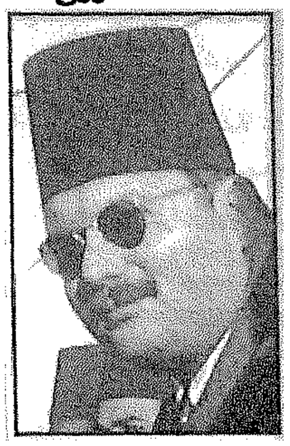


الجماهير فرحة بقيام
ثورة يوليو ١٩٥٢

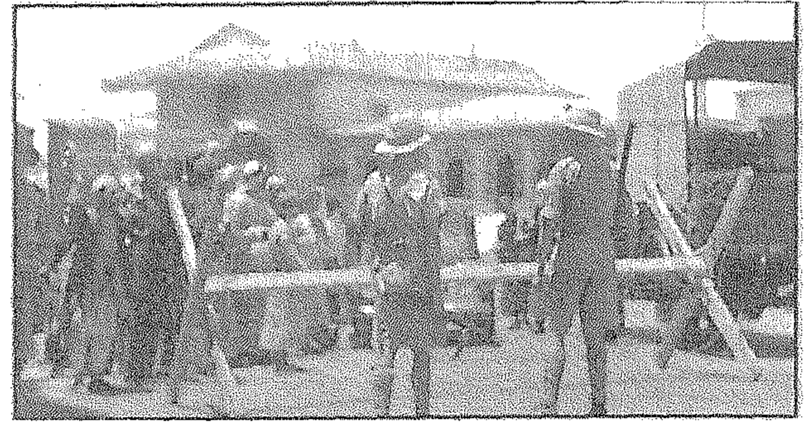
سعد زغلول



الملك فاروق

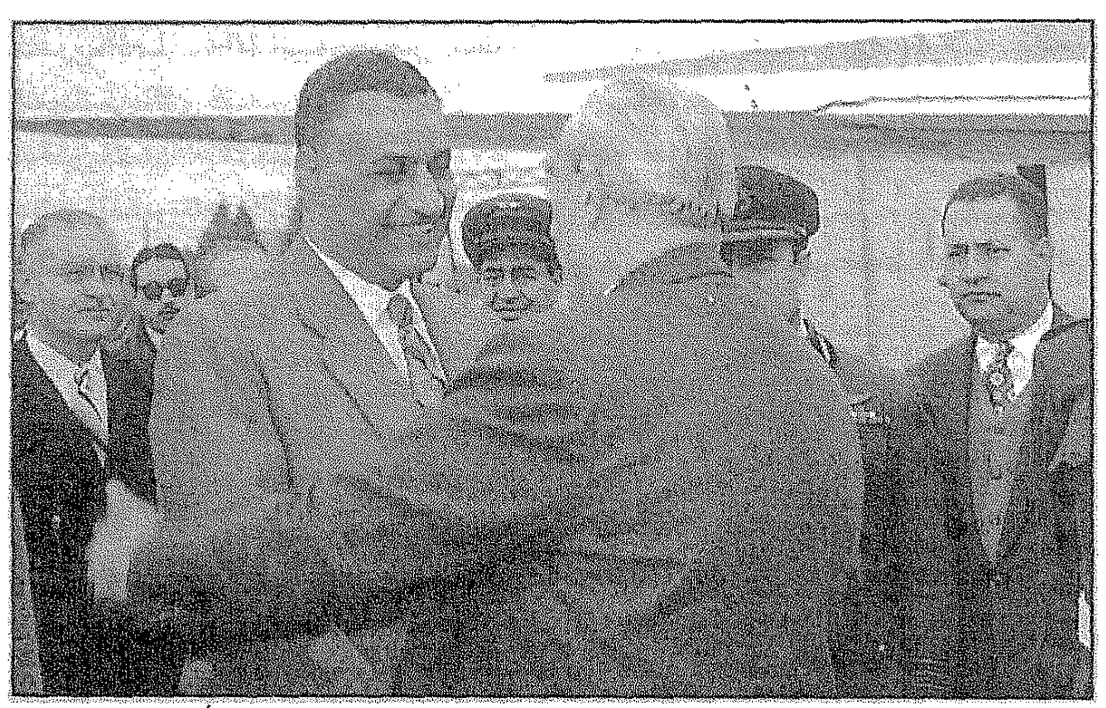


تطـــــور

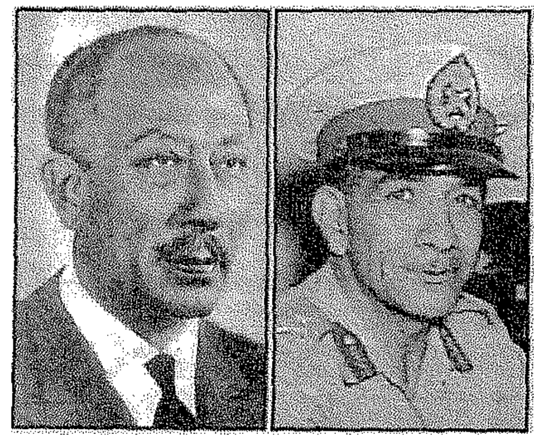

الثورة الفلسطينية ١٩٣٦


جمال عبد الناصر

إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ولقاء حار بين جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى



محمد نجيب — أنور السادات



مصر السياسى

جعلها العنف الثورى ودلالاته الاجتماعية تميل إلى محاولة الخروج من المأزق بالالتقاء مع الانجليز فى منتصف الطريق، فكانت التطورات التى أدت إلى صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ودستور ١٩٢٣.

ولكن ثورة ١٩١٩ لم تنجح فى تحقيق الأهداف التى حركت الجماهير لاشعالها وهى الاستقلال الوطنى والعدالة الاجتماعية، فظل الوجود الاحتلالى كما هو، ودفعت مصر ثمنا باهظا لمساندة المجهود الحربى لبريطانيا وحلفائها فى الحرب العالمية الثانية وعجز النظام السياسى الذى أقامه دستور ١٩٢٣ عن تحقيق الاصلاح الاجتماعى المنشود، بل حفلت العشرينات والثلاثينات بالانقلابات الدستورية التى دعمت السلطة الاوتقراطية للقصر ، وحفلت الأدبيات السياسية بالحديث عن ثالوث الفقر والجهل والمرض الذى جسد عجز النظام السياسى عن تحقيق الأمل المنشود فى العدل الاجتماعى.

ثورة يوليو

وهكذا خرج الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتغيير النظام عن طريق الانقلاب العسكرى، الذى حمل اسم «حركة الجيش المباركة» ولما كان صناع الانقلاب يمثلون أبناء الطبقة المتوسط الصغيرة التى عبرت عن أمل الجماهير فى تحقيق الاستقلال الوطنى والعدل الاجتماعى ، وكانوا يمثلون جبهة وطنية جمعت ضباطا ينتمون إلى مختلف الاتجاهات السياسية فيما عدا الوفد والأحزاب الليبرالية وطرحوا برنامجا مبدئيا فى المبادىء السبعة الشهيرة يلقى قبولاً عاماً، وخاصة ما اتصل بالعدالة الاجتماعية والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم ، والتعبير العملى عن ذلك باقرار الاصلاح الزراعى ، ثم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية ، فقد كان ما تحقق على يد طليعة الضباط الأحرار فى حقيقة الأمر «ثورة».

وقد استطاعت ثورة يوليو أن تحقق الاستقلال الوطنى بتوقيع معاهدة الجلاء ، والتصدى للعدوان الثلاثى ، وتبنى سياسة وطنية مستقلة ترفض كل محاولات التبعية، وآمنت أن تحقيق الاستقلال الوطنى يتطلب احاطة مصر بمجال خال من الوجود الأجنبى ، فكان التأييد الفعلى لحركة التحرر الوطنى فى الوطن العربى وأفريقيا، والاشتراك فى تأسيس حركة عدم الانحياز ولعب دور القوة الاقليمية المستقلة وخاصة عندما تمت الوحدة بين مصر وسوريا، ورغم وقوع الانفصال كان دعم ثورة اليمن يعد متغيرا استراتيجيا اقليميا خطيرا يجعل لمصر اليد العليا فى البحر الأحمر إضافة إلى امتلاكها لقناة السويس، مما أدى إلى اتجاه الغرب ممثلا فى حلف الأطنطى إلى التخطيط لتصفية الدور الاقليمى لثورة يوليو الذى تم فى يونيو ١٩٦٧.

وعلى الصعيد الاقتصادى والاجتماعى، رفعت ثور يوليو التوجه الليبرالى، وعملت على فتح الطريق أمام الرأسمالية المصرية لتقود التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنها أخطأت التقدير، فقد ظنت أن هناك جناحين للرأسمالية المصرية أحدهما يستثمر فى الأرض والآخر يستثمر أمواله فى قطاع الأعمال ، وظنت أن الإصلاح الزراعى يجعل قطاع الأعمال ينفرد باجتذاب الاستثمارات . ولكن فى حقيقة الأمر كانت الرأسمالية المصرية تعمل فى القطاعين معا، وجعلها الاصلاح الزراعى تحجم عن الاستجابة لإغراءات النظام الجديد ، وتضيع فرصة ذهبية أتاحها لها النظام بقرارات التمصير ١٩٥٧ . وعندما وجدت الدولة أن عليها مواجهة حالة الركود الاقتصادى والمضى قدما على طريق التنمية، اضطرت أن تأخذ على عاتقها إدارة الاقتصاد، فكان القطاع العام ، وكانت الإجراءات التى حملت اسم «القرارات الاشتراكية» وكان التوجه الاشتراكى المبتسر الذى طرح منذ عام ١٩٦١.

لقد حققت ثورة يوليو نجاحاً ملحوظا فى بناء الاقتصاد الوطنى، فأنجزت السد العالى ، ووسعت نطاق الصناعة ، كما حققت انجازات كبيرة على صعيد التنمية الاجتماعية، ولكن ضربة ١٩٦٧ ، وعملية اعادة بناء القوات المسلحة لتحرير التراب الوطنى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ استنفدت الكثير من الموارد الاقتصادية وأثر على الخدمات تأثيراً سلبياً.

وبعد نصر أكتوبر ١٩٧٣، حاول أنور السادات أن يجد حلاً للأزمة الاقتصادية من خلال التوسع فى الاستدانة من الخارج وتبنى ما سمى بسياسة الانفتاح مما أدى إلى حدوث خلل فى البنية الأساسية صرفت مصر العقدين الأخيرين من القرن فى محاولة اصلاحه ، ويطوى القرن صفحته تاركا مصر تعانى سلسلة من الأزمات الاجتماعية الناجمة عن تخلى الدولة عن إدارة الاقتصاد وتصفية القطاع العام.

أزمة ..!

كذلك شهد القرن العشرون أزمة النظام السياسى المصرى فى الحقبتين الليبرالية وثورة يوليو من حيث غيبة الديمقراطية ومحدودية المشاركة السياسية سواء في ظل دستور ١٩٢٣ أو في ظل الدساتير التى صدرت في عهد ثورة يوليو. ففى ظل دستور ١٩٢٣ كان كبار الملاك الزراعيين يحتلون مقاعد البرلمان بمجلسيه: النواب والشيوخ، واتجه التشريع فى الأغلب الأعم إلى خدمة مصالح تلك النخبة الحاكمة . وبدأ ارساء التقاليد البغيضة لتزوير إرادة الناخبين من خلال تزوير الانتخابات، بل تمادى القصر فى عدوانه على الدستور تعطيلا وإلغاء،

وأدى ذلك إلى ظهور حركات الرفض الاجتماعى على يد الشباب الذى صدمه فشل التجربة الليبرالية فى تحقيق الأمانى الوطنية فراح يبحث عن إيديولوچيات بديلة كالاشتراكية التى بدأت بذورها فى مصر مع مطلع العشرينات أو الفاشية التى عبرت عنها حركة مصر الفتاة ، أو التوجه الاسلامى الذى عبرت عنه حركة الإخوان.

ورغم رفع ثورة يوليو لشعار الديمقراطية واعتبار تحقيق «الديمقراطية السليمة» من بين أهدافها ، إلا أن الممارسة السياسية الفعلية جاءت عكس ذلك ، فتم التوسع فى دائرة الخاضعين للعزل السياسى لتشمل كل اتجاهات المعارضة كما غيب ممثلو هذه الاتجاهات فى السجون والمعتقلات، واستمر تقليد تزوير الانتخابات حتى فقدت الجماهير الاهتمام بممارسة حقها الانتخابى. وينتهى القرن وعلى أرض مصر رجال ونساء وصلوا سن الشيخوخة دون أن يدخلوا لجنة انتخابية ليقينهم أن ممارستهم لحقهم الانتخابى لن تغير من نتائج الانتخابات طالما كان «التقفيل» أداة فعالة لحسم الأمور لصالح مرشحين بعينهم، وليشهد العقد الأخير من القرن عدداً كبيراً من الأحكام ببطلان انتخاب نواب تربعوا على مقعد النيابة.

ولا نستطيع أن نختتم الرصد التاريخى للتطور السياسى فى مصر فى القرن العشرين دون أن نلقى نظرة على دور مصر فى قضية فلسطين .

النشاط الصهيونى

فمن الثابت تاريخياً أنه لم يكن هناك إدراك فى مصر لخطورة ما يدور على أرض فلسطين إلا عند وقوع ثورة فلسطين عام ١٩٣٦، أما قبل ذلك فلم تشهد مصر اهتماماً بالنشاط الصهيونى فى فلسطين بل على العكس ، كانت مصر تلعب دور المحطة التى تستقبل يهود أوربا بين الحربين العالميتين فى طريقهم إلى فلسطين، ولعبت الجالية اليهودية فى مصر دوراً فعالاً فى دعم النشاط الصهيونى بصورة أو بأخرى.

ولذلك عندما قامت الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦، بدأت مصر تحس بخطورة وجود كيان صهيونى على حدودها الشرقية مع جاراتها العربيات ، وهو ما عبر عنه النحاس باشا رئيس الوزراء عندئذ . وبدأت الحركات السياسية المختلفة فى مصر تضع القضية الفلسطينية فى اعتبارها منذ ذلك التاريخ.

وكانت قضية فلسطين - أيضاً - وراء اهتمام مصر بمشروعات الوحدة العربية التى طرحت فى الأربعينات ، وفى لعب مصر الدور الأساسى فى إقامة جامعة الدول العربية ، وبذلك أصبحت مصر طرفا أساسياً فى القضية التى تعد - قبل أى اعتبار آخر - قضية أمن قومى مصرى ، وظلت كذلك حتى نهاية القرن .

تقسيم فلسطين

وشهدت مصر جدلاً سياسياً عريضاً وحركات شعبية نظمت مظاهرات صاخبة عند طرح مشروع تقسيم فلسطين عام

١٩٤٧، فكان التيار الغالب فى مصر يعارض التقسيم ويدعو إلى استقلال فلسطين. وما لبثت أن انسحبت بريطانيا من فلسطين وأعلن قيام الدولة الصهيونية، وكان لابد من اعتراف عربى بقيامها، فسيقت دول الجامعة العربية إلى حرب لم يعد لها ولم يحسب حسابها عام ١٩٤٨ انتهت لصالح الكيان الصهيونى الوليد وتوقيع اتفاقية الهدنة التى كانت اعترافا ضمنياً بإسرائيل .

ورغم غياب خطة عربية لتحرير فلسطين ، ظل «تحرير الوطن السليب» شعارا تردده الأنظمة العربية دون أن تعنيه بما فى ذلك مصر ، وإذا كان قيام ثورة يوليو من تداعيات حرب فلسطين ١٩٤٨ التى كشفت فساد النظام وعجزه فإن الثورة لم تعمل على تحرير فلسطين ، رغم رفضها لفكرة الصلح مع إسرائيل عندما طرحتها الولايات المتحدة فى ٥٣ - ١٩٥٤ ورغم اشتراك إسرائيل فى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ ، فقد ظل النظام يرى ضرورة تأمين عمل عربى مشترك لتحقيق هذه الغاية ، ومن هنا كانت دبلوماسية مؤتمرات القمة العربية التى كانت سلبية تماماً . وكان الخط السياسى المصرى والعربى هو المطالبة بتطبيق قرارات الأمم المتحدة التى تنص على عودة اللاجئين الفلسطينيين أو تعويضهم والالتزام بخطوط التقسيم الذى وضعته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧.

وعندما تورطت مصر إلى الوقوع فى فخ هزيمة يونيو ١٩٦٧ حدث تحول جوهرى فى الموقف من قضية فلسطين بمجرد قبول القرار ٢٤٢ الذى نص على الانسحاب من الأراضى التى تم احتلالها فى ١٩٦٧ مقابل حدود آمنة ومعترف بها . ورغم رفض مصر للهزيمة والجهود المضنية التى بذلت لإعادة بناء القوات المسلحة والتضحيات التى بذلت فى حرب الاستنزاف وما تحقق فى أكتوبر ١٩٧٣ من نصر ، إلا أن الخط السياسى المصرى أصبح التركيز على تحرير التراب الوطنى (سيناء) وانهاء حالة الحرب مع إسرائيل مع محاولة التوصل إلى تسوية «مناسبة» لحقوق شعب فلسطين إذا كان ذلك ممكناً فى اطار سلام شامل.

وينتهي القرن ومصر تجد نفسها لا تملك الفكاك من الالتزام بقضية فلسطين فى ظل تبدد حلم السلام الشامل بسبب المراوغة الإسرائيلية والدعم المطلق الذى تلقاه إسرائيل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وتظل القضية الفلسطينية قضية أمن قومى مصرى لا يستطيع أى نظام أن ينفض يديه منها دون أن يتحمل وزر التفريط فى الأمن القومى ويفقد بذلك مصداقيته .

حديث نفس مغتربة

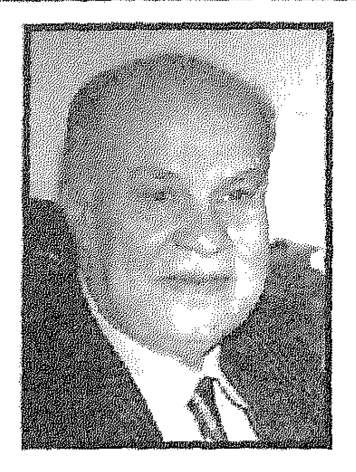
الدكتور محمد ابراهيم الفيومى استاذ للفلسفة فى جامعة الازهر ، تخرج فى الفلسفة على يدى الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود ، وأتم دراسته - بناء على مشورة استاذه وبفضل معاونته ، فى جامعة باريس ، كما فعل استاذه من قبل . وإذا كانت رسالة الدكتور عبد الحليم محمود عن الحارث المحاسبى (وهى مطبوعة بنصها الفرنسى) قد ارهصت باتجاهه الصوفى ، فان رسالة الدكتور الفيومى عن «القلق الإنسانى» تنسجم كل الانسجام مع هذا العنوان الذى عنون به سيرته الذاتية : «أيامى : حديث نفس مغتربة» .

وأحسب أنه زاوج بين عنوانين حتى لا يلتبس الأمر على من ينظر الى هذا العنوان المضاف وحده «حديث نفس مغتربة» فيحسب انه أمام رواية ، أو اعتراف ، أو نوع آخر من الكتابة الذاتية المحضة ، والدكتور الفيومى - كما عرفنا بمنحاه الفكرى فى هذا الكتاب نفسه ، لا يرى للفكر قيمة إلا إذا خرج من حدود الذاتية الى الموضوعية . وقد جمع بين الطرفين باضافة الأيام الى ياء المتكلم ، ولا ننسى أيضا ما فى هذا العنوان الأول من إشارة الى كتاب «الأيام» لطه حسين .

وما أظن أن الدكتور الفيومى قد استطاع الخلاص - أو حتى حاول الخلاص - من هذه الازدواجية .. فالفلسفة عنده صادرة عن معاناة ذاتية ، ولذلك نعده بلا حرج فيلسوفا وجوديا مسلما : و «القلق» ، عنوان رسالته للدكتوراه ، هو اصطلاح جوهرى فى الفلسفة الوجودية ، غير أن الشائع أن «القلق» لا وجود له فى الفكر الاسلامى ، وهى فكرة خاطئة رسخها جمود الفكر الإسلامى على مدى القرون المتطاولة .

وكل من يقرأ فى كتاب «مقالات الإسلاميين» للأشعرى ، وهو - على قدر علمى - أقدم نص يعرفنا بالمراحل الأولى فى تاريخ الفكر الإسلامى - لابد أن يدهش لمقدار الغليان الفكرى الذى كان أبرز ملامح القرنين الأول والثانى للهجرة ، وهما - فى الوقت نفسه القرنان اللذان شهدا حركة الفتح الإسلامى كما شهدا تأسيس الدولة الإسلامية . لقد قامت فى ذهن الطالب الواعد محمد ابراهيم الفيومى فكرة «القلق الإنسانى» موضوعا لرسالة الدكتوراه ، على أثر دراسته لموضوع «العقيدة والعقل عند الغزالى» فى مرحلة الماجستير ، والقرابة بينهما ظاهرة ، تنبىء عن شعور شخصى ، ومقلق ، بأزمة الفكر الإنسانى بين اليقين والشك ، أو لنقل : بين اليقين والتساؤل ، ولم يثنه

بقلم : د . شكري محمد عياد


د . محمد ابراهيم الفيومى

استاذه عن الخوض فى هذا الموضوع الذى يبدو شائكا فى نظر المتزمتين ، كما يبدو «غير ذى موضوع» عند من يأخذون بالظواهر ، أو يسلمون بالأفكار السائدة دون تأمل أو فحص . ومن هؤلاء من قال له : ليس فى القرآن قلق ... ولعل هذا هو ما دعا الباحث الشاب الى الاتجاه بموضوعه نحو الفلسفة الحديثة ، أو الفلسفة العامة ، ولاشك أنها السائدة عند أقطاب الفكر الفلسفى فى عالمنا العربى المعاصر ، ويكفى أن نذكر منهم : عبدالرحمن بدوى ، وزكى نجيب محمود ، وعثمان أمين ، وفؤاد زكريا . وربما كانت دراسة الفلسفة الأوربية المعاصرة هى المدخل الضرورى لكل فيلسوف عربى معاصر ، كما أن دراسة الأدب الأوربى والنقد الاوربى هى المدخل الضرورى لكل من يريد أن يقدم جديدا فى النقد العربى المعاصر أو الادب العربى المعاصر .

أغتراب النفس دليل قلق

ولكننى لا أشك فى أن الدكتور الفيومى ، بعد هذه المقدمة ، عائد - أو هو قد عاد بالفعل - الى دائرة الفكر الاسلامى بمزيد من التعمق الذى لا تعوزه الجرأة ، كما لا تعوزه الاناة ولا الصبر ، وكلها صفات راسخة فى تكوينه الشخصى.

نعم ، إن «اغتراب النفس» هو دليل القلق . والقلق حالة مصاحبة لكل تغير ، سواء أكان تغيرا نحو الأفضل أم نحو الأسوأ وهو على الحالين ظاهرة صحية ، فحتى اذا كان التغير نحو الأسوأ فالقلق يعنى رفض هذا الأسوأ . إنما الذى نخشاه على أمتنا هو أن تترك القلق وتستسلم للحالة السيئة فهذه الحالة من شلل الإرادة هى نذير فناء الأمم . ويخطىء من يدعى أن حالة القلق التى كانت السمة المميزة للفكر الإسلامى فى القرنين الأول والثانى كانت نتيجة لدسائس رجال من الأقطار المفتوحة دفعهم الحقد العنصرى أو المذهبى الى الكيد للإسلام بنشر الأقاويل الفاسدة ، فمع التسليم بوجود هؤلاء فإن الجدال معهم - وهو ما نهض به - المعتزلة الأوائل على وجه الخصوص - انتقل بالفكر الإسلامى من حالة الإيمان المطلق - أى الايمان بالله الواحد خالق كل شىء - الى حالة البحث عن العلل المباشرة أو التساؤل عن الأسباب ، وهو ما لا يناقض الايمان ، ولا يخرج عن أصل الإسلام ، والايمان

بالموجود الأسمى ، الذى هو أصل كل الموجودات وكل القوانين ، لا يخلو من حالة من القلق عندما يقف الإنسان حائرا امام الموجودات الجزئية ، متسائلا عن حكمتها وكيف يسوغ الادعاء بأن القرآن الكريم لا يعرف القلق وفيه مثل هذه الآية « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » وصاحب الرسالة يقول - عليه الصلاة والسلام - «إنى ليغاق على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم سبعين مرة» ؟

كأنى ابدأ الكلام عن هذه السيرة الذاتية بآخر فصل فيها ، فهل تجد فى ذلك شيئا خارجا عن المألوف أو المنتظر ؟ لعل هذا صحيح ، ولكن الخروج على المألوف هنا هو ما يمليه العقل . فكاتب السيرة ليس محمد ابراهيم الفيومى طفل القرية ، ولا الطالب اليافع فى معهد الزقازيق الدينى ، حتى ولا الطالب فى كلية أصول الدين ، ولكنه الدكتور محمد ابراهيم الفيومى المفكر الناضج ، وهو لا يكتب فى زمن قبل الثورة ، ولا فى أى عهد من عهود الثورة ، ولكنه يكتب سنة ١٩٩٨ وقد جنينا ، ولا نزال نجنى ، من العهود السابقة كلها ، حلوها ومرها .

فهو فكل ما يكتبه عن الماضى إنما ينظر بعين الحاضر . وإذا كان قد أحسّ معنى «الاغتراب» إحساسا مبهما فى مراحل حياته السابقة ، فإن إحساسه بالاغتراب فى وقتنا الحاضر أشد وضوحا وإيلاما . ولعلك تعرف أنه تولى أمانة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية مرتين - وأحسبه لا يزال يحمل هذه الأمانة - الى جانب قيامه بالتدريس فى جامعته . فهل تحسب أن شغله لهذا المنصب أرضاه وأسعده أو جعله أقل قلقا ؟ ما أظن ذلك ! بل هو لا يذكره مرة واحدة فى ثنايا هذه السيرة . وأقول : لعله فرغ من كتابتها فى زمن سابق لسنة الطبع ، ولكننى أقول أيضا : من يقدر على الزعم بان إصلاح الفاسد ، أو تقويم المعوج ، عمل يمكن أن يتم فى سنوات قليلة ؟.

على كل حال هذا بعض ما يقوله عن «أهل الثقة» (ولا أدرى : هل من حسن الظن أو من سوئه أن نحسب من يتولى منصبا مثل أمانة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية داخلا فى عداد أهل الثقة) .

«من هنا طفح الشعور بالكآبة على أهل الثقة من قبل النظام الحاكم ، ومن ناحية أخرى : كان من غضب الله عليهم أن أحل سخطه وغضبه من أنفسهم على أنفسهم ، ومن الشعب ، وثالثة الأثافى فى أنهم أى أهل الثقة طغاة ملأ الخوف قلوبهم من أنفسهم على أنفسهم فيتآمر كل على أخيه ، ومع عدوانية التآمر تبرز خواطر تجوب مع الذاكرة يتمنى فيها كل لأخيه قصاص العدالة الإلهية كلما ازداد الشعور بالظلم والإرهاب السياسى » (ص ٢١٤) .

ولا أعنى بهذه الإشارة الى أصحاب المناصب أو «أهل الثقة» وما يكونون فيه من كآبة وخوف وعدوانية ، إن ذلك نوع من «القلق» المفضى الى التغيير نحو الأفضل، أو إلى مقاومة التغيير نحو الأسوأ ، وإنما هو عرض من أعراض الانحدار ، نسأل الله أن يعيننا على

الخلاص من شره . فما هو إلا التدمير المتبادل . على أنه ليس العرض الوحيد ، أو المرض الوحيد ، فثمة عرض آخر أو مرض آخر اكثر شيوعا ، لا ينجو منه كبير ولا صغير ، وهو الذاتية المفرطة ، حتى ان الواحد منا لا يتجاوز حدود «الأنا» في آرائه أو اهوائه ، ولا يقبل أن يكون للآخر «أناه» أيضا ، فترى الواحد منا لا يصغي الى ما يقوله الآخر ، بل لا يكاد يقبل وجود هذا الآخر الى جانب وجوده هو ، أو كما يروى الدكتور الفيومي عن أحد اساتذته الفرنسيين : «ما اجتمع عربيان في مكان إلا اختلفا» . ويقول الفيومي نفسه متعجبا وساخرا :

« ما بالنا نحن العرب - من دون البشرية - نحسن الحديث فرادى عن مشاكلنا ونلهو بها سمرا في مجالسنا ، أما حين نجتمع لنتفق على وجهة نظر تجمع بيننا ، أو بين آرائنا ، ترانا نختلف الى حد الصراع ، فلا نحسن تفاهما ولا حوارا ، وينغلق كل واحد على نفسه يناجي ذاته ، وينعي نفسه ، متحسرا على ما تنطوى عليه دخائل نفسه من نفائس الحكمة ، ثم يقول متحسرا مع تصاعد آهات طيبة : ياليت قومي يفقهون!» (ص ٢١٠) .

عشق عجيب للذات

ولعلنا نتساءل حين نقرأ هذا الوصف الدقيق لقدرتنا الرهيبة على الاختلاف ، وعشقنا العجيب لذواتنا : أليس هذا هو أصل الداء ، فكلنا نتحدث عن «الديمقراطية» ، يستوى في ذلك من هم في السلطة ، ومن هم خارج السلطة ، ولكننا لن نكون «ديمقراطيين» ، إلا إذا سلمنا بأن للآخرين وجودا مثل وجودنا ، وحقوقا مثل حقوقنا ، أو بعبارة أخرى : إذا خرجنا من ذاتية «الأنا» الى موضوعية الجماعة ، التي تتمثل في قانون يخضع له الجميع ، أو مؤسسة لها نظام يحقق مصلحة عامة . أليست الحقيقة هي أن في أعماق كل منا دكتاتورا صغيرا أو كبيرا ؟ وربما كانت هذه النزعة الدكتاتورية قائمة ، ظاهرة او كامنة في نفوس البشر جميعا ، ولكن الذي يحد منها هو الشعور بقوة المؤسسة . لذلك كانت الحضارة دائما من عمل مؤسسات ، لا من عمل أفراد .

على ان كلمة «مؤسسة» ، مثل كلمة «ديمقراطية» ليست كلمة سحرية تفتح بها مغاليق الكنوز ، فقد تجتمع فئة على أمر فيه مصلحة تجمع بين افرادها ، وان كانت مناقضة لمصلحة الأمة ، فتقيم هذه الفئة «مؤسستها» التي ترعى الفساد وتحميه ، ولابد لها من استخدام شتى اساليب القهر تارة ، والخداع تارة أخرى، لتبقى ، الأكثرية عاملة ناصبة خاضعة لما تمليه عليها الفئة المحظوظة .

وهناك نوع آخر من «المؤسسات» يساهم في استغلال هذه الأكثرية البائسة، وهو «الطرقية» كما يسميها الدكتور الفيومي ، وإن كانت تسمى نفسها «الطرق الصوفية» ، وهم شيع متناكرة ، أحالت الدين الى مجموعة من الخرافات والممارسات اقرب الى الوثنية ، ولكنها تقدم لعامة الناس ملجأ يفرون اليه من الشعور بالظلم والعجز عن مواجهته .

وهكذا يبدو اننا أدخلنا انفسنا بمحض إرادتنا في حلقة مفرغة :

فانحصار كل فرد منا داخل ذاته جعل الاستبداد هو النظام الوحيد الذى يصلح لتدبير حياتنا المشتركة . والفرد المستبد لابّد له من أعوان، وما دام هؤلاء الأعوان من نفس طينتنا ، فهم أيضا لا يفكرون فى غير ذواتهم ، ولا يجتمعون الا لمصالحهم ، فلا تعنيهم مصالح الأكثرية ، وهكذا تجد الأكثرية نفسها وقد أهملت آراؤها ، وضيعت مصالحها ، فيزداد كل فرد عكوفا على ذاته ، وهكذا دواليك .

فأصل الداء عندنا ليس فى أننا لا نملك مؤسسات ، بل فى أننا نملك مؤسسات فاسدة ، ويعبر الدكتور الفيومى عن ذلك بقوله فى فاتحة كتابه :

«إننا لا نفتقر الى المبادىء التى توصلنا الى اليقين فحسب ، بل إننا ايضا نملك مبادىء أخرى تتمشى مع الباطل وتدعو اليه ، وذلك يزيد من إحساس الإنسان بالغربة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وبخاصة اذا كان يحس بأنه صاحب رسالة يعمل على أدائها ويرجو من الله قبول عمله » .

كيف السبيل الى الخروج من هذه الحالة ؟

نقول نحن ، ولعلنا نختلف - إلى حد ما - مع ما يقوله الدكتور الفيومى . إننا بحاجة الى ان يدخل «القلق» فى صميم ثقافتنا القلق الخصب الذى يدعو الى التساؤل الدائم .

فلو أن كل واحد من المتحاورين لم يكن شديد الثقة بما يقوله - وما يقوله هو غالبا كلام فارغ ، أى فى أحسن الأحوال دعوى بغير دليل ، وفى معظم الأحوال ألفاظ ليس لها مفهوم واضح فى الذهن ، ولا مدلول معين فى الواقع المحسوس - لو لم يكن كل واحد من المتحاورين واثقا بما يقوله الى درجة اليقين ، لاستطاع ان يصغى الى كلام محاوره . ولو استطاع المتحاوران ان ينفقا على فكرة ما لأمكنهما ان يجرياها فى الواقع العملى دون يقين مسبق بنجاحها ، فإذا لم تنجح فما على الواحد منهما الا أن يطرح أسئلة جديدة ، وهلم جرا .

فالقلق - ما لم يكن قلقا مرضيا - معناه التساؤل المستمر . هذا هو القلق الفلسفى ، وهو وإن ارتبط بالمذهب الوجودى خاصة ، بداية لكل تفكير فلسفى ، ولعل كل مذهب فلسفى يدعى انه وصل الى نوع من اليقين ، مبنى على مقدمات عقلية ، ووقائع يمكن ادراكها بالعقل ، ولكن اكثر المذاهب الفلسفية الحديثة واوسعها تأثيرا ، كالماركسية والبرجماتية والوضعية المنطقية ، لا تقدم الا منهاجا فى التفكير ، تعرف به ويقوم عندها مقام اليقين الدينى ، وقد يتفق معه او لا يتفق .

يقول الدكتور الفيومى عن اتجاهه الى البحث الفلسفى بعد نشأته الدينية : « ولا ينبغى ان يسلك بالدين سبيل الفلسفة ولا بالفلسفة سبيل الدين ، ولا يطلب اليقين عن طريق الفلسفة لأنها لا تملكه وإن كانت تشير الى مسالكه ، وإنما ينبغى ان يطلبه اليقين من الدين ... سيظل الدين واحة للوجدان المطمئن ، بينما الفلسفة تمرد عقلى والحياة تتردد بين الايمان والتمرد .

« فى حين لو كنت ضحيت بتعاليمى

التى تلقيتها فى شبابى لأرحت نفسى من عناء هذا القلق .. لأن السعى وراء الحقيقة هو الذى نظم معظم رؤياى السابقة للاشياء . ولا اعتقد ان هذا جعلنى اكثر سعادة وحسب ، بل انه بالطبع قد زاد شخصيتى عمقا ، جعلنى ازدرى التفاهات ولا اكترث بالسخرية ... وهكذا ففى حالتى الخاصة اعتقد ان السعى وراء الحقيقة كان شرا وخيرا . ولكنها فى نظرى لا تنطوى الا على الخير » (ص ١٤٤)

غير أنه يقول قبل ذلك بقليل «إن معرفة لها مثل هذه الخصائص لا يقوى عليها إلا الفلاسفة » (ص ١٤٢) .

وهنا نخالفه ، فتساوى الأدلة فى نظر - الفلسفة - على صحة العقيدة الدينية او عدم صحتها لا يعد «معرفة» الا بمعنى الاطلاع على مواقف المذاهب الفلسفية المختلفة من الدين ،وهذا نوع من التدريب العقلى لا يفيد «معرفة» وانما يفيد نوعا من المرونة الذهنية . وليس هو كل الفلسفة، بل ان أهم المذاهب الفلسفية المعاصرة لم تعد تشغل نفسها بالحقائق المطلقة أو الغيبية التى يقوم عليها الدين : ويبقىُ ثمة موضوع مشترك بين الدراسات الفلسفية وهو البحث فى طرق التفكير وعلاقتها بالواقع المحسوس . ولاشك ان معرفة هذه الطرق - وان اختلفت أو تعددت - مفيد لكل انسان .

لاشك ايضا إن التوسع فى الدراسات الفلسفية - كغيرها من الدراسات - لا يقدر عليه إلا القلة ، ولكن الفكر الفلسفى ضرورى لكل انسان ، لان ثمرته ، وهى القدرة على طرح الأسئلة ، تجعل الأجوبة التى يتلقاها الانسان - سواء أكان طالبا فى مدرسة أم باحثا فى مختبر الحياة - واضحة الصواب أو واضحة الخطأ ، أو باعثة على طرح اسئلة جديدة ، وهذه الحركة الذهنية هى ما يجعل الإنسان قادرا على التعلم ، قادرا على الاكتشاف والاختراع .

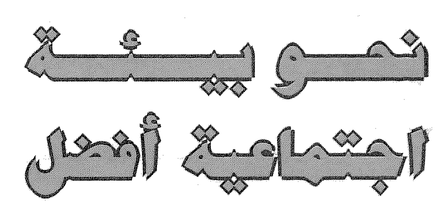
وقبل ذلك كله إن المنهج العقلى الواضح يجعل التفاهم بين الناس أيسر ، فتتحدد نقط الاتفاق ونقط الاختلاف دون عناء .

لذلك كان القدماء يسمون الفلسفة «الحكمة» ، وصاحبها «حكيم» ، وكان الحكماء كثيرين عند العرب منذ العصر الجاهلى ، وهم فلاسفة شعبيون ، استمدوا فلسفتهم من واقع الحياة حولهم.

وقد وصف الدكتور الفيومى فى القسم الاول من كتابه الذى خصصه لنشأته فى احدى قرى محافظة الدقهلية ، وصف واحدا من هؤلاء الحكماء وصفا رائعا ، ولعله هو الذى وجهه - صبيا فى نحو العاشرة - الى دراسة هذه الفلسفة دون ان يعرف احدهما اسم الفلسفة أو يسمع به .

ولولا أن المؤسسة الدينية عندنا مازالت تحيط الفلسفة بكثير من الريبة ، لكان لثقافتنا شأن غير هذا الشأن ، ولحياتنا شأن غير هذا الشأن . □





نحو بيئة اجتماعية أفضل

بقلم: د. مصطفى سويف

لا يجوز أن ننسى الاهتمام بأحوال البيئة الاجتماعية ونحن فى غمرة الدعوة إلى الاهتمام بصيانة البيئة الطبيعية، وذلك لسبب رئيسى مؤداه أن الأضرار التى يوقعها بنا فساد الأولى لا تقل شأنا عن الأذى الذى يصيبنا من تلوث الثانية، كل ما فى الأمر أن ملوثات البيئة الطبيعية تصيبنا أساسا فى صحتنا البدنية، بينما تستهدف عناصر التدهور فى السياقات الاجتماعية مقومات الصحة النفسية لدينا أولا وقبل كل شئ. وقد اعتدنا أن نهون من أمر الاضطرابات والأمراض النفسية عموما وهو خطأ فادح ندفع ثمنه غاليا.

والواقع أن ما يلزمنا فى هذا المقام هو أن نرفع إلى أعلى مستويات الوعى فى نفوسنا الصورة الحقيقية لما وصلت إليه أحوال بيئتنا الاجتماعية فى العقود الأخيرة على مقاييس الصحة النفسية القومية، فقد أفقدها وابل التغيرات المتلاحقة والشاملة معا (وذلك تحت وطأة عوامل لا حصر لها ما بين سياسية واقتصادية وعمرانية لا سبيل إلى الخوض فيها هنا) كثيرا من المقومات الجوهرية للبيئة الصحية، وهى المقومات الفعالة فى إشاعة الأمان، والإشباع، والإعلاء، فكانت النتيجة النهائية أن أصبحنا الآن فى مواجهة بيئة تغلب فى تكوينها مكونات تشيع التهديد، والإحباط والتهبيط، وهو ما يعنى إجمالا أننا أصبحنا تحت رحمة بيئة ممرضة أساسا. هذه هى الصورة التى لا يجوز أن نغفل عنها أو نتجاهلها. ولذلك رأيت أن أكرس المقال الراهن لإلقاء الضوء على نقطتين رئيسيتين: أولاهما، أتناول فيها الكيفية التى تمرضنا بها هذه البيئة، وهدفى من ذلك إكساب الصورة مزيدا من الوضوح والإلحاح سعيا بها إلى مزيد من الإقناع بأننا أمام خطر يستحق كل الاهتمام والتدبير للقضاء عليه، أو على أقل تقدير، للتخفيف من آثاره القريبة والبعيدة، وهذا أضعف الإيمان. والنقطة الثانية: أقدم فيها إشارات وتنبيهات باقتراح الطرق إلى العلاجات المجدية.

كيف تنفذ فينا آثار بيئتنا الاجتماعية؟

قلت فى مقال سابق إن الأصل فى علاقة الإنسان (كفرد أو كجماعة) بالبيئة

أنها الملجأ الأول والأخير أمامه لقضاء حاجياته التى تضمن استمرار بقائه.

وأضيف فى المقال الراهن عنصرا تفصيليا محدودا، وهو أن الإنسان فى سعيه لقضاء هذه الحاجيات المعيشية يتوقع ألا يكلفه التعامل مع هذه البيئة أكثر من حد أدنى من الانفعال والتفكير، وذلك لاعتياده على السير فى مسالكها وألفته بقيودها ومشاكلها، مما يعنى أنه كوّن مجموعة من العادات يستطيع الاعتماد عليها بصورة شبه آلية تعينه على تكريس معظم جهوده (أيا كانت طبيعة هذه الجهود) لبذلها فى محاولاته إنجاز أهدافه. وقد يتوقع الشخص فى ظل ظروف معينة أن تكون البيئة مواتية، بمعنى أن يكون لها بعض التأثيرات الإيجابية فى إنجاح مساعيه المعيشية، فإذا تنازل عن هذا التوقع فلا أقل من أن يأمل فى حيادها. ولكن فى ظل ظروف وملابسات أخرى يكتشف الشخص أن بيئته تتحول شيئا فشيئا إلى مصدر لأقدار متزايدة من مطالب ببذل جهود إضافية، أى إ ضافة إلى كم الجهد الذى كان عليه أن يدبره أصلا لإنفاقه فى سبيل الحصول على أهدافه. وهنا يتولد فى نفس الشخص شعور سيئ بالمشقة. ومع زيادة حجم الجهد الإضافى المطلوب واتساع مدى تنوعه يزداد حجم المشقة التى يعانى الإنسان من وطأتها. وأعود هنا فأذكر القارئ بأن البيئة الاجتماعية تواجهنا بآثارها فى هذا المجال الذى نحن بصدده من خلال أبعاد ثلاثة رئيسية، هى: الأمان فى مقابل التهديد، والإشباع فى مقابل الإحباط، والإعلاء فى مقابل التهبيط. ومعنى ذلك أنه كلما كانت الجهود الإضافية التى لابد لنا من بذلها صادرة عن أكثر من وجه من وجوه البيئة هذه كانت المشقة المترتبة على هذه المطالب أشد وطأة على نفوسنا. وللقارئ أن يقدر الآن إلى أى مدى تصل وطأة المشقة على نفوس المواطنين وقد أضحينا بصدد بيئة تحركت معظم عناصرها مسافة طويلة فى الاتجاهات السالبة أو المعاكسة على أبعادها الثلاثة بحيث أصبح الغالب على ما تقدمه لنا هو التهديد، والإحباط، والتهبيط.

حقيقة المشقة

يستخدم لفظ «المشقة» على نحوين

مختلفين : أولهما الاستخدام اللغوى أو القاموس الشائع فى حياتنا اليومية ، ويشار به إلى مجرد ثقل أمر ما على النفس ، مع قدر من الضيق به . وثانيهما استخدام اصطلاحى يلتزم به المشتغلون بالعلوم الطبية والطبية النفسية ، وهو ما أقصد إليه تحديدا فى هذا المقال : وكان أول من استخدمه فى المجال الطبى هانز سيلى ، وهو عالم مجرى ، بدأت محاولاته المبكرة تتبىء بمنحاه فى هذا الاتجاه فى مقال نشره فى مجلة «الطبيعة» سنة ١٩٣٦ ، وبلغت خطواته مستوى ملحوظا من النضج فى مقال نشره فى مجلة «العلم» سنة ١٩٥٢ لفت الأنظار على نطاق واسع إلى أهمية المعنى الاصطلاحى الطبى لمفهوم المشقة وأقوه عند هذا المعنى منذ ذلك الحين ، وهو : الإشارة إلى مجموعة من الاضطرابات العضوية والنفسية تكشف عن نفسها معاً فيما يعرف باسم «زملة المشقة» أو «بروفيل المشقة» ، أى مجموعة الأعراض والعلامات العامة (غير النوعية) التى تظهر على أى مريض بغض النظر عن نوعية مرضه ، وهى بذلك تلخص مكونات

رد الفعل العضوى والنفسى الذى يصدر عن الشخص فى مواجهة المرض من حيث هو مرض ، لا من حيث هو المرض الفلانى بعينه . وتمتد جذور رد الفعل هذا عادة لتشمل فاعلية جهاز المناعة ، والجهاز العصبى من حيث اقترانه بنشاط الغدد المفرزة للهرمونات . وقد بارك هانز سيلى فيما بعد جهود الامتداد بالمفهوم محدداً على هذا النحو إلى عالم الاضطراب والأمراض النفسية ، وذلك فى مقال له نشر سنه ١٩٨٢ . ومنذ ذلك الوقت تقريبا ذاع الاستخدام لدى علماء النفس لينضموا بذلك إلى مسيرة الأطباء النفسيين والبشريين فى جهودهم العلمية المتواصلة لاكتشاف المزيد من الحقائق عن العوامل الفاعلة فى ترسيب «زملة المشقة» والتأثير فى أبعادها بالزيادة والنقصان. وقد حفز ذلك أكاديمية العلوم فى نيويورك مؤخراً إلى إصدار مجلد كامل من حولياتها رفيعة المستوى بعنوان «المشقة فى الحياة» ، وكان الإصدار فى أوائل عام ١٩٩٨ . وتتراوح الموضوعات المنشورة فى المجلد بين أقصى النظرة العضوية من ناحية وأقصى النظرة النفسية

من ناحية أخرى وهى النظرة التى تكرس معظم الاهتمام للكشف عن العوامل النفسية والاجتماعية المرسبة للمشقة .

من المشقة إلى المرض

هناك نقطتان رئيسيتان لا يجوز أن يغيبا عن أذهاننا ونحن بصدد النظر فى أحوال بيئتنا الاجتماعية وعلاقتها بموضوع المشقة : النقطة الأولى أن هذه البيئة أصبحت كما أوضحت من قبل تواجهنا أساساً بالتهديد والإحباط والتهبيط . والثانية أن هذه القسمات الثلاث صارت لها صفة الاستمرار ، وهو ما يدعم ويرسخ آثارها المؤذية فى نفوسنا وفى أنسجتنا الحية . بل ويجعل هذه الآثار تراكمية على مر الأيام؛ ومن هنا (بالضبط) تصبح «زُملة المشقة» محطة على الطريق إلى عدد لا بأس به من الأمراض النفسية والنفسية العضوية . يقول إيلرت وستراوب فى مقال لهما منشور فى المجلد الذى أشرت إليه منذ قليل حول ردود الأفعال الانفعالية والفيزيولوجية المستثارة فى مواجهة مصادر المشقة النفسية : إن مصادر المشقة فى وقعها على الأشخاص تستثير العديد من الانفعالات . وهذه تؤدى إلى تنشيط غير سوى للجهاز العصبى بشقيه الإرادي واللاإرادى ، وإلى اختلال في إفراز أنواع بعينها من الهرمونات، وارتفاع فى ضغط الدم ، وزيادة فى سرعة ضربات القلب .

ثم إن هذه الاختلالات فى مجموعها تتسبب فى ترسيب عدد من الأمراض النفسية والنفسية العضوية . وفى بحث آخر منشور فى المجلد نفسه يتحدث عدد من الباحثين على رأسهم جوردان لاوك عن هرمون أمكن اكتشافه حديثا يطلق عليه اسم سترسين (نسبة إلى اللفظ الإنجليزى المعبر عن معنى المشقة) تبين أن نسبته فى الدم تزيد كثيرا عند الأشخاص الذين يتعرضون للمشقة لمدد طويلة متصلة . وفى دراسة ثالثة منشورة فى المجلد نفسه أيضا يقدم أندرو ستيبتو ما يشهد بأن ضغط الدم (بشقيه الإنقباضى والانبساطى) يرتفع ارتفاعا محدودا عند أى شخص فى مواجهة مواقف المشقة التى يفرضها على نفسه ، وهى المواقف التى نصنفها باعتبارها أنواعا من التحدى لكنه يرتفع إلى مستويات أعلى من ذلك بكثير إزاء مواقف المشقة المفروضة عليه

من خارج ذاته والتى تخرج عن دائرة حساباته ومخططاته . والخلاصة التى يخرج بها القارىء من هذه البحوث وغيرها أنه أصبح مقطوعا به أن المشقة المستثارة بفعل عوامل نفسية واجتماعية تكون مصحوبة بتغيرات فيزيولوچية تشمل العديد من الأنسجة والأجهزة فى أجسامنا وفى مقدمتها الجهاز العصبى والغدد الصماء ، والجهاز الوعائى القلبى وجهاز المناعة .

القلق والاكتئاب والإنهاك النفسى

توالت نتائج البحوث على امتداد نصف القرن الأخير كاشفة عن العلاقات الوثيقة بين استثارة المشقة من ناحية والإصابة بالقلق والاكتئاب من ناحية أخرى .

وقد عرف المشتغلون بالبحث أو بالعلاج فى هذا المجال ، عرفوا منذ الأربعينات العلاقة المنتظمة بين تعرض الإنسان للمشقة مدة طويلة واحتمالات إصابته بالقلق مقرونا بقرحة المعدة ، والإثنى عشر أحيانا أخرى، وفى الأمعاء الدقيقة والغليظة أحيانا ثالثة ، أما معلوماتنا عن ارتباط المشقة باحتمالات الإصابة بالاكتئاب فحديثة العهد نسبيا (أواخر السبعينات) ، وهى تستند أساساً إلى بحوث عالم النفس الأمريكى المعاصر مارتن سليجمان . ويغلب على المشقة المثيرة للاكتئاب أن تكون مشبعة بعناصر الإحباط المؤدية للشعور بالعجز فى مواجهة الحاضر واليأس إزاء المستقبل، ويطلق على هذا النوع من الإكتئاب أحيانا اصطلاح «العجز المكتسب».

وأخيرا وليس آخرا فقد بدأ علماء هذا المجال من الدراسات يكتشفون فى السنوات العشر الأخيرة اضطراباً يكشف عن نفسه فى زملة جديدة تضاف إلى زملتى القلق والاكتئاب أطلقوا عليها اسم «الإنهاك النفسى» . وقد أوردت هيئة الصحة العالمية ذكره فى الكتاب العاشر لقواعد تصنيف الاضطرابات النفسية والسلوكية الصادر سنة ١٩٩٢ . وأهم أعراض هذا الاضطراب كما أوردتها هيئة الصحة العالمية ما يأتى : الشعور بالإرهاق عقب بذل أى مجهود ذهنى ، يصحب ذلك انخفاض مستوى أداء الشخص فى عمله ، وضعف فى وظيفة

تركيز الإنتباه وفى كفاءة عمليات التفكير لديه ، ويفصح الاضطراب عن نفسه أحيانا فى شكل شعور بالإرهاق عقب بذل أي مجهود جسماني ، ويكون ذلك مصحوبا بإحساسات بآلام عضلية منتشرة فى أجزاء مختلفة من الجسم ، مع عجز عن الاسترخاء .

وفى جميع الحالات ينتاب المريض إحساسات بدنية نفسية مزعجة كالدوار ، والصداع المصحوب بالتوتر ، والقابلية لسرعة الاستثارة ، والعجز عن الاستمتاع هذا بالإضافة فى بعض الحالات إلى مشاعر الاكتئاب والقلق واضطراب النوم.

هنا أرى لزاما عليَّ أن أتوقف قليلا لأقدم تلخيصا لمسيرة الأفكار المطروحة منذ بداية المقال : فقد وصل السوء بالبيئة الاجتماعية لدينا إلى أن أصبحت مرسّبة لزملة أعراض المشقة وهذه تزداد تمكنا من أعداد متنامية من المواطنين ، وتعتبر أعراض المشقة هذه التى استمرت لمدد طويلة متصلة كيانا جنينيا لاضطرابات وأمراض نفسية لا تلبث أن تفصح عن نفسها ؛ وهكذا أدى الأمر إلى توالد أعداد متزايدة من حالات القلق والاكتئاب والإنهاك النفسى . ومن ثم يمكن تلخيص الصورة العامة الآن فى القول بأن أعدادا متزايدة من المواطنين تترسب لديها أعراض المشقة ،كما أن أعداداً متزايدة من هؤلاء ينحدر بهم تيار المعاناة إلى ترسيب أعراض القلق ، أو الاكتئاب ، أو الإنهاك النفسى . وتشير كثير من الدلائل إلى أن إصابات «الإنهاك النفسى» هى الأكثر تسارعاً فى الانتشار . يأتى هذا التسلسل المرضى من جراء الأذى الذى تنفثه بيئة اجتماعية ممرضة .

الطريق إلى الوقاية والعلاج

رغم أن العيادات النفسية ، والطبية النفسية تقدم العلاجات المتخصصة لنسبة من مرضاها يعانون من هذه الاضطرابات التى ذكرناها فلا يجوز عمليا أو منطقيا أن نتصور أن يكون هذا هو الأسلوب الأوحد المتاح للعلاج . ولكن لابد لنا من التفكير فى الكيفية التى يمكننا بها أن نقدم العلاج الاجتماعى (البيئى) لهذه الأدواء . ولا يعنى ذلك دعوة إلى التخلى عن العلاجات الفردية ، ولا إلى التقليل من شأنها ، ولكن يعنى تنبيهاً إلى ضرورة الاقتناع بأن هذه العلاجات لم تعد

تكفى وحدها اليوم ، وسيزداد قصورها وضوحا مع الأيام ، وأن هذه حقيقة مؤكده ما دام المنشأ الاجتماعى يسهم بنصيب كبير فى ترسيب هذه الاضطرابات التى نحن بصددها .

فى إطار هذه النظرة يصبح الإصلاح الشامل للبيئة الاجتماعية على الأبعاد الثلاثة التى سبق أن ذكرناها هو وحده الطريق إلى العلاج المجدى ، وهو فى الوقت ذاته الطريق إلى تنامى الوقاية ؛ بمعني أنه هو السبيل إلى تقليص معدلات الإصابة بالقلق والاكتئاب والإنهاك النفسى، وهو ما سوف يتحقق كنتيجة مباشرة للتخفيف شيئا فشيئا من جرعات المشقة التى يتجرعها المواطنون آناء الليل وأطراف النهار من بيئة لا ترحم . وفيما يلى نحدد بعض معالم هذا الطريق ؛ وفى هذا المقام لا يمكن ولا يعقل أن نفكر فى تقديم وصفة مفصلة ، كل ما نرجوه أن نوفق فى تقديم مقترحات بتوجهات عامة لا أكثر :

أولا : نحتاج بداية إلى استحداث إصلاحات جذرية للبيئة على بعد «الأمان فى مقابل التهديد» بحيث نبتعد بها تدريجيا عن قطب التهديد والتخويف لتقترب شيئا فشيئا من قطب الأمان والاطمئنان . ويقوم التوجه السليم فى هذا الصدد على قدر محدود من الركائز الرئيسية ، وهذه فيما نرى هى : ضخ مزيد من القانونية أو الشرعية فى حياتنا العامة يلتزم بها الحاكم قبل المحكوم حتى يقتنع المحكوم بما يلقاه على يدى الحاكم . ومزيد من الظهور الحقيقى والفاعلية الملموسة (التى يلمسها المواطن العادى) للسلطة الموكول إليها تطبيق القانون . والامتناع تماما عن إصدار القوانين والتشريعات التى تفجأ المواطن بين يوم وليلة . فهذا أسوأ ما تقدم عليه الدولة في حق الشعب ، لأنه (أى هذا الإصدار المفاجىء) يخلخل فى وجدان المواطنين الدلالة النفسية الاجتماعية للقانون ، من حيث كون القانون هو الضمير (عنوان الثبات والرسوخ والمرجعية) بالنسبة للمجتمع ، إذ سيحل محل هذه الدلالة استبصار جديد يقول «إن القانون هو مشيئة الحاكم» ومع التسليم بأن الحكام يستفيدون من هذه القوانين المفاجئة على المدى القصير ، فإن الشعب هو الخاسر على المدى الطويل مهما يكن الزخرف

المحيط بهذه الإصدارات.

ثانيا : نحتاج إلى إصلاحات توقف المزيد من انزلاق البيئة على البعد الثانى نحو قطب الإحباط والتشبيط ، وذلك لينعكس اتجاه حركتها فتمضى نحو قطب الإشباع .

وفى هذا الصدد لابد من العمل على محاور ثلاثة ، هى : توفير مزيد من المؤسسية فى أمور الإدارة بحيث يتضاءل تدريجيا اعتماد نشاط المؤسسات على نزوات رؤسائها وحساباتهم الأنانية والشللية ، ويتنامى بدلا من ذلك خضوع الجميع لقواعد العمل المعلنة . والمحور الثانى توفير مزيد من كفاءة الخدمات ، وهو ما يكشف عن نفسه فى مظهرين رئيسيين هما الاستقرار فى أسلوب تقديم الخدمة ، والتصعيد المتواصل فى تحسنها بحيث يحل هذان المظهران محل الانهيارات أو التغيرات المفاجئة ، والتدهور أو التآكل الذى لا ينقطع بمرور الأيام .

والمحور الثالث: هو التقويم الدورى المستمر لكفاءة الأداء ، والمحاسبة الموضوعية بشأن ما تم وما تلكأ ، والتدريب الجاد والمتجدد لجميع القائمين على أمر هذه الخدمات .

ثالثا : ونحتاج أخيرا وليس آخرا إلى توقيع إصلاحات شاملة على كل ما ينتظم على البعد الثالث للبيئة حتى نوقف الاندفاع المتسارع على هذا البعد نحو مزيد من التهبيط والتقزيم الحضارى للمواطنين . وقد أوضحت فى مقال سابق أن هذا البعد هو المختص بالتعامل مع منظومة القيم التى يحملها المواطنون فى نفوسهم ، ومن ثم فالتأثير المهبط يوثر فيها سلبا والتأثير بالإعلاء يعنى التأثير فيها ايجاباً .

وما أضيفه فى المقال الراهن أن هذه القيم تتماسك وتتساند فيما بينها عن طريق عدد محدود من المحاور الرئيسية ، أهمها محوران ، أحدهما يسميه أهل الاختصاص «تقدير الذات» ، والثانى «تقدير الانتماء» ، ومعنى ذلك أن منظومة القيم التى نتبناها تتفاعل فى كل لحظة مع ميزان حكمنا على «جدارة أنفسنا» وعلى «جدارة انتماءاتنا» ، وحقيق بنا أن نعرف أن هذين المحورين يعتمد عليهما كل الاعتماد فى معظم ما نبذل لإنجاح جهودنا التربوية مع النشء، والعلاجية مع المرضى لكى يستعيدوا عافيتهم النفسية . ومعنى ذلك فى نهاية الأمر أن النشاطات والكيانات الثقافية /

الإعلامية وهى التى تنتظم على البعد الثالث لبيئتنا الاجتماعية تستوجب الإصلاح كواجب يوشك أن يكون مقدسا ، لأنها (أى هذه النشاطات والكيانات) تتعامل مباشرة مع ما يمكن اعتباره جوهر الجدارة الإنسانية فى نفوسنا . وعلى هذا الطريق إلى الإصلاح لابد من خطوات ثلاث : استيعاب الحقائق العلمية حول أهمية الثقافة / الإعلام فيما يتعلق بالقيم الرئيسية ومن ثم خطر الدمار الذى يحدثه العبث بها ؛ والخطوة الثانية هى تعبئة الطاقات رفيعة المستوى لوضع الخطط سريعة العائد وبعيدة العائد معاً لمعالجة التردى والتهرؤ القيمى «الإعلامى» المفروض على المواطنين حاليا مع وضع الضمانات الكافية لحماية هذا العمل العلاجى وآلياته من تدخلات الإفشال التى نعرفها جميعا ؛ ولكن هذا كله شىء ، وشىء آخر هو ضرورة الارتفاع المسئول فوق الحساسيات الطفولية ضد النقد المنزه عن الهوى .

أما بعد .

فقد رأيت أن أتقدم فى ختام هذا المقال ببضعة تعقيبات ابتغاء مزيد من توضيح الرسالة . وأول هذه التعقيبات : أن الكلام فى هذا المقال موجه إلى الجميع سواء كانوا حكاما ومحكومين ، فكلنا مسئول وكلنا ضحية (ولكن بأقدار تختلف باختلاف المواقع) . وثانى التعقيبات : أننا هنا بصدد نموذج متميز لمشكلة ليس لها حل بسيط سريع العائد ، ولكننا بصدد مشكلة شديدة التعقد ومن ثم فهى تحتاج إلى طراز الحلول الاستراتيجية بعيدة العائد . وثالث التعقيبات : ضرورة التنبه إلى التداخل بين كيانى البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية فى الواقع كما نعيشه ، ومع ذلك فالأفضل أن نتعامل معهما كتصورين مستقلين حتى يمكن التصدى لكل منهما بما يناسبه من حيث الوصف والتشخيص والعلاج . ورابع التعقيبات وربما كان أهمها : أنه لا يجوز الاستهانة بأمر الاضطرابات والأمراض التى ذكرناها ، فهى تفسر قدراً كبيرا من ضعف الهمة ، واللامبالاة ، والانحرافات التى نشكو منها جميعا ، ولا سبيل إلى التخلص من التداعيات (أو النتائج) إلا بالمواجهة الملائمة للمقدمات . هدانا الله جميعا سواء السبيل.

المستقبل العربى : بين الممكن والمستحيل

بقلم : د . جلال أمين

منذ ثلاثين عاما نشر جون كينيث جالبريث (J.K. Galbraith) الاقتصادى والمفكر الامريكى الشهير ، كتابا لاشك فى أنه من أهم كتبه جميعا ، هو «الدولة الصناعية الحديثة» (The new Industrial State) وكان من بين الافكار الكثيرة المهمة التى قال بها ، ان التخطيط للمستقبل أصبح سمة ضرورية من سمات الدولة الصناعية الحديثة ، بصرف النظر عما اذا كانت رأسمالية او اشتراكية ، تقوم على القطاع الخاص أو القطاع العام . ذلك أن هذه السمة لا ترتبط بنظام الملكية بقدر ارتباطها بدرجة التقدم التكنولوجى .

فكلما حدث تقدم فى التكنولوجيا المطبقة اضطر اصحاب المشروعات الى توجيه اهتمام اكبر بالمستقبل ، وكلما زادت هذه التكنولوجيا تعقيدا وتكلفة ، كان عليهم الاهتمام بالمستقبل الأبعد فالأبعد . فالتكنولوجيا المتقدمة تفرض من الالتزامات وتتطلب من الأسواق ما يمتد الى زمن أبعد مما تفرضه وتتطلبه تكنولوجيا بدائية أو أقل تقدما .

فإذا كان من الممكن للرأسمالى الصغير ان يعتبر التفكير فى المستقبل البعيد ترفا ومبالغة فى الحيطة ، فإن الشركة العملاقة لايمكن أن تعتبره كذلك ، بل انها تعتبر التفكير فى المستقبل والتخطيط له واجبا وضرورة يحتمها بقاؤها نفسه .

لا عجب أن الثلاثين عاما الأخيرة قد شهدت شيوع الاهتمام بالدراسات المستقبلية ، بدرجة اكثر بكثير مما عرفته العقود السابقة عليها ، وكلما تسارع التقدم التكنولوجى اكتسبت الدراسات المستقبلية أهمية مضاعفة .

أما نحن فى العالم العربى ، فقد كان شأننا فى هذا الامر ، كشأننا فى غيره من المجالات : تقليد ما يفعله الغرب المتقدم ، ونقل آخر صيحة من صيحات الغرب دون تفكير . ما الذى يشغل الغرب اليوم ؟ المستقبل ؟ إذن فعلينا ان ننشغل

به ايضا. واذا بكتّابنا ومفكرينا يخرجون علينا فجأة بقائمة جديدة من الاتهامات تدور حول إهمالنا لهذا الشيء الخطير : المستقبل ، وخلوّ دراساتنا من هذا النوع الخطير : الدراسات المستقبلية ، وينعون علينا أننا لا نفكر الا في الماضي ، وأن فكرنا «ماضوى» اكثر مما ينبغي ، «سلفى» اكثر من اللازم . فلماذا لا نتمدن ونتحضر ونفعل كما يفعلون ؟ أى ان نفكر في المستقبل ونحاول التنبؤ به ونخطط له ؟

دعم الدراسات المستقبلية

كان من الطبيعى ان تعلو هذه النغمة ويزداد ترديدها مع قرب انتهاء القرن وبزوغ قرن جديد . فما أكثر البحوث التى تكتب الآن عن المستقبل ، وما أكثر مراكز البحوث التى يدخل «المستقبل» فى اسمها، وما أكثر ما تخصصه الصحف والمجلات من أبواب للمستقبلين القريب والبعيد ، وما أكثر التمويل الذى يمنح لدعم الدراسات المستقبلية ، فإذا لم تدخل كلمة «المستقبل» فى عنوان البحث صراحة ، ينصح الباحث مع ذلك بأن يركز على مناقشة «السياسات الواجبة الاتباع» بخصوص موضوع الدراسة وهو اسم آخر للتخطيط للمستقبل. والظاهرة لا تخلو من طرافة فى عصر يزعم فيه الكثيرون ان التخطيط قد أصبح من مخلفات الماضى وأنه من سمات الاشتراكية . التى عفا عليها الزمن ، واكل عليها الدهر وشرب !

★★★

إنى لا أكتب هذا بنية الاعتراض على الاهتمام بالمستقبل ، فالتفكير فى المستقبل سنة من سنن الحياة ، والاحتياط له جزء من نوازعنا الطبيعية من باب حماية النفس وحفظ النوع . ولكنى لا أخفى على القارىء انى اشعر بأن هناك شيئا مصطنعا فى الأمر ، وغير طبيعى ، فى حالات كثيرة من حالات الانكباب على الحديث عن المستقبل فى بلادنا ، بينما لا أشعر بمثل ذلك عندما اسمع عن شركة عملاقة من شركات الدول المتقدمة صناعيا، تتكلم عن المستقبل وتخطط له ، أو عندما أسمع من المتكلمين بلسان الاتحاد الأوربى مثلا ، من يشرح خطتهم فى تحقيق الاندماج الاقتصادى خلال العشر أو العشرين سنة القادمة .

إن الفارق بين نظرتى للأمرين يشبه الفارق بين نظرتى للسيارة الامريكية الفارهة عندما أراها تقطع طريقا من الطرق السريعة فى داخل الولايات المتحدة نفسها ، لا يعوقها عائق ، وبين نظرتى لنفس السيارة الفارهة وأنا أراها تحاول السير فى شارع من شوارعنا الضيقة فيعترضها حمار يجر عربة من عربات الكارو ، أو يعوق حركتها ضيق الطريق نفسه إذ أجدنى أقول لنفسى : ما الذى تستطيع أن تفعله دولة تابعة اقتصاديا ، قليلة الحيلة سياسيا ، وضئيلة الحظ من الاستقلال الحقيقى ؟ ما الذى تستطيع أن تفعله دولة كهذه إزاء المستقبل عندما تكون اكثر مفاتيح المستقبل بيد الغير ، وعندما تكون الأمة ، فى أكثر الأمور أهمية ، وأشدها مساسا بمصيرها، عاجزة عن اتخاذ قراراتها بحرية؟

إنى أتصور سائق سيارة يحاول أن يصنع لنفسه خطة لرحلته ، فيحدد مقدما الطريق الذى سيسلكه والمدن التى سيمر بها وتلك التى سيتجنبها ، وهو أمر مفهوم تماما فى الظروف الطبيعية .

ولكن ما معنى هذا فى حالة شخص يجلس فى مقعد القيادة فى هيكل قديم لسيارة خالية من المحرك ، وقد ربطت بحبل بسيارة حقيقية فى المقدمة ؟ ما الذى يمكن أن يفعله هذا الشخص فيما يتعلق «بالمستقبل» ؟ إلا أن يرجو ويتمنى ان يقوده سائق السيارة الحقيقية فى الطريق المنشود ؟

فى مثل هذه الحالة ، حالة الدول التابعة التى لا تملك السيطرة على مصيرها ، يكون أقصى ما يمكن ان تفعله الدراسات المستقبلية.. فى كثير جدا من الأمور ، هو أحد أمرين : إما أن تقنع بالتمنى ، أو ان تسير خطوة واحدة اكثر تقدما فتحاول ان تتنبأ بما يمكن أن يأتى به المستقبل . والتمنى او محاولة التنبؤ شيئان مختلفان تماما عن التخطيط للمستقبل . أنت فى حالة التمنى أو التنبؤ فى موقف المتفرج مكتوف اليدين، أما فى حالة التخطيط للمستقبل فأنت الفاعل الحقيقى الذى يمكن أن يكون له تأثير ايجابى فى تشكيل هذا المستقبل .

لهذا كله ، فإنى لا أكتم القارىء ما أشعر به من اشفاق وشىء من المرارة ، عندما اسمع كل هذا الحديث المتكرر عن الاستعداد لدخول القرن الحادى والعشرين . قد يتطلب الامر بعض الاستعداد بالفعل ، ولكنه ليس هو الاستعداد المقصود «لدخول» القرن ، بل هو أقرب الى الاستعداد ريثما يأتى من «يجرنا» جرا الى هذا القرن . تماما كما قد ينتظر صاحب هيكل السيارة الخالية من المحرك ريثما يأتى من سوف يجّر سيارته جراً .

ضعف القدرة على تشكيل المستقبل

إن الاعتراف بهذه الحقيقة لا يجب مع هذا ان يجعلنا نذهب من الشىء الى نقيضه . فالاعتراف بضعف قدرتنا على تشكيل المستقبل لا يجب أن يجعلنا ننصرف انصرافا كليا الى العيش فى الماضى .

ان هذا النوع من ردّ الفعل يشبه موقف العجوز الذى يئس كلية من أن يتخذ أى قرار ذى أثر له أهمية تذكر فى حياته أو حياة المحيطين به ، فاستسلم تماما للتفكير فى الماضى ، وأشبع المحيطين به إملالا وسأما باجترار ماضيه وتكرار الحديث عما سبق له إنجازه عندما كان يتمتع بالصحة والشباب .

لا شك ان كثيرا مما يظهر على أمتنا ومفكرينا من علامات الشيخوخة يرجع الى هذه الظاهرة التى نتكلم عنها : الاحساس بالعجز عن تشكيل المستقبل . وانى لأذكر جيدا ما عكف عليه كثير من كتّابنا ومثقفينا وصحفنا وسائر وسائل الاعلام عندنا ، فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة ، من الانغماس فى الحديث عن التاريخ المصرى ، القديم والحديث ، بحثا عن عزاء فى ماض اكثر مجدا ، حيث

شعر الجميع بفقدان القدرة على تشكيل المستقبل. قارن هذا بالشعور العكسى بالضبط ، الذى ساد بين المثقفين والمفكرين المصريين فى العشرينات من هذا القرن ، فى أعقاب ثورة ١٩١٩ الناجحة ، والتى بثت فى المصريين شعورا جامحا بقدرتهم على السيطرة على المستقبل ، فنشط الحديث عما يجب فعله للنهوض بمختلف نواحى الحياة فى مصر، الاقتصادية (طلعت حرب وبنك مصر) والثقافية (جيل الرواد من المفكرين المصريين) والسياسية (حزب الوفد بقيادة سعد زغلول ثم مصطفى النحاس) .

ليس معنى هذا أن اى اثارة للحديث عن الماضى معناها بالضرورة شيخوخة وضعف، وأن *اى* حديث عن المستقبل معناه بالضرورة شباب وتفاؤل. المهم هو كيف يكون الكلام عن الماضى ، وكيف يكون الكلام عن المستقبل ؟

ما الموقف الصحيح في مثل حالتنا ؟

انه فى رأيى الموقف الذى لا يستسلم لتوهّم القدرة على تشكيل المستقبل بحذافيره ، ويتكلم عن المستقبل وكأننا أمام طريق مفتوح خال تماما من قطّاع الطرق ، ولكنه ايضا لا يستسلم لإغراء الانغماس فى ذكريات الماضى ، مهما كان هذا الماضى مجيدا .

من سمات هذا الموقف الصحيح ، الاعتراف أولا بحقيقة أحوالنا ، وبالحدود القاسية المفروضة على حركتنا ، ومن ثم عدم الاسترسال فى الكلام عن المستقبل وكأن حريتنا إزاءه كاملة .

ولكن من سمات هذا الموقف الصحيح ايضا ان ندرك انه مهما كانت قدرة الغير على التأثير فى مستقبلنا ، فإن هذا الغير ليس إلها ، ومن ثم فإن أهدافه وأساليبه محدودة بحدود معينة ، وأن هناك مجالات لايهمه او لايستطيع أن يمتد اثره اليها . هذه المجالات التى نتمتع فيها بقدر لا بأس به من الحرية ، ليست بالضرورة قليلة الشأن ، أو عديمة القيمة . ربما كان ذلك صحيحا فى المدى القصير ، ولكنها قد تكون عظيمة الأهمية فى المدى الأطول.

فلننظر الى مجال التعليم مثلا ، حيث مازال هناك الكثير مما يمكن لنا عمله والتخطيط له ، دون ان نكون خاضعين فيه (تمام الخضوع) للضغط الخارجى . أو فلننظر الى ما يمكن عمله مثلا بجهاز التليفزيون ، هذا الجهاز الرهيب الذى يجلس امامه كل يوم ولساعات طويلة نسبة عالية جدا من المصريين ، فيشكل عقولهم وأخلاقهم وآمالهم . هل نفعل فيه كل ما نستطيع ؟ وهل انعدمت حقا قدرتنا على التأثير فى برامجه والتخطيط لمستقبله؟

أو فلننظر الى ما يمكن عمله للنهوض باللغة العربية مثلا ، أو بالأحرى حمايتها مما تتعرض له ، وما يمكن ان يفتحه هذا النهوض من أبواب اخرى للنهضتين الثقافية والاجتماعية .

كلمات ومفاهيم

مصطلح الثورة .. ماذا يعنى ؟؟

بقلم : د . محمد عمارة

الثورة - ككثير من قضايا ومباحث وتطبيقات العلوم الاجتماعية والسياسية والإنسانية - مما تتعدد لها وفيها التعريفات ..

فهى : نقطة تحول فى الحياة الاجتماعية ، تدل على الإطاحة بما عفى عليه الزمن ، وإقامة نظام اجتماعي تقدمى جديد ..

أو هى : التغيير الجذرى المفاجىء فى الأوضاع السياسية والاجتماعية ، بوسائل تخرج عن النظام المألوف ، ولا تخلو عادة من العنف ..

أو هى - فى التعريف الذى اختاره : العلم الذى يوضع فى الممارسة والتطبيق ، من أجل تغيير نظم ومجتمعات الجور والضعف والفساد ، تغييرا جذريا وشاملا ، والانتقال بها من مرحلة تطورية معينة إلى أخرى ، أقل قيودا ، وأكثر حرية ، وأبعد فى التقدم ، الأمر الذى يتيح للقوى الاجتماعية صاحبة المصلحة فى هذا التغيير أن تأخذ بيدها مقاليد القيادة ، فتصنع الحياة الأكثر ملاءمة وتمكينا لها ، محققة بذلك خطوة على درب التقدم الإنسانى نحو مثله العليا ، التى ستظل دائما وأبدا زاخرة بالجديد ، الذى يغرى بالتقدم ويستعصى على النفاذ والتحقيق !.

والثورة ، فى علوم الاجتماع الغربية، هى غير «الاصلاح» لا لتميز وسائلها ، عادة بالعنف فقط ، وإنما لأن مفهوم «الاصلاح» فى تلك العلوم ، لا يعنى التغيير الجذرى والشامل ، الذى تعنيه «الثورة» ، بل يعنى «الاصلاح» - فى العلوم الغربية : الترقيع ، والتغيير الجزئى، والسطحى ، فهو غير شامل وغير جذرى !.

أما فى الاصطلاح العربى والإسلامى، فإن المغايرة بين الثورة والإصلاح ، فى هذا المقام غير قائمة ، فالإصلاح ، هو

الآخر تغيير شامل وجذرى وعميق - كالثورة تماما ، وهو إنما يتميز عنها فى الأدوات التى يتم بها التغيير ، إذ فى الثورة عنف وهياج لا يوجدان فى أدوات الاصلاح على نحو ما هما عليه فى الثورات ، وفى الإصلاح تدرج ، قد لا ترضى عن وتيرته الثورات !.

فرسالات الأنبياء والرسل : تغيير جذرى وشامل للحياة والأحياء - فهى متضمنة معنى الثورة - فى العمق والشمول ، لكن لأنها تبدأ بذات الإنسان ونفسه ، كانت إصلاحا بريئا من العنف والهياج ،فثورة النفس: هياج فيه من الهدم أكثر مما فيه من البناء ! بينما إصلاح النفس :بناء لا هياج فيه ! وصدق الله العظيم : (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب) - هود : ٨٨ .

وفى القرآن الكريم إشارات إلى ما يعنيه هذا المصطلح - الثورة - من تغيير عميق ومن انقلاب فى الأوضاع ، فبقرة بنى إسرائيل كانت (لا تثير الأرض) - البقرة : ٧١- .. أى لا تقلبها ، بالحرث ، القلب الذى يغيرها فيجعل عاليها سافلها !، ومن الأمم السابقة من (كانوا أشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها) - الروم ٩-.. أى قلبوها وبلغوا عمقها !..

وفى القرآن والسنة إشارات لتضمن هذا المصطلح لمعنى الهياج والانتشار ، فالخيل ، إذا اقتحمت الميدان (أثرن به نقعا) - العاديات : ٤ - .. أى هيجن به التراب ، والله سبحانه وتعالى ، هو (الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) فاطر: ٩ - .. أى تهيجه وتنشره .

وفى الحديث الذى ترويه السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، حول هياج الأوس والخزرج : «فثار الحيان ، الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت» - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .

وفى الحديث الذى يرويه مرة البهزى ، يقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، متنبئا بفتنة عهد عثمان بن عفان : «كيف فى فتنة تثور فى أقطار الأرض كأنها صياصى - (قرون) - بقر !» - رواه الإمام أحمد .

وكذلك أحاديث : «أثيروا القرآن ، فإن فيه خير الأولين والآخرين» .. و«من أراد العلم فليثور القرآن »! ، أى لا تقفوا عند ظواهر الألفاظ ، بل ابلغوا العمق «القراءة الثورية» للقرآن الكريم ؟!.

ولقد استخدمت أدبيات الفكر الإسلامى مصطلح «الثورة» للدلالة على هذا المعنى ، فرأس الخوارج ، نافع بن الأزرق (٦٥ هـ ٦٨٥م) يدعو أصحابه إلى اللحاق بثورة عبدالله بن الزبير (١-٧٣هـ - ٦٢٢ - ٦٩٢م) بمكة ، لنصرتها ، وللدفاع عن بيت الله الحرام ، فيقول لهم : «... وهذا ، من قد ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل» الثائر ! .

على أن الأدبيات الإسلامية قد عرفت - للتعبير عن معنى الثورة ومضمونها - أو بعض هذا المعنى والمضمون -

مصطلحات أخرى ، جرى استخدامها ، بل وشيوعها فى هذه الأدبيات .

فمصطلح «الفتنة» شاع استخدامه للتعبير عن الاختلاف ، والصراع حول الأفكار والآراء ، وقيام الأحزاب والتيارات المتصارعة ، والثورة ، أى الوثوب ، ووقوع البلاء والامتحان والاختبار ، وتمييز الجيد من الردئ ، عن طريق الصهر فى حرارة الأحداث والصراعات ، وهى معانى لجوانب من العمل والحدث الثورى !.

ومصطلح «الملحمة» عرفته الأدبيات العربية الإسلامية للدلالة على التلاحم فى الصراع والقتال ، والقتال فى الفتنة - (الثورة) - بالذات ، والإصلاح العميق الذى يشمل الأمة ويعمها ، لأنه يؤلف بين أفراد الأمة وطوائفها ، فيحقق وحدتها وتلاحمها ، ولذلك ، وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأنه : «نبى الملحمة» أى نبى القتال ، ونبى الإصلاح ، الذى يقيم وحدة الأمة وتلاحمها ! .

ومصطلح «الخروج» دل على الثورة ، لأنه عنى الخروج على ولاة الجور ، وتجريد السيف لتغيير نظمهم ، ولقد شاع اسم «الخوارج» علما على تيار «الثورة المستمرة» فى تاريخ الإسلام !.

كذلك استخدم مصطلح «النهوض» و«النهضة» ومصطلح «القيام» ، للدلالة على الخروج ، والثورة ، لما فيهما من معنى الوثوب والانقضاض والصراع ، وفى حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه «حضرت عند مناهضة حصن تستر ، عند إضاءة الفجر ....» - رواه البخارى ..

وحديث ابن أبى أوفى : «كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يحب أن ينهض إلى عدوه عند زوال الشمس» - رواه الإمام أحمد .

كذلك استخدم القرآن الكريم ، للدلالة على معنى الثورة ، مصطلح «الانتصار» فالانتصار : هو الانتصاف من الظلم وأهله ، والانتقام منهم ، وهو فعل يأتيه «الانصار» - الثوار - ضد «البغى» . الذى هو الظلم والفساد والاستطالة ومجاوزة الحدود !.

استخدم القرآن الكريم هذا المصطلح فى هذه المعانى ، عندما قال (فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن إنتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) - الشورى ٣٦-٤٣ .

فمن صفات المؤمنين : أنهم إذا أصابهم البغى هم ينتصرون !.

بل لقد استثنى القرآن الكريم الشعراء الذين ثاروا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، استثناهم من الحكم الذى أصدره على

الشعراء - أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون - (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ،. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) - الشعراء ٢٢٤-٢٢٧ .

ولعل لعلاقة الانتصار بردع الظلم والبغى ، كان اختيار اسم «الأنصار» للذين انتصروا للإسلام ضد الظلمة والبغاة ، والشاعر يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

والله سمى نصرك الأنصارا
آثرك الله به إيثارا

هذا عن المصطلحات ومضامين هذه المصطلحات

★★★

أما عن مشروعية الثورة ، كسبيل لتغيير نظم الجور والضعف والفساد ، فإنها قضية اختلف فيها علماء الإسلام ، لا لأن أحدا منهم قد أقر الجور أو رضى بالضعف أو هادن الفساد ، فالجميع قد آمنوا بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة إسلامية (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) - آل عمران : ١٠٤ - .. و«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» - رواه مسلم والترمذى والنسائى والإمام أحمد - و«لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر

ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله بعضكم ببعض ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم!» - رواه الترمذى وأبو داد وابن ماجه والإمام أحمد .

استخدام العنف

لم يختلف أى من علماء الإسلام على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولقد أجمعوا على وجوب التغيير السلمى - بالإصلاح - لنظم الجور والضعف والفساد ، لكن الخلاف بينهم قام حول استخدام العنف - السيف - الثورة - فى التغيير ، لا كراهة للتغيير ، وإنما لاختلافهم فى الموازنة بين إيجابيات وسلبيات استخدام العنف فى التغيير ، ولقد نهضت طبيعة مناهج التفكير ، وملابسات العصر بدور كبير فى هذا الاختلاف .

فالخوارج قد رأوا الخطر الأعظم على الإسلام والمسلمين ، فى الانقلاب الأموى الذى حدث على فلسفة الشورى وعلى علاقة الحاكم بالمحكوم ، فرجحت لديهم كفة الثورة - بل والثورة المستمرة - على كل المحاذير !.

والمعتزلة قد رأوا ذلك الرأى ، مع نضج فى الفكر السياسى ، جعلهم يشترطون «التمكن» ، الذى يجعل النصر محققا أو ظنا غالبا ، لإعلان الثورة ، تفاديا لما جرته الهبات والتمردات من مآس

وآلام ! كما اشترطوا وجود الإمام الثائر أى الدولة والنظام البديل ؟!.

وأهل الحديث - بإمامة أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م) - قد رفضوا سبيل الثورة ، لأنهم رجحوا إيجابيات النظام الجائر على سلبيات الثورة ! فقالوا : «إن السيف - العنف - باطل ، ولو قتلت الرجال ، وسبيت الذرية وأن الإمام قد يكون عادلا ، ويكون غير عادل وليس لنا إزالته وإن كان فاسقا ! » ومن أقوال ابن تيمية : «فستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان!» .

والإمام الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) - من الأشعرية - وقف موقف الموازنة .. فقال عن الحاكم الجائر : «والذى نراه ونقطع به : أنه يجب خلعه إن قدر على أن يستبدل عنه من هو موصوف بجميع الشروط ، من غير إثارة فتنة ولا تهيج قتال ، فإن لم يكن ذلك إلا بتحريك قتال، وجبت طاعته وحكم بإمامته ، لأن السلطان الظالم الجاهل ، متى ساعدته الشوكة ، وعسر خلعه ، وكان فى الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق ، وجب تركه ، ووجبت الطاعة له !» .

ومعنى هذا ، أنه إذا احتمل الناس تبعات الثورة ، وأطاقوها ، ولم يكن التغيير عسيرا ، فإن الثورة تجوز ، سبيلا للتغيير !.

ونحن نلحظ أن أهل الحديث قد غلبوا الالتزام بالمأثورات الداعية الى طاعة الأمراء ، دون تمييز - أحيانا - بين «أمراء القتال» الذين قيلت فيهم هذه الأحاديث - وبين أمراء وولاة الجور ، الذين دار بشأن الثورة عليهم الخلاف .

كما نلاحظ أن الفترات التى اشتد فيها الخطر الخارجى على الدولة الإسلامية - تتريا كان هذا الخطر أم صليبيا - هى التى زادت فيها وعلت الأصوات الرافضة للثورة على ولاة الجور ، وذلك تغليبا - فى الموازنة - لكفة الوحدة فى مواجهة الخطر الخارجى ، على كفة الصراع الداخلى ضد ولاة الجور ؟!.

فالمواجهة المسلحة مع الكفار أوجب وأولى من المواجهة مع الظلمة والطغاة ؟!.

★★★

أما ميادين الثورة فلقد رحبت لتشمل العديد من الميادين ، وعبر المسيرة الحضارية ، إذا نحن بحثنا عن التغيير الشامل والجذرى ، الذى ينتقل ، بالإنسان إلى طور جديد أكثر تقدما ، سنجد فى الاجتهاد ثورة على التقليد ، وفى الجهاد ثورة على الاستسلام ، وفى التجديد ثورة على الجمود ، وفى الإبداع ثورة على المحاكاة ، وفى التقدم ثورة على الرجعية والاستبداد ، وفى العقلانية ثورة على ظاهرية وحرفية النصوصيين !. □

أقوال معاصرة

● «جوهر الديمقراطية هو التغيير» .

اوتو تشيلى
وزير داخلية المانيا الاتحادية

● الديمقراطية تتميز على ماعداها بأنها تجعل سلطة الحكم قابلة للنقد والمحاسبة والتغيير » .

د . وحيد عبد المجيد
رئيس تحرير التقرير الاستراتيجى العربى

● «اقتصاد السوق الحر الامريكى ليس حراً» .

شوزابور ناكامورا
وزير العدل فى الحكومة اليابانية

● «أهداف الخيال غير أهداف التاريخ» .

الاديبة الامريكى سينثيا اوزيك
من كلمة القتها فى مؤتمر «ادعاءات الذاكرة»

● «العنف شِعْرُنا الآن» .

الأديب الامريكى
جون ابدايك

● «المسرح الجاد فى طريقه الى الزوال والانقراض» .

المخرج المسرحى اللبنانى
ايلى لحود

● «إدمان الفشل تشخيص دقيق لحالة مرضية أصابت النخب العربية على نطاق واسع» .

منصور خالد
وزير خارجية السودان الأسبق

● «الاحلام لا تغيّر الواقع ولا تداوى ما فيه من علل وأمراض» .

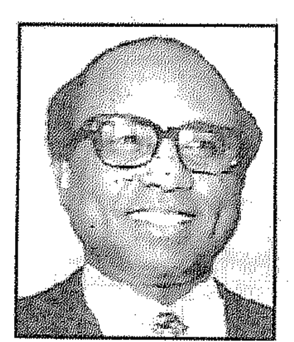
الكاتب والصحفى التونسى
محمد الهاشمى الحامدى

● «هذا هو الوقت المناسب للابتعاد بالنفس عن نفر سعيد من الكتاب ، فقد الاحساس بضرورة نقد الذات ، والقدرة على التصدى لوطنية مختلة الصواب .»

الأديب التركى
أورهان بابوك



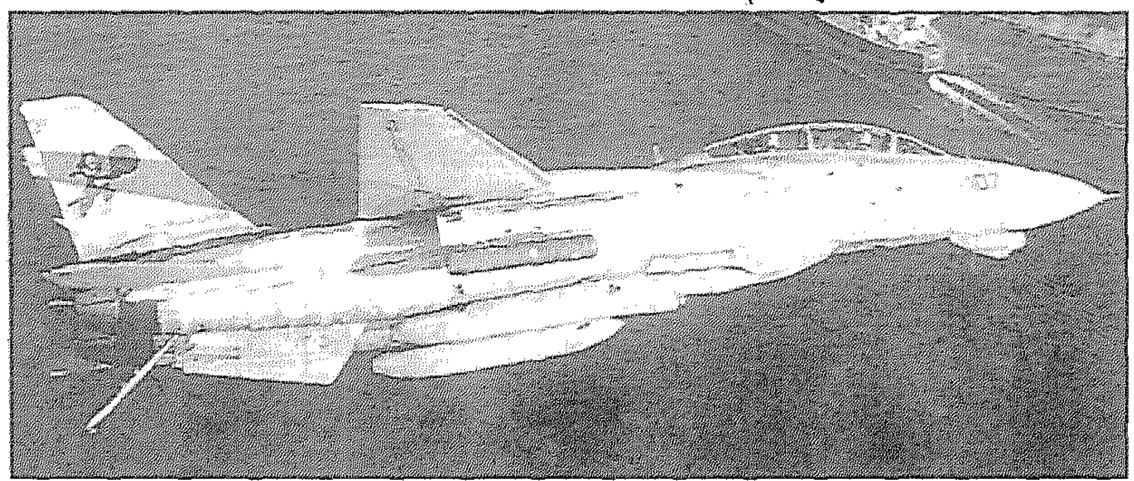
د. وحيد عبدالمجيد



منصور خالد

الشرعية الدولية أسقطتها أمريكا

بقلم : عبدالرحمن شاكر



كل حديث عن الشرعية الدولية الآن أصبح لغوا لا معني له ، بعد العربدة الأمريكية التي لم تعد لها حدود ولا قيود ، حاربت العراق وأقامت تحالفا دوليا عريضا لضربه بعد أن أقدم علي اجتياح الكويت في أغسطس ١٩٩٠ ، معتديا في ذلك علي الشرعية الدولية ، حيث الكويت دولة مستقلة ذات سيادة عضو في الأمم المتحدة ، وقد أجبر العراق علي الانسحاب منها وعادت الشرعية الدولية وانقضي الأمر ... ولو أرادت الإدارة الأمريكية أن تجبر العراق علي الاستسلام الكامل، بما في ذلك إسقاط النظام الحاكم فيه وتقديم المسئولين عنه للمحاكمة لفعلت ذلك في حينه ، ولقامت في ربوعه سلطة جديدة توقع معاهدة صلح مع التحالف الدولي الذي حارب العراق ، كما حدث بالنسبة لدول المحور التي هزمت في الحرب العالمية الثانية . ولكن الإدارة الأمريكية لم تفعل ذلك ، واحتفظت .. نعم أقول احتفظت بالنظام العراقي علي حاله ، وراحت تعامله.. أستغفر الله ، بل تعامل شعب العراق الخاضع لهذا النظام، معاملة من أغرب ، ما شهده تاريخ الإنسانية في جميع عصورها!

فرضت على شعب العراق حصارا كاملا ، وتجويعا مرعبا طيلة ثمانٍ سنوات حتى الآن ، باسم العقوبات الاقتصادية باستثناء ما يسمى برنامج النفط مقابل الغذاء، الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع.

وخلال ذلك أرسلت مايسمى بلجنة التفتيش الدولية لضمان نزع أسلحة الدمار الشامل التى يملكها العراق ، أو ينتجها أو لديه القدرة على ذلك .. وبين الحين والآخر يثور النزاع بين هذه اللجنة والنظام الحاكم الذى احتفظت به أمريكا فى العراق .. فتهدد الولايات المتحدة تارة بضربه، إذا لم تحل الأزمة دبلوماسيا ، وتغريه تارة أخرى ، حتى كان القصف الأخير فى منتصف ديسمبر من العام الفائت ، فانفجر الشارع العربى ، بل انفجرت شوارع العالم كله بما فى ذلك شوارع الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها ، وشوارع حليفتها الوحيدة فى القصف المذكور .. بريطانيا .. إحتجاجا على هذا العدوان الغاشم الجائر .. على شعب مقهور جائع مهدد فى حياة أبنائه ومستقبله تهديدا لا نهاية له ..

لم تعد هناك شرعية دولية تحميها أمريكا أو تعمل باسمها ، فالأمم المتحدة أو مجلس الأمن لم يتخذ أيهما قرارا بضرب العراق على هذا النحو الفظيع ، بل عارضته ثلاث دول تتمتع بالعضوية الدائمة فى مجلس الأمن ، ولم تصدق أى منها الحجة الواهية التى أستندت إليها أمريكا، من عدم تعاون العراق مع لجنة «بتلر» السيئة السمعة ، التى تنثال الآن الاعترافات على أعمدة الصحف الأمريكية بصحة الاتهام الذى وجهته إليها العراق ، من أنها تقوم بأعمال تجسس لحساب الولايات المتحدة الأمريكية . وربيبتها وحليفتها الدائمة فى المنطقة ، الدولة الصهيونية ، التى زرعت فى المنطقة هى الأخرى باسم الشرعية الدولية ، ومن يومها كان سجلها حافلا فى العصف بتلك الشرعية وتحدى قراراتها بالإنسحاب من الأراضى العربية التى تحتلها منذ عام ١٩٦٧، وقراراتها بالنسبة لحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم ، ولا يزال عدوانها على الدول المجاورة مستمرا، سواء فى ضربها لبنان ، بين الحين والآخر، كما تفعل حليفتها أمريكا بالنسبة للعراق ، أو احتفاظها بالجولان السورية المحتلة ، واصدار قانون بضمها كما فعلت بالنسبة للقدس العربية، أو تجميدها لأتفاقات الانسحاب الجزئية من الأراضى الفلسطينية بحجج تماثل فى

وهنا الحجة الأمريكية السالفة فى ضرب العراق ، الذى كان بدوره وقبل إقدامه على إجتياح الكويت ، ضحية لعدوان صهيونى عليه وعلى الشرعية الدولية ، حينما قصف سلاح الجو الصهيونى مفاعله النووى .

التكتل الثلاثي

لم يكن العدوان الأمريكي الأخير على العراق مثيرا للسخط فقط فى جميع أرجاء العالم ، بل مثيرا للرعب أيضا حتى عند الدول النووية الكبرى ،وفى مقدمتها روسيا التى عارضت بشدة هذا العدوان ، لذلك لم يتردد بريماكوف ، رئيس وزراء روسيا ، عند زيارته للهند فى أعقاب العدوان المذكور ، فى أن يدعوها إلى تحالف استراتيجى ثلاثى ، يضم كلا من روسيا والهند والصين ، وهى كلها دول نووية ، لإعادة التوازن العالمى مع الطغيان الأمريكى ، ولكيلا تكون أى من بلادهم عرضة لهذا الطغيان ، مرورا بمحاولة إعادة التعاون العسكرى بين دول الكومنولث ، التى كان يضمها الاتحاد السوفيتى السابق ، والذى كان وجوده - المأسوف عليه الآن - هو عنصر التوازن الرئيسى مع الولايات المتحدة على الساحة الدولية ، وفوق ذلك قررت الحكومة الروسية نشر صواريخ جديدة متطورة عابرة للقارات ، مزودة برؤوس نووية ضخمة ، تحرزاً من أى عدوان أمريكى محتمل !.

الشرعية العربية

أين نحن العرب - ضحايا العدوان الأمريكى - من كل هذا؟ علما بأن العدوان لم يشمل العراق وحده ، ولا العربدة الصهيونية المستمرة علي طائفة أخرى من بلادنا ، بل إن بلدين عربيين آخرين ، هما ليبيا والسودان قد تعرض كل منهما لعدوان أمريكى مباشر ، بالقصف الجوى أيضا ، ولا يزالان تحت الحصار باسم العقوبات الدولية ، وأقدمت الدول الافريقية على فك الحصار الجوى على ليبيا ؟

لقد نودى فى المحافل العربية بعقد مؤتمر للقمة بين الدول العربية لمناقشة كل تلك الأوضاع ، ولكن المواقف من هذه الدعوة تباينت بين مختلف الدول العربية ، كما تباينت مواقفها من العدوان ذاته ! وبدلا من ذلك استعرت خلافات ومهاترات جديدة بين بعض الأنظمة العربية .

الاتفاق الوحيد كان فى الشوارع العربية التى ماجت بالجماهير الغاضبة لما حدث فى بعض بلادنا ، وعرضة لأن

يحدث فى سائرها ، السخط الجماهيرى كان على العدوان ، وعلى تهرؤ النظام العربى ، الذى لا يملك وسيلة لرد هذا العدوان ، ولا حتى لاتخاذ موقف واضح محدد برفضه !.

وثار لغط حول انفصال ما بين الشارع ، أو الجماهير العربية ، وبين الأنظمة .

أين المخرج ، إذا كانت الأنظمة لاتزال تصر على أن تختلف وتتصارع ، والجماهير تصر على أن تتحد وتتوافق .. وتقوم فجوة ما بين الفريقين .. الأنظمة والجماهير ؟.

أعتقد أن المخرج هو أن تقوم على المستوى العربى شرعية جديدة ، تصنعها الجماهير .

وباختصار ، إذا كانت جامعة الدول العربية لا يزال فيها رمق يرجى لمستقبل هذه الأمة الضائعة فإن هذا الرمق ينبغى أن يستخدم فيما يلى :

«تقوم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالإشراف على إجراء انتخابات عامة فى جميع أقطار الأمة العربية لانتخاب برلمان عربى ، على أساس أن يكون لكل نصف مليون عربى ممثل واحد فى هذا البرلمان ،على ألا يقل تمثيل القطر الواحد، عن ثلاثة أعضاء» .

هذا الاقتراح تقدم به الدكتور على عقلة عرسات رئيس اتحاد الكتاب العرب فى سوريا ، ونوقش فى مؤتمر عن الوحدة العربية عقد فى القاهرة فى مارس من العام الماضى ، وقد أتيح لى حضور هذا المؤتمر ، والدفاع عن الاقتراح المذكور ، حيث وافق الاقتراح دعوة قديمة لى سجلتها على صفحات «الهلال» ، بأن تكون السلطة العليا فى الوطن العربى لمؤتمر منتخب على غرار الكونجرس الأمريكى والبرلمان الأوربى ، والمؤتمر الهندى .. الخ ، وأن يكون هذا الأسلوب الديمقراطى هو طريق توحدنا ، وهو طريق اكتشفته البشرية وسلكته قبلنا ، وتخطتنا بأشواط بعيدة ، ولا نزال نحن نتعثر فى أوحال فرقتنا ، ولا تزال تتناوشنا رماح المعتدين من حولنا ، وتفترسنا وحوش لا تعرف الرحمة بمن لا يزود عن عرضه .

واعتقد أن مناقشة الاقتراح المذكور ينبغى أن تكون هى المهمة الأولى لمؤتمر القمة العربية المقترح .أو أى اجتماع عربى له شأنه !.

مئوية أم كلثوم

بين الجمود الرسمية والمبادرات الفردية !

قصة المجلد النادر لتراث أم كلثوم

بقلم : سليم سحاب

ونحن نحتفل بمئوية أم كلثوم ، فإن أعظم تحية يمكن أن نكرم بها كوكب الشرق ، هى أن نجمع تراثها الفنى الثرى ونوثقه ونقدمه لملايين عشاقها بالصورة اللائقة بتلك الفنانة الخالدة .. فهل قامت جهة رسمية أو غير رسمية بهذه المهمة الكبيرة للحفاظ على هذا التراث العظيم ؟

فى آخر رحلة لى مع الفرقة القومية العربية للموسيقى الى الكويت اتصل بى احد المواطنين الكويتيين ويدعى عبد الله الصايغ ودعانى لزيارته فى منزله ليرينى أشياء مهمة موجودة عنده .

وقررت زيارته - رغم ضييق الوقت - أمام إصراره العجيب .. وما إن دخلت منزله حتى شعرت بأننى فى محراب خاص لفن سيدة الغناء العربى أم كلثوم .. الجدران مليئة بصورها : قديمها وحديثها . مع آلات موسيقية : عود وغيره، دخلنا المحراب الاساسى : غرفة السماع . واذا بها مليئة بأنظمة الصوت آلات السمع : آلات تسجيل كاسيت وآلات تسجيل بكر مع وآلات سماع للاسطوانات المدمجة المضغوطة (CD) . كانت المفاجأة الأولى أن الرجل قال لى إنه ينقل كل تراث أم كلثوم الموجود عنده فى أشرطة الكاسيت والبكر إلى الأسطوانات المدمجة وأرانى آلة تسجيل للاسطوانات هذه . ثم أسمعنى أسطوانة منها سجل عليها أغنية لأم كلثوم قديمة تمتاز بصفاء الصوت أعترف بأننى لم أسمعها فى حياتى إلا عنده للمرة الأولى .

وفى أثناء الجلسة هذه أرانى هذا الرجل مجلد حاويات من النايلون ، فى كل حاوية ورقة طبع على صفحة واحدة منها أسماء أغنيات لأم كلثوم مع وعد بأن يهدينى نسخة منه وانتهت زيارتى له ورجعت إلى الفندق ونسيت الموضوع .

وإذا بى يوم سفرى أرى الرجل حاملاً المجلد الذى وعدنى به . فأخذته معى ومرت الأيام ...

وأخذتنى طاحونة العمل فى القاهرة



ونسيت المجلد وما يحتويه وجدته في خضم بحثي عن أوراق قديمة . فقررت أن آخذه معي الى لبنان لدراسته في أثناء أسبوع راحة امضيته هناك في أثناء عطلة الميلاد الأخيرة . وهناك اعطيته لاخي فكتور وهو دكتور في التاريخ الاسلامي ومولع بالموسيقى (كجميع اعضاء اسرتنا) لدرجة أنه حول نفسه الى مؤرخ للموسيقى العربية وله فيها لغاية الآن ستة كتب . وإذا بنا نكتشف في هذا المجلد ثروة معلوماتية نادرة بكل أبعادها وتفاصيلها التوثيقية لتاريخ تراث سيدة الغناء العربي أم كلثوم . فما كان من أخي ، أمام هذا الاكتشاف ، إلا أنه نسخ هذه الاوراق وحولها إلى كتاب سماه : ام كلثوم - يوميات الغناء (١٩٢٥ - ١٩٧٣) - عبد الله الصايغ - الكويت .

أم كلثوم - يوميات الغناء

ينقسم المجلد الى مواسم غناء أم كلثوم ابتداء من موسم ١٩٢٥ - ١٩٢٦ لغاية آخر موسم قبل وفاتها ١٩٧٣ كما يدل اسمه . ويبدأ بتوثيق اغنياتها التي سجلت على الاسطوانات (دون البكر) بما في ذلك أغاني الافلام ويمضي التوثيق التاريخي في دقته في هذا المجلد الى أن يذكر مثلاً أنه في موسم ١٩٣٥ - ١٩٣٦ عرض فيلم «وداد» وفيه ثماني اغنيات سجلت كلها على اسطوانات ماعدا واحدة وهي «حيوا الربيع» . ويذكر اسم الشركة المسجلة وهي «اوديون» .

وهذه الدقة في التأريخ والتوثيق نجدها في كل صفحة في المجلد حيث سجل سنة الموسم الغنائي مع اسم الاغنية مع سنة التسجيل مع اسم شركة

الاسطوانات المسجلة . إلى أن نصل إلى موسم ١٩٣٧ - ١٩٣٨ وهو بداية مواسمها التي بدأت تسجلها على بكر لنصل الى دقة متناهية فى التوثيق لكل تفصيل له علاقة بتاريخ الاغنية المقدمة (ماعدا ذكر اسم المؤلف والملحن والمقام) ابتداء من تاريخ الحفلة ومكان اقامتها والمرة التي تغنى فيها الاغنية ومدتها بالدقيقة . فمثلا الحفلة الأولى (المسجلة على بكر) أقامتها ام كلثوم يوم ٧ أكتوبر - (تشرين أول) ١٩٣٧ فى قاعة ايوارت التذكارية (فى الجامعة الامريكية بالقاهرة) وغنت فيها : النوم يداعب عيون حبيبى (للمرة الأولى) ومدتها ٤٢ دقيقة ، فاكر لما كنت جنبى (للمرة الأولى) ٤٨ دقيقة وسلوا كؤوس الطلا (للمرة الأولى) ٥١ دقيقة .

وتلاحق دقة هذا الرجل الأغنيات التى غنتها «الست» خارج حفلاتها وذلك برصد جميع اعداد مجلة «الاذاعة المصرية» فى ذلك الوقت (وقد ارانى مجموعات المجلة عنده) كأن يقول ان فى فترة موسم ١٩٣٨ - ١٩٣٩ وفى ١٨ نوفمبر (تشرين ثانى ١٩٣٨ اذاعت اذاعة القاهرة قصيدة «يا اغانى السماء» وذلك فى يوم ولادة الاميرة فريال . أو مثلا : «فى ٢٠ يناير - (كانون ثانى) ١٩٣٩ اذاعت اذاعة القاهرة قصيدة «ارفعى يا مصر أعلام السرور» بمناسبة مرور عام على زواج الملك فاروق من الملكة فريدة .

ويلاحق هذا الرجل فى دقته المعلوماتية حتى الاغنيات التى سجلت خارج الحفلات على اسطوانات وذلك موسماً موسماً كأن يرصد مثلاً «... وقد تم خلال هذا الموسم (٣٨ - ٣٩) تسجيل أغنية «حرمت أقول بتحبينى» على اسطوانات «اوديون» ولهذه الأغنية نسختان مختلفتان .

ومن يتصفح هذا المجلد الفريد يكتشف اغنيات غنتها ام كلثوم ولها تسجيلات عديدة نسمع باسمها للمرة الأولى أو فى احسن الاحوال نعرف اسمها فقط ولكنها مختفية فى اذاعاتنا نهائياً ، منها ثلاث غنتها أم كلثوم فى حفلة ١ فبراير - شباط ١٩٤٠ فى قاعة ايوارت : «هايم فى بحر الحياة» (للمرة الثالثة) ٤٣ دقيقة ، «ايه اسمى الحب» (للمرة الثانية) ٤٩ دقيقة ، «ناسية ودادى وجافيانى» (للمرة الثانية) ٤٠ دقيقة .

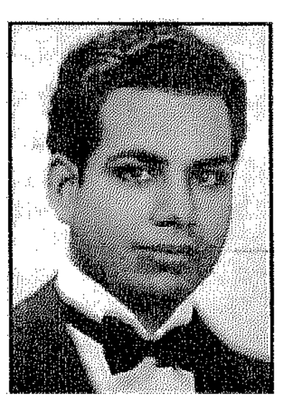
ومن المؤشرات المهمة التى يلفت المجلد انتباهنا لها بدقة معلوماته : طول الحفلة بالنسبة لطول الاغنية على الاسطوانة .

علامات مهمة

ولكن هذا المجلد يضعنا احيانا أمام تساؤلات بلا جواب . فمثلا يذكر ان فى اغنيات فيلم «دنانير» الثمانى (١٩٣٩ - ١٩٤٠) لم يسجل على اسطوانات غير

ابراهيم حمودة

عبد الغنى السيد



ثلاث فقط : الزهر فى الروض ابتسم (للقصبجى) بكرة السفر (زكريا أحمد) وطاب النسيم العليل (للقصبجى) على اسطوانات الشركة العربية ، كما تم تسجيل اغنية ياليلة العيد (رامى - السنباطى) لحساب شركة كايروفون . والتساؤل يطرح نفسه : لماذا لم تسجل ام كلثوم باقى اغنيات الفيلم على اسطوانات ومنها قصائد رائعة : «رحلت عنك ساجعات الطيور» (أو القصر المهجور لرامى والقصبجى) و«قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى» وهى تحفة شعرية من روائع الشريف الرضى ومن المرات النادرة جدا التى لحن فيها زكريا أحمد قصيدة . وقد تكون هى وقصيدة «أيها الرائع المجد» للشريف الرضى أيضا القصائد الوحيدة التى لحنها زكريا أحمد لو استثنينا قصيدتين قصيرتين جدا لحنهما فى قالب الموشح وهما «يا بعيد الدار» (عباس ابن الاحنف) و«بنت كرم يتموها امها» ، وأغنية «زهر الربيع» ونشيد «عرب الشرق» (صالح جودت)وموشح «حامل الهوى تعب» (أبو نواس) .

ونتابع رحلتنا مع هذا الكنز العجيب لنكتشف أن أم كلثوم غنت فى حفلات اغنيات عرفناها فقط من تسجيلات الاستوديو على اسطوانات كأغنيتها الشهيرة «مادام تحب بتنكر ليه» تحفة محمد القصبجى وهى آخر اغنية لحنها لام كلثوم (مع رائعته «رق الحبيب») قبل أن تنقطع نهائياً عن أخذ ألحان من هذا العبقرى فتقتل بذلك فيه الرغبة فى العطاء، هو الذى كان يرى فى صوتها المنفذ العظيم لأعماله العظيمة ، فيتحول شيئا فشيئاً الى عازف عود يجلس وراءها ليعزف ألحاناً لم تكن فى الكثير من الاحيان فى مستوى عبقريته التلحينية وتفكيره الموسيقى الفذ . نعود لأغنية «مادام تحب» لنقول إنها قدمت لاول مرة فى حفلة مسرح حديقة الازبكية يوم ٦ فبراير - شباط ١٩٤١ واستمرت «الست» فى غنائها ٤٩ دقيقة بينما مدة تسجيلها المعروف ست دقائق فقط .

ويكشف لنا المجلد عن ان ام كلثوم لم تكن تغنى فى الحفلات الاغنيات الملحنة خصيصا لها وحسب بل أنها كانت تغنى اغانى من التراث القديم كقصيدة «أراك عصى الدمع» (ألحان عبده الحامولى من القرن التاسع عشر) وقدمتها فى ٦ مارس - آذار ١٩٤١ فى مسرح الازبكية بمدة ٤٣ دقيقة بينما مدة تسجيلها المعروف على الاسطوانة ست دقائق فقط . وكان من المعروف خطأ أن ملحق هذه القصيدة هو أبو العلا محمد . وهذا ما كانت تؤكده أم كلثوم نفسها التى حفظت اللحن وسجلته على الشيخ ابى العلا (ولعل هذا هو سبب غنائها لاغنية لم تكن ملحنة خصيصا لها) . ولكن المؤرخ محمود كامل اثبت لها ان اللحن هو عبده الحامولى بواسطة اسطوانة دائرية للقصيدة مسجلة فى القرن المنصرم (عرفت مصر الاسطوانات المسطحة فى ١٩٠٣) وفى هذه الاسطوانة «مطيباتى» يصرخ فى أثناء العزف «هالله هالله يا سى عبده» . وكان من المعروف ان الوحيد الذى كان معروفا بلقب «سى عبده» هو عبده

الحامولي وحده .

ونصل الى موسم ١٩٤٢ - ١٩٤٣ لنفاجأ بانه لم تسجل اية أغنية من فيلم عايدة على اسطوانات . والجدير بالذكر أننا لم نعرف هذه الأغنيات الا عندما ظهرت المسجلة الكاسيت في الستينيات فبدأت الشركات تسجل الاغنيات هذه على كاسيت اشباعاً لرغبة ملايين الهواة . وتجدر الاشارة هنا إلى انه الى جانب الاغنيات الست القصيرة فان الفيلم يحتوى على مسمع من اوبرا عايدة شارك أم كلثوم فيه الغناء ابراهيم حمودة (المطرب الوحيد الذى غنى ديالوج مع ام كلثوم وهو ديالوج «احنا احنا وحدنا») وعبد الغنى السيد وفتحية احمد وانطوان سُليم ويعتبر هذا المسمع من اهم ما لحن رياض السنباطى فى حياته ويكشف عن خيال تلحينى أوبرالى درامى عملاق حده كثيراً تلحين الاغنيات الفردية .

تفاصيل تاريخية

ويسجل المجلد تفاصيل تاريخية مهمة فى حياة أم كلثوم كأن يذكر ان حفلة ٢٤ سبتمبر - ايلول ١٩٤٤ التى اقيمت فى النادى الاهلى «حضرها الملك فاروق وأنعم على الآنسة أم كلثوم بنيشان الكمال المصرى» .

وغنت فى هذه الحفلة «أنا فى انتظارك» للمرة السادسة (٣١ دقيقة) - «يا ليلة العيد انستينا» للمرة الأولى (٣٥ دقيقة) والكوبليه الاخير من اغنية «حبيبى يسعد أوقاته» . واظن أن هذا هو التسجيل الذى يقاطع عدة مرات بهتاف «عاش فاروق ملك مصر والسودان» والذى تختتمه أم كلثوم بعبارة «وانت مليكى» بدلاً من «وانت حبيبى» .

ونصل إلى موسم ١٩٤٤ - ١٩٤٥ والى فيلم سلامة الذى لم تسجل على اسطوانات من اغانيه التسع الا أربع . ومن أغنيات هذا الفيلم العظيمة التى لم تسجل على اسطوانات الموال المذهل «برضاك يا خالقى» (بيرم التونسى - زكريا احمد) والموشح الرائع «يابعيد الدار» . وقد تكون هذه المرة الوحيدة التى سجلت فيها أم كلثوم موشحاً . وفى الموسم ١٩٤٥ - ١٩٤٦ نكتشف أنه من اغنيات محمد القصبجى التى كانت تغنيها بوفرة فى مواسمها السابقة لم تبق أم كلثوم الا على «رق الحبيب» التى غنتها فى حفلة مسرح حديقة الازبكية (٦ ديسمبر - كانون أول ١٩٤٥) للمرة الثانية والعشرين (غنتها للمرة الأولى فى ١٨ سبتمبر - ايلول ١٩٤١ فى نفس المسرح مع أغنيتى «هلت ليالى القمر» و«الأمل») .

ويخبىء لنا موسم ١٩٤٦ مفاجأة غريبة . ففى ١٢ يناير - كانون ثانى ١٩٤٦ «اذاعت اذاعة القاهرة قصيدة



زكريا أحمد — السنباطى

«سلوا قلبى» بمناسبة زيارة عاهل المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود لمصر وفيها أضافت الانسة أم كلثوم خمسة أبيات من شعر الشاعر محمد الاسمر تنوه فيها بجلالة الملك عبد العزيز وبجلالة الملك فاروق» . وتجدر الاشارة هنا إلى ان محمد الاسمر هو ناظم قصيدة «زهر الربيع يرى أم سادة نجب» التى لحنها الشيخ زكريا أحمد وشدت بها أم كلثوم فى حفل خاص أقيم فى الثانى والعشرين من ابريل - نيسان ١٩٤٥ ابتهاجاً بمناسبة توقيع ميثاق جامعة الدول العربية . وقد تم فى هذا الموسم تسجيل قصيدة السودان لحساب كايروفون .

ويأتى عام ١٩٤٧ لنعرف أن أم كلثوم غنت فى أثنائه «وفى قصر القبة العامر أغنية الزفة «مبروك على سموك وسموه» حيث زفت بهذه الاغنية صاحبة السمو الاميرة فوزية فى ليلة زواجها بالامير محمد شاهبور» . وفى هذه السنة نزل إلى الاسواق فيلم «فاطمة» الذى تضمن تسع اغنيات تم تسجيل ست منها فقط على اسطوانات ، ومن بينها أغنية «ظلمونى الناس» (شركة كايروفون) .

ولهذا التسجيل قصة روتها لى الصديقة العزيزة والمطربة اللبنانية العظيمة وزميلتى فى اذاعة لبنان المرحومة زكية حمدان . ففى مساء يوم تسجيل الأغنية كانت لزكية حمدان حفلة غنائية على أحد مساح القاهرة . وكان من ضمن العازفين فى فرقتها عازف الناى الكبير سيد سالم وهو أيضا العازف فى الفرقة المصاحبة لأم كلثوم . ولما ذكرته زكية حمدان بخصوص حضوره أكد لها بأنه آت لا محالة لان التسجيل سيبدأ فى العاشرة صباحاً وسينتهى بالتأكيد قبل بداية الحفلة وجاء وقت بدء الحفلة وسيد سالم غائب . فبدأت زكية بالعزف على العود (وهى العازفة الماهرة عليه) . ومر الوقت وسيد سالم لم يحضر . فقررت زكية البدء من دونه . وفى منتصف الوصلة الأولى وصل سيد وتسلل من بين الكواليس الى مقعده وباشر بالعزف مع الفرقة ولما كلمته زكيه عن تأخيره عند انتهاء الوصلة اقسم لها بانه وصل مباشرة من الاستوديو فقد ظلت أم كلثوم تعيد التسجيل لغاية ما بدأت تبكى من شدة التأثر وهى تغنى . وكان هذا هو التسجيل الذى طبع على الاسطوانة التى نعرفها .

ويأتى ٤ ديسمبر - كانون أول لتغنى فيه أم كلثوم وللمرة الوحيدة أغنيتها العظيمة حلم (بيرم التونسى - زكريا أحمد) . وحلم ليست الاغنية الوحيدة التى ليس لها سوى تسجيل واحد فقط . فهناك لائحة فى هذا المجلد العجيب تعرض هذه الأغانى سنأتى على ذكرها لاحقا) .

وتتوالى المواسم الغنائية مروراً بأغنيات أذاعتها اذاعة القاهرة ولم تسجل على اسطوانات ، الى أن نصل إلى موسم ١٩٤٩ فنلاحظ أن أم كلثوم بدأت تقلل من تقديم أغنية «رق الحبيب» لمرة واحدة فى السنة الى أن جاءت سنة ١٩٥٦ حين قدمتها لآخر مرة فى حفلة ٣ مايو - أيار بعد انقطاع سنتين . هنا نطرح سؤالاً

حول علاقة أم كلثوم بهذا الملحن العبقرى والمفكر الموسيقى الفذ محمد القصبجى . هل كانت أم كلثوم تقدم منولوج «رق الحبيب» ايمانا منها بعبقرية هذا الملحن ولحنه أم ترضية منها له (من باب رفع العتب) بسبب الكسر النفسى الصاعق الذى احدثته عنده فتوقف عن التلحين بعد ان رفضت ما قدمه من ألحان تلت «مادام تحب» و«رق الحبيب» . فلم يعد لهذا العبقرى الكبير وجود موسيقى الا كملحن فى بعض اغانى الافلام وكعازف عود لآخر يوم فى حياته وراء التى احبها لدرجة العبادة والتى جسدت بصوتها اعماله وافكاره الموسيقية العبقرية .

أم كلثوم .. وثورة يوليو

وتتوالى المواسم لنصل الى ثورة يوليو - تموز فيبدأ نوع جديد من الاغنيات يدخل الى حفلات «الست» ، وهى الأغانى الوطنية . ولابد من التنويه الى أحد اجتماعات مجلس قيادة الثورة حيث اقترح احد الضباط الشباب وبحماس منع اذاعة اغنيات أم كلثوم من الاذاعة المصرية بحجة ان لها أغنيات كثيرة خاصة بالملك السابق وبمناسبات عائلية تخصه . فما كان من الزعيم جمال عبد الناصر الا أن اجابه : الشمس كانت تشرق فى عهد الملك فاروق فهل نلغيها ؟ وكانت هذه الكلمات كفيلة بإنهاء الموضوع الى الابد .

أول أغنية وطنية قدمتها أم كلثوم فى حفلة عامة بعد الثورة كانت «مصر تتحدث عن نفسها» فى حفلة دار سينما ريڤولى فى بداية موسم ١٩٥٢ - ١٩٥٣ يوم ٢ أكتوبر . تشرين أول ، وكانت قد غنتها للمرة الأولى فى ٧ ديسمبر - كانون أول ١٩٥٠ وهى أول أغنية وطنية تقدمها بحفلة عامة . ومن الملاحظ أن أم كلثوم لم تقدم أية أغنية وطنية بين أول وثانى مرة غنت فيها «مصر تتحدث عن نفسها» على مدى سنتين مما يدعونا الى القول أن تقديمها فى حفلة ٢ أكتوبر - تشرين أول ١٩٥٢ كان تحية منها للثورة . والدليل الساطع على ذلك هو الأغنية الثانية فى نفس الحفلة «مصر التى فى خاطرى وفى فمى» (صوت الوطن) التى غنتها للمرة الأولى . وكانت ثالثة الأغانى فى هذه الحفلة أغنيتها العاطفية الوجدانية الرثائية التأملية التعبيرية «سهران لوحدى» (أحمد رامى - السنباطى) التى غنتها للمرة الواحدة والعشرين . وتجدر الإشارة هنا إلى ان بعد موسم ١٩٥٢ لم تعد أم كلثوم تقدم أغنيات وطنية إلا فى حفلات المناسبات الوطنية التى كانت تشارك فيها فى نادى الضباط .

ويذكر هذا المجلد العجيب ان أم كلثوم ألغت ثلاث حفلات وهى ٢ ابريل - نيسان و٧ مايو - أيار و٤ يونيه - حزيران ١٩٥٣ بسبب سفرها للعلاج .

وبرزت بعد الثورة طريقة جديدة لتقديم اغنيات أم كلثوم الوطنية من خلال الاذاعة دون تسجيلها على اسطوانات من هذه الاغنيات قصيدة الجلاء «بأبى وروحى» (السنباطى) التى اذاعتها اذاعة القاهرة يوم ١٢ ابريل - نيسان ١٩٥٤ فى اعقاب توقيع اتفاقية الجلاء ولم تسجل على اسطوانات ، ونشيد الجلاء «يا مصر ان الحق جاء» (الموجى) بمناسبة عيد

الجلاء ولم يسجل على اسطوانات . ويأتى موسم ١٩٥٥ وتأتى أم كلثوم الى لبنان لتقديم حفلتين الأولى فى قصر الأونيسكو (دمره الطيران الاسرائيلى فى أثناء اجتياح لبنان سنة ١٩٨٢) الحفلة اقيمت يوم ٢٥ أغسطس - آب ١٩٥٥ . الحفلة الثانية اقيمت فى بيسين عاليه يوم ٢٩ أغسطس - آب . ومن ضمن ما غنت فى هذه الحفلة «يا ظالمنى» للمرة السابعة عشرة . ومن سمع هذا التسجيل يدرك أنه من أعظم تسجيلات هذه الاغنية اذا لم يكن أعظمها . وكان من حظى أنى سمعت نقل هذه الحفلة المباشر من اذاعة بيروت . وكنت آنذاك فى الرابعة عشرة من عمرى . وكانت هذه الأغنية بداية اهتمامى بأم كلثوم وأغانيها .

وفى موسم ٥٥ - ٥٦ يظهر البرنامج الاذاعى العظيم تأليفا وتمثيلاً واخراجاً وتلحيناً وغناء : «رابعة العدوية» ليظهر عبقرية ملحنين شابين : محمد الموجى وكمال الطويل ، ويضعهما الى جانب احد أعظم الشخصيات الموسيقية فى تاريخ الموسيقى العربية : رياض السنباطي . ويكفى أن نذكر «انقروا الدفوف» و«حانة الاقدار» التى ابدع فيها طاهر أبو فاشا (كاتب البرنامج وناظم كل اغانيه) حيث الصوفية الرومانسية العميقة عند محمد الموجى ، كما ظهر فى «لغيرك مامددت يدا» تأثر كمال الطويل الخلاق بصوفية رياض السنباطى .

ونواصل رحلتنا على صفحات هذا المجلد لنصل الى اكتوبر - تشرين أول ٥٦ حين أذاعت اذاعة القاهرة نشيد والله زمان يا سلاحى (صلاح چاهين - كمال الطويل) فى اعقاب العدوان الثلاثى على مصر كما أصدرت «صوت القاهرة» اسطوانة له . وهذا النشيد كان اوفر حظاً من أغنية صوت السلام (السنباطى) التى «اذاعتها اذاعة القاهرة يوم ٤ ديسمبر - كانون الاول ١٩٥٦ فى ذكرى عيد النصر بعد العدوان الثلاثى على مصر ولم تسجل على اسطوانة» .

وتتوالى المواسم الغنائية وتذيع اذاعة القاهرة يوم ٢٦ فبراير - شباط ١٩٥٨ قصيدة «يا ربى الفيحاء» بمناسبة اعلان الوحدة بين مصر وسوريا ولم تسجل على اسطوانة . وتأتى التحية لثورة العراق (١٤ يوليو - تموز) فى أغنيتين ، فتذاع يوم ٢٣ يوليو - تموز ٥٨ أغنية منصورة يا ثورة احرار (السنباطى . لم تسجل على اسطوانة) وبعدها باسبوع (٣٠ يوليو - تموز) تطلق اذاعة القاهرة قصيدة «بغداد يا قلعة الاسود» (السنباطى صدرت على اسطوانة «صوت القاهرة») .

ويأتى موسم ٦٢ - ٦٣ وتأتى أم كلثوم الى لبنان حيث أقامت حفلتين فى بيسين عاليه الأولى فى ٥ سبتمبر - ايلول وغنت فيها «ح اسيبك للزمن» «انساك» - و«أنا وانت ظلمنا الحب» ، والثانية فى ٨ سبتمبر - ايلول حيث غنت «حيرت قلبى معاك» - «ليلى ونهارى» - و«حب ايه» . وهذه هى الحفلة الوحيدة التى سمعت فيها أم كلثوم شخصياً . وكنت اتابع بمنظار مكبر اصابع «العظمة» على الكونترباص واصابع ابراهيم العفيفى على الرق ومحمد عبده صالح على القانون

والقصبجي على العود .

وقد اكتشفت في هذه الحفلة «كاريزما» أم كلثوم وتأثيرها المغناطيسي على جمهورها . هذا التأثير الذي لم أكن أفهمه اطلاقاً قبل حضوري حفلتها شخصياً . فقد كنت اقف على مقعدي صارخاً مطالبا مع الاخرين بالاعادة .

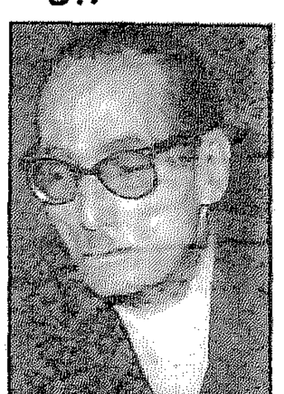
وكان من المفروض أن أحضرها شخصياً للمرة الثانية في حفلاتها التي كان من المقرر اقامتها في موسكو (في أثناء وجودي هناك للدراسة) في أواخر سبتمبر - ايلول ١٩٧٠ لولا إلغاء هذه الحفلات وعودة أم كلثوم وفرقتها لمصر بسبب اعلان وفاة الزعيم جمال عبد الناصر .

أم كلثوم بعد نكسة يونية

ونصل الى نكسة ١٩٦٧ فتحصل تغييرات أساسية في هيكلية وطابع حفلات أم كلثوم .

التغيير الأول هو انه ابتداء من مارس ٦٨ اختصرت أم كلثوم عدد أغنياتها في الحفلة الواحدة الى اثنتين بعد أن كانت ثلاث لغاية آخر حفلة من سنة ٦٧ . التغيير الثاني هو معنوي يخص أم كلثوم شخصياً . فقد بدأت تتبرع بدخول كل حفلاتها بعد النكسة للمجهود الحربي معطية بذلك مثالاً مبهراً للالتزام المعنوي والمادي للفنان بقضايا شعبه . تغيير ثالث طرأ على اغنيات أم كلثوم هو اتجاهها الى قصائد لشعراء عرب وكانت نيتها غناء قصيدة من كل بلد عربي . فبدأت بقصيدة «هذه ليلتي» لجورج جرداق (لبنان) غنتها للمرة الأولى يوم ٥ سبتمبر - أيلول ١٩٦٨ في دار سينما قصر النيل واذكر الحديث مع الشاعر عقب انتهاء الاغنية في اذاعة القاهرة . فعند سؤال المذيع له «نفسك في ايه» بعد أن غنت له أم كلثوم قصيدة من ألحان محمد عبد الوهاب اجاب جورج جرداق : «أريد أن أموت» . بعد «هذه ليلتي» غنت أم كلثوم قصيدة «طريق واحد» لنزار قباني (سوريا) التي اذيعت في اذاعة القاهرة للمرة الأولى يوم ١ سبتمبر - ايلول ١٩٦٩ . وتبع «طريق واحد» قصيدة «أغداً ألقاك» للهادي آدم (السودان) حفلة ٦ مايو - ايار ١٩٧١ في سينما قصر النيل ، و«من اجل عينيك» لعبد الله الفيصل آل سعود ١٩٧٢/١/٦ في سينما قصر النيل . وقد سبق أن غنت لنفس الشاعر «ثورة الشك» (٥٨/١٢/٤).

ولأغنية «طريق واحد» قصة طريفة . فنحن ندين لتعنت أم كلثوم بوجود تسجيل للاغنية بصوت محمد عبد الوهاب . فعندما جاء وقت التسجيل فوجئت «الست» بعدم وجود الاوركسترا ويطلب المهندس منها ان تضع السماعة على رأسها . ولما افهمها الملحن بان اللحن قد سبق تسجيله على سكك (تراكات) ولم يبق سوى تسجيل صوتها وان هذه هي أحدث طريقة للتسجيل ، رفضت رفضاً قاطعاً معللة رفضها بان هذه الطريقة تلغي


محمد القصبجي


احمد رامي

الانسجام المفروض وجوده بين المغنى والعازفين عند التسجيل . ولم تقتنع بالفكرة الا عندما قام محمد عبد الوهاب بتسجيل الاغنية بصوته واسماعها لها .

التراث العظيم

ونتابع رحلتنا مع المجلد العجيب لغاية آخر حفلة علنية قدمتها أم كلثوم فى ٤ يناير – كانون ثانى ١٩٧٣ فى دار سينما قصر النيل حيث غنت «ليلة حب» و«القلب يعشق» . وبعد هذه الحفلة ألغت أم كلثوم ثلاث حفلات كان من المفروض ان تقدم فى ٣ فبراير – شباط و١ مارس – آذار و٥ ابريل – نيسان ١٩٧٣ .

بعد ذلك نجد أن أم كلثوم سجلت أغنية «حكم علينا الهوى» (ألحان بليغ حمدى) لشركة «صوت القاهرة» ولم تغنها فى حفلة عامة . وكانت هذه آخر أغنية تقدمها أم كلثوم لعشاق فنها وصوتها .

بعد هذا التوثيق الدقيق لكل حفلات أم كلثوم ينتقل المجلد الى تفاصيل مهمة جدا فى تاريخ الفنانة العظيمة . فيسرد المؤلف أنه منذ افتتاح اذاعة القاهرة فى ٣١ مايو – ايار ١٩٣٤ بدأت الاذاعة تقدم أم كلثوم بطريقتين . الأولى : عبر وصلتين فى الشهر وكانت هذه الوصلات تسمى «مغنى وآلات» ومدة كل وصلة نصف ساعة تقريباً . «وقد ابتدأت أم كلثوم بتقديمها منذ شهر سبتمبر – أيلول ١٩٣٤ لغاية نهاية ١٩٣٥» . ويتبع ذلك كشف بالاغنيات التى قدمتها أم كلثوم فى هذه الوصلات وعددها ثمانى اغنيات.

والطريقة الثانية كانت بإذاعة حفلاتها الشهرية «أول خميس من كل شهر» ويعترف المؤلف بتواضع بأنه لم يستطع إعداد كشف كامل بما غنته أم كلثوم فى حفلاتها من شهر ١٠/١٩٣٤ لغاية ٦/١٩٣٧ ولكنه يؤكد بانه يعلم «ان الآنسة أم كلثوم قد أنشدت الاغانى التالية فى حفلاتها بين أكتوبر – تشرين أول ١٩٣٤ ويونيه – حزيران ١٩٣٧» .. وتلى ذلك لائحة تتضمن ٤٥ أغنية .

هل تراثها ١٤٠٠ أغنية ؟

ويتضمن المجلد صفحة فى غاية الأهمية وهى عبارة عن صورة من صفحة من مجلة «الاذاعة المصرية» على ما اعتقد وفيها حديث مع د . مصطفى المدرس رئيس مركز تراث أم كلثوم فى لندن الذى يضم ١٤٠٠ تسجيل لام كلثوم مع العلم (كما يؤكد) انها غنت ٣٥٠ أغنية طوال ٥٠ سنة .

وتأتى المفاجأة الكبرى على لسان الدكتور المدرس : «لقد اعددنا قائمة بالاغانى التى سوف نزود بها مكتبة الاذاعة المصرية والتى لم تكن موجودة بها «وتلى ذلك لائحة بثلاثين أغنية مع اسم الشاعر والملحن وسنة تسجيلها على أسطوانة أو من حفلة عامة .

وينتهى المجلد بأربع صفحات تتضمن حفلات السيدة أم كلثوم فى مصر وبها ٦٥ أغنية مع عدد المرات التى غنتها بها وعدد التسجيلات الموجودة لكل أغنية مع عدد التسجيلات السيئة لكل منها .

وينتهى المجلد لتسجل على السيد عبد الله النقطة الوحيدة التى فاتته فى عمله الرائع الحضارى الكبير هذا وهى ذكر اسم مؤلف وملحن كل أغنية مع مقامها ويكون بهذا قد قدم عملا كاملا متكاملا لا ينقصه أى شىء على الاطلاق ، عملا تستطيع أن تتباهى به أى مؤسسة تعنى بجمع التراث العربى مهما كبرت وعلا شأنها .

بيرم التونسى

زجال الشعب بلا منازع !

● القصيدة التى نفى بسببها بيرم خارج مصر

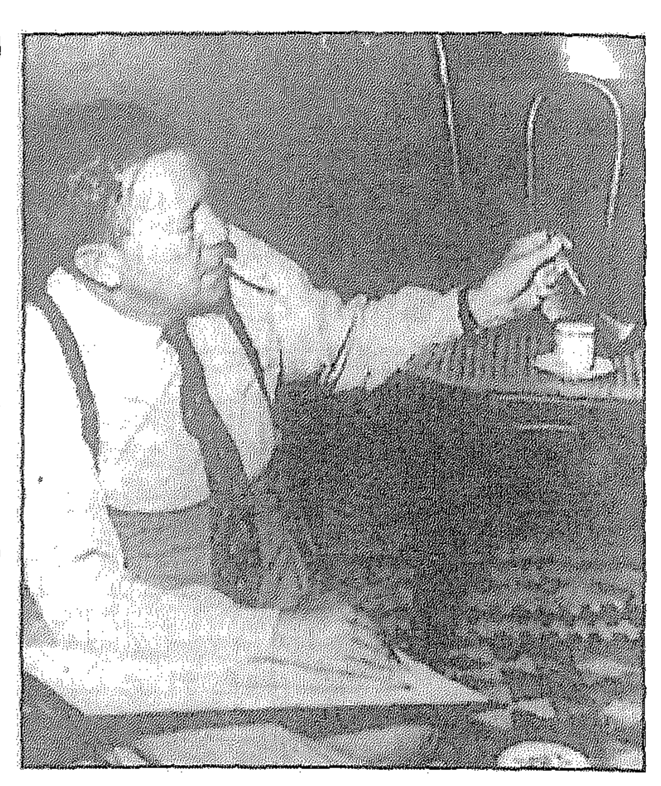
● كانت حياة بيرم مزيجا من الفرح والحزن، والتفاؤل والتشاؤم !

بقلم : كمال سعد

●● مضى على رحيل فنان الشعب بيرم التونسى ٣٨ سنة، ولم نحتفل بالمناسبة كما فعلنا فى الأعوام الماضية، ولكننا تركنا ذكرى الرحيل تمر دون أن ننطق بكلمة واحدة فى حقه!.

وإذا كنا قد تجاهلنا رحيله فى ٥ يناير ١٩٦١، فإننا يجب ألا ننسى مولده فى ٥ مارس ١٨٩٣، أى أننا يجب أن نقيم الاحتفالات بمناسبة ١٠٦ سنوات على مولد فنان الشعب، ويجب ألا نتجاهل ذكرى مولده كما تجاهلنا ذكرى رحيله ! ●●

كانت حياة بيرم التونسى مزيجاً هائلاً من التجارب النفسية والجسدية المؤلمة التى أفرزتها قسوة الحياة والظروف الاجتماعية المهيمنة على مصر والعالم العربى وقتذاك. فالفقر والاحتلال والظلم والذل تحت سياط الأغنياء كانت كلها عبارة عن مفاهيم سائدة، جعلته يزداد إيمانا بقضايا ومشاكل وطنه، ويحاول أن يحطم هذه المفاهيم فى ثورة عارمة تنبع من أعماق موهبته الفذة فى تأليف الشعر



والزجل ومختلف الألوان الأدبية الرفيعة المستوى، فتارة نجده ثائرا على كل محاولات المستعمر البغيض لإزهاق الحركات التحررية التى أرادت تخليص مصر من براثنه واستقلال إرادتها، وتارة أخرى نرى ثورته تزداد على مشاكل وقضايا وطنه العربى بكل أبعادها الاجتماعية ! .

لذا فإن بيرم يستحق أن نطلق عليه فنان الشعب بكل صدق بما تركه لنا من تراث أدبى تضمن آلاف المقامات والقصائد والمسرحيات والتمثيليات التى بصرت الشعب المصرى بالأخطار التى تهدده، وطالبته بالتكاتف والتغيير والتحرر من خلال الكفاح الوطنى ضد الاستعمار.

الشخصية المصرية !

وقد كان بيرم نموذجاً صادقاً للشخصية المصرية الثائرة فى بداية هذا القرن ، فقد ولد شاعرنا العظيم فى مدينة الاسكندرية بحى السيالة فى ٣ مارس ١٨٩٣م، وبالتقريب بعد مرور ١١ عاما من دخول الاستعمار الانجليزى فى مصر وضربهم للاسكندرية وقيامهم بنفى الزعيم الوطنى أحمد عرابى فى الخارج. فارتبطت طفولته من خلال الحى الشعبى الذى تربى فيه بالصورة البائسة التى عبرت عن الظلم والمعاناة الاجتماعية الواقعة على سكان حيه والأحياء المجاورة ، وكل ذلك جعله يهتم فى مطلع حياته بكتابة الشعر والقصة والزجل. وأصبح أسلوبه الساخر واللاذع فى الوقت نفسه، يجذب جمهورا كبيراً من الذين وجدوا فى أعماله وخاصة أزجاله مدرسة كبيرة وأملاً فى الفكاك من الوضع المأساوى الذى كان يسيطر على مصر فى تلك الفترة ! .

ومنذ ذلك الحين نجد أن الفن قد ربط بين سيد درويش وبيرم برباط وثيق، فتعمقت الصداقة بينهما، واجتمعا كثيرا فى عدة سهرات فنية متوهجة، وفى خلال تلك الفترة كتب بيرم لسيد درويش عدة أغانٍ وطنية وأناشيد وأوبريت شهرزاد ، إلا أن القدر كان يخبىء لبيرم مزيداً من النكبات والمآسى ، وأثناء عودته فى إحدى سهراته مع سيد درويش نجده يفاجأ بزوجته طريحة الفراش ومصابة بمرض التيفوس لتموت بعد عشرة أيام من مرضها، فيقع بيرم فى حيرة بالغة مع طفليه فيضطر للزواج مرة أخرى حتى يوفر الرعاية لطفليه ولكن الزوجة الثانية لم تطق الطفلين فيلجأ إلى إرسالهما إلى أم زوجته الأولى ! .

ويتم النجاح للعدد الأول من المسلة ، وعندئذ يقرر بيرم نقل نشاطه الصحفى

بيرم التونسى



من الاسكندرية إلى القاهرة ، ويصدر هناك عدده الثانى من المسلة بعد سفر سعد زغلول إلى باريس لحضور مؤتمر فرساى لعرض قضية بلده وسط معارضة من مفتى الديار المصرية الشيخ «محمد بخيت» ، وحمل هذا العدد هجوما على مفتى الديار لموقفه من سعد زغلول.

وفور صدور ذلك العدد من المسلة غضب المفتى غضبياً شديداً من بيرم التونسى، واتهمه بأنه كافر وزنديق، ولكن كل ذلك لم يفتر من عزيمة بيرم فقد مضى فى طريقه مصدراً المزيد من أعداد صحيفته حتى وصل إلى العدد رقم ١٣ وفيه كانت المفاجأة المذهلة التى ألجمت الجميع فقد شن بيرم فيها هجوم زجليا على السلطان فؤاد وابنه «فاروق» قائلا فيهم:

البامية فى البستان تهز القرون
وجنبها القرع الملوكى اللطيف
والديدبان داير يلم الزبون
صهين وقدم وامتثل يا خفيف
مرمر يا زمان مرمر
البنت ماشية من زمان تتمخطر
والغفلة زارع فى الديوان قرع أخضر

المقال اللاذع !

وعلى أثر صدور ذلك العدد أصدر السلطان أمرا نهائيا بإغلاق تلك الصحيفة بلا رجعة، ولكن بيرم يعانده ليصدر صحيفة أخرى اسمها «الخازوق» ويهاجم فى عددها الأول المحافظ «محمود خيرى باشا» زوج الأميرة فوقية ابنة السلطان فؤاد فى صورة مقال لاذع ، فيشتد غضب السلطان فؤاد ويتوسط لدى القنصلية الفرنسية عن طريق الانجليز لترحيل بيرم إلى تونس، فتستجيب القنصلية وتقوم بترحيل بيرم يوم ٢٥ أغسطس إلى تونس.

ولكن بيرم لم يطق العيش فى تونس فيسافر إلى فرنسا ليعمل فى ميناء مارسيليا شيالا يحمل صناديق البيرة وحقائب المسافرين، ويستمر فى هذا العمل الشاق لمدة سنتين حتى ينتهى به المطاف إلى تزوير جواز سفر له ، ويعود مرة أخرى سراً إلي مصر فى يوم ٢٧ مارس ١٩٢٢.

ولكن لم تلبث ريما أن عادت لعادتها القديمة، فقد حنَّ بيرم إلى كتاباته وأزجاله، فكتب أزجالا لصحيفة الشباب مهاجما فيها حكام مصر فقال فيها :

أيام ما كنت أعمل أزجال
أمدح فيها عال
وألعن أبوه إللى باعوه
بريال لعنة أبابيل

ولكن السلطات تشعر من أزجال بيرم بأنه موجود فى مصر فتتعقبه لتلقى القبض عليه مرة أخرى بعد مرور ١٤ شهراً من قدومه للبلاد، وتقوم بترحيله مرة أخرى فى ٢٥ مايو ١٩٢٣ إلى فرنسا ، ليصل بيرم إلى مارسيليا مرة أخرى ويجد البطالة تنتظره إلى أن ينجح فى العثور على عمل فى شركة للصناعات الكيماوية ،

ولكن المرض يصيبه وينقل إلى المستشفى حتى تم له الشفاء ، ثم ينتقل مرة أخرى إلى مصنع للحرير فى «جرينوبل» ليعمل فيه ولكنه يفشل مرة أخرى لظروف مرضه ويتم فصله من المصنع! .

ورغم قسوة الحياة على بيرم فى المنفى ، فهو لم يفقد مطلقا بريق كتاباته الساخرة ، فحينما يسمع أن الشعب المصرى أرغم الانجليز على الإفراج عن سعد زغلول وأنه عاد من جزيرة سيشل إلى الاسكندرية فى ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ يكتب زجلا فى هذه المناسبة التى تأثر بها فيقول :

أطلع نهار الجمعة فوق المنبر
وقول يعيش سعد الرئيس الأكبر
(قولوا لعين الشمس ما تحماشى)
علشان رئيس الوفد صابح ماشى
سمع طبول الفرح ما ستناشى
وقال وكيل البنت لازم يحضر

اللهو والعبث فى فرنسا !

ومضى بيرم يكتب أشعاره وأزجاله السياسية فاتحا نار الزجل على الاستعمار والخونة أثناء جولاته بالريف الفرنسى باحثاً عن فرصة عمل ، وهناك يلتقى ببعض الطلبة المصريين الذين جاءوا للعلم والدراسة ، ولكنه يفاجأ بأنهم انصرفوا عن دراستهم إلى اللهو والعبث.

معاناة الجوع !

وتمضى الأيام على بيرم وهو مازال يتجرع الآلام فى منفاه بفرنسا إلا أن ينزل الخبر الحزين عليه كالصاعقة حينما يعلم أن الملحن الكبير سيد درويش قد توفى، فيحزن حزناً هائلاً على صديقه العزيز.

وتبلغ الأحزان ببيرم مداها حتى تدفعه للهجرة من الريف الفرنسي ، ليعود مرة أخرى إلى مدينة ليون ليعانى فيها الجوع وشظف الحياة ، وكل ذلك لم يمنع بيرم عن إطلاق موهبته الأدبية ، فقد كان فى تلك الفترة على صلة مستمرة بصحيفة الشباب وكان يمدها بالأزجال والمقامات والنكات الظريفة التى كانت تستعرض عيوب المجتمع المصرى وقتذاك ، بل إنه انحاز تماماً إلى الطبقة الفقيرة في مصر التى لا تملك من الدنيا إلا ندب حالتها والدعاء على الطغاة الأعيان الذين نهبوا ثروات مصر، ولعل من أبرز المقامات الزجلية التى كتبها بيرم عن الطبقة الفقيرة ، هى «المقامة الفسيخية» وكان أيضا يكتب أزجالاً ينتقد فيها المجتمع المصرى مثل قصيدة العامل التى يعاتب فيها من يعمل لأجلهم فيقول :

ليه أمشى حافى
ونا منبت مراكيبكم
ليه فرشى عريان
ونا منجد مراتبكم
ليه بيتى خربان
ونا نجار دواليبكم
هى كده قسمتى
الله يحاسبكم

اللقاء بالفنان وزوجته !

ويرحل بيرم من ليون بفرنسا إلى مدينة باريس ليلتقى هناك بالفنان الكبير عزيز عيد وزوجته فاطمة رشدى، ويتفق معه بمشاركة فنان مصرى يدعى «ايدموند تويمة» على تأليف مسرحية مقتبسة تحت اسم «ليلة من ألف ليلة» وهى تدور حول ارساء العدالة بين الناس،

بيرم التونسى



ويقوم بيرم فعلا بتأليف تلك المسرحية ويرسلها إلى عزيز عيد، ليفاجأ بيرم بعد ذلك بأن عزيز عيد يخبره أن هذه المسرحية لاقت نجاحاً منقطع النظير ، ويطلب منه ترك أعماله فى باريس ليتفرغ لكتابة أعمال جديدة ، ويبدأ بيرم فى كتابة رواية «عقيلة» أو المسرحية الثانية لفرقة عزيز عيد ويرسلها للقاهرة ثم ينتظر وصول خطاب من هناك دون جدوى! .

وذهب بيرم بعد أن طال انتظاره إلى مسرح «جومون بالاس» والتقى هناك ببعض أصدقائه من الفنانين المصريين ، ليخبروه بأن الفنان الكبير وصديقه العزيز «زكريا أحمد» فى طريقه إلى باريس مع المطربة نادرة وجورج أبيض وعبد الرحمن رشدى ، وأنهم سيقومون بعمل فيلم سينمائى اسمه «أنشودة الفؤاد» وينتظر بيرم تلك الزيارة بفارغ الصبر، وأثناء ذلك الانتظار لم ينس بيرم حنينه إلى مصر مما دفعه أن يكتب :

عطشـان يا صبايا
عطشـان يا مصريين
عطشان والنيل فى بلادكم
متعكر مليـان طين
ولا نهـر الرين يروينى
ولا مية نهر السـين

وعندما يصل زكريا أحمد، يهرع بيرم لمقابلته، ويعده زكريا ببذل كل جهده من أجل عودته إلى أهله فى مصر، وتمضى الأيام لتتاح فرصة أمام بيرم للكتابة فى مجلة «الفنون» بمصر دون أن تصل إليه أية نقود سوى أربعة جنيهات فقط وصلت له فى أول الأمر، وكانت عن أول قطعة تنشر لبيرم فى هذه المجلة تقول :

يا بنت بانى الهرم لمى هلاهيلك
والبرقع إللى انخرم ويا خلاخيلك
ما شفت زيك سجين ساكت ومتاوى
غلبت أقول للرجال خلوا المرة حرة

وحينما قرأ أمير الشعراء هذا الزجل فى المجلة يعلق عليه بأنه زجل فوق مستوى العبقرية .

السيد ومراته فى باريس !

ومن المعروف أن أهم أعمال بيرم فى تلك الفترة القاسية عملان فى غاية الأهمية هما كتاباه «السيد ومراته فى باريس» و«السيد ومراته فى مصر»، والكتاب الأول يحكى فى صورة مضحكة وساخرة مشاكل المجتمع المصرى وقضاياه ، فمثلا السيد ابن الحارة المصرية يصحب زوجته إلى باريس عاصمة فرنسا ، وهناك يتعرف على مظاهر الحضارة الحديثة والسلوك الاجتماعى عند الغرب ، كما أنه يفند معظم مصائبنا والتى أعتقد أن سببها إقبال الناس على أعمال لا يفهمونها، وعيب التواكل عندنا فمثلا العربجى يفتح بقال والحانوتى يفتح لوكاندة بينما فى أوربا نجد أن لكل حرفة مدرسة ومؤهلاً رسمياً معترفاً به عند الجميع ، ويستعرض بيرم فى ذلك الكتاب الهوان الاجتماعى المتمثل فى البطالة التى كان يعانى منها الشعب المصرى ، كما ينبهنا إلى ضرورة التخلص من هذه العيوب الاجتماعية فى

أسرع وقت، أما فى كتابه الثانى «السيد ومراته فى مصر» فهو يدور حول ماذا سيحدث للزوجين عقب عودتهما من باريس إلى منزلهما فى جزيرة بدران بشبرا فى مصر فهل سيتغير سلوكهما بعد تلك الرحلة وسط مجتمعهما ، وهكذا نرى أن أعمال بيرم فى باريس كانت فيضاً من الانفعالات والأحاسيس والرغبة العميقة فى ضرورة تخليص مصر من عيوبها الاجتماعية لكى تحطم الأغلال الاقتصادية والسياسية التى فرضها عليها الاستعمار البغيض! .

ترحيل بيرم !

ويتم ترحيل بيرم من فرنسا مرة أخرى إلى تونس بعد قيام فرنسا فى عام ١٩٣٢ بطرد الأجانب منها وعودتهم إلى بلادهم، وينتقل بيرم بين سوريا ولبنان فى عام ١٩٣٨، وفى ذلك الوقت يتصل به الزجال المعروف رمزى نظيم من بيروت ويطلب منه مراسلة جريدة الصاعقة ، ويرسل لهم بيرم أول زجل بعنوان «غاندى» يقول فيه :

السلام لك والسلامة
من هنا ليوم القيامة
يا اللى أظهرت الكرامة
بعد عهد المرسلين

ويبدو أن نشاط بيرم فى سوريا فى ذلك الوقت لم يعجب السلطات الفرنسية هناك ، فتقرر إرساله إلى أى بلد فى غرب أفريقيا لتستريح من كتاباته الساخرة، وفى طريق المنفى تقف الباخرة التى تحمل بيرم فى ميناء بورسعيد، ويطل بيرم من سور الباخرة ويرى مدينة بورسعيد أمام عينيه فتنهمر الدموع من مقلتيه، ولعل أطرف حوار هو الذى حدث فى تلك اللحظة بين بيرم وأحد البمبوطية، حيث يفاجأ البمبوطى ببيرم يتحدث له باللغة العربية قائلا : أنا مصرى زيك.. والله يجازى اللى رمونى الرمية دى.. ويبعدونى عن أولادى وأهلى ، ويحكى بيرم حكايته للبمبوطى فيرد عليه البمبوطى قائلاً :

اسمع يا عرب باختصار الكلام انت عايز تدخل بورسعيد .. فيرد عليه بيرم : فى عرضك .. أبوس رجليك .. رجعنى لأولادى ، ويبتسم البمبوطى ثم يأمره بالسير وراءه ، وفجأة يجد بيرم نفسه خارج الميناء ، ويجلس على أحد المقاهى ، فيكتب على علبة سجائره زجله المشهور الذى قال فيه:

غلبت أقطع تذاكر
وشبعت يارب غربة
بين الشطوط والبواخر
وبين بلادنا وأوربا
عشرين سنة فى السياحة
بشوف مناظر جميلة
ما شفت يا قلبى راحة
فى دى السنين الطويلة
إلا لما شفت البراقع
واللبدة والجلابية

وأخيرا وصل بيرم إلى مصر فى ٨ ابريل ١٩٣٨، وهى الفترة التى صاحبت انتخابات البرلمان الجديد ، وكانت مصر بالطبع قد انتهت من توقيع معاهدة ١٩٣٦، بينما تربع الملك فاروق على عرش مصر ! .

اللقاء مع الأسرة

ويذهب بيرم إلى أسرته فى حى السيدة زينب ليلتقى بهم، ويقدم بعد ذلك



بيرم التونسى

التماسا إلى القصر بعد عدة مساعٍ لتنجح بواسطة الفنان سليمان جميل ويصدر عفوا إلى أن يأتيه عرض فى أخبار اليوم فى مارس ١٩٥٠ لكتابة زجل اجتماعى كل أسبوع مقابل عشرة جنيهات للزجل الواحد، وقد تناول بيرم فى هذه الأزجال التى كتبها لأخبار اليوم كل شىء عن السوق والفقر والجوانب السياسية ، فمثلا كتب زجلاً تحت عنوان «الهتاف» فيقول فيه :

أوحت إليه السياسة يشتغل هتاف
والهتافين ينجحوا طول م البلد فى خلاف
يخطب معالى الوزير فى حفلة الكشاف
وده يقاطعه ويهتف بالقليل ساعتين

آمال الجماهير !

وهكذا فإننا نرى أن بيرم لم يفقد طابعه المميز أثناء عمله بأخبار اليوم ، بل قام بإمداد صحف أخرى ببعض أعماله مثل مجلة «ابن البلد» ليكتب عدة مقامات رائعة مثل «المقامة البيجامية» والمقامة «الساندوتشية» «والمقامة الزبيبية» ، وفى أوائل عام ١٩٥٢ ترك بيرم كتابة الأزجال بصحيفة الأخبار لينتقل إلى جريدة المصرى لتقوم ثورة ٢٣ يوليو ، فيفرح بيرم فرحة طاغية ويكتب زجلا فيها ويقول :

العيد ده أول عيد عليه القيمة
ما فيهشى تشريفة ولا تعظيمه
صابحين وأعرضنا أقله سليمة
والقيد محطم، والأسير متحرر

ثم يقول بيرم عندما شعر أن الثورة تسير مع آمال الجماهير لتنفيذ قانون الاصلاح الزراعى :

قضيت يا فلاح حياتك فى سواد العيش
ولبسك الخيشة ويا ريتك تطول الخيش
شوف ضربة الجيش أعادت حقك المغصوب
ورجعت للصواب أهل الغرور والطيش

وينجح بيرم فى الحصول على الجنسية المصرية فى عام ١٩٥٤، ثم يترك العمل بجريدة المصرى ليعمل فى جريدة الجمهورية عام ١٩٥٥ لتفيض أزجاله بالحماس الوطنى والإيمان بعدالة القضية العربية .

عندما تصمد بورسعيد أمام العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ويقف العالم كله ضد العدوان يكتب ويقول :

صوت السلام هوه إللى ساد واللى حكم
ثلاث أمم يا بورسعيد متقدمة
بدبابات وطيارات تملا السما
ماتقدموش فى بورسعيد ولا قدم

وتعجب هذه الكلمات كوكب الشرق «أم كلثوم» فتغنيها ويرددها الشعب المصرى كله، ويبدأ التعاون بين بيرم وأم كلثوم لتغنى له أغانى «أنا وانت» و«كل الأحبة اتنين اتنين» «الأوله فى الغرام» و«حبيب قلبى» و«آه من لقاك» و«أهو دا إللى جرى» و«هوه صحيح الهوى غلاب»

وغير ذلك من الأغانى الرفيعة المستوى .. فمثلا فى أغنية «حبيب قلبى» يقول :

حبيب قلبى وفانى ميعاده
بعــــد ما طول بعـــــاده
قابلنى وطمنى على وصله
وقــــــالى بعد ما قابلته
كلام الـــــقلب يرقص له

مرض الربو يهزمه !

وتعامل بيرم فى مجال الأغنية مع مطربين آخرين مثل فريد الأطرش واسمهان ومحمد الكحلاوى وشادية ونور الهدى ومحمد فوزى ، كما قدم العديد من الأعمال الإذاعية ومن أشهرها حلقات بنت السلطان وحلقات عزيزة ويونس وبنت بحرى وفوازير رمضان وسيرة الظاهر بيبرس وعدة أعمال أدبية على أعلى مستوى .

وتأتى اللحظة الرائعة التى أراد الله فيها أن يكافىء بيرم على قصة كفاحه البطولية ، فيقوم الرئيس جمال عبد الناصر بمنحه جائزة الدولة التقديرية تقديراً لمجهوداته فى دنيا الأدب وذلك عام ١٩٦٠.

وهكذا فإن حياة الأديب الفنان بيرم كانت مزيجاً بين تناقضات القدر وتحمل كل هذه الأعباء والضغوط النفسية فى جميع مراحل حياته، ليوهن جسده ويشتد عليه مرض الربو وتفشل معه كل المحاولات العلاجية ، ليستقر فى آخر أيامه بحلوان حتى توافيه المنية ويدفن جسمانه فى مقابر باب الوزير فى مدفن رجل اسمه البكباشى محمد عارف، ولعل أصدق زجل ألفه بيرم يلخص حياته المأساوية هو الذى يقول فيه :

قال إيه مراد ابن آدم
قلت له طقة
قال إيه يكفى منامه
قلت له شقة
قال إيه يعجل بعمره
قلت له زقة
قال حد فيها مخلد
قلت له : لأه

أعمال بيرم عديدة !

ومهما اتسعت السطور والكلمات فلن يستطيع القلم أن يفي بيرم حقه فأعماله كثيرة ومتعددة، ولم يترك شيئا فى المجتمع أو ما يمس القضايا الخارجية أو الداخلية، إلا وكتب فيها ، فهو عبارة عن تراث هائل وشامخ ستتداوله الأجيال فى حب وعشق، وتراث عميق نبع من الحارة المصرية جعلنا جميعا نتغنى بأزجاله الصاروخية التى تتناسب مع كل العصور وتتواصلها الأجيال ! .

ولعل أبرز ما يشعر به المرء فى أزجال بيرم أنها أزجال قد تبدو للقارىء العادى أنها أزجال بسيطة تدخل للقلب من أول وهلة، ولكنها فى حقيقة الأمر شىء رائع يتخطى حدود الزمن ولا يمكن لأى أديب بارع أن يجاريها لأنها أزجال نبعت من قلب مفطور مزقته الدنيا ، فكما أن البلبل لا يغنى إلا إذا كان متألما وحيداً فإن بيرم هو الآخر أحد بلابل الزجل العظماء فى العالم العربى، فقد صنع لنا أزجالاً هى مزيج من الألم والحزن والفرحة والصدق والوطنية ولذا كان يستحق منا أن نطلق عليه أنه أمير الزجل العربى بلا منازع .



سقراط رفيق على أحمد مع زوجته كزنتيبى هدى حداد

آخر أيام سقراط الرحبانية:

أول أيام موسم الفن الجميل ١٩٩٩

بقلم: صافي ناز كاظم

«للفن الجميل سرّه الشافى من وجوم الأيام الصعبة».

هذه الجملة من إنشاء حالتى وأنا أصفق للمسرحية الغنائية البديعة «آخر أيام سقراط» فى عرض افتتاحها ١٩٩٩/١/١٢. شكراً لمفاوضات د.مصطفى ناجى مع مؤلف المسرحية والأغانى والألحان، الفنان الذى يحلّق بهذا العرض فوق كل فنانى عصره المسرحى، منصور رحبانى، والتى انتهت بالاتفاق فجاء الرحبانية على مسرح دار الأوبرا.

لتبدأ بهم موسم نشاطها الفنى لعام ١٩٩٩ من ١/١٢ حتى ١/١٧.

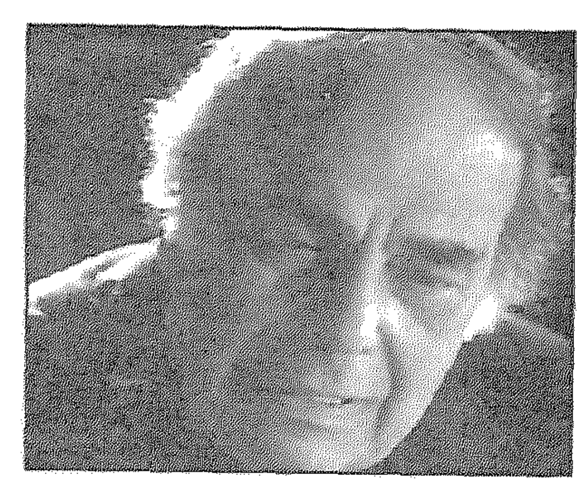


هدى فى رقصة زوجه سقراط

ضم وفد الفرقة ٧٧ فنانا وفنانة يمثلون فرقتهم الاستعراضية، منْ بينهم العناصر الرحبانية الشابة: المخرج مروان الرحباني الذى شارك - بالإضافة إلى مهمته الإخراج - فى التلحين والتوزيع مع غَدِي الرحباني وأسامة الرحباني، ثم الراقصة الأولى دانييل الرحباني، والرحبانية الفيروزية العريقة هدى التى عرفناها على طول مشوارها - الذى تعدى الثلاثين عاماً - باسم هدى حداد الصبية الأخت الصغرى لفيروز. تم تقديم العرض الأول لهذه المسرحية الغنائية التاريخية على مسرح كازينو لبنان ليلة ١٠/٢/١٩٩٨ واستمر بنجاح هائل لمدة تعدت العام.

★★★

يقول منصور رحبانى فى مقدمة نصه المطبوع: «آخر أيام سقراط. حكاية الشهيد الأول للحقيقة،... هى قصة كل مدينة فى كل زمان ومكان، هى قصتنا جميعاً نحن الذين نحلم بالحرية والخلاص، آخر أيام سقراط، أحداث تتوالى وسط احتفالات غنائية راقصة: إنها عهد جديد من الموسيقى الكبيرة» وهذه الجملة الأخيرة صدق فيها منصور مائة بالمائة، فهذا عمل مع كونه انتاجا ضخما مشتركا بين منصور الرحباني والمؤسسة اللبنانية للإرسال إنترناشيونال ، فانه هارب تماماً



منصور الرحباني

من المسالك التجارية النفعية المؤثرة سلباً على جذوة الفن وروح العطاء ونبل الفكر . أخشى أن أقع كثيراً فى عبارات الحماس الطنانة. لكن ماذا بوسعى أن أفعل وأنا واقعة تحت وطأة الفرح بهذا العرض المسرحى الجياش الذى يرتفع بإخراجه المتقن وموسيقاه المدهشة إلى مصاف عروض رأيتها فى أزمنة المسرح الزاهرة مثل «مارا/صاد» فى نيويورك و«هير» فى لندن، ولم أشهد له مثيلا فى كل سجلات المسرح العربى. منصور رحبانى عمره الآن ٧٤سنة، لديه الوعى بسنوات مرّت على منطقتنا العربية وعلى العالم بأسره، لا تقل عن ٦٠ سنة بدايتها الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، وضياع فلسطين ١٩٤٨، وعدوان ١٩٥٦، وهزيمة ١٩٦٧، والحرب الأهلية اللبنانية المدمرة غير المعقولة، ومسلسلات الخديعة السلامية إثر النصر الوحيد ١٩٧٣، وهيمنة النظم الدكتاتورية باسم مصالح الشعب، ودخول أحلام التحرير والحرية والاستقلال والعدالة الإجتماعية تحت مطارق التعذيب والإهانة والطرد والقتل صراحة وغيلة حتى الإبادة على طاولة السجون والمعتقلات الدوّارة، ثم أخيراً هيمنة أمريكية، دولة واحدة تدّعى الديمقراطية وتسعى لوراثة الأرض من أطرافها تقتبس وتعيد قسوة وجبروت كل مدارس الإستعمار الحديث والموغل فى القدم، فالرائى لشاشة التاريخ يشاهد على ملامحها التتار والمغول وطغاة الفرس والرومان ومجون مترفيها وتهتكهم رغم إدعائها أنها «نظام» عالمى جديد.

★★★

يقول منصور رحبانى: «...لأنه حان وقت الصراخ، وعذابات الإنسان اكتملت، لأن العدالة قلّت فى الأرض والظالمين أمعنوا بالإعتداء على الحرية، وجب أن نستدعى سقراط من جديد فى ساحة كل مدينة...»، هذا الهدف الذى يبدو فى هذه المقولة النثرية خطابيا، كتبه منصور رحبانى باللهجة العامية اللبنانية ظريفاً ولحنه شيّقا رومانسيا، وحققه بالإخراج العالى مروان الرحبانى، بالمزج الشعرى للكلمة واللحن والحركة والإيقاع على أرضية من الحزن الأخضر والسخرية والفكاهة، لكى لا تُلمس الجراح بالزاعق الحارق أو الثقيل الكاتم للتنفس والمهيج للإلتهاب النازف للدم والقيح.

والفريق الفنى المتوهج بالموهبة والعلم والمران والخبرة قائمة طويلة من الأبطال من فاته أن يكون شمسا كان نجما مشعاً

وقمراً ساطعاً: هدى، كارول سماحة، رفيق على أحمد، وليم حسوانى، زياد سعيد، نادر خورى، جيلبير الجلخ، مصمم الرقصات فيليكس هارتونيان، مصمم الدبكات سامى خورى، الماكياج والأقنعة سلمى صباغ، مصمم الإضاءة فؤاد خورى، مصمم الأزياء جابى أبى راشد، مصمم الديكور روجيه جلخ... إلى آخره.

★★★

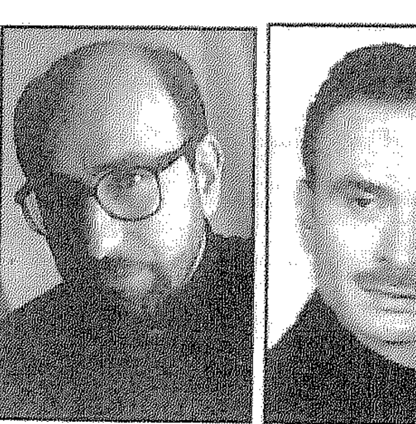
تعتمد المسرحية على مدخل لحظة تاريخية هى احتلال إسبارطة دولة الحرب والشراسة لأثينا وطن الفكر والفلسفة، والشخصية المحورية «سقراط/ رفيق على أحمد» ترمز إلى المقاومة الفكرية بالعقل الواعى والإيمان المدرك لعقيدة التوحيد فى مواجهة الكذب والفساد والاستبداد والخزعبلات وعقائد الشرك والوثنية.

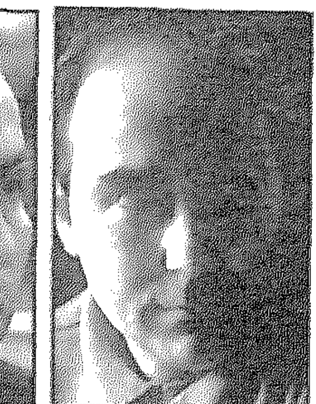
مع إفتتاح العرض نسمح سقراط: «أثينا يا أثينا، أنا واللى مثلى عملناك يا أثينا، جعلناك مدينة الفلسفة والحضارة، السياسيين شرشحوك، خلو عسكر سبارطة المتوحش يدعس ترابك..» ومع نهاية العرض قبل تجرع السم يعلن إيمانه: .. إله واحد خالق ها الكون..» ورفضه لآلهه «تأكل وتشرب.. آلهة تتجوّز... لأ...»، وهذا البعد الإيمانى لشخصية سقراط واضح نبعها من إيمان دينى أصيل عند منصور رحبانى يجعله يؤكد فى نصه المطبوع صـ١٠٤ «ختام الفصل الأول بإذن الله»، ثم فى نهايته صـ١٩٥: «انتهت شكراً لله» . هذه التمتمات المسبّحة تجعلك تحس العمل مرفوعاً بنية صلاة تدعو وتؤكد أن من هو: «رايح درب الحقيقة، متوّج بالاستشهاد...».

★★★

سقراط لا تحبه أى سلطة، سواء كانت سلطة كريتياس الحاكم الفرد عميل الاحتلال الإسبرطى، أو أنيتوس زعيم الحزب الديمقراطى تاجر الجلود حارس مصالح الأغنياء على حساب حقوق الشعب الفقير. سقراط هو الواقف بين الناس فى خندق الحق ومع ذلك تقع عليه التلفيقات والتهم: «سقراط أنت اللى دخّلت سبارطة، إنت اللى زعزعت الدين، بسبب تعاليمك غضب الآلهة حل علينا، لازم يتحاكم سقراط...»، غير أننا نعلم أنه يحاكم لبثه القول بين الناس: «ركعت أثينا، لأن أثينا تنازلت عن عظمة أثينا، ديمقراطيتها غرقت بالفوضى، المطلوبين حاكمين والشرفا محكومين..».









غدى الرحبانى — اسامة الرحبانى

★★★

يقدم المخرج مروان الرحبانى زياد سعيد فى دور الطاغية العميل كريتياس سفاح شعبه ليتشابه فى الحركة والإيماءة والصوت تشابها لا تخطئه العين مع توليفة مكونة من صدام حسين وابنه عدى والكورس ينشد: «وحكم كريتياس، بسيف سبارطة، مشى نهر الرعب بأثينا، كُتب الشعر تلطخت بالدم.. طرقاتك يا أثينا إيدين وخناجر، دايماً حدا مارق، دايما خنجر ناطر..».

عقوبات الإعدام وجبات يومية: «وسع الظلم، انكسر العدل، إسودى يا أثينا» ويدور الحوار بين سقراط والطاغية كريتياس حول أجراس الموت التى تدق بأثينا: «كريتياس، هل بيحق لنا نلغى إنسان إذا كان رأيو بيخالف رأينا»، ويرد الطاغية: «لأجل الصالح العام.. فيسأله سقراط: «هل فيه حكم صالح بيقرر يقتل؟» ويؤكد كريتياس أن الحرية للجميع: «حرية الحب، السهر، يتاجروا، يحتكروا، رفعوا الأسعار ما قلنا لهم شئ، راقبناهم وتركناهم بس السياسة يتركوا لنا إياها، ما حدا يتعاطى بالسياسة بيعيش مرتاح..» وحين يطلب كريتياس من سقراط أن ينضم لقضيته يواجهه سقراط: «شو قضيتكم إنتو وحزبك غير التنكيل بالناس..» لذلك يصدر الأمر بعد المحاورة صريحا من كريتياس لمنع سقراط من الكلام: «إعتبارا من اليوم ممنوعة التجمعات، ممنوعة التظاهرات، والتعليم بالساحات: فى حبس واعتقالات!»، ولا يتراجع سقراط:«علينا أن نمتلك الجرأة لنعلن عن أفكارنا ونجعلها مطابقة لأفعالنا... الناس أغلى من الحكم» .

★★★

من تلاميذ سقراط هناك أفلاطون يحكى فى لوحة غنائية راقصة عن جمهوريته الفاضلة: «وبالجمهورية رؤسا الدولة، مش لازم يمتلكوا فلوس ومش لازم يتجوزوا، حتى قرايبهم وولادهم ما يستغلوا السلطة!» ويرد عليه قائل: «معقول فى شى دولة رئيسها فقير، وفيها القانون بيمشى على ولاد الوزير..» وتستمر الملامسات الكثيرة الساخرة عن فساد الحكم والمحسوبيات وخرق القوانين بالقوانين، وقتل الشعب بدعوى مصلحته:«خلّى رجالك ياكوستا يعدوا لى خيالات الناس، بدى أعرف شو بيحكو الرجل وامرأته، مين اللى بيفكر يتمرد،

مين معنا ومين علينا.» وتكون الإجابة : «بقيو اللى معنا وخلصوا اللى علينا..» حل مشكلة الفقر بإبادة الفقراء: «... إلغى الفقرا بتلغى الفقر».

ويذهب الحاكم الفرد ويأتى الديمقراطيون سلطة مستغلة: «وإجت الديمقراطية ما تغير علينا شئ.. شو بتغير الحرية للفقير الموجوع، الحرية مع الجوع بتكبر حجم الجوع» وتستمر هذه المواجد نفساً لا ينقطع يشهق به العرض ويزفر حتى نصل ذروته فى المحاكمة وإعدام سقراط بتجرع السم وقد رفض الإسترحام: «عيب ع العدالة نلتمسها بالشفقة... يا قضاه، أنا عارف إنى جاى ع الموت، بس لا تترقبوا منى موقف ما بينسجم مع واجبى الأخلاقى والدينى..»، وتصرخ زوجته «كزنتيبى/ هدى حداد»: «أنا تشكيت... وأنا شو بيعرفنى إنو الدولة بتخاف من الكلمة»... وتتعجب من الحكم بالإعدام على سقراط بينما: «..كل واحد بنقول عنه بطل مصلح قتل من شعبه ميت مرة أكتر مما قتلوا المحتلين...» وتدعو على أثينا: «أثينا يا أثينا، يا اللى هجرت الحق، بدعى على حقولك الخضرا تبور، لا تكتكة سمنة ولا شحرور، ولا بقى يطلع بالحواض زهور ، ولا يضل بشى نهر، نقطة من تا يشرب العصفور..»

★★★

يرفض سقراط فرصة الهرب ويواجه الموت: «انفتحت أبواب الليل، والموت قصيدة، أعطونى يا حراس الكاس... لشو أتمسك بحياة ما بقى تعطينى شى، وشو نفع التأخير، ناولونى الكاس... كتار بيحملوا الشعارات وقلال المكرسين..»، حين يشرب كأس السم تقع عصاه ويجمد هو واقفا حتى يغيب صاعداً إلى الأعالى وسط تحركات مأتمية والجميع ينشد فى قصيد شعرى موسيقى غنائى مشحون:

«يا بواب الدهر تعلّى،
ارتفعى يا مداخل،
يا غيم الأبيض صلّى،
غطى الهياكل،
اللى راكع بدو يعلى،
الطاغى بدو ينذل،
....
يا صيف ياشتا ويا أعياد
....
رايح ع درب الحقيقة،
متوج بالإستشهاد».

★★★

هذا العمل المسرحى الفذ تجسيد لوظيفة المسرح الضرورية والراقية.


دانييل الرحباني


فيلكس هارتونيان

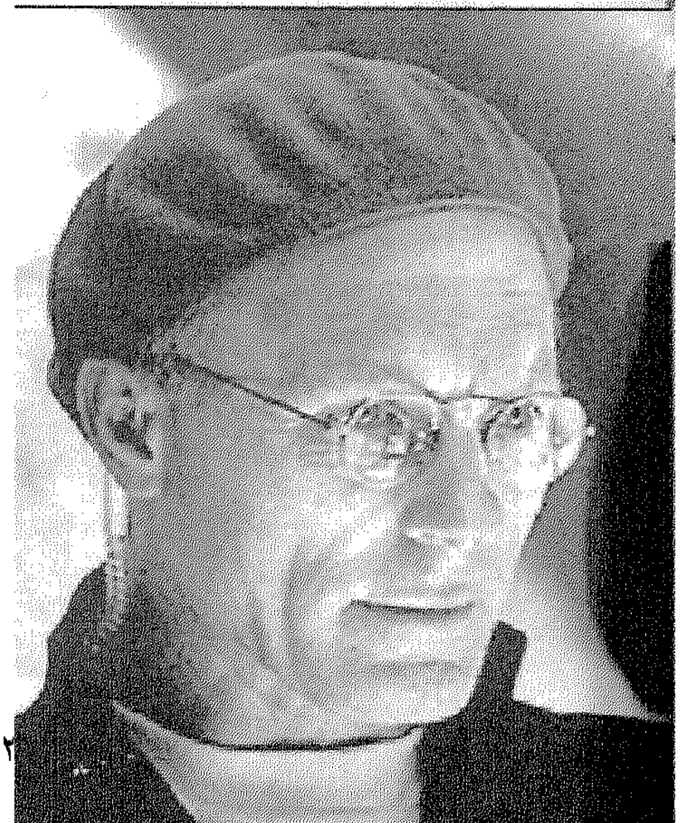
سبيلبرج مع توم هانكس
فى اخراج انقاذ النفر رايان



وبدأت حرب النجوم

بقلم

مصطفى درويش



ادهاريس فى يوميات ترومان



مات دامون
فى انقاذ النفر رايان

فى مثل هذه الأيام من كل عام يكثر الحديث عما سبق عرضه من أفلام .

وهو ليس من شقشقة اللسان ، ولا من سفسطة الكلام وإنما حديث مفيد ليس له من هدف سوى بيان أحسن ما جرى عرضه من أعمال سينمائية على مدار عام رحل عنا ، مفسحا بذلك الطريق لعام جديد ، تبدأ برحيله هو الآخر- بعد أحد عشر شهرا- ألفية ثالثة من عمر الزمان .

وأهمية ذلك البيان إنما ترجع إلى تأثيره فى آخر المطاف ، فيما لو انتهى رأى المتحدثين فى بعض الأفلام الى مايقرب الاجماع .

فهذه الأفلام المختارة سواء كانت من إنتاج مصنع الأحلام فى هوليوود أو مصانع أخرى فى مشارق الأرض ومغاربها ، هى غالبا التى سيجرى ترشيحها فى مستقبل قريب لجوائز الاوسكار .

وربما تخرج من مضمار التنافس على تلك الجوائز متوجة ببعض منها ، وذلك فى حفل الإعلان عنها الذى يشاهده مئات الملايين . وبداية فكل واحد من المتحدثين سواء كان ناقدا أم صحفيا أو الاثنين معا كان له - فيما شاهد من أفلام - رأيه الخاص الذى يتلاءم مع شخصيته ، وطبيعة عمله فى وسائط الاعلام .

التميز !

ولعلى لست بعيدا عن الصواب إذا ما جنحت إلى القول بأن تقويم ناقد مجلة «تايم» الأمريكية للأفلام فى نهاية كل عام، من الأهمية بمكان فتلك المجلة كما هو معروف ، ليست كغيرها من المجلات .

إنها مجلة متميزة ، انفردت بمنزلة خاصة لعدة أسباب ، ربما أهمها القدم والابتكار مع الانتساب إلى مؤسسة ولا أقول إمبراطورية ، تايم - وارنر الإعلامية، صاحبة الفضائية الذائعة الصيت «سى . ان . ان» ووسائط إعلام جماهيرية أخرى، تقدر قيمة أسهمها فى البورصات العالمية بمئات الملايين ، وأحيانا آلاف الملايين من عزيز الدولارات .

ومن هنا أهمية ما يبديه نقاد السينما فيها من آراء حول مايجرى عرضه من أفلام داخل الولايات المتحدة ، علي مدار العام وبما يدخله البعض منهم ، بعد بحث وتمحيص ، فى عداد أحسن عشرة أفلام.

وبنظرة طائرة على الاختيار الأخير للأفلام العشرة يتبين أن قارتى آسيا وإفريقيا قد غابت أفلامهما تماما .

وإن فرنسا ليس لها سوى فيلم يتيم قديم مسجل على شريط فيديو ، اسمه «مصاصو الدماء» وهو من أفلام التراث السينمائى الصامتة أخرجه «لويس فوياد» خلال الربع الأول من القرن العشرين «١٩١٥» .

هذا فى الوقت الذى فازت فيه السينما المتكلمة باللغة الإنجليزية بنصيب الأسد ، متمثلا فى خمسة أفلام .

نهضة لاتينية

والغريب من أمر ذلك الاختيار وجود ثلاثة أفلام متكلمة إما باللغة الأسبانية أو البرتغالية ضمن الأفلام العشرة، وهى «لحم حى» للمخرج الأسبانى «بدرو المودوفار» و«رحلة الى بداية العالم» للمخرج البرتغالى «مانويل دى أو ليفيرا» الذى بلغ التسعين قبل شهرين .

«والمحطة الرئيسية» للمخرج البرازيلى «والتر ساليس الصغير» .

وأقف قليلا عند الفيلم الأخير لأقول أنه سبق له الفوز بجائزة مهرجان برلين السينمائى «الدب الذهبى» «١٩٩٨» وبجوائز كبرى أخرى من أكثر من مهرجان، كما أن ممثلته الأولى «فرناندا مونتنجرو» قد اختارها نقاد لوس انجلوس «أحسن ممثلة لعام ١٩٩٨ عن أدائها فى هذا الفيلم لدور «دورا» .

وأعود إلى الأفلام الخمسة المتكلمة بالانجليزية لأتوقف عند ثلاثة من بينها هما «انقاذ النفر رايان» للمخرج الأمريكى «ستيفن سبيلبرج» و«الخط الأحمر الرفيع» للمخرج الأمريكى «تيرنس ماليك» و«شكسبير يحب» للمخرج الإنجليزى «جون مادن» . والفيلم الأول والثانى كلاهما من الأفلام الحربية التى تدور أحداثها إبان الحرب العالمية الثانية ، وذلك قبل ثلاثة وخمسين عاما .

ويختلف موقع الأحداث فى إنقاذ النفر رايان عنه فى أحداث «الخط الأحمر الرفيع» .

فهو فى الأول شاطىء أوماها بساحل نورماندى فى فرنسا .

وفى الثانى شاطىء جزيرة «جواد الكانال» بالمحيط الهادى .

الحب والخلود

أما «شكسبير يحب» فأحداثه ترتد إلى القرن السادس عشر ، حيث وقع الشاعر الانجليزى فى شباك حب محرم ، دفعه الى ابداع «روميو وجولييت» ومن بعدها مسرحيات أخرى رائعة . جعلته من الخالدين .

وفى ترتيب الأفلام العشرة جاء «إنقاذ النفر رايان» الأول ، و«الخط الأحمر الرفيع» السادس و«شكسبير يحب» بعده مباشرة أى السابع فى الترتيب، ومجىء فيلم «سبيلبرج» مترئسا تلك الأفلام ، يرجح كفته فى الترشيح للعديد من جوائز الاوسكار .

ومما يؤيد ذلك اختياره أحسن فيلم لعام ١٩٩٨ ، من قبل نقاد كل من مدينتى نيويورك ولوس انجلوس حيث توجد عاصمة السينما .

الكرة الذهبية

وترشيحه فوق هذا لخمس من الجوائز المسماة بالكرة الذهبية ، وذلك من قبل جمعية الصحافة الأجنبية فى لوس أنجلوس وترشيحاتها مؤشر لاتجاهات من بيدهم الأمر فى الترشيح لجوائز الاوسكار.

ومن هنا الأهمية الكبرى التى يعلقها صانعو الأفلام على ترشيحات تلك الجمعية.

ومما يعرف عن جوائزها أنها تختلف عن جوائز الاوسكار فى أكثر من أمر .

فما يجرى ترشيحه من أفلام أمريكية أو غيرها من أفلام متكلمة بالانجليزية بواسطة تلك الجمعية ليس عدده خمسة ، كما هو الحال مع الترشيحات للاوسكار وإنما عشرة أفلام نصفها لابد أن يكون من نوع الدراما ، والنصف الآخر من نوع الملهاة ، ويدخل فى عداده الأفلام ذات الطابع الموسيقى .

وفضلا عن ذلك فالترشيحات للكرة الذهبية تنحصر فى فئات المخرجين وكاتبى السيناريو والممثلين والممثلات ، وطبعا الأفلام .

أما غير ذلك من المبدعين كمصممى الملابس والمناظر والمؤلفين والموسيقيين ، فليس لهم فى تلك الترشيحات نصيب .

وعلى كل فالترشيحات الأخيرة لتلك

الكرة شملت ستة وثلاثين فيلما ، من بينها تسعة عشر فيلما لم ينل واحد منها سوى ترشيح يتيم .

أما الأفلام الأخرى فكان نصيبها من الترشيحات أكثر .

وفى مركز الصدارة يقف فيلمان ، كل واحد منهما بستة ترشيحات .

أحدهما درامى «يوميات ترومان» والآخر كوميدى «شكسبير يحب» .

ومن بعدهما بخمسة ترشيحات يقف «انقاذ النفر رايان» .

السينما العربية .. أين ؟

والآن إلى الأفلام الخمسة الأجنبية غير المتكلمة بالانجليزية المرشحة للكرة الذهبية .

أول مايلاحظ على تلك الأفلام أنه ليس بينها «المصير» ليوسف شاهين ، أو أى فيلم عربى آخر وان كان أحدها «العروس البولندية» فيلما لمخرج جزائرى «كريم ترديه» سبق له وان عرض ، خارج المسابقة ، فى مهرجان كان «١٩٩٨» .

هذا ، وينافسه على جائزة افضل فيلم أجنبى «الاحتفال» للمخرج السويدى «توماس وينتربرج» .

و«رجال مسلحون» للمخرج الأمريكى «جون سايلس» وهو فيلم متكلم بالأسبانية.

و«تانجو» للمخرج الاسبانى «كارلوس ساورا » و«المحطة الرئيسية» أو «محطة البرازيل» حسب التسمية الأصلية .

والفيلمان الأخيران قد جرى عرضهما، قبل أسابيع ، فى مهرجان القاهرة السينمائى «١٩٩٨» كما أن ذلك المهرجان قد جرى افتتاحه بفيلم «كارلوس ساورا» .

ويقال من بين ما يقال إن حق عرضه فى مصر عرضا عاما قد اشترته شركة نهضة مصر للسينما .

فقر العروض

وهنا قد يكون من المناسب أن أذكر أنه من بين جميع الأفلام المرشحة للكرة الذهبية لم يعرض عندنا سوى فيلمين عرضا عاما هما «يوميات ترومان» و«انقاذ النفر رايان» .

وكلاهما وان كان قد حقق نجاحا كبيرا فى الخارج ، فإنه لم يحقق عندنا إلا نجاحا متواضعا .

وأولهما من ابداع «بيتر فير» وهو مخرج استرالى ذو اسلوب متميز جعله وحيد نوعه بين صانعى الأفلام فى مصنع الأحلام وثانيهما من إبداع «سبيلبرج» ذلك المخرج المتعدد المواهب .

وهو يجمع بين الإخراج والإنتاج ، كما أنه الآن صاحب ستديو كبير ، استهل إنتاجه بفيلم رسوم متحركة ، يدور حول سيرة النبى موسى ، كما حكتها التوراة، وذلك الفيلم اسمه «أمير مصر» !!

والجديد عن فيلمى «فير» ، «سبيلبرج» وما أكثر ما كتب عنهما ، عند عرضهما قبل أربعة أشهر ، لاسيما هنا على صفحات الهلال الجديد، هو تتويج نقاد نيويورك لهما ، الأول بجائزة أفضل مخرج، والثانى بجائزة أفضل فيلم .

الافتتاح المحمود

إن عرض هذين الفيلمين عندنا قبل هذا الفوز وغيره ، وقبل الترشيح للعديد من الكرات الذهبية ، لأمر يدل على انفتاح محمود ، على أحسن ما تجود به هوليوود من أفلام .

ويا حبذا لو اتسع الانفتاح ، بحيث يشمل أفلام من إنتاج بلاد قارات أوروبا وأمريكا اللاتينية واستراليا ، وبلاد أخرى عربية وغير عربية مثل تركيا والهند، والصين ، واليابان .

وتحضرني هنا روائع مثل الفيلم الايطالى «سرقة الجمال» لصاحبه «برناردو برتولوتسى» و«المحطة الرئيسية» لصاحبه المخرج البرازيلى «جون ساليس» و«وداعا محبوبتى» لصاحبه المخرج الصينى «شين كايجى» و«درس البيانو» لصاحبته المخرجة النيوزيلاندية «جان كامبيون» .

ولكن انفتاحا أو حلما كهذا لن يكتب له وجود فى مستقبل قريب ، إلا مع ميلاد رقابة رشيدة ، لا تهاب النقد الهدام من قبل قوى الظلام ، رقابة رائدة فى وسعها أن توجه الرأى العام ، تقوده إلى بر السلام .

ومرة أخرى أعود إلى فيلمى «تانجو» و«المحطة الرئيسية» لأقول إن كلا منهما لم يرد له ذكر مع فيلمى «فير» و «سبيلبرج» وذلك رغم عرضه فى بعض ليالى مهرجان القاهرة، لا لسبب سوى انحصار عروض كلاهما فى حفلتين أو ثلاث لا تزيد ، تنفيذا لحكم لوائح المهرجانات العالمية .

والعروض التى من هذا القبيل لاتحسب ضمن ما اصطلح علي تسميته بالعرض العام .

عصر المعلومات

ولايفوتنى هنا أن أشير الى «فرناندا مونتنجرو» بطلة «المحطة الرئيسية» بحكم أنها من بين المرشحات الخمس لجائزة الكرة الذهبية لأفضل ممثلة رئيسية فى فيلم درامى ، متنافسة فى ذلك مع ممثلات سبق لهن الفوز بالاوسكار مثل «ميريل ستريب» و«سوزان ساراندون» وعندى أنها وإن كانت أقل المرشحات فتنة وجمالا ، إلا أنها تفضلهن فى مجال التمثيل .

ولا غرابة فى هذا ، فهى من أعظم ممثلات المسرح البرازيلى ، وأوسعهن شهرة .

ولولا مشاركتها بأداء الدور الرئيسى فى «المحطة الرئيسية» ولولا تتويج هذا الفيلم بالعديد من جوائز المهرجانات الكبرى ، لما سمعنا عنها شيئا ، ولما استمتعنا بأدائها الرائع ، وذلك رغم أننا نعيش فى عصر سمى بعصر المعلومات .

وهذا والحق يقال ، لما يؤسف له لأنه كلما ضحلت معلوماتنا الصحيحة ، قل وعينا بنفس المقدار .

ومع ضحالة المعلومات ، وقلة الوعى يكثر عملقة الأقزام من الممثلين والممثلات □

رواية الساق على الساق

فيما هو الفار ياق»

لأحمد فارس الشدياق

بقلم: حسين احمد أمين

حين سألت الصديق عن عنوان منزله وأخبرني أنه في شارع أحمد فارس الشدياق بمصر الجديدة، ارتسمت علي وجهي ابتسامة لم يستطع الصديق تفسيرها أو هو خشي أن يكون في الاسم شبهة كتلك التي ارتبطت بشارع كلوت بك مثلا! قال: من هذا الشدياق إن كنت تعرفه؟ كلما ذكرت عنواني لأحد سألني عن هوية الرجل. أنت وحدك من ابتسمت ابتسامة العارف بأمره .

قلت: إنما ابتسمت تعبيرا عن الرضا والدهشة أن يكون بين المسئولين من ألم بأهمية هذا العملاق الفذ.

– عملاق فذ؟! ماذا عساه أن يكون قد صنع؟ أقائد حربي هو أم شهيد من شهداء حرب يونيو ١٩٦٧ ؟



د. محمد حسين هيكل

– الآن صرت فى مستوى الطالب الجامعى الذى سألته مذيعة التليفزيون عن نبوية موسى فأجابها فى ثقة بأنها راقصة.. أحمد فارس الشدياق يا صديقى بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة، منها أنه صاحب أدق ترجمة عربية للكتاب المقدس، مؤلف أول رواية عربية على الإطلاق.

– كنت أحسب أن أول رواية عربية هى «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى، أو زينب لهيكل.

– سبقت رواية «الساق على الساق» رواية المويلحى بنحو نصف قرن، ورواية هيكل بثمانية وخمسين عاما.

– ألها قيمة؟ لابد أنها محاولة ساذجة إن كان الناس عندنا قد أجمعوا على نسيانها، وأمتنا، كما تعلم، لا تجتمع على باطل.

– أمتنا، كما أعلم، لاتجتمع على حق أو باطل.. اقرأها حتى ترى بنفسك مدى أهميتها وروعتها ومدى سذاجة الفن الروائى عند كل من المويلحى وهيكل إن نحن قارناه بفن الشدياق.

– قد أثرت فضولى يا صاح ! فخبرنى عنه وعن روايته حتى أجيب من يسألنى بعد الآن عن عنوانى.

– هو عالم باللغة والأدب . ولد فى لبنان لأبوين.. يمنيين سمياه فارسا ثم رحل إلى مصر فى زمن محمد على، فتلقى الأدب عن علمائها، وعمل لعدة سنوات بجريدة «الوقائع المصرية». ثم رحل إلى مالطة، وتنقل بين بلدان أوروبا قبل أن يسافر إلى تونس حيث اعتنق الإسلام وأسمى نفسه أحمد فارس. ثم دعى إلى استنبول فأصدر بها جريدة «الجوائب» لمدة ٢٣ سنة، وتوفى هناك.

أهم كتبه العديدة روايته «الساق على الساق» التى نشرها فى باريس عام ١٨٥٥، وفيها لوحات أدبية واجتماعية وسياسية ودينية بديعة للحياة اليومية فى النصف الأول من القرن الماضى، فى كل من لبنان ومصر ومالطة ولندن وباريس وتونس واستنبول، كتبت فى أسلوب يتراوح


توفيق الحكيم

رواية الساق على الساق

بين الجد والهزل، والمرارة واللهو والرقة والغلظة، والفكاهة والأدب، والمجون والفحش، مع جرأة بالغة أتحداك إن أشرت إلى مثيل لها فى الأدب الروائى العربى منذ الشدياق إلى آخر القرن العشرين .

– أعندك الكتاب هنا فى مكتبتك لتقرأ على أمثلة منه؟

– ها هو ذا فإن وجدت فارقا بينه وبين ماكتب ڤولتير أو ديدرو، أو رأيت توفيق الحكيم أخف ظلا منه فسأقول إن الأمة محقة فى نسيانه.. اسمعه يقول فى وصف معيشة الرهبان:

«فلما كان الغد دخل على الفارياق راهب حديث العهد بالدير، وبالتالى فقد كانت به بقية رقة ولطف. فلما جلس قال له الفارياق : قل لى فديتك ، أفى كل يوم أنتم تفعلون هذا؟ فوجم الراهب ثم قال: أى فعل تعنى؟ قال : تأكلون العدس مساء، وتقومون فى منتصف الليل للصلاة؟ قال: نعم، نعبد الله ونتقرب إليه. قال الفارياق: وهل يهم الله إن كان الإنسان يأكل عدسا أو لحما؟ قال الراهب: التقشف وإنهاك البدن بالردئ من الطعام وقلة النوم ينفيان الشهوات. قال: بل هما منافيان لمشيئة الله، وما جاء التحريم إلا من أناس طعنوا فى السن فلم يعودوا قادرين على أكل اللحم. أما عنى فقد مللت هذه المعيشة إذ أرى جسمى كل يوم فى ذبول، ونفسى فى انقباض.. تقول ينفيان الشهوات؟ فماذا عن الراهب كلما جاءته امرأة تعترف له بجرائرها فى الخلوة، ظل يسألها عن كل زلة وهفوة، فيقول لها: هل تتذبذب اليتاك ويترجرج ثدياك عند صعودك السلم أو عند المشى؟ وهل يحدث فيك هذا الارتجاج لذة؟ وهل ترين فى منامك رجلا يضاجعك؟ وقد رأيت رئيس دير جاء إلى قريتنا متماوتا وقد طول كميه وتظاهر بالصلاح والتقوى ، إن خطب أو وعظ يكى وذرف



الدمع، ثم آل امره إلى أن أصبح يقضى الليالى مع أرملة حسناء شابة فى خلوة متذرعا بأنها إنما تعترف له! واختصارا فإنك لن ترى بين هؤلاء العباد إلا خبيثا جاهلا أو منافقا .. أنظر كم عندنا فى بلادنا من أديرة، وعلى كم تشتمل من الرهبان، ما رأيت منهم أحدا نبغ فى علم أو سمعت عنه إلا ما يشين الإنسان فى عقله وعرضه. أليس بين رهبان ديرنا من الخصام والطعن والحقد ما لا يوجد عند غيرهم؟ رئيسهم يحاول اذلالهم وهم دائمو الطعن فيه، وبينه وبين رؤساء الأديرة الأخرى من الحسد والمنافسة ما بين وزراء الدول. وأكثرهم ينال الرئاسة بالتملق للأمير الحاكم أو البطرك فإذا أحس بوشك انقضاء مدته وخشى العزل، جاء بالهدايا والتحف لذوى الأمر والنهى حتى يقروه على رئاسته.. لاتكاد تسلم على أحد منهم إلا مد لك يده لتبوسها، وربما كانت نجسة قذرة فتضطر إلى لثم يد من هو أجهل منك.. وما سلكت طريقتكم إلا لأن أبى

وأمى فقيران، طمعا فى أن أرتقى فى الدير إلى رتبة عالية فأنفعهما وأنفع نفسى، فالرهبنة ملجأ من البطالة، وكل من كان مفتقرا إلى علم أو صنعة يدخل الدير. لا ياصاحبى، الرهبنة مشتقة من الرهبة وهى خوف الله. فإن كانت عندك حرفة تعيش منها وتزوجت وأنجبت وخشيت الله فأنت راهب، وليست الرهبنة بأكل العدس والخبز اليابس!.. وأما عن كتب الكنيسة فكلها أغلاط فاضحة. فقد قرأت فى كتاب منها عن بعض الرهبان أنه كان من التواضع بحيث كان كلما مر عليه رئيسه يقوم وينتصب عليه (أى له) . وعن آخر أنه بلغه عن راهبة أنها ذات كرامات، فكان يستمنى دائما أن يراها (أى يتمنى) وعن آخر أن رئيسه قلده مهمة تهبيب الرهبان ليلا (أى إيقاظهم حتى يهبوا من فراشهم)، وعن بعض المطارنة أنه كان إذا وعظ فى الكنيسة ينتعظ له كل من يسمعه (أى يتعظ). وفى رسالة بولس إلى طيموتاوس: ولتكن الشمامسة أزواج زوجة واحدة



رواية الساق على الساق

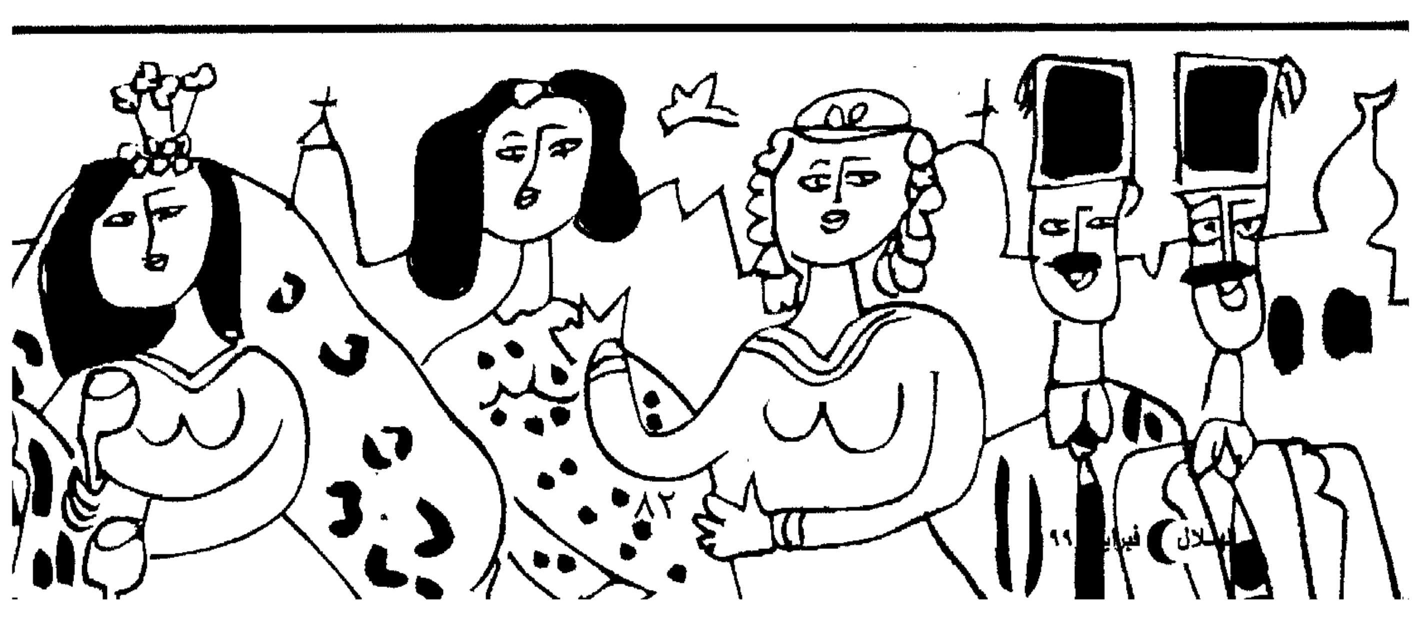
(ومقتضاه اشتراكهم جميعا في فرج واحد). وما أقصد من كلامي هذا إلا أن أريك أن الجمهور من أهل الكنيسة جهلة أغبياء لايعجبهم إلا الكلام الفاسد الركيك».

قال صديقي : جميل.. أعطني مثلا آخر.

قلت:

أتلو عليك بعض ما كتبه الشدياق عن عادات الزواج في مصر وأخلاق نسائها كتب يقول:

«عادة أهل مصر في الغالب هي أن يتزوج الرجل المرأة دون أن يعاشرها ويعرف أخلاقها، وإنما ينظر إليها نظرة واحدة بأن تناوله فنجان قهوة أو كأس شراب بحضرة أمها. فإن أعجبته خطبها وإلا كف رجله عن زيارتهم . ومنهم من يتزوج دون أن يرى امرأته قط، وذلك بأن يبعث إليها أمه أو عجوزا من معارفه أو قسيسا فيصفونها له بمقتضى ذوقهم، والغالب أن أم البنت ترشي القسيس ليجيد صفة بنتها ، أما الفارياق فقد تعدى حدود العادة بمصر فاجتمع بالبنت مرات عديدة في حضور أمها وفي غيابها لذلك أرادت أمها ان تنفي عنها العار بإظهار علامة البكارة حتى يشيع خبر براءة البنت في جميع البلاد. فإن أكثر الناس لا شغل لهم إلا الكلام. فاجتمعت تلك الزمرة وراء الباب بعد أن جمعوا بين العروسين، وجعل الواحد منهم ينادي: افتح الباب يا أبا مزلاج! فظن الفارياق أنه يريد الدخول ليعلمه كيف يكون العمل. فلما فتح له قال الرجل : ما هذا الباب قصدت، وإنما أردت باب الفرج فرجع الفارياق إلى عروسه وإذا بآخر يصيح : لج القبة يا ولاج! وغيره: إرو الصدى يا شجاج وآخر: أزل الزغب يا حلاج!.. ومازالوا به حتى ناول الفارياق الأم علامة البكارة فتهللت الوجوه فرحا وحبورا وصفقت الأيدي استبشارا



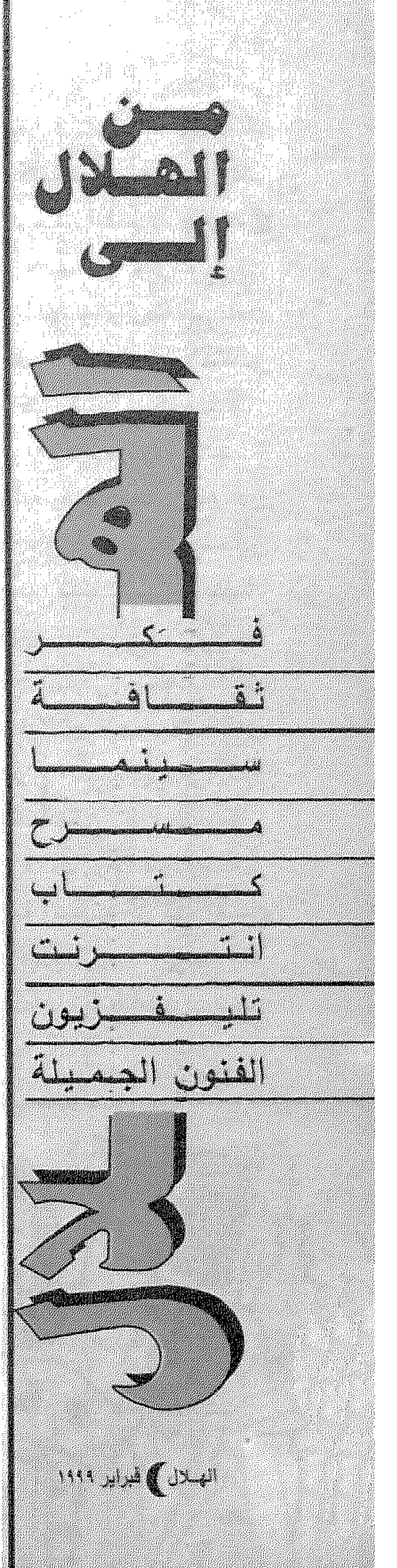
وسرورا ونطقت الألسن بالتبرئة، وختموها بالتهنئة، ثم انصرفوا وكأنهم قد رجعوا من غزوة غانمين وكادت الأم تطول عن الأرض شبرا لهذا الفتح المبين!».

«وكانت زوجة الفارياق لاتدرى شيئا سوى بيت أهلها، ولا تكلمه فى أمر إلا فيما جرى لها مع أمها، أو أمها مع الخادمة، أو للخادمة معهما وسبب ذلك أن البنات فى مصر لا يعاشرن أحدا سوى الخدم وأهل البيت، ولا يحصلن معارفهن الا منهم. إن رأت الخادمة فتى جميلا بادرت من ساعتها إلى البنت وقالت لها: «قد رأيت اليوم ياستى شابا مليحا ظريفا لا يصلح إلا لك، ما رآنى حتى اتجه نحوى وكأنه يريد أن يكلمنى وأخاله عرف أنك أنت سيدتى. إذا رأيته ثانية فسأكلمه». ولايخفى أن البنات إذا كن جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرة والآداب، وعوضن عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكايد. وإذا لم يكن لهن شغل غير ملازمة البيت وليس فيه غير الخادمة، تجمعت أفكارهن كلها فى موضوع واحد هو حب الذكر. والرجال انفسهم يعرفون ذلك. فإذا اجتمع احدهم فى خلوة مع بنت لا تعرف شيئا غير الملابس والزينة، لم يلبث الرجل أن يتعدى طور الأدب معها لاعتقاده أنها لم تخلق إلا لكى يقضى وطره منها، بخلاف ما إذا رآها ذات رأى رشيد، وثقافة وعلم ودراية ومعارف لا تقل عن درايته ومعارفه ، فإنه حينئذ يشعر بالاحترام لها ويمنع نفسه من أن يهتك حجاب التأدب معها».

قال صديقى: أعرنى نسختك إذن لأقرأها.. يبدو أنه قد كان من حسن طالعى أن سكنت فى شارع الشدياق حتى أقرأ روايته، فهى فى أغلب ظنى رواية مظلومة .

قلت: ليست هناك رواية مظلومة أو مؤلف مظلوم، وإنما المظلوم من ظلم نفسه فانصرف عن مثل هذه الرواية إلى ما يملأ رفوف المكتبات فى أيامنا هذه من سخافات.

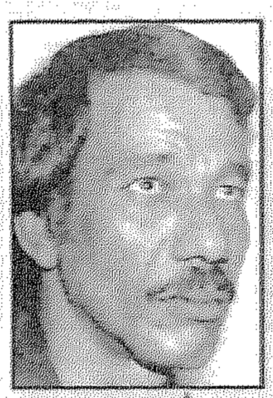




• مؤتمر أمل دنقل ينفى استلهامه قصائد حجازى ويصف توظيفه للتراث بالتفرد
• لماذا أهمل المؤتمر الخلاف المثار حول قصائد أمل الأولى ؟

مؤتمر أمل دنقل – بمسقط رأسه بقنا – يعتبر من العلامات المهمة التى تستحق الاشادة، ويعطى أملاً فى تخليد ذكرى مفكرينا ومبدعينا – مؤتمر أمل ناقش القصيدة الثورية وظاهرة غياب أدب المقاومة، مع تزايد الاستفزازات الصهيونية ، وناقش أيضاً تفرد أمل بأسلوب شاعرى خاص لم يستلهمه من أحد أو يستعيره من الرواد، وقد اعترض الناقد سيد خميس على مقولة أن أمل دنقل تلميذ الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى لأن من يقرأ شعر أمل لايجد له أى أثر لحجازى ، وكل ما في الأمر أنه كان يحب حجازى، وعن صياغته الشعرية، لاتجد فيها ترهلاً ولاتزيداً ولاتوجد كلمة زائدة أو ناقصة وكذلك لاوجه للمقارنة بين شعره وشعر أى شاعر عربى قديم أو حديث وعلينا أن نتعلم الكثير منه فى زمن يعيش بلا شعر . ناقش المؤتمر أيضا قضية توظيف التراث العربى. فقد وظف أمل فى شعره عشرات من الوقائع والأساطير والشخصيات العربية والاسلامية فى قصائد مهمة مثل «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة» – «أوراق أبى نواس» «حوار مع ابن نوح» – «لاتصالح» – وغيرها .. إلا أن هناك قضية مهمة كنت اتخيل أن يناقشها المهرجان الذى نجح فى تجميع أسماء مهمة فى عالم الادب والنقد – هى قضية مساحة الحرية المتاحة للقصيدة العربية لتخترق حواجز الممنوعات. فبرغم القيود التى حاصرت قصيدة «لا تصالح» لاتزال ناضجة وكأنها كتبت اليوم لتواجه وتناضل . المؤتمر لم يناقش أيضا قصائد أمل دنقل الأولى وكانت ولاتزال مثار خلاف حيث تم اكتشاف مجموعة من القصائد وحينما نشرت جريدة

«الحياة» اللندنية احدى قصائده المجهولة الأولى احتجت مجموعة كبيرة من كبار كتابنا ومثقفينا واعتبروا ذلك إهانة - واجتمع أغلبهم على أن هذه ليست قصائد أمل دنقل بينما أكد آخرون أنها بدايات وبخط يده ويصعب نفي ذلك ، بل إن النفى أو الإثبات لايقللان من أمل دنقل ، باعتبار أن بدايات أى شاعر، بسيطة وليست ثورية، وقد نشرت صحيفة «لوموند» الفرنسية منذ عام تقريبا قصيدة بخط يد الشاعر سان جون بيرس كتبها وهو فى الثامنة عشرة من عمره بعنوان «صلاة ضائعة» . وتضم مجموعة من المفردات الساذجة، إلا أن القصيدة أسعدت النقاد والجمهور، كذلك فعلت انجلترا مع روبرت جريفز وتيدهيوز ، نحن فى مصر لانعرف المسافات بين الأشياء وكيف يكون التقييم والضمير الأدبى.


أمل دنقل


أحمد عبد المعطى حجازى

● **نادر ناشد**

حسين الحلاق .. فارس آخر يترجل

ها هو فارس آخر يترجل، ويرحل فى صمت، تاركا الساحة العربية ـ التى كانت تعج بالفرسان حتى الأمس القريب ـ وقد خلت .. إلا من نفر قليل لايزال بعضهم يجوب أرجاء الساحة الشاسعة ، حائرا، فى انتظار أن يحل وقت الرحيل!

ولكن «حسين الحلاق» لم يكن كغيره من الفرسان، وإنما كان مبرزا بين أقرانه وأبناء جيله، كسياسي وكمثقف، وأيضا كناشر صاحب رؤية ووعى.. وذلك عندما اقتحم ميدان النشر فأسس فى بيروت «دار الكلمة»، فكانت تجربة زاخرة رغم أنه لم يقدر لها أن تستمر إلا سنوات معدودة.

جاء رحيله مفاجأة صاعقة لكل أصدقائه ومحبيه المنتشرين فى كل الأقطار العربية.. من المغرب وحتى البحرين . فرغم أنه سورى المولد، إلا أنه استطاع أن يكون شبكة واسعة من الأصدقاء على مدى سنوات حياته الخصبة.. اجتذبتهم شخصيته الفريدة، المدهشة فى حيويتها وصفائها.

السياسي:

هكذا، فجأة، مات «حسين الحلاق» في دمشق ولكنه عاش سنواته الأخيرة فى «لندن» التى شهدت انطلاقة عمله السياسى فى اواسط الخمسينات عندما أهلته مواهبه أن يتصدر اتحادات وروابط الطلاب العرب وهو يدرس فى انجلترا. وقتها وقع العدوان الثلاثي ـ الاسرائيلى الفرنسى البريطانى ـ على مصر، وانتفض الطلبة العرب في بريطانيا فى حركة احتجاج عارمة تطالب حكومة «انتونى ايدن» بوقف العدوان وكان طبيعيا ان يتصدر «حسين الحلاق»، كقيادة طلابية، هذه الحركة، وان يستخدم مواهبه السياسية المبكرة فى تنظيم العمل ووضع الخطط التى تمكن حركة الاحتجاج من التأثير فى الرأى العام البريطانى.

وكان العمل السياسى «الحقيقى» ينتظره فى سوريا. وتحت تأثير الأفكار التى كانت تمور بها الساحة العربية فى ذلك العهد، وبحماس الشباب أيضا، انضم «حسين الحلاق» إلى حزب البعث الذى كان قد نجح فى اجتذاب الكثير من الشباب فى أقطار عربية عدة عندما أثار خيالهم وحرك آمالهم فى تحقيق شعارات «الحرية والاشتراكية والوحدة».

فى تلك السنوات المبكرة، وقع حدث مثير تمثل فى اقامة الوحدة الكاملة بين مصر وسوريا. ونتج عن ذلك ان الجماهير العربية اصبحت على اقتناع بان «حلم الوحدة» لم يعد مجرد شعار، وانما هو عمل حقيقي يمكن انجازه.. وكان من الطبيعى ان يلهب الحدث خيال الشباب العربى فى كل مكان.. فلما وقع الانفصال ـ والذى كان بالفعل بداية تراجعات الامة وهزائمها ـ اضطر الكثيرون الى مراجعة افكارهم ومنطلقاتهم ومبادئهم. وفى خضم تلك التقلبات التى شهدتها الساحة العربية والسورية بوجه خاص. عرف «ابو على» سجن المزة فى سوريا والذى ارتاده اكثر من مرة..

وهرب «ابو على» الى مصر، واقام بها سنوات طوال حياته يذكرها بحنين دافق. وفى مصر اقام صداقات عميقة وعلاقات اتسعت دائرتها حتى وصلت الى جمال عبدالناصر نفسه ويعرف أصدقاء «حسين الحلاق» ان الزعيم كان يجلس اليه ويرتاح الى الحوار معه، ويحرص على ان يكرر هذه «الجلسات الثنائية» كلما اتيحت له الفرصة.. ولكن هذه اللقاءات توقفت بعد عام ١٩٦٧، وغادر «ابو على» القاهرة كسير القلب، حزينا وتوجه الى بيروت.


حسين الحلاق

الناشر:

بعد سنوات مجدبة عاشها حسين الحلاق فى العاصمة اللبنانية متصعلكا على غير هدى. لمعت فى رأسه فكرة انشاء دار للنشر،. فإذا كانت السياسة بوحولها ومزالقها، لم تمكنه من أن يصل بأفكاره وآرائه الى من يريد . فان «الكلمة» يمكنها من ان تحقق له هذه الغاية. ولهذا فإنه لم يتحمس لتلبية دعوة للعودة الى سوريا وتولى منصب مرموق، وفضل ان يمضى فى طريق البحث عن وسيلة لتحقيق فكرة دار النشر. وبالفعل، استطاع ان يستثمر صداقاته واتصالاته لتوفير حد ادنى من التمويل يكفى بالكاد لتأمين الانطلاقته الاولى. وتجسيدا لفكرته، اطلق على مشروعه اسم «دار الكلمة».

وكرس «حسين الحلاق» كل جهده ووقته وفكره لدار «الكلمة» التى احتلت شقة صغيرة بالقرب من شارع الحمراء في بيروت. وسرعان ما اثمرت جهوده. وبدأت اصدارات الدار تلفت الانظار، وبدا واضحا انها تشق طريقا جديدا فى دنيا النشر العربى. كانت الموضوعات متميزة، يتم اختيارها بعناية ووعي، كما انه عنى ايضا بإخراجها فى ثوب يعبر عن هذا الخط الجديد.. مستعنيا فى ذلك بفنان مصرى موهوب لتصميم الاغلفة واخراج الكتب ، هو المرحوم الفنان سعد عبدالوهاب.

وتوالت اصدارات دار «الكلمة» لمؤلفين من كل اقطار العالم العربى وغطت عناوينها كل المجالات. فى السياسة، والاقتصاد، والادب، والفكر. واخذت هذه الكتب تجسد، يوما بعد يوم الفكرة التى سعى حسين الحلاق الى تحقيقها .. على الرغم من الصعوبة البالغة فى توزيع الكتب للوصول الى القارىء العربى حيث هو، وخاصة بعد اندلاع الحرب اللبنانية التي اشتد اوارها فى اواخر السبعينات.

لم توقف الحرب ، رغم شراستها وما سببته من معوقات، عجلة النشر التى دارت. بل ان كثيرين من المؤلفين كانوا يجيئون الى بيروت بأنفسهم لتقديم مخطوطاتهم، ولتتحول دار «الكلمة» ايضا الى «صالون ثقافى» فريد يعقد بمكتب «حسين الحلاق» الذى كان هو نفسه محور حلقات النقاش .. وفارسها.

واصدرت «دار الكلمة» كتبا لمؤلفين من شتى الاتجاهات : هانى فحص، وفهمى هويدى، ومحمود درويش. وعادل حسين واحمد فؤاد نجم، وحسين عبدالرازق، ومنير شفيق، ومصطفى نبيل، وصنع الله ابراهيم، وعشرات غيرهم. وعندما قررت الدار تقديم نماذج من الفكر العالمى بنشر أعمال مترجمة، حرص

حسين الحلاق ان يكون هذا الخط من الانتاج متميزا أيضا.. فكانت «دار الكلمة» هى اول من قدم لقراء العربية الاديب العالمى جابرييل جارسيا ماركيز الذى نشرت له اولا «مائة عام من العزلة» ثم فيما بعد «خريف البطريرك» وشملت الاصدارات من الفكر العالمى موضوعات تنم عن جدية ودقة الاختيار، فقدمت الدار موضوع الكفاح ضد العنصرية«النار السوداء» ومقاومة اليهود لفكرة الصهيونية وطغيانها على مجتمعاتهم ومعتقداتهم الاصلية «يهود ..لا صهاينة»

ولكن..قدر للحرب اللبنانية ان تعصف بدار الكلمة فى جملة ما عصفت به على امتداد السنوات الخمس عشرة التى استغرقتها هذه الحرب.. فعندما وقع الاجتياح الاسرائيلى للبنان واحتلال بيروت عام ١٩٨٢، اصابت قذائف مباشرة مستودع الكتب الذى كانت «دار الكلمة» تخزن فيه رصيدها بأكمله من الكتب المطبوعة، وكانت ضربة قاصمة لم تحتملها الدار بإمكاناتها المحدودة، فاذا بهذا الحادث يضع نهاية لدورها بعد سنوات محدودة .

الصديق :

يتعذر على من لم يعرف «حسين الحلاق» ان يدرك مدى الألم الذى سبب رحيله المفاجىء لأصدقائه الكثيرين . كان شخصية آسرة، يبدو غير قابل للتحول او التبدل مهما تغيرت به الظروف أو تقلبت عليه السنون، فكأنه احدى حقائق الحياة الثابتة، او الظواهر الدائمة التى لا يمكن للمرء تصور الحياة بدونها .

فى أبريل الماضى رأيته للمرة الاخيرة. قضيت بضعة ايام فى لندن . فكنا نلتقى كل يوم لساعات طويلة.. نتناول القهوة فى احد المقاصف، او نتجول فى الشوارع الباردة ونثرثر طوال الوقت.. ولم تكن احاديثه تنتهى . فقد كانت لديه القدرة على ان يفاجىء محدثه فى اى لحظة بقصة جديدة لم يسمعها منه من قبل .. وهو ما كان يدهشنى خاصة اننى نادرا ما كان يفوتنى حضور حلقاته ومجالسه فى «دار الكلمة» عندما كان كلانا يقيم فى بيروت كانت لدى «حسين الحلاق» موهبة فذة فى عقد الصداقات، حتى مع من يمكن وصفهم بمنافسيه التقليديين.. ففى مكتبه تعرفت شخصيا على مجموعة من الناشرين المعروفين، كالمرحوم سليمان صبح صاحب دار «ابن رشد» ومحمد كشلى صاحب دار «ابن خلدون» وعبدالوهاب الكيالى وشقيقه ماهر الكيالى صاحبى المؤسسة العربية، والزميل

الراحل على مختار.

سألت الصديق مصطفى الحسينى ، فور وصولى الى لندن فى أبريل الماضى وكان هو قد استقر فيها بدوره : هل ترى حسين الحلاق؟ اجاب: نعم، ولكنه اصبح كسولا للغاية. فهو يأبى ان يختار للقاءاتنا الا الأماكن القريبة من مسكنه!

ولكن حسين الحلاق لم يكن يتكاسل ، وانما كان يتهيأ، على الأرجح للانسحاب نهائيا من الحياة. هكذا، ببساطة، تركنا ومضى.. مخلفا وراءه فراغا موحشا لا يوصف!

بعد رحيله كتب الصديق «طلال سلمان» رئيس تحرير صحيفة «السفير» اللبنانية كلمة عنه.. فخاطبه قائلا: حسين الحلاق.. لن يكتمل بعدك النصاب.

نعم! فالمؤكد ان النصاب سيبقى منذ الآن، ناقصا!

● **محمود أحمد**

كتاب جديد

شاعر فرنسى يعيد إحياء القصيدة الأفريقية

المهتمون بالأدب الأفريقى يعرفون قدر الشاعر الناقد الفرنسى فرانسوا ليندو ، ومؤلفاته المتخصصة عن الأدب الإفريقى ، وكتاب «شذرات من أردية ميراى تيدور». وأما «ميراى تيدور» فهو شخصية وهمية من صنع الشاعر النيجيرى «جبريل أوكارا» ، الذى يصفه ليندو بأنه زهرة افريقية سوداء تضىء للغرب ، إنه أشعل فى قصائده أقمارا بيضاء وحمراء تتصارع فى الكون مثلما تتصارع كراتنا الدموية الحمراء والبيضاء فى شراييننا ، فيستوى العالم بعد صراع .. هكذا قصائده تبدأ بالسكين وتنتهى بالوردة .. فرانسوا ليندو .. يرى أن الشعر الافريقى لم يكتشف بعد على كثرة ماكتب عنه .. وبرغم أن شخصية عالمية فى حجم «ليو بولد سيدار سنجور» رئيس السنغال السابق يمثل الشعر الافريقى كأعظم مايكون ،

إلا أن الشعر الافريقى ظل لسنوات طويلة خارج اهتمام النقد العالمى .. وظلت بعض الأسماء الافريقية تسعى لاحتواء الشعبية العالمية . شاعر مثل داود روباديرى «٦٨ عاما» من الأسماء التى لاقت اهتمام الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعود ذلك لأنه عمل سفيرا لبلاده مالاوى - لدى الولايات المتحدة ، وشاعر آخر مثل دنيس بروتس يعمل حاليا ومنذ عشرين عاما فى الولايات المتحدة وأصدر خمسة دواوين لاقت اعجاب نقاد أمريكا وخاصة ناقد مجلة «آداب ٤٨» «روبرت واى» الذى قال هذا شاعر فى حجم والت ويتمان - ولكن كيف نكتشفه وكيف نصنع منه نجما ، فى زمن أدباء سوبر ستار «!!» ولكن الشاعر الفرنسى فرانسو اليندو يرى أن الشاعر جبريل أوكارا شاعر جديد، هو ليس بابلو نيرودا ولاهو سان جون بيرس ولكنه شاعر نيجيرى محارب صوته خاص جدا ، له رؤية محددة للاشياء تحمل فلسفة حزينة ولكنها تنتهى بانفراجة .. يقول جبريل فى إحدى قصائده «اشجار الصنوبر الشتوية المتعبة ، والاغصان التى نزعها الشتاء وعراها ، تميل ببطء/ مع ثقل الذى لا ثقل له/ كمشيعى الجنازة الذين هزهم الحزن ، حين يبسط القماش الجنائزى الأبيض ببطء/ على الأرض التى لاتعرف الموت/ ونهض النوم الثقيل متلصا من المدفأة/ وأغلق عينى» .

افريقيا شهدت فى النصف الثانى من القرن العشرين سلسلة متعاقبة من الأحداث على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، جعلت من القصيدة الإفريقية مؤشرا صادقا لتلك المتغيرات ، المؤرخ الفرنسى هنريك لاقلى يرصد أن من بين خمس ثورات عالمية ثورتين فى إفريقيا ، ويرى أن الثوابت برغم أنها تتجمد فى سيبريا إلا أنها لاتذوب فى نار إفريقيا، مثال نيلسون مانديلا من المهم استيعابه على صلابة الشخصية الإفريقية ، كذلك نموذج مثل الشاعر محمد الفيتورى الذى خاض معاركه الأدبية فى مجموعة من العواصم العربية ، وفى لبنان اختطفته إحدى الميليشيات وصادرت أعماله وطبع ديوانه وقتها بخط يده، وكذلك كافح الشاعر إدوارو راى بجنوب إفريقيا فى سبيل استقلال بلاده ، وأصبحت قصيدته الشهيرة

«ورقة فى وجه المستعمر» من العلامات المهمة فقد ترجمت الى سبع لغات عالمية وتداولها طلاب الجامعات فى جنوب إفريقيا وقت أن كانت محظورة ومن أبياتها الشهيرة التى استعملها الطلاب فى المظاهرات: «لا لن يكون للمدى غواية طالما يفقد الشباب دماءه وينزفها فوق التراب النبيل ، لا لن نعود بغير نبض بلادى» .

عندما ننظر إلى علائق النقد الأدبى بالعلوم الإنسانية، فاننا نعنى بالأخص علائق التحليل النفسانى والسوسيولوجيا ، والألسنية بالدراسات الأدبية ، فهل يحتفظ النشاط النقدى بخصوصيته أمام اتساع النماذج المنهجية الموروثة عن مختلف العلوم الإنسانية ، ألا تخطىء تلك الأخيرة طريقها الى ماهو جوهرى فى الأدب عندما تحوله نحو مايشكل الموضوع الخاص لأبحاثها ؟ وأخيرا نتساءل عن امتدادات التنوير الشعرى على جموع الشعب المترقب استقلاله ؟ كذا يرينا الشاعر الفرنسى فرانسوا ليندو فى نقده عن الأدب الإفريقى ، فهو يؤكد أن جبريل أوكارا ـ حقق هذا المستحيل ، تمكن من تقريب الشعب الى قصائده ، فمفرداته شعبية بسيطة ناقذة ومركزة ، وأحيانا يستخدم الفولكلور الشعبى ، وأما «ميراى تيدور» فهو رمز للأوربى المحتل، يراه المتغطرس المتعال الذى يرتدى مجموعة من أردية الذهب، ويغطى رأسه بتاج من اللؤلؤ وأما الذهب واللؤلؤ فهما من خير بلاده .. هكذا يريد أن يعلن أن «ميراى تيدور» هو الرمز الأسود الذى يجب أن يجتمع الكل على رجمه .

جبريل أوكارا ولد عام ١٩٢١ وتعلم بالكلية الحكومية فى أوماهيو بنيجيريا ،بدأ بكتابة المسرحيات والتمثيليات الإذاعية، ثم انتقل الى الشعر فى وقت مبكر ومنه الى الرواية ، ولكنه مازال شاعرا أكثر منه ناثرا ، يعد ثالث شعراء نيجيريا بعد سوينكا وكلارك ، يعتمد شعره علي التلقائية والتداعى وفيه شجن قوى ويستخدم فى قصائده ايقاعات افريقية . يقول «أوكارا» : استيقظت على الثلج وهو يتساقط فى سكون وأشجار الدردار المحنية الظهور تميل وتتمايل على ريح الشتاء مثل المسلمين ذوى الثياب البيضاء وهم يسلمون بعد صلاة المغرب ، والأرض تتمدد فى غموض مثل وجه إله فى مذبح كنسى .

مجد الإسكندرية

نيران تحت الرماد

في شهر يناير عام ١٩٩٩ ، أعلن عن إغلاق معرض «مجد الإسكندرية» الذى أقيم فى باريس منذ الصيف الماضى ، والذى يعتبر حدثا فنيا مهما ، نقدم هنا مقالا نشرته مجلة لوبوان ، وترجمته عزيزة واصف .

كيف نتناول الحديث عن الإسكندرية التى تعتبر واحدة من أهم المدن الأسطورية فى العالم القديم ؟ حتى وإن لم ينجح علماء الآثار الى يومنا هذا فى الاتفاق على الهيئة التى كان عليها فنار الإسكندرية الا أنه لايزال يشكل إحدى عجائب الدنيا منذ أكثر من ألفى عام .

تعتبر مكتبة الإسكندرية «الهولوكوست» أو المحرقة الجامعية لآلاف المئات من الكتب والبرديات ، إن هذا البناء قد جعل من الإسكندرية إحدى مدن الخيال فى تاريخ البشرية .

ماهى القطع الأثرية المصنوعة من الرخام أو البرونز التى ينبغى علينا أن نتأملها محاولين إحياء وجه مؤسس الإسكندرية وهو «الإسكندر الأكبر»؟.

هذا الرجل الذى ظل طموحه المجنون فى مد جسور تصل الشرق بالغرب ، حلماً يراود أذهان كل من جاءوا من بعده من غزاة على مدار ألفى عام .

أو وجه حاكم متسلط ، وهو قيصر ، الذى أوشك أن يودى بحياته أثناء محاولته للنزول فى ميناء الإسكندرية ؟

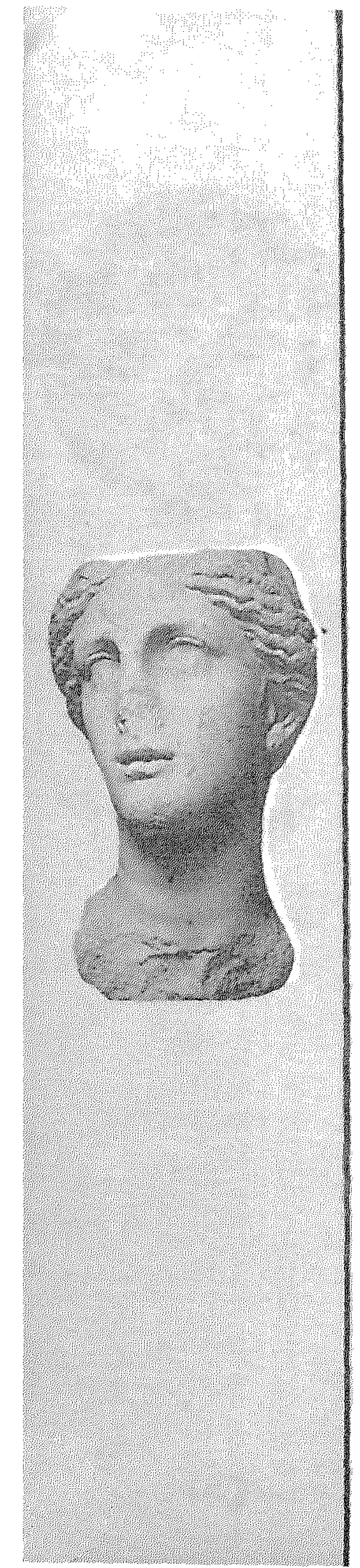
فى كتاب فريد للغاية ، يدعى «من الإسكندرية الى اكتيوم» يشير بيتر جرين الى هذا الحدث الذى يجهله الكثيرون ، وهو هروب الجنرال العظيم خلسا، خوفاً من الذين يطاردونه ، بل ومايزيد من الأمر خزيا هو تجرد الجنرال من ردائه القرمزى ، رمز كرامته وسلطته ، على مرسى الميناء ، كيما ينجح فى الفرار من اعدائه ، فلم يستطع قيصر العودة الى الإسكندرية الا بعد مضى فترة طويلة من الزمان .

وحينئذ يستمتع بنشوة رحلة نيلية قام بها فى صحبة كليوباترا ، ويعتبر ما حدث عقب هذه الرحلة الرومانسية معروفاً للكثيرين ، وخاصة بعد اغتيال قيصر فى منتصف شهر مارس، وهو قصة الصراع بين انطونيو وأوكتاف ، وانتصار أوكتاف فى اكتيوم .

إن كل هذه الشخصيات حاضرة فى وقتنا هذا ويرجع الفضل فى ذلك الى ما تركته هذه الفترة من عملات رباعية الشكل تحمل وجوههم ، بالاضافة الى تماثيل نصفية وأحجار مزخرفة بصورة بارزة ولوحات نحتية يظهر عليها المنتصر الصاعد ، ذو الوجه الشاحب «أوكتاف» ، بل يظهر أوجوست ايضاً مصففاً شعره على غرار قيصر .

وبالرغم من كل هذا الا أن السبيل لإعادة خلق المناخ الخاص السائد





على هذا الميناء الكبير فى العقود التى سبقت العصر الجديد ، هو أن نتحلى بخيال كمثل الذى تميز به شيكسبير .

فى عام ٥٤٣ أغلق نهائياً Justinien المعابد.. واحال كهنة أمون الى البطالة الفنية ، وترتب على ذلك اندثار لغة الفراعنة التي كانت تدرس فى هذه الأماكن ، بل يذهب الأمر الى نسيان كل ما تحتوى عليه من معان ، ويستمر ذلك لمدة ١٣ قرنا من الزمان ، الى أن يأتى شامبليون ويفك رموز حجر رشيد، وبمقارنة النص المكتوب باليونانية والمصرية القديمة يكتشف أنه يتناول على وجه التحديد التماثيل التى شيدت تمجيداً للبطالمة .

ومشكلة «مجد الإسكندرية» هذا أنه وقع فريسة للتأثيرات السلبية للإعلان المتكرر عنه ، حتى بعد صدور الكثير من البيانات الخاصة بالاكتشافات الجديدة ، والأفلام المكرسة كلياً عن الجهود المضنية التى بذلها علماء الآثار ، فى أعماق البحار بحثاً عن آثار جديدة ، بالإضافة الى تماثيل لأبى الهول تظهر خارج المياه وسط ضجة كبيرة مبالغ فيها الى حد كبير ، وهناك أيضاً شائعات حول اكتشاف مقبرة الإسكندر ، ولكن رغم كل ذلك فالنتائج النهائية المترتبة على كل هذا لا تبعث الا على الإحباط .

ولكن معرض «مجد الإسكندرية» ليس ذا شأن قليل ولكنه ردىء التنظيم، مما لاشك فيه أنه لا وجه للمقارنة بينه وبين معارض أخرى مثل : كنوز توت عنخ آمون ، أو قرن رمسيس التى عرضت فى الماضى فى «القصر الكبير» أو «لوجران باليه» فى فرنسا .

على الرغم من أن كل قطعة من هذه المجموعة تأتى من مصدر مختلف الا أنها تتمتع بقدر كبير من الجمال ، حتى وإن كان الفن المصرى قد دخل فى مرحلة من التدهور البطىء ، وذلك باستثناء فن العمارة ، منذ الفترة الثالثة الوسطى ، الا أن هذه المرحلة كانت غنية بعدد لا يحصى من العجائب الصغرى مثل تمثال بطليموس وتمثال اله التمساح .

واكتسب النحت موجة ملحة من الاثارة الجسدية ويرجع ذلك الى التركيز الواقعي على الأشكال الجسدية ، فنرى الثوب الرقيق المصنوع من القطن أو الكتان ، تشف عنه بدقة ثنايا الجسد وأدق تفاصيله ، وهذا ما توضحه تماثيل البازلت «لارزينويه» Arsinoe .

ونجد ذلك أكثر وضوحاً فى حالة تماثيل الملوك البطالمة الذين يلبسون تيجان مصر العليا والسفلى ، ولكن اجسادهم تميل الى البدانة وعدم التناسق مما يوضح التدهور الذى لحق بالامبراطورية المصرية .

وعلى العكس من الدين الذى يرحب بالآلهة الاغريقية الجديدة ، نجد أن فى الفنون لا يوجد انصهار وتزاوج وانما مواجهة قوية . فالبطالمة مضطرون الى سك صورة العملة بالأسلوب المميز للبلد . وهذا منهج لا تنتج عنه الا تحف فريدة من نوعها ، ويكفى الأمر بأن نرى تمثالا لبطليموس السابع ، الذى لا يحظى بأهمية كبيرة بل هو قليل الشأن وجد فى ميناء الإسكندرية ، ووضع أمام Le petit Palais .

وكيف لا نجد أن الأكثر اقناعاً هى التماثيل النصفية لأعضاء نفس العائلة ، وهى منحوتة على يد فنانى الإغريق، على سبيل المثال بطليموس الثانى ، فيلو باتور أو كليوباترا، حيث تلمح فى هذا التمثال الأخير أنه من حيث الأسلوب يتشابه كثيراً مع الأسلوب الذى نحت به تمثال «ڤينوس ميلو»



بل ألا يخترق التمثالان التأثيرات المتموجة للفن الإغريقى ؟

ولكن أليس الأكثر تأثيرا فى هذا المعرض هو هذه الفسيفساء الفريدة التى اكتشفت خلال عمليات الحفر والتنقيب الأخيرة والتى قام بها «جان ايف امبرور» Jean Yves Empereur ؟. إن دقة هذه الأعمال الفنية التى نلمح فيها الرقة المتناهية والعذوبة ، بالإضافة الى القوة والصرامة فى تقليد الطبيعة، انما يطلق العنان للخيال لإدراك صفات الفن الإسكندرى فى المرحلة التى سبقت الاحتلال الرومانى ، وبلا عناء يستطيع هذا المزيج من الرقة والقوة أن يذكرنا بأروع ما تركه البطالمة من انقاض فى هذه الفترة .

وينتابنا نفس هذا الشعور عندما نرى بعض التماثيل المصنوعة من الطين ، مجسدة لشخصيات مسرحية ، لراقصات أو ايضاً لهذا الخادم الأسود الناعس منتظراً سيده الذى ولاشك أنه مشغول معربد فى احدى الحانات . وبعيداً عن المغريات الكبيرة التى تسعى الى جعل الفن الإغريقى مثالياً ، فإن هذه المنحوتات التى تضج بالحياة تترك لنا المجال واسعاً لكى نخمن مدى الغنا والحياة المتفجرة لهذا المزيج من الثقافات التى اتصفت بها الإسكندرية فى الأعوام التى سبقت أو لحقت معركة اكتيوم. وهو فى النهاية عالم شديد القرب من عالمنا فى مبالغاته ومشاكله .

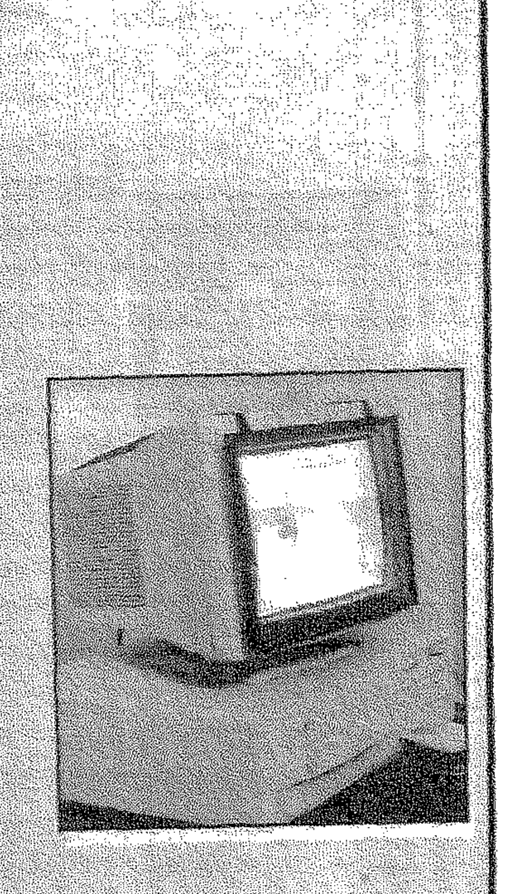
مع الإنترنت أصبح العالم قرية صغيرة

قصة تطور هذا المشروع الطليعى

صار أى مكان عمل أو أى منزل فى العالم أو فى مصر، لا يخلو من جهاز كمبيوتر متصل بشبكة الانترنت. وصار الانسان الذى لا يعرف الدخول الى عالم هذه الشبكة الدولية متأخرا عن الركب الحضارى ان لم يكن أميا. ويقدر عدد المشتركين فى هذه الشبكة بنحو ٥خمسين مليون انسان فى مختلف بقاع العالم بنسبة زيادة فى عددهم بحوالى ٥٥٪ شهريا، مابين مستخدم للبريد الالكترونى فى استقبال وارسال الرسائل عن طريقه، أو مستخدم للشبكة نفسها فى الحصول على مختلف المعلومات فى جميع المجالات.

ولكن ما تاريخ هذه الشبكة ؟.

فى عام ١٩٧٢، قام «راى توملينسون» بأول محاولة لارسال البريد الالكترونى ثم نجح فيها بالفعل، ومن خلال ذلك ،



ارتفع عدد المستعملين لهذه الشبكة الى ٢٣ مكاناً. وخلال السنوات التالية، جرت الأبحاث من أجل تطوير مايسمى ببروتوكولات نقل الملفات الالكترونية فى الانترنت كلغة كمبيوترية خاصة بهذا الوسط الجديد.. وساهم فى هذا التطوير الدكتور «روبرت ميتكاف» الذى اخترع مايسمى بالانترنت التي مكنت من زيادة سرعة تدفق المعلومات من خلال كابلات التليفون .
وفى عام ١٩٧٦ ، تم اطلاق سات نيت، القمر الصناعى الذى ربط ، من خلال اول شبكة دولية، بين أمريكا وأوربا، والتى بدأت لأول مرة فى استخدام أقمار صناعية تجارية هى «انتلسات» بدلا من مثيلتها التابعة للحكومات، فى ارسال واستقبال المعلومات. واقترن عام ١٩٧٩، بدخول تقنيتين جديدتين الى هذه الشبكة فى صورة شبكتين جديدتين هما USENET التى أسسها ستيف بيلوفين و BITNET التى اسستها IBM. وكلاهما استخدم اسلوب تخزين المعلومة الذى تمت الاستفادة به فى مجال البريد الالكترونى، مما جعل عدد المستخدمين يزيد الى ١١١ مستخدما. وفى عام ١٩٨٣، طورت جامعة «وسكانسون» نظاما جديدا هو DNS يسهل من عملية تسمية عناوين الأماكن المستخدمة للشبكة بأحرف وليس فقط بأرقام كما كان جاريا حتى تلك الفترة. وفى عام ١٩٨٤ تم انقسام الشبكة الى اثنتين خصصت واحدة منهما للأغراض العسكرية والأخرى لغيرها. وارتفعت السرعة التدفقية للمعلومات ٢٥ ضعفا مع دخول دوائر الكترونية جديدة مجال العمل وارتفع عدد المستعملين الى ١٠٢٤، وخلال السنوات التالية، زاد عدد المستخدمين تدريجيا مع زيادة تطويرات الشبكات التى تضاعف عددها مرة أخرى حتى وصلت الى ٦٥ ألف مكان مابين مستخدم أو صاحب صفحات على الشبكة الدولية (Internet)International Netwark فى عام ١٩٩١. وفى عام ١٩٩٢، تم اختراع الـ World Wide Web (WWW) أو (المفتاح الدولى) لتصل السرعة الى ٣ أضعاف ما بدأت عليه ويتعدى عدد المستخدمين المليون. لتبدأ صفحات الخدمات عملها من خلالها مثل السينما والمطاعم وغيرها وبدأت عملية تنظيم الاشتراكات فى بعض المواضع الخاصة.

● شريف عوض

الدراما والتاريخ :

جمهورية زفتى



ممدوح عبد العليم



صابرين

هناك مشكلة مزمنة فيما يتعلق بمعالجة الأدب والدراما للتاريخ، فهناك من يرى ضرورة الالتزام بالنص التاريخي، وهناك من يرى ضرورة الالتزام بالسياق التاريخي وبين هذا وذاك هناك من يرى أن العمل الأدبي أو الدرامي هو عمل إبداعي في المقام الأول ، وعلى هذا تتراجع إلى الوراء كثيرا مسألة مدى الالتزام بالنص أو حتى السياق التاريخي، وربما تتعقد المسألة أكثر بالنسبة للعمل الدرامي إذ إنه في النهاية نتاج تداخل العنصر الإبداعي للمؤلف، للمخرج والكادر الفني،، وأخيرا الممثل . وكل من هؤلاء يصنع تاريخاً آخر موازيا ، ربما يهيمن على القراءة الأصلية للتاريخ.

وفي رأينا أننا نظلم المعالجة الأدبية أو الدرامية إذا تصورنا أن مهمتها هي كتابة التاريخ. لكنها في الحقيقة في غاية الأهمية لأنها «تفتح شهية» المشاهد إلى قراءة التاريخ، وتحفز ذهنه وفضوله إلى متابعة الأحداث الواقعية في كتب التاريخ كما أنها ربما تثير قضايا تاريخية في أوساط الرأي العام، أكثر مما تثيره كتب التاريخ التي لا تستحوذ على اهتمام القارئ العادي لأسباب عديدة.

وتعتبر المعالجة الأدبية والدرامية لأحداث التاريخ مادة مهمة لعمل المؤرخ، إذا نظر إليها على أنها مصدر تاريخي يمكن من خلال دراسته وتحليله التاريخ للفترة التي خرجت فيها المعالجة الأدبية والدرامية، ولزيادة توضيح الفكرة، فعلى سبيل المثال يمكن الربط بين المرحلة الفرعونية في أدب نجيب محفوظ، وطبيعة هذه الفترة حيث برزت النزعة الفرعونية بعد تأكيد الوطنية المصرية في ثورة ١٩١٩، واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، واستمرار النضال الوطني ضد الانجليز، وسقوط الخلافة العثمانية .

أما بالنسبة لمسلسل «جمهورية زفتى» فإننا لن نطيل في نقده حتى لا نغمط المسلسل حقه، ولكننا نطرح السؤال الآتي لماذا جمهورية زفتى و غيرها من مسلسلات «الحركة الوطنية» في رأينا أن «استدعاء التاريخ» يفيد الآن بشكل كبير في تأكيد البعد الوطني للسياسة المصرية بصفة خاصة السياسة الخارجية والموقف الصلب من الهيمنة الأمريكية والتحرشات الإسرائيلية . من هنا لم يكن غريبا أن يظهر فيلمان عن عبدالناصر.

على أية حال إذ نظرنا إلى «أحداث زفتى» من وجهة نظر «تاريخية» فيجب علينا تناول ذلك من خلال السياق التاريخي لثورة ١٩١٩، التي هي بحق الثورة «الشعبية» الوحيدة في تاريخ مصر . ولم تكن الأحداث الأولى تشير إلى إمكانية قيام هذه الثورة. إذ هبت الثورة في بدايتها بشكل عفوي، احتجاجاً من الجماهير على اعتقال الزعماء. وكانت المظاهرات في البداية سلمية. ولكن تطور الأحداث هو الذي

صنع الثورة.

وبدأت الثورة فى القاهرة وتطورت الأحداث إلى تنظيم المظاهرات الصاخبة والاضرابات وتعطيل حركة المواصلات والقتال فى الشوارع من وراء المتاريس. أما فى المدن الأخرى فقد احتدت الأمور ووصلت إلى حد مهاجمة مراكز البوليس وتدمير الكبارى ومحطات السكك الحديدية.

وعرفت مصر فى خضم الثورة ظاهرة «غياب السلطة» لاسيما فى بعض مدن الأقاليم. من هنا لم تكن زفتى فريدة فى ذلك. ففى مدينة المنيا ومع غياب السلطة تألفت لجنة وطنية من أبناء المدينة استحوذت على السلطة وأعادت النظام إليها . ومما يذكر لهذه اللجنة أنها عملت على حماية ممتلكات الأجانب وأرواحهم. كما شهدت أسيوط الظاهرة نفسها حيث تطوع بعض المتعلمين من أبنائها إلى تنظيم شئون المدينة أثناء الثورة ولكن سرعان ما ألقت السلطات القبض عليهم.

وفى زفتى التى تهمنا فى هذا المقام تألفت لجنة ثورية أعلنت الاستقلال وأنزلت العلم الذى كان يرفع على المركز ورفعت بدلا منه علما وطنيا إيذانا بالاستقلال. وأكدت سلطتها بإصدار منشور إلى الأهالى عن طبيعة النظام الجديد. وضمت لجنة الثورة بعض الأعيان والأفندية المتعلمين والتجار الصغار (الطبقة الوسطى). ومن الطريف أن مقر اللجنة كان قهوة يونانى عجوز «مستوكلى». ولم يعترض مأمور مركز زفتى على هذه الاجراءات ورفض إراقة الدماء بين المصريين، بل وتعاون مع اللجنة . وشكلت اللجنة لجانا فرعية للشئون البلدية والأمن وجمع التبرعات، واهتمت بردم البرك. وعملت اللجنة على الاستفادة من التلاميذ فى تكوين فرق لمتابعة الأحوال فى البلدة. وظهر البعد الثقافى والإعلامى للجنة لا سيما مع ظهور خطيب اللجنة يوسف الجندى، حيث أصدرت اللجنة جريدة أطلقت عليها اسم «الجمهور».

وتناقلت وكالات الأنباء أخبار ثورة ١٩١٩ بما فيها من أحداث زفتى. ونشرت جريدة التايمز مسألة إعلان زفتى استقلالها. فأرسلت السلطات البريطانية قوة من العسكر الاسترالى لقمع زفتى. وقام الأهالى بحفر الخنادق حول البلدة إيذانا بالمقاومة الوطنية وتدخلت الوساطة الوطنية متمثلة فى إسماعيل بك حمد للوساطة بين اللجنة والقوة العسكرية . ونجح إسماعيل بك فى تهدئة الأمور لاسيما بعد إقناع الثوار بأن الثورة فى القاهرة قد انتهت، حيث تم السماح لسعد زغلول ورفاقه بالسفر إلى أوربا، وطلبت السلطات البريطانية إلقاء القبض على أعضاء اللجنة، لكن أهالى البلدة رفضوا الإفصاح عن أسمائهم فطلبت السلطات تسليم ٢٠ رجلا لجلدهم ليكونوا عبرة للآخرين، ويقال إن الأهالى قدموا أسماء الجواسيس والخونة بدلا من الوطنيين وظلت السلطات البريطانية فى البلدة الى أن عادت سلطة الحكومة المصرية بعد ذلك.

هذه باختصار شديد قصة «جمهورية زفتى»، ولنا أن نحمد للمسلسل أنه فتح شهية المشاهد العادى إلى أحداث تاريخه، فى الوقت الذى نشكو فيه جميعا من ضعف «الذاكرة التاريخية» فى بلد التاريخ مصر.

● د . محمد عفيفى

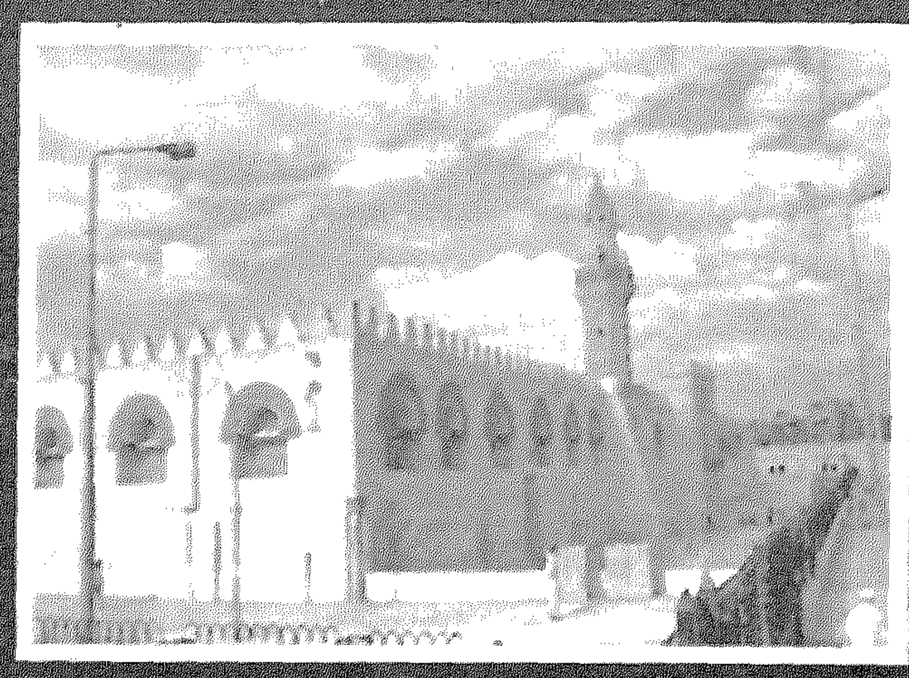
لقاء الأديان

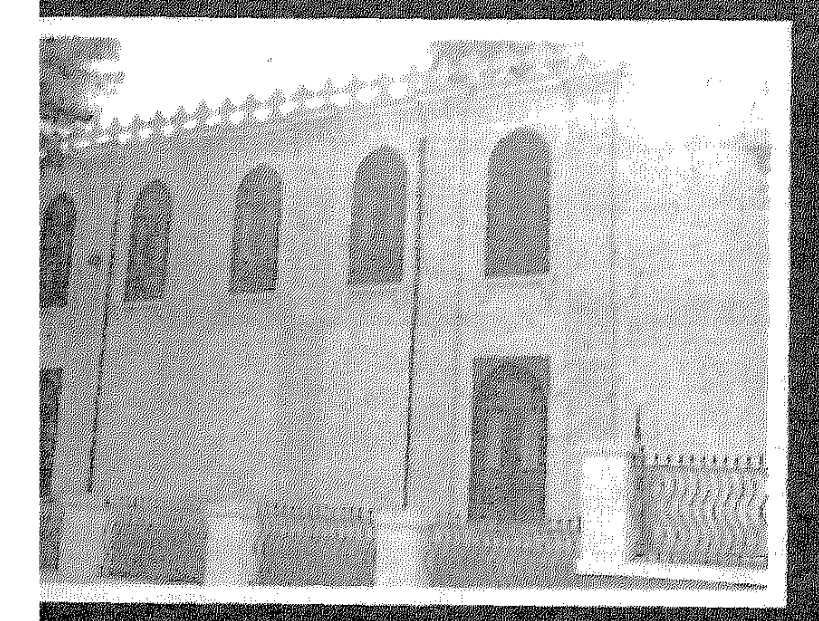
عَلَى ضِفَافِ النِيل

الإسلام والمسيحيّة واليَهُوديّة

إن الزائر اليوم للمنطقة التى يطلق عليها «مصر القديمة» والتى تضم بين جنباتها بقايا حصن بابليون «قصر الشمع» وأقدم كنائس مصر المسيحية حيث توجد المغارة التى لجأت إليها «العائلة المقدسة» فى مصر ومعبد يهودى، ثم أول مسجد أقيم فى مصر وأفريقيا «جامع عمرو»، يشهد على الواقع معنى «التسامح الدينى» الذى نادت به مصر منذ عصورها القديمة، فنادرا ما تجد مكانا آخر يؤدى فيه أهل الأديان السماوية الثلاثة شعائرهم الدينية فى أمن وأمان وفى وقت واحد مثل هذا المكان الذى يملؤه عبق التاريخ.

تصوير : إبراهيم بشير







بقلم:

د. أيمن فؤاد سيد

فالمنطقة الواقعة عند نقطة التقاء مصر العليا ومصر السفلى «المحور الشمالى الجنوبى للبلاد» هى أيضاً فى موقع مناسب تماماً للإشراف على المحور الشرقى الغربى لمصر فى نقطة متعامدة تمثل قلب الإقليم. هذه المنطقة كانت نقطة استراتيچية مهمة بما أنها تتحكم فى مدخل مصر العليا. وقد اتخذت منذ وقت مبكر طابعاً تميز بمعسكراته ومواضعه الحصينة ودور صناعته. كانت هذه المنطقة فى أول الأمر وظلت على ذلك فى كل زمان مركزاً عمرانياً ودينياً مصرياً بمعنى الكلمة حيث ولد ونما بها العديد من أهم العبادات المحلية ثم الديانات السماوية.

لكل هذه الأسباب استقر بها العديد من عواصم مصر المتتالية وتنقلت فيها من نقطة إلى أخرى دون أن تغادرها إلا بطريقة عابرة واستثنائية خلال تاريخها القومى.

فحول هذه النقطة تنقلت كل من ممفيس «منف» على الجانب الغربى للنيل، ثم أون «هليوبوليس» فى الامتداد الشمالى للقاهرة الحالية لتكون أول مدينة تنشأ على الجانب الشرقى للنيل فى مكان أطلق عليه العرب فيما بعد اسم «عين شمس». وأخيراً مدينة «بابليون» إلى الجنوب من «هليوبوليس» وفى مواجهة «ممفيس» حيث وجدت مجموعة من المبانى حول حصن قديم يسمى «بابليون» ولن أتعرض لمناقشة أصل وجود هذا الحصن وتسميته ولكن ما يهمنى هو الإشارة إلى بداية دوره كمنطقة عمرانية لعبت دوراً فى تطور عواصم مصر . فبعد نشوب ثورة اليهود فى الإسكندرية سنة ١٠٠ ميلادية أقام أحد الفيالق الرومانية الثلاثة التى تحفظ مصر معسكره بالقرب من الحصن الفارسى القديم الذى وجد هناك منذ عصر نبوخذنصر وقت الغزو الفارسى لمصر «٦٠٥- ٥٢١ق.م» وبهذه المناسبة أعاد الإمبراطور تراجان بناء حصن بابليون وأراد أن يجعل منه قلعة منيعة وعهد ببنائها إلى مهندسه المقرب أبوللودون الدمشقى، وكانت القلعة الجديدة تشرف مباشرة على شاطئ النيل لتحافظ على الاتصالات مع بقية أقاليم مصر.

وبعد ذلك بثلاثة قرون احتضن هذا الحصن بعضاً من أوائل كنائس مصر المسيحية مثل كنائس أبى سرجة والست بربارة والمعلقة التى كان يتردد عليها عساكر الحامية الرومانية التى تحرس الموضع.

تأسيس المدينة الإسلامية

وقد شهدت هذه المنطقة اضطرابات هائلة مع ظهور وانتشار المسيحية. ولا شك أن بقايا هذه المنشآت كان لها تأثير كبير حول اختيار العرب لموقع «الفسطاط». ويثبت تأسيس المدينة الإسلامية فى هذا الموقع من هذه الوجهة

استمرارية فى اختيار عاصمة مصر مازال مستمراً إلى الآن، غير أن إعمارها تم فى ظروف سياسية واجتماعية مختلفة. ولاشك أن هذا التجمع العمرانى القديم لم يكن له أبداً تأثير على تخطيط المدينة العربية، ولكن المؤكد أن الفتح العربى لم يكن أمامه سوى الاحتفاظ ببعض التقاليد القومية مثل «فتح الخليج» أو العادة المتعلقة بزيارة «سجن يوسف» حيث تبدو مصر الفرعونية فى خلفية الأحداث.

حصن بابليون

يرجع بناء هذا الحصن القائمة بقاياه الآن فى «مصر القديمة» إلى عصر الإمبراطور الرومانى تراجان فى سنة مائة للميلاد- كما سبق أن ذكرت- ولكن أصل ذلك الحصن كان بناء قديما أقامه نبوخذنصر وسماه باسم عاصمة ملكه «بابليون» عندما قام بغزو مصر.

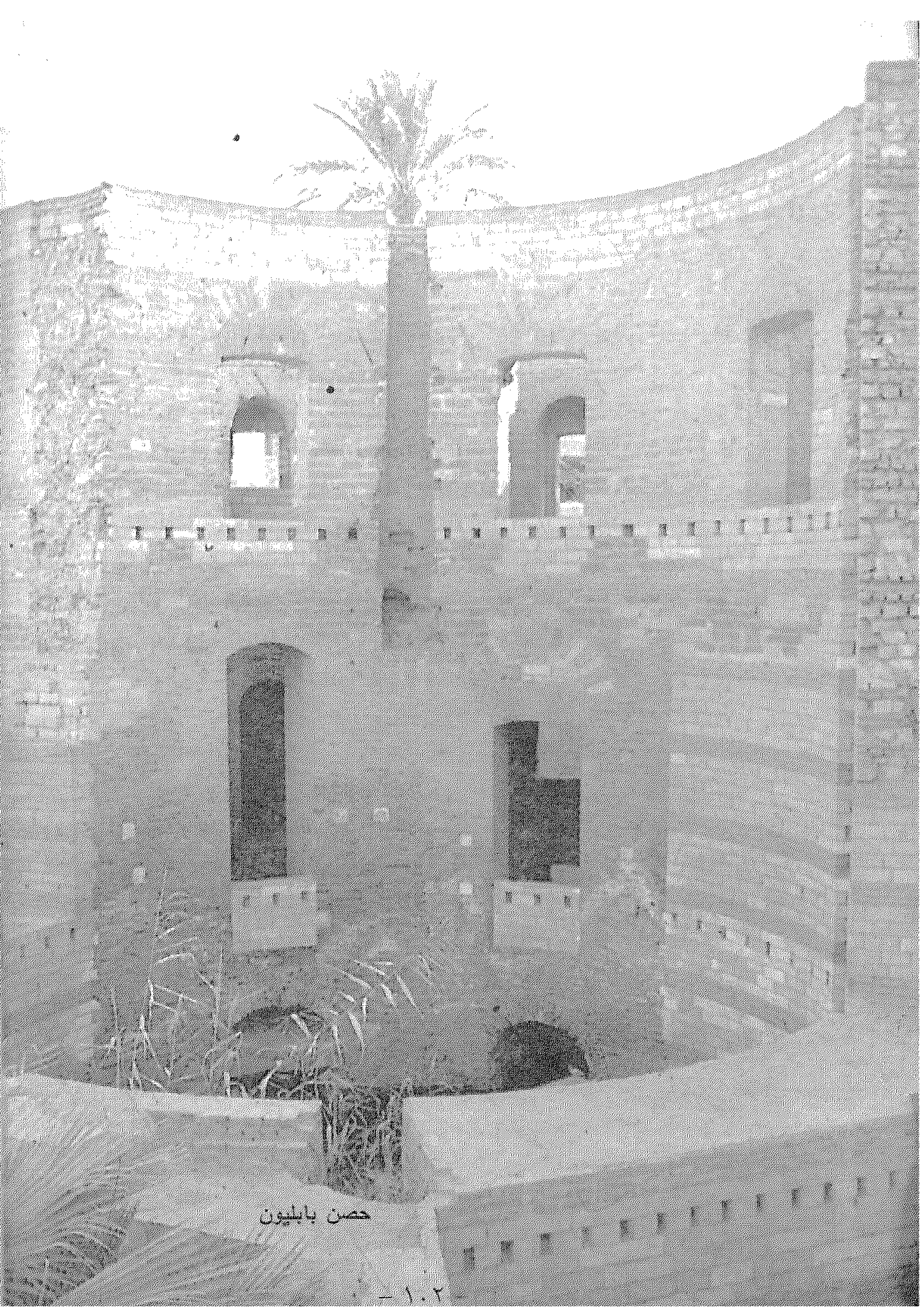
وسبب اسم «بابليون» ارتباكاً كبيراً لكتاب العرب ومع ذلك فقد بقى الاسم إلى اليوم ولكنه لا يطلق على الحصن نفسه الذى يعرف الآن بـ «قصر الشمع» بل يطلق على دير صغير على مسافة قليلة إلى الجنوب من الحصن وهو «دير بابليون» . وكان اسم الحصن باللغة القبطية فى وقت الفتح العربى «بابلون -آ- خيمى» ومعناه «بابليون مصر» فكان من السهل تحريفه فى اللغة العربية باعتبار أول جزء منه «باب» وأن الجزء الثانى منه مضاف إلى الأول.

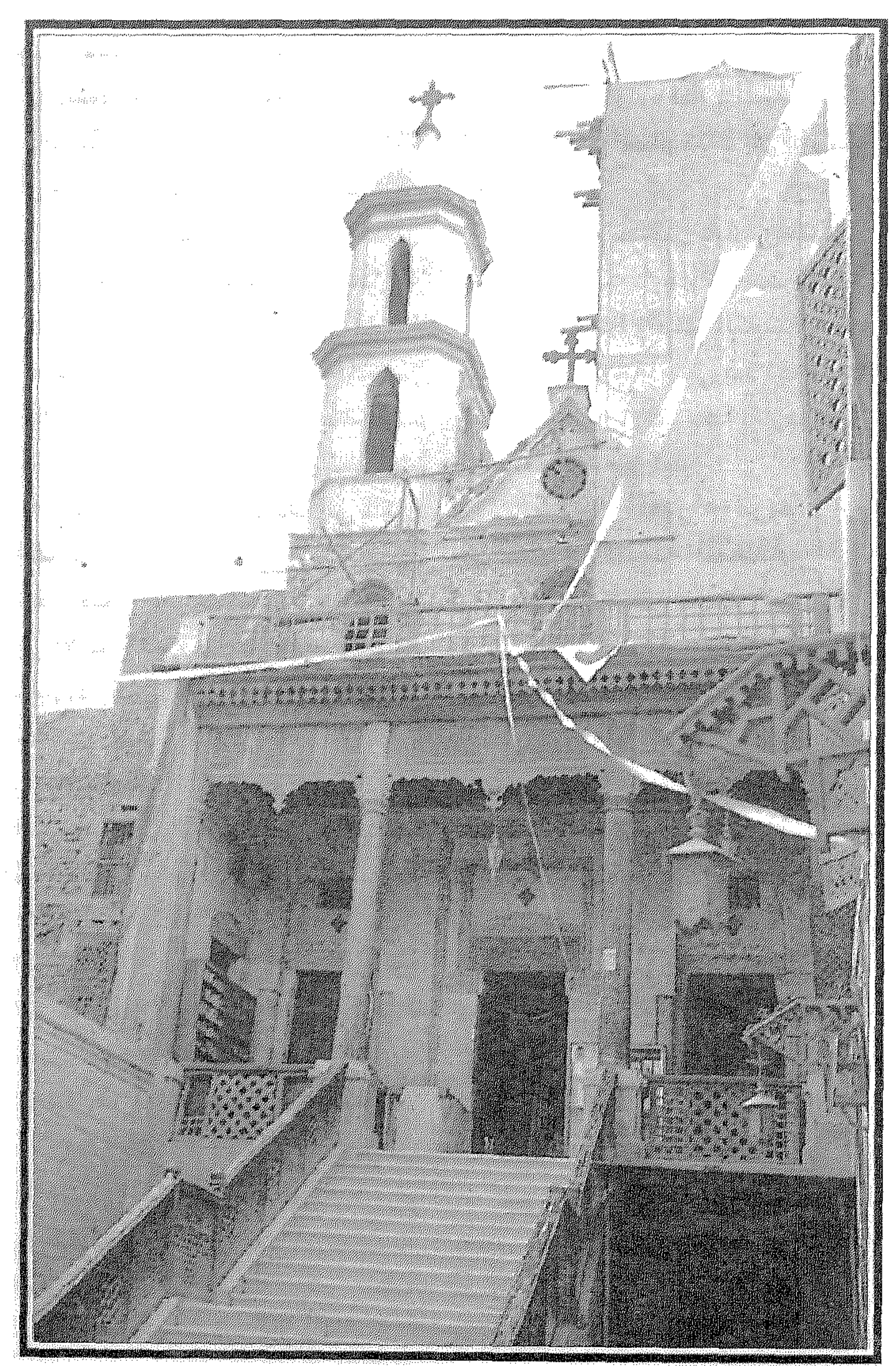
ويرى بتلر أن تسميته فى اللغة العربية بـ «قصر الشمع» قد يكون تحريفا للكلمة القبطية «خيمى»، أو لأن الحصن كان يوجد به هيكل للنار وكانت عليه منائر توقد فيها النيران للإشارة فنشأ من ذلك اسم «قصر الشمع»!

ولا تحدثنا المصادر العربية على ما كان فى داخل الحصن من البناء فى وقت حصار عمرو بن العاص له، ولكن المقريزى يشير عند حديثه عن دير البنات فى قصر الشمع إلى أنه كان هناك مقياس للنيل قبل الإسلام وأنه لا تزال توجد آثار منه إلى زمنه.

وهذا الحصن هو الذى حاصره جيش العرب الفاتحين بقيادة القائد الفاتح عمرو ابن العاص والذى تسوره الزبير بن العوام معلنا سقوط الحصن وتسليم حاميته وإتمام عملية الفتح.

ويرجع الفضل فى حفظ ما تبقى من حصن بابليون إلى القبط إذ اجتمعت لهم فيه عدة كنائس منذ أول عهد المسيحية لأنهم وجدوا خلف أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة. وكانت كل أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للملكانيين


حصن بابليون



الكنيسة المعلقة

وهو موضع كنيسة مارجرجس، وما كان مها لليهود وهو موضع بيعتهم.

وكما هى العادة بالنسبة للحوائط الرومانية فإن حائط الحصن يتكون من طبقات متبادلة من الحجر والآجر بمعدل خمس طبقات من الحجر بالتبادل مع ثلاث طبقات من الآجر . والغريب أن هذا الحصن ظل محافظاً على هيئته أكثر من ثمانية عشر قرناً إلى أن خرب تخريبا يرثى له منذ الاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢م. ويرجع بتلر سبب ذلك إلى شعور أهله عند ذلك بالاطمئنان والأمن، يقول: «فقد أصبح الأمر مستقرا لا حاجة معه إلى الأسوار المنيعة وجعل القبط واليونان واليهود وكأنهم يتبارون فى هدم أسواره كلما بدا لهم فتح باب فى ناحية أو إقامة بناء فى جانب منه، فإذا نحن قلنا إن السنين الثمانى عشرة الأخيرة (كتب بتلر كتابه سنة ١٩٠٢) قد شهدت من تهديمه أكثر مما شهدته القرون الثمانية عشر التى قبلها لم يكن فى قولنا شئ من المبالغة (فتح العرب لمصر ٢٠٩) مما دفع بلجنة حفظ الآثار العربية إلى التدخل لحماية ما بقى منه والحفاظ عليه.

وكان محيط أسوار الحصن فى الأصل على شكل مربع غير منتظم ولم يبق من أسواره سوى قطع من جانبين اثنين، والجانب الثالث مسخ وشوه تماماً أما الجانب الرابع فلم يبق منه أى أثر.

وفى وقت بناء الحصن كان ماء النيل يجرى تحت أسواره فكانت السفن ترسو تحتها وبقيت الحال كذلك إلى أيام فتح العرب.

ويحتضن حصن بابليون «قصر الشمع» ما لا يقل عن ست كنائس مسيحية أقدمها وأهمها الكنيسة المعلقة وكنيسة أبى سرجة، وتأتى بعد ذلك كنيسة القديسة بربارة وكنيسة مارجرجس بالإضافة إلى معبد لليهود.

كنيسة العذراء مريم أو «الكنيسة المعلقة»

وهى أقدم كنائس الحصن ، بنيت على الطراز البازليكى ثلاثى المحاريب . سميت بذلك لوجودها بين اثنين من بروزات الحصن فوق بوابة الحائط الجنوبى ، وذكر الواقدى أن هذه الكنيسة قد افتداها القبط من عمرو بن العاص وأن هناك لوحة تذكارية ذكر عليها ذلك.

وفى الفراغ الممتد أمام الكنيسة المعلقة داخل الحصن أنشأ مرقص سميكة باشا بين عامى ١٩٠٨–١٩١٠ «المتحف القبطى».

كنيسة أبى سرجة أو القديس سرجيوس

تقع هذه الكنيسة فى وسط حصن بابليون، ويؤمها سنويا العديد من السياح بسبب «المغارة» الموجودة داخلها والتى يقال إنها المكان الذى استراحت فيه

«العائلة المقدسة» عند وصولها إلى مصر. وتعتبر «مغارة أبى سرجة» كنيسة صغيرة تحت الأرض تقع تحت صرة الخورس، وجزء من هيكل الكنيسة تقود إليه مجموعتان من درج السلالم. وتنخفض أرضية المغارة عن مستوى الأرض خارج الحصن بمقدار ستة أمتار ونصف ويبلغ طولها ستة أمتار وعرضها أربعة أمتار ونصف وهى مقوسة السقف على شكل ثلاث قناطر.

كنيسة القديسة باربارة

تقع على الجانب الشرقى من حصن بابليون ملاصقة للحائط الرومانى ويتوصل إليها من شارع المعبد اليهودى. والقديسة باربارة التى كرست هذه الكنيسة على اسمها ابنة رجل من كبار رجال الأقباط فى مصر استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس.

الدير اليوناني أو دير مارجرجس للروم الأرثوذكس

يقع على قمة برج الحصن ويستمد أهميته من أنه المكان المقدس الوحيد الذى استطاع الملكانيون الإبقاء عليه داخل الحصن.

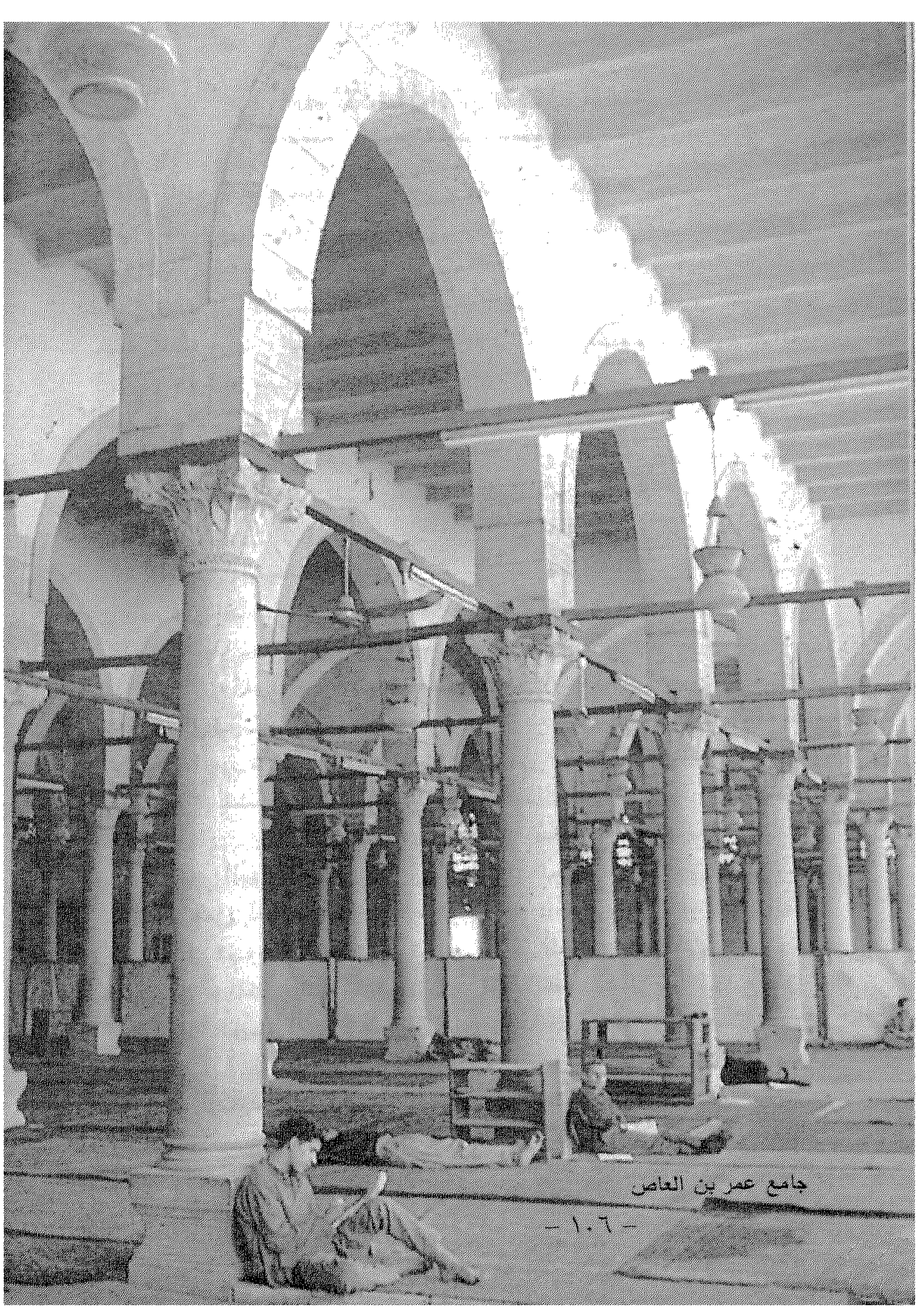
المعبد اليهودى

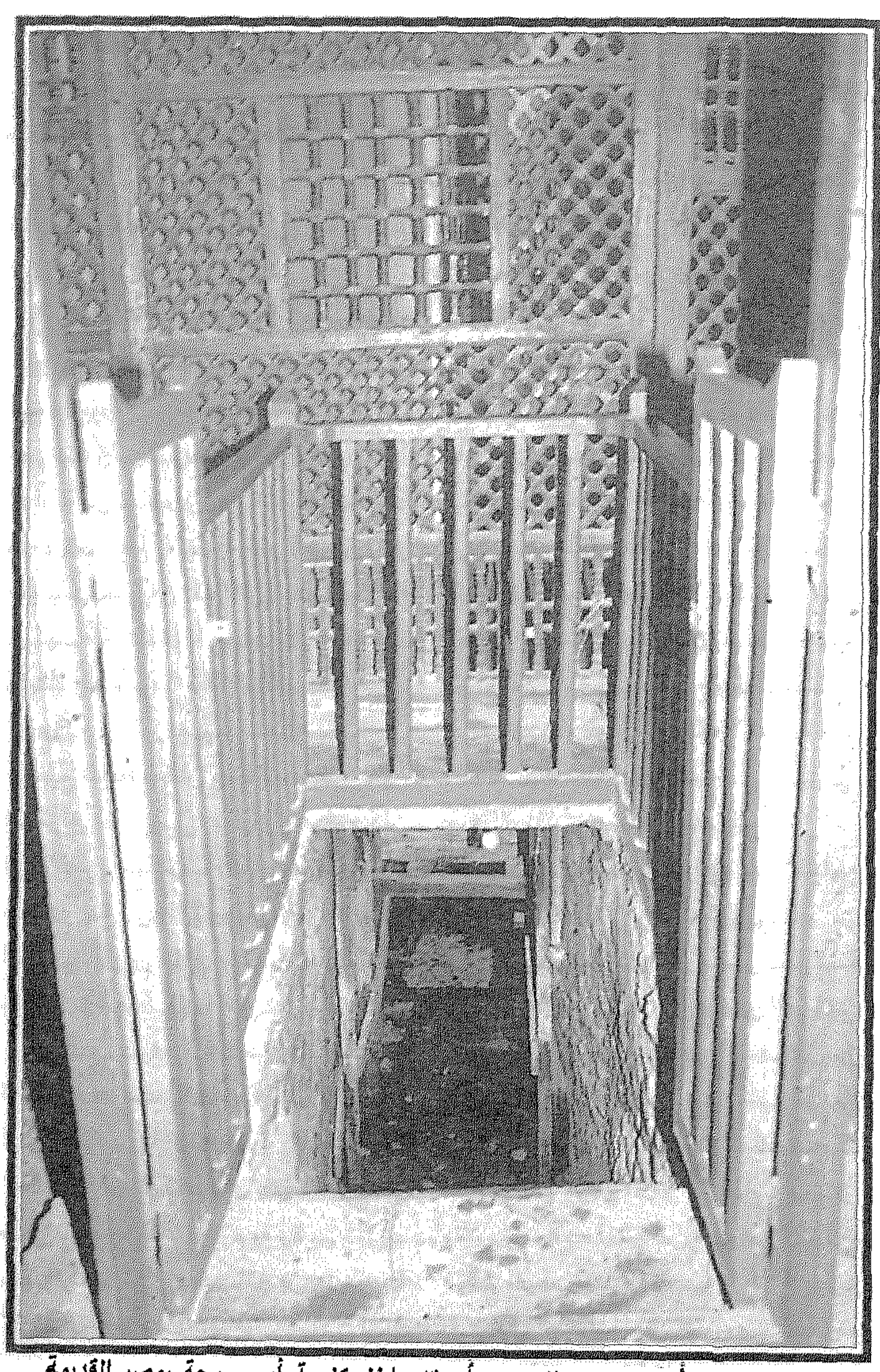
أما «المعبد اليهودى» الموجود الآن فكان فى الأصل كنيسة قبطية مكرسة باسم رئيس الملائكة ميخائيل، وباعها إلى اليهود حوالى نهاية القرن التاسع الميلادى البطريرك ميخائيل البطريرك السادس والخمسون، وفى نهاية القرن الماضى هدم اليهود المعبد القديم وأقاموا موضعه المعبد الموجود الآن.

أما أهم الآثار الإسلامية الموجودة فى المنطقة والتى استمرت بعد تخريب الفسطاط واضمحلالها فهو:

جامع عمرو بن العاص

بنى هذا الجامع تبعاً لأغلب المصادر سنة ٢١هـ/٦٤٠م وكان الجامع وقتئذ مشرفا على النيل إشراف حصن بابليون «قصر الشمع» عليه حيث انحسر نهر النيل مع الزمن إلى الغرب نحو خمسمائة متر. ورغم أننا لا نملك إلا القليل من المعلومات حول التأسيس الأول للجامع، فإننا مدينون ببعض التفصيلات عن الحالة الأولى للجامع لشاهد عيان هو أبو سعيد سلاف الحميرى وهى تفصيلات حفظها لنا كل من المقريزى وابن تغرى بردى. وتبعاً لهذه التفصيلات فإن طول الجامع كان ٥٠ ذراعاً وعرضه ٣٠ ذراعاً «٢٠ر٠٩×١٨,٣٤مترا». وكسائر الجوامع الأولى لم يكن للجامع صحن وفرشت أرضه بالحصباء، كما أن سقفه كان منخفضاً جداً صنع من الجريد والطين وحمل على


جامع عمرو بن العاص



المغارة التى اختبأ فيها السيد المسيح وأسرته داخل كنيسة أبى سرجة بمصر القديمة

ساريات من جذوع النخل، ولم تكن له مئذنة ولا محراب مجوف ولا منبر، وفتح للجامع بابان فى كل من جوانبه الثلاثة الشرقى والبحرى والغربى ولم تكن له أبواب فى جانبه القبلى.

ورغم أنه قد اشترك فى تحرير قبلته نحو ثمانين صحابيا ممن حضروا الفتح فيهم الزبير بن العوام والمقداد وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وفضالة بن عبيد وعقبة بن عامر رضى الله عنهم، فقد جاءت تلك القبلة منحرفة نحو الشرق أكثر مما يجب حتى أن الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة كانا إذا صليا فى المسجد تيامنا، وقد صوبت قبلة الجامع فيما بعد.

ورغم أن ابن عبد الحكم يذكر أن موضع الجامع كان جنانا وبساتين فإن الجغرافى الإدريسى يذكر أن الجامع كان فى الأصل «كنيسة للروم» وربما كان مصدر ما أورده الإدريسى هو ما ذكره الواقدى من أن عمرو «عمد إلى كنيستهم وجعلها جامعاً».

وقد عرف الجامع العديد من التوسيعات والتعديلات فى تاريخه الطويل، أولها قام بها مسلمة بن مخلد سنة ٥٣هـ/٦٧٣م، ثم تعديلات عبد العزيز بن مروان سنة ٧٩هـ/٦٩٨م وقرة بن شريك سنة ٩٢هـ/٧١١م وصالح بن على سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م وموسى بن عيسى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م. ولكن أهم تعديل أدخل على الجامع كان التوسعة التى بدأها عبد الله بن طاهر سنة ٢١١هـ/٨٢٦م وأتمها خلفه عيسى بن يزيد الجلودى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م.

ويجب أن نذكر أن هذا الجامع لا يحتفظ من مخططه الأول إلا بالقليل من عناصره الأصلية. كما أن أقدم أثر فى الجامع يرجع إلى عام ٢١٢هـ/٧٢٧م وهو تاريخ التوسعة التى بدأها عبد الله بن طاهر، وفى سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م وقع حريق فى الجامع التهم أكثر زيادة عبد الله بن طاهر فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارة الجامع وتم خلال هذه العمارة تزويق أكثر عمد الجامع وبلغت تكلفته ٦٤٠٠ دينار. وفى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م أنشأ أبو حفص عمر القاضى العباسى غرفة للمؤذنين بسطح الجامع.

أما أول وصف وصل إلينا لهذا الجامع فهو وصف الرحالة الفلسطينى محمد بن أحمد المقدسى الذى زار مصر نحو سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م فى بداية العصر الفاطمى يقول: «هذا الجامع يسمى السفلانى من عمل عمرو بن العاص وفيه منبر حسن البناء وفى حيطانه شئ من الفسيفساء على أعمدة رخام أكبر من جامع دمشق والازدحام فيه أكثر من الجوامع الستة، فقد التفت عليه الأسواق، إلا أن بينه وبينها دار الشط وخزائن وميضأة» (أحسن التقاسيم ١٩٩).

وقد أطلق المقدسي على الجامع اسم «السفلاني» تمييزاً عن جامع ابن طولون الموجود على الكبش والذى سماه «الجامع الفوقاني».

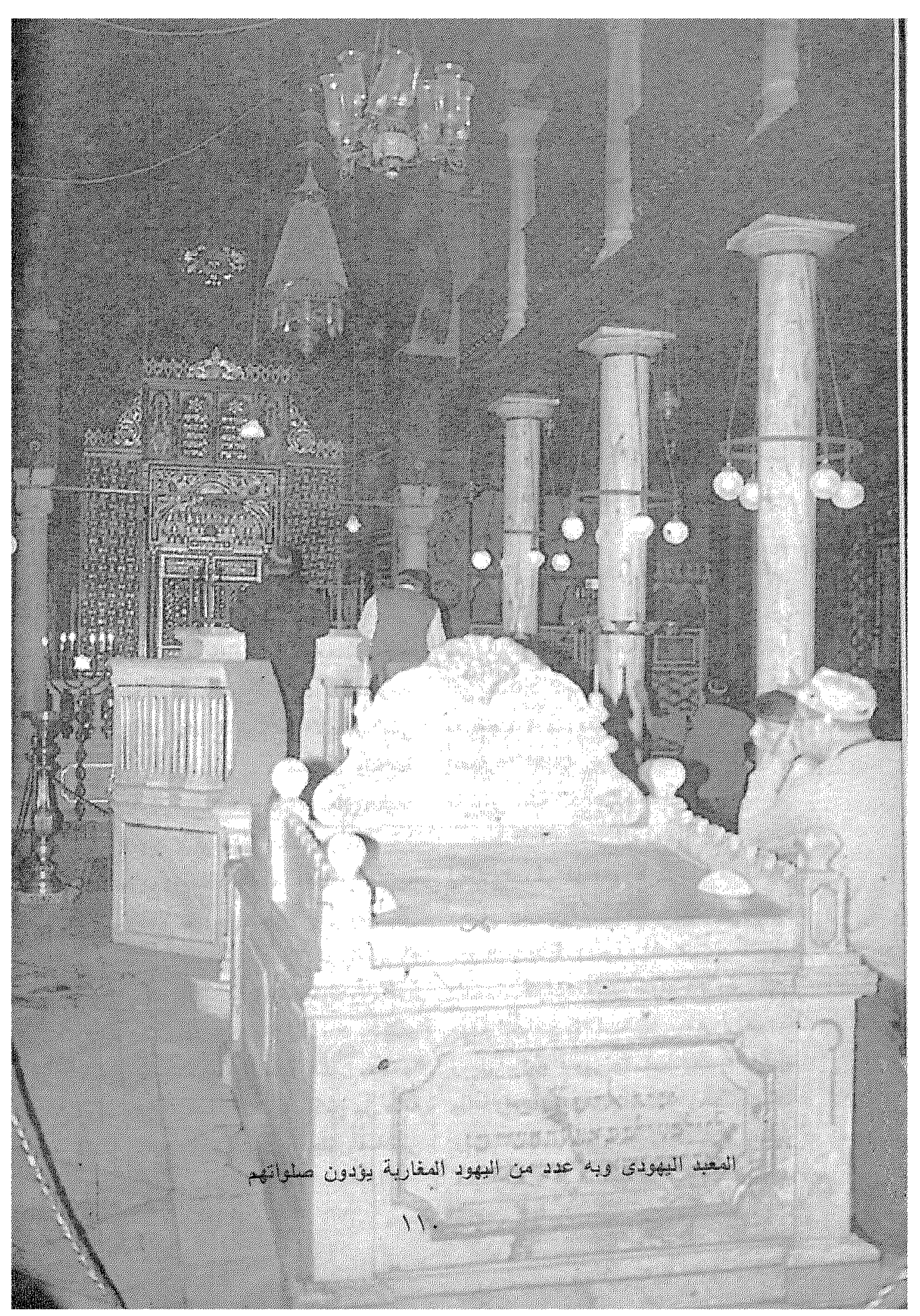
وطوال العصر الفاطمي قام الفاطميون ووزراؤهم بالعديد من الإصلاحات والتوسيعات بالجامع يرتبط أغلبها بتجميل الجامع وتزيينه وإضافة فورات ومآذن إليه..

يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذى زار مصر سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م: «وفى وسط سوق مصر يوجد جامع يسمى «باب الجوامع».. قائم على أربعمائة عمود من الرخام، والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل. وتحيط بالمسجد من جهاته الأربع الأسواق وعليها تفتح أبوابه. ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها.. ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصير الجميل الملون بعضها فوق بعض ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل. وفى هذا المسجد يجلس قاضى القضاة (سفر نامة١٠٢).

وعندما غزا عمورى الأول ملك بيت المقدس مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وخشى الوزير شاور السعدى من احتلال الصليبيين للفسطاط أمر بإحراق الفسطاط واستمرت النار مشتعلة فيها ٥٤ يوما تخريت مبانيها وتشعث جامع عمرو. لذلك فعندما تولى السلطان صلاح الدين مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م جدد الجامع ورخمه وجدد بياضه وجلا عمده وأصلح رخامه.

وتوالت التجديدات بعد ذلك على الجامع وعلى الأخص فى العصر المملوكى بعد زلزال سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م الذى أدى إلى تشعث الجامع وانفصال أعمدته بعضها عن بعض. وكانت آخر هذه العمارات المهمة عمارة السلطان المملوكى قايتباى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م.

وطوال العصر العثمانى لم تتم أية إصلاحات فى المسجد حيث كان قد تخرب بخراب ما حوله من الأبنية بعد اضمحلال دور الفسطاط، وهجره المصلون لبعده عن العمران فرأى الأمير مراد محمد بك أن يهدم الجامع كله لسقوط سقفه وأعمدته وميل إيوانه الغربى وسقوط بعضه، فأعاد بناءه وأصلحه وقوم أعمدته وجدد سقفه وفرشه بالحصر وعلق به القناديل وصلى فيه آخر جمعة من رمضان سنة



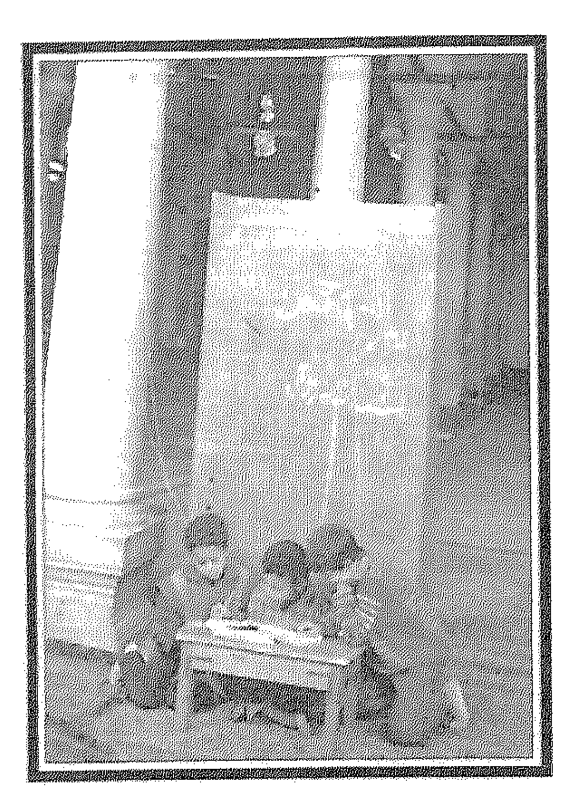
المعبد اليهودى وبه عدد من اليهود المغاربة يؤدون صلواتهم

١٢١٢هـ/١٧٩٨م، وأثبت قيامه بهذه الأعمال على أربع لوحات تذكارية من الرخام مثبتة على جدران المسجد.

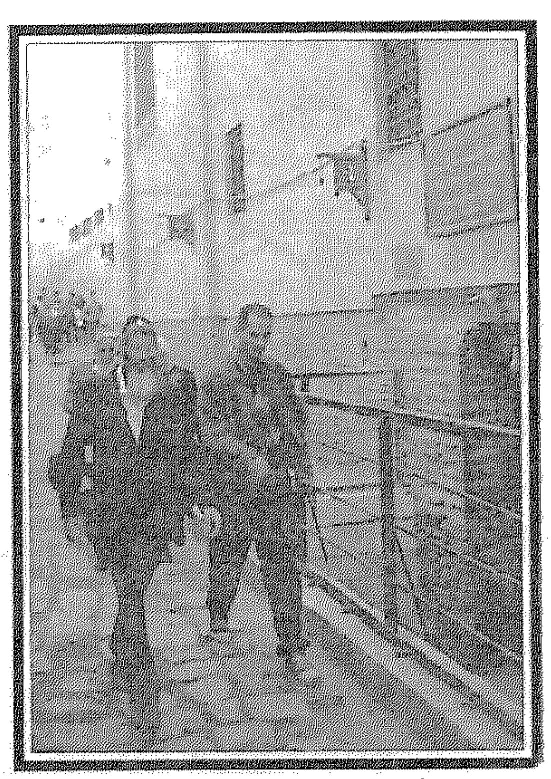
ولكن الإصلاح الذى تم فى عهد مراد بك وقع فى خطأ جسيم، فيّما يخص إيوان القبلة، فبدلا من أن تكون عقوده موازية لجدار القبلة جعلت متعامدة عليه.

وفى سنة ١٩٢٦ أعلنت الحكومة المصرية عن مسابقة عالمية لإعداد مشروع لإعادة جامع عمرو إلى بهائه القديم، واختير المشروع الذى أعده المستر كريزويل للتنفيذ كما نشر الأستاذ محمود أحمد المشروع الذى أعده فى كتاب سنة ١٩٢٧.

ولكن هذا المشروع لم يجد طريقه إلى التنفيذ، وبين عامى ١٩٧٠-١٩٧٣ قامت هيئة الآثار المصرية برفع تلال الأتربة المحيطة بالجامع ونزعت ملكية الأماكن المحيطة به بحيث جعل الفراغ حوله باتساع ثلاثين مترا من كل جانب، وتم إصلاح وترميم إيوانى المجنبتين والأيوان المقابل لايوان القبلة. وأفادنى عالم الآثار الكبير الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب بأن هناك الآن مشروعاً لإعادة إيوان القبلة على ما كان عليه وإن هندسة الآثار تعد الآن لفك هذا الإيوان وإعادته إلى وضعه الأصلى.



داخل مسجد عمرو بن العاص



بعد أداء الصلاة فى المعبد اليهودى

مرثية إنسان طيب

شعر

د. عبده بدوى

من ينعى إنساناً مظلوماً فى هذى
الأرض المطفأة الأنوار
الميتة الأقدار
الغائرة الآبار ؟
فلقد ربطت كفاه من خلفه
فى قرب جدار
وتراءى فى الزىّ المشئوم الأحمر
و «العمْر» المنفعل الثرثار
وعلى العينين الطيبتين ستار .. أىّ
ستار ؟

●●●

لما ثقبت تفاحة قلبه
والرأس على عجل قد مال ودار
والطلقة مازالت تسرى فى العمر
المنهار
والشرطة فى فرح راحت تلهو بالأزرار
قد صارت هذى الدنيا تهوى فى غير
قرار
ولقد رحلت كل الطيبه
ولقد بدأت أوجاع الأسفار ؟

●●●

قد ترك وحيداً فى موته
حتى من عاش كعصفور يشدو حوله
لقط العينين اللؤلؤتين، وطار
حتى من كان كظل يمشى من خلفه
لم يغمض عينيه، بل هز الرأس، وسار
حتى من غنَّى فى عينيها بالشعر
المخمل
دست كتفيها المُتلئينْ جمالاً فى صدر

الجار
من غير حوار !
العالم - يا ويحى - يذبح فى الأطيار
فلقد شطر النصفين، وقطع فى
الأوتار
لكن لما أن دحرج فى كثبان الوادى
ماجت خضره
قامت أشجار
باحت عن قاتلها الأسرار
قال اللبلاب : غداً آتيكم بالأخبار !

●●●

من يصحبنى كى نحصد فى هذا
الموسم
بعض الأثمار
بعض الأقمار
أترانا نلقى هذا المظلوم الغائب
هذا المدفون بسيقان الأزهار
هذا المتدثر بالنوار
هذا المتلاطم فى الأنهار
فالعودة قد صارت وهما
لكنا سوف نراه بالطعم المرّ المكْثار
فى شئ يأخذ شكل القهر، وشئْ يشبه
صوت العار
فلقد أودع فينا شيئاً من حسره
لفحاً من نار !

●●●

لن يتركنا هذا الشئ المهزوم الغدار
فى ليل قاس، أو بنهار !



«مفاجآت سلمى عواد التى لاتنتهى»

قصة بقلم:

أبو المعاطى أبو النجا

بريشة الفنان:

حلمى التونى

ألقى بنظرة سريعة على الورقة التى تضم أسماء من اتصلوا به فى المكتب قبل وصوله، توقفت نظرته أمام اسم «سلمى عواد»، ومع أن النظرة كانت شاملة للورقة كلها، فقد ضاعت منه الأسماء الباقية كما ضاعت من ذاكرته الأسماء السابقة، «سلمى عواد» تتصل به، من أين ياترى؟ من الخارج أم من هنا فى القاهرة؟، فى المرات السابقة كانت تتصل به فى المنزل سواء من بلدها فى الخارج أم من القاهرة؟ ضغط الجرس على مكتبه، سأل السكرتير الذى أعد الورقة وهو يشير إلى اسمها.

– «سلمى عواد» هذه هل قالت شيئا؟ ألم تترك رسالة.

– قالت سوف تتصل مرة أخرى!.

- ألم تقل متى؟ أو من أين.
- قالت ستتصل بعد ساعة أو أكثر.

ساعة أو أكثر لا تكفى لكى يسترد نفسه التى بعثرتها المفاجأة، فى كل مرة اتصلت فيها «سلمى عواد» كان لاتصالها وقع المفاجأة نفسها، كيف يبقى أمراً له وقع المفاجأة بعد كل هذه السنين؟ «سلمى عواد» تبقى مفاجأة طازجة دائما، تتخايل أمام عينيه تلك الطفولة الأبدية تعبر عنها أولا ملامح وجهها، ابتسامة رائقة، وعينان صافيتان، يهيئان لها قبولا منذ الوهلة الأولى، ثم يأتى سلوكها ليؤكد هذه الطفولة فأسئلتها مباشرة حادة كرموش عينيها، وضحكتها لا تتجاوز ابتسامتها إلا قليلاً، تخرج مكتومة من أعماق حلقها، كأنه تخشى أن تخدش الهدوء الذى يغمرها حيثما تكون!».

(أول مرة رآها كانت فى الحفلة السنوية التى تقيمها المؤسسة التى عمل بها سنوات فى الخارج، كان إلى جوارها شاب بالغ الوسامة، اقتربت منه كما لو كانت تعرفه حق المعرفة قالت له:

- أستاذ رءوف، اسمح لى أن أعرفك بزوجى طارق، حيّا زوجها بمودة، قبل أن يقول لها محاولا أن ينقل إليها بعض دهشته من سؤالها:

- ولكنك لم تعرفينى بنفسك!.

- تدخل زوجها حين رأى زوجته تغرق فى حمرة الخجل.

- سلمى موظفة جديدة عندكم فى المؤسسة، ولكنها تعرفك جيدا ودائما كانت تحدثنى عنك!.

قال ضاحكا محاولا أن يستوعب الموقف، وأن يتجاوزه:

- يبدو أننى موظف غير كفء، فكيف لا أعرف أن عندنا موظفة بهذا الجمال؟!.

كانت فى مثل سن ابنته، فلم يجد حرجا فى مبادرتها بمثل هذه التحية فى أول لقاء بينهما، وأمام زوجها، الذى بدا فخورا بمثل هذا الإطراء لزوجته!.

أما هى فقد تضاعف شعورها بالخجل والفرح معا وهى تقول:

- لقد جاء زوجى ليتعرف عليك، وليرجوك تساعدنا فى الطلب الذى قدمته لرئيس المؤسسة لكى أنتقل إلى العمل فى القسم الذى تشرف عليه!

قال محاولا أن يعطى نفسه فرصة للتوازن أمام ما وجده أكثر من مفاجأة!.

- طبعا لا مانع عندى، لكن رئيس المؤسسة لم يفاتحنى بعد فى هذا الموضوع، ولا أريد أكثر من فرصة للتفاهم معه بشأنه).

«كانت هذه أولى

مفاجآت سلمى عواد

مفاجآت سلمى عواد التى لا ينساها»

***

قال له رئيس المؤسسة فى أول لقاء بينهما:

– السيدة سلمى مهندسة تملك الكفاءة، ولكنها كما لاحظت تملك قدراً كبيراً من الجمال، وقدراً أكبر من البراعة، وبسببهما تتورط فى بعض المشكلات مع زملائها من المهندسين الشبان فى القسم الذى تعمل به، وفى الحقيقة الوزير أوصى بها خيراً، كما أخبرنى زوجها بأنها بالرغم من تخصصها فى الهندسة تهوى الكتابة، وربما لو نقلناها إلى قسم العلاقات العامة لتعمل معك نكون قد حللنا أكثر من مشكلة).

«لم يكن يعرف أنه بقبوله لمثل هذا الحل لمشكلات سلمى عواد سوف يفتح الباب لمشكلاتها معه، كان يظن أن زمن هذه المشكلات قد مضى بالنسبة له، على الأقل، أما هى فقد حاولت أن تشرح فى بداية عملها معه، كيف أنها لم تكن تسعى أبدا إلى خلق مشكلات مع أحد، وأن الآخرين، وبخاصة المهندس ممدوح هم الذين كانوا يختلقون المشكلات، ولكنه أراد منذ البدء أن يغلق أمامها باب الشكوى، قال لها بوضوح: – اسمعى، لم أكن أحب وأنت فى بداية حياتك العملية أن أشجع أسلوبك فى الهرب من المشكلات، فعملك معنا فى قسم العلاقات العامة يحتم عليك التعامل مع الجميع، واعتقادى أن أى إنسان – رجلا أو سيدة – هو الذى يحدد بطريقة تعامله مع الناس طريقتهم فى التعامل معه، هل تفهمين معنى هذا الكلام؟

– نعم أفهم... لكن..

وقاطعها قائلا:

– لقد وافقت على انتقالك للعمل عندنا لأن رئيس المؤسسة قال: إنك تجيدين الكتابة، وعندنا مجلة يمكن أن تمنحك الفرصة لو كنت حقا تملكين هذه القدرة، فنحن فى حاجة إلى من يفهمون الموضوعات الفنية التى تتناولها المجلة أحيانا والآن سوف تعطيك الزميلة فوزية أعدادا من مجلتنا، وفكرة عن عملك الجديد، وسأنتظر ما تقترحينه من موضوعات جديدة للمجلة»!.

لم يكن يدرى لماذا بدا منه كل هذا الحرص على أن يكون معها محدداً وموضوعيا فى أول لقاء فى مكتبه، أكان يقاوم دون أن يشعر تلقائيتها الدافقة التى كانت تعبر عنها فى هذا اللقاء ملامح وجهها الجميلة والبريئة معا وهى تقاوم رغبتها فى الكلام،

فى الإفصاح عما يمكن أن يكون قد وصله من معلومات عنها؟ أم كان يقاوم تلقائيته هو حين عبر عن شعوره التلقائى بجمالها فى أول لقاء بينهما، وقبل أن يعرف شيئا عنها وعن احتمال أن تعمل معه، لقد خُيِّل إليه فى لحظة خاطفة كأنها كانت تدرك ذلك كله، حين خرجت من مكتبه، وهى تحييه بابتسامة رقيقة واثقة، وكأنها لم تنزعج أبدا من كلماته البائرة فى أول لقاء بينهما فى إطار العمل.

«مفاجأة سلمى عواد الثانية»

حدثت المفاجأة الثانية من سلمى عواد بعد شهور من عملها فى قسمه خلال هذه الشهور لم يكن يشعر بوجودها، أو بأى وجود لما أسموه مشكلاتها، وأصبح يقينا لديه ماكان موضع تساؤل عن مقدرتها على الكتابة، كانت تعرض عليه الموضوعات التى تقترحها للمجلة بعد أن تنفذها بالفعل، وكأنها على ثقة من سداد هذه المقترحات وفى الوقت نفسه كانت تظهر استعدادها لتغييرها لو لم تلق قبولا وبالفعل لم تتجاوز ملاحظاته على هذه الموضوعات سوى تعديلات طفيفة فى شكل الموضوع وليس على فكرته، وحين أظهر لها فى البداية أنه كان يفضل أن يناقشا الفكرة أولا قالت:

- أخشى ألا أجيد عرض الفكرة. والموضوع المكتوب يكون أكثر إقناعا.

وهكذا مضت علاقتها به، تدخل كنسمة هادئة، تلقى بكلماتها فى همس، وتتلقى ملاحظاته فى هدوء، ولم يمنع هذا التحفظ الظاهرى منها أو منه شعوره الخفى بهذه التلقائية المقموعة وراء رغبة فى التأكيد على أنها لن تكون أبدا مصدرا للمشكلات من أى نوع!

ذات يوم دخلت إلى مكتبه لم يكن لها ذلك الوجه الجميل الرائق، ولم يكن لعينيها ذلك الصفاء الطفولى وجد نفسه يقول لها:

- ماذا بك؟

- هناك أشياء حدثت، ربما لم يحدثك بها أحد، ربما لا يجرؤ أحد أن يحدثك بها، لا أتصور أن تعرف بها من غيرى، فأنا التى تسببت فيها، وأريد أن تسمعها منى فى الوقت الذى تراه مناسباً، وبعدها أنا مستعدة لأى شىء حتى ولو كان ترك العمل فى المؤسسة كلها!.

قال لها بصوت جاهد أن يكون هادئا:

- اجلسى الآن وتكلمى...

ثم طلب من سكرتيرته ألا تدخل أحداً حتى يأذن لها.

انفجرت سلمى فى البكاء، قال لها بحزم:

- من الأفضل أن

تهدئى حتى أفهمك.
قالت وهى تبذل جهداً كى تتماسك:
- أستاذ رءوف حاولت أن أنفذ بدقة كل تعليماتك، وأتعلم منها وحين صدر التكليف بعمل تحقيق فى المجلة عن افتتاح القطاع الجديد للتعدين، لم أتردد فى التعاون مع كل المهندسين فى القطاع بمن فيهم «ممدوح» الذى سمعت، عنه وقد صممت على أن تكون هذه فرصتى لأترجم نصيحتك لى بضرورة التعامل مع كل الزملاء بطريقة تمنع المشكلات، أنا لا أعرف كيف يحدث الخطأ؟ كان من الممكن أن أكتفى فى عمل التحقيق بالتعامل مع غير «ممدوح» من المهندسين، ولكنى أردت أن أثبت لك وله أننى أتعامل مع الجميع بلا خوف أو حرج، هو الذى لم يفهم ذلك هو الذى قال لى حين ذهبت إلى مكتبه لأجرى معه حواراً حول نشاط الجزء المسئول عنه، وعلى وجهه ابتسامة المنتصر.
- كنت على ثقة من أنك سوف تعودين!.
قلت له:
- أستاذ ممدوح أرجوك لا تخطىء الفهم، الأستاذ رءوف هو الذى طلب منى أن أغطى كل أنشطة القطاع وأريد أن
قاطعنى قائلا:
- أنت التى تسيئين بى الظن دائما.. أردت مجرد الترحيب بزميلة طال غيابها.
- ماتقوله أو تفعله هو الذى يخلق الظنون والمشكلات!
- إذن أرجو أن تقبلى هذه المرة اعتذارى عن أى شىء حدث فى الماضى وإذا كان مَيْلى للمزاح أحيانا يسبب لك إزعاجا فلن أعود إلى هذا أبدا، والآن أنا تحت أمرك، ولنفتح صفحة جديدة.
كنت متلهفة على أن أثبت لك قدرتى على

مفاجآت
سلمى عواد

العمل مع الجميع بلا مشكلات وجدتنى أميل إلى تصديقه، وحتى لا أعود لك بشكوى جديدة وأجريت معه الحوار المطلوب، وكان لأول مرة فى غاية من الجدية، ففرحت بما ظننته انتصارا معه ومعك، وأصبحت أتعامل معه مثلما أتعامل مع غيره، وبخاصة أن هذا التعامل كان محدودا، لم أتصور لحظة أنه سوف يستغل هذا التعامل الطبيعى والمحدود ليجعل منه غطاء يعطى للقصة التى بدأ يشيعها بطريقته بين الزملاء فى المكاتب، ما يجعلها قابلة للتصديق.
ارتجفت ملامحها مرة أخرى بالبكاء..
قال لها والقلق يستبد به:
- ما القصة التى بدأ يشيعها بين الزملاء؟.

- تصور يا أستاذ رءوف أنه يزعم أنني شكوت إليه منك وأنني أقول له: إن الأستاذ رءوف نفسه واقع في غرامي وأنني أصبحت كالمستجير من الرمضاء بالنار.

زميلتنا فوزية وحدها هي التي صارحتني بما يهمس به بين المكاتب، لم تسمع منه القصة، ولكنها سمعتها من غيره،كدت أجن يا أستاذ رءوف، لو كان الأمر يتصل بشخص آخر غيرك ما اهتممت به!ولكن أن يصيبك هذا الأذى ويسببي، قلت لفوزية:

- سوف أذهب إليه في مكتبه وأضربه بحذائي، ولكنها هي التي نصحتني بألا أفعل قالت:

- يا مجنونة سوف تسببين للأستاذ رءوف ولنفسك فضيحة في المؤسسة، المهم أن تقطعي علاقتك به تماما فلا أحد يأخذ كلام ممدوح مأخذ الجد، ولكن استمرار تعاملك معه هو الذي يعطي بعض الصدق لكلامه!.

ظللت فترة متحيرة لاأدري ماذا أفعل؟ خشيت أن تسمع بهذه القصة من أحد غيري، فلا أجد فرصة لأشرح لك الحقيقة! لا أدري لماذا أشعر أنك تصدقني، وأنا في النهاية مستعدة لأي شيء، أن أواجه ممدوح أمامك أن أترك المؤسسة في هدوء دون أن أسبب حرجا لك!.

قال لها وهو يبذل جهدا للتماسك:

- كنت أظن أنك على شيء من السذاجة، ولكني لم أتصور أن تكوني ساذجة إلى هذا الحد؟

انخرطت مرة أخرى في بكاء مكتوم، قال لها بحسم:

- الشيء الوحيد المعقول هو ما قالته لك فوزية، أن تقطعي علاقتك بممدوح هذا، وعدا ذلك لن يتغير شيء، إذا فاتحك أحد من الزملاء في هذا الموضوع قولي له الكلام نفسه الذي قلتينه لي واستمري في عملك هنا كالمعتاد، ثم حاولي أن تنسي الموضوع كله!

حين خرجت من مكتبه كان وجهها يشرق بابتسامة صافية مع أن عينيها كانتا لاتزالان غارقتين في الدموع!.

مفاجأة سلمي عواد الثالثة

كان تقديره بعد هذه المفاجأة الثانية من «سلمى عواد» أنه ربما كان مخطئا حين تعامل معها من البداية بهذا القدر من التحفظ، وأنه لو أعطى لنفسه ولها فرصة أفضل للحوار لكان من الممكن تجنب مثل هذه المفاجآت، ولكن المفاجأة الثالثة حدثت بأسرع مما يتوقع، وقبل أن يخطو خطوة واحدة في تغيير طريقة تعامله معها، زوجها طارق هو الذي جاء لزيارته في مكتبه، كانت سلمى قد أخبرته بالقصة كلها، بعد أن

أخبرته بما جاء ليقول له: إنه لا يطمئن على عمل زوجته في مكان مثلما يطمئن عليها وهي تعمل معه، وأن ثقته في زوجته وفيه بلا حدود، وأنه جاء ليرجوه ألا يتأثر لحظة بسخافات ممدوح هذا، وأنه يشكره على موقفه المتفهم لكل شيء!

إنتهت الزيارة ولكن حيرته لم تنته، لعلها كادت تبدأ، أي نوع من الناس «سلمى عواد» هذه؟ لقد أصبحت رغبته في أن يفهم هذه المخلوقة تعادل رغبته في أن يقدم لها نوعا من الحماية، لعل حاجتها إلى الحماية من نفسها لا تقل عن حاجتها إلى الحماية من أمثال ممدوح؟! ولكن لماذا يزج بنفسه في تلك المتاهة، هل يمكن أن تكون البراءة الشديدة مثل الغموض الشديد تيه بلا حدود وجاذبية بلا حدود؟! لكن شعورا بالاطمئنان بدأ يتسرب إليه في هذه اللحظات مبددا هذه الحيرة فها هي «سلمى عواد» باقية للعمل معه تحت مظلة سابغة من الأمان والثقة، يراها على مهل، يفهمها على مهل، يستمع على مهل إلى أسئلتها التي كان يقمعها بتحفظه الشديد في بداية عملها معه، أسئلة كانت تأتي أحيانا عَبْرَ الأحاديث العابرة، وأحيانا عَبْر أحاديث العمل ذاته، أسئلة قد تكون المفتاح لفهم عالم «سلمى عواد».

أسئلة سلمى عواد المقموعة

كان هو الذي قال لها يوما في شهور العمل الأولى:

- «لكي يقرأ الناس ما نريد لهم أن يقرءوه في مجلتنا عن نشاط المؤسسة لابد أن تقدم لهم المجلة ما يحبون أن يقرءوه عن مشكلات حياتهم الخاصة والعامة».

هل كان يتوقع أن يضعه هذا القول أمام

مفاجآت سلمى عواد

هذا النوع من الأسئلة التي بدأتها سلمى عواد حين بدأت تشعر بأنه يعطيها فرصة للسؤال مثلما يعطي نفسه فرصة لإجابات ممتدة وهادئة!.

كانت هي التي قالت له يوماً:

- كنت أظن أن الناس لا يكذبون إلا لأن هناك أسباباً قوية تضطرهم إلى الكذب، قد نعذرهم لهذه الأسباب أو لانعذرهم لكن هل يمكن أن يكذبوا أحيانا دون أسباب؟!.

قال لها وهو يداري شعوراً بالمفاجأة:

- ربما لهم أسباب لا تتضح لنا.

ثم أضاف بعد أن لمح في عينيها بعض الحيرة:

- وأحيانا ربما لا تتضح لهم أنفسهم، فالمشكلة هو أننا قد لا نتبين كل دوافعنا للصدق

أو للكذب؟!.

قالت ومساحة الحيرة تزداد في عينيها:

- كنت أظن أن الكذب وحده هو الذى يحتاج إلى دوافع؟!.

قال لها:

- أحيانا تكون للصدق دوافع تتجاوز مجرد الحرص على الإخبار بالحقيقة بأمانة!!.

- هل تظن أن مناقشة مثل هذا الموضوع تصلح لمجلتنا؟.

- أفضل أن تبحثى عن موضوع آخر!.

وجاء يوم تقدمت فيه بموضوع آخر فى شكل سؤال أيضا:

- ألا تظن أن هذا السؤال يصلح تحقيقا للمجلة، قد يجلب لنا الصداع ولكن يمكن أن نعطى فرصة لمعرفة الآراء من حوله؟! حتى ولو كانت بالرفض!.

- هل يمكن أن أعرف رأيك أنت أولا؟.

- طبعا ممكن، ولكنى كمسئول فى المجلة أفضل أن تكون مساحة الإجابة كاملة للقراء.

- أود أن أسمع رأيك أنت!.

- أظن أنه ممكن لو كان عند كل من المرأة والرجل مفهوم واحد واضح للصداقة، ولدى كل منهما القدرة على الالتزام بحدود هذا المفهوم!.

- هذه إجابة تخفى شبح الرفض!؟

- الأمر يتوقف على ظروف المجتمع الذى نعيش فيه، فقد تسمح بتوافر هذه الشروط أو عدم توافرها!.

- ألا ترى أن ظروف المجتمع الذى يعيش فيه غرباء من بلاد كثيرة ويعملون، مثلما هو الحال هنا، تجعل الحاجة ماسة إلى مثل هذه الصداقة، ولكن الظروف الخاصة بنمو المجتمع نفسه تجعل تحققها شيئا عسيرا حتى بين الرجل والرجل!

- صحيح .. وذلك جزء من المشكلة!

ومع تتابع أسئلة سلمى عواد داخل وخارج تحقيقات المجلة بدأ يعيد النظر فيما كان يسميه سذاجتها، بل بدأ يقول لنفسه: هل كان يمكن أن تنبع هذه الأسئلة إلا من هذه البراءة.

قالت له يوما وقد أصبح لا يفرق بين أسئلتها سواء أكانت داخل تحقيقات المجلة أو خارجها:

- أريد أن أعرف رأيك فى هذه الشائعة التى يرددها الناس مثل المسلمات عن اختفاء الحب بعد الزواج، هل الزواج عدو للحب؟ أم أن هناك سوء فهم لفكرة الزواج أو فكرة الحب؟

أصبح يجد متعة فى الإجابة عن أسئلتها، بل أصبح ينتظر فى لهفة مثل هذه الأسئلة! وإن كان لا يظهرها!.

قال لها:

- أظن أنه سوء الفهم، ففى الظروف

العـــــادية، ليس من الضـــرورى أن يخـتـفى الحب، ولكنه يتـغـيـر فى شكله ومضـمـونه بتـغـير الظروف التى تختلف بعد الزواج بطبيـعـة الحـال، ولكنه يبـقى، كـمـا يبـقى الطفل فى المراهق، وكما يبـقى المراهق فى الرجل وكما يبقى هؤلاء جميعا فـى الـكـهـل، لا شـىء يختـفى، ولكن الأشـيـاء تتغير! وتحدث المشكلات حـين لا نعـتـرف بهـذا التغير!.

لا يدرى لماذا كـــان يحـرص على أن يجـيب على أسـئلتـهـا بكل هذه الجدية مع أنه كان يسعد بها، أكان لا يزال يخشى من تلقائيتها وتلقائيته أم كـان يدرك أن مـثل هذه الجدية تشـجـعها على أن تمضى فى أسـئلتـهـا إلى الحـدود القـصـوى بلا خوف أو حرج!.

ولكنه لم يتصور يوما أن تفاجئه بهذا السؤال: إنه لا يتذكر السياق الذى جـاء فـيـه هذا السـؤال، ولكن السـؤال نفسـه هو الذى بقى فى ذاكرته:

- هـل تعـتـقـد أن الخيانة الزوجية لا تكون إلا فى الفراش؟.

وأمـام مـا كـان يظنه آخر مفاجآت سلمى عواد وجـد نفسـه يجـيب على سؤالها وكأنه يمنح نفسه فـرصـة أمـام الـهـجـوم المباغت.

- لا أظنك تـفكرين فى السـؤال كـمـوضـوع لتحقيقات المجلة لا .. فى الحـقيـقة أريد أن أعرف رأيك أنت!.

قال بالجدية نفسـها التى اعـــتـــادها مع أسئلتها:

-الخـيـانة هـى شىء ضد الأمانة والصدق، فى كل العـــلاقـــات وفى كل المواقف لا تخـــتـــص بالعـــلاقـــة بين الرجل والمرأة، ولا ترتبط بزمـان أو مكان!

أكـــان يجـيـب عن سـؤالها؟ أم كـان يهـرب منه ومنها؟ أم كان يمعن

مفاجآت سلمى عواد

فى إزالة الحـواجـز بينه وبينهـا من خـلال هـذا الإمعـان فى لعبة الجدية والصدق والمصارحة؟ أم أنه أصبح دون أن يشعر ضحية التزامه بقواعد اللعبة نفسها لعبة الجدية والصدق والمصارحة التى أصبحت تبعده عنها بعد أن كانت تدنيه منها، وأى نوع من الجنون هـو الذى جعله يعتقد أنه لابد وأن يكون قـد أصـبح قـاب قـــوســـين أو أدنـى من السؤال الكبير الذى لابد وأن تكون مفاجأة سلمى عواد الأخيـرة إذ سوف تأتى يوما لتقول له:

- أسـتـــاذ رءوف يا من تبدو وكأنك تعرف كل الإجـــــابات علـى كل الأسئلة، هل تعـرف أننى أحــــــبك؟ وهـل تملك الشـجـاعة لكى تقول لى أنك تحبنى؟!

***

مفاجأة سلمى

عواد الرابعة

فى هذا الصباح لم يكن وجه سلمى عواد الطفولى يحمل أية أسئلة! الحزن المكتوم الذى كانت تحاول عبثا أن تخفيه هو الذى دفعه لأن يبادر بسؤالها، وقد نسى ما طلبها من أجله.

- سلمى ماذا بك؟

لاشىء.

- غير صحيح أنه لا شىء، لكن إذا كنت لاتريدين الكلام فأنا لا أملك إجبارك عليه!.

- أنت تعرف أننى لا أخفى عنك شيئا، لكن ربما كان الأمر لا يستحق فهى مسألة شخصية، وقد تتهمنى بالطفولة.

- بالنسبة لك الطفولة ليست تهمة!.

- كنت أعرف أنك ستقول ذلك!

- قبل أن أعرف شيئا عن أسباب حزنك!.

- ستقوله بعد أن تعرف!.

- تكلمى إذن.

- الأمر يتصل بطارق زوجى.

- خير ماذا حدث؟

- جاءت لهم منذ فترة زميلة جديدة فى العمل، جاءت وحدها لأن تخصصها هو المطلوب، وتعمل على استقدام زوجها للبحث له على فرصة عمل، أنت تعرف المشكلات التى يمكن أن تواجه مثل هذه الزميلة، وكان من الطبيعى أن يساعد زوجى فى حل هذه المشكلات ودعوناها أكثر من مرة للبيت، ولكننى بدأت أشعر أن اهتمام زوجى بها وبمشكلاتها يزيد عن الحد، وأن حديثه عنها لا يكاد ينقطع!

- ما دام هو الذى حدثك عن هذا كله، فلا معنى لمخاوفك، لو كانت تعنى له شيئا شخصيا أو خاصا لما تحدث عنها أمامك بهذه الطريقة.

- الأمر تجاوز حدود الاهتمام الطبيعى فى هذه الأمور، أكاد أشعر أنه يصبح أكثر سعادة وهو يتحدث عنها، ويبالغ فى أناقته وهو ذاهب إلى العمل!.

لأول مرة يجد نفسه غير راغب فى التمادى فى الحوار، ويشعر أن هذا الحوار يمكن أن يقوده إلى متاهة قد تكشف من ذات نفسه، وذات نفسها ما لا يحب أن تراه أو أن يراه».

قال لها لأول مرة فى لهجة بين الجد والسخرية، وقد بدأ يتأمل ويتذكر أشياء كثيرة كأنما فى ضوء جديد!

- لماذا لا تعملين تحقيقاً للمجلة حول موضوع «الغيرة الزوجية».

- كنت أعرف انك سوف تسخر منى!

قالتها هذه المرة بنبرة حزن حقيقى:

- وهل كنت أسخر منك قبل ذلك؟.

خيم عليهما معا صمت ثقيل، وكأنما دخلا

دون أن يشعرا فى متاهة لا يعرفان طريق الخروج منهــا، الشىء الواضح الحـقـيـقى فى قلب هذه المتــاهة هو ذلك الحـزن الصـادق الذى تشف عنه مـلامح «سلمى عـواد»، الشىء الذى كـان فـوق الشك فى كل مــواقف «سلمى عــواد» هذه هو أنهــا لا تعـرف كـيـف تكذب؟! وإذا كـانت تغـار حقا على زوجها إلى هذا الحـد فكيف خـدعـتـه مشاعره إلى الحد الذى جـعله ينتظر أن يكون سؤالها القادم إليه، إلى الرجل الذى يبدو وكأنه يعرف الإجابات على كل الأسئلة عن مـدى حـبـه لها؟.

قـــالت له وهى تـهم بالخـروج، وقـد نسيت أن تســـــأله عن ســـــبب استدعائه لها:

ـ آسـفة لأننى أخـذت الكثـيـر من وقـــتك فى مشاكلى السخيفة!.

قـــال وقـد نسى كل شىء عـدا رغـبـتـه فى الخروج من المأزق.

- أثق فى رجـــاحـة عـقلك، لا تتسـرعى فى الحكم على الظواهر ولا تندفعى وراء مشاعر قد تكون مـضللة! شـعـر بارتيـاح مـضـن حـين غـادرت حـجـرته، وبدأ يتذكر كلماته الأخيرة لها، وكأنه كان يقولها لنفسه، حــتى هذه اللحظة لا يتــذكـر أنه تورط فى الإفصاح عن مشاعره حيال سلمى عواد، ولكنه لا يجهل قدرة المرأة على الشعور بمن يحبها فى تكتم، وهاهو يدرك فى الوقت المناسب وهو واقف على الحافة أنه كان فى طريقه ليقدم الدليل على صـدق الإشـاعـة التى أطلقها المهندس ممدوح، وأن يجـعل من نفســه الأضحوكة التى حاولت مساعدته فوزية أن تنقذه منها، وكيف صدق هو أو صـدقت سلمى عـواد أنه الرجل الذى يبـدو وكـأنه يعرف الإجابات على كل الأسئلة!.

مفاجآت سلمى عواد

هل هى حقـا سلمى عواد البريئة الساذجة هى التى قـدمت له فى الوقت المنـاسب طـوق النجاة؟.

وهل ســيكون هذا اللقـاء بينهـمـا فى هذا الصباح هو بداية النهاية لاسئلتها الجميلة التى كـان يظن أنهـمـا سـوف يطوفـان بهـا فى أرجـاء الكون والحـيـاة؟ وللعبة إزالة الحواجز بين رجل وامرأة أو للصداقة التى يمكن أن تقوم بينهما لو عـرف كل واحد منهـمـا هذه الحـدود بوضــوح وعرف كيف يلتزم بها؟.

واعتصره ألم صامت مضن وهو يشعـر بأن المسـافـة بين الكلمات الكبيرة ومدلولاتها تتسع، والحقيقة بينهما تضيع، والمبـادرة تفلت من يده ومن يدها، وهل سيشعر أحـد فى المؤســسـة أن

تغيّراً ما قد طرأ على علاقتهما؟ وهل كان ما يحدث بينهما من لعبة السؤال والجواب مما يمكن أن يلاحظ أحد بالأمس وجوده حتى يلاحظ فى الغد اختفاءه أم أنها الأشباح هى التى تظهر فى وضح النهار للخائفين!.

«حدود العقل حدود الخوف»

سلمى عواد هى التى عادت إليه ذات صباح بوجهها الطفولى المشرق لتقول له:

- بدونك لا أدرى ماذا كنت أفعل؟.

- خير إن شاء الله.

- صارحت زوجى بكل وساوسى، فلم يخرج ما قاله لى عما قلته أنت لى!.

- ألم تقولى له أنك شكوته لى؟.

- هذه المرة لم أقل له شيئا!.

- لماذا؟.

- لا أدرى، ربما خجلت من نفسى!.

كان ثمة خجل حقيقى يغطى وجهها وهى تتكلم، كاد أن يقول لها:

- وهل انتهت بالفعل كل وساوسك وأوهامك؟

ولكنه لم يقدر على توجيه السؤال، كأنه كان يخشى أن تظن للحظة أنه لا يصدقها!

هى التى فاجأته بسؤالها:

- أستاذ رءوف هل تعتقد أن الرجل يمكن أن يحب امرأتين فى وقت واحد؟.

فوجىء بنفسه يقول لها:

- وهل تظنين أنت أن المرأة يمكن تحب رجلين فى الوقت نفسه؟.

خيم عليهما معا صمت ثقيل كأنه الإجابة الوحيدة الممكنة على سؤاليهما، أدرك من خلال هذا الصمت، أنه كان لأول مرة يهرب من أمامها تحت وقع السؤال المفاجىء، وأنها سلمى عواد كائن لا يمكن لأحد أن يتنبأ بمواقفه أو بما يدورفى عقله، هى التى كسرت ذلك الصمت وهى تقول له وهى تهم بالخروج من مكتبه:

- أرجو أن تغفر لى أننى أتمادى فى أسئلتى،ولكن هل تعرف كم هو جميل أن يجد الانسان إنسانا يشعر أنه يمكن أن يقول له كل ما يدور فى عقله دون حرج أو خوف، وبغض النظر عما يمكن أن يظفر به من جواب؟!!.

قال لها وهو يتأمل فى عينيها تلك النظرة التى تنبض بالصدق:

- ما أشعر به من صدقك، هو الذى يضمن لك وجود هذا الإنسان دائما!؟.

ربما فى هذا اللقاء، شعر على نحو غامض، بأنها سلمى عواد هى التى تحدد إطار علاقته بها، وأنه لا أحد غيرها يمكن أن يكسر هذا الإطار؟ لكن هل كان يمكن حقا أن يحلم بشىء أكثر؟.

سلمى عواد هى التى ترجوه أن يسمح لها بأن تقدم له روحا عارية، فهل كان فى جزء من عقله يحلم بأن تقدم له جسدا عاريا؟ وكيف يعرف إنسانا ماذا يدور حقا فى خفايا عقله؟

ما أقصر المسافة التى كانت تبعده عن الجسد العارى لو كان هو حقا ما يحلم به، يقول كلمة فيفقده أو يناله إلى الأبد، وما أطول الزمن والمسافة اللذان يحتاج إليهما ليبدأ الرحلة لاكتشاف حدود روح عارية، تتسع حدودها كلما ضاقت حدود الخوف!.

وهل كان الحب الذى يحلم به فى كل حياته يعده فى النهاية بشىء أعظم مما تعد به سلمى عواد؟ وهل تصبح أسئلة سلمى عواد لاتحتمل سوى معنى واحد هو المعنى الذى تسأل عنه لا غير! أم تبقى سلمى عواد مثل بعض الصادقين الذين قال عنهم: إنهم لايعرفون المعنى الخفى لصدقهم!.

لعله لم يجد معنى قاطعا لإجابة مثل هذه الأسئلة! ولكنه عرف شيئا واحدا، منذ ذلك اللقاء فى هذا الصباح واستراح له، عرف أنه أسلم عصمته لسلمى عواد ذلك الطائر الذى لايقر له قرار، تركها تفعل به ما تريد تسأله بحرية يجيب على أسئلتها حينا بالصدق الذى يملكه، وأحيانا بالحيرة التى يحسها، ودائما يطلب منها ومن نفسه أن يهيما على وجهيهما فى كل الأرجاء بحثا عن إجابة للأسئلة التى لايعرفان لها جوابا!.

وأصبحت هذه الأسئلة التى تبدأ منها أو به تدور فى أرجاء الزمان والمكان، فى شوارع المدينة، وفى مدن العالم، تنبع من بطون الكتب، أو من عناوين الصحف أو

مفاجآت سلمى عواد

من أخبار الإذاعات المسموعة والمرئية، أو من لحظات الصمت العميق والحزن الخفى الغامض أو الفرح المجنون، ولكنها فى كل الأحوال كانت تضمن له أروع الأشياء جميعا، هو أن سلمى عواد قد ارتبطت به على نحو لاينفصم، وهى تسأل، وهى تغضب وهى تفرح وهى تبكى، تتسع المسافات بينهما أو تقترب ولكن سلمى عواد هى هى قريبة أو بعيدة قد أصبحت جزءا من نظام كونه، من نسيج حياته فجأة اختل نظام الكون فى المدينة التى جمعت بينهما حدث شىء لم يكن أحد يتوقعه، لعله كان زلزالاً كبيراً، لعلها كانت حربا كونية أو حربا شارك فيها كل العالم، كان لابد أن يكون حدثا كونياً كبيراً بحجم قوة

الجاذبية التى تربط كل منهما بالآخر لكى يبعد كلاهما عن الآخر.

عاد إلى بلده، عادت إلى بلدها، كانت ظروف العودة بالغة القسوة لم تسمح لأى منهما بوداع لائق، بكلمات صغيرة أو كبيرة تصف ما كان تتحدث عما سيكون!.

بقدر ما شعر بأنهما عاجزان أمام الحدث البشع الكبير ازداد تشبثهما بما كانت بينهما من سؤال وجواب، فى شكل رسائل يحملها البريد أو مكالمات تحملها موجات الأثير، ظل الحدث البشع الكبير لفترة طويلة هو محل السؤال والجواب، زارته مرات فى بلده مع زوجها وأولادها لم يتمكن من رد الزيارة، كما يقول لها ممازحا: ألا ترين أننى أصبحت رجلا عجوزا؟.

كانت تقول له ممازحة:

- لم أشعر يوما بأنك رجل عجوز!

لم يكن ما يخيفه هو بعد الشقة، بل مرور الزمن، فهو يحمل كلا منهما فى اتجاه مختلف، ولكن سلمى عواد كانت لاتزال قادرة على أن تجعله دائما فى انتظار ما لا يتوقع !!.

***

التليفون يدق، ولكن كل مرة يتكلم أشخاص يبدون له، وكأنهم يتكلمون من خارج الزمان والمكان، فزمانه ومكانه فى انتظار صوت سلمى عواد الذى يعرفه ويألفه!.

فى هذه المرة جاءه صوتها وكأنها تتكلم بجواره:

- أستاذ رءوف.. كيف حالك؟.

- سلمى.. من أين تتكلمين؟.

- من ليماسول .. بجواركم هل تصدق؟.

- مشكلتى معك ... أننى كنت دائما أصدق!

يسمع الضحكة الرقيقة المكتومة التى تجيىء من أعماق الحلق ثم يواصل:

- ماذا تفعلين فى ليماسول؟.

- جئت ضمن وفد من بلدنا يشارك فى مؤتمر علمى فى ليماسول!.

- إذن لابد أن تمرى على القاهرة فى طريق عودتك!.

- بكل أسف لا أستطيع فأنا وحدى ومرتبطة بوفد فى الذهاب والعودة!.

- هذا مؤسف .. كنت أظن أن هناك فرصة لرؤيتك!.

عادت الضحكة المكتومة:

- ستكون هناك فرصة لو جئت أنت إلى ليماسول ولو ليوم واحد فهل تسمح ظروفك!.

مفاجآت سلمى عواد

- لابد أن تسمح، لابد أن أجعلها تسمح، لكن كيف سيكون وقتك وأنت مترابطة بوفد وبمؤتمر!.

- فى نهاية الأسبوع سيقوم الوفد بجولة سياحية ليومين فى أنحاء الجزيرة، ويمكن أن أعتذر عن المشاركة فيها!.

- سأفعل المستحيل لكى أحضر لكن أين تقيمين؟.

- أنا تكلمت عندما لاحت لى هذه الإمكانية لأعرف شيئا عن ظروفك، لكن لابد أن تنتظر مكالمة أخرى منى حتى أتأكد من أن البرنامج يمضى كما هو دون تغيير لأحدد لك كيف نلتقى؟.

- فى انتظار مكالمتك إذن!.

كان وهى تتكلم يشعر ببوادر زلزال أو حرب كونية أخرى كتلك التى فرقت بينهما، توشك أن تحدث لتعيدهما هذه المرة إلى تلك اللحظات التى كانت تجمعهما قبل الشتات!.

ولكن هل حقا سيعودان فى ليماسول، تلك المدينة التى سيكونان فيها وحدهما لأول مرة، إلى تلك اللحظات التى كانت تجمعهما قبل الشتات، إلى ذلك الإطار القديم الذى حددته هى لعلاقتهما؟!.

انتهت المكالمة، ولكن الزلزال لم ينته، هل كانت تدرك سلمى عواد وهى تتكلم أنها كانت تحطم ذلك الإطار الذى صنعته هى له، الإطار الذى وجد فيه قناعته بسعادة توشك أن تكون أبدية؟ أم أنها لم تفكر فى شىء سوى مجرد الرغبة فى أن تلقاه؟ ومن ذا الذى يعرف ما يمكن أن تفكر به سلمى عواد؟.

لم يبق أمامه سوى أن ينتظر، التليفون يدق ويتكلم هؤلاء الأشخاص الذين يأتون من خارج الزمان والمكان!!.

ويمضى يوم ويومان وثلاثة، وسلمى عواد لاتتكلم.! لابد أن شيئا ما قد حدث، شيئا منعها حتى عن الاعتذار، هل ستكون هذه حقا هى مفاجأة سلمى عواد الأخيرة! أم أن عليه أن ينتظر واثقا من أن مفاجآت سلمى عواد لا تنتهى!.

وفى لحظات انتظاره تلك كان يدرك لأول مرة قسوة أن يكون الإنسان خارج أى إطار، وللإفلات من هذه القسوة كان يتصور أحيانا أن هذا الاتصال التليفونى الأخير كان بعض أوهامه، وكانت تمضى به الرغبة فى معاقبة سلمى عواد فيتصور أنها كلها كانت بعض هذه الأوهام!

●

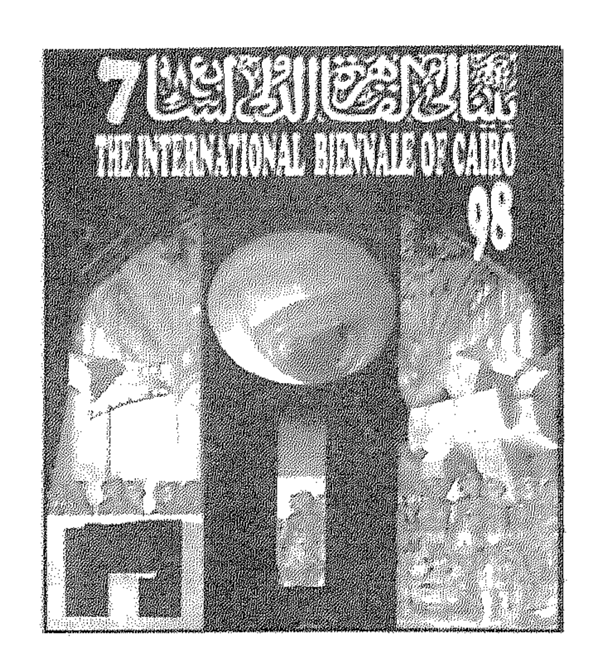
بينالى القاهرة

الرسالة وحصاد التحولات

بقلم : عز الدين نجيب

فى عام ١٩٨٤ شهدت قاعة النيل «القديمة» المقابلة لمبنى دار الأوبرا افتتاح أول دورة لبينالى القاهرة للفنون التشكيلية، الذى ظل يقام دوريا كل عامين، حتى جاءت دورته السابعة فى شهر ديسمبر الماضى، بعد أن نما وتضخم حتى أصبح احتفالية رسمية كبرى على أجندة المهرجانات التى ترصد لها وزارة الثقافة اعتمادات مالية مفتوحة، وتصنع بها دويا هائلا فى فضاءى الحركتين الثقافية والاعلامية، ولا يتبقى بعد انفضاضها إلا أصداء واهنة فى ذلك الفضاء العريض!.

لكن ثمة تحولات فى المشهد العام للبينالى بين دورتيه الأولى والأخيرة، بعضها شكلى والآخر جوهرى، فمن حيث الشكل كانت الجوائز بسيطة القيمة ومحدودة العدد ومقسمة على الفروع الثلاثة الرئيسية للفن التشكيلى، وهى التصوير والنحت والجرافيك، أما الآن فقد قاربت العشرين جائزة أو تجاوزتها، وألغى التقسيم النوعى للجوائز لتصبح مفتوحة على كافة الفروع بغير تخصيص، بعد أن أضيفت فروع أخرى مثل الرسم والخزف وأفلام الفيديو وأعمال التجهيزات



عمل فنى للفنان
الكويتى محمد عقيل

المركبة فى الفراغ، التى أصبحت البطل المحورى فى المعارض الأخيرة ، وتضاعفت القيمة المالية للجوائز عدة مرات وساهمت فى تمويلها جهات أجنبية، منها هيئة اليونسكو، ومنظمة الآيكا وغيرهما، أما مكان العرض فقد امتد الى مواقع اضافية مثل مجمع الفنون بالزمالك ومتحف الفن الحديث بساحة الأوبرا، حيث يخلى من أعمال الفنانين المصريين الذين خصص المبنى لهم، لتحل محلها أعمال البينالى لمدة ثلاثة أشهر متصلة، وتتوقف بسبب ذلك معارض الفنانين المصريين فى شتى المواقع التابعة لوزارة الثقافة بالقاهرة.

أما عن الجوهر والرسالة، فقد تحول البينالى - بدءا من دورته الثانية - من كونه معرضا عربيا خالصا، الى معرض دولى بغير هوية تميزه عن نظائره فى أى مكان من العالم، بالرغم من أن الهدف من انشائه أساسا أن يكون محكا للتفاعل بين فنون الدول العربية، وتأكيداً للخصوصية القومية فى الفن والثقافة، على أن يستضيف فى كل دورة بعض الدول من إحدى القارات، ليتم التواصل والحوار بين الفنون العربية وبين إبداعات الدول فى شتى أنحاء العالم. ومن ناحية التوجهات الجمالية، فقد صارت الغلبة للأعمال «الحداثية» والمبالغات الشكلية، تلك التى تقترب حثيثا من أنماط الفن الغربى ذات الطابع التجريبى والإثارة التقنية والتلاعب بالخامات غير المألوفة، خاصة فى مجال «التجهيزات المركبة فى الفراغ Installa-tion، وفرضت هذه التوجهات نفسها على آلية منح الجوائز، فأصبحت المعايير الأساسية للاختيار هى الاثارة الشكلية بضخامة الحجم وغرابة الخامة ومسايرة الاتجاهات «الأوروأمريكية» فيما بعد الحداثة، وتراجعت فى المقابل معايير الأصالة والخصوصية القومية، بل تراجعت القيم المضمونية للعمل الفنى وامكانات تعبيره عن قضية أو معنى انسانى، ونجح هذا التوجه العام فى استدراج كثير من الفنانين المصريين والعرب الى محاكاة هذه الاساليب، وكانت أخطر مظاهره فى أعمال صالون الشباب السنوى بالقاهرة، الذى أصبح معملا لطبع صور طبق الأصل من الأعمال الفائزة فى معارض البينالى، وما يدور فى فلكها من أساليب.

ومما ساعد على تفشى هذه الظاهرة بالنسبة للفنانين المصريين عاملان أساسيان الأول هو أن الاشتراك فى البينالى يتم بترشيح من لجنة الفنون التشكيلية بالمجلس الأعلى للثقافة، التى تحكم توجهاتها - تاريخيا - قيادات مولعة بفكرة العالمية، ولا تكن احتراما يذكر لقضية القومية فى الفن، ومن ثم فإن ترشيحاتها للفنانين المشاركين كانت تتركز غالبا على من تراه أهلا للتعبير عن هذا المفهوم، أما العامل الثانى فهو الإغراء المادى الرهيب للجوائز، حيث بلغت قيمة الجائزة الكبرى ٤٠ ألف جنيه، وتتلوها سبع جوائز تبلغ قيمة كل منها ٢٠ ألف جنيه، ثم سبع جوائز أخرى قيمة كل منها ١٠ آلاف ثم ٧ آلاف.. فأصبح

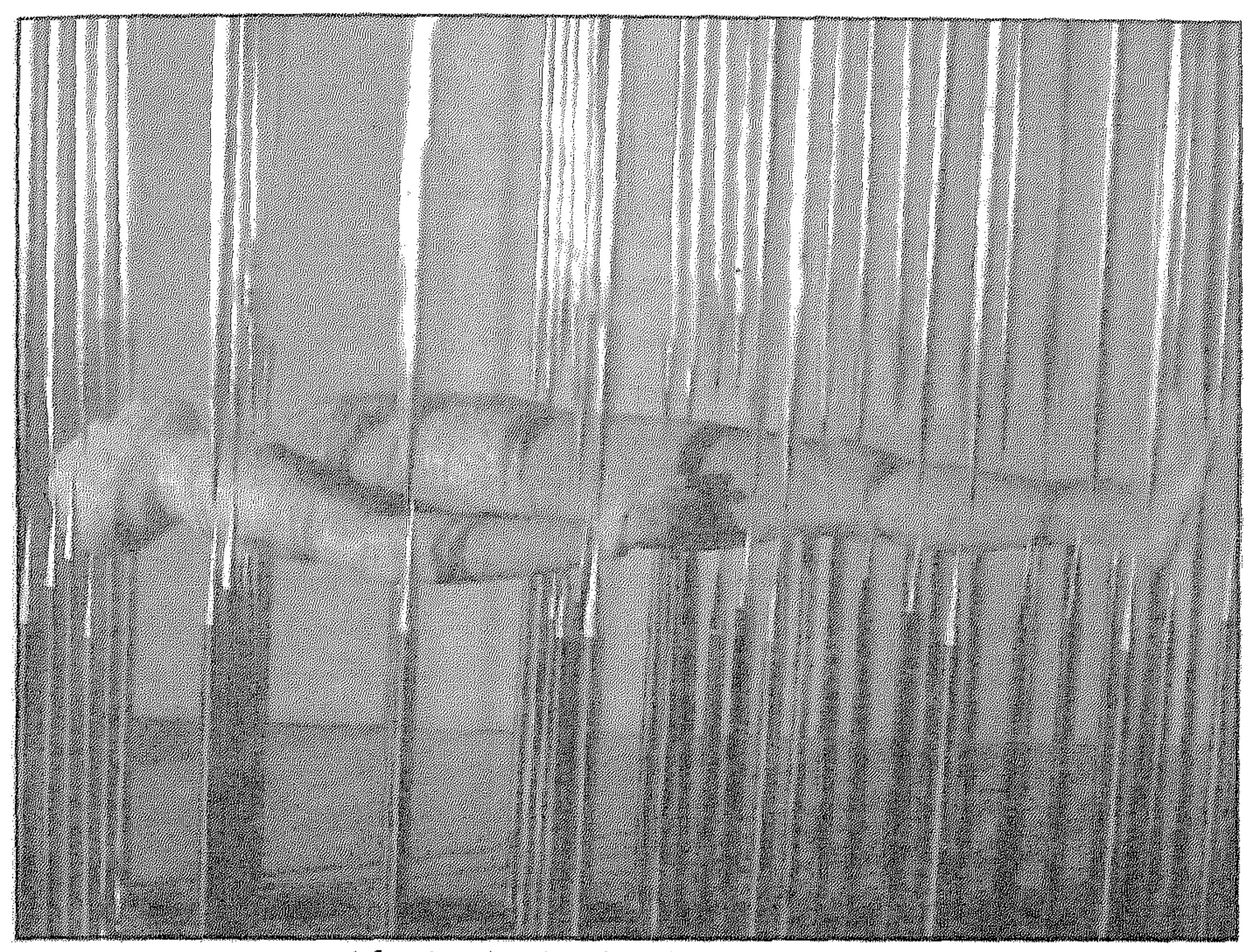
من الطبيعي - نتيجة لذلك - أن يصمم المرشحون أعمالا خاصة تناسب البينالي، حتى ولو تم تفكيكها أو إعدامها بعد انتهائه. لأنها لا تصلح للعرض في أي مكان آخر!.

ومن التحولات الأخرى في مشهد البينالي، اقامة ندوة دولية على هامشه تستغرق عدة أيام، يجتمع فيها نقاد وفنانون من شتى الدول لمناقشة قضية معينة، وهو أمر محمود في حد ذاته بالطبع، لأنه كفيل بالمساهمة في ملء الفراغ الفكري والنقدي الذي تعاني منه الحركة الفنية في مصر، غير أن هذه الندوات كرست - مع الوقت - لتعميق الاتجاهات التي يتبناها القائمون على البينالي وأصحاب سياسته الرسمية اللاهثة خلف قوافل الثقافة الغربية، حتى أصبحت عناوين تلك الندوات أشبه بالألغاز، ومثارا للتندر بين المشتغلين بالحركة الفنية والنقدية، فضلا عن جمهورها، لغرابة وغموض ما تطرحه من موضوعات ومصطلحات، بعيدة عما يطرحه الواقع الثقافي في مصر والعالم العربي من اشكاليات وتحديات، وتكون النتيجة عادة : اقتصار الحضور في هذه الندوات على قلة نادرة من الفنانين والمهتمين، وخروجهم بعد كل ندوة أكثر تشتتا واضطرابا في الفكر.

ظاهرة حضارية

هل يعني ذلك كله أننا نحكم بالفشل على تجربة البينالي وخوائها وعدم جدواها؟ لا، بل إننا نؤكد أن التجربة في أصولها الحقيقية ، ظاهرة حضارية مهمة، ومحك ابداعي جدير بالاستمرار، خاصة على أرض مصر، التي كانت على مدار التاريخ جسرا بين الحضارات والثقافات، ومرآة تعكس حركة التواصل العالمي أسرع من مرايا الآخرين، لكن ثمة فرقاً بين الحفاوة بالتجربة على هذا النحو، وبين التسليم بها على علاتها، في مسارها الراهن نحو طمس هوية البلد المضيف والقفز فوق تراثه وثقافته، وصولا الى نمط من العولمة الثقافية الخادمة لتوجهات قطب سياسي واحد لن تفيدنا في شيء، بل تعمل على إحداث خلل في بنية الأجيال الجديدة المضللة بمزاعم الفن العالمي، وعلى أن تسحب من تحت أقدام شعوبنا أغلى ما تملكه طوال تاريخها وحاضرها: وهو خصوصيتها الحضارية وقيمها الانسانية والروحية، التي تمثل قوام طاقتها على الصمود أمام رياح الغزو الاستعمارية بكل أشكالها.

من هنا فسوف يظل كل مخلص لهذا البلد وثقافته حريصا على الدعوة في اتجاهين متوازيين : الأول هو الترحيب بظاهرة المهرجانات الثقافية الدولية - ومنها البينالي - ودعمها بشتى الوسائل، كدليل متجدد على عمق حضارة هذا الشعب واستعداد مثقفيه لمواكبة كل جديد والمشاركة فيه، والثاني هو نقد أي انحراف في مسار هذه المهرجانات، سعيا الى ترشيدها، وتأصيلا لتوجهات ايجابية تدفعها في طريق الهوية والاصالة، الموصول من ناحية بمنابعنا الحضارية



عمل للفنان الاسبانى ليوبولدو فدان

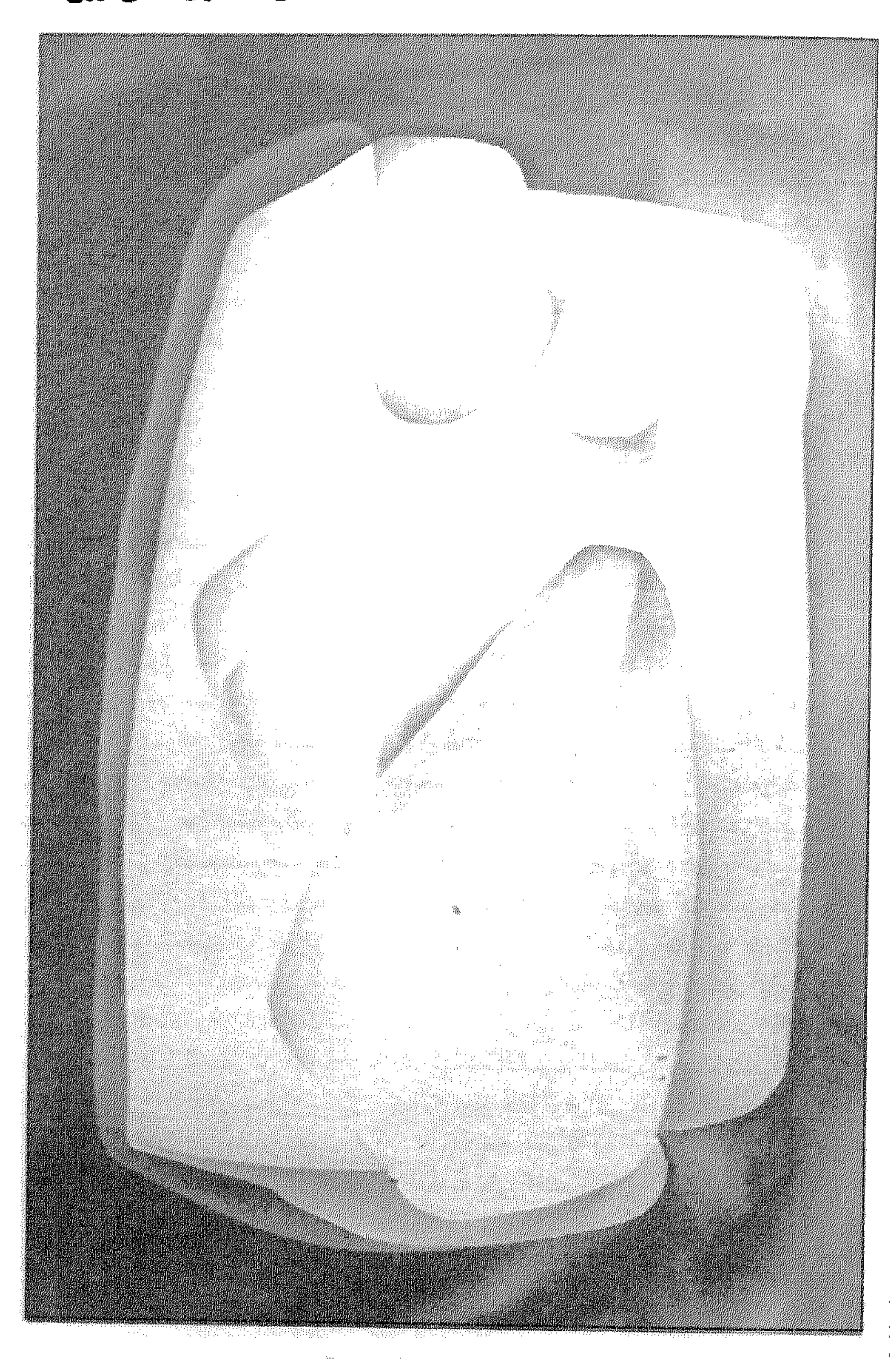
وبعبقرية الزمان والمكان فى بيئتنا، ومن الناحية الأخرى بعالم المستقبل.

تمثيل متوازن.. لأول مرة!

والآن نأتى الى استعراض أهم ملامح الدورة السابعة للبينالى..

إن هذا المعرض يمثل وضعا فريدا بالنسبة لمعارض الدورات السابقة، حيث يعد ختاما لدورات هذا القرن، المكتظ بالتحولات والانقلابات والاضطرابات المذهبية والاسلوبية فى الفن، نتيجة للتحولات والاضطرابات والانقلابات السياسية والعقائدية والاكتشافات العلمية والطفرات التكنولوجية والبيولوجية، ومن ثم فقد أتاح هذا الوضع لمنظمى المعرض أن تمثل فيه مختلف الاتجاهات والمدارس الفنية التى أثبتت وجودها خلال نصف القرن الأخير على الأقل، بغض النظر عن اتفاقهم أو اختلافهم معها، ليكون بمثابة مرآة أو بانوراما عاكسة لحركة الفن العالمى فى هذه الحقبة الزمنية، وهو أمر

للفنان المصرى عدلى رزق الله



يحسب بلا شك لمنظمى هذه الدورة، مع الوضع فى الاعتبار أنهم لا يملكون التحكم فى اختيارات أعمال الدول الأجنبية المشاركة، وهذا ما صبغ الغالبية العظمى من المعروضات بالطبع «ما بعد الحداثة» فى دول الشمال وبعض دول الوسط والجنوب الدائرة فى فلكها، وجعل طابع الخصوصية من نصيب بعض فنانى مصر والدول العربية، وتلك أول مرة تبرز فيها هذه الظاهرة منذ الدورة الأولى للبينالى.

والمفاجأة السارة هى أن هذا التمثيل المتوازن فى المعرض للاتجاهات المختلفة، أتاح الفرصة لهيئة التحكيم الدولية، للنظر الى الأعمال المعروضة نظرة مختلفة عن السنوات السابقة، وانعكس ذلك فى حصول عدد غير قليل من الفنانين المصريين والعرب ذوى اتجاهات وأساليب فنية - لم يكن من المتوقع النظر اليها فى محك دولى بعين الاعتبار - على جوائز قيمة ربما للمرة الأولى منذ انشاء البينالى، مثل حصول الفنان الفلسطينى سليمان منصور على جائزة النيل الكبرى بعمل يمثل صمود الانسان ضد عوامل الإبادة والتآكل، من خلال متتالية لشخص واقف يتكرر فى لوحات متجاورة من النحت البارز، وهى بقدر ما تعبر عن الشعب الفلسطينى تعد رمزا للانسان فى كل زمان ومكان، ومثل حصول الفنان المصرى صلاح عنانى على إحدى الجوائز السبع الأولى بعمل ينتمى الى الواقعية التعبيرية أو السحرية، يمثل أنماطا من أهل الحارة المصرية، وهو عمل مغرق فى طابعه المحلى، بل أقرب الى فن الفطرة الشعبية الساذجة، وحصول الفنان المصرى فتحى عقيفى على إحدى جوائز هيئة التحكيم، عن لوحات مستلهمة من حياة الطبقات الكادحة أو من مناخ الحرب والسلام، بأسلوب واقعى رمزى خشن يذكرنا بتعبيرية فنانى أوربا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية، وحصول الفنان العراقى عباس كاظم على إحدى الجوائز بعمل من التجهيزات المركبة عبارة عن سرير مستشفى متهالك وغير قابل للاستعمال فوق كومة من الرمال، تعبيرا عن وضع الشعب العراقى اليوم تحت الحصار الامريكى والدولى، وحصول الفنان القطرى يوسف أحمد على جائزة أخرى عن لوحات حداثية لكنها تعبير شعرى رمزى عن الحلم بالمستقبل، فوق خلفية رخامية الملمس والتموجات اللونية، وحصول الفنانة المصرية رباب نمر على جائزة فى الرسم بالحبر الشينى تجمع رموزا ووحدات سحرية واسطورية مستقاة من الطبيعة ومن الموروث الشعبى معا، وأخيرا حصول الفنانة الألمانية المصرية الأصل سوزان هيفونا على إحدى الجوائز بعمل يستوحى مصفاة الضوء من ثقوب «دانتللا» الخرط العربى، مستعينة بالتصوير الفوتوغرافى لنوافذ المشربية.

ويلاحظ أيضا أن عدد الأعمال الفنية القائمة على التجهيزات المركبة، والأعمال المغرقة فى الاثارة البصرية بغير المألوف من الخامات، وأعمال الصدمة بشكل عام - تلك التى كانت فى السابق تحظى بنصيب

الاسد ـ لم تفز الا بالقليل النادر من الجوائز ، على الرغم من وجود أنماط استفزازية ومثيرة تصل الى الوحشية، منها عرض الفنانة آنا اكسبى التى تقدم فيلما بالفيديو لامرأة جذابة تتلقى على خديها صفعات عنيفة متلاحقة بمنتهى القسوة من شخص خارج الكادر حتى يحمر خدها من الضربات، بينما يبدو التلذذ فى عينيها الجميلتين. وقد تكون هناك بعض الاستثناءات لمنح جوائز لأعمال تمثل الاثارة والصدمة مثل السويسرى هنريش لوبر، بعرضه المتلاحق لصور فوتوغرافية بالشرائح الملونة عن شخص يقوم بحركات عبيطة ويضع فى فمه أشياء غريبة تحدث تشوهات فى ملامحه بغير هدف مفهوم.

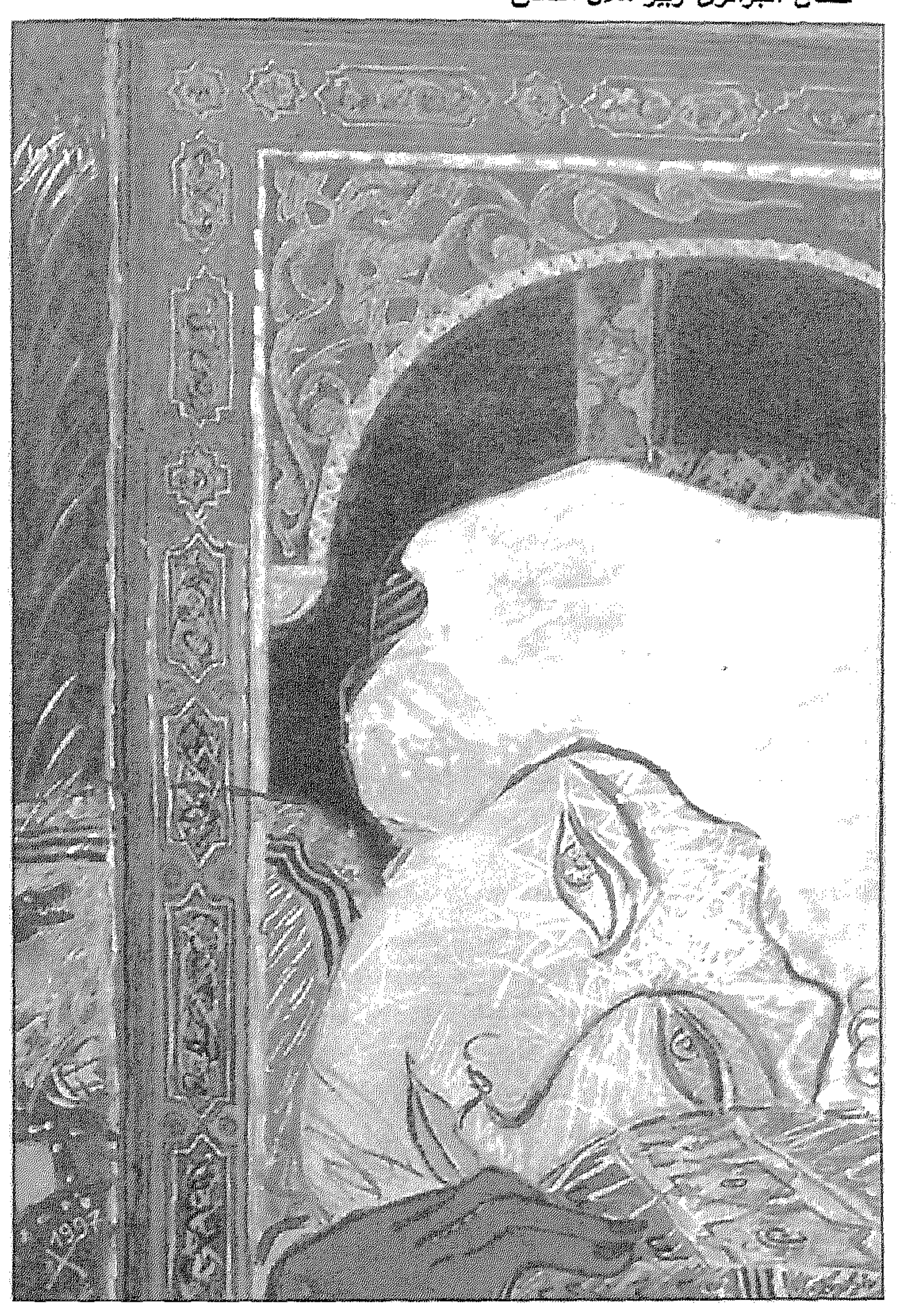
لكنها ـ عموما ـ تظل استثناءات لا تخل بوضوح التوجه الجديد فى منح الجوائز، ولعل ذلك قد أحدث حالة من القلق والارتباك لدى كثير من المراهنين على أصحاب الاتجاهات الحداثية التى اعتادت حصد الجوائز فى المرات السابقة، ووضعها فى موقف الحيرة، وهى فى الحقيقة حيرة عامة تشمل كافة المشتغلين بالفن والمهتمين به على مستوى العالم فى نهاية القرن العشرين، إزاء سؤال ملح لا يجد اجابة عليه: أين نحن الآن.. والى أين نسير؟.

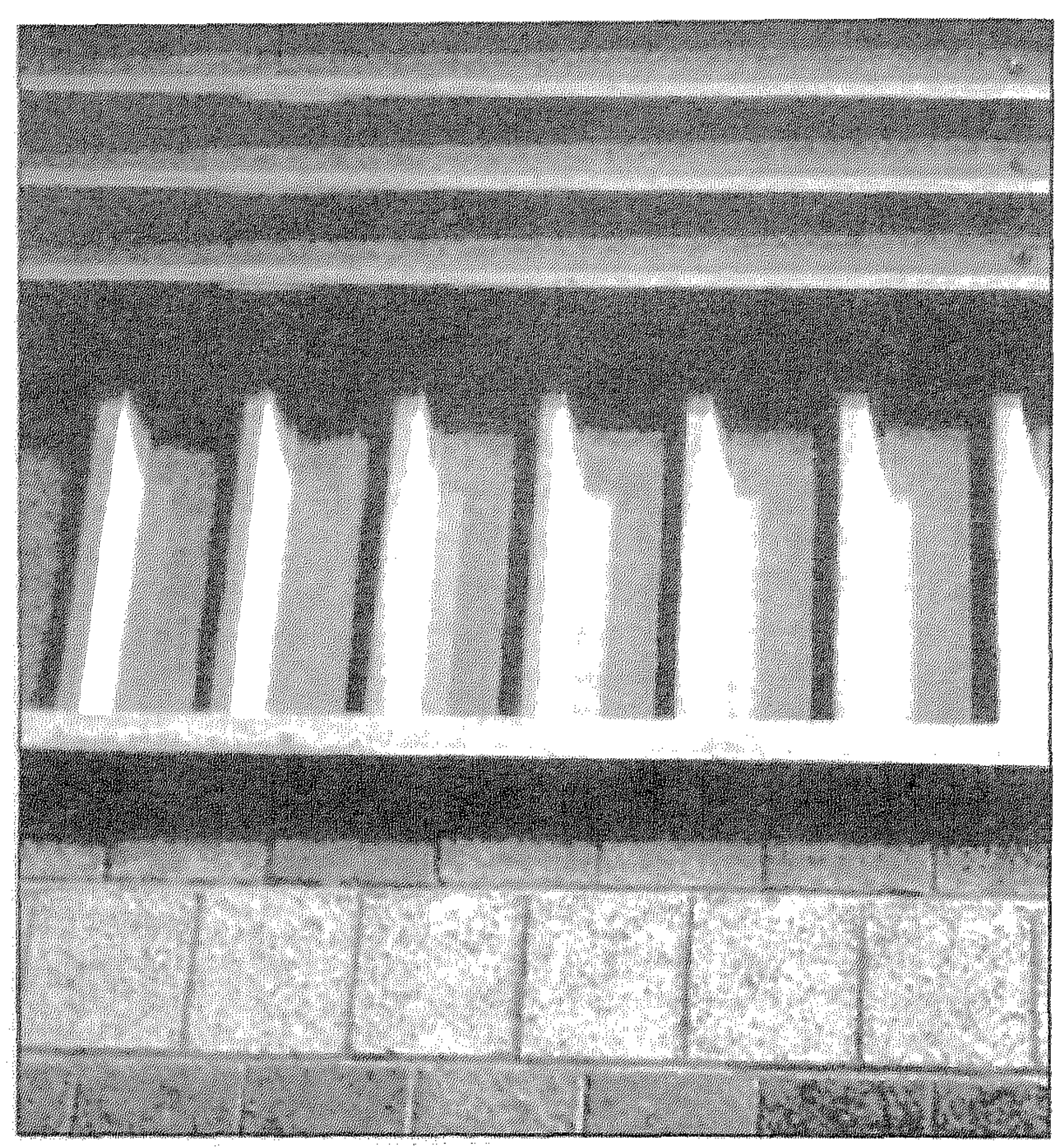
لكن تلك النتيجة التى خرجت علينا بها لجنة التحكيم الدولية المكونة من سبعة فنانين يرأسهم الناقد والمؤرخ الفرنسى جيرارد زوريجيرا، وتضم أعضاء من ايطاليا وسويسرا ونيجيريا والسودان ولا تضم إلا مصريا واحدا، تعطينا مؤشرا مهما على أن كل معايير التقييم السابقة للفن هى اليوم محل لإعادة النظر، وأن معايير الحداثة والتجديد ليست حكرا على الغرب، وأن الواقع يظل قادرا على ضخ قيم الابداع وعلى إزكاء طاقة الخيال فى قريحة الفنان، وأخيرا إن أبناء الشرق يظلون قادرين على امتلاك الحلم واجتياز الحواجز نحو اللامرئى وعالم الروح.

رؤية اسبانية مضيئة

لكن علينا ألا نأخذ الصالح بالطالح فى أعمال التجهيزات المركبة التى تفد إلينا من الخارج، ذلك أن الجناح الاسبانى يقدم لنا نموذجا راقيا لأعمال من هذا النوع، وأعمال أخرى تستخدم معطيات التكنولوجيا ورموز السوق، لكنها تحمل رسالة فكرية أو نقدا مريرا للمجتمع الرأسمالى، منطلقا من رؤية فلسفية ثاقبة عن هذا العصر، الذى استبعد فيه الانسان عن دوره القيادى، وأدرك الفنان خلاله عمق الأزمة الوجودية لهذا الانسان، وصعوبة التعبير الفنى بالوسائط التقليدية كلوحة الحائط والتمثال، فلجأ الى اقتحام كل موقع يمكنه الوصول إليه بأعمال مركبة يغير بها طبيعة المكان ويخلق بها حيزا تشكيليا جديدا بغير حدود وبغير وظيفة نفعية أو تزيينية، وربما يعمد البعض الى اختزال المكان فى زنزانة ضخمة (مثل الفنانين ليوبولدو فران وأوجستينا أوتيرو) اللذين قاما بصب تمثال من الألمونيوم والشمع لشخص مسجى على ظهره ومعلق

للفنان الجزائرى زبير هلال مصدق





عمل للفنانة الالمانية المصرية سوزان هيفونا

فى الفراغ بين مجموعة من القضبان، فيما يتراوح تأثيره على المشاهد بين الايحاء بضريح الشهيد أو مقام ولى الله، ما يثير فى النفس مشاعر مكبوتة يصعب استنطاقها بالكلمات، لكنها تهفو بالروح الى الخلاص من مصير غاشم نحو عالم الحرية، أو ربما يثير الحسرة على حالة الضياع والسقوط للانسان المعاصر فى نهاية هذا القرن!.

وفى معالجة أخرى للفنان الاسبانى لويس باربرا، نجده يجسد بلوحات تجمع بين التصوير الفوتوغرافى وفن الجرافيك

حالة استنساخ الانسان اليوم أو تنميط تفكيره، كما تستنسخ البضائع التجارية ويتم تنميطها بواسطة الاختام والعلامات الممغنطة قبل وضعها فى «السوبر ماركت»، تعبيرا عن هيمنة رأس المال وتعامله مع التجمعات البشرية كسلع استهلاكية ومادة للاستغلال. ويستخدم الفنان رموزا لوسائل الاتصال الحديثة، اذ يرسم بعض ملامحها التكنولوجية عارية فى مؤخرة الدماغ، بينما تظهر فى مقدمة العلامة التجارية الممغنطة، ما ينبئ باحتمال تأثير محاولات الاستنساخ البشرى - بالتحكم فى *الجينات الوراثية* - فى خلق أنماط موحدة شبه آلية من البشر يسلس قيادها!.

وفى معالجة ثالثة للفنانة القبرصية الشابة ماريا كونستا نتينيدو للعمل المركب الذى يمكن أن نطلق عليه عنوان «حفائر انثروبولوجية» نجدها ترتد - بحثا عن الجذور - الى أصل الانسان البدائى، والى الصيغ الأولى للوجود، من خلال مجموعة تماثيل من الشمع والخامات الأخرى تحاكى الفنون البدائية، وهى تتراص مثل أعضاء الأسرة، معلقة على الجدار واسفلها مربع مكون من مجموعة مربعات صغيرة، يضم كل منها ما يوحى بحفرة تخرج منها إحدى العرائس أو البقايا الآدمية، وهى منظومة بشرية ربما قصدت بها الفنانة أن تواجه حالة الاستلاب الروحى فى هذا العصر، باستعادة أرواح الأسلاف!.

الأجنحة العربية.. والفعل المشين!

وقد حفلت مشاركات الدول العربية بنماذج متفرقة تعبر عن هويتها وروحها الابداعية، بتجليات متباينة بين استلهام الموروث أو التعبير عن الحاضر، مثل الفنانين الفلسطينيين سليمان منصور ولطيفة يوسف، والفنانة التونسية فوزية الهيشرى، والفنان المغربى محمد القاسمى، والجزائرى بين بيلا المحجوب، والسورى فائق دحدوح، والسعوديان عبد الرحمن السليمان وبكر شيخون، والعراقيان عباس الكاظم ومحمد غنى حكمت، والقطرى يوسف أحمد، والسودانى حسان على أحمد، والكويتى محمد الشيخ عقيل.. إلخ .

أما مصر فتضم نخبة كبيرة من الفنانين من شتى الأجيال، وإن كان أغلبهم قد شغلوا باثبات انتمائهم إلى النموذج الغربى أكثر من انشغالهم بالبحث عن جذورهم، خاصة فيما يتعلق بالأعمال المركبة التى تشغل مساحات شاسعة بغير طائل، وتنتهى مع نهاية المعرض!.

وأعتقد انه من الضرورى أن يخصص مبنى مستقل لأجنحة الفنانين المصريين والعرب، بدلا من خلط الأوراق، أعنى خلط أجنحة الدول وتشتيت المشاهد بين عدة مبان متباعدة، فسوف يعطى ذلك إمكانية الدراسة والمقارنة وبلورة الروابط المشتركة بين أبناء الوطن العربى.

كما اعتقد أنه آن الأوان للكف عن ذلك الفعل المشين الذى يتكرر كل مرة

يقام فيها البينالي، وهو اخلاء متحف الفن المصرى الحديث من مقتنياته لتحل محلها أعمال المشاركين من الخارج، إن هذا الفعل لا يليق بدولة متحضرة، حيث انه يعنى اعطاء اجازة لمدة ثلاثة أشهر لذاكرة الابداع المصرى على امتداد القرن، وحرمان عشاق هذا الابداع والراغبين فى التعرف عليه من مشاهدته، وقد كانت الحجة التى تساق عادة هى أنه تصرف مؤقت بانتهاء أعمال البناء فى قصر الفنون، وقد تم افتتاح هذا القصر مع الدورة الحالية للبينالي، ومع ذلك استمر الفعل المشين، بما يعنى انه سوف يستمر الى ما لا نهاية، أو حتى يتم بناء جديد!!.

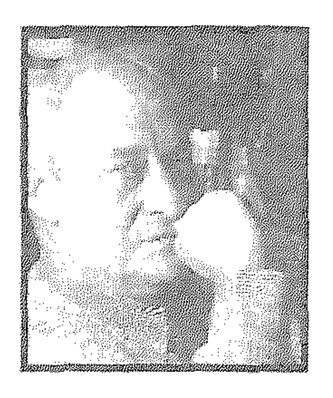
ضيوف الشرف.. وقبح العنصرية

وعلى هامش أجنحة الدول المشاركة، استضاف البينالى السابع أجنحة شرف لعدة فنانين دوليين، الى جانب الفنانة المصرية الكبيرة جاذبية سرى، تكريما لها على عطائها الممتد طوال نصف قرن، لتكون موازية لأجنحة الشرف الأجنبية مثل الايطالى بومودورو، والامريكية نانسى سبيرو واليونانى فاسيلكيس تاكيسى والفسلطينية/ البريطانية منى خاطوم، وأخيرا الامريكى الطاووس جوزيف كوست، صاحب اتجاه «الفن المفاهيمى»، الذى قدم أسوأ مثال للفنان فى البينالى على المستويين الفنى والفكرى.. فبالنسبة للفن، فان الجناح الذى احتله بمجمع الفنون بالزمالك ظل مكانا خاليا نصف مظلم، إلا من سؤال واحد كتب على جميع الجدران باللهجة العامية المصرية يقول : «وده معناه ايه؟».. هكذا بدون أى اضافة أو شكل فني.. وهو سؤال لا يملك المشاهد الا أن يرده بحاله الى صاحبه!.. أما بالنسبة لفكره، فقد كشف عن عنصريته وعدائه للعرب، عندما أثار أكثر من مشارك فى الندوة الدولية موضوع العدوان الأمريكى على بغداد فى نفس توقيت افتتاح البينالي، مما دعا الفنان د. أحمد نوار رئيس المهرجان عامة الى سؤال الضيف الامريكى الذى اشبعنا كلاما عن دور الفن، عن رأيه فى قيام الصواريخ الأمريكية بضرب المتحف الوطنى لبغداد، فرد قائلا بمنتهى الوقاحة والغطرسة أمام جمهور الندوة: هذا سؤال لا يثيرني.. ابحث لك عن سؤال أكثر إثارة!!.. ولم أندهش بعد ذلك عندما علمت من الفنان السودانى الكبير ابراهيم الصلحى، المقيم فى انجلترا، وأحد أعضاء لجنة التحكيم الدولية، أن جوزيف كوست وزوجته يهوديان صهيونيان!!.

لكن موجة الرفض للعدوان الهمجى الامريكى استمرت وتزايدت فى أروقة الندوة وعلى منصتها بين الفنانين والنقاد، وتبلورت فى النهاية فى بيان صدر باسم جميع المشاركين فى البينالى وفى الندوة ، يدين العدوان ويصفه بالصفة الجديرة به كنموذج للارهاب الدولي، وكان ذلك أبلغ رد على الغطرسة الامريكية التى مثلها فى البينالى جوزيف كوست أبلغ تمثيل.

●

بينالى القاهرة الدولى السابع



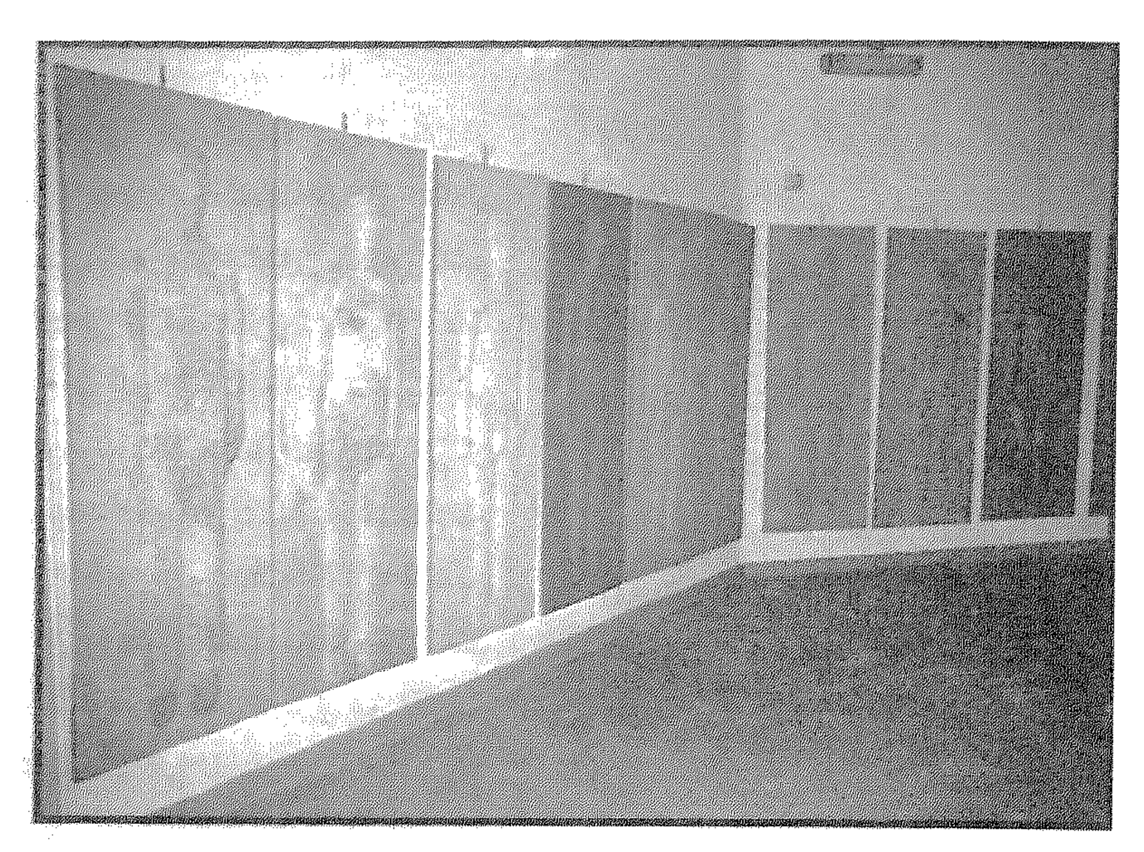
ولقاء مع..

المثال العالمى جيو بومودورو

بقلم: محمود بقشيش

لكل دورة من دورات البينالى فى مصر والخارج حدث محورى او مجموعة من الأحداث تذكر به. وفى الدورة الاخيرة (السابعة) لبينالي القاهرة وقع حدثان مشرقان جعلا منها مناسبة لا تنسى، أولهما هو فوز فلسطين بالجائزة الكبرى لأول مرة فى تاريخ البينالى، فاز بها الفنان الشاب سليمان منصور (٣٢ سنة)، أما الحدث الثانى فهو دعوة المثال الايطالى الفذ بومودورو Pomodoro (Gio) ليكون ضيف شرف. جاء بومودورو مصاحبا لمنحوتاته ورسومه الرائعة وتخلف الفنان الفلسطينى. ولحسن الحظ لم تحل الظروف دون حضور أعماله وفوزها ـ عن استحقاق ـ بأكبر جوائز البينالى.

اعتدنا فى بينالى القاهرة والبينالى الاسبق منه وهو بينالى الاسكندرية منح بعض الجوائز لاسباب سياسية محضة ـ وكنا نقبلها على مضض لأن ظرفا سياسيا طارئا برر المساندة، بينما جاءت جائزة فلسطين هذه المرة وقد اصابت عصفورين بحجر واحد. وإذا كان واجب المساندة لفلسطين ضرورة قومية مستديمة فقد ارتفع مستوى العمل الفنى والفكرة



من أعمال الفنان الإيطالى چيو بو مودورو



المؤسسة له للدرجة التي لم يكن في حاجة معها الى المجاملة بل الى التقدير الفعلي. ضم عمل سليمان منصور عشر لوحات من النحت البارز لشخوص معلقة في الفراغ ، تواجه مشاهديها في وجوم. نجح بخامة البوليستر في ان يعطينا الاحساس بأننا امام اسطح من الطمي الذي جففته حرارة الشمس وشققه الظمأ، تنبعث منها تلك الشخوص المعلقة، لا فرق بين الأرض وشخوصها في الملمس. ولأن الفنان لا يعبر عن ملابسة عابرة بل عن وطن مستلب فقد انصرف عن وصف ابطال بعينهم يستحقون التكريم الى التعبير عن انسان كلي هو الانسان الفلسطيني، وهو صورة مطابقة من أرض ظمأى تنتظر استعادة حيويتها. استطاع سليمان منصور ان يقدم صورة فنية دقيقة عن الواقع الفلسطيني .

جيو بومودورو
رمز النحت

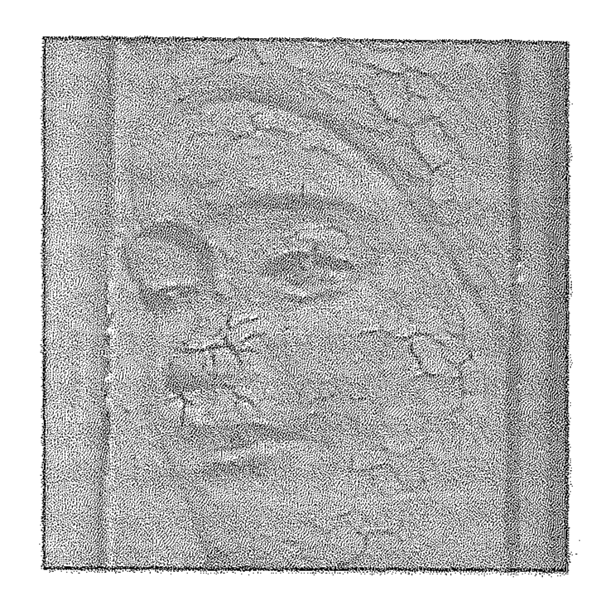
أما الحدث الثاني فهو استضافة احد رموز النحت المعاصر في العالم (بومودورو) الذي جاء القاهرة مصاحبا لخمسة وأربعين طنا من المنحوتات والرسوم الملونة التي توزعت خارج وداخل قصر الفنون.. وهي منحوتات ذات طابع صرحي / بنائي. لها حضور يغوي الحواس بالتأمل واللمس والاعجاب بالتقدم التقني الذي جعل من امر صب الاشكال المنحوتة والفراغات البينية الدقيقة أمراً ممكنا. ان منحوتاته ذات الهيئة المعمارية الراسخة - وقد درس الهندسة التكنولوجية في شبابه - تبدو - على حد تعبير المثال المصري الكبير عبدالهادي الوشاحي - وكأنها تعتقل الفراغ، فهي لا تترك له إلا القليل والدقيق. إن أشكاله المعمارية المنحوتة ورسومه الضخمة صارمة في هندسيتها ونقاء معالمها تدور في فلك الحوار بين شكل الدائرة وشكل المربع.. وهو حوار مفعم بالحركة والتمرد. تتمرد الاشكال المكعبية على اطارها المستدير مثلما تتمرد على المربع (مربع اللوحة في مجال الرسم الملون) وهو يجمع في اقتدار بين رصانة العمارة وحاجتها الى الرسوخ والاستقرار وحاجة ذات الفنان الى التعبير عن قلق عصرنا الذي نعيشه واضطرابه.

صراع المتماثلين!

إن ثمة قواسم مشتركة بين صفات الدائرة وصفات المربع، فكلاهما مغلق - هندسيا - على ذاته، مفتوح - رمزيا - على الاحالة الى الكون والزمن.. لهذا احتفل بومودورو - خاصة فى رسومه الملونة بالالوان المائية بهذين الشكلين واستخدم لها اوراقا يدوية الصنع شبيهة بملمس النشاف، يخط فوقها حدود اشكاله المكعبة والمحرفة - منظوريا - ليحررها من ثباتها وسكونها ويطلقها صوب أطرها المستديرة / المربعة ليدمرها!

لقاء معه

قلت لبومودورو: لقد عبرتُ الى منحوتاتك عبر الجمالية المصرية القديمة فثمة صفات مشتركة بين المنحوتات المصرية القديمة ومنحوتاتك ، أعنى صرحية المعمار ونقاء الكتلة ووضوح معالمها وإن اختلفت منحوتات المصريين عنك فى كونها مستقرة، هادئة. رد بسرعة : لقد تأثرت بالنحت المصرى القديم.. ولم يكن الفن المصرى فنا تشبيهيا، بل هو فن مثالى ذهنى يمجد الموت. قاطعته قائلا: دعنى أختلف معك . وكدت أقول له : إن نظرة بعض المستشرقين لا ترى فى الفن المصرى إلا صفة واحدة هى صفة الجنائزية بينما أرى ان الفن المصرى لا يمجد الموت بل لا يعترف به إلا باعتباره معبراً إلى حيوات متجددة. ويبدو أنه قرأ ما كنت فى سبيلى لإعلانه فقاطعنى بدوره : قبل ان تعترض انتظر ما سأقوله : إن صروح الفن المصرى استلزمت من مبدعيها وعيا وصبراً مميتا حتى يتم الانجاز، وهو عمل روحى فى الاساس، وهذا هو المشترك بيننا ؛ فأنا عاشق لهذا النوع من الموت : الموت فى العمل الدقيق الصعب. وهو فن - أى المصرى - يغرى الفنان بالفناء فيه ويدعو مشاهديه الى بلوغه، صعودا الى لحظة الاشراق، وأنا بدورى ادعو مشاهدى الى هذه الحالة، وهى حالة دينية فى جوهرها، واستطرد بومودورو قائلا : مثلما استفدت من الانجازات المصرية القديمة استفدت من بعض الانجازات المعاصرة. وعندما جئت الى القاهرة أصررت على لقاء الروائى المصرى العالمى نجيب محفوظ لكى اشكره على ما قدمته لى ثلاثيته من فهم عميق لمصر





المعاصرة .

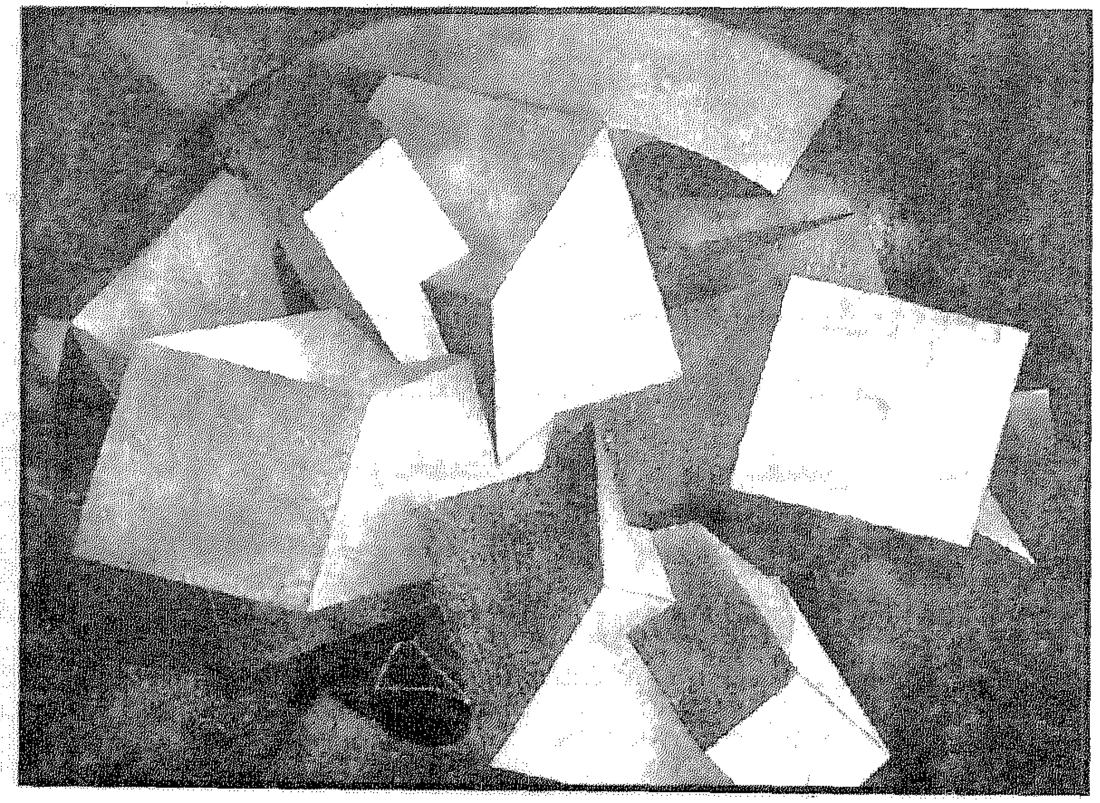
ووجدتها فرصة كى أسأله عن رأيه فى الجناح المصرى بالبينالى فازدادت نبرة صوته جهرة لفتت إلينا الانظار: كيف تتاح فى موروثكم كل تلك الكنوز الفنية ولا تستفيدون بها فى فنونكم المعاصرة وبدلا من ذلك تجرون وراء الغرب تلتقمون من فتاته؟!.. وواصل حديثه فى نبرة هادئة: لقد أعجبت بالفنان الفلسطينى الذى نال الجائزة الكبرى ولم يعجبنى الفنان المغربى. (يقصد الفنان محمد القاسمى) لأننى لا احب للعمل الفنى ان يطرح ارضا. صحيح اننى ارسم وانحت الاعمال الصغيرة على الأرض، لكن عند عرضها يجب أن ترفع عن الأرض، لأن الأرض مصنوعة لكى نسير عليها بالأحذية (كان يشير إلى أرض متحف الفن الحديث حيث جرى الحوار).

الأثرياء والفن

قلت محاولاً توجيه دفة الحديث وجهة جديدة: أعمالك الصرحية التى شاهدنا لها صوراً فى الاماكن العامة.. من الذى يمولها ؟ اجاب : اثرياء المدينة المستنيرون هم الذين يدفعون من اموالهم وأنا أدفع من موهبتى وخبرتى ولا اتقاضى عنها شيئا.

قلت فى دهشة : وكيف تعيش إذن؟!!

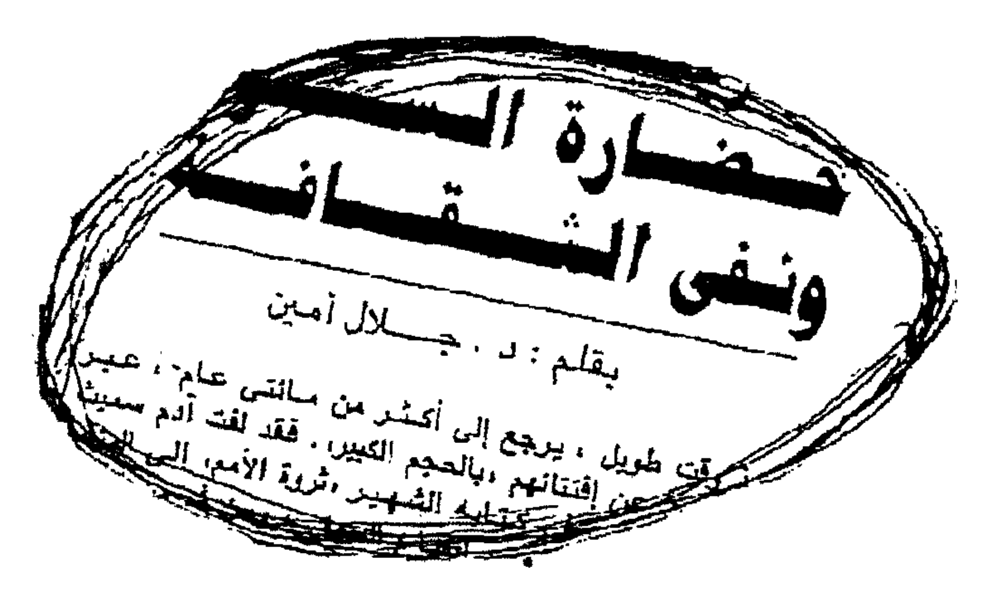
رد ضاحكا: طبعا من فنى فأنا أكلف احيانا بتجميل واجهات مؤسسات كبرى، وهناك من يقتنى منحوتاتى الصغيرة ورسومى وأعمالاً فنية أخرى.



فى نقد ثقافة «المثقفين»

بقلم : د. مجدى يوسف

فى مقاله المنشور بمجلة «الهلال» ، عدد نوفمبر سنة ١٩٩٨ ، تحت عنوان «الثقافة الأمريكية - حضارة السوق ونفى الثقافة» يضع الدكتور جلال أمين العربة أمام الحصان، ثم يلهب ظهر حصانه ليدفع العربة ، فيمضي بها خطوة ، فثانية، ولكنه لايلبث أن يتعثر ويسقط فى الثالثة ! فالدكتور جلال يستهل مقاله باستعراض نظرية آدم سميث في كتابه المعروف «ثروة الأمم» «١٧٧٦» ، الذى «يعبر فيه عن المزايا الاقتصادية التى تعود من اتساع السوق» «...» ومايترتب على ذلك من مزايا تقسيم العمل ، أى زيادة الإنتاجية وتخفيض النفقة».، ويخلص الدكتور جلال في مقدمة مقاله الي أنه «إذا كان (هذا الانتاج الكبير - م.ى) ، مفيدا للاقتصاد فهو ليس بالضرورة مفيدا للثقافة» .



حضارة السـ
ونفى الثقافـ

بقلم : د . جـــلال أمين

منذ وقت طويل ، يرجع إلى أكثر من مائتى عام ، عبر
عن إفتتانهم «بالحجم الكبير» . فقد لفت آدم سميث
كتابه الشهير «ثروة الأمم» إلى

فعنده أن هذا «الإنتاج الكبير يتطلب سوقا واسعة ، أى طلبا واسعا ، ولكن الطلب الواسع إذا تعلق بالثقافة قد يضرها أكثر مما ينفعها»، ذلك أن الثقافة الرفيعة - عند الدكتور جلال - «هى عادة وبطبيعتها (كذا)، لا تطلب إلا من الصفوة (...) وأما الجمهور الواسع فلا يطلب عادة إلا مايستجيب للغرائز.» وينهى الدكتور جلال مقدمة مقاله «بالاستنتاج» التالى، ألا وهو أن: «إنتاج الثقافة للجمهور الواسع لابد أن يضحى بالذوق الرفيع» ، ومن ثم فلابد أن يكون - فى رأيه - « على حساب الكيف من أجل الكم» .

تدنى الثقافة

ثم يطبق الدكتور جلال مسلمته العامة على المجتمع الأمريكى ليجد فيه «صورة من صور ماقصده آدم سميث » من حيث اتساع السوق، ومن ثم تدنى الثقافة الخاضعة لآليات السوق الواسعة لتصبح ثقافة الجنس والعنف . وهو كلام «معقول»، أو يبدو معقولا حتى الآن ، على الرغم من ثغراته المنهجية التى ستتضح لنا بعد قليل .

بعد أن يعرض الدكتور جلال للمجتمع الأمريكى الحديث نموذجا لأطروحته التى تضع الثقافة الرفيعة فى مقابل الجماهيرية التى تعتمد على اتساع السوق، يطبق مقولته هذه للمرة الثانية على المجتمع المصرى قبيل الحرب العالمية الثانية ، وهو «يوفق» فى انتقائه هذا ، لأنه قد اختار فترة معينة من تاريخ مصر حين كان يحكمها ليبراليون يؤمنون بحرية السوق على النمط السائد فى الغرب . وليس من الغريب أن يعقد آنذاك أبا إيبان زواجه فى القاهرة التي كانت مرتعا لسماسرة السوق من «العبرانيين» على الطريقة الرأسمالية الغربية الحديثة الذين «تتلمذ عليهم» بعض المصريين من عملاء السوق «الحرة» ، أباء أولئك الذين يتطلعون اليوم إلى سوق شرق أوسطية لاتطحن فيها ثقافة الجماهير وحدها وإنما عامة المنتجين أنفسهم .

خطأ منهجي

بدا الدكتور جلال «موفقا» في هذا الانتقاء للمرة الثانية ، ولكنه ما أن حاول أن يطبق مقولته (بأن تدنى ثقافة الجماهير مصدره نظام السوق ، وليس الرأسمالية بغض النظر عن نوعية ملكية وسائل الإنتاج الرئيسية في المجتمع الرأسمالي) على الاتحاد السوفييتي السابق حتى اتضح ليس فقط ميكانيكية تطبيقه المتعسف لمقولته ، وإنما بالمثل خطؤها المنهجي من أساسها .

فقد تمثل تعميم الدكتور جلال لمقولته على نحو محض آلي في إرجاعه لضحالة الثقافة وتسطيحها في كل من المجتمع الأمريكي والاتحاد السوفييتي السابق لاعتماد كليهما علي نظام السوق ، ولو أخذ الأول بالاقتصاد الحر ، والثاني بالاقتصاد المخطط على نحو تاريخي خاص . صحيح أن كلا المجتمعين - الأمريكي والسوفييتي السابق - رأسمالي يقوم على توسيع دائرة السوق، ولكن الفارق الجوهري بينهما ليس في تنمية الرأسمالية ، ولا في توسيع دائرة السوق ، وإنما في موقف الإدارة الاجتماعية بإزائهما ، إما بإطلاق آليات السوق على نحو مطلق أو شبه مطلق ، وهو مالا يقوى على مايترتب عليه من أزمات طاحنة لنمط الانتاج الرأسمالي ذاته حتى عتاة الأنظمة الرأسمالية الغربية - وبغض النظر عما ترفعه من شعارات تخالف سياساتها الفعلية - أو ترشيد التنمية الرأسمالية والتخطيط لها ، وذلك بسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج الرئيسية في المجتمع ، وهو مايعرف بالنظم الاشتراكية. أقول «النظم» وليس «النظام الاشتراكي» لأنه يوجد أكثر من طريق واحد للتخطيط في تلك المجتمعات . وغني عن القول أنه سبق أن وجه الكثير من النقد العلمي الدقيق لتجربة التخطيط الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي السابق، أذكر من بينها - على سبيل المثال - كتاب الدكتور محمد دويدار «جامعة الاسكندرية» الصادر عام ١٩٦٤ باللغة الفرنسية تحت عنوان: «نماذج تجدد الانتاج ومنهجية التخطيط الاشتراكي» (في طبعته الأولى عن مطبوعات العالم الثالث بالجزائر، ثم في طبعته الثانية عام ١٩٧٨ عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر أيضا) .

أما علة تسطيح الثقافة الرسمية في الاتحاد السوفييتي السابق فليس مرجعها هو توسيع دائرة السوق واستيحاء رغبات الجماهير الغفيرة فيما كان ينتج من إعلام وثقافة ، كما يقول الدكتور جلال أمين . بل لعل العكس هو الأصح ، بمعنى أن اتساع السوق في ظل التخطيط الاشتراكي قد أدى ليس فقط الى انتشار الروائع العالمية في الثقافة الأدبية والفنية والعلمية بأسعار زهيدة، بل أيضا علي

الإقبال الجماهيرى علي قراءتها والاستمتاع بها . وأذكر فى هذا المجال أن تصادف أن قابلت الدكتور مرسى سعد الدين فى نهاية الخمسينات ، وكان عائدا من توه من زيارة رسمية للاتحاد السوفييتى، فسألته عن انطباعاته عن زيارته . قال لى إنه تعجب من نهم الناس، عامة الناس هناك ، وإقبالهم على الثقافة الرفيعة. فهم ـ على حد قوله ـ يقرأون حتى فى المصاعد ، وسائق التاكسى يحدثك عن مسرح شكسبير فتخالك أمام باحث فى الأدب الإنجليزى . ولا أحد يستطيع أن يقول عن الدكتور مرسى سعد الدين، الذى هو بيننا الآن ، أنه كان يردد دعاية سوفييتية مثلا !

أما علة التسطيح النسبى للثقافة ، وبخاصة للإعلام الرسمي في الاتحاد السوفييتى سابقا ، فمصدره مختلف تماما عن أسباب الغوغائية السلعية فى الخطاب الإعلامى الأمريكى ، وإن بدا أنهما متشابهان ، فهو ـ أى التسطيح ـ مرتبط فى حالة الاتحاد السوفييتى السابق بالترويج المتعسف للموقف الأيديولوچى المهيمن داخل الحزب الحاكم، والذى كان يحاول أن يفرض ويعمم وجهة نظره من خلال سيطرته على وسائل الإنتاج «الثقافية» و«الإعلامية» داخل المجتمع السوفييتى، وذلك حتى لايتيح للخيارات والاجتهادات المغايرة أو الناقدة أن ترى النور . بل إنه بقدر ما كان دوجماطيقيا وقامعا ليس فقط لروح النقد عامة، وإنما بالمثل للمشاركة الجماهيرية الواعية ـ ومن ثم النقدية ـ فى تشكيل الحلول والخيارات المطروحة ، بمقدار ما كان يلقى من إعراض جماهيرى فى أشكال مختلفة سلبا وإيجابا . فما أبعد الشقة بين أسباب سطحية الثقافة الجماهيرية ، وغلاظة نزوعها للجنس والعنف فى المجتمع الأمريكي ، وتسطيح الثقافة والإعلام الرسمى فى الاتحاد السوفييتى السابق . وهو مايفضى بنا الى لب الاشكالية التى لم ينتبه اليها الدكتور جلال أمين ، أو التى أفضت به إلى استنتاجه الخاطىء بأن أس البلاء في تسطيح ثقافات الجماهير الحديثة هو توسيع دائرة السوق ، ومايترتب عليه من فصام بين ثقافة رفيعة للصفوة ، وأخرى غليظة للعامة .

ذلك أن اتساع السوق فى حد ذاتها وما يتطلبه الإنتاج الصناعى الكبير من تقسيم للعمل لايشكلان بالضرورة تناقضا مع ثقافة عامة المنتجين ، إنما هما يصبحان كذلك من خلال ما يترجمه تنظيمهما من موقف سالب بالنسبة لعملية الإنتاج الاجتماعى ، ومن ثم بإزاء عامة القائمين بها ، الذين اصطلح على تلقيبهم «بالعامة» .

فتطوير التكنولوجيا مثلا ـ باعتبارها تطبيقا لمكتشفات العلم الحديث أصبح موجها ـ فى المقام الأول ـ نحو السوق التى تتحكم بدورها فى قرار صاحب المشروع الاقتصادى ، ومن ثم فى عامة المنتجين بعد تحويلهم إلى مستهلكين منفصلين عما ينتجون . وعليه فبراءات اختراع هذه

التكنولوجيا صارت تحمل في طياتها موقفا اجتماعيا منحازاً لتعظيم ربح المشروع الاقتصادى الخاص . ولعله من المعروف أن شروط الانتاج الاقتصادى فى البلدان الغربية «المتقدمة» قد عجزت عن تجاوز هذا التناقض بين المشروع الخاص وعامة المنتجين . ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ فشل التجربة التى قامت بها مصانع «شكودا» فى السويد للتغلب على ظاهرة اغتراب العاملين فيها . هذه الظاهرة التى أصبحت اليوم أكثر تفاقما بكثير مما حاولت أن تتصدى له تجربة السويد، إذ لم يعد تفتيت العملية الإنتاجية مقصورا على المصنع أو حتى البلد الواحد، وإنما صار موزعا علي مختلف أقطار العالم . فجزء من المنتج يصنع في بلد ما، وجزء آخر فى قطر مختلف ، وثالث ورابع ، وخامس فى أمصار متباينة لتجمع كل تلك الأجزاء المشتتة فى دولة سادسة أو سابعة. لايتم ذلك بطبيعة الحال لصالح المنتجين القائمين على تصنيع هذه الأجزاء وإنما لصالح الشركات دولية النشاط، وإن كانت تدعى «متعددة الجنسيات» الأمر الذى يعمق التشظى وإن كان يموه التناقض بين دائرة الإنتاج من جهة ، ودائرة التداول «السوق» من جهة أخرى ، بتعبير أهل الاقتصاد ، وذلك على النقيض من العصور السابقة على الرأسمالية حيث كانت دائرة الإنتاج فيها هى السائدة ، ودائرة التداول «السوق» هامشية ، مما ترتب عليه عدم الفصل بين الإنتاج والاستهلاك على النحو الذى صرنا نراه اليوم فى عصر هيمنة «حضارة السوق» ،كما يدعوها الدكتور جلال . وإذا كان الاقتصاد ، شأنه في ذلك شأن الثقافة ، هو نتاج اجتماعى، أو بعبارة أدق، نتاج لتطور العلاقات الاجتماعية فى اتجاه معين . فإن الفصام – الذى ينعيه الدكتور جلال – بين الثقافة الرفيعة التى صارت مقصورة على أقلية فى المجتمع ، سمحت لها ظروفها الخاصة أن تنعزل أو تعزل نفسها عن طاحونة الإنتاج الاقتصادى الموجه نحو السوق ، وثقافة أولئك الذين صاروا ضحية لهيمنة وتسطيح تلك السوق لهم كمنتجين لاحتياجاتها، هذا الفصام هو نفسه نتاج لعملية اجتماعية تاريخية ، وليس طبيعة منفصلة عنها. وهو الذى أدى الى انتاج تلك «الصفوة» المنطوية علي ذاتها ، والمتعالية فى آن علي ضحالة وتسطيح ثقافة العامة ، التى يصفها الدكتور جلال أنها «أقرب الى الغرائز ».

أما جوهر القضية المطروحة هنا، أو بالأحرى التحدى الذى تطرحه، فهو تحقيق الديمقراطية الحقيقية فى مجالى الثقافة المادية والمعنوية على حد سواء ، دون النزوع الرومانسى إلى عودة مستحيلة لمراحل تاريخية سابقة لم تطرح فيها إشكالية الفصل بين الانتاج والاستهلاك ، أو بالأحرى بين المنتجين المباشرين وتداول ما ينتجون ، على هذا النحو الحاد الذى صار مطروحا علينا فى هذه الحقبة من تاريخ البشرية، فقد أدى تقسيم العمل

داخل الوحدة الإنتاجية فى العصور الحديثة ، وتطوره ليشمل الوحدات الانتاجية المختلفة ليس فقط فى القطر الواحد، وإنما فى مختلف أمصار المعمورة أدى ذلك إلى توفير الزمن اللازم للإنتاج ، وتعظيم ربحية المشروع الاقتصادى، فضلا عن توسيع دائرة التداول (السوق)، خاصة في ظل استخدام الالكترونيات الحديثة. ولكنه أدى فى نفس الوقت أيضـاً إلى تجزيء وتشظية وعى المنتجين المباشرين، وتوسيع الهوة بينهم وبين القائمين على إدارة العملية الإنتاجية من خارجها ، أى دون الالتحام المباشر معها ، وهم الذين يمكن أن يطلق عليهم مفهوم «الصفوة» . أما بالنسبة للمنتجين المباشرين الذين كانوا فى المراحل السابقة على تقسيم العمل فى العصور الحديثة يقومون بالعملية الإنتاجية من ألفها إلى يائها ، يتعرفون على ما يطرحه واقعهم من مشكلات ، ثم يتصورون حلها وينفذونه بأنفسهم فى كل المهن من طبيب العيون (الكحال) إلى حلاق القرية (الممارس العام)، إلى الحائك والبناء (المعمارى)الخ، فقد صار الآن تفاضل التخصصات سمة رئيسية للتقدم التقني ولاتساع السوق فى آن . فكيف يمكن إذن رفع التناقض بين ما يتيحه توسيع السوق من ديموقراطية استهلاك نسبية احتياجات وإن كانت على حساب تمايز احتياجات، الأفراد والجماعات والقوميات عن بعضها البعض، فضلا عن احتياج المنتج المباشر ذاته إلى تحقيق وعى يميزه عن سواه فيما يقوم به من عمليات إنتاجية؟ أو بعبارة أخرى كيف يؤدى تقسيم العمل إلى تعميق التمايز بين المنتجين المباشرين بدلا من تسطيح وتجزيء وعيهم بما يدفعهم محبطين إلى النكوص إلى أساليب تعويضية مبتذلة ؟ أتصور أن ذلك الرفع لا يكون إلا بتحقيق التفاعل المتبادل بين مختلف التخصصات، مما يتيح بدوره تعميق التمايز الذى يحققه كل منتج مباشر فى تخصصه، ومن ثم رفع احتكار الملكية الخاصة للمعرفة التخصصية، كى تصبح على هذا النحو معرفة اجتماعية بحق . فإذا تحقق هذا التفاعل المتبادل بين التخصصات، وما ينتجه من آفاق ومكتشفات متنامية أمكن فرملة زحف قيم المبادلة (فى السوق) وسحقها لتفرد المنتجين وما يقومون بإنتاجه من قيم مادية أو معنوية تتبادل على هيئة سلع فى تلك الأسواق . ولتحققت ديمقراطية من نوع جديد لا يحد وحسب من تطرف السوق فى عدم اعترافها بالإنسان منتجا مباشرا لما تتداوله من قيم، وإنما يعمق بالمثل من تمايز الأفراد والثقافات والمجتمعات لتصبح ذواتا خلاقة منتصبة بقوة على أرضية كل منها ، متجاوزة لنفسها فى عملية مقارنة متصلة بالآخر أينما كان، وذلك بما يدعم الذات على تجاوز نفسها من جديد ، ومد جذورها على أرض واقعها المعيش لتنتعش بالحياة مع كل نماء معرفى وكل اكتشاف جديد .

يتلخص ردى إذن على الدكتور جلال فى الجملة التالية:

عندما يقف الجميع على قدم المساواة، عندئذ تظهر قامة كلّ .

دائرة حوار

المعايير الخاطئة

بقلم :

محمود منيسى

رداً على مقال الفنان الكبير حسن سليمان «الفن والمعايير الخاطئة» المنشور بالعدد الماضى من مجلة الهلال بتاريخ يونية ١٩٩٨ .

يبدأ الفنان مقاله مستنكراً نظرة المفكرين فى القرون القريبة الماضية عن الثقافة الفنية إذ عبروا عن تطور الفن بخط بيانى ينطلق من الفن البدائى حتى يصل إلى ذروته زمن اليونانيين والرومان القدامى داعين إلى تمجيد القيم الكلاسيكية ثم هبوط هذا الخط البيانى بعد ذلك ليعلو ثانية فى زمن النحت والتصوير الإيطاليين فى عصر النهضة حيث يرى الفنان أن هذا المقياس وهذه الحدود غير صحيحة ، ونحن إذ نتفق مع الفنان فى هذا الطرح مبدئياً باستنكاره لفكرة الخط البيانى كمقياس لتطور الفن ، حيث أن هناك وكما أشار فيما بعد حضارات قد أغفلت من قبل بعض المتعصبين من الفلاسفة الألمان المثاليين

وسواء كان هذا التعصب متعمداً أو لا لعدم وجود دراية أو دراسة مستفيضة لدى هؤلاء الفلاسفة ترشدهم للحضارة الفرعونية، والتى كانت مجهولة للجميع آنذاك حيث أن اللغة الفرعونية لم تحل رموزها إلا باكتشاف حجر رشيد فى بداية القرن التاسع عشر بعد الحملة الفرنسية على مصر والتى كان لها أيضاً الأثر الكبير فى اكتشاف كنوز الحضارة الإسلامية والفرعونية على السواء مما دعا الدول الأوروبية لتخصيص قاعات كبرى فى متاحفها لتلك الحضارة ومن ثم المساعدة على إعادة صياغة الفكر والثقافة والنقد الفنى ..

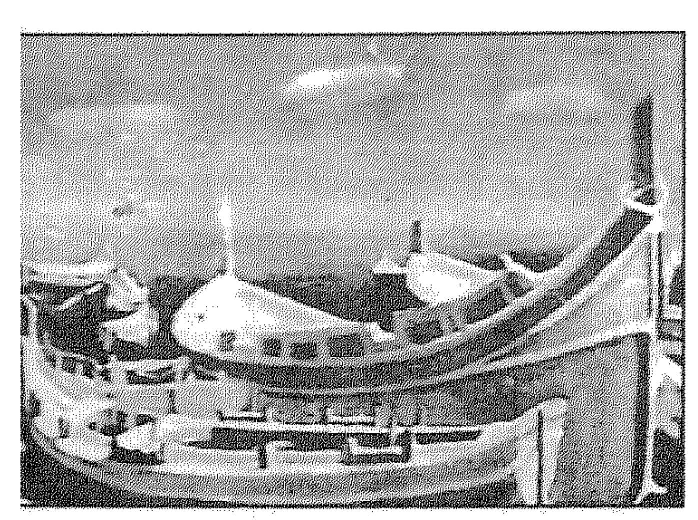
التعصب

وبالتالى فهذا التوضيح ينفى عن

مـفكرى أوروبا ألماناً كـانوا أو فـرنسـيين فكرة التعصب فلا يحق لنا إذن أن نلقى عليهم اللوم وإنما علينا نحن بإعادة تقييم وهيكلة العملية النقدية على أسس علمية حقيقية لا أن يلقى أحدنا بحجر ضخم على رأس أخيه فيلقيه صريعا كأن يقول له مـثـلاً «إن مـا تفـعله ليس فناً» فـذاك هو التعصب بعينه .

ويذكرنى الحديث هنا عن التعصب برسام صحفى فى جريدة الأهرام لا تخلو صفحته الإسبوعية من المطالبة بضرورة إعادة كتابة تاريخ الحركة الفنية الحديثة فى مصر من خلال صورة وجدها لأحد الحرفيين داخل إحدى الكنائس!!! هذا هو حال النقاد فى مصر ياسادة .

ونعود لتحليل مقال الفنان حسن سليمان حيث يتساءل لماذا هذا الامتياز الذى نصبغه على عصر النهضة وهل يبدأ من القرن الخامس عشر ممتداً إلى الكلاسيكية والباروك فقط ولماذا لا يمتد إلى تلك الرومانسية التى تمسكت بالقواعد الأكاديمية ؟ وبقى أن يتساءل حسن سليمان لماذا لم تمتد إلى الواقعية التعبيرية التى يعتنقها كمذهب فنى وعندما أراد ضرب مثال للتأكيد على خطأ هذه النظرية عند تطبيقها أو الاعتماد عليها



أين الارتباط الوثيق بالمجتمع في أعمال حسن سليمان ؟

للحكم على عمل فنى إختار تمثالاً لميخائيل أنجلو ولم يختر لوحة لنفس الفنان مع تمثال فرعونى أو بيزنطى ، وهو يعلم أن الغلبة ستكون للتمثال الفرعونى وأن أعمال التصوير فى عصر النهضة سواء لأنجلو أو لغيره من المصورين لا يوجد لها نظير تقارن به فى العصور القديمة سواء الفرعونية أو اليونانية أو الإسلامية ولا وجود لفن التصوير فى أى من تلك الحضارات بمعناه الحرفى الذى يعتمد على التجسيم باللون والظلال .

وبالتالى فالتصوير هو صناعة (عصر نهضوية أوروبية) إن جازت التسمية ويجب أن نبصم على هذا ونكون قد أغلقنا هذا الباب الذى شبع تأويلاً . ويقدم الفنان

نقطة أخرى يرى أنها لا تقل خطورة عن سابقتها وهى الحكم المبنى على المزاج الذاتى لدارس الفن أو (القنزحة) والتى ينفي بها مقياس النقد المبنى على أساس علمى مدروس بينما يؤكد الحاجة الملحة لمقياس حسى لا يحتمل المناقشة «منتهى الشعور بالأنا العليا» وبالتالى الدكتاتورية المزاجية في فرض رأى المحكم أو الناقد بغض النظر عن تجانس أو إتفاق رأيه مع القيم الأساسية التى قام على أساسها العمل الفنى .

ويرى الفنان حسن سليمان أن مناقشة الفن على أنه نشاط فردى لا علاقة له بالمجتمع نظرية يمكن هدمها من أساسها فى حين أنه فى محاضرة له ألقاها أخيراً فى مؤتمر (القرين) بالكويت حول أزمة المثقف والفنان فى منطقة الشرق الأوسط يؤكد فيها أنه ليس باحثاً إقتصادياً ، أو سياسياً، وإنما فنان تشكيلى يعبر عن تجربة ذاتية ، محنته ، وقهره فى منطقة أصبحت مغرقة فى التردى ولا يستطيع أحد أن يهرب من هذا الفخ إلا بضنى وجهد .

بالطبع فإننا نستنتج ذلك من أعمال حسن سليمان ذاته فهو وإن بدا أنه يعبر فى أعماله عن المجتمع الذى يعيش فيه إلا أن هذا يكون شيئا ثانوياً فلم تغير أعمال حسن سليمان فى الواقع المصرى المعاش شيئاً لا بالسلب ولا بالإيجاب فالدراويش فى الموالد مازالوا يصولون ويجولون فى شوارع حى الحسين والسيدة ولم يصبحوا بعد علماء فى الذرة، والفلاحات فى الأسواق وعلى الأرصفة اللاتى يبعن الفاكهة فى السلال مازلن يفعلن نفس الشيء، ولم تدخل واحدة منهن أحد معارضه لترى نفسها معلقة على أحد الحوائط ، ولم يعد عليهن رسمه لهن بشيء إنما كانوا جميعاً أداة كالألوان والفرشاة للتعبير عن رؤيته الشخصية وحاجته الملحة للرسم أو التصوير فهو يرسم ليعيش لا ليعيش الآخرون ... يستأجر موديل فيقوم برسمها ثم ما إن ينتهى من اللوحة لا يتردد فى بيعها فيرتاح هو لأنه أفرغ شحنته الإبداعية من جهة ومن جهة أخرى أنه باع بضاعته ، ولا عيب فى هذا فهو قد اشترى ألواناً وتوال بالإضافة إلي خبرته فى التعامل مع تلك الخامات لعشرات السنين ثم الأجر الذى دفعه ثم احتياجاته مالحياتية ... كل هذا لا عيب فيه فلو لم يبع لوحاته تلك لما استطاع الإستمرار فى الإبداع ، ولكن السؤال المحير هنا ماذا استفاد المجتمع وبالأخص العناصر التى يقوم برسمها الفنان من إبداعاته تلك .. أعتقد أن الإجابة صفر فالمستفيد الوحيد هنا هو

الفنان الذى باع العمل الفنى والمشترى الذى سيعلق اللوحة فى منزله إما حباً فى أعمال ذلك الفنان أو استثماراً لما دفعه فى هـذا العمل أو اللوحة ..

التناقض

وبالتالى نرى فى ذلك تناقض الفنان مع ذاته ، ما يقوله وما يفعله ، وإذا أردنا تقديم مثال حقيقى عن تفاعل الفنان مع المجتمع، وأقول (تفاعل الفنان) فأمامنا الكثير من مبدعينا الذين يجب ألا ننساهم عبد الهادى الجزار وعفت ناجى وأعمالهما عن السد العالى وغيره من الأعمال المجتمعية الحقيقية المعبرة عن واقع الإنسان المصرى والمحفزة على تبنى المشاريع والفكر القومى الذى يصب فى تيار التقدم والنهضة التنموية للمجتمع الذى ينتمى إليه لا أن يرسم له البيوت الطينية والطبيعة الصامتة ومشايخ الطرق الصوفية فى الموالد وحوارى وأزقة القاهرة القديمة ثم يدعى أنه يعبر عن هذا الإنسان !!! .

ونرى فى ذلك رؤية محدودة ونظرة فوقية للتعبير عن القشرة الخارجية لبعض مظاهر الحياة السلبية فى المجتمع .

وفى حرية المعتقدات يقدم لنا الفنان أمثلة للمصرى القديم الذي كان يبنى قبره ويزينه بالنقوش والرسوم ويجهزه بالأثاث والأشياء القيمة .... ونسى أن هذا الفعل كان للصفوة الحاكمة من الملوك والأمراء بينما كان الإنسان البسيط الذى يتألف منه المجتمع يدفن فى قبور متواضعة مما ينفى علاقة تزيين القبور وتجهيزها بالمجتمع ذاته وإنما تقديس للملوك والآلهة . وإن كان لابد وأن نشير إلى علاقة الفن بالمجتمع عند المصرى القديم فليس لدينا إلا القليل من الرسوم التوضيحية على جدران المعابد «دور العبادة والتى يتجمع فيها الشعب» والتى توضح طرق العمل من صيد وزرع وحرث وحصاد لحث هذا الشعب على العمل وطاعة الإله أو الملك .

وفى مقطع آخر يؤكد الفنان حسن سليمان هذا الطرح بقوله = فالمصرى القديم كان لا يهتم ان كان منزله حقيراً أم لا ثم يشير بعد ذلك إلى أن المصرى القديم كانت فكرته عن الحياة تبنى على حاجته إلى قبره الذى يحتوى على بعض الأشياء التى نطلق عليها نحن اليوم «أعمال فنية». ونؤكد له هنا أنها ليست أعمالاً فنية بقدر ما هى أعمال أثرية تأريخية مثيرة للدهشة والتعجب أحياناً ومعبرة عن ضعف هذا الإنسان المصرى البسيط أمام قوة وسطوة وجبروت الكهنة آنذاك .

ثم يتساءل الفنان مرة أخرى – هل نعثر فى عصرنا الحاضر على ما يساوى ما كان عليه الفن فى العصور الغابرة التى حددتها المعتقدات ؟ .

للإجابة على هذا التساؤل وإذا ما تجاهلنا الفروق الكبيرة فى أنظمة الحكم والمتغيرات الكبرى التى حدثت للإنسان

عبر العصور وتناسينا أن الإنسان القديم كـان يحكم بالحـديد والنار والصلب فى بعض العصـور أو تحت وطأة الخوف من العذاب الدنيوى أو الأخروى مما نتج عنه أعمـالا وإن كانت مبهرة إلا أن خوف صانعها يفضح ما بداخلها أحياناً .

هل نغـمض أعـيننا عن الواقع ومـا تحـقق للإنسـان من تطور فى الرؤى وديمقـراطية وحرية إبدا ع تاركين كل هذا وعائدين إلى الوراء منتظرين حاكما يأمرنا بأن نصنع فناً يرضـيـه أو كـاهنا ينذرنا بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة إن لم نبن معبـداً لإلهة أو نزين مقبرة من الذهب الخالص لمليكه ؟ .

ثم وعلى صعيد حرية المعتقدات فإن المسألة ليست سوداء فى عصرنا الحديث كـمـا يرى البـعض وتزيين المسـاجـد والكنائس كما كان فى الأزمنة الغابرة فإنه يحدث اليوم وبصورة تضاهى مـا كـان وأحسن وأدعو الفنان لزيارة مسجد النور بميدان العباسية ومسجد الفتح بميدان رمسيس ودير مارى مينا بكينج مريوط بالأسكندرية، إن الحضارة الإسلامية على سبيل المثال مازالت مستمرة وأن الفنان المسلم مـازال يصنع فناً ومـازال يبنى مساجد ويزينها ، كذلك الفلاح فى الريف إلا أن اليوم غير البارحة فقد أصبح لديه القـدرة المادية على بناء المسجـد وتزيينه وليس حائطاً تجاه الشرق يجعله محراباً ، حيث لا جاب يستنزف مُقدراته ويستهلك موارده ولا إقطاعى يستولى على زراعته .

العـمل الفنى يا سـادة وبالأخص فى مجال الفن التشكيلى هو عمل غير قابل للنقد لا من النقـاد ولا من الفنانين وإنما حاجته الحقيقية إلي تأريخ وتوصيف لهذا العمل أو ذاك وهذا الإتجاه الفنى أو ذاك ، حتى لا يدعي البعض إبتداع مدارس فنيه هى أصلاً موجودة وثابتة فى تاريخ الفن ، الأمر إذن فى حاجة إلى مؤرخين لا إلى نقاد .

دور الناقد

فالعمل الأدبى مثلاً يمكن تحليله من حـيث هو فكرة لهـا بداية ووسط ونهـاية وبالتالى فـهو عمل يمكن تتبعه وترتيب معطياته واستنتاج مفاهيمه، وبالتالى نقده أما العمل التشكيلى فهو عمل يعتمد على الشكل والحالة والمزاجيـة التي يمر بهـا الفنان نتيجة ظروف مـا يشعر ويتأثر بها وليست بالضرورة أن تكون تلك الظروف قاصرة على المجتمع الذي يعيش فيه ذلك الفنان كأن يرسم مـثـلاً مـوضـوعـاً عن الجوع والفقر الذى يعانيه الإنسـان فى الصـومـال أو السـودان فـعندئذ يكون الموضـوع أو المثـير هو تعاطفه مع ذلك الإنسـان الغريب عن مـجتمعه ويصبح

العمل لا مجتمعا وإنما نتيجة تأثر بمثير خارجي شعر به الفنان فضمنه عمله فليكن دور النقد هنا هو كيفية إنجاز هذا العمل ، وعندئذ لا يكون ذلك نقداً وإنما شرح وتوصيف لعملية الأداء الشكلي، أما الأفكار والمحفزات التي حثت الفنان على إنجاز العمل فهي بواعث داخلية هو نفسه غير مسئول عنها فهو مخزون ثقافي معرفي وعقائدي وفكري نتيجة معتقداته الدينية والفلسفية والحياتية بالإضافة إلي موهبته الأساسية وثقافته التشكيلية .

ومن ثم فإن عملية الإبداع التشكيلي يصعب نقدها فلسفياً إلا بمعرفة بواطنها وهذا من الصعب على جهابزة النقد بل وعلى الفنان نفسه إستنتاجها كاملة بحيث يصل في النهاية إلى البواعث الحقيقية التي جعلته ينجز هذا العمل أو ذاك .

فمثلاً إذا تتبعنا اللوحات العارية لمحمود سعيد لا يمكن إستنتاج البواعث الحقيقية وراء تلك الأعمال وهل ما إذا كانت بواعث غرائزية أو سيكولوجية أو إن كان لها مردود إجتماعي أو بيئي لدى الفنان بينما نستطيع أن نشرح طريقة تناوله للألوان وخلطها ودرجة إحساسه بالنور والظل ونسب الجسم البشري «التشريح» وقوة التصميم وتاريخ العمل والمدرسة التي ينتمي إليها وبمن تأثر الفنان وعلى يد من تعلم. كل هذا لا يحتاج في حقيقة الأمر إلى ناقد وإنما إلى شارح أو مؤرخ أو كاتب يسجل كل هذا وبأمانة دونما التدخل بالتفاضل بين عمل لفنان وآخر أو مدرسة فنية وأخرى .

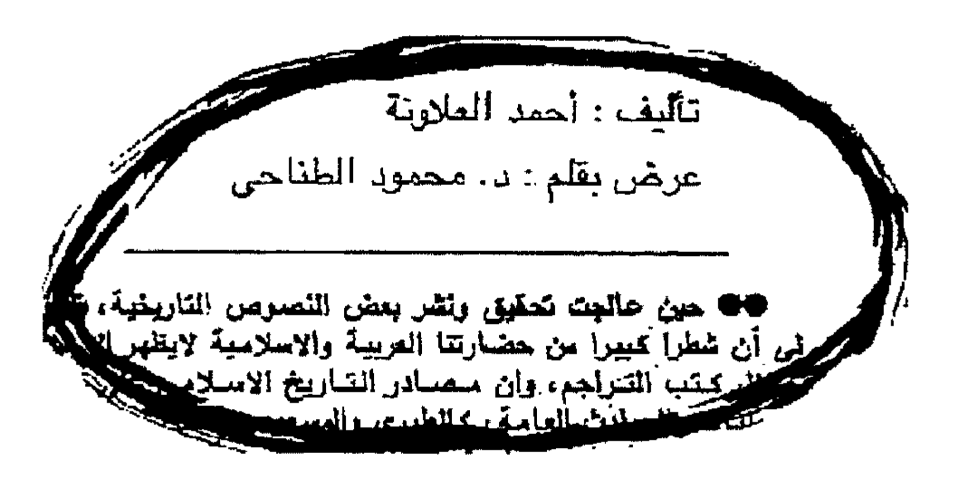
وإذا ما إتخذنا المنهج الذي يدعو إليه حسن سليمان بعدم ترك التقييم والتقنين لعلماء التاريخ «وأعتقد أنه يقصد تاريخ الفن» دون دور الفنانين والنقاد وتأكيده على الحاجة الملحة إلى مقياس حسي لا يحتمل المناقشة !!! .

ويبدو التناقض جلياً حين يؤكد الفنان على الإنجازات العلمية التي أتاحت لنا فهماً أعمق للفن حتى أصبح تاريخ الفن «الذي يصنعه مؤرخو الفن» هو التاريخ الوحيد لخصوبة الإنسان وعظمته. ثم يطالب الفنان أن ينقذ إنسانيته وإنسانية مجتمعه .. إنه يرى أن الفنان قد فقد إنسانيته ويطالبه بأن يرجع للفن الصادق الوثيق بالإنسان ويرجع له وظيفته الأولى بأن يفعل ما كان يفعله الإنسان قبل أن يعي شيئاً مما حوله متجاهلاً بذلك الإنجازات العلمية التي أتاحت لنا فهماً أعمق للفن ومتجاهلاً تاريخ الفن ذاته مطالباً إيانا بالرسم كإنسان الكهف حين كان يزعجه صراعه مع الثدييات !!! .

فلنذهب إذن عن بكرة أبينا لنرسم الصواريخ حاملة الرؤوس النووية على كهوف سيناء تحسباً لهجوم العدو أو لنرسم رجال الطوائف الصوفية حاملين البيارق مستعيذين من شر الأسلحة البيولوجية منددين بحاخامات الطرق الصوفية الصهيونية☐

ذيل الأعلام ومغالبة الهوى

بقلم : أحمد العلاونة - الأردن


تأليف : أحمد العلاونة

عرض بقلم : د. محمود الطناحى

●● حين عالجت تحقيق ونشر بعض النصوص التاريخية،
لى أن شطرا كبيرا من حضارتنا العربية والاسلامية لايظهر
كتب التراجم، وان مصادر التاريخ الاسلا

اطلعت على ما كتبه الأستاذ الفاضل الدكتور محمود الطناحى حفظه الله - فى مجلة الهلال اكتوبر ٩٨ فى التعريف بكتابى «ذيل الأعلام» ورأيت أن فيه أموراً تحتاج إلى تعليق ، واذا كان بعض المنقود عليهم يقول فى الناقد : نظر بعين واحدة وهى العين الباحثة عن المساويء فأنا أجل نفسى عن هذا القول فأقول إن الدكتور الطناحى نظر فى كتابى بعين العلم والإنصاف ، ولكنه توهم فى مواضع يسيرة من نقده النافع الممتع فقد جعل عنوان مقاله : (ذيل الأعلام ومغالبة الهوى) ورأى أن الهوى غلبنى فيما كتبت من تراجم ، واستدل بترجمتين فقط فى كتابى من أصل ٤٣٦ ترجمة ، فقاس الكثير الجيد - فى نظره - على القليل الردىء.

أذكر للأستاذ الفاضل موضعين فقط من مواضع زلق فيها الزركلي إلى الرأي الخاص الأول : غمزه الخلافة العثمانية في موضعين من كتابه: ج٦/٢٦ وج٦/٥٧، والآخر : تحامله على خصومه، فتحامل على الملك عبدالله بن الحسين ج٤/٨٢، ولم يترك فرصة تسيء للملك عبدالله إلا اغتنمها ، فتجد ذلك في ترجمته لرشيد طليع ٣:٢٤ وعادل أرسلان ٣:٢٤٣، وعودة أبي تايه ٥:٩٤ وفؤاد الخطيب ٥:١٦٠ ، وفؤاد سليم ٥:١٦٢ ويوسف ياسين ٨:٢٥٣ وفي ترجمته لنفسه ٨:٢٦٨ . ومع ذلك لم يقل الدكتور الطناحي إن الزركلي متبع هوى ، وأنا أيضا لم أذكر ذلك فيه.

ومما جاء في نقد الدكتور الطناحي : (..... نحن لانترجم للناس كي نهينهم ونهوى بهم..) فأقول : عبدالرحمن الشرقاوي علم معروف يترجم له، وقلت ما قلته فيه لأنه شكك بالقرآن، وأساء إلى الرعيل الأول من رجالات الإسلام صحابة وتابعين ، فالشرقاوي تبع غيره في غاية يجب فضحها والتحذير من مغبتها وهي القضاء على تاريخ أمتنا، وعندما تكون أمتنا بلا تاريخ فلن تكون أمة. ما قيمة أمة ليس لها رجال؟ وما قيمة دين لم يصنع رجالا على تراخي العصور؟ فرجل هذه غايته ألا يستحق ما ذكرته فيه؟

عداء واضح !

وأتساءل لماذا لم يذكر الأستاذ الفاضل أنني زلقت إلى ذكر الرأي الخاص في ترجمة لويس عوض؟ ، فقد جاءت فيها هاتان العبارتان: وقف من الحضارة العربية وإسهاماتها موقفا معاديا لايراها شيئا ، وأن دورها انتهى .. والعرب عنده إما جهلة أو ناقلون . والأخرى: وقد سامه سوء العذاب شيخ العربية محمود محمد شاكر في كتابه الواضح أباطيل وأسمار.

وأجيب : لأن العبارة الأولى - وهي للدكتور الطاهر أحمد مكي - أشار على الدكتور الطناحي بإثباتها مكان عبارة أخرى. والعبارة الأخرى - وهي من كلامه - أشار على بإثباتها، وكنت عرضت عليه حذفها ، فمثل هذا الكلام حلال عليه حرام علي؟

والأستاذ يعلم أن كتب تراجم القدماء تندد بالمترجم إذا كان من أهل الأهواء والبدع ، وعندما أنشيء علم الرجال لم يقتصر فيه على التعديل بل شمل الجرح أيضا ، وإلا لما كان هناك علم رجال.

كنت قد أخذت على الزركلي - رحمه الله - أنه ترجم لمجاهيل، وقال الأستاذ الفاضل إني أنا أيضا فعلت ذلك ولم يذكر أسماء - وكان بإمكانه الكتابة إلى علي عنواني وهو عنده - وقال (... فترجمت لطائفة أعرف بعضهم عن قرب . فبعضهم درّس لي وبعضهم كان صديقا لي وهم أهل فضل ، لكنهم ليسوا هناك ومحلهم من العلم محدود...)

فأقول : ربما كان بعض من ترجمته غير أهل للترجمة - في نظره - وكان أهلا

للترجمة فى نظر غيره، وقد يكون المترجم أشد إخلاصا وحبا للعلم وأعمق أثرا من العلامة فلان، ونقول فى المترجم: هذا مبلغه من العلم جمع بين علم قليل وخلق عظيم واخلاص فريد، وقد يكون العلامة فلان حصل علما كثيرا وقليل خلق. ومعاذ الله أن أعد كل من ولى منصبا أو نال جائزة أو شرف بعضوية هيئة علمية جديراً بأن يكون من الأعلام ، فلا أدرى ما الذى جسر الأستاذ الجليل على إنشاء هذا الجسر من القول انه جسر حقيق بالقطع.

أما المجاهيل فى (الأعلام) فلا أظن أن أحداً يوافق الزركلى على أنهم مشاهير، وأورد هاهنا بعضهم ممن ورد فى الجزء السادس .

١ - الجزائرى : محمد بن أحمد ص١٢ جاء فيه : متأدب له (مسك الحبوب فى بعض ما نقل من أخبار أبى أيوب-خ) رسالة فى الرياض (١٣ ورقة) عن مكتبة عارف حكمت .. فمتأدب له رسالة فى ١٣ ورقة يعد من مشاهير الأعلام وممن تشهد به تصانيفه.

٢ - العراقى : محمد بن إدريس ص٢٧، جاء فيه : متأدب مغربى له اشتغال بالتاريخ. صنف (جمع ما انتشر من أخبار سيد البشر - خ) صغير ناقص الآخر فى الرباط (٤٣ك) ٨ ورقات.

٣ - الحسينى : محمد أمين بن ياسين ص٤١ جاء فيه : فاضل من أهل الموصل . له (أوراق الذهب فى المحاضرات والأدب - خ).

٤ - الوغليسى : محمد صالح ص١٦٥ جاء فيه : فاضل من أهل الجزائر انتقل إلى دمشق . له (رسالة فى غرائب الخلاف بين الأئمة).

٥ - الشعار : محمد ضياء الدين ص١٧٠ جاء فيه : فاضل من أهل الموصل له كتاب (السعادة -ط) .

٦ - السبتى : محمد بن عبدالخالق جاء فيه : له رسالة فى معرفة أحوال الملوك والسلاطين وما يتم من أمورهم فى مستقبل حياتهم - خ) فى دمشق . انتهى من وضعها سنة ٧٣٤ فى ١٥ ورقة.

٧- القنوى : محمد بن عبدالكريم ص٢١٦ جاء فيه : فاضل . له (رسالة فى فضائل عبدالله بن عباس وفضائل الطائف- خ) ألفها بالطائف سنة ١١٤٩.

٨ - الحلو : محمد بن عبدالواحد ص٢٥٥ جاء فيه : فاضل من أهل فاس . له (رسائل ونصائح - خ) فى خزانة الرباط (١٤٠ك) نحو ١٠٠ صفحة .

٩ - القادرى : محمد بن عمر ص ٣١٧ جاء فيه : فقيه حنفى عراقى نزل بدمشق وتوفى بها . له (شرح صلوات الشيخ الأكبر ابن عربى - خ) فى مكتبة عارف حكمت ٥٦ صفحة .

١٠- دنيه : محمد بن عمر ص٣١٨ جاء فيه : فقيه مالكى من أهل الرباط له (مناسك الحج - خ) رسالة صغيرة على مذهب مالك فى خزانة الرباط (المجموع

١٠٤٥د)

ملاحظات تفصيلية

كتب الأستاذ الفاضل ملاحظات تفصيلية على ما جاء فى كتابى . وكثير منها يدخل فى باب (الإضافة والاستدراك) لا باب النقد . فأنا لست عاملاً فى سجلات الأحوال المدنية لأعرف أن هذا أخو ذاك أو أن هذا عديل لذلك. وأعلق ها هنا على بعض ملاحظاته بفقر ذات أرقام من عندى إذ إن الملاحظات لم ترقم.

– الفقرة (٣) ص ١٦٨ : نقل ما كتبته فى ترجمة أحمد رامى : (... حقق كتاب قاموس البلاد المصرية) . وقال : والحق أن هذا الكتاب من تأليف محمد رمزى المتوفى سنة ١٩٤٥ ...) وهل ذكرت غير هذا؟

– الفقرة (٤) ص ١٦٨ : قال الأستاذ: (ذكر من تحقيقات أحمد عبيد كتاب (مثير العزم الساكن) : والصواب «الغرام» وكذلك جاء فى كشف الظنون ص١٥٨٩) أقول : ما ذكرته موجود فى كتاب (أمين التراث العربى أحمد عبيد) لابنه زاهر . وكذلك جاءت تسميته هذه فى الأعلام ٢١٧:٣ ، وذكر هذه التسمية محققا زاد المسير فى المقدمة.

– الفقرة رقم (٥) ص ١٦٨ يقول الأستاذ الفاضل : (استطرد فى ترجمة الشيخ على جاد الحق شيخ الأزهر إلى منصب شيخ الازهر .. ثم انه نسى أنه يترجم لواحد من مشايخ الأزهر وليس الأزهر وتاريخه) أقول : ما المانع فى أن نذكر بعض الفوائد التاريخية المهمة التى ترتبط بصاحب الترجمة فى أسطر قليلة؟ فالزركلى تحدث عن الدروز فى ترجمة حمزة بن على ٢٧٨:٢ – ٢٧٩ ، وتحدث عن الاباضية فى ترجمة عبدالله بن أباض ٦٢:٤ ، وتحدث عن المعتزلة فى ترجمة واصل بن عطاء ١٠٨:٧.

– الفقرة (٢١) ص ١٦٩ قال الأستاذ الفاضل : (تردد فى مولد ووفاة شيخنا العلامة السيد أحمد صقر..) أقول : أنا معذور فى ذلك فقد كتبت إليه مرتين أسأله عنهما ولم أتسلم منه جوابا، وغير معقول أن أجتهد أو أرتجل فى تاريخ الولادة والوفاة.

– الفقرة (١٣) ص ١٧٠ : يقول الأستاذ (...وكان مما نقله «الوقوف ومواقفها» وصواب كلامى ومواقعها) أقول: ما ذكره صحيح ، وما هو مذكور فى كلامى من أخطاء الطباعة ، وحسن أن يفرق بين أخطاء المؤلف وأخطاء الطباعة.

– الفقرة (١٥) ص ١٧٠ : يقول الأستاذ : (ذكر من مؤلفات الشيخ عبدالحليم محمود كتاب «المنقذ من الضلال» ، والصحيح أن هذا الكتاب لأبى حامد الغزالى).

أقول : عده الأستاذ محمد شلبى من مؤلفات الشيخ عبدالحليم وذلك فى مجلة الأزهر (من مراجع الترجمة) وأنا أعرف أن المنقذ للغزالى ، وأسماء الكتب قد تتشابه وذلك معروف فى القديم، فقد ألف

يونس بن حبيب كتاب معاني القرآن ، وألف الأخفش الأوسط سعيد بن مسعده معاني القرآن ، وألف الفراء معاني القرآن وألف قطرب معاني القرآن ونحو ذلك كتب الحماسة ثم ميزت بحماسة أبي تمام وحماسة البحترى والحماسة البصرية.

وذكر أيضا : (.... ثم ذكر من تصانيف الشيخ «عبدالسلام بن بشيش» هكذا بالباء الموحدة ، والصواب «مشيش» بالميم - أقول : ما ذكرته موجود في مقال الأستاذ محمد شلبي والعهدة عليه.

– الفقرة (١٦) ص ١٧١ قول الأستاذ: (... ذكر من تحقيقات استاذنا على النجدى ناصف ، الجزء الثالث من «لسان العرب» لابن منظور ولا أعرف له تحقيقا كهذا ولسان العرب لم يحقق أصلا - أقول : ما ذكرته موجود في كتاب (المجمعيون في خمسين عاما، ص٢٠٩ لمؤلفه الأستاذ محمد مهدى علام.

– الفقرة (٢٠) ص ١٧١ وقال الأستاذ: (ذكر في ترجمة محمد شوقى أمين أنه كان يكتب بابا شهريا في مجلة الهلال بعنوان (أديب وفاكهة) والذى أذكره أن عنوان ذلك الباب كان (سلطة أدبية) . اقول : ما كتبته مذكور في كتاب (المجمعيون) ص ٢٨٩.

ومعلوم أن كتب تراجم المعاصرين ليس فيها التثبت الذى تراه في كتب تراجم القدماء كما ذكرت ذلك في مقدمتى، فأنا حين أنقل من المراجع المطبوعة أحاول مع ذلك التثبت فيما أنقله، وأصدقائى ومعارفى من فضلاء العلماء في الأقطار العربية وغيرها يذكرون كيف كنت أعرض عليهم التراجم وكيف كانوا يجاوبوننى بتصحيحها على نحو يقنعنى ، فكم من أكاذيب ضربت عليها ، وكم من مبالغات نفيتها ، وكم من أحقاد نبذتها ، وأنا سأزيد تثبتا في قسم من التراجم بعد الطبع ، وسيظل ذلك ديدنى حتى آخر أيامى المكتوبة وأنفاسى المحسوبة.

أما بعد ، فلا أحد يجل عن النقد خصوصا النقد العلمى فإنه إذا قدم فلكى يبنى ، وإذا أوقد فلكى ينير - ومن ذلك النقد ما تفضل به على الأستاذ الجليل الدكتور محمود الطناحى .

أما ماناقشته فيه فأمور يسيرة لاتخدش ديباجة نقده الثمين - ومازالت بى حاجة إلى مزيد من النقد الجيد وقد أثبت في مقدمة كتابى قول العلامة محمود محمد شاكر : (فان جودة العلم لاتكون إلا بجودة النقد ، ولولا النقد لبطل كثير علم ، ولاختلط الجهل بالعلم اختلاطا لاخلاص منه ولاحيلة فيه) ورحم الله إبراهيم الصولى القائل : (المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه.

أكرر شكري للدكتور الطناحي لتفضله علي بقراءة الكتاب وإبداء ملحوظاته ، وأنا من ملحوظاته وملحوظات غيره سأتخذ مادة تعينني علي تلافي فوائت الكتاب في الطبعة القادمة إن شاء الله .

الحياة في العراق

ثماني سنوات من الحصار



بقلم:
د. أشرف البيومى

* أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعات الاسكندرية وولاية ميتشجان سابقا

الدكتور أشرف البيومى، كبير المراقبين الدوليين فى برنامج الغذاء العالمى، كان موجودا فى العراق أثناء العدوان الأنجلو سكسونى الأخير على العراق، وهو يكتب تجربته وننشر بقية مشاهداته فى العدد القادم.

«الهلال»

سمحت لى ظروف وجودى فى العراق أثناء العدوان الأخير فى ديسمبر الماضى والذى شمل أول أيام رمضان فى العراق أن أكون شاهد عيان على الضربة الأنجلو أمريكية، ولأرى بنفسى آثار هذه الضربة وانفعال الجماهير العراقية على مدار أربعة أيام من القصف الصاروخى المستمر، والذى لا يمكن فهمه دون قدر من المعرفة عن آثار الحصار الاقتصادى الشامل الذى استمر أكثر من ثمانية أعوام، وكنت قد ذهبت إلى بغداد كباحث مستقل وبتمويل شخصى بحت لاستكمال دراسة متكاملة عن آثار الحصار الاقتصادى الشامل على المجتمع العراقى فى جميع المجالات، وفى خلال هذه الفترة شاركت فى مؤتمرين دوليين فى بغداد أحدهما عن استخدام قذائف اليورانيوم المخصب أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ ودورها فى انتشار الأمراض السرطانية والتشوه الخلقى فى جنوب العراق بالذات، والمؤتمر الآخر عن كيف أن الحصار الاقتصادى ينتهك الحقوق الإنسانية الأساسية للشعب العراقى.

وكنت على وشك الرحيل بعد أن أمضيت أربعة أسابيع فى عمل دؤوب ولقاءات مستمرة استطعت فيها الحصول على قدر كبير من المعلومات من مصادر مختلفة مكنتنى من فهم أفضل لمدى التأثير السلبى للحصار، ستجعل دراستى أكثر عمقاً واتساعاً، ولكن سرعان ما بدأت بوادر القصف تتضح عندما انسحب مفتشو السلاح فجأة وتأكد احتمال الضرب عندما سحبت هيئة الأمة المتحدة أغلب الموظفين العاملين فى العراق عدا المحافظات الشمالية الثلاثة، عندئذ قررت إلغاء سفرى لأبقى فى بغداد للتضامن الرمزى مع شعب العراق، ذكرنى ذلك بخبرة سابقة ومماثلة عندما كنت مع ستة من زملاء فى بيروت المحاصرة عام ١٩٨١ ممثلين للجنة المصرية للتضامن مع الشعبين الفلسطينى واللبنانى.

تبلورت فكرة القيام بدراسة آثار الحصار بأية هذا الخريف عقب الانتهاء من عملى لأكثر من عام كرئيس للملاحظين الدوليين فى برنامج الغذاء العالمى، WFP فى العراق أحد وكالات هيئة الأمم المتحدة، الـ UN، التى تعمل مع الوكالات الأخرى فى إطار برنامج هيئة الأمم المتحدة المسمى «النفط مقابل الغذاء» وهو البرنامج الذى تسمح من خلاله هيئة الأمم المتحدة للعراق ببيع كميات من النفط للحصول على المواد الإنسانية من غذاء ومواد.

وقد اكتسبت من خلال هذا العمل معرفة دقيقة عن آلية عمل هيئة الأمم المتحدة خصوصاً فى مجال الغذاء وعن آثار الحصار المدمر للصحة الغذائية، خصوصا للأطفال، لكن متطلبات العمل الكثيف والتجوال فى كل أنحاء العراق وكتابة التقارير والرد على التساؤلات والإيضاحات لم يتح لى قدراً كافياً من المعرفة فى المجالات الأخرى: الصحية، الزراعية، التعليمية، الثقافية، الاجتماعية.

فكان من الضرورى الحصول على معلومات إضافية فى هذه المجالات حتى أضمنها دراسة متكاملة حول آثار الحصار الاقتصادى الشامل على المجتمع العراقى، أرجو إصدارها فى كتابين فى القريب العاجل أحدهما بالإنجليزية والآخر بالعربية، هذا يعكس قناعتى بأهمية الموضوع ليس بالنسبة للعراق وحده وهذا يكفى لكونه أحد ركائز الكيان العربى، ولكن أيضا لمصر وبقية الدول العربية بل لكل الدول التى تقع تحت وطأة هذا السلاح الرهيب، ويصبح على عاتق الدارسين والعاملين فى مجال التخطيط والتفكير الإستراتيجى الاهتمام بهذا الموضوع خصوصاً وإن الإدارة الأمريكية أصبحت تعتبر سلاح الإرهاب الاقتصادى الجزئى أو الشامل أحد أسلحتها المفضلة، وها نحن نطالع فى الصحف عن قرار أمريكى صدر قبل منتصف يناير الحالى بفرض عقوبات

اقتصادية على ثلاث مؤسسات روسية إحداهما جامعة منتليف للكيمياء بحجة تعاونها مع إيران فى المجالات الصاروخية والنووية.

●أهداف برنامج النفط مقابل الغذاء●

ويسرنى أن أشارك قارىء وقارئة الهلال من خلال هذا المقال بعض الحقائق حتى يتمكن القراء من الإجابة بقدر من الموضوعية التى تتراود فى الذهن:

فهل حقق برنامج النفط مقابل الغذاء أهدافه؟.

هل يستطيع البرنامج سد حاجات شعب العراق من متطلبات المعيشة المختلفة؟.

هل يساعد البرنامج أو يؤخر محاولات إعادة إعمار ما دمرته حرب الخليج من منشآت ومرافق مدنية؟.

هل يؤخر أو يعجل عملية التنمية فى العراق الذى ازداد تعداده حوالى ٤ ملايين نسمة أثناء الحصار؟ .

هل هناك عقبات تضعها بعض الدول أمام برنامج النفط مقابل الغذاء حتى لا يحقق أهدافه المحدودة؟ .

ماهى آثار الحصار ونتائجه على الأحوال المعيشية فى العراق؟ وبالذات على الحالة التغذوية والصحية والتعليمية؟.

هل هناك معارضة داخل الإدارة الأمريكية وشركاتها العملاقة؟.

ماهو انفعال الشعب العراقى فى بغداد الضربة الأخيرة؟.

ماهى أهداف الحصار الحقيقية والعدوان المتكرر على العراق، وما مدى صحة المقولات من بعض الجهات التى تدعى الحرص على الشعب العراقى فى الوقت التى تؤيد أو تشارك فى العدوان على العراق؟.

من الواضح أن المقال لا يتسع الإجابة الكاملة على هذه التساؤلات وغيرها، ولكن سأحاول إعطاء نبذة مختصرة حول هذه المواضيع تعطى فكرة دقيقة مدعمة بحقائق يصعب دحضها.

ولعل عملى كباحث علمى فى مجال الكيمياء الطبيعية لفترة تقارب الخمسة والأربعين عاماً يفسر التزامى بدرجة من الموضوعية والدقة رغم انحيازى الواضح لكونى مواطناً عربياً ينتابه شعور بالألم والأسى العميقين عندما يرى بعينيه أطفالاً تموت لنقص الغذاء أو دواء بسيط وكيف أن جزءاً مهماً من أمته العربية يواجه دمار حروب صاروخية مستمرة وتخريب الحصار الاقتصادى الذى يؤثر على كل جوانب المجتمع وقدراته ويرى شعباً عربياً عريقاً فى حضارته القديمة الإسلامية يواجه هذه الدرجة من المعاناة والشقاء والمهانة ويرى مدينة بغداد التى أثرت

الإنسانية بإبداعاتها الفلسفية والأدبية والعلمية تُدك ليلاً ونهاراً بصواريخ التوماهوك المدمرة، ومن حق القارىء أن يعرف انحيازاتي الأخرى إيمانا مني بالشفافية خصوصاً عندما نتعامل مع مواضيع شائكة كالموضوع الذي نحن بصدده، فإن من أهم انحيازاتي: العداء العميق للامبريالية والهيمنة الأمريكية والصهيونية العنصرية كما أن كوني مهتماً بقضايا حقوق الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عقود فإني أعارض كل النظم الديكتاتورية السافرة منها أو المقنعة برداء إسلامي أو قومي أو ديمقراطي، ولهذا لم تتردد جمعية أنصار أعضاء حقوق الإنسان بالاسكندرية التي أتشرف بعضوية مجلس إدارتها سنين طويلة من إدانة استخدام الأسلحة الكيميائية ضد أكراد العراق في حلابجه والاحتجاج على بعض الضحايا المصريين في العراق في الثمانينات وذلك في حينه وليس بعد مضي أعوام طويلة، بما أن مصدر تمويل أي نشاط هو قضية أساسية مهما بدا غير ذلك فقد حرصت على أن يكون المصدر الوحيد لتمويل دراستي هو شخصي بحت حفاظاً على الموضوعية.

● آلية ملاحظة التوزيع الغذائي●

ذهبت للعراق في مارس ١٩٩٧ لقيادة فريق الملاحظين الدوليين التابع لإحدى وكالات هيئة الأمم المتحدة WFP وعددهم حوالي ثلاثين أغلبهم من دول آسيوية أو أفريقية ولهم خبرات سابقة في العمل الإنساني، يقوم هذا الفريق بملاحظة عملية توزيع الغذاء التي تقوم بها الحكومة العراقية في المحافظات الخمس عشرة بوسط وجنوب العراق أما في المحافظات الشمالية الثلاث بالمناطق الكردية فكانت تقوم الـ WFP بعملية توزيع الغذاء مما تطلب نقل كميات هائلة من الغذاء التي تتجمع في مدينتي الموصل وكركوك إلى المحافظات الشمالية: اربيل ودهوك والسلمانية.

تبدأ عملية الملاحظة بعد وصول الغذاء إلى نقاط الدخول المختلفة في العراق في ميناء أم قصر بالجنوب وتريبيل على الحدود الأردنية وزاكو على الحدود التركية وتستمر الملاحظة حتى وصول الكميات المحددة للمستهلك عبر الصوامع والمطاحن ومستودعات التخزين ثم وكلاء التموين المنتشرين في أرجاء العراق، وذلك بهدف التحقق من كفاءة وعدالة التوزيع على كل المواطنين العراقيين والمقيمين بالعراق بصفة دائمة أيضاً، وهذا يشمل أعدادا كبيرة من المصريين ومواطنين من أقطار عربية أخرى، وشمل تكليف هيئة الأمم المتحدة لنا التأكد من أن كل عقد غذائي يتم توزيعه بالكامل حسب البرنامج ولا يغلق العقد إلا بعد تحقق من استكمال التوزيع في حدود نسبة خطأ لاتزيد عن ٢٪ كما كلفتنا هيئة الأمم المتحدة بتقييم كفاية الغذاء ومدى تأثير البرنامج على

وضع المواطنين الغذائي، تطلب هذا القيام بجمع معلومات من المواطنين ووكلاء التموين فى كل محافظات العراق. وساعد فى استكمال هذه البيانات.عدد كبير (حوالى ٣٠٠) من ذوى المؤهلات العليا من العراقيين والعراقيات قمنا بتعيينهم دون تدخل الحكومة، وكان عملهم يقع تحت الإشراف المباشر للملاحظين الدوليين كما أن اختيار العينة تم بطريقة علمية حتى نتأكد من كونها ممثلة لكل المجتمع العراقى . ولهذا فإن الاستنتاجات المستخلصة من هذه البيانات التى تجمع أسبوعياً وتحلل كل شهر باستخدام الكمبيوتر فى وحدة تحليل البيانات التى تشمل أربعة متخصصين فى هذا المجال والتى كانت تقع تحت إشرافى المباشر، هى استنتاجات ذات درجة عالية من المصداقية يصعب التشكيك فيها كما أن وحدة التحليل تستطيع أن تبرز أى تحيزات أو بيانات شاذة فى أى منطقة جغرافية حتى نتمكن من متابعتها، ورغم حاولات جهات معينة داخل هيئة الأمم المتحدة وخارجها لإثارة الشبهات حول النتائج فإن هذه المحاولات لم تنجح بعد أن تحقق خبراء دوليين جاءوا خصيصاً لهذا الغرض من الأسلوب العلمى الصارم والواضح، ومن الضرورى هنا أن نشير إلى أن برنامج الملاحظة الذى وضعته الـ UN اعتمد على الشك فى قدرات ورغبة الحكومة العراقية في كفاءة وعدالة التوزيع، ولهذا اعتمد نظام الملاحظة على ثلاثة مستويات مستقلة أحدها تقوم به وكالات الـ UN المختلفة: WFP واليونسكو والفاو ومنظمة الصحة العالمية واليونسيف.. إلخ، والمستوى الثانى تقوم به ما يسمى بالمجموعة الجغرافية والمستوى الثالث تقوم به ما سمى بالمتعددة التخصصات. ومن الواضح لكثير فى الـ UN ويعد أكثر من ٢٠ شهراً من أداء البرنامج بأن هذه المستويات الثلاثة غير ضرورية بالمرة بالإضافة إلى الأعباء المالية التى يتحملها العراق دون داع ،ولعل شهادة رئيس المجموعة المتعددة التخصصات فى صحيفة الاندبندت البريطانية فى أواخر ديسمبر الماضى خير دليل على صدق المعلومات التى تؤكد كل شهر كفاءة توزيع المواد الإنسانية وعدالة التوزيع دون استثناء مواطنين لأسباب دينية أو سياسية، ودون تسرب هذه المواد للحكومة العراقية وأعوانها مما يتناقض تماماً مع مقولات غير صحيحة من قبل مسئولين بالحكومات الأمريكية والإنجليزية، وتكمن أهمية هذه الشهادة ليس لكون قائلها إنجليزياً بل لكونه من أكثر المسئولين فى الـ UN ببغداد من حيث التشكيك غير المبرر

والعدوانية مما شكل مواجهات مستمرة معه.

● الحياة في العراق بعد ثمانية أعوام من الحصار

وحتى نتصور مدى تدهور الأوضاع ودرجة المعاناة فى العراق يجب أن نعود إلى ما قبل الحصار ونعطى نبذة قصيرة عن الأوضاع المعيشية التى سادت العراق قبل حرب الخليج.

يعد العراق قبل الحرب من الدول التى لها بنية تحتية جيدة وحديثة فبفضل ثروة العراق البترولية التى تشكل ٩٠٪ من صادرات (عشرة مليارات دولار سنوياً قبل الحصار) والاستثمارات الهائلة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية تطور العراق تطوراً هائلاً انعكس بشكل جيد على مستوى المعيشة والصحة العامة لغالبية المواطنين العراقيين، إن التقارير المتعددة والمنشورة لوكالات هيئة الأمم المتحدة وهيئات مستقلة أخرى ترصد هذا التقدم فى كل المجالات نسرد منها أمثلة محدودة فى مجالات الغذاء والصحة والتعليم:

فى المجال الغذائى: كان متوسط الاستهلاك الغذائى قبل الحصار مقدراً بالسعرات الحرارية من أعلاها فى الشرق الأوسط (ثلاث آلاف سعر حرارى فى المتوسط للفرد) ولكن لابد من التنويه أن حوالى ٧٠٪ من هذا الغذاء مستورد من الخارج مما جعل العراق معرضاً لسلبيات الحصار بشكل حاد.

وفى المجال الصحى: توفرت قبل الحصار مياه الشرب النقية ووسائل الصرف الصحى الحديث لغالبية مواطنين العراق كما توفرت خدمات صحية جيدة لأكثر من ٩٠٪ من العراقيين، وكانت هناك أكثر من ٢٥٠ مستشفى وشبكة واسعة من مراكز الرعاية الصحية الأولية، ولقد تحسنت بشكل ملحوظ المؤشرات الصحية حتى أثناء الحرب العراقية الإيرانية رغم التأثير السلبى لهذه الحرب على الاقتصاد العراقى عموماً، ارتفع متوسط العمر من ٤٩ سنة إلى ٦٧ سنة فى الفترة ما بين ١٩٦٠ إلى ١٩٩٠، وانخفضت وفيات الأطفال دون الخامسة من ٢٢٢ لكل ألف عام ١٩٦٠ إلى ٤٤ فى عام ١٩٨٥.

وفى المجال التعليمى: نجح العراق فى خفض معدلات الأمية من ٥٠٪ عام ١٩٧٠ إلى ٣٠٪ عام ١٩٩٠ وفى عام ١٩٨٠ كان ٨٦٪ من الأطفال فى عمر المدارس الابتدائية يذهبون للمدارس بانتظام.

وجاء التدمير الشامل والمقصود لكل مرافق العراق المدنية أثناء حرب الخليج، فشكلت الأهداف المدنية ٢٥٪ من كل الأهداف ودمرت البنية التحتية العديد من طرق وكبارى وسكك حديدية ومحطات توليد كهرباء وتكرير البترول وصرف صحى ومستودعات تخزين غذاء ومصانع مدنية وشبكات إتصال، لقد دمرت الحرب ١٨ محطة توليد كهرباء ضخمة من مجموع ٢٠ محطة مما أدى إلى انخفاض

الكهرباء إلى ٤٪ من مستواها قبل الحرب، كما أن وهم العمليات الجراحية التي تدك المنشآت دون خسائر بشرية هو مجرد وهم بل هو جزء من حملة التضليل المقصودة حتى لا تكون هناك معارضة إنسانية واسعة، فالقنابل الذكية شكلت ٨٠٪ فقط من كل القنابل كما أنها لم تكن ذكية فهى لم تصب أهدافها فى خُمس الحالات وتراوحت نسبة إصابة الأهداف لجميع أنواع القذائف من ٥٠٪ - ٧٠٪ وحطم حوالى ٩ آلاف منزل فى العراق وقتل حوالى ٣ آلاف مدنياً حسب تقديرات هيئة الأمم المتحدة الرسمية فى مارس ١٩٩١، قد تعطى هذه السطور المعدودة فكرة سريعة عن مدى الدمار الذى لحق بالعراق والذى يحتاج إلى أكثر من ٢٠٠ مليار دولار لإعادة مرافقه المدنية.

أثر هذا الدمار والحصار الاقتصادى الشامل (الذى فرض على العراق ٦ أغسطس ١٩٨٩ قبل حرب الخليج التى بدأت فى ١٧ يناير١٩٩١ واستمرت ٤٢ يوماً) تأثيراً هائلاً على الحياة اليومية للمواطن العراقى وعلى الوضع الاقتصادى والصحى بالعراق، فالسلة الغذائية التى كانت توفر فى المتوسط ٣ آلاف سعر حرارى للفرد وكانت تتكلف ما يعادل فى يوليو ١٩٩٠ قبل الحصار ٢٥ دولاراً لأسرة مكونة من ستة أفراد متوسط دخلها حوالى ٣٠ دولاراً، أصبحت هذه السلة تكلف ما يعادل ٢٠٠ دولار فى عام ١٩٩٥، علماً بأن متوسط الدخل الشهرى فى العام نفسه حوالى خمسة دولارات، ولولا توزيع الحكومة لحصة تموينية شهرية تعادل ثلث ما كان يحصل عليه المواطن العراقى (تكافىء ٧٠ ألف دينار أى حوالى ٧٠ دولاراً) لحدثت مجاعة مريعة فى العراق، والآن يكفى أن نسوق مثالاً على تبخر القيمة الشرائية للمرتبات فمرتب مدرس ثانوى وهو حوالى ٨ - ١٠ آلاف دينار أى ما يعادل ٥- ٦ دولارات وتكافىء ٨٠ بيضة أو فرختين، هذا قبل برنامج النفط مقابل الغذاء الذى وفر ثلثى السلة الغذائية السابقة للحصار منذ مايو ٩٧ ولكن لابد من التأكيد بأن هذه السلة لا تشتمل على بروتين حيوانى ولا توفر بشكل كامل احتياجات غذائية ضرورية مثل الكالسيوم والحديد وبعض الفيتامينات.

وقد تسبب تدمير محطات الكهرباء ومصانع الكلور الضرورى لتنقية المياه إلى تعطيل محطات تنقية المياه فانخفضت كمية المياه الصالحة للشرب إلى ٥٪ مما كان متوفراً قبل الحرب بحسب تقرير وفد هيئة الأمم المتحدة فى فبراير عام ١٩٩١، واضطر المواطنون إلى شرب المياه من الأنهار مباشرة والملوثة بالصرف الصحى

غيـر المعـالج، وبالرغم من الإصـلاحـات والمجهودات الكبيرة فإن قطاعات واسعة لا تحصل على مياه شرب نقية حتى الآن.

دمرت الحرب أيضا محطات معالجة الصرف الصحي والتي تحتاج إلى طاقة كبيرة ويكفي أن نذكر أن نصف الصرف الصحي في بغداد في عام ١٩٩٥ يصب دون معالجة في نهر دجلة وينتقل بذلك إلى جنوب العراق.

أدت كل هذه العـوامل لانتـشـار الأمـراض المعـدية من تيـفـود وكـوليـرا وأمراض معوية وسل وشلل أطفال وكبد وبائي.. إلخ، وأصبح الإسهال العامل الأول المسبب لوفاة الأطفال فتضاعف بهذا السبب وحده ٣ مرات، وجاءت زيادة الكوليـرا التي كـانت قـضى عليـهـا في الثمـانينات في شكل وبائي حيث رصدت ١٢٠٠ حالة أكيدة في عام ١٩٩١ وانتشر التيـفـود بسرعـة إلى عـشـرة أضعـاف معدلات ما قبل الحرب وأدى النقص في الكهرباء لحفظ الأمصال ونقص في الإبر التي دمرت مصانعها أثناء الحرب إلى توقف حملات التطعيم حتى مارس ١٩٩١ وبدأ برنامج التطعيم يعـود مـرة أخـرى لمستويات ما قبل الحرب في أواخر ١٩٩١.

نسـتطيع أن ندرك بعـد ذلك كـيف تدهورت الأوضـاع الغـذائيـة للأطفـال، فحـالات سوء التـغـذية للأطفـال دون الخامسة وصلت إلى مستويات خطيرة حوالي ٢٥٪ أمـا حـالات سوء التـغـذية المزمن (التقزم) وصلت إلى ٢٧٪ أما سوء التغذية الحاد (الهزال) وصلت معدلات إلى ٩٪، هذه الأرقام اعتمدت على دراسات ميدانية قامت بها منظمة اليونسيف وساهم فيها فريق الملاحظين للـ AFP الذي أشرف عليه وقد ساهمت بنفسي فيها، وقد نشر حول هذا الموضوع في جريدة الواشنطن بوست في ٢٢ أكتوبر الماضي واعتمدت على عينات عشوائية لأطفال لأثناء حملات التطعيم ضد شلل الأطفال في عام ٩٦ وتكررت الدراسة في الأعوام التالية دون تغير في الأرقام اللهم إلا تحسنا طفيفا في محافظات الشمال أي أن الأوضاع التغذوية المتردية ظلت على معدلاتها الخطيرة، رغم أن برنامج النفط مقابل الغذاء قد استمر حوالي ٢١ شهرا حتى آخر دراسة في نوفمبر الماضي مما يؤكد أن الأوضاع الصحية تحتاج لعدة عوامل يجب توافرها معاً حتى تؤدي إلى تحسن ملموس أهمها: غذاء كاف يوفر الاحتياجات الغذائية الضرورية وماء نقي وصرف صحي جيد وخدمات صحية بما في ذلك التطعيم والدواء والعناية الطبية.

وكنت أرى بعيني في المستشفيات بالمحافظات المختلفة من أقصى الشمال إلى الجنوب أطفالاً يعانون من الهزال والتقزم وكان يموت بعضهم أمام أعيننا وفي أحضان أمهاتهم ووجوم الأطباء الذين لايستطيعون فعل أي شيء بعد أن ضعفت

الحياة فى العراق

أجسام هؤلاء الأطفال بمنع حق أساسى لهم وهو الغذاء وجعلهم عرضة للمرض والموت الأكيد . وقد أخذت بعض الصور لهؤلاء الأطفال حتى نشاهد أثراً مباشراً لجريمة الحصار، وقد وصلت معدلات وفيات الأطفال بسبب الحصار إلى ستة آلاف طفل كل شهر كحد أدنى حسب أرقام ودراسات منظمة الصحة العالمية ببغداد وفى حديث مع رئيس المنظمة أكد لى أن هذه الأرقام تشكل حداً أدنى بسبب عدم تسجيل بعض الوفيات.

تذكرت عند زيارة أحد مستشفيات الأطفال وأنا أرى عدداً من الأطفال على شفا الموت مشهداً تليفزيونياً عندما سألت المذيعة ليسلى ستول العاملة بإحدى شبكات التليفزيون الأمريكى CBS مادلين أولبرايت وكانت تعمل آنذاك ممثلة للحكومة الأمريكية فى هيئة الأمم المتحدة ما إذا كان موت الأطفال بسبب الحصار يعادل المكاسب السياسية للحصار فنظرت أولبرايت فى الكاميرا وقالت «نعم يساوى».

وفى مجال الخدمات الصحية: فقد أصابت الصواريخ وزارة الصحة نفسها وعدداً من المستشفيات التى كانت مجهزة بشكل جيد ولكن الدمار والتخريب الذى أعقب الحرب فى مناطق عديدة بالعراق سبب خسارات كبيرة فى المعدات الطبية الحديثة، وفى قطاع الدواء والمستلزمات الطبية: اعتمد العراق على استيراد حوالى ٧٥٪ من احتياجاتها بقيمة نصف مليار دولار مما جعل الحصار يؤثر بشكل حاد فى نقص الدواء، ومما ضاعف ذلك تحطيم الصناعات الدوائية أثناء الحرب، وقد تسبب النقص فى الدواء والخدمات الصحية فى ارتفاع معدل الوفيات التى فاقت بكثير الخسائر البشرية بسبب القصف والدمار المباشر.

وللقارىء أن يتصور كيف أن نقص الأنسولين ودواء القلب والضغط وحتى الحقن والإبر وخيوط الجراحة قد تسبب فى الألوف من الوفيات (يصعب إحصاءها بدقة) نتيجة الحصار المباشر.

وقد لمست هذه المشاكل مباشرة عندما اضطرت إحدى الملاحظات الدوليات العاملة تحت إشرافى إجراء جراحة عاجلة فى مستشفى خاص ورغم أن جراحاً قديراً قام بالعملية ورغم الإمكانيات المادية التى وفرتها الـ UN (على حساب الشعب العراقى) والتى لا يمكن أن تتاح إلا لنسبة ضئيلة من الشعب العراقى فى ظروف الحصار ورغم نجاح العملية التى أنقذت المريضة من موت محقق فإن خيوط الجراحة التى استعملت كانت قديمة مما تسبب فى تلوث الجرح بعد بضعة أسابيع مما استلزم عملية أخرى فى عمان.

ولنا أن نتساءل كم من المرضى العراقيين احتاجوا لعمليات بسيطة كان النظام الصحى العراقي يوفرها لهم قبل الحرب ولكن بسبب الحصار الظالم لم تجر لهم هذه العمليات فكان الموت من نصيبهم، وبذلك نفهم استراتيجية الضرب الأمريكى/ الإنجليزى أثناء حرب الخليج فهى استهدفت أهدافاً مدنية بعينها تؤدى بعد تدميرها إلى استمرار الضحايا بشكل متصاعد كما عبر عنه اريك هوسكنز (اضرب الآن واقتل لاحقا).

وفى مجال التعليم: دمرت الحرب مئات من المدارس كما أدى التخريب والسرقات إلى ضياع كميات كبيرة من الأثاث المنقول والكتب والأدوات التعليمية، وقد أدت المجهودات الواسعة إلى إعادة تأهيل معظم هذه المدارس بدرجة جزئية ولكن النقص الهائل فى الكتب والأدوات بالإضافة إلى تبخر القيمة الشرائية لمرتب المدرسين والمدرسات أخر بالعملية التعليمية بشكل واضح بالإضافة إلى انقطاع الكهرباء المستمر ومنع استيراد أدوات تعليمية بسيطة مثل أقلام الرصاص التى تعتبرها لجنة العقوبات أحد المواد التى يمكن استخدامها عسكريا (مواد ذات الاستعمال المزدوج) للكربون الذى يحتويه ومثل أتوبيسات المدارس والكمبيوتر.

ومن هنا نتفهم الآثار بعيدة المدى للحصار فى مجالات تعليم النشء والصحة والغذاء وكل حقوق أساسية للإنسان أى أن الحصار الاقتصادى الذى فرضته هيئة الأمم المتحدة يتناقض مع مواثيق هيئة الأمم ذاتها سواء ميثاق حقوق الإنسان - حقوق الطفل - حقوق المرأة - حق التعليم - حق التنمية.. إلخ .

المعارضة في داخل أمريكا

يجب التنويه إلى أنه رغم التعتيم الإعلامى فى أمريكا حول العراق وما يدور فيها اللهم إلا نادراً فهناك شريحة من المجتمع الأمريكى التى تعارض بشدة العدوان على العراق الحالى والسابق وتعارض بحدة الحصار اللا إنسانى على العراق لما يسببه من وفيات لآلاف الأطفال والكبار، هذه المعارضة تنطلق من منطق إنسانى ويشترك فيها تجمعات أمريكية تنادى بالسلام الحقيقى وترفض العنصرية والعنف وبعضها من منطلقات دينية تحض على الأخوة والإنسانية، ويشترك فيها كثير من المثقفين وشباب الجامعات وتؤيدها قطاعات أوسع من الأقليات العرقية فى أمريكا «سود ومن أصل مكسيكى.. الخ». كما يشارك فى هذه المعارضة عدد من المنظمات العربية الأمريكية وجزء من الجالية العربية والإسلامية.

التكوين

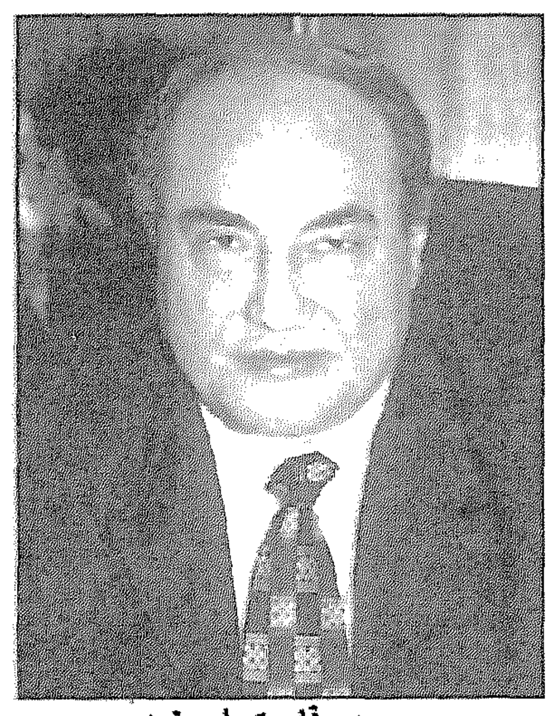
تغريبة بني هلال وراء عشقي لفكرة العروبة

فاروق أبو زيد

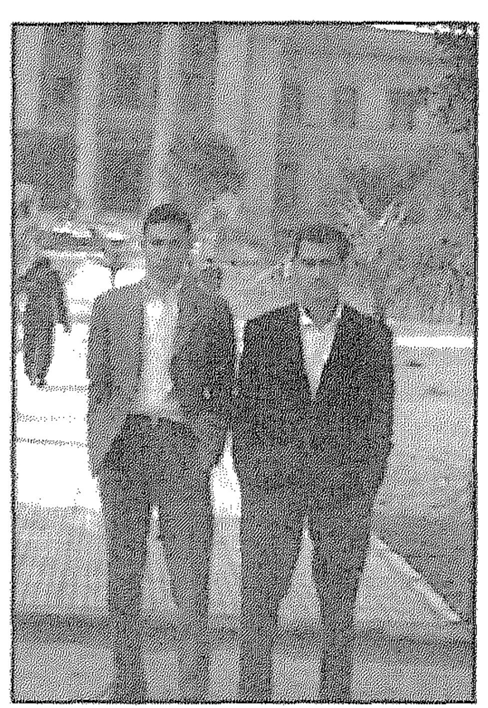
لا أعرف بالتحديد متى بدأ اهتمامى بالقراءة، وكل ما تعيه الذاكرة أننى لم أعرف لنفسى هواية حقيقية طوال حياتى سوى القراءة، بحيث اتخيل احيانا أننى ولدت وأنا أعرف القراءة!

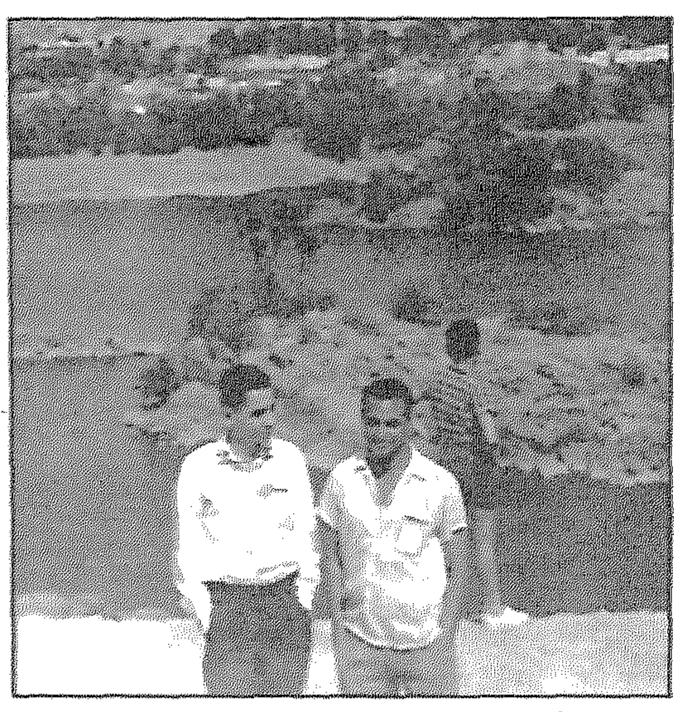
ولكنى متأكد تماما أننى تعرفت على القراءة فى فترة مبكرة من طفولتى، من خلال قراءتى لتغريبة بنى هلال، وقبل ان أقرأ التغريبة، تعرفت عليها أولا عن طريق السماع، من خلال حكايات جدتى لأبى فى ليالى صعيد مصر الطويلة، فقد ولدت فى أوائل الأربعينات من هذا القرن فى قرية «بنى رزاح» بمحافظة أسيوط..





د. فاروق ابو زيد


اثناء الدراسة بقسم الصحافة بجامعة القاهرة مع الصحفى حسنين كروم


فى موقع السد العالى عام ١٩٦٠

وكانت القرية تقع على مشارف مدينة «ابنوب الحمام»، وسرعان ما نمت المدينة، فاحتوت القرى التى تحولت الآن إلى حى من أحياء المدينة الكبيرة.

ولم يتبق فى الذاكرة عن «بنى رزاح» سوى ما سمعته من جدى وجدتى، أنها كانت بطنا من قبيلة بنى هلال، اختارت ان تستقر فى صعيد مصر اثناء رحلة القبيلة إلى الشمال الافريقى.

وقد لعبت جدتى لأبى دورا كبيرا فى تكوينى فى فترة الطفولة المبكرة، فقد كنا نسكن جميعا فى بيت العائلة الكبير، وكانت جدتى وجدى يشغلان الطابق الأول منه، فى حين تشغل بقية أدواره الثلاثة اسرتى وأسر اعمامى الخمسة.

حكايات جدتي

وكانت الجلسة المفضلة لى ولبقية أطفال العائلة فى الطابق الأول وفى أحضان الجدة، نسمع منها الحكايات التى تملأ بها ليالى الصعيد الطويلة والتى تبدأ بعد الغروب بقليل ولا تعرف لنهاياتها وقتا محددا، وما أعيه الآن أن الحكايات كانت تدور كلها حول «تغريبة بنى هلال»، بطولات أبى زيد الهلالى سلامة، وحماقات دياب ابن غانم وحكمة القاضى بدير وقسوة الزناتى خليفة، وكدت ان لا افرق بين الجو الاسطورى للتغريبة وبين الواقع الذى اعيشه، اذ انتشرت حولى

اسماء لأعمام وعمات وأخوال وخالات، منهم خليقة ودياب وعلام ومرعى وسعده ويعذيه..!

واستقر فى وعيى منذ الصغر أننى مصرى من أصول عربية، لذلك لم يكن غريبا بعد ذلك فى مرحلة الشباب أن أنجذب إلى الفكر القومى العربى، بحيث أصبح هذا الفكر يشكل البنية التحتية لتوجهاتى الفكرية حتى الآن.

أما جدى لأبى فقد كان يحلو له ان يقوم بتحفيظ احفاده شجرة العائلة، وكان يفخر دائما بأنها تعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان أطفال العائلة، إذا أرادوا التقرب إلى الجد لأى سبب من الأسباب، فإنهم يتبارون فى «تسميع» شجرة العائلة، ما عداى فلم أنجح يوما فى تذكر شجرة العائلة كاملة!

وعندما أردت أن أضمن هذه المقالة شجرة العائلة، اضطررت للاستعانة بأخى الأكبر، الذى «سمّعها» لى على الهاتف كاملة، وقد حملت نبرات صوته رنة عتاب، وكأنه يلومنى على نسيانى إياها.

شجرة العائلة

ولكن هذه «الشجرة» كانت السبب فى شغفى الشديد بقراءة السيرة النبوية.

وقد بلغ شغفى بالسيرة النبوية، أن قمت بتحقيق أول كتاب فى السيرة النبوية فى العصر الحديث كتبه رفاعة رافع الطهطاوى ونشره فى فصول بمجلة «روضة المدارس» المصرية تحت عنوان «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» وقمت بإعادة نشره فى خمسة مجلدات عام ١٩٧٦م.

وامتد شغفى بالسيرة النبوية إلى الاهتمام بالقراءة فى تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية وفى الشريعة والفقه، ووضعت كتابا فى عام ١٩٧٨ بعنوان «الشريعة الاسلامية بين المحافظين والمجددين»، وقد خرجت من ذلك كله بموقف يرفض كل التيارات التى حاولت ان تقيم تناقضا بين فكرة العروبة وبين الاسلام، فالاسلام لعب الدور الأساسى فى بناء العروبة، وان العرب قاموا بدور رئيسى فى بناء الحضارة الاسلامية.

فى أواخر الأربعينات مات جدى لأبى، وضاقت ابنوب على طموحات أعمامى، وكانوا جميعا من المتعلمين وهو أمر نادر الحدوث فى قريتى فى ذلك الزمان، وحملت الطموحات اثنين منهم إلى عاصمة القطر، فى حين اتجه الآخران إلى مدينة المحلة الكبرى، وكانت مدينة صناعية ناهضة فى ذلك الوقت، وبقى أبى وحده فى القرية يرعى مصالحهم، وقد ساعده تعليمه على الارتقاء بتجارة

العائلة حتى صار واحدا من كبار تجار القطن ليس فى أبنوب وحدها وإنما فى محافظة أسيوط كلها، وفجأة اختطفه الموت فى مطلع الخمسينات تاركا زوجة وأربعة صبيان أكبرهم فى الثانية عشرة وطفلة واحدة رضيعة.

و«صفصف» البيت الكبير علينا وحدنا، جاء الأعمام وأصروا على تصفية تجارة العائلة، والانتقال بنا إلى القاهرة حتى نكون تحت رعايتهم وليضمنوا استمرارنا فى التعليم.

القاهرة.. عالم متسع

وهكذا وجدت نفسى فجأة فى القاهرة وأنا بين التاسعة والعاشرة من العمر، واختار لنا أحد الأعمام أن نسكن بجواره فى حى الأزبكية بوسط القاهرة فى شقة قد يراها البعض الآن متسعة، ولكنها كانت بالنسبة لمن عاش مثلنا فى بيت العائلة الكبير بالصعيد ك (الحُق)! ولكن من ناحية أخرى بدت لى القاهرة كعالم متسع لا أول ولا آخر له مقارنة بقريتى الصغيرة.

وكانت أهم ميزة لسكنى الجديد قربه من شارع الفجالة حيث تنتشر عشرات المكتبات التى تبيع الكتب المدرسية وغير المدرسية، وكذلك من سور الأزبكية الشهير حيث تعرفت لأول مرة على ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، ومغامرات أرسين لوبين أو اللص الشريف ومغامرات روكامبول.

وكان سكنى بنفس القرب من شارع عماد الدين وشارع فؤاد وشارع سليمان، حيث تنتشر دور السينما بمختلف مستوياتها، وكانت شيئا جديدا لم أعرفه فى أبنوب، وفتحت أمامى بابا جديد للفرجة وثقافة الصورة.

ولم يمض وقت طويل حتى قادتنى قدماى إلى ميدان العتبة الخضراء ومنه دلفت إلى شارع الأزهر لأكتشف عالما جديدا فى حى الحسين.

وفى القاهرة التحقت بمدرسة الإيمان، حيث قضيت بها فترتى الدراسة الابتدائية والإعدادية وكانت المدرسة ملكا لجمعية الإيمان القبطية، ورغم ذلك فقد كان أكثر تلاميذ المدرسة من المسلمين، وكونت صداقات عديدة استمرت معى حتى الآن، ولم أشعر يوما بأن هناك فرقا بين مسلم ومسيحى، وقد تعمق هذا الشعور فى وجدانى بحيث لم يكن يمنعنى من التواصل مع الآخرين اختلاف فى العقيدة الدينية أو فى النهج السياسى أو فى أسلوب النظر إلى الحياة.

بين السياسة والصحافة

وفى نهاية المرحلة الإعدادية، بدأ

تعرفى على الحياة السياسية بحادثة درامية، كان ذلك فى عام ١٩٥٤، عندما أرغم الرئيس محمد نجيب على الاستقالة، وكان محبوبا من الشعب، فخرجت المظاهرات تطالب بعودته، وكان يحيط بمدرستنا عدد من المدارس الثانوية التى خرج طلابها للتظاهر، وأحسسنا بالغيرة منهم، وتجمع تلاميذ المدرسة الصغار فى حوش المدرسة يطالبون بالخروج فى المظاهرة، فمنعنا المدرسون خوفا علينا بسبب صغر سننا، واندفعت ومعى عدد من التلاميذ الأشداء لنحطم باب المدرسة الخشبى واندفع وراءنا بقية التلاميذ، ووجدنا أنفسنا فى الشارع نهتف كما يهتف الآخرون دون أن نعرف شيئا عن أسباب المظاهرة، وكان أطولنا قامة أخى إبراهيم الذى يكبرنى بعام واحد، وفجأة ظهر جنود الشرطة بعصيهم الغليظة، فتفرقنا، ولكنهم أمسكوا بأخى، حيث قضى أسبوعا كاملا فى حجز قسم عابدين، ثم اطلقوا سراحه بعد أن تأكدوا أنه لا يدرى عن المظاهرة شيئا، وأنهم خُدعوا بطول قامته..!

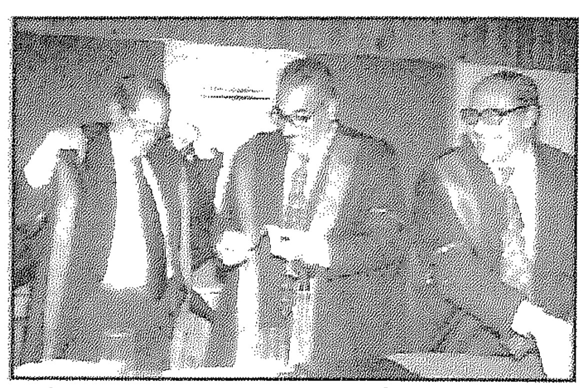
ومن يومها بدأ اهتمامى بالسياسة والصحافة، فلكى أفهم فى السياسة، كان من الضرورى أن أقرأ عنها فى الصحافة، وفى الصحف تكشفت لى عوالم أخرى لم تكن تتيحها لى قراءاتى فى تغريبة بنى هلال وألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وروايات أرسين لوبين ورو كامبول التى كنت اشتريها بنقود زهيدة من سور الأزبكية.

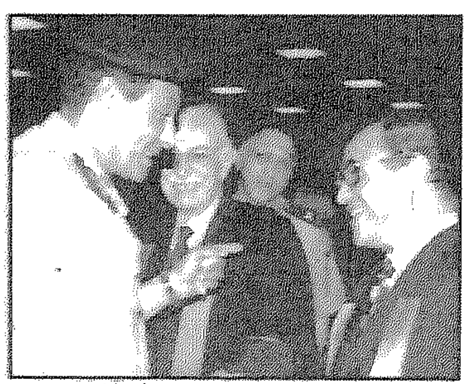
وعندما لم تكن الصحف تسعفنى لفهم بعض الأمور بدأت أستعين بالكتب عن أشخاص وأحداث وأماكن يأتى ذكرها فى الصحف ولا أدرى عنها شيئا، وبدأت بتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ومنه انتقلت إلى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتى ثم دلفت إلى ابن اياس والمقريزى وغيرهم من مؤرخى مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية.

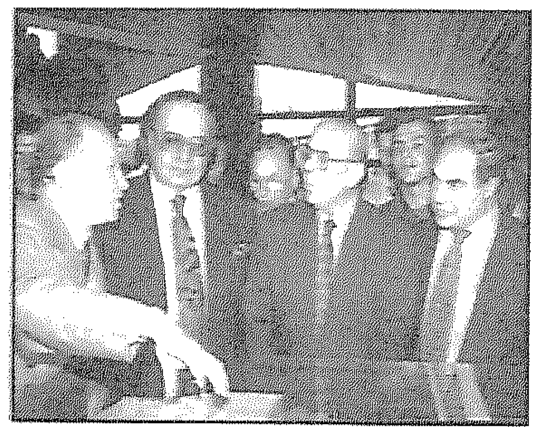
ومن الصحف تعرفت أيضا على كتابات طه حسين والعقاد وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ومحمد التابعى وفكرى أباظة، ثم بدأت أبحث عن كتبهم، وعندما لم يسعفنى سور الأزبكية قادتنى قدماى إلى دار الكتب بباب الخلق وهناك اطلعت على معظم مؤلفات طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل وزكى مبارك وسلامة موسى، ودفعتنى مؤلفات طه حسين والعقاد إلى محاولة تذوق الشعر فقرأت دواوين شوقى وحافظ ومطران وناجى، ومنهم انتقلت إلى البارودى

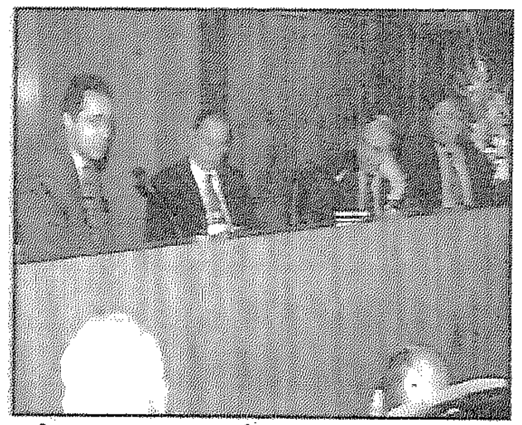

أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه عام ١٩٧٥


فى لندن مع ابنته الوحيدة دينا صيف ١٩٨٧


مع د. اسامة الباز ود. على عجوة قبل مناقشة إحدى رسائل الدكتوراه


مع المشير حسين طنطاوى ود. مصطفى كمال حلمى


فى افتتاح كلية الاعلام مع د. مفيد شهاب ١٩٩٥


مع جمال مبارك وفاروق اسماعيل فى ندوة الاعلام والشباب ١٩٩٨

والمتنبى، وملت إلى الشعر الحر وتحمست لبدايات صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى، وجربت كتابة الشعر الحر، كما جربت كتابة القصة القصيرة. ولكنى لم أجد نفسى إلا فى الكتابة الصحفية وفى البحث العلمى.

لقد استغرقت هذه المرحلة فترة الدراسة الثانوية وجزءا كبيرا من المرحلة الجامعية، وقد كنت دائما من المتفوقين فى الدراسة، لذلك لم أجد صعوبة تذكر فى اختيار نوع الدراسة الجامعية التى أحبها، وكان من الطبيعى أن اختار دراسة الصحافة التى عشقتها منذ أول يوم قرأت فيه صحيفة.

وفى قسم الصحافة بكلية الآداب بجامعة القاهرة تعرفت على عدد من الأساتذة وكبار الصحفيين الذين كانوا يُدرّسون لنا، وكان فى مقدمتهم المرحوم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة، رئيس القسم خلال فترة دراستى به، وقد تأثرت كثيرا بمجلده الضخم أدب المقالة الصحفية فى مصر، وقد ظهر هذا التأثير بعد ذلك عندما انضممت إلى هيئة التدريس بقسم الصحافة، حيث قمت بتدريس مادة التحرير الصحفى، ووضعت فى هذا التخصص ما يزيد على عشرة كتب أعتبرها امتدادا لمدرسة الدكتور حمزة. وتعلمت من الأستاذ الدكتور خليل صابات، أطال الله فى عمره، كيفية التفكير الحر المتجرد من الخوف والخالى من الغرض، أما الأستاذ الدكتور مختار التهامى فقد أخذت عنه أن الوطنية لا تنفصل عن العلم، وأن البحث العلمى يجب أن يوضع فى خدمة المجتمع وإلا تحول إلى ترف فكرى، وتأثرت كثيرا بالمرحوم الأستاذ الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة القاهرة والمؤرخ البارز، وعنه أخذت أن البحث العلمى يقوم على الموضوعية وعدم التحيز لمدرسة من المدارس أو لمذهب من المذاهب، وإنما على الباحث أن يكشف عن الحقيقة ليعلنها دون تحفظ.

شهادة أعتز بها

وقد أحببت المرحوم مصطفى أمين رغم اختلافى معه فكريا، فقد كان يؤمن بالأجيال الجديدة ويشجعهم، وكم أحسست بالفخر عندما منحنى جائزة العشرة جنيهات، تلك التى كان يمنحها للطالب الذى يكتب أحسن موضوع صحفى فى كل محاضرة من محاضراته فى التدريب العملى على الصحافة، ومازلت أتذكر حتى اليوم وصفه لأسلوبى بأنه «رشيق، راقص، يقوم على الجمل القصيرة، وأن كل لفظ يقابله معنى»، واعتبرت تلك الشهادة وقتها وساما على صدرى.

ولكن أهم تجربة فكرية لى فى الجامعة كانت تعرفى على عدد من الزملاء الشوام، وغيرهم إذ تعرفت على أهم التيارات الفكرية والسياسية التى كانت تسود العالم العربى فى ذلك الوقت، وكان أبرزها حركة القوميين العرب وحزب البعث العربى الاشتراكى، وقرأت لبعض مفكرى البعث وقتها وأبرزهم ميشيل عفلق ومنيف الرزاز، كما قرأت لبعض مفكرى حركة القوميين العرب ومن أبرزهم الحكم دروزة ومحسن إبراهيم، كما شجعونى على قراءة مؤلفات ساطع الحصرى وكانوا يعتبرونه أباهم الروحى، وانجذبت أكثر إلى أفكار القوميين العرب، فقد تلاقت مع اتجاهاتى العروبية منذ تعرفى على تغريبة بنى هلال، كما أنها كانت قريبة من الفكر الناصرى الذى كان يسود الحياة السياسية فى مصر فى ذلك الوقت.

ولم أفكر فى الانضمام إلى تنظيم حركة القوميين العرب رغم كثرة محاولاتهم، فقد كانت طبيعتى تنفر من القولبة الفكرية والتنميط والالتزام الحزبى.

فى أثناء دراستى بالجامعة تدربت فى أكثر من صحيفة، فى أخبار اليوم ودار الهلال ودار التحرير وفى روز اليوسف، واستهوتنى أكثر مدرسة روز اليوسف الصحفية بمنهجها الجرئ فى تناول القضايا والأحداث رغم ضيق هامش الحرية الصحفية فى تلك الفترة. وعقب إعلان النتيجة فى سنة التخرج وكان ذلك فى عام ١٩٦٣، وجدت نفسى من الأوائل، ولكنى تلقيت مع زملائى الخمسة الأوائل للدفعة عرضا مغريا من أستاذنا الدكتور رجاء العزبى للعمل معه فى مجلة الإذاعة، حيث كان يرأس تحريرها إلى جانب عمله بالجامعة، وكان يخطط لإحداث تطوير جذرى بالمجلة ومنه تغيير اسمها إلى «مجلة الإذاعة والتليفزيون» استيعابا للوافد السحرى الجديد وهو التليفزيون، ووافقنا على الفور، وصدر قرار من وزير الإعلام فى ذلك الوقت الدكتور محمد عبد القادر حاتم بتعييننا نحن الخمسة فى مجلة الإذاعة.

التكوين الثقافي

وبدأت مرحلة جديدة، تطلبت نوعا جديدا من التكوين الثقافى، وأخذت أقرأ فى كل المجالات التى تدخل فى تخصص المجلة، وكنت قد حصلت على قدر معقول من الثقافة الإذاعية والتليفزيونية من خلال مناهج قسم الصحافة، ولكنها لم تكن تكفى، فقد كان يغلب على الدراسة فى القسم المناهج الصحفية، وهكذا فقد

أخذت ألتهم كل ما كانت تقع عليه عيناى من مؤلفات عربية أو أجنبية فى الفن الإذاعى والتليفزيونى، ولم تكن اهتمامات المجلة مقصورة على الراديو والتليفزيون، فهى تمتد إلى السينما والمسرح والموسيقى والغناء، وفيها أيضا قليل من السياسة، وحاولت فى البداية أن أتجه إلى الكتابة السياسية ولكنى وجدتها تكاد تقتصر على رؤساء التحرير فابتعدت عنها بعدما عانيت من مشكلات عديدة، فقد كان هامش الحرية فى المجلة أقل مما هو متاح فى الصحف الأخرى رغم محدوديته بسبب كونها مجلة حكومية.

واتجهت إلى الكتابة فى الراديو والتليفزيون، واكتشفت بعد قليل أن سياسة المجلة فى هذا المجال تجعل الكتابة فيه أقرب إلى الدعاية منها إلى الإعلام، وأن النقد فيه شبه محرم..!

فاتجهت إلى الكتابة فى السينما والنقد السينمائى، ثم انتقلت إلى الكتابة فى الموسيقى والأغنية، وفى كل مرحلة كنت أسعى لأن أحصل على قدر من المعرفة بما يؤهلنى للكتابة فى هذا المجال أو ذاك.

لقد استفدت كثيرا من خلال عملى بالمجلة، حيث قرأت فى أكثر من مجال وتعرفت على الكثيرين من العاملين فى الحقل الثقافى والفنى، ولكنى أدركت أنه طريق مسدود لمن يريد أن يبنى لنفسه مستقبلا، وهكذا قررت العودة إلى عشقى الأول، البحث العلمى والجامعة..!

عندما اخترت موضوع رسالتى للماجستير لم أكن أتوقع أنها ستفتح أمامى آفاقا لا حصر لها من ألوان المعرفة، كان موضوع الرسالة عن نشأة وتطور الفكر الليبرالى فى الصحافة المصرية، منذ نشأة الصحافة فى مصر عام ١٨٢٨ وحتى نهاية الثورة العرابية عام ١٨٨٢م، وحين بدأت التنقيب عن جذور الفكر الليبرالى فى مجموعات الصحف المصرية المحفوظة بدار الكتب بباب الخلق، اكتشفت أننى أحتاج أولا لأن أبلور رؤيتى لمفهوم الليبرالية حتى أستطيع أن أفرز هذا الفكر عن غيره من الأفكار، وبدأت أتتبع نشأة الليبرالية وارتباطها بظهور الطبقة البورجوازية فى غرب أوروبا، وقرأت لجان جاك روسو ومنتسيكيو وڤولتير وجيرمى بنتام وجون ستيوارت مل وتوماس هوبز وجون لوك ومارتن لوثر وكالڤن وجان بودان وميكياڤيللى وريكاردو، وتتبعت نمو الليبرالية منذ انتصارها فى القرن التاسع عشر، كما تابعت التطورات التى حدثت للفكرة فى القرن العشرين وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، كما لم

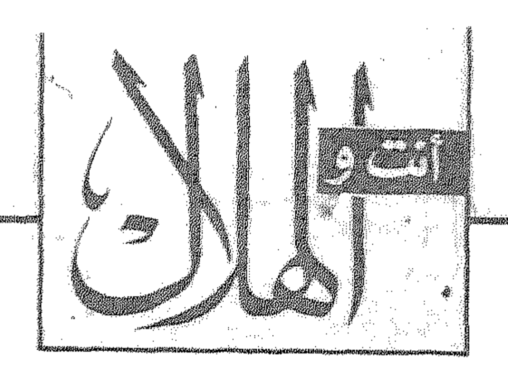
أتجاهل انتقادات الماركسية للفكرة الليبرالية، وهو الأمر الذى دفعنى إلى مزيد من القراءة فى الفكر الماركسى وتطور نظرته إلى الليبرالية.

وبهذه الحصيلة الفكرية اقتحمت مجلدات الصحف المصرية محاولا الكشف عن جذور الليبرالية المصرية فى كتابات رفاعة الطهطاوى فى جريدة الوقائع المصرية وفى مجلة روضة المدارس المصرية. كما تتبعت هذا الفكر فى كتابات الجيل الأول من رواد الصحافة المصرية من تلاميذ الطهطاوى، مثل عبد الله أبوالسعود فى جريدة «وادى النيل» ومحمد أنس فى «روضة الأخبار» ومحمد عثمان جلال وعبد السلام المويلحى فى «ثمرة الأفكار»، وميخائيل عبد السيد فى «الوطن» ومحمد قدرى وصالح مجدى وعلى فهمى رفاعة فى روضة المدارس المصرية.

كذلك تتبعت هذا الفكر فى كتابات رواد الصحافة المصرية الذين تحلقوا حول جمال الدين الأفغانى، أمثال الشيخ محمد عبده فى «مصر» و«التجارة» ثم فى «الوقائع المصرية»، وعبد الله النديم فى «التنكيت والتبكيت» و«اللطائف» ويعقوب صنوع فى «أبو نظارة» وأديب اسحاق فى «مصر» و«التجارة» وسليم النقاش فى «المحروسة» وحسن الشمسى فى «المفيد» و«النجاح».

واستغرقتنى التجربة، فقررت استكمال الموضوع فى رسالة الدكتوراه، والبحث عن الفكر الليبرالى فى الصحافة المصرية منذ الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ وحتى قيام الحياة النيابية فى عام ١٩٢٤م، وهكذا اطلعت على كل كتابات الشيخ على يوسف فى «المؤيد» ومصطفى كامل فى «اللواء» وأحمد لطفى السيد فى «الجريدة»، وإبراهيم المويلحى فى «مصباح الشرق»، وعبد العزيز جاويش فى «العلم» وأمين الرافعى فى «الأخبار» ومحمد حسين هيكل وطه حسين فى «السياسة» وغيرهم كثيرين.

وقد خلصت من ذلك كله إلى فكرة أساسية وهى أن الليبرالية المصرية لم تكن فكرا وافدا من الخارج وإنما كانت خلاصة فكر نبع من داخل المجتمع المصرى، وأن ظهور الفكر الليبرالى فى مصر جاء تعبيرا مباشرا عن التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى بيئة المجتمع المصرى، فالليبرالية فى مصر لم تكن سوى انعكاس لكل هذه التحولات على حركة الفكر المصرى.



● عام على رحيل الأديب كمال النجمى ●

● عام مضى على رحيل الأديب الكبير كمال النجمي والذى أثرى حياتنا بإبداعه النقدى فى مجال الأدب والنقد الموسيقى الفنى ، فضلا عن إثرائه للمكتبة بالعديد من الكتب ومنها على سبيل المثال لا الحصر «يوميات الجوارى والمغنين»، «أم كلثوم وعصر من الغناء» وديوان شعره الجميل «الأنداء المحترقة» .. و«عبد الوهاب مطرب المائة عام» و«أسلاك شائكة» .لقد قدمت له «دار الهلال» العديد من هذه الكتب والتى تعد ثروة قومية في مضمونها ، وما احتوت عليه من فكر رفيع وعمل دءوب ، كان هو السمة البارزة فى كل ما قدمه كمال النجمي سواء على صفحات «الهلال» أو على صفحات مجلة «المصور» التي تصدر عن دار الهلال .

إن الأدباء الذين يرحلون يتركون من ورائهم ما يذكرنا بهم ، وكمال النجمى واحد من هؤلاء . . لكنه ترك بصمة واضحة فى كل ما كتبه من خلال قلمه اللاذع الذى لا يجامل، ونقده الموضعى الذى يعد رسالة وأضحة لكل المشتغلين فى هذا المجال .

رحم الله هذا المبدع والأديب الكبير .

الهـــــلال

● لأنى أحبك ●

لأنى أحـــبك عشـــقت الوجـــود
وعشـــت للحياة بشمس الغـــد
لأنى أحبك كســـــرت القيـــود
وحطمـــت يأســـى بحلـــم ندى
عبرت الحدود وجـزت الســـدود
وجئت بقلبـــى لكـــى تسـعدى
أحبك حـــبا يفـوق الحـــدود
لأنـــك شمس بـــها أهـــتدى
فكم كنت دوما وفى الوعـــــود
ودومـــــا أبـــادر للموعـــد
لأنى أحبك كرهت الصـــــدود
توســــــلت رفقـــا لا تبعـدى

هداية محمود البهنساوى

● محمد علي .. هل كان كرديا ؟ ●

● قرأت في عدد أكتوبر ١٩٩٨ من مجلة «الهلال» بحثا بعنوان «محمد على باشا رؤية جديدة» وقد جاء فيه أن محمد على باشا كان جنديا ألبانيا متواضعا .

ولما كان هذا القول منافيا للحقيقة ، فقد اطلعت على مجلة «المصور» في «٢٥ نوفمبر ١٩٤٩» في مقابلة صحفية أجراها الكاتب الكبير عباس محمود العقاد مع الأمير محمد على ولى عهد المملكة المصرية يومئذ تحدث فيه عن جده محمد على باشا .. وكان من ضمن ما ذكره «لا أعلم ولا أبيح لنفسى الظن فيما لا أعلم ، ولكنى أحدثكم بشيء قد يستغربه الكثيرون عن نشأة الأسرة العلوية ، فإن الشائع أنها نشأت على مقربة من «قولة» فى بلاد الأرنؤود ، ولكن الذى اطلعت عليه فى كتاب ألفه قاضى مصر على عهد محمد على باشا ، أن أصل الأسرة من «ديار بكر فى بلاد الأكراد» ومنها انتقل محمد على وأخواه إلى «قولة» وقد عزز هذه الرواية ماسمعناه منقولا من الأمير حليم ، أنه كان يرجع بنشأة الأسرة إلى «ديار بكر» فى بلاد الأكراد .

إبراهيم أحمد

«صحفى سابق» - لندن

● بين السحاب والتراب ●

لو كنت طيــــرا طائرا .. فى الجـــو يعـــتنق الســـحـــاب
لوددت أنى كنت صـــقــــرا ، عـــاليـــا فـــوق الشـــعـــاب
يـغـــفـــو علـى صــخب الرياح ، وروحـــه روح الشــبـــاب
فـى عـــــيـنـه دمـع يـرقـــــــرق ، ثـم يـأبـى الانسـكـاب
فـى جـــــوفــــــه قـلـب حـنـون دافـىء دفء التـــــراب
حـــر يطيـــر مـــتى يشـــاء ، وســعـيــه قـــهـــر الصــعــاب
لو أن عـــينى أبصـــرت كـــعـــيـــون صـــقـــر أو عـــقـــاب
لرأيت مـــــا هـو واقـع ، وانزاح عن بـصـــــرى الحــــجـــــاب
الأرض، يـــا لـــلأرض ! إن الأرض ، أرض لـــلـــعـــــــــــذاب
فـى كـل بـيـت مـــــــقـلـة تـبـكـى وأفـــــــئـــــــدة تـذاب
فـى كـل حــــــقـل مــــــوضـع يـروى بـدمـع ذى انـسـكـاب
وعلى ربى الأوطـان تـبــــــدو قـلـعــــــة وسـط الـيــــبــــاب
ســـوداء تنعق حـــولهـــا الـغـــربان شـــؤمـــا بالتـــبـــاب
والشـــعـب يغـــرق فى الظلام ، وليس للفـــجـــر اقـــتـــراب
لو أن حلمـى صـــار حـــقـــا ، لاســـتـــبـــد بى العـــذاب
ولحـلـقـت روحـى لأرضـى ، لا إلـى نـيـل الســـــحـــــاب
ولراع صــــمت مـــديـنـتـى ، خـــفـق الفـــؤاد والاضطراب
إنـى أتـوق لأن أمـــــــوت ، وأن يـواريـنـى الـتـــــــراب
أن تـطـفـىء الظلمـــــات نـورا كـــــان فـى عـــيـنـى ارتقـــاب
لـو كـــــان مــــوتـى لـلإلـه، ولـيـس من أجـل الـتــــراب

أمانى بسيسو - عمان - الأردن

●الاعتداء على العراق ! ●

● أثبت الاعتداء على العراق ، أننا أمة لا حول لها ولا قوة .. فلقد أصبحت أمريكا تتحدى مشاعر العرب بكل المقاييس ، ويكفى ما فعلوه من ضرب العراق وقتل الأبرياء من الشعب الذى لا حول له ولايستطيع الوقوف ، ضد الصواريخ ، والقنابل ، التى دكت المناطق السكنية فى بغداد والبصرة ، ومات الأبرياء .

السخرية تظهر حين يعلنون أن ضرب العراق قد توقف بسبب قدوم شهر الصوم .. ويا للغرابة هل تختلف مشاعرنا بعد رمضان ، وبالتالى يبدأون فى توجيه ضرباتهم للشعب الأعزل إننى أهدى هذين البيتين لكل عراقى :

جلجلى .. الله أكبر يامياه الرافدين
وأرقصى يا أرض بغداد تعدى الغاصبين
واجعلى نخلك يابصرة درعا باسقا
لا تزعزعه صواريخ الأعادى الظالمين

درهم جبارى
سان فرانسيسكو

●إحسان عبد القدوس عطاء أدبى متجدد ●

● مرت ذكرى وفاة الكاتب المبدع الراحل إحسان عبد القدوس دون أن يتذكره أحدا ، برغم ما نشاهده من أعمال درامية تقدم له على الشاشة الفضية الصغيرة ونتمتع بأدبه الجميل .

وإحسان عبد القدوس ولد فى أول يناير ١٩١٩ بالقاهرة وحصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة فى عام ١٩٤٢ ، ثم عمل رئيسا لتحرير مجلة «روز اليوسف» منذ عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٦٤ ، كما تولى العمل رئيسا لمجلس إدارة الأهرام عامى ٧٥ - ١٩٧٦ ، ثم كاتبا بها الى أن توفى عام ١٩٩١ وكانت له قصصه التى قدم البعض منها بالسينما وله أكثر من ٦٠ كتابا يتضمن القصة القصيرة والرواية والكتاب السياسى..

ونظرا لأهمية هذا الكاتب صاحب القلم الجرىء ، فقد تناول العديد من الدارسين أدبه بالبحث وأذكر من بين ماقدم رسالة ماجستير بكلية التربية بدمياط بعنوان «دراسة مقارنة بين أدب إحسان عبد القدوس وفراسواز ساجان» للدكتورة لمياء محمود.

رجب عبد الحكيم بيومى
القاهرة - المعصرة

أبى والحلم والشعر

من عشر سنين بل أكثر | والحزن سفائن لم تبحر
عمرى يعشوشب أشواكا | أحزانا تترعرع تزهو
تغتال سنابل أغنيتى | فتصير هباء لا ينكر
من عشر سنين يا أبت | وخرائب قلبى تتفجر
تأتينى وجها منفيا | كى تلج الحلم فلا تقدر
فيفوح عبيرك فى مهدى | لكن الصورة لم تظهر
فيذوب الحلم على أرقى | وتضيع الجنة والكوثر
وأقلب أركان الذكرى | بصماتك كانت تتبخر
كلمات كنت ترددها | فتذوب بثغرك كالسكر
ووليد كنت تهدهده | ياليت فؤادى لم يكبر

***

من عشر سنين يا أبت | والشعر عقيم لم يثمر
يتخفى فى زى امرأة | لا تهوى العشق ولا تصبر
فأهيب الأحرف أن تأتى | كى تجمع عمرا يتبعثر
فتروغ الأحرف هارية | ما بين الأسطر والأسطر
مكتوب أن تبقى طيفا | من شجو قواف تتعثر

محمود فرغلى على
علوان - أسيوط

آمنت بالله

آمنت بالله لم أشرك به أحدا | الكون والخلق لاينساهما أبدا
آلاؤه عرضت فى حسن صنعته | الحمد لله لا أحصى لها مددا
يا أيها الناس ما كنتم سوى أمم | تجتاحها أمم تشقى بهم بددا
يا أيها الناس قد ضاعت معالمهم | فالحق أخرس فى بيدائهم جحدا
المال أطغاهم والعلم غرمهم | لما ابتغوا بهما عزا ومستندا
إسلامنا مدد إيماننا سند | والناس فى كيد والله قد وعدا
آمنت بالله قد أوحى لسيدنا | ما فيه خيركم والعالمين غدا

سعيد عبد القوى محمد
بنى سويف

في ذكرى اليوم الحزين ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢

تعد الحقبة الزمنية التى بدأت قبيل شهر أكتوبر ١٩٥١ وما بعدها حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من أثرى فترات تاريخ مصر الحديث ، فتلك الحقبة لم تكن مفعمة بالأحداث الوطنية فحسب ، إنما كانت أيضا مقدمة لأحداث جسام .

وكانت الروح الوطنية لشباب ذلك الجيل .. تمهد للأحداث التى توالت .. لبدء مرحلة جديدة في الكفاح ضد الاحتلال البريطانى لجزء من أرض مصر، فطالبت فئات الشعب الحكومة بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا ، والتى بموجبها تنهى بريطانيا احتلالها لمصر ـ صوريا ـ واحتفظت بقوات عسكرية فى منطقة القناة فى زمن السلم والحرب ، وقيام حلف دائم ودفاع مشترك بين البلدين ، لمدة عشرين سنة .

كان وجود الإنجليز بقاعدة قناة السويس وجودا غير شرعي ، يجب مقاومته ، وتحركت فئات الشعب المصرى لتحقيق ذلك ، فتشكلت كتائب الفدائيين من الشباب ، وانشئت مراكز للتدريب على حمل السلاح ، وقد كانت كلية الهندسة بجامعة إبراهيم باشا الكبير ـ جامعة عين شمس ـ مقرا لتدريب الطلاب بالقاهرة على الأعمال الفدائية ، وقد أقضت هذه مضاجع الانجليز الى جانب ذلك تمت مقاطعة عامة للمعسكرات البريطانية ، فتوقفت عنهم توريدات المواد الغذائية والمهمات ، وانسحب جميع العمال المصريين الذين كانوا يعملون بالقاعدة ، واشتعلت المقاومة ضد الانجليز وعجزت قواتهم وعلى رأسها قائدهم البريجدير ارسكين عن ردع المصريين أو مجابهتهم .

وفي المقابل كانت هناك بعض أحزاب المعارضة ، يكلفون بعضا من اللجان الطلابية بأحزابهم ، بأعمال لا تتعلق بالوطنية ولا تمت لها بصلة ، فكانت تكلفهم بعمل مظاهرات تنادى بسقوط الحكومة ، وكانت مجالات أعمالهم الأماكن المغلقة كدور السينما ، على أن أمرا على جانب كبير من الأهمية ، أود أن أذكره فى هذا المقام وهو يؤكد بما لا يمارى فيه مدى غياب الروح الوطنية لدى بعض رجال السياسة السابقين ، الضالعين فى التآمر على حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ فى ٢٦ يناير ، فقد كان أمرا مدبرا جرى الإعداد له لخنق الروح الوطنية والقضاء عليها ، كان ذلك فى شهر يناير ١٩٥٢ وكنت آنذاك عضوا فى لجنة الطلاب بحزب الأحرار الدستوريين ، الذى كان يرأسه محمد حسين هيكل باشا وفي اجتماع لجنة الطلبة حضر الاجتماع حسن باشا عبد الوهاب أحد أقطاب الحزب ، وألقى علينا خطبة غاية فى الخطورة .. فبعد أن تناول سياسة حكومة مصطفى النحاس باشا بالنقد وما آلت إليه البلاد قال بالحرف الواحد «لن يمضى هذا الشهر «يناير

١٩٥٢» حتى يكون النحاس خارج الحكم» ..

وقد صدق وعده .. وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ شب حريق القاهرة .. وأعلنت الأحكام العرفية .. ونزل الجيش الى الشوارع ليوقف الفتنة .. وأقيل النحاس باشا وخرج من الحكم» .

ولم يقدم الفاعلون للمحاكمة .. وأفلتوا من العقاب ... واسقطهم التاريخ من حسابه .

كمال شافعى الخطيب



طرائف شعرية

كان للشعراء الظرفاء باع طويل فى مختلف فنون الشعر خاصة الوصف .. روى عن الشاعر الطبيب إبراهيم ناجى أنه كان له صديق أصلع الرأس يتباهى بصلعته لأنها فى نظره دليل على النباهة والذكاء فقال فيه :

يا معجبا تاه علـــى صـــحبه ... فيالـــــه مـــن رأس
نصفه الأعلـــى أجـــرد ... عــارا لكن القفا مكســـى
تنظر إليهـــا فتخالهـــا... تمشى عليها القباقيب بلا حس
يبرطع البرغوث فى ساحتها... ويشرد المســــكين لا يرسى

وقال آخر فى وصف رجل له أنف كبير طويل :

لك أنف ذو أنـــوف ... أنفت منه الأنـــوف
أنت فى القدس تصلى ... وهو فى البيت يطوف

وكان للشاعر اللبنانى أسعد رستم صديق له يعمل فى بناء الجسور وكان له أنف طويل جاءه يوما وأخبره أنه ينوى بناء جسر لصالح شركة أجنبية فاقترح عليه الشاعر استخدام أنفه كبديل للجسر توفيرا للوقت والمال فقال له :

نوى بعض الأجانب مد جسر ... يقل العالمين الى بعيد
يبلغ طوله ميل ونصـــــف ... وتدعمه قوائم من حديد
بناه يقتضى وقت طويـــــل ... ومال ما عليه من مزيد
وهذا الجسر لا حاجة بــــه ... مادام انفك فى الوجود

أهدى رجل إلى أحد الشعراء جملا فنزل ضيفا عليه وأطال الضيافة حتى تبرم منه فقاله له :

يا مبرما أهدى جمل ... خذ وانصرف ألف جمل
قال فمـــا زادهـــا ... قـــلت خبـــز وعـــسل
قال ومن يقودهـــا ... قلت الـــفا رجــــل
قال وما لباســــها ... قلت حلـــــى وحـــلل
قال وهل ارتحـــل ..قلـــت أجل ثم أجـــل

محمد أمين عيسوى ـ الإسماعيلية

● عندما يأتي الصباح ●

عندمـــا يأتى الضـــيــــاء يملأ الدنيـــا بهـــاء
يملأ الدنيا محــبة وينادي للبـــقــاء
سطروا ورقــا جــديدا ســجلوا هذا الرخــاء
عندمــا يأتى الضــيــاء
عندمـــا يأتى الضـــيــــاء يملأ الدنيـــا بهـــاء
نأمل السلم الجــمـيل من بدايات الصــفــاء
إنــه لحن جــمــيل قــد مــحــا عنا البكاء
عندمــا يأتى الضــيــاء
بعـــد هذا النور شـــمس تملأ الدنيـــا نقـــاء
تنشـــر الدفء الجــمــيل بعـــد أحـــزان الشـــتــاء
نادت الشـــمس وقــالت قـــد كـــفى اليــوم بكاء
قـد كــفى اليــوم دموعــا جـــددوا لحن الوفـــاء
جـــددوا عــهـدا جــمــيــلا يملأ الدنيـــا بهـــاء

أحمد نادى بهلول
المندرة - ديروط

● ردود سريعة ●

●● الصديق سامح النجار - دمياط - فارسكور :

وصلت قصيدتك التي تهديها للزملاء الشعراء أصدقاء أنت والهلال : عبد الرحيم الماسخ - عبد العزيز الشراكي - هيثم حويج العمر من سوريا ..

والتى تقول فى مطلعها :

البحر دونه المدى زوريني مثل العصافير علي الغصون

والقصيدة أبياتها غير موزونة ونرجو لك التقدم والازدهار .

●● الصديق سليم سالم المصرى - عزبة البرية - مطويس

وصلتنا اقتراحاتك الخاصة بإلقاء الضوء على بعض الشخصيات التاريخية ، ونشير فى هذا الصدد الى أن الهلال دائما ما تتناول هذه الشخصيات فى أعدادها المتتالية ، كما أننا من خلال اقتراحاتك أيضا الخاصة ببعض القضايا فى ريفنا المصرى تلقى عليها الضوء من خلال كتابات علمائنا ومفكرينا فى هذه المجالات .

وتشكرك على متابعة كل ماتتناوله الهلال من دراسات ومقالات .

●● الصديق : طارق شمس - جنوب لبنان النبطية

- نشكرك على هذه المعلومات التاريخية المهمة عن «قلعة الشقيف» في جبل عامل الذى يضم القلاع والحصون التى انتثر بعضها ، ومازال البعض منها موجودا حتى الآن شاهدا على حضارات عريقة ضمها لبنان الشقيق .

ولقد دافع عنها ببسالة ثلاثة من مقاتلى المقاومة اللبنانية أثناء الاجتياح الإسرائيلى للبنان فى عام ١٩٨٢ ، وقتل فى هذه المعركة ١٦ جنديا اسرائيليا .

وإذا كانت اسرائيل تحتلها الآن ، وتهدد سكان القرى والبلدان من حولها ، فسوف يجيء اليوم، الذى تتحرر فيه وتعود الى سابق عهدها رمزا للنضال ولتاريخ لبنان العريق.

الكلمة
الأخيرة



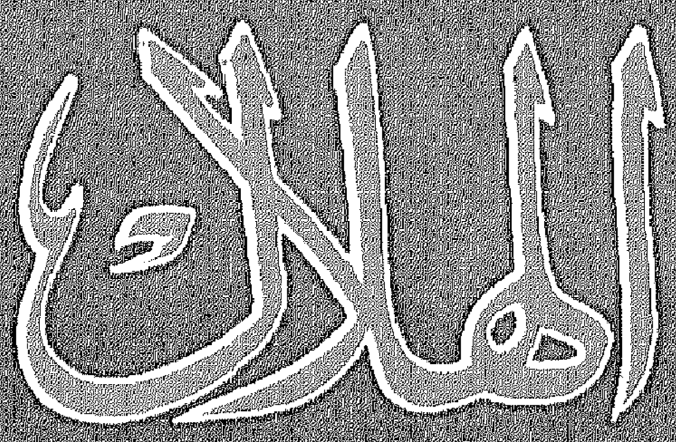
بشارة واكيم من بلدنا

بقلم: محمد مستجاب

داهمنى بشارة واكيم فى الشهور الماضية، أهرب منه فاصطدم بالزحام حول ميراث مزعوم من أحد أقاربى الأشرار، وأعود فأجد بشارة واكيم جالساً على عتبة جمجمتى، طردته وانشغلت بكارثة انشقاق العواطف مع الشعب العراقى وضد نظامه المرهق، ولو انفردت بالقرار لصنعت عصابة من قطاع الطرق حتى أخفف من عنف الاحساس بالكارثة، وظهر بشارة واكيم من جديد، يسخر منى ومن أفكارى ومن كل ما يدور حولنا، وعليك أن تتصور هذا الممثل خفيف الظل حينما ينطق- بطريقته الساخرة وعيونه المبربشة مصطلحات أيامنا: العولمة والانترنت والخصخصة، لاحظ حركة أنف بشارة واكيم حينما يصل إلى: الخصخصة، وأعود فأجده جالساً على عتبة جمجمتى، وقد رفع كفه بما لا يعرف الكثيرون: بشارة واكيم ممثل مصرى ومن أسيوط، وعاش فى حى شبرا، ولم يكن أبدا من الشام، وفى أحد الأفلام - القديمة - استعانوا به كى يؤدى دوراً لواحد من الشام مكان زميله وصديقه إلياس مؤدب الذى تعذر عليه حضور التصوير، ومن يومها وقع بشارة واكيم فى براثن شخصية الشامى، وبالتالى شاعت عنه الجنسية الشامية، وقد تعرض أحد قراء الهلال للمسألة من فترة، وقررت أن أعلن هذه الحقيقة التى قرأتها أو سمعت عنها، حاولت الاتصال باستاذ المعرفة الشخصية بالممثلين: عبد الله أحمد عبد الله- ميكى ماوس ، لكن الرجل كان قد مات، وشيخ المؤرخين السينمائيين: حسن إمام عمر - لكن الرجل يعانى من ظروف صحية، والصديق محمد عبد الفتاح يعانى من نزلة برد مع تكاسل شديد، وأنا لا أملك دليلاً أو شاهداً، مع أنى متأكد من هذه الحقيقة، بشارة واكيم مصرى صعيدى خالص..

حينئذ أصبح مناسباً أن أنشغل بالحزن العميق على الهمة العربية التى جلست تتثاءب أمام التليفزيون، مستمتعة بومضات الصواريخ الليلية فى الفؤاد.


أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيًا
إلى ٩٤ مدينة عالمية ومحلية
خدمة متميزة وكرم ضيافة
مصر للطيران
EGYPT AIR



مارس ١٩٩٩ • الثمن ١٥٠ قرشا

أول وآخر أيام فتحي غانم

أمريكا بين باحث وشماشرجي!



بروفيل للفنان:
«اميديو مودليانى» ١٩١٩



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام السابع بعد المائة

مارس ١٩٩٩ ● ذو القعدة ١٤١٩ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت . ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : Hilal un 92703 فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ . عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمي التوني المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٢٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



الغلاف :
تصميم الفنان:
حلمى التونى

فكر و ثقافة

فنون

قصة وشعر

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال



وداعا .. للراحلين

خلال ما يقل عن خمسة عشر يوماً، رحل عن دنيانا كل من د.على الراعى أحد رؤساء تحرير مجلة الهلال السابقين، والروائى فتحى غانم الذى يعتبر أهم روائى بعد نجيب محفوظ، ولطفى الخولى وسعد حامد ومحمد سيد كيلانى، مما يدعو للألم والحزن فخسارتنا لا تعوض.

والملاحظة الجديرة بالتسجيل أنهم جميعاً عانوا من السجن أو الفصل أو المصادرة، والنموذج الصارخ لذلك هو محمد سيد كيلانى، الذى لم ينضم يوماً إلى أى حزب أو نشاط سياسى، ورغم ذلك دفع فى صمت ثمناً غالياً من أجل حقه فى التعبير الحر، ودخل السجن مرتين ، قضى عاماً كاملا قبل الثورة عام ١٩٣٧ بعد مصادرة كتابه «الشريف الرضى» ، وعاد ودخل السجن عام ١٩٦٦ على كتابه «الاشتراكية ونظام الحكم» وقضى فى معتقل طره أربعة عشر شهراً !.

ومن ذلك يظهر كيف تهدر ثروتنا القومية المتمثلة فى رجال الفكر والفن والأدب، وكيف تعطل دورهم وتعثر، فبدلاً من أن يوفر المجتمع لهم الظروف المواتية للانتاج إعترضتهم الظروف المعاكسة.

وعندما أصدرت مجلة «الهلال» عدداً خاصا (مارس سنة ١٩٩٧) عن السجن والايداع راعنا أن معظم الكتاب ورد على السجن، وقلنا يومها «أن زج الكاتب فى السجن، لا يقل شناعة عن إهدار دمه، وقائمة من دخلوا السجن طويلة فى تاريخنا العربى، ودخلوا السجون فى عهود مختلفة - يختلف بعضها عن بعض فكراً واتجاهاً، ولكنها جميعا تستخدم السجون فى القضاء على معارضيها من أصحاب الرأى.!»

ونشر أخيراً د. رمسيس عوض موسوعة عن «الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم» وسجل فيها تلك الأعمال المصادرة فى الغرب، ولم يذكر فيها ما عليه الحال فى الشرق، كما قامت الباحثة السويدية مارينا ستاغ بتأليف كتاب بعنوان «حدود حرية التعبير» ولكن الكتاب اقتصر على القصة والرواية وحدهما، ويبقى كتابه مصنفاً عن الكتب التى تمت مصادرتها فى مصر والبلاد العربية عملاً جليلاً ومفيداً .

والدولة ليس وحدها هى التى تهدد حرية التعبير، بل كثيراً ما يقف الإرهاب الفكرى ضد الأقلام المتزنة صاحبة الرؤى الثاقبة. كما يقف ضد الكتاب المجددين وخاصة ما اتصل بمخالفة المناخ الفكرى السائد، والآراء التى تحرك المياه الفكرية الآسنة، ومصادرة الكتاب هى بمثابة اغتيال له تمحو أفكاره وسطوره ورسالته، وتحول دون الكتاب واقتحام المواقع الفكرية مهما كانت حصانتها، وبالتالى تصادر إمكانية بعث الحياة الفكرية التى تؤدى إلى التفاعل والحوار المثمر. فالمصادرة هى إغلاق باب الحوار وحجر على الرأى، وهى تفتح الطريق أمام الكتب التافهة التى كادت تستأثر باهتمامات القراء، وفكرة مصادرة الكتب التى صادفها محمد سيد كيلانى وغيره من الكتاب تتنافى مع كل الأسس التى يقوم عليها الدستور، وتتنافى أيضا مع مبدأ الحرية، فجو الحرية هو ضمان اتصال الحوار، وأن يشعر أطرافه بالأمان، وأنهم بعيدون عن سهام التجريح والاتهامات الباطلة، وقد دلت التجارب المختلفة على أهمية الافساح لحرية التعبير ومنحها حماية دستورية خاصة وبذلك وحده ينطلق الفكر ويحلق فى آفاق عالية، فالحرية وحدها هى العاصمة من الزلل، كما أن أى قيد مهما كان صغيراً فسيتضاعف باستمرار ، ومن صور الحجر على حرية التعبير ما تعرضت له مجلة «النداء الجديد» تلك المجلة الفكرية التى بذل من أجل صدورها د. شكرى عياد جهداً جبارا لكى ترى النور، ولم يسمح له المجلس الأعلى للصحافة بالصدور، رغم أنه أحد الأساتذة المخلصين المرموقين، ومن بلغاء هذا العصر ورموزه، وهو مفكر واسع الثقافة قدم خدمات جليلة لشعبه، وكل ما يطمح إليه هو أن يقدم فكرا رائقا وثقافة أصيلة لقرائه.

المحرر

حصاد العلم فى قرن :

ماذا بقى لكى يكتشف؟

What remains to be descovered ?

بقلم : د . عبد العظيم أنيس

كتاب هذا عنوانه صدر فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٩٨ بقلم سير جون مادوكس الذى كان المحرر الرئيسى لمجلة نيتشر Nature لنحو ربع قرن، من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٣ ثم من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٥ . وبالطبع فإن مجلة نيتشر هى كما يعرف علماء مصر هى واحدة من أعظم المجلات العلمية فى العالم إن لم تكن أعظمها جميعا . ومع أن مادوكس كان قد تخصص أصلا فى الفيزياء النظرية وكان أستاذاً فى جامعة مانشستر إلا أنه من النوع النادر من العلماء فى العالم الذين درسوا تخصصات أخرى وبرعوا فيها . . فهو صاحب كتاب «ثورة فى علم البيولوجى» ، وقد قال عنه ريتشارد دوكنز : «ظل جون مادوكس بمثابة الأب الروحى للكثير من العلم الحديث ، ولا يوجد فرد آخر فى هذا العالم فى وضع القادر على رسم خريطة كاملة لما بقى لكى يكتشف مثله . وقد يكون جون مادوكس هو آخر العلماء العظام متعددى التخصصات» .

يقع الكتاب فى أكثر من أربعمائة صفحة وموضوعه هو «العلم اليوم وفى المستقبل» ، وهو محاولة أصيلة لتحديد ماذا أنجز وماذا بقى من قضايا علمية فى مجالاته الاساسية لم يصل فيها العلماء إلى حسم واضح بعد ، سواء فى ميدان الفيزياء النظرية أو العلوم الكونية أو علوم البيولوجيا والعلوم الرياضية. ويرى مادوكس أنه على الرغم من الانجازات العظيمة التى تحققت فى العلم التطبيقى خلال القرن العشرين إلا أنه فى العلوم

الاساسية Fundamentes Science لا يوجد مجال اليوم خال من الجهل الفاضح بل من التناقضات ، والنهايات غير المحكمة تلح وتكثر . وفى مثل هذه الظروف من يستطيع أن يعتقد أن العلم بعد قرن من الآن سوف يكون امتدادا مستقبليا لوضع العلم الآن ؟

ولنبدأ بالنظر فى وضع العلوم الطبيعية . إن هذا الوضع فى رأى مادوكس يشبه إلى حد كبير وضعها منذ قرن ، عندما استقر مبدأ الاثير بقوة فى أذهان الناس . ولأول مرة فى تاريخ البشرية هناك اليوم فهم معين لكيفية نشأة الكون ، وأكثر من ذلك نظرية عن المادة مؤسسة إلى حد ما على مبدأ أن المادة تشتق خواصها من الحدث الذى أدى إلى ظهور هذا الكون ، وهذا إنجاز عظيم خصوصا إذا تذكرنا أنه حتى عام ١٩٢٩ لم يعرف أحد أن الكون يتمدد ، وتذكرنا أن طرق معالجة جسيمات الكم لم تكتشف إلا أوائل الخمسينيات من القرن الحالى .

لكنه إنجاز مؤقت فقط ، فهناك عيوب كثيرة فى هذا الفهم وهناك صعوبات مستمرة حول معدل التمدد ، وحقيقة أن المادة تقل كثيرا عن التوقعات تمثل صعوبة اكثر أهمية ، بينما يظل وضع الكون المتمدد لتفسير نظرية الانفجار الكبير Big Bang شيئا غامضا .

إن التناقض البارز فى الفيزياء الاساسية اليوم هو فشلها حتى الآن فى التوفيق بين نظرية أينشتين عن الجاذبية وبين ميكانيكا الكم ، وهما الانجازان البارزان فى القرن الحالى . وهذا الفشل ليس نتيجة عدم المحاولة . والارجح أن ردم الثغرة بين ميكانيكا الكم ونظرية أينشتين فى الجاذبية سوف يؤدى إلى إعطاء الفضاء الزمكانى تركيب مفارقا لما أقره العلم منذ زمن ديكارت . ومن ناحية المبدأ لا يوجد سبب لكى لا يكون للفضاء تركيبا معين، لكن لا أحد يستطيع حتى اليوم تصور هذا التركيب .

حياة أطول !

أما فيما يتعلق بعلوم الحياة (البيولوجى) فإن الوضع اليوم أكثر تعقيداً . وكنتيجة مباشرة لتركيب الدنا DNA فإن العمل الداخلى للخلية وميكانيزمات الوراثة فى النبات والحيوان قد أصبح قابلا للبحث العلمى . وأى سؤال مطروح بشكل جيد يمكن الاجابة عنه . والنتائج المترتبة على ذلك فيما يتعلق بصحة الانسان وتقدمه عديدة . وحصاد الادوية والتكنيكات الجديدة ، مثل إعادة توليد أجزاء من الجسم المترتبة على هذه التطورات لم تستوعب كاملا بعد . ونحن (أو أطفالنا) سوف نعيش أعمارا أطول بصحة أفضل .

ومع ذلك فحتى فى البيولوجيا الجزئية ثمة ضباب فى الأفق . فالافتراضات المستخدمة بأن جينات مفردة (أو نواتجها) ذات وظيفة مهيمنة فى حياة الخلية .. ليس من المرجح أن تستمر طويلا . والتعقيدات المترتبة على هذه الافتراضات سوف تضيف إلى المصاعب الحالية فى فهم دقائق حياة الخلية .

وهناك قضيتان رئيسيتان فى البيولوجيا لم تمسا من الناحية الفعلية بعد . فأصل الحياة على الأرض ما زال لغزا ، على الرغم من تراكم شواهد على أن الحياة الحديثة قد ظهرت إلى الوجود خلال الاربعة آلاف مليون سنة الاخيرة من جزئيات تكونت من مواد غير عضوية استطاعت مضاعفة نفسها . ومازال غير واضح حتى الآن ما إذا كان الفكر المجرد أو البحث المعملى هو أفضل طريق لفهم هذه المسألة . غير أنه من الواضح أنها مسألة وقت قبل القدرة على تصميم كائن حى organiom يكرر نفسه فى المعامل . لكن هذا لن يحدث قريبا .

وسوف تشغل السنوات القادمة مسألة التطور الاكثر حداثة للأشياء الحية . إن من المعروف الآن أن الخلايا المرتبة جيناتها بطريقة اكثر تعقيدا من الباكتريا تعود على الأقل إلى حوالى ٢٠٠٠ مليون سنة . وهذا يثير أسئلة حول أصل الكائنات الحية ذات الخلايا المتعددة وعن أصل التكاثر عن طريق الجنس .

★★★

نتحول الآن إلى موضوع كيفية عمل المخ .

إن فهم هذا هو لسوء الحظ هدف بعيد المنال ، والقرن الماضى قد وصف بشكل رائع (كما صنف) خواص خلايا المخ العامل ووصف أجزائه المتعددة واقتراح أن العصبونات Neurons تنظم نفسها – كالآلات الفعالة – لتحويل المعلومة الحسية إلى شكل يثير استجابة مناسبة من الاطراف والاجزاء الأخرى من الجسم قد أصبح مؤكدا اليوم . لكن ما بقى هو اكتشاف الدوائر العصبية فى الدماغ التى تجعل هذه الاستجابات ممكنة ، وبالطبع فإن هذا سوف يستغرق زمنا طويلا حتى بالنسبة لأبسط الاستجابات ونحن بعيدون تماما عن الزمن الـذى سوف نتعرف فيه على الدوائر العصبية المسئولة عن الوظائف العليا لمخ الانسان . (مثل التذكر ، وتأمل أحداث الماضى ، والاختيار بين دروب العمل الممكنة ... الخ)، لكن عندئذ – وعندئذ فقط – نستطيع أن ندعى أننا نفهم كيف يعمل المخ .

★★★

هذا التحديد المختصر لبؤر جهلنا ليس كاملا بالطبع . فهناك فى كل المجالات سوف

تتجمع معارف جديدة فى السنوات القادمة . ولكن ما أثبته سجل التاريخ أن التقدم فى العلم ليس خاليا من المفاجآت . هذا ما أثبته التاريخ . ولذا فإن الناس قد يكونون بعد قرن من الآن مشغولين بأسئلة ليس لدينا اليوم المقدرة على إثارتها .

كذلك يوضح سجل التاريخ أن الأسس المفاهيمية للعلم يعاد صياغتها بشكل متكرر. ومن منظور طويل فإن المأزق الحالى فى العلوم الطبيعية حول تركيب الفضاء الخالى هو صدى فى زماننا للمفهوم الذى قدمه نيوتن حول «الفعل عن بعد» ، وهو المفهوم الذى احتج عليه بشكل صارخ هيجنز . ثم جاء ماكسويل وخرج على التقليد النيوتونى فى صياغة نظريته فى الكهربائية المغناطيسية بدلالة التفاعل المباشر لشحنات كهربائية مع «حقول» كهربائية ومغناطيسية . وتلك كانت خطوة فى اتجاه الواقعية بالمعنى الفلسفى : المجال الكهرومغناطيسى الذى يمكن قياسه من ناحية المبدأ . وكل النظريات الحديثة عن الجسيمات تتبع ماكسويل . لكن هذه النظريات تعنى أن هناك فى الفضاء الفارغ اكثر مما يقوله الاسم . مثلا يمكن تحضير جسيمات (أو أزواج من الجسيمات) من هذا الفضاء. أما الفضاء الكمى فيختلف عن فضاء ماكسويل .

ومنذ موت المذهب الحيوى Vitalism (وهو الذى يقول إن الأشياء الحية لها خواص جوهرية تميزها عن الأشياء غير الحية) لم يكن هناك اختيار سوى افتراض أن الأشياء الحية أو الأنسجة هي أيضا نتاج جزئيات (وبالتالي ذرات) والواقع أن كل البيولوچيا الجزئية مبنية على أساس هذا الاعتقاد. وإحدى القضايا التى يثيرها الكتاب الحالى هى أن العلم لم يبذل جهدا كافيا لوضع هذه الفروض موضع الاختبار. وليست المسألة فقط أن معالجة كمية (رياضية) لسلوك الأشياء الحية قد تدعم هذه الفروض، وإنما قد تكون هذه المعالجة مصدرا لفهم جديد .

وفي القرن الذي أوشك على النهاية أعطت الواقعية للمشاهدة والتجريب اليد العليا فى تفاعلها مع التفسير النظرى . وعلى الرغم من أن الانجازات الرئيسية توصف غالبا بالاشارة إلى النظريات الجديدة – نظريتان عن النسبية ، ميكانيكا الكم ، تركيب الدنا DNA – فلم توجد فترة اختبرت فيها صحة التفسيرات عن طريق التجربة كما حدث اليوم .

والحق أن هناك أساسا فلسفيا لهذا المنهج . هذا ما طالب كارل بوبر العلم به عندما أكد مرارا أن كل الفروض عن العالم وكل النظريات الممكنة يجب أن تكون قابلة للتحقق من صحتها أو خطئها وما يعنيه هو أن أى تفسير ليس له قيمة ما لم يختبر بالمشاهدة أو التجربة .

خذ مثلا نظرية أينشتين فى الجاذبية . لقد قدمت توقعين ثبت صحتهما بسرعة .. انكسار شعاع نجم عندما يمر قرب حافة الشمس خلال كسوفها ، وشذوذات فى حركة كوكب المريخ

فى مساره . ومع ذلك فإن التوقعات الثابتة رياضيا عن نظرية أينشتين بأن تركيزات كافية من الكتلة أو الطاقة ينبغى أن تؤدى إلى تكون ثقوب سوداء Black holes تظل حتى اليوم محل شك . وسوف تظل كذلك إلى أن يتم التوفيق بين نظرية أينشتين وميكانيكا الكم .

ونفس الشىء ينطبق على نظرية جامو Gamow عن الضربة الكبرى «الانفجار الكبير». لقد كانت هذه النظرية فرضا محترما عام ١٩٤٧ ثم تبين زيفها فى السبعينيات ثم «تثبتت» بوسيلة الكون المتمدد ، وتضمن هذا «أكوانا متوازية» وهى بالتعريف غير قابلة للمشاهدة ، وبالتالى فإن «التثبيتات ذاتها ليسا فروضا قابلة للتحقق من صحتها أو خطئها . ومع ذلك فثمة علماء فلك وفيزياء لازالوا يعتبرون نظرية الضربة الكبرى تقريبا جيداً «للحقيقة» مع أنهم يدركون المشاكل الاميريقية المترتبة على هذه النظرية .

ألم نعد قادرين على أن نعيش ونحن ندرك أننا مازلنا نجهل أشياء كثيرة؟

إنجازات كثيرة فى القرن ٢٠

إن تاريخ هذا القرن يشير إلى انجازات كثيرة . فبعد طيران الاخوين رايت ، وبعد نجاح ماركونى فى تغطية الاطلنطى بموجات الراديو ، وبعد تخطيط هنرى فورد لأول سيارة شعبية .. هذه الابتكارات الثلاثة كانت بمثابة البئر الذى تدفق منه رخاء هذا القرن .

لكننا نعرف اليوم أن المستقبل سيكون مختلفا . إن فهمنا للحياة المترتب على اكتشاف تركيب الدنا DNA يضمن لنا أن القرن القادم سوف يمتلئ بأشكال مصنعة من النبات والحيوان وبأنوية بشرية مختلفة وأكثر فعالية . إن تكنولوجيا العقود القادمة سوف تسودها المعالجة الجينية . وستصبح المسألة مسألة وقت قبل أن يستطيع العلماء معرفة أنواع السرطان القابلة للشفاء هذا العام وتلك التى فى الانتظار فى العام القادم . وسيكون علينا مواجهة مآزق جديدة خلقها الواقع الجديد من نوع : هل نريد أن نعيش لسن ١١٠ سنوات ؟ ولماذا يقدرون على علاج سرطان فلان ولا يستطيعون معالجة الزهايمر الذى أصابنى ؟

وكما هو واضح فإن هذا الكتاب مهتم أساسا بمسألة : ماذا يمكن أن يفعله العلم لكى يساعدنا على فهم العالم الذى نعيش فيه (وهذا هو ما يعرف باسم العلم الاساسى أو أصول العلم) . أما العلم الذى حسّن بشكل أساسى حياة الناس فهو العلم التطبيقى .

★★★

بقيت كلمة عن الفصل الأخير من هذا الكتاب والمتعلق بالرياضيات . يتابع مادوكس فى هذا الفصل ما حدث من تطورات منذ خطاب الرياضى الالمانى الكبير دافيد هلبرت فى مؤتمر

الرياضيات الدولي في باريس عام ١٩٠٠ ، وما تمخض عنه هذا الخطاب فيما عرف باسم «برنامج» هلبرت لتأسيس الرياضيات على أسس قواعد المنطق فحسب ، وكيف أن هذا البرنامج أصيب بنكسة خطيرة عندما استطاع رياضي نمساوي مغمور يدعى جودل أن يبرهن أنه يستحيل على أي نظام رياضي شكل مؤسساً على مصادرات أن يكون متسقا وكاملا في آن واحد . وقد أدى هذا الاكتشاف إلى هدم مشروع هلبرت من أساسه .

كما تعرض الكتاب للتطورات التي حدثت في نظرية الشواش Chaos في النصف الثاني من القرن العشرين عندما بدأ المشتغلون في بحوث الارصاد الجوية معالجة الانظمة غير الخطية والتي كان يصعب معالجتها قبل عهد الكومبيوتر ، وما أدت إليه من مفاجآت عديدة سميت بالفوضى عند البعض وبالشواش عند البعض الآخر ، وهي تمثل نقلة مهمة في العلوم الرياضية .

أما من ناحية المسائل غير المحلولة حتى اليوم فيشير مادوكس إلى ثلاثة ميادين في العلوم الاساسية تصرخ في طلب المساعدة من العلوم الرياضية . وأولها موضوع «الانظمة المعقدة» Complex Systems وهي تتعلق بمشاكل يمكن تعريفها بدقة ، لكن حساباتها من الضخامة والتعقيد بحيث لا تجد حلا بالطرق المعروفة حاليا . وأقرب مثال على ذلك : إذا كان لدينا خريطة بها عدد من البلدان على مسافر أن يزورها وفق أي ترتيب . والسؤال : ما هو أقصر طريق يحقق ذلك ؟ بالطبع المسافة بين البلدان معروفة ولو كان عدد البلدان صغيرا فيمكن الاجابة عن هذا السؤال بسهولة بحساب كل الطرق الممكنة لمعرفة أقصرها . لكن حجم المشكلة يكبر بسرعة إذا كان عدد البلدان كبيرا بحيث يمكن أن نصل إلى وضع يفوق إمكانيات أكبر كومبيوتر موجود حاليا .

وأهمية هذه المشكلة أن هذه المسألة لها مقابل في ميادين العلم المختلفة خاصة في بحوث جزئيات البروتين .

المسألة الثانية التي في حاجة إلى جهود الرياضيين هي البحث عن طرق حسابات تكون أنسب للاحتياجات المستجدة . وعلى وجه الخصوص فإن البيولوجيين المشغولين ببحوث الخلايا سوف يدفعون دفعا إلى نماذج كومبيوتر لكي يمكن فهم العدد الهائل من المشاهدات المتراكم لديهم .

والمطلب الثالث من الرياضيات ربما يكون أكثرها مشقة . وهو صادر عن الاهتمامات الحالية في الفيزياء الاساسية واقتناع الكثيرين بأن تركيب Structure الفضاء الزماكاني ربما يكون اكثر تعقيدا مما هو مفترض اليوم . وفي ضوء الاكتشافات الجديدة في الفيزياء هل سيكون من الضروري تعديل طريقة وصف الفضاء رياضيا ، وبالتالي كيف سيعدل هذا من تصوراتنا عن تداخل العلاقة بين الفضاء والمادة .

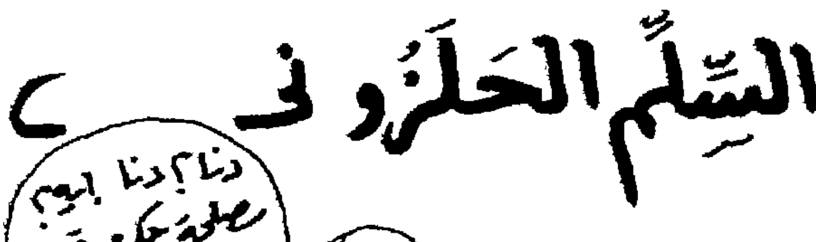
العلم والهندسة الوراثية بالكاريكاتير



د. احمد مستجير

نشـرت الهيئـة العامـة للكتاب من أسابيع قليلة كتابا مترجما يستحق منا كلمـة.. فهو أهم كتاب صدر خلال العام الماضي. عنوان الكتـاب هو «الوراثة والهندسـة الوراثية بالكاريكاتير»، ترجمـه بالعـامـيـة المصـرية الدكتور أحمد مستجير، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة. والكتاب كما يقول عنوانه يعالج موضوعا علميا معقدا في غاية الأهمية يشغل الناس الآن ويثير مخاوفهم، كما يثير وسيثير الكثير من القضايا الاجتماعية والأخلاقية والقانونية والدينية، بحيث يلزم أن يسلح الناس، كل الناس، بمعارف كافيـة عنه، حتي يمكنهم الاشتراك بالرأي في المناقشات التي تدور وستدور. الكتاب يؤرخ بالكاريكاتير بصورة غاية في الروعة تطور فكرة الوراثة عبر التاريخ البشري وحتي عصرنا هذا، عصر الهندسة الوراثية، ثم إنه يقرب مفهوم الهندسة الوراثية بالتفاصيل الوافية الكافية برسوم كـاريكاتيـرية غاية في الجمـال والبسـاطة والظرف.. ولقـد أثبت الدكتور مستجير أن أسلوبه في الترجمة بالعامية لايقل روعة عن اسلوبه الفصيح الجزل الذي يصوغ به كتبه العلمية المترجمـة العديدة، إذ نقل روح الفكاهة المصرية إلي موضوع يعتقد الكثيرون أنه من أعقد المواضيع العلمية، وجعل تناوله ميسرا للجميع. ولقد أحسن المحرر صنعا عندما نبه في مقدمة الكتاب بأنه ليس دعوة للكتابة بالعامية لكن ثمة تبريرا لأن يكتب هذا الكتـاب بالذات باللغـة العـاميـة - التي توافق الكاريكاتير علي أية حال: فبصورته هذه سيتمكن كل قارئ من استيعاب ما يكفي عن الهندسة الوراثية التي ستصيغ حياتنا، ونحن علي مشارف القرن الواحد والعشرين قرن العلوم الوراثية والبيولوجية.

ويعالج أحد أهم المشكلات في انتشار الثقافة العلمية ويظهر القدرة العالية علي التبسيط والتشويق. إنه يستحق بجدارة أن يحصل علي جائزة المعرض التي ذهبت لمن لا يستحق.



قبل ابيقري ماكانش حد من العلماء اهتم بالدنا

كانوا يعرفوا إن الدنا فيه سكر اسمه ديوكسي ريبوز، وفيه فوسفات كتير وفيه أربع قواعد.

والأربع قواعد دول معروفين بحروفهم الأولانية: أ، س، ج، ث
A, C, G, T

سيتوزين (س C)

أدنين (أ A)

ثايمين (ث T)

جوانين (ج G)

لكن بعد إيفري إبتدا البُحّاث يهتموا بدراسة الدنا ده

إرفين شارجاف لقى

١- إن تركيب الدنا بيختلف بين الأنواع وبالذات بنسب القواعد الأربعة

أ، س، ث، ج A, C, T, G

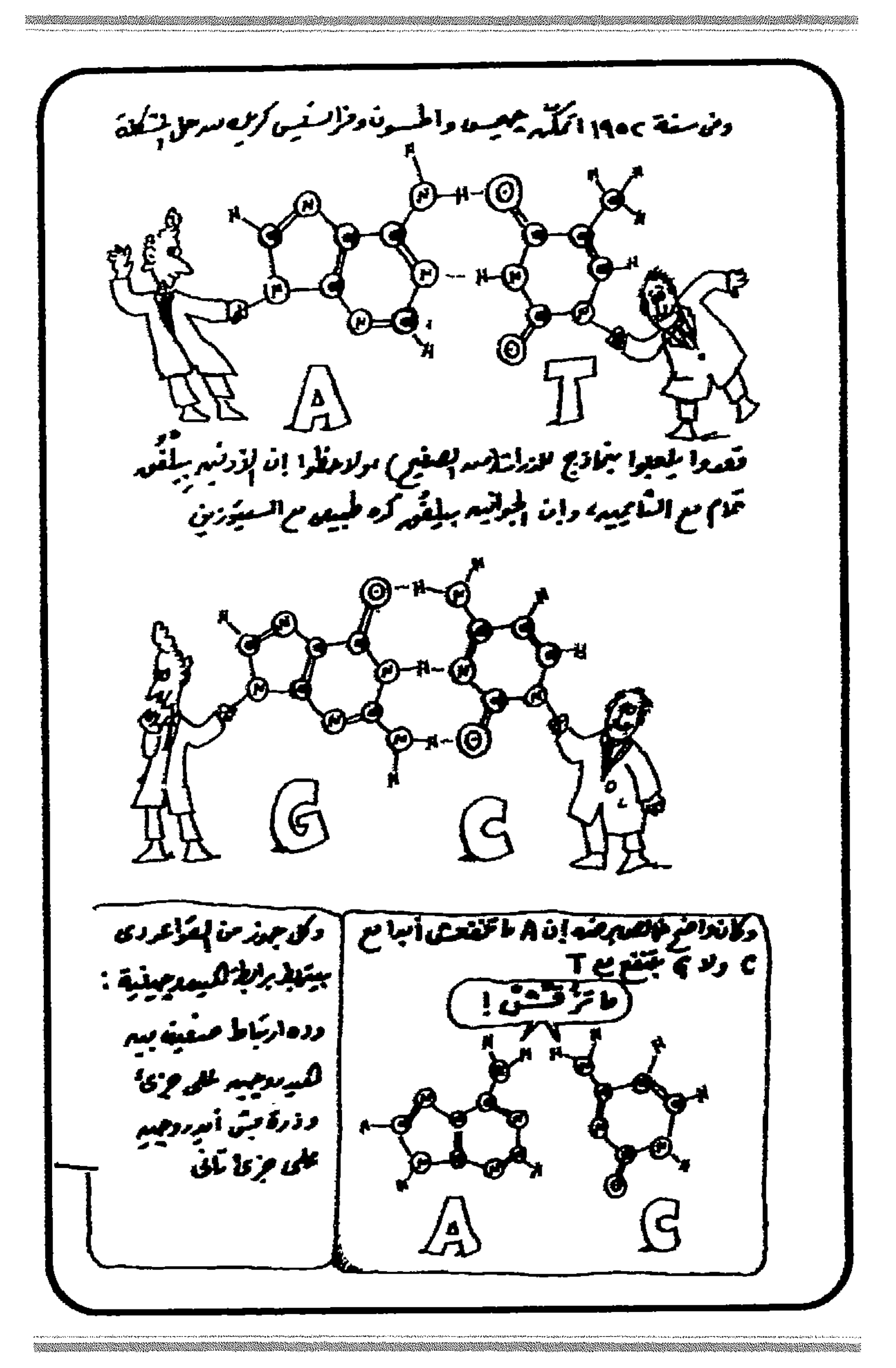
٢- إن في دنا أي كائن حي نلاحظ إن عدد القواعد أ A بيساوي عدد القواعد ث T، وإن عدد س C = عدد ج G

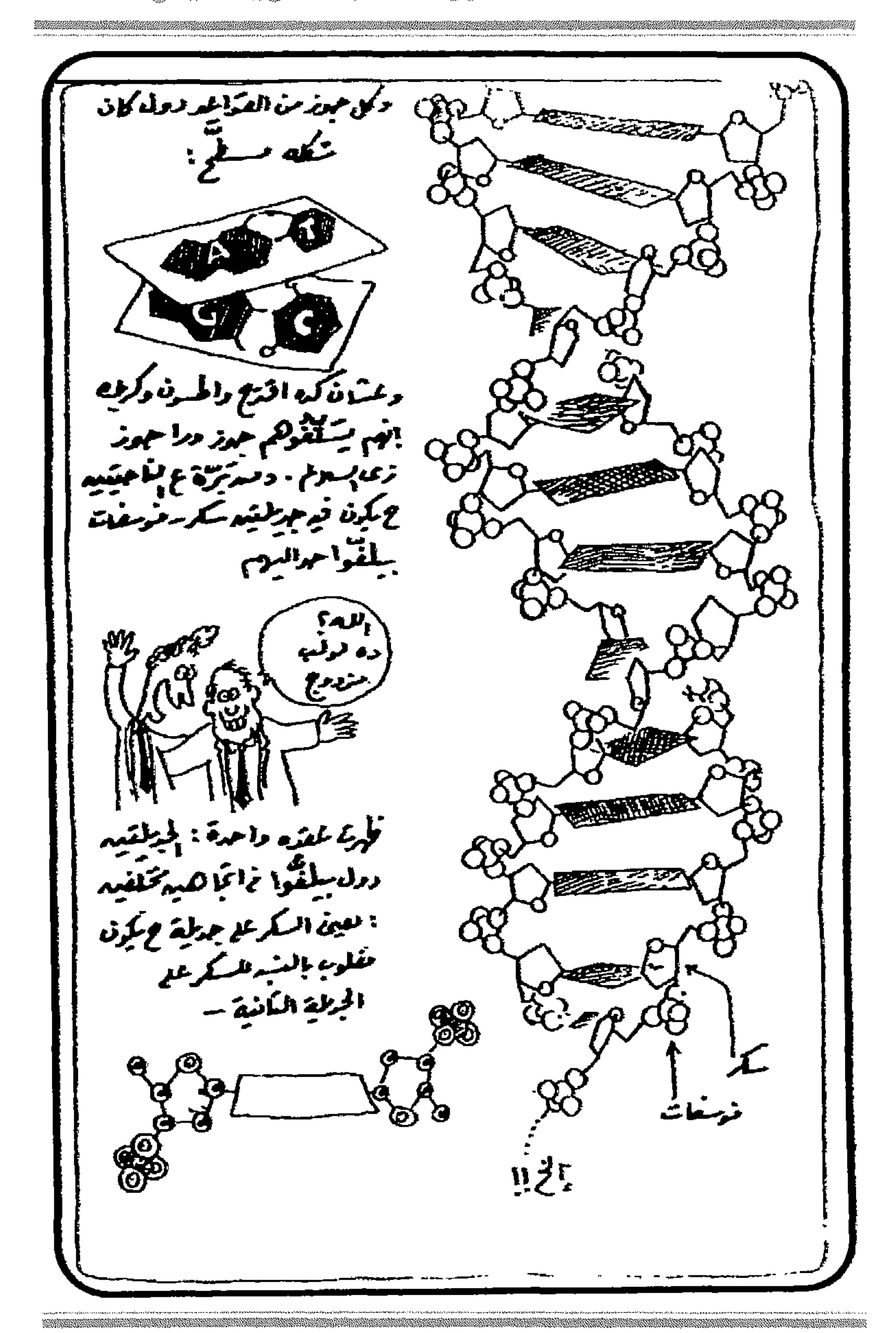
معناه إيه ده بقى؟
شارجاف ماعرفش الإجابة.

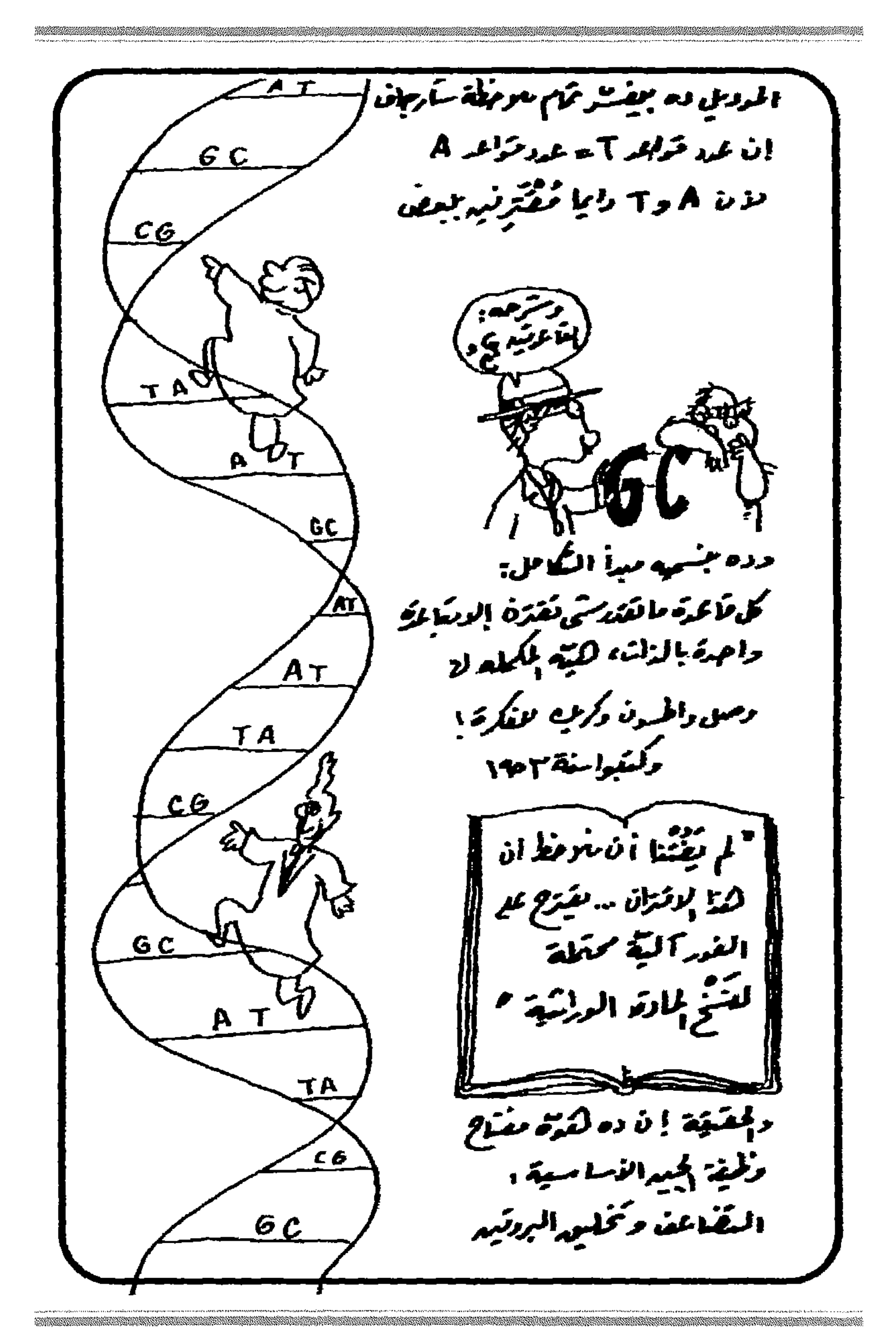
لكن روزاليند فرانكلين درست صور أشعة إكس بتاعة الدنا، وقدرت تقول إن جزئ الدنا جايز يكون له شكل لولب من سلسلتين أو تلاتة...

يا ترى سلسلتين
ولا تلاتة...؟




وفى سنة ١٩٥٢ اتمكّن جيمس واطسون وفرانسيس كريك من حل المشكلة
A
T
قعدوا يلعبوا بنماذج للذرات (زى الصغيرين) ولاحظوا إن الأدنين بيلقم
تمام مع الثايمين، وإن الجوانين بيلقم كده طبيعى مع السيتوزين
G
C
وكل جوز من القواعد دى بيترابط برابطة الهيدروجينية :
ودة ارتباط ضعيف بين الهيدروجين على جزئ وذرة مش أيدروجين على جزئ تانى
وكان واضح خالص منه إن A ما تتفقش أبداً مع C ولا G بتتفق مع T
ما تزقش !
A
C


وكل جوز من القواعد دول كان
شكله مسطح :
A
T
G
C
وعشان كده اقترح واطسون وكريك
إنهم بيلفوهم جوز ورا جوز
زي السلم .
ح يكون فيه جديلتين سكر - فوسفات
بيلفوا حواليهم
الله؟
ده ترتيب
ظهرت حاجة واحدة : الجديلتين
دول بيلفوا في اتجاهات مختلفة
: يعني السكر على جديلة ح يكون
مقلوب بالنسبة للسكر على
الجديلة التانية -
سكر
فوسفات
إلخ!!


الموديل ده بيفسر تمام ملحوظة شارجاف
إن عدد قواعد T = عدد قواعد A
عشان A و T دايما مقترنين ببعض
ودة بنسميه مبدأ التكامل:
كل قاعدة ماتقدرشي تقترن إلا بقاعدة
واحدة بالذات، الحتة المكملة لها
وصل واطسون وكريك للفكرة!
وكتبوا سنة ١٩٥٣
"لم يفتنا أن نلاحظ أن
هذا الاقتران ... يقترح على
الفور آلية محتملة
لنسخ المادة الوراثية"
والحقيقة إن دة الفكرة مفتاح
وظيفة الجين الأساسية،
التضاعف وتخليق البروتين
A T
G C
C G
T A
A T
G C
A T
A T
T A
C G
G C
A T
T A
C G
G C



غلاف الكتاب   محمد حسنين هيكل

«العروش والجيوش» الكاتب والكتاب

بقلم : طارق البشرى

(١)

الاستاذ محمد حسنين هيكل، له وضع خاص وفريد فى الحياة السياسية العربية، وفى الفكر السياسى العربى أيضا.

ونحن جيل شباب الخمسينات ، قرأنا له منذ كان صحفيا شابا يقفز الى مناطق البراكين السياسية، وما كان اكثرها فى ذلك الوقت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فلسطين وايران واليونان - إلخ. ونحن الذين يقرءون كثيرا من أهل هذا الجيل، يعتبر هيكل من اكثر من قرأنا لهم، مقالا اسبوعيا يجاوز صفحة «الأهرام» لمدة لا تقل عن خمسة عشر عاما، ثم كتابا سنويا يجاوز أربعمائة صفحة، لأكثر من عشرين سنة تلت، هذا من حيث الكم.

والمتابعة تؤوب ، سواء لمقالاته السابقة أو لكتبه الحالية، هي متابعة ذات دلالة موضوعية، لان أحداً لا يجبر أحدا على قراءة كتاب تعرضه المكتبات، وقد قيل قديما ان سبب الاحتفاء بما يكتب يرجع الى موقعه الفريد من رئاسة الدولة أيام عبدالناصر ومن مركز اتخاذ القرار. ثم مضت السنون بعد عهد عبدالناصر، وابتعد بنفسه عن رئاسة الدولة ومركز اتخاذ القرار، ولكن بقي له موقع فريد في الفكر السياسي وفي الحياة السياسية العربية ، أكاد أقول ان الحفاوة بما يكتب زادت ولا تزال تزيد.

وهيكل بدأ حياته العملية، صحفيا محترفا، مراسلا متجولا في مناطق الاضطراب الساخنة، واظن ان سنوات العمل الأولى للإنسان هي ما تكوّن مادة هذا الإنسان وتصوغه في الصيغة التي تتشكل بها ملكاته من بعد. والصحفي المتجول جامع معلومات ومعارف من مظان وجودها الأولى، هو أول من ينقل الخبر من الواقع الى الورق، وهو يتصل بالأخبار في حركتها وفي تشكلها الاول، لا بعد أن تؤول إلى أيدي «بورصات» الأخبار وسماسرتها، فالخبرة من ارض الواقع هائلة، وملاحظة مآلات ذلك على أيدي الساسة والبورصات ، هي خبرة هائلة من نوع آخر. وكل ذلك يجري في شرخ شباب وبدء حياة عملية . وجوارح الإنسان كلها حواس مفتحة، وقابلياته الفكرية نهمة سريعة التشرب ، والنفس تتشكل تشكلها الاول مع تنوع التجارب المعيشة.

لذلك نلحظ ان «هيكل» لديه أولوية تكاد تكون مطلقة للخبر أو «المعلومة» ، وعلى كل مستوياتها العامة ، أو الخاصة بموضوع أو مجال محدد، ولذلك ايضا فرغم كل ما كتب ونشر وشرح وحلل من الافكار السياسية والاجتماعية، لا ينفك ابدا عن وصف نفسه انه «صحفي» فقط. وفي كل ما يكتب حتى الآن بعد خمسين سنة، نلحظ ان «الخدمة الاخبارية» ترد اولا.

نقطة اخرى، ان الثورات والانقلابات، وبراكين السياسة وحركات الشعوب، ترد كثيفة جدا في أحداثها ودلالاتها، ودلالة يوم فيها تربو في خبرتها دلالة السنوات العديدة، في شأن الاحداث السياسية وصناعة التاريخ، وما من وضع يكسب العلم اكثر من خبرة التجارب غير المنقولة عن الغير، اي التجارب المباشرة لان المعارف المكتسبة بهذا الطريق انما ترد للإنسان معروف كيفية حدوثها وطريقة تشكلها، اما ما ينقل إلينا من الكتب وحدها فهو علم معروف الماهية مجهول الكيف. ويعزز ذلك ان يكون الإنسان طلعة يعمق ثقافته السياسية وينمو بها على مستويات البحث والدراسة ومعرفة النظريات. ومن ذلك نفهم كيف جاء هذا المذاق الخاص الذي نراه في كتابات «هيكل» السياسية من حيث التماسك والتآلف بين تفاصيل الحدث في جريانه وبين العمق الفكري النظري الذي يعطيه دلالته وبين الحس التاريخي المستشرف لآفاق المستقبل في حركة موصولة مع الماضي.

ثم ترد بعد ذلك فترة قدر فيها «لهيكل» ان يتصل اتصال تلازم برأس دولة ورأس ثورة في الوقت نفسه. وهي رأس دولة متخلفة مكسوة عظامها لحما ودما هي دولة مصر، وهي رأس ثورة تجري احداثها في

العروش والجيوش

المستوى العربى كله فى اقطار ذات نظم سياسية متقاربة وأقطار اخرى ذات نظم خصيمة . وكل ذلك يجرى فى تناطح مع دول كبرى تتربص السوانح وتبيت الامور بليل وبنهار أيضا. وهو بهذا الموقع من التلازم الوثيق، يرى كيف تتجمع شواهد الاحداث وعناصر السياسات ويرى ويشارك فى الترجيح الصعب بين البدائل المتقاربة والخيارات العسيرة فى مواجهة مخاطر محدقة، وفى ظل أوضاع فيها من الرجم بالغيب لاوضاع لم تكتمل بعد واحداث لا تزال نصف احداث او ارباعا أو أثلاثا. ما أثمن هذه التجربة يخوضها ممسك بقلم فلا تستغرقه الحركة وانفعالها وردود افعالها عن الملاحظة والتأمل والتدوين.

(٢)

و«هيكل» لم يستدرج قط إلى الانحصار فيما عايش من أحداث غنية يحكيها ويرددها، ولكنه أحال حصيلتها الى خبرات والى ادوات للعمل والتحليل واستخلاص النتائج من مقدماتها فى متابعة أوضاع عصره وعصرنا المعيش، على مدى السبعينات والثمانينات والتسعينات، فانبسطت كتاباته على هذا المدى الزمانى كله، وامتدت فى المجال الفسيح لما يسمى بالشرق الاوسط، حتى كتاباته عن الماضى صارت لا استرجاعا لهذا الماضى. فهو لا يعود ، ولكنها مخاطبة للحاضر المعيش به.

يروى عن الامام الشافعى قول له فى الليث بن سعد الفقيه المصرى «الليث أفقه من مالك، لولا أن اصحابه لم يقوموا به». وبهذا المنطق اتصور ان كان من حسن حظ

ثورة ٢٣ يوليه ان وجد بها محمد حسنين هيكل، لأنه كان فى قيامه بها غير مسبوق ولا له مثيل، فجاء تأريخها على يديه مصوغا بفكر سياسى متماسك وبنظر تاريخى رصين، وبتصوير للأحداث والوقائع متداخل ومتراكب، وبأعماق نظرية سياسية واجتماعية تغوص فى الفكر السياسى. ونحن لا نجد شيئا من هذا صاحب ثوراتنا السابقة أو حركاتنا التاريخية المحيطة، على المدى الذى يعرفه قراء العربية.

وأنا هنا لا أتكلم عن وجهة النظر السياسية ، ولكن اتكلم عن المستوى العقلى والثقافى للمعالجة، وقد تكون مشاركته لصناعة السياسات وملاحظته للقرارات وهى تتشكل وتتخذ . مما جعله عند تحليل أى سياسة تتخذ أو ظاهرة تتشكل، يدور حولها ويشبعها تصويرا من جوانبها المتعددة، جوانبها السياسية والاجتماعية وجذورها التاريخية واتجاهات الافراد متخذى القرارات فى شأنها، والملابسات الذاتية لما احاط بها، لأن من يتخذ سياسة إنما يتلفت حوله ليرى ـ بقدر جهده ـ ما عسى ان يكون اثرها فى مجال تنفيذها.

ومن جهة أخرى، فإن أى دارس يعتاد عند قراءته لأى بحث أو دراسة أن يلتقط ، عسى أن يفيده من وقائع ترد بها، وتتصل بواحد من الموضوعات التى يحاول معالجتها، وفى هذا السياق ، أجد البحوث تختلف أنواعا وتتراوح درجات من حيث امكان استخراج المادة البحثية منها ، وبخاصة التقاط الوقائع والاحداث ذات الدلالة ، ويمكن القول بأنه بقدر قوة صاحب المرجع فى تحليل الوقائع والأحداث ، بقدر ما يصعب على غيره أن يعدل من استخدام

هذه الوقائع، والاحداث فى غير السياق الذى وردت فيه أولا . وبقدر ضعف القدرة على التحليل والتعليل بقدر ما ترد الواقعة أو الحدث «كالمادة الخام» التى يمكن لأى باحث تال أن يستفيد منها دلالات مغايرة ويستخدمها فى سياق آخر .

ولذلك فإن الاحداث والوقائع ، التى ترد فى الكتب والمؤلفات منها ما يعتبر «مادة خام» ومنها ما يعتبر مادة «نصف مصنعة» ومنها ما يعتبر منتجا كامل التصنيع . ويبدو لى بوصفى ممن يعالجون الأبحاث أحيانا، أن ما يرد من وقائع وأحداث فى دراسات «هيكل» إنما يرد فى صورة منتج كامل التصنيع ، لأن الحدث المروى فيه يتلبس بالدلالة المقصودة بحيث يصعب فكه عنها أو وصفه فى سياق مغاير ، وهكذا يكون فى النقل خضوعا لمنطق الدراسة المنقول عنها ، إذا بقى الالتزام بأمانة النقل واستقامة المنطق، وهذا ما عاينته بنفسى فى بعض دراساتى السابقة .

وإن كان الأستاذ «هيكل» فى كتاباته فى السنوات الأخيرة قد صار يقدم لنا العديد من الوثائق الخالصة ترد فى آخر كتبه بنصها ، لإمكان الرجوع إليها، ولكن ذلك لايؤثر فى قدرته وقوته الاستيعابية بالنسبة لما يرد بدراساته من وقائع وأحداث ولذلك نلحظ الفصل واضحا بين متن الدراسة أو البحث وبين نص الوثيقة.

وفى كلمة ، فإنه يحقق التوازن بين «المعلومة» أو الخبر وبين «التحليل» الفكرى وبين «الموقف» السياسى. ويحقق توازنا بين النظر الى الماضى واستيعابه دون الاستغراق فيه وبين استشراف المستقبل بنظر واقعى بداعيه الرجاء لا الامانى، والرجاء - بخلاف الامانى - هو ما يمكن تحقيقه بالعمل. وان الصحفى المحترف جعل المهنة حرفة يستخدمها بكل فنياتها فى كشف الاوضاع السياسية ، ثم جمع ذلك بفنياته الفكرية والثقافية مع الموقف السياسى ، لذلك فهو يقدم مدرسة فى الفكر السياسى تصدر من ارض هذا الوطن العربى ومن صميم تجربته . ايا كانت وجوه الخلاف بين التيارات فى هذا الإطار.

وسؤالى الحاضر، ألم يئن الأوان بعد لكى تنظم ندوة علمية يعد لها بما يناسب من موضوعات وباحثين ومن فترة مناسبة، وذلك لدراسة اعمال محمد حسنين هيكل ومناقشتها والنقاش حولها، وحول موضوعاتها وبيان ملامح ذلك كله، اتصور أن الأوان قد آن . لازلنا نتعامل مع كتبه كما كنا نفعل من ثلاثين سنة، نقرأ الكتاب ونعلق عليه . لقد صار الواجب علينا لانفسنا ولفكرنا السياسى العربى ان ندرس اعماله وندرك خصائصها الفنية والسياسية ونضعه موضعه فى الفكر المعاصر.

(٣)

أردت ان اكتب عن الكتاب . فكتبت عن المؤلف صاحبه، لم اجد نفسى مستطيعا ان أجوز الى الكتاب الا مرورا بمؤلفه ، وخلتها فى البداية وقفة قصيرة، ولكنها طالت معى كما هى جديرة بأن تكون.

اما الكتاب فهو «العروش والجيوش كذلك انفجر الصراع فى فلسطين» ونحن جيل «معركة فلسطين» او جيل «مرحلة فلسطين» من مراحل حركتنا الوطنية التى تنشد الاستقلال ورفض التبعية بصورها السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والحضارية.. وفلسطين ركزت كل هذه

العروش والجيوش

المعاني من الصراع.

الكتاب صدر في العام الخمسين لحلول اسرائيل محل فلسطين، وهو عن حادث البداية لهذا الصراع ولكن ما لبث الكتاب اسابيع معدودة من الظهور، حتى جدت له مناسبة أخرى. أعدها القدر وأحكم بها دلالات الكتاب، تلك هي وفاة الملك حسين الذي تربع على عرش الاردن نحو سبع واربعين سنة، هي مدة نشوء دولة اسرائيل على ارض فلسطين. والملك حسين استلم الحكم عن جده الملك عبدالله، بعد اغتيال الملك الجد بنحو عامين. والملك عبدالله هو امير «شرق الاردن» واول ملوك مملكة الاردن. ودوره في كتاب «العروش والجيوش» يكاد يكون اهم الادوار التي قام بها «عروش» ذلك العهد، ودور جيشه هو اهم ادوار «جيوش» ذلك العهد، فيما ترتب على ذلك من نتائج. وأهمية دور ذلك الجيش لا ترد مما خاض من المعارك ولكنها ترد مما لم يخض منها.

«العروش والجيوش» كتبه صاحبه، وفي ذهنه ان يكون الكتاب «محطة تقوية» للذاكرة السياسية. وليدعم ذلك بوثيقة فريدة، عبر عن قصده الاول، بان ذاكرة الامم الكبيرة فيها بعض من اسباب حياتها وبقائها. وتجربة ضياع فلسطين في ١٩٤٨ تذكرنا بالكثير، الدور الانجليزي الاستعماري القديم، فقد لعب الانجليز في أرض فلسطين آخر أدوارهم الكبرى الكريهة معنا، وهو الدور الذي لاتزال آثاره باقية ومضنية، والدور الامريكي الذي ولد في هذه الفترة وبدأ قصته الطويلة والمضنية معنا. ولازلنا مغروسين في هذه الحقبة، ثم دور العروش والجيوش واهمها وأحسمها في النتائج التي تحققت وفي الآثار التي لاتزال قائمة ومضنية، أهمها وأحسمها هو عرش الاردن وجيش الاردن، الامارة التي صارت مملكة، مع نشوء دولة اسرائيل.

اما الوثيقة الفريدة فهي «يوميات الحرب» التي اثبتتها هيئات الجيش المصري، يوما يوما. أو بالاحرى ساعة ساعة، عن العمليات العسكرية المصرية في فلسطين منذ مايو حتى اكتوبر ١٩٤٨. وهي تسجل اخبار هيئات الجيش المصري في اثناء العمليات واخبارا اخرى تدور حول الجيوش العربية المشتبكة هناك وكذلك «اللا مشتبكة» هناك، وخاصة جيش الاردن الذي حظي بأخبار كثيرة لان القيادة المشتركة كانت في عمان والقائد العام للمعركة كان هو الملك عبدالله، رغم ان جيشه كان بقيادة جلوب الانجليزي، وكانت تصدر اليه أحيانا اوامر من وزير خارجية بريطانيا.

والوثيقة ترد بعد مقدمة شارحة للموضوع في اكثر من مائة صفحة، ثم تتخلل اليوميات ملاحظات شارحة للاوضاع السياسية والعسكرية أو الآثار المرتبة في اى من هذين الوجهين. والمؤلف من القليلين جدا في المفكرين السياسيين العرب، الذي اتسعت معارفهم الفكرية للربط بين الجوانب السياسية والجوانب العسكرية، يلحظ ذلك في العديد من اعماله، من حيث ان كلا من الجانبين هو امتداد للآخر. ويبدو لي ان هذا اللون هو من الخصائص في فكره السياسي، وهو امر يحتاج منا الى متابعة.

(٤)

عندما اقرأ عن «الوقائع الفلسطينية» للعرب من ١٩٤٥ الى ١٩٤٨، أجدني

استعيد شعوري وانا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري، عندما كنت اقرأ عن الثورة العرابية وعن احتلال الانجليز لمصر في ١٨٨٢، كنت استغرق في الوقائع وكأنها تجري امامي في لحظة قراءتها ، شعور شاب متحمس يحس بعضة ألم حقيقي في صدره. من كثرة ما تصور له تفاصيل الاحداث من الفرص المهدرة ، وتهيىء له غرارة الصبا ان لو لم يحدث هذا الخطأ الصغير لما وقع هذا الضرر الكبير، وان لو وقع هذا الفعل الضئيل لتحقق هذا الخير الكثير، ثم الخيانة، قاتل الله الخيانة ، فقد كان هذا اللفظ يرد على البال محددا اسود مظلما، لا يتداخل مع غيره ولا يتخلله بصيص ضوء.

وفضلا عن ذلك، فقد هالني ما اوضحه «العروش والجيوش» من مقدار الجهل بالاحداث الجارية في البيئة المحيطة، لدى صانعي القرارات الكبرى في القصر الملكي في مصر (السراى) ، لم يكن جهلا ينسب فقط الملك، وهو شاب بين الخامسة والعشرين والثامنة والعشرين وقتها، ولم يكن اكمل تعليما حقيقيا له من قبل. وانما هو جهل ينسب الى (السراى) بوصفها مؤسسة سياسية حاكمة، فيها رجال كبار وتستعين بعناصر من أكبر ساسة مصر القريبين الملك ويرأس الديوان الملكى على التوالي شخصيات هي من صفوة الصفوة في النخب السياسية العليا في البلاد.

يكفي ان الملك الذي اتخذ قرار الحرب في مايو ١٩٤٨ لم يكن في نوفمبر ١٩٤٧ قد شعر بخطورة ما اتخذته الامم المتحدة من قرار بتقسيم فلسطين، ولأفهم سببا للحماسة الامريكية لانشاء دولة اسرائيل، يكفي ان قرار الحرب اتخذ في الايام القليلة السابقة على اعلان الحرب ودخول الجيش المصري لارض فلسطين ، يكفي ان الخرائط التفصيلية لم تكن متوافرة ، وان خطط العمل كانت بالغة العموم وعدم التحدد. يكفي ايضا ان رئيس الوزراء الذي ابدى عدم موافقته على دخول الجيش الحرب، عاد ووافق بعد ايام محدودة دون سبب معروف، وانه أيد قرار الحرب في مجلس البرلمان بعبارات انشائية عامة، فقد كان القرار شبه عشوائي.

وما هالني في هذه المسألة، ان الملاحظة ذاتها كنت لاحظتها وانا اقرأ مذكرات مصطفى النحاس باشا التي أعدها وكتبها سكرتيره محمد كامل البنا، فقد كانت معرفته ومتابعته للاحداث العالمية وللاحداث العربية محدودة للغاية، وكان ادراك ما يجد من تعديلات في موازين القوى السياسية ومن تغييرات في الاوضاع الحاكمة «للمسألة الوطنية» كان ذلك جد محدود فصارت السياسة اقرب الى ردود الفعل. وبقى الادراك ذا صبغة محلية. وكانت المعرفة بوقائعه السياسية سماعية ، وبتناقل عن طريق المناولة الشخصية.

إن هذا يوضح الى أى حد تعدلت أوضاع الإدارة السياسية في بلادنا، ومثل هذه المؤشرات كثيرا ما يغفل عنها في تبين درجات التقدم. ولا يكشف عنها لنا الا دراسات تهتم ببحث الكيفية التي تجرى بها الأحداث وتتشكل.

من اجل ذلك علينا ان نهتم بالدراسات التي تعطي لهذا الامر اهميته، وتصور كيف يتشكل الحدث.



قبلة الريح.. قبض الريح

«المونولوج» شكل لغوى معروف. والأشكال اللغوية جميعها معروفة (وإلا ما تعذب الطفل فى المدرسة الابتدائية بمعرفة ان الكلام اسم وفعل وحرف وأن الجمل نوعان اسمية وفعلية) . والضمائر فى جميع اللغات اقسام ثلاثة: ضمير المتكلم وضمير المخاطب وضمير الغائب، والحذف ظاهرة لغوية توجد فى جميع مستويات الكلام والقاعدة فيها ان «حذف ما يعلم جائز» .

كيف يمكن ان يخرج من هذه القواعد الثابتة الجامدة «أسلوب» ، بل اساليب لا تحصى. فكأن اللغة لم توجد الا حين كتبها الكاتب أو نظمها الشاعر؟ هذا هو سحر الفن اللغوى.

☐ وحديثنا الآن عن «المونولوج» بالذات، هذا الأسلوب الشائع فى الفنون القصصية، وإذا كان «ما قبل التاريخ» فى الفنون القولية يسمح بافتراض أن اللغة والفن كانا شيئا واحدا كما يقول كروتشى، أو أن «جذم الشعر» هو أصل هذه الفنون كلها كما قال جوته من قبل، فإن حلقات التطور المعروفة والموثقة ترجح أن الفنون القصصية بالذات نشأت فى حضن التاريخ رواية ثم تدوينا، أى من الأخبار المأثورة عن نشأة المجتمعات البشرية. ومن ثم لم يكن للمونولوج ، ولا لضمير المتكلم، مكان فيها. إنما بدأ الفن القصصى يعرف ضمير المتكلم و«القصة المونولوج» كما عرف «الضمير» الأخلاقى فى المجتمع الزراعى المستقر، فى مصر القديمة (كتاب الموتى، قصة سنوحى، الخ).

بقلم :د . شكرى محمد عياد

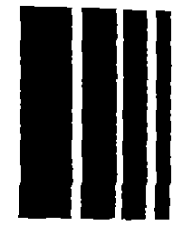
محنة المثقفين

وكان لنمو المؤسسة التجارية في ظل الحضارة الإسلامية تأثيره الأدبي في رواج فن قصصي يعتمد «المونولوج» شكلا أساسياً، ويطور الموضوع من الضمير الأخلاقي إلى الأسفار والمغامرات (التي تدخل فيها كثير من العجائب) وتقلب الحظوظ بين الثراء والفقر (ألف ليلة وليلة). وقد صدّرت الثقافة العربية هذا الفن إلى أوربا ليغذي الشعور المتنامي بالفردية لدى أبناء الطبقات المتوسطة، ولكن الثورة الصناعية لم تلبث أن ربطت محدثي الغنى من أقطاب الرأسمالية ببقايا طبقة النبلاء، فبدأت محنة «المثقفين» الذين لم يكونوا طبقة في يوم من الأيام، ولكن كثرتهم العددية - نتيجة لاتساع المدن وتعدد التخصصات - جعلتهم مسئولين مباشرة عن أداء رسالة الثقافة في المجتمع، دون سند من الأرستقراطية المتحللة، أو الرأسمالية السوقية، فيما عدا الأفراد الذين تصل إليهم عدوى الثقافة من أبناء هاتين الطبقتين. هنا دخل الأدب القصصي في طور جديد من التعبير عن الذات الفردية، طور اتسم - من الناحية الفكرية - بأشكال مختلفة من التناقض



د . نعيم عطية

بين الفرد والمجتمع: الرومنسية بوجهيها الثوري والانعزالي، والواقعية بنقدها، المسلح بالعلم، لأنماط الحياة البورجوازية؛ كما اتسم من الناحية الشكلية، ببروز تكتيك «زاوية الرؤية»، وظهور شكل «الرواية الرسائل» و«الرواية بضمير المتكلم» - ولكننا لم تصل بعد الى «الرواية المونولوج» بمفهومها الحداثي. وأول ما يسترعي النظر ان هذا المونولوج الحداثي لم يعد مرتبطا بضمير المتكلم، فقد يكون ضمير المتكلم هو الأساس ، حتى يصعب التمييز بين شخصية الراوي وشخصية الكاتب (كما عند بروست)، وقد يستعمل ضمير الغائب، ويعطي البطل اسما. مع انه صورة للكاتب (مثل شخصية ستيفن عند جويس)، او يرمز له بالحرف الأول من اسم الكاتب (ك = كافكا): اما الخاصية المميزة لهذا المونولوج الحداثي فهي انه «مونولوج داخلي» وهناك أنواع لا حصر لها من هذا المونولوج الداخلي، من التذكر الواعي (بروست) الى الخواطر المهوشة (جويس)، كما ان هذا المونولوج الداخلي يمكن ان يكون عمود الرواية من مبدئها الى منتهاها، أو يستخدم في بعض اجزائها دون بعض.



ويقترن هذا الأسلوب بالنزعة الجمالية لدى الكتاب الحداثيين، هذه النزعة التى تعارض علاقة الأدب بالقضايا الاجتماعية.. فمع التسليم بأن الأدب يتناول عواطف وانفعالات، فإن هذه العواطف والانفعالات لا تشبه فى شىء ما نعانيه فى حياتنا الواقعية، وإنما تغدو لبنات فى تشكيل جمالى له وجوده المستقل، لهذا قويت الصلة بين الأدب الحداثى، بمختلف أنواعه، وبين الموسيقى التى هى تشكيل مجرد بأصل وجودها، فهى تعتمد على علاقات رياضية، كما ان الفنون التشكيلية التى تملك مدركاتها الخاصة من لون وكتلة الى آخره، سبقت الأدب الى المفهوم الحداثى للفن المجرد. وسواء كنا نتحدث عن الموسيقى أو عن الفنون التشكيلية، فإننا نتحدث عن فنون تتخذ مادتها الأصلية من مدركات حسية قابلة بطبيعتها للتجريد الشكلى، بخلاف الأدب الذى يتشكل من كلمات، والكلمات بطبيعتها ذات دلالات معنوية، وعالم المعانى مرتبط بعضه ببعض، ومن هنا لا يمكن ان يوجد فى الأدب تجريد محض، كما فى الموسيقى أو الفنون التشكيلية. أما كيف يمكن (تشكيل المعانى) فهذه هى المعضلة التى لا نزعم ان مبدعى الأدب أو نقاده، فى هذا العصر الاخير، قد وجدوا لها حلا مرضيا.

ولكننا فى الطريق نحو هذا الحل يمكننا القول بأن معرفة نشاط العقل الباطن وسّعت للأدباء الحداثيين مجال الربط بين أفكار متباعدة ، وهذه سمة شكلية، كما فى التعامل اللونى مثلا، بقدر ما هى سمة معنوية، ثم إن الدراسات اللغوية، الحديثة، باتجاهها نحو الشكل، قد غلبت على دراسة الأساليب الأدبية، فجعلت المعنى، فى أحسن الأحوال، تابعا للشكل. أما فى أسوأ الاحوال فالتراكيب اللغوية يراد بها هدم المعنى وحين تصل «الحداثية» الى هذه الدرجة يمكن اسقاطها من الفن اللغوى، غير مأسوف عليها. ولكن الحداثية التى تعبر عن طبقات من المعنى كامنة فى عمق الذات المعاصرة، المأزومة، لا تزال فنا لغويا، يضيف شيئا جديدا الى الابداعات السابقة. ويرى الحداثيون ان هذه الشىء الجديد الذى يغرّب الواقع هو وحده الجدير باسم الفن فى هذا العصر، فهو «الفن المتقدم» ، وكأنه «نهاية التاريخ»، وليس مجرد حقبة منه، لا تمحو ما قبلها. ولا تئد ما بعدها.

والجميل من هذا الفن الغرائبى يظل مرتبطا بالمعنى، كما يظل مرتبطا بالأشكال اللغوية الأساسية، وإن طورها الى درجة بعيدة، واخترع من الأنواع الأدبية، أو من الأساليب الفنية ، ما لم يكن موجودا او معترفا به، مع ان بذور هذه الأشكال والأساليب وجدت فى التراث

الأدبى العالمى ، ولا تزال باقية فيما يمكننا ان نسميه حقريات الأدب، وهى الاثار الأدبية الشعبية التى سلمت ـ ولو جزئيا ـ من تأثير الآداب الرسمية، ولا تزال قادرة على التأثير فى القارىء أو المشاهد المعاصر، ومن الأدلة المادية على ذلك: استلهام الاساطير فى الادب المعاصر، ومحاولات بعض المخرجين الطليعيين اعادة تفسير اعمال ادبية قديمة (مسرحيات شكسبير مثلا) وتقديمها فى ثوب عصرى.

قبلة الريح

أردت بهذا التمهيد الطويل ان اربط «المونولوج» باعتباره اسلوبا أو شكلا أدبيا بمادته اللغوية من ناحية، وقدراته التعبيرية من ناحية أخرى، مع أن استخدامه الفعلى فى الأدب يتغير من عصر الى عصر ولكننى معنى على وجه الخصوص بأدبنا المعاصر، والحقيقة أن هذه الأفكار لم تتشكل فى ذهنى بالصورة التى عرضتها هنا إلا بعد أن قرأت عملا صغير الحجم، كبير الدلالة، للدكتور نعيم عطية بعنوان «قبلة الريح». وترجع أهمية هذا العمل، فى تقديرى ، من أنه يمثل الشكل الصافى للمونولوج ، مستخدما فى ثناياه أساليب فنية لغوية تتفق مع طابعه الحداثى الذى يتميز بالتعبير عن مكنونات العقل الباطن، وأعنى على وجه الخصوص : أسلوب الحذف، وأسلوب الجمع بين الأضداد، وأحيانا الجمع بين الفكرة ونقيضها (وهو مختلف عن أسلوب «المقابلة» المعروف فى البلاغة التقليدية، وإن كان الأصل اللغوى واحدا) . ويظهر انتماء هذا العمل إلى الحداثية فى انشغاله الفلسفى بفكرة الحرية، ولو أنه يضرب بجذوره إلى أعماق الموقف الإنسانى أمام الموت، كما يتجلى فى ملحمة جلجامش، ومختلف الأساطير التى تدور حول الموت والبعث ، والرحلة إلى العالم السفلى، ولكن، بصورة أكثر وضوحا وتحديدا، فى سفر الجامعة.

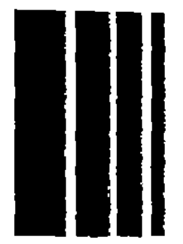
يقول الجامعة بن داود ، الملك (أنقل عن الترجمة الانجليزية المعتمدة):

«أنشأت لنفسى منشآت عظيمة، بنيت لى دورا، زرعت لى كروما ، أنشأت لى حدائق وبساتين، أنشأت لى بحيرات كى تروى الأعواد التى تنبت أشجارا، جلبت خداما وخوادم ، وكان الخدم يولدون فى دارى، ملكت قطعانا من الماشية كبيرها وصغيرها، أكثر من كل ما كان فى أورشليم قبلى، واقتنيت فضة وذهبا، وكنوز الملوك والأمراء ، جلبت المغنين والمغنيات ، وما يلذ بنى البشر من آلات الطرب من كل نوع.

«هكذا بلغت من العظمة فوق ما بلغه كل من كانوا قبلى فى اورشليم، ومع ذلك لم تفارقنى الحكمة.

«وكل ما اشتهته عيناى لم أحرمهما، ولم احرم قلبى من شىء يسره، لأن قلبى. كان فرحا بكل ما عملت ، وكان هذا حظى من كل ما عملت.

«ثم نظرت الى كل ما عملت يداى، وكل ما جهدت فيه، فإذا الكل باطل وعذاب للروح، وما من شىء باق تحت الشمس (سفر الجامعة، الإصحاح الثانى).



ويقول نعيم:

«تصعد جبالا، وتتبوأ عروشا، تغوص في أعماق بحار. تصارع هناك وحوشا، وتلتقط لتلك الأدغال صورا وأفلاما. تنزل الى باطن الأرض، تستخرج ذهبا ومعادن، أو تدق بريمات في صحار أو بقاع موحلة، فيتدفق البترول بين يديك وتملأ منه براميل. تضحى أغنى الأغنياء، لكنك ذات يوم سوف تصرخ قائلا كنت أغنى الأغنياء، ماذا نفعنى أن أكنز نقودا في البنوك . او اجمع معلومات ومعارف من سياسة الى شركات، وأراجع احصاءات للخسائر والأرباح والصفقات. سوف تحلق في السماء بالطائرات وتنطلق في نزهات ورحلات . وتقضي الأصياف في الريڤييرا او برمودا او تسهر في علب الليل سهرات وسهرات، وتنتشي بالكؤوس تلو الكؤوس، تلمس لحما طريا دافئا وتتحسس ثنيات وانبعاجات. كل هذا لا يمثل انجازا ولا يعطى مذاقا» (قبلة الريح ص ١٢).

الثروة التي يجمعها الأثرياء بالكد وعذاب الروح لتذهب الى وريث لا يجني منها الا الضرر، في حين يخرج صاحبها من الدنيا عاريا كما دخلها (الجامعة ٥/١٣ ـ١٥) «إليس الكفن بلا جيوب؟» (قبلة الريح ص ٧٥) ومسرات العشق، مثل المهارة، والمعرفة، والحكمة، لا يبقى منها شيء في القبر (الجامعة ٩/٩ و١٠)، «حين تقف العربة ذات الثلاثة جياد، ويخطفك السائق الأجش المتشح دوما بالسواد» (قبلة الريح، ص ٦٥). هذه بعض التنويعات التي تتكرر في العملين ، على فكرة الموت. وقد تعمدت الإشارة إلى هذه الفقرات المتوازية لكي أظهر النسغ التراثي الذي يسري في هذا العمل الحداثي. ولعلك لاحظت ان الصور الجزئية في العمل الثاني كلها جديدة: الطائرات ، الريڤييرا ، علب الليل، العربة ذات الجياد الثلاثة، الخ، ولكنك تلاحظ ايضا ان هذه الصور العصرية ملتحمة بالفكرة القديمة التحام اللفظ بالمعنى، وذلك لأن هذه الفكرة ليست قديمة ولا جديدة، بل هي فكرة خالدة، فهي تعبر عن موقف الإنسان من الوجود، ورفضه ، غير المجدي، لحقيقة الموت، انما الذي يتغير من عصر الى عصر، ومن ثقافة الى ثقافة، هو كيفية التغلب على هذا الرفض ان فكرة حياة اخرى، او جزاء من نوع ما، هي المحور الرئيسي لمعظم النصوص الدينية. ولكن الأدب، أعني الفن القولي الذي يبدعه الإنسان، لا يفترض شيئا مسبقا، ولا يعبر عن إيمان مجرد ، او خال من الشك والقلق، وفي قراءتي لـ «قبلة الريح» اجد عاطفة دينية قوية، إلا أنها لا تعبر عن نفسها بطريقة مباشرة أو مجردة. ففي هذا العمل، كما في كل عمل حداثي أصيل، مسلكان أسلوبيان اساسيان: تجريد المحسوس، وتحسيس (إن قبلت

هذا الاشتقاق) المجرد. وما نسميه «الرمز» هو عند التحليل مركب من الأسلوبين: فبعد ان يستخلص المبدع من المحسوس معنى مجردا (بقوة الخيال، لا بقوة العقل) يعود فيضع هذا المعنى المجرد المبتكر فى صورة محسوسة مبتكرة. ويمكننا ان ندخل هذين المسلكين الأسلوبيين تحت التصنيف الأوسع الذى اشرنا اليه فيما سبق، «الجمع بين الأضداد».

سأكتفى بأمثلة قليلة، بادئا بأقربها الى التعبيرات المألوفة:

«أنحنى أربت على شعرها، وأقبل جبينها، حتى فى أشد حالات تقززى».

هذا مشهد محسوس فى كل جزئياته، حتى حرف الجر «على». لو تمت الجملة على نسق واحد لوصفت القبلة بأنها «باردة» أو مصطنعة، او عادية، او بشبه جملة مثل «كما افعل كل يوم». ولكننا نفاجأ بتعبير مناقض، ونابع من عمق الشعور، صريح فى الدلالة على المعنى المجرد الذى تحاول الذات اخفاءه تحت هذه الأفعال الظاهرة: «فى اشد حالات تقززى» (قبلة الريح، ص ٨٣).

ويجب ان نلاحظ ان هذا التناقض بين المحسوس والمجرد لم يكن مجرد حيلة لتغريب العبارة، ولكنه تناقض ضرورى، فبدونه لا يكون للمونولوج الداخلى نبرته الحميمة الصادقة.

«كان يجب أن اعرف ماذا أريد. أن أعرف على وجه التحديد ذاتى الحقيقية وليس المحجبة بألف قناع وقناع. سوف تدخل الان يدك فى تجويف صدرك تبحث عن قلبك لتخرجه وتتحاور معه. سوف تنظر اليه بمحجريك، واذا بك وانت تتأمل يدك الخاوية، تجد أنه ما عاد لقلبك فى صدرك وجود، ولا بالتالى فى راحتك ، وبين اصابعك التى تطبق الآن على لا شىء» (قبلة الريح ، ص ١٣).

التعبير عن العواطف بالقلب، نموذج شديد الشيوع لتحسيس المجرد، وهذا الشيوع نفسه يجعلنا لا ننتبه، فى معظم الأحيان، للحركة الذهنية المضمرة فيه، ولكن الصورة التى بهتت معالمها من كثرة الاستعمال تكتسب هنا من التفاصيل ما يجعلها شبيهة بالحقيقة، وهذا الانتقال من مجاز شائع الى صورة وهمية مركبة، انما ينبع من اختلاف الموضوع. فليس الكلام عن حالة عاطفية سانحة بل عن مراجعة قاسية للذات.

«فى هذا المكان الذى حللت به تروح، وتغدو، باحثا عن بوابات الرمال. تعتقد انه ليس خاتمة المطاف. وبالقطع ليس هو كذلك - فى هذه الغرفة الكبيرة، التى ليس لها سقف ولا حوائط - تتخبط باحثا عن البوابات، ولكن فى هذا المكان الذى يبدو لك ان ايامك فيه ثقال زخمة، لا توجد ابواب او منافذ، وكيف توجد وليس ثمة جدران ولا اسوار؟ او ربما هناك جدران واسوار. ولست بقادر ان تعثر عليها. فى هذا المكان الذى تقضى فيه ايامك ولياليك البواقى، تتخبط وتلهث وتتوتر، وتحس بالاحباط فى النهاية» (قبلة الريح ، ص ٤٥).

هذا المكان المفتوح بلا حدود، والمغلق



القفز على الأشواك

بدون اى منقذ، رمز «للوجود» . و«الوجود» معنى مجرد ميتافيزيقى، يتكرر فى هذه الرواية - المونولوج ، ولكنه لا يتكـر هنا بالاسم، لأن الرمـز المحسوس يعبـر عن الحالة النفسية بدقة اكبر، ويكسب المعنى المجرد فى نهاية الفقرة «الاحباط » مزيدا من قوة الدلالة.

ورمـز «الرمال»، الرمال الناعمـة التى تنزلق بسهولة اكبر من بين اصابعك كلما شددت عليها قبضتك، يشير الى عبثية المجهود الذى يبذله الإنسان لتحقيق ذاته، أو حتى لمعرفة ذاته. فكيف إذا اقـترنت الرمـال ببوابات هذا الفضـاء - السجن، ومـاذا تعنى محـاولة الخروج من «بوابات الرمال» هذه . إلا أن تنهار على السجين الهارب، وتطمره تحتها؟ (ص ٥٩).

وفى الرمز دائما شىء من عمل الفكر الهادىء ، ولكن تناقضات العقل الباطن اذا بلغت درجة من الحدة تقرب من حالة المرض النفسى (انقسـام الشخـصيـة) يصبح تحطيم الواقع، باستخدام الاسلوب السيريالى، هو التعبير الامثل. والرواية - المونولوج التى نحن بصـددها تتضـمن حـالات من هذا النوع. فـالبطل واقع تحت وهم: انه قدم الى مدينة الاسكندرية ـ حيث نشـأ - بحثـا عن قـاتل . وان هذا القـاتل سيكرر جريمته، ثم يموت هو نفسه. ولكن من هذا القاتل؟ واين هو؟

«انت يا من بدأت مـسـيـرتك باحـثـا محـقـقـا - تجد القاتل. وجهك الشـاحب وعيناك الحزينتـان منطبعتـان امامك فى المرآة ينظرالقاتل اليك، وتنظر اليه، لا تقل ان الامر كان وهما فى ناظريك وكذبا. ذلك الذى فى المرآة يعرفك، مهما ادعيت انك لا تعرفه. امتلأ المكان بالهمسـات، والعيون المحملقة، والاصابع المشيرة اليك. من اين اتى كل هؤلاء الموتى؟ إنه سيعاود ارتكاب جـريمتـه. سيبدأ بأن يقتل ثم يموت من جديد» (ص ص ٢٧ - ٢٨).

الفكرة المسيطرة على العمل

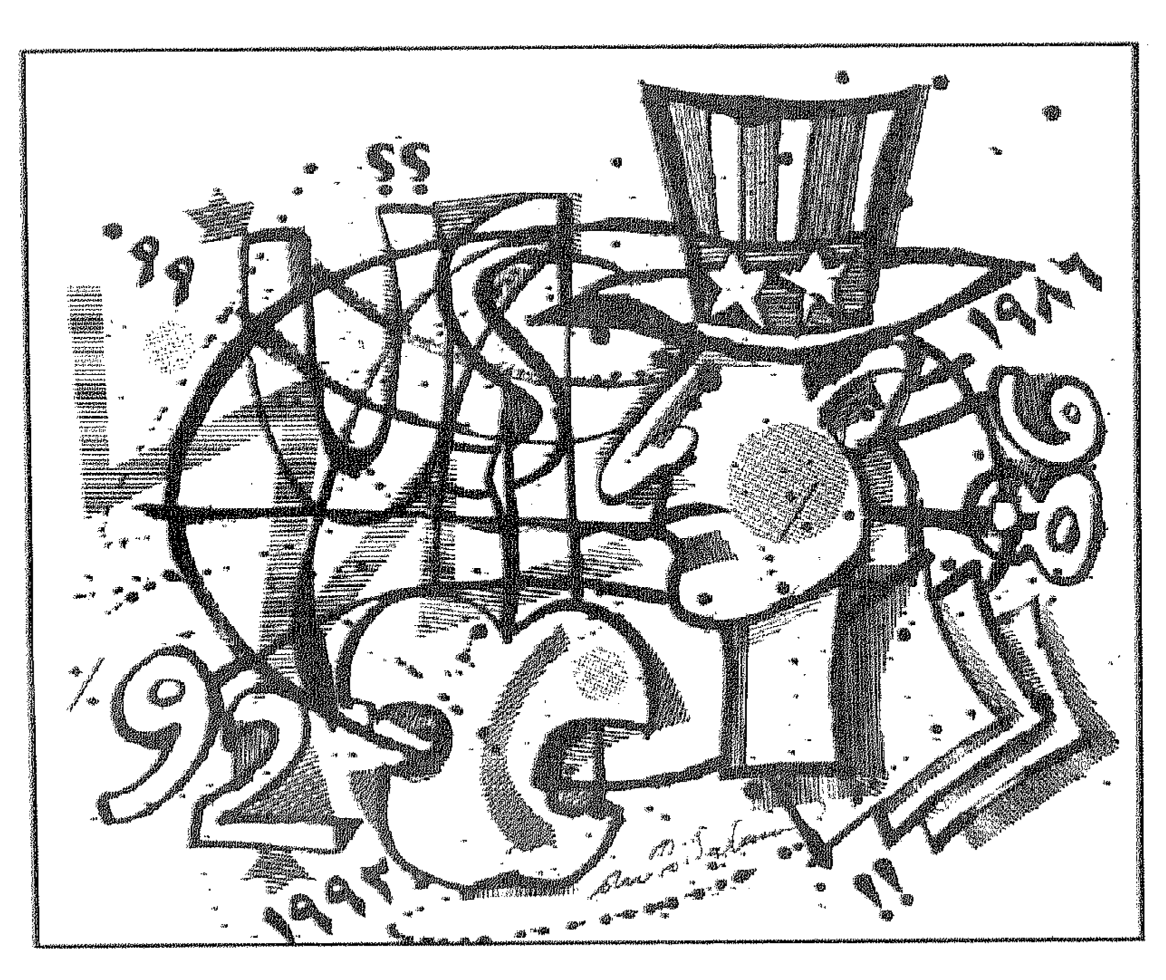
ويمكننا من هذا المثـال الاخـيـر ان نخمن الفكرة التى تسيطر على العمل كله، مع ان هذا المثـال يأتى قـبل ان تصل فى القراءة الى ربع الرواية. سـوف نتأكد من صحة هذا التخمين لأن فكرة «القتل» تظل تتردد خلال الرواية بصور مختلفة، وسوف نكتشف مع كل صورة جديدة معنى جديدا للقتل، حتى نصل الى الفصل قبل الاخير، حـيث يتكلم المونولوج بضـمـيـر الانثى (النفس؟). فتقول : «من قبل علمتنى القتل. علمنى الآن الحب. علمـتنى ان ابدع من الطين بشـرا. علمتنى الشـهوة والادمـان. علم ثديى الآن أن يسـقى الرضع لبن الحنان».

ولكى نلقى بعض الضـوء على معـنى القتل هنا - وأظنه فعل الشـهـوة - ولكى أوضح لك بنية الرواية أيضـاً، ولو إلى حد ما، أورد عليك الفقرة التالية مباشرة:

«ها أنت يا قـاسـيـة القلب تلينين. تنويين رقة. يا صاحبة القبضة الحديدية. أنسيت النصل الذى يقطر دما؟ يا جدباء، أتريدين أن تضحى الآن حقلا للحرات

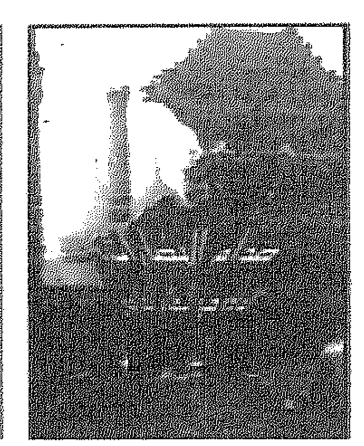
معداً؟ تصرخين «أريد بيتاً» ؟«(ص ٧٩)
فـأنت تلاحظ انتقـال الضـمـائر هنا، وتدرك بلاشك أن الشـخصـيـة واحدة، وإن تكن منقسمـة، وتدرك أن رحلة البـحث عن الذات، و«البحث عن القاتل»، رحلة واحدة.
وعندمـا يقـول، في أول الربع الأخـيـر من الرواية : «قدر لي، عبر مشاق كبيرة، أن أحقق ذاتي» فـيجب أن تتوقع أنه لا يلبث أن ينفى هذا الادعـاء العـريض. فـفى الفصل الأخـيـر «وجدت صـحـاباً جـداً»، يكتـشف، في أعـمق الأعمـاق من نفسـه، شـخصـية أخرى (أهي الروح، هذا القبس السماوى؟) يحدث نفسه عنها قائلاً :
«علاقتكما هى وحدها الأبدية. ما عاد هو يذهب ويجئ. احـتـضنتـه، حتى وأنت تمارس على الأسـرة الوثيـرة العـشق، وتقـتف مـا بداخلك، كنت لا تنسى أنك طين، تقذف في رحم من طين طيناً، صار يعـيش مـعك. يحـتـضنك، مـثل جلدك، ويحتويك». (ص ٨٥)
لهذا قلت فيما سبق ان «قبلة الريح» تعبر عن عاطفة دينية قوية، ولكنها لا تشبه الإيمـان المطلق الذى نجده في النصوص الدينية. تأمل ختام الرواية (ضمير الغائب يشير إلى هذه الشخصية نفسها):
«لو جـاء من جـديد، لن يجـد البـاب موصداً، تعال نتحادث. جمدتني برد العزلة بين قوم غرباء. لو جاء ، لو جاء، لو جاء...
«الأفضل ألا يجئ..
«عبثاً سيطرق الأبواب. ولن يفتح له أحد.
«وجدت صحابا جداً.
«وبالبئس الصحاب.
(صخب ممتد)»

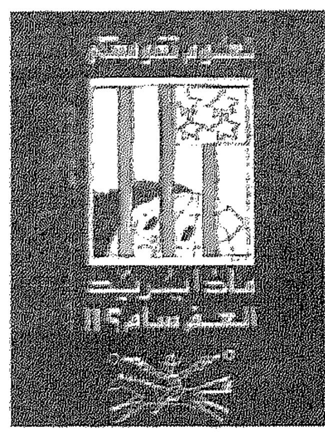
يمكننا أن نصف هذه البنيــة التى تعـتـمـد الغـوص فى العـقل البـاطن، وتسـتـخـدم أسـاليب التناقض، والرمـز، والصور السيريالية المهوشة، بأنها «البنية الأســـاس» فى هذه الرواية المونولوج. ويمكنك أن تلاحظ – حـتى فى الأمـثلة القليلة التى اوردناها ان بنيـة الاسـاس هذه تلتحم ببنية اقرب منها الى السطح، بنية الحياة الواقعية بعلاقاتها القائمة غـالبـا على النفـاق، ومسـراتهـا التى لا تتـحقق الا بدرجة مـا من خـداع النفس، وصخبها الممتد، الذى لا ينتهى ولا يتوقف؛ كما تلتحم من جهة اخرى ببنية يمكننا ان نسميها بنية الحرية، هذه الحرية التى لا يعرفها الانسان الا فى تمام العزلة، ولكن العزلة مثل الصـحـراء، واسعـة بلا حدود، واضيق من زنزانة فى الوقت نفسـه. فإذا طلبت الحـرية من هذا الطريق، طمـرتك «بوابات الرمال».
ووراء هذه البنيات الثلاث التى تظهـر فى حركة الرواية متطورة مثل نغمات ثلاثة فى قصـيد سمفونى. يلوح «شبح» قصـة، مـجرد شبح: قصـة غرام فشل، وغرام جديد يبدأ.
وأظن ان شكل «المونولوج» قد فـرض نفـســـه على هذا التكوين. وقـد أخـذ المونولوج فى النص المطبوع شكل الرواية، ولكنه يمكن ان يتحول بسهولة تامة، وربما بكفـــاءة اكـبـر، الى شكل المونودرامـــا (التمـثيلية ذات الممثل الواحد). ولعله لو صادف واحدا من اهل المسرح النابهين لكان له شأن يذكر بين الأعمال التجريبية الرائدة..



خطابان إلى الأمة الأمريكية: باحث وشماشرجى

بقلم:
د. صلاح قنصوه





عندما كنت أقرأ كتابا صغيراً لتشومسكى عالم اللغويات والمحلل السياسى الأمريكى تحت عنوان: «ماذا يريد العم سام؟»، فى الفترة من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٢، والذى ترجمه الأستاذ عادل المعلم، وضعنى الكتاب على الفور فى حالة ذهنية يسميها السينمائيون «بالمونتاج المتوازى»، أى التوليف المتقاطع بعرض حدثين أو مشهدين متعارضين يقعان فى وقت واحد. وذلك حينما وجدت نفسى أقارن بين تحليل تشومسكى، وتحليل هنتجتون للسياسة الأمريكية الخارجية فى مقاله الذى نشره بعد عام عقب صدور كتابه الشهير عن صدام الحضارات، وكان عنوان المقال «تآكل المصالح القومية الأمريكية»، فى أكتوبر ١٩٩٧ فى مجلة «الفورن أفيرز». وربما جاء المقال متأخرا بخمس سنوات بعد كتاب تشومسكى، ولكن الذى بقى موازياً ومتباينا بينهما كان المنحى أو طريقة التناول والتفسير لنفس الوقائع والأحداث.

وقد يتساءل القارىء اليقظ: لماذا هنتجتون مرة أخرى، وقد انتهت نظريته الشهيرة بالانسحاب من مسرح المتوقعات مثلما حدث لأغنية «لولاكى»، ورقصة «الماكارينا» اللتين حطمتا الأرقام القياسية فى الانتشار، ثم سرعان ما انمحت كل منهما من ذاكرة الجماهير، واندرجت فى أكفان النسيان؟.

فقد أعلن الرئيس كلينتون بعد ضرب السودان وأفغانستان فساد نظرية صدام الحضارات، وتنصل منها. كما أن هنتجتون نفسه، صاحب النظرية، لم تسعفه أو تنقذه آراؤه فى تحليل أو تفسير تآكل المصالح الأمريكية فى مقاله الأخير الذى عرضناه مفصلاً فى عدد يناير من مجلتنا هذه. ولهذا لن تكون مقارنته بتشومسكى تكراراً لما أسهب فيه من صدام الحضارات، تلك البرشامة التى انتهى مفعولها، ومن ثم لا تهمنا فى سياقنا الحالى.

● اختلاف الدور

ما الفرق إذن بين نموذج تشومسكى ونموذج هنتجتون؟ ليس الفرق فى نتائج البحث، أو وجهة النظر التى يتخذها كل منهما، فهذا أمر مقبول ووارد فى طبيعة البحث إذا ما كانت المهمة لدى كليهما هى البحث.

ولكن يقوم الفرق بينهما فى اختلاف الدور الذى اختاره عامداً كل منهما ليقدم دعواه، ومن هنا تتكشف جميع الاختلافات بينهما. فعندما يتخذ المرء دوراً بعينه فإنه لابد أن يستطلع جوانب قضيته أو موضوعه من مرصد معين، ويوجه خطابه إلى جمهور مختار، ويستخدم أسلوباً أو طريقة أو منهجاً لتحقيق هدفه.

ولكن قبل أن نشرع فى المقارنة ينبغى أن نشير إلى أن العنوان الأصلى لكتاب تشومسكى هو «ماذا يريد العم سام واقعيا Realby" أو حقاً ، أو فعلاً... إلخ. ويلفتنا هذا اللفظ الذى سقط سهوا فى الترجمة العربية إلى الفارق الجوهرى الذى ستدور حوله المقارنة بين الخطابين، تشومسكى وهنتجتون. فهو يدل أن هناك ما يريد العم سام أن تعرفه عن مقصده، وهو أمر مختلف عما يريده فى الواقع. كما يعنى أن الكتاب فى سبيله إلى كشف ذلك التباين بين ما يعلنه العم سام عن مقاصده، وبين ما يهدف إليه فى الواقع الفعلى.

وقد أحسن المترجم صنعاً بإضافته باباً آخر إلى الكتاب من تأليفه استأنف فيه ما وقف عنده تشومسكى عند سنة ١٩٩٢. وألقى أضواء ساطعة على ما استجد من أحداث على النحو الذى يقترب كثيراً من منهج تشومسكى.

● الثالوث المقدس

وقد عرف الأستاذ عادل المعلم «العم سام» بأنه «الثالوث المقدس من أقوياء رجال الحكم والمال والإعلام، يعملون حسب المنهج الأمريكى الخاص، وعصب الحياة فيه القوة والمال».

ويغرينا ذلك بالبحث فى أصل التسمية عساها تؤكد لنا صدق ما ذهب إليه تشومسكى.

اعترف الكونجرس عام ١٩٦١ «بالعم سام» سمياً «لصمويل ويلسون» الذى كان مفتشا لإمدادات الجيش الأمريكى أثناء حرب ١٨١٢. وكان يكتب .U.S أى الحروف الأولى الولايات المتحدة على الصناديق التى تم فحصها. وأطلق عماله نكتة عن الحروف الأولى للولايات المتحدة وكأنها الحروف الأولى «العم صمويل». وربما تكشف تلك الحرب التى اشتعلت بين الولايات المتحدة وبريطانيا قرابة ثلاثة أعوام عن سر التعميد لاسم العم سام. فقد شنت لأسباب اقتصادية خالصة حول حرية الملاحة البحرية التى حظرتها بريطانيا. وعقب مواجهة الكساد الاقتصادى طالبت جماعة سميت «بصقور الحرب» داخل الكونجرس، ضمت الجمهوريين والديمقراطيين، طالبت بإعلان الحرب على بريطانيا «لاسترداد الشرف الوطنى».

ومهما يكن من أمر، فإن أبرز رسم وأشهره للعم سام هو الذى صنعه «جيمس مونتجمورى فلاج» الملصقات

الداعية لانخراط الشباب فى الجيش الأمريكى فى الحربين العالميتين الأولى والثانية.

ولقد جرت العادة، فى كل الأحوال، على استخدام تلك الرمز للاشارة إلى الحكومة الأمريكية وليس المواطن الأمريكى، أو بعبارة أخرى، أصحاب السلطة فى اتخاذ القرارات.

ومن هنا يتيسر لنا أن نميز بين دور كل من تشومسكى وهنتجتون، تشومسكى يكشف ما خفى من مقاصد أمريكا بالوثائق والاحصاءات والوقائع ومناقشات الكونجرس. ويحلل الأحداث والخطط سواء ما تعلق منها بداخل أمريكا أو خارجها مما امتدت إليه نزاعها القوية الطويلة. ويناقش المصطلحات والمفهومات التى تتناولها السياسة الخارجية الأمريكية مثل الديمقراطية والسلام والعدوان ورفع مستوى المعيشة والمصالح الخاصة، ويضع أيدينا بمقتضى أدواته ومادته فى التحليل العلمى، على التعريفات الاجرائية الفعلية التى تتخذها تلك السياسة الخارجية مقياساً حاسماً، على الوجه الذى يجعل لها مضموناً مباينا تماماً للشعارات المعلنة. فلا يتحدث عن الأمة الأمريكية ككتلة موحدة، بل عن مواطنين، وفئات مختلفة متعارضة المصالح، وجماهير، وحكومة، وأصحاب مصالح وقراراته كما يتحدث عن مسار تاريخى متسق. أما هنتجتون، فيتحدث عن هوية أمريكية، أى كيان متجانس من الداخل، متمايز فى الخارج، ويتألف كما يقول من الثقافة الأمريكية، والعقيدة الأمريكية التى هى فى نظره: الحرية والمساواة والديمقراطية والنزعة الدستورية والليبرالية والحكومة المقيدة والمشروع الحر الخاص ـ وكأن قدر الأمة الأمريكية، بحسب عبارته، ألا يكون لها أيديولوجيات ، بل تكون كلا واحداً !.

● خصومة مع أعداء الحرية !

وهوية أمريكا، كما يقوله على الدوام ومنذ البداية، هى خصومتها مع أعداء الحرية. ولصون تلك العقيدة الأمريكية لابد أن تكون المصلحة القومية هى الشئون الخارجية. فلا مفر لزعامة أمريكا العالم من الاقرار بأن مشكلات العالم هى مشكلات أمريكا. ويتوجب على القيادة الممثلة فى مؤسسة الرئاسة أن تخلق اجماعاً حول تلك المصالح القومية.

ويبدى موافقته على تحديد لجنة المصالح القومية لعام ١٩٩٦ بخمس مصالح هى: «منع الهجوم على الولايات المتحدة بأسلحة الدمار الشامل، منع بروغ دول مهيمنة فى أوربا وآسيا وأية قوى معادية على حدود أمريكا، أو السيطرة على البحار، ومنع انهيار النظم العالمية للتجارة والأسواق المالية، وامدادات الطاقة، وتأمين بقاء حلفاء الولايات المتحدة».

ويتبين من ذلك أنها ليست مصالح قومية ، بقدر ما هى وسائل دفاع عن المصالح القومية فى الخارج. أما المصالح القومية التى تخص الداخل أو الوطن نفسه فغائبة تماماً عن خطابه.

والواقع أن هناك نوعين من الحديث فيما يتعلق بالشئون السياسية. الحديث

الموجه من رجال السياسة إلى عامة الجماهير، وفيه تتاح الفرصة واسعة لرقصها على أنغام الشعارات المثالية كما يقول تشومسكي والثاني، حديث المخططين إلى رجال السياسة وأصحاب النفوذ في اتخاذ القرار، وهو صريح جداً، ويتبادل فيه المخططون ورجال السياسة المذكرات التي يسجل عليها «سري للغاية». ولكن مرور فترة زمنية يجعلها متاحة للباحثين. ومثالها المذكرة التي كتبها «كينان» لتخطيط السياسة تحت رقم ٢٣ لعام ١٩٤٨. ومنها كما ينقلها تشومسكي: «عندنا حوالي ٥٠٪ من ثروات العالم وفقط ٦ر٣٪ من سكانه.. ويمثل هذا الوضع لا يمكننا تجنب حسد الآخرين واستياءهم - مهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة ترتيب نموذج العلاقات يحافظ على استمرار ذلك التفاوت.. ولتحقيق ذلك سيكون علينا أن نتخلى عن الأحلام والعواطف، وتركيز اهتمامنا على أهدافنا القومية المباشرة. يجب أن نمسك عن كلامنا المبهم للآخرين.. والأهداف غير الحقيقية مثل حقوق الإنسان ورفع مستوى المعيشة والتحول إلى الديموقراطية. ولن يكون اليوم الذي نضطر فيه إلى التعامل بمنطق القوة بعيداً، وكلما قلت عوائقنا من جراء رفع تلك الشعارات كان ذلك أفضل».

«وكينان» هو صاحب نظرية «الاحتواء» ١٩٤٧ الذي أعد فيها وصفة لتصنيع الحرب الباردة وإدارتها «لاحتواء» الخطر السوفييتي الخارج منتصراً من الحرب، وذلك بخلق قوة مناوئة للتصدي له على امتداد العالم كله. وظلت النظرية عماد السياسة الخارجية الأمريكية حتى انهيار الاتحاد السوفييتي.

وعندما أصدر هنتجتون مقاله الشهير عن صدام الحضارات، أثنى عليه «كيسنجر» مهندس ومنفذ السياسة الخارجية قائلاً بأنها أفضل ما صدر منذ مقال «كينان» عن نظرية الاحتواء في المجلة نفسها (الفورن أفيرز).

وطالما كانت مثل هذه النظريات ذات العناوين الأخاذة منشورة ليقرأها الجمهور، بخلاف المذكرات السرية وأنشطة المخابرات، فهي بمثابة أرضية جاهزة لتستر الأهداف الحقيقية غير المعلنة.

وهنا يختلف هنتجتون ، لقلة حظه أو لقلة كفاءته، عن كينان، في أن الأخير، إلى جانب إجادة صنعه أو إعداده للملابس النظرية. كان نشطاً فعالاً في رسم الخطط السرية العملية، وشرح الوسائل التي يتعين على السياسة الأمريكية استخدامها ضد أعدائها الذين وقعوا فريسة لما أسماه «بالهرطقة»، التي تتمثل لديه في الاعتقاد بأن على الحكومة مسئولية مباشرة عن رفاهية الشعب». وهي نفسها التي يسميها كينان وسائر المسئولين الأمريكيين بالشيوعية، بصرف النظر، طبعاً، عن الاتجاهات الحقيقية لمن ينادون بها. يقول كينان، كما يذكر تشومسكي، «قد تكون الإجابة غير سارة لكن علينا ألا نتردد في استخدام الحكومات المحلية لشرطتها كسلاح قمع، وليس في ذلك ما يثير الخجل فالشيوعيون

فى الأصل خونة ومن الأفضل وجود نظام قوى فى السلطة من وجود حكومة ليبرالية متسامحة متساهلة يخترقها الشيوعيون». ولم يكن كينان وحده فى تلك المخطط فقد سبقه «ودرو ويلسون» قبل الحرب بثلاثين عاماً عندما صرح بأن «المضمون العملى لمبدأ مونرو هو أن تهتم الولايات المتحدة بمصالحها الخاصة، أما سلامة الدول الأمريكية الأخرى ، فهى أمور عارضة وليست أهدافاً فى ذاتها». ويبدو أن هذا خط ثابت لا تتزحزح عنه السياسة الأمريكية الخارجية.

أما هنتنجتون فإن قدراته تقصر ، أو أن دوره يقتصر على مخاطبة الجماهير فحسب. ويقتنع فحسب بالتخطيط على مستوى اختيار الملابس الملائمة لستر سوءات السياسة الخارجية. وبهذا يقوم بدور اللبيس، أو بالأحرى «الشماشرجى» الذى ينتقى لسيده ما يظهر به أمام الآخرين. ولهذا يقف جهده عند استخدام الشعارات السياسية التى تستمد منطوقاتها من معجم «المبادىء»، ولا يسعى قط إلى النزول بالبحث إلى الأسباب والمتغيرات الموضوعية للصراع الذى تُعرف السياسة بأنها طرق إدارته.

● الدبلوماسية التجارية

والمثل البارز على «شماشرجيته» أن مفهوم المصلحة القومية لديه لا يتحدد بالاقتصاد الذى هو الجسم أو البنية الحقيقية للمصلحة القومية، على نقيض تشومسكى فى كل أمثلته وتحليلاته. بل تتحدد بالمظهر الخارجى الذى قد يلهب الحماس فى الداخل، ويقدم التبرير فى الخارج.

وهو يغفل الاشارة إلى الاقتصاد فى مقاله الشهير وكتابه، ولكن عندما يضطر إلى الاشارة إليه فى مقاله الأخير، فلكى يجعله سبباً فى فقد أمريكا لنفوذها وهيبتها! فقد أصبحت السياسة الخارجية معتمدة على «الدبلوماسية التجارية» التى تقوم على «لعبة اقتناص العقود»، وهو أمر غير محمود فى نظره. فبينما كانت المرحلة الأولى للهيمنة الأمريكية، كما يقول، هى قوة «الدفع إلى الخارج»، أصبحت المرحلة الثانية للهيمنة، وهى مرحلة سيئة فى نظره لنفوذ أمريكا، هى قوة «الجذب أو السحب إلى الداخل». ففى المرحلة الأولى نتج تأثير القوة المهيمنة من قدرة أمريكا على انفاق مواردها على النحو الذى يتيح نشر الاستثمار الاقتصادى (فى الخارج طبعا) ومنح القروض، ودفع الرشاوى التى تنفق على الدبلوماسيين والبيروقراطيين فى سائر الدول ، وغالبا ما كانت تضع تلك البلدان وسكانها تحت حكمها المباشر أو غير المباشر. ولذلك مثل، ذلك الانتشار والتوسع الأمريكى ، كما يقول، فى الستينات والخمسينات من قبلها، حضوراً أو وجوداً عسكرياً وسياسياً واقتصاديا فى مناطق واسعة من العالم. ولا يخفى هنتنجتون حسرته على زوال المرحلة الأولى للهيمنة التى كانت فيها الولايات المتحدة تنفق مليارات الدولارات كل عام للتأثير على الحكومات الأجنبية فيما تصدره من قرارات، أو تديره من انتخابات، أو تؤدى إليه من نتائج سياسية. وقد انقلب الوضع الآن فكاد يتوقف التأثير على الحكومات

الأجنبية.

أما المرحلة الثانية فقد أعيد توجيه المؤسسات والموارد وكل أشكال النفوذ التى كانت تخدم المصلحة القومية فى الحرب الباردة ، الى خدمة المصالح الخاصة ، ويقصد بها التبادل التجارى والقطاع الخاص .

والحل عنده هو إيجاد عدو ، وليكن الصين لتوليد حس جديد بالهدف القومى، والهوية القومية الأمريكية . وبدون شعور وطيد بهذه الهوية فإن الأمريكيين سيعجزون عن تحديد أو تعريف مصالحهم القومية حيث تهيمن المصالح التجارية دون القومية ، وعبر القومية ، والعرقية ، على السياسة الخارجية . والسبب فى كل هذا فى نظره هو خسران أو فقدان الآخر ، ويتساءل : «بدون حرب باردة ، ما أهمية أو مغزى أن يكون المرء أمريكيا ؟» فبدون امبراطورية الشر (الاتحاد السوفييتى) فماذا يعنى أن تكون أمريكيا ، وماذا يليق إذن بالمصالح الأمريكية ، أو الى ماذا يئول أمرها ؟ . وفى الحروب تتأكد الهوية وبدون حرب باردة يختفى السند الرئيسى لمثل هذه المبادرات والبرامج الكبرى . وبالحرب يتحقق التماسك بدلا من الانقسام الاجتماعى الذى يحتاج لإزالته الى عدو مشترك . لقد كانت السلعة الأولى التى كانت تروجها السياسة الأمريكية هى «الحماية من الاتحاد السوفييتى» . وقد اختفت الآن هذه السلعة ، وربما لا تستطيع الولايات المتحدة أن تزود الأقطار الأخرى بسلعة مختلفة مثل اقتصاد العالم المفتوح ، أو الدخول فى السوق الأوربية ..

إذن لابد من إيجاد عدو ! حتى يحين الوقت ، كما يقول هنتجتون ، لتجديد هوية أمريكا القومية التى من أجلها عقد الأمريكيون عزمهم على بذل حياتهم ، وثرواتهم ، وشرفهم القومى !.

ولندع صاحبنا يبحث عن عدو ملائم ، لننظر فى خطاب تشومسكى الكاشف عن عورات السياسة الخارجية الامريكية : يقول : طورت مجموعات بحث فى كل من وزارة الخارجية ولجنة العلاقات الخارجية خططا لعالم ما بعد الحرب الثانية ، على أساس ما أسموه : «بالمجال العظيم» والذى عليه أن يخضع لمتطلبات الاقتصاد الامريكى .

ويشمل نصف الكرة الغربى ، وغرب أوربا ، والشرق الأقصى والمستعمرات السابقة للامبراطورية البريطانية ، ومصادر الطاقة فى الشرق الأوسط ، وبقية العالم الثالث ، وإن أمكن سائر العالم .

وعلى الدول الصناعية مثل ألمانيا واليابان أن تكون «الورش الكبرى» التى تعمل تحت اشرافنا (أى نحن الأمريكيين) على أن تكون أقطار العالم الثالث مصدر إمداد المجتمعات الرأسمالية بالخامات ، كما تمثل أيضا أسواقا لبيع منتجات مصانعنا .

وكان على حكومة الولايات المتحدة مهمتان رئيسيتان . الأولى تأمين السيادة على «المجال العظيم» ، ويستلزم ذلك امتلاك قوة تهديد مروعة ، وهذا سبب بناء الترسانة النووية . المهمة الثانية : توفير دعم حكومى للصناعات التكنولوجية

المتقدمة ، ولأسباب كثيرة وُجه هذا الدعم للاتفاق العسكري .

وأدرك المخططون أهمية اعادة بناء الدول الصناعية الغربية التى دمرتها الحرب ، على أن يتم ذلك باستعادة النظام اليميني التقليدي بسيادة أصحاب الأعمال، وتفكيك أو اضعاف التكتلات العمالية ، على أن تتحمل الفئات العاملة ، والفقراء أعباء إعادة البناء . واستُخدم فى كل ذلك الفاشيون والنازيون السابقون ، والمتعاونون معهم لخبرتهم الكبيرة فى ذلك. وأدرك المخططون أن ما يهدد أوربا ليس عدوانا من الاتحاد السوفييتي ، ولكن من الحركات والأفكار الديمقراطية المعادية للفاشية عند العمال والفلاحين ، والقوة الشعبية للأحزاب الشيوعية والاشتراكية . ويشرح تشومسكى بالتفصيل ما حدث فى ايطاليا واليونان ودول أمريكا اللاتينية حيث استخدمت كل الوسائل لمنع المؤمنين بالديمقراطية الأمريكية والمعجبين «بالاتفاق الجديد» الذى اتخذه روزفلت للخروج من الكساد الكبير ، لمنعهم من الوصول الى الحكم .

رحيل الديمقراطية !

ولقد ألح المخططون على أهمية تحديد أهداف السياسة الخارجية الأمريكية ، وهى منع بلوغ المغالين فى الوطنية الى الحكم ، وإذا ما وصلوا إليه يجب عزلهم والانقلاب عليهم وإقامة حكومات تفضل الاستثمار بالرأسمال الخاص المحلى والأجنبى ، وتوجيه الانتاج من المحصولات والمواد الخام للتصدير ، وتكفل بذلك تصدير الأرباح للخارج . ولقد نشر «المعهد الملكى للشئون الدولية» فى لندن دراسة عن نظام العلاقات الأمريكية الدولية تذكر فيها أنه بينما تدعم الولايات المتحدة الديمقراطية بالقول فإن التزامها الفعلى هو المشروعات الرأسمالية الخاصة. وعندما تتعرض مصالح المستثمرين الأمريكيين للتهديد ، فعلى الديمقراطية أن ترحل ، ولا بأس أن يحل محلها حكام التعذيب والقتل !

وقد استخدمت ذريعة الدفاع ضد الشيوعية أو عدوان الاتحاد السوفيتى لتبرير أى هجوم أمريكى فى أى مكان من العالم .

وكان التهديد الذى يبرر الهجوم الخاطف والحاسم يأتى من أصغر الدول فى أكثر الأحيان . لأنها كانت تمثل نموذجا قد يحتذيه غيرها لو نجحت فى استقلالها وانجاز مشروعها الخاص فى الديمقراطية ، أو الاصلاح الزراعى ، أو تأميم مصادر الطاقة . فكيسنجر فى السبعينات يقول عن «شيلى» فى عهد «الليندى» انها فيروس « يعدى المنطقة ويمتد أثره الى ايطاليا» ! وهو بهذا القول يشبه ما قاله «دين أتشيسون» فى أواخر الاربعينات «إن تفاحة واحدة معطوبة قد تفسد الصندوق كله » .

ويقتبس تشومسكى عن «لارس شولتز» الأكاديمى البارز المتخصص فى حقوق الانسان «إن المساعدات الامريكية تميل الى الزيادة مع الحكومات التى تمارس التعذيب مع مواطنيها » . كما يشير الى دراسة أوسع للاقتصادى «ادوارد هرمان» تفصح عن تلازم وثيق

بين التعذيب والمساعدات الأمريكية يفسره بأن الاثنين يرتبطان بتحسين المناخ للأعمال الخاصة .

وفي هذا الصدد يكشف تشومسكي المدلولات العملية للمصطلحات السياسية كما تتداولها السياسة الخارجية فالديمقراطية ليس معناها اشتراك الشعب في إدارة شئونه ، بل تعني النظام الذي تتخذ فيه النخبة من رجال الأعمال القرارات ، على أن يكتفي عامة الناس بالمشاهدة والفرجة وليس المشاركة . فقد سبق أن ميز «ليبمان» المحلل السياسي الشهير بين فئة المشتركين في اللعبة السياسية وتبلغ ٢٠٪ من المواطنين ، وفئة عامة الجمهور المشغول المذهول وتبلغ ٨٠٪ ويحرص المسئولون عن أن تظل بعيدة عنهم حيث تقوم بدور المشاهدة وليس المشاركة وإلا أدى ذلك الى خطر فادح .

وكذلك الدفاع ضد العدوان فإنه يعني أمرا آخر ، فعندما هاجمت الولايات المتحدة جنوب فيتنام في أوائل الستينات ، صرح «أدلاي ستفنسون» بأننا ندافع عن الفيتناميين الجنوبيين ضد العدوان الداخلي ، أي عدوان القرويين الفيتناميين ضد القوات الجوية الأمريكية .

وأيضا عملية السلام ، فقد يظن البعض أنها تحقيق السلام في الشرق الأوسط بتنفيذ اسرائيل لقرارات الأمم المتحدة وانسحابها من الأراضي التي احتلتها ، وقيام دولة اسرائيلية ودولة فلسطينية طبقا لقرارات الأمم المتحدة . ولكنها تعني عندنا تعطيل الولايات المتحدة لكل سبل السلام ودعم اسرائيل سياسيا واقتصاديا وعسكريا .

وفي غمرة غسيل المخ الذي يقلب المدلولات الى نقيضها يصبح لوسائل الإعلام أهميتها البارزة وفاعليتها المؤثرة . وهي في نظر تشومسكي مؤسسات كبرى تبيع منتجاتها في السوق سواء كانت ليبرالية أو محافظة . والسوق هو وسيلة الاعلام ، أما السلعة أو المنتج فهي المشاهدون ، وخاصة النخبة منهم (أي ٢٠٪) فوسيلة الاعلام تجتذب المشاهدين الى حيث تصيدهم الاعلانات . ويدفع أصحاب الأعمال ثمن هؤلاء المشاهدين الى مؤسسات الإعلام التي تبيع المشاهدين لهم . ومن ثم تجد صورة العالم التي تقدمها وسائل الاعلام انعكاسا ضيقا ومتحيزا لمصالح البائعين والمشترين وقيمهم ، وليس من قبيل المصادفة أن يحدث انتقال منتظم لأصحاب الوظائف العليا بين المؤسسات الخاصة والحكومية والاعلام .

فضح ألوان التزييف

ولئن كان هنتجتون شماشرجيا يلبس سادته ما يروق في أعين الناس ، وكان تشومسكي معريا فاضحا لما تحت الثياب فإنه لا يقنع بهذا الدور بل يواصل مهمته كباحث يوجه خطابه الى الأمة الامريكية ، فيقدم في نهاية كل فصل السبل التي تفضي إلى تغيير هذا الوضع الشائن الذي اغتصبت فيه حفنة قليلة حق اتخاذ القرار والتنفيذ .

ويوجه خطابه ، بعد انجاز مهمته في فضح كل ألوان التزييف ، الى المواطن متسائلا :

ماذا يمكنك عمله ؟ ثم ما يلبث أن

يجيب عن السؤال منتهيا الى أن ما يحدث الآن ليس من قوانين الطبيعة وبالتالى يمكن تغييره . ويحتاج ذلك الى تغيير ثقافى واجتماعى وتحويل المؤسسات الأمريكية بحيث ينتقل النظام الديمقراطى الشكلى الى نظام ديمقراطى حقيقى جديد يخرج عن مظهرية الدورات الانتخابية التى تأتى بمن يخدم مصالح رجال الأعمال والمال . فليست الانتخابات مجرد ذهاب قلة من المواطنين كل عدة سنوات للضغط على بضعة أزرار ، ولكنها ، لكى تكون لها قيمة فعلية ، تعنى أن يكون للمواطنين آراء، ومن ثم مواقف من الأحداث ، فضلا عن البرامج الرئيسية التى يريدون من الحكومة تنفيذها ، ويضغطون على ممثليهم من النواب والشيوخ من أجل ذلك. ويمكنك تنظيم التأثير على أعضاء الكونجرس بدعوتهم الى منزلك . وحشد عدد كبير من المواطنين للصراخ فى وجوههم ، ويمكنك الدخول الى مكاتبهم ، وعلى أية حال يمكنك أن تلعب دورا مهما فى التأثير عليهم .

كما تستطيع أن تقوم ببحوثك الخاصة لدراسة كل مشكلة لتكوين الموقف السليم منها . ولا شك أن ذلك يتطلب مجهودا ، ولكنه فى مقدورك ، فالأمر ليس معقدا أو غامضا . فلابد العمل أن يستمر فى سبيل الحرية . كما يحتاج العالم الثالث الى تعاطفنا وتفهمنا ، وأكثر من ذلك الى مساعدتنا . ويتوقف تحملهم وصمودهم أمام وحشيتنا على ما يمكن أن نفعله فى الداخل عندنا . إن الشجاعة التى أبدوها مذهلة ، ولقد سنحت لى الفرصة لأرى بعض ومضات تلك الشجاعة فى جنوب شرق آسيا ، وفى أمريكا الوسطى ، وفى الضفة الغربية الفلسطينية المحتلة ، لقد كانت بالنسبة لى تجربة مؤثرة وملهمة الى حد كبير .

ومن يعتقد أن تلك مجرد كلمات ، لا يفهم الا أقل القليل عن العالم . وهذا هو مجرد جزء من المهمة التى ينبغى أن نضطلع بها ، فهناك أنظمة غير مشروعة فى كل أنحاء عوالمنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وتقابلنا لأول مرة فى تاريخ البشرية مشكلة حماية بيئة يمكن أن تحتضن وجودا انسانيا حقا . ولا أدرى إن كان ذلك الجهد الأمين المخلص كافيا لحل ، أو لتخفيف تلك المشكلات ، ولكنى على يقين بأن الامتناع عن بذل ذلك الجهد سيطلق السراح لمأساة أو كارثة فادحة .

ولابد ، بطبيعة الحال ، التأثير فى «قطيع الدهماء المشغول والمذهول» الذين يشكلون ثمانية فى المائة من المواطنين ، لابد من المساهمة فى إيقاظهم وجذب اهتمامهم بعيدا عما تريده النخبة المسيطرة . وهنا يكون للاعلام المستقل دوره البارز . ومادام مستقلا ، فبحكم التعريف ينقصه التمويل ، ولكن شأنه هو شأن المنظمات الأهلية : تجميع وحشد للمواطنين من ذوى الامكانيات المحدودة الذين تتضاعف امكانياتهم وفاعلياتهم بمقتضى ذلك التجمع والتضامن . وعبر هذا الاعلام المستقل يمكن المواطن أن يكون مشاركا فى اتخاذ القرار بدلا من كونه مشاهدا يحشى رأسه ، ويكسى بدنه بما يريده له العم سام .

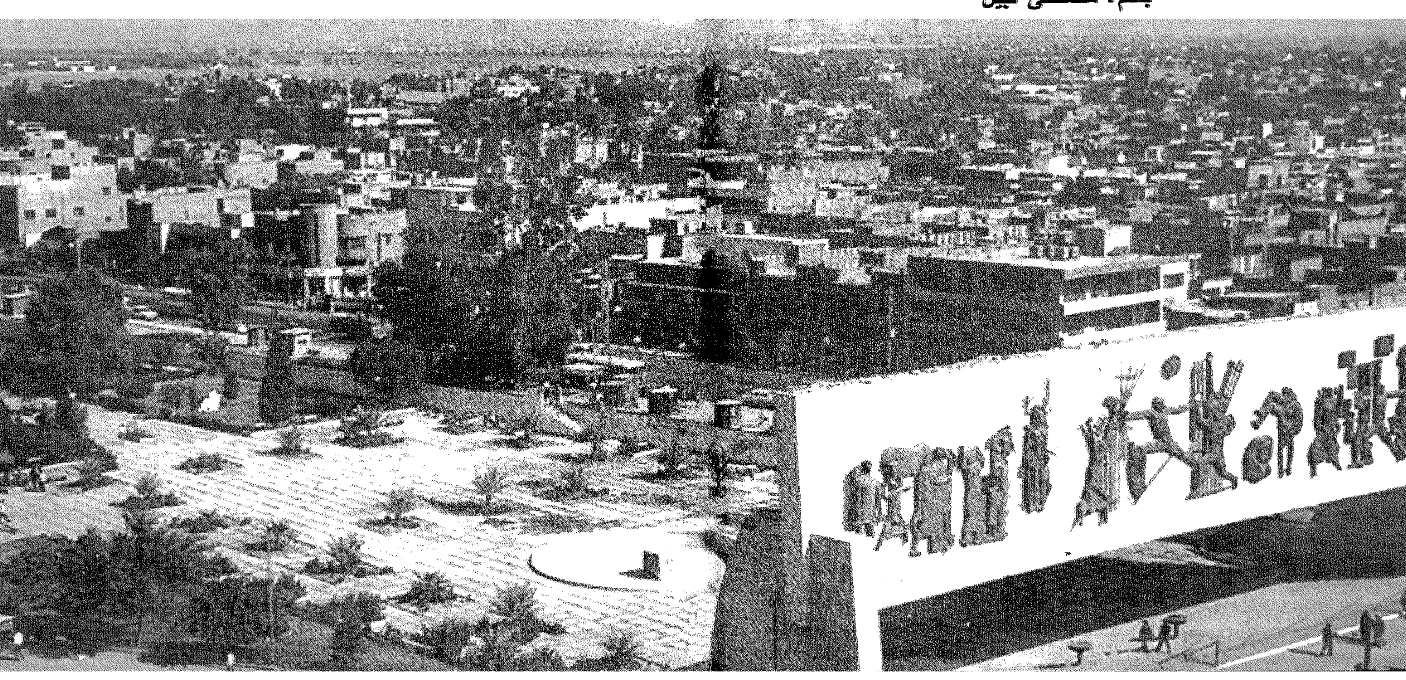
العراق
وصدام الحضارات

بقلم: مصطفى نبيل

هذه إطلالة على عراق الحاضر وعراق التاريخ، لعلنا نمسك بأبعاد الأزمة العراقية الراهنة، أبعادها وآثارها..

نسعى خلالها لا لمجرد الاكتفاء بما يظهر على السطح، بل نغامر بالغوص فى الأعماق، لعلنا نصل إلى حقيقة مايجرى، نبحث جذور السياسات لا وسائل تنفيذها.

نتناول الثوابت قبل المتغيرات، على أن تكون محاولة للتفسير تبعد عن أن تكون محاولة للتبرير.





تيمور لنك

ولتكن البداية تلك الظواهر التاريخية اللافتة للنظر، فمنذ أن قضى هولاكو على الدولة العباسية، لاتكاد تمر حقبة تاريخية إلا وتعانى العراق من الضرب أو الحصار أو كليهما معا، والتى كان آخرها، بما لايخفى، عملية «ثعلب الصحراء».

والملاحظ أيضا، أن العراق كانت دائما مسرحا لصراع حضارى جبار.

هل يرجع ذلك إلى أنها دولة تخوم عربية، تقوم على الحدود الفاصلة أو الحدود الواصلة مع غيرها من دول المنطقة غير العربية؟.. فعلى أرض العراق تحددت نتائج معارك تاريخية كبرى، وعلى أرضها التقت وتصارعت المذاهب والقوميات، ويبقى التاريخ لدى شعبها، حلاوة الانتصارات فى حلوقهم ومرارة الهزائم فى قلوبهم.

ولنتوقف عند المشهد الأخير..

نرى العراق، وهى القوة العربية الثانية، تتعرض للعدوان، ويتقلص دورها، وتتبدد مواردها، ونبحث عن الدوافع الحقيقية، وهل نكتفى بما يعلن وتبثه أجهزة الإعلام المختلفة، وأن الهدف هو القضاء على الرئيس العراقى صدام حسين، أو القول أن ذلك الجحيم الهابط من السماء نتيجة عجز الرئيس العراقى عن إدارة الأزمات، أو أنه إحدى نتائج مغامراته العسكرية المتكررة، أو تجاهله الإطار الإقليمى والدولى المتغير، أو حتى عجزه عن كسب رضا وتأييد دول الجوار، والتى ستدفع ثمنا غاليا لعدم الاستقرار الذى تشهده المنطقة أو من احتمالات تقسيم العراق!

خاصة بعد أن شاع أنه لاحت للأمريكيين أكثر من فرصة لتغيير النظام وأحجموا عن ذلك، وبات البعض يرى أن بقاء الرئيس العراقى يخدم المصالح الأمريكية، وأن المسألة أبعد، وأعمق من الظاهر من الأمور.

ويدعى البعض أن هدف العدوان هو القضاء على أسلحة الدمار الشامل، فهل يتم ذلك بملاحقة العقول والقضاء على العلماء أو إجبارهم على الهرب من البلاد، والذين يصل عدد من يعمل منهم فى مجالات علمية مايقترب من نحو سبعة عشر ألف عالم فى التخصصات العلمية المختلفة!

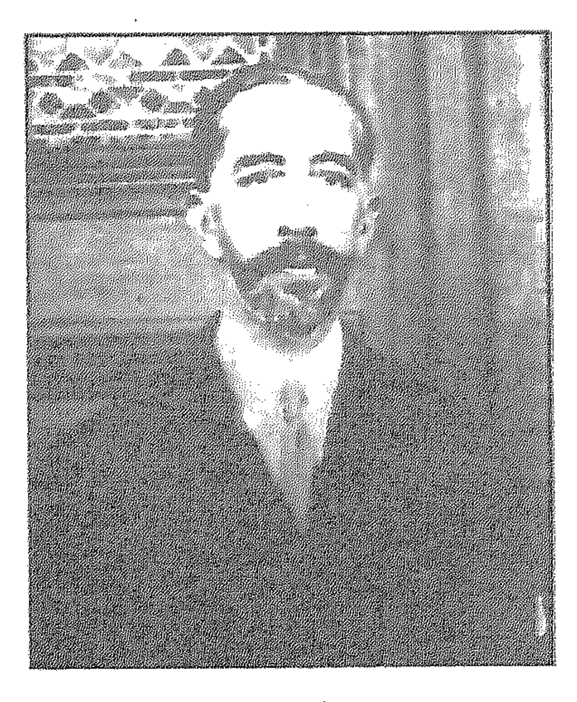
ويزعم البعض أن هدف حملة «ثعلب الصحراء» حماية دول الجوار، فهل تملك

العراق يعد كل مالحق بها من تدمير قدرة على شن الهجوم على جيرانها، بعد أن تحولت دول الخليج إلى ترسانة عسكرية مدججة بالسلاح؟.. أما القول أن مايجرى هو عقاب العراق على غزوها الكويت، فلا يجوز أن يتجاوز العقاب الفعل الأصلى، فالعقاب من جنس العمل، ولابد أن تكون له نهاية، وهل قتل النساء والأطفال والشيوخ فى معركة من جانب واحد يمكن أن تكون له أية صلة بحقوق الإنسان أو الشرعية الدولية؟!

إن الهدف من هذا العدوان ليس نظام الحكم، وإنما قوة العراق التى تمثل جزءا رئيسيا من القوة العربية، وإذا لم تسمح الضرورات الجغرافية السياسية والاستراتيجية بتقسيم العراق، فهذه الغارات المستمرة على مناطق حظر الطيران تهدف إلى إبقاء العراق فى حالة من الضعف والعجز، فليست لهذه الغارات أية علاقة بقرارات مجلس الأمن لا نصا ولا روحا، وهى معركة استنزاف مستمرة، تقصد ضرب البنيتين التحتية والفوقية ويدفع ثمنها شعب العراق لآجال طويلة.

***

فكم اتسع البون بين بغداد التاريخ وبغداد الحاضر، وهى ذات المسافة بين ماضى الشرق وحاضره، بين بغداد التى كانت يوما عاصمة الدولة الإسلامية، أقوى دول العالم وأكثرها ازدهارا، بغداد التى كان يدين لها بالولاء معظم الأقطار المحيطة بها، وهى إحدى أقدم العواصم العربية وأغناها بالتاريخ، وهى مستودع



فيصل الاول

ماتبقى من حضارة الإسلام، لها طعمها المميز الذى تستمده من نهر دجلة الذى يتلوى ويقسمها إلى ضفتين، وهو النهر العفى المتقلب الفياض.

فهل هى مجرد مصادفة، أن تستهدف الطائرات المغيرة بغداد الرشيد فتصيب بقذائفها «المدرسة المستنصرية» القائمة منذ العصر العباسى، كما تصيب «القصر العباسى»، وكأن الغارات تستهدف ليس العلماء الحاليين وحدهم بل تستهدف أبا حيان التوحيدى والجاحظ والحلاج والمتنبى وأباتمام وأبا حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل واليعقوبى وابن عبدالحكم والفارابى والكندى وابن ماسويه والمقدسى وابن حوقل، وابن سينا والبيرونى والقائمة طويلة من فقهاء وعلماء العصر العباسى.

***

أما المشهد قبل الأخير فقيه قسمت العراق في العصر العثماني إلى ثلاث ولايات هي بغداد والبصرة والموصل، ثم قامت العراق بتكوينها الحالي، كإحدى نتائج الحرب العالمية الأولى، ورغم قيامها على قواعد مضطربة وأسس واهية إلا أنها بعد اكتشاف النفط وما صحبه من أطماع وصراع، ومع انتهاء الدولة العثمانية جاء الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧، وأعلنت العراق محمية بريطانية عام ١٩٢٣، وقامت منذ اللحظات الأولى باعتبارها «دولة أزمة»، وأعلن استقلالها الشكلي عام ١٩٣٢.

وتعمدت السياسة البريطانية ألا تجعلها ثابتة أو مستقرة، ووضعت هذه السياسة خميرة ما تعانيه اليوم العراق، وكان شعب العراق آخر من يقول رأيه في شئونه لذا بقي يعبر عن نقمته بصور شتى، وإحدى صورها ذلك العنف الجارف الذي شهده تاريخها الحديث.

ولم يغب عن تلك السياسة العزف على وتر الزهو القديم لشعب العراق، فيعلن الجنرال مود بعد بضعة أيام من احتلال بغداد.. «أن أمنيتنا أن تتفوقوا كما كنتم في الماضي، عندما كان العالم كله يتعلم من حضارة وفكر أجدادكم وعلومهم وحرثهم، يوم كانت بغداد إحدى عجائب الدنيا»..!

ومن يومها أخذت السلطات البريطانية تكرس الوضع العشائري والاختلافات المذهبية، وقامت برسم حدود مصطنعة، وأخذ سكين الاستعمار الحاد يقوم بالجمع والطرح ورسم الحدود، وزاد من ظاهرة الأقليات التي قدمت لها بريطانيا حمايتها، وخاصة الآشوريين الذين نزحوا من تركيا إلى العراق خلال الحرب العالمية، ولم يكن عددهم في الثلاثينيات يتجاوز ثلاثين ألف نسمة، وقام الآشوريون بتشكيل ميليشيات ضد الأهالي في الموصل وفي كركوك.

وبالنسبة الحدود التركية العراقية، كانت ولاية الموصل تابعة للنفوذ الفرنسي في اتفاقية سايكس بيكو، وتنازلت فرنسا عن الموصل لبريطانيا في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠، وأخذت الحكومة التركية تطالب بولاية الموصل، وبعثت عصبة الأمم بعثة إلى المنطقة، وجاء في تقرير البعثة أن سكان المنطقة من الأكراد والعرب، وأن الأكراد والعرب هما العنصران اللذان يسكنان بكتل كبيرة متماسكة في المنطقة، ضميرة أخيرا الموصل إلى العراق.

وفي الحدود الجنوبية للعراق وضعت خميرة الصراعات الملتهبة في الجنوب، ويروي الشيخ خزعل قصة المؤتمر الذي تقررت فيه هذه الحدود، عندما عقد في ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٢ مؤتمر العقير الذي رسمت فيه الحدود بين العراق ونجد وبين نجد والكويت، والذي رأسه السير برسي كوكس ومثل الكويت الميجور مور، وبعد جلسات خمس أبلغ السير برسي كوكس المجتمعين أنه سيخطط الحدود بنفسه، وأخذ قلما أحمر، ورسم عليه خطا للحدود يبدأ عند نقطة على الخليج تصل إلى جبل عنيزان الواقع بالقرب من الأردن، وأعطى

العراق مساحة من الأرض تدعي نجد ملكيتها، وأعطى لنجد ثلثي أراضي الكويت، وإلى الجنوب والغرب من الكويت رسم منطقتي حياد أو صراع، سميت الأولى منطقة الكويت المحايدة، وسميت الثانية منطقة العراق المحايدة.

وبذلك أزيح وانتقل شمالا العراق التاريخي، وحرم من أي منفذ يطل على البحر، وبقيت قضايا الحدود قابلة للانفجار، ووقعت كل الأطراف في الفخ البريطاني، واستمرت المنازعات تستنزف كل الأطراف.

وتحمل العراق بعد النفط وتوافر المياه احتمالات كبيرة في تنميتها، لذا تجاهلوا شعب العراق وأخذوا يبحثون عن مرشح لتولي عرش العراق من خارجه، فرشح برهان الدين نجل آخر سلاطين آل عثمان، ورشح بعده والي يشتكوه بصفته يتبون ألف شيعيا جعفري المذهب، واستقر اختيار بريطانيا أخيرا على الملك فيصل بن الشريف حسين بعد خروجه من دمشق مهزوما في معركة ميسلون، والذي تولى العرش في العراق في مؤتمر القاهرة في ١٢ مارس سنة ١٩٢١.

وتعاملت السياسة البريطانية مع العراق لا بحكم أنها كيان تاريخي راسخ، ولكن باعتبارها كيانا جغرافيا يفرض عليه حاكما من الخارج، مع الإصرار على التأكيد على كونها كيانا جغرافيا يضم فسيفساء من القوميات، العرب والتركمان والأكراد، كما يضم مذاهب شتى، السنة والشيعة والصابئة واليزيدية والآشوريين.

وهنا نتوقف قليلا، فكثيرا ما يقول البعض، إن العقل العربي يميل إلى الهروب من واقعه، ويبحث خارج الواقع عن مسئول عن ما يواجهه من مصاعب، ويجنح إلى تبرئة نفسه والإيغال في اتهام الغير، وتضيع منه الفرص المتاحة لمواجهة مصاعبه، وهو قول صحيح في بعض الأحوال، ولكن ليس صحيحا دائما، فها نحن نرى خميرة كل المصاعب التي يواجهها العراق، مصاعب تم التخطيط الأجنبي لها بدقة، وكثيرا ما يستهدف هذا القول ستر ما تقوم به الدول الكبرى، ويسعى إلى إعفاء الاستعمار من مسئولية أفعاله.

***

وأين ذلك كله من المشهد التاريخي، عندما كانت عراق التاريخ تحتل مكانتها الراسخ في الوجدان العربي؟!

فبعد كل هذا المجد التاريخي، شهدت العراق سلسلة من الكوارث تعكس الفجوة بين الحلم والواقع، فعلى أرضها قامت الفتنة الكبرى ولقي مصرعه كل من علي ابن أبي طالب ابن عم النبي، ثم الحسين ابن علي حفيد الرسول في مأساة فاجعة وصراع بين الحق والقوة، بين الحلم والحقيقة، ومازالت الذاكرة العراقية تختزن مأساة كربلاء، عندما تحالف الشر وانتصر على الخير، وحوصر حفيد سيد الخلق، ولم يسعفه أحد بشربة ماء، ولم يتنازل عن دعوته، ودفع حياته ثمنا لتمسكه بما يراه حقا.

وبعدها أخضع الحجاج شعب العراق



عبدالكريم قاسم

بالحديد والنار.

وتعددت المرات التى دمرت فيها بغداد، ومن المعروف أن انسلاخ قوم من مرحلة فى تاريخهم إلى مرحلة أخرى، يترك مايعوق الرؤية الدقيقة لأحداث الماضى، ويخضع الحاضر لعملية رد الفعل الذى يخل بتوازن التقدير للماضى ويضعف القدرة أحيانا على استخلاص عبر التاريخ.

ولكن يبقى أثر الجغرافيا السياسية والاستراتيجية على الأحداث، وأثر الخبرات المتراكمة التى يختزنها شعب العراق.

فدمرت بغداد فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م على يد هولاكو، وأحرقت قواته قصور بغداد ورموزها، ونهبت مبانيها، ودمرت خزائن كتبها، وقذفت أهم المخطوطات العربية فى نهر دجلة، ودمرت سدودها وقنواتها، وتحولت بساتينها الخضراء اليانعة إلى صحراء جرداء.

أليس هذا ما قامت به «عاصفة الصحراء»؟

وبينما تقوم بغداد من جديد وسط كل هذا الدمار، جاءتها ضربة بربرية أخرى على يد تيمورلنك، الذى حول بغداد إلى خرائب وأنقاض، مثل ماتقوم به اليوم العملية العسكرية «ثعلب الصحراء»!

وبقيت بلاد الرافدين بعدها خاضعة لسيطرة الإمارات والدول غير العربية خلال سبعة قرون، حكمها خلالها الأتراك العثمانيون أربعة قرون.. وتصارع طويلا الفرس والترك على أرض العراق، وخلف هذا الصراع أحقادا وانقسامات داخل العراق، وسيطر الأتراك العثمانيون فى المراحل الأولى من الصراع عام ١٥٣٤م زمن السلطان سليمان القانونى، بعد أن دمر الفرس مرقد «الإمام الأعظم» أبى حنيفة النعمان فى الأعظمية، وغدت العراق الجبهة الأمامية للدولة العثمانية فى مواجهتها للدولة الصفوية، ومرة أخرى عاد الصفويون لاحتلال العراق مابين سنة ١٦٢٢ م وسنة ١٦٣٨م، بقيادة الشاه عباس، وأخذ الصراع بين الفرس والترك بعدا جديدا وأصبح كأنه صراع بين السنة والشيعة، وكلما تغلب طرف هدم الرموز المذهبية للطرف الآخر، حتى عقدت بينهما معاهدة أرضروم عام ١٨٤٧م، تخلت خلالها إيران عن السليمانية فى مقابل تخلى الدولة العثمانية عن المحمرة

(خرمشهر) والساحل الشمالى لشط العرب.

ومازالت العراق تعانى حتى اليوم من آثار هذا الصراع الدموى القديم، والذى كان من نتائجه النزاع على شط العرب الذى كان من بين الأسباب التى فجرت الحرب العراقية الإيرانية، وأثر تراكم مرارات تلك الفترة على العلاقات بين السنة والشيعة.

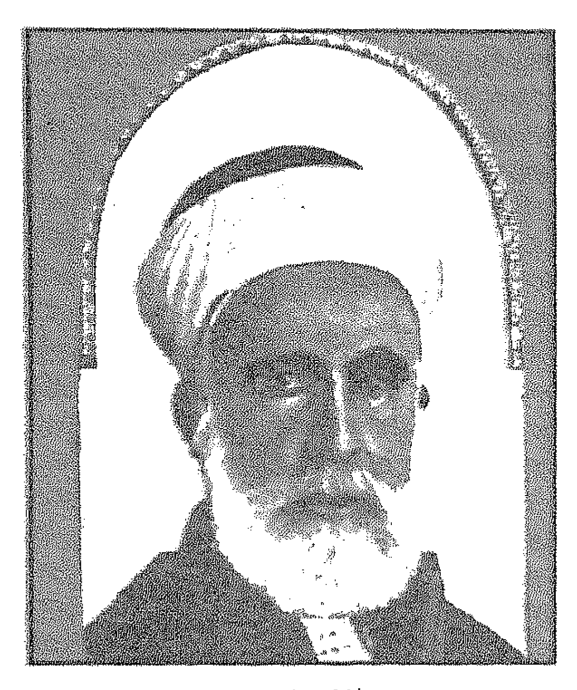
وكان من نتائج ضعف الحكومات تغلغل القبائل من الصحراء المتاخمة للعراق، وتوالى هجرات العشائر من أواسط جزيرة العرب إليها، مما غلب البداوة، كما أن من آثار هذه الفترة أيضا انتقال الحوزة العلمية الشيعية إلى كربلاء ثم النجف، ونشأ وضع فريد، أن الشيعة العرب أكثر علمائهم من الإيرانيين، فأخذت قوافل الإيرانيين تصل تباعا إلى العراق من أجل زيارة العتبات المقدسة أو طلبا للعلم أو من أجل دفن موتاهم فى النجف الأشرف.

وورث العراق الحديث نتائج كل صراعات هذه المرحلة.

***

ومن آثارها احتياجها الدائم إلى سلطة مركزية تقوية تضم الجميع تحت عباءتها، وأن تقوم العراق على أساس المواطنة وحدها بصرف النظر عن العرق أو المذهب، وحق الشعب فى اختيار حكامه.

وإذا كانت السياسة البريطانية قد جعلت من العراق «دولة أزمة» فمازالت بريطانيا هى العقل الاستراتيجى الذى



الشريف حسين

يخطط للغرب تجاه العديد من دول الشرق الأوسط، وكما استخدمت أدواتها فى المرحلة الاستعمارية السافرة التى رسمتها بدقة لتطويع العراق، مع فهم دقيق لتاريخها وأوضاعها التى ساهمت بسياستها فى إقامة الكثير منها، فعندما اشتدت الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال، هاجمتها من الصحراء العشائر، وإذا امتنعت العراق عن التصديق أو الموافقة على سياسة جائرة، هددت بضياع ولاية الموصل، وإذا عارضت مطالبا بريطانيا، قامت حركة انفصالية فى شمال العراق، أو فتنة داخلية فى الجنوب!!

وقد استخدمت هذه الأدوات للحيلولة دون أن تصبح العراق - ثانى دولة عربية - جزءا من القوة العربية، ولكى تحول دون

التحول في قضايا العرب وعلى رأسها قضية فلسطين.

ولعل الوصية التي تركها الملك فيصل الأول، ونشرها عبدالرزاق الحسني في كتابه «تاريخ الوزارات العراقية» تمس مباشرة المشكلات الأساسية التي صاحبت تكوين العراق الحديثة، وتكشف مصاعبها.

يقول: «إن العراق من جملة البلدان التي ينقصها أهم عناصر الحياة الاجتماعية وهو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهو مبعثر القوى، منقسم قواه على بعضها، يحتاج ساسته، إلى أن يكونوا حكماء مدبرين، وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، غير مجلوبين لأغراض شخصية أو طائفية أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة والقوة معاً، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الأهالي، لا ينقادون إلى تأثرات رجعية أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل.

وفي العراق - تضيف وصية الملك فيصل - أفكار ومنازع متباينة جداً وتنقسم إلى أقسام: الشباب المعاصرون بمن فيهم رجال الحكومة والمتعصبون والسنة والشيعة والأكراد والأقليات غير المسلمة والعشائر والسواد الأعظم الجاهل المستعد لقبول كل فكرة سيئة دون مناقشة.

فالعراق دولة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية يسوقونها بدعوى أنها ليست من عنصرهم، وأكثرية شيعية منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة، إلا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه، والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين، كل ذلك جعل هذه الأكثرية أو الأشخاص الذين لهم مطامع، يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لأنهم شيعة، ويسوقون هذه الأكثرية للتخلي عن الحكم الذي يقولون إنه سيئ بحت.

وهناك كتل كبيرة غيرها من العشائر كردية، شيعية، وسنية، لايريدون إلا التخلي عن كل شكل حكومي، بالنظر إلى منافعهم ومطامع شيوخهم. هذا كله عبر دسائس آشورية وكلدانية ويزيدية... كما أن العقول البدوية والنفوذ العشائري للشيوخ، وخوفهم من زوال نفوذهم حين يقوى نفوذ الحكومة، كل هذه مصاعب كبيرة تواجه الحكومة...».

هذا ما كتبه أول حاكم للعراق الحديث، ووصيته أن يملك حاكم العراق قبضة قوية في ظل وضع ديمقراطي، كما يرسم صورة واضحة لمصاعب العراق الحديث.

***

يأتي بعد ذلك دور الجغرافيا السياسية والاستراتيجية، فيقع على حدود العراق كل من إيران وتركيا، فعندما

استسلمت العراق خلال الحكم الملكى للضغط الغربى وانضمت لحلف بغداد، وسايرت كلا من تركيا وإيران الشاه، سكنت المشكلة الكردية وهدأت العشائر فى الوسط والشيعة فى الجنوب، كما حرمت العراق من منفذ يقودها إلى البحار المفتوحة.

وجاءت الثورة العراقية فى ١٤ تموز سنة ١٩٥٨، وانسحبت العراق من حلف بغداد، فواجهت حكوماتها المتعاقبة العديد من المصاعب كما تعرضت لضغوط كبيرة، ولم تنعم حتى الحكومات يوما بالاستقرار، خاصة بعد أن حولت وجهها نحو الغرب، وبدأت تواجه تمرد الأكراد فى الشمال، وبعد أن أخذت الدولة تسعى لاستثمار أموال النفط فى التنمية، وكانت مؤهلة لنهضة كبيرة فهى تملك النفط والمياه وقادرة بإمكانياتها وبأكبر احتياطى نفطى فى العالم أن تحقق انطلاقة كبيرة، وبالفعل انتشرت الجامعات وزادت البعثات العلمية فى الخارج.

وعندما اندلعت حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران بتحريض أمريكى، تدفقت عليها المساعدات، وحصلت على الدعم من أماكن عديدة، وقويت عسكريا رغم فقدانها الكثير من شبابها، ولما توقفت الحرب كان من الضرورى أن تغرق العراق من جديد فى مشكلاتها، وأن تعود إلى حجم لاتتجاوزه.

***

فلكى يتم فرض إسرائيل على المنطقة يجب أن تظل العراق غارقة فى مشكلاتها وكانت حرب الخليج الثانية، وكما انشغلت الجزائر بمصاعبها وحمامات الدم التى فجره الإرهاب وهى الجناح الغربى للقوة العربية، وأجهضت قوة العراق وفقدت عافيتها فى الجناح الشرقى.

وهل ننسى فى هذا السياق البغضاء التى يكنها الصهاينة نحو العراق، فيحكى العهد القديم خروج اليهود مرتين إحداهما من العراق على يد الآشوريين والكلدانيين قبل مايزيد على ألفين وخمسمائة عام والأخرى من مصر، وجاء فى العهد القديم أن الشعب اليهودى نزح إلى فلسطين مرتين، الأولى من بلاد الرافدين بقيادة إبراهيم الخليل، والثانية من مصر بقيادة النبى موسى.

وجاء أيضا.. «قطع الرب من إبرام ميثاقه قائلا.. لنسلك أعط هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

فهل جاء وقت الثأر؟.. صراعات قديمة وأحقاد جديدة تخدم موازين قوى جديدة.. ومنافسات حادة على السيطرة والهيمنة، استغلت فيها أخطاء الحكم العراقى وخطاياه، لحصار شعبه وتجويعه وإضعافه.

ولن يسمح الغرب بالنهوض من جديد لتلك الإمبراطوريات القديمة التى هددته، سواء الدولة العباسية أو الأموية أو العثمانية.



الحياة فى العراق بعد ثمانى سنوات من الحصار

بقلم : د أشرف البيومى

أعود مرة أخري حتي استكمل الإجابة علي بعض التساؤلات التي طرحتها في العدد السابق وأبدأ بتكملة الحديث عن معارضة أمريكية للحصار وللعدوان ، يتبع ذلك بعض الملاحظات حول إمكانيات برنامج النفط مقابل الغذاء وحدوده والعقبات التي تضعها بعض الدول أمام تحقيق أهدافه ثم مشاهداتي أثناء أربعة أيام من القصف الصاروخي.

معارضة أمريكية

لاشك أن هناك قطاعات مهمة من المجتمع الأمريكي تعارض الضربات الأنجلو أمريكية الأخيرة وقطاعات أوسع فى استياء شديد من الحصار وما يسببه من معاناة حقيقية للشعب العراقي بل ان هذه المعارضة تمتد إلى الإدارة الأمريكية ذاتها . هذا يبدد وهما يحلو للبعض أن يصوره لنا وكأن الشعب الأمريكي كتلة صماء لها رأى واحد ومساند لقرارات الإدارة الأمريكية وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة .

وهناك قيادات معروفة لهذه المعارضة على رأسها رامزى كلارك وزير العدل السابق فى عهد الرئيس جونسون ، ودينس هاليدى مساعد سكرتير هيئة الأمم المتحدة والمنسق العام لهيئة الأمم فى العراق سابقا حيث انه استقال فى اكتوبر الماضى اعتراضا على ما يدور قائلا انه لا يستطيع أن يحمل علم هيئة الأمم المتحدة بينما تؤدى قراراتها إلى موت ٦ آلاف طفل عراقى شهريا .

يقوم الآن دينس هاليدى (الأيرلندى الأصل) بنشاط واسع فى أمريكا ففى ١٢/٢٩ كان يتحدث فى المعهد القومى للصحافة فى واشنطن وهو يجول العديد من الجامعات الأمريكية لعرض بعض الحقائق التى لمسها وفى شهرى يناير

وفيرا ير كان يتحدث أمام البرلمان الإيطالي وعدد من المدن الإيطالية والأوروبية . أما رامزى كلارك وزير العدل الأمريكي السابق أثناء رئاسة جونسون فقد شارك فى مؤتمر عقد فى بغداد فى ديسمبر الماضى عن انتهاك حقوق الإنسان العراقى من جراء الحصار وقد ذهب لبغداد عدة مرات حاملا معه معونات من الأدوية كما اصدر عددا من الكتب ومن الشرائط التليفزيونية التى تعرض المأساة الإنسانية التى تحدث فى العراق .

وكان من نجاحات المعارضة الأمريكية توقيع ٤٤ عضوا فى الكونجرس الأمريكي على خطاب فى ٦ اكتوبر ١٩٩٨ موجها للرئيس كلينتون يناشده فصل الحصار الاقتصادى عن الحصار العسكرى ورفع الحصار الاقتصادى لأنه لا يحقق أى مكاسب سياسية ويتسبب فى خسائر بشرية .

ولقد عدت منذ أيام بعد جولة محاضرات ولقاءات صحفية لمدة ثمانية أيام شملت ميونخ وبرلين بألمانيا وباريس بفرنسا ومن الواضح أن هناك لجانا متعددة فى عدد كبير من دول العالم تعمل من أجل توسيع نطاق المعارضة وتنسيق نشاطها بهدف رفع الحصار الظالم عن العراق ولإدانة العدوان العسكرى ومن الضرورى التأكيد على أهمية هذه المعارضة ، فقد تؤثر هذه المعارضة على القرار الأمريكي بشكل أو آخر وتقلل من احتمال العدوان أو درجته وفى اعتقادى أن هذه المعارضة سيكون لها دور مهم إن تنامت في المستقبل .

لابد من التأكيد أيضا على أن هناك معارضة داخل أمريكا من نوع آخر وتلك من قبل الشركات العملاقة التى تتضرر من الحصار وعلى سبيل المثال شركة موبيل ، حيث انتقد السيد لوسيو نوتو وهو رئيس الشركة (CEO) فى ٣٠ مارس ٩٨ فى محاضرة بواشنطن الحصار الاقتصادى كوسيلة تعامل فى السياسة الخارجية وكيف أن هذه السياسة تتناقض مع مبدأ التجارة وذكر أن هناك حصارا اقتصاديا بشكل أو آخر يؤثر على ٢.٣ بليون إنسان فى العالم حاليا ، كما أن مزارعى الغلال أيضا يضغطون على الحكومة لرفع الحصار .

ننوه أيضا بالمعارضة المصرية التلقائية أثناء العدوان الأخير وجهود الوفد المصرى لإغاثة أطفال العراق والذى أرسل عدة وفود طبية وشعبية إلى العراق وبالبيان المصرى الذى صدر أخيرا والذى يدين الاعتداء العسكرى ويطالب الحكومات العربية برفع الحصار عن العراق والذى وقعه أكثر من مائة من القيادات الشعبية والثقافية المعبرة عن كل الاتجاهات السياسية فى مصر .

برنامج النفط مقابل الغذاء

أولا : بالرغم من أن برنامج النفط مقابل الغذاء يمنع مزيدا من التدهور بالنسبة للأوضاع الإنسانية فهو يوفر حصة غذائية كافية من حيث السعرات الحرارية فإن السلة الغذائية التى توزع الآن غير كاملة تغذويا علاوة على أن كثيرا من المواطنين خصوصا الفقراء الذين يفتقرون إلى مصادر مالية أخرى يضطرون الى بيع جزء من حصتهم التموينية لسد حاجات عاجلة مثل توفير دواء ضرورى لأحد أفراد الأسرة مما يؤكد أن الكفاية لا يمكن أن تتحقق جزئيا وأن الحد الأدنى للكفاية لابد أن يشمل الغذاء والكساء والدواء والخدمات الصحية والماء النقى والصرف الصحى الجيد . دون ذلك لن تتحسن الأحوال الصحية فى العراق من وضعها المتردى الآن .

ثانيا : إن المطلوب هو إعادة المرافق العامة إلى وضعها الذى كانت عليه قبل حرب الخليج وهذا يتطلب مبالغ طائلة ويقدر خبراء فى هيئة الأمم المتحدة مبلغ ثلاثين مليار دولار يحتاجها العراق فوراً للبدء بتحقيق هذا الهدف . من الواضح أن برنامج النفط مقابل الغذاء لا يمكن أن يحقق هذا الهدف المهم إلا إذا أصبحت هيئة الأمم المتحدة دولة داخل العراق بالإضافة إلى أن كل دولار فى برنامج النفط مقابل الغذاء يستقطع منه الثلث تعويضات ومصاريف إدارة البرنامج .

ثالثا : بالرغم من أن إمكانيات برنامج النفط مقابل الغذاء لتلبية الحاجات الفعلية للشعب العراقى محدودة فإن هناك من يضع العقبات أمامه لإعاقته ، فالبرغم من التباكى على أحوال الشعب العراقى ، نجد أن لجنة العقوبات المسماة لجنة ٦٦١ تعرقل الموافقة على العقود ففى الفترة ما بين بدء البرنامج حتى أكتوبر ١٩٩٧ كان متوسط الفترة الزمنية للموافقة على عقود الغذاء ٦٨ يوما ، إن التعطيل الواضح والذى أعتقد أنه كان مقصودا أدى إلى عدم وصول الشحنات الغذائية فى موعدها مما ساهم فى عدم حصول المواطن العراقى على حصته الغذائية بالكامل رغم محاولة الحكومة العراقية تكملة النقص من المخزون الغذائى الاستراتيجي الخارج عن برنامج النفط مقابل الغذاء أما بالنسبة للمواد الأخرى فى مجال الزراعة والدواء وقطع الغيار اللازمة لمنشآت ضخ البترول فإن التأخير فى موافقات لجنة ٦٦١ هو أكبر بكثير !

بالإضافة إلى ذلك فهناك مسئولون فى الأمم المتحدة أرادوا أن يغيروا الحقائق التى تبرزها تقارير هيئة الأمم المتحدة حتى لا تعطى الصورة الحقيقية للمعاناة ولكن وكالات هيئة الأمم المتحدة العاملة بالعراق رفضت ذلك بشدة .

رابعا : إن تقرير مسئول الأمم Van der Stathl فى مجال حقوق الإنسان والذى صدر فى ٢٤ سبتمبر ١٩٩٨ ملىء بالأخطاء والمغالطات كتقاريره السابقة مما يستدعى تحقيقا من قبل سكرتير هيئة الأمم المتحدة ففى مجال توزيع الغذاء جاء التقرير متناقضا بشكل واضح مع الحقائق الميدانية والعديد من التقارير الرسمية لهيئة الأمم المتحدة نفسها فإن التقرير يضع اللوم فى التأخير على موافقة لجنة ٦٦١ على العقود المبرمة على عاتق الحكومة العراقية !!

خامسا : أن تصريحات مسئولين أمريكيين وإنجليز أثناء العدوان الأخير حول برنامج النفط مقابل الغذاء تتناقض مع الحقائق الواضحة من حيث كفاءة التوزيع وعدالته أما الادعاءات بأن الحكومة العراقية – بصرف النظر عن الرأى فيها – تستغل البرنامج لأغراض أخرى هو ببساطة يتنافى مع الحقيقة وتقع هذه التصريحات فى إطار الحرب الإعلامية التى برعت فيها أمريكا بالذات والتى تصور الخصم فى أبشع صورة .

الضربة الأخيرة

مضى يوم الأربعاء ١٦ ديسمبر فى لقاءات مستمرة بدأت بزيارة كلية الفنون الجميلة قسم الكورال التى لم تسلم من آثار الحصار لغياب النوتة الموسيقية والآلات والأوتار وترك عدد كبير من الموسيقيين البلاد وانعكست آثار الحصار على مبانى الكلية ورغم كل ذلك فطلبة وطالبات الكلية منهمكون فى دراستهم. التقيت بالطلبة فى قاعة الدرس وقامت

المجموعة بتقديم بعض الأغاني بقيادة أستاذتهم على البيانو وكانت الأغنية الأخيرة «... الله أكبر ... الله أكبر ... فوق كيد المعتدي ...» ودار حديث بيني وبين الطلبة عن انطباعاتهم وتساؤلاتهم ، فعبر البعض عن معاناة الفن والإبداع والثقافة تحت الحصار وعن عزلتهم عن بقية العالم العربي وتساءلوا عن مدى تضامن الشعب العربي ومدى معرفته بالمأساة التي يعيشها شعب العراق وعبر البعض عن حبهم العميق للفن والغناء المصري ورغبتهم القوية في زيارة مصر أم الدنيا .

وذهبت بعد ذلك مع صديقي الفنان العراقي إلى مركز صدام للفنون ، وتزين مكتب مدير المركز بلوحات عديدة من روائع الفن التشكيلي العراقي ، ولكن خيم على السكان شعور بالغضب والألم فهذه هي نفس القاعة التي كانت تشغلها الفنانة الراحلة ليلى العطار والتي قتلها أحد الصواريخ الأمريكية في عام ١٩٩٣ عندما قرر كلينتون الرئيس الأمريكي عقاب العراقي عن مؤامرة عراقية – لم تثبت بأي مقياس – لقتل الرئيس السابق بوش أثناء زيارة الكويت ، والجديد في الأمور أن الجنرال الأمريكي سكوت ر. كورلي أدلى بتصريح صحفي أخيرا في جريدة نيويورك تايمز يذكر فيه أن البنتاجون أضاف منزل الفنانة ليلى العطار كأحد الأهداف عقابا لها على اللوحة التي صممتها للرئيس بوش على أرضية مدخل فندق الرشيد والتي تطؤها أقدام رواد الفندق كل يوم .

بعد ذلك توجهت إلى قرية الخالصة وهي قرية مصرية في أطراف بغداد حرصت على زيارتها لأتحدث مع الفلاحين المصريين الذين جاءوا إلى العراق منذ أعوام طويلة تقارب العقدين ، فقوبلت بترحيب شديد من إخواننا المصريين وزوجاتهم من فلاحي الشرقية . عبروا عن اشتياقهم لمصر الحبيبة ، وعبروا أيضا عن ارتياحهم لوجودهم بالعراق الشقيق رغم المعاناة من جراء الحصار ، علما بأن الحرب والحصار دفع مئات الألوف من المصريين إلى مغادرة العراق ولكن لا يزال هناك الآلاف من المصريين في العراق رغم الظروف الاقتصادية القاسية ، ويحصل كل منهم على حصصهم التموينية مثل أقرانهم العراقيين ومن الواضح أنهم يشاركونهم أيضا في الغضب الشديد من العدوان الأمريكي المستمر والحصار الاقتصادي المدمر .

عندما عدت إلى الفندق علمت بأن بقية موظفي هيئة الأمم المتحدة العاملين في برنامج النفط مقابل الغذاء قد تم استدعاؤهم على عجل إلى مقر هيئة الأمم المتحدة فأيقنت أن الضربة الصاروخية قادمة اليوم حيث إن شهر رمضان على الأبواب وأن الضرب لن يستمر أثناء رمضان لأسباب سياسية ، وكنت على موعد في مقر هيئة الأمم المتحدة فذهبت إلى هناك والتقيت بعدد من الملاحظين الدوليين الذين كانوا يعملون تحت إشرافي سابقا واختلطت المشاعر التي عمها الاستياء الشديد من الضربة القادمة ومن الشعور بالعجز وعدم الأمان وعبر بعضهم عن عدم رغبتهم في مغادرة بغداد وترك العراقيين في هذه الظروف ، وعن قلقهم على شخصيا لعزمي البقاء في بغداد أثناء العدوان خصوصا وأني أصبحت النزيل الوحيد في الفندق .!

رجعت مرة أخرى إلى الفندق ومرت الساعات دون قصف وفجأة وبعد منتصف الليل ودون أي إنذار بدأت المدافع المضادة للطيران تطلق قذائفها في اتجاه

الصواريخ التى استمرت فى مسارها حتى انفجارها عند الوصول إلى الهدف المنشود، من الواضح أن الأهداف القريبة من الفندق عبر نهر دجلة هى قصور رئاسية ومنازل كبار المسئولين واستمر القصف العنيف دون توقف. كان انفعالى الأول عند أول طلقة سمعتها هو الدهشة رغم توقعى الأكيد للضربة. لماذا الدهشة رغم معرفتى الواسعة بجرائم الإدارة الأمريكية فى فيتنام ولاوس وأمريكا اللاتينية والسودان وليبيا والعراق بل فى داخل أمريكا نفسها ؟ هل تعكس هذه الدهشة ولو للحظات تمنيا بأن الجانب المنطقى الإنسانى سينتصر هذه المرة ؟ ربما ... بعد هذه اللحظات التى لم تزد على ثوان بدأ الواقع القبيح يؤكد عدوانية وعنصرية وجهل وجشع منطق القوة. كنت أرى الصواريخ الموجهة بأشعة الليزر فتذكرت ادعاء أحد العلميين المزيفين أخيرا بأن العلم منفصل عن السياسة ولا علاقة بينهما ، مبررا علاقاته الحميمة مع الصهاينة ! تذكرت أيضا د . يحيى المشد أستاذ الهندسة النووية بجامعة الاسكندرية والذى قتلته الموساد الاسرائيلية فى باريس منذ عدة أعوام لتعاونه مع العراق فى مجال تخصصه . مرت الساعات وبدأ الفجر بلقائه وكأن الله أكبر ترتفع متحدية الصواريخ الموجهة والطائرات التى تلقيها من ارتفاع شاهق وكأن الله أكبر ترفض هدية الجندى الأمريكى الذى كتب على أحد الصواريخ «هذه هدية رمضان» مثل ما فعل جنود أمريكيون سابقا حيث كتبوا عبارات عنصرية لا تحترم الدين الأسلامى مثل «خذ هذه إلى الله» . لم أنم هذه الليلة بالطبع .

يوم الخميس ١٧ ديسمبر : انتهى القصف فى الصباح ، ذهبت إلى وزارة التربية والتعليم فى لقاء مع الوزير لمناقشته فى آثار الحصار ، أثناء ذهابى بدت الحياة فى وتيرتها العادية : الطلبة يذهبون إلى المدارس ... الموظفون فى طريقهم إلى أعمالهم ... بائعو الصحف ومنظفو الشوارع يقومون بعملهم كالمعتاد وكأن شيئا لم يحدث ، وفى وزارة التربية لاحظت بعض التوتر والقلق من احتمال الضرب فى النهار والمدارس مكتظة بالطلبة .

ذهبت إلى لقاء صحفى مع الرئيس السابق بن بللا الذى يزور بغداد وعبرت عن تضامنى مع الشعب العراقى، بقية موظفى هيئة الأمم المتحدة تركوا بغداد فى الصباح الباكر بعد ليلة عصيبة وذعر شديد فهيئة الأمن العام بجوار المقر قد دكتها الصواريخ بقذائف متتالية .

فى الليل اختلطت أصوات القذائف المضادة للطائرات والصواريخ الموجهة عندما كانت ترتطم بأهدافها وبأصوات موسيقى وطبل مصدرها حفل زواج يقام فى الفندق القريب ، إنها ليلة الخميس ليلة الأفراح والزواج ولقد تبين لى أن كثيرا من الفنادق كانت بها أفراح أثناء الضرب.

كنت أقضى بعض الوقت فى منزل مواطن تونسى وهو أحد موظفى الفندق ، المنزل على بعد خطوات من الفندق الذى أقيم فيه ، انفجار الصواريخ يدوى. نرى الدخان والوهج ولا نرى من بعد آثار الدمار. الأبواب والشبابيك تنفتح فجأة من جراء الانفجار. المنزل يهتز . الأم يمتقع وجهها ، الأطفال يصرخون عند سماعهم دوى الصواريخ ، نخرج خارج المنزل ننظر إلى السماء ، أنوار القذائف تختلط

بأنوار المنازل والشوارع فبغداد مضيئة بالكامل فالصواريخ الموجهة لا تساعدها أو تضيرها أنوار المدينة. أعود للفندق. يستمر القصف الذي ازدادت حدته ورغم ذلك فإني أخلدت إلى النوم. من الغريب أن يتكيف الإنسان مع أشد الظروف صعوبة وخطرا .

يوم الجمعة ١٨ ديسمبر : خرجت في جولة في أنحاء بغداد لأرى آثار الدمار وخرج الكثير من المواطنين لهدف ذاته . الجو جميل والشمس ساطعة وكأننا في يوم شم النسيم وليس ثالث أيام القصف . ترى عددا من المباني وقد أصيبت بقذائف صاروخية : هيئة التصنيع ، مبنى وزارة الدفاع القديم ، المركز الطبي المجاور ، في منطقة الكرادة صاروخ أصاب الشارع فأحدث حفرة عميقة وفجر أنابيب المياه وقتل بعض المواطنين ، ولكن العمل على قدم وساق لإصلاح الشارع .

ذهبت إلى مستشفى اليرموك حيث ضحايا العدوان ، في غرفة الحروق قابلت بعض المواطنين وقد فقد بعضهم عددا من ذويهم وأصيبوا أنفسهم بحرائق شديدة نتائج العدوان البشعة واضحة أمامي ممثلة في موت وحروق وأنين وحزن والتفاف الأسرة حول من بقى من أفرادها ، لن ترى دموع هؤلاء ولا الوجوه المحترقة على شاشات التليفزيون الأمريكي أو العربي ، فقط ستسمع عن ضرورة التزام العراق بالشرعية الدولية ، أي شرعية أعطت هؤلاء المجرمين قتل وجرح المدنيين العزل من كل سلاح..... ؟

في المساء ذهبت إلى وزارة الثقافة والإعلام حيث المراسلون من دول عديدة، لازال البعض يتواقد ويركب أجهزة الإرسال التليفزيوني ، المعلومات التي تعرض في الشبكات المختلفة هي نفسها وإنما تنطلق بلغات مختلفة ، أغلب المراسلين لا يعرفون الكثير عن العراق وحضارته وحتى الخلفيات السياسية، ينعكس هذا على الملاحظات السطحية والتعليقات غير الدقيقة. يستأنف الضرب الصاروخي ، كل الكاميرات تتابع القصف. من الأهداف هذه الليلة مقر حزب البعث ، كلية العلوم بجامعة بغداد ، أحد مستشفيات الولادة ، القصر العباسي أقدم القصور العباسية ، نعم إن برابرة القرن العشرين لا يعون الحضارة فالجشع والعنصرية والجهل تحول دون ذلك. هل يعي الجنرالات والجنود الأمريكيون والإنجليز شيئا عن بغداد وحضارتها الاسلامية ....؟

مؤشرات تدل على أن العدوان الإمبريالي لن يستمر كثيرا وقد ينتهي الليلة أو غدا . أخبار عن المظاهرات الغاضبة والمحتجة على العدوان والمتضامنة مع الشعب العراقي . أول هذه المظاهرات انطلقت من مدينة الطلبة بجامعة القاهرة وتلتها مظاهرات عارمة في دمشق وفي المغرب وفي فلسطين. المواطن العراقي يشعر ولو لأيام قليلة بأنه ليس وحده وإنما هو بالفعل جزء من أمة عربية واحدة رغم كل الظروف . بريجنسكي المستشار السابق للأمن القومي أثناء حكم كارتر يحذر من غضب الشارع العربي ومن مغبة هذا على المصالح الأمريكية على المدى الطويل .

يوم السبت ١٩ ديسمبر : الجمهور العراقي يتعامل مع العدوان بعدم اكتراث، الحياة تستمر ليلا ونهارا كالمعتاد اللهم إلا أصوات القصف والأرواح التي أزهقت والجرحى والمنازل والمنشآت التي دمرت . تساءلت عن هذا الشعور فكانت الإجابة المتكررة أن الحصار يدمر ويقتل أكثر كثيرا من الضربات الصاروخية وأن ليس في الإمكان عمل أي شيء فحتى الذهاب إلى الملاجيء أصبح أكثر خطرا بعد تدمير ملجأ العامرية بصاروخين أمريكيين وقتل

وحرق المئات من المواطنين والأطفال الذين كانوا به ـ غضب المواطن العراقى موجه بشكل واضح وعميق إلى أمريكا وانجلترا وإسرائيل. الشغل الشاغل للمواطن العراقى هو رفع الحصار الظالم ويشعر الكثيرون أن إثارة القضية العراقية دوليا قد يعجل في ذلك ولكن يعتبر أن رفع الحصار من قبل بعض الدول العربية سيؤدى إلى انهيار الحصار كما أن الكثير يعتقد أن الصمود العراقى هو صمود العرب جميعا فى وجه الهيمنة الإمبريالية والصهيونية .

يوم الأحد ٢٠ ديسمبر : وقف العدوان والقصف الصاروخى ، آن وقت الرحيل الى القاهرة عبر عمان .

استنتاجات

من الواضح أن آثار الحصار الشامل على العراق متشعبة وبعيدة الأثر وأنه لا يمكن من خلال مقالين أن تكتمل الصورة ، من هنا كان قرار إصدار كتاب فى القريب العاجل عن هذا الموضوع الخطير مدعما بالمراجع والمصادر ومستوفيا الجوانب المتعددة والمختلفة ولكن يمكننا أن نشير إلى بعض الاستنتاجات التى أرغب أن أشارك فيها القارىء :

١ – أن آثار الحصار الشامل على العراق عتيقة ومدمرة للمجتمع العراقى ، وأن هذه الآثار لا تتمثل فقط فى الابادة الجماعية للشعب (موت أكثر من مليون مواطن بسبب الحصار حتى الآن) بل فى الآثار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بعيدة المدى .

٢ – أن هدف الإدارة الأمريكية هو تركيع الشعب العراقى والدليل على ذلك ليس فقط تدمير المنشآت المدنية من مرافق المياه والصرف الصحى والكهرباء وليس فقط منع أو تعطيل استيراد المواد الأساسية من أدوية وأدوات صحية ومواد ضرورية لتنقية المياه وتعقيمها كالكلور والشبه وحتى المخدر الضرورى للعمليات الجراحية إنما التقارير الرسمية مثل تقرير [illegible] ١١٦ الصادر فى ٢٠ أبريل ١٩٩٥ والذى يحدد خمسة أهداف أساسية أحدها «تحطيم إرادة السكان المدنيين».

٣ – أن الإعلام الغربى عموماً مشارك فى جريمة الحصار بتعتيمه على الحقائق فقلما نرى مواطنين عراقيين يعانون من الحصار أو ضحايا العدوان وكأن العراق يخلو من البشر وكأننا بصدد لعبة إلكترونية كالأتارى لا تشمل أفرادا حقيقيين، بل إن هذا الإعلام الذى يدعى الدقة ينشر أكاذيب مستمرة ليس آخرها ما جاء فى الهيرالد تريبيون فى ١١ فبراير ١٩٩٩ على لسان جورج بيتز أن المواد التى يشتريها العراق والتى سماها معونات! تقبع فى المخازن دون توزيع!! وهو يتناقض بشكل صارخ مع الحقيقة التى رأيتها بعينى. إن هذا الإعلام لا يقوم بمهمته فى تفنيد الادعاءات والتحقق من المعلومات كما يفعل بشأن قضايا أخرى مثل قضية أو. جى. سمبسون أو قضية مونيكا لوينسكى.

٤ – أن من أهداف الحصار والعدوان على العراق : تركيع الشعب العراقى وإخضاع العراق للهيمنة الأمريكية الصهيونية، ليكون مثالاً لردع أى دولة تتجرأ وتخرج عن الخطوط الحمراء التى تفرضها الهيمنة الأمريكية أو تتحداها، وتدمير أى محاولة جادة من قبل أى دولة عربية من أجل نهضة حقيقية مستقلة. والسيطرة المباشرة على مصادر البترول مما يعطى أمريكا مميزات هائلة داخل المعسكر الغربى وخارجه، وتجربة وتطوير

الأسلحة المتقدمة، وتعميق تبعية الدول الخليجية واستنزاف مواردها من خلال خلق حالة عدم أمان مستمر تستوجب استيراد السلاح بكميات هائلة ووجود عسكرى أمريكى على أرضه، ومزيد من التفتيت للأمة العربية وإجهاض أى محاولة للتقارب بينها، وتمكين إسرائيل لعقود طويلة، من السيطرة على الدول العربية.

٥ - أن إدعاء أمريكا وانجلترا بأنهما يعملان على حماية الشرعية الدولية هو ادعاء باطل، فالواقع يؤكد خروجهما عن الشرعية الدولية، ففرض مناطق الحظر الجوى فى شمال العراق وجنوبه تم دون الرجوع لهيئة الأمم المتحدة التى يستخدمانها غطاء للعدوان على العراق ولاستمرار الحصار الظالم المفروض عليه.

ومن المثير للسخرية أن محاولة العراق التصدى للطائرات التى تنتهك أجواءه يعتبره المسؤولون الأمريكيون اعتداء واستفزازاً !! يذكرنى هذا عندما اعتبر الأدميرال الإنجليزى سيمور قيام قائد الإسكندرية بإضافة مدافع على طوابيها استعداداً للدفاع عنها فى عام ١٨٨٢ بمثابة اعتداء على أسطول حضرة صاحبة الجلالة الملكة.

وبينما تتحدث أمريكا وانجلترا عن ضرورة التزام العراق بإزالة أسلحة الدمار الشامل تستخدم التفتيش المهين بقيادة ريتشارد بتلر غطاء لاستمرار الحصار ولاختراق أمن دولة العراق من خلال التجسس الفاضح باستخدام أجهزة خاصة للتصنت على أجهزة الأمن العراقية بل وامتد الخروج عن الشرعية الدولية إلى درجة تزويد الموساد الإسرائيلى بالأسرار العراقية عن طريق الجاسوس سكوت ريتر.

٦ - أن استخدام أمريكا وانجلترا القذائف اليورانيوم المخصب والمشع فى العدوان على العراق فى عام ١٩٩١ قد أدى إلى انتشار الأمراض السرطانية والتشوه الخلقى فى جنوب العراق بالذات وقد أثبتت بحوث علمية عرضت فى مؤتمر دولى فى بغداد فى ديسمبر الماضى العلاقة المباشرة بين استخدام هذا السلاح المحرم دولياً والأمراض السرطانية والتشوه الخلقى الناجم عن الإشعاعات النووية لليورانيوم.

٧ - يحدث هذا كله بينما تعمل أمريكا ودول أوربية أخرى على مساعدة إسرائيل لدعم ترسانتها النووية والكيميائية والبيولوجية حتى تصبح إسرائيل الوحيدة فى المنطقة التى لديها أسلحة الدمار الشامل وحتى تستكمل هيمنتها على الوطن العربى كله.

وها نحن نرى صواريخ التوماهوك الأمريكية تدمر مصنعاً يزود الشعب السودانى بالدواء الضرورى بحجة أن المصنع ينتج أسلحة كيميائية، بالرغم من توافر دلائل على عكس ذلك فى السودان ودلائل تؤكد توافر هذا السلاح لإسرائيل بعد حادث طائرتها فى هولندة العام الماضى، وبهذا أصبحت أى دولة عربية تقع فى دائرة التهديد والابتزاز الأمريكى وكأن إنتاج السلاح الكيميائى حكر على إسرائيل وأمريكا نفسيهما!! إن هذه الازدواجية أصبحت أمراً خطيراً جداً يهدد السلام فى المنطقة.

٨ - أن أغلبية الشعب المصرى العظمى تقف ضد العدوان وضد الحصار المفروض على العراق وتعتبر الإدارة الأمريكية والمؤسسة الصهيونية عدوها الأساسى مما يضع مسؤولية كبيرة على القيادات الشعبية لتكثيف العمل حتى تنتهى جريمة الإبادة الجماعية فى العراق ويرفع الحصار فوراً.



فتحى غانم



لطفى الخولى

القصف يتوقف .. لمتابعة فتحى غانم !

لطفى الخولى .. رجل «السياسة فن الممكن» !

بقلم : عبدالرحمن شاكر

لم يكن الكاتب الصحفى الأديب فتحى غانم، الذى فقدناه فى أوائل الشهر الماضى، يتمتع بكثير من الألق الذى تمتع به عدد من زملائه، من جيل الكتاب اليساريين أو الاشتراكيين، الذى ظهر فى الخمسينيات والستينيات، مع ثورة ٢٣ يوليو، واحتل المواقع الرئيسية فى الصحافة المصرية وفى الانتاج الأدبي والمسرحى.. إلخ، مثل أحمد بهاء الدين فى الكتابة السياسية، ويوسف إدريس فى القصة، وصلاح حافظ فى أسلوب الكتابة الصحفية، ولكن.. مثل الصناعة الثقيلة، كانت لفتحى غانم أعماقه الخاصة التى قد لا يبلغها سواه.

أتذكر في بداية الثمانينيات، أنني توجهت الى بيروت، وكان لي شقيق يعيش ويعمل بها - توفاه الله منذ سنوات قليلة، وكانت وقتها الحرب الأهلية اللبنانية على أشدها، وكان القصف المتبادل بين مختلف الفصائل المتصارعة، في شرق بيروت وغربيها، لا يكاد ينقطع طوال الليل أو النهار، إلا ساعة في المساء، وفهمت من أخي رحمه الله، ان المتقاتلين في هذه الساعة يتوقفون عن القصف، ريثما يستمتع الجميع من الفريقين، بمتابعة أحداث مسلسل «زينب والعرش» الذي كان يعرضه التليفزيون اللبناني آنذاك! تلك الرائعة التي ألفها فتحي غانم، والتي شاركه في كتابة السيناريو الخاص بمسلسلها التليفزيوني صديقه الحميم صلاح حافظ، وتصور وقائع المسلسل المذكور، «الجو» الصحفي الذي نشأ فيه وعمل كلاهما، بعد أن تم تأميم الصحافة في مصر في أوائل أيام الثورة، واستعر فيها الصراع ما بين «طواويس» الصحافة القديمة الخاصة من ملاك الصحف السابقين ونجومها، المختالين بذكائهم ودهائهم وخفة ظلهم، وألقهم الاجتماعي، بما فيه غزواتهم النسائية.. وبين الوافدين الجدد، من الاداريين، وبعضهم كانوا من العسكريين، الأوامر الصارمة تحت جلودهم، حتى ولو كانوا من ذوي الميول الأدبية، ولهم محاولات قد تنجح أو تفشل في كتابة الشعر والقصة والمقال الأدبي والسياسي.. ويثور الصراع ويستعر بين هؤلاء، ممن أطلق عليهم «أهل الثقة»، ممن تساندهم سطوة السلطة، وبين فريق «النجوم» القدماء ممن استحقوا لقب «أهل الخبرة»، وكان من المستحيل الاستغناء عن خدماتهم دفعة واحدة والا انهارت الصحافة باعتبارها صناعة حساسة تقوم على الجاذبية والبراعة المتوفرة عند هؤلاء، وبين الفريقين يتحير الجيل الناشيء من الصحفيين الذي يتعين عليه - كي ينجح - أن يكتسب الخبرة من هؤلاء من ناحية، ويكون أهلا لثقة أولئك من ناحية أخرى، ولعل فتحي رحمه الله كان يقصد بهذا الجيل الناشيء ذاته وأقرانه!.

جدل اشتراكي

في أواخر الخمسينيات، أو ربما أوائل الستينيات، وكانت حكومة الثورة وقتها

تتجه نحو تطبيق الاشتراكية على طريقتها الخاصة، وظهر مصطلح «الاشتراكية العربية» آنذاك من باب الحرص على بيان أن ما تتجه اليه الدولة آنذاك ليس، ولن يكون محاكاة لأى من التجارب الأخرى.. فى تلك الأيام كتب فتحى غانم مقالا ذهب فيه الى أن تطبيق الاشتراكية قد لا يحتاج الى تأميم المنشآت الخاصة، صناعية كانت أو تجارية، بل يكفى فرض ضرائب تصاعدية ضخمة على الدخول العالية، وتستخدم حصيلة هذه الضرائب فى تنفيذ برامجها الاجتماعية، من نشر التعليم وتوفير العناية الصحية المجانية للمواطنين، واقامة المشروعات العمرانية والصناعية.. الخ، وانبرى لهذه الدعوة أحمد بهاء الدين، ألمع كتاب السياسة الاشتراكيين فى تلك الحين، ورد فيها على فتحى ردا قاسيا، دافع فيه عن ضرورة التأميم لكى تكون هناك اشتراكية بالمعنى الحقيقى، تقوم على نقل ملكية وسائل الانتاج الى السلطة التى تمثل المجتمع، والطبقات الكادحة التى تستهدف الاشتراكية انصافها بشكل أخص، وقلما كان بهاء يتبرى للرد على أحد لم يبدأه بالهجوم.. إلا هذه المرة، وسكت فتحى ولم يرد، وأشفقت عليه آنذاك من أن يسقط اعتباره الاشتراكى عند الدولة، ويختفى اسمه من الصحافة، ولكن الله سترها معه، واستمر وتقدم حتى وصل الى أعلى مواقع المسئولية فى كثير من الصحف المصرية، وفى عهدها الاشتراكى بالذات!.

ويدور الزمن دورته، ليس فى مصر وحدها، بل فى العالم كله، فبعد اعلان «البروبسترويكا» أو إعادة البناء من جانب ميخائيل جورباتشوف، الرئيس السابق للاتحاد السوفييتى السابق أيضا، لم يكتف المعسكر الاشتراكى، بالتحول الى الديمقراطية والتعددية الحزبية فحسب، وانتهاء الحرب الباردة وسباق التسلح مع المعسكر الغربى، بل حل الاتحاد السوفييتى ذاته، واتجهت جمهورياته المستقلة وخاصة كبراها وقطبها روسيا إلى التنكر للنظام الاشتراكى ذاته، والتحول الى اقتصاد السوق، وخصخصة المنشآت الصناعية والتجارية التى كانت مملوكة للدولة أو القطاع العام، وترلت على التأميم كل اللعنات التى حوتها جعبة الاقتصاديين حول فشله وفساده

ومسئوليته عن تدهور الانتاج والتخلف الاقتصادى، حتى انه مع الكوارث التى حلت بالاقتصاد الروسى فى ظل سياسة السوق، والافلاس وشبح المجاعة التى يسيطر على المجتمع الروسى فى مجموعه، فإن الحكومة الروسية التى تحاول علاج هذا الوضع، والتى يرأسها السياسى «السوفييتى» المحنك بريماكوف لا تستطيع انه ترفع صوتها منادية بالتأميم، لا هى ولا الاحزاب الاشتراكية واليسارية الجديدة فى روسيا وسواها، وكل ما يعلق عليه الاشتراكيون حاليا آمالهم فى العدل الاجتماعى، وفى علاج أمراض الرأسمالية المزمنة، المتفاقمة من البطالة وسواها فى التفاوت الشنيع بين الغنى والفقر، هو الضرائب التصاعدية الضخمة، التى تحصل من اقتصاد رأسمالى ناجح لا يغيب عنه حافز الربح الفردى، ولا عامل المنافسة التى يؤدى الى الاتقان.

هل كان فتحى غانم - ذلك الشطرنجى البارع - هو وحده - على الاقل فى بلادنا - من رأى الحقيقة وأدركها قبل غيره بزمان؟ أظن ذلك!.

* عرفت فتحى غانم عن قرب فى منتصف السبعينيات، حيث عملت معه أيام كان يعمل رئيسا لتحرير مجلة روز اليوسف، بالاشتراك مع صلاح حافظ، تحت رئاسة عبدالرحمن الشرقاوى الذى كان وقتها رئيسا لمجلس ادارة الدار. كان صلاح يشرف على الجانب السياسى من المجلة، ويختص فتحى بالجانب الأدبى والفنى منها، وكان بعض «السفهاء» من صغار المحررين يسمونه «رئيس التحرير القاعد»! لأنه كان يجلس الى مكتبه طوال فترة وجوده بالدار، أما صلاح فكان دائم التنقل بين المكاتب يملأ الدنيا حوله صخبا وحديثا ومزاحا وضحكا.. فإذا أراد أن يكتب شيئا أو ينكب على شيء من عمله كرئيس التحرير، اختفى فى مكتب مجهول أو حمل أوراقه الى بيته فى حقيبته الضخمة ليعمل هناك، لأنه لو بقى فى مكتبه لدهمه من داخل الدار وخارجها من يشتهون الاستمتاع بحلو حديثه ونوادره.

أما فتحى فلم يكن يكاد يقصده من خارج الدار، إلا شاب نحيل لا أذكر اسمه الآن، كانت صناعته موسيقيا أو مدرسا للموسيقى، وكان فى الوقت ذاته يطل

مصر فى الشطرنج، كان يأتى إلى مكتب فتحى غانم بعد الفراغ من عمله وتكون روزاليوسف قد خلت تقريبا من معظم العاملين بها، ولعله كان يحمل الى فتحى غانم آخر أخبار لعبة الشطرنج التى وصفها العرب القدماء بأنها «فوق الألعاب بكثير ودون العلوم بقليل»! ولكن فتحى غانم لم يسلم من الأذى لتلك الهواية.. وكثيرا ما سمعت من يصفه بأنه صاحب لهو يحب أن يقضى وقته فى لعب الشطرنج بنادى الجزيرة!.

وفى يوم من الأيام جمعتنا «مصطبة» عبدالرحمن الشرقاوى رحمه الله، أى مكتبه الذى كان يحب أحيانا أن يجتمع عنده عدد من الزملاء بيادلوته الحديث وكان أحيانا يقرأ عليهم بعض ما يكتب ويستطلع رأيهم فيه.. فى ذلك اليوم كنت إلى جانب فتحى غانم والتفت اليّ ليهمس قائلا لى - بدون مناسبة - : «انتو عيلة جامدة قوى»! ولم يكن مذكورا فى الساحة الأدبية والفكرية فى تلك الحين الا عمى الاستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله، بعد الضجة التى أحيطت بها معركته الأدبية مع الدكتور لويس عوض، وعلمت أن فتحى غانم يدرى من أمر هذه العائلة ما لا يدريه كثير من أبناء جيله وأولها الشيخ محمد شاكر الذى كان كاتبا سياسيا بارزا فى الفترة مابين الحرب العالمية الأولى الى أوائل الثلاثينيات، وابنه الأكبر الشيخ أحمد محمد شاكر، صاحب التصانيف والتحقيقات المهمة وخاصة فى علم الحديث والمتوفى فى عام ١٩٥٨!.

وعلمت أن فتحى كان أعمق ثقافة من كثير من ذوى الألق من حوله، يرحمه الله!.

فن الممكن

لا أستطيع أن أضع القلم دون أن أذكر زميل المهنة والصديق، الذى رحل عنا بعد فتحى غانم بأيام، وهو لطفى الخولى، الذى عملت معه شهورا قليلة فى صفحة الرأى بالأهرام، أيام كان مشرفا عليها فى أوائل الستينيات، كان شعاره الذى يردده آنذاك هو : «السياسة هى فن الممكن، دون التنازل عن المبادئ»! كانت «المبادئ» عنده فى تلك الحين هى «الماركسية اللينينية» بكل حرفيتها! حتى أنه كان يقول مسوغا تعاونه مع الدولة فى تلك الحين، إن جمال عبدالناصر - الذى كان يسميه فى كتاباته «المناضل جمال عبدالناصر»! كان ماركسيا يؤمن بالله! وقد اشتهر لطفى بأناقته وخفة ظله

وحضوره القوى بما فى ذلك صوته الجهورى فى المجامع، وبأنه ذو قدرة هائلة على أن «يلبس لكل حال لبوسها» كما يقال. ولكننى أعتقد أن زلزالا حقيقيا قد طاله واخترق «فن الممكن» لديه الى «المبادىء» مع ماذكرته آنفا عن مصير الاشتراكية، فتحير واضطرب، وتوهم أن «الممكن» حاليا، وخاصة بعد انضمامه الى الوفد الرسمى فى «مؤتمر مدريد للسلام فى الشرق الأوسط» هو تحقيق السلام العادل، فاندفع فى هذا التيار وصولا الى «تحالف كوبنهاجن» مع من كان يعتبرهم دعاة للسلام فى الكيان الصهيونى، فتخلى عن درجات من «نضاليته»، وأخشى أن يكون - والأعمار بيد الله - قد أدركته المنية، بعد أن أدرك أنه يطارد «غير ممكن» فى المنظور القريب، يرحمه الله!.

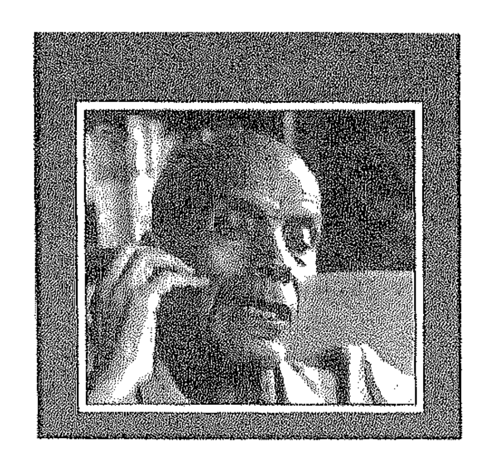
صديق المثقفين !

وعلى ذكر السلام ودعاته وأصحابه، لا نستطيع اغفال وفاة الملك حسين العاهل الأردنى بعد من ذكرت بأيام قليلة، والذى أوشكت جنازته أن تتحول - على الأقل طبقا لوسائل الاعلام - الى مهرجان للسلام! لعل وعسى، ولكن يحضرنى أنه قبل وفاته بأيام عزل أخاه الحسن عن ولاية العهد وولى ابنه بدلا منه، وذلك أمر معتاد فى النظم الملكية، ولكن الذى يعنينى فى هذا فى واقع الأمر أن المرحوم زميلنا الكبير أحمد بهاء الدين، كان قد شهد للحسن هذا بأنه مستنير يميل إلى إحاطة نفسه بالمثقفين، وبهاء كان حكيما لا يلقى الكلم على عواهنه، وأرجو أن تظل العلاقة «ما بين الملك» الجديد وعمه على مستوى يسمح للأردن وللعروبة بالاستفادة من جهوده، علما بأن الثورة العربية الآن لم تعد كما كانت فى الماضى، حينما أتت بهذه العروش وأصحابها الى حيث هى، ولكنها إن صح أمرها، لابد أن تكون فى بعض جوانبها ثورة من أجل العلم وتحصيله ونشره توصلا الى واقع عربى أفضل مما نحن فيه!.

بقى أنه كان من حضور جنازة العاهل الأردنى الراحل، الرئيس الروسى بوريس يلتسين، الذى لم يطق البقاء طويلا، وغادر قبل انتهاء مراسم الجنازة إما لاعتلال صحته، أو لأن مشهد الموت أفزعه وهو فى تلك الحال، أو خشى أن يخلعه بريماكوف فى غيبته.. أو .. أو.. ولله فى خلقه شئون .

■■

وداعاً



على الراعى ناقدا مسرحيا

بقلم : إبراهيم فتحى

ظل المنهج النقدى لعلى الراعى متفتحا متطورا متحررا من القوالب المذهبية الجامدة، لقد أرسى منذ الأربعينات أسس منهج يقوم على ارتباط الفن بالمجتمع وتصويره تصويرا إبداعيا. ولكنه لم يقبل قط الكثير من تصورات الواقعية الاشتراكية فى وجهها الرسمى المتزمت أحادى الجانب عن فن يهتف للسلام وصراع الطبقات والتفاؤل السطحى. وواصل على الراعى طوال ما يزيد على نصف قرن تنمية المفاهيم الأساسية لمنهجه المتسق.

ففى العدد ١٣ من المجلة اليسارية «الفجر الجديد» (مايو ١٩٤٥. يوليو ١٩٤٦) كتب بإمضاء «على الكاتب»، فى أواخر ١٩٤٥ دراسة عن «ماياكوفسكى» تنقل عنه التبرم بالأوراق والقصور والحب وأزهار الليلاك والرغبة الحارة فى تجدد الحياة. وقبل ذلك يكتب فى عدد سابق عن «الجدلية والفن الحديث» مؤكدا أن الحياة هى التى تشكل الوعى الفنى وأن نقطة البدء هى الأفراد الأحياء الحقيقيون كما يضطربون فى الحياة . وهو يتفق مع الرأى القائل بأن مقياس تقييم الفن مقياس مزدوج، مقياس نسبى يتأثر بالحقبة التاريخية والطبقة الاجتماعية ومقياس مطلق ينفذ إلى الحقيقة الانسانية الموضوعية الكلية الكامنة فى القيمة النسبية، إلى تطور الانسانية وتطور الفن. ويؤكد على الكاتب أن الفن ينتمى إلى الشعب وتمتد جذوره إلى قلب الجموع نفسها فهو يوحد بين عواطفها وأفكارها وإرادتها ويرتفع بها إلي مستوى أعلى كما يوقظ «الفنان» داخل كل متلق ويرعاه ويعمل على تقدمه. وسيواصل على الراعى تطوير ذلك المفهوم عن الإبداع الشعبى وعن المتلقي بوصفه مشاركا فنيا يوجد فى قلب العمل.

ويكتب على الراعى باسم حسن زاهر دراسة ذات حلقات ثلاث عن «الشعر

العربى فى مصر» فيما بين ابريل ومايو عام ١٩٤٦، يربط فيها بين أساليب التعبير الفنى والنزعات الرومانسية من جهة واتجاهات التطور السياسى والاجتماعى من جهة أخرى، فلم تكن الأدوات الفنية عنده ثانوية الأهمية كما لم تشكل مملكة مستقلة. (رفعت السعيد - الصحافة اليسارية فى مصر). إن منهجا متسقا فى النظر إلى الفن سيظل متصلاً متطورا فى النظر إلى المسرح والرواية والشعر «عند على الراعى» وإن يكن قد فصل القول في المسرح تفصيلا شديدا. وسنلمح حلقات متكاملة من هذا المنهج فى كتبه النقدية المسرحية من «فن المسرحية» ١٩٥٩ إلى كتابه الجامع «مسرح الشعب ١٩٩٣» الذى يضم كتبه الثلاثة «الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى» ١٩٦٨، و«فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى» ١٩٧٠ و«مسرح الدم والدموع. دراسة فى الميلو دراما المصرية والعالمية» ٧٣.

ويجىء كتابه «المسرح فى الوطن العربى» يناير ١٩٨٠ إحاطة نقدية عميقة ومسحاً شاملا لتاريخ وحاضر وآفاق تطور المسرح فى المشرق والمغرب العربيين، مرهفا النصل الحاد القاطع لمنهج على الراعى النقدى، فى تتويج رائع لدراساته السابقة.

ميلاد المسرح العربى

ويرجع الفضل إلى علي الراعى فى تصحيح فكرة كانت منتشرة عن ميلاد المسرح العربى، وهى فكرة مؤداها أن هذا الميلاد لا يرجع إلا إلى عام ١٨٤٧ يوم أن أخرج مارون النقاش المسرحية العربية الأولى «البخيل» استيحاء من موليير. «فالمسرح» فى هذه الفكرة لايمكن أن يكون إلا مسرحا مستوردا منذ البداية يتم استقدامه واستنباته فى التربة العربية لكى تصبح البلاد العربية قطعة من أوروبا المتمدنة. ومن ناحية أخرى قامت هذه الفكرة على أن المدخل إلى المسرح هو مدخل النص الأدبى وحده من شعر ونثر. ويوضح على الراعى حقيقة وجود تراث مسرحى شعبى وطاقة تمثيلية كبرى تمتع بها المصريون سنوات طويلة متصلة، لقد عرفت الساحة العمومية وعرفت السوق ما يشبه دارا كبرى للملاهى يعمل على أرضها مسرح خيال الظل ومسرح الأراجوز والمحبظون وفنانو السيرك من قرادين وحواة. لقد كانت الأرض معدة لنقلة كيفية تواصل متابعة صيغ العرض وفنون الأداء المتراكمة منذ زمن طويل.

ويقدم على الراعى تفصيلا للرصيد الذهبى المسرحى من إنتاج الإبداع الشعبى طوال مراحل متعددة، فى البلاد العربية المختلفة لا من زاوية المؤرخ وحدها بل من زاوية ناقد يتتبع عروض اليوم وعروض الغد فى البحث عن التراث واستلهامه فى مسرح حى. إن المسرح عند على الراعى موجود فى الشارع ومجالات الحياة وليس فى الكتب أو حتى دور العرض وحدها، فحين يلتقى الناس

وداعــــا علي الراعي:

بالناس ينشأ المسرح فالمسرح والحياة متفاعلان متكاملان أو بتعبير انتونين أرتو شيء واحد أحدهما واع والآخر يقوم على على التلقائية والمفاجأة. فالمسرح فعل مؤثر، صدام بين بشر، يحاول إعطاء معنى للحياة وشن هجوم مضاد على طرائق بالية في السلوك ، إنه عروض تعمل على الحواس والأعصاب بدلا من الحديث المجرد إلى العقل وحده.

ويبحث على الراعي عن روح المسرح في أفعال الناس وعلاقاتهم المرئية، فهو يرى فنون الأداء متمثلة في مواكب، تجمع الناس معا وفي الاحتفالات ابتداء من احتفالات الحكام ومبارزات الفرسان ولكنه يبرز أن عروض الطبقات الحاكمة تهدف إلى جوار إظهار الأبهة أن تقع في نفوس الناس موقع المتعة والرهبة والولاء.

أما الإبداع الشعبي في العروض التلقائية فيخصه على الراعي بأكبر قدر من الاحتفاء. إنها أشكال تنتمي إلى الحد الفاصل الواصل بين الفن والحياة، تقدم الحياة نفسها وقد تشكلت تبعا لبعض طرز اللعب والتمثيل، متحررة تحررا مؤقتا من الحقيقة الرسمية السائدة ومن النظم المقرة، ففي هذا العرض تقدم الحياة وفقا لرغبة الانطلاق المؤقت من المراتب والامتيازات والمعايير والنواهي، مما يخلق تواصلا من نوع خاص تخلقه تراكيب كلامية وحركات صريحة لا تسمح بمسافة بين الذين يتقاربون ويتلامسون، خالية من قواعد اللياقة المقرة. وهذه العروض تحاكي محاكاة ساخرة الحياة ونماذج الشخصيات ذات الأوجه المرفوضة خالقة ألفة حدة بين الناس عند الهروب المؤقت من الطريقة المفروضة على الحياة.

وكان «المحبظون» كما يقدمهم على الراعي يؤدون عروضهم في الأماكن العامة وفي حفلات الزواج والختان وهم يعتمدون في سخريتهم من الحقيقة الرسمية على الحركات الخارجة والألفاظ الخشنة. يرافقهم طبالون وعازفون على المزمار وراقصة أو راقصتان، وتمثيلهم يسخر أحيانا من عادات العظماء وكبار الموظفين في إعطاء الرشاوى وتلقيها كما يسخر من جباة الضرائب، دون نص مكتوب.

ويبرز على الراعي من مفردات التراث المسرحي التلقائي في بعض الأحوال انعدام التمييز بين الممثلين والمتفرجين، فالعرض لا يراه الناس فحسب بل يحيونه ويشتركون فيه في بعض طقوس الجمعيات الصوفية وأعياد فيضان النيل التي ينقل عن جاك بيرك أنها بمثابة مسرحية حقيقية بمقدمتها وعقدتها وحلها، وكذلك الزار وهو من الطقوس الجماعية لطرد الأرواح.

وتتسع فكرة المسرح عند على الراعي إتساعا خصبا، فالعرض المسرحي ليس من الضروري أن ينحصر في أشكال معينة مقننة أو في نماذج غربية كانت سائدة في وقت من الأوقات، فالمسرح عنده أكبر بكثير من خشبة المسرح لأنه فن قادر

على معالجة أنواع متعددة من التعبير الاجتماعى. ويؤكد ناقدنا أن المسرحيات المدونة كلاسيكية كانت أم رومانسية ليست هى النموذج الوحيد للمسرح على أساس من القول بأن الفن المسرحى هو ذلك الفن الذى يكتب على ورق ويصبح بعد ذلك أدبا، وبدلا من ذلك يؤكد سمة تراثية فى التمثيل فى باحات البيوت، وفى الساحات العامة وتخاطب أدواره المشاهدين مباشرة لأنها مرتجلة يمتزج فيها الكلام والتعبير بالحركات والموسيقى والرقصات امتزاجا تاما. وهو بذلك يقدم للمسرح التجريبى الذى يتخفف من تقليدية الكلمة منابع تراثية. وهو لا يقف عند ذلك بل يؤكد ما فى خيال الظل من مقومات مادية: الإضاءة والألوان والأزياء وفنون الأداء المختلفة من رقص وغناء وموسيقى. ويشير على الراعى إلى أنه قبل مجىء المسرح الغربى بوقت طويل، عرف العرب فى سوق جامع الفناء بمراكش مسرح الحلقة فى أشكال متعددة، وهو مسرح زاره الراعى فى مارس ١٩٦٩ وكتب عنه، وهو مسرح شعبى يحوى فنون الحكاية والإيماءة والألعاب البهلوانية والتهريجية، وكثيرا ما يدعى بعض المتفرجين إلى الاسهام فى العرض، وإلى توسيع أو تضييق الحلقة مما كان يخلق نوعا من التآلف والإحساس بالمشاركة . وهنا نلتقى بعناصر ستعرف فيما بعد عند بريخت بكسر الإيهام وبكسر الحواجز بين الخشبة والجمهور أو عند غيره بسقوط الحائط الرابع.

إن على الراعى يمتدح محاولة الفنان بيتر بروك التى تسعى إلى إعادة اكتشاف المسرح ومحاولة الوصول إلى جذوره أو ينابيعه الأولى، بالعودة إلى الطقوس القديمة (أو عند الراعى تقاليد الأداء الشعبي) كمصدر وإلهام لعروض مسرحية . جديدة.

ولكن دعوة على الراعى إلى الإفادة من النبع الشعبى العربى ليست معناها إنغلاقا قوميا ضيقا، أو قولا بأن الخصوصية العربية استثنائية لا يجمعها شىء بالمشترك الانسانى فى المسرح . فهو يذهب إلى أن المجتمعات الأوروبية المختلفة لم تتخذ قط موقفا موحدا إزاء المسرح. وليس من الممكن إن يكون شكسبير قد استخدم «الصيغة اليونانية» أو الأرسطية عن وحدة الزمان والمكان والفعل كما كان يستخدمها راسين مثلا. ومن المعروف أن مسرح القرون الوسطى الدينى والهزلى لم يعتمد على الانتقال من بداية إلي وسط إلى نهاية كما تفترض الصيغة الغربية المزعومة. ويعقد الراعى مقارنة بين بابات خيال الظل لابن دانيال والمسرحيات الأخلاقية التى كانت أوروبا تقدمها للمذنبين بغية هدايتهم. ويشير الراعى إلى اعتماد شكسبير على فن الأقدمين واعتماده على التراث الشعبى، كما يشير إلى اعتماد موليير على فنون السيرك والكوميديا المرتجلة وعلى روح

وداعــــا على الراعى:

الأشكال المسرحية الشعبية ويبرز الراعى صاحب الدراسة المتعمقة عن برنارد شو أن هذا المســرحى النابه أعلن أنه يقـدم الفرجة فى مسرحه إلى جوار الأدب وأنه يمضى فى عـمله على أسـاس منجـزات السـابقين الذين اسـتـخـدمـوا التـراث المسرحى الشعبى للمهرج والبلهوان، كما استخدم *السيرك* فى *اندروكليس والأسد*، والميلو دراما فى تلميذ الشيطان والمهزلة فى أعمال كثيرة.

ويومىء على الراعى إلى أنه قـــد صاحب التطور الاجتماعى وظهور الطبقة الوسطى فى البـلاد العربيـة الخـاضـعـة للاحتلال الاجنبى انبثاق حاجات مسرحية جديدة عبـر عنهـا «القـالب الغـربى» وهو يعنى عنده المسرح البورجوازى «الواقعى» أو الطبـيـعى الذى يصـور المشـاكل الاجـتـمـاعـيـة وينتـقـد مظاهر السلوك الارستقراطى فى حبكة محكمة الصنع تقوم على تقدم الصراع وبلوغه الذروة ثم حله فى النهاية.

ويوضح *الراعى* أن *الأثر الشــعـبى* والأثر الأوروبى سارا جنبا إلى جنب داخل «القـالب المسـتـورد» الذى كـان مـلائمـا لانتقادات الطبقة الوسطى وتطلعاتها..

المجال المسرحى :

وكـان من المنطقى ألا يقتصـر ناقدنا على تحليل النص المكتـوب فلدى الراعى قـصـور واسـع للمـجـال المسرحى لايكون مقصورا على أفراد مبدعين استنادا إلى منهجه النقدى الذى لم يحد عنه قط. إن البضاعة الرمزية المسرحية يجرى إنتاجها فى مجال يتألف من كتاب النص (المؤلفين) ومن المخـــرجين ومن المـــثلين والفـــرق المسـرحـيـة ومـعـاهد الفنون المسـرحـيـة والصـفـحـات والمجلات الخـاصـة بالنقـد المسـرحى، وهنـاك من الناحـيـة الأخـرى جـمـهـور *للنظارة الذى* تمرس بالمشـاهدة والذى قـد يعرض عن بعض الأعـمـال إذا كانت بضاعتها المسرحية لا تتحدث عن هموم الجماهير ولا تسعى إلى تجسيدها على الخـشـبـة ، كـمـا قـد يحـرص على المشاهدة إذا رأى جمهور النظارة أنفسهم فى المسـرحـيات. وهذا المجـال المسـرحى الذى يهتم به ناقدنا فى مجمله يتنفس أو يختنق فى مناخ مسـرحى مـوات أو غـيـر مـوات. فـالمسـرح الناهض فى كل مكان ظهـر فـيـه، فى أثينا أيام بريكليس وفى انجلترا أيام اليزابيث الأولى يعتـمـد على منـاخ مـســرحى ممتــاز، أو على لحظة مسـرحـيـة. ذلك المناخ هو أن تقف أمـة كـبيرة عند مفترق الطرق تفكر أى طريق تسلك. فهذه اللحظة المتسائلة - عند على الراعى - التى تشـمـل الماضـى بالتـحـليل وتنظر إلى الحاضر بجدية ورغبة فى الفعل والتـجـاوز وتتطلع إلى مسـتـقـبل حـافل بالوعـود هى اللحظة المسرحـيـة المناسبة. وهناك لحظة غير مـواتية لحظة ركود آسٍ وسلبية اسـتـهلاكـيـة نهـمـة إلى التسلية السطحـيـة والانقـيـاد أو اللامبـالاة فى

السياسة. وقد رصد الراعى ازدهار المسرح فى لحظة مواتية أعقبت ثورة يوليو ١٩٥٢ ارتبط فيها المناخ العام المتوثب بخلق أجهزة جديدة من قبيل أكاديمية الفنون ومسرح العرائس وفرق الرقص الشعبى، فقد توسعت رقعة الفنون المسرحية بحيث لم تعد مقصورة على فنون الكلمة فحسب بل شملت كل فنون الأداء من باليه وفنون عرائسية وعروض لفن السيرك.

وفى هذا السياق يحلل الراعى «النصوص»، فقد نضجت المسرحية الاجتماعية النقدية على يدى نعمان عاشور كما تقدمت المسرحية السياسية الفلسفية سليمان الحلبى عند الفريد فرج ومشاكل السياسة الملتهبة النار والزيتون، بل لقد ظهرت المسرحيات الشعرية السياسية وأحسن نماذجها «الفتى مهران» وثنائية الحسين لعبدالرحمن الشرقاوى، كما ظهرت لصلاح عبدالصبور مأساة الحلاج والأميرة تنتظر. لقد كان السؤال المطروح فى هذه اللحظة المسرحية، وهو السؤال الأساسى فى منهج على الراعى ينقسم إلي شقين مترابطين، الشق الأول يتعلق بشعبية المسرح من حيث المتلقين، بحيث لا يكون مسرحا للنخبة المثقفة وحدها أو لأثرياء الانفتاح أو السياح من بلاد النفط. والشق الثانى يتعلق بالصلة بتراث البلاد فى فنون العرض المسرحى عامة بحيث لا يكون مسرحا مستوردا معربا.

وحينما يناقش الراعى مسرحية الفرافير ليوسف إدريس التى تبحث عن شكل عربى للمسرح هو السامر الريفى يرى أنها تنتسب إلى قالب كوميديا السلوك وهو قالب مشترك بين كتاب الكوميديا مختلفى الثقافات، ويرى أن مؤلفها وضع فيها «نمرا» وشخصيات مأخوذة من المخزن العام للكوميديا الشعبية المحلية والعالمية، فلا يوجد سور صينى بين الخصوصية القومية والمشترك الإنسانى. فالفرافير عنده تعتمد على الأشكال التراثية وتتناول الحياة الاجتماعية بالأسلوب المسرحى الشعبى مطورا إلى المستوى الجمالى والمفهومات الفنية العالمية. وهو يرى أن هذه الصيغة الشعبية تتطلب مشاركة فعلية من الجمهور فى العرض المسرحى (وهو أمر لا يتأتى الآن) بالاضافة إلى الإبداع الجماعى على أيدى المؤلف والمخرج والممثلين. ووحدات النص عند على الراعى ليست كلمات الحوار فهو يؤكد جو السيرك والأراجوز وكوميديا خيال الظل فى الفرافير بالاضافة إلى كوميديا الفصول المرتجلة، ويبرز العراك الشعبى «الردح» ومناوشات القافية والحركات البلهوانية . ويوضح الراعى استعارة يوسف إدريس لموقف من مواقف الكوميديا المرتجلة التى لا يكف الراعى عن التغنى بها وهو موقف تبادل المواقف أو القلب رأسا على عقب بين السيد والخادم، وهو موقف كرنفالى يقوم

وداعـــا على الراعي:

على الإطاحة «بالعروش» والسخرية من التــراتب. ويواصل على الراعى إبراز توظيف التراث واستخراج العناصر الدرامية من حكايات ألف ليلة عند الفريد فرج التى كان الحكاءون يقومون بتمثيل شخصياتها قديما أو من الحكاية الفولكلورية عند شوقى عبدالحكيم، أو من صيغة شاعر الربابة عند نجيب سرور الذى يحول الحكاية المروية إلى مواقف عرض وتمثيل. ويشير ناقدنا إلى استعمال محمود دياب فى ليالى الحصاد لونين من ألوان المسرح الشعبى هما مسرح السامر والمسرح المرتجل.

فعلى الراعى لا يعلق تعليقا عاما على لغة الحوار بل يغوص على الصيغ المسرحية التى أبدعها الشعب فى دراما تاريخية . ولكنه لا يرفض استخدام صيغ درامية مستحدثة عند تشيخوف وبريخت تستطيع التقاط تجارب من صميم حياتنا، وهى صيغ ليست تقليدية ولا تندرج تحت «القالب الغربى» الذى استورده رواد المسرح الأوائل منذ منتصف القرن الماضى. فهو يقول إن هناك تشابها فى المواقف الانسانية وطرائق التعبير عنها دون اعتبار للزمان والمكان، كما يعتبر الانطباع بأعمال عباقرة المسرح الغربى انطباعا مشروعا. وهو يلاحظ فى عيلة الدوغرى لنعمان عاشور وكوبرى الناموس لسعد وهبه استعمالا لتقنيات تشيخوف وجوركى نظرا لتشابه الأجواء، وهى تقنيات تعتمد على تقديم شخصيات متعددة طريفة لكل منها حكاية موجزة، تحكيها على دفعات ، فتصبح المسرحية شبيهة بقطعة موسيقية، لكل آلة فيها صوت ولكل صوت دور يؤديه وتلتحم الأصوات والأدوار المتشعبة لتخلق كلا.

وكذلك الحال مع الفريد فرج فى سليمان الحلبى، فالراعى يرى أنه يواصل تقليد بريخت الخاص بصياغة «الأفكار» فى لوحات متتالية لا تخضع لوحدة المكان ولا وحدة الزمان.

وعلى الرغم من أن على الراعى يحتفى أكبر احتفاء بالتراث الشعبى العربى فإنه يؤكد أن هناك جوهرا للدراما الحقة، وهو الصراع الذى يأخذ بتلابيب الشخصيات فلا يدعها إلا وهى قد تطورت وتغيرت تغيرا كبيرا ، وينطبق ذلك على جميع البلدان.

وإذا كان «المهرج» واضح الأثر فى التراث العربى الكوميدى الذى يسخر من السلطة الاستبدادية، فإن الطابع الشعبى فى مواجهة الاستبداد مشترك بين الشعوب التى يقدم كل منها اسهامه المتميز في فكاهة شعبية عالمية. ويتحقق ذلك الطابع العالمى داخل السمات القومية الخاصة، إنه الوحدة فى التنوع ، فليس الطابع القومى جوهرا ثابتا معزولا. ولم يستطع الضحك أن يكون أداة للتعمية أو القهر، وبقى طويلا سلاحا حراً فى أيدى

العامة فى فنون الأداء يواجه عناصر العنف والتخويف والتهديد والحظر من ناحية الحاكمين وما يفرضونه على المحكومين من عناصر الخوف والخور والخضوع والنفاق لذلك كانت هناك سمات مشتركة بين الكوميديا لدى الشعوب المختلفة رغم خصوصية كل شعب.

ونصل من ذلك كله إلى أن على الراعى احتفى أكبر احتفاء بالعرض والفرجة لذلك وضع الجمهور المتلقى فى قلب العمل المسرحى، وحتى فى المسرح «الذهنى» عند توفيق الحكيم بحث عن أمارات الفرجة فى بيجماليون وإيزيس وبراكسا.

مسرحيات غنائية

وقد بحث عن أمارات الفرجة كذلك فى المسرح الشعرى، فاعتبر مسرحيات شوقى الست غنائية وليست درامية واعتبر مسرحية «الست هدى» هى الوحيدة التى نجحت دراميا لانها كوميديا انتقادية من النوع المعروف باسم كوميديا السلوك. ومعيار الراعى للشعر الدرامى هو عرض شخصية حية وتحريكها والإفصاح عن مكنون ذاتها. وهو يؤكد حقيقة تاريخية مؤداها أن فن المسرح كان مسرحا شعريا حتى ظهور المسرحية النثرية فى القرن السابع عشر، ولكن الشعر ارتبط فيها بفن أشمل هو فن العرض المسرحى ويرى الراعى أن الشرقاوى أفلح جزئيا فى خلق الشعر الدرامى (الذى يرسم شخصيات ويطورها ويخلق مواقف ويحمل أفكار الشخصيات ويطورها) دون أن يخلق شخصيات حية كاملة الاستدارة تقنع المتفرج بل يعيبها طغيان الروح الغنائية على روح الدراما . ويعتقد ناقدنا أن الميلاد الحقيقى للمسرح الشعرى نجده عند صلاح عبدالصبور الذى ترتفع فيه الدراما إلي مقام الشعر ويعبر الشعر بالفعل عن أحداث درامية. لذلك تكتسب الدراما ميزة الشعر من تكثيف يقتصر فى المساحة ويوسع فى العمق. وحينما يحلل مسرحية «الأميرة تنتظر» يكشف عن أنها تستخدم العناصر الأولى للمسرح الشعبى من أقنعة وأخيلة، ونكات وجنس غير مضيق عليه وطقوس، وتستعير من الحكاية الشعبية ومن ألف ليلة جوها وشخصياتها المسحورة وألغازها وطلاسمها وصيغة المسرحية داخل المسرحية المستمدة من الأشكال الشعبية التى تبسط شكوى أو تعرض حالة عن طريق تمثيلها، لقد كانت إحاطة على الراعى بهموم المسرح العربى إحاطة شاملة عميقة، اتبع فيها منهجا خاصا به عمل على تطويره تطويرا متسقا وهو منهج أفاد منه الكاتب والممثل والمخرج والمتلقى وفتح آفاقا جديدة أمام المسرح العربى.

إن خسارة الثقافة العربية برحيله خسارة فادحة فهو لم يلق القلم من يده قط، وستظل المصابيح التى أضاءها متألقة وهاجة ؟

العالم الروائى لفتحى غانم

بقلم : مصطفى بيومى

فى المقدمة القصيرة لروايته «قليل من الحب كثير من العنف» كتب فتحي غانم أن أحداث وأشخاص هذه الرواية «من صميم الواقع المصري كما عاصرته في نهاية السبعينيات» .. ثم يضيف، وكأنه يفسر العنوان أو يبرره: «وما حيلتي، وما سوف أرويه يحذرنا من الحب، ويقول لنا إن حياتنا لم تعد تحتمل الحب، فهو أخطر على حياتنا من العنف ولذلك نحيا فى عصرنا الحالي بـ «قليل من الحب وكثير من العنف» .

إن مرحلة الانفتاح الاقتصادى، التى نتوقف عندها، تمتد جذورها إلى ما بعد هزيمة ١٩٦٧، لقد تبخر المشروع الناصرى بالهزيمة، وبدأت مرحلة جديدة لا تمثل عودة إلى ما كان قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وإنما تمثل شيئاً جديدا لا يروق للطبقات التى كانت سائدة قبل الثورة. لقد عاد ميرزا الفلكى إلى مصر، بعد رحيل جمال عبد الناصر، ليسترد حقوقه، فاكتشف أن الدنيا تغيرت، الأعيان من أمثال أبيه اختفوا، أنواع أخرى من البشر هى التى تحيا الآن، لا صلة لها بأبيه ولا بالعالم الذى جاء منه.

... وعبد العزيز الفلكى، حثالة العائلة، ذهب إلى بلد فيه بترول وحبس نفسه فى حجرة مع عشرة من أمثاله يأكلون النفايات ويجمعون المال.. ثم عاد ليستولى على أملاكنا.. جاء ليشترى دار أبى.

... شعرت أنى أمام دودة سمينة شرهة، دودة منتصرة. تريد أن تنهشنا حتى النخاع، تنهش بياض عيوننا وسوادها، تريد أن ترفع علم انتصارها وتجعل من استيلائها على دار أبى راية لهذا الانتصار.

أما أولادنا فلا أمل لهم فى مواجهة هذا الزحف. لقد خدعناهم.. قلنا لهم إنهم أولاد أسياد.. قلنا لهم تعلموا اللغات الأجنبية.. عودناهم على السينما والمسارح وحياة النوادى.. ولكنهم يشعرون بالضياع أمام الزحف الذى يفرض عليهم التراجع والفرار والهجرة.. إنهم يواجهون عالما من نوع آخر لا صلة لهم به.

لقد تغير الزمن وظهرت قوى اجتماعية جديدة تريد أن تنهش وتسود، وفى غمار هذا السعى المحموم للسيادة والسيطرة يتشكل عالم جديد شاذ ملئ بالاختلاط والتخليط، لقد أحدثت هذه القوى تغييرات عميقة فى المجتمع المصرى.

الحـاد. النائب العـام، وهو أعلى سلطة قضائية فى مصر، لا يمثل شيئاً بالنسبة للمليونير مرسى فرج الذى يثور عندما يعلم أن النائب العـام يتـحـرى عن ابنه، الذى تقدم لخطبة ابنتـه. فمن يكون هذا الرجل وهو ليس أكثر من موظف يتقاضى مرتبه من الحكومة؟

مأزق السلطة الشكلية

وما كان لهؤلاء الطفيليين أن يسودوا ويتحكموا بأموالهم لولا ما يعانيه الموظفون محدودو الدخل مـهـمـا بلغت مـراكـزهم ونفوذهم. إن أصـحـاب السلطة «الشكلية» يواجهون مأزقا قاسيا فى مواجهة جحافل «الدهماء» المسلحة بالمال وشهوة السيطرة والتسلط. ويمثل الأمر معضلة حقيقية لزهيرة هانم، زوجة النائب العام: إنها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بمركز التفوق المترفع الذى يبهر الناس ويفرض عليهم الرهبة والخضوع، بينما الفقراء وأصحاب المهن البسيطة والمراكز الدنيا يحصلون على إمـدادات لا تنقطع من المال والقـوة حتى أوشكت الحواجز أن تسقط فيهجم الدهماء ويكتسحون كل شيء . إنها فى حاجـة إلى ملايين أو مليارات، لتستعيد حصونها وقلاعها ومواقعها المنيعة التى لا يجرؤ على الاقتراب منها أحد. ولولا نفوذ زوجها وسلطته، لتعرضت لأخطار لا نهاية لها من هجمات هؤلاء السفلة.

وترتب على هذه المتغيرات ظهور قيم جديدة تحكم المرحلة الانفتاحية. أهم هذه القيم أن مكانة الإنسان تقاس بما يملكه. إن المليـونير ابن المليونير، طلعت مرسى فرج، يقول لزميله يونس وهو يتقدم لخطبة



من هذه المتـغـيـرات أن المقـاييس فى تقييم الناس قد تغيرت. إن المليونير مرسى فرج يرى أن أولاد البكوات والباشوات لا يسـاوون الآن فى مـصـر بصلة ولا فجلة، كلهم شحاتون. فماذا يكون مرتب وزير أو نائب عام، خمسمائة جنيه.. ستمائة، سبعمائة، ألفاً فى الشهر؟.. أبوك يعتبر يومه أغبر لو كانت غلته أضعاف هذا المبلغ.

ولأن الثـروات مع الطفـيليـين، فـإنهم يسـخرون قادة المجتمع القديم لخدمة مصالحهم. وكما يقول المهندس يونس لأبيه النائب العـام: الثـروات مع المهـربين والمختلسين وتجار المخدرات. أليس كذلك يا أبى؟ أليس المتـهـمـون هم أصـحـاب الملايين بينمـا المحـامـون من الوزراء السـابقـين وكـبـار رجـال الدولة، هم الذين يتحركون كحاشية لهم؟

ولا أحد يستثنى من هذا التقسيم

العالم الروائى لفتحى غـــانم

أخته: إذا كان هناك كلمة لابد أن يقولها فلتكن إن هذا العـريس القـادم إليكم، يستطيع بكلمة واحدة أن يضع مليونا من الجنيهات باسم عروسه فى نفس اللحظة التى تعلن موافقتها على الزواج به.

لا مجال للعواطف ولا مكان للعقل. إنها صفقة يدفع فيها العريس مليونا من الجنيهات. ولأنها صفقة، فإن العروس المستهدفة ليست أكثر من بضاعة معروضة لمن يدفع أعلى سعر: فأنا أشترى البنت.. لأنها البضاعة التى أريدها.

إنها طبقة جديدة تملك المال، وبالمال تشترى النفوذ والسلطة ومصاهرة العائلات القديمة الكبيرة: وكما انتقل المال إلينا، لابد أن تنتقل إلينا النسوان.

وليس انتقال «النسوان» صعباً . ومن تكون سارة ابنة النائب العام؟ المليونير الشاب سوف يجد متعة لا حدود لها، وهو يتحداها ويصطادها ويقتنيها.. سوف يقتحمها، فى حصنها، وحصن النائب العام، بالسيارات والمجوهرات وأرصدة البنوك. سوف يكتسحها ببولدوزر لا يقاوم. فمن الذى يقاوم هذا المال؟

من الذي يقاوم ؟!

إن سارة وأمها يقرران بسرعة أن صاحب الملايين من المستحيل أن يكون من السوقة . وهكذا ترتفع الرايات البيضاء، ويتحقق الاستسلام.

لقد انتقلت السلطة والنفوذ من الرموز التقليدية التى سادت فى العهدين الملكى والناصرى، الوزراء وكبار الموظفين، إلى قوى جديدة تملك المال الذى تشترى به السلطة والنفوذ.

إن شركات الانفتاح تملك مفاتيح كل شئ.

هذه الشركات لا تجد غضاضة فى تعيين ابن النائب العام فى ظيفة مغرية ماديا. ذلك أن وجود ابن النائب العام معهم فى الشركة يضمن لهم أشياء كثيرة، ولكن ابن النائب العام يكتشف أن مهندسا مصريا من نفس دفعته من جامعة الاسكندرية قد سبقه بثلاثة شهور على الأقل، ومن هو، إنه ابن المليونير مرسى فرج، كيف تفوق ابن الميكانيكى على ابن النائب العام؟!

إن السؤال بهذه الصيغة يبدو مثاليا ساذجا. السؤال الحقيقى هو: من يكون النائب العام؟ إن هذا النائب العام يحلم بمد خدمته بعد المعاش، ويفكر فى صلة الأجانب - الذين يستضيفهم المليونير مرسى فرج - بالسلطة ، وتأثيرهم فى تحقيق حلمه. إنه يتحدث عن اتجاه الحكومة اليوم مع الانفتاح وصداقة الأمريكان. وعندما يقول طلعت إن هؤلاء الأمريكان قادرون على أن يفعلوا أى شئ، يهز عبد الحميد بك رأسه مؤمنا على كلامه، وهو يشعر بغبطة غير عادية. إن أبواب مد خدمته تنفتح أمامه.

اللعبة مكشوفة وواضحة . الطفيليون والانفتاحيون يملكون النفوذ «الحقيقى»

وأصحاب السلطة الشكلية والنفوذ الرسمي يعون هذه الحقيقة ويتعاملون على أساسها. إن شهدى أبو اللطف، محافظ الاسكندرية، يرتعش أمام الانفتاحي الميكانيكى مرسى فرج، المليونير الذى يملك أن يغير المحافظ ومدير الأمن بمكالمة تليفونية. يعرف المحافظ جيدا أن كل طلبات مرسى فرج لابد أن تجاب. فهو لو غضب، غضب معه مستثمرون أمريكان وطليان، وغضبت الرئاسة، وغضبت الصحافة، ليس في مصر وحدها، بل سوف ينهال النقد في كبريات الصحف الأمريكية والأوروبية، يتهم الإدارة المصرية بمرض البيروقراطية وتعطيل الإنتاج والفساد. ولقد تلقى المحافظ درسه كاملا، عندما وبخه رئيس الجمهورية في اجتماع عام بسبب تكدس البضائع في الميناء، وكان المحافظ يعلم، كما يعلم الرئيس الذى يوبخه، أن هذا التوبيخ بسبب أوامر أصدرها المحافظ خطأ، بإعطاء الأولوية في التفريغ لمواد تموينية كان يعتقد أن الحاجة ماسة إليها وعاجلة، ولن يحدث ضرر إذا تأخرت عملية تفريغ حاويات مرسى فرج يوما واحدا.

وعندما تحدث بعض المشاكل بسبب مشروع زواج ابن المليونير من ابنة النائب العام، يثور الحاج مرسى، ويدرك المحافظ أنه يهدده بتغييره، وهو يعرف أن الرجل قادر على أن يفعل ذلك.

وكان شهدى أعقل من أن يعارض الحاج.

وكان يعرف أنه لابد وأن يقدم ضحية قربانا يسترضى به ذلك المليونير الغاضب الثائر.

ولا يجد المحافظ من يضحى به إلا مدير الأمن!، فيتهمه بـ «الخيانة» ويطلب من الحاج أن يوضح حقيقة هذا الرجل للرئاسة قبل أن يتمادى في عبثه وخيانته.

وقال الحاج مرسى في هدوء:

– لن يطلع عليه الصباح وهو مدير الأمن في هذا البلد.

أليس هذا في مستطاعه؟

كيف نشأ الانفتاحيون وما مستقبلهم؟

هذا ما يجيب عنه العالم الروائى لفتحى غانم من خلال شخصيتين: الحاج مرسى وابنه المهندس طلعت. إن أولهما يمثل المنشأ والبداية وثانيهما يمثل التطور والمستقبل.

كان مرسى فرج منذ سنوات قليلة ميكانيكيا له ورشة لإصلاح السيارات في شارع صلاح الدين. ثم حصل – من خلال علاقة قديمة مع السنيور ماركو – على كل عمليات النقل والصيانة لشركة أماركو، ليتحول في بضع سنوات إلى واحد من كبار أثرياء الأسكندرية بل مصر كلها. وهو الذى تولى الإنفاق على استقبال الرئيس نيكسون في الإسكندرية، لأنه كان يعلم أن مجئ نيكسون لزيارة مصر يعنى أن القرش سوف يجري بين الأيدى، وأن العجلات سوف تجري في الطرقات، فإذا ما جرت النقود وجرت العجلات انتعشت أحوال الناس، ودالت دولة الأفندية والموظفين من صغارهم إلى كبارهم.

وفى فرح ابنه طلعت يستعرض الحاج نفوذه وثروته، فقد حملت الطائرات إلى مصر كبار الشخصيات من جميع أنحاء

العالم الروائى لفتحى غـانم

العالم جاءوا تلبية لدعوة المليونير مرسى فرج. وكان بينهم كبار رجال البترول، واثنان من أهم تجار السلاح فى المنطقة، وممثلة هوليود الشقراء الفاتنة «ساندرا فورد» ومصمم الأزياء الباريسى «شارل ديجا» واشترك فى إحياء الحفل المطرب الإسبانى «ألفارو» والمطربة الإيطالية «ايمانويلا» وقامت بزفة العروسة الراقصة «نوسة» وعلى رأس هؤلاء جميعا شهد الرئيس وعائلته الحفل الذى أقيم بحدائق أنطونيادس بالإسكندرية.

إن الحاج المليونير موسى فرج نموذج شائع فى عصر الانفتاح. ثروة هائلة تعتمد على المصادفة والمهارة ولا تستند إلى الأصول الاجتماعية أو مؤسسة الدولة، وكل ما تفعله هذه الطبقة الجديدة الصاعدة هو محاولة البحث عن غطاء يضفى عليها الشرعية ويدارى عوراتها.

وإذا كان الأب هو المؤسس الذى عانى قبل أن يصل، فإن الابن المتعلم لم يعان بالدرجة نفسها. إن الجيل الجديد فى هذه الطبقة أكثر شراسة وقسوة، وأقل ميلا إلى الاحتفاظ ببقايا القيم والتقاليد السابقة.

إن طلعت، فى عينى صديقه وزميله يونس، حيوان بدائى. حيوان بمعنى الكلمة، مندفع بلا حدود، لا انضباط ولا تربية، لا صلة له بالتهذيب والأدب، يفعل ما يشاء، تخرج من فمه ألفاظ بذيئة جارحة، وتخرج من فمه أو جسده أصوات مقززة، وكأنه وحده لا يوجد من يراقبه أو من يخجل منه، أحيانا يتهور ويبدو أنه لو ترك نفسه كما يريد، ربما انتحر فى لحظة اندفاع.

نموذج شائع في عصر الانفتاح

إنه شخصية مقتحمة إلى درجة الوقاحة، وهذا الاقتحام لا يعبر عن القوة بقدر ما يعبر عن الشعور بالضعف والرغبة فى التغلب عليه. وكما يقول عنه المستر كلارك: إنه حائر رغم قوته، يستخدم ثراءه فى تقليد الآخرين، فى تقليد شخصيات يراها فى الأفلام.. ما الذى يريد أن يبرهن عليه.. هل تفهم ما أعنيه؟

ورغم سيادة الانفتاحيين وسيطرتهم، فإن الساحة لم تكن خالية أمامهم. الإرهاب يزداد، والتطرف يستشرى، والجرائم السياسية تنتشر كالوباء.

والنهاية الدامية للرواية تنبئ عما فعله الانفتاحيون فى مصر بقدر ما توحى بالثمن الفادح الذى ينبغي دفعه لمواجهتهم. إنهم قوى شرسة لا إنسانية، السلاح الرئيسى عندهم هو المال، والقيمة الحقيقية فى المصلحة، والعقاب الوحيد هو الموت.

لقد ابتلع حوت الانفتاح الصوت النقي الوحيد؛ يونس. وبموته تبخر القليل الموجود من الحب ولم يبق إلا الكثير من العنف!

● «الرواية هى ديوان العرب الآن».

الدكتور علي الراعى

● «نستطيع استلهام الماضى، وليس استيراده».

المؤرخ الأمريكي مايكيل شودسن

● «حكم القانون أحد أعظم انجازات حضارتنا».

هنري هاين
رئيس اللجنة القانونية بمجلس النواب الأمريكي

● «هوليوود عاصمة اليهود».

المخرج السوري مصطفي العقاد
صاحب فيلم الرسالة

● «تداول المعرفة التحدى الذى نواجهه».

الشاعر محمد الأشعري
وزير الثقافة المغربي

● «صندوق النقد الدولى جزء من المشكلة، وليس جزءا من الحل».

الممول والبليونير جورج سوروس

● «لا جدوى من مقاومة الأنظمة الشمولية بعد استيلائها على السلطة، لابد من مقاومتها وهى تحاول رفع رأسها».

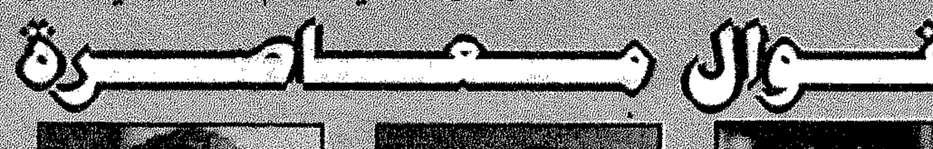
رومان هيرتزوج
رئيس جمهورية المانيا الاتحادية

● «الشعور بالدونية والعجز لن يكون التعويض عنهما الا بوجود البطل المخلص الذى يخوض معاركه بسيف الكلام».

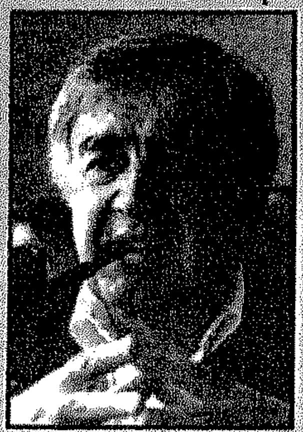
الكاتبة العراقية فاطمة المحسن

● «الخط الفاصل الجديد بين الغنى والفقر، ليس بين الذين عندهم والذين ليس عندهم، وانما بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

كلاوس شواب
مؤسس منتدي العالم الاقتصادي بدافوس




د. على الراعى


مصطفى العقاد



چورج سوروس



بقلم : صافى ناز كاظم

عندما قامت ١٩٥٢/٧/٢٣ كنت أنا وجيلى على مشارف الخامسة عشرة من أعمارنا، صبايا وصبيان غذتنا الدراسة الوطنية فى المدارس العربية، المرعيّة جيدا بوزارة المعارف العمومية، على «الجلاء بالدماء»، و«فلسطين لبيك نحن الفداء» ومحفوظات خطب مصطفى كامل وسعد زغلول، وتضحيات الزعيم محمد فريد، و«نحن لمصر». ننظر غير آسفين لرحيل ملك فاسد لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره، وفرحين بقيام «فتية آمنوا بربهم ...».. أكبرهم فى الرابعة والثلاثين، أمسكوا بزمام البلد راسمين خطة تسلم مقاليدها شباب من تعدى فيهم الأربعين كان شيخا، والحكماء العجائز من أمثال طه حسين والعقاد وأبو حديد.. الخ تدور أعمارهم حول الستين، أقل عاما أو أكثر، باستثناء أحمد لطفى السيد الذى كان قد بلغ الثمانين وأعطوه لقب : أستاذ الجيل: لكن هناك سيد قطب فى السابعة والأربعين، وفتحى رضوان وأحمد حسين ونجيب محفوظ فى الواحدة والأربعين وعلى ومصطفى أمين فى الثامنة والثلاثين ومحمد حسنين هيكل ومحمد عودة قد بلغوا الثلاثين ومعهم حشد شباب طازج التوهج فى عشرينياته:


فتحى غانم
صلاح حافظ

أحمد بهاء الدين ويوسف إدريس فى الخامسة والعشرين وفتحى غانم فى الثامنة والعشرين ولطفى الخولى فى الرابعة والعشرين وصلاح جاهين فى الثانية والعشرين وصلاح عبدالصبور يتم سن الرشد واحدة وعشرين، ووديع فلسطين فى التاسعة والعشرين مفصولا من الصحافة بقرار باتر وممنوع من النشر، فقد كان الزمن زمن شباب مفسوح لهم الطريق أو مغلق بالشمع الأحمر، لذلك لم يكن من المستغرب أن يرى جيلى بدايته فى الصحافة وهو فى الثامنة عشرة من عمره عام ١٩٥٥ حين بخلت أخبار اليوم، وكنا قد قرأنا الكثير وعرفنا من تصورناهم أبطال زماننا ونجومه فى الثقافة والشعر والأدب والصحافة والفن والموسيقى والغناء.

★★★

فى مكتب الفنان منير كنعان البالغ وقتها من عمره ٣٦ سنة، كان لقاؤنا الأول مع الشاب فتحى غانم الذى يصغر كنعان بخمس سنوات. كان كنعان المشرف الفنى على «توضيب» مجلة آخر ساعة : فنان معطاء نشط، يرسم الغلاف لوحات وجوه خلابة، ويرسم الصفحات . ويواصل وثباته الخاصة فى تجاربه الفنية التى كان ينتقل بها حثيثا من فن التشخيص الى عالم التجريد الواسع الرحب . بينما كان كنعان ودودا ضاحكا بشوشا مرحبا بنا نحن فتيات الصحافة الشابات، يعلمنا

أول أيام فتحى غانم وآخرها

كيف نتذوق الفن وكيف ننظر إلى جماليات الكون والأشياء ، كان فتحى غانم ذلك الشاب الضخم الجالس معظم الوقت بمكتب كنعان يمثل لنا قوة طاردة لنا تتململ فى ضيق من وجودنا حتى قلنا لكنعان: «يا أستاذ كنعان الراجل ده دمه تقيل قوى». فإنبرى كنعان مدافعا: «لا .. لا .. ده فنان كبير وأديب مفكر..» ، عدنا نقول : «ماله دايما مكشر ينفخ كأنه حيطق» – ضحك كنعان وقال : «عشان فيه حاجات تخليه يطق!» . ضحكنا ولم نفهم ثم انغمسنا فى الإنتباه إلى دروس كنعان فى أبعاد «الكتلة والفراغ»!

★★★

فى تلك الفترة كان فتحى غانم يرأس الصفحة الأدبية بمجلة آخر ساعة تحت عنوان «أدب وقلة أدب» وكانت هناك ثمة مناوشات بينه وبين رشاد رشدى لا أستوعبها. لكننى إهتممت بقراءة ما كان يكتبه فتحى غانم ويدا فى بعض حلقاته كأنه فى مناجاة فكرية يتبادل آراء فى الأدب مع سيدة تسكن بعيدا فى سفر وراء البحر ، شخصية حقيقية لم يفصح عن اسمها ليلفها بالغموض قالت له وقال لها. وكانت السيدة فى تلك المحاورات ناقدة لاطمة شديدة القول لا تكف عن الاستهزاء والتوبيخ وبدا فتحى غانم أمامها كأنه مغتبط بالتعنيف مستكين للتوجيهات واضعا السيدة فى مكانة أعلى منه ينظر اليها مبتهلا أن ترشده سبيل الصواب!، ولم يكن هذا ينسجم مع الاستعلاء الذى كان يبديه فى ممرات آخر ساعة أو فى جلسته الضجرة فى مكتب الفنان كنعان. تجرأت وقلت له : «مين الست دى اللى نازلة فى حضرتك جامد؟.. » ضحك باقتضاب ثم حول رأسه تجاه كنعان مكملا الإستماع له. قال لى كنعان بعد ذلك : «دى أستاذة أدب فى انجلترا اسمها فاطمة موسى .» - (فى استرجاعى لهذه الذكريات إتصلت بالدكتورة فاطمة موسى وعرفت أنها كانت تدرس الدكتوراه فى لندن من ١٩٥٣ حتى ١٩٥٧ وهو تاريخ حصولها على الدكتوراه فى الأدب والنقد، وأن فتحى غانم كان فى شلتها الأدبية مع زوجها د. مصطفى سويف ورغم أنها كانت تصغر فتحى غانم بثلاث سنوات إلا أنها - على حد قولها - كانت غلباوية قوى!) - فجأة اختفى فتحى غانم من مكتب كنعان وعرفنا أنه اختلف مع هيكل فترك آخر ساعة ١٩٥٦ وذهب الى روز اليوسف، وبدأ يكتب تحت عنوان «كلمات نستعملها ولا نفهمها» ، يشرح تحتها مصطلحات سياسية لم تكن تستهوينى لكنى كنت أصر على قراءتها رغم جفافها، وأذكر أننى قرأت فيها لأول مرة اسم «شپينجلر» ، وأخذت أعاكس به

صديقاتى وزملائى فى مجلة الجيل، وأشاغب به موسى صبرى - الصديق الحميم لفتحى غانم - قائلة : «ده كلام يرضى به شبينجلر؟» فيغرق موسى صبرى بالضحك. فى تلك الفترة قرأت أول عمل روائى لفتحى غانم «الجبل» ، بين عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧، فتملكنى الإنبهار باختلافها الكلى مع سابق قراءاتى لروايات يوسف السباعى ، ومحمد عبدالحليم عبدالله، ولنجم الرواية الجديد نجيب محفوظ الذى كان قد سطع منذ ١٩٥٤ برواية بين القصرين مسلسلة فى مجلة «الثقافة الجديدة» التى كان يرأسها يوسف السباعى . كان لأسلوب فتحى غانم فى «الجبل» مذاق المرارة المحببة فى القهوة السادة التى «تعقد النفس»، متقشف، سريع مختصر مع همهمات الغموض والتوجسات التى ستظل كذرات الأبخرة عالقة بأجواء عالمه الروائى وسمة من سماته. لم ترتفع «الساخن والبارد» إلى مستوى «الجبل» . حتى جاءت رواية «الرجل الذى فقد ظله» تطبق بإتقان الإتجاه العالمى الحديث فى فنية الكتابة الروائية: حوادث واحدة ترويها شخصيات الرواية ، كل شخصية من زاويتها الخاصة. ولو أخلص فتحى غانم لمهمته الروائية ، كما فعل نجيب محفوظ، لكان قد وفر على نفسه الكثير من وخز الضمير الذى أوقعه فيه إستسلامه لإغراء المناصب العليا فى الصحافة بعد التأميم ومن ثم غواية الإستقطاب السياسى، تلك الرمال المتحركة التى أغرقت الكثير من جيله الذى بدأ شبابا طازجا واثبا نحو مصالح الوطن، وانتهى شائخا مكبوتا بالتنازلات ، مراوغا بألاعيب منطق الممكن والمتاح، فلم يفقدوا ظلالهم فقط بل أجسادهم أيضا حين كمنت هزيمة الروح فى مواقع القلب والدم والجوف والدماغ تجهدها حتى الموت الذى جاءهم كأنه تنفيذ بطىء لحكم بالإعدام نطقته فطرتهم السوية احتجاجا على تحديهم وإذلالهم لها .

★★★

لا أدرى كيف تقبل فتحى غانم فكرة إنضمامه إلى التنظيم الطليعى الذى أنشأته السلطة الناصرية سريا: تعرفه السلطة ولا يعرفه الشعب كيف تصور أنه بالإمكان الإنخراط فى مثل هذه الكمائن من دون أن يصبح قطعة شطرنج يلعب بها اللاعبون فى السلطة وبالسلطة؟ . رفعته أشواط اللعب حتى رئاسة مجالس ادارات صحافية ورئاسات تحرير ثم هبدته فى خبطة ١٥ مايو ١٩٧١ ومنعته السلطة الساداتية من المناصب ومن النشر حتى توسط له صديقه الحميم القديم موسى صبرى فأعادوه الى رقعة روز اليوسف يعمل تحت إدارة عبد الرحمن الشرقاوى رئيسا لتحرير مجلة روزاليوسف بالمشاركة مع صلاح حافظ عام ١٩٧٣. ولم أكن أنا أدرى حجم الإستبشاع الذاتى الذى لحق بفتحى غانم والكثير من جيله من جراء مسخرة الرفع والإسقاط التى وجدوا أنفسهم فى دوامتها لا يملكون معها إرادة

أول أيـــام فتحي غــانم وآخـــرها

الرفض أو شجاعة الإعتراف بالورطة ، حتى كان ذلك اليوم من نهاية ١٩٧٤ حين طالعتنى فى مجلة روز اليوسف صفحة تحت عنوان خلاب من مقام: «الرأى والرأى الآخر» أو «مساحة حرية» أو «إتكلم على كيفك ورقبتى فداك» .. الخ .. كنت ممنوعة من النشر منذ أغسطس ١٩٧١ من دون أى جريرة واضحة، فلا أنا كنت فى تنظيم سرى أو علنى ولا أنا كنت طرفا فى أى لعبة تلعبها السلطة أو غير السلطة . شعارى أغنية «قلمى ف ايدى وبعرف أكتب، عقلى ف راسى وبعرف أفكر، قلبى ف صدرى وبعرف أحب، ورأيى بقوله مكان ما أدب!» ، لكن السيد يوسف السباعى كان قد إرتأى أن يهلك فى ظلمى. بهذه الخلفية، وبإيمان قوى أن حرية الرأى حقا : «قدس الأقداس» ، كتبت مقالا جياشا بحجم صفحة روز اليوسف مفاده هو التساؤل: لماذا أنا ممنوعة من النشر، وبأى حق؟، وحددت موعدا وذهبت للقاء فتحى غانم فى مقره بدار روزاليوسف. وجدته إلى مكتبه ، ولم أكن قد قابلته منذ عام ١٩٦٠، وبالغرفة صلاح حافظ الذى أراه لأول مرة وإلهام سيف النصر الذى أراه للمرة الثانية.

جلست فى مقابل صلاح حافظ، عن يمينى فتحى غانم وعن يسارى إلهام سيف النصر وعلى رؤوسهم جميعا الطير. إبتسمت فى مودة وأنا أخرج مقالى من حقيبتى : «يا أستاذ فتحى أنا سعيدة جدا بفكرة الصفحة الحرة ... أتمنى أنشر فيها مقالى هذا...» ناولته الورق، وتابعته وهو يقرأ متجهما، وأنا أظن أن خلقته هكذا، حتى فاجأنى الدوى : «إيه ده؟ ... نس إز باد رايتنج، نس إز باد رايتنج...» -(كلمات إنجليزية بمعنى : هذه كتابة سيئة أو رديئة!) - نظرت مذهولة : «أفندم؟» . وجه مارد برأس كبير يواصل الصريخ : «دى هيستريا... أخرجى من ذاتك، الناس مالها ومال مشاكلك الشخصية ... فين هموم البلد... فين قضايا المجتمع ... فين .....». يا لهفى. هذا الرجل يضحك على من؟ ، قلت : «مشاكل شخصية؟ هل أنا أتكلم عن خناقة مع جوزى؟، هل أتكلم عن نصيب فى ميراث مسروق؟ أنا أتكلم عن صحفية ممنوعة من النشر من سنين عايزه تعرف ليه ، دى مش هموم فى البلد وقضية فى المجتمع؟!» ظل يصرخ: «كتابة وحشة ...» لم أجد مفراً من الزئير المقابل: «كنت بكتب كويس قبل كده؟!» قال: «أيوه»، أكملت : «طيب أنشرها تحت عنوان هيستريا وإكتب قول الست دى ليه كتابتها بقت زفت بعد ما كانت كويسة!» ولا أقول إننى انفجرت باكية، فالذى حدث أن نوة من الدمع المنهمر داهمتنى وأحرجتنى لأنه

لم يكن بوسعي قهرها. تدخل صلاح حافظ بكلمات تلطف العاصفة ، لكن كلماته نقلتني الى مواجهته: «لو قلتم أرجوك ما تحرجناش إحنا كدابين والعناوين بتاعت الحرية كده وكده، والله كنت إلتمست لكم العذر، لكن كمان عاوزين تلبسوني تهمة خيانة هموم البلد وقضايا المجتمع...؟»، فوجئت بإلهام سيف النصر - رحمه الله رحمة واسعة - يهب لنجدتي باكيا قائلا في حسم قوي : «بس يا فتحي انت وصلاح ... بلاش كلام فارغ بقى ... كفاية...» والتفت إلى بود: «ما تزعليش...»، باختصار وبصدق جارف ظل يردد بود «ما تزعليش...» حتى تركتهم. «**سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ...**» ظللت أرددها إلى ان هدأت نوّة البكاء في مكتب صديقتي زينب صادق، قبل أن أتمكن من الخروج الى الشارع والعودة الى بيتي . جمعت ما لدي من كتب فتحي غانم ووضعتها أمام باب الشقة ليحملها عامل النظافة مع ما يحمله في الصباح الباكر ويلقيه بعيدا.

★★★

لم أتابع أي أخبار أو كتابة لفتحي غانم منذ ذلك التاريخ حتى وفاته عندما ناولني صديق ثلاث روايات له هي: «حكاية تو» و«بنت من شبرا» و«ست الحسن والجمال» وكلها من إصدارات روايات الهلال . اكتشفت في «حكاية تو» مدى إستبشاع الذات الذي عاني منه فتحي غانم والذي كان السبب في تخليه عن هدوئه الشائع عنه في حادثة لقائي معه عام ١٩٧٤ : ص ٦٨ قرأت كأنه يصف نفسه : « ... كنت أقرب إلى الظن أنه نصاب كبير يؤدي دورا غير متقن في عملية إحتيال كبيرة، كان صوته قد ارتفع ... وتحول من الحديث الى الخطابة، وتحولت أنا المستمع الوحيد الى ما يشبه الجمع الغفير. وكان ينظر أمامه وفي عينيه إعجاب بنفسه، حتى خيل إلى أنه يتأمل ملامح وجهه في مرآة يتوهم وجودها أمامه. قلت لنفسي، ماذا وراءك يا زهدي ما الذي تحاول اخفاءه عني ، أو عن نفسك ...؟» ، ثم قرأت من ص٩١ : «ويجب أن أعترف أني أثرت كثيرا من الاسئلة الشجاعة ولكني لم أكتب حتى الآن إجابة شجاعة واحدة، سألت نفسي هل أنا عاجز عن مواجهة البطش والتعذيب والقتل ...؟»، ثم ص ١٠٩ : «... اذن ما الذي جلب هذه الخواطر السوداء الى رأسي؟ أيكون العجز الذي أشعر به عن قدرتي في مقاومة الظلم وأعمال القسوة والإرهاب ...؟ كنت في سريري أتقلب، ولا أثر لقرص الفاليوم الذي ابتلعته، وابتلعت قرصا ثانيا وثالثا ....» . هل كان فتحي غانم هنا يتوحد مع أبطاله أم يصف أحواله بصدق؟ . لا أبكي عليه أو منه . لا أبكي على الإطلاق!

★★★

بسم الله الرحمن الرحيم :«وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد.» صدق الله العظيم - ق/ ٢١، ٢٢ .

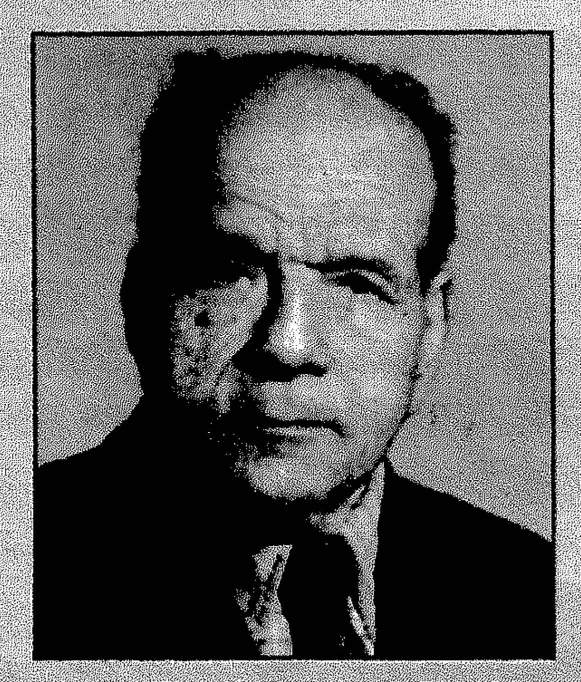
رحيل سيد كيلانى
صاحب ربوع الأزبكية

بقلم : أحمد حسين الطماوى

رحل عن دنيانا الأديب محمد سيد كيلانى، صاحب العديد من الكتب الجميلة الشيقة فى مجالات شتى، وعانى فى حياته الكثير، فعاش مظلوما ومات وحيداً ودفع ثمنا باهظا لدفاعه عن حرية الفكر، فدخل السجن قبل الثورة - عام ١٩٣٩ - على كتابه «الشريف الرضى» ودخل السجن بعدها على كتابه «الاشتراكية ونظام الحكم» - عام ١٩٦٥.

فى العاشر من شهر رمضان سنة ١٤١٩ هـ الموافق التاسع والعشرين من ديسمبر ١٩٩٨ توفي الكاتب الباحث محمد سيد كيلانى عن عمر يربو على ستة وثمانين عاما (١٩١٢ - ١٩٩٨)، بعد معاناة من أمراض الشيخوخة وضعف الإبصار، وحبس المنزل، والضيق من افتقاد الحرية، والآلام من حياة الوحدة والانفراد وبخاصة أثناء المرض، فقد عاش عزبا، وكانت تسليته الوحيدة القراءة والكتابة، فلما وهن جسده، وضعف بصره، شعر بالسأم، وداخلته الكآبة، واختلطت عليه الأمور، ولم يعد قادرا على التركيز فى أى موضوع.

ومحمد سيد كيلانى شاعر، وله دراسات أدبية ونقدية، ومؤرخ له كتب أرخت لفترات زمنية، ومحقق لكتب مهمة من التراث الأدبى والنحوى والدينى، وكتاباه «فى ربوع الأزبكية» و«ترام القاهرة» يدخلان فى باب الاجتماع كما يدخلان فى باب الأدب والتاريخ. وهو إلى جانب ذلك كاتب مقالة يجمع فيها بين الطرائف والفوائد. وقد نشرت مقالاته جرائد ومجلات ذائعة مثل «الرسالة»



محمد سيد كيلانى

و«آخر ساعة» و«الأخبار» و«الهلال».

....

وفى سنة ١٩٣٧ أصدر أول كتبه عن «الشريف الرضى - عصره - تاريخ حياته - شعره». وصدر الكتاب بصورته. والكتاب دراسة عادية لأدب الشريف، مع عدم مراعاة المؤلف لميول القراء وعواطفهم الدينية؛ فقد تأثر كيلاني، فى ذلك الوقت، ببعض الكتّاب المستخفين بالدين، ودس فى كتابه بعض العبارات الجامحة والكلمات المتطرفة، فقبض عليه وقدم للتحقيق بتهمة الطعن فى الدين، وتمت محاكمته وحكم عليه سنة ١٩٣٩ بالحبس سنة أمضاها فى سجن مصر(قراميدان) وكان من زملائه السجناء السياسيين آنذاك محمد شافعى البنا محرر جريدة المصرى، والصحفى عبد اللطيف صادق وغيرهما.

وكان فى الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ وقبيل الحكم عليه بالحبس، قد ألف كتابا آخر عن حسان بن ثابت ودفع به إلى المطبعة، ثم حكم عليه بالحبس فى قضية كتاب الشريف الرضى، ونترك جريدة المقطم فى ١٩٣٩/٤/١٣ تحدثنا عن كتاب حسان بن ثابت، قالت المقطم تحت عنوان «مصادرة كتاب يتضمن طعنا فى شخصيات كبيرة»: «يذكر القراء أن شاباً كان يشتغل موظفاً فى وزارة الأوقاف ألف منذ مدة كتابا بعنوان «الشريف الرضى» تضمن طعنا فى الدين الإسلامى فاعتقل وقدم إلى المحاكمة. وقد علمت أمس إدارة الأمن العام من مصدر سرى أن هذا الشخص ألف كتابا جديدا عنوانه «حسان ابن ثابت» فيه أمور توجب العقوبة فهوجمت المطبعة وصودرت الملازم المطبوعة، وبمراجعتها ظهر أنها تشمل عيبا فى الذات الملكية وأحد أصحاب السمو الأمراء وسبا وقذفا وإهانة لكثير من الوزراء الحاليين والسابقين وغيرهم وسعادة الشاذلى باشا محافظ العاصمة وغيرهم من العظماء.... وقد أحيل هذا الكتاب إلى النيابة للتحقيق».

وقد استدعي كيلانى من السجن للتحقيق معه، وحفظت القضية لعدم صدور الكتاب وتداوله، وأمضى العقوبة وخرج، وبالطبع فصل من عمله فى ديوان «الأوقاف» فاتجه إلى المدارس الخاصة. ثم عمل كاتبا فى الأعمال المدنية التابعة للجيش الإنجليزى فى حلوان وجنيفة وفايد، وكان يتقاضى راتبا كبيرا، ادخر منه قدراً، وعند نهاية الحرب العالمية الثانية استغنى الإنجليز عن خدماته، ورأى أن يكمل تعليمه فالتحق بجامعة

القاهرة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، وكان من زملائه فاروق خورشيد، وجمال الدين الرمادي، وآمال فهمي (المذيعة) وكان من أساتذته مصطفى السقا الذي عرّفه بلجنة النشر للجامعيين والتي نشرت له بدورها كتابه «أثر التشيع في الأدب العربي» ، ١٩٤٧.

وقد بين في كتابه «أثر التشيع..» ما نحله الشيعة من أقوال وخطب ورسائل إلى الإمام علي. وشك في نسب أكثر ما جاء في كتاب «نهج البلاغة» إلى الإمام وبين الأسباب في ذلك، كما أثبت نماذج من الشعر الذي ألحقه الشيعة بالإمام وبأعدائهم الأمويين... وأثار الكتاب قضايا عديدة الأمر الذي جعل النقاد يهتمون به، فانتقده كل من أنور المعداوي ومحمد خليفة التونسي في «الرسالة»، وقال الأخير: «المؤلف وكتابه حريان بأن نهش بهما ونبش لهما فقد ألف الأديب محمد سيد كيلاني كتابه على نحو مقبول، وأسلوبه فيه واضح سليم يدل على وضوح موضوعه في ذهنه ». والكتاب يبين إلى أي حد أعلى الشيعة من قدرهم بنصوص أدبية منحولة وقللوا من قيمة أعدائهم بنصوص أدبية زائفة.

وأثناء تلقيه العلم بالجامعة شح المال من يده، وخطرت له خاطرة، وهي إرسال رسالة إلى د. صبري السربوني مدير دار الكتب يطلب فيها توفير عمل له بالدار، وأحاطه بأمره علما. وجاءه رد السربوني بضرورة الحضور، وتمت المقابلة والتعيين في اليوم نفسه وكان ذلك عام ١٩٤٧. وقد أتاح له العمل في دار الكتب الاطلاع على المخطوطات والدوريات التي أفاد منها أكبر فائدة. فهو خريج دار الكتب. وكانت المخطوطات هي من أهم نفائس الدار التي أفاد منها. ففي عام ١٩٤٩ صدر كتابه «الحروب الصليبية وأثرها في الأدب في مصر والشام» وكان من أهم مصادره مخطوطات لم تحقق مثل «المنهج المسلوك في سياسة الملوك» لأبي الفضائل عبد الرحمن، و«مثير الغرام إلى سكنى القدس والشام» وغيرهما فقد جلب منها نصوصا وعلق عليها مما أثرى الموضوع ورفده بمادة مهمة.

ومن ثمرات اطلاعه على نوادر الدار ما كتبه في «الرسالة» في الفترة من ١٩٤٩-١٩٥٠ تحت عنوان «الشعر المصري في مائة عام ١٨٥٠- ١٩٥٠» عن الشعراء المصريين من أمثال علي الليثي وعلي أبي النصر ومحمود صفوت الساعاتي وغيرهم، وقد بين في هذه المقالات، التي لم تجمع، خصائص الشعر عند كل شاعر والمعاني التي طرقها، والأحوال السياسية والفكرية والاجتماعية في أزمنتهم، وهذه المقالات تكوّن في مجموعها صورة بانورامية للشعر المصري في قرن من الزمان إلا أنها لم تكتمل.

وفي دار الكتب أخذ كيلاني يقرأ في نهم الدوريات القديمة ويستخرج منها موضوعات مهمة لم يلتفت إليها الدارسون، ففي «الرسالة» نشر مقالا عنوانه «طه حسين الشاعر» وكان طه حسين قد أقلع عن نظم الشعر منذ أول الشباب. وعلى أثر ذلك جاءته رسالة من طه حسين نشرتها «الرسالة» في ١٥

يناير ١٩٥١ جاء فيها: «سيدى الكريم.. قرأت الآن فى القناطر الخيرية مقالك الممتع الذى نشرته الرسالة. فأشكر لك أجمل الشكر، أنك ذكّرتنى شيئا كنت أُنسيته حتى كنت أشعر أثناء قراءة هذا المقال انك تتحدث عن شخص غيرى. وعفا الله عما سلف. فقد كانت تلك المحاولات فى آخر الصبا وأول الشباب فجرا كاذبا لم يمح شكا ولم يجل يقينا. والحمد لله على الخير والشر والبراءة إليه من الكذب والغرور.. أما بعد فإنى أرجو أن تقبل تحيتى وشكرى مجدداً». وقد توسع كيلانى، فيما بعد، فى هذا الموضوع، وأصدر كتابا عام ١٩٦٣ عنوانه «طه حسين الشاعر الكاتب» أظهر فيه كتابات طه حسين الأولى التى غابت عن الأدباء.

ويحصل على الليسانس عام ١٩٥٠ ويستمر فى عمله بدار الكتب ، وفى سنة ١٩٥٣ ينال شهادة الماجستير بتحقيقه ديوان البوصيرى لأول مرة مع كتابة ترجمة له ودراسة لشعره، وقد رجع كثيرون لهذا العمل مثل عبد العليم القبانى. ويأتى عام ١٩٥٤ بشؤمه فقد تم فصله من دار الكتب فى حركة التطهير الثانية وتضمن قرار فصله عدم أحقيته فى تعويض أو معاش.

مع كتب التراث

وتتعرج السبل أمامه، ولكنها ما تلبث أن تستقيم بعض الشيء فقد حقق وشرح عدداً من الكتب التراثية لحساب الناشر مصطفى الحلبى مثل : «طيف الخيال» وأثبت أنه للشريف المرتضى وليس للشريف الرضى، ١٩٥٥، و«التفصيل فى شرح واعراب شواهد ابن عقيل» ١٩٥٨، و«مختارات من الشعر الجاهلى»، ١٩٥٩، وهى مختارات اختارها هو وجارى فيها الأعلم الشنتمرى. و«الافادة من حاشيتى الأمير وعبادة على شرح شذور الذهب لابن هشام» ، ١٩٦٠، و«المفردات فى غريب القرآن » للراغب الأصبهانى ١٩٦٠، و«إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان» ، ١٩٦١ ، لابن قيم الجوزية. و«شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك»، ١٩٦١. و«الملل والنحل»، ١٩٦١ للشهرستانى. و«ديوان ابن زيدون» ، ١٩٦٥. ووضع كتاب «عين اليقين فى سيرة سيد المرسلين» بناء على طلب من الحلبى وهو تبسيط لسيرة ابن هشام.

وقد يكون تحقيقه لكتاب « الملل والنحل » ضعيفا، إلا أنه أضاف إليه ذيلا فى نحو مائة صفحة من عنده، مما جعل الكتاب قويا، وقد أورد فى هذا الذيل الملل والنحل التى فات الشهرستانى تدوينها مثل البرهمية والبوذية والشنتوية... وما استجد بعد الشهرستانى من ملل مثل اليزيدية والبهائية، وتحدث عن التيارات الإلحادية الى اعتنقها بعض المسلمين المحدثين مثل كمال أتاتورك وهاجم اسماعيل مظهر ومجلته العصور. وهذا الملحق جعل تحقيق سيد كيلانى مميزا، ففى هذه الزيادة إفادة.

كان عقد الخمسينيات بالنسبة لكيلانى غزير الانتاج، بالرغم من الصعوبات التى واجهها، فإلى جانب ما ذكرنا أصدر كتاب «دروس فى تاريخ الإسلام» فى جزءين ١٩٥٦، و «فى ربوع الأزبكية» ١٩٥٨،

رحيل سيد الكيلاني



و«فصول ممتعة» ١٩٥٩، وفى الكتاب الأخير يتتبع المسار الدينى فى حيوات ونتاج بعض الكتاب، ويبين مدى تجاوبهم مع الدين، وتحولهم من الكفر إلى الإيمان، حسب تعبيره، ويأتى بالنصوص الدالة فى الحالتين، ومن هؤلاء طه حسين وعلى عبد الرازق وأمين الخولى ومنصور فهمى، ونرى ميوله فى جانب الدين. والكتاب ممتع حقا لأنه يتضمن نصوصا قديمة غابت عن الأذهان ويفاجىء بها القراء.

وكان من نتائج البحث الدؤوب فى الدوريات القديمة وتقليبها أن وضع ثلاثة كتب أرخ بها لفترة من تاريخ مصر تقع بين عامى ١٨٩٢ -١٩١٨، وهى «عباس حلمى الثانى» ١٩٩١ و«ترام القاهرة» ١٩٦٨ ويدخل ضمن عصر عباس الثانى، و«السلطان حسين كامل» ١٩٦٣. ومنهج سيد كيلانى فى هذه الكتب هو التأريخ لمصر من جميع الوجوه من خلال نصوص موثقة متتابعة مترابطة توضح أبعاد الموضوع، ولا يقتصر على ذكر الأحداث السياسية، وإنما يورد إلى جانبها الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وصدى ذلك فى الأدب النثرى والشعرى، والفن التمثيلى، مع إيضاح الغوامض وذكر الأسباب والنتائج ويستطيع القارىء أن يرى مصر بوضوح ويتعرف على أحوالها فى حوالى ربع قرن من خلال عرض كيلانى الجميل، على أن أكثر هذه الكتب طرافة، كتابه «ترام القاهرة» الذى رصد فيه التغيرات التى طرأت على المجتمع القاهرى زمن ظهور الترام، من عمران ورقى وتبذل وانحطاط وغير ذلك.

على أن كيلانى الباحث عن الموضوعات الجديدة يقدم عام ١٩٦٢ كتابا مفيدا عنوانه «الأدب القبطى قديما وحديثاً» يتحدث فيه قليلا عن الأدب القبطى القديم لندرة المصادر، ويسهب فى ذكر الأدب القبطى الحديث لوفرة مادته فى الدوريات القديمة، فيناقش أثر القومية الفرعونية فى أدب الأقباط، وأثر الحركة الوطنية فى أدبهم، ويترجم لعدد من شعرائهم، ويورد نصوصا أدبية لهم، وهو كتاب سد فراغا فى المكتبة العربية ولم ينهض أحد قبله بعمل مماثل.

صورة واضحة

وكان كيلانى قد قرأ كثيرا من مخطوطات دار الكتب المتعلقة بأدب العصر العثمانى، ونقل منها مادة وافرة فى عدة كشاكيل، وكان بين وقت وآخر يمعن النظر فيها ويدرسها، وفى سنة ١٩٦٥ يصدر كتابه «الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى» ومن المعروف أن الدارسين أصدروا حكما جائرا على أدب هذا العصر، ووصفوه بأدب الضعف والانحطاط، وأشاع بعض الدارسين أنه أدب المطرزات السخيفة والزركشة اللفظية مما جعل المعانى تافهة. ولاشك أن أدب

العصر العثمانى لا يخلو من هذه العيوب. وكتاب سيد كيلانى لا ينقض هذا الحكم، ولكن بعد قراءته يمكن تعديل هذا الحكم. ذلك أن الكتاب يقدم نصوصا كثيرة شعرية ونثرية خالية من المحسنات اللفظية، كما أن الأدب العثمانى يرسم صورة واضحة لانسان عصره فى هيئته الاجتماعية مما يترتب عليه عدم انفصال الأدباء عن بيئتهم وزمنهم، كذلك لم يكن الأدب العثمانى تقليدا للتراث السابق عليه وانما كان لأدبائه ابتكارات. وعيب كتاب كيلانى، أنه لم يقف طويلا أمام النصوص ولم يتأملها فى هدوء ويحاورها حواراً نقديا يكشف عن مضامينها ويبرز أوجه الجمال فيها.

★★★

رأيت محمد سيد كيلانى لأول مرة وأنا فوق الحادية والعشرين عم ١٩٦٥ بقاعة الدوريات بالقلعة. بادرنى بالسؤال فى لهجة حادة مخيفة : فى أى موضوع تبحث؟ فقلت : فى عبد الرحمن شكرى، أعد كتابا عنه. قال : هجاه طه حسين بقصيدة أوردتها فى كتابى طه حسين الشاعر الكاتب. هل قرأته؟ فقلت :لا. قال: إحضر إلى وأعطيك نسخة.

ودامت اللقاءات بيننا إلى قبيل وفاته. وفى ذلك العام ١٩٦٥، كان يعد كتابا خطيرا دعاه «الاشتراكية ونظام الحكم» وهو انتقاد شديد لاشتراكية جمال عبد الناصر ونظام حكمه. وحاولت أن أثنيه عن طبع الكتاب، ولكنه رفض وقال: يجب ألا نكون جميعا جبناء وفى عام ١٩٦٦ دفع بالكتاب إلى المطبعة، وطبع الكتاب عدا الغلاف، وتمت مصادرته، وقبض عليه فى أواخر سبتمبر ١٩٦٦، وبعد أربعة أيام من القبض عليه انتهى به المطاف إلى معتقل طرة حيث أمضى أربعة عشر شهرا، وهناك التقى مع آلاف من المعتقلين السياسيين كان من بينهم محمود شاكر وعلى شلش ود. عبد المنعم خفاجى والشاعر كامل أمين ... وكانت تدور بينهم مناقشات أدبية ومطارحات شعرية ألقى فيها صاحبنا عديدا من القصائد. وفى أواخر عام ١٩٦٧ أفرج عنه وعاد إلى بيته وتجددت اللقاءات بيننا، واستأنف هو عمله فى مهنة التدريس.

وفى عام ١٩٧٤ أخذ يتردد على بيتى بانتظام كل يوم خميس ... وتشكل ما يشبه الندوة الأدبية، وكان كيلانى هو قطب الندوة، وقد أفدنا من علمه ومعارفه المتنوعة، وكان يقرأ علينا بعض أشعاره من كشكول كبير ضم باقة كبيرة من قصائده الغزلية والفكاهية والاجتماعية والوطنية، وظل مواظبا على عقد هذه الندوة حتى عام ١٩٩٤. وانقطع نتيجة ضعف البصر، وكانت هذه الندوة بمنزلة فرصة سانحة ليتعرف عليه بعض شباب الأدب.

وفى هذه الأثناء جمع من جريدة «كوكب الشرق» التى كان يصدرها حافظ عوض نحوا من تسعين مقالة لطه حسين وقدم لها وعلق على بعضها، وقدمها لصلاح البستانى صاحب مكتبة العرب فنشرها فى كتابين هما «حديث المساء» و«غرابيل». ومقالات طه حسين هذه سياسية الطابع حزبية الاتجاه، وتعلق على أحداث وقعت فى ثلاثينيات القرن

العشرين، ولم تعد لهذه الأحداث صلة بوقت جمعها فى كتاب عام ١٩٨٣. لذلك لم يحفل المجتمع الأدبى بصدور هذين الكتابين كثيرا. وواصل جمع مقالات طه حسين ونشرت له دار الفرجانى كتابين مجموعين هما «شارع قوله» و«تجديد» ١٩٨٤، وجميع هذه المقالات فى الكتب الأربعة لم تشر إليها ببليوجرافيا طه حسين التى أعدتها الجامعة الأمريكية تحت إشراف د. حمدى السكوت ود.جونز، وقد ظن د. محمد حسن الزيات وزير الخارجية الأسبق وصهر طه حسين أن «كيلانى» كسب آلاف الجنيهات من وراء هذه الكتب، فرفع ضده قضية وطالبه بمائة ألف جنيه على سبيل التعويض. ودون إطالة انتهت إلى لا شىء.

وتواصل عمل كيلانى مع دار الفرجانى، فصدر كتاب «الغزو الإيطالى لليبيا» ١٩٩٦ ويتضمن المقالات التى كتبت فى الصحف المصرية ما بين ١٩١١ - ١٩١٧ عن الغزو الإيطالى لليبيا. وكتاب «الشريف الرضى» وهو دراسة جديدة وجادة، ولا صلة لها بالكتاب القديم الذى تحدثنا عنه وعندما أعاد الفرجانى طبع آثار جبران خليل جبران العربية مثل الأجنحة المتكسرة، والبدائع والطرائف وغيرهما، أسند إلى كيلانى كتابة مقدمات لها، وقد جاءت هذه المقدمات بدون توقيع، وهى لمحمد سيد كيلانى، وهذه شهادة للتاريخ، وليس هذا فحسب، فقد تنازل كيلانى للفرجانى عن جميع حقوق طبع كتبه مقابل قدر من المال.

وفى سنة ١٩٨٥ أجرت معه مجلة الهلال حديثا صحفيا، وكان هذا توطئة إلى كتابة عشرات المقالات الطريفة فى الأدب والتاريخ والاجتماع فى مجلة الهلال، وحدث أن كتب مقالا عنوانه «العقاد بين الكفر والإيمان» وانهالت عليه الردود من كل حدب وصوب واستمرت هذه الحملة عدة شهور.

★★★

وكان محمد سيد كيلانى حاد المزاج، خشن الطبع، جاف الحديث، قليل الألفة مع الناس، ميالا إلى العزلة والاحتجاز، وهو إلى جانب ذلك شريف النفس، سليم السريرة، مستقيم الخلق.

وهو ليس من المتشائمين ولا حتى المتفائلين ولكنه مع سليقته يفعل ما تمليه عليه سجيته، وهو ليس من عشاق الحياة، فلا يحدثك عن موسيقى أطربته، ولا عن لوحة فنية أعجبته، ولا عن منظر بديع أوحى له بشىء، ولا عن فتاة جميلة لقيها فى شبابه وتمنى أن تكون قرينة له. وإنما الموسيقى هى موسيقى الشعر، والمناظر التى استهوته هى المناظر التى صورها الكتّاب، والمرأة هى التى وجدها فى دواوين الغزل. وقد كوّن ثروة لا بأس بها بعد السبعين، ولكنه لم يستمتع بها أبدا. فـ ﴿**ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾.

وكان حسب طبيعته بعيدا كل البعد عن شتى ألوان التسلية والترفيه، فلا جرم أن ساعد ذلك على فتور مشاعره نحو الحياة، بل إنه أنكر الحياة وأنكرته، وعاش فريدا وعانى فى سنيه الأخيرة من الوحدة؛ فلا زوج ولا صديق ولا مريد إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

كتاب الهلال

يقدم

اليهود في الأدب الإنجليزي

بقلم:
د. رمسيس عوض

يصدر

٥ مارس - ١٩٩٩

روايات الهلال

تقدم

أربع وعشرون ساعة فقط

بقلم:
يوسف القعيد

تصدر

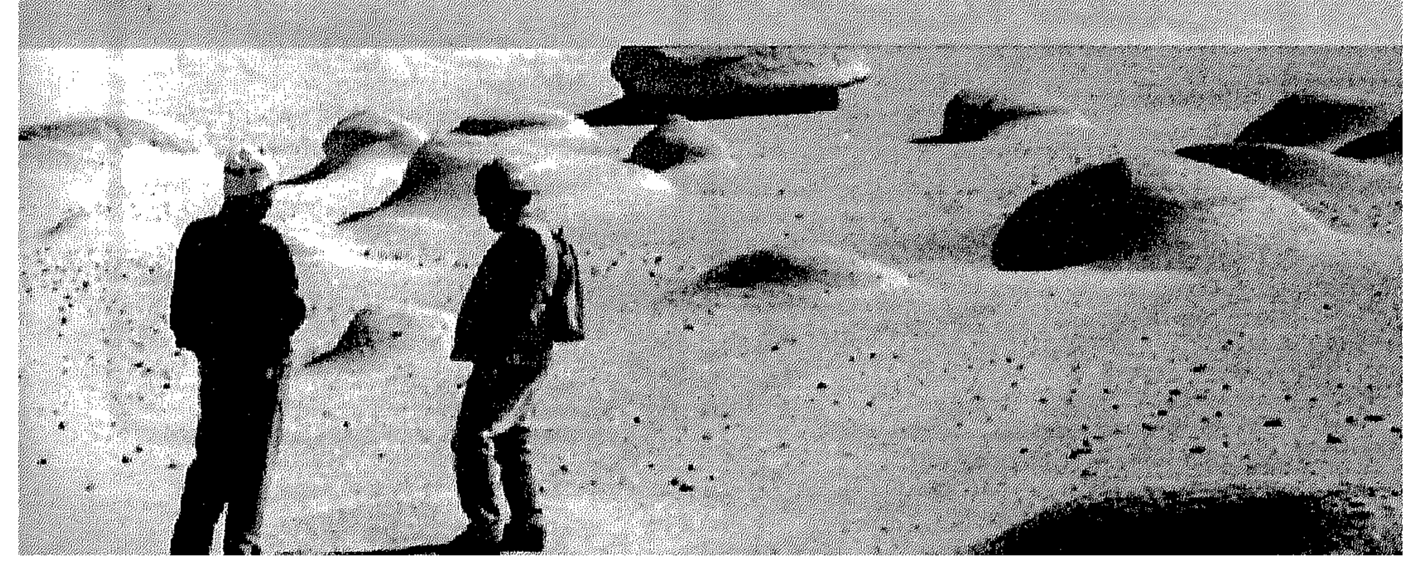
١٥ مارس - ١٩٩٩

حول سرقة وتهريب حفريات الحيتان القديمة بمنطقة الفيوم :

اختطاف الجغرافيا .....

بقلم : د. رشدى سعيد
عدسة: شوقى مصطفى

❝ كنت على وشك الانتهاء من كتابة مقال أرجع فيه السبب وراء إهمال مصر وبلاد الشرق عامة لتاريخها وقلة المشتغلين من أبنائها بعلم الآثار والكتابة فيه إلى عملية الاختطاف التى قامت بها القوى الكبرى لهذا التاريخ بعد استيلائها على هذه البلاد فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهو التاريخ الذى أعادت هذه القوى اكتشافه ورأت انتزاعه منها ونسبته إلى نفسها ، فلم يكن من المقبول أن يكون للسكان المحدثين لهذه البلاد أية صلة بهذا التاريخ العظيم أو بهذه الحضارات المجيدة - وقد دفعنى البحث فى سبب هذا الإهمال ما لفت نظرى عندما كنت أعد بحثا عن أثر تطور التقنية على ظهور وسقوط الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشرق الأدنى من أن كل مراجع البحث ودون استثناء واحد كتبها أوروبيون أو أمريكيون، وليس بينها واحد كتبه مواطن من هذه البلاد ❞

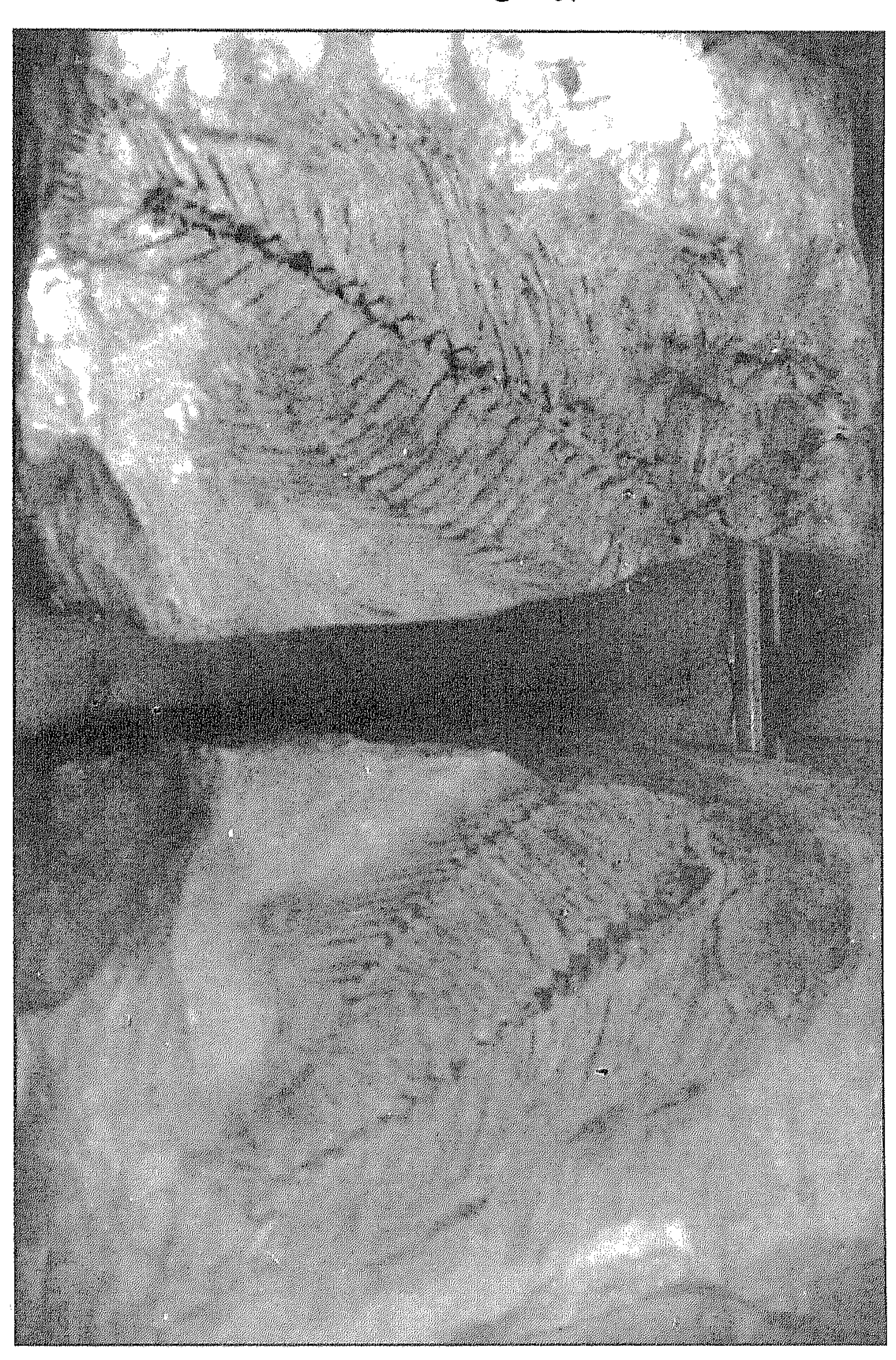


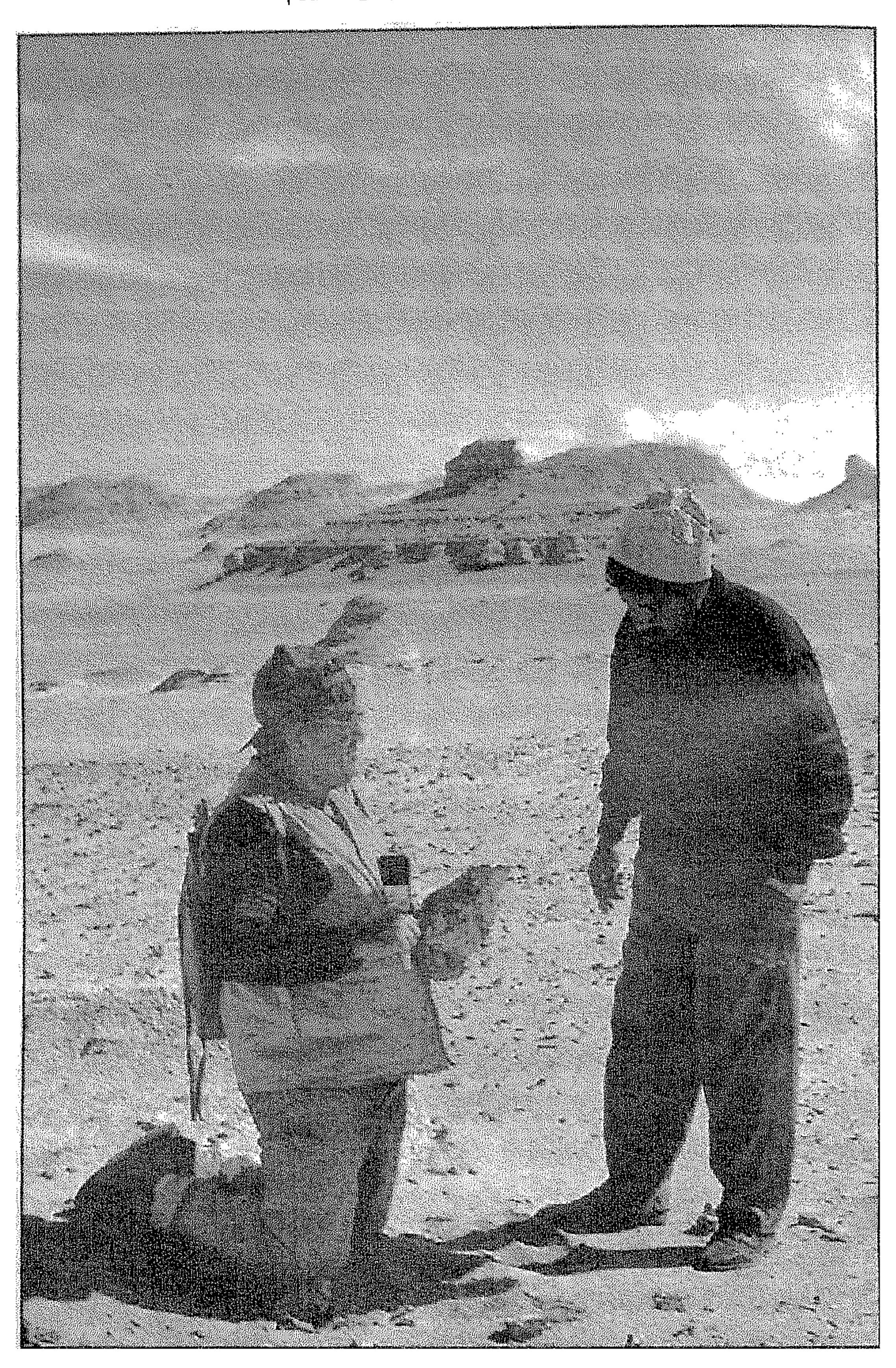
بعد اختطاف تاريخ مصر !

وما كدت أن اقترب من الانتهاء من هذا البحث حتى أرسلت لى مجلة الهلال نص خبر نشرته مجلة روز اليوسف القاهرية بعددها الصادر فى ٩٨/١٢/٢٨ عن سرقة وتهريب الحفريات من بقايا الحيتان القديمة التى يعود عمرها إلى عشرات الملايين من السنين، والتى حفظت فى صخور الصحراء الواقعة إلى الغرب من منطقة الفيوم إلى الخارج، لكى أعلق عليه وأبين لقراء «الهلال» ماهية هذه الحفريات - والحق فليست هذه أول مرة أعرض فيها للتبديد الذى يجرى للحفريات والآثار الموجودة بالصحراء، فمن خبر الصحراء وعرفها عندما كانت بكرا وبلا طرق مرصوفة، وقبل أن تخترقها السيارات القادرة أو غيرها من وسائل النقل أو الإتصال الحديثة يعرف كم راح منها من آثار ومن حفريات وكم فسد منها من أماكن فريدة فى مناظرها وكم تبدد منها من ثروات معدنية أو حيوية .. وتتشابه هذه الوقائع والخبر الذى نشرته مجلة روز اليوسف ولحد كبير بالوقائع التى قدمت لاختطاف تاريخ مصر فنحن الآن بصدد عملية مماثلة تعاد فيها عملية اختطاف جغرافية مصر - وفى هذه العملية تقوم قوة أكبر بالاستيلاء خلسة على صحارى مصر، وقصر الدراسة الجادة لها عليها ونهب علاماتها وآثارها، وتحويل بعض أماكنها المتميزة إلى قرى سياحية لكى تكون ملاعب لأهلها .



سمكة متحجرة فوق الرمال من عصر الأيوسين





ومن مآسى الزمان أن يجيئ هذا الاختطاف بعد أن قام المصريون خلال نهضتهم القومية الكبرى أن يحرروا تاريخهم وجغرافيتهم إلى حد كبير - صحيح أن تحرير التاريخ لم يستكمل أبدا إلا أن تحرير الجغرافيا، كاد أن يستكمل فقد كان لمصر عند منتصف الستينات مدرسة كبيرة لها مراجع علمية كتبها مصريون كان فيها القول الفصل والتى لم يكن لأى دارس لصحارى مصر غنى عنها.

حفريات الفيوم

تعتبر منطقة الفيوم من أهم مناطق العالم فى دراسات علم الحياة القديمة وهو العلم الذى يبحث فى بقايا الحيوانات والنباتات التى عاشت فى غابر العصور الچيولوچية السحيقة والتى حفظت كحفريات بين فتات الصخور التى تكونت خلال تلك العصور، وفى ظروف ملائمة سمحت بالحفاظ عليها دون أن تتحلل إلى عناصرها الأولية وتعود إلى تراب كما هى القاعدة العامة لما يحدث لكل حى بعد مماته . والحفريات لذلك نادرة وهى أندر ما تكون للحيوانات والنباتات البرية فهذه تسقط على الأرض بعد وفاتها وتتعرض للهواء وتتلف فى أيام وتتحلل إلى عناصرها الأولية دون أن تترك وراءها شيئا بعكس الأحياء التى تعيش فى البحار ففرصة الحفاظ على جزء ولو صغر منها أكثر بكثير من فرصة الأحياء التى تعيش على الأرض فأمام بعضها فرصة أن تردم تحت وابل الرواسب التى تحملها الأنهار إلى البحار فتحجزها عن الاكسيچين وعوامل الفناء الأخرى - وتعود أهمية منطقة الفيوم إلى أنها واحدة من مناطق العالم القليلة التى حفظت فى صخورها القديمة أعدادا كبيرة من الأحياء البرية، التى أدت دراستها إلى فهم أفضل لنشأة وتطور الحياة فى القارة الافريقية وعلى الأخص ثديياتها ورئيسياتها .

ويعود قصب السبق للكشف عن هذه الحفريات بل ولدراسة صحارى مصر إلى الأجانب - وكان شواينفورت العالم الألمانى الذى عاش بمدينة حلوان بمصر منذ سبعينات القرن التاسع عشر وحتى مطلع الحرب العالمية الأولى أول من سجل وجود بقايا عظام وأسنان سمك القرش وبعض الحيتان فى الرواسب البحرية القديمة بجزيرة القرن ببحيرة قارون فى سنة ١٨٧٧ وفى جرف جبل قصر الصاغة إلى الشمال من البحيرة فى نفس العام .. وقد أرسل شواينفورت هذه البقايا إلى العلامة الألمانى داميز للدراسة - وفى سنة ١٨٩٨، وبعد أقل من عامين من إنشاء هيئة المساحة الچيولوچية المصرية ارسلت الهيئة بعثة إلى الفيوم لدراستها بقيادة الچيولوچى البريطانى بيدنل الذى رفع أول خريطة للمنطقة الجبلية التى تحت شمال بحيرة قارون، والتى جمع منها عددا كبيرا

بعد اختطاف تاريخ مصر

من الحفريات الفقارية التى أرسلها للدراسة للعالم الانجليزى آندروز الذى وصل إلى مصر للمشاركة فى بعثة المساحة الچيولوچية المصرية - وكان من نتيجة هذا التعاون اكتشاف عدد كبير من بقايا الثدييات الكبيرة وعلى الأخص من فصيلة الأفيال التى ركبت هياكلها فى كل من متحف التاريخ الطبيعى بلندن والمتحف الچيولوچى بمصر والذى كان قد انتهى بناؤه بميدان التحرير بالقاهرة فى سنة ١٩٠٢، وصمم خصيصا بقاعة ذات سقف عال لاستقبال هياكل الأفيال العظيمة التى وصل ارتفاع بعضها لأكثر من مترين وثلاثة ارباع المتر- وقد هدم هذا المبنى فى أوائل الثمانينات لوقوعه فى مسار مترو الانفاق الذى كان يجرى بناؤه فى ذلك الوقت على الرغم من عديد المذكرات التى قدمت للمسئولين عن المسارات البديلة. التى كان من الممكن لخط مترو الانفاق اختراقها للحفاظ على المبنى - وبهدم مبنى المتحف الچيولوچى القديم لم يعد هناك مكان يمكن رؤية هذه الأفيال الهائلة فيه إلا فى لندن ونيويورك .

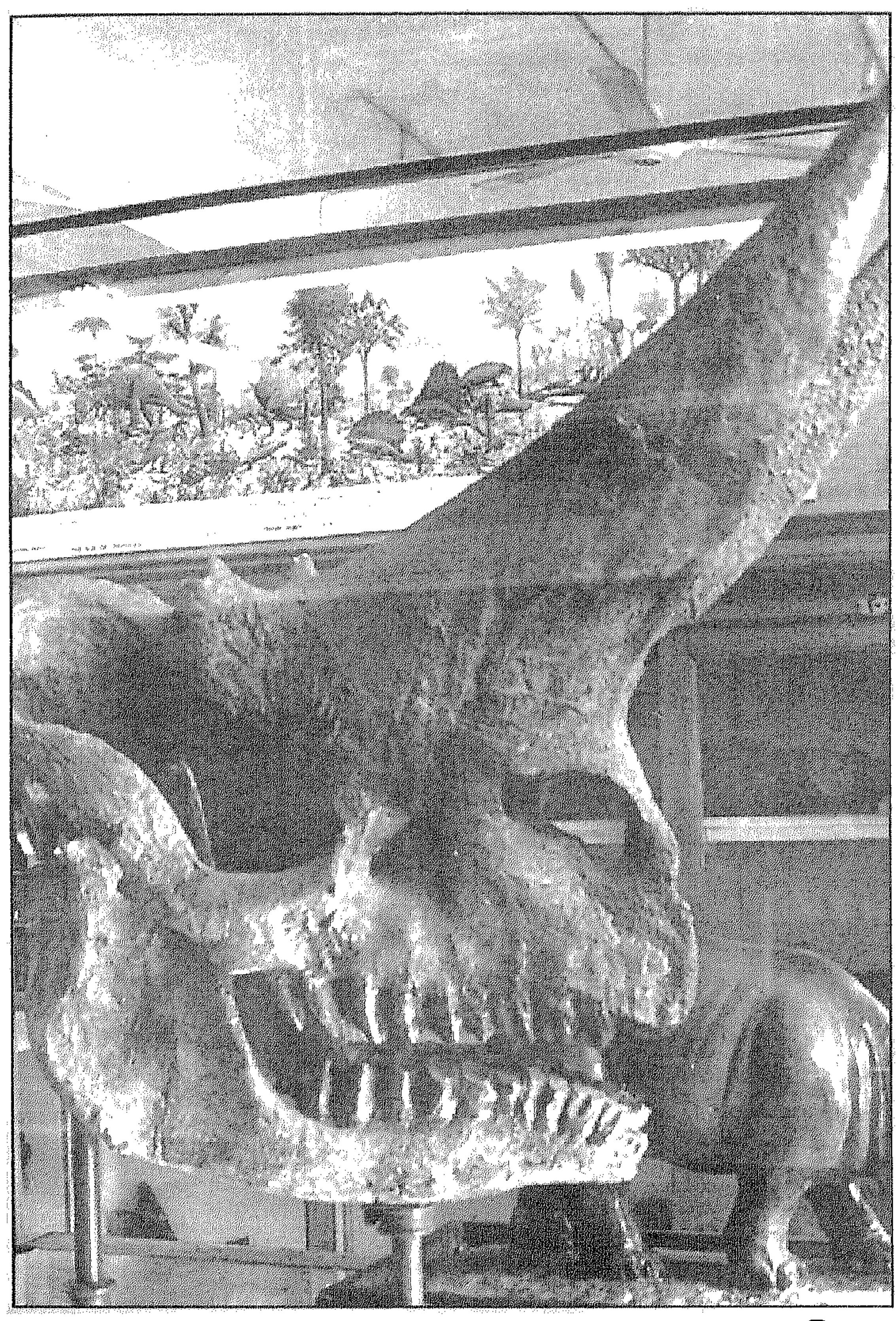
وبعد انتهاء أعمال هيئة المساحة الچيولوچية بالمنطقة فى سنة ١٩٠٥ قام ماكجراف الألمانى والذى سكن الفيوم حتى سنة ١٩٠٩ بجمع العديد من الحفريات القديمة من صخور المنطقة وبيعها لمختلف المتاحف بألمانيا وعلى الأخص لمتحف التاريخ الطبيعى بمدينة ميونيخ الذى هدم خلال الحرب العالمية الثانية . وفى سنة ١٩٠٧ أوفد المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بعثة بقيادة العالم الأمريكى الشهير أوزبورن لجمع ودراسة أفيال منطقة الفيوم القديمة نقلت فى أثرها حفريات كثيرة منها إلى نيويورك - وأوفدت جامعة ييل بعثة لدراسة المنطقة بين سنة ١٩٦١ - ١٩٦٧ وجامعة ديوك بالولايات المتحدة بين سنة ١٩٧٤ و١٩٨٦ - واهتمت البعثتان الأخيرتان ببقايا الفقاريات الصغيرة وعلى الأخص ما انتمى منها إلى الثدييات العليا والرئيسيات والقردة .

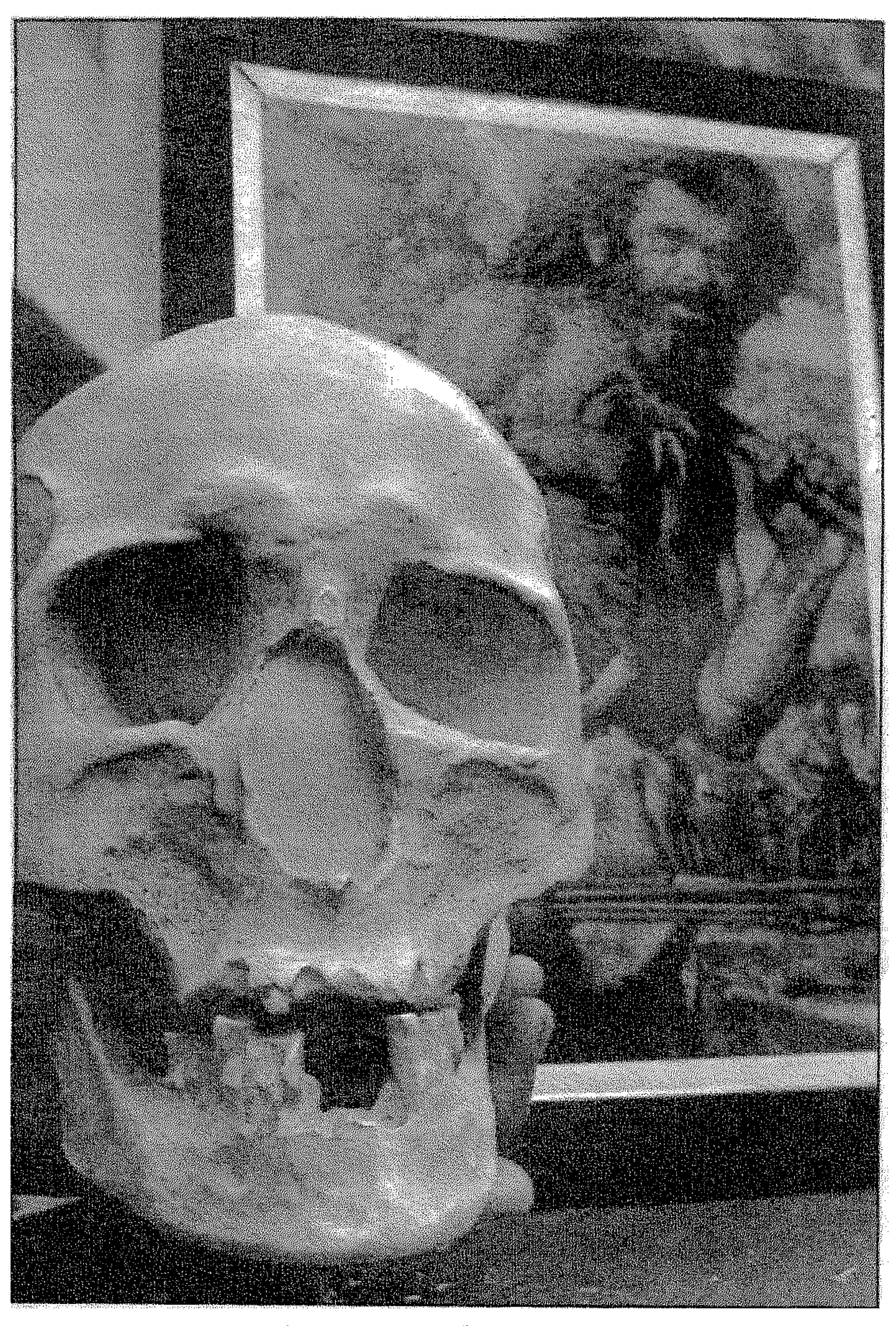
وكانت جميع البعثات الأخيرة تحت اشراف هيئة المساحة الچيولوچية المصرية ولا يعرف أن أية حفريات قد خرجت من مصر بواسطتها - ولم يبرز من المصريين فى دراسة الحفريات الفقارية القديمة الكثيرون فقد فقدت مصر أحد أخصائييها النابهين هو المرحوم الدكتور يوسف شوقى مصطفى الاستاذ السابق بجامعة القاهرة الذى ظل مهتما بهذه الدراسات خلال الخمسينات ثم حول نشاطه مبكرا وبعد سنوات قليلة من عودته من البعثة فى سنة ١٩٥١ من ميدان العلوم إلى ميدان الموسيقى والغناء .

تاريخ منطقة الفيوم

ولصخور منطقة الفيوم الحاملة للحفريات تاريخ طويل يمتد لعشرين مليون سنة (بين ٥٢ و٣٢ مليون سنة مضت) ترسب الجزء القديم منها فى النصف

جمجمة فيل قديم «المتحف الچيولوچى المصرى»





الانسان الاول فى الفيوم اقدم من انسان توشكى

الأول من هذا التاريخ فوق قاع بحر مالح قليل الغور لم تكن تطوله أو تصب فيه أنهار كثيرة، ويعج بالحيوانات البحرية اللافقارية كالرخويات والقواقع والمفصليات وغيرها، والتى كانت بقايا أصدافها وهياكلها تتساقط على قاع البحر بعد مماتها فى كثرة كبيرة كونت طبقات سميكة منها - وفى هذا البحر الذى غطى معظم سطح مصر عاشت أسماك كثيرة لم يبق من آثارها غير بعض عظامها وطبعات لها حفظت فى صخور نفس العصر بمنطقة طرة (شمال حلوان) والتي عثر عليها بمحض الصدفة فى سنة ١٩٤٠ عندما كانت شركة اسمنت طرة تفتح محجرا فى صخور ذلك البحر القديم فوجدت فى إحدى واجهاته بقايا وطبعات اسماك كثيرة أبلغت عنها المساحة الچيولوچية التى أرسلت مندوبيها لاستخراج هذه المجموعة الفريدة من اسماك ذلك العصر السحيق لعرضها بالمتحف الچيولوچى والذى نقل بعد هدمه فى سنة ١٩٧٩ إلى حى مصر القديمة .

كما عاش فى نفس البحر نوع قديم من الحيتان يبدو أن عددا كبيرا منها حجز فى أحد أحواض هذا البحر التى انفصلت عنه والتى تجمع فيها حتى نفق وردمت هياكلها العظمية فيه تحت الرواسب - وظلت هذه الهياكل مردومة وغير ظاهرة لمدة طويلة بعد انحسار البحر الكبير عنها وارتفاعها أرضا عالية سقطت عليها الأمطار التى شقت فيها مجرى عرى طبقاتها وأظهر ما دفن فيها من هياكل الحيتان القديمة - وقد أطلق على هذا المجرى اسم وادى زوجلودون (وهو الاسم اللاتينى لنوع الحوت القديم الذى يظهر به) - ويقع هذا الوادى إلى الشمال من منخفض الريان وإلى الغرب من منخفض الفيوم عند جبل جهنم - ولعل هذا الموقع هو الذى قصده الاستاذ رؤوف سمير زكى المهاجر المصرى الذى وصف رحلته إلي المنطقة فى مجلة روز اليوسف التى سبقت الاشارة إليها .

وانحسر البحر الكبير الذى كان يغطى كامل سطح مصر منذ حوالى ٤٣ مليون سنة مضت، وأصبح شاطئ البحر قريبا من منطقة الفيوم والتى لم تكن فى ذلك الوقت منخفضا كما هو حالها اليوم بل كانت خليجا بحريا انقلب بعد ذلك، وبعد سبعة ملايين من السنوات إلى دلتا كبيرة لنهر عظيم كان يصب فيها - وقد تركت كلتا البيئتين رواسب سميكة تظهر واضحة فى الجبل الذى يحف بحيرة قارون من الشمال - وتوجد بقايا الاسماك البحرية والحيتان واللافقاريات فى الجزء القديم من هذه الرواسب، أما الجزء الحديث منها والذى تكون فى دلتا النهر القديم الذى كان يصب فيها فيحتوى على الكثير من أنواع الحفريات وبقايا النباتات والأشجار المتحجرة التى جرفها النهر إليها - ومن الحفريات الفقارية التى وجدت فى هذه الرواسب الاسماك والزواحف كالثعابين والسلاحف البرية والنهرية (والتى توجد

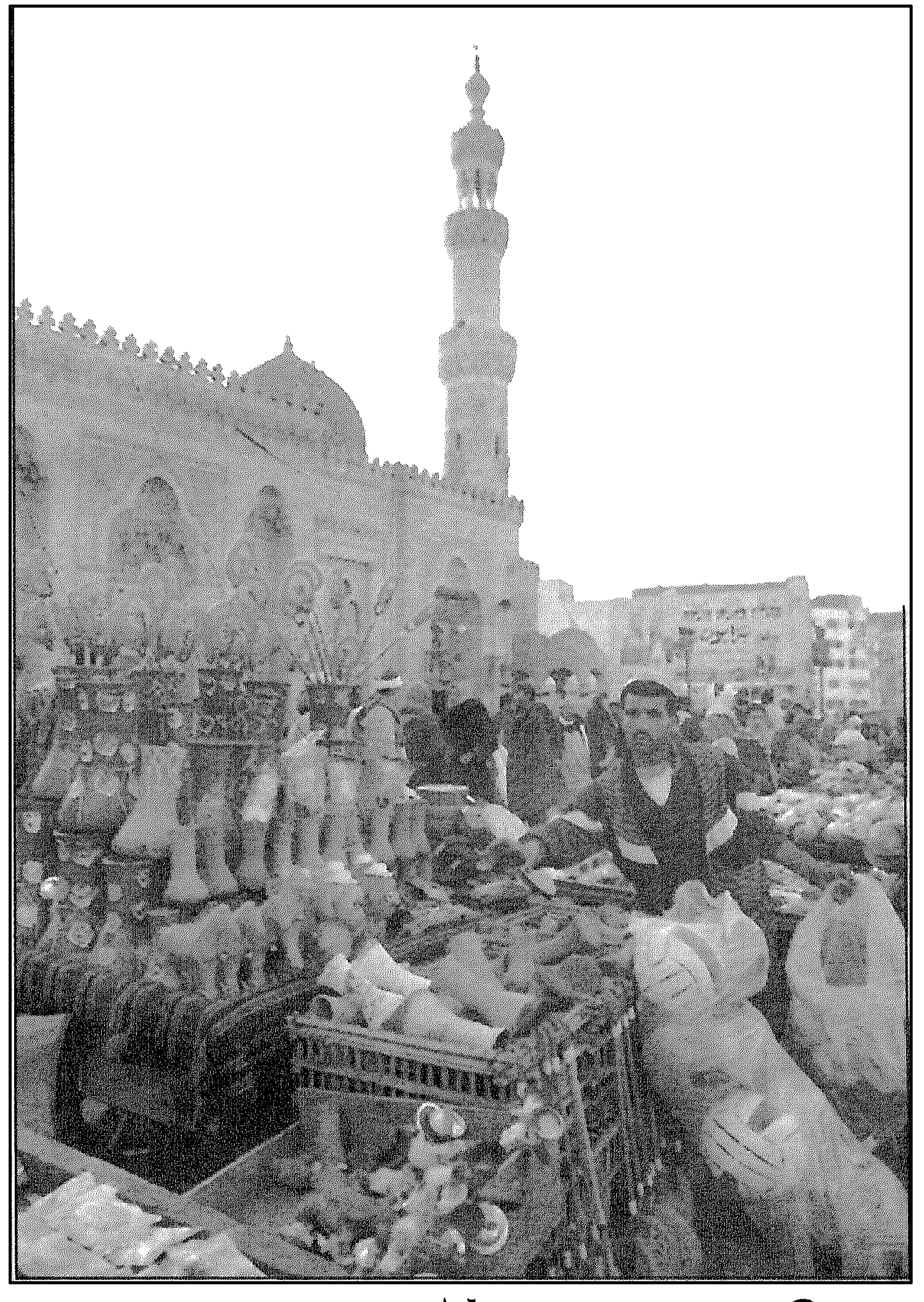
بعض أنواعها اليوم فى جزيرة سومطرة) والتماسيح والطيور والتى تحتوى على أكمل وأقدم أنواع الطيور التى كشف عنها التاريخ فى أفريقيا، وكانت معظمها من الطيور المائية أو من آكلة الاسماك والتى لازال الكثير منها يعيش اليوم فيها .

أما الثدييات التى وجدت بالمنطقة فقد كانت إفريقية الموطن فى غالبها مع بعض العناصر المهاجرة من آسيا وقد اندثرت بكاملها ولم يبق منها شئ - ومن أهم الثدييات آكلة النبات الوبريات والافيال والتى كانت ذات أحجام هائلة، وهى أقدم أنواع الفيلة والتى تفرعت منها الفيلة الأفريقية والاسيوية والأمريكية - وتتميز أفيال الفيوم القديمة برقابها الطويلة وجماجمها الممتدة والواطئة وبنابيها الكبيرين الذى كان يخرج واحد منهما من الفك العلوى والآخر من الفك السفلى .. ومن الحيوانات آكلة اللحوم انتشرت الضباع والقوارض على أشكالها .

وتعتبر بقايا الرئيسيات أهم ما حفظ فى دلتا الفيوم القديمة فقد احتوت على أقدم القردة الإنسانية والتى تتابعت حفرياتها فى هذه المنطقة لتعطى سلسلة تكاد أن تكون كاملة لشجرة التطور التى انتهت بظهور القردة العليا فالانسان .

وقد اختفت دلتا الفيوم بعد أن تعرضت لأحداث كبار وزلازل عظمى بدأت منذ حوالى ٣٤ مليون سنة، وظلت لسنوات طوال شق فى أثرها البحر الأحمر وارتفعت فيها جبال الصحراء الشرقية بمصر وتأثرت منطقة الفيوم بفوالق كثيرة تفجرت على طولها البراكين التى غطت حممها سطحها فحمت بذلك رواسب دلتاها القديمة من عوامل التعرية - كما خرجت من الفوالق ينابيع المياه التى ظلت تتدفق على المنطقة لمدة طويلة فأذابت صخورها الجيرية وتركتها رمالا ذرتها الرياح فيما بعد فتكون بذلك منخفض الفيوم كما نراه اليوم .

وهذا التاريخ الطويل محفوظ في جرف قصر الصاغة وفى جبل القطرانى اللذين يطلان على الناحية الشمالية لبحيرة قارون بشمال الفيوم واللذين تتعدد فيهما ألوان الصخور وتتباين فيهما الاشكال التى اتخذتها الآكام والتلال والوديان وتنتشر فيها الطبقات الحاملة للعظام القديمة أو لبقايا النباتات التى تفحمت واللذين يتغطيان بطبقة من البازلت البركانى الداكن اللون - وبالاضافة إلى هذه المناظر الساحرة فإن للمنطقة قيمة علمية فريدة تجعلنا نقترح على المسئولين ووزارة البيئة بحجزها كمحمية طبيعية - فهى أحد الأماكن الفريدة والقريبة من مراكز العمران الكبرى بمصر لتكون حقلا لدراسات جامعاتنا ومزارا لطلاب المدارس والجامعات يتعرفون فيه على بعض ما لبلادهم من ثروات . ولو فعلنا ذلك نكون قد قمنا بما يمكن أن يكون بداية لعملية تحرير واسترداد جغرافية بلادنا والتى نراها تروح اليوم منا وأمام أعيننا !.





بقلم : د. سيزا قاسم

صدر مؤخراً كتاب باللغة الانجليزية عن السيدة زينب النقاء والسلطة دراسة فى الشعائر الدينية فى المجتمعات الاسلامية للباحثة نادية أبو زهرة .

من المقولات الشائعة التى تتكرر فى الحياة الثقافية أن كتابات المتخصصين لا يقرأها سواهم. وأن المجالات العلمية المختلفة تمثل حلقات مغلقة على نفسها. وقليلة هى الكتب التى تخاطب المتخصصين، وتستطيع مع ذلك أن تمد يدها عبر السياجات التى تحيط بالحقول المختلفة لتكون فى متناول المثقف من خارج التخصص. والدراسات الإثنوغرافية التى تقدمها الدكتورة نادية أبو زهرة فى كتابها الذى يتناول مجموعة من الطقوس التى تمارس فى بعض البلاد الإسلامية هى من أفضل الكتب التي تخاطب المتخصص عموماً وتجادل دراسات مناظرة أجراها متخصصون من الغرب، وترد على بعض ما انتهوا إليه؛ وقريبة التناول للقارىء المتطلع للمعرفة. لهذا الكتاب قيمة علمية كبيرة، إذ يلتزم منهجا صارما فى تناول الظواهر الإثنوغرافية؛ ومن الناحية الإنسانية نجد فيه فهما عميقا للخلفية الثقافية للمجتمعات التى تمارس هذه الطقوس. وتضافر هاتين القيمتين، العلمية والإنسانية، فى العلوم الاجتماعية، يجعل العمل يشع حيوية ويضىء الظواهر المدروسة ليكشف مغزاها ودلالاتها.

يتألف الكتاب (ثلاثمائة وعشرون صفحة) من ثلاثة أبواب، يتناول الأول طقوس صلاة الاستسقاء والطقوس الجنائزية فى تونس ومصر، (خمس وثمانون صفحة)، أما الباب الثانى، الأهم والأطول ، فهو دراسة عن السيدة زينب رئيسة أولياء الله من النساء (مائة وست وأربعون صفحة)، وفى النهاية يطرح الباب الثالث دراسة مقارنة لأداء بعض الطقوس الاسلامية (رمضان فى القاهرة) والعلمانية («شم النسيم» ، عيد الربيع فى مصر).

تتضافر لدى نادية أبو زهرة - المصرية المقيمة فى أكسفورد - خيوط الثقافة العربية الإسلامية التى نشأت فى ظلها، وتنتمى إليها انتماء الفهم العقلى والعمق العاطفى، وخيوط الثقافة الغربية بما تنطوى عليه من شحذ أدوات البحث

العلمى والدقة فى التعامل مع المفاهيم وطرح الفروض العلمية . والباحثون أمثال نادية أبو زهرة هم الجسور التى تعبر من خلالها الثقافات . ولاشك أن لمثل هذه الجسور صفات ومميزات خاصة ، حيث أن الباحث العربى المسلم الذى يدرس تراثه فى إطار ثقافة مغايرة - الثقافة الغربية فى هذه الحالة - يستطيع أن يقدمه من داخله . فمصباحه لا يسلط ضوءه من الخارج ولكنه ينير اللحمة العميقة لهذه الثقافة . هذا المسار ليس يسيرا : فلابد للباحث أن يحتفظ بقدر كبير من الموضوعية سواء فى ارتباطه بثقافته وتراثه الذى ينتمى إليهما ، أو فى علاقته بثقافة الآخر الذى ينهل منها ويرتكز على مسلماتها العلمية . وتنطلق نادية أبو زهرة من هذين المدخلين. فتحاول تصحيح بعض الفرضيات التى قامت عليها بعض الدراسات الانثروبولوجية الغربية فى تناولها للمجتمعات الإسلامية ، كما تقدم دراسة متأنية متعمقة لظواهر الطقوس التى يمارسها الناس فى المجتمعات الإسلامية فى مسار حياتهم اليومية.

التفاعل فى المجتمع الإسلامى

يقدم الجزء الأول من الكتاب دراسة مقارنة للمجتمعات الإسلامية وطقوسها ، وتطرح فيه المؤلفة اعتراضاتها على دراسات قام بها بعض الدارسين الأنثروبولوجيين لطقوس الاستسقاء والطقوس الجنائزية فى تونس ومصر . وترى «أن الدراسة المقارنة للمجتمعات الإسلامية لابد أن ترتكز على التفاعل الذى يتم بين المجتمع والإسلام بحجة أن هذا التفاعل هو الذى يعطى هذه المجتمعات طابعها الإسلامى، وهو أيضاً الذى يمثل العامل المشترك بينها». ومن المسلمات التى تفترضها الباحثة أن لابد من وضع التعاليم الإسلامية كما تجىء فى النصوص المؤسسة للدين كركيزة لدراسة الطقوس التى يمارسها الناس متضافرة مع خصوصية كل مجتمع على حدة فترى أن الطقوس الجنائزية وطقوس الاستسقاء هى كليات تندمج فيها عناصر إسلامية وأخرى غير إسلامية، بحيث أن إغفال أحد هذين البعدين يفسد الدلالة العميقة لهذه الظواهر الاجتماعية، غير أنها هنا ، وفى مواقع أخرى من الكتاب، تتحدث وكأنما هناك تأويل واحد للنصوص الإسلامية . وعندما ترى فى بعض الممارسات انحرافا عما ارتآه بعض الفقهاء ، تغفل أن غيرهم خالفهم فى التأويل ، بما قد يتفق مع الشكل الذى تأخذه الممارسات موضع الدرس.

وفى إطار منهجها الذى تشكل فيه النصوص الإسلامية الخلفية التى تمارس فيها هذه الطقوس ، قدمت نادية أبو زهرة دراسة ميدانية لطقوس صلاة الاستسقاء فى تونس ومصر وكذلك الطقوس الجنائزية فيهما . وتحاول فى هذه الدراسة أن تستشف التفاعل بين هذه الطقوس وتعاليم الإسلام كما جاءت فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بالإضافة إلى كتب الفقهاء - مثل كتابى «الاستسقاء» و«الجنائز» للبخارى . ومن هنا تقارن الممارسات المعاصرة بالتعاليم الإسلامية فى النصوص. وتجد نادية أبو زهرة أن هذه النصوص حية فى وعى المعاصرين -

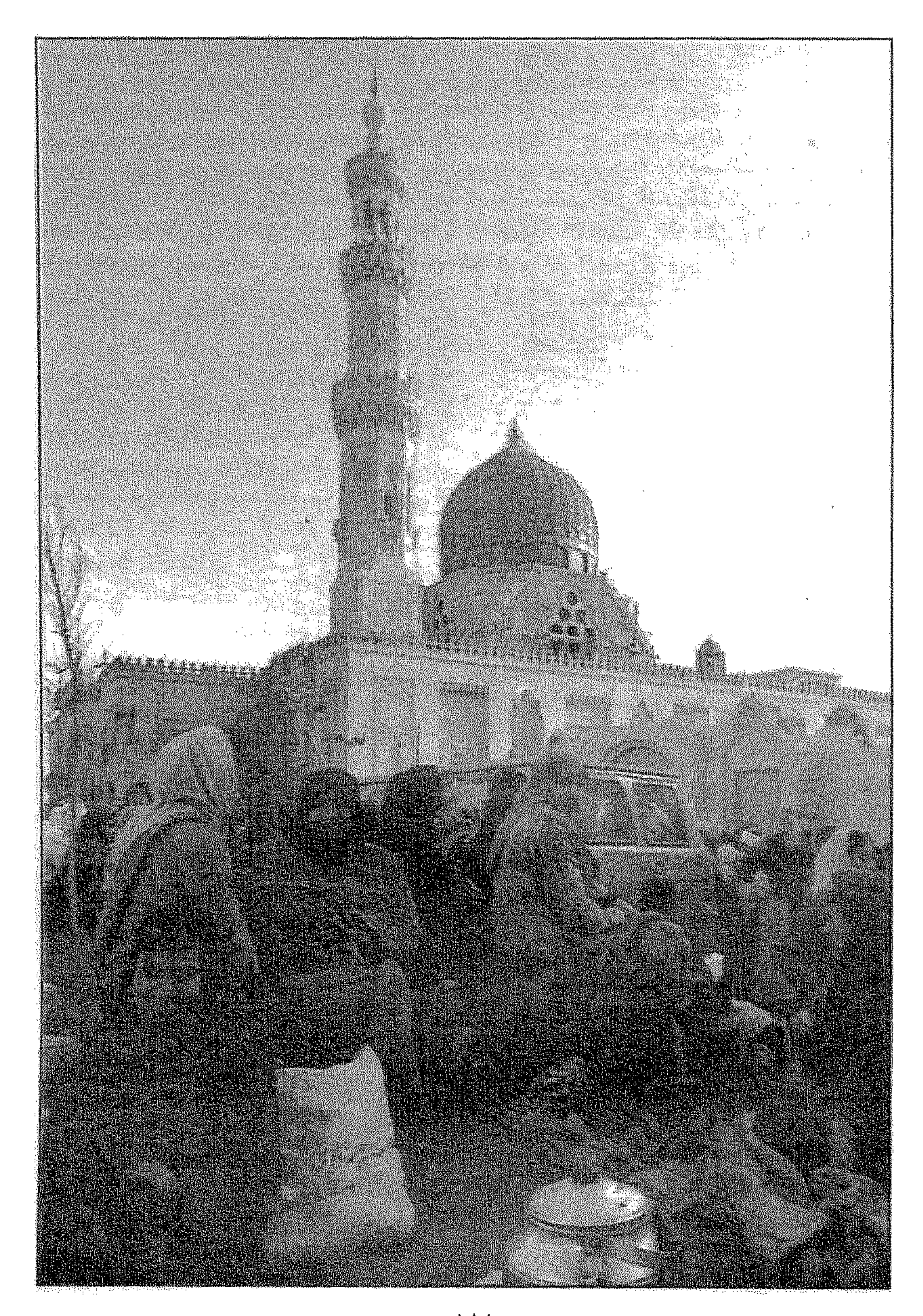
سواء البسطاء الأميين أو العلماء الفقهاء ، نساء أو رجال ، الرسميين أو الأهالى العاديين - ولم تجد انفصاما بين المعتقدات والأفعال . ولا يعنى ذلك أن الممارسات تتطابق فى هذين المجتمعين الإسلاميين ، إذ تجد بينهما فروقا نتيجة اختلاف بنيتهما الجغرافية والاجتماعية. فبينما يعتمد الساحل التونسى على الأمطار ، تعتمد مصر على النيل . مما يكسب طقوس الاستسقاء فى تونس قدرا كبيرا من الأهمية ؛ أما فى مصر فإنها ليست من هموم الناس ، الأمر الذى أدخلها فى نطاق الممارسة الرسمية ، فسقطت منها عناصر هى من لب الطقس.

ركز الباب الأول على المشاكل المنهجية التى تواجه الدارسين للمجتمعات الإسلامية فى ممارستها للطقوس الحياتية، أما فى الباب الثانى فتركز الباحثة على دراسة الطقوس التى تحيط بضريح السيدة زينب فى القاهرة. ويشع الدفء والفهم والتعاطف فى تقديمها لهذا الباب. فهاهى ذى «السيدة زينب، فى القاهرة وفى قلوب المصريين ثم السيدة زينب ولية النساء: الحلم والحقيقة» يليه «حيوات النساء والفتاوى التى ترشدهن» ، ثم ندخل «عالم المولد : احتفال الناس والحكومة» وأخيراً «الليلة الكبيرة واحتفالات الفجر» . هذا الباب ممتع حقا بكل المقاييس . فقد تمكنت نادية أبو زهرة أن تقدم صورة حية لقطاع محدود من الشعب المصرى فى جزئية من حياته اليومية ونشاطه فى بؤرة محدودة من المكان ، ولكنها فى الوقت نفسه تستشف روح هذا الشعب فى أفراحه وأتراحه ، وشجاعته فى مواجهة الصعاب والحرمان.

ترددت نادية أبو زهرة على جامع السيدة زينب فى القاهرة للقيام بدراستها الميدانية ثلاث مرات متفرقة فى الأعوام ٨٦ و٨٧ و٨٨، وأجرت مقابلات مع زوار ضريح السيدة زينب وعلى وجه الخصوص النساء منهم ، ومع إمام الجامع، وكثير من المسئولين فى وزارة الأوقاف وإدارة الموالد إلى غير ذلك من الجهات التى تساهم فى إدارة شئون المساجد فى مصر وتساهم فى إقامة الموالد كما اطلعت على المصادر التاريخية التى تعالج حياة السيدة زينب والمصادر الفقهية التى تتناول الإرشادات الخاصة بزيارة الأضرحة وإقامة الموالد ، ولم تكتف بهذه المصادر ولكن عنيت أيضاً بنصوص أخرى لها أهميتها فى تلمس الواعز الدفين الذى تنطلق منه الطقوس الخاصة بالسيدة زينب فى مصر مثل بردة البوصيرى (بعض أبيات البردة منقوشة قبالة المحراب فى المسجد الزينبى)، وخطب الشيخ جلهوم، إمام المسجد ، إلى غير ذلك من نصوص .

السيدة زينب على عرش الأولياء

للسيدة زينب مكانة لا تضاهى فى قلوب المصريين، وتحاول نادية أبو زهرة فهم الدوافع التى خلقت هذه المكانة والأسباب التى تجعل السيدة تتربع على عرش الأولياء فى مصر بخلاف البلاد الإسلامية الأخرى ، إن الاعتقاد السائد هو أن السيدة جاءت إلى مصر واستقرت بها وتوفيت فى المكان الذى شيد فيه جامعها، ولذلك يؤمن المصريون أنها دفنت فى مصر وأن «الجثة كلها مدفونة هنا»، كما يطلق عليها المصريون لقب «أم هاشم»



بخلاف الشعوب الإسلامية الأخرى. ويعتبرها المصريون «أم مصر كلها» ولذلك تكثر في النداءات والأدعية صيغ الأمومة «ياماما ، ياأمة». وتشرح نادية أبو زهرة هذه الظواهر بأن سيرة السيدة زينب كما انتشرت في مصر تؤكد دورها البطولي في رعاية البيت النبوي والدفاع عنه ، فقد توفيت أمها السيدة فاطمة الزهراء عن عمر يناهز الخامسة والعشرين وتركت أولادها الحسن والحسين وأم كلثوم في رعاية أختهم زينب التي لم تجاوز الخامسة؛ فتقمصت دور الأم الذي لم يفارقها حتى وفاتها ، إلى غير ذلك من ملابسات حياتها المأساوية ، إذ حضرت كربلاء وعايشت استشهاد أخيها الحسين. وبالإضافة إلى ذلك تربط نادية أبو زهرة بين الطقوس الخاصة بإيزيس في مصر - وكانت مازالت حية وقت قدوم السيدة إلى مصر في القرن السابع - بوصفها رمزا للأمومة والخصب والتي كانت الأمينة على وحدة جثة أوزيريس / مصر، والطقوس الخاصة بالسيدة زينب . ومن هنا يأتي التلاحم بين التراث الإسلامي من جانب والموروث القديم في مجتمع من المجتمعات التي تدين بالإسلام.

تتربع السيدة زينب على عرش الأولياء الذين تلتف حولهم النساء على وجه الخصوص . فهي الأم الرؤوم، والشفيعة، والمعينة، والحبيبة، وهي المثال الذي تسعى كل امرأة إلى الاقتداء به، البطلة التي حافظت على بيتها الشريف ودافعت عنه في الملمات ، ولذلك ركزت الباحثة درسها الميداني على زائرات الضريح . وتمكنت في سردها للحالات التي تقدمها من اقتناص كل ما تتوهج به نفوس هؤلاء النساء من تعطش ولهفة إلى الحب والحنان والرحمة والانصاف والعدالة التي يفتقدنها في الحياة التي تطحنهن بين رحاها القاسية. فلا ملاذ ولا معين سوى هذه الأم الحانية، فهي «أم العواجز، وأم المساكين والأيتام».

وإذا كانت السيدة هي ولية النساء في الضمير الشعبي فإنها ليست أقل أهمية بالنسبة إلى الرجال ، فترى نادية أبو زهرة أن سلوك الرجال أثناء إقامة الطقوس عند زيارة الضريح لا يختلف كثيراً عن سلوك النساء، فيما عدا إطلاق الزغاريد ومناداة السيدة بلقب «ماما» أو «أمة» ، في حضور الآخرين ، ولكنهم قد يطلقون العنان لمشاعرهم أكثر من النساء أثناء المولد، وهذا يؤيد الفرضية التي تنطلق منها الباحثة بأن المعتقدات واحدة والأفعال واحدة لا فرق بين رجل أو امرأة.

ومن الملامح المهمة في هذه الدراسة العناية التي أولتها للدلالات الرمزية للنذور التي تقدم للسيدة أثناء تأدية الطقوس . فالنور والعطور من أهم الدلالات المصاحبة لهذه الطقوس ، إذ أنهما ينفذان من حاستي النظر والشم إلى نفوس المريدين، وينتشران في المكان بحيث يغلفان الحضور بجو عام يستدعي «طهارة» صاحبة الضريح وسيرتها العطرة»، ولذلك يكثر نثر ماء الورد على المريدين وتوزيع فروع النعناع التي يفوح شذاها النافذ ، وفي الوقت نفسه تحمل معاني الخصب وتجديد الحياة من خلال لونها الأخضر.

قول الست!

تأتي النساء إلى ضريح السيدة زينب

للتعبير عن حبهن لها ولآل البيت ، وأيضاً التماسا للمعجزات والكرامات لحل المشكلات التى تستعصى عليهم ، أو للوفاء بالنذور التى قطعنها على أنفسهن . ونجحت الباحثة فى أن تغمسنا فى هذا المجتمع النسانى الذى تربطه أواصر عميقة من التقاليد والمعتقدات المشتركة . فللمكان سطوة قوية على من يلجه، ومن ثم تتخلق روابط بين الحضور وتغلفهم ألفة تتوطد بتبادل الأطعمة – ومن أهمها «فول الست» – لا فرق بين فقير وغنى ، فالكل على باب الله ، ولابد من العطاء والأخذ من الآخر ، ومن خلال هذا التبادل يترسخ مجتمع التكافل . وقدمت نادية أبو زهرة مجموعة من النساء مختلفات الأعمار والمشارب ، حضرن بحثا عن شفاء من أمراض ألمت بهن أو بأحد ذويهن، أو للنصرة ممن جار عليهن ، أو لتلمس النصح والمشورة فى كثير من الأمور التى تتركهن حيارى، أو سعيا وراء رزق من صندوق الزكاة والنذور ، أو لمجرد الألفة ودفء الائتناس بالأخريات من زائرات الضريح . هذا الفصل من الكتاب رائع حقا. فقد تمكنت الكاتبة أن تمثل للقارىء هؤلاء البسطاء من الناس فى خضم الحياة التى تطحنهم وأن تجعله جزءا من هذه التجربة الانسانية وأن تستثير عواطف الحب والرحمة التى تشع من هذا المكان المغلف بالقداسة! فالمشكلات هى مشكلات كل الناس من أبسطها ، الطفل الذى لا يكف عن البكاء طوال الليل، إلى أعوصها من أمور الميراث وتعقيداته ، إلى أطرفها مثل حكم الأم التى اختلست من ابنها أربع زجاجات عطر سرقها من صيدلية يعمل بها . وعلى الشيخ جلهوم، إمام الجامع، أن يقدم للزوار الفتاوى الشرعية لحل هذه المشكلات جميعا.

هذه هى الحياة اليومية فى جامع السيدة زينب. فالجامع والضريح يجذبان المريدين على مدار السنة . فيأتون من مشارق مصر ومغاربها للتبرك والاستغاثة. فللسيدة وجود متأصل فى نفوس المصريين يؤمونها صيفا وشتاء، خريفا وربيعا ، غير أن هناك سبعة أيام مباركة تتغير فيها ملامح المكان هى أيام المولد ، والموالد لها وقع خاص على حيوات الناس فيتخففون فيها من أثقال الحياة اليومية، وينطلقون بكل طاقاتهم الجسدية والروحية للاشتراك فى هذا الاحتفال المهيب . وقدمت الكاتبة هذا الاحتفال الذى يجمع فئات الشعب المختلفة من أهالى وحكومة معا. وتتبعت هذه المناسبة من جميع نواحيها : تحديد موعد المولد، الفئات المشاركة فيه، إقامة السرادقات ، تنظيم المسيرات ، وصف الليلة الكبيرة والصباحية ، غير أن نادية أبو زهرة لا تفصل فى معالجتها مولد السيدة زينب عن غيره من الاحتفالات الدينية فإنها ترى أن الموالد فى مصر هى سلسلة متصلة من الاحتفالات الدينية . وكان اختيارها موفقا فى معالجة هذه المناسبة فبعد أن افتتحت حديثها بمقدمة شاملة تصف فيها الطقوس والشعائر العامة قدمت هذا الفصل فى شكل يوميات تبدأ من الثالث من رجب إلى التاسع عشر من نفس الشهر سنة ١٤٠٨ للهجرة، تاريخ الليلة الكبيرة .

لا يستطيع هذا العرض إيفاء الكتاب حقه من الفضل على الذخيرة القيمة التى استشفتها نادية أبو زهرة من درسها الميدانى. فقد استطاعت أن تقتنص الوازع



الدفين الذى يحرك الناس فى ممارستهم للطقوس والشعائر المرتبطة بالسلوك الدينى فى إطار زيارة الأضرحة للأئمة الذين احتلوا مكان القداسة والحب فى قلوب المصريين . وكشف لنا كيف يتأصل هذا السلوك، فى الظروف الاجتماعية الخاصة بهؤلاء الناس.

سحر خاص للمكان

لقد شعرت طوال قراءاتى لهذا الكتاب إلى أى حد إقتربت نادية أبو زهرة من هؤلاء البسطاء ، وتحلت بقدر كبير من التعاطف والحب تجاه هؤلاء الزوار . فهى أحدهم وقد غلفها المكان بسحره الخاص، وعبقه النورانى . ولكن ثمة سؤال ظل يراودنى وهى تتكلم عن تعاليم الإسلام التى تعتبرها العضد الذى ترتكز عليه هذه الطقوس . أية تعاليم؟ فنادية أبو زهرة ترى أن الإسلام هو تراث يشترك جميع المؤمنين فى الاقتداء به، غير أننى أتساءل هل هذه التعاليم متطابقة عند جميع الناس كما تقول؟ ونحن نعلم كيف تختلف التفاسير ، وتتعدد التأويلات، ويستشهد بأحاديث مختلف عليها؟ وكيف تتضارب الأقوال حول الطقوس والشعائر. لقد استشهدت بكتابات الشيخ شلتوت الذى اعترض على عديد من الطقوس التى تؤدى فى الأضرحة ، مستندا إلى وقائع ونصوص. ولكن ألا توجد استشهادات أخرى ترتكن إليها هذه الطقوس بعينها؟ وكيف تتطور الطقوس مع الزمن؟ لقد عايشت الكاتبة تغيرات فى السلوك على المدى القصير الذى استغرقته دراستها فى الجامع الزينبى . فبينما لم يكن يفصل بين الرجال عن النساء فى الجامع سوى حاجز خفيض لا يحجب الرؤية فى بداية الدراسة ، ارتفع هذا الحاجز ليمنع رؤية

الجنس الآخر قبل انتهائها من دراستها!!.
لاشك أن هذا التغير يتبع التغيير فى المناخ العام الذى زاد فيه التزمت، واستبدلت الأصوات العقلانية للشيخ شلتوت وأقرانه بأصوات تدعو للغيبية وتحدثنا عن عذاب القبر وزواج الجان. فالمجتمعات تنتقى من تراثها ، الذى يحمل فى ثناياه الغث والسمين، ما يتلاءم واحتياجاتها الآنية. كل ذلك يدعونا للتحفظ على النظر للموروث الإسلامى كوحدة واحدة كما قد يتخيل البعض ولم يقتصر الخلاف على تأويل النصوص أو صحة الأحاديث النبوية ولكنه يمتد أيضاً إلى الوقائع التاريخية ذاتها . فبينما ذهبت نادية أبو زهرة إلى أن السيدة زينب انجبت ثلاثة أولاد وابنتين - استنادا إلى الطبرى - وأن اثنين من أولادها استشهدا مع خالهم فى كربلاء؛ ذهبت روايات أخرى إلى أن السيدة زينب لم تنجب وأنها طلقت من زوجها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عندما أصرت على صحبة أخيها إلى كربلاء رغم اعتراض أكثر بنى هاشم، بما فيهم زوجها عبد الله بن جعفر ، على خروج الحسين إلى الكوفة. وهنا نرى الخيال الشعبى يختار قصة الطبرى لما فيها من عناصر مأساوية - فالثكل هو لاشك قمة المأساة؛ ويغفل رواية الطلاق لما فيه من شائبة على السيرة العطرة .

قرأت هذا الكتاب من منظور حقل الدراسات الأدبية ، الذى انتمى إليه، وشعرت أن دراسة العلوم الإنسانية لا يمكن أن يتم بعضها فى معزل عن البعض، لما ينتج من إخصاب متبادل . إذ رغم خصوصية النصوص الإبداعية من شعر وقص ومسرح وضرورة تطوير أدوات خاصة لدراستها فإن مثل هذه الدراسة تقدم أدلة تعضد الفروض التى يطرحها دارس السيميوطيقا والبويطيقا . فالبعد السيميوطيقى للمكان الذى قدمته نادية أبو زهرة للجامع الزينبى ، عندما يتحول المكان إلى حيز مقدس، فى مقابل المكان الدنيوى، من خلال وجود رفات حفيدة الرسول فيه - رغم أن هذا الوجود مشكوك فيه تاريخيا . لذا يلزم تأكيد أن الجثة كلها مدفونة هنا» لاضفاء القداسة . هذا بالإضافة إلى انتشار النور والعطور (ونجد مثل هذه الرموز فى الكنائس) إلى غير ذلك من العلامات التى تعين على تحديد البعد السيميوطيقى للمكان . أما عن الزمان فنجد أيضاً بعض الأدلة على تحويل الزمان اليومى إلى زمان مقدس من خلال تحديد بعض التواريخ التى تصبح أزمنة ذات دلالة خاصة ، ومن اللافت للانتباه أن المولد هو احتفال بتاريخ وفاة السيدة زينب لا ميلادها ، ولهذا دلالة مهمة فى إطار الشعائر الدينية . فالمولد الحق هو الانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة . وفى هذه الأزمنة الخاصة يتغير سلوك البشر اليومى إلى سلوك احتفالى يتحرر فيه الناس من كل القيود التى تنظم حيواتهم العادية ليطلقوا الأعنة لطاقاتهم المكبلة . وهناك كثير من الظواهر التى تعتبر جسورا بين علم الانثربولوجيا وعلمى السيميوطيقا والبويطيقا يمكن أن نوليها عنايتنا مثل التضافر بين صوت الراوية (عالمة الأنثروبولوجيا) وأصوات الناس الذين يقصون عليها حكاياتهم (وهنا قد نطرح مسألة اللغة فنادية أبو زهرة تكتب بالإنجليزية والناس فى الجامع الزينبى يتكلمون العامية المصرية) إلى غير ذلك من الأمور المثيرة والمهمة فى آن واحد».

وأخيراً وليس آخرا لقد أثرت نادية أبو زهرة الدراسات الإنسانية بهذه الدراسة الممتعة الحية التى قدمت عالما مصغرا من الحياة القاهرية ولكنها ، مثل الكرة البللورية، نرى فيها الشعب المصرى بكل عذاباته وجيشان عواطفه ومشاعره.

موسم الجوائز الأدبية
جـــــونكور ١٩٩٨

فتنة المرأة وبريق الكاتبة

بقلم: محمود قاسم

إنها ظاهرة عالمية جديرة أن نحنى لها الرؤوس اعترافا بتصاعدها..

فالنساء يكتسحن الجوائز الأدبية المهمة فى أوروبا فى الموسم الثقافى الحالى. حيث فازت الكاتبة بول كونستان بجائزة جونكور عن روايتها «الثقة بالثقة»، وفى الموسم نفسه فازت الأديبة دومنيك بونا بجائزة رينودو عن روايتها «سوءة بورت ايبان»..

ونحن نتوقف عند هذه الظاهرة بشكل خاص، لأن إمرأتين نالتا جائزة جونكور خلال المرات الثلاث الأخيرة حين حصلت «باسكال روز» على الجائزة عام ١٩٩٦ عن روايتها «الصياد صفر»، والتى قدمناها فى هلال فبراير ١٩٩٧.

وإذا كانت باسكال قد حازت جونكور عن روايتها الأولى، فإن بول كونستان ليست اسما بارزاً فى الخريطة الأدبية المعاصرة فى فرنسا، هى موجودة منذ عشرين عاما، كلما نشرت رواية جديدة، كتبت عنها الصحف بما تستحق الرواية، وهى كاتبة مقلة فى عملها حيث نشرت قرابة ست روايات طوال عقدين من الزمن.

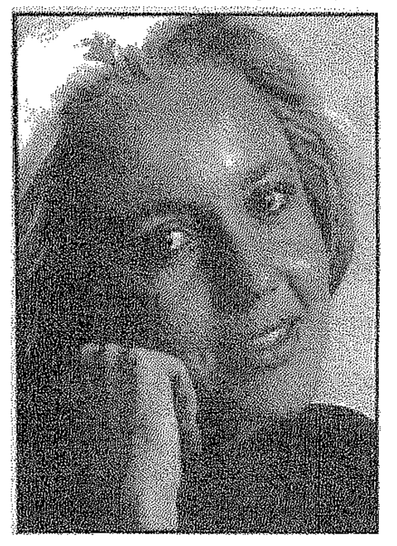
هذه الروايات منها «اوريجانو» عام ١٩٨٠، «ملكية خاصة» ١٩٨١«يالطا» ١٩٨٣، «روح بيضاء» ١٩٨٩ و«ابنة المضّاغ» ١٩٩٤. ولها كتاب بمثابة مقالات نقدية نشرته عام ١٩٨٧ باسم «عالم لم يتم فيه استخدام الانسان».

وبول كونستان الحاصلة على جائزة جونكور، تحمل شهادة الدكتوراه فى الأدب الفرنسى، وتقوم بتدريس آداب القرن الثامن عشر بين جامعتى «إكس إن بروفانس» الفرنسية، وكانساس الأمريكية.

وبول شغوفة فى المقام الأول بحياتها الخاصة، تحاول أن تسترجعها، وأن تعيد إلى الحياة تلك الأحداث التى إندثرت، أو هؤلاء الأشخاص الذين رحلوا عن عالمها، ولذا فهى ترجع إلى طفولتها من رواية إلى أخرى، وليست هذه الحالة خاصة بالكاتبة وحدها، فكما كتب أحد نقاد مجلة «آل» عند صدور روايتها الثانية «ملكية خاصة» عام ١٩٨١ أن هناك العشرات من الروايات التى صدرت فى العام نفسه تدور كلها فى حدائق الطفولة. ومن هنا يأتى التعبير أن ما يكتبه أدباء اليوم هو «واقع الرواية»، فهؤلاء الأدباء يكتبون عن أحداث حقيقية بعد انصرامها، ولذا فانهم لا يسجلونها، ولكنهم يستعيدونها، ويسعون إلى إعادة احيائها.



بول كونستان



دومنيك بونا

وتيفانى فى رواية «ملكية خاصة» تمر من مرحلة الطفولة حيث كانت تذهب إلى الكنيسة، والمدرسة إلى أن أصبحت أما لطفلين، ورغم ذلك فانها ظلت دوما نفس الطفلة: «أنا لا أهتم بالذكريات، فلست راغبة فى الاستمتاع مع ماحدث، ولكن ما أوده، هو أن أحكى نظرة الطفولة».

وقد ولدت هذه الرواية من معاناة خاصه حين فقدت بول جدتها التى كانت تحبها إلى درجة العبادة، وقررت أن تكتب عنها رواية، ليس فقط كنموذج يستحق التمجيد، بل أيضا لأنها كانت امرأة لها أخطاؤها. فلا يمنعنا حب الآخرين أن ننزع عنهم هالة القدسية، بل يجب أن نراهم بنفس الأعين التى يعرفهم بها الآخرون.

وفي روايتها «روح بيضاء»، لم تحبس الكاتبة نفسها في عالم الماضي المنصرم، بل اختارت شابا فرنسيا في العشرين من العمر، يسافر إلى أفريقيا للعمل في مزارع الموز، ثم لإدارة أحد المحلات، وهو إنسان برىء يتعرف على العاهرة لولا. وهي المرأة الوحيدة التي أخرجته من إطار أن الحياة عبارة عن فيلم سينمائي . انها أشبه بالملاك الأزرق التي أخرجت المدرس الملتزم من جنته، وشدته إلى هوتها.

و«روح بيضاء» هو الاسم الانجليزي، كما هو عنوان الرواية، لقرد مرتبط دوما ببطل الرواية ڤيكتور، ويبدو كأنه يشكل بالنسبة له حالة خاصة فهو يلازمه، يبدو كأنه ضميره، ينام معه ويركب الدراجة، والقرد هو الذي ينتزع ڤيكتور من هوة العاهرة، ويذكره ببراءة العالم الذي يعيش فيه.

وقد تحدثت الكاتبة أنها كانت في طفولتها قرداً مشابها للقرد الذي وصفته في الرواية، وتقول أنه كان بينهم الدور الاجرامي لمزارعي الموز الذين تصوروا أنفسهم أسياد العالم.

ومن الواضح أن الكاتبة لم تحصر نفسها في عالم واحد، ففي روايتها الأخيرة، الثقة بالثقة، التي فازت بجائزة جونكور تخرج من حدود طفولتها التي انصرمت، ومن أفريقيا التي عاشت بها، وأيضا من القرد إلكسيس الذي كانت تملكه، وتنظر إلى واقعها، فهي امرأة تجاوزت الخمسين، وتعيش في كانساس.

وبطلة روايتها هي امرأة، في هذه المرحلة، تعيش في مدينة أمريكية هادئة، المقاهي فيها أشبه بالزرائب والزبائن يحبون ألعاب الروديو (والحصان الذي يدور حول نفسه من أجل اسقاط راكبه)، والمرأة في الرواية كاتبة فرنسية اسمها اورور أمير (الفجر المر) ، وهي مرتبطة بصداقة قوية مع كل من لولادول، التي تستشعر خطر الشيخوخة القادمة، وبابيت كون، وهي امرأة مختلطة الثقافة والهوية. ولكنها تمتلك جسداً فاتنا رغم بلوغها الخمسين.

والبطلة هنا امرأة عصرية، تمتلك ما لدى النساء الأخريات المرموقات، فهي لديها طاقة انتمائية،وهاتف محمول،كما أنها أستاذة جامعية صاحبة مكانة وقورة في المجتمع الذي تعيش فيه.

وتتوغل الكاتبة في كل أرجاء امرأة من هذا الطراز، حياتها الزوجية، والعاطفية، مشاعرها الحسية، والجنسية، وعلاقتها بكلابها. وتقول الكاتبة أن هذه العلاقات سرية، لها شعائرها الخاصة.

محو آثار الشيخوخة !

وإذا كانت بول كونستان قد أرادت استرجاع الماضي في أعمالها الأولى، لأنها تعرف أن هذه الأيام لن تعود، فإنها في روايتها الأخيرة تعرف تماما أنها قد لاتعيش المزيد من السنوات كي تكون لها الفرصة لتتذكر، ولذا فهي تسجلها إبان حدوثها.

وتجىء أهمية الرواية أن الكاتبة قررت ألا تخفى شيئا عن جلدها، فهى تعترف أنها امرأة عنيفة فى ممارستها للجنس، لديها رغباتها الحسية، وتعشق الكاتب المسرحى الراحل مونترلان.

ومن الواضح أن المؤلفة تحاول محو آثار الشيخوخة التى بدأت تزحف على ملامحها من خلال الكتابة، والمؤلفة امرأة جميلة المحيا كما هو واضح من صورها، والذى تابع مراحل تجاعيد الكاتبة من خلال ما نشر لها من صور خلال العشرين عاما الماضية سرعان ما اكتشفت أن بول كونستان آلان امرأة مختلفة الشكل، فذلك الشعر الطويل الذى ظهرت به فى مجلة «إل» عام ١٩٨١ كان لفاتنة جذابة أكثر منه لامرأة تمارس النقد والابداع، أما صور الكاتبة المنشورة مع المقالات المكتوبة عنها فى الأشهر الماضية، فانها تعكس امرأة وقور، هى كاتبة من النظرة الأولى، بينما اختفت تماما صورة الفاتنة القديمة.

وقد أدركت بول كونستان هذا التحدى بكل وضوح، وأدركت أن فتنتها قد ولت، وبدت فى روايتها «الثقة بالثقة» كأنها تقيم حفل تأبين لهذا الجمال الساحر، وليس الصارخ، وقد كتب الناقد والروائى جان بيير آميت فى مقاله المنشور فى مجلة الاكسبريس فى ١٤ أبريل الماضى، أن الكتاب هو مسار لكافة الرؤى المتضاربة حول الدور الرسمى للفلسفة الحديثة، والصحافة المعاصرة، التى تغلف، بغلاف من الذهب، عالمنا كأننا يجب أن نصنع منها هدية فى باقة جميلة.حيث قامت الكاتبة بلصق كل شىء، وانتزاع كل شىء. ثم ألقت الباقة فى غضب، وقدمت لنا صفحات رائعة حول الثنائيات التى تتفانى فى علاقاتها، وعن الكتاب الذين تصيبهم حمى الابداع، وكأنهم صاروا مثل راقصة الاستربتيز، عليهم أن يخلعوا كل شىء أمام القارىء.

والغريب أن آميت قد تنبأ بأهمية الرواية، ولعل ما كتبه عنها كان بمثابة تصريح لحصول «الثقة بالثقة» على جائزة جونكور، فهو يعترف بان بول كونستان كانت فيما قبل كاتبة جميلة، ولكنها بهذه الرواية صارت أديبة «كبيرة» وأنه قد حان الوقت ألا تتوقف عن التأليف، فلا شك أن وراء النص الذى كتبته مبدعة متميزة.

وقد حدث فى الأشهر الأخيرة بالنسبة للكاتبة، كل ما حدث للروايات الفائزة بجائزة جونكور مع اختلاف طفيف، ففيما قبل، كانت أغلب الروايات الفائزة مع إصدارات موسم العودة، أى بعد شهر أغسطس وباعتبار أن الجائزة تعلن فى نوفمبر، فإن القارىء الباحث عن الرواية الفائزة يجد نفسه أمام اصدار «طازج»، لكن رواية «الثقة بالثقة» صدرت فى مارس الماضى، أى منذ عام بالضبط، وأخذت فرصتها الضعيفة فى التوزيع، لكن بمجرد الاعلان عن حصولها عن جائزة جونكور، حتى صعدت بشكل طبيعى إلى قمة المبيعات، وكأن للجوائز فعل السحر، بالطبع أكثر من كتابات النقاد.

وثيقة مجهولة

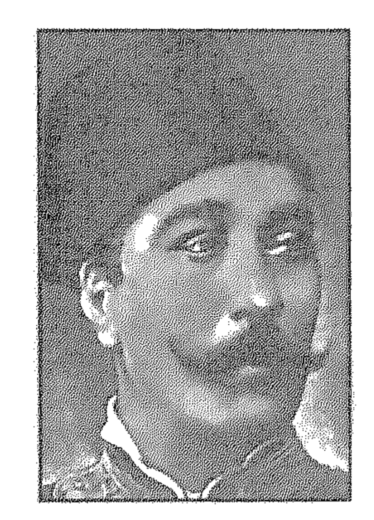
البنك الوطنى المصرى

بقلم : محمد عودة

أعدت حكومة محمود سامى البارودى فبراير سنة ١٨٨٢ هذا البيان لتدعو الأمة للمساهمة فى إنشاء «طوق النجاة» من الرق المالى والربا الفاحش الذى طغى وبغى وأمسك بأعناق البلاد والعباد .

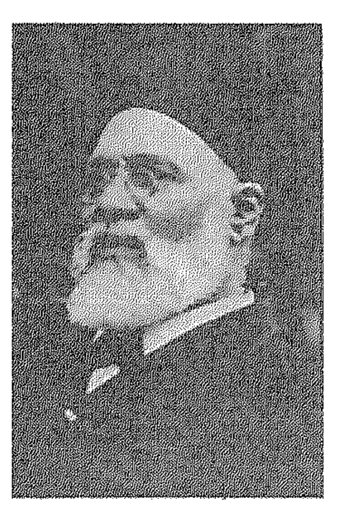
«ما أوجد الله جل جلاله من مخلوقاته شيئا إلا ليثمر ويفيد وما يرضى أنه لن تندفن مواهبه فى الأرض ولا تعطى ثمرا بل يرضيه أن ما أعطاه للفرد يستثمر وينمو ويفيد الجماعة ، ومهما سعى عباد الله فى استثمار ما وهب ليعود ذلك المثمر بالنفع على صاحبه وعلى الجمهور رضى الله عنهم وزادهم خيرا وأوسع الرزق بين أيديهم ، والناس فى هذه الأرض على اختلاف أنسابهم وأنماطهم متكافلون متضامنون مأمورون جميعا بالعمل والتعاون فيما يعملون ، يمد الثرى منهم الفقير وصاحب الأرض يستخدم المعدم فى زراعته ، والمعلم يرشد الجميع فى استخدام ذلك المال واستثمار تلك الأرض أم الخيرات بالطريق القسط والسبيل المستقيم . ولولا هذا التعاون ما استفاد الانسان من عمله ولا من ماله ولا من الأرض التى بسطها الخالق . وإن كثيراً من الشعوب الشرقية القديمة التمدن الراسخة القدم فى الحضارة مفتقرة إلى الغرب فى كل ما خرج من الأرض الطبيعية ، وتبعث إليه ما تخرجه أرضها على الحالة الفطرية وبأبخس الأثمان ثم تسترجعها منه مغيرة الهيئة على الحالة الاصطناعية مزخرفة الشكل على الصور المتمدينة مضاعفة الثمن عدة مرات .

والشرق خصه الله بأخصب تربة وأنفس معدن وفيه كثير من الأغنياء





محمود سامى البارودى



أحمد عرابى



على فهمى

أصحاب الرزق الواسع والنفوذ الوافر ولكن أهله لم يهتدوا إلى أقوم السبل لاستثمار ثروة بلادهم وانمائها فتراهم مقتصرين من المتاجر على ما تعاطاه أجدادهم الأقدمون منفردين فى أعمالهم كأنهم يخشون أن تطير البركة فى الشركة مع ما ظهر لهم من بركات الاشتراك فى الأعمال عند أهل الغرب الذين دوخوا الملكوت وفتحوا الأقاليم الواسعة بشركاتهم التجارية وقد تفننوا فى إنمائها وجعلوا منها الشركات التجارية والشركات الصناعية والشركات المالية .

الوسيط بين الجميع

ولا يخفى أن الشركة هى الصلة بين سائر أنواع الشركات والمتاجر والمصانع وهى الوسيط الذى لابد منه بين المال ومنفعته وبدونها يظل جزء كبير من ثروة العالم بلا استثمار والمقصود هو البنوك وهى الوسيط بين الجميع ، ولو حذفت البنوك من بلاد الأفرنج لأصبحوا جميعا كالطير مقصوص الجناح أو كالجندى الأعزل من السلاح أو كالفارس مقطوع الساقين ولزالت كل تلك القوة التى ملكتهم البحار وجعلت تجارة الدنيا طوع أمرهم وأوجبت أن جميع المصالح التى تقضى على البسيطة تمر بأيديهم .

وإذا نظرنا إلى حال كل مملكة من الممالك الأوربية على حدتها نجد أن كلاً منها مستقلة ببنوكها المهمة وأن أسعد تلك الممالك وأوسعها تجارة وأهمها صناعة وأنفذها كلمة وأقدرها سلطانا هى أشدها استقلالا ببنوكها لأن المال أساس الأعمال فإن لم يكن بحيث تناله يداك فإنك عند أشد حاجتك إليه .

وهذه حالنا شاهد عدل على صحة ما قدمنا فلو كان فى يدنا قوة مالية ذاتية لأمكننا أن نسترد بها مصالح عزيزة لدينا يحزننا أن تبقى مضغة فى يد الأجانب وكلنا ننظر إليها متلهفا على فقدها متشوقا إلى يوم ردها وباحثاً عمن يقدر منفردا أن يقدم ذلك اليوم ساعة مع أننا لو تآزرنا لكان نوال المراد رهين إرادتنا فما الذى يقعدنا عن السعى وانقاذ أرضنا لا يكلفنا إلا الاجتماع لإنشاء شركات مالية تفى بما لا يستطيعه الأفراد هل ننتظر ومعظم أطياننا مرهون عند الأجانب إلى أن يأتى حين يبيعها بأبخس الأثمان وأصحابها ينظرون إليها ولا يجدون من اخوانهم معينا على استيفائها .

معاذ الله أن نرضى بذلك وفينا من نوى الحمية من يفدون المصلحة العمومية بمصالحهم الخصوصية ويبذلون فى سبيل ذلك الأموال الوافرة بل ما رضينا، وقد رأينا جمهور نبهائنا ووجهائنا متبصرين فى سبيل الخلاص حتى هداهم الله إلى انشاء شركة مالية وطنية عرضها عليهم بعض وجهاء التجار فتلقوها بالبشر والترحاب وأقبلوا عليها وعقدوا العزم على إظهارها إلى العمل وستظهر عما قريب إن شاء الله متحلية باسم كريم تفاءلنا به خيرا ألا وهو البنك الوطنى المصرى الذى طالما دارت الأفكار حوله وتشوقت الأنفس إليه، وقد ذكرته جميع جرائدنا الوطنية وأثنت على الساعين فيه ودعت الناس إلى معاونتهم ثم بشرتنا بحصول تلك المعاونة من خاصة نبهاء الوطن وعيون اعيانه وعدد غفير من اعيان نوابنا الكرام ورجالنا العظام وقد جرت فى شأن هذا البنك مذاكرات ومراسلات وإن كثيرين من أكبر أرباب المناصب الرفيعة ما فيهم الا كل موافق معاضد وداع بالنجاح ولم يحصل لهذا المشروع أى معارضة من جانب أبناء الوطن لثقتهم فيه النفع كل النفع ولوثوقهم بحصول الفائدة والمصلحة العامة ورب معترض يتوهم فيه مخالفة الشريعة المطهرة بدعوى أنه لابد من دخول الربا فى معاملاته ، ونحن نطيب خاطر المعترض ونزيل الوهم لأن الشريعة المطهرة إنما حرمت الربا المحض وليس ذلك من لوازم البنك التى لا يقوم بدونها بل أن بنكنا متنزه عنه لأنه إنما قصد به ومن انشائه خدمة المصالح الوطنية بالصدق والأمانة وبحسب شرائع البلاد واشتغاله بالتسليف والعمولة من بيع وشراء لحساب عملائه وجميع هذه الأشغال أرباحها أرباح معاملة جائزة شرعا وحكم المشارك

فيها حكم المشارك بالمضاربة ، وهذه الشركة جائزة شرعا باجماع المذاهب ، ثم إن القرض بالمرابحة بطريق المعاملة جارٍ منذ القدم وذكره مستفاض فى كتب الفقه ومثاله أن بيع المطلوب منه المعاملة من الطالب ثوبا قيمته عشرون دينارا بأربعين دينارا ثم يقرضه ستين دينارا أخرى حتى يصير له على المقرض مائة دينار ولم يحصل للمستقرض إلا ثمانون دينارا ذكر الحصاف أنه جائز وهذا مذهب محمد بن سلمه إمام بلخ ، وكان شمس الأئمة الحلوانى يقول برأى الحصاف ويقول أن هذا ليس بقرض جر منفعة بل هذا بيع جر منفعة رد المختار على الدر المختار الجزء الرابع صفحة ١٧٥ وجاء فى الجزء المذكور صفحة ١٧١ فى مطلب «إذا قضى المديون الدين قبل حلول الأجل أو مات لا يؤخذ من المرابحة إلا بقدر ما مضى» .

ظلم المرابين

ومن يتدبر هذا القول وجدها منطبقة وأى انطباق على المعاملة المقصودة فى البنك الوطنى وتحقق أن أرباحه جائزة شرعا فضلا عن أن الغاية الأولى منه نفع البلاد والتخفيف عن الفلاح وانتشاله من ظلم المرابين الذين يتمتعون بعرق جبينه وخيرات أرضه ويقرضونه بالربا الفاحش بثلاثين وأربعين فى المائة وأزيد من ذلك فى أحيان كثيرة مسترهنين أطيانه إلى آجال محدودة حتى إذا ما حل الأجل وارتوت أنفسهم الشرهة من ذلك الربا الحرام أجبروه على بيع أطيانه مهما حسن لديهم الثمن والفلاح يجيبهم إلى ذلك مكرها لأن الربا قد أثقل كاهله وألقاه إلى الأرض وسد فى وجهه باب الرجاء .

ومن نظر إلى هذه الحال التعسة التى آل إليها حال الفلاح وهو حياة القطر وقوامه أيقن أنها إذا استمرت سنين قليلة تنقل ملكية الأرض المصرية أو معظمها إلى يد الأجانب ويمسى ابن مصر لا سمح الله معدما فى أرضه وأرض أجداده على أنه لا يبقى محل للتخوف من تلك العقبى بمجرد مباشرة الاكتتاب فى البنك الوطنى المصرى وأن يتم انشاؤه فى القريب العاجل إن شاء الله وتسرية نفوس وتنغيص نفوس وما تنغص إلا نفوس المغتصبين الذين يريدون تغرير أبناء الوطن وتثبيط هممهم ليتسنى لهم نوال مآربهم واستمرار نير رباهم الفاحش على رقاب المفتقرين من أبناء الوطن إلى الاستقراض لأنهم يعلمون أنه إذا أنشىء البنك الوطنى المصرى تحولت أشغال الوطنيين إليه وامتنع عليهم الربا الفاحش، وقد رأيناهم يفترون على أبناء الوطن

مفتريات ما أنزل الله بها من سلطان ويرمونهم بالعجز عن التعاون على درء مضرة أو جلب منفعة وبالتقصير عن إنشاء بنك وطني ينقذ بلادهم من نير الأجنبي لجهلهم وضعهم وضيق ذات يدهم وسيقطع الوطنيون ألسنتهم بسيف ماض ويبرهنون لهم أن الأمة التي كانت منشأ التمدن ومهتدية العالم منذ القدم لا ترمى بالجهل بعد أن نهضت لاستعادة مجدها السالف واجتازت في سبيل التمدن في سنين قليلة مسافة لم يبلغها غيرها من الأمم في إجمال ، وأن بنكنا الوطني لا يفرض النهوض به على فرد ولا على أفراد معدودين من الأمة وانما يطلب من الأمة بأجمعها أن تجد وتتعاون على انشائه من الخادم الذي يأخذ سهما واحدا إلى السيد الثري الذي يشترك بالآلاف وهذه المزية ترفع هذا البنك عن سائر البنوك وتكفل له النجاح الأتم لأنها تجعل جميع أبناء الوطن يستميلون الناس إليه ولا شك أنهم جميعا يختارونه على سواه لأنه منهم ولهم يعاملهم بلسانهم ويعتني بانشغالهم مثل اعتنائهم بها ثم أنه يفيد البلاد في الأعمال الخطيرة ويكون عضدا لرجالها على إنقاذ كبير من مصالحها مثل مصلحة الدوين والدائرة السنية وغيرهما من يد الأجانب

وقد وافقت مباشرة انشائه وقت نهوض الوطن وصرف معظم جهدهم صوب هذه المهمة ، وقد تحققوا جميعا أن البنك الوطني هو الوسيط الوحيد الذي يبلغهم أمنيتهم لأنه لابد من ضمانة أمينة لاستخلاص تلك المصالح من يد الأجانب وهذه الضمانة لا يؤديها إلا البنك الوطني فعلى أبناء الوطن جميعا أن يتسابقوا إليه ويتنافسوا في المساهمة والمشاركة . وكثيرا ما قرأنا في الجرائد الوطنية أن البلاد لا تطيق هذا الجور وأنها ناهضة لرفع نيره ولا ريب عندنا أن الجرائد انما ترجمت في ذلك ما يختلج في صدر جميع أبناء الوطن ولكن لا يخفى أننا في مقام أعمال مادية محضة لا يفيد فيها إلا الدرهم اللعين وإن لم يغن الدرهم في هذا السبيل فما الفائدة من ادخاره على أنه ليس هناك نفعة لأن رأس مال البنك يتاجر به ويجر المنفعة لأصحابه ويعود على البلاد بمنافع عمومية لا تذكر المنافع الشخصية في جانبها بشيء وهي تخليص الوطن من الرق المالي للأجانب وما ذلك ببعيد لأن الاجتهاد والمثابرة في العمل يكفلان تحقيق الأمل والقوة في الاتحاد .

ومن يذكر أن سلطنة الانكليز الهندية التي يبلغ خط تخومها نصف محيط الكرة

الأرضية وهى من أخصب بقاع الدنيا واكثرها سكانا انما اتصلت بملك الانكليز من جهد شركة تجارية انشئت فى صدر المائة الثامنة عشر وعلم أن رأسمالها عند التأسيس ثلاثون ألف جنيه وذلك يحقق صحة ما نقول من فوائد الاشتراك وقوة المال فى الأعمال . ورجاؤنا أن هذا المقال يكون كافيا لاستنهاض عزيمة من لا يزال متقاعدا وأن يكون باعثا للجميع على عضد مشروع البنك الوطنى والتحالف على انشائه فإنه لا فلاح للوطن بدون تخليص الفلاح من ظلم المرابين ولا عز للدولة ولا حرية إلا بانقاذ مصالحها من يد الأجانب.. فعلى أمراء القطر ووجهائه وأغنيائه وكل من يهمهم شأنه أن ينضموا إلى إخوانهم الأماثل الذين افتتحوا باب الاشتراك ويسارعوا معهم إلى فتح البنك الوطنى المصرى فإن الوقت من ذهب ولا يرد إذا ذهب والله يعطى الفوز لمن طلب بمنه واحسانه» .

وكان انشاء البنك الوطنى المصرى بنداً رئيسياً فى برنامج وزارة محمود باشا سامى البارودى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وكان برنامجا شعاره «الاعتدال» وأعلن رئيس وزراء فرنسا يومئذ «المسيو فريسينيه» أن هذه حكومة تستطيع أوروبا التعامل بها والأفضل لبريطانيا أن لا تتدخل فى شئونها ولم تكد الحكومة تبدأ فى تنفيذ البرنامج حتى تلقت انذارا بمقدم أسطول بريطانى فرنسى مشترك كان أضخم مظاهرة بحرية منذ حملة نابليون .

وما أن رسى الاسطول فى ميناء الاسكندرية حتى تقدم القنصلان البريطانى والفرنسى بانذار مشترك إلى الحكومة المصرية يطالب :

١ – أن تستقيل الوزارة ويتولى السلطة الخديو مباشرة .

٢ – أن يغادر أحمد عرابى باشا مصر إلى أى بلد يختاره وتضمن الحكومتان معاشه وراتبه .

٣ – أن يلزم القادة عبد العال حلمى وعلى فهمى قراهم ولا يعودان إلى القاهرة.

٤ – أن يلتزم مجلس شورى النواب بعدم النظر فى الميزانية أو ما يتعلق بالديون .

وتلاحقت الأحداث التى انتهت بالاحتلال ودفن مشروع البنك الوطنى المصرى وانتظر أربعين عاما، فتكت خلالها البنوك الاجنبية باقتصاد مصر وحياة شعبها ، وكان لابد وأن تقوم ثورة وتكون شعبية جارفة لكى يبعث المشروع ويتحقق !.

صورة العرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الامريكية *

بقلم السفير: أمين يسري

بالمصادفة وبالمهارة التقط مصور صحفي لوكالة أنباء غربية صورة لطيار أمريكي وهو يكتب على الصاروخ المثبت بطائرته والمعد لقصف مدينة بغداد خلال الايام الثلاثة السابقة على حلول شهر رمضان، والتي كان اليوم الثالث منها هو بداية أيام صوم العراقيين - بعد ثبوت رؤية الهلال هناك - عبارة «هدية شهر رمضان»..

وهذا الذى فعله الطيار الامريكي لم يكن استثناء من مشاعر غالبية الامريكيين تجاه العرب بحسب ما ترسخ فى النفسية الامريكية من كراهية للعرب والمسلمين من خلال الصورة النمطية الشائعة عن العرب فى الولايات المتحدة والتى تعكسها وسائل الاعلام والكتب وتزيد من تأكيدها السينما الامريكية وهو أمر ترتب عليه أن أصبح من المعتاد إدانة العرب جميعا على أى حادث فردى أو حتى على جرائم مزعومة تنسب إلى قلة منهم، اذ يتصرف صانعو الصورة النمطية من الامريكيين، الذين لا يعرفون شيئا يذكر عن الاسلام ولا عن نقاط اتفاقه مع المسيحية واليهودية كدين سماوى، على أن كل مسلم فى العالم هو صورة طبق الاصل للارهابى. وقد بلغ الأمر حدا من الخطورة بات معه يهدد الصالح الامريكي فى الداخل والخارج. ومن هنا سارعت الخارجية الامريكية إلى إصدار بيان مقتضب تعتذر فيه عن تصرف هذا الطيار الامريكي وهى تدرك بالتأكيد أنه تصرف بتلقائية وكنتيجة طبيعية لما تعلم فى مجتمعه وما عرفه عن الصورة النمطية للعرب والمسلمين كما هى شائعة فى هذا المجتمع.

ولأن الأمر بلغ حد الخطورة فإن قلة من الأصوات بدأت تتصدى لتلك الصورة المشوهة عن العرب والمسلمين منها مركز التفاهم الاسلامى المسيحى الذى تأسس عام ١٩٩٣ والذى عهد إلى أستاذ أمريكى هو جاك. ج . شاهين أستاذ الاتصال الجماهيرى المتفرغ بجامعة إلينوى الجنوبية فى إدوار سنايل ليعد تقريرا عن «التصوير النمطى للعرب والمسلمين فى الثقافة الشعبية الامريكية» ويقع فى خمس وتسعين صفحة، ولأن الموضوع مهم ويشغل بال كل مهتم بالعلاقات العربية الامريكية، ولأن دراسة الاستاذ

---

* دراسة أعدها جاك ج. شاهين ونشرها مركز التفاهم الاسلامى المسيحى بجامعة جورج تاون عام ١٩٩٧م.

جاك شاهين هى موضوعية، فقد رأت «الهلال» ان تعرض هذه الدراسة بإيجاز دون إخلال بالمحتوى.

●●●

فى المقدمة يوضح واضع التقرير أن هناك توجها عاما فى المجتمع الأمريكى لنبذ الصورة الدعائية المقولبة تجاه كل من ليسوا أمريكيين باستثناء واحد هو الصورة المقولبة البالغة السلبية للعرب بوجه خاص، فهذه الصورة يجرى ترسيخها وتضخيم سلبياتها.

ويرى واضع التقرير الذى نحن بصدده من واقع دراسته للصورة النمطية للعرب فى الثقافة الشعبية الامريكية أن تلك الصورة جذابة بالنسبة للبعض وسهلة. وبتعبير آخر هى بمثابة عملة رائجة ومريحة تحظى بقبول واسع. فعلى مدى الربع قرن الأخير ظل العرب - بثبات - يمثلون فى المنظور الامريكى الخطر المحتمل الاخضر الذى يتبوأ بجدارة ويحل محل الخطر الاحمر (الشيوعية العالمية).

ومن أهم مظاهر شراهة المجتمع الامريكى فى صنع هذه الصورة: (١) ما كشفه استطلاع للرأى أجرى عام ١٩٩٤ وشمل قرابة ثلاثة آلاف شخص من الامريكيين عن أن ٤٢٪ منهم يرون ان المسلمين أتباع دين يتسامح مع الارهاب أو يؤازره ، وأن ٤٧٪ منهم يرون ان المسلمين معادون للغرب وللأمريكيين. ورأى ٦٢٪ منهم ان المسلمين يعرّضون المرأة للتمييز والاضطهاد. (٢) ويصور صانعو الصورة النمطية الجهاد على أنه حرب مقدسة مع أنه فى الحقيقة مقاومة للظلم ضمن الصراع الأبدى بين قوى الخير وقوى الشر. ورغم أن «الأصولية» نبتة غربية ولا مرادف لها فى اللغة العربية، اذ تشير إلى الامريكيين البروتستانت الذين يلتزمون بالمعنى الحرفى للانجيل، فإن الصحفيين الامريكيين يدمغون المسلمين «بالاصولية» ويساوون بينها وبين التعصب. (٣) ويعتقد معظم الامريكيين ان ايران دولة عربية. ورغم ان العرب يمثلون ١٢٪ تقريبا من المسلمين فإن كثيرا من الامريكيين يعتقدون ان كل المسلمين عرب وأن الايرانيين عرب وليسوا فرسًا.

وقد كشف استطلاع آخر للرأى أجرى عام ١٩٨٠ ان ٧٠٪ من الامريكيين يرون أن ايران دولة عربية وأن ٨٪ فقط لا يعرفون إن كانت ايران عربية أم لا.. (٤) ولا يعرف معظم الامريكيين شيئا يذكر عن تعاليم الاسلام ولا عن أعياده . (وهذا ما أثبته تصرف هذا الطيار الامريكى الذى كتب على الصاروخ المعد ليقذف به بغداد «هدية رمضان» دون ان يعرف شيئا عن هذا الشهر ولا عن الاسلام). ويكفى ان نعرف ان وسائل الاعلام الامريكى تصور المسلمين على أنهم يعبدون القمر !! وهناك كتب رائجة، كما ألقيت محاضرات ونشرت مطبوعات تحت عنوان «الله - إله القمر» و«الاسلام ديانة إله القمر» وتشق الافكار المشوهة طريقها الآن إلى كتب تحمل عناوين مثل «نيران الاسلام» و«الاسلام الملتهب». وتظهر تلك الافكار ايضا فى مقالات بالصحف والمجلات تحمل عناوين مثل «جذور الغضب الاسلامى» و«الاسلام يكتسح الغرب» و«الحرب الاسلامية ضد الحداثة» و«القنبلة الزمنية الاسلامية».. ولا عجب بعد

صــورة العــرب والمســلمــيــن

ذلك ان يكون نتاج هذا كله هو اعتقاد الامريكيين أن المسلمين لا يعرفون التسامح وأنهم مهووسون بالجنس ومنافقون.

صورة غريبة!

وعلى الرغم من أن العالم قد تقلص وصغر مع ظواهر العولمة فإن وسائل الإعلام الامريكية ترسم للعرب صورة هزلية مماثلة بشكل أسطوري مشابه لتلك التى كانت ترسم لليهودى فى اوروبا.. فالعربى رجل يلبس جلبابا وعمامة وشرير وخطير وشاغله الاول هو خطف الطائرات وتفجير مبانى المصالح العامة.

وتتناول الدراسة آليات صنع الصورة السلبية للعرب فى الاذاعة والتليفزيون والمجلات الامريكية وأيضا فى السينما. ومن أبرز آليات تعميق واعادة انتاج الصورة السلبية للعرب فى وسائل الإعلام المسموعة والمكتوبة والمرئية، آلية اعتبار العرب والمسلمين ضمن «العدو العربى لأمريكا». وللصحافة دور بارز فى تلك الموجة العنصرية المعادية للعرب، ومنها مثلا موقف الصحافة بعد تفجير المركز التجارى العالمى فى ٢٣ فبراير ١٩٩٣؛ فقد ربطت الصحافة الامريكية ذلك الانفجار بتصوير المسلمين جميعا على أنهم ارهابيون وغرس ذلك فى العقل الامريكى. وقد شارك الساسة فى تغذية تلك الصورة؛ فقد أوحى وارين كريستوفر وزير الخارجية السابق عقب الانفجار باعتقاده أن العرب متورطون بأن أعلن أنه أرسل مترجمين عربا إلى أوكلاهوما لمساعدة المحققين. وبعد أن ثبت أن الفاعلين ومرتكبى الحادث أمريكيون فإن الصحافة لم تجد ما يدعوها إلى الاعتذار بل اعتبرت ان العرب هم ممولو الجناة !! ويعترف صحفى أمريكى بأن زملاءه من الصحفيين الامريكيين يكيلون بمكيالين فهم لم يصفوا ايجال عامير قاتل اسحاق رابين بأنه إرهابى يهودى أو أصولى يهودى، بينما بعد حادث أوكلاهوما ومعرفة الجناة فإن الصحافة الامريكية اعتبرت أنه كان من الكياسة الاشتباه فى المسلمين «لأن المتطرفين الاسلاميين هم الآخر المهدد للمجتمع المدنى الامريكى». وفى فبراير ١٩٩٧ وصف أ . م. روزنتال، وهو صاحب عمود فى صحيفة نيويورك تايمز، كيف أن الارهاب يمس كل أمريكى، وقال فى مقال بعنوان: لماذا نتسامح مع الارهاب؟ ان كل الارهاب الموجه إلى الولايات المتحدة مصدره الوحيد تقريبا هو الشرق الاوسط. ويضرب روزنتال عرض الحائط بحقيقة ان ٩٦٪ ممن أدينوا بأعمال ارهابية بالولايات المتحدة ليسوا عربا ولا ايرانيين من واقع تقرير لوزارة الخارجية الامريكية الصادر عام ١٩٩٥.

ويرى جاك شاهين كاتب التقرير الذى نحن بصدده أن الجهل والتعصب لا يزالان عاملين يؤديان إلى تقديم الاعلام الامريكى لصورة مشوهة عن العرب والمسلمين حيث لا يعرف المحررون شيئا يذكر عن العرب والاسلام ولا يوجد بينهم تقريبا أى عربى او مسلم يقدم صورة صحيحة. ومن الطريف أن صحفية أمريكية اعترفت فى مؤتمر صحفى أنها كانت تظن أن العراق وايران اسمان لدولة واحدة !! وكشفت دراسة مسيحية ان ٦٠٪ من محررى الشئون الدينية الامريكيين لم يتلقوا دراسات دينية.. ولم يكن بين المراسلين المائة الذين شملهم مسح أجرته رابطة المحررين الاخباريين مسلم واحد.

وهناك سبب آخر لاستمرار تلك الصورة النمطية يتمثل في ان أغلبية الصحفيين يتجاهلون الدين الاسلامي لأنهم لا يفهمونه ويخشون اساءة تفسيره ويكتفون بترديد معطيات الصورة النمطية.

وهناك سبب آخر مهم هو الاعتبارات السياسية والخوف على المصالح؛ ذلك ان الصحفيين اذا تعاطفوا مع القضايا العربية يُدمغون بموالاة العرب ومعاداة اسرائيل!!

لكن هنا سبباً يخص العرب هو تقاعس المنظمات والاتحادات العربية عن تنسيق جهودها وصياغة خطة مدروسة لمواجهة تلك الصورة والسهر على تنفيذ تلك الخطة.

وانصافا - كما يقول واضع الدراسة - فإن بعض المفكرين الامريكيين بدأ يستشعر مخاطر الصورة النمطية التي يجرى صنعها وتعميقها عن العرب والمسلمين، وارتفعت أصوات تدعو إلى الدقة والانصاف في التغطية الاخبارية وفي الاعمال الادبية والفنية، وعدم الكيل بمكيالين.

فعلى سبيل المثال اقترح كل من دارت وآليني - في دراستهما المهمة التي تحمل عنوان «تخطي الفجوة بين الدين ووسائل الاعلام الاخبارية» - عقد اجتماعات غير رسمية بشكل دوري بين رجال الإعلام والقادة المحليين والكتّاب المسلمين لرسم خطوط ارشادية لتصحيح تعامل وسائل الاعلام مع المفاهيم والصور. واقترح آرثر لود براي أستاذ العلاقات الدولية ان ترعى الحكومة الامريكية حوارا مع المثقفين الاسلاميين في شتى أرجاء العالم الاسلامي وفي الولايات المتحدة ايضا.

ومن المهم أيضا الاشارة إلى ان السيدة هيلاري كلينتون قد استضافت في مارس ١٩٩٦ احتفالا بالبيت الأبيض بمناسبة انتهاء شهر رمضان، وكان ذلك لأول مرة في التاريخ الامريكي، واعترفت سيدة أمريكا الاولى بهذه المناسبة بتحيز المجتمع الامريكي ككل في تصوير الاسلام وأتباعه وتركيز النشرات الاخبارية على المتطرفين. وقالت انه ليس من العدل تعميم تلك الصورة السلبية على كل المسلمين، فالحقيقة أن الاغلبية العظمى من المسلمين الامريكيين مواطنون أوفياء.

ولا نجد في ختام هذا العرض سوى كلمات جبران خليل جبران الشاعر اللبناني والتي نقلها واضع التقرير في مقدمة دراسته....: «ان السبيل لتعلم احترام الذات هو احترام الآخرين... أنت أخي، وأنا أحبك.. أحبك متبتلا في كنيستك .. راكعا في معبدك... مصليا في مسجدك .. فأنت وأنا وكل أطفالنا أتباع دين واحد، لأن المسارات المتعددة للدين ليست إلا أصابع اليد الحبيبة للذات العلية ممدودة للجميع عارضة الكمال الروحي لكل من يتوق إلى تلبيتها....»

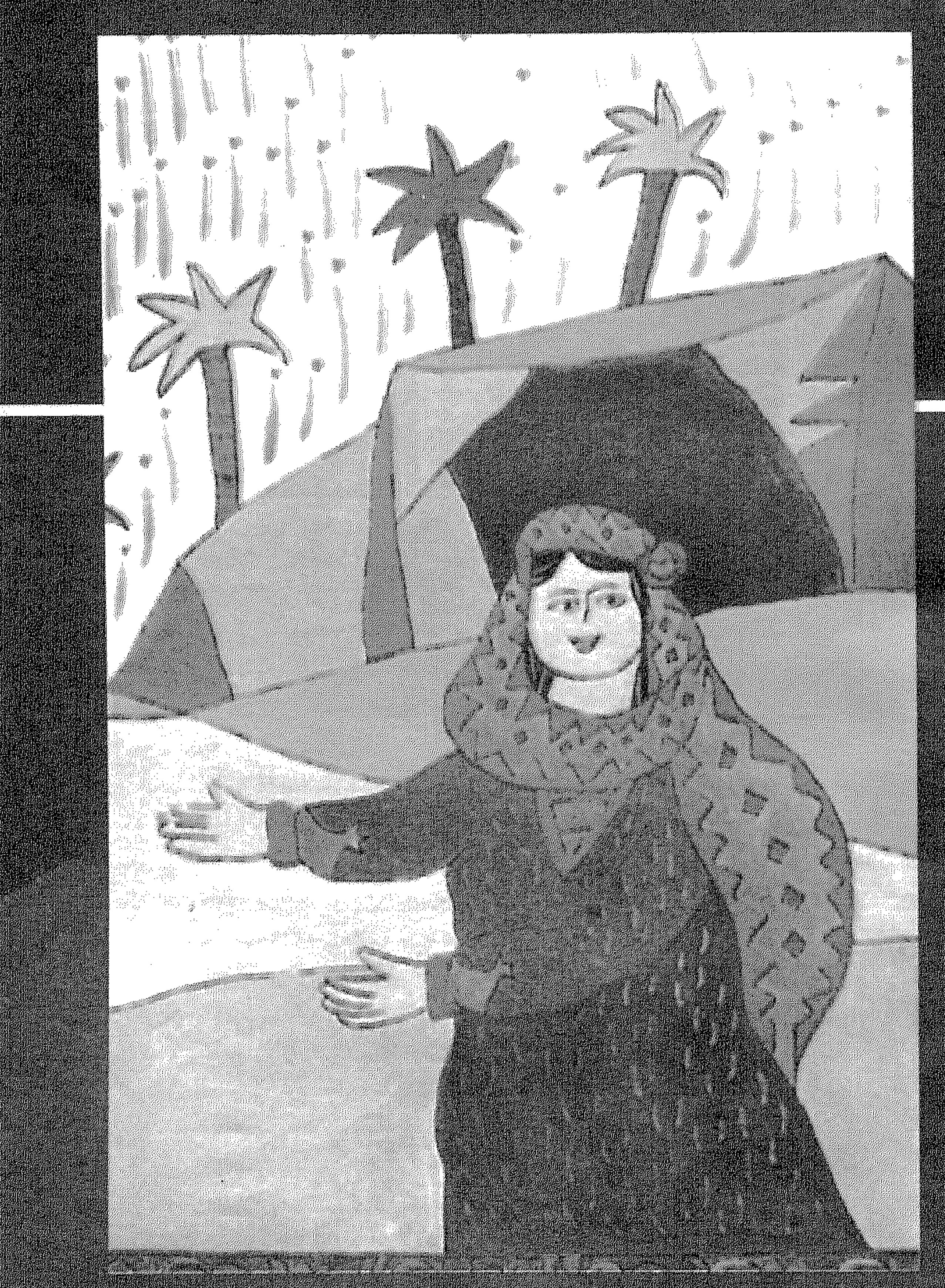
ويعقب واضع التقرير على نصيحة جبران - ونحن معه - بقوله :

«ان كلمات جبران هذه جديرة بتفكير المشغولين بمستقبل صور العرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الامريكية بل ربما لاتخاذها دليلا للعمل»....

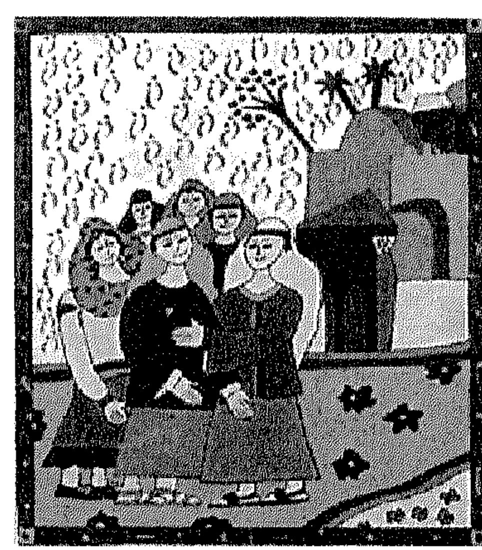
صلاح بيصار
وأنشودته للبساطة

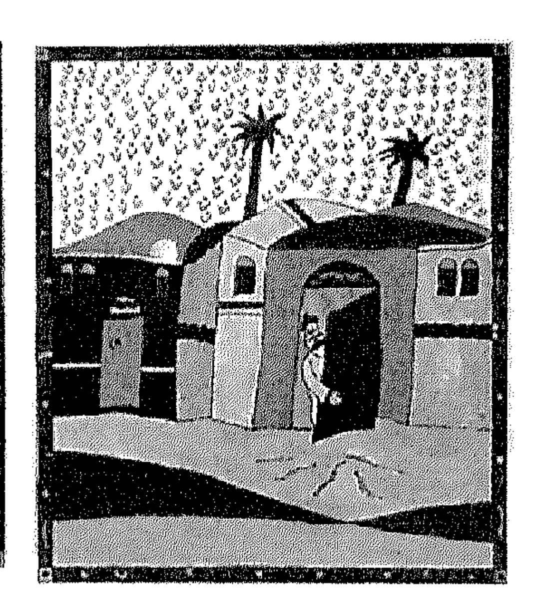
بقلم : محمود بقشيش

ردَّد بابلو بيكاسو - فى مناسبات مختلفة - أنه عندما كان طفلاً كان يقلِّد كبار الرسامين الكلاسيكيين، وعندما صار شيخاً أصبح يقلد الأطفال. وقد كشف بيكاسو بهذا البوح عن الموقع الحقيقى للفن وهو الصدق. وكلما اقترب الفن من البراءة والفطرة التى وهبها الله للإنسان ازدادت شعلة الفن تألقاً . ولاشك فى أن كلّ فنان أصيل يغبط الطيور على سهولة تغريدها ، ويغبط النحل على تدفق عسله وموهبته فى بناء أروع الخلايا. يتم كل هذا بيسر لا يملكه الانسان ولا يحقق شيئا منه إلا بعد عناء شديد.



مرحبا دعوة للضيافة بريشة صلاح بيصار





حوار المدينة العربية

وفى كل مرة شاهدت فيها رسوم الفنان صلاح بيصار كنت أغبطه على قدرته فى أن يكون على هذه الدرجة من السلاسة والبساطة والنفاذ الى القلب، وأن يكون قادرا على الانفلات من التكلف والاستعراض الشائع بين الفنانين . لهذا كان من الطبيعى أن يتألق فى رسوم الأطفال لأنه طفل يرسم لأطفال يحبهم، فإذا صادفت رسومه وهى فى طريقها لأطفاله شخصا كبيرا نفذت إلى قلبه أيضا!.

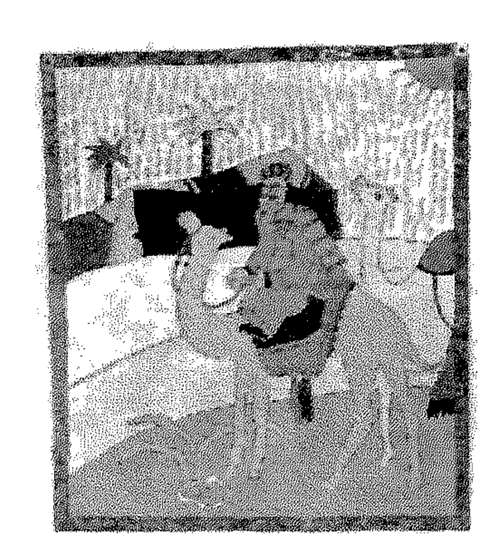
كتب الأطفال

كان من الطبيعى أن تجد رسومه فى كتب الأطفال ملاذها الأول، بلغ عددها حتى الآن أربعة وعشرين كتابا، نال عن بعضها جوائز دولية ومحلية منها: جائزة فرانكفورت لأحسن عشرة كتب للأطفال فى العالم، كما نال الجائزة الأولى فى الاخراج الصحفى سنة ١٩٨٧ من نقابة الصحفيين.

معارضة

أقام أول معرض له بقاعة الدبلوماسيين بالزمالك سنة ١٩٨٠ واستعار لمعرضه عنوان (أنشودة البساطة) وهو عنوان مستعار من إحدى مجموعات يحيى حقى القصصية . وجاء العنوان وصفا دقيقا ليس لتجربة المعرض وحدها بل لتجربته الابداعية فى مجملها لهذا حرص على إنجاز متتالية لهذا المعرض حملت نفس العنوان .

اللافت فى هذا المعرض الذى حقق نجاحا ملحوظا هو تركيزه على أكثر الخامات تقشفا وانتشاراً بين الصغار والكبار (أقلام الرصاص والجاف). وأذكر أنه عرض كل لوحات ذلك المعرض مرسومة بالقلم الجاف الأسود واستطاع



الرحيل



صلاح بيصار وأنشودته للبساطة

أن يستخرج من صوت الرباب الفقير أنغاما مرثية شجية. وإذا كان غيره ينتظر من الدولة أن تتيح له مرسما قبل أن يخط خطا في لوحة فلم يكن صلاح بيصار في حاجة الى ذلك الترف. كان يكفيه سطح منضدة يرسم عليها أحلامه بالقلم الجاف الأسود والقلم الجاف الأزرق، وأقام لكل لون منهما معرضا بنفس القاعة التي يفضلها والتي درجنا على تسميتها بقاعة الدبلوماسيين اختصارا لاسمها الحقيقي (قاعة التعاون الثقافي الدولي).

ولقد أسهمت معارضه تلك في إعادة الاحترام لتلك الادوات والخامات الفقيرة. وقد كان لي - بحكم السن - السبق في إقامة معرض كامل بالقلم الرصاص على مساحات لم يزد معظمها على مساحة كف اليد وهي نفس المساحة تقريبا التي نفذ عليها رسوم لوحات معارضه المختلفة.

وقد يسرت تلك الادوات البسيطة أو بمعنى ادق فتح احترام تلك الخامات افاقا للبحث في جماليات الخامات المتقشفة ، وكانت أحد الأسباب في ظهور مطبوعات الماستر التي أسهمت بدورها في ظهور اسماء مبدعين ومبدعات يحتلون الآن مكانا مرموقا في الابداع الأدبي امثال: سلوى بكر وسهام بيومي وليلى الشربيني.

ملامح من الشرق

ويقدم صلاح بيصار هذه الايام لاقامة معرضا بقاعة (جميلة بالمعادي) ويستمر حتى الخامس من فبراير تحت عنوان «ملامح من الشرق» وهي لوحات ملونة هذه المرة بالجواش والأحبار يواصل بها - جماليا - الاحتفال بتجليات الخامات المتقشفة التي انفض عنها الفنانون الآن انفضاضا شبه كلي. ولم يبق في ساحتها





الفروسية والبطولة حتى آخر العمر

الآن غير فنان واحد ارتفعت عنده خامة الالوان المائية الى مرتبة العقيدة : أعنى الفنان الكبير عدلى رزق الله. استلهم بيصار فكرة المنمنمة كما تجلت فى مخطوطات مدرسة بغداد ورسامها الفذ «يحيى الواسطى» وقد استلهمها بيصار بطريقته الخاصة، بمعنى عدم التنازل عن طبيعة الطفل صلاح بيصار وفطريته وقدّم لوحات تبدو ـ فى شكلها الاستعمالى أشبه بالكارت بوستال وان زيّنها باطار زخرفى يحيط بمعالم المشهد الحكائى الذى ينم باشاراته ورموزه عن بيئة عربية صحراوية مشمسة، فهناك الخيام والبعير والألوان الصريحة والنقية فى آن واحد. وعلى الرغم من الطابع الحكائى للرسوم فقد أكده بيصار بعناوين وصفية، مثال (الفروسية والبطولة حتى آخر العمر) أو (مرحبا .. دعوة للضيافة) وهكذا.



الواد الزعيم
والامبراطورة نجمة الجماهير

بقلم : مصطفى درويش

شهد أول شهر من آخر سنة فى القرن العشرين وقائع سينمائية ، معظمها لا يبعث على الاطمئنان، فباستثناء تبنى مجلس الوزراء لمطلب قديم للسينمائيين حاصله تخفيض الضريبة المرتفعة المفروضة على أسعار تذاكر السينما ، وهو تبن لم يصدر به بعد- حسب علمى- تشريع له صفة الإلزام.

باستثناء ذلك كانت الوقائع الأخرى ، وهى كثيرة ، لا تبشر بأى خير.

وعند إحداها أقف قليلا. وذلك لما لها من دلالة واضحة على حال السينما فى هذه الأيام.

لأول مرة فى تاريخ العروض السينمائية فى مصر احتكرت ثلاثة أفلام فقط جميع دور السينما، بطول وعرض البلاد، فى أثناء أيام العيد الصغير وفيما تلاه من أيام أطالت إلى أسابيع.

والسؤال هل كانت الأفلام الثلاثة جديرة بهذا الاحتكار الذى انتهى بها ، فى حقيقة الأمر، أفلاما مفروضة على المتفرجين ، بحكم تشريع قصد به حماية صناعة السينما فى مصر من منافسة الأفلام الأجنبية ، لا سيما ما كان منها من إنتاج مصنع الأحلام؟.

والاجابة عن السؤال تقتضى العرض ببعض التفصيل لتلك الأفلام .

ولأن المقام ليضيق دون ذلك ولأن «الابندا» ، وهو أحد الأفلام الثلاثة ، ليس فى واقع الأمر ، فيلما ، وإنما مسرحية معلبة ، منبتة الصلة عن لغة السينما .

العمر الافتراضى

لذلك سأقصر الكلام على الفيلمين الباقيين ، وهما «الواد محروس بتاع الوزير» و«الامبراطورة». وبداية ، فقد يكون من المناسب ، وأبطال الفيلمين «عادل إمام» ، «كمال الشناوى» و«نادية الجندى» ،أن أعرض باختصار لعامل السن باحكامه القاسية التى ليس منها

الواد الزعيم والامبراطورة

نجاة ، لا سيما فى دنيا السينما فمثلا غير جائز إسناد دور شاب يافع إلى ممثل تقدم به العمر إلى الستين .

وغير لائق تصوير ممثل مسن أو ممثلة كهلة وقد تعرى أو تعرت من أجل ممارسة الجنس ، مع فتاة أو فتى فى عمر الأحفاد.

ومراعاة السن وأحكامه على هذا النحو أمر لازم فى أفلام هوليوود المهيمنة على صناعة الأطياف ، ولو إلى حين .

وأضرب مثلا على ذلك .. بنجم النجوم شارلى شابلن فما كاد يقترب عمره من الخمسين ، حتى أدرك أن شخصية «شارلو» الرجل الصغير ، وهى شخصية شابة ، قوامها حيوية تفور بالحركة السريعة التى تصل إلى درجة البهلوانية ، قد آن الأوان لاستبدال شخصية أخرى بها ، تتناسب مع زحف الكهولة وما يصاحبها عادة من تجاعيد فى الوجه ، وترهل فى جميع الأعضاء.

الرجل الصغير والدكتاتور

ومن هنا تقمص شابلن ، ولم يكن له من العمر سوى ثمانية وأربعين عاما ، لشخصيتين فى فيلم «الدكتاتور العظيم» (١٩٤٠)، إحداهما شخصية «هتلر» بكل جبروتها ، وكان اسمها فى الفيلم «هينكل».

والأخرى شخصية حلاق غلبان اشبه بهينكل والرجل الصغير فى آن معا .

وكان ذلك إيذانا بنهاية «شارلو» ، كما عهدناه فى أفلامه السابقة ، على امتداد عشرين عاما ؛ ويزيد .

فقريباً من ختام «الديكتاتور العظيم» نرى الرجل الصغير فى صورة الحلاق ، وقد توحد فى «هينكل» الدكتاتور ، مرتديا لباسه العسكرى ، مخاطبا من منبر الزعامة الجماهير .

ومع هذا التوحد يختفى «شارلو» نهائيا ، فلا يعود أبدا إلى الشاشة فى أفلام «شابلن» الأخيرة ، وهى أربعة لاتزيد.

وليس أدل على ذلك من فيلمه «مسيوفيردو» (١٩٤٧) التالى مباشرة «للدكتاتور العظيم» فوقت تصويره كان له من العمر ثمانية وخمسون ، ومع ذلك لم يسند شابلن لنفسه ، لا فيه ، ولا فى الأفلام الثلاثة التالية له ، سوى أدوار رجل كهل ، أو شيخ فان .

وبطبيعة الحال ، لم يبتذل نفسه فيها بمشاهد غرام بينه وبين نساء صغيرات .

مشهد قبيح

وهنا يحضرنى فيلم لسينمائى آخر له منزلة كبيرة فى دنيا صناعة السينما .

ذلك الفيلم هو «التسوية» لصاحبه المخرج «اليا كازان» .

فبطلاه «كيرك دوجلاس» و«ديبوراه كير» كلاهما كان قد تجاوز ، عند التصوير ، سن الشباب هو ببلوغه الثانية والخمسين ، وهى ببلوغها السابعة والأربعين .

ومما عابوه على الفيلم ، مشهد جمع فيه المخرج بينهما ، وهما فى مخدع

الزوجية ، يتبادلان القبلات والأحضان .

وعلى كل ، فهذه البديهيات قد أفضت في بيانها ، وذلك بمناسبة فيلمى كل من «نادر جلال» و«عادل إمام» و« على عبدالخالق» ونادية الجندى ، وهما «الواد محروس بتاع الوزير» و«الامبراطورة» .

«فلا جلال» ومعه «إمام» و«الشناوى» ولا «عبدالخالق ومعه الجندى» قد راعى عند توزيع الأدوار أيا من هذه البديهيات .

التحدى لقوانين الطبيعة

وابدأ بفيلم «إمام» لأقول إنه قد تقمص فيه شخصية شاب مجند «محروس مطاوع الدخاخنى» لا يزيد عمره ، بل ربما يقل عن الخامسة والعشرين .

وعلاوة على ذلك ، ينتهى به الفيلم متزوجا من ثلاث حسناوات تؤدى أدوارهن «الفت إمام» ، «وفاء عامر» و«منال عفيفى».

أما «الشناوى» ، وهو من مواليد ١٩٢١، فيتقمص شخصية وزير هيمان بفتاة تصغره بحوالى نصف قرن من عمر الزمان ، وتؤدى دورها «منال عفيفى» ، وما أكثر مشاهد الغرام بينهما أى «إمام» و«الشناوى» ، وبين تلك الحسناوات .

فهى لا تقل بأى حال من الأحوال عن تسعة مشاهد ، بعضها موظف لدغدغة حواس المراهقين .

هذا ، وسيناريو الفيلم كما تزعم عناوينه وملصقاته من تأليف «يوسف معاطى» .

ومع ذلك ، فثمة أوجه شبه بين الفكرة التى يدور حولها وجودا وعدما ، وبين سهرة تليفزيونية عنوانها «الخادم» للمخرج «عبداللطيف زكى» ، جرى عرضها على الشاشة الصغيرة ، قبل حوالى ثلاثة أعوام.

السهرة الضحية

فتلك السهرة تدور أحداثها حول موظف صغير ، جاءته فرصة العمل فى مكتب وكيل وزارة، حيث صار كاتم اسراره ، يعرف من خفايا حياته الشيء الكثير ، الأمر الذى أتاح له فرصة استغلال ذلك للصعود والارتقاء .

وعندما يتزوج رئيسه سراً من إحدى الموظفات ، يلعب بينهما دور المراسلة .

ولأنه فتى لماح ، فسرعان ما فهم قواعد اللعبة وسرعان ما استثمرها لصالحه.

فها هو ذا ، يتزوج مرة ثانية من فتاة صغيرة ، لعوب .

وها هو ذا ، صورة طبق الأصل من رئيسه فى النجاح والفساد .

وهكذا ، فاذا استبدلنا الواد محروس بخادم السهرة وإذا استبدلنا الوزير «الشناوى» بوكيل الوزارة فى تلك السهرة.

وإذا استبدلنا زوجتى «الواد محروس» و«الوزير» «الفت أمام» و« عايدة عبدالعزيز» بزوجتى ذلك الخادم والوكيل .

لوجدنا أنفسنا أمام فيلم لا يختلف كثيرا فى موضوعه عن سهرة الخادم .

إضافات وتجاوزات

حقا ، اضاف السيناريو إلى الفيلم وقائع لم تكن فى سهرة «الخادم» ، من بينها ترشيح الواد محروس لنفسه فى

الواد الزعيم والامبراطورة

الانتخابات لمجلس الشعب ، وفوزه بعضويته حيث أخذ يتقدم باستجوابات ضد الوزراء الفاسدين .

كما اضاف مشاهد جنسية ، ما كان فى الإمكان تضمينها السهرة التليفزيونية، بحكم غلبة الممنوع على المشروع فيما يقدم لمتفرجى الشاشة الصغيرة .

ورغم ذلك ، فالفيلم لايختلف كثيراً ، فى جوهره ، عن الخادم .

خادمة وامبراطورة

والآن إلى فيلم «الجندى» صاحبة لقب نجمة الجماهير ، يبدأ بها الفيلم خادمة فى ريعان الشباب ، اسمها «زنوبة» وينتهى بها امبراطورة اسمها «زيزى» ومهنتها الاتجار فى أشد السموم البيضاء هولا «الهيروين».

وفيما بين بداية متواضعة ، ونهاية فاجعة على النحو سالف البيان ، تمر أمام أعيننا لقطات فيلم ، أو بمعنى أصح ، خليط متنافر ، بعضه مأخوذ عن ثلاثية «الأب الروحى» لصاحبه المخرج الأشهر «فرانسيس فورد كوبولا» ، وبعضه الآخر مأخوذ من «الوجه ذو الندبة» لصاحبه المخرج «برايان دى بالما» .

وكعهدنا مع «الجندى» فجميع أفلامها اللاحقة لحصولها على لقب نجمة الجماهير إنما تتمحور حولها ، بحيث لا تدور إلا فى فلكها ، وعنه لا تحيد .

ولا أدل على ذلك ، من أحداث فيلمها الأخير ، حيث تكاد لا تغيب عن الشاشة إلا نادرا ، ولثوان .

فما أن تنتهى العناوين ، حتى تظهر فى أولى لقطاته بمؤخرتها فقط، وهى واقفة على سلم داخل شقة فخمة ، حيث تعمل خادمة ، محل اشتهاء الرائد «أحمد فؤاد» ، ويؤدى دوره «جمال عبدالناصر» ، النجم المفضل الآن لدى نجمة الجماهير .

ويظل الحال على هذا المنوال طوال الفيلم حتى لقطة الختام ، حيث تقترب عين الكاميرا من خدها الأسيل ، ملتصقا بخد «أحمد فؤاد» ، حبها الأول والأخير ، وهو مستلق على فراش الموت ، متأثرا بسم زعاف ، دسته له فى الشراب .

فساتين وقبعات

ومن بين ما عودتنا عليه نجمة الجماهير ، كثرة وتنوع ما ترتديه من فساتين وقبعات .

وانطلاقا من هذه العادة ، وإسرافا منها فى الكرم أكثرت نجمة الجماهير من تغيير الفساتين والقبعات ، على نحو ليس له مثيل ، إلا فى عروض بيوت الأزياء.

فإذا ما استثنينا لقطات الاستهلال ، حيث كانت تعمل شغالة غلبانة ، ولكن لعوب .

وبحكم ذلك لم ترتدى سوى فستان واحد ، أنيق لم يتغير فى بيت العز ، حيث كانت تخدم ، عنه فى بيت الحى الفقير ، حيث كانت تقيم .

فطوال الفيلم بعد ذلك ، كانت تستبدل فستانا بفستان ، مع كل مشهد جديد .

وأكاد أجزم أنها بعدد فساتينها التى ارتدتها خلال ساعتى الفيلم ، قد شكلت عرضا منفردا لأزياء من مختلف الألوان ، يكاد يضارع فى الكم ، لا الكيف ، عروض

كبريات بيوت الأزياء .

ولا يفوتني هنا أن أشير إلى شيء تكاد تنفرد به أفلامها ، وهو كثرة الرجال الذين يقعون في حبها من أول نظرة .

وفي «الامبراطورة» يقع في حبها كل من «جمال عبدالناصر» و«إبراهيم يسرى» و«حسن حسين».

ولأنها امرأة ذباحة للرجال ، فلا أحد منهم إلا وينتهي به هيامه بها قتيلا .

أما كيف صعدت من شابة شغالة في الحضيض إلى مرتبة أمبراطورة ، أسطورة ، فذلك ما يحكيه سيناريو «مصطفى محرم» ، ببعض إطالة ، وبكثير من التكرار .

الإغراء بالرقص

ولن أتحدث عن الإطالة والتكرار إلى حد الإملال ، فذلك شيء يطول ، وإنما أكتفي بأن أقول بأن نجمة الجماهير ، رقصت كما عودتنا رقصتين في الفيلم ، الأولى ليلة زفافها على المعلم الذى أدى دوره «حسن حسين» .

والثانية أمام «مجدى» ابن الأكابر ،أو الباشا ويؤدى دوره «إبرهيم يسرى» ، في محاولة منها لإغرائه بالزواج ، بعد تخلصها من المعلم بالقتل .

ولأمر ما ، لعله ، السخاء في الإغراء واصلت الرقص ، وهي تتلوى كالأفعى ، على كلمات أغنية ، لا لثوان ، وانما لدقائق طالت حتى انتهاء الأغنية .

وخارج دائرة الأحباء الضحايا ، توجد دائرة أخرى لا تقل أهمية في حياة «زنوبة» أو «زيزى» هي دائرة أشقائها .

وهما شقيقان ، ويلعب دورهما نجمان أحدهما «أحمد بدير» في دور شقيقها الأكبر «سالم» والآخر «محمد رياض» في دور شقيقها الأصغر «زينهم» .

وكلاهما اختار ، تحت تأثير جبروتها ، طريق مشاركتها في الاتجار بالمخدرات .

وكلاهما كانت نهايته فاجعة ، الأول فاقدا الصواب نتيجة إدمان الهيروين ، والثاني مقتولا برصاص الشرطة في ربوع لبنان.

وعندى انه لا «بدير» ولا «رياض» قد أضاف إلى رصيده الفني بارتضاء المشاركة بالتمثيل في الفيلم ، بل لعله انتقص بذلك من هذا الرصيد .

ومما جاء في ملصقات وعناوين الفيلم إنه من إخراج «على عبدالخالق» صاحب «أغنية على المر» و«العار» .

ولولا وجود اسمه في ملصقات الفيلم وعناوينه لما خطر على البال أن «الامبراطورة» من إخراجه ، فأخطاء الفيلم، والحق يقال ، كثيرة ، لا يتسع لي المجال هنا للوقوف حتى عند بعضها ، ولو قليلا .

ومن بينها على سبيل التمثيل، إهمال التفاصيل والزج دون داع بنظرية المؤامرة، وعبدة الشيطان ، والعرض على الهامش لأكثر من قضية جديرة بالانتباه والاهتمام، ورغم ذلك المرور عليها مر الكرام!!.

وفي الختام ، فلعلى بهذا العرض لفيلمي «إمام والجندى» قد أجبت «على» السؤال !!. □



القصة



قصة قصيرة

بقلم :أحمد عبد الله متولي بريشة : سميحة حسنين

- لابد أن أعود إلى البيت . قالها بوهن، كمن صعد الهرم الأكبر .

- لماذا كل هذا الحنين إلى البيت ؟!.. سألته ساخرة، وهى تمضغ اللبان تحت ضرسها.

يجفف الرجل وجهه المتعرق، وهو يطالع وجه شريكته الحسناء التى لا تعترف بشئ اسمه التعب! قفزت إلى ذهنه حكايتها.. من يصدق أن هذا الملاك تسببت فى جريمة قتل! لقد دفعتها الغيرة.. إلى القتل . حين أيقنت من خيانة زوجها بعد زواج دام خمس سنوات وبعد طفلين.. وشت إلى الزوج المخدوع مثلها بالمكان والزمان اندفع الرجل المسكين كما يندفع الفأر إلى المصيدة.. ليرى زوجته تحت دبابة بشرية.. الزوج الذئب.. قتل الزوج الحمل.. لم يكتف بضربة هائلة افقدت خصمه



الوعى.. امسك بالرجل الضعيف.. يلتقطه كما الدجاجة ويقذف به من نافذة المنور.. من الطابق العاشر!.. وسط ذهول المرأة الأخرى.. اغتالت الدهشة كيانها فلم تصرخ! كان زوج سونيا رياضيا، مقاتلا.

قالت سونيا: لماذا تحدق فى وجهى هكذا! أنا مثلك أعمل بلا كلل ويشهد الاستديو بذلك!

- دائما اراك لأول مرة! أميرة الضوء!.. لماذا لا نلتقط الانفاس يا أميرة!

- «سيدى يا سيدى على الكلام».. ثم أضافت: اغسل وجهك بماء بارد حتى تنتعش!

شهدت سونيا ضد زوجها فى التحقيق، ربما لو كذبت لانقذته.. كان الجميع فى ذهول.. قال المحامى بقرف ونفاد صبر.

- شهادتك سيف على رقبة زوجك!.. كأنك تودين سحقه!

قال أخوه: إنه ابو الأولاد.. لن يغفروا لك هذا!

قالت صديقتها: غير معقول يا سونيا!. لم أرك قاسية هكذا.

مطت شفتيها فى احتقار قالت لصديقتها: انه يستحق الاعدام ألف ألف مرة.. لماذا يذهب إلى تلك العاهرة! وطلبت الطلاق، صارت حرة تفعل ما تشاء بمال زوجها الخائن! يقولون عنها: امرأة حديدية! لكن صديقها وشريكها فى

القطة
قصة قصيرة

العمل يراها - فى قليل من الأحيان - ضعيفة.. على وشك البكاء! ويجد نفسه يربت على ظهرها ويداعب شعرها، تمسح دمعتها وتنبض البسمة وتشرق الشمس من جديد!

- سونيا، لابد أن أعود إلى البيت، من أجل قطتى! أجل قطتى تأكل الغبار منذ أسبوع نحن هنا فى عمل لا ينتهى.. عملنا هذا استعباد.. ألا تحسين بتعب فى رقبتك.. آه.. رقبتى تكاد تنكسر!

- سلامة رقبتك.. قليل من التدليك.. وحمام دافئ.. وتعود كالحصان!

وكل هذا على مسافة خطوة واحدة!

- اننا نجلس على طاولة الرسم عشر ساعات متواصلة .. ثم نصلب على اجهزة الكمبيوتر عشر ساعات أخرى. وننسى العالم كله!

- أنا مثلك.. ولا أشكو .. كما ترين اطمئن على الأولاد بالتليفون عند أمى..

- انت شباب يا سونيا.. شباب!

- لابد أن ننتهى من هذا الجبل.. لا داعى للكسل.. الفن لا يعترف بالكسل. لقد علمتنى أن الفن لا يؤجل.

- العمل لا ينتهى.. لا ينتهى.. أسبوع فى الاستديو لم نر الشارع. هذا جنون ماذا نأخذ من الدنيا!

تضع المرأة البيضاء يدها فى خصرها، تقف امامه بجسدها الرائع المحبوك دائما بلمسات ماهرة تظهر محاسنها.. مهما كانت مشغولة لا تنسى انوثتها وزينتها. قالت وهى ترقص حاجبها فى مداعبة.

- أيها الشقى.. أتريد العودة إلى البيت من أجل القطة فقط!

يقول وهو يتراجع برأسه، يعلوه شعر فضى

- انها روح.. روح يا ستى.. القطة مثل الانسان تماما!

تذكر زوجته التى هجرته وانشغلت بعالمها المجنون.. الدروشة وجمعيات البر! وابنته التى سافرت إلى الخارج مع زوجها فى صحراء النفط.. لم يبق له إلا قطته الأليفة. لا عزاء له إلا العمل. سونيا تعرف كيف تنقذه من الكسل، تعرف كيف تجعله يعمل ليل نهار، توهمه انها مساعدته وتلميذته، لكنها تقوده، تهيىء له الجو المناسب، هجمت عليه بطموحها وجمالها وشبابها.. حسنها - فى البداية - يهجم عليه كالأسد.. وتتمسح فيه كالقطة.. جعلته يطاردها كالغزال فى سرعة

الانفلات.. خيل إليه انه يروضها.. فهى تريد تجديد السيارة، وبناء الفيلا فى مصر الجديدة.. يشاركها فى تحديث الاستديو بشراء اجهزة الكمبيوتر، تورطت اصابعه فى دفع الملايين وضمانات العقارات والأرض، تقول له: لا يهم.. سوف نسدد البنك.. العمل يأتى بالمال.. لا تكل من الاتصالات التى تدعم الشركة، تظهر براعة فائقة فى التسويق والإدارة، عقلها يتعامل مع الأرقام والحسابات بلغة الشعر وحماسة الفنان لفنه!

تعرف كيف تتعامل مع الضرائب، انه يترك لها كل شئ.. لا يفهم فى دهاليز العمولات .. اقنعته ان الخلاص من العذاب هو الخلاص فى الفن والعمل والربح.

لو لم تكن سونيا.. ربما اكتفى بالوظيفة.. أو بالتدريس فى الجامعة.. أو الجلوس فى المقهى لمراقبة الشارع! يشكرها دائما.. اعطته الإدارة!. واتاحت للفنان فيه أن يعانق فنه.. تعرف كيف تفرج عنه وقت الازمات برحلة قصيرة خارج المدينة! يسأل نفسه، ماذا كان يفعل بدون سونيا.. لماذا ظهرت فى الوقت الخطأ! لكم تمنى ان يقابلها منذ ربع قرن. تضع امامه صحنا.. تقدم له سندوتشا من البيض المسلوق الذى يحبه ومعه كأس من الشاى الساخن، تبتسم له ابتسامة تشع عذوبة.. تطل عليه من عينين تسيلان عذوبة.

- خذ يا سيدى.. طهى جاريتك!

- انت تقرئينني. الاكل جاء فى وقته.

فى لحظة استرخاء - مابعد الطعام - تطفو على رأسه قطته الأليفة!.. لم يبق سوى قطته الاليفة. فليكن منصفا، جارته الاربعينية الحسناء، تهتم به تطبخ من أجله أكلات شهية. وهى تحب الفن وتتذوقه، لم تفسد رأسها بتجارة الفن مثل سونيا! لم تكن فنانة مثل سونيا.. لكن حياتها فن، ورحيقها فن، لم ترزق بأولاد.. تحب أولاد الآخرين! مدام مارسيل تتحدث العربية بطريقة لطيفة جدا، تحاول أن تقلد اللهجة المصرية، تناديه (ميدو).. فى بعض الاحيان لا يصدق انها باريسية المولد والنشأة انها تحب عادات الريف المصرى.. الطبلية.. أكل الفول والبصل وشرب الشاى.. وتتعجب لماذا لا تجلس النساء على المقاهى فى الاحياء الشعبية!

فى عيد ميلادها قدم لها هدية رمزية وقال لها: عقبال مائة سنة

قالت باسمة: ارجوك تمنى لى أن أعيش مائة

القطة
قصة قصيرة

وعشرين سنة مثل النبى موسى يقول لها مغتاظا: اتمنى أن تعيشين ٩٦٩ عاما مثل متوشالح

– لا يا ميدو.. ربما أصاب بالسأم!.

يترك لها مفتاح الشقة. تتسلم له خطاباته وتدفع نيابة عنه فواتير الكهرباء والغاز لها قوام هش، تحرص على الرشاقة كأنها راقصة باليه. آه لا يدرى ماذا كان يفعل لو لم تكن مدام مارسيل. لا يمقت فيها سوى عشقها للكلاب.. لديها ثلاثة كلاب.. تطعمها وتحميها وتغنى لها.. وتلعق قدميها! وحين مات أحد كلابها.. بكت بكاء مرا.. ودفنته.. وقالت فيه الشعر.. ولم تنس أن تعلق صورته إلى جانب صورة زوجها الراحل!.. حين رأت نظرته، قالت له: ميدو.. انت لا تعرف محبة (جيمى)! – تقصد كلبها الراحل – لا تكف مارسيل عن القراءة فى كل فروع المعرفة، والتدخين.. والشرب فى المساء.. والقهوة فى الصباح . مارسيل تحب الفكر والحياة المفتوحة وتنظر إلى وجودها فى العالم بدافع الاندماج فى العالم.. تحس بوحدة وجودية.. تصادق الأشجار والحيوانات والطيور، تحب الأرض التى تنام عليها. تقول عن الأرض «ميدو.. هذه الأم القديمة»!

سونيا تحب النقود وجسم الرجل والسيطرة. مارسيل تحب العطاء وتتسامح مع كل الضعف البشرى . ولا تحمل هما للغد.. يسعده ان يسمعها تقول – «غدا يوم آخر» تذكره بأمه التى كانت تقول لابيه نفس المعنى.. (يا زوجى العزيز.. الله لا يطالبنا بعمل الغد.. فلماذا تقلق على رزق الغد) سونيا لم ترحم زوجها. ولا ترحم من يخونها.. تؤمن بفلسفة العقاب.. لقد اطاحت بزوجها، نحته عن عالمها.. ولو لم يكن الأولاد من صلبه.. لدفنت ذكره الى الأبد. تعرف أن تحول القلب إلى مقبرة!..

تقول سونيا بروح عملية: كل ما هو ضرورى جميل، وكل ما هو نافع ضرورى! يطل عليه وجه مدام مارسيل، باسمة تقول:

– عزيزى.. من الصعب أن تحتفظ بالكرات الثلاث فى يديك.

– الكرات الثلاث!. ما هى حكاية الكرات الثلاث هذه؟

– انها الكرات الملونة التى تخطف حياة الناس.. المال والصحة وراحة البال.

– هل من المستحيل

الجمع بين الكرات.. مدام مارسيل؟

- الأمر يحتاج «الحاوى» الذى نراه فى بعض الشوارع. يحتاج بهلوان السيرك يكفى أن تعرف أن المال وحده كفيل بأن يجنن صاحبه.. يهوسه، يجعله قلقا حريصا أكثر مما ينبغى، المال يسرق من صاحبه البهجة لدرجة تجعلك تتساءل من يملك الآخر.

- انت فيلسوفة.. فيلسوفة من عصر غير عصرنا!

تمد له الكأس: خذ.. اشرب فى صحتك!

كيف بدأت الجرثومة. بدأت كيف.. لا يدرى على وجه التحديد.. ربما حين رآها ترقص فى شقتها.. ربما حين شاهدها مستلقية تحت الضوء فى غلالة شفافة! ربما.. بدأت الجرثومة حين وجدها ملقاة على الأرض تحتاج الاسعاف.. جلس الى جانبها عدة أيام.. واستعادت وعيها.. صارت اقرب إليه من أى انسان.. قالت له: لقد انقذتنى.. انا ملك لك.. هكذا تقول الاساطير القديمة.. على فكرة.. انا أؤمن بالاساطير!

حديثها معه لا ينتهى أبدا.. مدام مارسيل شعلة نشاط، تعمل فى السياحة، كثيرة الأسفار لاسيما إلى فرنسا، لها علاقات وطيدة بين أبناء جلدتها، صلتها بالسفارة الفرنسية دائمة، لها علاقات حميمة مع أسرة القنصل، تتحدث عن القنصل بحرارة..

انه رجل عظيم، متواضع، تثق به من أول مقابلة.. يشعرك بالارتياح، ذو علم.. لابد أن أقابلك به!

يسألها بحذر حتى لا يخدش حماسها وإعجابها:

- هل الأمر يتعلق بالعمل السياسى.. أقصد اتصاله بأفراد الجالية.. بالفعل لقد سألوا عنك فترة المرض.. وقاموا بزيارتك عدة مرات ومعهم الورد والهدايا قالت بتدفق - يلون الغضب بعض نبرات صوتها - : كلا.. كلا بالطبع.. انه يضع البعد الانسانى فى المقام الأول.. يريد أن يشعرك دائما انه معك خلفك.. فى أى مشكلة أو أزمة.. تجده معك. لا أدرى من أين يجئ بالوقت انه يحل

مشكلات أسرية!.. كأنه قس! نذهب إليه ونعترف له بأسرارنا الخاصة وتضيف مدام مارسيل بخفة ظل: لماذا تتخابث.. هل تظن انهم يجندوننا.. انا مواطنة مصرية.. لست من الطابور الخامس. هيا.. صالحني بقبلة فورا. يضمها إليه في اعتذار رقيق ويستمر في حواره: بصراحة أحسدكم.. اتمنى أن يحدث هذا في بلادنا.. العمالة المصرية تحتاج الدعم في الخارج.

- برافو ميدو.. هذا ما قصدته، انهم يقولون بالفعل وليس بالقول.. انهم معك . ليس من أجل الحقوق ولقمة العيش.. ولكن من أجل حق المغترب في السعادة رجال السفارة - بعد عملهم الرسمي - يتصلون بالأسرة الكبيرة.. يتوددون اليك بروح عالية.. بالفعل هم أبطال يعملون في الخفاء طول الوقت، تعطيه «الكوكتيل» الذي اخترعته لنفسها.. تداعب كلبها الذي يجلس تحت ساقيها العاريتين.. تدخن سيجارتها، تسأله: هل تعرف الغاية من العمل السياسي؟ ما هو العمل السياسي ميدو؟

- لا أمقت في الدنيا شيئا قدر التعريفات. أريد أن اسمعك.

- في رأيي صديقي العزيز، انه رعاية الناس.. في الهدف الأخير والأول.. رعاية شئون الناس في الداخل والخارج.. العمل السياسي ليس سلطة ولا وجاهة.. عبء ضخم.. أحس به.. انهم يقابلون الجهل والجحود والغضب بابتسامة.. وقد يتعرضون لمخالب العنف! انهم واجهة.. بالطبع ليسوا جميعا ملائكة.. ولكنني اتحدث عن رجال شرفاء رأيتهم بعيني في الرحلة والترحال وفي اقامتي الطويلة خارج فرنسا.

رأت سونيا شروده.. ظنت أن الطعام لا يعجبه

- لماذا لا تأكل.. هل تريد شيئا آخر.. لدينا في الثلاجة الكثير.. قالت ذلك وهي تقضم شطيرة.

- شكرا سونيا..

- هل انت مريض.. مؤدب أكثر مما ينبغي.. لماذا الشرود وانا معك ؟!

- أنا بخير سونيا.. انها فواصل هامة في الدماغ!.. سأعود كالحصان.

- لكنك تفكر بالقطة.. هه!

مدام مارسيل تحب الرقص.. تقول له :

- ميدو.. لابد أن تتعلم الرقص.. انه من الضرورات.. لابد من التعبير، وإزالة التوتر..

القطة قصة قصيرة

كل الشعوب ترقص.

– علميني الرقص.

يترك لها جسده.. تخطو به بضع خطوات.. يشم عطرها.. حرارة جسمها الصغير خفيفة كاليمامة.. ريشة فى الهواء.. يكسر القواعد يضمها إليه.. تقول له :

–اووه ميدو.. انت تكسر الاصول.. للرقص اصول.. وآداب.. وللعب وقت آخر.. أليس كذلك عزيزى ميدو؟

– سبحان الله فى طبعك !!

– طبعى لا يعجبك ميدو؟!

– فيه حاجة اسمها الحرارة.. الاعجاب.. اللهفة .

– أهذا درس فى الفيزياء؟

– لسة جنون مدام مارسيل!

ينتشى حين يراها تضحك، يتمنى أن يكون صديقها بحق، يتمنى ان تنسى مسألة الغربة والاغتراب، يدخل عليها وخلف ظهره باقة ورد.. زجاجة عطر.. تطير فرحا.. تضمه إليها فى امتنان. يرفعها فى الهواء ويدور بها فى الحجرة.. كأنها طفلة يحتسى معها الشراب الذى تعشقه.. ويستمع معها إلى موتسارت.

تجلس إلى جواره وهو يرسم.. تسعد به.. تراقب أصابعه الماهرة فى خلق الشخصيات.. تقول له. حدثت اصدقائى عنك.. انا فخورة بك.

– انا سعيد باهتمامك وتقديرك لفنى.

تسأله: لماذا لا تهتم بالرحلات ميدو.. الرحلات الداخلية مثلا.

– أين تودين ان نذهب معا!

– الى الصحراء ميدو.. الصحراء الغربية.. الواحات.. والاماكن غير المعروفة هناك بعد العلمين..

– لم أفكر فى زيارة هذه الأماكن.

– كيف تكون فنانا ولا تعرف بلدك. لقد زرت الصعيد وسيناء وجميع المناطق الاثرية.. لابد ان ترى مصر.. مصر ليست القاهرة ميدو.. سوف نأخذك معنا فى رحلة قريبا.. تنهض لتدير شريطا سينمائيا عن تسجيل بعض الرحلات يسمع تعليقها: يا الله كم سحرتنى سلسلة الجبال فى سيناء.. ننطلق بالسيارة .. الوادى السحيق ينبسط أمامنا ثم يضيق . كان يخيل الى أن كتل الصخور الملونة سوف تسقط على رأسى . ما أجمل أن تقف أمام التاريخ، فى قلب المسرح.. هناك ملايين السنين تطل عليك.. الطبيعة فى سيناء أكثر عظمة من كل انجازات البشر!.. الطبيعة أعظم العبقريات الالهية..

تقول مدام مارسيل وهى تشعل له سيجارة :

– هناك تنفست الهواء النظيف! رأيت التاريخ

القديم . احسست انني اقف على ارض الانبياء.. دراما التاريخ.. أرض الموت والاهمال! لن أحدثك عن شرم الشيخ، والطور، ودهب ونويبع.. لابد أن تلمس هذه الأماكن بنفسك بيدك.. بعينيك.. كان يعرف ولعها بالتاريخ.. والغطس.

صورت مدام مارسيل فيلما كاملا عن رياضة الغطس.. لها ولرفاق لا يعرفهم جاءوا في افواج سياحية من كل الدنيا.

تقول في حماسة: لابد أن نذهب معا إلى سيناء . ولكن بعد رحلة الصحراء الغربية. يكاد يشعر بالخجل.. انها تحدثه عن بلده.. وهو المحاصر دائما منذ ولدته امه بالاشغال التافهة.. كأنه من فصيلة الزواحف.

تقول مدام مارسيل: فوق أرض سيناء.. حركت أقدامي ذاكرة قديمة جدا.. تخيلت نفسي أمشي في نفس المسار.. نفس طريق حورس وابراهيم ويعقوب ويوسف.. كنت انظر إلى مواضع اقدام الاسكندر العظيم والمسيح الاعظم. نسيت انني من لحم ودم. ونسيت الارهاق والجوع والعطش.

يسمع سونيا تكلمه وهي تضغط على الحروف.

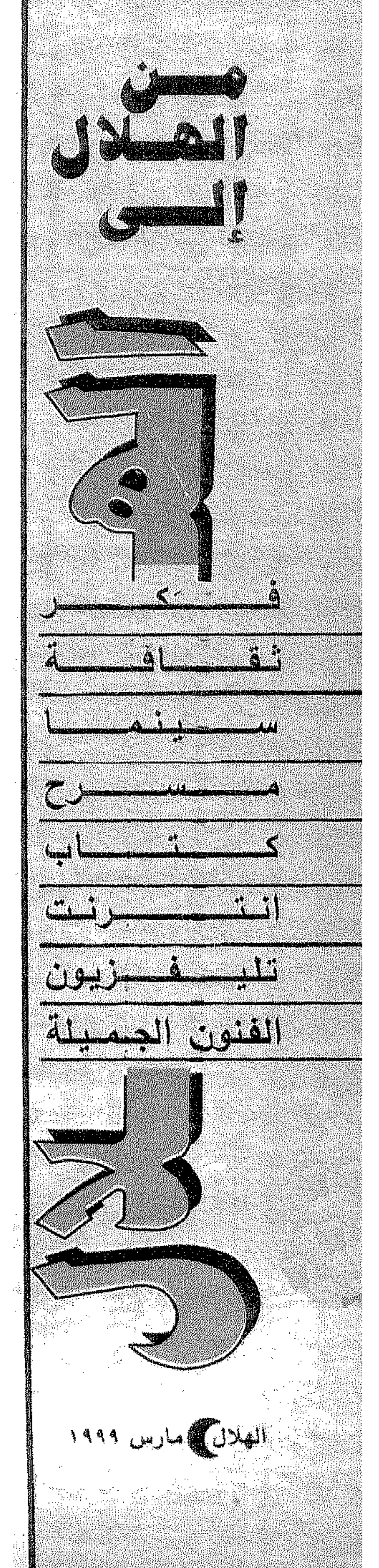
– امرك غريب يا رجل.. أما زلت تفكر بالقطة؟!

– وحشتني القطة جدا!

– يا شيخ!

هبت نسمة هواء، طارت بعض الأوراق المرسومة بالقلم الرصاص وأوراق السليولويد البلاستيكية الرقيقة.. انحنت سونيا تلتقطها بأصابعها الناعمة المدربة على الأعمال الدقيقة. انحنت سونيا.. انحنى ليساعدها شاهد اجزاء بيضاء فوق الركبة.. تلك الفتحة المشقوقة بحساب عبقري فوق الجسد.. الثوب المحبوك . انحنت المرأة أكثر.. الأوراق مهمة جدا.. نسيت أن تضع الثقل.. لابد من انجاز العمل.. اقترب ليساعدها.. وقد تذكر ملمس القطة.





كتاب

ماذا يقرأ العرب ؟

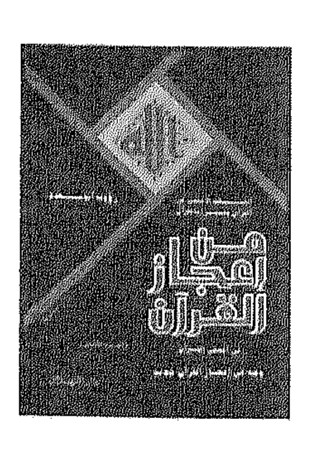
يجيء الرد من خلال مطالعة لعناوين الكتب الصادرة عن ١٦٢ ناشراً عربياً ، تتوزع أنشطتهم ومكاتبهم بين البلاد العربية ، وفى بعض العواصم الأوربية .

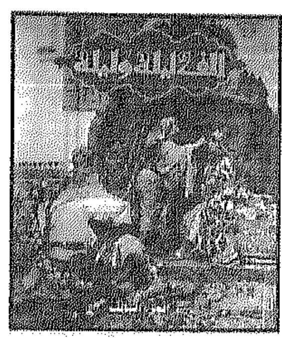
هذه العناوين تم حصرها فى الكتاب الذى أصدره الاتحاد العام للناشرين العرب للعام الماضى .

وبنظرة أولى لهذا الدليل ، سنلاحظ أن القارىء العربى قارىء نظرى فى المقام الأول ، فأغلب ما صدر له من كتب حول الدين ، والأدب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والإنسانيات ، بينما تقل بشكل ملحوظ الكتب العلمية ، والعملية ، ولاشك أن نشر هذه العناوين يعكس رغبة القارىء ، التى من خلالها يقوم الناشر باعداد خطته ، وعلى سبيل المثال ، فان بلداً مثل الأردن لم يصدر فيها كتابا علميا تطبيقيا واحداً ، سوى كتب من طراز «مقدمة فى علم الوراثة» ، و«مقدمة فى علم النفس» ، أما الكتب السياسية التى اصدرها مركز الامارات للدراسات والبحوث فتصل الى ٨٢ كتاباً ، بينما اصدارات دائرة الثقافة والإعلام فهى من نوع «سندريللا» و«عودة هولاكو» ، و«مجنونة بحيرة خان» .

وقد تصاعدت عناوين كتب الأطفال ، والأعمال الأدبية ، بالاضافة الى الكتب الدينية فى دول عديدة منها البحرين ، والسعودية ، ومصر ، ويبدأ النقاد يهتمون بالاصالة والمعاصرة كعادتهم ، وفى السودان صدرت سبع كتب عن الدار السودانية للكتب ، منها «تخميس همزية الامام البوصيرى» و«الكواكب الدرية» .

وبدت العناوين متشابهة بين دور النشر فى سوريا ، ولبنان،





حيث تزدحم المكتبات فى المقام الأول بكتب الأطفال أغلبها عن التراث ، مما يضمن للناشر سهولة التوزيع ، وفى سوريا ولبنان، ارتفعت حركة الترجمة وقامت دور النشر بتقديم روايات لادباء معاصرين لم يسمع عنهم النقاد فى مصر ، مثل انطونيو تابوكى صاحب رواية «ليال هندية» .

وفى دار طلاس تم تقديم كتب علمية سبق للكثير منها أن ترجم فى العراق ، ومصر ، مثل «الثقوب السوداء» لستيفن هوكنج .

وقد لوحظ فى الدليل أن بعض الدول مثلت من خلال أجهزتها الرسمية ، فليس المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب هو الناشر الأوحد فى الكويت ، ومن بين الكتب المهمة التى صدرت عنه «المعلوماتية بعد الانترنت» التى سبقت للهلال أن خصصت عنه دراسة متكاملة فى يونيه الماضى .

وقد اهتم الناشرون فى لبنان بالروايات العالمية الحديثة، بينما اهتمت مصر باصدارات الأدباء المحدثين ، وفى ليبيا صدرت بعض الكتب العلمية المهمة مثل التصميم الرقمى وأساسيات ميكانيكا الموائع فى الوقت الذى تتنافس فيه دور نشر عربية عديدة فى اصدار قواميس وموسوعات ، ومذكرات رجال السياسة .

وبدت هناك ظاهرة غريبة فى الكتابة للأطفال ، فأغلب اسماء الذين يكتبون القصص الدينية للأطفال من غير كتاب الطفل ، وهم غالبا موظفون يتم توظيفهم لدور النشر، مما يعكس نظرة العديد من أصحاب هذه الدور للكتابة للطفل .

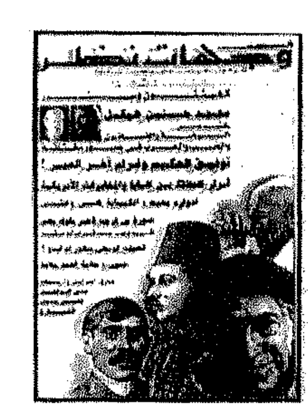
وفى مصر على سبيل المثال ، عرفت دور نشر كثيرة غزارة الاصدارات ، بصرف النظر عن العناوين ، ومنها دار قباء (١٣٣ كتاباً ، أى ١١ كتاباً كل شهر) ، ونهضة مصر (١٩٠ كتاباً) حيث اعتبرت أن الكتب الدراسية الخارجية من الاصدارات ، وكذلك سلاسل سوبرمان ، وغيرها (وهى فى الأصل اعداد من مجلات) ، ولو نظرنا الى نفس المنطق فان وزارة التعليم لابد أن تكون الناشر الأهم ، والأكثر غزارة لما تصدره من كتب .

والملاحظ أن دور نشر بعينها ، قد اهتمت باصدار كتب عن برامج الكوميديا الحديثة ، وهى كتب قليلة والغريب أن عدد الكتب التى اصدرتها هيئة الكتاب قد وصل الى ٥٠ عنوانا ، تراوحت بين التاريخ ، والمعارف ، ولم تضم القائمة اصدارات مكتبة الأسرة على سبيل المثال ، ولا الأعمال الكاملة .

من الواضح أن هذه العناوين مكتوبة بوجهة نظر الناشرين، وأن بعض هذه الكتب لم يصدر حتى تاريخ نشر هذا المقال .



ملاحظات على «وجهات نظر» !



استقبلت الأوساط الثقافية صدور المجلة الجديدة «الكتب : وجهات نظر» بترحيب هى جديرة به . وضاعف من الاهتمام بالمجلة ، لدى صدور عددها الأول مع بداية شهر فبراير الماضى، أنه احتشد لإصدارها مجموعة من «الكبار» كلهم راسخ القدم والتجربة : الناشر إبراهيم المعلم، والديبلوماسى والباحث المرموق جميل مطر ، والفنان الكبير حلمى التونى ، والكاتب والمعلق البارز سلامة أحمد سلامة الذى يتولى مسئولية رئاسة التحرير . ومن وراء هذا الحشد القوى يقف الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل الذى يبدو أنه «عراب» المشروع وصاحب القوة كالفعالة التى أزالت العقبات ويسرت خروج المولود الجديد إلى الوجود .

ولا جدال فى أن المادة التى حفل بها العدد الأول قد شدت اهتمام القراء فى شتى الاتجاهات والميول . وبذلك دلت المجلة

الجديدة على أنها جاءت لتسد فراغا وتشبع حاجة يسلم بوجودها الجميع .

ومع ذلك ، فإن هناك مجموعة من الملاحظات نرى أنه من الواجب أن نضعها منذ الآن أمام هذه المجموعة من الأصدقاء والزملاء القدامى الذين انبروا لهذا العمل الخلاق والطموح . ولا تقلل الملاحظات ، بالطبع ، من قيمة العمل ، كما أنه لا يقصد بها أن تعكر صفو ما استقبل به العدد الأول من حفاوة وترحاب.

أولى الملاحظات : هى ضياع الحدود بين «المقال» و«عرض الكتاب» . فعلى الرغم من أن الهدف الأساسى للمجلة - كما سجل العدد الأول - هو «فتح شهية الأجيال الجديدة للعودة إلى الكتاب» .. وأن تقدم المجلة لقارئها «أحدث وأهم الكتب الصادرة بمختلف اللغات» ، إلا أن ثلث المادة تقريبا جاء عبارة عن مقالات يمكن أن تستوعبها أية مطبوعة أخرى تعنى بالثقافة والفكر . نقول ذلك على الرغم من أن بعض المقالات يتمتع بجاذبية شديدة للقراء ، وفى مقدمتها - بالطبع - مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل عن كلينتون وستار ، والمقدمة التى كتبها لعرض مذكرات كريم ثابت .

والملاحظة الثانية : هى أن العديد من الكتب التى ضم العدد عروضا لها كانت كتبا «قديمة» إلى حد ما .. فبعضها يرجع تاريخ صدوره إلى عام ١٩٩٦ ، بل ويرجع بعضها إلى أعوام ١٩٩٣ و١٩٩٢ وحتى ١٩٩٠ . ولاشك أن ذلك ينطوى على خيبة أمل للقارىء ، فضلا عن أنه يتناقض مع المبدأ أو الالتزام المعلن بتقديم «أحدث وأهم الكتب» .

والملاحظة الثالثة : هى أن العدد ضم مادة نخشى أن يكون من القراء من تمنى ألا «يصدمه» بها العدد الأول نعنى

تحديدا ذلك العرض لكتاب عن الرسائل الخاصة لتوفيق الحكيم، وهى رسائل تحمل مشاعر فياضة تجاه عائلة ابنه الراحل «اسماعيل» . ذلك أن الكتاب الذى قدمته المجلة جنح إلى تفسير هذه المشاعر - التى ربما كان أديبنا الكبير يعوض بها ما لم يعبر به تجاه ابنه خلال حياته - على أنها غرام شيخ هرم وهيامه بأرملة ابنه . وهو، فيما يبدو لنا ، «تخريج» غريب .. فضلا عن أن يمثل صدمة لمشاعر محبى فن الحكيم وقرائه .

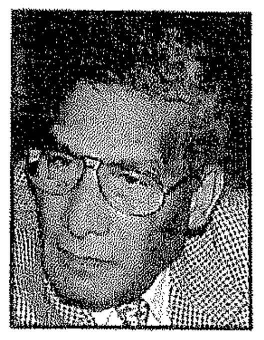
والملاحظة الرابعة : هى أن المادة في مجملها لا تنم عن «حسن اختيار» الكتب على نحو ما هو متوقع فى العدد الأول بالذات . يكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مذكرات كريم ثابت التى لا يبدو أنها تقدم جديدا .. رغم شغف البعض بمطالعة قصص وحكايات العهد الملكى وأسرار القصور ! .

على أن هذه الملاحظات لا ينبغى أن تحجب ترحيبنا بما احتواه العدد الأول من «عروض موجزة» لكتب جديدة وتبويبها بشكل جيد ، وكذلك ما تضمنه من تقديم عناوين كتب أخرى تحت عنوان «قراءات جديدة» ، وهي مادة مفيدة ومطلوبة بغير شك .


إبراهيم المعلم

وتبقى أخيرا ، ملاحظات «فى الشكل» . فالحجم الذى صدرت به المجلة الوليدة يبدو غير مريح ! (مع كل التقدير للصديق الفنان حلمى التونى) . فمن الذى «يرتاح» وهو يتصفح أو يطالع مجلة تباعد مابين يديه بنحو نصف المتر ؟! كذلك ، أعتقد أننى أعبر عن رأى الكثيرين عندما أسجل اعتراضى على السعر الذى حدد للمجلة وهو عشرة جنيهات . وأود أن أحذر من أن الإقبال على شراء العدد الأول لا يعنى بالضرورة قبولا ضمنيا لهذا السعر الذى يعتبر عاليا بكل المقاييس . والذي أرجوه ، هو ألا يؤدى ذلك إلى ما يعود على أصحاب المشروع ، الجاد والمفيد ، بنوع من «خيبة الأمل» لهم .. ولنا فى الوقت نفسه !

محمود أحمد


سلامة أحمد سلامة

الصحافة المصرية في مواجهة الإنترنت

منذ عدة سنوات كان الحديث عن شبكة الانترنت فى الصحف المصرية مقصورا على بعض التحقيقات التى تحاول تعريف القراء بماهية هذه الشبكة ثم تطورت العلاقة بين الصحافة المصرية والإنترنت عبر ثلاث مراحل من الصعب أن تصفها بالتوالى حيث جاءت متزامنة مع بعضها البعض.. المرحلة الأولى كانت وجود صفحات متخصصة عن الكمبيوتر ثم عن الكمبيوتر والإنترنت بجوار صفحات الفن والسياحة وأخبار المحافظات . أما الثانية فكانت الاستعانة بالإنترنت كوسيلة للمعلومات أسرع وأفضل من وكالات الأنباء ، وظهر هذا جليا فى تغطية صحيفة أخبار اليوم للضربات الأمريكية لأفغانستان والسودان أما المرحلة الثالثة فهى وجود مواقع لعدة صحف مصرية على الشبكة مثل الشعب والجمهورية والأهرام.. والسؤال الذى يطرح نفسه بعد هذه المقدمة.. هل استطاعت الصحافة بهذا المجهود المتواصل فى التعامل مع التطور التكنولوجى الجارف.. هل استطاعت أن تواجه الأنترنت بكل ما يحمله من مميزات تهدد أركان الصحافة المطبوعة.. فى رأيى أن الإجابة هى لا.. وذلك لأن مافعلته الصحافة المصرية قد يكون مناسبا خلال هذا التوقيت ولكن بعد سنة أو أكثر قليلا لن يمكن أن يظل الوضع على ماهو عليه، فإذا كانت تقديرات عدد مستخدمى الانترنت فى مصر تشير إلى أنهم وصلوا إلى ٢٠٠ ألف شخص فإن هذا العدد يتضاعف بسرعة رهيبة وقد يصل للمليون مع بداية القرن الجديد الذى لم يبق عليه سوى عدة شهور وهذه الحقيقة يجب على الصحف أن تدركها جيدا ليس

بنشر معلومات وأخبار عن طبيعة الحياة فى هذا القرن ولكن بالاستعداد له.. ولن يكون الاستعداد بوضع الصفحات نفسها المطبوعة على شاشات الكمبيوتر بل هناك نموذج آخر نتوقع أن يظهر قريبا فى مصر والدول العربية ، والمطلوب أن تكون الريادة للصحف المصرية على أرضها حتى لا نجد صحفاً غير مصرية تنشر هذا النموذج داخل مصر معتمدة على خلو السوق الصحفى منه.

النموذج

النموذج الذى نتحدث عنه هو الصحيفة الالكترونية التى تصدر بعيدا عن الورق والحبر والمطبعة وسيارات التوزيع.. وكذلك بعيدا عن إجراءات الحصول على ترخيص.. وقبل شرح هذا النموذج ننبه بعض المتحدثين فى مجال الصحافة والإنترنت إلي التعريف الخاطىء للصحافة الالكترونية حيث ذهبوا إلى أنها استخدام الحاسبات الإلكترونية فى إصدار الصحيفة المطبوعة لأن هذا الأسلوب فى إصدار الصحف يطلق عليه استخدام التكنولوجيا الحديثة فى إصدار الصحف المطبوعة وحاليا يوجد اتجاه قوى نحو إدخال الكمبيوتر إلى كل مراحل طباعة الصحيفة.. ورغم ذلك يبقى النموذج المستقبلى للصحافة هو الهدف الذى يجب أن نسعى إليه لأنه عندما يسود سيختفى من عالمنا مصطلح «ورق الجرائد» ، ويعتمد هذا النموذج على توصيل المعلومات والأخبار والخدمات والإعلانات إلى المستخدم فى منزله أو مكان عمله عبر الشبكة دون الحاجة إلى قراءة صحف الصباح ثم مواجهة مشكلة التخلص من أكوام الورق المتكدسة آخر كل شهر.



محمد حسنين هيكل

فى هذا النموذج يمكن للقارىء أن يحصل على آخر الأحداث أولاً بأول فما عليه إلا أن يكتب على شاشة الحاسب الخاص به عنوان الصحيفة ليجد كل جديد ويتعرف على آراء وتحليلات كبار الكتاب والمحللين السياسيين والنقاد فى الأدب والفن والرياضة ولو فرضنا وجود صحيفة مصرية الكترونية ـ بالمعنى الصحيح ـ فإن قارئها يستطيع أن يعرف ما دار مثلا

فى لقاء الأستاذ محمد حسنين هيكل بزواد معرض الكتاب بعد انتهائه بساعتين على الأكثر.. دون انتظار الطبعة الأولى من الصحف وسيعرف كل مادار فى اللقاء فلا توجد رقابة على الانترنت! أما إذا أراد السفر لكندا فى نهاية الأسبوع لأمر مهم وعاجل فسيجد شركات الطيران حريصة على أن تضع دليلا لرحلاتها فى الصحيفة الالكترونية ، وهناك فى أمريكا الشمالية وبواسطة الجريدة نفسها سيعرف مايدور فى وطنه دون الحاجة إلي البحث عن الطبعات الدولية للصحف المصرية.

تغيرات

وهناك العديد من المجالات الجديدة التى ستظهر مع وجود هذا النوع من الصحافة لا مجال لذكرها فى هذا المقال ، ولكنى رأيت أنه من الأفضل التحدث عن التغير الذى سيحدث لدور الصحافة كوسيلة إعلام بعد اختفاء حروف المطبعة وظهور حروف لوحة المفاتيح Keyboard.. وأذكر مثالا لهذا التغير حيث سيكون من السهل إجراء استطلاعات رأى لحظية وطويلة المدى حول أهم الأحداث التى تمر بالمنطقة وهنا تتحول الصحافة المصرية إلي صانعة أخبار وليست متابعة أو ناقلة فقط.. وستهتم وسائل الإعلام العالمية بنقل نتائج هذه الاستطلاعات بدلا من اهتمامنا نحن برأى الأمريكيين فى عزل كلينتون أو بقائه.. وبالإضافة إلى ماسبق نؤكد أن هذا النوع الجديد من الصحافة يعد نموذجا للمشروع الاقتصادى الناجح لأنه يمول نفسه ذاتيا عن طريق الإعلانات والخدمات الصحفية مدفوعة الثمن.

وأخيرا إن أهم مايميز التطور التكنولوجى الهائل الحادث من حولنا أنه لا مجال فيه للريادة أو لشعار حضارة السبعة آلاف سنة فلا يضرنا أننا بدأنا متأخرين.. فبعيدا عن الثقة الزائدة بالنفس بإمكاننا أن نتطور في هذا المجال الذى لم يعد فيه أسرار وتصبح لنا السيادة إذا أردنا!!.

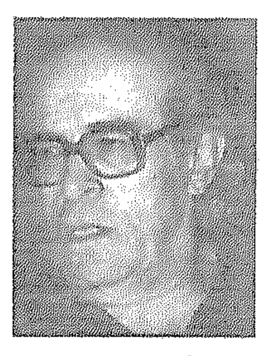
محمد عبدالرحمن

من الهلال إلى الهلال

صباح الشعراء في قاعة المقهى

مما لاشك فيه أن المناخ الذى يوفره معرض الكتاب الذى يقام سنويا فى القاهرة، يدفع المرء إلى عدد من التساؤلات، عن بعض الظواهر الثقافية والإبداعية.

وإذا توقفنا سريعا أمام الاختيارات المنتقاة للمناقشة، سنجد أنها ليست ممثلة بشكل كاف لمختلف التيارات الإبداعية والنقدية والفكرية الموغلة فى قلب الحياة الثقافية، وبالطبع ذلك غير وارد نظرا للسيل الجارف الذى تخرجه آلات الثقافة الرسمية وغير الرسمية والفردية على مدى العام كله، وكل ما فعله منظمو الندوات هو محاولة التمثيل النسبى والضيق، إلى حد ما لتلك التيارات الإبداعية والنقدية.



ادوار الخـــراط

مثلا الندوات التى أقيمت في المقهى الثقافى حول بعض الدواوين الشعرية لم تشف حاجة المرء المتطلع إلي حوارات حقيقية بين مختلف هذه التيارات، وظل الحوار طوال هذه الندوات من طرف واحد، وراح النقاد يبذلون قصارى جهدهم فى شرح وتأويل وتفسير النص، ليسفر هذا الجهد عن أسئلة متواضعة للغاية، مثلما سأل أحد الحاضرين فى الندوة المنعقدة لمناقشة ديوان «لا أحد هنا» للشاعر إبراهيم داوود، ما الفرق بين الخواطر والشعر، لأننى أرى أن ما سمعته هو أقرب للخواطر، مما دفع الناقد ابراهيم فتحى ليستفيض فى شرح الفروق القاطعة التى تفصل بين الشعر والخواطر، وبالطبع فهذا الشرح لم يف بالغرض، وفى الندوة ذاتها راح الشاعر حلمى سالم، وكان أحد المناقشين ـ يلف ويدور حول نفى فكرة الجيل العشرى «سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات»، رغم أن هذه القضية لم تطرح أصلا فى المناقشة، وراح يصفها بأنها فكرة سياسية بالأساس أو أن وراءها مصلحة ما، رغم اعترافه بأنه شارك فى يوم من الأيام بتكريس مصطلح «شعراء السبعينيات» هذا يجعلنى أشعر بأن القضية ـ نفيا أو تأكيدا ـ لا تشغل إلا حلمى سالم ذاته، بدليل أنه طرحها فى ندوة سابقة عقدت لمناقشة أحدث ديوان للشاعر فريد أبوسعده، كأنها قضية خاصة يلزم التنويه بها فى كل لقاء، رغم أن المشهد الكلى فى ندوة أبوسعدة، كان محزنا إلى حد ما، فالحماس الذي أبداه فريق الشعراء السبعينين والمناقشون كان مبالغا فيه، أمام

قاعة شبه فارغة إلا من بعض الأصدقاء والمجاملين، والحوار: لا شيء، سوى التفضل ببعض الماحكات من باب ملء ثقوب الثوب الممزق، هذا ليس له علاقة بالقيمة الفنية التى ينطوى عليها الديوان من عدمها، ولكن هذا يعكس حالة من صياح الشعراء الإبداعى والنقدى أمام حالة إرتباك وخواء ومجاملات فقط لاغير، مما يعطى شعورا فى بعض الأحيان، أنه لابد من تغيير الوسائل، والأدوات، واللغة والملابس واللهجة والمصطلحات، وصولا إلى المطالبة بتبديل القاعات نفسها، وأدمغة الجمهور.

وفى الندوة المنعقدة لمناقشة ديوان «تلويحة النسيان» وهو الديوان الأول للشاعر محمد بدوى والذي نشره بعد أكثر من عشرين عاما فى كتابة الشعر، غاب ناقدان من أصل ثلاثة، وتغيب مدير الندوة أيضا، ولم يحضر سوى الروائى إدوار الخراط!، ماذا يعنى ذلك؟ خاصة أن تغيب الناقدين كان سمة هذا العام، فمن النادر أن اكتملت المنصة بالشكل الذى كان معدا له.

وفى حالة تلويحة النسيان: أيعنى ذلك أن إدوار الخراط هو الذى تحمس وحده لمناقشة الديوان، ويعتبر تغيب الناقدين بمثابة موقف من هذه الكتابة، ربما، وإذا كان للناقدين موقف سلبى تجاه الديوان ـ بالمناسبة رفض الخراط تسميته ديوانا وفضل أن يطلق عليه كتابا ـ لماذا لا يطرحون هذا الموقف بشجاعة، ما يثرى الحالة النقدية والإبداعية التى نحتاج لها فعلا، مع اعتبار أن دراسة إدوار الخراط جادة، رغم اختلافها مع قناعات بعضنا النقدية، ومن المؤسف أن تمر هذه الدراسات والمداخلات دون التمحيص والحوار الخلاق، وبذلك لايجوز للمختلفين والحانقين أن يعلنوا شكواهم من سيادة نوع من النقد طالما أنهم لايدخلون فى حوارات جادة، ومثمرة مع هذا النوع من النقد، فى ظل تيارات فكرية متوارية، وليست متداخلة ومتقاطعة، وكأن حالة غياب عنم آثرها المبدعون والكتاب والنقاد، لعزف لحن واحد، لايفضى إلا بتلك الفوضى العارمة التى تغطى على كل نظام.

هذه وقفة سريعة أمام الحالة الشعرية التى طرحت فى المقهى الثقافى، لا نغفل ماطرحته الندوات الشعرية جميعا من جدية، ومحاولة مخلصة للوصول إلي الجمهور، ولكن ما باليد حيلة، ولذلك يبقى أن يفكر ويتأمل الشعراء حالتهم جيدا.

من الهلال إلى الهلال

شعبان يوسف

أسئلة تخنق الأجوبة فى إبداعات جديدة


مـــي زيـــادة


علي أحمد باكثير

□ لم تقتصر الندوات التى أقيمت فى قاعة «ابداعات جديدة» على مناقشة دواوين ومجموعات قصصية وروايات فحسب ، بل تجاوزت ذلك إلى قضايا حية وبالغة الأهمية مثل «قصة الكتابة فى وطن آخر» و«الصحافة الأدبية» و«الجوائز» و«المرأة المبدعة» ، وقد سالت فى هذه الندوات مياه كثيرة ضربت فى اتجاهات متعددة ، حتى كادت أن تخرج عن الإطار المرسوم لها من خلال عناوينها ، وبالطبع ليس من المحمود أن تظل المناقشات ضمن سيناريوهات معدة سلفاً ، ولكن حيوية هذه الندوات الأساسية هى انفتاح المناقشات ومحاولة بلورتها فى صيغ ومفاهيم تعمل على إثراء الحياة الثقافية والأدبية المصرية .

فعلى مدى أسبوعين شهدت ساحات المعرض المختلفة مثل هذه اللقاءات المفتوحة والتى جرحت كثيراً من القضايا الحرجة ، وأماطت اللثام عن أكثر من موضوع ، وهذا يجعلنا نتساءل : هل بعد انقضاض هذه الفرصة الكبيرة «سنعود إلى بيوتنا دون الاستفادة المرجوة من هذه الندوات؟ وهل سنأتى فى العام القادم لنطرح الموضوعات ذاتها ؟»

فى قاعة «ابداعات جديدة» ألقى المتحدثون بأقوالهم فى هذا المناخ المفتوح ، ففى ندوة «الكتابة فى وطن آخر» والتى أثارت عدداً من الأسئلة ، أعادت إلى الذهن جمال الدين الأفغانى ، وخليل مطران ، ويعقوب صنوع ، وعلى أحمد باكثير ومى زيادة ، وغيرهم .. والذى أفلحت فيه هذه الندوة أن سبعة متحدثين من الأشقاء العرب (فلسطين - الجزائر - ليبيا - قطر - اليمن) لم يستقروا على مفهوم واحد للوطن ، ولو يوضح واحد

منهم ما معنى الكتابة خارج الوطن ، أو فى وطن آخر حسب العنوان ، بل راح الجميع ليتحدثوا عن تجاربهم الذاتية ، والكتابية ، مما جعل المتجاورين من الجمهور يطرحون قضايا مختلفة ، وأموراً ليس لها علاقة بهذا العنوان . وفى ندوة انعقدت لمناقشة قصة الصحافة الأدبية لم يف المتحدثون كذلك القضية حقها فظلوا يطرحون «مانشيتات» براقة ، تشبه الأناشيد العسكرية ، دون الاقتراب من أحد ، ودون الاقتراب من المحرمات الصحفية المعروفة ، وهذا التحفظ دعا إحدى المتحدثات - كاتبة شابة - تخرج عن هذا الانضباط ، وتصف إحدى الجرائد «بالتقزز» ، وتمدح إحدى صحف الخليج وتدعوها بأنها تعد صفحات ثقافية «محترمة» .

من الطبيعى أن لا تفى هذه الندوات بإجابات كافية وحلول شافية ، بل الفائدة والجدوى هو طرح الأسئلة ، ولكن الأسئلة الحقيقية التى تدلنا على الأبواب الحقيقية للإجابة .

وعندما انعقدت ندوة حول الفائزين بجوائز أدبية فى العام الفائت ، وجلس المتحدثون على المنصة ، اتضح أن السيناريو كان غامضاً ، ولم يعرف النقاد عن ماذا يتحدثون ، ولكنهم وجدوا - بالطبع - مايقولونه .. فى النقد والأدب والإبداع عموماً ، وتحدث المبدعون عن تجاربهم المختلفة دون مناقشة أمر الجوائز وأثرها على تطور الأدب من قريب أو بعيد . ولكن هذه الندوة على وجه التحديد استطاعت أن تشعر القائمين على التنظيم بأنه لابد من إعادة هذه الأمور للمناقشة مرة أخرى .

من الهلال إلى الهلال

بالإضافة إلى القضايا السالفة الذكر ، فالميزة التى تتمتع بها الندوات هو استضافة أعمال جديدة بالفعل ، واستضافة ناقدين جدد لمناقشتها ، مثلما حدث مع الشاعرة «أمل جمال الدين» وهى شاعرة موهوبة ، لمناقشة ديوانها «من أجل سحابة» ، وشاركت فى المناقشة الدكتورة سامية الساعاتى ، ونوقشت مجموعة «أنثى» للكاتبة «هدى النعيمى» وشارك فى المناقشة الدكتور فتحى أبو العينين ، وهذا يعنى أن أستاذين لعلم الإجتماع يشاركان فى مناقشة أعمال أدبية .. ذلك علامة صحة فى الاختيار ، والابتعاد عن الأسماء التقليدية التى استهلكها المعرض بما فيه الكفاية ، واستهلكتها الندوات المتتالية هنا وهناك ، وتكررت المقولات والجمل والمفاهيم حتى لو اختلفت الأعمال الإبداعية ، وهذا يجعلنا نأمل فى إشراك الاتجاهات الأخرى فى النظر إلى الأدب خارج الأقنعة الأسلوبية التى يكشف عنها الأسلوبيون .

أعمال كثيرة وجدت طريقها إلى المناقشات ، وبالطبع منها أعمال لا ترقى إلى مستوى المناقشة ، ولم ترق إلى مستوى المناقشين ، ولكن المناقشين - بعضهم - غامر بإلقاء قنابل - انفجرت فى وجوه الحاضرين دون رحمة ، ودون هوادة .

وأعمال كثيرة أيضاً لم تجد حظها فى المناقشة ، فظل مبدعوها يحومون حول هذه السرادقات يوزعون أعمالهم فى خجل ودون أى وصاية أو حماية أو دعاية من كاتب كبير يقدمه هنا ، مثل الشاعر «مؤمن سمير» الذى أتى من بنى سويف ليوزع ديوانه الأول بورتريه أخير لكونشرتو «العتمة» ، أو الشاعر على عبد الحميد بدر الذى كان يوزع ديوانه «على جدران الحتف» على رواد المكان وبعد ذلك يختفى تماماً ، كأنه يريد إيصال رسالة كساعى البريد ويمضى ، وكل ما يأمله المرء أن تأخذ هذه المواهب حظها فى الوجود والمناقشات وطرح الأسئلة ، وتضييق المجال أمام المتسلقين فى المعرض كبهلوانات نجدهم كل عام .

شعبان حسن

من الهلال إلى الهلال

رسائل جامعية

صعود وانهيار المسرح السياسى

❑ تساءل الممثل المعروف ماهر لبيب جرجس فى رسالته التى تقدم بها للحصول على درجة الماجستير من المعهد العالى للفنون المسرحية ، وموضوعها «عناصر العرض المسرحى عند مخرجى المسرح السياسى فى مصر فى الفترة من ٦٢ - ١٩٧٢ ، مع التطبيق على أعمال «سعد أردش» ، تساءل فى رسالته تلك عن المسرح السياسى ما هو؟ وماذا ينبغى أن يكون؟.

ودفعه هذا التساؤل إلى أن يرتد ببحثه إلى المسرح الأغريقى القديم - «أسيخليوس» ، «سوفوكلس» و«يوربيديس» .

ومنه انتقل إلى المسرح الاعلامى بأشكاله المختلفة ، الزائف منها والمغشوش والمراوغ ، ليصل فى نهاية المطاف إلى رواد المسرح

السياسى العالمى الذى ظهرت تباشيره أثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، باندحار الفاشية.

وعن كل من «بيسكاتور» «برشت» ، «فايس» و«جانى» وقف صاحب الرسالة قليلا .

وبفضل تلك الوقفة ، استخلص من اعمالهم تعريفا للمسرح السياسى قوامه انه التزام بقيم واهداف متصلة ببنية الفرد وقيمه ، وبنية المجتمع وتراثه ومقوماته وحضارته ، وذلك المجتمع فى رأيه هو المجتمع القادر على ان يعى القيم التى يجب أن يتبناها ، والمفاهيم التى يجب أن يدمرها ، حتى يبنى على انقاضها تقدمه وحضارته - مشكلاً بذلك الدرع الواقى القائم على الادراك والتبصر ، بهدف كشف وفضح ألاعيب الاعلام ، حماية للانسان .

وعلى هدى هذا التعريف توصل إلى أن ارهاصات مسرح سياسى فى مصر ظهرت فى الأفق مع ثورة الثالث والعشرين من يولية .

أما بشائرها ، فقد تجلت مع عقد الستينيات فى مسرحيات بقلم كتاب مثل نعمان عاشور ، ميخائيل رومان ، عبد الرحمن الشرقاوى ، الفريد فرج ، يوسف إدريس ومحمود دياب .


سعد أردش


عبدالرحمن الشروق

وفى مخرجين عائدين من بعثات فى أوروبا - من بينهم سعد أردش ، الذى أفرد له صاحب الرسالة منزلة خاصة ، بوصفه مثلا ، ونموذجا لتطبيق هذا ، ويعد أن عرض صاحب الرسالة بالتفصيل لعناصر مسرحه ، وذلك من خلال المسرحيات التى أخرجها ، فيما بين ٦٢ و ١٩٧٢ ، وكان من بينها «دائرة الطباشير القوقازية» لبرشت و«المخططين» ليوسف إدريس ، انتهى إلى أن ذلك المسرح قد جرى إغلاقه بالضبة والمفتاح ، وأن صاحبه قد جرى تهجيره إلى الجزائر ، بعد قيام الرقابة بمنع مسرحيته «باب الفتوح» قبل حفل افتتاحها باربعة أيام ، وأثر استدعاء له من وزير الثقافة والاعلام .

وفى ختام رسالته التى أهلته للحصول على درجة الماجستير فى فنون المسرح ، بتقدير ممتاز ، مع التوصية بطبعها على نفقة الأكاديمية ، لقيمتها العلمية الرفيعة ، فى ختامها ارجع هزيمة المسرح السياسى عندنا إلى بضعة اسباب ، لعل أهمها إنه لم يكن مسرحا شعبيا ، وذلك لأن مبدعيه كانوا مجردين من حق الدفاع ، بحكم أن أغلبهم كان موظفا يتقاضى أجره من الدولة ، وبالتالى خاضعا لهيمنتها .

وبحكم إفتقادهم لوحدة الصف ، ووحدة الهدف ، ووحدة الفكر من أى لون من تلك الألوان التى تؤثر فى حياة المبدعين .

وضرب صاحب الرسالة على ذلك مثلا بالمخرجين المصنفين فى عداد اليساريين ، ومع ذلك ، فكثيرا ما كانوا يجنحون إلى الاستعانة بأعمال مؤلفين يمينيين!! .

ربيع شتا

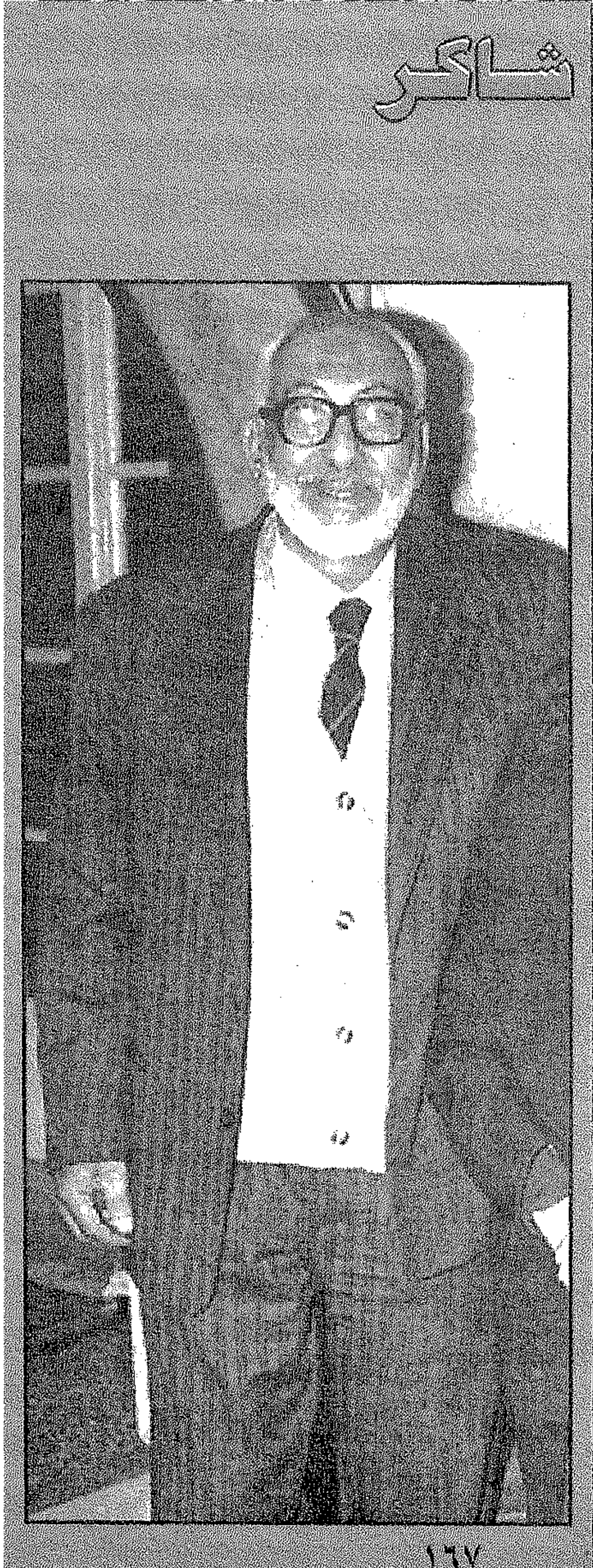
بين مصطفى صادق الرافعى



حين انتقل الأستاذ محمود محمد شاكر إلى رحمة الله، احتفلت الصحف بتأبينه، وذكرت أسماء كثيرة لأناس كانوا ذوى أثر فى حياته الأدبية، ما بين مؤيد قام بتزكيته وتقديره، ومعارض جابه آراءه ومنهجه، وأعجب العجب فى ذلك أن أحدا لم يشر إلى دور الأستاذ مصطفى صادق الرافعى نابغة الأدب وحجة العرب فى عصره فيما كان للراحل الكبير من اتجاه، وكأن اسم الرافعى رحمه الله صار محرما على من يسطرون الصحف بالسواد حقيقيا ومعنويا، والشئ الذى لا ينكره أمين على

ومحمود محمد شاكر

بقلم
د. محمد رجب البيومي



تاريخ الأدب بعامة، والأدباء بخاصة أن محمود شاكر كان امتدادا للرافعى فى أكثر اتجاهاته. فكل ما جاهد فى سبيله الرافعى جاهد محمود فى مثله؛ إذ حمل الراية من يده بعد رحيله، وذاد عنها السقوط، وكان فى الحقبة الأخيرة من حياته مثلا مطابقا للرافعى، يعرفه كل المعرفة من قرءوا تاريخ الرجلين، له هيبته وسمته ويقينه، حتى كأنه هو! وهذا التحاشى المفرض لذكر الرافعى هو دافعى الملزم لكتابة هذه السطور.

اعتمد الرافعي على نفسه في تحصيل التراث العربي أدبا وتاريخا وفلسفة وفقها وأصولا، كما اعتمد شاكر في ذلك على نفسه، فقد كان والد الرافعي من كبار الفقهاء في عصره، وكانت له مكتبة حافلة بخير ما في التراث من كنوز فعكف الرافعي على ذخائرها تلميذا لا أستاذ له غير الكتاب، وكذلك كان والد محمود وكيلا للأزهر، ومن أكبر رجال التوجيه الاسلامي في الصحف السيارة، وصاحب مكتبة حافلة، رجع إليها محمود بعد أن درس علوم المدارس والكلية ليجد شيئا آخر غير الذي درس، يجد ما يجده الرافعي من كنوز الشريعة والأدب، فتلاقى الرجلان على منهل واحد، وآتت القراءة ثمرتها اليانعة دون إمهال.

وحين نجمت فتنة الشعر الجاهلي اشترك في وأدها الأستاذ والتلميذ، كل على قدر طاقته، وقد كان اتحادهما في الرأي سبيل التعارف فالمودة فالحب، وإذا كان الرافعي يقيم في طنطا، ويقيم محمود في القاهرة حينا، وفي جدة حينا آخر، فقد أخذت الرسائل تتبادل بينهما دون انقطاع، بل كان محمود يكتب للرافعي عن بعض ما يلمسه من الاعوجاج لدى المتسرعين من الكتاب، طالبا أن يعصف الرافعي بما يشذ من الانحراف، فكان الأستاذ سريعا إلى تلبية تلميذه، ومن ذلك ما كتبه محمود شاكر إلى الرافعي خاصا بانزلاق السيد حسن القاياتي إلى موازنة أدبية لم يطمئن في حوكها، فأدت العجلة إلى الخطأ، وكانت الموازنة بين نص قرآني ومثل عربي، فاندفع الرافعي إلى إحقاق الحق بما يراه القارئ مسجلا على صفحات «وحي القلم» وكان في مكنة شاكر حينئذ أن يرد بما يفحم ولكنه علم أن الرافعي - حينئذ - لا يسد مسده أحد في مثل هذا المقام، وهذا ما كان.

رواية محمد سعيد العريان

الأستاذ محمد سعيد العريان تلميذ الرافعي ، ومؤرخه الأمين، وقد قام في تاريخ حياته مقام السيد محمد رشيد رضا من الأستاذ الإمام ، فلولاهما لما حفظ التاريخ مآثر هذين الرجلين على هذا النحو البارع المستفيض ، ودارسو الأسلوب البياني في هذا العصر يرون أسلوب محمود شاكر أقرب إلى أسلوب الرافعي وأسلوب الأستاذ محمد سعيد العريان أقرب إلى أسلوب الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وذلك يرجع إلى الطبيعة

النفسية أكثر مما يرجع إلى التنوق الأدبي، ففي شاكر عرامة الرافعي واندفاعه وتوهجه ، وفي العريان سماحة الزيات ولينه وحنكته ، والناس ميول وأهواء.

يقول الأستاذ العريان في «حياة الرافعي» ص «٢٨١» : جلست يوماً أتحدث إليه ، فقال : إن صديقنا (م) لم يكتب إلينا من زمان ، فليت شعري ما منعه عنا؟ إن بي قلقاً عليه وفي نفسي أن أراه أو أعرف من خبره. وفي صبيحة اليوم التالي طالعتنا الأهرام ، بأن شاباً من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر، قد حاول الانتحار، بقطع شريان يده، فقرأ الرافعي الخبر واربدَّ وجهه ، وقال : إنه هو! قلت: من تعني ؟ قال: صديقنا (م)، فجزعت وطارت نفسي وقلت له : إنك تتوهم ، ولكن الرافعي لم يلتفت إلى ما أقوله ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان ثم مد يده إلى مكتبه ، فكتب رسالة اليه يسأله الخبر ، ويطلب إليه أن يصف له ما كان من أمره! وجاء الرد بما يحقق توقع الرافعي ، فتأثر تأثرا شديدا ، وكتب مقالاته الشهيرة (الانتحار) في عدة حلقات !

أما بقية حديث شاكر فقد أوجزه العريان فيما يلي «صديقنا الأستاذ (م) أديب واسع المعرفة له دين ومروءة، وفيه تحرج وخشية . وقد نشأ في بيت له ماض في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه ، والذود عن حرماته ، وهو شاب عزب (حينئذ) بعيد الخيال دقيق الحس مرهف الأعصاب ، وعلى أنه يعيش في ظل وارف ونعمة سابغة فإنه من سعة خياله ودقة حسه ، متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت في وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معاني الألم ، وما يرى نفسه في أكثر أحواله إلا غريبا في هذا العالم، فإن له من خياله عالما غير هذا العالم، يتمثل فيه المثل الأعلى الذى أعياه أن يبلغه على الأرض ، وكان بينه وبين الرافعي ود ، وله في نفسه مكان، فكان له سره ونجواه، منذ كان فتى يافعا لم يبلغ العشرين ، وكان الرافعي يعتز بصداقته ويقرأ له ، ويعجب بدينه وتقواه ، ويتوقع له مستقبلا مجيداً بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام»

تزكية قلمية

ثم أصدر محمود شاكر كتابه الأول

عن المتنبى وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، أصدره كتاباً فى الترجمة الأدبية على غير مثال فى المكتبة العربية ، وأخشى أن أتهم بالتزيد إذ أقول ما بنفسي عنه ، ولكنى أنقل كلام الأستاذ فتحى رضوان عن كتابه «أفكار الكبار» حيث قال (١) عن كتاب المتنبى لشاكر:

«حينما نمضى قليلا فى مطالعته نعرف جسامة الخطأ الذى وقعنا فيه حينما فُتِنَّا بالتراجم الأجنبية التى كتبها أمثال الكاتبيْن اليهوديين «إميل لودفيج» و«ستفان زفايج» والكاتبيْن الانجليزيين «ارمسترونج» و «أرديرايس» وكنا نحسبها لونا من السحر لا يتأتى للكاتب العربى أو الكاتب المصرى ، لما فيها من طرافة الأنباء وسرعة الأداء ، ورشاقة الأسلوب، وجدة التناول ، والمزج بين التاريخ والقصة، وتقصى الجوانب الحميمة والكشف عنها ، ثم وصل العوامل الشخصية المخبوءة بالأعمال العامة المعروفة ، فإنك واجد هذا كله وأكثر من هذا كله وأنت تقرأ كتاب محمود شاكر عن المتنبى». هذا بعض ما قاله فتحى رضوان عن الكتاب ، ولكن الشاب الناشىء حين أصدره كان متهيبا ينتفض رعبا ألا يكون مصيبا فى منهجه ، ويقول عن نفسه (٢) : «لقد تقاذفنى طولَ الليل رعب شديد من مخافة ما يقول الناس فيه إذا هم قرأوه ، وفار بى الرعب والشك فيما اجترحت فورانا أذهب من قلبى كل يقين فيما كتبت ، وكل ثقة بما بذلت من جهد ، واغتال الرعب سلطانى على عقلى، وسرى سم الشك فى قلبى طول ليلتى، وركبتنى الحمى ، ثم جاءت كلمة الرافعى – عن الكتاب – ترياقا ، وكلما أعدت قراءتها دبت كلماتها إلى صميم هذا الرعب حتى أذهبته من قلبى فأحيته، وعندئذ عرفت شيئا فشيئا حقيقة طريقى الذى سرت فيه حين كتبت هذا الكتاب ، وكأنه طريق لم أسلكه من قبل قط»

كلمة الرافعى

أما ما قاله حجة العرب مصطفى صادق الرافعى عن الكتاب ، فمنه :

«لقد كان أول ما خطر لى بعد أن مضيت فى قراءة هذا الكتاب أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كتب تاريخ

---

(١) أفكار الكبار لفتحى رضوان ص ٢٨٧ .
(٢) المتنبى جـ١ لمحمود شاكر ص ١٠٣ .

المتنبى ولم ينقله، ثم لم أكد أمعن فى القراءة حتى خيل الى أنه قد وضع لشعر المتنبى بعد تفسير الشراح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبى نفسه.

«وكان الرجل مطويا على سر أُلقى الغموض فيه من أول تاريخه وهو سر نفسه، وسر شعره، وسر قوته ، ومن هذا السر بدأ الكاتب فجاء بحثه يتحدر فى نسق عجيب، متسلسلا بالتاريخ ، كأنه ولادة ونمو وشباب. وعرض بعد ذلك شعر أبى الطيب عرضا خيل إلى أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها، وبذلك انكشف السر الذى كان مادة التهويل فى ذلك الشعر الفخم». (١)

لقد عرف الرافعى بذكاء الفطرة ، أن الكتاب جديد جديد فى كل شىء، وأن كبار الكتاب سيسكتون عنه إذ يقرءونه ضنا بالثناء على شاب يفتح فتحا جديدا فى تاريخ الشعر والشعراء ، وفيهم من قرأه ، وأخذ منه، وحاول أن يعارض بعض اتجاهاته دون أن يخصه بكلمة ترحيب ، عرف الرافعى ذلك كما عرف من تلميذه أنه شكاك ظنان فى كل ما يكتب ، لا يعتقد أنه بلغ مرتبة الإجادة ، وقد كان ذلك منه فى أول شبابه ، فلا بد أن يجهر بالقول فى كتابه ، وما كان الرجل مغاليا بل كان صادقا كل الصدق .

وقد هوجم شاكر فى الأهرام وفى السياسة الأسبوعية ، ولكن كلمة الرافعى كانت درعا واقية لما ينتاشه من السهام فكان يدفع القول بثقة لم تكن له لولا كلمة الرافعى ، ولم تطل الأيام بالرافعى بعد ذلك أكثر من عام حتى لحق بربه ، وبكاه الزيات ومنصور فهمى والمازنى بكاء العقل المتزن ، والعاطفة المتئدة التى أدركت هول التجارب من قبل فصدق عليها قول المتنبى:

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا

فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

أما محمود شاكر فقد أرَنَّ إرنان الثاكلة الجزوع ، وسالت كلماته دماء لا دموعا ، ولم يكن يتحدث عن الرافعى فحسب ولكنه كان يتحدث عن نفسه حين قال من قصيدة حارة ، تحسب من الشعر

---

(١) وحى القلم للرافعى جـ٣ ص ٣٧٠.

المنثور :

«لم أفقدك أيها الحبيب ولكنى فقدت قلبى، كنتَ لى أملاً أستمسك به كلما تقطعت آمالى فى الحياة ، كنت راحة قلبى كلما اضطرب القلب فى العناء ، كنت الينبوع الروى كلما ظمىء القلب ، وأحرقه الصدى ، عشت بنفس مجدبة قد انصرف عنها الخصب ، ثم رحم الله نفسى بزهرتين ترفان نضرة ورواء ، كنت أجد فى أنفاسهما ثروة الروضة الممرعة ، فلا أحس فقر الجدب ، أما إحداهما فقد قطفتْها حقيقة الحياة ، وأما الأخرى فانتزعتها حقيقة الموت ، وبقيتْ نفسى مجدبة تستشعر ذل الفقر» (١)

ولا أستطيع أن أنقل الرثاء جميعه ، فمعذرة ، ولكن لذعة الحزن لم تفارق قلب التلميذ ردحاً من الدهر ، فكان ينفس عن صدره بكلمات ينشرها بين الفينة والفينة ، ومن أوجع ما قاله محمود فى الذكرى الثالثة لرحيل صاحبه :

«ذهبتَ وبقيت ، لأتعلم كيف أنافق بصداقتى بعض النفاق لأنهم يريدون ذلك، لأجيد مهنة الكذب على القلب لأنهم يجيدون ذلك ، لأتعلم كيف أنظر فى عيونهم بعينين لئيمتين، يلتبس فى شعاعهما الحب والبغض لأنه هو الشعاع الذى يتعاملون به فى موداتهم ، لأفنى بقائى فى معانيهم المتوحشة إذ كانوا هكذا يتعايشون، لأحطم بيديّ بنيان الله الذى أمرنا بحياطته. وأتعبد معهم للأوثان البغيضة الدميمة التى أنشأتْها أيديهم القذرة . لأجنى الثمار المرة التى لا تحلو أبداً»

والذى يريد أن يتأمل حياة شاكر أصدق التأمل ، يرجع إلى هذه السطور ، فقد كانت معانيها المفزعة إحدى العوامل التى اضطربت بها حياته النفسية ، إذ كانت الوحشة تطل من عينه حتى فى مجالس الفرح ، فكأنها بظلالها الحزينة تصرخ فى وجهه قائلة : ليس هذا طبعك إذ تبتسم، كما كانت تدفعه إلى صراحة ناقمة ضجر بها خصومه وأصدقاؤه معا، ولعله كان يضجر بها فى ذات نفسه ، إذ خلقه الله ثائرا لا يهدأ واثبا لا يستكين .

معركة أدبية

بعد رحيل الرافعى بعام واحد ، أوقد

(١) الرسالة ١٧/٥/١٩٣٧م.

الشهيد الأستاذ سيد قطب معركة أدبية على صفحات الرسالة، لا خير للأدب فيها، إذ كان سيد رحمه الله فى عنفوان شبابه المتحمس، منغمساً فى دور عبادة البطل وهو الأستاذ عباس محمود العقاد ، إذ كان الكاتبَ الأول والشاعر الأول والناقد الأول فى ميزان سيد قطب ، وطبيعى أن تتضاءل جواره أدوار النظراء من أمثال عبد الرحمن شكرى وخليل مطران وابراهيم المازنى وهم فى رأى العقاد نفسه زملاء طريق ورفقاء سلاح. وإذا كان الرافعى رحمه الله هو الذى اشتهر بمنازلة العقاد والهجوم على أدبه ، فقد رأى سيد قطب أن يوازن بين الرجلين؛ لا ليذكر لكل مآخذه ومآثره ، بل ليجرد الرافعى من الإنسانية، فضلاً عن الشاعرية ، وليصفه بالجمود والانغلاق وما لا أحب الاسترسال فى تسطيره ، وقد ثار محبو الرافعى لهذا الهجوم الصارخ فاتسعت صحيفة الرسالة لهجمات اسماعيل مظهر ومحمد سعيد العريان وعلى الطنطاوى ومحمد أحمد الغمراوى ، على مدى قرابة عام ، وكان الأستاذ محمود شاكر من أبرز المدافعين عن أستاذه وصديقه ، ولم يكن مثل سيد قطب رحمه الله منكرا فضل أحد ليعترف لغريمه بكل فضل ، ولكنه حفظ مقام الأديبين الكبيرين معاً ، وحدد موقفه بادئ ذى بدء إذ قال (١) فى مقاله الأول بعد مقدمة لابد منها :

«إن الرافعى رحمه الله ، لو كان يرى العقاد ليس بشىء البتة ، وأن أدبه كله ساقط ذاهب فى السقوط ، لما حمل العناء فى نقده وتزييف أدبه ، ولو كان العقاد يرى فى الرافعى بعض رأيه الذى كتب، لما تكلف الرد عليه ولا التعرض له ، وكم من رجل كتب عن الرافعى وعن العقاد ونال منهما وأوجع ، ولأنه ليس يدخل فى حسابهما ، ولا يقيمان لأمثاله وزنا ، فقد تركاه يقول فيكثر فيمل فيسكت ، ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذى كان بين الرافعى والعقاد .

فالرافعى والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتهما ، كل فى ناحيته وغرضه، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه ما يعلم عنه ، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر، فلما كانت العداوة بينهما،

(١) الرسالة ٩/٥/١٩٣٨م.

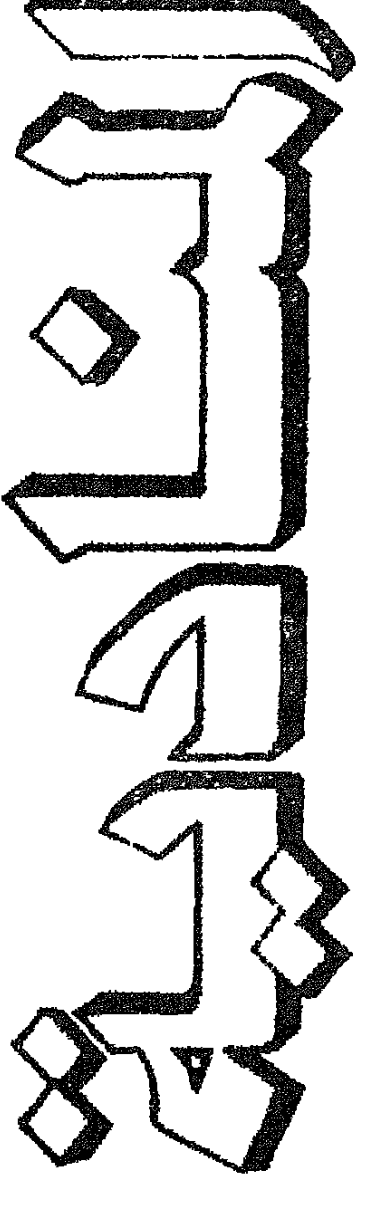
بدأت قوة تعارض قوة، ورأى يصارع رأيا، وكان فى كليهما طبيعة من العنف والضرام والحدة ، وولع العقاد بإرسال العبارة حين يغضب صريحة لا صنعة فيها، وأُغرى الرافعى بالسخرية والمبالغة فى تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه ... وخليق بنا وبآدابنا أن نطوى سيئة رجلين، أحدهما فى غيب الله ، ويبقى الآخر تحوطه الدعوة الصالحة لطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل»

وفى ضوء التقدير التام لأدب الرجلين قامت المعركة بين شاكر وسيد قطب ! وليتها لم تقم.

كتابان

من يريد أن يعرف تلاقى الأفكار ، وتجاوب المشاعر بين الرافعى ومحمود شاكر فليقرأ كتاب الرافعى «تحت راية القرآن» وكتاب محمود شاكر «أباطيل وأسمار» ليرى أن وحدة الاتجاه ، وبواعث التفكير، واتفاق النظرة ، وحدة الأسلوب كلها تنزع من مشكاة واحدة لدى الأستاذ والتلميذ ، وليس معنى هذا أن شاكرا قد اقتفى أثر الرافعى ، ولكن معناه أن التاريخ قد أعاد نفسه - على القرب القريب - أعاد ما كان فى زمن الرافعى من الاحتدام بين القديم والجديد، وما كان فى زمن شاكر من توابع هذه المعركة، المتفقة فى أصولها، المختلفة فى فروعها، المتحدة فى ثمارها .

على أن ناحية مهمة من نواحى التأثير الرافعى فى أدب محمود شاكر لم تأخذ حظها من الدراسة ، هى ما كتبه شاكر فى الأعداد الممتازة من مجلة.الرسالة عن مثل أسماء بنت أبى بكر ، والحقيقة المؤمنة ، وأيام حزينة ، وإلى أين ، فإن منهج الرافعى البيانى كان ذا تأثير جاذب فى بيان شاكر، حتى لكأنك فى بعض الأحيان تنسى أنك تقرأ لشاكر ويخيل إليك أنك تقرأ فى (وحى القلم)، أما أشعار شاكر الغزلية ففيها نفحة رافعية ، وأعيذ القارىء أن يعلم أنى أقصد المحاكاة التقليدية، فقد استوى شاكر على سوقه أديبا مبدعا وشاعرا مجيدا وكاتبا فحلا ، ولكن وحدة الاتجاه، واتفاق المنبع، وتشابه العواطف قد أدى إلى ذلك كله ، وقد يتاح لى أن أبسط ما أجملت فى موضع آخر ، لأن لكل مقال جده المرسوم.



شعر

جليلة رضا

يا أولاد الحلال..!! بنتي الصغرى تاهت بالأمس،
ضاعت منذ غروب الشمس ...
هي بنت بيضاء البشرة .. غضة .
تلبس فستانا في لون الفضة
ولها قدمان من المرمر .. وشفاه في طعم السكر ..
إبنة عامين على الأكثر ...

● ● ●

غاب أبوها وتوارى خلف الأسوار
غاب و خلّفني وحدي في الدار
غاب وخلّفها تنعش أيامي المحزونة
وتبث بأعماقي دفئا .. ومنىً وسكينة

● ● ●

أنا من غير فتاتي روح شاحبه محمومه
اليأس الأكبر ينفث فيّ هموم
أنا كالبستان العاري في ليل شتاء
تلطخني الريح وتصفع أوراقي الصفراء
أنا عشت العمر أراعيها .. وأراعيها
وعشقتُ الزهد .. فلم أطمع إلا فيها..

● ● ●

يا إبنة خطواتي المكدودة أوحشت عيوني..!
ليطل ضياؤك وليزحف فوق جبيني ....
وليدفق سيلا عطرياً عبر شراييني
ألقي بعبثي في نهر سناك المغداق
ومنحتك شوقي العارم .. ياللأشواق ..!

● ● ●

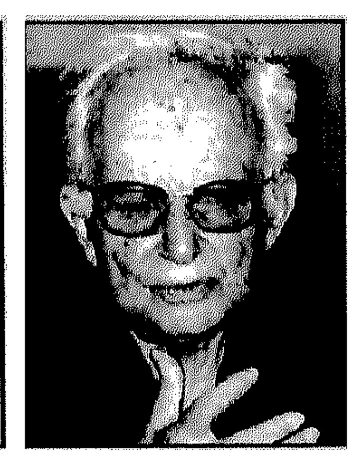
يا أولاد الحلال .. من شاهدها منكم .. ليقُلْ ..!
وله عند الله ثواب .. هي تدعى «بارقة أملَ»
بارقة من أمل .. غاب ..

إنعدام الانضباط فى المجتمع الاستهلاكى

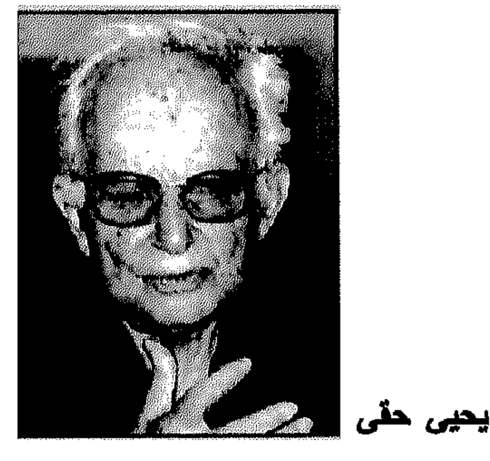
بقلم : حسن سليمان

مررنا بعربة «كشرى» .. توقف «يحيى حقى» ، اتكأ على عصاه بيده اليمنى ، أمسك باليسرى ذراعى ، قال فى لوعة وقد ارتسم الحزن على وجهه .. «تعرف يا حسن .. مع كل عربة «كشرى» جديدة ، تنزل عشرات من حلل الطبيخ من على «وابور الجاز» ..! هذا معناه أن الأسرة أصبحت تأكل خارج المنزل ، معناه التفكك الاسرى ، معناه عدم الانضباط والإسراف ، معناه الانحراف ، فالجماعة العوام ، كانوا حينما يرون شخصا قد تصرف تصرفا مشينا يقولون «إنه لم يأكل على طبلية أبوه ..» ولم يعش «يحيى حقى» ليرى محلات الكشرى وسط البلد ، و«كنتكى» و«ومبى» فى الأحياء الشعبية ..

في طفولتى السعيدة ، لم نكن من الطبقة الثرية ، كانت الأم تصنع كل شىء فى المنزل وكان مستوى ما يطهى بالمنزل من حلوى ، أعلى بكثير من نظيره الذى يباع فى الشارع. وبمرور أيام السنة، كانت هناك مواسم، وكانت هناك طقوس ، فحينما تملأ الجو رائحة الفراولة ، نعلم ونحن صاعدون الدرج انهم يصنعون مربى وشراب الفراولة ، وحينما تفعم رائحة الورد الأنوف ، نعلم أنهم يصنعون مربى الورد وشرابه، وهكذا البرتقال «ابو دمه» الذى كنا نفضل شرابه هو ومربى النارنج، كان كل شىء يصنع فى المنزل ، حتى المخللات.. وتخزن وتغلق بالشمع حتى نستعملها ، حين يحل الموسم التالى.. وكان، شيئا فشيئا، للأم أن تقدم لضيوفها أشياء أو عصائر مصنوعة خارج المنزل . وحينما تهتم أمى بضيف ما ، كانت هى تدخل المطبخ لتصنع «الليمونادة» .. عصير الليمون بيدها ، تدقق النظرة حتى لا تضل طريقها بذرة ليمون الى الكوب أو بعض «التفل » الى



يحيى حقى



الشيخ النقشبندى

السطح . أما حينما يكون الضيف غير مهم فهى زجاجة «الاسباتس أبو بلية» وهذه الزجاجة كانت تكفى ثلاثة أكواب مع وضع قطعة ثلج فى كل كوب. أما الآن، فالتفاخر بما يشترى للضيف من الطرقات. وحينما دخلت الكهرباء إلى منطقتنا، لم نستغن كلية عن لمبات الجاز، وكان التفاخر بأن الفاتورة لم تتعد بضعة قروش. وحينما حصلنا على التليفون وضع فى مكان عال حتى لا يكون ملهاة لنا وكان التفاخر أن الفاتورة ليس بها مكالمات زائدة، أما الآن فالتفاخر لمن يدفع أزيد من الآخر مئات الجنيهات ، والصبية الصغار يلهون بالتليفون المحمول.. !

طفولة سعيدة

وكثيرا ما تساءلت : لماذا كانت طفولتي سعيدة ، رغم أننا لم نكن أثرياء؟ .. وأخيرا وصلت إلى إجابة مقنعة ، ألا وهى أن إيقاع المدينة كان منضبطا ، وانعكس هذا الانضباط داخل منزلنا وحددنا فى إطاره .كانت أمى تستيقظ فى الخامسة والنصف صباحا، وسرعان ما توقظنا حركتها فى المطبخ. كانت تخبز لنا خبزا طازجاً كل يوم، فى فرن صغير تحته «وابور جاز» وسرعان ما تدب الحياة، نحن نمضى إلى مدارسنا ، وأبى يحسب نزوله من المنزل وفق موعد أتوبيس «ثورنى كروفت». كان أبى يحسبه بالدقيقة والثانية، ودائما ما يقص هذه القصة : بأن هناك يهوديا رفع قضية على شركة «ثورنى كروفت» لأن الاتوبيس تأخر خمس دقائق، وضاعت منه صفقة بالبورصة.. ولازلت.. حتى الآن .. أذكر حادثة «الكونستابل» بإعجاب وحسرة على ما وصلنا إليه. حدث ذات يوم أن وجد الكونستابل قشرة موز ملقاة أسفل شرفات المنزل، فأخذ كل سكان الأدوار فى تلك الجهة مخالفة.. كنت معجبا بملابسه وحذائه و«التزلك». الجلد اللامع الذى يغطى ساقيه حتي ركبتيه ، وبنطلون الركوب الذى يرتديه.. لكنى أعجبت أكثر بصفارته ، وأعطانى إياها كى أصفر بها. لم يثر والدى ، بل قال إن «الكونستابل» يجب أن يطاع ، وهو يستطيع أن يوقف اكبر «بك»..

نظام دقيق

وكثيرا ما استيقظنا بعد منتصف

الليل، وخرجنا الى الشرفة على صوت المكانس، وهى تغسل الطريق بالماء والصابون، فكانت رغاوى الصابون وزبده الأبيض مع سواد الليل تستثيرنا. وسرعان ما تغير الزمن ، وكانت السيارة الضخمة ذات الفرشاة الطويلة المستديرة، ينزل منها مياه وصابون لتدفعها هذه الفرشاة الكبيرة، ذات اليمين وذات اليسار . ملحوظة : كنا نسكن حارة طه بك السيوفى بالسكاكينى.

الشىء الذى لم يذهب عن مخيلتى طيلة هذه السنين، هو صورة الرجل البدين ذى الشوارب الأنيقة .. كالملك فؤاد.. وهو «محشور» فى مقعد الموتوسيكل الجانبى، وفجأة يتوقف الموتوسيكل وينزل ، ويقدم له السائق وعاء به دهان احمر وفرشاة ، فيرسم دائرة حمراء على أسفلت الحارة ويصعد صافقا الباب بعد أن ينحشر ثانية فى مقعده، وسرعان ما يتوقف ثانية ليفعل الشىء نفسه . شرح لى أبى الظاهرة، وهى أن هذا الرجل يفتش عن «المطبات» فى الطريق.. وهو يُختار بدينا كى يشعر أكثر بالمطب. وتحقق صدق ما قاله أبى، إذ أتى العمال ثانى يوم، وكشفوا عن تلك الأماكن وأصلحوها ، ورسموا دوائر خضراء حول كل مطب أصلح. كانت أمنيتى أن أوفر لابنتى هذه الطفولة التى عشتها .. ومستوى المعيشة الذى كنت أنعم به، أنا ابن الموظف المنسى، فى حكومة صدقى باشا ، لكن للأسف.. رغم تكسبى آلاف الجنيهات .. فشلت فى هذا .. لماذا ؟ إنها فوضى إيقاع المدينة العام.. لماذا ضاع الانضباط ..! ؟

★★★

إن احتكار المجتمعات الكبيرة للتكنيك، كفل لها السيطرة على المجتمعات الفقيرة، التي قد تملك المواد الخام ولا تملك التكنيك. والخطورة تتمثل في عدم سماح المجتمعات المتطورة تكنيكيا.. للشعوب النامية.. في توجيه تطور التكنيك نحو تطوير اهداف الانتاج.. يفعلون ذلك خدمة لمصالحهم الاستراتيجية والتجارية. الغرب لن يسمح مطلقا بالتقدم العلمي والتكنيكي للشعوب النامية، لأن هذا معناه ضياعها منه كسوق مستهلك لفائض انتاجه ، وحتى لا تخرج عن طاعته . وكل الدراسات التي ناقشت تطور التكنيك بعلاقات الانتاج في الغرب، أغفلت المجتمعات النامية المستهلكة التي ظهرت بصورتها البشعة في آخر القرن العشرين ككرة في ملعب الغرب يتقاذفونها .

التكنولوجيا لم تعد تنحصر وظيفتها فقط فى تحويل شكل المادة بصورتها البسيطة الى أشكال أخرى بل فى استطاعتها أن تعيد بناءها الجزيئى والذرى ، وقادرة كذلك على تحويل المواد

الى مواد جديدة، ذات خواص تحدد من البداية. وقد يجعل هذا .. فى القريب العاجل.. أن لا قيمة للبلدان التى تمتلك الطاقة والمواد الخام، وهذا هو المحور الجديد فى الثورة التكنيكية، إذ اتضحت بفضل هذه القدرة، إمكانية الحصول على مصادر جديدة بديلة عن الخامات التقليدية المولدة للطاقة . وبإمكانية غزو الفضاء ستحاول الدول الكبرى الانتقال بالتكنولوجيا الى قدس أقداس جديد، يحرم على انسان العالم النامى الولوج فيه، وعليه أن يبقى مستهلكا للنفايات ، فقيرا ، مغلوبا على أمره.

ظلم الفقير !

المفروض، مع الثورة التكنيكية، أن تتحقق الزيادة الكمية لصالح التجمعات البشرية، لكن الوضع بالنسبة للمجتمعات الاستهلاكية غير المنتجة ، أن كل منتج جديد يرد إليها، هو جزء من استعراض الافراد وتفاخرهم.. أكثر من استخدامهم المنفعى .

أصبح كل جديد سلعة تروج، وتتوالى الدعاية لها، وكل هذا على حساب المشترى؛ لتزداد ثروات فئة قليلة، أعطيت لها حرية الحركة والتكسب. **ويزيد الطين بلة، أن السلع المدعمة من أجل الفقير غالبا لا تصله ، يأتي «الخواجه» ويذهب للمصانع رأسا، وقد مهد له كل شيء ، يشتري كل كمية الانتاج المدعم.. ليس بالسعر الحقيقي له، لكن بالسعر المدعم للفقير.. يفرح رئيس مجلس الادارة ، والله أعلم لماذا يفرح ، ثم تعلن الارقام التي تعبر عن الصادرات، لكن لا يعلن عن الخسارة، ويتوجه المواطن المستحق للدعم للاسواق ، فلا يجد ما يفي باحتياجاته من المحلى، فيضطر أن يتجه للبضائع المستوردة. أما السلع المدعمة فتذهب إلي الخارج، وبتغيرات بسيطة يوضع عليها ماركة اخرى او علامة مؤسسة مشهورة، وكثيرا ما تعاد إلينا على أنها مستوردة.!**

★★★

إن التغيرات التى تحدث الآن لقوى الانتاج ، تؤكد حتمية التحام الفكر، بما فيه الفن، بالعلم بالتطبيق التكنيكى، وعلينا أن ندرك هذا. وعلينا أن نسأل أنفسنا دوما : هل يمكن أن نقصر اهتمامنا على الدعوة الى زيادة الانتاج ، دون تمهيد فكرى واجتماعى لذلك ؟؟ أظن أنه دون ارتفاع مستوى الفكر والفن لن يتحقق هذا، والتاريخ أثبت لنا عبر رحلته الطويلة كيف كان للفكر والفن الصدارة والقيادة .

إن عزلة الإنسان عن ما حوله من انجازات تكنيكية، وانفصاله أصلا عن النظرية العلمية والتطبيقية، هو من أكثر المشاكل حدة وأهمية . وقضية زرع الإدراك العلمى فى الإنسان ، وتطوير مواهبه العقلية والإبداعية ، لهى من أهم وظائف الفن والفكر، لكن فناننا ومفكرينا

انجذبوا إلى متاهات التقليد الأعمى للحداثة الغربية، وحددهم العجز لغياب المنهج العلمى ، حتى يضعوا أيديهم على الخطوات الصحيحة للإصلاح والتغيير، أو النقد المباشر للأسس والمسببات. **ويبدو لنا من الوهلة الأولى، أن الثورة التكنيكية العالمية وكأنها حددت للبلدان النامية مسارا أدى إلى ازدياد الهجرة من الريف الى المدينة لتحويل الريف الى مجتمع غير منتج ، فنزح الفلاحون إلى المدن طمعا في الكسب السريع ، عن طريق الخدمات الطفيلية ، وتحولت المدن.. وخاصة العواصم.. إلى مناطق جذب بشري، حيث وفد اليها الملايين من أبناء الأقاليم والعمال الزراعيين والقرويين العاطلين .**

وبدا واضحا وكأن هدف التنمية هو خلق قطاع صناعى، صالح لطبقة جديدة، جشعة من الاثرياء . وهكذا فرغ الريف من قواه العاملة وتمركز النازحون فيما يسمى بالعشوائيات .. ! وهى أحياء سكنية فقيرة حول المدن بدون خدمات، ولا ضوابط لها أو قانون . تحول الريف إلى مستهلك ، بدلا من أن يكون منتجا، والاراضى الزراعية فى النقصان. ومع ازدياد النقود فى يد من عمل فى الخدمات الطفيلية فى البلدان العربية، والكسب غير المشروع من الريفيين ، بدأت مبانى الاسمنت على مساحات الارض الزراعية.

وبالتبعية، لم يكن فى مقدورهم الرجوع ثانية الى زراعة الارض، حتى وإن عادوا فقد عملوا فى التجارة كوسيط، يستخدمون مدخراتهم فى سمسرة بيع الاعلاف والكيماويات والأسمدة ووساطة تجارة الطوب وخلافه من أدوات البناء. وهكذا يتم الانهيار..! فهذه الجموع رجعت لتكون معول هدم للريف المصرى. وفى النهاية قضى على العامل الزراعى بانقطاعه عن استمرارية علاقته بالارض .

وتم القضاء على شعب ارتبط بالارض آلاف السنين، ارتباطا عضويا، بنى عليه عقائده وتقاليده وعاداته..

★★★

تمركز تقدم المدينة الكاذب فى المدن على حساب الريف ، وازداد الفراغ النفسى لدى من ازدادت مكاسبهم السريعة عن طريق الخدمات الطفيلية . ومع غياب المنهج العلمى فإن عرض التليفزيون لأهم المنجزات العلمية على شاشته، يكون لا غاية منه سوى ابهار المشاهد ، بالضبط كوظيفة الاساطير .. كأبى زيد الهلالى وعنترة بن شداد .. !

إن الطبقات الطفيلية الثرية، اصبحت العمود الفقرى لبلدان العالم الثالث. اصبحت فى يدها دورة رأس المال الكاذبة التى تريد التضخم بهيمنتها الطفيلية على سلطات الدولة. وفى أى مجتمع يوجد نوع من التصادم بين التقدم العلمى التكنيكى والعلاقات الاجتماعية السائدة، لكن فى

البلدان النامية لم يكن هناك تصادم ما.. بل استسلام تام، بعد أن تحولت المجاميع البشرية الى مستهلكين لكل شيء. إن التكنيك الآن فى المجتمعات الاستهلاكية غير المنتجة ، تغلغل فى مصائر الناس دون احتياج حقيقي.. كما قلت فى مقالاتى السابقة .. ونفذ لصلب حواسهم وأحلامهم. كذلك .. سيطر على ثقافتهم وأوقات فراغهم . وكلما كان التغلغل أكبر كان حجم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية أكثر تفاقما. **وقد أصبحت المجتمعات الاستهلاكية غير المنتجة تستهلك كل شيء .. حتى الكومبيوتر ، أصبحت تستهلكه أكثر من احتياجها الحقيقي له. حتي المشروعات لو صحت.. فتمويلها بقروض من الخارج..!! وهذا ما يؤكد نفاد رأس المال القومي نتيجة للاستهلاك أكثر من الانتاج، أي أنه إفلاس معلن لكنه مقنن .!**

ولا دورة سليمة لرأس المال، ولا يشعر الفرد أن الآخر مسئوليته ، بل الآخر وسيلة للتكسب منه، كأن الفرد يضع يده فى جيب الآخر.. وإذا بنا أمام توزيع آخر للدخل القومي. وتعم الفوضى . ويضيع الانضباط بين الناس، فى الشارع وداخل جدران المنازل .

★★★

مع مجتمع غير منتج تتضخم الاسعار لأن المجتمع يستورد اشياء كثيرة لا تتناسب مع مستوى الفقر والتخلف الذى يغط فيه . لكنها التطلعات الطبقية تغرقه. وإذ بنا نجد أن زيادة المنتج وتوحيد القياس فى العالم أدى فى المجتمع الاستهلاكى غير المنتج الى ايجاد نمط مسطح لشخصية الفرد المستهلك ، غير الواعى، الذى شاغله الشاغل هو تقليد غيره من المجتمعات الغربية فى كل المجالات الاستهلاكية ، من الملبس إلى المأكل. وانحسرت مقومات هذا النمط فى المفاخرة بالاستهلاك واضاعة الوقت والمال والجهد. **إن التطلعات والمظهرية في المجتمع الاستهلاكي ، تدفع الناس لشراء وفعل اشياء لا لزوم لها ، وفي الوقت نفسه نجد أن الجل الأعظم من الشعب يعاني من سوء التغذية . وإذ بالفرد يخدم رأس المال الاجنبي دون أن يشعر ، ويدور في حلقة مفرغة لا يستطيع منها فكاكا.** ولا انضباط فى تصرف الناس، الكل يقلد بعضه بعضا، وتتولد نعرات كاذبة كان يجب أن لا توجد، لأنها اصلا نتيجة زيادة استهلاك لا حاجة له ، فمع الاستهلاك الذى لا حاجة له ، يضيع الانضباط من الفرد وتعم الفوضى فى المجتمع ويتولد مع استنفاد الدخل فى البضائع المستهلكة ، استنفاد لصحة الفرد نفسه، وإذ بالانسان عبد، يدور فى حلقة مغلقة ، عبد لتطلعات لا تنتهى تستنفد دخله وصحته. ومع هذه العبودية تتولد الانانية والضياع وعدم الطمأنينة، والتقويض المستمر للمبادىء الانسانية ،

وانحطاط للقيم. وعليه.. يصبح المجتمع بلا ايقاع يضبط علاقات الناس بعضهم ببعض، وتعم الفوضى والتسيب، حتى فى الطريق .

★★★

فى مجتمع استهلاكى غير منتج ، ينسى الفرد فيه أن التقدم التكنولوجى يجب أن يكون ثمرة كد وجهد الانسان؛ فهو عندما يستخدم منتجات لا ينتجها، إذ به يلتصق التصاقا مريضا بها مع استمرارية طبيعته الميتافيزيقية المغرقة فى الغيبيات ، التى هى اصلا منفصلة عن التطور الحادث لعلاقة الإنسان بالآلة ، فمثلا .. يعلق حجاباً أو خرزة زرقاء وتمائم فى سيارته ويقرأ عليها أدعية، بالضبط كما كان جده يفعل مع بقرته أو حماره، يفعل ذلك لأنه لا يستطيع مناقشة علاقته بالآلة بمنهج علمى، على أساس أنها جزء من انتاج الانسان نفسه، يمكن فهمه وتحليله والسيطرة عليه. وكلما تكاثف حوله الغموض وأحاطته الطلاسم، ازداد عجزه، فيندفع إلى الدين.. برؤية خاطئة ، وموقف سلبى ، نهت عنه الشرائع السماوية ، مبررا ذلك بأنه ضحية لقوى غامضة عشوائية لا ترحم ، تهدده دوما. ومع الاستسلام للسلبية تتولد الانانية الفردية ومعها الاحساس بالعجز. والتطبيق السيىء للرأسمالية فى المجتمع الاستهلاكى غير المنتج ، يهدد معظم اعضاء المجتمع بالتحول الى البطالة. هنا ليست القضية خاصة بالعمال فقط، بل تشمل معظم الفئات ، فالكل يريد أن يأخذ ثمنا لما يجب عليه بحكم عمله فعله ولا يفعله. ويوجه النظام الطعنات الى نفسه بأن يحاول استخدام الوسائل التكنيكية بإسراف . فما بالنا .. مثلا .. والمساحة المزروعة عندنا منذ زمن محمد على تتقلص بشدة ، وتتناسب عكسيا مع الانفجار السكانى المتزايد، وتغيب الطرق الصحيحة لميكنة الزراعة المبنية على دراسات وأبحاث علمية؟!.. إلى متى نظل نخفى رؤوسنا فى الرمال دون مواجهة الحقائق؟ هذا مع عدم الأخذ فى الاعتبار ضعف التربة ونقص الطمى، وضعف اندفاع مياه الفيضان بعد بناء السد العالى. **يجب أن لا تغرنا النجاحات الصغيرة في مجالات تصنيع البضائع المستهلكة ، وذلك كإقامة مصنع صغير لتجميع أجهزة التليفزيون أو أجهزة التكييف .**

★★★

تنعدم لدى الفرد، محاولته لتغيير وضعه، او البحث عن موارد رزق بطريق سليم. ويجد المرء المبررات لتصرفاته المنافية للقيم والاخلاق ، فلا انضباط فى المجتمع نفسه، ولا انضباط فى تكوينه النفسى.. ! مثلا.. يقول الفرد : طالما لا أحد يهتم بى، لماذا أهتم أنا بالآخرين..؟ ويصبح الدين هنا تكفيرا دائما عن استمرارية أخطائه وذنوبه. وبما أن السمسار هو المسيطر ، فمقياس السمسار هو الذى يعم ، بدلا من مقياس التاجر، الذى ساد خلال القرنين الماضيين.. فالتاجر .. كان لا يدخل

مضاربا ويكتفى بما أمر الله به ، أما السمسار.. فهو يتحايل في علاقته مع الله أن يدعه فى حاله، يسير أموره كما يشاء وسيقوم هو بالفروض والمناسك كطقوس..! **وهنا يتلاشى مفهوم الدين الحقيقي الذي أساسه صياغة البناء الاجتماعي وضبط تصرفات الناس. والنتيجة أن يفقد المرء ارتباطه بالآخر**، ولا يؤدى عمله كما يجب أن يكون . وإذ بعلاقاته مع الآخرين تنعدم، ويشعر كأن علاقاته تتم . ليست مع اشخاص مثله، بل تتم .. مع حالات يجب أن تسبب له ربحا..! فالاخرون قد أصبحوا وسائل يجب أن تساعده لزيادة دخله ، كى يفى باحتياجاته الاستهلاكية المتزايدة ، وهنا يتحول المرء فى المجتمع الاستهلاكى- دون أن يدرى - إلى بضاعة.. يتقاذفها آخرون.. الانسان اصبح بضاعة .. والتكنيك اصبح بضاعة.. وكل خطأ - مهما كانت بساطته او فداحة نتائجه - هو مجرد خطأ قدرى خارج حدود إرادة الانسان.. وإذا بفكرة الدين تتحول لتسد احتياجا نفسيا لفرد عاجز عن مواجهة حياته ، ويطلب الفرج من السماء. وهنا يغيّب منطق المجاهدة فى الحياة، ويترجم الدين إلى مفاهيم خاطئة.. سلبية.. تخدم منهج السمسرة فى الحياة، فى حين أن الأديان فى الحقيقة، تبنى على مقومات ايجابية، لتغير خطرا أو خطأ يحيط بالانسان، وتحديده فى إطار منضبط يخدم الآخرين. وهكذا يتجمد كل شيء فى المجتمع لغياب الانسان الحى المتجدد الفكر، ذى الاتجاهات الانسانية ، **وقد يعجز المرء عن ايجاد تبرير لهذه الظاهرة، وحتى لو توصل عالم أو فنان لشيء له قيمة فإن يأسه يدفعه الى الاعتقاد بأن ما توصل اليه لا فائدة منه أو له. وستمضي السنوات ، بل ربما عمره كله وعمر من بعده، دون أن تجد منجزاته بصيصا من نور . وهذا فى حد ذاته يثبط الهمة عن القيام بالمحاولة من البداية، فلا وجود لوصاية أمينة، أو تقنين سليم من أولى الأمر .. !**

هل هناك خلاص من وصاية محترفى السياسة، ومافيا رأس المال، التى تعزل بإصرار القيادات الفكرية والفنية ..؟

★★★

وترتبط كثرة البضائع الاستهلاكية .. من بلدان منتجة متعددة، بغرض المزاحمة التجارية غير الشريفة، والتلاعب فى سوق المال، واحتكار السوق، يؤدى إلى برمجة السياسة لصالحهم. ويتساءل الفرد : ما هو دور الإنسان مع كل هذا الضياع، الذى يأخذ أبشع صوره فى تحول الكل- حتى العامل العادى - إلى أن يستهلك أكثر مما يحتاج، ويوزن المرء بقدر ما يهدر من نقود، ويقع فريسة سهلة للبنوك والمرابين.. ؟! وبسيطرة رؤوس الأموال الطفيلية واختراقها الجهاز الحكومى .. حينئذ .. فالمتاجرة بأقوات الشعب،

وتستورد بضائع فاسدة، وقطع غيار المصانع يؤتى بها قديمة ومستهلكة، وإذ بالعمل فى المجتمع الاستهلاكى يصبح لا احتياجا داخليا لبناء المجتمع، بل مجرد وسيلة لتحقيق رغبات محمومة، لا غاية منها أو نفعاً . **وإذ عمت تلك النظرة من الكل، فالفوضى فقط هى التى ستعم وتسيطر . ومع هذا الوضع، تبرز وسائل الإعلام .. بدعايتها عن البضائع الأجنبية الاستهلاكية .. كمعول هدم للقضاء على اقتصاد البلد والرأسمالية الوطنية .**

وهنا يبرز الاحتياج القوى لوظيفة الفن الحقيقية، وإيجابية دوره .. هذا الذى غاب كلية عن الميدان، بعجز المجاميع البشرية عن فرض فنانيها وأبطالها الحقيقيين. وحينما يدور الكل فى دائرة استهلاكية ، فلن يتم نمو لمجتمع منضبط، ولا وجود لأهداف، ولا معنى لحياة . ومع نظرية التغطية على العيوب وتبرير الأخطاء، يقوم التليفزيون بتسطيح كل القضايا، وجعلها فارغة. فالقضية التى تتطلب عشرات من المتخصصين والمسئولين كى يلموا بها، وليعتصروها بحثا، يطرحها الوزير على شاشة التليفزيون فى دقائق .. يلقى بالمشكلة بمنتهى البساطة .. متهما كل نقد بأنه مغرض وموتور من أعداء الدولة، مغالطا ومغفلا دلائل الأمور . كل شئ يسطح، ولا وجود لحلول، لأن كل شئ فى نظرهم أصبح بسيطا وسيعالج قريبا.

وهكذا تُلاَكُ الشعارات، حتى تصبح فى النهاية بلا معنى، ومضغة فى الأفواه، شأنها شأن الجمل المختارة فى الإعلانات. والحقيقة أن كل الجالسين أمام التليفزيون.. ناظرين إلى الوزير.. لايكترثون بما يسمعون، كما لو كان الأمر لايهمهم؛ فهو مضيعة للوقت، لا أكثر أو أقل..! وإن نوقشت قضايا مصيرية، كالفيضان أو الطاقة، فاللامبالاة تنتظرها . الكل لم يعد يثق بشئ ، والكل اتخذ الموقف السلبى. ويتحلل الرباط الاجتماع، وفقدان المثل الاعلى، تنعدم الثقة، ولا شئ يهم، حتى إعطاء المرء صوته فى الانتخابات. ولا محاسبة لمذنب، وتفتقد إيجابية التصرف الاجتماعى .. فالمجتمع غير منضبط .. وتحل السلبية والأنانية، فتفقد الحياة معناها. وبما أن الوعود لا تعطى أمانا لفرد، فلا ضمان لشئ.

★★★

وبالتبعية .. فى المجتمع الاستهلاكى.. من السهل أن يتحول المرء إلى متلاف وكيان هدام، طالما أتت النقود سهلة دون كد وعرق، ونتيجة الإضرار بالغير وغشهم. والشعار السائد هو طالما أنا أُغش فلأغُش غيرى . ومن السهل فرض نموذج الشخص الذى ينفق ببذخ، ويشترى بضائع معينة، ويعيش نمط حياة معيناً، على تجمع ما من البشر وإذ بطريقة حياته تصبح نمطاً يحتذى، «موضة» يتطلع إليها الاخرون . حتى أن كثيرا من الدول النامية، تقبل أن تصبح مقابر للنفايات النووية، فى سبيل بعض التسهيلات فى شراء واستبدال السلع الاستهلاكية،

وأخيرا تجد نفسك أنت وما تملك عبدا لهذه البضائع الاستهلاكية .

أكرر ثانية : أنه بغياب المثل العليا التى تحتذى، تنفك عقد الترابط بين الناس، ويعم عدم الانضباط، ويفقد المرء إيجابية التصرف الاجتماعى، وتحل السلبية والأنانية، ويصبح لا معنى لوجود المرء فى الحياة، فلا وجود لغاية ولا معنى لكفاح .

إذن العيب ينحصر فى عدم تلاؤم المجتمع الاستهلاكى غير المنتج مع نفسه، وعجزه عن استخدام إمكانية تطور الآلة، بعكس مجتمع كاليابان .. حيث الإنسان بعلاقاته الاجتماعية، يتطور فى علاقة متوازية مع الآلة .. رغم خضوعه البشع لرأس المال الأمريكى.. لكن ظل اليابانى محافظا على تكوينه الأساسى لبنيته النفسية، وعلاقاته الاجتماعية القديمة، فظل معافى، فالمجتمع اليابانى هو تنظيم إنسانى، دقيق فى ارتباطاته ببعضه البعض، وانتصار الفرد فيه هو انتصار للمجموع، وانتصار المجموع هو انتصار للفرد، وتضحية الإنسان بنفسه عندهم، شىء بسيط، ما دام يتم فى سبيل المجموع، وإن أخطأ فرد، فلا تبرير لأخطائه، ولا غفران لنفسه. إنه هو الذى يجب أن يعاقب نفسه بنفسه.. حتى لو أدى هذا الى الانتحار .. ! وهكذا وصل اليابانى الى مواءمة سليمة بين العلاقات الانسانية الجامدة فى المجتمع الصناعى، وبين بنية المجتمع البدائى ، التى تقرب خلية النحل او النمل فى انضباطها، وذلك باحتفاظه وتمسكه بتراثه وبكل ما توصل اليه من قيم عبر تاريخه. ولم يفقد الدين عندهم مدلوله الايجابى .

★★★

غروب يوم النكسة – فى ميدان سيدنا الحسين – الوجوم يسيطر على السابلة ، وعلى الجالسين على المقاهى. الكل شلَّته الصدمة، فالحقيقة قد تكشفت. نظرت الى داخل الجامع ، فوجدت وجوها أعرف بعضها لوزراء وكبار مسئولين.. حينذاك .. يستندون الى الحائط او توسدوا ركبهم . خارج المسجد ، أقامت الطريقة الخاتمية، التى أخذ هؤلاء المسئولين على شيخها العهود .. حلقة ذكر، يتمايلون ويرددون: «لا إله إلا الله، منصورين بإذن الله..!» «بلهجة سودانية».. **وفجأة مزق هذا الانكسار وهذا الخنوع صوت الشيخ النقشبندي .. قويا هادرا عنيفا ثائرا: «عار عليك».. أخذ يرددها وينتقل بها من مقام موسيقي الى مقام آخر، حتى شعرت بالدماء تتدفق في عروقي وامتلأت عيناي بالدموع . وكان هذا الصوت هو الشيء الوحيد الايجابي الصادق الذي فعل . رحم الله الشيخ النقشبندي المنشد الصوفي ، ورحم الله الكاتب.. يحيى حقى .. لم يطرقا الابواب، ولم يستقبلا سفيرا.. ! لم تكن لديهما أية تطلعات ولا في حياتهما أي إسراف، بل كانت هجرتهما الى الله ورسوله ..**

لماذا كل هذا الحزن يلم بي..!؟

لا أدري..

الإسلام فى أمريكا

قرأت بإمعان واستمتاع المقال القيم الذى نشره د. حسان حتحوت بعدد يناير ٩٩ من مجلتنا الهلال تحت عنوان «المسلمون فى أمريكا».. والحق أننى وجدت صعوبة كبيرة فى محاولة تلخيصه أو التأكيد على بعض فقراته، فكل ما فيه ينطق بالأهمية والخطورة ولا يصح معه إلا القراءة الكاملة، بل يستحق الدراسة والعرض على الجهات المعنية بوزارة الأوقاف ووزارة الخارجية وغيرهما.

إلا أننى لم أستطع أن أتغاضى عن ذكر فقرة مهمة واحدة جاءت على لسان المؤلف هى: «إذا أتيحت الحرية للجميع (يقصد فى أمريكا) فالإسلام هو الرابح على المدى الطويل، فى حين أن شجرة الإسلام تذوى فى غياب الحرية، ليست حرية العبادة فقط، ولكن حرية التحدث عن الإسلام وشرحه للآخرين بصورة لا يمكن أن تتوافر فى أغلب البلاد الإسلامية»

وتعليقى على هذا المقال:

١- إن الجهود المبذولة فى أمريكا لشرح حقيقة الإسلام بالرغم من الصعوبات التى تواجهها هناك، تبدو أسهل بكثير من محاولة شرحه وفهم حقيقته فى البلاد الاسلامية ذاتها.

٢- لقد وصلت أمريكا الآن إلى قمة العلوم والحضارة، وهى حضارة الثراء المادى ولكن مع الإفلاس الروحى، لذلك فهى فى أمس الحاجة إلى القيم الإنسانية والروحية التى ينادى بها الإسلام الحقيقى، فلماذا لا نبث مثل هذه القيم فى هذه المجتمعات المتعطشة لها من خلال إيضاح جوهر الدين الإسلامى، بدلا من قصره على القشور والمظهريات التى يتحدث عنها البعض والتى يقف هؤلاء الأجانب عندها مترددين ومرتابين أيضا؟

٣- إن الدين الإسلامى فى حقيقته هو دين العلم والتطور، وليس من المعقول أن يصل الغرب إلى المريخ وبعضنا مازال يجادل فى وجوب دخول «الحمام» بالقدم اليمنى وليس باليسرى.

٤- وإذا كانت هناك إيجابيات حققتها الجاليات الاسلامية بالخارج وبدأت أمريكا تشعر بأن الخيط الاسلامى جزء من صميم نسيجها، فلماذا لا تفعل الجاليات العربية على وجه الخصوص نفس الشئ.

عادل شافعي الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

«الهلال» .. وتغريبة بني هلال

تعقيبا على ما نشر فى مجلتكم الغراء فى عدد فبراير ١٩٩٩ وفى باب التكوين وتحت عنوان «تغريبة بنى هلال وراء عشقى لفكرة العروبة.. د. فاروق أبو زيد» طالعنا عميد كلية

الإعلام فى ثنايا مقاله بخلاصة تجربته فى مجال الدراسة والبحث الصحفى، وتذكرت عندما قرأت خلاصة تجاربه وخبراته السؤال الذى وجهه إلى طلابه وتلاميذه عن ماوتسى تونج زعيم الثورة الصينية ونصيحته لطلابه على أهمية الثقافة والمعرفة فى بناء الإعلامى والصحفى الناجح.

ولقد كان العرفان بالجميل قيمة طالما تعلمناها من عميد الإعلام، وذلك فى إشادته بأساتذته د .عبد اللطيف حمزة، د. مختار التهامى، د. خليل صابات، د. محمد أنيس، ولا شك أن هؤلاء الأساتذة إضافة إلى د. ابراهيم عبده قد مثلوا جيل عصر التنوير فى مجال الدراسات الصحفية، وهذا الجيل من الأساتذة قد تخرج على يديه نخبة من الصحفيين والعاملين بالحقل الإعلامى من أمثال الاستاذة صافى ناز كاظم، والأستاذ فاروق جويدة، عبلة الساعاتى، الاستاذ جمال بدوى، وصلاح الدين حافظ.. الخ.

وقد جمع عميد الإعلام د. فاروق أبو زيد بين الأصالة والمعاصرة فى ثقافته حيث قرأ للمقريزى والجبرتى حتى طه حسين وسلامة موسى، وفى ذلك فقد أشار إلى دور سور الأزبكية فى إمداده باحتياجاته من الكتب التى طالما احتاجها للتزود بالثقافة والمعرفة، والذى اختفى من حياتنا الثقافية ثم عاد مرة أخرى بعد نقله إلى العتبة.

ولا نستطيع أن ننكر دور ثقافة الجريدة فى التنشئة الثقافية للدكتور فاروق أبو زيد، وذلك فى إشارته إلى العلاقة بين الصحافة والسياسة، وأنه منذ قرأ الصحيفة أحب أن يكون صحفيا، وأدركت منذ قراءتى للمقال سر إصرار العميد فى محاضراته على أن يأتى كل طالب إلى المحاضرة ومعه جريدة يومية، ثم يخصص وقتا من محاضراته ليسأل عن أهم الأحداث الجارية.

علاء الدين عمرو حمودة
كلية الإعلام - جامعة القاهرة

تصحيح

سقط من مقال د . جلال أمين بالعدد الماضى من الهلال المعنون «المستقبل العربى بين الممكن والمستحيل» سطور كثيرة ، أدى سقوطها إلى الإخلال بمعنى بعض الفقرات وها هى هذه الفقرات :

«ليس معنى هذا أن أى إثارة للحديث عن الماضى معناها بالضرورة شيخوخة وضعف وأن أى حديث عن المستقبل معناه بالضرورة شباب وتفاؤل . المهم هو كيف يكون الكلام عن الماضى ، وكيف يكون الكلام عن المستقبل . فجيل العشرينات من المفكرين المصريين كان يتكلم أيضا عن الماضى ، بل ويكثر من الكلام فيه ، ولكنه كان يتكلم فيه بروح الراغب فى تجديد الشباب والواثق من مستقبله ، بينما كلامنا نحن الآن عن المستقبل كثيرا ما لا يقل بؤسا وضعفا عن الانغماس اليائس فى ذكريات

الماضى ... أو فلننظر إلى ما يمكن عمله للنهوض باللغة العربية مثلا ، أو بالأحرى حمايتها مما تتعرض له ، ويمكن أن يفتحه هذا النهوض من أبواب أخرى للنهضتين الثقافية والاجتماعية . هل فقدنا القدرة على أن نؤثر فى هذا الميدان أيضا ؟ لا أظن ذلك ، وأغلب ظنى أن نجاحنا فى التخطيط فى مثل هذه المجالات ، مهما كان بعدها عن الأمور السياسية والاقتصادية الحاسمة ، يمكن أن يوسع بالتدريج من قدرتنا على التأثير والتخطيط فى الميادين الأخرى الأكثر حسما والأبعد أثرا » .

مبدع

من صحبة الورد ذبت عطرا ... ومن أغانيك فضت نهرا
ونهر عطر سرى بصخر ... يثير طير الحنين عمرا
إلى صدى النور فهو نور ... يحيل قلب الظلام فجرا
يرى به الحالم الأمانى ... على ضفاف الجمال سحرا

★ ★

ولم تزل هائما تنادى ... لروضة الذكريات زهرا
حكى ويحكى فضاء ملك ... أقامه العارفون صبرا
لحكمة الدهر صار بيتا ... وللهوى والوداد صدرا
مقامه نيزك شريد ... سرى إلى منتهاه قهرا
فلم يجد موعداً جديداً ... بموعد الأمنيات أدرى
وإنما انحل منه جمر ... فلم يعد للولاء جمرا
مضى وعاد ، اجتنى رماداً ... أصاب عينيه إذ تذرى

★ ★

ولم تزل حالماً بما لم ... تجد وقد جزته ممرا
وعدت للأغنيات نهرا ... ولابتسام الورود عطرا
كأن شوك الحياة لما ... أصاب كفيك قال شعرا
فصحت : الله .. قيل آه ... فنلت - عما ابتليت - أجرا

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج

قصة قصيرة — الذراع !

مد يده اليمنى الناعسة ليخرس الرنين المزعج المتواصل . أخذ يحرك يده فى اتجاه المنبه الموضوع على نضد بجوار السرير الحديد . الرنين ما زال يتواصل مزعجا مفتتا لكل ستائر الهدوء . قز جالسا . نظر إلى يده . لم يجد يده اليمنى ، وكم الجلباب فارغ إلا من هواء يمرح فى الفراغ الداخلى . غرق فى هم ثقيل . وتساءل : أين ذهب

ذاعى ؟! نسى المنبه ورنينه . كطفل صغير طفق يفتش أسفل البطانية ، والأرضية ثم رفع الوسادة .. ولكنه رغم مرارة الموقف ابتسم وهو يجيب على نفسه : هل ذراعى مثل ولاعة قد سقطت منى فى مكان ما ؟ . الأمر فى حاجة الى تفسير . تذكر بقوة أمس وآخر مرة شاهد فيها ذراعه .. يقسم أنه فى الساعة التاسعة ليلا من مساء الأمس قد حمل بأصابع يده اليمنى «الكوباية» الالمونيوم وهبط الدرج واشترى فولا وفلافل وخبزا وطرشى ، وقبل أن يدخل الى ممر البناية صاحت عليه البنت سكينة أن معها فجلا مثل الورود ، صابح وطازج . رغم قرب انتصاف الليل ، فلم يشأ أن يكسر بخاطرها ، وحمل حزمة الفجل تحت أبطه الايمن ، وصعد . وظل يجوب الشقة المسكونة بالحزن والكآبة والهواء الراكد بلا هدف ، حتى انتهى الفيلم السخيف المقرر علينا من قبل التلفاز . برد الفول فوضعه فى الثلاجة ، قرصه الجوع فتناول عدة لقيمات حاف ، ثم دخل الى المطبخ وأعد كوبا من الشاى . هجمت عليه ذكريات طالما هرب منها الأولاد الذين تزوجوا وتفرقوا ولا يكلفون حتى خاطرهم بالاطمئنان عليه ولو تليفونيا . والزوجة التى رحلت دون سابق انذار وهى فى قمة الصحة والحيوية . والوزارة التى رقته الى الرتبة التالية مع خطاب شكر واستدعاء مبكر الى التقاعد وهو فى قمة النضج والعطاء والحيوية . هذا كل ما حدث وفكر فيه ليلة الامس . أين إذن ذراعى ؟! .. فلتعصر افكارك تارة اخرى يا عبد العال . وتحاول تذكر أحلامك .. كوابيسك .. لعل ذلك يعين العقل فى العثور على ذراعى .. هل حلمت أن قوة خارقة .. جن أو عفريت أو شبح أو أى كائن خرافى قد غزا مكمنك وسطا على ذراعك ! .. ولكنه لم يتذكر أى شىء .. لا .. تذكر .. إنه محبوس فى غرفة ذات جدران كالحة وتكاد تطبق على انفاسك .. يصرخ .. دخلت عليه زوجه . أرادت ان تضع رأسه المتعب ، والمثقل بالهموم على فخذيها وهو ممدد يتأوه من الألم فى غرفة خالية إلا من حصير أصفر كالح ذات خطوط خضراء ما زالت لا معة . الا أنه رفض .. ثم رأى ممثلا مغمورا يرتدى بزة ضابط شرطة .. هرع إليه بكل قوة ، تضرع إليه أن يعطيه رقم تليفونه الا أنه رفض وبإصرار . الح فركض الضابط صوب البحر .. أخذ يجرى وراءه والممثل المغرور يسرع فى العدو . وأنا وراءه أعدو حتى تقطعت أنفاسى وسقطت فى حفرة . فجأة انشقت الارض عن أعداد هائلة من الكلاب ذات ألوان سوداء قاتمة ، تنبح بصوت يزرع الرعب ويجسمه . وأنا حبيس الحفرة . حتى طلب العون والصراخ أخشى منه حتى لا تزداد الكلاب المتوترة ثورة واشتعالا .. هذا كل ما حلمت به أمس .. ولكن أين ذراعى !

انخرط فى بكاء حاد متواصل . لا يوجد فى هذا الكون من يتفهم مأساتى . الموت أهون من ان أبعثر هكذا . شعر بالضعف والهوان وأنه فى أمس الحاجة الى قوة خارقة يحتمى بها وتهبه الهدوء والسكينة . اتجه صوب الحمام . نض عنه ملابسه أغرق جسده المنهك تحت دفقات الدش المتدفقه الباردة . انخرط فى الصلاة . لايدرى إن كان قد صلى أربع ركعات أو أكثر . زيادة فى الاحتياط وقبل أن يسلم سجد سجدة السهو . طلب من

الله – من خلال دموعه الخاشعة بعد طول عصيان وانشغال – أن يستره فى دنياه . وأن يعيد إليه ذراعه اليمنى التي اعتاد عليها واعتادت عليه . بعد ان تمتم «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» تارة فى الجهة اليمنى ، وتارة فى الجهة اليسرى وحين هم بالنهوض مكورا بقبضته السجادة ليرفعها عن الحصير حتى وجد ذراعه اليمنى ممدة فى وداعة على السجادة .

د . محمد حسن غانم

«صباح فخرى .. أبرز المطربين»

هى المرة الاولى التى اشاهد فيها صباح فخرى واستمع إلى غنائه على المسرح وهى المرة الاولى التى احضر فيها حفلاً غنائياً واستمتع به من بين الكواليس ! ولا أظن أن هناك متعة تضاهى متعة تلك المعايشة الفنية ، فإن كنت من محبى الطرب وعشاقه فلن تجد أجمل واصدق من هذا الفنان تعيش معه حالة من الطرب الخالص، وإن كنت من جمهور قاعة المسرح فسوف تخفى عليك الروح الحقيقية التى تبعث فيك وهج هذا الفن الجميل لحظة ابداعه ....

ويقال إن هذا الفنان ظاهرة فى عالم الغناء والطرب العربى وذلك لا ينفى أنه مدرسة فى فن التراث الموسيقى ، وكثيرون تعاملوا مع التراث ونقلوه الينا واسعدونا به ولكن لصباح فخرى منهجا آخر مع هذا النبع ، فهو شرب منه وارتوى حتى النخاع وحذقه فنضح بفعله فناً بديعاً وليس تراثاً منقولا او مصبوباً صباً ، وقد نحته فجلاه ، وطبعه بذائقته الخاصة واسبغ عليه من روحه فأنطقه لنا بما يردنا الى حقبة من الدهر عزيزة ولت ومضت ، ومع هذا فهو ليس مجرد صوت ملىء بالقوة والعذوبة والشجن يستخفك الطرب عند الاستماع لشدوه ، لكن قبل ذلك فهو بوتقة فنية ، عنده تنصهر الاشياء على المسرح ليتلقاها الجمهور فى شكلها النهائى كحفل موسيقى وغنائى .

محمود العطار

أنا مصرى

أنا مـــصـــرى .. وعن جـــد .. ومـــصـــر الأم دنيـــانا
ومـــاء النيل أحـــيـــاها .. ومـــاء النيل أحـــيـــانا
فـــصـــارت منه فـــردوســـا .. وصـــرنا نحن رضـــوانا
وصـــار السندس الغـــافى على الشطين فنانا
وعلمنا أصـــول الفن مـــذ كنا ومـــذ كـــانا
أقـــمـــنا شـــاهدا باق وأهـــرامـــا وخـــزانا

★★★

أتى الإســـلام للوادى .. فكنا فـــيـــه فـــرســـانا
عن الإســـلام قـــد زدنا وأبـــقـــينا له شـــانا

بذلنا المال عن طيب .. بذلنا الروح ايمانها
وجاء النصر يلقانا .. تبادلناه أحضانا

★★★

وما زلنا كما كنا حماة الحق تلقانا
كمثل المدفع الضارى نرى الزيتون أغصانا
وأن الحق مردود إذا ما خاف أعدانا
أردنا السلم فى عدل .. ولم نطلبه إذ عانا
وعين الله تهدينا .. وترعانا .. وترعانا

السيد عمر
منشية الرحمن – الفيوم

العلم يدرس كل شىء ... حتى الفوضى

تابعت باهتمام المقالات التى كتبها الأستاذ على يوسف على فى عددى ديسمبر ويناير من «الهلال» ، والتى قدم فيها بعض الأفكار العلمية الحديثة بأسلوب يناسب القارىء غير المتخصص ، ولا شك أنها تمثل جهدا جديرا بالثناء والشكر .

وأقترح على الكاتب (والقارىء) مراجعة ترجمته لكلمة CHAOS بمصطلح «الهيولى» ، وقد فضله على لفظ «الفوضى» باعتبار أن الفوضى «ضد العلم تماما» . وسأسوق حججى لتفضيل «الفوضى» فيما يلى :

أولا : فيم يبحث علم الـ CHAOS†ø يدرس هذا العلم منظومات أى مجموعات من الأفراد (قد يكون كل منها جزيئا أو كائنا جرثوميا أو إنسانا) تحكمها قوانين قد تكون جبرية DETERMINISTIC أو احتمالية .

ثانيا : فيم تستخدم كلمة CHAOS†ø (عن الموسوعة البريطانية) فى الفكر اليونانى القديم استخدم هذا اللفظ للدلالة على العالم السفلى المظلم ، وأيضا لحالة الكون السابقة على تشكل الكائنات ، ثم استخدمها «أوفيد» للدلالة على الحالة الأولية غير المرتبة للمادة والتى أنتج منها الخالق الكون المحكوم . ومن هذا جاء الاستخدام الحديث للدلالة على حالة تسود فيها المصادفة .

ويشير محققو «الشفاء» لإن سينا إلى أن كلمة هيولى تترجم بلفظتين لاتينيتين :
الأولى HYLE وتعنى جوهر وبالذات الجوهر المادى
والثانيةMATERIA وتعنى المادة
ولا أظن أن أيا من المعنيين يناسب الموضوع الذى نحن بصدده .

ثالثا : علام تدل الفوضى ؟ فى المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية – القاهرة ١٩٦١) : مشتق من فاوض ، والمقصود به انعدام الرئاسة أو القيادة .

وفى رأيى الخـاص أن العلم لا ينقض الفوضى من حيث هى تنوع وتعدد لدرجات الحرية ولكنه يعطينا مدخلا مناسبا لفهم أسبابها ونتائجها ، بل ربما نذهب إلى القول بأن أى ظاهرة حية تستعصى على التنظيم الكامل .

د . هانى مصطفى الحسينى
قسم الرياضيات - كلية العلوم - جامعة القاهرة

هو الحب

عـذرا حـبـيـبـة قلبى .. لست أنسـاك
إن الفـؤاد صـحـا من يوم مـرآك

أنت الوحـيـدة لا تسـتطيع واحـدة
من الحـسـان بأن تحـتل سكناك

«عـبـيـر» أنت المنى أنت التى ضـحكت
فى كـربتى .. فـانطوى تاريخى البـاكى

أنت انتـشـاءة روحى لا أزال بهـا
أحـيـا برغم مـرارات وأشـواك

أنت الجـمـال الذى مـا زال يفـتننى
مـا زال عـذب حـديثى من حـيـاك

أنت الحـنان الذى تقـتـات أوردتى
منه / هنـاء سـرورا .. عند لقـيـاك

أنت الحـديقـة فـيـهـا كل مـا رغـبت
نفـسى / فـواكـه . ورد . طائر حـاكى

أنت الفـضـيلة هامت فى مـلاعـبـهـا
روحـى تـقـى ، ثـم ذابـت فـى هـدايـاك

أنت الثـقـافـة كم علمـتنى حكمـا
مـن الحـكـايـا ، وآه مـن حـكـايـاك

أهواك كم قلتـهـا فى كل ناحـيـة
ولا أزال أقـول اليـوم أهـواك

مـتى أراك ؟ وكـيف الملتـقى فـأنا
يابهـجـتى تائه .. رحـمـاك .. رحـمـاك

فـاقـبلى يا فـتـاتى واقـبلى طلبى
إن تقـبلينى فـعـينى سـوف ترعـاك

وهل سـأبحث عن سـعـدى وعن طربى
وليس يسـعـدنى إلاك .. إلاك

فيصل حجاج
إذاعة الإسكندرية

إلى الأصدقاء

●● الصديق عاصم فريد البرقوقى : نشكرك على كلماتك الرقيقة للهلال . كذلك ملاحظاتك على ما قدم من أعمال درامية فى التليفزيون خلال شهر رمضان .

●● الصديق فيصل حجـاج - الاسكندرية : مجلة الهلال تقوم بدورها فى إلقاء الضوء على الأعمال الجيدة التى ترسل إليها إما من خلال المقالات أو ما تنشره فى هذا الباب الذى لا يتسع لكل الإنتاج الثقافى المتميز فعذرا للأصدقاء لضيق المساحة .

●● الصديق عصام سعد حامد - ديروط - أسيوط .. وصل إنتاجك إلينا وكل ما

نرجوه منك أن تواصل القراءة وتكتب كثيرا وتنتظر حتى تتمكن من الأخذ بناصية الكتابة القصصية ، فهى ليست بالسهولة التى تتوقعها .. هى موهبة حقيقية ودراسة متأنية !

●●الصديق معتز عادل : نشكر لك تهنئتك بعدد ديسمبر ، وأيضا ملاحظاتك خاصة رأيك فى مقال مارلين مونرو وما نشرناه من صور ، والموضوعات التى أشرت إليها نحرص من حين لآخر على أن تكون ضمن موضوعات العدد .

●●الكاتب والصديق الكبير نوقان قرقوط .. دمشق

أهلا بك صديقا عزيزا وواحدا من كتابنا المتميزين فى الوطن العربى نعتز بما يقدم للهلال .. نحن فى انتظار كل ما تكتبه ، ونقدر لك هذا الجهد الذى تختص به مجلة الهلال، وبخصوص استفسارك عن الكلمة التى كتبتها «بعنوان : محمد واليهود» ردا على الدراسة التى كتبها د . ابراهيم عوضين فى الهلال فهى معدة وجاهزة للنشر .

الكلمة الأخيرة للتاريخ والنقد الصحيح

د. عبد اللطيف عبد الحليم

القطيعة مع التراث إلا في أضيق الحدود ، لا وجود للبارودي أو شوقي أو العقاد أو جماعة أبوللو أو حركة الشعر الحر في مصر والعراق !! في مقابلها : أنا الشعر، أنا الإضافة، أنا الإبداع، أنا جماعة شعر، أنا أدونيس، ولا شئ غيري !!. تلك هي جملة من الدعاوى التي يطلقها على أحمد سعيد أو «أدونيس»، وهي دعاوى غريبة، وأغرب منها من يلتفت إليها ويصدقها ، لكننا في زمن زاخر بالعجائب «حتى ليس فيه عجائب» على رأى أبي تمام، وقد ظل الرجل حوالي نصف قرن يردد هذه المقولات التي سمعنا شبيها لها من غلاة المستشرقين الذين لا يرون سوى قيمة تاريخية لا فنية حتى في الشعر الجاهلي، ومثل هؤلاء لا خطر لحكمهم في أدب ولا نقد، لكن الخطر كامن في أن رجلا منا ينطق العربية، ويردد مثل هذه المقولات، ويجد الحفاوة في مصر وقد نعت أهلها قديما زمن الوحدة مع سوريا بأنهم «غربان أفريقيا الجائعة» وإذا واجهنا كلامه نتهم بالعصبية والإقليمية الضيقة، وهو «المحروس» من عين هذه العصبية والاقليمية !!.

لا جديد فيما قاله الرجل في معرض الكتاب، فتلك شنشنة قديمة وكان المظنون أن تكفكف السن المستعلية من غرب دعاواه فيركن إلى شئ من المراجعة، لكنها «حالة نفسية» تعادي العربية وديوانها، فتخلط أوراق القصيدة الموزونة والحرة وما يسمى قصيدة النثر، وكله عند العرب «والفينيقيين» صابون !.

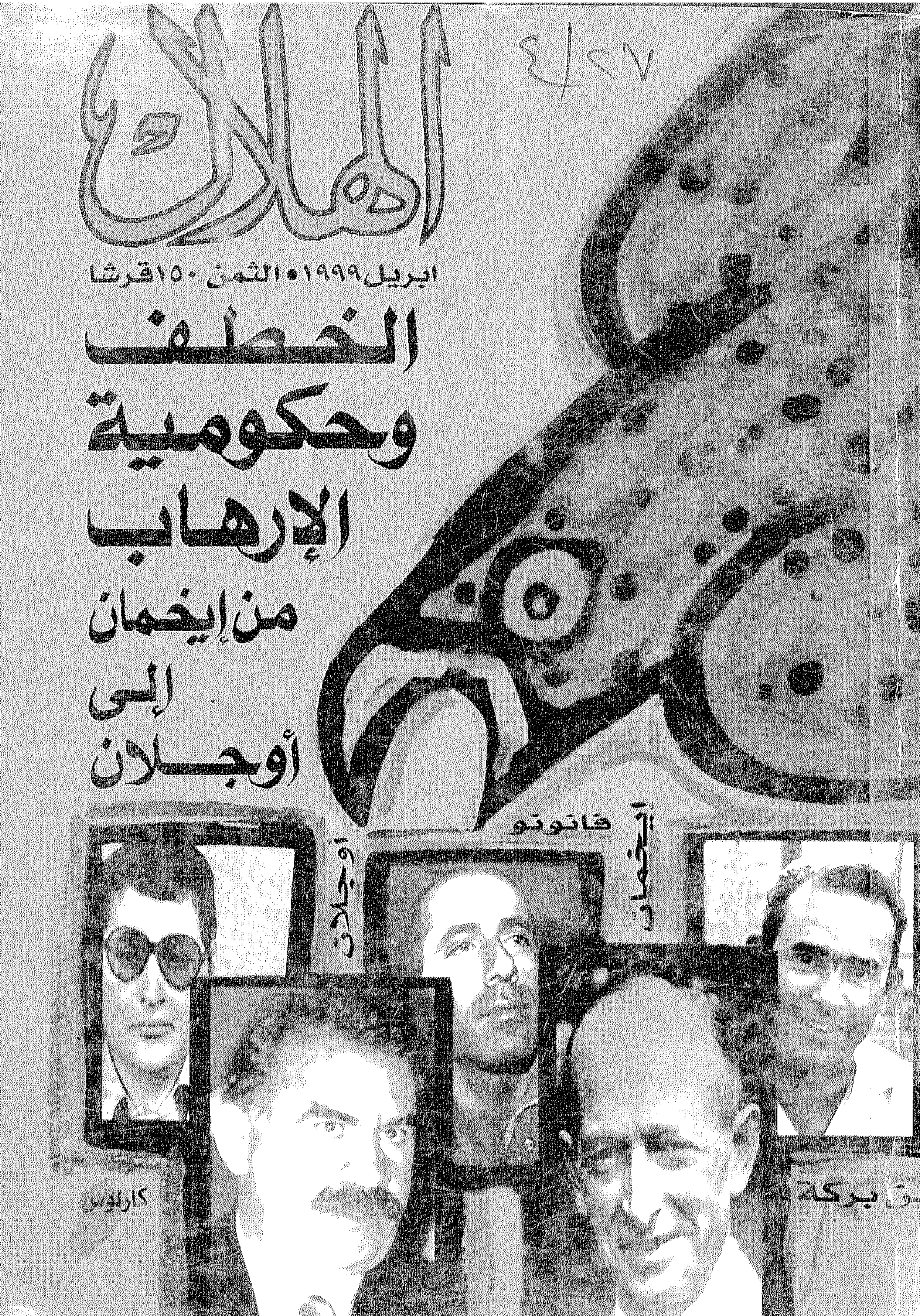
وخطر هذه الدعوى أنها جمعت العجزة وذوي العاهات والمتوفين (أصحاب الآفة) الذين ليس في ذرعهم إقامة الكلام وقدمتهم شعراء «المستقبل»، وفي القريب سيكون القرآن «شعراً» ربما لأن الوزن غير ضروري !!.

وقد أحسن الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في رده على بعض ما قاله أدونيس في الندوة وفي الأهرام، وهو لا يدافع عن حركة الشعر الحر وإن بدا هذا لأول وهلة، ولا عن الشعر المصري قبل جيله، بل إنه يدافع عن حركة التاريخ وحركة الإبداع دون عصبية عرقية تسد منافذ الفهم، وقد شفى صدور قوم مؤمنين.

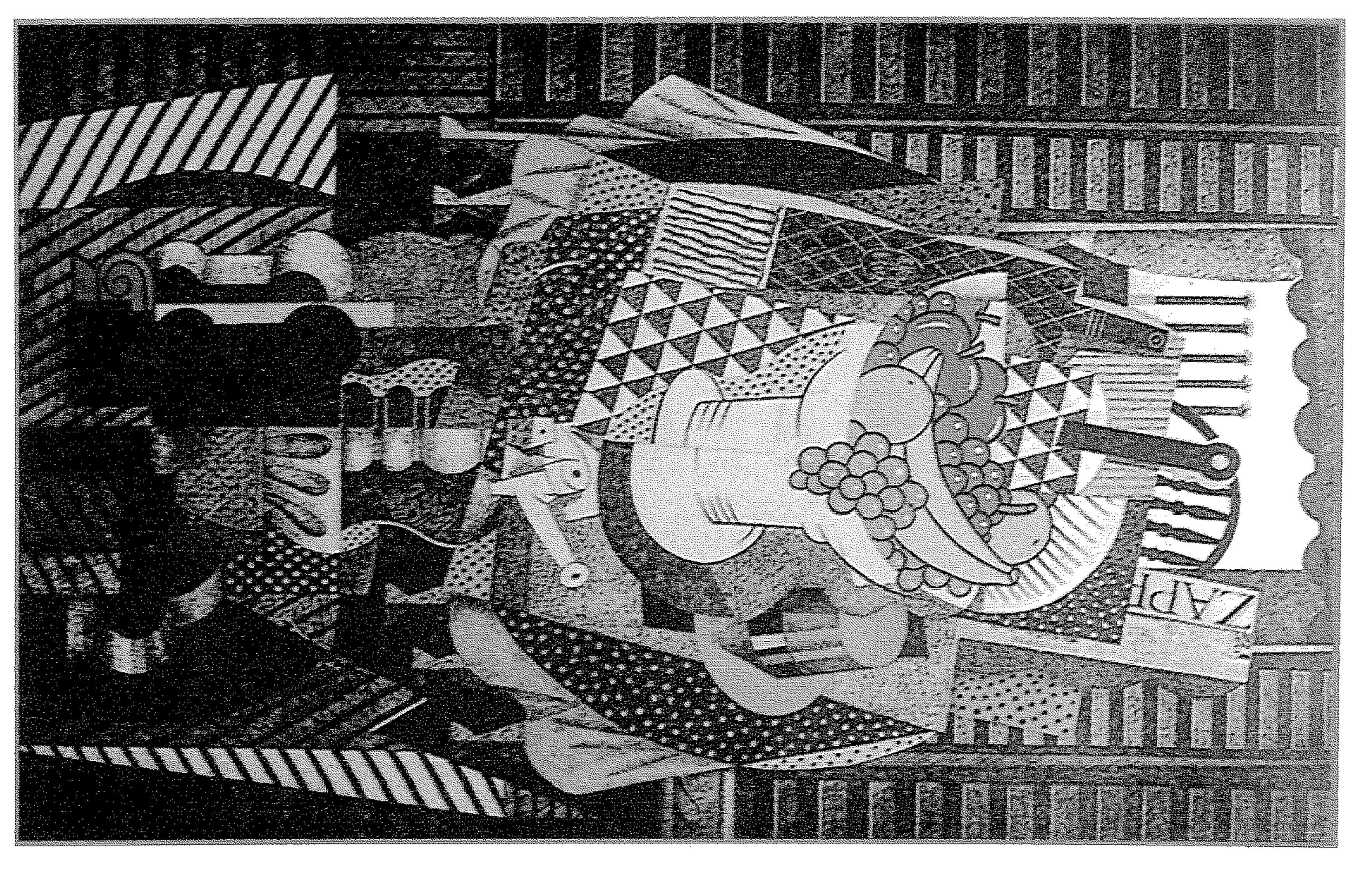
إن هذا «الجهاد» المخلص من أدونيس في هدم التراث، وهدم الرموز الكبرى في مصر والعراق لن يكون باعثه الموضوعية، ولا الرغبة في نفي المحاكاة، بل بواعثه في نفس الرجل وهي ليست في خدمة هذه الأمة ولا لغتها ولا شعرها بلا ريب، لكن هذا «الجهاد» كالمصل الذي يكشف عن مناعة جسم الأمة التي غالبت أمصالا كثيرة فغلبتها، وهي تلجأ في لحظات صمودها إلى ما يريد أدونيس نفيه منها، ولن تلجأ إلى أدونيس ولا إلى شيعته لأنهم خارج التاريخ وخارج الزمن والمستقبل منه بالذات، والكلمة الأخيرة للتاريخ والنقد الصحيح، لا للتاريخ «الشعوبي» والنقد المئوف .



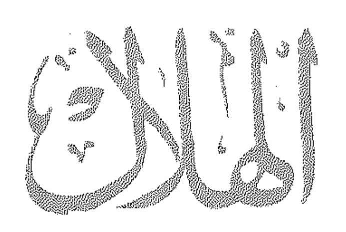
روايات مصرية للجيب
النخبة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الهلال
ابريل ١٩٩٩ • الثمن ١٥٠ قرشا
الخطف
وحكومية
الإرهاب
من إيخمان
إلى
أوجلان
فانونو
أيخمان
أوجلان
كارلوس
بركة



تكوينات للفنان: الأسبانى فرناندو بلفير



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام السابع بعد المائة

إبريل ١٩٩٩ ● ذو الحجة ١٤١٩ هـ

فكر وثقافة

حصاد القرن :

هذا العدد



الغلاف تصميم :
الفنان :
حلمى التونى

عزيزى القارئ : الهلال .. وحصاد القرن العشرين

حصاد القرن العشرين والذى تحرص «الهلال» على تناوله فى أعدادها ، إنما يعكس أمورا جساما مرت على مدى مائة عام شهدت حربين عالميتين كان الدمار فيهما شاملا لحضارات تعب الإنسان وكد فى صنعها وبنائها ، وكان الإنسان هو نفسه الذى صنع آلة الدمار الشامل ، ليقتل بنى جنسه ويدمر مدنا كاملة بالقنابل الذرية كما حدث فى هيروشيما ونجازاكى .

وحينما فرغ بنو البشر من الدمار وثابوا إلى رشدهم وبدأت برامج الفضاء وشهدنا صعود الإنسان إلى القمر ، وسمعنا فى المقابل عن حرب الكواكب والنجوم .. وبدأت من جديد الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى، كما بدأت التكتلات بين الدول واشتد الصراع وكأن نذر حرب عالمية ثالثة فى طريقها وفى هذه الحال فإن آلات الدمار لن تبقى أحدا على سطح المعمورة .

لم تتوقف حياة الإنسان بل إنه حاول أن يواصل الحياة ومباهجها .. فرأينا التطور الهائل فى السينما وفى المسرح، وشاهدنا التنافس فى مجال الفن على أشده مرة أخرى بين الشرق والغرب ، وهذا التطور عكس رغبة الإنسان فى ترقية الذوق الفنى ، وبدأت التكنولوچيا تساير هذا التطور وتواكبه .

قدمنا فى أعداد الهلال منذ العدد الأول من سنة ١٩٩٩ من بين ما قدمناه تطور مصر السياسى للدكتور رءوف عباس والذى أشار فيه كيف أن القرن العشرين يعد من أهم قرون الألفية الثانية وأكثرها خطرا وأسرعها إيقاعا ، وأغناها بالتغيرات السياسية الدرامية التى كانت لها انعكاساتها الاجتماعية والثقافية. ولما كانت مصر تحتل موقعا بارزا على خريطة العالم ، فإن سمات هذا القرن قد تركت بصماتها على تطورها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى بشكل واضح ، فقد افتتح هذا القرن ومصر ولاية من ولايات الدولة العثمانية ذات وضع خاص كفلته الفرمانات التى حصل عليها محمد على والخديو اسماعيل ، وصل إلى مرتبة الاستقلال الذاتى جاء الاستعمار البريطانى وقاومته مصر، إلى أن اضطرت بريطانيا أن تعلن استقلال مصر فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ تحت ضغط الحركة الوطنية .

لقد طويت صفحة حكم أسرة محمد على بإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ ثم قيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ بوحدة مصر وسوريا .. واستمرار الاحتفاظ باسم الدولة بعد الانفصال فى سنة ١٩٦١ حتى تغير إلى جمهورية مصر العربية فى أوائل عهد السادات .

وتناول بحث «الهلال» ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢ وكيف خرج الضباط الأحرار لتغيير النظام باسم حركة الجيش المباركة .

كذلك قدم الدكتور عبد العظيم أنيس حصاد القرن فى العلوم فى مقال له بعنوان «ماذا بقى لكى يكتشف؟» وهو يلقى الضوء على كتاب هذا هو عنوانه صدر فى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩٨ بقلم سير جون مادوكس الذى كان المحرر الرئيسى لمجلة نيتشر لنحو ربع قرن ، واستعرض د. أنيس ما جاء فى هذا الكتاب المهم مما أنجز ، وماذا بقى من قضايا علمية فى مجالاتها الأساسية لم يصل فيها العلماء إلى حسم واضح بعد ، سواء فى ميدان الفيزياء النظرية أو العلوم الكونية أو علوم البيولوجيا والعلوم الرياضية ، كما ألقى الضوء على المنجزات العلمية فى القرن الماضى ، وما تبقى للمستقبل ..

وفى هذا العدد يتناول كاتبان من أهم كتاب ونقاد المسرح فى مصر حصاد القرن فى الأدب المسرحى فى العالم وفى الوطن العربى .

وما يعنينا هنا هو تلك النهضة المسرحية العربية التى بدأها مارون نقاش فى عام ١٨٤٧ أى من حوالى ما يقرب من ١٥٠ سنة، وكيف تطورت على مدى قرن ونصف القرن من الزمان ، ومحاولات المسرحيين العرب لتوظيف عناصر من التراث العربى ، أو أشكال الفرجة السابقة علي شكل المسرح الذى جاء إلينا من الغرب، وهل يقدر مسرحنا العربى أن يجد شكله الخاص فى ظل نهضة مسرحية تتحدد ملامحها ، بعدما رأينا من إسفاف يدخل إلى خشبة المسرح ، غير مفاهيم الفن المسرحى وهبط الأداء والمستوى وكان الإسفاف فى كثير من الأعمال التى شاهدناها فى السنوات الأخيرة هو إهدار وهدم هذا الفن الراقى الجميل .

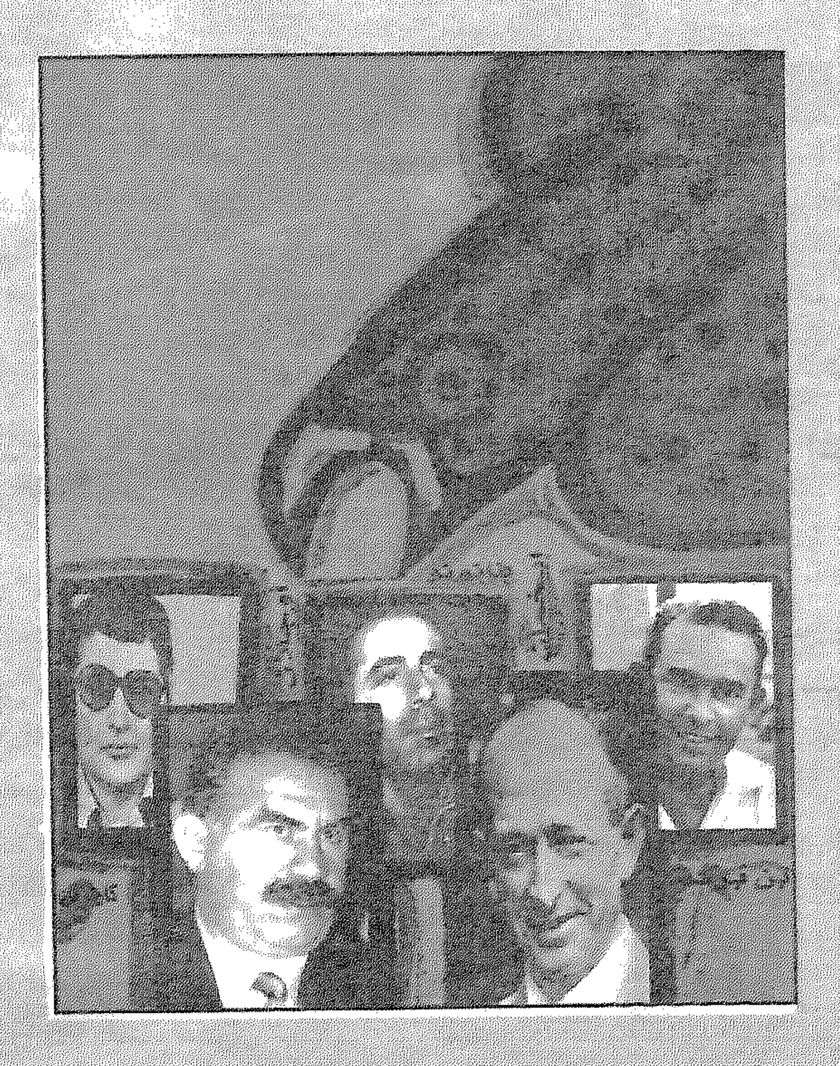
وطوال هذا العام سوف نستمر فى تقديم حصاد القرن العشرين فى المجالات المختلفة .

والسؤال المطروح الآن ونحن نودع هذا القرن ونتطلع إلى الألفية الثالثة هو هل صحيح أننا بدأنا ـ فعلا ـ الاستعداد لكى نطور أنفسنا ، ونتعلم من الآخرين الذين سبقونا بمسافات كبيرة . إن النجاح يستلزم الصدق فى القول والعمل ، وأن ما حققته الدول التى تتشابه ظروفها مثلنا تماما ، لم يجيء وليد المصادفة أو بالكلام واللافتات البراقة ، ولكن بجهد العلماء والاقتصاديين وبفضل مهارة الساسة وصدقهم ووضوحهم أمام شعوبهم .

نتمنى أن نراجع أنفسنا ولا نتجمل ! بل نعمل بجد واجتهاد لتبدأ مصر عصرا جديدا على أسس علمية راسخة يتحقق فيه لأبنائها الأمل الذى ننشده .

كما نتمنى أن يرى الجيل الجديد من العلماء والمفكرين طاقة الأمل التى تتيح لهم إسهاما حقيقيا فى نهضة بلادهم بدلا من أن تتبدد طاقاتهم ولا يجدون الفرص المتاحة لأداء دورهم النشط من أجل الوطن .

المحـــرر



الخطـــف ..

« وحكومية » الإرهاب !

من إيخمان حتى أوجلان ودور ثابت للموساد

بقلم : د. سامى منصــور

إن «مهزلة» تسليم عبدالله أوجلان الزعيم الكردى إلى تركيا قد كشفت الأضواء حول ليس فقط ظاهرة الخطف التى انتشرت بصورة تجعل منها أحد ملامح عالم اليوم، بل واختلاط الصور والخطوط حتى تكاد تضيع الحقيقة إلا على أصحاب البصيرة..!.

وبداية أعتقد أنه لابد من تسجيل ملاحظتين أساسيتين: الأولى حول أن الخطف ظاهرة وليس مجرد حوادث فردية فإنه يجب محاولة تنشيط الذاكرة حول سجل الخطف، فالقائمة كبيرة تضم أسماء لامعة وأحيانا أسماء غير معروفة، وإن كان لها دور أسدل الخطف عليه الظلام .

فإن كان «أوجلان» هو أحدث أسماء القائمة فقد سبقه «كارلوس» الذى سلم بصفقة مع السودان، وقبله المهندس «فنونو» الذى أذاع أسرار ترسانة السلاح الذرى الإسرائيلى وخطف من روما، وقبله «كردج» الذى خطف من موينخ، وكان للعالم العربى نصيبه بخطف مهدى بن بركة من باريس وسليم اللوزى الصحفى من بيروت والكاتب اللبنانى ميشيل أبوجوده من بيروت وإن كان وحده قد أعيد!.

ولعل «إيخمان» هو أكثرها تحديا والذى خطف من الأرجنتين ! وهذه مجرد نماذج وليست حصرا يصعب تحقيقه.

والملاحظة الثانية هى أننى سوف أبتعد بقدر الإمكان عن جانب الإثارة فى كل عملية خطف، والتى تصلح كل منها لفيلم بوليسى باعتبار أن الإثارة هى ارتباط طبيعى بالخطف وطبيعة أطرافه من أجهزة المخابرات ، فليس هذا مجالاً للإثارة حتى لاتضيع الأركان الأساسية والأبعاد الحقيقية لهذه الظاهرة فى كم الإثارة الذى يتم فيه العمل . ولابد من الاختيار بين الإثارة أو المعالجة الموضوعية .

وأعتقد أن هناك أبعاداً أربعة لظاهرة الخطف التى أصبحت أحد مظاهر المجتمع الدولى المعاصر وهى :

١ - خلط الأوراق فى تعريف الإرهاب .
٢ - الاعتداء على سيادة الدول وسلطانها على أرضها .
٣ - إلغاء أو إسقاط القانون الدولي .
٤ - أصبح الإرهاب الدولي حكوميا وليس للعصابات حتي أن معظم

العمليات تمت فى عواصم لها اسم وتاريخ..!.

ونبدأ بمعالجة كل بعد على حده مع اختيار نموذج أو أكثر من الواقع.

أولاً : خلط الأوراق :

إن أوضح مثال على ذلك هو خطف عبدالله أوجلان الزعيم الكردى بعد حصاره منذ خروجه من دمشق ، حتي يذهب إلى أثينا بعملية حصار رسمتها المخابرات الأمريكية بمساعدة المخابرات الإسرائيلية واليونانية . ومن أثينا حيث استحال تسليمه فيها لأسباب سياسية تم نقله إلى نيروبى عاصمة كينيا حيث كانت نهاية المطاف بأن سلم إلى تركيا وبدأت محاكمته على الفور .

والواقع أن أوجلان ليس إرهابيا ولكنه زعيم أو أحد زعماء الشعب الكردى ولا يمكن أن يعامل على أنه ارهابى .

والمعروف أن الأمم المتحدة قد استغرقت حوالى عشر سنوات فى نقاش لوضع تعريف للإرهاب. ورغم أن اللجنة قد فشلت فى مهمتها أمام تداخلات الموقف الأمريكى الذى رفضته اللجنة بأغلبيتها الساحقة حيث انتهت إلى الفصل بين الإرهاب وحركات التحرير.. وهو ما تصر عليه الولايات المتحدة .

وإصرار الولايات المتحدة ليس موقفا منهجيا أو عقائديا قائماً على مبدأ وعقيدة، ولكنه موقف إنتهازى يختلف من مكان إلى آخر .

ففى الوقت الذى إعتبرت الولايات المتحدة أوجلان إرهابيا وأعلنت عن غضبها من ايطاليا لعدم تسليمه فإنها اعتبرت زعماء البروتستانت فى إيرلندا زعماء لهم الحق فى الجلوس على مائدة المفاوضات لتقرير مصير أيرلندا الشمالية . بل أكثر من هذا أن الولايات المتحدة وضعت حلف الأطلنطى فى حالة استنفار قصوى لتفرض على يوجوسلافيا قبول التفاوض مع زعماء كوسوفو . والأغرب من ذلك كله هو معاملة جون جارانج فى جنوب السودان على أنه زعيم شعبى ..!.

وربما كان خطأ أوجلان هو أنه من الشعب الكردى فى وقت تشن فيها الولايات المتحدة حربا على العراق من تركيا. ولابد أن يكون الثمن بشريا.. هو أوجلان.

ثانيا : عدوان على السيادة :

إن عملية خطف أى شخص سياسى وبالصورة التى - تتم - بها حتى لو شاركت فيها عناصر أو كل مخابرات الدولة التى تجرى على أرضها الجريمة هى اعتداء على سيادة هذه الدولة وإهانة لكل أجهزتها السياسية والقضائية .

وأظن أن نموذج خطف «إيخمان» الزعيم النازى من الأرجنتين سنة ١٩٦٠ هو أبرز الأمثلة وإن كان ليس آخرها ، فقد قامت المخابرات الإسرائيلية بخطفه بمساعدة



المخابرات الأمريكية التى حددت هويته وموقعه، ثم قامت عناصر الموساد بخطفه ووضعته فى السفارة الإسرائيلية بالأرجنتين ، وتكتمل المهزلة بأن يقوم وزير خارجية إسرائيل بزيارة الأرجنتين بدعوى التهنئة بالعيد القومى وعلى طائرته وضع إيخمان ليصل إلى إسرائيل حيث جرت محاكمته وأعدم فى ٢٥ سبتمبر من نفس العام .

ولعلنى كنت وحدى فى الصحف العربية التى تابعت القضية، وكان لها عمود ثابت كل جمعة فى صفحتى السياسة الدولية «معنى الأحداث» بالأهرام.

وقد قال إيخمان على لسان محاميه معلومات حيوية، ولكنها ضاعت بقدرة الهيمنة اليهودية على الإعلام .

●● فقد أكد أن أفران الغاز لم تكن لحرق اليهود ولكنها كانت لحرق الموتى من أى دين فى معسكرات الاعتقال .

●● إن الحركة النازية عقدت اتفاقا مع قادة اليهود وكان طرفا الإتفاق إيخمان من الجانب النازى وبيجن رئيس وزراء إسرائيل بعد ذلك من الجانب الصهيونى، وذلك بتقديم الذهب وتسهيل التجارة للنظام النازى مقابل تهجير اليهود الشباب إلى فلسطين .

●● إن ايخمان لم يكن له دور فى مسألة معسكرات الاعتقال. ويبدو أن إعدام إيخمان لم يكن بسبب دور له فى أفران الحرق بمعسكرات الاعتقال النازى ولكن لأنه كان

وحده القادر على إثبات إتفاق الصهيونية مع النازية !.

ثالثا إسقاط القانون الدولى:

نؤكد على أن عملية الخطف هى نوع من الاعتراف بعدم بوجود قانون دولى، وسلوك لا يتفق وكيانات الدول .إذ أن الحكومة أى حكومة ترى أن تتابع خصومها فى أى مكان وتحاسبهم دون قيود للسيادة أو القوانين مع إن البوليس الدولى لو كانت القضية صحيحة لقام بذلك لحساب هذه الحكومات .

وأبرز مثالين على ذلك هما خطف الزعيم السياسى المغربى المهدى بن بركة من باريس فى آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٦٥، وذلك لاتهامه بالتآمر فى المغرب وإصدار حكمين عليه بالإعدام، والرجل رحمه الله كانت جريمته أنه يطالب بالديمقراطية، وقد اشتركت ثلاثة أجهزة مخابرات فى عملية الخطف. فقامت المخابرات الفرنسية باستدراجه من جنيف إلى باريس، وقامت المخابرات الإسرائيلية بخطفه من أمام أحد مطاعم باريس وتم تسليمه للمخابرات المغربية، وبعد أيام أعدم فى حضور أوفقير وزير داخلية المغرب والذى أعدم هو الآخر بعد ذلك .

وقد أمر الرئيس الفرنسى الراحل شارل ديجول بإعادة فتح التحقيق فى الحادث بعد إعدام بن بركة لتحديد مسئولية المخابرات الفرنسية كما نشرت مجلات إسرائيلية تفاصيل دور الموساد والباقى معروف .

والمثال الثانى هو خطف «موردخاى فانونو» مهندس الذرة الإسرائيلي والذى أذاع عبر الصانداى تايمز اللندنية تفاصيل برنامج التسلح الذرى الإسرائيلى، وبينما كان فى لندن ٢٤ سبتمبر ١٩٨٦ فى انتظار نشر الموضوع الذى عرض على سفارة اسرائيل قبل نشره لأخذ تعليق عليه يقال أن فانونو وافق على ذلك، وبينما كان يجلس في أحد ميادين لندن التقطته فتاة اطلقت علي نفسها ساندى وأنها أمريكية، ثم تابعت الصحف البريطانية كشف حقيقتها فإنها اسرائيلية زوجة ضابط فى المخابرات الحربية واسمها شيريل بيتوف واقنعته شيريل بالسفر معها إلى شقة اختها فى روما .

وسافر معها فعلا فى ٢٩ سبتمبر ولم تكن الشقة الموعودة غير مقر الموساد وتم حقنه بالبنبج ثم نقل الى احدى السفن التى نقلته إلى إسرائيل، والتى وصلها فى ٧ اكتوبر وحوكم، ومازال مسجونا هناك حتى الآن رغم أن كل قيادات اسرائيل ذكرت اكثر مما قاله فانونو عن التسلح الذرى الاسرائيلى !؟.

رابعا : الارهاب حكومى :

إن أحد الفروق بين عصابات الجريمة المنظمة والحكومات هو أن هناك قانونا ومؤسسات لممارسة القرار فالعصابات ارادتها هي القانون وسلوكها هو الواقع وحكمها هو القضاء .

والخطير أننا أصبحنا فى العالم الحالى نواجه هذا الارهاب ولكنه للاسف حكومى وإن كانت كل الحكومات تنكره ولا تعترف بما تفعله رسميا إلا نادرا، والاصل فى فكرة وفلسفة الفصل بين السلطات هو ضمان السلامة والامان لأى شخص .

وأظن أن هناك أكثر الامثلة صراحة هى في حالتين الاولى لكارلوس والاخرى لسليم اللوزى.

فكارلوس تحول بفضل دعم حكومات عديدة له وطلب مساعدته للقيام بعمليات لا تستطيع القيام بها، إما لعدم القدرة أو لرغبة فى الاختفاء. وقد تحول كارلوس إلى أسطورة خلال الربع قرن الأخير من القرن العشرين فى قدرته على توجيه الضربات، وفى نفس الوقت الاختفاء مع أنه كان يتنقل بين العواصم المختلفة ويسافر بالطائرات العادية..!.

وفى صفقة فى أغسطس ١٩٩٤ لم تعرف تفاصيلها قامت السودان بتسليمه لفرنسا التى قامت بمحاكمته على جريمة أو اثنتين فى إطار من السرية رغم كل الحريات والديمقراطية التى فى فرنسا ، وقد هدد كارلوس نفسه بأنه قد يدمر المعبد على الجميع ولذلك لم يفتح الملف كاملا خوفا مما قد يقوله الرجل عن عملياته والدول التى مولته وساعدته على التنقل، ويقضى كارلوس عقوبة السجن الآن فى فرنسا .

والمثال الثانى هو للصحفى اللبنانى الشهير وأحد رموز الصحافة العربية سليم اللوزى، ومع أنه لم يملك فى حياته غير قلمه أى أنه لا يملك قوات وأسلحة وإنما ورق وقلم فإن مواجهة سطوره قد تحول إلى كابوس، وفى سنه ١٩٨٠ خطف اللوزى من بيروت وأعدم فى اليوم الثانى أو فى نفس اليوم أو بعد ذلك بقليل ، فالمهم أنه أعدم ولازال سر خطفه وقتله محاطاً بالاجتهادات والتفسيرات دون أن يعلن أحد عن قيامه بالعمل وأسباب ذلك .

وإذا كان اللوزى قد واجه الموت فإن ميشيل أبو جودة أحد أبرع كتاب العمود العرب قد خطف وأعيد بعد أشهر ولكنه لم ينطق بحرف واحد عن خطفه وأسبابه ومرتكبيه .

وتبقى ملاحظة أخيرة فى ختام هذا الموضوع وهو أن المخابرات الإسرائيلية – الموساد – تكاد تكون العامل المشترك في معظم الحوادث حتى لو لم تكن الصهيونية طرفا فى القضية مثل المهدى بن بركة .

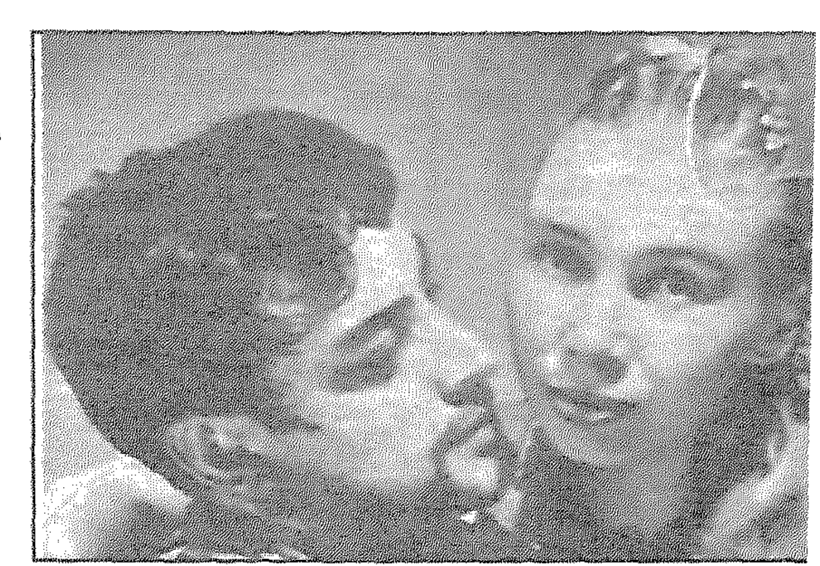
ووجود الموساد سواء بالمصلحة أو بالارتزاق -- ! – فإن ذلك لايعنى أنها هى الأفضل أو أنها تملك من الخبرات والامكانيات ما تملكه غيرها من أجهزة المخابرات فذلك قول غير صحيح ..!.

والسبب فى اعتقادى أن العقل الذى يحكم إسرائيل ليس عقل دولة ولكنه عصابة من المستوطنين تفكر من خلال فوهة سلاح وتتصرف من وراء القانون .. أى قانون !!.

حصاد القرن

الأدب المسرحى عند العرب

كيف استخدم المسرحيون العرب عناصر التراث والفرجة ؟







يعقوب صنوع



سعد الله ونوس

بقلم :

فاروق عبد القادر

●● بدأ المسرح العربي قبل أكثر من مائة وخمسين عاما، فثمة إجماع بين دارسيه على أن بدايته كانت حين وقف مارون نقاش ذات يوم من عام ١٨٤٧ . ليقدم أول مسرحية له في بيروت، وقد تحدث الى مشاهديه بأنه «عند مروره بالاقطار الأورباوية» عاين عندهم «مراسحا يلعبون بها ألعابا غريبة.. ظاهرها مجاز ومزاح وباطنها حقيقة وصلاح.. وعدا اكتساب الناس منها التأديب، ورشفهم رضاب النصائح والتمدن والتهذيب. فانهم بالوقت ذاته يتعلمون الفاظا فصيحة، ويغتنمون معانى رجيحة. فأرجوكم أن تصغوا لها وتسمعوا، وهذا ضرب منها فتمتعوا» . ثم ارتفعت الستائر عن مسرحيته الاولى «البخيل» وقدم بعدها «ابو الحسن المغفل أو هارون الرشيد»، ثم «الحسود السليط».

أما أبو خليل القبانى فقد بدأ فى دمشق على أرجح الأقوال فى عام ١٨٦٥ . وفى حياته وعمله مرحلتان : الاولى فى دمشق وقد انتهت سريعا بعد أن ناصبته الرجعية المحلية العداء، واستعدت عليه السلطان فى الأستانة فأصدر أمره الى والى الشام باغلاق مسرحه. بعدها شد الرحال الى القاهرة، فوصلها فى ١٨٨٤ وفيها قدم عددا كبيرا من مسرحياته ، وانتقل بعروضه الى الاسكندرية وبعض مدن الاقاليم، وبنى له أحد الأثرياء المستنيرين، مسرحا خاصا بفرقته، ظل يعمل عليه حتى احترق فى ١٩٠٠ فعاد الى دمشق حيث مات بعد فترة قصيرة ، مغمورا لا يعرفه أحد.

وفى محاضرة ألقاها يعقوب صنوع فى باريس فى ١٩٠٢ قال إنه أنشأ مسرحه فى القاهرة فى ١٨٧٠ . وقد ردد بعض الكتاب والدارسين قضية مؤداها أن الخديو اسماعيل أغلق مسرحه لأنه تعرض فيه لقضايا سياسية ، مثل سيطرة الأجانب على الاقتصاد المصرى ولأنه تبنى هموم الشعب وحملها الى المسرح. والحقيقة ـ عندى ـ تشير لغير ذلك ، والنصوص المنشورة له تثير الشكوك ـ على الأقل ـ حول الأسباب الحقيقية لاغلاق مسرحه، كما أن علاقته هو بالخديوى لا تبرر الزعم بأنه مغضوب عليه، أغلب الظن ان أسبابا مادية ـ إضافة الى حداثة التجربة ـ هى ما أدت لاغلاق مسرحه، وهو يحدثنا عن بعض هذه الاسباب فى مسرحيته «موليير مصر وما يقاسيه».

وقد لا تكون بنا حاجة للافاضة حول اعمال هؤلاء الرواد وجدارتها بأن توصف بالمسرحيات، تكفى الاشارة الى المصادر التى استمدوا منها موضوعاتهم، وصاغوها فى الشكل التقليدى للمسرحية الأوربية كما بلغتهم. هنا يسقط على الفور - ظل موليير، فالنقاش لا يخفى انه أخذ «بعض معانى المسرحية من الروايات الافرنجية»، والحقيقة انه لم يأخذ بعض المعانى فقط، بل أخذ موضوعات وشخصيات ومشاهد بكاملها، وصنوع كان يرى نفسه «موليير مصر»، ويسعد كثيرا بهذا اللقب الذى أسبغه عليه الخديوى، وقبل أن ينتهى القرن التاسع عشر بادر عثمان جلال الى ترجمة أهم أعمال موليير لمسرحيات زجلية. لقد فرض موليير ظله على المسرح العربى الوليد. هل لانه كان ناقدا لاذعا لمجتمعه وانماط البشر من حوله فوجد فيه هؤلاء الرواد معبرا عن رغباتهم فى نقد مجتمعاتهم، أم كان هو الأقرب منالا. فكلهم - عدا القبانى - يعرفون الفرنسية؟ ربما رجح هذا الاحتمال أن عدم معرفة القبانى للفرنسية قاده نحو المصدر الثانى الذى اغترف منه المسرح العربى: حكايات التراث، و«ألف ليلة» بوجه خاص.

بعد هؤلاء الثلاثة: ظل المسرح العربى على دربهم - يقدم المسرحية المقتبسة عن أصل معروف أو غير معروف، ويقدم المسرحية الغنائية تتخللها مقطوعات منظومة يؤديها أفراد أو جماعات، فى أسلوب تثقله البلاغة التقليدية والزخرف اللفظى، وتسوده الخطب والمواعظ والحث على مكارم الأخلاق!.

فى العقد الثانى من القرن العشرين بدأ على استحياء - ظهور النص المسرحى الذى يتخذ مادته وشخوصه من الواقع. أياما، كانت الشريحة التى يختارها من هذا الواقع، ولعل العمل الاول الذى يستحق الاشارة فى هذا الصدد مسرحية فرح انطون «مصر الجديدة ومصر القديمة» «١٩١٢». وفيها يعرض ما تحمله رياح الغرب من فساد وتحلل، وضرورة أن يتسلح الشرق لمواجهتها بالعلم والمعرفة والخلق القويم. كانت أول مسرحية تتخذ مادتها من شخصيات الواقع وأحداثه، رغم أنها .. بطبيعة الحال لم تخل من الخطابة وتسلل المؤلف وراء شخوصه للوعظ والارشاد. وتبع فرح أنطون عباس علام «فى اسرار القصور» وابراهيم رمزى فى «دخول الحمام مش زى خروجه». ثم أهم هؤلاء جميعا: محمد تيمور: سليل الاسرة التيمورية، ووريث تقاليدها وخزائن كتبها قضى أربع سنوات فى باريس فعرف المسرح الفرنسى وقرأ أدبه ثم رجع يعمل فى حاشية سلطان مصر. كتب تيمور ثلاث مسرحيات قدمت على التوالى: ميلودراما بعنوان «الهاوية» وكوميديتين «العصفور فى القفص» و«عبدالستار افندى».

تلك كانت أبرز الملامح فى التأليف المسرحى حتى نهاية العقد الثالث من هذا القرن، وقبل أن ينتهى ذلك العقد بدأ أحمد شوقى كتابة مسرحياته الشعرية، ومع بداية الثلاثينات بدأ توفيق الحكيم نشر أعماله، وبمعنى من المعانى يمكن القول اننا قد لا نستطيع الحديث عن أعمال مسرحية يتوفر لها قدر من الاحكام الفنى

قبل أن ينشر الحكيم «أهل الكهف» في ١٩٣٣.

★★★

غير أن السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية حملت رياحا جديدة الى العالم كله : انتهت الحرب الى هزيمة النازية والفاشية، وخرجت دول الاستعمار الغربي منتصرة لكنها ضعيفة تلعق الجراح وتداوى الآلام، وبرز الاتحاد السوفييتي وبدأ يلعب دورا في العالم، وظهرت دول الديمقراطيات الشعبية في اوربا، وحققت الصين انتصار ثورتها الكبرى. ومن ثم اشتدت حركات التحرر في البلاد التابعة والمستعمرة. وشملت معظم آسيا وافريقيا. واجتاحت رياح التحرر المنطقة العربية وراحت دولها تتحرر. تباعا - من قبضة المستعمر، وتقوم فيها نظم وطنية، معادية للاستعمار، متوجهة نحو جماهير شعوبها. رافعة شعارات الاشتراكية والوحدة وكان طبيعيا في مثل هذه النظم ان يزيد الاهتمام بفنون الشعب، وشهدت مصر مثل هذا الاهتمام منذ ١٩٥٤ ، وقد نذكر هنا أن العمل الأول الذى قدمته «مصلحة الفنون»، النواة الاولى لوزارة الثقافة - كان عرض «ياليل يا عين» الذى تتآزر فيه فنون الشعب المختلفة. كان ثمة اتجاهات مشابهة في البلاد التى قامت فيها نظم مماثلة، هذا من ناحية.. من الناحية الأخرى فان الاهتمام بتأكيد الهوية القومية قاد الفنانين والباحثين نحو تلمس العناصر المطمورة في التراث العربي والعمل على صقلها والافادة منها وتقديمها، أعنى عناصر الفرجة السابقة



أبو خليل القباني



محمد تيمور

على شكل المسرح الذى عرفه أولئك الرواد وقدموه.

ولن يتسع المجال لتفحص كل الاعمال التى قدمت في اطار هذين التوجهين . لكننا سنقف عند بعض أهم هذه الاعمال في مصر والمشرق والمغرب على السواء.

★★★

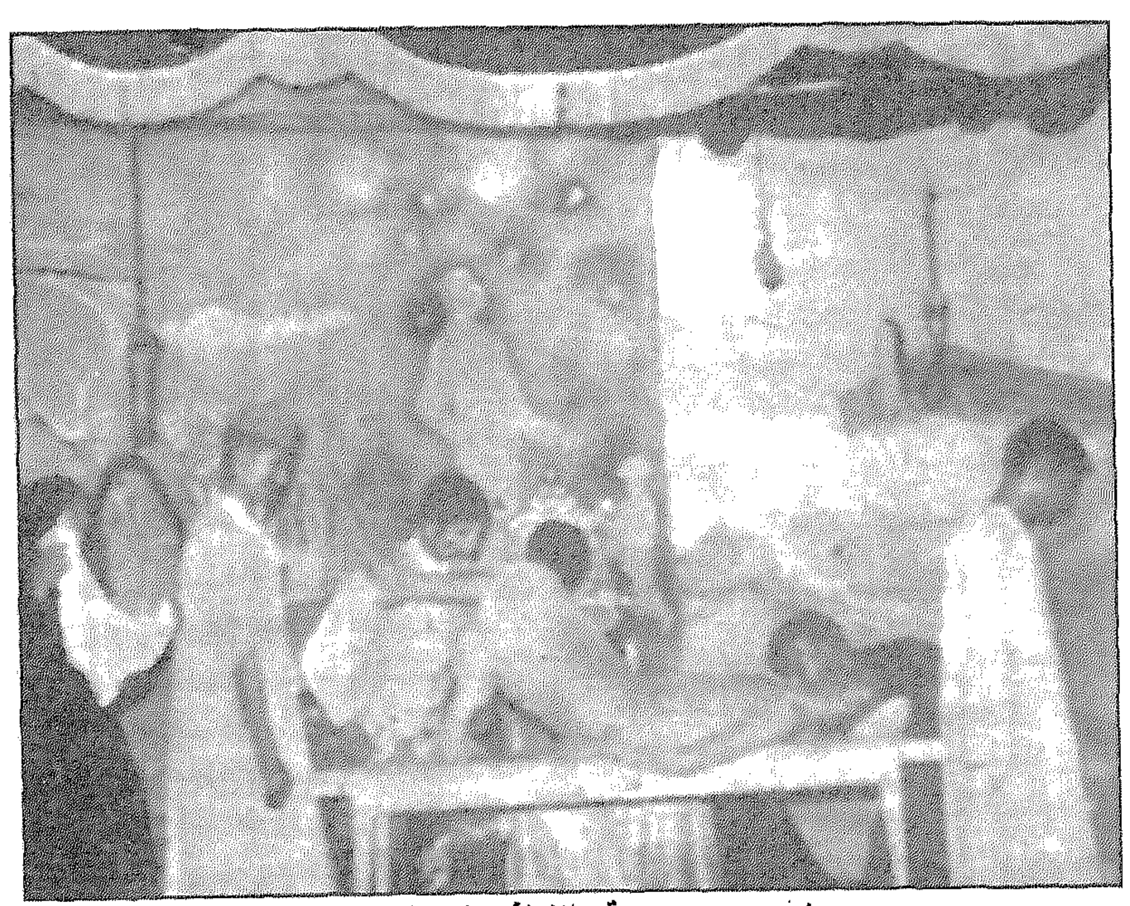
في يناير ٦٤ نشر يوسف ادريس في مجلة «الكاتب» ثلاث مقالات تحت عنوان «نحو مسرح مصرى» (لكنه حينما اضافها الى مجموعة نصوصه المسرحية أبدل عنوانها الى «نحو مسرح عربى» . بيروت ، ١٩٧٤)، دعا فيها الى التخلي عن الشكل الأصولي للمسرح لانه محدود بحدود الثقافة الاغريقية القديمة والغربية المعاصرة، والبحث عن شكل مصرى اعتقد أنه وجده في السامر حيث يجتمع الناس للفرجة على «فرفور» الذى حدد ملامحه بان يريده «بطلا يبهر بشخصيته ووجوده لا ان يفترض الناس مقدما بطولته ، أريده أن ينتزع احساس الناس بأنه غير عادى رغما عنهم، أريده أن يبهرهم وهو يضحكهم ثم يضحك عليهم حينا يبهرون (..) باختصار: أريده مزيجا من البطل الارضى السماوى الجنى

الادمى.. إلخ».. ان هذا الكلام قد يصلح فى وصف احد أبطال قصة قصيرة، أما أن يكون توصيفا لنمط من الفن المسرحى فلاشك انه بلا معنى!.

أول دليل عندى أن مسرحيته «الفرافير» التى كانت هذه المقالات تقديما لها وتنظيرا، وعرضت فى ذات السنة جاءت مزيجا من «الكوميديا ديللارتى» وتقليد بيرانديللو فى مزجه الدور فى الواقع بالدور على المسرح. والتوجه مباشرة الى الجمهور بوهم إشراكه فى العرض، والغاء التتابع الزمنى. والانتقال من الواقع الى ما وراءه. وليس فى هذا كله شىء لم يعرفه المسرح الغربى من قبل، الدليل الثانى أن يوسف نفسه لم يعد لهذا الشكل مرة أخرى ومسرحياته التى تلت الفرافير : المهزلة الأرضية، ٦٦ والمخططين ، ٦٩ والجنس الثالث، ٧٠ جاءت تقليدية رغم اوجه الضعف فى البناء.

ربما كان المسرحى الذى وضع السامر على المسرح فعلا - دون تنظير أو بيانات - انما كان محمود دياب فى عمليه المتتاليين «ليالى الحصاد» ٦٨ و«الهلافيت» ٦٩ . فى الاولى رجع محمود الى موضوعه الاثير: العلاقة الجدلية المتوترة بين الفرد والجماعة، فى بناء صعب ومحكم وممتع معا، فالحدث المسرحى يتخلق أمامنا على ثلاثة مستويات متداخلة على المسرح ، تبدأ بذرته على احد المستويات، لينمو على المستويين الآخرين فى تداخل وتخارج متصاعدين على طول فصول المسرحية أو أبوابها الثلاثة : فى ليلة من ليالى السامر تبدأ القرية فى الكشف عن مأساتها الحقيقية لم يكن هذا هو الهدف فى البداية «حسان الغاوى» منشد القرية وفنانها يقول لنا انها مجرد ليلة من ليالى الحصاد يفرغ فيها الفلاحون الى لهوهم وسمرهم، وأغانى الحصاد تترامى الى مسامعهم من بعيد، ويبدأ السامر بأن يقلد صغار القرية وشطارها ما يفعله الكبار من طرائف ، ويتبادل الممثلون الادوار فى سرعة وخفة ومرح، ثم تبدأ المسرحية فى الكشف عن الوجه المأساوى للقرية من وراء هذا القناع. بصبر واقتدار ينتقل الحوار على مستويات المسرح، وترسم كثير من التفاصيل حكاية «البكرى» و«سنيورة» ، تتكشف لنا من خلال لعبة تبادل الادوار وإخراج الانفعالات.. والمسرحية حين تكتمل تحتمل اكثر من من تفسير واحد، وسنيورة ترتفع لشفافية الرمز، من خلال تفردها. وفى المسرحية إشارات يمكن أن تخدم هذا التفسير أو ذاك ، لكن كل التفسيرات المحتملة يجمعها اطار عريض واحد: العلاقة الجدلية المتوترة دائما بين الفرد والجماعة. بين الجزء المتميز والكل الذى ينتمى إليه فيحتويه ويتجاوزه معا.

و«الهلافيت» مكتوبة فى ظل «ليالى الحصاد» : النص وتجربة العرض: هى السامر، وهى المسرح داخل المسرح ، وهى اخراج الانفعالات المكبوتة والكشف عن الأحزان التى لا تجرؤ على الظهور. الهلافيت : هؤلاء الحفاة الأصحاء الذين لا يملكون شيئا سوى أنفسهم «إنهم هؤلاء الذين وجدوا فى القرية يعملون فى خدمة الاخرين، فى الأرض أو فى البيت ، مقابل أجر. ثم هم فى أوقات فراغهم، يضحكون



مشهد من مسرحية «الفرافير» ليوسف إدريس.

الآخرين. بغير أجر.. والهلافيت فى هذه المسرحية حفاة.. ولتكن القاعدة فى هذه السهرة أن كل من هو حاف فهو هلفوت، أما ثيابهم فهى ثياب الهلافيت».

هؤلاء الهلافيت، بعد ان امتلأت بطونهم بالطعام، وبعد أن أخرجوا انفعالاتهم ، وعوا من هم اعداؤهم، وكيف يواجهونهم . عند ذاك استعادوا هوياتهم الضائعة وانسانيتهم التى سحقها الفقر والقهر والاغتصاب . الهلافيت عمل من أعمال الثأر والثورة ، استعارت إطار «السامر» ونجحت فى توظيفه . عرضت ليلة واحدة فى جرن قرية من قرى محافظة «كفر الشيخ» نهاية ٦٩ ، ثم اعترضت الرقابة على تقديمها فى أحد مسارح القاهرة العام التالى !.

★★★

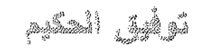
من المشرق العربى أقف عند مسرحيين حاولا توظيف عناصر التراث والفرجة فى أعمالهما : السورى سعد الله ونوس . والعراقى قاسم محمد .

إن «مغامرة رأس المملوك جابر ، ٧٠ تدور فى «المقهى»، و«الحكواتى» يقوم بالقص ، ثم تتجسد حكايته ، وجمهور المقهى يشارك فى الحوار ويعلق عليه . وفى تقديم النص يكتب سعد الله : «كل أحاديث الزبائن ، وتدخلهم فى مجريات الأحداث ، وتعليقاتهم ، ليست إلا اقتراحات ، أو ما سميته وسيلة اصطناعية





توفيق الحكيم   يوسف ادريس



لتشجيع المتفرج على الكلام والارتجال والحوار ، ولهذا فمن الممكن فى ضوء أى إخراج جديد أن يعاد النظر فى هذه الأحاديث ، أو أن تبدل صيغتها وتحول إلى العامية ..» وهذا أمر يرتبط برؤية سعد الله وعمله على تثوير المساحة الصامتة ، بعبارة أخرى : إن الصراع فى مسرحه ، أعمال مرحلته الأولى بوجه خاص ، يدور بين مساحتين . والهدف هو المساحة الثالثة : الجمهور الذى يقعد آمنا يشهد الصراع ، والحكواتى موظف فى هذا العمل توظيفاً جيداً ، يعرف أين يقف ليبدأ تشخيص ما يحكيه ، وهو ليس مجرد راوية ، لكنه هو الذى يحتضن رأس المملوك الذى قتله انتهازه ، وهو الذى يتقدم المجموعة لينهى إلى الجمهور رسالة المسرحية .

وفى مسرحيته الأخيرة «الأيام المخمورة» ، ٩٧ «يستخدم سعد الله عنصراً آخر هو «الأراجوز» ويوظفه توظيفاً جيداً : ثلاثة مشاهد يقوم بأدائها الأرجواز وفرقته : الأول مشهد ساخر «عن المفاضلة بين القبعة والطربوش» يحمل تعليقاً «يارودياً هازلاً على مشهد سابق يقوم فيه الأبناء بنزع الثياب التقليدية عن أبيهم وإلباسه ثياباً عصرية . المشهد الثانى يشخص فيه الأراجوز وفرقته «جريمة العصر» : زعيم وطنى من رجالات زمانه ، ولكن امرأته لا تراه إلا عنينا خائراً ، ويأتى ابن أخيه الشاب ليقيم فى بيته ، فتقوم بينه وبين المرأة علاقة عشق جارف . تنتهى بهما لأن يضعا السم للرجل ، لكن «الولد البوال» - كما تصفه المرأة - يفشى السر ، وأمام المحكمة تعترف بكل شئ وتدافع عن نفسها بكلمات صريحة : «حين أحببت وتفتح جسدى للحياة أدركت أننى لم أعد احتمل الإهانة والاحتقار البارد (..) بين الاحتقار البارد وهذا الحب الذى جددنى وأوقد اللهب فى جسدى كان ينبغى أن أختار .. كان ينبغى أن أقتل .. ولست نادمة ..» تلك الحكاية التى شخصها الأراجوز وفرقته هى المكافىء لما يدور بنفس البطلة «سناء» ، بعده مباشرة تتخذ قرارها بالتخلى عن حياتها القديمة واللحاق بحبيبها وقدرها . الثالث والأخير ينهى فيه الأراجوز إلينا حكمته : «الحكاية وحدها هى التى تخفف العذاب ، وتداوى الجروح ، وحين تعلم الإنسان كيف يحول مصائبه إلى حكايات ، تتقاسمها الرياح ، والآذان والأزمان ، كان يكتشف بلسماً سحرياً للجروح والآلام ..» .

على نحو مختلف ، استخدم المسرحى العراقىّ قاسم محمد السوق كشكل مسرحى فى عرضه المتميز «بغداد الأزل ، بين الجد والهزل ، ٧٣» .. رجع قاسم إلى تراث الجاحظ والحريرى وما روى عن أشعب والظرفاء والشطار والشعراء الصعاليك ، وجعل من السوق بطل

العـرض، ووقف عند القـاص الذى يقـدم قـصـصـه تقـديمـاً تمثـيليـاً ، ومن حـوله التناقضات العديدة بين الأغنياء والفقراء ، إلى جـانب مـا يحفل بـه السـوق من فكاهة يقـدمـهـا بائع اليـانصـيب وبائع الملابس المستعملة والقراد والمنادى والنجيل والعيار وأشعب والحمال . إلى آخر الشـخـصـيات التى يعج بـهـا السـوق ، وقـد لقى هـذا العـرض الذى أخـرجـه قـاسـم بحـيـوية واضـحـة إقبالاً كـبيراً حـيثمـا عرض فى المسـارح العربية المختلفة .

إن قاسم يكتب أعماله ويخرجها ويمثل فيها أحياناً . وآخر ما شهدت له كان عملاً استـخـدم فـيـه مـادة أخـذها عن رسـائل الغـزالى وابن سـينا، وأسـمـاه « رسـالة الطيـر » ٨٨، فى بدايتـه نرى الطيـور فى صراعـهـا الذى لا يتوقف حـول الأعشاش والإناث ، ثم يحط فى أرضهم طائر غريب. ومن حــوله أتبــاعـــه ، يطلب منهم أن ينصـاعوا ، وحين يرفضون يـأمر بوضعـهـم فى الشـبـاك التى تعنى عـجـزهم عن الطيـران، ويـأتيـهم الهـدهد ليـقـودهـم فى رحلة مـضـنيـة إلى المدينة الموعـودة عـبـر الجـبال الثـمـانيـة ، ويقـول لهم مـحـرضـاً المتـقـاعـسـين منهم : « تجـرعـوا المصـاعب لتعيشوا ، ولاتتـخـذوا وكراً لتـأمنوا إليه .. فـمـصـيـدة الطيـور أوكـارهـا ..» ، وفى رحلتـهم الشـاقة تلك يواجـهـون العـاصـفـة والمطر والرعد والبرق والدوامات والضباب، فـيـسـقـط منهم من لا يقـوى على مـواصلة الطيران ، (يسقط الطائر الجميل ملتفا فى ستارة عليها كتابة بخط عربى فى تشكيل فنى : اجـتـرئوا على غـدكم .. أغنى الخلق من اجـتـرأ على غـده) ويبلـغـون المدينة أخيرا ، فيـأتيهم صوت ملك المدينة : عودوا إلى دياركم .. وهناك عـودوا إلى أنفـسكم تجدون ملككم وقوتكم وعونكم وخلاصكم» .. ولن يدهشنا .بعد ، أن تكتشف الطيـور أنهم لم يطيروا إلا فى ربوعهم لم يخرجوا منها ، لكن الرحلة كانت ضرورية من أجل اسـتـعـادة الحـواس والذاكـرة من أجل أن يصلوا اللإدراك : تشخيص الداء . وتعيين الدواء وتلك هى « رسالةالطير» لنا.

★★★

ومن المغـــرب العـــربى أقف عند مسـرحـيـين كـذلك : التـونسى عـز الدين المدنى والمغربى الطيب الصديقى .

للمـدنى رأى فى المسـرح العـربى من حيث علاقته بالمسرح الغربى من ناحية ، ومن حـيث عـلاقـتـه بالتـراث العـربى من الناحية الأخرى ، وهو يكتب أعماله تأكيداً لهـذا الرأى وتدليلاً عليه ، وأهمـهـا « ثورة صـاحب الحـمـار ، ٧١» و« رحلة الحـلاج ، ٧٣» ، و« ديوان الزنج ، ٧٤» ، « الغفران، ٧٦» ، و « مـــولاى السلطان الحـــسن الحفصى» ، ٧٧ . وتلخيص هذا الرأى أنه كـان خليقا بالعرب المعاصـرين حين تبنوا الفن المسـرحى الغـربى ألا يتـبنوا منه إلا النوع فـقط ، وأن يتـركـوا جـانبـا الفنيـات والأشكال والاتجـاهات ، فـهـم بتـقـليـدهـم الفنيات الغربية ومجاراتهم أشكالها جعلوا من الفن المسـرحى فناً مـقـصـوراً على الحـضـارة الأوربيـة ، فى حـين أن الشـرق القـديم قـد عـرفـه حق المعرفـة بتـقنيـات وأشكال أخرى ، هذا من الناحية الأولى . من الناحيـة الثانية فان المدنى حين يطالب بالعودة للتراث العربى الاسلامى وفنياته الجمالية بوجة خاص « فاننا لا نريد بذلك

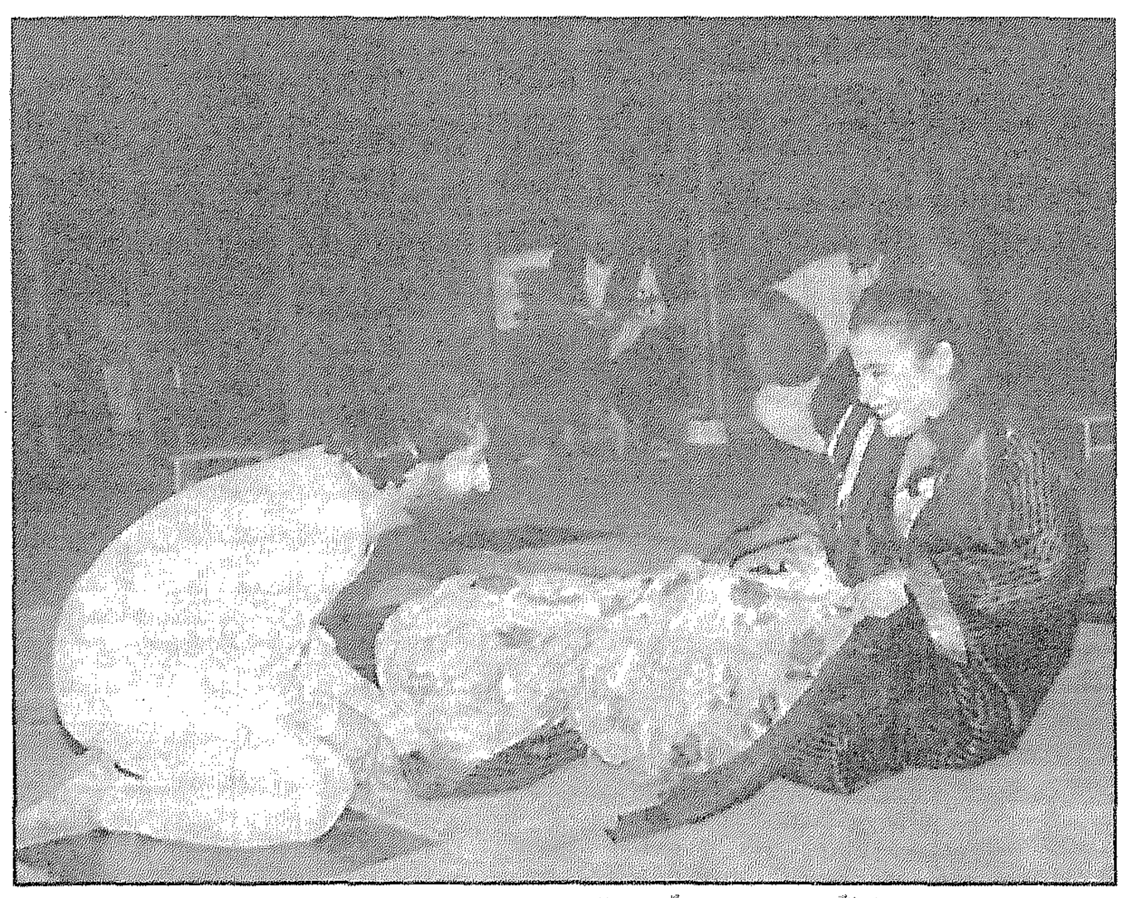
أن نستدل على صحة مفهوم « الاصالة » المزعوم، وأن نقدس هذا التراث أكثر مما يطيق .. وإنما نعتبره مجموعة من القيم والأفكار والأشكال مازالت في حاجة أكيدة إلى التقصي» .

من تلك الفنيات الجمالية وقف المدني أمام ظاهرة « الاستطراد » أي ما يعترى المحور الذي يقوم عليه التصنيف من الاحداث ، الاغراض والكلام والملح والجد والامثال والعبر(..) » ولعله يعني سرد روايات متعدده ، وربما متناقضة ، لحدث واحد ، ولعله ايراد تحليلات وتأويلات كثيرة تعليقا على ما غمض في إحدى جزئيات رواية من الروايات الاستطراد عندي هو ذلك في خطوطه العريضة « .. ، في ضوء هذه النظرة إلى الاستطراد كفنية جمالية يمكن فهم كثير من جوانب «رباعيته» المسرحية «التي تضم أعماله سابقة الذكر عدا « الغفران » وموضوعها الثورة الشعبية : قيامها ثم حصارها وهزيمتها» .

ومن الفنيات الجمالية الاخرى التي التفت إليها المدني «المعارضة والتشطير والتخميس التي عرفها ومارسها الشعراء العرب القدامى والمحدثون ، وقدم نموذجه التطبيقي في «التربيع والتدوير ٧٧» (عرضها المسرح المصري في ٨٥ من إخراج سمير العصفوري) ، وفيها يعارض الرسالة التي تحمل نفس العنوان للجاحظ في رسالته يهجو الجاحظ كاتبا هو أحمد بن عبد الوهاب ، فلا يترك نقيصة جسدية أو نفسية أو عقلية إلا يلصقها به . التزم المدني السمات الأساسية في كتابة الجاحظ : الاستطراد ومزج الجد بالهزل ودرجة من السجع والمزاوجة، وصاغ دفاع أحمد بن عبدالوهاب عن نفسه وهجاءه للجاحظ أمام مجلس المظالم ورئيسه الخليفة، في دراما يؤديها ممثل واحد. وأهم ما يقدمه المدني في معارضته هو الصعود ببطله في اتجاهين: الأول تصويره لهمومه ومشاكله كواحد من المهنيين ابناء الطبقة الوسطى التي يسميها طبقة الاعيان المتواضعين ، والثاني أنه يجعله نموذجا دالا لكاتب السلطان أي سلطان، ومنذ كان السلطان نقش رسائل الآله ميردوك: وكتب رسائل الغساسنة والأغالبة وتيمور لنك ونقش تاريخ الفراعنة وشرائع حامورابي وفي سراديب قصور المماليك كتب تقارير القتل والاغتيال التي يطير بها الحمام بين القاهرة ودمشق.. «وها أني في أحد البلدان الزنجية المتخلفة، أتولى ادارة الطماطم والقهوة، ومنصبي هو منصب رئيس ، مدير عام، لي سيارة فخمة وبيت فخم وزوجة فخمة ولله الحمد». وعلى مستوى آخر تقدم دراما المدني فرصة ثمينة لممثل واحد.

لكن السؤال يبقى كما هو، وكما تجسد في العرض الذي شهدته في القاهرة : من أين للمتفرج الذي لم يقرأ بيانات المدني، ولم يعرف رسالة الجاحظ في التربيع والتدوير ، أن يلتقط هذا كله؟.

وما اكثر ما كتب عن الطيب الصديقي وأعماله بالفرنسية والعربية! وانني اعتمد في رصد أعماله هنا على مرجع حديث وهام عن المسرح الغربي، هو رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة «تونيتر» في باريس . صاحبها ممثل ومخرج ومدير



لقطة من مسرحية «الطقوس والإشارات والتحولات»

فرقة معروف فى المغرب، عمل زمنا مع الصديقى هو عبدالواحد عوزرى «المسرح فى المغرب ، بنيات واتجاهات» ، دار توبقال، الدار البيضاء، ٩٨ . ولعل أهم ما يرتبط باسم الصديقى ـ فى هذا السياق ـ هو الاعمال التى تتصل بالتراث من ناحية، وفنون الفرجة السابقة على الشكل المسرحى الغربى، من الناحية الاخرى. هذه الاعمال هى «سلطان الطلبة» من تأليف عبدالصمد الكنفاوى وإخراج الصديقى، ٦٥ ، ثم أكثر مسرحياته نجاحا وشعبية ، وهى تقوم على عرض حياة شاعر شعبى مغربى واشعاره «ديوان سيدى عبدالرحمن المجذوب، ٦٧» ويقول عنها عوزرى: وستتم اعادة عرضها خلال اكثر من عشرين عاما، ودائما بنفس النجاح تقريبا» . وفى ٦٩ أخرج الصديقى مسرحية «الحراز» لعبد السلام البقالى الذى استوحاها من قصيدة شعبية شهيرة من قصائد «الملحون» وفى اكتوبر ٧١ قدمت الفرقة عرضها الذى سيكون له صدى واسع خصوصا فى العالم العربى، وكان عبارة عن تركيب لمشاهد مقتبسة من مقامات بديع الزمان الهمذانى ، وبعد توقف طويل: عاد الصديقى فى ٨٤ الى خشبة المسرح لتقديم عرض «الامتاع والمؤانسة عن حياة وموت الفيلسوف العربى ابى حيان التوحيدى . بعد هذا العرض تحول الصديقى الى تقديم عروضه بالفرنسية وحدها، فقدم فى ٩١ مسرحية

«الشامات السبع» من تأليفه واخراجه.. «ستظهر الفرقة مرة أخرى» فى ۹۳ بمسرحية جديدة بالفرنسية من انتاج وزارة الشئون الثقافية بمناسبة الأيام الثقافية المغربية بباريس. وكانت المسرحية التى تحمل عنوان «خلقنا لنتفاهم» من تأليف وإخراج مدير الفرقة».

ذلك حصاد الطيب الصديقى من الاعمال التى تعنينا هنا. يراها صاحب هذا البحث «تركيبا لبعض النصوص القديمة من الشعر الشعبى كرباعيات الشاعر المغربى عبدالرحمن المجذوب. أو لمقامات بديع الزمان الهمذانى، وعلى الرغم من أن هذا النوع من الكتابة - التركيب قد ساهم، دون شك فى اثراء الريبرتيوار، فانه لم يمكن الخطاب المسرحى من الذهاب الى أبعد مما ذهبت اليه النصوص القديمة نفسها».

أما الدكتور حسن المنيعى، صاحب الدراسات المهمة والمتصلة عن المسرح المغربى، ومن بينها كتابه الرائد «أبحاث فى المسرح المغربى، مكناس، ٧٤»، ثم «هنا المسرح العربى هنا بعض تجلياته مكناس ٩٠»، فانه يورد - فى هذا الاخير تقييمه لعروض الصديقى: «اذا كانت عروض الصديقى ترمى الى اقناعنا. من وجهة نظره الخاصة، اى من خلال مسرح رؤيوى Visuel يبحث عن اللمسات الجملية التى تثير الانبهار فى اعماق المتفرج، فان النصوص التراثية التى قام باعدادها أو مسرحتها، «المجذوب.. المقامات .. التوحيدى.. الخ»، قد أثارت العديد من الانتقادات لانها لم تتعامل مع التاريخ الا من منظور فوقى لا يتقصى حقيقته الجوهرية، ولا يسبر غور المجهول لفك ألغازه، انما يلتزم بمبادىء التناول الميكانيكى، كما هو الشأن فى مسرحية «سيدى عبدالرحمن المجذوب» التى غرقت فى جمالية الشكل دون أن تحمل فى طياتها شحنة معاصرة تدفع بالحدث التاريخى الى توظيف لغة استعارية للابانة عن دلالات عصرية، أو رؤية متكاملة عن وضعية المثقف المغربى».

★★★

تلك - فى تقديرى - بعض أهم محاولات المسرحيين العرب لتوظيف عناصر من التراث العربى أو اشكال الفرجة السابقة على شكل المسرح الذى جاءنا من الغرب، لا أراها تجاوزت مرحلة التجريب. ومحاولة الافادة من تلك العناصر، نادرا ما تلتحم بنسيج العمل، بل تبقى فى معظم الاحيان حلية أو زخرفا ويبقى العمل ذاته منسوجا على منوال الشكل المسرحى الغربى.

هل التحم «فن المسرح» بهذا الشكل حتى أصبح هو هو؟ إن خمسة وعشرين قرنا قد انقضت منذ بزغ هذا الشكل، ومن أثينا ارتحل الى غرب العالم وشرقه، ورغم كل محاولات الخروج عليه. خاصة فى العصر الحديث، فقد بقى إطارا عاما واسعا يحتوى تلك المحاولات كلها.

فهل يقدر لمسرحنا العربى. ولم يبلغ عمر الكتابة الجادة له المائة سنة، أن يجد شكله الخاص؟.. وهل تكون هذه التجارب التى عرضنا لبعضها، أشبه بالدقات التقليدية قبل أن يرتفع الستار؟

سؤال يجيب عنه **المستقبل.**

● « الإنفصال خير من الحرب ! ».

الرئيس السودانى عمر البشير

● « شهادتى على العصر مصر فى أحسن أحوالها ».

الإمام الأكبر د. محمد سيد طنطاوى

● « المشكلات لا تحل باطلاق اللحى »

الرئيس الإيرانى محمد خاتمى

● « أنت ما تقرأ ».

شيلا كوبس وزيرة الثقافة الكندية

● « العمل الصالح بغير معرفة أمر مستحيل ».

الموسيقار منصور الرحبانى

● « الإسرائيليون أخذوا كل شيء ، ولم يتركوا للفلسطينيين سوى الفتات ».

الأديب المغربى الطاهر بن جلون

● « الألمعية والعبقرية الأدبية شئ والحنكة السياسية والحكمة فى تقويم الأعمال السياسية شئ آخر ».

الأديب السودانى الطيب صالح

● « وسائل الإعلام العربية لا تزال مقيدة بشكل غير ديموقراطى إلى مصالح حكومية وتجارية ».

المفكر ادوارد سعيد

● «ليس لدينا مستشفيات ولا شبكات مجارى ، ولكن لدينا كازينو عظيم للقمار !! ».

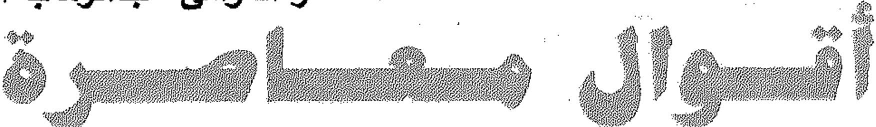
سهى عرفات
زوجة الرئيس الفلسطينى

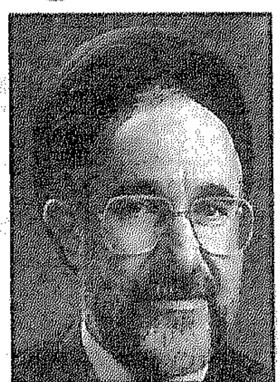
● «أفخر به أحيانا ثم أعود فأكرهه عندما اتذكر أنه كاذب بأكثر مما كنت أتصور» .

المتدربة مونيكا ليفنسكى

● « لم نكن بحاجة إلى الكبارى والعمارات ، بل إلى الحرية والثقافة ».

الشاعر العراقى عبدالوهاب البياتى





محمد خاتمى



د. محمد سيد طنطاوى



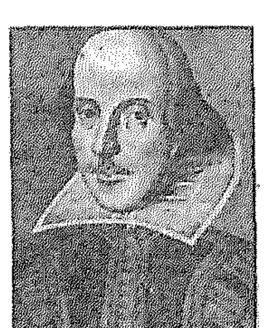
ادوارد سعيد



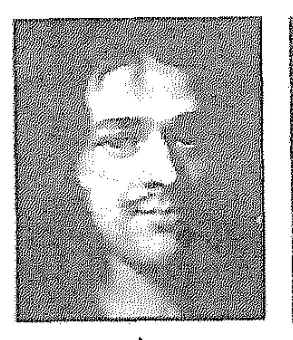
حصاد القرن

الأدب المسرحي في العالم

بقلم : د. ماهر شفيق فريد



شكسبير

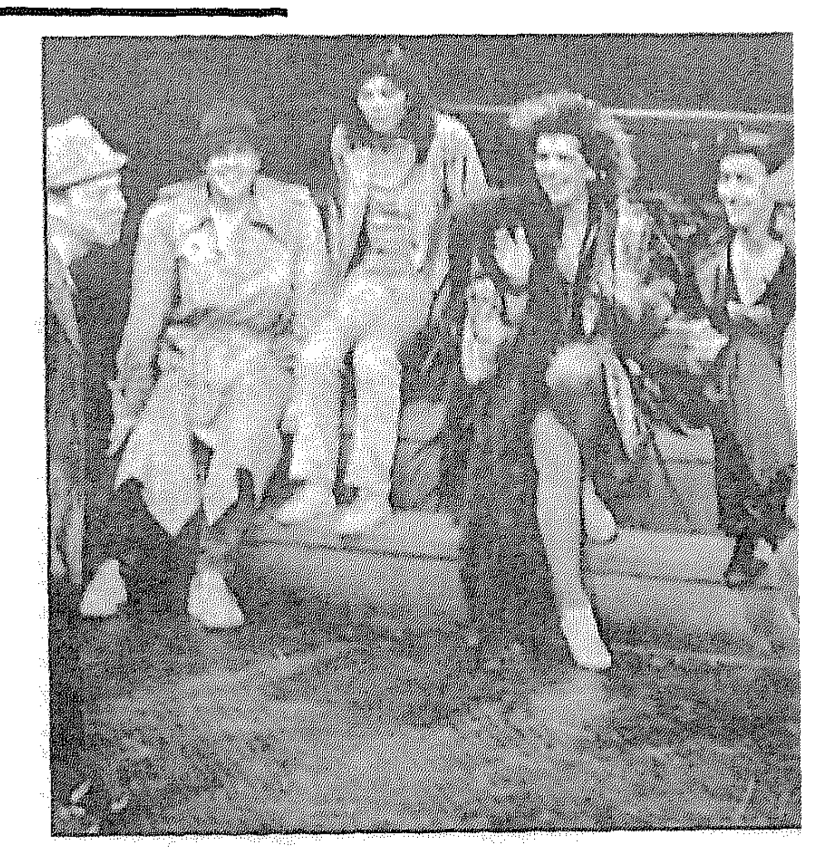


موليير



اليوت

ميللر



(١)

لايزعمن زاعم أن قرننا العشرين ـ هذا الذى توشك أن تنطوى صحائفه بخيرها وشرها ـ من عصور المسرح العظيمة. كلا! فليس يوصف بالعظمة سوى أربع حقب لا خامس لها بعد: القرن الخامس قبل الميلاد حين ظهر شعراء المأساة الإغريقية الثلاثة: اسخولوس وسوفوكليس ويوربيديس، القرن السادس عشر فى انجلترا حين ظهر شكسبير ومارلو وبن جونسون، القرنان السادس عشر والسابع عشر فى إسبانيا حين ظهر كالدرون ولوبى دى بيجا وتيرسودى مولينا، القرن السابع عشر فى فرنسا حين ظهر ثالوث كورني وراسين (فى المأساة) وموليير (فى الملهاة). أما كل ما سبق ذلك أو أعقبه فإنما هو محدود المدى أو هين الشأن بالقياس إلى هذه القمم التى لا تطال.

لكن هذا لا ينفى أن لكل عصر نوابغه وآياته، فلا أحد ينكر أن القرن التاسع عشر قد أخرج ثلاثة عباقرة فى شخوص إبسن وستريندبرج وتشيكوف، والمقالة الحالية بمثابة «محضر جرد» لما يبقى من مسرح القرن العشرين على مدى الزمن: محضر مؤقت، بطبيعة الحال، إذ ليس بوسع من يعيش عصرا أن يتنبأ بما ستكون عليه أحكام الأجيال الخالفة، إن كثيرا ممن نشيد بعبقريتهم اليوم قد ينزل بهم ميزان النقد فى المستقبل، وكثير ممن نعدهم من الطبقة الثانية أو حتى الثالثة قد يقفزون إلى مكان الصدارة، إن للتاريخ الأدبى بدوات هيهات لامرىء أن يتنبأ بمسارها، ولنذكر أنه فى القرن السادس عشر قد كان ثمة من يعدون بومونت وفلتشر ـ من كتاب العصر الإليزابيثى الثانويين ـ أعظم من شكسبير ذاته.

سأقتصر هنا على الحديث عن المسرح الغربى فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية، ولكنى أذكر ـ مجرد تذكرة ـ بأن ثمة كتابا مسرحيين مهمين من قرننا ظهروا فى غير هاتين القارتين، هناك مسرح طاغور الهندى، وول سوينكا وجيمس نوجوجى الإفريقيان، وديريك والكوت من جزر الهند الغربية، وتوفيق الحكيم من مصر، وميشيما من اليابان، وكتاب يكتبون بالإسبانية والبرتغالية فى أمريكا الجنوبية. لكن أحدا لا يمارى فى أن المسرح الغربى، شئنا أم أبينا، هو الأبرز والأقوى تأثيرا، إليه تهوى الأفئدة وتشرئب الأعناق، وفى خطاه يقفو الكتاب من سائر البلدان: إن موافقة أو مخالفة، فلقد يكون رد الفعل المخالف، أحيانا، أدل على التأثر وأمعن فى القرابة من الموافقة والاتباع.

حصاد الأدب المسرحى فى قرننا العشرين يتمثل فى عدة منجزات: مسرح الواقعية التى قد تتطرف إلى حد الطبيعية، وتركز اهتمامها على رصد الواقع الخارجى فى مختلف البيئات، مع إدخال عامل الوراثة وتغير المواضعات الاجتماعية فى الاعتبار. ومن أمثلة هذا المسرح الواقعى «بيوت الأرامل» لبرنارد شو، و«البورجوازى الصغير» و«الحضيض أو الأعماق السفلى» لجوركى، و«آنا كرستى» لأونيل.

وهناك المسرح النفسانى الذى يفيد من مكتشفات علم النفس الفرويدى واليونجي وغيرهما، ويتعمق باطن الشخصيات. ومن أمثلته «معرض الحيوانات الزجاجية» و«عربة اسمها الرغبة» لتنسى وليمز، و«من يخاف من فرجينيا وولف» لإدوارد أولبى و«رغبة تحت شجر الدردار» و«فاصل غريب» لأونيل، و«صورة دورا» لإيلين سيسكو (وهى قائمة على إحدى الحالات النفسية التى عالجها فرويد).

وهناك المسرح السياسى الذى يعالج صراع الأيديولوجيات فى عصرنا والعلاقة بين الطبقات ويمتد من الاشتراكية المعتدلة إلى الراديكالية الثورية مرورا بكل ألوان الطيف السياسى. ومن أمثلته «الرائدة باربارا» لبرنارد شو، و«الأيدى القذرة» و«موتى بلا قبور» لسارتر، و«خيال مقاتل» لشون أوكيزى، و«موت قومسيونجى» و«أبنائى جميعا» لآرثر ميللر، و«فى انتظار اليسار» لكلفورد أودتس، و«أنشودة أنجولا» لبيترڤايس، و«نحن / الولايات المتحدة» لبيتر بروك.

ومن القضايا التى تندرج تحت هذا المسرح أعمال تعالج وضع الزنوج ومشكلات التفرقة العنصرية مثل «الولد الحالم» لأونيل، و«السود» لجان جينيه، و«المومس الفاضلة» (اقترح عبدالرحمن صدقى ترجمتها إلى: الداعرة الموقرة) لسارتر، ومسرحيات ليرواچونز (أميرى بركة).

وهناك المسرح الشعرى الذى يرتد إلى ينابيع الحلم والفانتازيا والإيحاء كأنما برد فعل ضد الإسراف فى الواقعية. ومن أمثلته «أربع مسرحيات للراقصين» لييتس، و«البشارة إلى مريم» لبول كلوديل، و«البرج» لهوجو ڤون هوفمانشتال النمساوى، و«جريمة قتل فى الكاتدرائية» لإليوت، و«يرما» للوركا، و«السيدة ليست للحرق» لكريستوفر فراى، والمسرحيات الشعرية ـ مع فواصل من النثر ـ لشعراء الثلاثينيات الإنجليز مثل أودن بمشاركة الروائى كريستوفر شروود وماكنيس وسبندر.

وهناك مسرح استيحاء التاريخ مع إضفاء دلالات عصرية عليه، وتقديم شخصيات تاريخية من منظور جديد يحمل أفكار الكاتب ودعاويه مثل «رجل الأقدار» (عن نابليون) لبرنارد شو، و«كالجولا» لكامى، و«حياة جاليليو» لبرخت، و«لوثر» لجون أوزبورن، و«روس» عن لورنس الجزيرة العربية، لترنس راتيجان، و«القبرة» لجان أنوى، و«عذراء اللورين» لماكسويل أندرسون (وكلتاهما عن جان دارك)، و«ابعث نارا ـ قالت العنقاء» (عن د. هـ. لورنس) لتنسى وليمز، و«رجل لكل العصور» (عن سير توماس مور) لروبرت بولت، و«أماديوس» (عن موتسارت) لبيتر شافر.

وهناك مسرح الأسطورة ـ إغريقية وغيرها ـ الذى يتخذ من خيال الأقدمين مشجبا يعلق عليه اهتمامات معاصرة، وفى ذلك يدنو ـ بدرجات متفاوتة ـ من مسرح استيحاء التاريخ، والمسرح النفسانى، والمسرح السياسى. تحت هذا البند تندرج قائمة طويلة من المسرحيات: «الذباب» لسارتر، «اجتماع شمل الأسرة» لإليوت، «الحداد يليق بالكترا» لأونيل، «لن تقوم حرب طروادة» لجان جيرودو، «أورفيوس يهبط» لتنسى وليمز، «ميديا» و«أنتيجون» لجان أنوى، «أوديب» لأندريه جيد، «فاوست كما أراه» لبول ڤاليرى،

و«بجماليون» لبرنارد شو.

وهناك المسرح التعبيرى الذى يدنو من المسرح النفسانى فى انشغاله بالواقع الداخلى وتحليل أعماق الشخصية وتشريحها بمبضع طبى لايرحم، ومن أمثلته «الامبراطور جونز» لأونيل، و«بعل» لبرخت.

وهناك المسرح الأدبى المنبع الذى يتناول إحدى الشخصيات الأدبية أو إحدى مسرحيات الماضى فيعيد تفسيرها من خلال إعادة كتابتها أو إعادة قراءتها. من هذا النوع «لير» لإدوارد بوند، و«روزنكرانتز وجلدنسترن ماتا» لتوم ستوبارد، و«عطيل يعود» لكازانتزاكس، وواضح أن ثلاثتها تستوحى خيوطا شكسبيرية.

وهناك مسرح العبث الذى يضرب بالمنطق الأرسطى عرض الحائط ويوجه النظر إلى قصور اللغة من حيث هى أداة للتواصل بين البشر. وأشهر أعلامه هم بكيت (فى انتظار جودو) ويونسكو (المغنية الصلعاء) وآرابال (الجلادان) وآداموف (بنج بونج). ويدنو منهم - وإن لم يكن عبثيا على وجه الدقة - هارولد بنتر البريطانى صاحب «الحارس» و«الخادم الأخرس» وغيرها من مسرحيات تنقل حس التهديد ونذر الشؤم المستخفية تحت سطح الحياة اليومية، ويمكن أن يقال مثل ذلك عن «زيارة السيدة العجوز» لدورنمات السويسرى.

وهناك مسرح سيريالى النزعة (أبولنير وجارى وكوكتو وبكاسو)، ومسرح القسوة (أنطوان آرتو). وثمة مسرح القومية الأيرلندية الذى يستوحى ماضى أيرلندا وأساطيرها وفولكلورها ومن ممثليه ييتس، وسنج (صاحب «راكبون إلى البحر»)، وليدى جرجورى؛ ومسرح فكرى يعنى بقضايا الإنسان فى منظورها الفلسفى الأوسع مثل «الإنسان والسوبرمان» لبرنارد شو، أو بقضية الهوية والصراع بين الحقيقة والوهم مثل «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» لبراندلو، ومسرح وجودى يعالج أزمات الفرد وضرورة الإختيار وتوتر الحرية والمسئولية، ومن أمثلته، «الإنسان والإله الطيب» لسارتر، و«حالة حصار» لكامى، و«الأفواه اللامجدية» لسيمون دى بوفوار.

وهناك مسرح ملحمى أنشأه - بمفرده تقريبا - برتولد برخت، يدعو المشاهد إلى أعمال عقله فى الخبرة المسرحية التى تمثل أمامه واتخاذ موقف منها، وهو - توسلا إلى هذه الغاية - يرمى إلى تحطيم الإيهام الأرسطى بإدخال الإضاءة الساطعة وتعصير الأزياء وتعليق لافتات تقول مثلا «غابة» أو «مقهى» واستخدام شرائط سينمائية.. ومن أمثلته مسرح الجريدة الحية الأمريكى، و«الأم شجاعة وأبناؤها» و«الإنسان الطيب فى ستشوان» و«دائرة الطباشير القوقازية» لبرخت.

وعلى نحو أقرب إلى البناء التقليدى نجد مسرحيات إبسنية مثل «منفيون» للروائى چيمز چويس، ودراما اجتماعية فكهة مثل «الحياة الشخصية» لنويل كوارد، وتشريح للنفاق وخداع الذات مثل «زيارة مفتش» للروائى ج. ب. برستلى، ومسرح التغير الاجتماعى والثورة على مواضعات البورجوازية («انظر وراءك فى غضب» لأوزبورن)، ثمة أيضا دراما إذاعية («تحت غابة اللبن» لديلان توماس) ودراما تليفزيونية («إيه چو!» لبكيت).

هذه - فى ظنى - أهم معالم الأدب المسرحى الغربى فى القرن العشرين، ويضيق المجال عن استيفاء جوانبها، ومن ثم سأقتصر على ضرب أمثلة من ثلاثة اتجاهات: مسرح الفكر عند پراندلو وتمثله مسرحية «هنرى الرابع» من ترجمة محمد

أمين حسونة، المسرح التعبيرى عند أونيل وتمثله مسرحية «القرد الكثيف الشعر» من ترجمة جلال العشرى، ومسرح العبث عند بكيت وتمثله مسرحية «فى انتظار جودو» من ترجمة د. فايز اسكندر.

(٢)

«هنرى الرابع» (١٩٢٢، عام «الأرض الخراب» لإليوت، و«بوليسيز» لجويس، و«القرد الكثيف الشعر» لأونيل) هى أشهر مسرحيات براندلو وأحظاها بالتقديم على خشبة المسرح، لا يفوقها فى ذلك غير رائعته «ست شخصيات تبحث عن مؤلف». وهنرى الرابع امبراطور ألمانى من القرن الحادى عشر شب نزاع بينه وبين البابا جرجورى السابع ترتب عليه إخضاع الامبراطور لما عرف باسم «إذلال كانوسا»، وكانوسا قلعة إيطالية كانت ملكا لماتيلده أميرة توسكانيا وفيها تم إذلال هنرى أمام البابا إذ وقف حافيا فى العراء والبرد والصقيع، فى عباءة من وبر الماعز، ليلتين يلتمس منه المغفرة فى ١٠٧٧، وللمسرحية، إلى جانب ترجمة محمد أمين حسونة التى استخدمها هنا، ترجمتان أخريان، واحدة لفاروق عبدالوهاب (مجلة المسرح، يناير ١٩٦٥) والأخرى لمحمد اسماعيل محمد (سلسلة المسرح العالمى، ١٩٦٦). وممن كتبوا عنها من نقادنا ودارسينا : جلال العشرى («ست شخصيات تبحث عن هنرى الرابع»، سقوط الأقنعة) وفؤاد دوارة («هنرى الرابع والعواطف الحية المحنطة»، مجلة صباح الخير ١٩٧٩/١/١١) وسعد أردش («أقنعة بيراندلو العارية، مجلة القاهرة ١٥ يناير ١٩٨٧)، وقبل هؤلاء جميعا محمد أمين حسونة فى كتابه «بيراندللو» (سلسلة إقرأ، يونيه ١٩٤٩).

تدور المسرحية حول شاب غنى يمتطى صهوة جواده ذاهبا إلى حفلة تنكرية تزيا فيها بزى الامبراطور هنرى الرابع (ثمة عاهل انجليزى وآخر فرنسى يحملان الاسم نفسه مما يزيد من حيرة القارىء، وهى ـ ولا ريب ـ حيرة مقصودة من جانب براندلو) ولكنه يسقط عن صهوة جواده فيصاب بارتجاج فى المخ وينهض وقد فقد ذاكرته يخال نفسه، فى ثيابه التنكرية، هنرى الرابع بحق. وكما يلاحظ الناقد الانجليزى ريموند وليمز فى كتابه «المسرحية من إبسن إلى إليوت» (ترجمة د. فايز اسكندر) فإنه يستمر عشرين عاما فى تمثيل دوره : واقعا فى السنين الاثنتى عشرة الأولى تحت سيطرة وهم مخادع، وواعيا بحقيقة



توفيق الحكيم



اليوت

الأمر تماما فى السنين الثمانية الأخيرة»، إنه يعتزم المضى فى تنكره المجنون حتى نهاية أيامه، كى يحمى نفسه. ويسايره المحيطون به فى جنونه فيحيطونه بأربعة من المرضين متنكرين فى ثياب أشراف من القرن الحادى عشر وكأنهم مستشارو الامبراطور السريون، وسائر الشخصيات التى تظهر فى المسرحية هى: دونا ماتيلدة عشيقته القديمة، بليكريدى عشيقها الحالى، كارلو دى نوللى ابن أخت هنرى، فريدا الابنة الجميلة لماتيلدة، طبيب أمراض عقلية: الدكتور ديونسيو جينونى، واثنان من رجال الجيش، والخادم جيوفانى.

هكذا نرى البطل مسجونا فى الدور الوهمى الذي بدأ هزلا وانتهى جدا: فهو يحيط نفسه برجال بلاط، ويعامل زائريه على أنهم سفراء ونبلاء مثلوا بين يديه، ويعيش عيشة الملوك بكل أبهة وجلال، ثمة، فيما يوحى المؤلف، حدود مستبهمة بين العقل والجنون، وما أيسر أن يتحول الإنسان من أحدهما إلى الآخر! فموضوع المسرحية هو فقد الهوية واختزال الشخصية الإنسانية إلى مجرد دور اجتماعى، والصراع بين معتقدات الإنسان ومعتقدات الآخرين.

إن بطل براندلو يشبه من بعض النواحى هملت الذى يتظاهر بالجنون ـ ربما على سبيل التفريج الملهوى عن توتراته الداخلية، وربما ليوقع بالملك المذنب فى شبكة جرائمه، يقول هنرى فى مونولوج طويل من الفصل الثانى:

«كيف يمكن أن تظل هادئا تجاه شخص يحاول ما استطاع أن يقنع الآخرين أنك تمثل الصورة التى يتخيلها عنك، ويحاول أن ينقش فى أذهانهم هذه الصورة وفق الحكم الذي أصدره عليك.

(٣)

«القرد الكثيف الشعر» لأونيل نموذج للمسرح التعبيرى الذى يقوم ـ كما فى تصاوير ڤان جوج وإدڤار مونش، وقصائد جوتفرد بن وجورج تراكل، ومسرحيات ستريندبرج وڤدكند وتولر وجورج كايزر، وفيلم «خزانة الدكتور كاليجارى»، لمخرجه روبرت وين (١٩٢٠) ـ على المبالغة وتحريف الأشكال، وخلع مفاصل الزمان والمكان، واستخدام عناصر الحلم والكابوس، وغلبة التعبير على الشكل، وإماطة اللثام عن بشاعة الواقع الذى سعت الرومانتيكية إلى تجميله، وزيادة حدة اللون وكثافته لأجل التعبير عن الانفعال الداخلى، وتأكيد ردود الأفعال الشخصية للشخصيات، وتمثيل الواقع على نحو تجريدى أو رمزى، وإطلاق العنان للقوى النفسية التى تكبحها عادة ضوابط المجتمع وتعاليم الدين وكوابح العرف، وتصوير حالات العصاب والمرض والقلق والمواقف الحدية المتطرفة، والمسرح التعبيرى يزدهر عادة فى عصور الأزمات الروحية والتوترات الاجتماعية والأزمات السياسية، ويعبر عن عذاب العصر، ومن ثم كان ازدهاره فى ألمانيا وغيرها فى فترة الحرب العالمية الأولى.

فى مقالة للناقد روبرت وتمان عنوانها «بحث أونيل عن لغة للمسرح» (مجلة كوارترلى چورنال أوف سپيتش، ابري ١٩٦٠) يورد قول أونيل عن «القرد الكثيف الشعر»: «إنها تنحدر مباشرة من صلب مسرحيتى الامبراطور جونز». فيانك ـ بطل المسرحية ـ رمز للإنسان الذى فقد تناغمه القديم مع الطبيعة ـ وهو تناغم كان يحظى به حين كان أقرب إلى الحيوان ـ ولم يكتسب تناغما جديدا روحى الصبغة، والتقنيات التعبيرية هنا أشد تكاملا مما كان الشأن فى «الامبراطور جونز»، حيث أن الحدث هنا يوحى بالتفكك

وانعدام الانتماء والصراع الداخلي في نفس يانك وارتداده العقيم إلى نمط من العيش أشد بدائية، يعبر عنه لجوءه إلى قفص الغوريلا بحديقة الحيوان.

وعندما تبدأ المسرحية نجد أن يانك ـ مثل بروتس جونز: الامبراطور جونز ـ مخلوق من صنع أمريكا القرن العشرين، فقيمه هي قيمها: إنها تعيش على الفولاذ وهو الفولاذ، إنه ينتمي. يستطيع أن يشعر بالسعادة حين يلعب دور الآلة، لأن العالم من حوله آلة، والطبيعة الميكانيكية اللاإنسانية لكون يانك إنما توحي بها، على نحو قوي، مهاد منارة الوقادين في إحدى عابرات المحيط، والأسرة الضيقة من الصلب في كل الجوانب، وحركات الرجال أشبه بحركات الروبوت، والأوامر المعدنية الصادرة من هذا الركن أو ذاك، لكن إيمان يانك بعالمه واطمئنانه إليه لا يلبثان أن يتزعزعا حين تهينه فتاة خائفة ضعيفة البدن لا فضل لها سوى أنها ابنة رجل الأعمال الكبير الذى يتجر فى الفولاذ، إنها تفعل ذلك دون عقاب مما يومىء إلى أنه بلا أهمية فى تخطيط الأشياء. ويجرح كبرياؤه الذى يتبين أنه إنسانى وليس جزءا من آلة، ويثير فيه مشاعر البغضاء والرغبة فى الانتقام. وفيما يلى من المشاهد يحاول يانك أن يؤكد فرديته وحقه فى الانتماء بأن ينتقم منها ومن طبقتها، لكنه يجد نفسه فى مواجهة عالم فقد فيه الانتماء كل معنى وغدا مجرد مجموعة من الإجراءات لا يمكن أن تمنحه المعنى الذى يريده. إننا نرى يانك ـ على امتداد المسرحية كلها ـ أشبه بشخصية مفعمة بالحياة، تكاد تكون همجية، فى مواجهة عالم لا إنسانى ميت غاب عنه المعنى: منارة الوقادين فى جوف السفينة، الدمى الزاهية، وإن تكن «لا ترحم» في الشارع الخامس بنيويورك، القضبان الفولاذية لزنزانته، الشك والخوف البارد فى الأماكن التى يتردد عليها. وفى المشهد الأخير من المسرحية يلوذ بقفص الغوريلا فى حديقة الحيوان على أمل أن يجد فيها مخلوقا يتناغم معه ويعثر ـ فى نهاية المطاف ـ على انتماء لكن هذا الأمل لا يتحقق، لأنه إذا كان العالم خاويا فكذلك يانك الذى هو من صنع هذا العالم، ومحاولته العثور على معنى تنتهى بموته بين يدى الغوريلا الهائلتين، وعناقها القاتل.

وكما كان الشأن فى «الامبراطور جونز» يستخدم أونيل تقنياته التعبيرية هنا لكى يعبر عن انسلاخ الإنسان عن ينابيع الطبيعة الحية وليعبر عن الصراعات الداخلية المدمرة التى يخلقها افتقار عالمنا الحديث إلى الهدف.

(٤)

«فى انتظار جودو» (١٩٥٢) هى أروع آيات مسرح العبث الذي ازدهر على ظهر القارة الأوربية فى أعقاب الدادية والسريالية، كتبها بكيت بالفرنسية أولا وقدمت على أحد المسارح الباريسية فى ١٩٥٣، ثم ترجمها بنفسه إلى الانجليزية وقدمت فى كمبردج عام ١٩٥٣، وكانت ـ كما تقول الروائية الانجليزية مرجريت درابل ـ من أعمق مسرحيات حقبة مابعد الحرب العالمية الثانية تأثيرا.

حين يرفع الستار نرى طريقا ريفيا، وشجرة، والوقت مساء، وكما يقول الناقد أ. آلثارز فى كتابه عن «بكيت» (١٩٧٣)، فإن الموضوع هو: كيف نقضى الوقت، إذا كان الموقف ميؤسا منه، هنا مسرحة لخيوط العادة والملل ومعاناة الكينونة،

يقضى استراجون وڤلاديمير (ديدى) - وهما متشردان أشبه بالكلوشار أو بشخصيات تشارلى شابلن - ساعتين على المسرح لكى يكتشفا هذه الحقيقة، لا حبكة، ولا خلفية، واللغة قد ردت إلى وضع هيكل عظمى خال من اللحم، إن المسرحية بأكملها، من حيث التصور واللغة على السواء، صورة شعرية ممتدة، مكتوبة بلغة مجردة من الزوائد ونابضة بالحياة فى آن واحد، أسلوب بكيت أشبه بشعاع ليزر، ضيق، حاد، لا يفتأ يخترق - على نحو متزايد العمق - الرقعة نفسها الصغيرة من الظلمة.

هذه لغة شعرية مكثفة، تقوم على التوازى والتقطيع والازدواج، وتظل محتفظة بزخمها حتى في الترجمة إلى لغة مختلفة الأعاريض والحركات والسكنات اختلاف العربية عن الانجليزية. أو انظر إلى هذا المونولوج الخالى من علامات الترقيم - مثل مونولوج مولى بلوم الطويل فى ختام رواية جويس «يولسيز» - الذي يلقيه لكى فى الفصول الأول:

«بالنظر إلى الوجود الذى عبرت عنه أعمال بانشر وواتمان عن إله بشرى كواكوا كواكوا بلحية بيضاء كواكوا كواكوا خارج حدود الزمن وبلا امتداد الذي من أعالى حدود الخمول الإلهية والإثامبية الإلهية والأناسيا الإلهية يحبنا حبا عظيما مع بعض الاستثناءات لأسباب مجهولة، ولكن الزمن سيكشفها وسيعانى مثل ميراندا الإلهية مع أولئك الذين لأسباب مجهولة ولكن الزمن سيكشفها ينغمسون فى العذاب وينغمسون فى النار تلك النار وهذا اللهب اللذان إذا استمرا ومن الذى يشك فى ذلك فسوف يشعلان السماء أى ينقض الجحيم على السماء الزرقاء والهادئة هدوءا هادئا الذى بالرغم من كونه متقطعا إلا أنه أفضل من لا شيء».

هذا أشبه بمونولوجات جويس الداخلية (كان بكيت معجبا بجويس، يعده مثله الأعلى فى الكتابة، وكان يجلس بين يديه يتلقى إملاءه حين ضعف بصر هذا الأخير فى سنوات شيخوخته).. إنها فكاهة سوداء، ميتافيزيقا هزلية، تعبر عن عذاب الإنسان المهجور من السماوات، ولا عجب فبكيت - شأن كل الأيرلنديين - عميق الإحساس الدينى حتى لو جحد وأنكر وكفر وجدّف.

(٥)

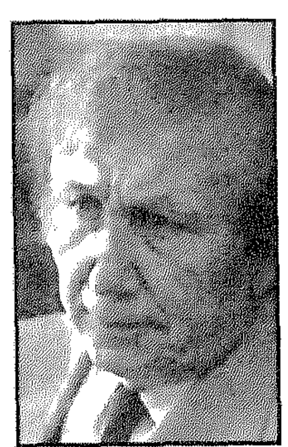
هذه نماذج مما أنتجه قرننا فى حقل الأدب المسرحى قد تختلف الآراء - وقد اختلفت - فى الحكم على قيمتها، ولكن لا أحد ينكر أنها كانت محاولات شجاعة لاستكشاف الوضع الإنسانى فى إطاره الحضارى المعاصر، والغوص على أعمق المخاوف والرغبات والذكريات، وتصوير المضض الوجودى العميق الذى سلب الإنسان سلامه النفسى، وحرمه من إيمانه القديم، وذلك بعد المعاول التى صوبها داروين وفرويد وماركس ونتشه وفريزر إلى صورة الإنسان عن نفسه، قرننا - فى كلمة - قرن معذب يحكمه العنف واللا معقولية، ويسحق فردية الإنسان تحت وطأة نظم شمولية لا ترحم، ربما كانت أعمال براندلو وأونيل وبكيت تفتقر إلي الجلال التراجيدى بمعناه القديم، ولكنها لاتفتقر - فيما نحسب - إلي جلال من نوع آخر: جلال الإنسان المعذب الذى تغوص قدماه فى الطين ولكن عينيه لا تفتآن تحدقان فى النجوم. من هذا التوتر بين الواقع والمثال انبثقت دراما القرن العشرين، وإنها لدراما خليقة بالنظر والدرس والفهم، إن لم نقل بالحب والتعاطف والمشاركة.



إذا قـرأ هذا العنوان ناقـد من دعـاة الحـداثة، فلا شك أنه سينصرف عن المقال انصرافاً، إلا إذا سأل نفسه: وما الذى يدعونا إلى الاهتمام بمثل هذا الشاعر، إلا أن تكون صداقة قديمة، أو رغبة فى المجاملة، أو نحو ذلك ؟ فالشاعر غير الحداثى لا يعطى الناقد فرصة كبيرة للتفسير والتأويل، وإذن فما قيمة الناقد؟ وأما الشاعر نفسه، موضوع الحديث، فلا أدرى هل يسعده الوصف الذى فى العنوان أو يغضبه. وأما أنا فلابد لى من إيضاح ما أعنيه بهذه الكلمة، وسأتوخى الاختصار الشديد، لأن الحديث عن الحداثة يمكن أن يطول جدا.



بقلم : د. شكرى محمد عياد



نزار قبانى



صلاح عبدالصبور

فأنا أقول ابتداء إننى أخالف الحداثيين، نقاداً ومبدعين، فى استئثارهم بهذه الكلمة، وأتهمهم بأنهم يفرضون علينا مفاهيم وممارسات منقولة عن الثقافة الغربية، وبما أن الناقل لا يمكنه أن يكون أمينا كل الأمانة، مهما يحاول ذلك، ومهما يذيل كلامه أو يرصعه بنصوص غربية أو مراجع غربية، فهم أول من يعرف أن كل قراءة هى بالضرورة نوع من التشويه ، ولكن التشويه الذي يقدمونه هو غالبا من نوع ذلك التشويه الذى يقوم به التلميذ الصغير حين يحكى كلام أستاذه الكبير.. وإنى لأتطلع – حقيقة لا هزلا – إلى ذلك اليوم الذى يقوم فيه حداثيونا ، مبدعين أو نقادا ، بتشويه متعمد، جرىء، فاضح ، لما يأخذونه عن أساتذتهم الغربيين، فهنا يمكننى أن أصدق أنهم يضيفون إلى التيار الحداثى، الذى لا يرون غيره فى العالم، حداثية عربية من نوع ما.

أما أنا فلا أشايع القديم ولا أتشبث به، ولكننى أرى أن لدينا ، بالفعل «حداثيتنا» المتميزة أصلاً، لأنها امتداد لتطورنا الفكرى الحديث منذ بدأنا نخرج من ظلام القرون الوسطى الإسلامية (العصر الأيوبى وما تلاه). وحداثيتنا هذه لا تعوزها الجرأة، ولا تقاطع الثقافة الغربية، ولكنها حداثية تولدت من ظروفنا الخاصة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن تاريخنا الثقافى بوجه عام، والأدبى بوجه خاص ، وإن ناقضته بعنف أحيانا ، كما يتولد النقيض من النقيض.

هذه خلاصة رأيى فى الحداثة بشطريها (حسب رأيى) وموقفى منهما.

والشاعر الذى أتحدث عنه اليوم يمكن أن يعد «حداثيا عربيا» يستمد أصول فنه من رائدين كبيرين بين رواد القصيدة الجديدة، وهما نزار قبانى وصلاح عبدالصبور.

فهذان الشاعران، مع اختلاف منزعيهما ارتبطا ارتباطا شديداً بحياة الناس، من كل الطبقات وكل المستويات الثقافية، وحاولا أن يكون فنهما معبراً عن طموحات الإنسان العربى واخفاقاته فى هذا العصر بالذات. وقد بدأ صاحب هذا الديوان (★) الاستاذ عبدالسميع زين الدين - يغازل الشعر فى أوائل الخمسينيات، عندما كان نزار قبانى قد استبان منهجه، وأخذ يتسلق سريعاً سلم الشهرة، وكان صلاح عبدالصبور فى مطلع حياته الأدبية، صوتا جديدا لفت الأنظار منذ «شنق زهران» بروح جديدة وأسلوب جديد.

الحداثية على النمط الغربى أو المستغرب تعزل الشاعر عن حياة الناس، فيعيش داخل أسوار يقيمها حول ذاته، ويصنع الشعر من داخله، كما تنسج اليرقة شرنقتها. فذاتيته ليست كذاتية الشاعر الرومنسى المنفتحة - بسذاجة - على العالم، وموضوع شعره هو القصيدة التى ينسجها بصبر وأناة، ويحشد فيها كل ما يستطيع حشده من إغراب فى اللغة، وتغريب للمشاعر .. وعندما يفرغ من قصيدته يلقيها إلى قارئه بنوع من الاستفزاز، قائلا له كما يقول إخواننا الشوام «دبّر حالك»، أو كما يقول إخواننا الجزائريون «دبّر راسك» .. فالقصيدة عبارة عن تيه من الألفاظ، وعلى القارئ - حين يوجد القارئ الذى يحب الاشتراك فى هذه اللعبة، وقلما يوجد - على القارئ أن «يفهمها» كما يريد، ولو أن الفهم الصحيح الوحيد هو أنها بلا معنى، ولذلك ينكر الحداثيون الغربيون والمستغربون بحماسة شديدة أن يكون لأى قصيدة حداثية معنى «صحيح» ما، أو عدة معان صحيحة .

أما عبدالسميع زين الدين فيخاطب قارئه قائلا:

«بين يديك أقدم ما سطرته على امتداد بضعة وأربعين عاما.

« وأقول : إننى أعدك أن ترى فى هذه الكتابات شيئا جديدا ، فى زمن تشابه فيه الشعر ، وتشابه على الناس الشعراء.

«كل قصيدة فى هذا الكتاب عقد فنى. بمقتضاه ألزمت نفسى أن أودع سطورها

★ «أغنيات الصباح والمساء» - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨.

قطعاً من ذاتى، من حياتى ومن فكرى ومن مشاعرى، فى مقابل ساعات قصيرة تنفقها فى قراءتها. وأملى أن تبعث لديك شعوراً بالرضى عند تلقيها مثلما شعرت أنا بالرضى عند كتابتها، وأن تشبع لديك حاجات بقدر ما أشبعت حاجات عندى، وأن ترتفع بك إلى أفق يعلو قليلاً فوق الأفق الأرضى، بمقدار ما علوت أنا فوقه. فإن أوفت هذه السطور بما أطمح أنا إليه وما ألزمت نفسى به، فعندها يحدث هذا التوحد الجميل الذى لا يلتقى ، فى الأغلب، طرفاه».

هذا الشاعر إذن، حسب ما يصف شعره، يعبر عن «ذاته» بالطريقة الرومنسية البريئة (حياته وفكره ومشاعره)، ويذهب مذهب نزار قبانى فى تحسين الصياغة (ينظم عقودا فنية)، ويكاد يُدلّ على القارىء بما أنفقه من جهد فى هذا النظم الفنى. والفن عنده يبعث «الرضى» عند مبدعه ومتلقيه معاً، وهذا كله يمكن أن يكون ساراً لقراء كثيرين، ولكننى أزعم أن ثمة قراء كثيرين أيضا يقلقهم هذا الرضى، ولا يطلبون من الشعر مثل هذا الرضى المطلق، بل يريدون أن يعكس الشعر ما يعانون من قلق، ولكن بطريقة جميلة، تجعلهم يتعايشون مع هذا القلق، ويستعذبونه، ولعل صاحب الديوان لو بحث عن أسباب ما يشكو منه من «تشابه واشتباه» فى أمر الشعر فى هذا الزمن، لوجد «القلق» كامناً فى الأعماق.

فهذا التوجه إلى القارىء، وهذا الأمل فى التوافق الكامل، أو شبه الكامل ، معه، بعيد عن روح «الحداثة» حتى فى مدلولها العربى. ولولا الكلمات الخمس الأخيرة فى هذا النص الذى نقلناه عنه لقلنا إنه يحاول أن يبنى من شعره كوخا جميلاً على الجبل أو على شاطىء النيل، حيث يمكننا أن نستمتع بحديث الذكريات، ولو كان بعضها مؤلما.

لعل هذه المقطوعة فى الجزء الأخير من ديوانه («منمنمات») تعبر عن طبيعة شعره وطبيعة شخصيته أيضا:

«ميثاق»

«احتوانى العشق فى سُدّتهِ
فأخذنا موثقا،
أننى ..
لو وهبت الليل للوجد فلن يأفل بدرُ
أننى..
لو نذرت الليل للنجوى
فلن يغرب نجمُ
ومضى العمر حثيثا
تسبح الأنجم فى أفقى
ويعلو فى سماواتى القمرْ
من زمان لم أعد أذكُرُهُ
عشت ليلاً واحداً لا ينتهى
وأنا ما عشت من أمسى
إلى الليلة غيره» .

فى هذه المقطوعة نغم صوفي، توحى به كلمتا «العشق» و«الوجد»، غير أن السياق – صورة ليل هادىء متصل ينيره

القمر والنجوم - يبدو أشبه ببطانة ناعمة لينة تخفت صدى هاتين الكلمتين.

وأقرب إلى الرمز - ولكنه لايزال رمزاً شفيفا لا يحير القارىء - قصيدة فى هذا الجزء نفسه بعنوان «حادث» : عنوان عام جداً كما ترى، يصلح لأى قصيدة يمكن أن يصنعها خيال الشاعر، ولذلك يخيل إليك أن القصيدة تتحرك حركة تلقائية، بادئة بحادث عارض:

«سقطت ساعتى الذهبية فوق
أديم الأرض الصلبة».

وبدلاً من أن تتوقف الساعة، تزداد سرعتها:

«عند شروق الشمس
بعد مغادرتى لفراشى
أنظر فيها..
فأراها حول العاشرة صباحا .
فإذا ما أنهيت القهوة
وقرأت صحيفتى اليومية
أبصرها توشك أن تتجاوز آخر
ساعات الظهر».

الظهر ... العمر ... لعل اللفظة المذكورة تشير إلى اللفظة الغائبة ... هكذا يفكر القارىء، فقد بدأ يرتاب فى أمر هذه الساعة، رغم التفاصيل العادية، الواقعية، وكونها «ذهبية» لم يعد يعنى فقط أنها ساعة ثمينة، بل إنها يمكن أن تكون ثمينة جدا ... جدا.

لا يلبث أن يضيق الشاعر بساعته التى تعدو دون توقف، فيقذف بها من نافذته الخلفية. ولكن :

«فى اليوم التالى،
وأنا اغتسل صباحا
أبصرت الساعة، نفس الساعة،
بالوشم الأخضر مرسومة
فى ظاهر معصمى الأيسر
تصدر عنها نفس الدقات،
وتشير إلى السادسة مساء
قبل غروب الشمس..
بدقائق معدودة» .

يمكنك أن تقول عن هذه القصيدة أيضاً إنها تميل إلى التشاؤم، ولكنك تلاحظ مرة أخرى أن الشعور الحاد يخفف منه سياق الأفعال اليومية العادية، فيستحيل إلى نوع من الاستسلام الحكيم.

وإذا سألت نفسك بعد أن تفرغ من قراءة الديوان: أين موقع هذا الشاعر من حساسية العصر؟ فقد لا تضعه فى بؤرة «الحداثية» العربية أو المستوردة، ولكنك ستعترف له على كل حال بأنه شاعر له صوته الخاص، ومذاقه الخاص، ولعل هذا هو أهم ما يعنى الناقد المعاصر، مهما تكن التصنيفات.



شئ ما..

شعر

د. عبده بدوى

لما قالوا: هذا قصر مرسوم فوق سحابه،
محمول فوق روابى العطر، وأنغام الشبابه
غردت، انسابت أحلامى المنسابه
لكنى من فوق البوابه
أبعدت كتابه
«.. لك ما ترجو، ما لا يتكرر، أو يتشابه
ما لم تبصره عين
ما لم تسمعه أذن
ما لم يخطر فوق القلب
لكن لا تقرب «شيئا ما» أو أن تجتاز رحابه
هذا شئ لا يذكر لكن لا تقرب سردابه
لا تلمس - يا ولدى - فى الجو قبابه!!»

***

فى بطء لما أن فتح المقدور كتابه
ورأيت الجنة مزهرة، ومهابه
لم تصبح فى عينى الدنيا نورا، ورحابه
صارت سجنا يتمنى العمر غيابه
فلقد كان الشئ الممنوع هو «الحريه»
فإذا فقدت صارت دنيانا غابه
أضحت لبلابه
فلتؤخذ كل الدنيا الخلابه
لكن فليصبح هذا الشئ المحذور الغامض
ملكى من غير رقابه
وليفتح فى فرح بابه
من غير كآبه!!





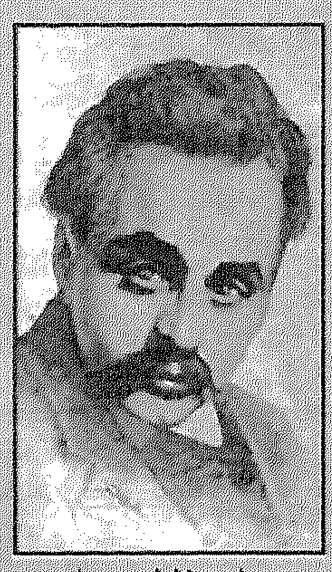


حكايات عن الآنسة مى

بقلم: وديع فلسطين



عباس محمود العقاد



جبران خليل جبران





مصطفى صادق الرافعى

كنت فى عام ١٩٤١ مازلت طالباً بمعهد الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكنتُ فى الوقت عينه رئيساً لتحرير المجلة الأسبوعية للطلاب واسمها «القافلة»، وهى مازالت تصدر حتى اليوم ويتدرب فيها طلاب الإعلام تدريباً عملياً على فنون الصحافة. وفى يوم ٢٣ يناير من تلك السنة سألنى مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة إنْ كان فى وسعى أن أشارك - كما هى عادتى - فى تنظيم استقبال الجمهور فى القاعة الشرقية بالجامعة فى تلك الليلة لأن الآنسة «مى زيادة» ستلقى محاضرة عامة، والمتوقع أن يشهدها جمهور غفير بعدما كان أُشيع وأُذيع من أنها لم تعد تسيطر على قواها العقلية، وأنها قضت نحو عام فى مستشفيات للأمراض العصبية فى لبنان. فقلت له إننى كنت أودّ أن أضطلع بهذه المهمة، ولاسيما لأننى شديد الشوق إلى رؤية «مى» للمرة الأولى فى حياتى، لولا أن امتحاناً ينتظرنى فى اليوم التالى، وعلىَّ كطالب أن أتأهب له بالسهر على كتبى ومذكراتى.

وهكذا ضاعت عليّ الفرصة الوحيدة لرؤية «مى» فى هذا الموقف الخطابى الحاشد. ولكنّنى كلفت زميلاً لى من محررى «القافلة» بأن يشهد المحاضرة، ويكتب عنها خبراً لجريدتنا الجامعية، فكتب تحت عنوان «عش فى خطر للآنسة مى» ما نصه:

«الدنيا كلها خطر، وتاريخها حافل بالأخطار. لذا يجب على المرء ألا يخشى الخطر فى هذه الحياة، كما قالت الآنسة «مى» فى محاضرتها «عش فى خطر» التى ألقتها يوم الاثنين ٢٠ يناير الساعة ٥:٣٠ بالقاعة الشرقية. ولقد حضر هذه المحاضرة عدد غفير أُعجب بسحر الآنسة «مى» فى تسلطها على مسامعهم، وتملك شعورهم بطريقتها المدهشة فى الإلقاء. كانت تضرب الأمثال من صميم الحياة على مقاومة الخطر وتدرّجه حتى أصبح فى حضارتنا الراهنة شيئاً عادياً، قائلة: «إننا لانتصوّر مقدار ما عاناه الإنسان الأوّل من البسالة فى الإقدام على ركوب الحمار لأول مرة، ولكنّه الآن يركب القطار والسيارة والباخرة فالطائرة دون أن يفكر فى أى خطر».

وكانت «مى» قبل عودتها النهائية من بيروت، بعد تجربة السجن فى المستشفيات، قد ألقت محاضرة فى قاعة «وست هول» بجامعة بيروت الأمريكية عنوانها «رسالة الأديب إلى العالم العربى» وقوبلت المحاضرة بإعجاب شديد من الحشود التى ملأت القاعة.

ودعاها «سلامة موسى» بعد عودتها إلى إلقاء محاضرة فى ندوته الأسبوعية فى جمعية الشبان المسيحية، فلبت دعوته وألقت محاضرتها «وهى على أحسن ما كانت من الرصانة والتفكير» بشهادة سلامة موسى.

وقد حاولتُ فى فترة لاحقة البحث عن النصوص الكاملة لهذه المحاضرات الثلاث، وراجعت الصحف والمجلات التى اعتادت «مى» نشر مقالاتها فيها، فلم أُصب فى ذلك أى توفيق. ولعل الذين بددوا أوراقها بعد وفاتها بددّوا معها نصوص هذه المحاضرات.

أمّا آخر مقال نشرته «مى» فى حياتها، فقد ظهر فى نفس هذا الشهر - يناير ١٩٤١ - بعنوان «تحية الأعياد»، وذلك فى مجلة «الطالبة» التى أصدرتها الأديبة منرڤا عبيد - وهى من أسرة عبيد المعروفة فى قنا والتى خرج منها وزراء سابقون وحاليون - وظلت تصدر على مدى أكثر من ثلاثين عاماً. والأديبة منرڤا - شفاها الله وعافاها - هى الوحيدة الباقية بيننا اليوم من الذين شافهوا «مى». وكانت تشترك معها فى هذه الحظوة شاعرة أبولو «جميلة العلايلى» التى توفيت فى صمت مغيظ فى أبريل ١٩٩١ بينما توفيت فى يناير من نفس السنة الأديبة السورية وداد سكاكينى التى أرّخت لـ «مى» وروت بتعاطفٍ كبير سيرة حياتها.

ولمحاضرة «مى» فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة قصة قد لاتكون معروفة على نطاقٍ واسع . فعندما استقوى أقرباءُ «مى» عليها واستضعفوها واستدرجوها إلى لبنان بدعوى الراحة

حكايات عن الآنسة مى

وتغيير الجوّ، ثم غدروا بها وأودعوها مستشفى العصفورية للأمراض العصبية، قاموا بتوقيع حجرٍ على ممتلكاتها، ولم تكن تزيد على أمتعتها المنزلية الشخصية وعلى بعض حليّها وعلى أموالها التى لم تكن تزيد على بضع مئات من الجنيهات. وظلّ هذا الحجر قائماً يحول بين «مى» وبين التصرف فى مالها وأشيائها حتّى عند عودتها إلى مصر من رحلة الشقاء فى مستشفى العصفورية وفى مستشفيْن آخريْن. ومع أن «مى» كانت تستقبل فى بيتها أعلام الفكر فى عصرها، فقد عزّ عليها أن تلقى منهم شيئاً من الجحود عند عودتها، فقاطعتهم جميعاً وأنشأت علاقاتٍ مع غيرهم من الذين لم يصدقوا ما قيلَ عن التياث عقلها. وكان من هؤلاء الأصدقاء الجدد مصطفى مرعى بك المحامى - الذى أصبح بعد ذلك رئيساً لهيئة قضايا الحكومة وعضواً فى مجلس الشيوخ وعضواً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة - والسيدة قرينته. ورغب «مصطفى مرعى بك» فى إنقاذ «مى» من كابوس الحجر، فقدّم إليها أوراقاً أقنعها بالتوقيع عليها لمصلحتها، فوقعتها دون أن تدرى بأن هذه الأوراق هى توكيل رسمى منها لمرعى بك لإقامة دعوى لرفع الحجر عن أصولها المادية. وخشى مرعى بك أن يطول أمد القضية إذا ما قدّم للمحكمة تقارير طبية تُحال إلى خبير لفحصها، أو إذا ما قرر القاضى عرض «مىّ» على الأطبّاء لتحديد مدى تحكمها فى قواها العقلية، مع ما فى ذلك من تجديد للتعذيب النفسى لـ «مى»، ولاسيمّا لأن الدعوى مرفوعة أصلاً من وراء ظهرها. فاتّصل بمدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية، وعرض عليه أن يدعو «مى» لإلقاء محاضرة ضمن برنامج المحاضرات العامة التى كان القسم ينظمها على مدار السنة. فرّحب بالفكرة، ورحبت «مى» بتلبية الدعوة، ثم أوعز مرعى بك لمدير قسم الخدمة العامة بأن يوجه دعوة إلى القاضى الذى ينظر قضية «مى» ليسمع بنفسه هذه المحاضرة، فلّبى القاضى الدعوة، وكان أشدّ الحاضرين تتبعاً للخطيبة وهى تلقى محاضرتها. وعند انصراف القاضى قال: «أهذه مجنونة؟ إنها أعقل منّى». وفى أول جلسة تالية قضى بإلغاء الحجر الجائر الذى عانت منه فى أشدّ عناء، ولكنّها لم تهنأ طويلاً بحياتها بعد ذلك، لأن عمرها انقصف فى شهر أكتوبر من نفس هذا العام، وكانت وقتها فى الخامسة والخمسين من عمرها.

★★★

ومن الحكايات التى وقفتُ عليها عن «مى» أنها لاحظت أن الدكتور طه حسين استقبل أربعة دواوين جديدة صدرت فى عام ١٩٣٤ استقبالاً متفاوتاً. ففى حين امتدح فى «حديث الأربعاء» الذى كان ينشره فى جريدة «الوادى» ديوان «الملاح التائه» لعلى محمود طه، وفى حين تناول

بترحيب معتدل ديوان «على بساط الريح» للشاعر المهجرى فوزى المعلوف، فقد قسا قسوة شديدة على الشاعرين ابراهيم ناجى ومحمود أبى الوفا، وقال إن شعر ناجى فى ديوان «وراء الغمام» يشبه موسيقى الحجرة، وقال عن شعر أبى الوفا فى ديوانه «أنفاس محترقة» إنه نظم خال من الشاعرية. وانتقد فؤاد صرّوف كاتب مقدّمة الديوان لقوله «إن شاعرية الشاعر اجتمع فيها التفكير عميقاً صافياً، والخيال جريئاً وثاباً، والشعور متأججاً صادقاً فى ألفاظ كأنها فى معانيها ومبانيها وجرسها ومواقعها آيات التنزيل «وأضاف صروف قوله إن هذه هى «سماحة القريحة».

عزّ على «مى» أن يعامل أبو الوفا وهو بسيط الحال مبتور الساق بهذه القسوة من طه حسين حتى أنكر عليه الشاعرية إنكاراً تاما. فدعت كلاً من الدكتور طه حسين وفؤاد صرّوف إلى بيتها. فوصل طه حسين مبكّراً، وصحبته إلى شرفة المنزل، وكان لم يزل شديد الضيق والضجر بسبب فصله من الجامعة. ولم يكد يجلس فى مقعده حتّى انقبضت أسارير وجهه، وأخذ يتأفف ويعيد التأفف فى نقمة على الذين ابعدوه عن كلية الآداب. ولما تكرّر منه ذلك، أرادت «مى» أن تسرّى عنه، فرددت على مسامعه قول الشاعر:

أحبّ أضحــــك للدنيا فيمنعـــنى

أنْ عاقبتنى على بعض ابتساماتى

فوجم طه حسين، ثم سألها: ماذا قلت:

فأعادت رواية البيت.

فسألها: لمن هذا الشعر، فلم يعرض لى من قبل؟

فقالت: لواحدٍ من الشعراء، والشعراء كثيرون نحفظ شعرهم وننسى أسماءهم.

فألح طه حسين فى معرفة قائل هذا البيت الجميل الذى وقع من نفسه موقعاً طيباً.

فقالت «مى»: إنه لمحمود أبى الوفا.

واربدّ وجه طه حسين حين سمع اسم الشاعر الذى أنكر عليه شاعريته، وحدّث نفسه قائلاً: تُرى ماذا يقول الناس عنّى لو نقلت إليهم هذه الواقعة، وهم الذين قرأوا أحكامى العنيفة على هذا الشاعر؟

وطلب من «مى» كتمان هذا الأمر، ولاسيما عن الشاعر نفسه.

ولكن «مى» قالت : بشرط ألا أكتمه عن فؤاد صروف الذى كتب مقدّمة ديوان أبى الوفا ولم يسلم بدوره فى انتقادك له.

وفى هذه اللحظة دق جرس الباب، وكان صرّوف هو الطارق، وانضمّ إلى مجلس الشرفة. وأخذت «مى» تروى له ما وقع، مستأذنة فى ذلك طه حسين.

★★★

وحكاية أخرى عن «مى» كنتُ من الشاهدين عليها. فقد أشرت على استاذنا عباس محمود العقاد أن يخصّ مجلة «قافلة الزيت» التى كنت أمثلها فى القاهرة بمقال عنوانه «موضوعى وكيف اختاره» فرحّب العقاد بذلك، وأعدّ مقالاً روى فيه منهاجه فى اختيار الموضوعات التى يتناولها فى كتبه ومقالاته. وكانت فى المقال فقرة عن الآنسة «مى»، ولكن محرر المجلة ارتأى حذفها، على طرافتها

حكايات عن الآنسة مى

وأهميتها. وقد جاء فيها قول العقاد: «ولا حرج من الاعتراف بأسلوب من أساليب الاختيار لم يخطر على بال أحد من قراء الصحافة السياسية فى ذلك الحين. فقد كتبنا أعنف المقالات فى الحملة على بعض الطغاة المرهوبين (يقصد عبد الخالق ثروت باشا) لأننا كنا على ثقة - بعد كل حملة - من دق الهاتف والاستماع إلى صوت إحدى الأديبات الناصحات بالتقية والتخفيف. فإذا طال العهد بالاستماع إلى ذلك الصوت، فالمقالة الأولى على أشدها وأقساها، تصيب الطاغية الذى اشتهر بالنقمة العاجلة بين زمرته القابضين على زمام الأمور . وقد يكون حقيقاً بها وبما هو أشدّ منها، ولكنه لاينال حقّه كله فى جميع الأوقات رعايةً للنصيحة المشكورة على كرهٍ منّا، ثم تحين الفرصة فى كل لحظة نريدها لتوفية الرجل حقه، وانتظار الهاتف الذى طال به عهد الانتظار».

وماهذا الهاتف إلاّ هاتف «مى».

★★★

وقد ذهب كثيرون فى تعليل الحياة العاطفية لـ «مى» مذاهب شتّى، بل ربطوا بين قلبها وقلوب عدد من روّاد صالونها، وبجبران خليل جبران المقيم فى نيويورك على وجه التحديد. ولعلّ ما أفضت به «مى» نفسها إلى محمد لطفى جمعة (فى مذكراته التى نشرها نجله رابح) ما يفسّر إعراضها عن التجاوب مع عبارات الحبّ التى كانت تسمعها والتى امتلأت بها ثلاثة كتب ألفها مصطفى صادق الرافعى. فقد روى محمد لطفى جمعة عنها أنها أسرّت إليه بقولها: «لاتنس تأثير البيئة والتربية التى تنشأ فيها المرأة أو الفتاة منّا. فقد دخلتُ وأنا طفلة فى حوالى الخامسة أو السادسة من عمرى مدرسة الراهبات اليوسفيات، ثم انتقلت إلى مدرسة الراهبات العذراوات فى بيروت، وشدّتنى حياة الراهبات فى هاتين المدرستين وفى الأديرة التى زرتها فى فلسطين وعينطورا فى لبنان. لذلك تجدنى وأنا وحيدة أبوىّ، وقد أوشكت على بلوغ الثلاثين، عازفة عن الزواج مُعرضةً عمّن تقدّم إلى خطبتى، وقد تقدّم كثيرون».

ويقول لطفى جمعة إنه تغلغل مع الآنسة فى نفسها فلم تُخف عنه أدق أسرارها «والخلاصة أنها تنظر إلى الفعل الجنسى وتعتبره قذارة مادية، وهى شديدة الحساسية للجمال».

وإذا كان جبران قد حظى من «مى» بعشرات من الرسائل التى لا تخلو من إعجاب مهذّب بأدبه وشخصه حتى قيل إنه الحبّ الوحيد فى حياتها، فإنّ مّما يثير الدهشة أن سيرة جبران التى سجّلها ملازمه ميخائيل نعيمة قد خلت تماماً من أى إشارة إلى «مى» أو إلى رسائلها، وإنْ كانت قد عمرت بأخبار مغامرات جبران العاطفية برغم إصابته بالسل هو وكل أشقائه، وهى مغامرات عرفتها نيويورك، ولاسيما مع مارى هسكل التى كانت تنفق

عليه والتى أوفدته على نفقتها الخاصة لدراسة الفن فى باريس، أو عرفتها عاصمة النور حيث كان جبران مشغولاً عن «مى » عاطفياً. كما أن «مى» لم تسع إلى لقائه فى باريس مع أنها كانت كثيرة التردد على أوربا.

وأقول استدراكاً وبين عضادتين إن ميخائيل نعيمة كان يغار من جبران، وقيل إنه ما دوّن سيرة حياته إلاّ لكى ينفى عنه صفات السموّ التى ألصقت به بفضل كتابه «النبىّ» الذى ترجم إلى معظم لغات العالم، والذى يعتبر أروج كتاب لأديب عربى فى التاريخ كلّه بشهادة منظمة اليونسكو. وقد حاول نعيمة محاكاة جبران، فأصدر كتاب «مرداد» باللغتين العربية والإنجليزية على أمل أن يصادف من الرواج والحفاوة مثل ما صادفه كتاب «النبى»، ولكنه قَصُرَ عن بلوغ هذه الغاية.

أما مصطفى صادق الرافعى فقد استولى عليه وهم كبير وهو أن «مى» مدلّهةٌ فى حبه. ويروى عنه تلميذه الوفى الشيخ محمود أبو ريه أنه كان فى صحبته ذات يوم فى طنطا «فجاءت جريدة الأهرام وفيها مقال للآنسة «مى» وردت فيه عبارة من كلام لها سبق نشره. فقرأه الرافعى بشغف، ثم التفت إلىّ وقال بلهفة: أنظر يا أبا ريّه، ووضع اصبعه على عبارة من المقال، إن هذه الكلمة العابرة لم تكن فى الأصل ، وإنما وضعت هنا كأنها رسالة لى منها ، ومن ثم عرفت أن الآنسة «مى» كانت تحمل لى حباً، ولكنّها تتلطف فى إبدائه، وإن كانت تتحرج من إظهاره للناس».

ويضيف الشيخ أبو ريه قوله: «ومما أقرره هنا أن الرافعى ذكر لى أنه استشار السيدة الكريمة زوجته فى حبه لـ «مى» حتّى لايمسّ بهذا الحب الطاهر أمانة الزوجة الوثيقة».

والرافعى كان كاتباً وشاعراً عظيماً، ولكن احتمال وقوع «مى» فى هواه مستبعد جداً، لأنه كان يعمل فى وظيفة متواضعة هى وظيفة كاتب محكمة طنطا، يتقاضى حفنة من الجنيهات فى كل شهر، فلما جاءته علاوة مقدارها خمسون قرشا كاد صوابه يطير فرحاً بها. ثم إن الرافعى كان أصمّ، وقد أخبرنى أستاذى فؤاد صرّوف أنه لماّ خلف عمّه الدكتور يعقوب صروف فى رياسة تحرير «المقتطف» كان إذا ما زاره الرافعىّ يتبادل الحديث معه بوريقات. فيدوّن الرافعى كلامه على وريقة، ويردّ صروف عليه على وريقة أخرى، وهكذا دواليك إلى أن تنتهى الزيارة، لأن صممه كان مطبقاً.

ومع ما توهّمه الرافعى من أن «مى» كان تحبّه، فقد كان يغار منها وليس عليها! فقد لاحظ الرافعى أن الدكتور يعقوب صروف يقدم مقالات «مى» على مقالاته فى «المقتطف» وكان يعتقد أن مقالاته أجدر بالتقديم.فلما ضجر من تكرار هذا الأمر فاتح فيه محرر «المقتطف» الذى أوضح له أن ترتيب المقالات يُراعى فيه زمنُ ورودها إلى يديْه، كما قال إنه «يعرف أن كثيرين من الذين لهم الكعب الأعلى فى الإنشاء يُجلّون قدر «مى» ويمدحونها بالكلام والكتابة. وقد رأيتُ اسماعيل باشا صبرى يقبل يدها

حكايات عن الآنسة مى

فى بيتى».

وعندما فرغ الرافعى من تأليف كتابه «أوراق الورد» لمناجاة «مى»، وصف هذا الكتاب بأنه «كتاب الشيطانة» وهو ما رواه تلميذه الوفى محمود أبو ريه فى كتابه «رسائل الرافعى».

★★★

وقد اشتهر صالون «مى» الذى كانت تعقده فى بيتها مساء كل ثلاثاء فيؤمّه الاعلام من المفكرين، فمنهم الداروينىّ شبلى شميّل، والعلمانى يعقوب صروف، ورجال الدين مثل الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» والشيخ مصطفى عبد الرازق، ومنهم أصحاب الرتب وأصحاب الجاه، ومنهم مَنْ لا عهد لهم بحياة الصالونات وطقوسها مثل ابراهيم عبد القادر المازنى. وعلى كثرة ماكُتب عن هذا الصالون، إلاّ أن المناقشات والمساجلات التى كانت تجرى فيه والتى كانت «مى» تديرها باقتدار «وعودتنا ههنا فصل الخطاب» بتعبير العقاد، لم تسجل، ولا اهتمت صحف ذلك العهد بوصف ماكان يدور فيها. ولعل السبب فى ذلك أن هذا الصالون لم تكن الغاية منه إعلامية دعائية، وإنما كان مُنتدى لمناقشة قضايا الأدب والفكر والعلم فى جو حميم.

ثم إن آلات التسجيل لم تكن معروفة فى ذلك الوقت لتسجّل ولو جلسة واحدة من جلسات الصالون، فضاعت آثاره، ولم تبق منها إلاّ إشارات هنا وهناك فى مؤلفات الباحثين فى سيرة «مى».

★★★

وقد عرفت سوريا أديبةً كبيرة اسمها «مارى عجمى» كانت تصدر مجلة اسمها «العروس». وكان الزعيم السورى الدكتور فارس الخورى، الذى رأس الوزارة فى سوريا كما رأس اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، حاضراً فى مجلس تردّد فيه اسم «مى زيادة » دون أن يُشار فيه إلى الأديبة السورية «مارى عجمى» فارتجل هذين البيتّين:

يا أُهَيْـــلَ العبقـــرية
اسمعوا هذى الشـــهادة
إن مـــارى العجـــمية
هـــى مى وزيـــادة

★★★

رحم الله «مى»، هذه الأديبة المتفردّة التى ملأت الدنيا وشغلت الناس حتى يومنا هذا، فاستدرّت إعجاب مَنْ عرفوها كما استدرّت دموعهم. واقتطع العقاد من مهجته عبارات رثى «مِى» بها حيث قال:

شيـــم غرٌّ رضيات عـــذاب
وحجي ينفـذ بالرأى الصـواب
وذكـاء ألمـعىٌّ كالشـهابِ
وجـــمال قُدسى لا يعـــاب
كل هذا فى التراب، آه من هذا التراب



أهدت الحكومة الفرنسية مجموعة من وثائق حفر قناة السويس إلى الحكومة المصرية ولم يكن بينها هذه الوثائق .

محمد عودة

من هنرى بلور سفير بريطانيا فى الآستانة (فى زيـارة للقاهـرة) إلى لنــدن :

» قابلت الوالى وأطلعنى على بضع رسائل وصلته من الدوق دى مورنى الأخ غير الشقيق للإمبراطورة . وكانت كلها نقدا لاذعا صريحا للشركة وتصرفاتها التعسفية وسعيها لابتزاز أموال مصر واستطرد منفعلا : إن حكومة فرنسا تتهمنى بالتحيز ضدها ولكننى لا أستطيع أن أمنحهم دمى وبلادى . إن الشركة تهدد كل يوم بالاستيلاء على سلطانى وتنظر إلى مصر كأنها بلد محتل ، إنها تريد مصر للقناة وأنا أريد القناة لمصر.

من القنصلية البريطانية فى مصر إلى لندن :

» حقدت الشركة على القنصل بوجاد ونقلته من مصر كما فعلت من قبل مع القنصل ساباتاى . وعين خلفه المسيو تريكو. ويؤكد المطلعون أن ذلك يعنى انفتاح الطريق أمام ديلسبس للقيام بهجوم عام على الخزانة المصرية .

من القنصل «بوجاد» إلى الخارجية الفرنسية :

» يسعى ديلسبس لتحريض القناصل على اعتبار تهريب البضائع عملا مشروعا ويطلب تدخلهم لمساعدة رعاياهم الأجانب فى الاعتداء على حقوق البلاد وسيادتها. والذى يزيد من فظاعة هذا التصرف أن سكان بورسعيد وصلوا إلى سبعة آلاف – ثلثاهم من الأوروبيين ومعظمهم من العناصر المريبة التى يجتذبها تكاثر العمال والموظفين فى القناة وتزايد حاجاتهم المعيشية ومطالبهم فى الحياة . وكانت طائفة من اليونانيين وغيرهم يتسللون على الساحل بسفنهم الصغيرة لتهريب البضائع وقد اعترض تجار الإسكندرية على الاعفاء الجمركى لأنه يهدد بالقضاء عليها .

وقد احتج القنصل البريطانى الكولونيل ستانتون لدى شريف باشا ، وقد علمت أن مشادة حادة وقعت بين شريف وديلسبس وأن شريفاً أنذره بأنه لا يوجد أى اتفاق يخول شركة القناة الحقوق التى يطالب بها ديلسبس وأن الاعفاء كان تسامحا من سعيد باشا وأنه لم يدر بخلد الحكومة المصرية فى أى وقت من الأوقات أن تجعل من الشركة دولة داخل الدولة وقاعدة كبيرة للتهريب . وقد اقترح ديلسبس على شريف باشا الاحتكام إلى الامبراطور ولكن شريفاً رفض الاقتراح . وقد طلبت إلى ديلسبس مرة أخرى أن يقدم لى النصوص التى تكفل له حق الاعفاء ولكنه لم يكترث .

من السفارة البريطانية فى باريس إلى وزارة الخارجية :

» أصدرت محكمة استئناف باريس مجتمعة فى هيئة محكمة جنايات حكمها على فردينان ديلسبس وابنه شارل ديلسبس بالسجن خمس سنوات وغرامة قدرها ٣٠٠٠

فرنك لارتكابهما جريمة النصب والشروع فى النصب .. وقد أدين شارل ديلسبس ومديرو شركة بنما فى قضية أخرى بجريمة الرشوة إذ ثبت أن نوابا وشيوخا يقال إن عددهم كان حوالى ١٥٠ بينهم رؤساء وزارة ووزراء سابقون وكليمنصو نفسه تقاضوا بطريق مباشر أو غير مباشر مبالغ طائلة ؛ ملايين وآلافاً . وقد ضبطت أصول الشيكات وأرقامها وذلك خلال سعى الشركة لحمل البرلمان والحكومة على منحها حق إصدار سلفة ذات أنصبة وقد وافقت الحكومة فى النهاية رغما عن التقارير السيئة التى قدمها مندوب الحكومة عن حالة الشركة وتصرفاتها فى طرح سندات قرض سابق.

وقد اتهم ديلسبس وابنه بتبديد مال الغير والتبذير والتغرير بجمهور المكتتبين وإعطاء بيانات وتقديرات وأرقام مضللة كما حدث عند إصدار قرض يونيه وحصوله من هذا القرض على اكتتاب ٨٤٩٠٠٠ سند من مجموع السندات المطروحة وقدرها مليونان وبذلك يكون قد استولى بواسطة شركته بطريق التدليس على أموال الغير كلها أو جزء منها .

وقد كان الحكم وأسبابه صدمة قاصمة كشفت عن مدى الرشوة والفساد السائد .

من القنصل الأمريكى «فارمان» إلى واشنطن :

« كانت مصر فى عهد إسماعيل أكبر سوق فى العالم للتعويضات ؛ كان فيها ١٧ دولة داخل الدولة بمقتضى نظام الامتيازات وكان رعايا الدول من تجار ومقاولين وغيرهم يختلقون الفرص لافتعال نزاع مع الحكومة على طريقة ديلسبس ويحتالون فى تأويل العقود والاتفاقات واللوائح لمطالبة الحكومة بتعويضات ضخمة بالطرق الدبلوماسية وكان قناصلهم يتواطأون معهم فى سلب الخزانة المصرية ولا يحجمون أحيانا عن تهديد الحكومة بأساطيلهم لذلك كانت مصر تفاوض فى إنشاء المحاكم المختلطة لمحو بعض مساوىء الامتيازات ولكن فرنسا أقامت العراقيل فى وجه الإصلاح تسع سنوات كاملة خوفا من أن تحل سلطة قضائية محل السلطة أو السلطات الدبلوماسية التى كان يستند إليها ديلسبس وأمثاله من الأفاقين .

ولم تفتح المحاكم المختلطة أبوابها إلا فى أول فبراير سنة ١٨٧٦ أى بعد أن غرقت البلاد فى الدّين وصارت الإدارة المصرية خاضعة للتدخل الأجنبى .

«أوليفيه ريت» كبير مهندسى الشركة فى كتاب قناة السويس :

« احتاجت الشركة إلى مجهود استثنائى لتطهير خمسين كيلومترا من ترعة الإسماعيلية من ناحية السويس فى أسرع وقت ممكن وأرسلت الحكومة المصرية فرقة مؤلفة من ١٥٠٠٠ رجل برياسة المهندس المصرى على مبارك أدت مهمتها على أحسن وجه، وأعتقد أنه ليس من الممكن فى أى بلد العثور على ١٥ ألف رجل فى استطاعتهم أن

يحققوا فى أقل من خمسين يوما حفر ونقل ما يقرب من نصف مليون متر مكعب بينما كانت أرجلهم فى الماء وليس على رؤوسهم غير السماء معظم الوقت .

حقا إن العمال المصريين مدهشون إذا أحسنت قيادتهم وهم ذوو جلد عظيم وفى كل يوم يزدادون خبرة ومهارة وقد رأيت عن كثب فرقة عمال شحن البضائع وتفريغها بحرا وقد بهرت بالمنظر وقد كان بعض هؤلاء الرجال يشتغلون عشر ساعات فى اليوم تحت ظروف فادحة ولكن بنفوس راضية فرحة ... إنهم شعب عريق ويستحيل أن تستغنى عنهم.

من القنصل إلى الخارجية الفرنسية :

» توفي الوالى سعيد ، وكان الجميع يتوقعون ذلك ، وكان فى آخر أيامه مصابا باكتئاب دائم ، نتيجة للسرطان .

وقد كان نموذجا لصاحب النيات الحسنة التى تفرش الطريق إلى جهنم .

وقد تولى العرش بعد فترة قاتمة خلال حكم عباس الأول الذى مات مقتولا بواسطة أحد مماليكه .

وكان واسع الآمال منحازا إلى الشعب والفلاحين انحيازا صريحا ، وقد تربى فى الأسطول وحرص والده على أن يندمج مع البحارة .

وقد ألقى خطاب العرش وأعلن فيه هذا الانحياز لمصر والمصريين وأثار يومها أشد القلق و السخط بين الباشوات الأتراك - الشراكسة، وكثير من الأوروبيين.

وقد أصدر قانونين كان لهما تأثير عميق سوف يتضاعف فى السنوات القادمة - الأول قانون الملكية الزراعية والذى يمنح الفلاحين حقها والثانى قانون الترقية من تحت السلاح ، وارتقى عدد من الجنود والشاويشية الفلاحين إلى رتب الضباط ، وكان ياوره الخاص والمقرب إليه دائما جاويشاً سابقاً فى الجيش ارتقى حتى رتبة القائمقام هو أحمد عرابى وهو محل اهتمام كثير من المراقبين والقناصل.

ولم يكن الوالى سعيد صلبا يستطيع أن يصمد أمام التحديات أو المشاكل. وقد وصفه ديلسبس يوماً أنه أمير يريد أن يعيش فى هدوء وخلى البال ويكره المطالب والإيضاحات والمنازعات .

وقد تكالب جيش من المغامرين الأوروبيين للحصول على امتيازات ومشاريع وهمية غير قابلة للتحقيق ثم يطالبون الحكومة بالتعويض عن فشلها .

والوالى هو الذى اشتهرت عنه قصة طلبه إلى خادمه أن يغلق نافذة يدخل منها الهواء حتى لا يصاب زائره الأوروبى بالبرد ويطالب بتعويض .

تقرير «أوليفيه ريت» كبير مهندسي شركة القناة إلى الحكومة الفرنسية :

(كان متعاطفا مع مصر وألف كتابا عن القناة أثار جدلا شديدا فى فرنسا) .

» تطبق الشركة نظام السخرة على عمالها ، وهى تستخدم ٢٠ ألف عامل كل شهر وتطالب بإلحاح بثلاثين ألفاً وتريد جيشا من العمال كما يقول ديلسبس وبذلك تحرم الشركة الزراعة والأشغال العمومية من الأيدى العاملة التى تحتاج أشد الحاجة اليها ، وإذا تذكرنا أن عدد سكان مصر لا يزيد على خمسة ملايين وأن عدد العمال الذين تجندهم السلطات للعمل بالشركة يصل كثيرا إلى خمسين أو ستين ألفاً – أدركنا مدى ما يلحق بالزراعة من أضرار .

ولم يقف الأمر عند السخرة، فإن الشركة ، فى الوقت الذى كانت تنهك فيه عمالها وبينهم أطفال عديدون بالعمل الشاق المرهق المضنى ، كانت لا تكترث بأحوالهم الصحية ولا تحسن تغذيتهم ولا تدفع أجرا مناسبا لهم ويصيح عمال الصعيد بالشكوى من البسكويت العفن الذى توزعه عليهم الشركة ومن ندرة المياه وعدم توافر وسائل الطهى . وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى أن فتكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا وذهب ضحيتها آلاف منهم ، وليس أدل على تدهور الحال من أن الوالى اضطر حتى لا يتدهور سير العمل إلى أن يرسل ٥٠٠٠ جندى كانوا من القوات المتميزة وأرسلهم من الصعيد على النيل حتى القاهرة ومنها بالسكة الحديدية إلى الزقازيق ثم إلى القناة ، وبالرغم من كل الاحتياطات التى اتخذتها الحكومة إلا أنهم لم يستطيعوا العمل سوى يوم واحد فقط ثم تمردوا وثاروا على ضباطهم وفروا هاربين .

إن الزراعة المصرية مهددة بسبب إلحاح الشركة ومطالبها التى لا تنتهى من اليد العاملة .

وأضاف أوليفيه ريت فى كتابه عن قناة السويس : «ظلت الشركة أكثر من أربعة أعوام تسخِّر جيشا من العمال يبلغ ٣٠٠٠٠ يُستبدل بهم غيرهم فى كل شهر ، وكان العمل يجرى فى مناطق وعرة يخوضون خلالها فى الطين ويحملون الطين السائل على أجسادهم بينما رؤوسهم فى جحيم من حرارة الشمس المحرقة .. يزيد من حرارتها إنعكاسها على رمال الضفتين ... كانت سخرة مفزعة تنشر البؤس والجوع والموت بين الجماهير الغفيرة من الفلاحين والعمال» .


د. طه حسين


ديكارت

بمن تأثر طه حسين ؟

بقلم: د. جلال أمين

ثمة طريقان على الأقل لكتابة تاريخ الفكر الإنسانى ، أحدهما ينطلق من اعتبار هذا الفكر نتيجة ، فى الأساس ، للظروف الاجتماعية والاقتصادية التى نشأ فيها ، فهو انعكاس لها ، ولم يظهر الا لتلبية حاجة اجتماعية ، سواء كانت خدمة مصالح طبقية ، أو تسهيل قيام ثورة ، أو تبرير نظام معين للحكم .. الخ .

هذه الطريقة فى كتابة تاريخ الفكر ، هى إلى حد كبير ثمرة من ثمرات الفلسفة الماركسية فى التاريخ ، نمت وترعرعت بعد ظهور الماركسية ، وإن كانت هناك بعض الأمثلة لكتابات فى تاريخ الفكر قبل ظهور الماركسية تعبر عن نفس النظرة للأمور، إذ من الطبيعى أن يفطن بعض المؤرخين السابقين على ماركس إلى هذه الفكرة البسيطة فى حد ذاتها ، وهى أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية لابد أن يكون لها دور مهم فى نشأة الأفكار وتطورها .

ولكن من الممكن أيضا النظر إلى تطور الفكر الإنسانى وكأنه مستقل بذاته ، وكأن عالم الأفكار له قانونه المستقل فى التطور ، تقوم الفكرة بتلقيح فكرة أخرى ، ويتأثر المفكر بالمفكرين السابقين عليه ، ويؤثر فى المفكرين التالين ، فيكتب تاريخ الفكر وكأن الأفكار منبتة الصلة بالواقع الاجتماعى والاقتصادى الذى نشأت فيه ، فإذا اعترف المؤرخ بوجود تأثر متبادل بين الأفكار والواقع الاجتماعى فهو لا يعلق على ذلك أهمية كبيرة ، على أساس أن الأمر الحاسم هو أثر الفكر فى الفكر .

ومن المؤكد أن كلا من هذين النوعين من التاريخ مفيد ومطلوب ، وليس من الضرورى بالمرة أن يدافع صاحب أحد المنهجين عن نفسه عن طريق رفض المنهج الآخر أو التقليل من شأنه ، إذ أن كلا منهما يحقق غرضا نافعا ، وكل منهما مكمل للآخر ، والفهم الكامل للظاهرة الفكرية لا يتحقق فى غياب هذا أو ذاك ، وليس من الضرورى أن يكون القائم بهذا العمل هو أيضا القائم بالعمل الآخر ، أو أن يجمع كل مؤلف بين الاتجاهين ، فقد ينوء المؤلف بحملين ، كل منهما ثقيل بذاته إذا أراد أن يكون أداؤه فى هذا وذاك على النحو المنشود .

وكل من الاتجاهين على أى حال يتطلب مزاجا يختلف عما يتطلبه الاتجاه الآخر ، فالباحث الشغوف بتغيير المجتمع أو الأشد اهتماما بأحوال المجتمع منه بمشاكل الفكر الخالص ، يميل على الأرجح إلى الاتجاه الأول ، ولكن الباحث المفتون بسحر الفكرة فى حد ذاتها ، ودرجة اتساقها المنطقى ، والشغوف بمراقبة الطريقة التى يعمل بها العقل الإنسانى من الداخل ، لابد أن يميل إلى الاتجاه الآخر الذى يؤرخ للفكر وكأنه عالم مستقل بذاته .

★★★

وقد أتحفنا الدكتور عبدالرشيد محمودى أخيرا بكتاب جميل وشائق من هذا النوع الثانى، فى تحليل أفكار الدكتور طه حسين ، صدر بالانجليزية منذ شهور قليلة بعنوان :

Taha Husain's Education

ونشرته دار Curzon فى بريطانيا. فأفكار طه حسين وتطورها ، تبدو فى هذا الكتاب وكأنها ثمرة تفاعل عقل مع عقل ، وتأثر فكرة بفكرة ، وليست ثمرة المناخ الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى العام وتطوره فى مصر ، ومن ثم فالكتاب يلقى ضوءا ساطعا على الطريقة التى كان يعمل بها عقل طه حسين من داخله ،

تتبعه خطوة بخطوة ، منذ نشأته الأولى وحتى كتابته لكتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» فى ١٩٣٨ ، فيرسم لنا مؤلفه خريطة بديعة واضحة المعالم ، لتضاريس هذا الفكر وتعرجاته ، متتبعا قراءات طه حسين والأساتذة الذين تلقى عنهم العلم فى مصر وفرنسا ، وتفاعل هذا الفكر بذاك فى داخل هذا العقل الفذ ، الذى كان له كل هذا الأثر فى الحياة الثقافية والعقلية فى مصر والعالم العربى .

هناك بعض استثناءات يشير فيها المؤلف إلى تأثر كتابات طه حسين بظروف مصر السياسية ، ولكن هذه الاشارات قليلة جدا وعابرة فلا تغير من الاتجاه العام للكتاب ، وإن كنت لا أشك فى أن المؤلف على استعداد للاعتراف بأهمية التأثيرات الأخرى أيضا ، والتى يتركها لغيره .

★★★

وقد كان يهمنى بوجه خاص أن أعرف المصادر الفكرية التى استقى منها طه حسين فكرتين أساسيتين ، طرحهما فى ذلك الكتاب الذى أثار عليه الدنيا وهو كتاب «فى الشعر الجاهلى» وهما فكرتان لا أتعاطف بشأنهما البتة مع طه حسين ، فإذا بكتاب الدكتور محمودى يعطينى إجابة شافية وواضحة كل الوضوح وموثقة توثيقا جيدا عن المصدر الفكرى لهاتين الفكرتين .

أما الفكرة الأولى فهى الزعم بأن الشعر الجاهلى لم يوضع فى الجاهلية ، بل هو شعر منحول صنع بعد الاسلام ونسب إلى الجاهلية رغبة من ناحليه فى إعلاء شأن الإسلام ، وكثيرا ما اتهم طه حسين بأنه أخذ هذه الفكرة من المستشرق البريطانى مرجليوث ، أى أنه ليس صاحبها ومبتكرها وإنما يردد ما قاله غيره ، ويدفع د. محمودى هذا الاتهام عن طه حسين فيذكر أولا إنكار طه حسين له ، وتأكيده أنه لم يقرأ دراسة مرجليوث إلا بعد سنة من نشر كتاب «فى الشعر الجاهلى» ويرجح محمودى أن كلا من طه حسين ومرجليوث قد تأثر بمصادر مشتركة ، ويشير إلى تأييد مرجليوث نفسه لهذا التفسير فى تعليق له نشر فى ١٩٢٧ عما وجه إلى طه حسين من اتهام . الأهم من ذلك أن محمودى يتعقب بدايات تفكير طه حسين وكتاباته حتى يعثر على البدايات الأولى لهذه الفكرة عند طه حسين ، فيجدها ترجع إلى الفترة ١٩١١ – ١٩١٤ ، أى قبل صدور كتاب «فى الشعر الجاهلى» بنحو خمسة عشر عاما ،

إذ عبر فيها طه حسين عن نفس الشكوك فى أصل الشعر الجاهلى ، متأثرا ، فى رأى الدكتور محمودى، بأستاذه المستشرق الإيطالى كارلو نالينو ، الذى استمع طه حسين إلى محاضراته فى كلية الآداب بالجامعة المصرية عن تاريخ الأدب العربى فى ١٩١١ - ١٩١٢ ، والذى قال طه حسين عنه بأنه ، أى طه حسين ، مدين فى كل حياته الفكرية بأعظم دَيْن لشخصين ، أحدهما هو كارلو نالينو والآخر هو الشيخ سيد على المرصفى .

الفكرة الثانية والأخطر ، إذ كانت هى التى أدت إلى خروج طه حسين من الجامعة ، هى ما تضمنه كتاب «فى الشعر الجاهلى» من أن الباحث فى الأدب العربى يجب أن يتحرر من أى قيود تفرضها عليه قوميته أو عصبيته أو دينه ، فلا يتقيد إلا بمنهج البحث العلمى ، حيث يقول طه حسين :

«ذلك أنَّا ، إذا لم ننس قوميتنا وديننا، وما يتصل بهما ، فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء شئ غير هذا ؟» (فى الشعر الجاهلى ، دار النهر للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٦، مع مقدمة للدكتور عبدالمنعم تليمه، ص ٥٥) ويقول طه حسين إنه فى هذا الموقف يتبع منهج ديكارت فى الشك ، فيقول فى نفس الكتاب «والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هو أن يتجرد الباحث من كل شئ كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ... فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربى القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء » (ص ٥٤) .

والدكتور محمودى يبين بوضوح المصدر الذى تأثر به طه حسين فى هذا الصدد ، وهو المستشرق الفرنسى بول كازانوفا الذى تتلمذ عليه طه حسين أثناء دراسته فى فرنسا (فى سنة ١٩١٦ وما بعدها) والذى أشرف على رسالة طه حسين للدكتوراه عن ابن خلدون ، فيشرح المحمودى بعض الأفكار الأساسية التى طرحها كازانوفا فى محاضراته ، ولها نسب واضح بتلك الفكرة التى طرحها طه حسين من حيث الموقف من الدين عند بحث تاريخ الأدب ، ويقتطف من كتابات طه حسين عن كازانوفا ما يحمل ثناء عظيما على طريقة الرجل ومنهجه التاريخى غير المتميز ، حتى فى بحث أكثر الموضوعات

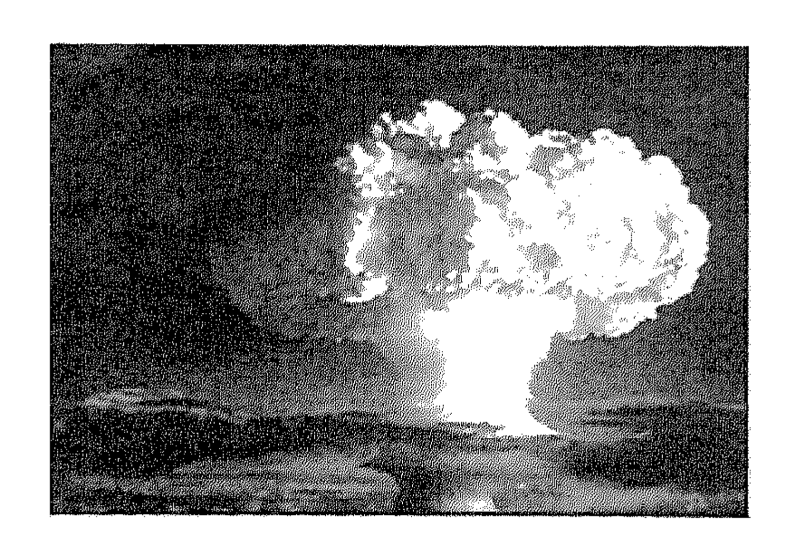
حساسية وصلة بالعاطفة ، بما فى ذلك القرآن الكريم نفسه .

أما عن ديكارت ، فالمؤلف يؤكد فى كتابه معرفة طه حسين الوثيقة بأعماله ، ومن ثم يرد التهمة التى وجهت إلى طه حسين والتى زعمت جهل طه حسين بحقيقة مذهب ديكارت ، أو عدم معرفته معرفة حقيقية به . **وإن كان المؤلف لا يتصدى للرد على نقد آخر هو فى رأيى الأهم والأكبر مغزى ، وهو أن إقحام طه حسين لمذهب ديكارت فى هذا الأمر لا يبدو مبررا تماما ، وقد لا يكون سائغا بالمرة ، إذ أن أهمية مبدأ الشك الديكارتى ومغزاه إنما يظهران فى مجال البحث عن مدى سلامة اعتقادنا بوجود الأشياء وجودا حقيقيا خارج الذهن، ولا يجوز فيما يبدو لى استخدام مبدأ ديكارت لتأييد القول بالشك فى أى شئ ، وإلا لجاز للشخص الذى يسيطر عليه الشك فى سلوك زوجته مثلا حتى ولو لم يكن لديه أى مبرر معقول لذلك ، أن يستند فى تبرير شكه إلى مبدأ ديكارت !**

لا يتعرض الدكتور محمودى لمثل هذا، ولكنه فى هذا متسق تماما مع منهجه هو والهدف الذى وضعه لكتابه . إنه لا يخصص أى مساحة تذكر لمناقشة صحة أو خطأ هذا الرأى أو ذاك ، من آراء طه حسين (اللهم إلا باستثناء الخاتمة) فليس هذا هدفه ، وهو من ثم لا يتعرض لمناقشة ناقدى طه حسين وخصومه ومحاولة الانتصار له أو لهم .

وإنما يهدف د. محمودى فقط إلى محاولة اكتشاف وشرح المؤثرات الفكرية فى فكر طه حسين ، وقد نجح الكتاب فى هذا نجاحا باهرا ، وقدم لنا حصيلة اكتشافه بأسلوب ناصع ليس فيه أى غموض أو لغو ، مما لا يسع القارئ معه إلا أن يشعر بالغبطة الشديدة إذ يجد أن الغرس الذى وضعه جيل طه حسين فى مطلع القرن العشرين ، فى مجال البحث العلمى لتاريخ الأدب العربى ، قد جاء بأفضل الثمار على يد جيل عبدالرشيد محمودى فى نهاية هذا القرن .

بل لا أبالغ إذا قلت إن ما شاب جهد طه حسين من بعض الشطط فى مطلع القرن ، مما هو مألوف فى كل من يشق طريقا جديدا ، لم يعد له أى أثر فى هذا الكتاب الشائق □ □



أسلحة التدمير الشامل الحقيقة والتهويل

فيروس الإيدز .. تم تخليقه صناعيا !

بقلم : د . نصار عبد الله

منذ أكثر من ثلاثين عاما بدأت أسلحة التدمير الشامل تحتل حيزا لابأس به من اهتماماتي ، كنت شأن الكثيرين من أبناء جيلى أتابع باهتمام شديد أخبار الحرب الڤيتنامية، وكانت سائر التقارير تؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية قد بدأت تستخدم أسلحة التدمير الشامل على نطاق واسع ضد المدنيين الڤيتناميين العزل ، أملا فى تحقيق نصر عسكري حاسم أعجزها تحقيقه بوسائل الحرب وأسلحتها التقليدية .

كانت هذه هى المرة الخامسة التى يسجل فيها التاريخ استخدام مثل هذه الأسلحة الجديدة (أو بالأحرى التى كانت ما تزال جديدة نسبيا حتى ذلك الوقت) .. على نطاق شديد الإتساع والبشاعة .

كانت المرة الأولى على يد الألمان .. وعلى وجه التحديد فى ٢٢ أبريل ١٩١٥ عندما ألقى الألمان كميات هائلة من غازى الكلور والفوسجين على الجنود البريطانيين والفرنسيين المرابطين فى الخنادق .. ولأن هذين الغازين أثقل من الهواء فقد تراكما داخل الخنادق لكى يصيبا الجنود بإحساس غريب ومرعب لم يعيشوه من قبل .. بدأ الجنود يسعلون سعالا عنيفا .. بعد أن امتلأت رئاتهم بالغازات الخانقة الثقيلة وحالت دون وصول الهواء الطبيعى .. واشتد السعال وتمزقت الرئات .. وتدفق الدم من الأنوف والأفواه .. وقفز بعض الجنود الى خارج الخنادق أملا فى النجاة من الاختناق ، فوقعوا فريسة سهلة لرصاص الألمان ... الذى أصبح بالنسبة للكثيرين منهم نوعا من الرحمة والخلاص مما يعانونه من عذاب أليم ..كان المشهد برمته بشعا .. وكانت الخسائر أكثر بكثير جدا مما توقعه المهاجمون أنفسهم ... تذكروا هذا التاريخ جيدا ٢٢ أبريل ١٩١٥ فهو علامة فاصلة من علامات الانتقال من الأسلحة التقليدية الى أسلحة التدمير الشامل ...

أما المرة الثانية التى يسجل فيها التاريخ استخدام هذه الأسلحة الفتاكة على نطاق واسع فقد كانت على أيدى الايطاليين أثناء غزوهم للحبشة (١٩٣٥ - ١٩٣٦) .... وفى هذه المرة استخدم الايطاليون الغازات الحارقة ... وبوجه خاص غازى المسترد (الخردل) واللويزيت ... وقد كان الاستخدام فى هذه المرة أكثر بشاعة .. فقد كان رذاذ هذه الغازات يسقط على وجوه الأحباش وأجسادهم .. فيهترىء الجلد كأنك قد صببت عليه الزيت المغلى .. وفى حالة الاصابة الخفيفة .. ينتفخ الجلد بعد حين .. ويصاب بالقروح التى تتعرض لشتى أنواع العدوى .. أما اذا كانت الإصابة جسيمة فإن الغازات الحارقة تخترق اللحم بعد الجلد .. فيهترىء اللحم وتظهر العظام ... ومرة أخرى ... لم تكن الخسائر كبيرة فى صفوف الأحباش فحسب .. ولكنها كانت قمة من قمم البشاعة التى تمارسها دولة متفوقة تكنولوجيا .. ضد مجموعة من التعساء الذين لا يملكون وسيلة للرد .. ولا وسيلة للوقاية من هذا السعير .

أما الحالة الثالثة .. فقد كانت فى الحرب اليابانية الصينية ١٩٣٧ - ١٩٤٢ عندما استخدم اليابانيون ضد الصينيين .. الغازات الحارقة التى استخدمها الايطاليون ضد الأحباش وأضافوا إليها فى هذه المرة .. غازات الأعصاب التى كانت تستخدم لأول مرة تقريبا فى ميادين القتال .

أما الحالة الرابعة .. فقد كانت من نصيب الولايات المتحدة الأمريكية ... حيث

استخدمت لأول مرة فى التاريخ نوعا جديدا تماما من أسلحة التدمير الشامل وهو القنابل الذرية ... حيث قامت قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية بالقاء قنبلتين إحداهما على مدينة هيروشيما والأخرى على مدينة نجازاكى .. وقد ترتب على استخدامهما محو المدينتين من الوجود بكل ما فيهما من منشآت.. وكائنات حية.

أما الحالة الخامسة .. فقد كانت من نصيب الولايات المتحدة الأمريكية أيضا ..عندما عادت مرة أخرى الى استخدام الغازات الحارقة وغازات الدم والأعصاب ضد المدنيين الفيتناميين.. مضافا إليها نوعا جديدا من الأسلحة الكيماوية هو المواد المبيدة للمزروعات بقصد حرمان الفيتناميين من مصدر الحياة والرزق ، ولم يقف الفيتناميون مكتوفى الأيدى ، فقد قاموا بالرد بأقصى ما تسمح به إمكانياتهم المحدودة ، وعلى سبيل المثال فقد قاموا باستخدام الفئران المحملة بالبراغيث الحاملة لعدوى الطاعون وقاموا باطلاقها داخل المعسكرات الأمريكية .. واستخدموا كذلك كل ما أمكنهم استخدامه من الزواحف والحشرات السامة أو الناقلة للأمراض مما يعد بدوره علامة وإن تكن بدائية من علامات تطور الحرب البيولوجية التى هى بدورها جزء من أسلحة التدمير الشامل ...

أسلحة فتاكة

وبوجه عام يمكن تقسيم أسلحة التدمير الشامل الى ثلاثة أنواع رئيسية هى الأسلحة النووية والأسلحة الكيماوية والأسلحة البيولوجية .

أما النوع الأول وهو الأسلحة النووية فهو يشمل القنابل الذرية بنوعيها (الاندماجية والانشطارية) .. وهى قنابل يترتب على استخدامها تدمير المنشآت وإبادة الكائنات الحية داخل دائرة معينة يتفاوت نصف قطرها تبعا لعيار القنبلة ، كما يشمل كذلك قنابل النيوترون التى يترتب على استخدامها قتل الكائنات الحية دون المساس بالمنشآت ويتفاوت تأثير قنبلة النيوترون تبعا لعيار القنبلة ، كما يدخل كذلك ضمن الأسلحة النووية استخدام المواد المشعة غير المتفجرة وهى ما يمكن تسميتها تجاوزا بالتراب الذرى ، والذى يترتب على استخدامه إلحاق أضرار صحية جسيمة لمن يتعرضون له قد تصل الى حد الموت فى بعض الحالات.

أما النوع الثانى فهو الأسلحة الكيماوية وهى مجموعات متباينة الانواع والآثار من المركبات والمواد ، أشهرها الغازات التى يتفاوت تأثيرها من مجرد إزعاج العدو وإرباك أفراده كما فى حالة الغازات المقيئة والمسيلة للدموع والمسببة للعطاس (الآدامسيت والكلوروأسيتوفينون والكلوروبنزيل) الى تلك الغازات التى يصل تأثيرها الى حد القتل - الجماعى غالبا - كما فى حالة الغازات الخانقة (الكلور والفوسيجين) التى استخدمها الألمان فى الحرب العالمية

الأولى كما ذكرنا، وكما فى حالة غازات الدم (الهيدروسيانيد وكلوريد السيانوجين) ، وكما فى-حالة غازات الأعصاب وهى غازات مضادة لأنزيم الكولين استيريز Anti-cholinesterase† حيث تقوم بهدم هذا الأنزيم داخل الجسم مما يؤدى الى ارتفاع نسبة الأسيتيل كولين وهو ما يترتب عليه شلل فى عضلة القلب وعضلات القفص الصدرى .ومن أشهر هذه الغازات ، الزارين والزومان والـ × ٧٠ الذى يكفى ملليجرام واحد منه ٠٠١ و من الجرام لقتل إنسان ، والذى يقال أن العراق يمتلك منه كمية تكفى نظريا لابادة العالم بأكمله ،ومن بين الغازات القاتلة كذلك الغازات الحارقة ومن بينها المسترد الكبريتى والمسترد النيتروجينى واللويزيت، مع ملاحظة أن الغازات الحارقة والتى يمكن استخدامها علي هيئة رذاذ ، تختلف عن القنابل الحارقة وأشهرها قنابل الثرميت ، كما تختلف عن النابالم الذى هو مزيج لزج غليظ القوام من الجازولين والمطاط وحامض الباليتيك، وكلا النوعين الأخيرين : قنابل الثرميت والنابالم قد استخدم بالفعل من جانب الولايات المتحدة في حرب فيتنام كما استخدم كذلك من جانب اسرائيل فى حرب ١٩٦٧، ١٩٧٣.

أما النوع الثالث من أسلحة التدمير الشامل فهو الأسلحة البيولوچية التى تتمثل أساساً فى الأمراض المعدية سواء كانت ناتجة عن البكتيريا أو الڤيروسات أو الركتسيا أو الفطريات أو غيرها من الكائنات الدقيقة، وأشهر الأمراض فى هذا المجال هو مرض الأنثراكس (الجمرة الخبيثة) والطاعون الذى تبلغ نسبة الوفاة فى حالة استخدامه ٥٠٪ من المصابين قد تنخفض إلى ١٠٪ فى حالة العلاج الجيد، كذلك فإن من أهم أنواع البكتيريا المستخدمة فى مجال الحرب البيولوچية بكتيريا الكلوستريديم بوتيولينم Clostridium Botulinm† وهو نوع من البكتيريا يفرز سموما ذات تأثير شبيه بتأثير غازات الأعصاب ، وإن كانت أكثر فتكا بكثير حيث تبلغ الجرعة القاتلة منها ٠٣, من الملليجرام فى حين أن الجرعة القاتلة من غاز الـ × ٧٠ هى ملليجرام كامل كما ذكرنا منذ قليل، ولهذا السبب فإن بعض الدول تقوم بتربية هذه البكتيريا فى مزارع خاصة لاستخلاص سمومها واستخدامها كغازات أعصاب مركزة بدلا من استخدام البكتيريا ذاتها فى تلويث أطعمة العدو ومصادر مياهه للشرب . ومن الطريف فى هذا المجال أن نذكر أن جانبا من مخزون الفسيخ المصرى الذى كان معداً للطرح فى الأسواق بمناسبة شم النسيم عام ١٩٩١ قد تعرض للتلوث بهذا النوع من البكتيريا النادر الوجود فى الطبيعة، وقد ترتب على هذا حدوث عدد كبير من حالات الوفاة للأشخاص الذين قاموا بتناول الفسيخ الملوث، وقد سارعت القوات الأمريكية الموجودة فى الخليج حينئذ بإرسال كمية كبيرة من الأمصال اللازمة لعلاج هذه الحالات وهو ما يعنى أن لديها مخزونا من الأمصال اللازمة لمواجهة حالات نادرة جداً من حالات

التلوث، وهو ما يثير عددا من علامات الاستفهام .. حول ما إذا كانت تحتفظ بهذا المخزون كإجراء وقائى عادى لمواجهة أى احتمال مهما كان ضئيلا .. أم أنها كانت تتوقع هجوماً بيولوجيا من العراق يستخدم فيه هذا النوع من البكتيريا . أم أنها هى ذاتها تحتفظ بمخزون من بكتيريا الكلوستريديم بوتيولينم وتخشى تسربه لأى سبب من الأسباب ومن ثم فهى تحتفظ بالمصل المضاد كإجراء وقائى...

فيروس الإيدز!

وفى هذا المجال فإن من الطريف أيضاً أن نذكر أن فيروس الإيدز الذى بدأ ظهوره فى الثمانينات من هذا القرن ما هو - فيما ذهبت إحدى النظريات التى تفسر ظهوره المفاجىء ، ما هو إلا فيروس تم تخليقه صناعياً داخل المعامل البيولوچية لإحدى الدول المتقدمة لكنه تسرب إلى خارج المعامل قبل أن يتم تطويره وجعله قابلاً للانتشار السريع.

وإذا استثنينا النوع الثانى من أسلحة التدمير الشامل، وهو الأسلحة الكيماوية فإن النوعين المتبقيين وهما الأسلحة النووية والبيولوچية لا يمكن استخدامهما من جانب دولة معينة ضد دولة مجاورة ضيقة المساحة، بل لابد من استخدامهما ضد دولة بعيدة نسبيا حتى لا تتعرض الدولة التى استخدمتهما لآثار هذا الاستخدام الذى سوف يمتد إليها بالضرورة.

فإذا عدنا إلى الأسلحة الكيماوية وهى النوع الوحيد من أسلحة التدمير الشامل الذى يمكن استخدامه ضد الدول المجاورة الضيقة المساحة، لوجدنا أن امتلاك دولة معينة لهذا النوع من الأسلحة لا يمثل فى حد ذاته خطراً جسيماً ضد الدول المجاورة إلا إذا توافرت بالإضافة إلى إرادة الاستخدام ثلاثة عناصر أخرى هى: وسائل الإطلاق (وهو ما تفتقر إليه العراق تماماً فى الوقت الراهن على الأقل) ثم المفاجأة الاستراتيجية (وهو الأمر الذى انتفى تماماً بالنسبة للعراق بعد كل هذا الضجيج والتخويف من خطر امتلاك العراق لأسلحة التدمير الشامل) ثم عدم توافر أجهزة الإنذار المبكر ومعدات الوقاية والتطهير لدى الدولة المستهدفة، ذلك أنه باستخدام ملاجئ الوقاية المجهزة ضد الهجمات الكيماوية فى حالة الانذار المبكر، أو استخدام معدات الوقاية الشخصية على المستوى الفردى وأهمها القناع الواقى فى حالة الانذار المتأخر نسبياً، يمكن توفير قدر كبير من الأمان للأفراد الذين يتعرضون للهجمات الكيماوية، كذلك فإنه باستخدام مواد التطهير للأفراد والمنشآت ومن أهمها مسحوق التبييض (وهو نفس المسحوق المستخدم فى محال تنظيف الملابس) وكذلك محلول المونوكلوراميد والداى كلوراميد، والداى كلورإيثان .. باستخدام هذه المواد المطهرة يمكن اختزال وتحجيم الأضرار الناتجة عن الهجمات الكيماوية إلى أدنى حد ممكن.

تنبؤات فوكوياما في مهب الريح !

بقلم : هالة عنارة (*)

اعتاد المفكر اليابانى الأصل فرانسيس فوكوياما أن يصدم القارىء بتحليلاته الغريبة ، وتنبؤاته المثيرة للجدل بين الحين والآخر ، فهو الذى أثار ما يسمى بنظرية نهاية التاريخ ، وهو الذى تنبأ بالمستقبل السياسى للمرأة ، باعتبار أن تزايد سلطات النساء السياسية فى دول الغرب سيجعل تلك الدول تجنح إلى السلم وتعارض الحرب ، لأن نوازع العنف والعدوان والمنافسة من طبائع الذكور فقط (١) .

وقد أثار مقاله المعنون «النساء وتطور السياسات الدولية» ردود فعل عديدة بين المفكرين والأدباء رجالا ونساء يبدون فيها اعتراضاتهم لمثل هذه الآراء التى تفتقر إلى الموضوعية والمنطق والحقيقة .

فقد أثارت «باربارا أهرينرايخ» اعتراضات على مثل هذه التنبؤات حيث ذكرت أنه رغم مخالفة الدليل الذى يسوقه فوكوياما على أن الذكور (من جنسنا ومن الأجناس الأخرى) أكثر ميلا للعنف من الإناث، للأساسيات وللتفسيرات الچينية للسلوك ، إلا أنه يوضح أن الذكور حقا أكثر ميلا للقتال والقتل والسلب والنهب والاغتصاب مقارنة بالإناث ، ولكن يظل السؤال يطرح نفسه : هل لهذا النزوع الذكورى الفطرى للعنف علاقة بموضوع الحرب والعلاقات الدولية والسياسية الذى يهم فوكوياما فى تحليلاته وتنبؤاته ؟

وتذكر«باربارا أهرينرايخ» - الكاتبة بصحف التايمز والجارديان ونيشن - أنه لو كان فوكوياما قد بذل جهدا أكثر قليلا فى القراءة فى موضوع «أنثروبولوچيا الحرب» حتى فى أعماق بعض العلماء

(*) بوكالة أنباء الشرق الأوسط

(١) راجع مقاله «النساء وتطور السياسات الدولية» بمجلة فورين أفيرز / سبتمبر - اكتوبر ١٩٩٨م وترجمته بمجلة الهلال / اكتوبر ١٩٩٨م .

الذين يوافق على آرائهم ويستشهد بهم ، لاكتشف أنه ليس هناك أساس كاف لحصر ينبوع الحرب في الغرائز العدوانية للرجال أو في أي غرائز أخرى في هذا الصدد . فالحرب ليست مشاجرة في بار اتسع نطاقها بل هي كما يصفها روبين فوكس واضع النظريات الاجتماعية «عملية جماعية معقدة منظمة بصورة دقيقة» لا يمكن تفسيرها بأي دافع فردي . ويصفها عالما الأنثروبولوجي «كليفتون كروبر» و«برنارد فونتانا» بأنها تختلف اختلافا كبيرا عن النزوع الفردي الفطري البيولوچي للعدوان وتحوله الى صراع جماعي مؤسساتي له طقوسه الخاصة وتقره المجتمعات .

وفي الواقع فإن شهية الذكور للمعارك كانت دائما أقل قوة مما يود قادة الجيوش أو واضعو نظريات الحرب الذين يميلون للتفسير البيولوچي . وفي المجتمعات التقليدية كان يتعين دائما ممارسة ضغوط شديدة على المحاربين أو دفعهم لاحتساء الخمور أو تحويلهم عن طريق طقوس معينة الى شبه حيوانات قبل دخول اى معركة . وعلى مدار التاريخ الغربي كان الرجال يرتكبون افعالا شبه انتحارية لتجنب المشاركة في الحروب . وكانت معدلات الفرار من الجيوش الاوروبية قبل عهد الجيوش الوطنية عالية لدرجة انه كان يحدث في أوقات معينة أن يختفي معظم افراد الجيش . وحتى في جيوش ديمقراطيات القرن العشرين التي يفترض وجود دوافع قوية لديها كان من الصعب بمكان على غالبية افراد تلك الجيوش اطلاق النار بصورة مباشرة على افراد جيش العدو .

وتمضي الكاتبة لتقول انه ليست هناك حاجة للجوء لغريزة العدوان لدى الذكور لتفسير احتكارهم شبه الكامل للحرب . فهناك سبب بيولوچي لذلك يكمن في قوة نصفهم الاعلى مما يمكنهم من حمل الاسلحة الثقيلة . ويكمن السبب الآخر في العوامل الثقافية لمعظم المجتمعات الانسانية حيث تنطوي طقوس الانتقال من مرحلة الصبا الى الرجولة على عنف وإراقة دماء .

أما في المجتمعات الراقية فإثبات الرجولة يتطلب قدرا معينا من الانضباط والتضحية بالنفس احيانا من اجل المجموعة وهو شيء تفعله الاناث ايضا في تلك المجتمعات .

وتمضي باربارا قائلة انه لا يمكن ايضا افتراض ابدية احتكار الذكور للحرب او شموليته كما يتخيل فوكوياما فقد احتوت مقابر تم الكشف عنها أخيرا في روسيا على رفات نساء محاربات من الالفية الثانية قبل الميلاد وقد دفنت معهن اسلحتهن وظهرت على هياكلهن آثار جراح تحدثها مثل تلك الاسلحة .

وبالرجوع للعصر الحجري القديم ، عندما كان الصيد هو الشكل الاساسي للعنف الانساني ، توافرت دلائل اثرية متزايدة على ان الصيد كان يتم بصورة جماعية تشارك فيها النساء بل والاطفال ايضا الأمر الذي يوضح مبالغة فوكوياما حين يقول ان الرجال (على خلاف النساء) قد نشأوا وتطوروا كصيادين ومقاتلين متعاونين . وتلقي اساطير الحضارات القديمة بدورها بظلال الشك على تأكيدات فوكوياما حيث كانت بعض الآلهة التي

عبدها البشر فى العصور القديمة من الاناث . وكانت الآلهة التى تم الكشف عنها بين اطلال حضارات البحر الأبيض المتوسط او اميركا الوسطى صيادات ومتعطشات لدماء القرابين يتمثلن فى صور الضوارى من الوحوش او تظهر تلك الضوارى برفقتهن . ولم يتم ترويض تلك الآلهة المرعبة الا فى فترات لاحقة عن طريق الزواج بآباء الجنس البشرى . وتوحي وحشية الآلهة الاناث فى العصور القديمة بأن الانوثة فى تلك العصور لم تكن ترتبط بالرقة ولا كانت الذكورة ترتبط بالعنف ، كما بدا الامر فى العصر الحديث .

وأيا كان التراث الانسانى للنساء فى مرحلة ما قبل التاريخ فقد أبدت النساء على مدى القرنين الماضيين قدرة على العنف الجماعى ، ولعبن دورا رائدا فى العنف المدنى مثلما حدث فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ابان ثورة الخبز والانتفاضات الثورية حيث ذاع انهن كن الأكثر عنفا ووحشية . وفى الحرب العالمية الثانية استخدم الجيش السوڤييتى النساء كطيارات مقاتلات وفى المعارك البرية ايضا . ومنذ ذلك الحين شاركت النساء كإرهابيات وعضوات فى حروب العصابات خلال حروب التحرر الوطنى، وأثبتت النساء انهن لسن اقل من الرجال من حيث الروح الحربية القومية، ومثال ذلك الزعيمة النسائية سيلڤيا بانكهيرست التى تخلت مؤقتا عن النضال من اجل حق الاقتراع للنساء لحشد التأييد الانجليزى للحرب العالمية الأولى بإكراه الرجال على الانضمام للجيوش عن طريق اشعارهم بالاثم لو لم يفعلوا ذلك .

ويسلم فوكوياما بأن من بين رؤساء الحكومات تعد مارجريت تاتشر استثناء من تصنيفه للأجناس ولكنه يتجاهل امثلة عديدة من الذكور مثل أولوف بالمه وڤيلى برانت الاشتراكيين الديمقراطيين المناهضين للنزعة العسكرية كما انه لم يتطرق اطلاقا لذكر اعظم الزعماء الداعين للسياسات السلمية فى القرن العشرين مثل مارتن لوثر كنج والمهاتما غاندى . ولكن ربما سلم فوكوياما بكل ما سبق لأنه لم يستفد فى النهاية من مزاعمه المريبة عن العدوانية الكامنة فى الرجال والنساء . وفى نهاية مقاله الذى تحدث فيه عن وجود النساء فى الجيش انصب اعتراض فوكوياما على الجنس كمحارية وليس كفئة من البشر مما دعاه لاقتراح الفصل بين الرجال والنساء فى وحدات القتال . أما بالنسبة للزعامة السياسية فقد انصب اهتمام فوكوياما على ضرورة انتهاج سياسات تتسم بالرجولة رغم انه يرى ضرورة ان يكون الزعماء انفسهم من الرجال .

واختتمت باربارا أهرينرايخ تعليقها قائلة : (إنه اذا كان فوكوياما قد خلص لأن أياً من الجنسين يمكن ان يتصدى «برجولة» تثير الاعجاب او المقت) فما معنى مقالته المطولة عن عنف الذكور من الانسان والحيوان ؟!

★★★

وعلقت كاثا بوليت مؤلفة مخلوقات عاقلة فى مقالات عن «النساء والحركة

النسائية» – والتى تعمل فى صحيفة نيشن – على تحذير فوكوياما من ان يكون هذا النزوع النسائى للسلام مصدر خطر على الغرب بحجة انه يتم فى اجزاء أخرى من الارض قتل الفتيات الصغيرات واجهاض الأجنة من الاناث لتصبح الغلبة فى تلك المجتمعات للذكورة وتصبح أكثر ميلا للقتال ، قائلة ان فوكوياما فى محاولته لتصوير الرجال على أنهم المصدر الرئيسى للعنف الانسانى يأخذ من نظريات النشوء والتطور ما يخدم غرضه ويتجاهل أجزاء أخرى منها ويناقض نفسه بالسخرية من زعيمات الحركة النسائية اللاتى يحلمن بأن يصبح الرجال اكثر انسانية بينما يتخيل فى الوقت ذاته ان يترك هؤلاء الرجال الذين لا يمكن اصلاحهم النساء ببساطة يوجهن سفينة الدولة الى المياه الهادئة . ويتصور ان تتم فى المستقبل الممارسات الحركية التى تناسب رؤيته ولا يعترف بإمكانية تغيير تلك الممارسات .

وتقول كاثا إن كل ما يقوله فوكوياما خاطىء وكان ينبغى التزام الحذر فيما قاله من ان العلماء اكتشفوا الجذور الچينية للسلوك الانسانى لأنه لم يتم فى الواقع اكتشاف چين واحد يحدد السلوك الاجتماعى للبشر ولم يتسن حتى الآن الربط بين أنواع من السلوك الانسانى مثل العنف او المنافسة وكروموزومات معينة . ورغم الترويج الاعلامى لنظريات علماء النفس عن التطور الانسانى وربط السلوك بالچينات فإن علماء آخرين يبنون دراساتهم على حقائق بيولوچية وليس على ايديولوچيات يؤكدون ان الچيّنات لا تحدد السلوك ولكن فوكوياما ينتقى من النظريات ما يوافق هدفه ويتجاهل تماما من يقول بنظرية تعارض رأيه .

وترد على زعم فوكوياما بأن منح مزيد من السلطة السياسية للنساء سيعنى مزيدا من السلم قائلة ان النساء يشاركن فى قتل الاطفال ، وبتر وتشويه الاعضاء الجنسية للفتيات الصغيرات ، ويمارسن الاستبداد على بناتهن وزوجات ابنائهن والخدم والعبيد ، كما كان للنساء على مر التاريخ دور بارز ومتعاون فى المجتمعات التى كانت تعلى شأن الحرب والقسوة . وكان لنساء اسبرطة وروما شهرة بوصفهن يتسمن بشجاعة الرجال . وفيما يتعلق بالعنف المنظم الذى تمارسه الدول من حروب وعمليات اعدام وعبودية ومعسكرات اعتقال فلم يظهر جنوح النساء للسلم الا فى العصر الحديث .

اما فيما يتعلق بزعم فوكوياما بأن الميل للمنافسة من اجل الوضع الاجتماعى صفة ذكورية فإن الفتيات والنساء لا يضربن بعضهن البعض بقدر ما يفعل الذكور ، ولكنهن يتنافسن بالتأكيد على الوضع الاجتماعى من خلال الملابس ، والنقود ، والاصدقاء ، والشعبية ، والجاذبية ، وإلحاق الاطفال بالمدارس الفاخرة .

ويعترف فوكوياما بأن الچينات التى تمثل السمات المرتبطة بكلا الجنسين كثيرا ما تتداخل ليناقض بذلك زعمه بأن الرجال ميالون للعنف والتنافس بينما لا تميل لهما النساء .

وفى الخطأ الثانى يقول فوكوياما ان الصفات الفردية تحدد سلوك الدولة حيث يرى ان الحرب هى عنف شخصى يتسع نطاقه بتضاعف عدد المشاركين فيه ؛ فلم تتم الحرب العالمية الثانية لأن بعض الشباب المتهورين اجتمعوا وقرروا غزو بولندا . فالحرب وفظائعها امر يرتبه القادة الذين يكونون من الرجال عادة، لكن هؤلاء الرجال يكونون عادة من كبار السن الذين لا يميلون للعنف . واذا كانت الحرب تروق للرجال كما يقول فوكوياما فلماذا تلجأ الجيوش الحديثة لاستخدام المجندات ؟.

وتؤكد كاثا ان الحرب والسياسة الخارجية لا تتم بقرار من الناخبين كما يزعم فوكوياما . وزعم كذلك ان النساء يعارضن الحرب اكثر من الرجال الا ان الناخبين الرجال اختاروا ويلسون رئيسا لأن شعاره كان البعد عن الحرب . وفى عام ١٩٦٤ اختار الناخبون جونسون الذى لم يرغب فى الحرب ورفضوا خصمه بارى جولد ووتر الذى كان يدعو لها . ولم تلق العمليات الحربية التى جرت فى بناما والصومال والخليج العربى والسودان او المغامرات السرية مثل تأييد الكونترا قبولا لدى الناخبين فالسلطة السياسية ليست مسألة اقتراع او رأى عام بل يتم التأثير على الرأى العام بعد اتخاذ السلطات السياسية لقرار الحرب . ومن المرجح بعد تزايد انغماس النساء فى السياسة أن تتغلب عوامل أخرى على نزوعهن لرفض الحرب وذلك بفضل ادراكهن للمصالح الوطنية وغير ذلك من الأسباب .

★★★

وتشارك ر. برايان فيرچسون - أستاذة الانثروبولوچى المساعدة فى جامعة روتجرز - أهرينرايخ وبوليت رأيهما قائلة إن فوكوياما ارتكب العديد من الاخطاء فى سياق محاولته لاثبات أن الصراعات فى العالم لها أساس بيولوچى. وتقول إن فوكوياما يأخذ جانبا واحدا من الحقيقة ويرفض الجانب الآخر. إن موقفه خطير فيما يخص الصلة بين العنف والجنس والعمر. وتستشهد فيرچسون بدراسة جرت فى عام ١٩٩٣ على أن الفرق بين الاناث والذكور لا يذكر من ناحية الميل إلى العدوان أو تكراره عندما تتم ازالة مسبباته ، وتقول إنه فى المجتمعات القبلية يكلف الرجال بالحرب بسبب قوتهم بينما تكلف النساء بمهام تتماشى مع الحمل وتربية الأطفال . ويتولى الرجال فى القبائل أعمال التجارة التى تحتاج لقطع مسافات طويلة ومع ذلك لم يزعم أحد أن الرجال لديهم چين يجعلهم أفضل فى التسوق .

وتختتم ردها على فوكوياما قائلة إن الحروب والصراعات الأخيرة فى العالم وقعت فى ظروف سياسية معقدة ومتشابكة تأثرت بالقوى المحلية والعالمية لكن فوكوياما يستبدل بهذا الفهم مناقشة فجة لسلوك الشمپانزى والميول البيولوچية والعدوانية عند الشباب .

★★★

وينضم ليونيل تايجر استاذ الانثروبيولوچى فى جامعة روتجرز لفريق الرد على فوكوياما قائلا إن من السمات المهمة فى مقال فوكوياما أنه اعترف بأنه

مخطئ بتأكيده على التمييز الغريب بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . وقد أصبح واضحا الآن أن البشر يخضعون للقواعد نفسها التى تخضع لها الأنواع الأخرى من الكائنات . وهكذا فإنه لا ينبغى إجراء الدراسات الخاصة بالبشر بمعزل عن الدراسات حول الكائنات الأخرى .

ورغم تكهن فوكوياما بأن التغيرات فى تشكيل أجناس القيادة ستؤدى لتغييرات سياسية معقولة ظاهريا ، وتظل الصورة مستندة إلى الحدس أكثر من أى شئ آخر. فليس هناك دليل قائم على التجربة العملية على نطاق واسع ، أو على دراسة طويلة لمجتمعات أنشأتها وأدارتها النساء أو مثلن الغالبية فيها . ومن الممكن ، وإن لم يكن من المرجح ، أن يؤدى تزايد نفوذ النساء إلى تفضيل الذكور للحرب بدرجة أكبر أو إلى ممارستهم للعنف ضد الاناث. وقد لا ترغب النساء فى خوض نضال من أجل وضع ضوابط اجتماعية .

★★★

وجاء الرد الأخير من جانيت جاكيت استاذة السياسة والدبلوماسية والشئون الدولية فى كلية أوكسيدينتال التى قالت إن فوكوياما لا يقيم وزنا كبيرا لديناميات نظام الدولة لدى الرجال ولكنها فى السياسة الحقيقية تبدأ بسبب حاجة الدولة للدفاع عن نفسها ضد تهديد خارجي. فالحرب لا تأتى للبشر بصورة طبيعة بل ينبغى تدريب الرجال على القتال وقتل الآخرين كما يجب تعليم الوطنية لكل الناس .

وتضيف جانيت قائلة إن النساء كما يشير فوكوياما أكثر ميلا للسلام وأقل ميلا للحرب، ويفضلن إجراء المفاوضات على استخدام القوة . لكنهن يمكن أن يصبحن أكثر عدوانية من الرجال . وعندما يسمح لهن بحمل السلاح يكن فى الغالب مقاتلات شرسات كما ثبت فى حالة المقاتلات فى حروب العصابات فى أمريكا الوسطى وأمريكا والجنوبية . واليوم يتلقى العديد من النساء تدريبا عسكريا ويمارسن الضغوط للذهاب للقتال ليس لإرضاء رغبة فى القتل بل لإحراز النجاح فى العمل العسكرى الذى يتطلب اثبات الذات فى أرض المعركة .

وترد أستاذة السياسة والدبلوماسية على قول فوكوياما إن ازدياد عدد الزعامات النسائية سيعنى مزيدا من السلام قائلة إن الزعيمات من النساء يتعرضن للضغوط نفسها التى يتعرض لها الزعماء من الرجال . وفى مقابل زعيمات مثل جروهارلم برونتلاند ومارى روبنسون جعلن من السلام هدفا أساسيا لهن، توجد زعيمات مثل انديرا غاندى أو مارجريت تاتشر استخدمن القوة لتحقيق أهداف سياسة بلادهما فى الخارج والداخل . ولكن ربما اضطرت هؤلاء الزعيمات لاتخاذ مواقف الرجال لقلة عدد الزعيمات ولو زاد عددهن أو أصبحت للقانون الدولى الغلبة على سياسة الدول لقل التنافس بين الدول وزاد التعاون فيما بينها لتتركز الأضواء على القضايا الاجتماعية والمنظمات التى تلعب فيها المرأة فعلا دورا مهما . وعندما تصبح لاهتمامات النساء التقليدية الأولوية الأولى فسوف يزداد نفوذهن فى السياسة الخارجية .

عبدالناصر والموضوعية الغائبة

بقلم : د. فكرى أندراوس

كونيكتيكت - الولايات المتحدة

هناك فارق كبير بين محاولة نقد عهد جمال عبدالناصر، فهذا واجب، وبين تشويه صورة جمال عبدالناصر . إن محاولة تشويه صورة جمال عبدالناصر ما هى إلا محاولة لتشويه حلم وأمانى الشعوب العربية. لقد أخطأ ذلك الزعيم وقد أخطأ كثيرا. ولكن الحلم كان حلمنا والأمانى كانت أمانينا والمسئولية كانت مسئوليتنا.

إننا نعيش الآن بلا حلم !!

وهذه مأساة ..

فكرت منذ فترة أن أنظم مؤتمرا بمناسبة مرور عشرين عاما على وفاة جمال عبدالناصر لمناقشة وتحليل بعض ظروف وقرارات ذلك العصر. وقد كان فى نيتى دعوة بعض أساتذة الجامعات المتخصصين فى تلك الفترة وبعض السياسيين والصحفيين من عرب وأمريكان. وعندما عرضت تلك الفكرة على البعض كان رد الفعل عنيفا ما بين التشجيع والرفض. وقد كنت أعتقد أنه من الممكن لمجموعة من العرب المصريين أن تناقش تلك الفترة نقاشا موضوعيا وأن نحاول أن نحكم على سلامة ما حاول ذلك العصر أن ينجز وعلى خلفية الظروف التى أدت إلى اتخاذ بعض القرارات المهمة.

وقد وجدت ، للأسف ، أن أغلب العرب المصريين إما عاشقون لهذا الزعيم لا يعترفون بأى خطأ ارتكب فى عصره، أو كان هو مسئولا عنه.. فقد كان عبدالناصر ومازال عند البعض «نبى عصره» .. أما البعض الآخر فهم كارهون للرجل أشد الكره، يعتقدون أنه شيطان رجيم، ما اقترب من شىء إلا دمره أو بعث فيه الفساد، فقد كان عبدالناصر ومازال عند



«زعيم حقق أعظم الانتصارات ولحقت به أشد النكبات»

أنتونى ناتنج
وزير الدولة البريطانى
خلال أزمة السويس

البعض الآخر «هتلر العرب».

وظاهرة الاستقطاب هذه تستحق الدراسة فى حد ذاتها، فالرجل قد رحل وقد أصاب فى أشياء وأخطأ فى أشياء أخرى .. وجزء مهم من أحداث تلك الفترة كان من الطبيعى أن يحدث بصرف النظر عن وجه وشخصية الحكومة المصرية فى تلك الفترة. وقد عاش جيلنا هذا فى فترة حكم جمال عبدالناصر وقد أعجبنا به أو كرهناه لأسباب قوية وقطعا سنكون إلى حد ما منحازين فى حكمنا عن تلك الفترة ولكن هذا لا يعنى أن تكون رؤيتنا مقصورة على السيئات فقط أو الحسنات فقط فتلك فى رأيى مراهقة فكرية يجب أن نتخطاها.

وما هو سر هذا التقديس أو هذه الكراهية الشديدة لعبدالناصر والتى تصل بالبعض لما يشبه التعصب الدينى والذى يستحيل معه أى حوار فالمسألة قد أصبحت عند البعض إيمانا ، والإيمان لا يعترف بالمنطق! إنى أعتقد أن هذا التعصب لايعود إلى مجرد نجاح أو فشل جمال عبدالناصر وعصره رغم أن إنجازات ذلك العصر وفشله كان كلاهما

عظيما. تلك الظاهرة مرتبطة بشخصيتنا الاجتماعية وتاريخنا الطويل. لقد عشنا في مصر لقرون طويلة يحكمنا أو يستعبدنا حكام غرباء أو فاسدون . لقد عشنا طويلا منتظرين ذلك المهدى «المهدى المنتظر» الذى سيحررنا من العبودية ويحل كل مشاكلنا ويحكم بيننا بالعدل ليسود الرضا والرخاء بين جميع العباد. وماذا لو فشل ذلك المهدى فى تحقيق أحلامنا؟ إما أننا لانعترف بالفشل، أو ندعي أنه لم يكن المهدى المنتظر بل كان المسيح الدجال وستضيع الحقيقة بين تعصب الفريقين .

ظاهرة صناعة الآلهة هذه، صناعة مصرية قديمة مازالت تعيش بيننا وفى داخل كل منا.. إنك لو نظرت إلى مصر من شمالها إلى جنوبها لوجدت مئات بل ألوف المشايخ والقديسين لكل منهم احتفالات سنوية «مولد» ومقامات ونذور وكرامات.. إلخ . تلك الظاهرة خارجة عن الإسلام فالسعودية العربية تكاد تكون خالية من أمثال هؤلاء المشايخ. وقد دفن الرسول وأصحابه فى قبور غير مميزة!! أما عن المسيحية، فتعترف بالقديسين، المسيحية الأولى وهى الكاثوليكية والأرثوذكسية، أما المسيحية الحديثة وهى البروتستنتية ومشتقاتها فقد تخلصت من القديسين. تلك الظاهرة «صناعة الآلهة وأنصاف الآلهة» اكتسبها الشعب المصرى من العصر الفرعونى وهم الذين أدخلوها فى المسيحية والإسلام.

هؤلاء المشايخ والقديسون لاشك فى أن بعضهم أناس طيبون أو فلاسفة فى بساطتهم وعلى طريقتهم الخاصة ولكنهم جميعا بشر مثلنا رفعناهم نحن لظروف معينة إلى مستوى الآلهة وأنصاف الآلهة، إن أغلب المشايخ والقديسين أناس عاديون بل إن بعضهم، إن لم يكن الكثيرون منهم، مخبولون أو شبه مخبولين. أتذكر عندما كنت أعمل بوزارة الزراعة بمصر وكان عملى يقتضى التنقل بين بعض المراكز والقرى لمتابعة سير الاعمال، وذات يوم وأنا فى أحد الأتوبيسات بين القوصية وديروط بمحافظة أسيوط وإذا بسائق الأتوبيس يتوقف فى مكان وينزل من الأتوبيس ويتجه إلي شجرة كافور كبيرة. وكان يجلس على فرع كبير من فروع الشجرة رجل يرتدى جلبابا أبيض. ويتجه السائق إلي الرجل ويذكر له بضع كلمات ويتلمس أقدامه للتبرك والرجل يبدو شاردا غائبا عما حوله وعلى شفتيه ابتسامة غريبة. ويكرر بعض ركاب الأتوبيس ما فعل السائق وبعد قليل يعود الموكب الصغير إلى الأتوبيس ونستأنف باقى رحلتنا. وخلال باقى الرحلة كثر الكلام عن كرامات رجل الشجرة ومعجزاته وأسباب اختياره لتلك الشجرة بالذات!! لقد كان ذلك منذ زمن يبدو بعيدا. وأنا لا أستبعد أن يكون الآن لرجل الشجرة ذلك مقام ومزار ومولد سنوى وبمرور الوقت، وربما بعد مائة سنة ،سيزيد عدد كرامات رجل

الشجرة وقد يصبح له مولد كبير اسمه «مولد سيدى أبو شجرة». وهكذا نصنع مع الكثير من مشايخنا وقديسينا.

وظاهرة صناعة الآلهة هذه ليست مقصورة على رجال الدين بل قد تمتد أحيانا إلي بعض الحكام والقادة والزعماء. لقد كان جمال عبدالناصر المهدى المنتظر فى عصره.

وبنفس الطريقة نؤله زعماءنا ونعتقد أنهم قادرون على عمل المعجزات بصرف النظر عن إمكانياتنا المادية والحضارية والإنسانية وبدون مراعاة للظروف الإقليمية والدولية. فإذا نظرت إلى ما كتبه بعض شعرائنا وكتابنا لوجدت أنهم ارتفعوا بجمال عبدالناصر إلى مستوى أنصاف الآلهة والأنبياء. نشيد «أنا الشعب» الذى ألفه الأستاذ كامل الشناوى وغنته أم كلثوم فى أحد أعياد الثورة يقول :

على باب مصر، تدق الأكف،
ويعلو الضجيج
جبال تدور ، رياح تثور، بحار تهيج
وتصغى ! وتصغى !
فتسمع بين الفجيج سؤالا وأى سؤال!!
وتسمع
فتسمع بين الضجيج سؤالا وأي سؤال!!
أين؟ ومن ؟
وكيف إذن ؟
نعم .. كيف أصبح هذا الجلال
بأقصى مداه
.. حقيقة شعب
غزاه الطغاة وأى طغاة !
أمعجزة مالها أنبياء ؟!
أدورة أرض بغير فضاء ؟!

وتقول بعض أجزاء تلك القصيدة

فمن عصر مينا إلي عصر عمر
ومن عصر عمر لعصر جمال

* * *

فموسى تشق عصاه الزحام
وذلك عيسى عليه السلام
وهذا محمد خير الأنام

★★★

وأنت هنا ترى مساواة بين مينا أول الفراعنة العظام وبين عمر بن الخطاب أعظم الخلفاء الراشدين وأعدل من حكم المسلمين وبين جمال عبدالناصر!! وأنت أيضا ترى ذكر موسى وعيسى ومحمد فى نفس المجال!! وأنا أعتقد أن الاستاذ كامل الشناوى وأم كلثوم قد عبرا عن الشعب المصرى والعربى فى تلك القصيدة ولم يكونا منافقين أو مغرضين.

وإذا أردت مثالا آخر أكثر وضوحا فإليك ما كتب الشاعر نزار قبانى بمناسبة وفاة عبدالناصر:

قتلناك .. يا آخر الأنبياء.
قتلناك ..
ليس جديدا علينا
اغتيال الصحابة والأولياء
فكم من رسول قتلنا..
وكم من إمام ..
ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء
فتاريخنا كله محنة

وأيامنا كلها كربلاء..

والقصيدة طويلة وتقول بعض أجزائها:

لماذا قبلت المجيء إلينا..
فمثلك كان كثيرا علينا..

★★★

لماذا ظهرت بأرض النفاق ..
لما ظهرت ؟

★★★

فليتك فى أرضنا ما ظهرت..
وليتك كنت نبى سوانا..

★★★

تركناك فى شمس سيناء وحدك..
تكلم ربك فى الطور وحدك

★★★

فمن كفروك ..
ومن خونوك ..
ومن صلبوك بباب دمشق..

ومساواة جمال عبدالناصر بالأنبياء فى تلك القصيدة لا مجال للشك فيه. وقد كتب نزار قبانى تلك القصيدة معبرا عن الكثير من العرب ولم يكن منافقا أو أجيرا بل على العكس من ذلك فإن نزارا يعد من أكثر شعرائنا نقداً للحاكم (اقرأ مجلة «بالعربى» العدد الرابع)، ومع ذلك وضع عبدالناصر فى موضع الأنبياء.

وسأكتفى بالمثالين السابقين وإن كان هناك كثيرون آخرون ألهوا جمال عبدالناصر بأشعارهم. أما إذا أردت أن تحصى ما كتبه الكثيرون من كتابنا اللامعين فى مقالات وقصص تؤله وتؤيد عبدالناصر تأييدا يكاد يكون مطلقا فإنك ستحتاج لمجلدات كثيرة. وأنا سأسرد لك ثلاثة أمثلة قصيرة إن كنت قد نسيت ما كان يكتب من تأييد لعبدالناصر.

تحت عنوان «لماذا سأنتخب عبدالناصر؟» كتب مصطفى أمين :

«سأنتخبه باسم الشعب لأن صوت الشعب من صوت الله، ومن كان الشعب معه فالنصر له ، سأنتخبه لأنه لم يصعد فوق الحراب، إنما ارتفع فوق القلوب، سأنتخبه لأنه كلما سما إلى المجد اقترب من الله، سأنتخبه لأنه يؤمن بحكم الشعب بالديمقراطية السليمة، ويمقت الديكتاتورية العسكرية».

وتحت عنوان «كل شىء حولنا من صنعه» كتب موسى صبرى:

«كل شىء حولنا من صنع عبدالناصر ووحى عبدالناصر وفكر عبدالناصر وعرق عبدالناصر، إن التاريخ لن يقيم عبدالناصر كحاكم لشعب أو منطقة، إن التاريخ قد وضع عبدالناصر فعلا فى موضعه ، لأن عبدالناصر هو الذى غير أوضاع التاريخ ، وصانع التاريخ لايختفى والتاريخ الذى صنعه هو جذور فى حاضر سترتفع وتثمر وتنبع إلى مستقبل بعيد على مدى جيل بعد جيل فى أرضنا العربية من محيط إلى خليج.

لقد ارتبطت الأمة العربية بقيادة عبدالناصر لأنها رأت مستقبلها فى تحقيق

مبادئه من أجل إنسانية الإنسان».

وتحت عنوان «الواجهة الشريفة!» كتب أنيس منصور :

«لقد كبر الشعب كله مع جمال عبدالناصر، لم يكن للناس حساب، لم يكن للكرامة الإنسانية وزن، أصبح لها وزن، لم يكن من حق أحد أن يتكلم عن الحق، أصبح من حق كل إنسان أن يناقش الحق والعدل والوحدة والتضامن والتماسك فى الداخل والخارج ولم يكن هذا الوطن ملكا لكل أهله ، أصبح ملكا للجميع.

وكان عبدالناصر واجهة شريفة مشرفة لمصر وللعالم العربى، وكانت مصر صغيرة أصبحت كبيرة، وكانت واحدة في الدول جعلها قاعدة للحرية ومطاراً للثورات، وحصنا أمينا لكل صاحب رأى أو صاحب فلسفة، فمن دخلها فهو آمن على نفسه وعلى رأسه».

وإن أدرت المزيد من الأمثلة فيمكنك أن تقرأ «عبدالناصر المفترى عليه» بقلم حسين كروم أو «عبدالناصر بين يدى التاريخ» بقلم أنور سعيد.

وهكذا فأنت ترى هؤلاء الشعراء والكتاب قد ساهموا فى تكوين عبدالناصر وعهده وأن عبدالناصر لم يأت من الفراغ ولم يعمل فى فراغ، بل أيده الكثيرون من أصحاب الرأى .. هناك من عارض معارضة أمينة ومخلصة وهؤلاء كانوا قلة وبالأسف أجهضت. وهناك من عارض وكان أجيرا أو مغرضا وهذا الصنف من الناس لم يعارض إلا من خارج مصر. لقد كان بعض كتابنا صادقين في شعورهم وكان البعض الآخر منافقين (أو عايزين ياكلوا عيش). إنى أعتقد أن الصحافة المصرية فى عهد عبدالناصر موضوع يستحق البحث والتحليل والنقد الذاتى إن كنا جادين فى تطوير الصحافة المصرية والعربية. إن الصحافة مرآة لنظام الحكم ومرآة للديمقراطية.

لقد قدست وألهت الشعوب العربية من جانبها جمال عبدالناصر. وليس أدل على ذلك من رفضها استقالته سنة ١٩٦٧ بعد الفشل الذريع فى حرب ٥ يونيو. وقد خرجت الملايين المصرية والعربية تلقائيا إلى الشوارع رافضة تلك الاستقالة !! وعندما توفى جمال عبدالناصر خرجت الملايين المصرية والعربية تلقائيا مرة أخرى إلى الشوارع فى مظاهرة جنائزية لم ير العالم لها مثيلا.

لقد كان جمال عبدالناصر رمزا لكفاح وأحلام وأمانى الشعوب العربية.وفى نظير ذلك تغاضت عن كل أخطائه أو كانت غير قادرة على رؤية تلك الأخطاء أو هل يخطىء الأنبياء؟ لقد كان عبدالناصر ومازال يستمتع فى رأيى برصيد طيب بين الشعوب العربية وخاصة الفقيرة منها. ولكن الأمانى والأحلام وإن كانت ضرورية لتحقيق الأهداف الكبيرة إلا أن أحلام الشعوب تحتاج لتكامل علمى واقتصادى وثقافى وظروف عالمية وإقليمية مواتية لتحقيق تلك الأحلام. هذا طبعا بجانب القيادة الواعية والمواطن القوى القادر على اتخاذ القرار السليم وتحمل المسئولية. ومع ذلك فإن أحلام الشعوب غير قابلة للتحقيق طبقا لجداول زمنية ثابتة.

إن وجود الحلم يعطي معنى لكفاح الشعوب . قد تتعثر مرة أو مرات ولكننا لو تعلمنا من أخطائنا وعرف العرب وضعهم وإمكانياتهم في عالم اليوم لاستطعنا تحويل الحلم إلى حقيقة. إن من لايتعلم من التاريخ محكوم عليه بإعادة أخطائه. ومن هنا كانت أهمية تقييم فترة جمال عبدالناصر الغنية بتجربتها والمليئة بالمتناقضات.

عمل حاجات معجزة ..
وحاجات كتير خابت ..

الشاعر أحمد فؤاد نجم

ماذا حدث لهذا الزعيم الأسطوري والذي كانت عنده قدرة فائقة على تحريك الشارع العربي وبلورة الأحلام؟ ماذا نجح عهد عبدالناصر في انجازه ولماذا؟ وماذا فشل ذلك العصر في انجازه ولماذا؟ وعلى من تقع المسئولية؟

هناك طبعا أمثلة قليلة قد يكون فيها مثال النجاح او الفشل واضحا.. فمثلا اعلان الجمهورية المصرية وتأميم قناة السويس وبناء السد العالي أمثلة لنجاح ذلك العصر.. اما غياب الديمقراطية، واستنزاف الكثير من طاقة مصر لبناء جيش جرار غير صالح للقتال بل كان صالحا فقط في الاستعراضات العسكرية، وكذلك تغلغل العسكريين في القيادات المدنية والفنية أمثلة واضحة للفشل،. وفيما عدا ذلك فإن النجاح والفشل في حياة الشعوب يحتاج غالبا الى تحليل عميق والى استدلال بالأرقام. فمثلا ليس من السهل أن نقيم السياسة الزراعية في عصر عبدالناصر دون أن نتحدث عن الفلاح الذى كان معدما ودون أن نتحدث عن السد العالى وامكانياته ومشاكله ودون أن نتحدث عن محاولة ميكنة الزراعة ودون أن نتحدث عن تقديم خدمات اجتماعية وصحية للفلاح وبدون أن نتحدث ايضا عن زيادة تعداد السكان وزيادة الاستهلاك.. وهكذا . وهذا أيضا ينطبق على الصناعة وظروفها الأكثر تعقيدا وحلم مصر الكبير منذ عصر محمد على. كيف كان متاحا لمصر أن تصنع نفسها؟ وهل كان ممكنا لمصر أن تصنع نفسها بدون تدخل الحكومة؟ وهل كان القطاع العام من حيث المبدأ خطأ أم صواب؟ وما الدور الذى لعبه الانسان المصرى فى نجاح او فشل محاولة التصنيع؟ إن تقييم تلك الأعمال عملية معقدة وتحتاج لكثير من المعلومات والبحث والتنقيب واعتقد أن القليل من العمل الجاد منشور أما أغلب ما ينشر فهو إما لتأليه عبدالناصر أو لتحطيم اسطورته. وياليت الجامعات المصرية والعربية تتولى تقييم بعض تلك الأعمال بأمانة علمية حتى لا نعيد نفس الأخطاء فى المستقبل.

واذا كنا حقا جادين ومنصفين فى تقييمنا لحكم عبدالناصر فيجب أن نسأل ماذا كنا نتوقع أن ينجز حكم عبدالناصر؟ لقد ابتدأت الثورة وقادها عبدالناصر وكان

عمره ٣٤ سنة.. وقد التف أغلب الشعب حول الثورة وايدها ولكننا أخطأنا حين سمحنا للثورة أن تكون ديكتاتورية وقد ابتدأ ذلك مبكرا سنة ١٩٥٤ حين فصل حوالى خمسين من اساتذة الجامعات خلاف بعض الصحفيين فصلا تعسفيا لمجرد أن البعض كان معارضا لأوضاع معينة هذا طبعا خلاف حركة التطهير.. وهل كان حقا ممكنا لنظام عسكرى قيادة شباب يملؤهم الطموح ألا يصبح نظامهم نظاما ديكتاتوريا؟ وربما كان من سوء حظنا ومن سوء حظ جمال عبدالناصر ذلك النجاح الكبير الذى حققه ما بين ١٩٥٤ و١٩٥٨ حين اندلعت ثورات التحرير العربية تجاوبا معه وحين خرج الانجليز من مصر وحين نجح فى تأميم قناة السويس وحين وقف العالم بجانبنا فى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ وحين توحدت مصر وسوريا . وذلك النجاح المبكر شكل ملامح حكم جمال عبدالناصر وشخصيته وعلاقاته بالآخرين.

إنى أعتقد أن ما يجب طرحه للنقاش هو: على من تقع مسئولية عصر عبدالناصر من نجاح وفشل؟ وما هو دور الشعب فى تحمل المسئولية؟ إن من السهولة أن نحمل جمال عبدالناصر وحده تبعية النجاح والفشل. إن عبدالناصر لم يأت من فراغ ولم يعمل فى فراغ بل تعاون معه وأيده الكثير منا فى أغلب القرارات المهمة. كل منا كان مسئولا على حسب موقعه فالوزير مسئول ووكيل الوزارة مسئول والمدير مسئول والعسكرى مسئول.. عبء كبير من المسئولية يقع على كتابنا ومثقفينا وفنانينا. الكاتب هو عين الشعب والفنان يعبر عن الشعب. كلنا مسئولون عدا قلة عارضت لمصلحة البلد وتلك إما اسكتت بالقوة أو فضلت الخروج من المسرح بكرامتها .. ويجب أيضا أن نستثنى الطبقة المعدمة من المسئولية فتلك الطبقة إمكانياتها ضئيلة. لقد كان جمال عبدالناصر المسئول الأول ولكنه لم يكن المسئول الأوحد.

لقد كان من الممكن تلافى بعض الأخطاء التى حدثت فى عصر عبدالناصر لو أن عبدالناصر اتبع حكما أكثر ديمقراطية أو لو كنا قادرين على تقويم اعوجاج حكمه. إن الكثير من كتابنا الآن يشيدون بالديمقراطية (ولا تسأل أين كانوا وقت عبدالناصر أو ماذا قالوا له؟) ولكن ماذا نقصد بالديمقراطية؟ هل هى مجرد التعبير عن الرأى أم اشتراك فعلى فى الحكم يسمح بسماع آراء مختلفة وباستجواب المسئولين وبتغيير ومحاكمة الفاسدين مهما كانوا وأينما كانوا. **أنا لن أحاول أن أجد تفسيرا للديمقراطية يناسبنا حيث إن تلك مشكلة عويصة** خصوصا أن ما نعنيه **هو فى الواقع نظام الحكم كله** وليس مجرد حرية إبداء الرأى أو (البعبعة على الفاضى).

لقد كان حكم **عبدالناصر حكماً** ديكتاتورياً وهذا فى رأيى **أسوأ ما فيه** - ولكن هل كانت **هناك ديمقراطية قبل حكم** جمال عبدالناصر **أو بعده؟ المشكلة فى** رأيى أنه لم تكن هناك **ديمقراطية قبل أو**

خلال أو بعد فترة حكم عبدالناصر . لقد كانت ديمقراطية ما قبل وما بعد عبدالناصر ديمقراطية مقنعة جدا لا تتعدى بعض الحرية فى إبداء الرأى، أى من نوع «البعبعة على الفاضى». إن عصر جمال عبدالناصر منع حتى إبداء الرأى خصوصاً فيما يتعلق بسياسة الدولة العليا. وبالإضافة إلى ذلك فقد حل الخوف ببعض المصريين نتيجة ما أشيع من اعتقالات وتعذيب وخلافه وقد اعتقل وعذب الكثير من الإخوان المسلمين والشيوعيين. وهذا فى رأيى هو الفارق الوحيد بين ديمقراطية ما قبل وما بعد فترة عبدالناصر.

إذا تأملت فى ديمقراطية ما قبل الثورة فستجد أن حزب الوفد وهو حزب الأغلبية لم يحكم سوى خمس سنين فقط ما بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ . وهل كانت ديمقراطية أن يأمر الملك بحل أو بتشكيل وزارة، لقد كان الملك أحياناً يتقاضى الرشاوى لتغيير الوزارة التى لا تلائم بعض الأغنياء!! أو لأن الحكومة لم توافق أهواء ومصالح الملك.

أما ديمقراطية ما بعد جمال عبدالناصر فلقد ابتدأ السادات حكمه بوجه ديمقراطى رافعاً شعار «دولة المؤسسات» بدلاً من «دولة الأفراد» ولكنه لم يكد يستقر فى كرسى الحكم ويواجه معارضة حقيقية حتى أصبح ديكتاتوراً. وقد أنهى السادات حكمه وكثير من مفكرى وقادة مصر فى السجن، وقد اعتقل السادات فى ليلة واحدة حوالى ١٨٠٠ شخص. وقد اعتمد السادات على بضعة قوانين أصدرها فى مايو سنة ١٩٧٨ تحت شعار حماية الجبهة الداخلية. تلك القوانين تسمح للحكومة بسجن من تشاء دون توجيه تهمة أو إدانة وهكذا تخلص السادات من كل من عارضه أو اعتقد أنه عارضه. وهل كان السادات وحده مسئولا عن إجهاض الديمقراطية التى رفع هو شعارها أم اشترك معه العديد منا بتأييده على قرارات ١٩٧٨ الديكتاتورية؟ طبعاً لم يكن السادات وحده مسئولا فهذا توفيق الحكيم يقود مظاهرة من بعض الأدباء تأييدا لتلك القرارات!! وذلك أنيس منصور يشبه السادات بموسى النبى !! وحتى عصا السادات شبهت بعصا موسى التى شق بها البحر!! وأنيس منصور أيضا شبه السادات بعمر ابن الخطاب فى عدله! بل إن الداعية الإسلامى الكبير الشيخ الشعراوى قال عن السادات «إنه لا يسأل عما يفعله!!» (إن الله وحده الذى لا يسأل عما يفعله) وما أشبه الليلة بالبارحة!! وإن أردت مزيدا من تلك المبكيات اقرأ كتاب «عبدالناصر المفترى عليه» من تأليف حسين كروم (مكتب مدبولى ١٩٨٣).

أما عن عصر حسنى مبارك فما هو إلا حصيلة وامتداد الحكم الذى ابتدأ سنة ١٩٥٢ وإن كانت حرية الرأى تمارس فيه

بصورة أكثر . .

إن عصر حكومة حسنى مبارك اتخذ خطوة طيبة نحو حرية الرأى ولكننا مازلنا بعيدين عن الديمقراطية وهى مشاركة الشعب فى الحكم مشاركة فعلية. إن الديمقراطية بمفهومها الحديث تجربة جذورها فى مصر ضحلة. إن الديمقراطية تبدأ من العائلة ، والعائلة كانت إلى عهد قريب وربما مازالت أتوقراطية نطلق على كبيرها «رب العائلة» والرب كما تعلمون لا يناقش ولا يسأل.

إن كنا جادين فى بناء نظام ديمقراطى يجب أولا أن نحترم الإنسان . كل إنسان . يجب أن نكون جميعا متساوين أمام القانون ويجب أن يحاكم كل من يتلاعب أو يستهتر بالقانون. ويجب أن يحرص الشعب، كل الشعب على تنفيذ واحترام القانون، كل القانون، سواء كان قانون تنظيم مرور أو قانون تصدير واستيراد. إن النظام الديمقراطى ليس مسئولية الحكومة وحدها بل مسئولية الشعب، كل الشعب وخاصة الصحافة والاعلام.

لقد وصف الدكتور لويس عوض مأساة مصر فى العصر الحديث ودور كل من الشعب والحاكم فى تحمل المسئولية بما أسماه «عقدة الفراعنة» وإليك نص ما كتبه:

«وفى كل مرة كان مصرع مصر لا يأتى من الخارج، وإنما أيضاً من خطيئة عظمى يقترفها كل جالس على عرش فرعون فيقترفها معه شعب مصر، أويقترفها شعب مصر، فيقترفها معه كل جالس على عرش فرعون . هذه الخطيئة فلنسمها «عقدة الفراعنة» . هذه العقدة هى طلب العظومات قبل اكتمال مقومات العظمة. وحيث توجد هذه الفجوة بين الحلم والحقيقة يعشق المرء السلطان بأكثر من إمكانياته الحضارية كما حدث لمحمد على. ويعشق المرء الحضارة بأكثر من إمكانياته المادية كما حدث لإسماعيل، ويعشق المرء الحرية بأكثر من امتلاكه لمقوماتها كما حدث لعرابى. ويعشق المرء الديمقراطية بأكثر من إدراكه لمسئولياتها كما حدث لسعد زغول وبنيه، ويعشق المرء العزة والكرامة بأكثر من إدراكه أن الثروة القومية أو الفردية لا تضمن عزة النفس والكرامة إذا التمسها المرء من غير أبوابها وهى الشرف والتدبير والعلم والعرق وضبط الشهوات والإيمان بالإنسان وبأكثر من إدراكه أن البطش لايصنع القوة وأن الخوف لا يصنع الرجال وأن الوطن القوى لا يبنيه المواطنون الضعفاء أمام سادتهم وأمام شهواتهم. كما حدث لجمال عبدالناصر وعصره الملىء بالنقائض» . (تاريخ الفكر المصرى الحديث الجزء الأول سنة ١٩٨٠ ص ٧٤ - الهيئة العامة للكتاب).

إن من لا يتعلم من التاريخ محكوم عليه بإعادة أخطائه.. لعلنا نتعلم من أخطائنا فى تلك الفترة ..

البحر ومرفأ الأجيال

بقلم :خالد منصور *

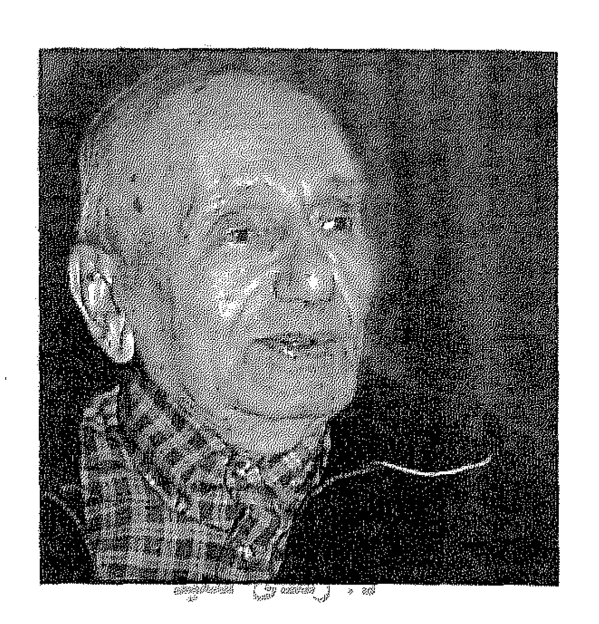
اعتدت أن أتوقف عند بابى «مرفأ الذاكرة» فى مجلة العربى و«سنوات التكوين» فى مجلة الهلال وأتعجب كثيرا كأنى أطالع عالما سحيقا يبعد عنا سنوات ضوئية، ويزيد من العجب أننى أعلم جيدا أن كل هؤلاء الرجال ـ ومعظم من يكتبون فى هذين البابين من الرجال ـ يتحدثون عن مصر التى كانت قبل مولدى بسنوات قليلة وليس عنها منذ قرون.

وأشك أحيانا فيما يقولونه عن مصر فى الثلاثينات والأربعينات وأخشى أن يكون معظم هذا البهاء والرونق الضافى على ذكرياتهم عن مصر والقاهرة راجع الى ما تعارف عليه علماء الاجتماع بأنه النزعة الانسانية لتمجيد الماضى ونسيان مساوئه، وأحيانا أخرى أشك فى أنه ربما كنا سنجد تاريخا مختلفا أقل بريقا وأكثر خشونة عن مصر فى مطلع القرن وقبل ثورة الجيش المصرى فى عام ١٩٥٢ إذا كان رواة هذا التاريخ من الفلاحين أو العمال ـ ولكن الطبقات الأفقر وغير المتعلمة لا تكتب التاريخ سوى لماما.

هناك شعور ما بالحنين الى عالم كان هادئا ينظر بقوة الى الامام وواقع صار متوحشا مكبلا بإسار النظر الى الوراء.

انظر إلى ميادين القاهرة الفسيحة والسيارات تنساب فيها بين الواحدة والاخرى عشرات الامتار فى الافلام الابيض والاسود القادمة من ثلاثينات واربعينات هذا القرن، ثم افتح عينيك أو اغلق جهاز التليفزيون وانظر الى القاهرة الآن. أو لا تنظر: اسمع فقط نعيق أجراس التنبيه وصراخ أجهزة

* مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط فى واشنطن



الكاسيت وضجيج ماكينات حفر تبنى وتهدم فى كل شارع فى القاهرة.

اقرأ ما يقولونه عن المناخ الثقافى فى الثلاثينات والاربعينات فى مصر فاحسدهم ثم اتميز غيظا عندما انظر الى مناخ الآن لا يتسامح مع كتابات اكاديمية للدكتور نصر حامد ابو زيد رغم انها لا تختلف كثيرا عما كان يقوله المعتزلة فى اوائل الألفية الثانية - أى منذ اكثر من تسعمائة عام.

كل هذه الافكار هاجمتنى عندما طالعت مقالة الدكتور رشدى سعيد فى باب مرفأ الذاكرة فى مجلة العربى - عدد ٤٨٠ نوفمبر ١٩٩٨ - وعالمنا الجيولوجى الفذ - الذى سعدت بمعرفته والحديث معه كثيرا - بعيد عن معسكر تمجيد الماضى على إطلاقه ويمتلك عينين مفتوحتين على ما كان جميلا وما كان قبيحا فى العقود السابقة دون ابراز هذا ونسيان ذاك، غير ان مقالته والحوار الذى دار بيننا فتح الباب امام المقارنات بين ما كان وما هو كائن.

هذا الماضي الجميل!!

يبدأ الدكتور سعيد صاحب الكتاب المرجعى المهم عن النيل مقالته بالحديث عن «عقد نهضة شاملة فى مصر» فى العشرينات من هذا القرن، ثم يسميه لاحقا بانه «عقد التنوير». ويلخص الدكتور سعيد مظاهر التنوير فى انها استبدال التعليم المدنى الحديث بالتعليم الدينى وازدياد الوعى الوطنى بالأصول الفرعونية ووضع دستور ١٩٢٣ محل التنفيذ وتحرير المرأة وإرسالها الى الخارج للتعليم.

ولكن يبدو لى ان عقود التنوير كانت فى واقع الامر عقود صراع فكرى واجتماعى وسياسى وليست تقدما متتاليا نحو حالة مثلى. ففى ابريل ١٩٢٥ وضع على عبدالرازق كتابه «الاسلام واصول الحكم» الذى نقد اصول الخلافة الاسلامية وسعى لإثبات ان مبدأ فصل

الدين عن الدولة يتماشى مع القرآن والسنة. وعقب اقل من اربعة اشهر ادان الازهر الكتاب واعتبر افكاره مخالفة للشريعة وطرد الشيخ الجليل من هيئة كبار العلماء وعزله من منصبه فى القضاء الشرعى. وفى عام ١٩٢٦ نشر طه حسين دراسة «فى الشعر الجاهلى» الرائدة حيث تشكك فى أصول هذا الشعر الامر الذى صدم بعض علماء الدين المتشددين. وتعرض حسين لهجوم حاد وصودر الكتاب، ولم تصدر طبعة اخرى سوى بعد عام وحذف عدد من النصوص الواردة به. ولم يكف هذا اعداء الرجل فقد تعقبوه اعواما حتى نقل من العمل بالتدريس فى جامعة القاهرة الى وزارة المعارف فى عام ١٩٣٢.

وعلى صعيد التعليم لم يحل التعليم المدنى فى واقع الامر محل الدينى تماما - واعنى هذا الاهتمام بالعلوم الحديثة اكثر من علوم النقل والتقليد والحفظ وليس على الاطلاق عدم تدريس الدين فى المدارس - بل تجاورا فى علاقة تعايش قلقة، واستقبل الازهريون بالمظاهرات والاحتجاجات القرار الذى اتخذه مجلس النواب والشيوخ فى يناير وفبراير ١٩٢٧ بجعل مدرسة القضاء الشرعى ومدارس المعلمين الاولية ودار العلوم - وهى المعاهد التى كان لشيخ الازهر منذ عام ١٩٢٥ يد عليا فى ادارتها - تابعة لوزارة المعارف العمومية، كما ان التعليم المدنى الجامعى فى جامعة القاهرة ظل مقصورا الى حد كبير على فئات متوسطة وعليا من مجتمع «النصف فى المائة».

وهذا الحاضر المر

ولكنى فى حقيقة الامر عندما انظر الى ما تلقيته من تعليم فى المدارس والجامعات فى السبعينات والثمانينات احسد الدكتور رشدى سعيد ورفاقه.

احسدهم بغض النظر عما اذا كان هذا الماضى الذى يتذكرونه جميلا كان بنفس القدر من الجمال والانفتاح امام كل الطبقات وكل الفئات.

احسدهم لانه يصعب على من تفتح وعيهم الاجتماعى فى السبعينات ان ينظروا بعين الرضا - حتى ولو جزئيا - الى هذا العقد القريب. ربما يجب ان

نبتعد عن عقود النشأة اكثر كي ننسى مساوئها ونباشر التغزل بها.

وفي ميدان واحد وليكن التعليم ،كانت المؤسسات تنهار بسرعة متزايدة مع التوسع غير المدروس في إقامة الجامعات في كل مكان واهمال الانفاق على المدارس بشتى صورها. وفي مدرسة المنصورة الثانوية العسكرية حيث درست كانت اعداد التلاميذ في الفصول تزيد على الاربعين عادة (ربما يبدو هذا ترفا الآن ولكنه عدد كبير بأى مقياس) ولم يكن هناك اهتمام يذكر بتنمية اى قدرات نقدية خاصة حيث كان اهتمام الاساتذة الكرام منصبا على التلقين الا فيما ندر.

ولم يكن مسموحا بالجدل والنقاش في الفصول التي كانت تدار بأسلوب شبه عسكري حيث الضرب امر عادى ومعتاد ويجب تلقيه برجولة . أما الجامعات الاقليمية فهي مأساة تستحق اعادة النظر. لقد درست علوم الهندسة في جامعة المنصورة ولم اكن طالبا مهملا، بل على العكس فقد تخرجت في العقد الماضي بتقدير مرتفع وكنت من الخمسة الاوائل على دفعتي، ولكني بصراحة لم اتعلم الكثير، كانت المعامل قديمة ومتهالكة ومعظم الآلات والمعدات غير متوافرة والاهتمام ليس بفهم نظرية عمل الآلات الكهربائية التي ندرسها وانما بحل المسائل التي سترد في امتحانات آخر العام، اعرف طالبا كان يحفظ عشرات المسائل بالحلول والارقام.. وينجح سنويا ويعمل الان مهندسا ناجحا في احدى محطات كهرباء مصر.

ولكن ربما لم اكن لاذهب للجامعة على الاطلاق لو كنت قد ولدت في العشرينات من هذا القرن وليس في منتصف الستينات.. فعائلة أبي من الفلاحين متوسطي الحال وعائلة امي كانت من نفس المستوى تقريبا وان جاءت من القاهرة. وإذا استثنينا الحالات الدرامية الاستثنائية مثل طه حسين فان باب الجامعة في حقيقة الامر لم يكن سهلا وميسرا، ربما كان قطار الليبرالية السياسية سيفوتني لانه يحمل عادة القادرين ماديا، ولكن ما يبدو لي جليا الآن ان مواجهة صعوبات حادة من اجل الالتحاق بالجامعة والحصول على تعليم جيد لهو امر افضل كثيرا من الادعاء بان التعليم كالماء والهواء مفتوح للجميع

ثم توفر لهم تعليما لا يسمن من جوع. ان الامتيازات الواضحة فى مجتمع افضل بكثير من المساواة الزائفة.

وهذه هى المشكلة فى مصر الآن. ليست المسألة ان العشرينات أو الثلاثينات كانت عقد التنوير والانفتاح الثقافى وان الثمانينات او التسعينات اصبحت عقود نضال ضد موجات ظلام وانغلاق متتابعة.

انما المسألة ان المجتمع المصرى فى العشرينات والثلاثينات كان صريحا فى مواجهة مشاكله وكان لديه حلم - وفى الحقيقة كانت هناك احلام ينبثق كل منها من ايديولوجيات متصارعة . كان حلم الدكتور سعيد ورفاقه علمانيا وطنيا يرتكن على الهوية المصرية والتحديث عن طريق التعليم والليبرالية السياسية. وكان حلم محمد رشيد رضا واسلافه محمد عبده والافغانى دينيا اسلاميا يرتكن على التجديد مع المعاصرة عن طريق التعليم ايضا والشورى السياسية. وكان هناك حلم القوميين العرب، والشيوعيين، وغيرهم. وجاءت ثورة ١٩٥٢ لتبتسر هذا الصراع الطبيعى - اما للافضل أو للأسوأ فهذا أمر يتجادل فيه المؤرخون . وكان الجدل فى هذين العقدين كما يبدو لنا من مقالة الدكتور سعيد ورفاقه مفتوحا وعلنيا وحادا.

أما الآن - ولنستعير اكليشيه الامريكى فرانسيس فوكوياما - فقد صرنا فى مصر فى عصر ما بعد الايديولوجيات، وما بعد الحلم ايضا، هناك حالة من الدوار والتيه الثقافى والاجتماعى تسيطر على قطاع كبير من جيلى، من خرج منا ومن بقى، ومن منا يؤمن بعد بأيديولوجيات ناصرية أو شيوعية أو قومية صار فى خنادق أقلية منقرضة مثل الديناصورات.

فى جيل الدكتو٣٣٣ر رشدى سعيد كان الناس يعيشون فى عرض البحر ويتنازعون بينهم أى مرفأ يتجهون اليه. وفى جيلى نعيش فى عرض البحر ولا مرفأ ، وفى الحالتين ربما لم يوجد مرفأ على الاطلاق ، غير انهم كانوا يحملون ويناقشون احلامهم، بينما نحن فى فمنا ماء، ونغرق.

تعليق.. د. رشدي سعيد

في عرض البحر بلا مرفأ.. للأستاذ خالد منصور

خالد منصور احد شباب مصر النابهين يعلق على المقال الذى كتبته لمجلة العربى بناء على دعوة منها ونشرته بعددها الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٩٨ فى باب «مرفأ الذاكرة» وهو الباب الذى يقابل على وجه التقريب باب «التكوين» بمجلة الهلال.. ورأيت نشر رسالته لتصورى ان فى ذلك فائدة فى فهم رؤية الابناء للجيل السابق ونظرتهم لانجازاته بل وإلى تاريخ بلدهم الحديث.. كما ان فيها تصويرا لعمق الهوة وعدم الثقة الذى يفصل جيل الاستاذ خالد منصور والجيل بل والاجيال التى سبقته.

وكان المقال موضوع تعليق الاستاذ خالد والذى نشر تحت عنوان «عن الوطن والحضارة والعلم» قد احتوى على عرض لاحداث الفترة التى عشتها والتى اثرت فى نشأتى وهى احداث انتقيتها من بين أحداث فترة المد القومى التى بدأت مع ثورة سنة ١٩١٩ وانتهت بحرب اكتوبر سنة ١٩٧٣.

وقد تفاوتت ردود الفعل للمقال، فقد نال استحسانا كبيرا من ابناء جيلى واعاد لهم ذكريات مشتركة عن احلام وآمال سنى الحركة الوطنية التى عاشوها والتى اثارتها تلك الاحداث. وبطبيعة الحال فقد ابرز المقال ذلك الجزء المستنير من تيارات هذه الحركة التى تلاطمت أمواجها، وهو الجزء الذى استهدف بناء مصر الحديثة ومؤسسات مجتمعها المدنى وديمقراطية حياتها وتحرير ومساواة جميع ابنائها وبناتها بغض النظر عن الجنس أو العقيدة والذى ساهم فى تكوينى وأثار فى الاهتمام بالشأن العام وفى بناء الثوابت التى شاركت فى تربيتى وحكمت اتجاهاتى فى الحياة.. وهذا الجزء الذى برز فى المقال هو الذى جعل الكثير من الشباب الذين علقوا عليه يصفونه بانه مقال عجوز فى شوق الى ماض راح زمانه.. وهو انطباع لم ابغ ايصاله اليهم فليس هناك من عرف الاثر المدمر للجزء السلفى الآخر من تيارات حركة المد الوطنى التى عشتها مثلى.. وانى اعترف بان هذا الجزء قد اصبحت له الغلبة، وان كان قد تسربل بلباس جديد مما افضى الى عجز بلادنا عن دخول العصر الحديث والتواؤم مع متطلبات هذا العالم الجديد البالغ التعقيد الذى نحن على ابوابه وإلى ان نرى ابناءنا وهم تائهون فى عرض البحر وبلا مرفأ أو قل بمرفأ عاصف لن يؤدى إلا إلى التهلكة والنسيان....

● دائرة حــــوار

محمد واليهود



بقلم: د. ذوقان قرقوط – دمشق

قـرأت فى الـهلال دراسـة د. إبراهيم عـوضين لكتـاب «محـمـد واليهـود، نظرة جديدة» ترجمـة واصدار الهيئـة المصرية العـامـة للكتـاب، وانتظرت ورود الكتاب إلىّ فقرأته ثم أعدت قراءة الدراسة وقرأته مرة أخرى ، وإذا بالجهد المبذول فى كليهما جهد مشكور ويستحق التقدير ، وقبل الوقوف عند جاذبية وإثارة مثل هذا الكتاب فى هذه المرحلة التى تمر بها الأمة العربية أود أن أنوّه إلى الأمور الأساسية الداعية إلى النزاع والمنازعة بين الرسول أى بين الإسلام أصلا والطوائف اليهودية فى شبه الجزيرة ، والتى أرى أنها كان يجب أن تكون منطلقا لمثل هذا البحث .

ولم ألمح لهـا أثرا فى ثناياه إلا فى الفقرة التى جعلها مدخلا للفصل الثالث : «تأييد اليهود للمعارضة فى المدينة» ، وهى مقتبسة من كتاب مكسيم رودنسون «محمد» جاء فيها : «لقد أظهر أتباع محمد من جانبهم - علاوة على أخذهم بالأفكار الأساسية لليهودية وبتعاليم نوح - استعدادا كاملا لاتباع عدد من الطقوس اليهودية ..» إلخ ، ولم يذكر رودنسون ما هى الأفكار الأساسية لليهودية التى أخذ بها المسلمون ولا تعاليم نوح ، لا فى هذه الفقرة ولا فى كتابه الأصل ، وأحسب أنه لو تقصّى لا يعثر على أدلة على هذا القول ، حتى فى المصادر اليهودية الأصلية نفسها. ذلك أن اليهودية فى أصلها هى التى اخذت عن العرب، وليس العكس باستثناء الاسرائيليات التى دست على الاسلام فيما بعد. فاذا نحينا جانبا اسطورة موسى المتعلقة بمولده وبنشأته واذا لم نأخذ بالآراء التى تعتبره مصريا متأثرا بعقيدة اخناتون التوحيدية، لأنها ما تزال موضع أخذ ورد.. فان معظم المؤرخين كما يقول فرويد (فى كتابه موسى والتوحيد) يقررون - وهو معهم - وعلى رأسهم ادوارد مبير Meyer، أن القبائل اليهودية التى اصبحت فيما بعد شعب اسرائيل قد اعتنقت دينا جديدا عن القبيلة العربية (المديانيين) الذين كانوا يعيشون فى سيناء متفقين فى هذا مع نص التوراة، التى تضيف إصهار موسى لشيخهم أيضا . أما الختان ، فبخلاف تقرير التوراة ، فقد أخذه اتباع موسى عن مصر قبل الخروج ، كذلك ليس من الصواب القول بأن الرسول «اتجه فى الصلاة إلى بيت المقدس ، لدى وصوله إلى المدينة لاستمالة قلوبهم .. » ص ٢٠٣ من الكتاب . اتجه إلى القدس ، لأمر آخر ، ولأن القدس فى مقدسات العرب : إذ يقرر سفر نحميا فى التوراة أن الحلف العربى المؤلف من «سنبليط وجشم» منع عزرا ونحميا اثناء ترددهما بين القدس والعراق بعد السبى من إقامة سور حول القدس ، خشية أن يعود اليهود إلى التمرد .. ولم يعاود العمل به إلا بعودة زربابل بأول قافلة من السبى ، بأمر من ملك الفرس جويرش اكزيركس، وظل الهيكل والسور قائمين حتى جاء هيرودس الكبير وهو من أب أدومى من ناحية بئر السبع وأمه ابنه آخر امراء العرب الأنباط فجددهما وزاد فيهما .. ثم جاء الرومان فدمروهما ودمروا المدينة كلها سنة ٧٠ ق . م .

ولكى لا نسلت الإسلام وبالتالى الرسول من انسانيتهما فلابد من أن

نعرف، أنه فى جملة الحاجة الماسة فى ذلك الوقت، اليهما فقد جاء الإسلام يفصل فيما شجر من اختلافات حول المسيحية واليهودية ، وهو ما أهمله المؤرخون الأوائل، ونجد أثره واضحا فى القرآن الكريم . «وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه .. » ٦٤ النحل . ومن هنا كانت الحملة الضارية التى شنت للتشكيك ، تارة من هنا وتارة من هناك . ودون الاسهاب فإن الآيات الكريمة فى سور عديدة من الكتاب تكفينا مؤونة ذلك « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» النحل ١٠٣ ، «وكذلك أنزلناه حكما عربيا .. » الرعد ٣٧، فسرها المفسرون بأنها تقصد أناسا فى مكة نفسها ولكنها أيضا جواب على ما ذكر من خرافة الراهب بحيرى ، وكذلك «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء .. » ، «وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا» الاحقاف ١٢ ، وفى يوسف ٢ ، «إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» ، «وكذلك أنزلناه قرآناً عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً» طه ١١٣ ؛ وفى الزمر : «قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون» الآية ٢٨ ؛ وفى الشورى الآية ٧ : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » . وفى الزخرف الآية ٢ «إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون..» .. الخ .

وكان من أهم ما شجر حوله ، مسألة هاجر ، أكانت عبدة ؟ وابنها إسماعيل ، أهو الذبيح ؟ والبيت الحرام : «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» . «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام .. » ؛ وهذا المكان هو الذى اختاره إبراهيم لهاجر وذريتهما ، وأوضح من الآيات الكريمة أن الأنتماء لإبراهيم كان من الأمور المتجاذب حولها ، ولم يؤد قول السيد المسيح إلى الحسم إذ ورد فى أكثر من مكان : متى ٩/٣ ؛ يوحنا ٣٩/٨ ، رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣٩/٣ صموئيل الثانى ٨/٥-٦ ؛ الأيام الأول ١٨/٥-٦ ، حيث يشار إلى النزاعات .. وأخيرا وبعد جدل طويل حسم الإسلام الأمر : «يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . هأنتم هؤلاء حاججتهم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين».

فكيف يمكن القول بعد ذلك ، مع صاحب كتاب «محمد واليهود» .. بالملاينة..؟



بابا الفاتيكان على خطى أبى الأنبياء إبراهيم الخليل

بقلم : مصطفى نبيل

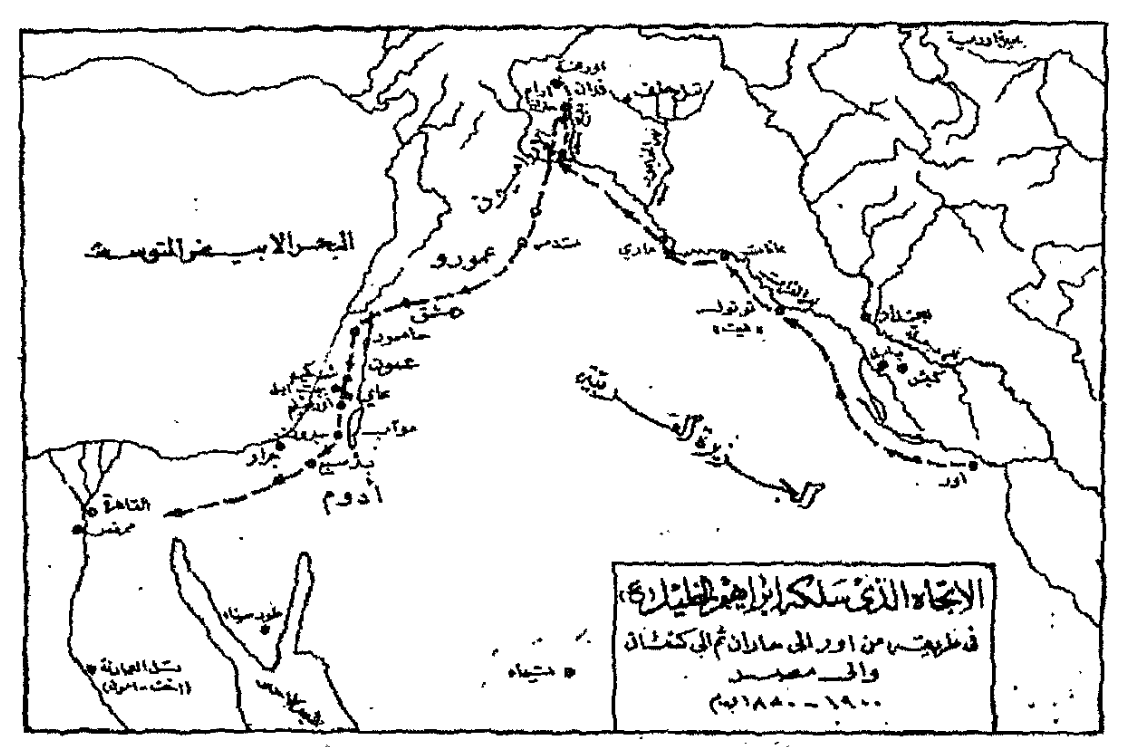
بعد قيام بابا الفاتيكان بزيارته المقررة إلى بيت لحم سنة ٢٠٠٠ ، بدعوة من ياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية. ستكون هذه هى الزيارة الأولى له للأراضى المقدسة بما تعيشه من صراع حول المقدسات الدينية.

ولدى البابا خطة للقيام برحلة العمر، التى يتتبع خلالها خطى سيدنا إبراهيم الخليل، وأمام هذه الرحلة التى تستهدف التقارب بين الأديان، عدد من المعضلات ..

فهل سيقوم بزيارة العراق..؟! .. وهل يزور الجزيرة العربية ؟! .

هذا ما سوف تجيب عنه الأيام المقبلة.





المستطيل المقدس الذى بدأه أبو الأنبياء إبراهيم الخليل برحلته من أور جنوب نهر الفرات إلى حاران فى الشام إلى كنعان فى فلسطين وأخيراً إلى مصر. (كتاب د. أحمد سوسه)

يشهد الفاتيكان استعدادات وترتيبات واسعة استعداداً للرحلة التاريخية التى سيقوم بها البابا جون بول الثانى ، يسير خلالها على خطى أبى الأنبياء إبراهيم الخليل، وشخصية النبى إبراهيم هى بحق أهم الشخصيات الدينية، ويضم تحت عباءته الأديان السماوية الثلاث: الاسلام والمسيحية واليهودية، وقد بعثت الفكرة النشاط فى رجال الفاتيكان وأخذوا يبحثون فى العديد من القضايا التى تحدد مسار هذه الرحلة.

والبابا جون بول الثانى رأس الكنيسة الكاثولوكية رجل دين غير تقليدى، أعاد للكرسى البابوى هيبته ومكانته، وظهر كشخصية بارزة، وأعطى قوة كبيرة للتأثير المعنوى على العقول والقلوب. ومنذ تولى هذا المنصب عام ١٩٧٨ ولم يكن تجاوز الثامنة والخمسين، وهو يعمل بنشاط وقام بزيارة ست وثلاثين بلداً خلال السنوات الست الأولى من توليه منصبه.

ورحلته الجديدة هى أهمها وأصعبها على الإطلاق، وتتم فى منطقة مشتعلة سياسياً، تتضارب فيها المصالح والأفكار، وتتنازعها العقائد ..

وتقدم قصة هذا البابا مفتاحاً هاماً بطبيعة العصر الذى نعيش فيه، فهو أول بابا غير إيطالى خلال الخمسمائة سنة الأخيرة، وهو يطمح فى أن يستكمل مسيرة البابا يوحنا الثالث والعشرين والبابا بطرس السادس.

ويتطلع إلى رحلته الجديدة ما يزيد عن ألف مليون إنسان، يؤمنون بقصة إبراهيم الخليل كجزء من عقيدتهم، بعد أن إمتزجت هذه القصة بتصورات آبائهم وأجدادهم سواء على أساس المعرفة الحقة أو الأساطير، فقد مضى على ظهور إبراهيم الخليل ما يزيد عن أربعة آلاف سنة.

إذا كان إبراهيم الخليل هو نقطة البدء للأديان الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، إلا أنه، كما يمثل نقطة لقاء يحتل أيضا موضع الخلاف حول العديد من تفاصيل حكايته ، ومسار رحلته.

ويعكف اليوم رجال البابا يعالجون تلك الاختلافات، حتى تحقق رحلة البابا هدفها في إعلان السماحة بدلاً من التعصب، واللقاء بدلاً من الخصام، والحوار بدلا من الصدام .

وسنتابع معاً خطى إبراهيم الخليل من جانبها التاريخي وليس من جانبها الروحاني ، ولن نتناول العديد من الجوانب الملحمية في قصته، مثل تلك الغيرة التي نشبت بين السيدة سارة وجاريتها هاجر بعد أن قدمتها إلى زوجها ولم تتحمل حصولها على وليدها إسماعيل، ولا نتناول ملحمية العلاقة بين إبراهيم وأبيه الذي رفض الإيمان بما يدعو إليه إبراهيم الخليل، وإنما نلقي الضوء على رحلة سيدنا إبراهيم ما جاء في الأثر وما وصلنا من أبحاث أركيولوجية وأثرية حولها.

وإذا كان هناك ثمة إتفاق بين الأديان حول بعض ملامح الرحلة التاريخية لإبراهيم الخليل، فإنه مازالت هناك خلافات عميقة حولها فسيدنا إبراهيم عند المسلمين عربي النشأة ، خرج من مدينة أور على شاطيء نهر الفرات في جنوب العراق ، وانتقل إلى أرض كنعان في الشام والمفترض أنها أرض فلسطين الحالية ومنها إلى مصر بعد أن أمسكت السماء وأجدبت الأرض، ومنها إلى الشام من جديد ثم إلى الحجاز.. أي أنه تجول في ذلك المستطيل المقدس الذي شهد ظهور كل الأديان السماوية.

وأقيمت خلال رحلته مدن جديدة لم تكن قائمة، فترتبط رحلة إبراهيم الخليل إرتباطاً وثيقا بقيام مكة كما ارتبط اسمه مع ابنه إسماعيل ببناء الكعبة، ومن قبل يرتبط إبراهيم ارتباطا وثيقاً بنشأة العرب فهو جد العرب الاسماعيلية والعدنانية ، كما يرتبط بالعديد من مقدساتهم ، فساق الله إبراهيم بأسرته الصغيرة إلى مكة ليعمرها، وتتكون من أسرته أمة حولها، ويكون في هذه الأمة رسول إليها وإلى البشرية.

ويرتبط دور النبي إبراهيم كما جاء في



لوحة رمزية للمسلمين والمسيحيين واليهود تحت عباءة أبى الأنبياء

القرآن الكريم باللغة العربية التى يتكلم بها والتى يرجع وطنها الأصلى إلى جزيرة العرب، وكما ذكر د.هوميل فى كتاب «التقاليد العبرانية القديمة»، وأيضا أقيمت مدينة الخليل فى فلسطين حول قبره.

ويرى العرب أنهم من نسل إبراهيم، وأنه الجد الأكبر للنبى محمد (ﷺ) وحفيد إسماعيل وزوجته المصرية كما جاء فى الأثر، فإذا عدنا إلى نشأة إبراهيم لم نجد أدق وأصدق من النسب العربى، فالعربية أيامها تمتد فى المنطقة بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب.

وهو عند اليهود أهم الآباء الأول لشعب الله المختار، رغم أن يعقوب حفيد إبراهيم هو أول من تسمى بإسرائيل، فكيف ينسب الجد إلى الحفيد؟! ويقال أن إبراهيم الخليل يهودى أى ينسب إلى يهودا كيف ذلك وهو رابع أبناء يعقوب؟! فغريب أن يكون المتقدم تابعا لولد ولده الذى لم يره ولم يعاصره !.

ويذكر د. أحمد سوسه فى كتابه القيم «العرب واليهود فى التاريخ» ..«إذا استعرضنا تسلسل الأحداث التاريخية لتوصلنا إلى أن إبراهيم الخليل، لم يرتبط بأية صلة باليهود ، لا من حيث العصر، ولا من حيث المبدأ أو العقيدة، ولا من حيث اللغة، فقد عاش إبراهيم الخليل فى بيئة واسعة النطاق تشمل جميع بلاد الشرق الأدنى العربية لارتباطه بعالمه الواسع الذى كان يضم الجزيرة العربية وطن آبائه

الأصلى ومعها العراق وسوريا وفلسطين ومصر».

وترتبط بعض العبادات عند المسلمين برحلة سيدنا إبراهيم، فيرتبط الحج بوقائع تلك الرحلة، فعندما سافر من فلسطين إلى مصر وتزوج هاجر المصرية من مدينة الفرما فى سيناء، بتحريض من زوجته العاقر سارة، فولدت له هاجر إسماعيل ، ولم تطق سارة المقام مع هاجر ، فسافر إبراهيم حتى بلغ .. «واديا غير ذى زرع» فى مكة ، وتذكر التوراة هذه الرحلة بقولها.. أخذها إلى برية «فاران».

وقصد هذا المكان البعيد القفر، قاطعاً كل هذه المساحة بين وديان وجبال .. .

«ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون..» سورة إبراهيم آية ٣٧..

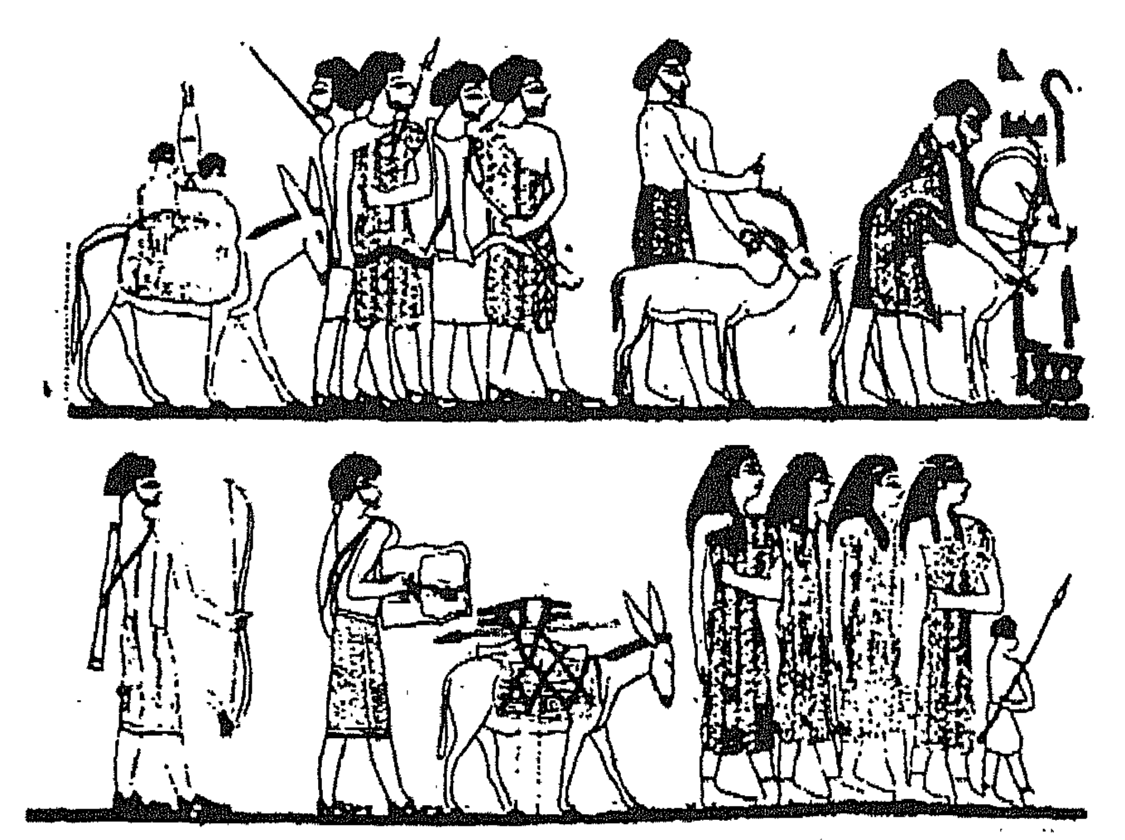
وسجل القرآن الكريم خطوات إبراهيم عليه السلام، وخلد ذكرى أعماله، ودعا أتباعه إلى تخليدها واحيائها، «..إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولي المؤمنين» آل عمران آية ٦٨ ، «وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً علكيم، وتكونوا شهداء على الناس» سورة الحج «قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا» سورة الأنعام آية ١٦١، والاسلام هنا هو صفة تعنى التسليم لله وإخلاص العقيدة له .. «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين» البقرة آية ١٣٠ - ١٣١ .«ياأهل الكتاب لما تحاجون فى إبراهيم، وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون.. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما..».

وتقضى أسطورة نقاوة الدم واقتصار بنى إسرائيل على شعب الله المختار من أبناء يعقوب، أما الإسلام فقد جاء للبشر جميعاً.

ولم تأت أية إشارة فى التوراة لزيارة إبراهيم الخليل لمكة، كما أن هناك جوانب عديدة وردت فى القرآن الكريم ولم ترد فى التوراة مثل تدمير النبى إبراهيم للأصنام، وقصة إلقائه فى النار التى أصبحت برداً وسلاماً.

إسماعيل وإسحق

أما أولئك الذين ينكرون العلاقة بمكة والبيت الحرام، فليس لديهم سند من الأبحاث العلمية والأثرية، بل يعتمدون على بعض المصادر الدينية لإبطال مصادر



تقول الأبحاث الأثرية أن زيارة إبراهيم الخليل إلى مصر كانت فى عهد «سنوسرت الثانى» ١٨٩٢ ق.م . ويوجد فى مقابر «بنى حسن» وبالتحديد فى مقبرة خنوم حتب لوحة تمثل ستة قادمين من الشام يحملون الهدايا فى نفس التاريخ الذى وصل فيه إبراهيم الخليل إلى مصر

دينية غيرها، ويعتمدون على السكوت عنه فى التوراة، وما من دليل يثبت قيام دعوة الخليل مثل المصادر الإسلامية، ويختلفون حـول الابن الذى أمـر إبراهيم الخليل بالتضحية به ، فمنهم من يرى أنه اسحق ومنهم من يرى أنه إسماعيل، مما يرتبط برحلة إبراهيم الخليل إلى مكة. وجاء فى قصص الأنبياء رواية محمد بن اسحق التى يقول فيها.. «إن الذى أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه هو إسماعيل، ولم يكن يأمر بذبح اسحق وله فيه من الله تعالى من الموعود ما وعده ، فما أمر بذبح سوى إسماعيل. وتناول هذه المسألة فقهاء المسيحية، وتساءلوا كيف يؤمر إبراهيم بذبح اسحق وهو ابنه الموعود الذى يخرج منه شعب الله المختار، ويوصف اسحق أنه الابن الوحيد، ولم يكن وحيداً مع وجود إسماعيل ، أما إسماعيل فكان وحيداً قبل مولد اسحق.

وهذا الاختلاف - كما يقول الكاتب الكبير عباس العقاد صاحب أهم كتاب بالعربية وهو أبو الأنبياء الخليل إبراهيم -

يتعلق به اختيار الشعب الموعود، ويتعلق به الحذف والاثبات فى سيرة إبراهيم يتصل بذرية اسحق، وينقطع عن ذرية إسماعيل، أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل، وينقطع منها كل ما يتعلق بالعرب..»

وبالتالى فهو ليس نزاعاً عقائديا ، وانما هو نزاع حول الميراث.

كتب موسى

أما رؤية المسيحية لسيدنا إبراهيم ، فهو عند المسيحيين لا يقل مكانة عنه عند اليهود والمسلمين، فانجيل متى يقرر أنه الجد الأعلى للسيد المسيح، وبالتالى فهو أب لكل المسيحيين، وأنقسم رأى الكنائس المسيحية فيما جاء فى العهد القديم فمنها ما يعتبره وحياً، ومنها ما يقصر الوحى على كتب الشريعة وهو الكتب الخمسة التى تعرف بكتب موسى. ومنها ما يعتبره أخباراً تاريخية أو وقائع مروية فى صيغة شعرية.

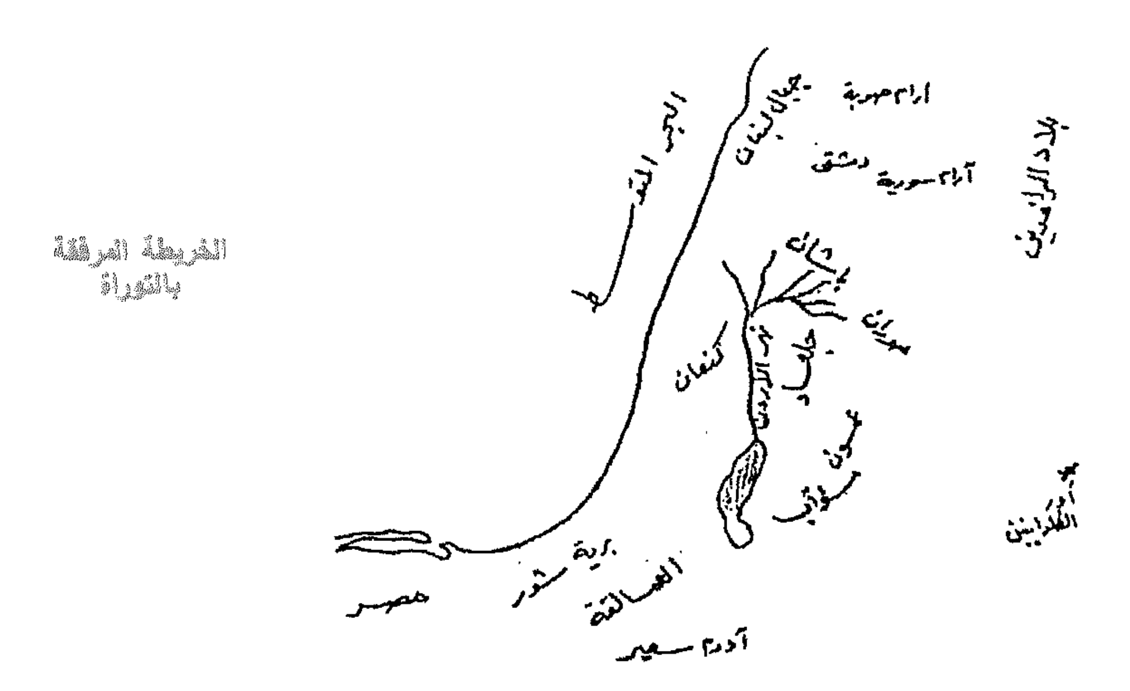
وتعتبر البروتستانتية أن العهد القديم والعهد الجديد كتاب واحد مقدس..

ويقول الكاتب غطاس عبدالملك «..إن إبراهيم الخليل ولد حوالى سنة ١٩٦٨ ق.م، وفر من بلاد الكلدانيين إلى حاران بين النهرين، وظل بها أربع عشرة سنة، وذهب إلى مصر بعد القحط وعاش بها حوالى سنتين..» ويضيف.. «بعد أن حملت هاجر من إبراهيم الخليل، فرت من غيرة سارة إلى عين بئر فى البرية التى فى طريق شور، وهى الطريق بين سوريا ومصر ويقول لعلها بئر عين التى تقع جنوبى شرقى العوجا بحوالى ١١ كم.

الأبحاث الأثرية

تؤكد الأبحاث الأركيولوجية والأثرية التى توصل إليها العلماء أن إبراهيم الخليل ظهر فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، مما يتفق مع ما ذكره بعض المؤرخين العرب.

كما جاءت الأبحاث حول الهجرات السامية العربية إلي الهلال الخصيب مع دراسة علم مقارنة اللغات تؤكد العلاقة التى تربط إبراهيم الخليل بجزيرة العرب والحجاز. ويتفق الخبراء على أن إبراهيم الخليل سلك طريق الفرات الأيمن فى رحلته من أور إلى حاران، وهى الطريق التى تسلكها القوافل، ويكون بذلك قطع فى هذه الرحلة ٢٠٠ كيلو متر.. كما جاء فى كتاب د. أحمد سوسه -، ومر فى طريقه بمدينة «مارى» العاصمة التاريخية للعموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابى الشهير، وغادر إبراهيم الخليل حاران متوجها إلى دمشق عن طريق تدمر، ومنها إلى فلسطين



الخريطة المرفقة بالتوراة

قاطعاً مسافة ٩٦٠ كيلو متراً بين حاران وكنعان ، أما الطريق الذى سلكه فى رحلته إلى مصر فقد اخترق حمراء شبه جزيرة سيناء.

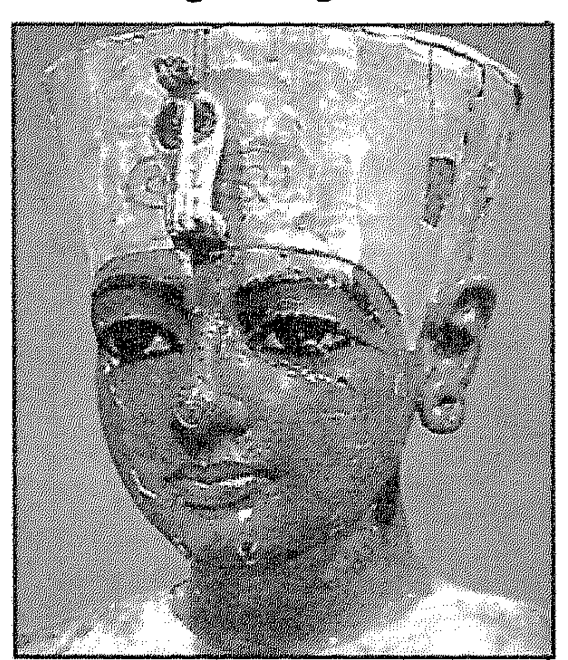
ويقول صاحب كتاب «تعليقات موجزة لمؤلفة جوزيف انجوس.. «كانت مصر عند هجرة إبراهيم ثم هجرة يعقوب وآله ، خاضعة لحكم الرعاة المكروهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسمائة سنة، ومن ثم كان الترحيب بإبراهيم ثم الترحيب بيعقوب واقطاع قومهم أرض فى البلاد .. أما عن «أور» مدينة إبراهيم الخليل فكانت فى الموضع الذى يسمى الآن «المقير» على الفرات الأدنى، ولم تكن فى «أورفه» كما تصور البعض.

ويحدد أطلس وستمنستر عصر إبراهيم بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٠٠ق. م.

وجاء فيه إن التاريخ حقق وجود بلاد فى أرض حاران تطلق عليها أسماء كأسماء آباء إبراهيم ، وعنى الأطلس فى مسيرة إبراهيم بمواقع رحلاته إلى مصر فى ذهابه وعودته، ومنها أرض الجنوب بين قادش وشور والتى تعرف اليوم بوادى غزة.

وعلى أية حال فالابحاث الأثرية تفسر بعض الأمور الغامضة ، وتؤكد مسار رحلة هذه الشخصية التاريخية، وهى تضع الكثير من الحقائق أمام البابا استعداداً لرحلته المقبلة.. وهذه الرحلة خطوة مهمة نحو لقاء الأديان على أرض الواقع والحقيقة. ولقاء الشرق والغرب فى باحة الاعتقاد وضمائر المؤمنين.

تمثال نصفى لتوت عنخ آمون





أهم اكتشافات القرن الأثرية :

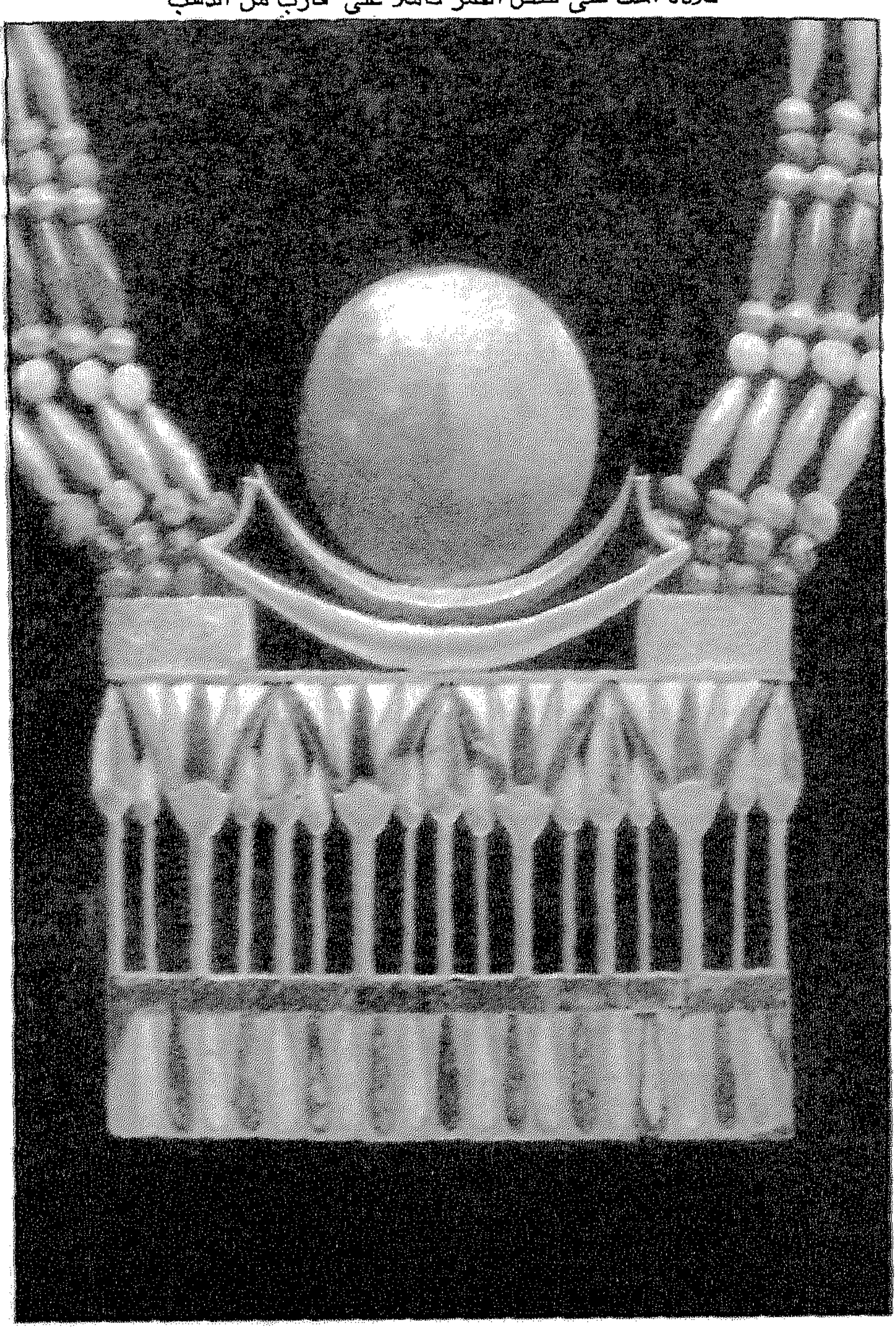
أسرار كنوز توت عنخ آمون

بقلم:
أحمد عبد الفتاح

احتفل العالم أخيرا بمرور ٧٥ عاما على أعظم الاكتشافات الأثرية في العصر الحديث ، ألا وهو اكتشاف مقبرة الفرعون الشاب «توت عنخ آمون» وكنوزه الثمينة النادرة ، والذي عد بالفعل «اكتشاف القرن» .

وإذا كان هذا الاكتشاف المذهل الذي حدث يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٢ في أعماق جبل طيبة بالأقصر قد هز العالم وقتها ، فإن كنوز الفرعون الصغير بالمتحف المصري بالقاهرة ما زالت حتى اليوم تجذب الأضواء ، وتبهر العالم شرقه وغربه بروعتها وسحرها النفاذ المبهر !

قلادة الملك على شكل القمر كاملا على قارب من الذهب



● وقد ساوى المؤرخون قيمة الاكتشاف عن مقبرة توت عنخ آمون بذلك الاكتشاف المذهل لرموز اللغة الهيروغليفية على يد شامبليون حين اكتشف سر حجر رشيد .

ولكن ما هى قصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ؟

إن الذى قام بالكشف عن تلك المقبرة الفريدة هو الأثرى الانجليزى «هوارد كارتر» الذى كان يقوم بالعمل فى وادى الملوك نائبا عن أحد أغنياء الإنجليز «اللورد كارنارفون».

وفى صباح ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٢ ظهرت للعمال المصريين أولى درجات مقبرة توت عنخ آمون المنحوتة فى الصخر ، فى لحظات مثيرة اكتنفتها ظروف تشبه السحر !

كان ذلك اليوم هو نهاية متاعب الأثرى «هوارد كارتر» الذى جاس خلال الوادى لمدة سبع سنوات بتمويل من كارنارفون فبعث كشف وادى آلفرعون الشاب الذى كان نسيا منسيا الفرحة فى قلبه وقلوب العالم أجمع .

ووجدت فى المقبرة كأس من خزف تحمل اسم توت عنخ آمون وجدت بين تضاعيف الصخر بالوادى ، وكذا شذرات من أوراق الذهب تحمل اسمه واسم زوجته داخل حفرة المقبرة، وبقايا أختام وجِراراً بعضها يحمل اسمه والبعض الآخر يحمل ختم الجبانة ، وكذا بقايا من الفخار والكتان التى استعملت يوم جنازة الفرعون .

وقد وجدت هذه المقبرة أسفل أكواخ عمال مقبرة رمسيس السادس التى تعلوها ، وقد وجدت أكداس من الأنقاض تملأ السلم .. وأختام على الأبواب والممرات التى تليها أوضحت أن ما تم كشفه شىء يفوق التصور والخيال ، فهو أمام قبر منحوت فى أعماق طيبة لم يمس ولم تقع عليه عين بشر منذ حوالى ٣٣٧٠ سنة بالرغم مما اجتاح الوادى من أحداث النهب من مقابر الملوك بدءا من عهد رمسيس التاسع ، ومن الغريب أن يفلت القبر من عبث اللصوص فى الوقت الذى نهبت فيه مقابر الفراعنة العظام مثل : تحتمس الأول (١٤٥٠ – ١٥٠١ ق.م)

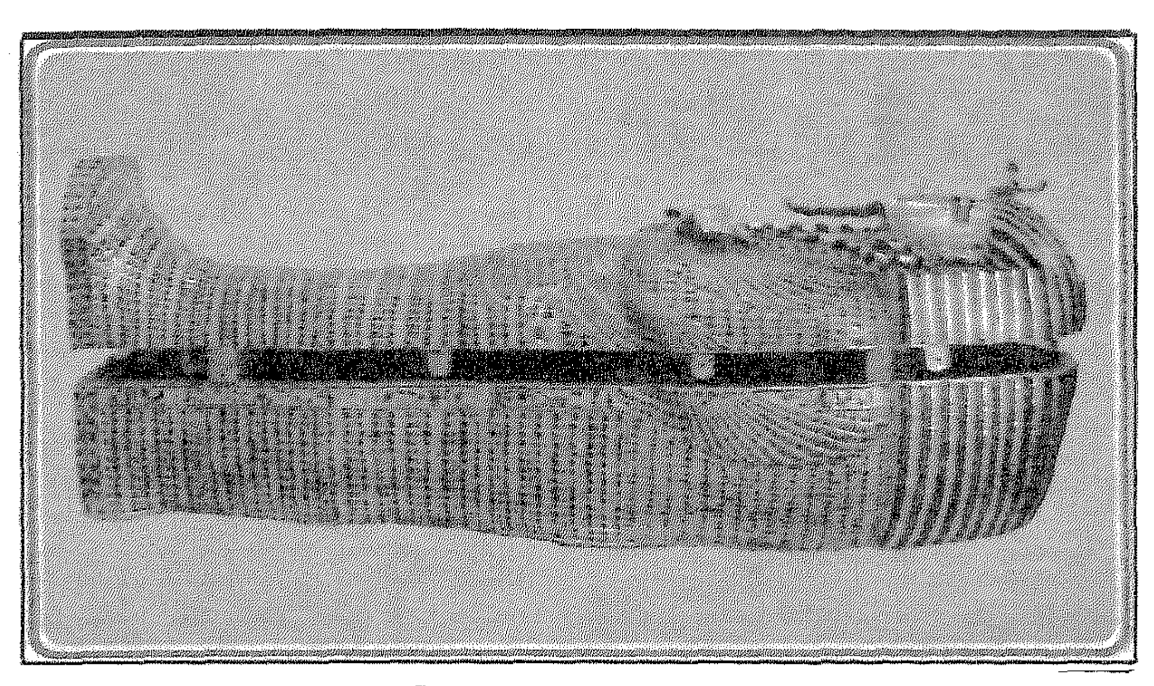
تحتمس الثالث (١٥٠١ – ١٤٤٧ ق . م)
حور محب (١٣٤٦ – ١٣١٥ ق . م)
رمسيس الأول (١٣١٣ – ١٢٩٢ ق . م)
رمسيس الثاني ورمسيس الثالث .

كنوز المقبرة

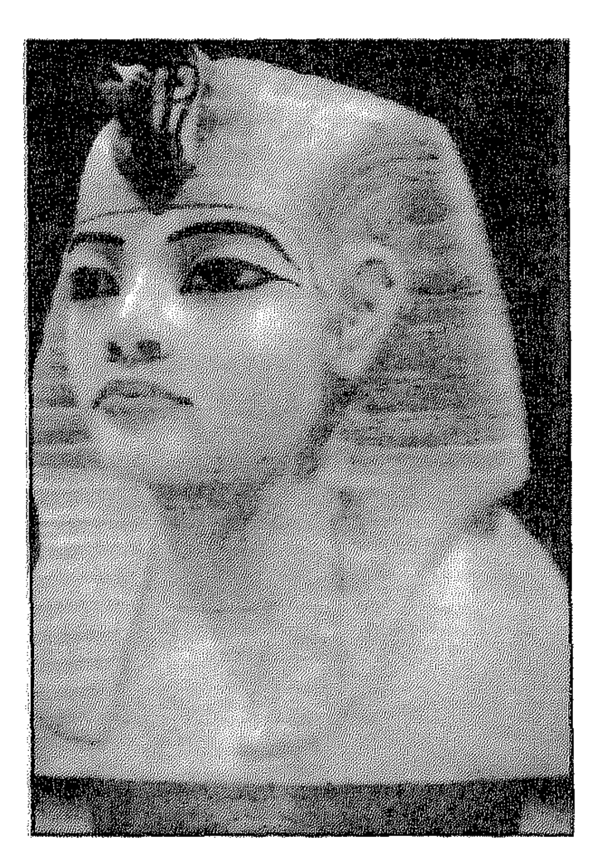
وقد كدست بالمقبرة الكنوز الثمينة بأسلوب مميز بالرغم من ضيق المكان ، وكان متاع الملك الذى عثر عليه بمثابة مقر كامل ، فقد عثر بالمقبرة على سرير وكراس وأصونة وأرائك وصناديق لحفظ المتاع ، وجرار من الرخام والزخرف لحفظ النبيذ ذكرت عليها بيانات كثيرة بمحتوياتها تشمل مقابر المكان الجغرافى لزراعة الكروم الذى صنع منه الخمر ، وتماثيل عدة من أحجار مصر الرقيقة ومعادنها وأخشابها تبدأ من التماثيل بالحجم الطبيعى ، وتنتهى بتماثيل صغيرة ذات قسمات حالمة وادعة لملك مصر الصبى الذى تشوب قسماته براءة الصبا والشباب الذى لم يتجاوز سنواته الأولى من أهمها تمثالان يصوران الملك بحجمه الطبيعي من البرنيق الأسود المذهب ويقبضان بأيديهما على مقامع وصوالج يحرسان المقبرة التى تعد فى حد ذاتها إحدى عجائب الآثار القديمة ، فهى عبارة عن أربع حجرات متداخلة من الخشب المذهب صورت على جدرانها من الداخل والخارج مقتطفات من «كتاب الموتى» وأرباب مصر ورموزها بشكل خلاب استعملت فيه الألوان الشعبية المصرية ، وتنتهى هذه المقاصير من أعلى بالطنف العصرى المحبب المألوف للعيون . كما كشف بقاعة المقاصير عن أربعة توابيت تعد من قطع الفن النادر المحبب للنقش ومن أهمها التابوت الداخلى وهو تحفة من الذهب الخالص ، تتلاءم ومقام عاهل مصر الراقد بداخله يبلغ وزنه مائة وعشرة كيلو جرامات من الذهب الصافى، ويبلغ طوله ١٨٧٫٥سم وبداخله جثمان الملك في رقدة الخلود ينطبق عليه قول الشاعر :

علو في الحياة وفي الممات

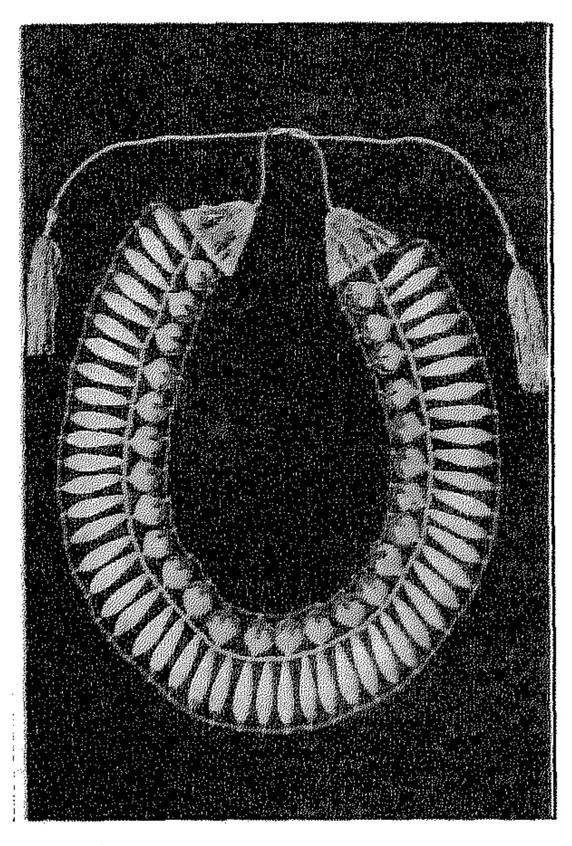
وقد وجد فوق رأس المومياء قناع الملك، وهو تحفة لا نظير لها فى فن البورتريه سبقت بها مصر العالم بأجمعه ، وهو من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة والزجاج الملون ، وقد



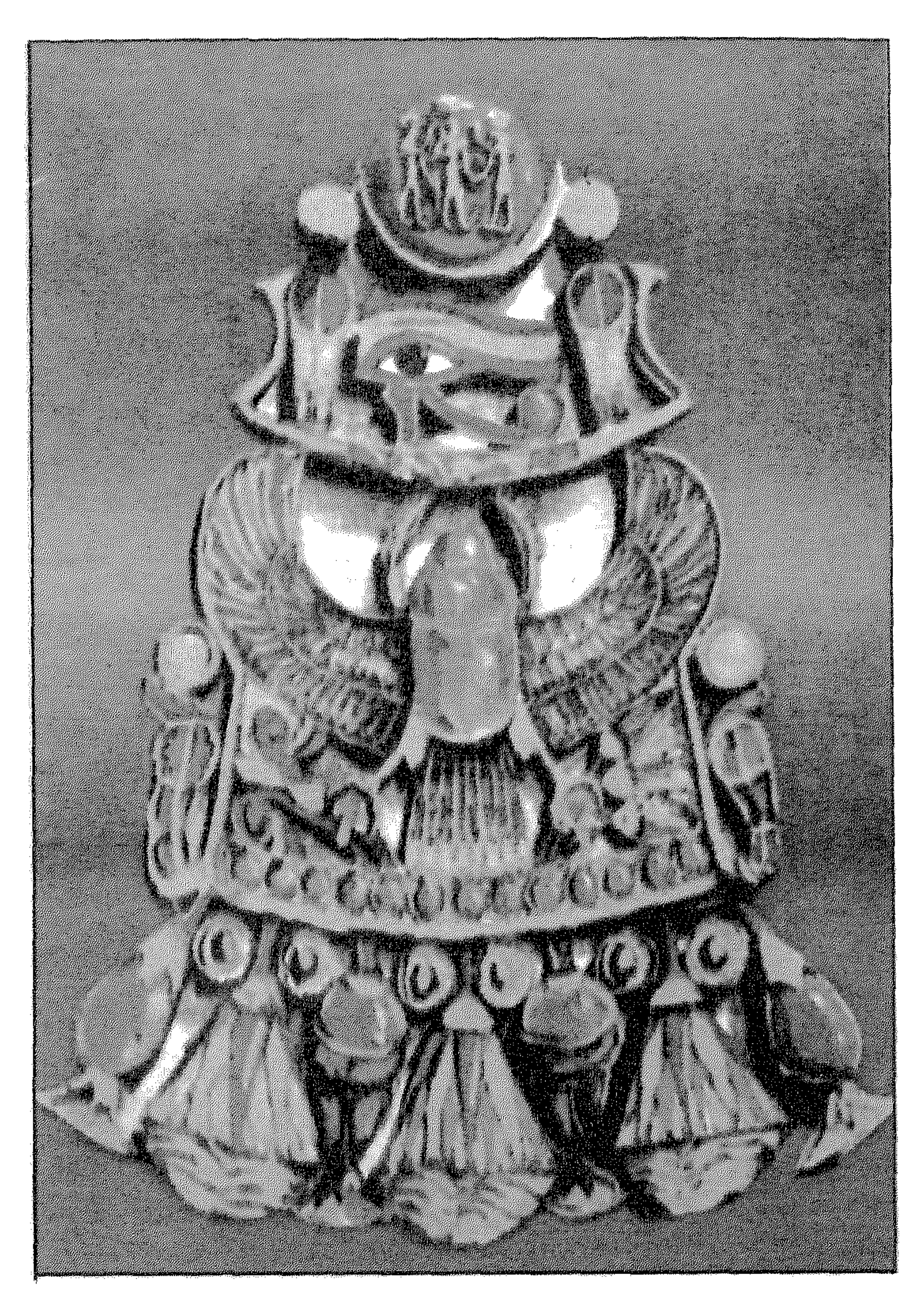
التابوت الثانى لتوت عنخ آمون



غطاء لقدر من قدور حفظ أحشاء الملك .
آية في النحت والتصوير



قلادة لتوت عنخ آمون من محفوظات
المتاحف الملكية للفن بروكسل - بلچيكا



أيقونة توت عنخ آمون

رصعت عين الملك بالدويسيدبان الأسود والمرو الأبيض ولَدّنت زوايا العين علامات من اللون الأبيض ، وثقبت الاذن ، ويظهر القناع مقتطفات من كتاب الموتى لحماية الرأس. وبالرغم من مرور آلاف السنين من يوم رحيله ودفنه مازال لهذا القناع الذهبى روعته وفخامته وسحره .

كذلك عثر من بين كنوز المقبرة على صندوق يعتبر من آيات الفن المصرى التى لم تتكرر، وهو مصنوع من الخشب المغشى بالجص وقد صورت على غطائه وجانبيه مناظر للملك فى الحرب والقنص أثارت الجدل والحيرة فقد صور أعلى الغطاء المقبى منظران فى قسمين الأول للملك يحارب الأعداء والثانى له وهو يطارد الوعول والغزلان والضباع والحمار الوحشى والنعام، وكل هذه الحيوانات تهرول أمام الملك متفرقة تحت سيل من سهامه .

وقد عثر داخل هذا الصندوق على مجموعة من أمتعة الملك من بينها أربعة أزواج من النعال أحدها مشغول بالذهب ، ومسند للرأس وملابس جميلة موشاة بالذهب أحدها مشغول ومرصع به ٣ آلاف وردة ذهبية . كذلك عثر بالصندوق على عديد من القلادات. ولعل من أروع قطع الأثاث التى عثر عليها داخل القبر هو الكرسى المعروف لدى علماء الآثار بكرسى العرش وقد صور على الظهر مشهد وكأنه أحد مناظر (صندوق الدنيا) : الملكة الصغيرة تقف فى مواجهة زوجها الملك الشاب فى جلسة عائلية ملكية فاخرة وتمد الملكة يدها اليمنى برفق لتلمس كتف الملك الأيسر لتضمخه بالعطر وتمسك وعاء العطر بيدها اليسرى وقد صُفّح المنظر بالذهب والفضة وصيغت ذراع الكرسى على هيئة حوتين مجنحين بينما الاقدام على هيئة مخالب الأسود ويعلوهما رأس الأسد . وأيضا يبدو المنظر وكأننا نسترق السمع الى ما يدور من همس جميل بين الزوجين فى أبهة القصر الملكى فى حينه ومنذ ٣ آلاف عام . ويبلغ ارتفاع الكرسى ١٠٢سم والعرض ٥٤سم والسّمْك ٦٠سم .

ومن أطرف القطع التى وجدت بالقبر صوان لحفظ الأمتعة على هيئة إله

التحنيط رابضا على صندوق ينتهى من أعلى بالطنف المصرى. والتمثال مدهون بالقار الأسود وعنقه رشيق تتدلى منه الشرائط المذهبة والعيدان من الذهب والحجر الجيرى والاوكسديان ويعلو هذا التمثال غطاء متحرك للقاعدة اسفله وقد عثر بداخله على العديد من القطع الأثرية ، تمائم من الفينس الازرق ثمان من صدريات ، واناءان من المرمر كما وجد بأحدهما بقايا رتنج أسود وقد وجد هذا التمثال مغطى بقميص من الكتان مؤرخ بالسنة السابعة بعد اخناتون وقد وضعه اللصوص على جسد التمثال ووجهه لكى لا يراه . كذلك عثر على مجموعة من أدوات المكتب بالمقبرة تثير الاعجاب بثقافة مصر القديمة ومعارفها من بينها المجموعة التالية :

١ – مقلمة على شكل عمود من الخشب والعاج والذهب المرصع بعجينة من الزجاج .

٢ – نموذج للوحة كاتب من زجاج أزرق ومن اقلام من المادة نفسها .

٣ – نموذج من لوحة لكاتب من الاردواز . أقلام من الزجاج . صقالة من الخشب لصقل أسطح ورق البردى لإعداده للكتابة .

٤ – مساطر كل منها يساوى ذراعا.

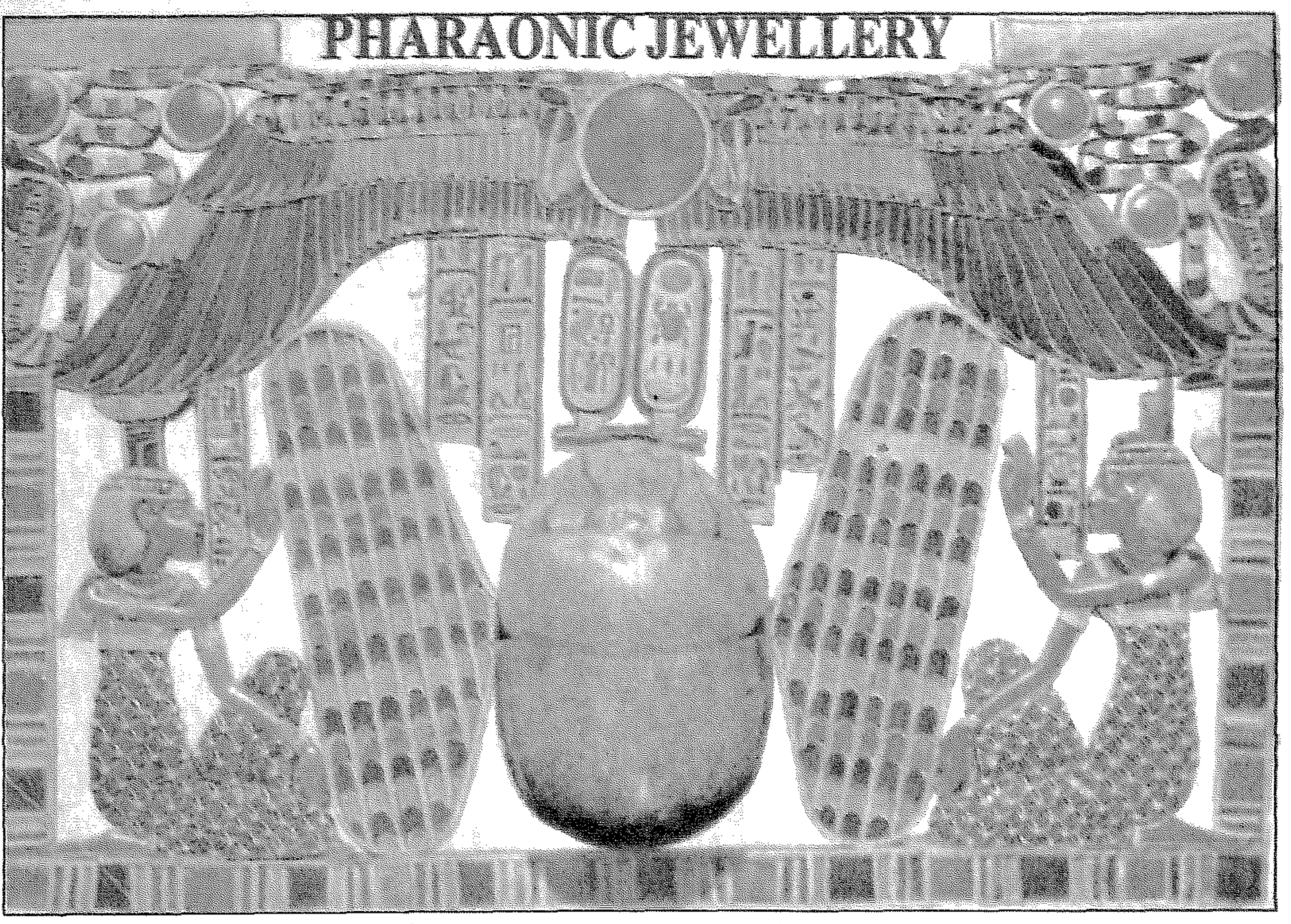
كما عثر بالمقبرة على طاقات للزهر وضعت أعلى قبر الملك لتوديعه وتذكارا لآلاف السنين لصق بأحدها يعسوب نحل كان يحوم حول صانع طاقة الورد .

وتمثل مقبرة توت عنخ آمون آية من آيات الآثار المصرية وهى بأكملها بمثابة متحف كامل من الآثار المصرية يحتل شارعين بالمتحف المصرى حاليا. ولا يتصور الانسان القاهرة بملايينها ومعمارها وتراثها والنيل الجارى يتخللها بدون وجود آثار توت عنخ آمون فى قلب القاهرة .

لعنة الفراعنة

من أغرب ما عثر عليه فى المقبرة لوح فخارى وجد على باب حجرة الدفن الأثرية مكتوب عليه : «سيذبح الموت بجناحيه كل من يبدد سلام مرقد فرعون» !

وما هى إلا سنوات قليلة حتى لحقت



إحدى حلى توت عنخ آمون - تحفة من الذهب الخالص والأحجار الكريمة.

اللعنة بكل من شارك فى هذا الاكتشاف الكبير ، حيث صحبته سلسلة من المفارقات بدأت بموت غامض للثرى الانجليزى «اللورد كارنارفون» ، واستمرت تلك المفارقات ليقف كارتر المكتشف فى محكمة باب الخلق ، وفى ظروف غامضة بعد عامين من ذلك الكشف مات عدد من الذين عملوا فى الكشف سواء الذين شاركوا فى الاكتشاف أو فى فحص مومياء الملك أو حتى إعداد الخزانات الزجاجية بالمتحف المصرى لعرض آثاره ، ومازالت المتاعب تلحق بكل من يتصل بكنوز توت عنخ آمون ، وتصل هذه المتاعب الى حد الموت بصورة غامضة حتى بعد مرور أجيال على هذا الكشف .

ويتسم كنز توت عنخ آمون بتأثير مغناطيسى هائل يسبى العقول ويخايل الخارجين عن القانون ويغريهم على الدوام بعدم الاقتراب منه !

وقد اعتبرت كل هذه الحوادث بسبب «لعنة الفراعنة» التى تلحق كل من يقترب من ذلك الفرعون الساحر !

من هو توت عنخ آمون ؟

ولكن من هو توت عنخ آمون ؟

اكتنفت فترة حكم توت عنخ آمون مفارقات مؤثرة فى تاريخ مصر ، فقد بدأ حكمه فى خضم هرطقة اختاتون ، وبالرغم من مظاهر الردة التى بدأها توت عنخ آمون ليهدىء الأحوال فى مصر ، وذلك بالقضاء على كل مظاهر الديانة الأتونية ، وتجسد ذلك فى المنشور الذى أصدر فى السنة التاسعة لحكمه لاعادة البلاد لسابق عهدها ، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن كافيا لترسيخ أقدام توت عنخ آمون فى الحكم وكان الطامعون فى العرش - وفى مقدمتهم «آى» الذى كان وراء ما اكتنف العهد من اهتزاز .

وقد تزوج توت عنخ آمون إحدى بنات إخناتون ، واكتسب بذلك القدرة على حكم مصر خلال الفترة من ١٣٥٤ - ١٣٤٥ ق . م واستمر حكمه لمدة عشر سنوات تخللتها حياة عائلية رائعة بين خمائل طيبة ونعيم الطبيعة المصرية .

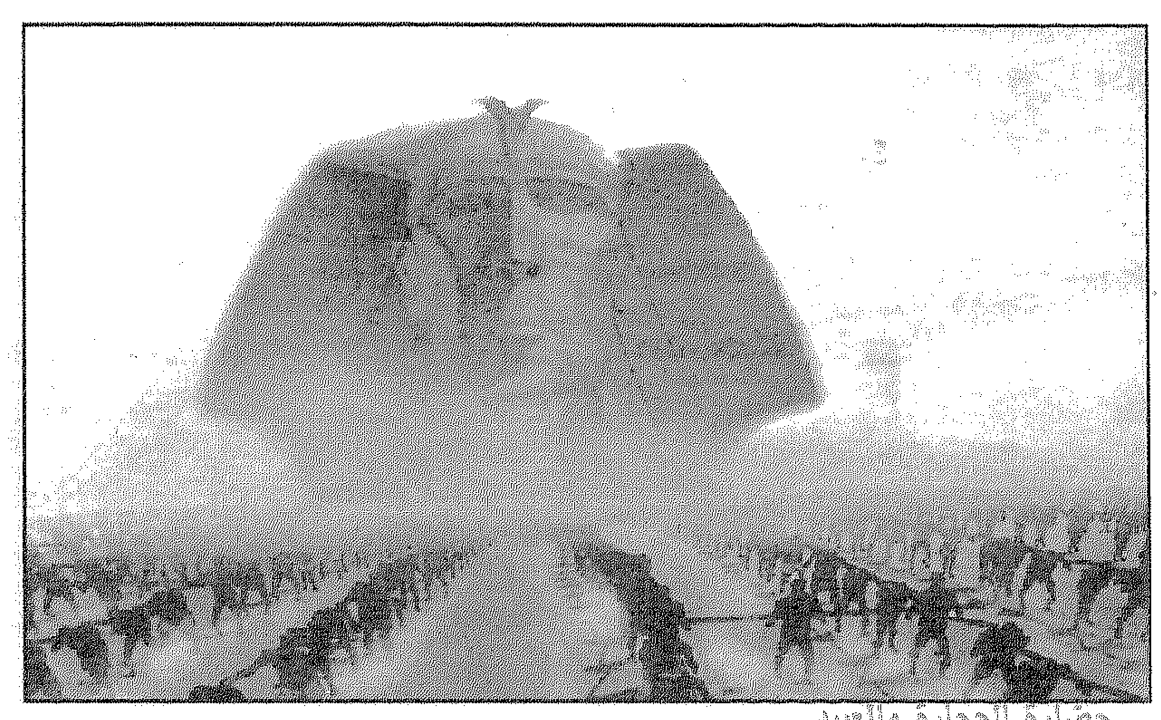
***

وبعد ، فإنه بعد مرور ٧٥ عاما على اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون بما تحويه من كنوز نادرة فإنها مازالت تبهر العالم وتثير إعجابه ودهشته .

من الوصايا العشر إلى أمير مصر..

بقلم : مصطفى درويش

«أمير مصر» ليس إلا فيلما واحدا من بين خمسة وخمسين فيلما مرشحة لجائزة أو أكثر من جوائز الأوسكار.. كما أن نصيبه من الترشيحات لتلك الجوائز أقل من القليل. إذ اقتصر على ترشيحين، أحدهما لجائزة أفضل موسيقي تصويرية مبتكرة، والآخر لجائزة أفضل أغنية مبتكرة. والأغنية المرشحة هى «عندما تؤمن» .



حضارة الحجارة والعبيد

والحق، أنه لولا العنوان «أمير مصر» لما أثار الفيلم ضجة لا عندنا ، ولا عند غيرنا، ولمر عرضه مرور الكرام .

● علام الضجة الكبرى ؟!

ولما استحق الضجة الكبرى التى أثيرت من حوله على صفحات عدد من جرائدنا ومجلاتنا، وبعضها ذو جلال .

ولا الجهد الجهيد الذى بذل من أجل الاثبات علميا بأن الفيلم قد شوه تاريخنا القديم، فأمير مصر فيلم رسوم متحركة لم يزعم صانعوه أنه فيلم تاريخى .

ومن بين ما قالوه عنه فى احاديثهم عن هذا الفيلم أنه مستوحى من كتاب التوراة الزاخر بالأساطير .

وبالمراعاة للغة السينما فقد ادخلوا على قصة النبى موسى بضعة تعديلات ، بعضها بالحذف ، والبعض الآخر بالتغيير.

● تراث مصنع الأحلام

وهم بفعلتهم هذه لم يكونوا مجددين. بل حريصون على أصول صناعة السينما التقليدية، كما أرساها رواد هوليوود الأوائل، وأخص بالذكر من بينهم.. «سيسيل دى ميل» :

فمما يعرف عن ذلك المخرج أنه قام بترجمة قصة النبى موسى الى لغة السينما مرتين، الأولى فى فيلم صامت غير ملون اسماه «الوصايا العشر».. ١٩٢٣ .

وكان ذلك فى فترة قل فيها اقبال يهود الشتات على الهجرة إلى أرض الميعاد .

والثانية فى فيلم متكلم ، ملون، وبنفس الاسم ١٩٥٦ .. وكان ذلك بعد اعلان قيام دولة اسرائيل بثمانية اعوام وانحسار موجة الهجرة اليها من قبل ابناء الشعب المختار.

ومما اثار دهشة الكثيرين، جنوح «دى ميل» فى كلا الفيلمين إلى تناول قصة موسى وبنى اسرائيل على أرض مصر ، وفى أثناء الخروج منها على نحو أريد به تصوير اهل مصر، وكأنهم ابناء شعب



المخرج الأسطورة تيرينس ماليك

أمير مصر

منبوذ كتب عليه ذل العيش فى أغلال العبودية لفرعون وقومه الظالمين .

وذلك السبيل الذى سلكه دى ميل من طبائع الامور فى هوليوود .

ولأنه كذلك ، فهو لم يهتم أو يهتز لما وجه اليه من اتهامات قوامها تحريف التاريخ .

ولعل خير دليل على ذلك، قصته مع اعتراض النقاد على استعمال اسم الأميرة.. «نفرتيرى» أو «نفرتيتى» فى فيلم «الوصايا العشر» المتكلم ، رغم أن التاريخ يقول إن هذه الأميرة قد عاشت فى غير عصر «موسى» ..

فوفقا لتلك القصة لم يعر «دى ميل» اعتراضهم اى اهتمام، وفوق هذا زاد من حيرتهم حين قال بلهجة ملؤها السخرية والاستهتار أن ثمة اميرتين بهذين الاسمين يفصل بينهما قرن ونصف من عمر مصر القديمة، وأن الأميرة العاشقة «آن باكستر» لموسى «شارلتون هستون» فى الفيلم هى «نفرتيرى» و«نفرتيتى» فى آن معا !!

● عار وشنار !

وإذا كان غريبا ومثيرا للدهشة تحريف التاريخ وتشويهه على النحو سالف البيان، فالأكثر غرابة ان يجىء «دى ميل» إلى مصر خلال عام ١٩٥٤ كى يصور فى ربوعها بعضا من مشاهد «الوصايا العشر» وان يشارك الجيش المصرى فى عدد من المشاهد التى صورت شعب مصر ، خاصة مشهد البحر الاحمر، وهو ينفلق كالطود العظيم، لينجو موسى ومن معه اجمعون، ثم يغرق الله الآخرين، أى فرعون ومن معه من الجنود المصريين ..

وفضلا عن ذلك ان يلعب «عباس البغدادلى» وهو ضابط مصرى فى سلاح الفرسان .. دور سائق عربة رمسيس فرعون مصر «يول برونر» .

وان تهلل وتكبر صحفنا فى ذلك الزمان لنجاحه فى اسر قلب حفيدة المخرج الكبير، التى اصطحبته معها الى الولايات المتحدة، حيث عاشا زوجين، مستمتعين بجنات العم سام .

ثم يتوج كل ذلك بحفل افتتاح كبير يعرض فيه فيلم «الوصايا العشر» بمدينة نيويورك يوم التاسع من نوفمبر لعام ١٩٥٦ أى فور اجتياح القوات الاسرائيلية شبه جزيرة سيناء بأيام بل قل بساعات معدودات .

كل ذلك افضت فى سرده بسبب أمير مصر، وما أثير حوله من ضجة كبرى، ارتفع صدى ضوضائها حتى اصم آذاننا، فأفسد علينا هدوءنا وتفكيرنا .

● أهل الكهف

ولو كنا نعيش بحق عصر ثورة المعلومات والاتصالات لما حصرنا اهتمامنا فى فيلم رسوم متحركة، لا يعدو أن يكون موضوعه تكرارا لقصة موسى فى الوصايا العشر، ذلك الفيلم الذى يعتبر تصوير بعض مشاهده على أرض مصر، وصمة عار فى جبيننا .

ولركزنا انتباهنا على فيلمين، كلاهما مرشح لسبع جوائز أوسكار وهما الفيلم الايطالى «الحياة جميلة» والفيلم الامريكى «الخط الاحمر الرفيع».

ولن اقف عند «الحياة جميلة» طويلا، وذلك لأن فرصة مشاهدته لم تتح لى حتى الآن .

ومع ذلك ففى وسعى أن أقول عنه إنه من نوع الكوميديا السوداء . إذ تدور أحداثه داخل معسكر اعتقال حيث يجرى حشد اليهود تمهيدا لإرسالهم الى محرقة الأفران .

● القاعدة والاستثناء

والغريب فى أمره أنه قد جرى ترشيحه لأوسكار افضل فيلم مرتين .

مرة ضمن الأفلام الخمسة الأجنبية، وذلك بوصفه فيلما ايطاليا ، وغير متكلم بالانجليزية .

ومرة اخرى ضمن الافلام الخمسة غير الاجنبية والمتكلمة باللغة الانجليزية ، وذلك رغم أنه غير متكلم بها .

ومن الأكيد أن ترشيحه مرتين أمر استثنائى ليست له سابقة فى تاريخ الأوسكار إلا مرة يتيمة ، حدثت قبل ثلاثين عاما بالتمام، لصالح فيلم «زد » للمخرج «كوستا جافراس» الذى فاز بفضل الاستثناء باوسكار افضل فيلم اجنبى، وكذلك بأوسكار افضل توليف .

وأغلب الظن أن «الحياة جميلة» سيفوز بدوره بأوسكار افضل فيلم اجنبى، وربما بعدد آخر من جوائز الاوسكار .

ولا يفوتنى هنا أن أشير الى فوزه يوم الخامس من مارس الماضى بجائزة سيزار الفرنسية لأفضل فيلم أجنبى .

وبذلك الفوز يكون قد دحر الافلام الاربعة التى كانت تنافسه على تلك الجائزة، ومن بينها أذكر «المحطة الرئيسية» او «محطة البرازيل»، و«تايتنيك» و«إنقاذ الجندى رايان» .

● البعث والتجلى

والآن إلى «الخط الاحمر الرفيع»، لأقول إنه فاز - قبل اسابيع - بالجائزة الكبرى «الدب الذهبى» فى مهرجان برلين الاخير وصاحبه المخرج الاسطورة.. «تيرينس ماليك»، أما لماذا هو اسطورة ، فذلك لانفراده بالاقدام على أمر لم يسبقه اليه احد من صانعى الافلام فقبل ستة وعشرين عاما أبلى بلاء حسنا بفيلمه الأول.. «الأراضى الرديئة» ..

وبعد ذلك بخمسة اعوام، عاد فاخرج فيلمه الثانى، «ايام النعيم» ..

وعن اخراجه فاز بعدة جوائز، من بينها جائزة مهرجان كان ١٩٧٩.

وكلا الفيلمين، والحق يقال ، رائعة سينمائية قل أن يجود بمثلها الزمان .

ولقد توقع اهل الاختصاص لصاحب الرائعتين، خاصة بعد تتويجه احسن مخرج فى مهرجان كان، توقعوا له أن يسطع نجمه فى سماء هوليوود، اسوة بمخرجين من جيله، اذكر من بينهم على سبيل التمثيل، «ستيفن سبيلبرج، جورج لوكاس، ومارتين سكورسيزى» .

غير أن ماحدث كان على العكس من ذلك تماما .

فاذا بصاحب الرائعتين يختفي عن الانظار وهو لايزال في ربيع العمر، ذا آمال بعيدة، وأمان عراض .

ويستمر مختفيا، زهاء عشرين عاما، وكأن الارض انشقت وابتلعته، دون أن تترك منه اثرا .

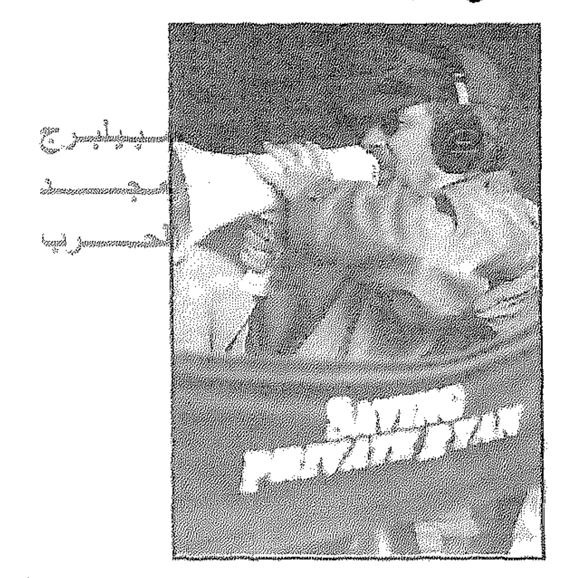
ومع ذلك الاختفاء الطويل اصبح نسيا منسيا وحتى ظنه البعض في عداد الاموات.

وفجأة ، ودون مقدمات عاد اسمه الى الظهور في وسائط الاعلام الامريكية ، مقترنا بشروعه في الاعداد لإخراج فيلم مأخوذ عن قصة للأديب الأمريكي الراحل «جيمس جونز» سبق ترجمتها الى لغة السينما قبل ثلاثين عاما .

تلك القصة هي «الخط الاحمر الرفيع».

وزمن احداثها بضعة ايام من أعوام الحرب العالمية الثانية، وأين ؟

في جزيرة «جواد الكنال» احدى جزر



سليمان الواقعة في المحيط الهادى ، وحيث دارت رحى حرب ضارية بين القوات الامريكية وقوات الغزاة اليابانيين .

● **منافسة غير متكافئة**

ومن المصادفات الغريبة أن يجيء اخراج «ماليك» لفيلمه الثالث مواكبا لإخراج «سبيلبرج» فيلمه عن الحرب العالمية الثانية «انقاذ الجندى رايان» .

وان يتنافس الفيلمان على بعض من أهم جوائز الاوسكار .

ولعله مما يفيد القارىء ويضعه في الصورة كما يقال ان اذكر ان «سبيلبرج» ساهم في انتاج «امير مصر» وأن فيلمه عن تلك الحرب مرشح لاحدى عشرة اوسكار ولا يفوقه في عدد الترشيحات سوى «شكسبير عاشق» ١٣ ترشيحا.

وأغلب العالمين ببواطن الامور في عاصمة السينما على يقين او مايقرب من اليقين ان فيلمه وليس فيلم «ماليك» هو الذى سيخرج من مضمار التنافس فائزا بالاوسكار .

ومما اود الاشارة اليه في صدد فيلم «ماليك» أنه ما أن تردد اعتزام المخرج المعتزل العودة الى صناعة الاطياف حتى اسرع عدد كبير من نجوم هوليوود الى التماس اسناد دور له ولو صغيرا .

ومن بين المحظوظين الذين وقع عليهم اختيار المخرج العائد ، اذكر اسماء «شين بين، نك نولت، جون ترافولتا، جورج كلوني وجون كازاك» .

● حسن الاختيار

واعجب العجب انه لم يسند الى اى من النجوم الكبار دور الشخصية المحورية فى فيلمه وهى شخصية الجندى «ويت» الهارب من الجيش ويعاد إليه قسرا .

وإنما اسندها الى ممثل شاب «جيمس كافيزيل»، لا يزال فى بداية الطريق .

وفضلا عن ذلك لم يسند إلى كل من «ترافولتا و كلونى» سوى دور صغير، لا يظهره على الشاشة الا لثوان .

و«الخط الاحمر الرفيع» وإن كانوا قد ادخلوه فى عداد الافلام الحربية شأنه فى ذلك شأن منافسه «انقاذ الجندى رايان» .

إلا أنه على نقيض الفيلم الاخير لايصور الحرب بوصفها جحيما بطوليا، ولا يعرض لها من وجهة نظر المنتصر ، المتشفى فى الاعداء.

فنظرة «ماليك» الى الحرب اوسع افقا واكثر رحابة .

فالحرب عنده كارثة كونية ، معادية للطبيعة وبحكم ذلك معادية للانسان .

وفيلمه يبدأ بالتغنى بتلك الطبيعة فى ثوبها الرعوى الساحر .

● الفردوس المفقود

فلأكثر من ساعة لم تسمع آذاننا لاطلقات ولا صرخات ، ولم تقع ابصارنا على جثة جندى ، ولا دماء تسيل .

كل ما سمعناه هو صوت الطبيعة، وكل مارأيناه هو ما انجبته تلك الطبيعة بمروجها الخضر ، من شجر وطير وحيوان وانسان .

وسرعان ما يتغير كل هذا بمجىء الحرب وآلتها الجهنمية التى تتحول بالنعيم الى أرض خراب و «ماليك» لا يسلط الاضواء على المعارك بغرض التمجيد للمحاربين فيها . وانما بغرض كشف بشاعتها ، وتسميمها للعقول والقلوب .

وحتى يزيد من احساسنا بأهوالها عمل على الا يخرجنا من الجزيرة حيث اخذ نعيمها فى التحول شيئا فشيئا الى جحيم مقيم .

فباستثناء بضع لقطات قصيرة صامتة يتذكر فيها أحد الجنود زوجته قبل الفراق الأليم ، باستثنائها نبقى اسرى الجزيرة مع المحاربين ، وآلة الحرب تحصد ارواحهم الواحد تلو الآخر .

وختاما يظل لى أن أقول إن «ماليك» اهدى إلينا فيلما رائعا ، لم يفسده التعثر فى التفصيلات والدقائق الخاصة التى افسدت بدرجة ما «انقاذ الجندى رايان» .

فمثلا شخصية الكابتن «جيمس ستاروس» الذى تمرد على رئاسته ، فى محاولة منه لانقاذ جنود سريته من موت اكيد كانت فى القصة شخصية يهودية باسم يهودى .

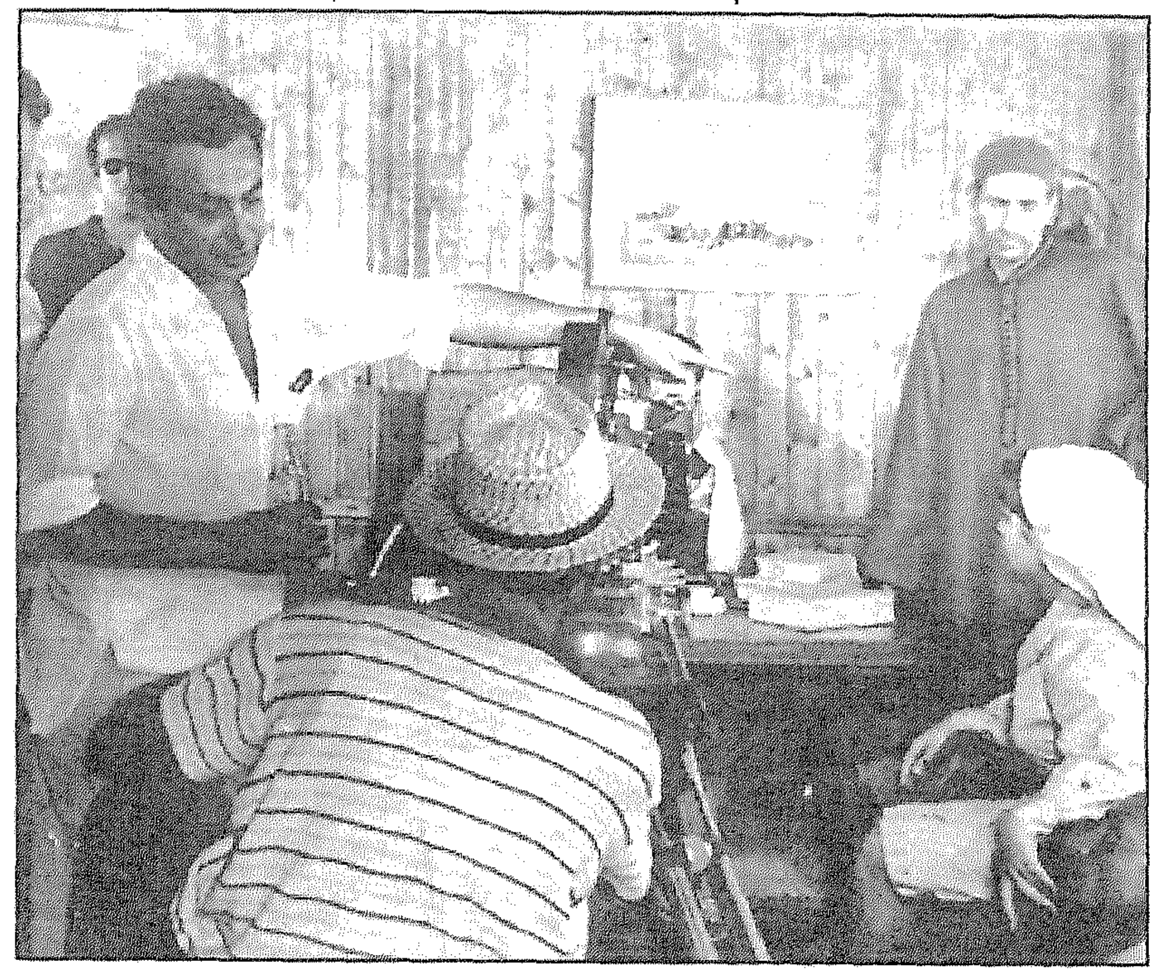
أما فى الفيلم فقد تحول «ماليك» بها الى شخصية عادية بغير تركيز على هويتها الدينية .

والشىء المحقق ان هذا التجريد هو الذى يميز «ماليك» على سبيلبرج مخرج «قائمة شندلر» ومنتج «امير مصر» .

مختصر القول :

أفلام توفيق صالح
هموم مستعادة

بقلم : صافى ناز كاظم



أثناء تصوير فيلم «المتمردون» توفيق صالح يشرح الحركة المطلوبة للكاميرا للمصور أحمد خورشيد

رغم صداقة قديمة تربطنى بالفنان توفيق صالح ، ترجع ربما لعام ١٩٥٦ أو ١٩٥٧ عن طريق صديق غال مشترك هو صلاح چاهين ، إلا أننى لم أكن قد شاهدت أيا من أعماله حتى زيارتى له يوم الإثنين ١٩٩٩/٢/٢٢ لتهنئته بجائزة الدولة التقديرية فى الفنون لعام ١٩٩٨ . وقد يبدو هذا الأمر غريبا إلى درجة الاستنكار ، لكن الظروف التى تحكمت فى مسار حياة توفيق صالح ومسار حياتى تبرر بقوة هذا النقص غير اللائق فى التواصل . فاتنى مشاهدة فيلمه الأول «درب المهابيل» - الذى أخرجه عام ١٩٥٥ - فى عرضه الأول لأننى وقتها لم أكن أذهب لمشاهدة أى فيلم عربى حيث كنت مكتفية بما تعرضه سينما الاندلس الصيفية المقامة أمام عمارتنا بشارع العباسية ، وكنا نشاهد كل افلامها العربية مجانا من كل شرفات ونوافذ شقتنا المطلة على شاشتها بوضع لوج ممتاز .



سميرة أحمد وشكرى سرحان وعبدالغنى النجدى فى فيلم «صراع الابطال»

وفـاتتنى أن أشـاهد «صـراع الأبطال» الذى أخـرجـه عـام ١٩٦١ و «المتمـردون» ١٩٦٦ ، لأننى كنت فى الولايات المتـحـدة الأمريكية فى فترة متصلة من ١٩٦٠ حتى ١٩٦٦ . ولا أعرف سـبـبـا واضـحـا فى ذاكرتى منعنى من مشاهدة فيلمه «زقاق السيد البلطى» ١٩٦٧ ، و «مذكرات نائب فى الأرياف» ١٩٦٨ . أمـا فـيلمـه «المخدوعـون» الذى أنتجـتـه سـوريا عـام ١٩٧١ عن رواية غسان كنفانى «رجال فى الشمس» ، وحصد لها العديد من الجوائز فى مهرجانات السينما العالمية ، فقد ظللت ألح على توفـيق صـالح أن يمكننى من مشاهدته وهو يسوِّف ، طيلة معاصرتى له فترة وجودنا معاً فى العراق بين ١٩٧٥ - ١٩٨٠ . وبالطبع لم أشـاهد الإنتـاج العراقى لفيلمه «الأيام الطويلة» الذى يعد آخر أفلامه حتى الآن . والحمد لله أصبح عندى الآن ڤـيـديو يمكننى من مـشـاهدة المتاح مما أريد مشاهدته ، وهكذا ، بعد أن أعارنى توفيق صالح نسخا من أشرطة أفلامه المنقولة عن برنامج «ذاكرة السينما» لسلمى الشماع ، جلست أسبوعاً أشاهد كل ليلة فيلما فى مهرجان خاص أقمته لنفسى لمشاهدة كل أعمال توفيق صـالح دفعة واحدة . وذكرنى هذا المهرجـان الخاص بما كان يحدث أيام دراستى فى جـامعـة نيـويورك حين كـانت تقام بحى الجامعة، فى سينما متخصصة لعرض روائع وعـلامـات الفن السـينمـائى ، مهرجانات شاهدت فيها «مهرجان شارلى شابلن» - كل أفلامه - «مهرجان جريتا جاربو» - كل أفلامها - «مهرجان انجمار برجـمـان» - كل أفـلامـه حـتى حـينه - «مهرجان أنتونيونى»، «مهرجان فللينى» ، «مهرجان كازان» ، مهرجان افلام الفن الرائدة مثل «السماء فوقنا والأرض تحتنا» و «دكتور كاليجارى» ... الخ. أهمية تلك المهرجـانات أنهـا تكدس فى الإحسـاس الوعى المكتمل بالفنان وهمومه المستوطنة وقضاياه المتسلطة أو «متسلطاته» - إذا أردنا إختصار المصطلح - فماذا تكدس لدى عند مشاهدتى مهرجانى الخاص لأفلام الفنان المبدع الأمين توفيق صالح ؟

★★★

داهمتنى فى البداية حالة من الدهشة الحزينة أمام كل هذه الهموم المستعادة . كـيف تأتَّى أن مـا كـان «بائداً» بقـيمـه «السلبية» و «المرفوضة» و «المحتج عليها» و «المطالب بإدانتـهـا» و «العـمل على التـصـدى لهـا حـتى لا تعـود» ، أصـبح «حاضراً» من جديد بوقع حثيث ثقيل يريد أن يستحكم ويسجل هو إدانته لمن أدانه وقاومه ؟ .

★★★

فى «درب المهابيل» - ١٩٥٥ - حدوتة بسطاء يواجهون شظف العيش ، وقصة حب شريفة يعوقها الفقر عن الإكتمال بالزواج ، وحق يتم إنتزاعه من صاحبه بنوازع الطمع الشـرسـة الكامنة فى

الطبيعة البدائية . ويعيد «صراع الأبطال» – ١٩٦١ – طرح أزمة الفقر كوباء ، متخذا عام ١٩٤٨ والعهد الملكى المستباح ساترا تدور فى زمنه مشاكل الوطن المزمنة ، طارحاً الخلاص فى بؤرة الوعى غير المزيِّف لجذور الأوبئة والأمراض والمعاناة . ويبدو البطل فى «يوميات نائب فى الأرياف» ساخراً سخرية الذى سبق له الحلم والتفاؤل بمستقبل أفضل ثم ضعضعته شبكة الفساد فأحنى رأسه واحتضن مثاليته بغصص المرارة : ما هو العدل ؟ ، ما هو القانون ؟ ، نص أم روح؟، وهل للقانون بنصه أو روحه قوة تحقق العدالة وزمامه بيد الظالمين ؟ . تساؤلات توفيق الحكيم مسجلة ١٩٣٥ ، وتوفيق صالح مسجلة ١٩٦٨ ، ولا تزال التساؤلات تؤرقنا . ومع «المخدعون» – ١٩٧١ – تصبح الرؤية أكبر من مأساة «رجال فى الشمسّ» ، إنها حقا الخداع والخديعة والخادعون والمخدوع بإرادته يمشى متحركا فى سراب الصحراء حتى الإحتراق مجازفا لعله يجد البديل عن



أحمد عبدالحليم ومحمد مرشد من فيلم «يوميات نائب فى الارياف»

أفلام توفيق صالح



برلنتي عبد الحميد وشكرى سرحان فى «درب المهابيل»

مذلة السكون وقلة الحيلة والجوع والأرض المسلوبة والتساؤل العريض أيهما أفضل إختيار الموت أم حياة بعد إجتثاث الرجولة؟، بل هو التساؤل : أيهما يكون الموت حقا ؟.

★★★

تعتمد سينما توفيق صالح على قدر كبير من الصمت الذى ليس هو الخرس ، بل خلق التواصل النفسي المشحون بين المشهد والمتفرج ، حين تكون اللفتة ونظرة العين وكدَر الوجه أو بسمة الشفاه هى المعبر الأبلغ أمام لا جدوى الكلمات . يختار وجه برلنتى عبد الحميد فى «درب المهابيل» و راوية عاشور فى «يوميات نائب فى الأرياف» ومساحات الصحراء الشاسعة وأفق الشمس البيضاء اللاهبة وجذوع النخل وهاماتها العالية قمماً نحو السحاب فى «المخدوعون» ، وجموع الفلاحين الواقعة تحت الحصار فى «صراع الأبطال» ، حركة وتخبطات الفزع لقطيع يهيم بلا قيادة ينشد الفرار من دون أن يدرى كيف وإلى أين . قليلون الذين يحترمون الصمت ويفهمونه ويدركون طيّات تربته وثراءها ، أما النادر فهذا الذى يعرف إدارته ويجيد طرحه ويدرك ضرورته الموظفة لإنطاق الفن السينمائى لغته الفريدة ، وهذا القليل وهذا النادر هو لب أسلوب الإخراج عند توفيق صالح .

★★★

تأخَّرَتْ عليك كثيراً يا توفيق جائزة الدولة التقديرية ، كما تأخرت أنا فى مشاهدة أفلامك ، لكن لا بأس ، لا عزاء للفنانين إلا بالفن ! شكراً لك .

الثقافة الفرنسية في مصر

بقلم : محمود قاسم

**طوال السبعينات، وحتى منتصف الثمانينات..
عانت بلادنا من حالة جدب ثقافى ملحوظ فيما يتعلق بالتعرف على ثقافات العالم من حولنا، وضعفت أنشطة الترجمة فى المؤسسات الرسمية، وغير الرسمية، وتوقفت السلاسل، وبدونا أشبه بأفراد العائلة الواحدة الذين يتزاوجون فيما بينهم فتصيبهم الأمراض الوراثية، وصرنا نعتزل أكثر فأكثر عن الكون من حولنا، فلا نعرف شيئا تقريبا عن التيارات الجديدة، ولا المبدعين الجدد، وانتقلت هذه الظاهرة إلى دول أخرى من حولنا، خاصة لبنان التى انشغلت بحربها الأهلية.**

ومع النصف الثانى من الثمانينات، بدأ بصيص من الأمل يتولد فى حياتنا الثقافية، وبذلت محاولات محدودة للكتابة أو الترجمة، ولا شك أن روايات الهلال كان لها الدور الريادى فى هذا الأمر، فترجمت روايات لباتريك موديانو وكلود سيمون، وآن تيللر، وغيرهم.

إلا أنه مع التسعينات، بدأت انفراجة ملحوظة فى عالم الترجمة والتواصل مع العالم، بدت فى أنشطة مؤسسات عديدة، منها المجلس الأعلى للثقافة، واصدار الألف كتاب الثانى عن هيئة الكتاب، ثم دخلت الدول بثقلها من أجل ترجمة إبداعها الحديث إلى اللغة العربية، حيث

تعاون قسم الترجمة والنشر بالمركز الفرنسى للثقافة والتعاون مع العديد من دور النشر الخاصة على ترجمة ابداع حديث، ودراسات مهمة تنتمى الى الثقافة الفرنسية.

وحتى الآن، فإنه لم يحدث أن دخلت دولة فى هذا السباق بنفس القوة، ولا الحيوية، التى قام بها الفرنسيون فى القاهرة، وكأنهم بذلك يعوضون سنوات الانقطاع الطويلة التى حدثت بين الثقافتين ليؤكدوا أن هناك ولعا خاصا بين البلدين.

وقد ركز قسم الترجمة والنشر تعاونه فى الترجمة مع ثلاثة فقط من دار النشر، هى دار المستقبل، ودار شرقيات، التى اكتسبت مكانة خاصة لدى المثقفين المصريين، والعرب باصداراتها العديدة فى السنوات الأخيرة، ثم مع دول العالم الثالث التى تهتم بالكتابات السياسية.

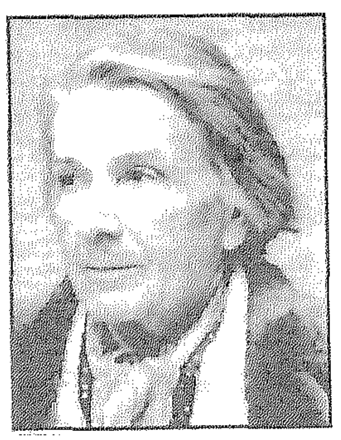
ووراء هذه الظاهرة اسماء فرنسية بارزة، لها حضورها فى الخريطة الثقافية الفرنسية التى ارتبطت بالحياة الثقافية المعاصرة، بدأها الباحث ريشار جاكومون، ثم استكملت المسيرة كاترين فارمى.

ومن المعروف أن أسماء الكتب التى يتم اختيارها للترجمة تحددها وزارة الثقافة فى فرنسا وأن دور قسم النشر هنا، هو اختيار دار النشر، والمترجم، وسوف نعود فى نهاية المقال للحديث عن أسماء المؤلفين الذين ترجمت أعمالهم دونا عن آخرين.

من الواضح أن الثقافة الفرنسية قد دخلت من خلال مشروع الترجمة الى حيز خاص من الجدية، والنشاط ففى سلسلة الدراسات الأدبية، والثقافية، صدر مثلا عن دار شرقيات كتب من طراز «مدخل إلى الأدب العجائبى» لتزفيتين تودوروف و«الوضع ما بعد الحداثى» لچان فرنسوا ليونار، و«مجتمع الفرجة» لچى ديبور، و«كبش الفداء» لرينيه جيرار. أما أهم هذه الكتب جميعها فهو «قصيدة النثر» لسوزان برنار، وهو كتاب يتتبع قصيدة النثر منذ بودلير، وحتى عام ١٩٥٨.



چان بول سارتر



ناتالى ساروت

وأهمية هذا الكتاب أنه أثر فى الكثيرين من الشعراء العرب المعاصرين، أو كما كتب رفعت سلام فى مقدمة الكتاب الذى راجع ترجمته: «فاعلية سوزان برنار فى الشعرية العربية الحديثة فاعلية تأسيسية للنظر، عبر جماعة «شعر» أولا.. ثم من خلال أدونيس ثانيا، فاعلية بالوساطة لا بذاتها، ولأنها كذلك، فهى منقوصة ومجتزأة، لأن أداة الفاعلية – الكتاب – لم يسمح لها بالحضور الذاتى المباشر، والمكتمل فى ذاتها».

وفى نفس المقدمة أشار سلام أنه لم تكن قصيدة النثر مشروع شعراء السبعينات فى مصر، كانت أحد تجليات مشروعهم الشعرى، المضاد للانشادية والنمطية، واعادة الانتاج، لا المشروع ذاته، لم يكن السؤال المطروح، لكنها كانت إحدى علامات الاستفهام الضمنية المضمرة، ما من مفاضلة بين «التفعيلى» و«النثرى» فى دائرتهما المجردتين المطلقتين وما من أحكام قيمة...»

أما عن الابداع، فقد كان أغلبه فى مجال الرواية، ومن الواضح أن الاختيارات هنا لم تتم على أساس بعينه، اى بتقديم الابداع الحديث وحده، وتعريف القارىء العربى بالأسماء الجديدة، بل أن بعض الروايات المطبوعة، هى بمثابة اعادة طبع لروايات مهمة، سبق للقارىء أن عرفها فى سنوات سابقة، سواء فى مصر أو لبنان، لكنها فى الأعم لم تصل الى قارىء نهاية القرن، وإن كان بعض قرائنا الشيوخ قد سبق لهم اقتناؤها، وقراءتها، والكثير من هذه الأعمال ينتمى إلى ابداع القرن التاسع عشر، ومنها على سبيل المثال، «مدام بوفار» لجوستاف فلوبير، التى صدرت فى أكثر من طبعة وترجمة فى مصر، لكن هذه الترجمة حملت اسم الدكتور محمد مندور، ثم «دير بارم» و«الأحمر والأسود» لستندال من ترجمة عبد الحميد الدواخلى، وهما بالطبع أعمال



آنى إرنو



مرجريت دوراس

بالغة الأهمية فى الرواية العالمية، ومن المهم التعرف عليها، خاصة بالنسبة للجيل الجديد الذى قد لا يمكنه الحصول عليها الا من خلال مكتبات الكتب القديمة، أو مكتبات المؤسسات الثقافية.

فى الستينيات انبهر المثقفون العرب، بما قرأوه عن كتابات تيار اللاوعى، وحاول الكثيرون من الكتاب أن يكتبوا أعمالهم متأثرين بما قرأوه ولكنهم هم أنفسهم صدموا حين وجدوا نوعا من الكتب تختلف تماما عما تخيلوه فى هذه الكتابات، وبالتالى، فقد اشتدت الصدمة عندما ترجمت بعض هذه الأعمال مثل «الأمواج» و«الفنار» لفرجينيا وولف و«عوليس» لجويس، وبالطبع. قرائنا «البحث عن الزمن المفقود»، لبروست.. ومع هذا فإن طبقات هذه الروايات قد نفدت جميعها أكثر من مرة، لأن المثقف العربى أحس أنه من الأهمية اقتناء هذه الأعمال، حتى وإن لم يستوعبها.

وأغلب الظن أن كثيرين ممن اقتنوا الطبعة الجديدة (٤ أجزاء) من رواية بروست لم يستكملوا قراءتها، فهى تحتاج الى ثقافة خاصة، وقدرة على الاستيعاب، والأجزاء الأربعة التى صدرت من الرواية بترجمة إلياس بديوى لم تمثل الرواية الضخمة التى صدرت فى فرنسا فى أحد عشر مجلدا، وان كانت أكثر اعمال تيار اللاوعى سهولة من حيث قراءتها.

وبالاضافة الى هذا العمل، فإن هناك كتبا وروايات أخرى أعيد طبع ترجمتها مثل السيرة الذاتية لچان بول سارتر المعنونة «الكلمات» من ترجمة الدكتور خليل صابات.

اما عن الابداعات الحديثة، فقد كانت البداية جيدة للغاية، حين تم تعريف القارىء بروائى عاش فى مصر لبضع سنوات، وتأثر بحضارتها، وكتب رواية هى «عبدة الصفر» الكاتب هو آلان نادو، والغريب أن الكاتب قد قوبلت روايته باستحسان لدى القارىء العربى أكثر مما حدث فى بلاده، وتوقعنا أن يتم اختيار روايات أخرى لكتاب معاصرين على نفس المستوى، لكن الأمر تباين من كاتب لآخر، فلا شك أن شهرة الكاتبة آنى إرنو فى فرنسا أكبر بكثير من نادو، ولكن أهمية هذا الأخير تفصلها مسافات عن مكانة إرنو نفسها، ورغم ذلك، فإنه بعد صدور ترجمة روايتها الأولى «المكان» قامت بزيارة مصر، وأغلب الظن أنه تم الاتفاق معها على ترجمة المزيد، فكانت روايتها الثانية «امرأة».. وهى عمل صادق لكنه متواضع للغاية، قياسا الى ما يوجد الآن فى خريطة الأدب الفرنسى المعاصر.

صحيح أن هناك ترجمات لأدباء، وأديبات، لهم مكانتهم مثل ناتالى ساروت، التى ترجمت لها رواية «طفولة» مثل مرجريت دوراس التى ترجمت لها

«الكتابة»، لكن لاشك أن هناك أعمالا أخرى لنفس الكاتبتين، مثل رواية «عشيق شمال الصين» لدوراس، ومن المهم أن نحى ترجمة الرواية الذاتية التى كتبها مارسيل بانيول المعروفة بـ«ذكريات الطفولة» فى اربعة أجزاء، لكن لاشك أن أسماء مجهولة من طراز لوى - رينيه دى فوريه صاحب «الثرثار»، تجعلنا نسأل: أين هو فى خريطة الأدب الفرنسى المعاصر، رغم أنه فى الحادية والثمانين من العمر؟

والغريب انه رغم هذا المجهود الضخم من الترجمة، خاصة الذى نراه فى دار شرقيات، فإن المرء يحس أنه فقط أمام مشروع ترجمة، أكثر منه مشروع تواصل ثقافى، فأغلب هذه الروايات المترجمة تخلو تماما من دراسات عن مكانة المبدع، صاحب الرواية، فى اللغة، التى يمثلها، وهذه الدراسات مهمة للتعرف على الكاتب، وأعماله وأهمية الرواية المترجمة ومكانتها فى الخريطة الأدبية، إذ ليست الترجمة وحدها كافية ولعل الكلمات المختصرة التى كتبتها الدكتورة منار رشدى مترجمة رواية «الثرثار» عن المؤلف دى فوريه، لم تقدم شيئا مفيدا من عالم كاتب مجهول تماما، حتى لدى الفرنسيين أنفسهم، باعتبار انه قد كتب أعماله الأربعة على مدى خمسة وخمسين عاما، فلم يشكل ظاهرة.

كما أنه من الملاحظ أن أيا من الروايات الفائزة بجوائز أدبية، مثل جونكور و«رينودو»، لم يتم الاقتراب منها وذلك باعتبار انها الروايات الأحسن، والأكثر انقرائية، حيث يقال أنه فى فرنسا يقرأ الناس الروايات المضمونة، اى الفائزة بجوائز قام باختيارها لهم، أعضاء مجالس إدارات الاكاديميات مثل جونكور، والأكاديمية الفرنسية، وفيمينا وانتراليه ورينودو وغيرها.


مارسيل بروست


مارسيل بانيول

الفنان
فى المجتمع الاستهلاكى

بقلم : حسن سليمان

تذهب العقائد القديمة الموغلة فى القدم أن هناك أربعة سبل للتوحد مع الإله: طريق المحارب، وطريق الراهب، وطريق العاشق، وطريق الفنان. يقصد من يشحذ نفسه دائما بالعاطفة، ولا فرق لديه بين الحياة والموت، ولايستطيع متاع الدنيا كله أن يجعله يغير من قيمة يؤمن بها.

ورغم أن طه حسين كان لا يرى، إلا أنه كان لديه وعى فنى غريب، فزيادة على دعوته لكبار فنانى العالم من كل الدول أثناء توليه لوزارة المعارف ليعرضوا فى معرض بالقاهرة لم يحدث فى تاريخ مصر أن أتى مثله، ولازال يذكره من لازال على قيد الحياة من جيلى، بل ذهب أبعد من هذا إلى دعوة ثلاثة من كبار فنانى فرنسا ليدرسوا لنا فى كلية الفنون فترة زمنية محددة وهم أندريه لوت، وشابلان ميدى، وسافان.

كانت بداية أول محاضرة لشابلان ميدى، ومازلت أذكرها جيداً ما معناه أن من دخل كلية الفنون كى يكسب نقوداً أو ليحصل على وظيفة تشغله عن الفن فعليه أن يترك كلية الفنون فى التو ليدع غيره يتعلم. وعلى طالب الفن حتى لو وصل وأصبح شهيراً أن يظل طالبا للفن مدى الحياة لأن هدفه الذى يصبو إليه هو الكمال ولن يتحقق هذا. وكل فنانى فرنسا تركوا وظائفهم رغم احتياجهم الشديد للمادة لأنهم اكتشفوا أنها تعوقهم عن الممارسة الجدية. فعلى الفنان، بل دعنى استخدم اصطلاح طالب الفن، أن يعمل بصورة مستمرة ست ساعات يومياً مهما تقدم به العمر وتقدمت خبراته.

★★★

حمل لى مدرس فى كلية الفنون صورة كى أنقدها وجدت أنه ينقصه التباين من

علو وانخفاض في درجات اللون، كما ينقصه نقطة ارتكاز ترتكز عليها عين المشاهد حتى تنتقل بعد ذلك عبر اللوحة كي تربطها بعضها ببعض. سألني ما رأيي؟ قلت له أترك الرسم لفترة، وأنصت فيها إلى تلاوة الشيخ محمد رفعت للقرآن، كذلك أنصت إلى موسيقى باخ لترى مع الاثنين تباين الدرجات بين علو وانخفاض. وأنصت إلى الشيخ النقشبندى لترى كيف يهاجم الصمت دون زخرف أو تلوين. جمع أعماله ومضى. ولم يلبث أن شاع الأمر وأصبح مادة للتندر والتهكم : فنان ذهب إلى حسن سليمان ليريه أعماله فقال له كف عن الرسم واسمع الشيخ محمد رفعت. ولم يمض وقت طويل حتى اتضحت الأمور، فقد حمل لى أعماله عندما حتم عليه كي يرتقى فى سلم التدريس ويحصل علي الأستاذية أن يقدم أعمالا فنية، فأتى إليّ كي أصلحها له. وبعد حصوله على اللقب نسى الفن والرسم كلية، وأصبح يستخدم لقب دكتور فى كل مناسبة، ثم ذهب ليعمل كأستاذ للفن بجامعة الرياض. جمع نقودا، وترك الفن جانبا، لكنه معدود على الحركة الفنية كأستاذ دكتور فنان.

لعبة التفرغ!

وآخر جاء نى ليأخذ رأيى وهو فى بدء حياته الفنية. سألته ماذا يفعل؟ فأجاب أنه يعمل خطاطا. قلت له هل درست الخط العربى؟ قال لا. قلت له لابد أن تدرس أصول الخط العربى وقوانينه الصارمة واتزانه، وسيفيدك هذا جداً، لا فى عملك الذى تتكسب منه وحسب، بل فى مستقبلك الفنى إن أردت لك مستقبلا فى الفن. وعليك أن تتمم تعليمك وتتعلم اللغات حتى تستطيع أن تطلع على التيارات الفنية وتعرف أصولها. لم يعجبه الأمر، فهو عجول، وأرسل لى خطابا يعاتبنى على موقفى منه وعدم أخذى بيده. ولم يمض وقت طويل حتى فهم اللعبة. قدم فى التفرغ قبل طلبه وأصبح ضمن فنانى الدولة دون تمعن. وفى منشأ التفرغ كان حامد سعيد لا ينظر إلى الطلبات المقدمة فقط بل يعتمد على نفسه فى دراسة الحركة الفنية واختيار من يبشر بمستقبل. ولا يكتفى بكل هذا، بل على الفنان الذى اختاره أن يجتاز اختباراً شخصياً وبعد ذلك يضعه فترة تحت الاختبار. ولكنى لا أعلم كيف اختير صاحبنا ووفق أية مقاييس. ولم يلبث أن استهوته لعبة جديدة : فأصبح يجمع (الشكمانات) وقطع الخردة، ويضعها مع بعضها فى تشكيلات عبثية. بينما الفنانون الذين يعملون فى مثل هذا التيار تبهرنى دراساتهم الأولية وتخطيطاتهم للتمثال الذى يريدون تكوينه من جميع الزوايا والاتجاهات قبل أن يجمعوه. وهذا التقليد امتداد للنحت القديم فى دراسة التمثال فى جميع الأوضاع. وحتى برانكوزى فى أواخر أعماله لم يندفع اندفاعة الجهال ليجمع قطعه بجانب بعضها، بل كان

يدرس محاولاته أكثر من مرة على الورق. ومضى الوقت وفوجئت به يهاجمنى دون سبب. ولأنه لم يتمم تعليمه فهو لم يفهم مقالاً لى. وكتب إننا لسنا فى حاجة إلى نقاد، بل فى حاجة إلى من يؤرخ للفن. الغريب أننى لم أنقد لوحة فنية فى كل كتاباتى، وكتاباتى لا تخرج عن تأريخ للفن وفق مقاييس الثمانينيات والتسعينيات. أصبت بحيرة. هل يظن أنه أصبح فنانا؟ وهل يظن أن التفرغ سيدوم إلى آخر العمر؟ ولو دام : ما قيمته؟ إن الفنان هو الذى يستطيع أن يقف على قدميه بمفرده، وأن يعيش فى وجدان شعبه، والدولة لا تستطيع أن تفرض فنانا.

إننى فى وقت صعب، ولا يمكن لشئ أن يجرنى إلى مهاترات الرد، وانتصارات «دون كيشوتية». فالعمر يمضى، وليترك من يصرخ يصرخ. فقط إنى أحسد شجاعة الجهال فأنا لا أملك مثل اندفاعهم. والغريب أن كل كتابات الفنانين الخالدين وتصريحاتهم تدل على عمق ثقافتهم وشموليتها. أما هنا، فالضحالة والتبجح هى التى تسود.

الفنان يجب أن يجدد

فى المجتمع الاستهلاكى تعم مقولة أن الفنان يجب أن يجدد .. أن يستعرض الجديد. لا أن يتخذ موقفا جاداً، أو أن يؤصل تجربته، كما كان كل الفنانين عبر العصور. هل مفروض على الفنان أن يجدد كما تجدد السيدة من الطبقة الثرية تنجيد مفروشاتها أو دهان جدران منزلها. هل لنا أن نسأل لماذا لم يجدد بيتهوفن أو برامز أو فان جوخ أو سيزان؟ وهل لنا أن نسأل لماذا لم يجدد الفن الفرعونى أو اليونانى القديم؟ ولماذا لم تجدد الصين فنها إلى الآن وقد دخلت عصر التكنولوجيا من أوسع أبوابه؟.

فى مثل ذلك المجتمع الذى نحن بصدده كل شئ يرتبط بالاستهلاك، فلابد أن يكون هناك دائماً ما يبرق لأن الطبقة التى أصبحت تملك النقود هى نوعية كالسماسرة ووكلاء الشركات الأجنبية ومن يعمل لتنمية رأس المال الأجنبى والترويج له. وهم بوجه عام لا يتذوقون الفن ولا وقت لديهم لهذا. هم لا يفهمونه بقدر ما يتخذونه وسيلة للاستعراض الترفى.

وبوجود سماسرة الفن بين المتلقى والفنان فانهم يحاولون فرض طلبات معينة لمجاراة السوق وهو ما يرفض الفنان أصلا الخضوع له. وهكذا لا تجد تلك الفئة من السماسرة طوع يديها سوى أنصاف الفنانين والمدعين. وهؤلاء بما أنهم لا يملكون أسلوبهم الخاص المرتبط بموقفهم ومجتمعهم يستعيرون نماذج وأساليب ومفردات فنانين آخرين من المجتمعات الأخرى. لكنها تصبح أشكالا وزخارف دون مضمون ودون صراع الفنان مع مفردات صنعته، تستخدم كزينة لحياة

الرجل الذى اغتنى، بالضبط كتغيير ستائر منزله. وهنا يربط الفنان بحلقة الاستهلاك، فما ينتجه يصبح قيمة مستهلكة قد يغيرها المقتنى. وبذلك يصبح الفنان نفسه سلعة. أضف إلى هذا أن قلة من الفنانين هى التى أصبحت تهتم بالخامات التى تستخدمها كى يكون للعمل الفنى البقاء. وهكذا لا يصبح للفنان معنى لحياته أو معنى لوجوده أو معنى لما يعمله لأن عمله لا دوام له.

إن الفن هو احتياج إنسانى يرجع إلى مدى ارتباط الفنان بأرضه. لكننا نواجه بنماذج غريبة فى الإمكان تصنيفها كالآتى:

● فنانون يحاكون كل الاتجاهات التى تغالى فى شطوطها من فنون الغرب، إدعاء منهم بأنهم أصبحوا معاصرين، وهم بهذا كالريفيين من المصريين الذين كانوا ينالون البعثات إلى الخارج فى أول القرن فيرجعون إلينا وقد لبسوا على رؤوسهم «البرانيط» ووضعوا فى أفواههم «البايب» بينما هم فى كل تصرفاتهم الكبيرة والصغيرة أولاد مخلصون لبيئتهم، فقط مظهرهم هو الذى تغير.

● فنانون يرسمون للسائح الأجنبى صوراً تحاكى مناظر من البيئة دون عمق أو دراسة أو تأصيل لواقع.

● فنانون يثبتون نماذج من الفن الشعبى ويكررونها، وكأن البلد أو الفن الشعبى قد ثبت وتجمد على هذه النماذج التى يخلطونها بأشخاص رسموا على الطريقة الفرعونية من الجانب وبلون واحد. إنهم يجترون نماذج من الماضى دون فهم لمعنى وجودهم.

● فنانون قد وقعوا فى أكاديمية فجة رديئة متجمدة تمتلئ بأخطاء فى الرسم والتلوين والتكوين.

● فنانون يغطون السطح بأى ألوان أو أى شخوص، وتقدم الصورة على أنها تعبر عن «صبرا وشاتيلا» ثم يقدم نفس العمل بعد ذلك على أنه «انتصار العروبة»، ثم تغير أجزاء من العمل ويقدم للبينالى، وأخيراً تسمع أنه أضاف له بضع بقع وسماه «انتصار الإرادة فى توشكى». إن الشعارات لا تصنع فنا.

ولا نجد إلا نادرا الفنان الذى يؤصل تجربته بارتباطه بكل ما حوله، فينتج فنا هو ابن بيئته، حتى ولو كان تجريديا.

إدعاء الفن

إن كل ما نجده فى المجتمع الاستهلاكى غير المنتج هو محاكاة لأشكال دون فهم المنطق الذى أدى لمثل هذا الشكل أو المضمون، أو فهم أن أى شكل هو نتيجة لعوامل ووظائف تصبح ضرورة حتمية لإيجاد هذا الشكل. ويصبح مدعى الفن مريضاً نفسياً يكذب على نفسه أكثر مما هو يكذب على الآخرين.

إن المسألة ليست هى الضغط

الاقتصادى، فقد وجد فى أوربا، وفى أثناء الحرب العالمية الثانية، أكبر ازدهار فنى فى العالم فى القرن العشرين. إن المشكلة تنحصر فى انهيار القيم واختلال المقاييس، وإيجاد المبررات دوما، وفقد الحنو الانسانى.

انتهى العالم الآن من مناقشة ضرورة الفن ووظيفته. ومع العلم أنه فى مثل مجتمعاتنا تتضاعف وظيفة الفن : الفن النابع من المجتمع نفسه، لا الفن الذى نستورد مظاهر انهياراته من المجتمعات المتقدمة، إلا أنه لم تبد أية بادرة أو محاولة لوجود من لهم الوصاية الحقيقية على الفن. ولا نقصد هنا وصاية الدولة أو النظام، بل نقصد وصاية النقاد الحقيقيين، ووصاية الذواقة الحقيقيين. ومع غياب الوصاية السليمة تتضاعف وظيفة الفن ومسئولياته، تتزايد مع انهيار المجتمع. إنه لم يعد سوى موقف واحد يجب أن يتخذه الفنان وقضية واحدة يجب أن يتبناها ألا وهى أن يرسم فنا صادقاً يعيه من حوله، يحركهم ويدفعهم للانضباط وعدم الاستسلام لواقع مر.

إن التجربة أثبتت أن الطبقة السياسية فى المجتمعات المتخلفة لا تحس بالفن أو ضرورته أو وظيفته، ولا تفرق بين عمل صادق وعمل زائف. ومما زاد الطين بلة أن الانتهازيين ربطوا الفن بالشعارات والدعاية السياسية، وأصبح شيئا معتادا أن نقرأ أو نسمع عن معرض لفنان (يضم عدداً من اللوحات التى تعبر عن النهضة المعاصرة) بينما المعرض كله عبارة عن إرهاصات تجريدية. وهل رسم العامل أو الآلة يمكن أن يزيد الإنتاج؟!.

لا نستطيع أن ندعى أن الطبقة التى كان الفن بالنسبة لها ضرورة وحتمية ولا يمكن لها أن تعيش دون فن لازال لها وجود على الاطلاق. بل بالعكس : فالطبقة التى تكونت الآن إن كانت تدعم أو تسمح باستمرارية ما يسمى فنا فى حياتها فلأنه جزء من الإدعاء والتظاهر. والنتيجة أن الفن لم يعد إفرازاً طبيعياً للمجتمع. والطبقة المسيطرة لا تشعرنا بأهمية الفن فى حياتها على الإطلاق. وهكذا تكون بينهم وبين الفنانين حاجز هم طبقة السماسرة الذين غالبا وفى معظم الأحيان ما يكونوا نصابين.

الفن والسلطة

لقد بدأت المشكلة فى مثل مجتمعنا بربط الفن بالسلطة، وربط موظفى الدولة، فى مجال الفن، ربطهم بالفن كفنانين للدولة، وتعيين أدعياء الفن فى وظائف الدولة، فانهارت العلاقات الحقيقية فى حقل الفن. وأصبح الجميع فى سلة واحدة. واختلط الزائف بالحقيقى. وأصبحت المجاملة من الكل للكل شيئاً مفروضاً وتلاك الاصطلاحات، وتنتقد الأعمال الفنية دون وعى أو فهم ببنية العمل الفنى

التشكيلية. لكن أن نناقش حقيقة العمل الفنى ووظيفته وعلاقته بالمجتمع فهو أمر لا يجول بخاطرنا اطلاقا. ومع الفوضى يتزايد عدد من ينادى بحرية الفن، وأن تعم جميع التيارات. وهكذا تحاكى جميع التيارات نقلا سطحياً من المجلات دون وعى بالقوانين أو الدوافع التى أدت اليها. وبما أن الكل يريد المجاملة فليوجد إذن طبقة من الصحفيين الذين لا دراية لهم بالفن ولا بتذوقه. ومادامت هذه الطبقة تسيطر على صفحة أو عمود فى الجريدة فالكل يسعى لها متذلفا، مستخدما كل الطرق، حتى لو أدى الأمر إلى دفع رشوة أو عمل فنى. ووسط هذه المغالطات وجد التعصب الفئوى. كل مدعى فن وصل إلى مركز فى السلطة تتكون له مجموعة تتعصب له لأن مصالحها ترتبط به. ومع عدم المجاهدة فى الفن لمحاولة الوصول إلى الكمال نجد أن كل رسام انتهازى يكرر نفسه ويدعى أن هذه هى «لعبته» التى يجيدها. ونتساءل هل الفن لعبة؟.

تعم بين مدعى الفن نزعة أن الفن لعبة ولا وظيفة له، تسلية يتسلى بها الناس. لكن فى الحقيقة هم واهمون، وبهذا عزلوا الفن كلية عن المجاميع التى يجب أن يكون الفن بالنسبة لهم ضرورة وحتمية لا يمكن العيش بدونه. وتعم أيضاً مقولة «يجب تشجيع اللعبة الحلوة» وهكذا فالفن لعبة، وكل الألعاب «حلوة»، والكل يجب أن يشجع بعضه ويتغاضى عن النقد. وهم بهذا يريدون أن يحموا أنفسهم ببعدهم عن وظيفة الفن الحقيقية. كثيرون أصبحوا «هزؤ» تسيطر عليهم الميول الاستعراضية. الكل يساق إلى تصرفات تأخذ عليه، كأنه مشدود إلى الخطأ، مشدود إلى حافة هاوية، مشدود إلى عار يجمع الكل. كأنما توجد قوى غامضة غرضها مسخرة الكل. هل نتصور مثلا أن يوجد فنان بضمان «الشلة» أو العائلة أو السلطة!! لا فرق بين ما ترسمه زوجة أحد رجال الأعمال تدعى أنها فنانة، وبين بقع يضعها فنان أصبح من قيم القرن العشرين الخالدة. أليس الأمر كله «شخبطة». المشكلة هى غياب الوعى وعمى البصيرة. والفنان الحقيقى هنا عليه ألا ينسى أنه بتأكيد وظيفة الفن السليم وضرورته والإصرار عليه هو الخلاص الوحيد له.

غياب وظيفة الفن

ومادام فى الاستطاعة فرض أى نجم فى الوسط الفنى وعلى المجتمع، تغيب وظيفة الفن الحقيقية، ويتحول إلى وسيلة للشهرة وطريق للحصول على المناصب الحكومية التى تسمح له بسبل التكسب. فالسلطة يجب أن تجيزه أولاً وتباركه، ثم يلتف حوله الآخرون. وهكذا يغيب المستوى الحقيقى للفن. بينما المفروض أن يلتف الناس حول الإنسان الحق حتى ولو كان مناوئا للسلطة، فالغاية هى السعى وراء

مصلحة المجموع. ونتيجة هذا الخلل فى المقاييس تعم ظاهرة التشدق كذبا بأن الفنان غير مفهوم فى مجتمعه، أو أنه متقدم عنه ولابد من ترجمة أعماله وتسويقها إن أمكن خارج مجتمعه، وهيهات أن يحدث هذا. فالمفروض أن يبدأ تأثير الفنان فى محيطه، ثم تتسع الدائرة حول الفنان ليصل إلى العالمية. ويستغل الاستعمار الغربى هذه الظاهرة فإذا بهم يتبنون بعض هذه النماذج الكاذبة، ويترجمون أعمالاً لا قيمة لها. فهم يضحون بالفتات فى سبيل مكاسب أهم. ولن يضاروا بشئ طالما الشباب من الفنانين سيقلدون هذه النوعية. وهكذا يضرب الفن فى المجتمع.

لكن نتدارك ونطرح تساؤلا بسيطاً : هل هذا الوضع الاجتماعى فى إمكانه أن يخلق تياراً فنيا سليما بغياب تحديد وظيفة سليمة للفن؟ فى الإمكان أن يوجد أفراد فرادى كل على حدة، لكن أن يخلق تيارا سليما فمن المحال. الكل يطلب من الفنان أن يتنازل .. أن يقبل أنصاف الحلول. الكل يريد أن يفرض عليه سياسة التسليم بالأمر الواقع. كل فرد يريد من الآخر أن يقبله كما هو. ويريد أن يأخذ من الآخر أكثر مما يعطى هو. وهكذا يخدع كل فرد نفسه، ويخدع الآخرين، لتصبح الحياة خدعة كبرى. كل فرد يتهم الآخرين، كل فرد بصرف النظر عن موهبة حقيقية يقول أنا، أما الآخرون فإلى الجحيم، ويصل مدعون إلى مركز الصدارة ويفرضهم الإعلام على المجتمع. وفى معظم الأحيان يحاول الفرد منهم أن يخفى إحساسه بالتفاهة، ويتصرف عكس ذلك، يتصرف على أنه العبقرى الوحيد. وإذ بهذا التصرف ينعكس على إنتاجه الفنى، والحقيقة أنه يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين. وبطرق ملتوية يفرض نفسه كفنان على المجتمع. وفى محاولته لاستمرارية بقائه فهو يقاتل بشراسة كى يقضى على كل قيمة فنية أصيلة تنمو، يحاول أن يسحقها حتى يضمن عدم نموها.

الشهادات والتخريب

وحينما ينتظر الرسام كل عام لجنة المقتنيات فكيف يستطيع أن يدعى أنه فنان محترف فى مجتمع. كما أنه من العار أن ينطلق الرسام من منطلق أنه عضو فى لجنة أو استاذ فى كلية فنية. إن كل الرسامين الرسميين فى المجتمع الباريسى فى القرن التاسع عشر أين هم الآن؟ بينما ملء السمع والبصر هم المرفوضون. وشكسبير كان ترتيبه السابع عشر ضمن كاتبى الدراما فى عصره.

وتوج التخريب لعبة الدراسات العليا والحصول على الدكتوراه. فحينما يجد الشاب الطريق مغلقا ليثبت وجوده كفنان نجده فى مستهل حياته يتجه للدراسات

العليا إكمالا لنقص أو تشبها بهيئات التدريس. والنتيجة أن تنتزع من حياته سنوات تحصيل الخبرة الفنية وزهرة عمره. وهكذا يجهض كل شئ، فنه، حياته، مستقبله، ويتحول إلى كائن ممسوخ، لا هو أكاديمى ولا هو فنان. ويصبح المجتمع مهدداً بعد سنوات قليلة بآلاف الدكاترة الأميين الذين لا وظيفة فعلية لهم. فنادراً ما يدخل فرد منهم بعد حصوله على دكتوراه لا قيمة لها إلى هيئات التدريس فى الكليات.

أصبحت فنوننا أخيراً لا تلبى احتياجاتنا النفسية ومدركاتنا الثقافية. وهنا يكمن الانفصام الحادث فى حياتنا. كيف نستطيع أن نرجع للفن وظيفته الحقيقية؟ إن معظم النماذج الفنية الموجودة فى حياتنا. مقلدة أو مستعارة، لذلك ليس بها نبض من حياة، لأنها مستعارة من المجتمعات الصناعية المتقدمة، ولا تنبع من وجدان المبدع. وهكذا تعم التعمية والإدعاء. أصبحنا ندين اتهام الفنانين لبعضهم : هذا تقدمى والآخر متخلف. والكل لا يدرك عاقبة هذه الاتهامات، وما يترتب عليها من انعدام الوحدة الفكرية.

من النادر فى مثل هذه المجتمعات أن يوجد فنان محترف يتحمل مسئولية احترامه لإسمه. وطالما يجد مدعى الفن الوسيلة لتسويق أعماله لدى الدولة فلا أهمية لأى شيئ آخر، وهو لا يدرك مفردات صنعته ولا يدرك الأرضية التى يقف عليها فى مجتمع تخلف عن القرن العشرين، والحقيقة أنه لايهتم إن كان فنانا حقيقياً أم لا، لأنه يثق أن هناك طرقا أخرى كى يصل ويفرض نفسه. يناقش كل شئ يدور حول «الفرقعة الإعلامية» والانتصارات الكاذبة والمنجزات الوهمية فى المجال الفنى، لكن الفن وحقيقته ووظيفته فهى أشياء لا تناقش، وإن حدث فهو بكلمات جوفاء كالطبل لايفهم منها شيئا، ولا يستطيع تتبعها أو فهمها الفرد العادى. المهم هو التقرب لأهل الحظوة حتى يصل إلى المناصب ويأخذ البدلات وتشترى منه الأعمال.

إن المجتمع يدفعك دفعا إلى أن تكون مدعيا أو تابعا أو إمعة. وإن لم تكن فلتنتظر المقاطعة والحصار والاهمال. وقد كررت هذا حتى مللت تكراره.

يدفع المجتمع السواد الأعظم من الناس إلى تكوين طبقة من العياريين والنصابين والسماسرة ومقدمى الخدمات الطفيلية. وهذه الطبقة توجد معها النقود وهى لا تستحقها. وهذا أتلف المقاييس والمعايير. فهذه الطبقة لا تفهم ولا تتذوق ولا تحس، لكنها قادرة على دفع النقود دون أن تميز بين الغث والثمين. أضف إلى هذا أن ذوبان الطبقات مع بعضها أدى إلى ذوبان معاييرها وفنونها، بل وطرق

معيشتها ومذاقها. ولم توجد بعد معايير للطبقة الجديدة ولن توجد بمستوى المقياس البرجوازى العالمى الذى حدد الإنتاج الفكرى إلى الآن. وهذا هو ما حدده سارتر فى زيارته لمصر. كلنا ملامون، لكن الفنانين والمفكرين الاصلاء ملامون أكثر على موقفهم المحايد، إن كان هناك ثمة فنانون ومفكرون أصلاء.

إذا كانت الأوضاع وصلت لهذا كما أوضحنا، فإن الأمر سيتضاعف ويتكثف بالنسبة للفنان الأصيل لما جبل عليه من فرط حساسية وصدق. وحصاره سيزداد لأن معركته أكثر شراسة، فهى بينه وبين المجتمع وبينه وبين أدعياء الفن الذين لا يتورعون عن فعل أى شئ. وإذ بالموازين تختل عنده، فهو يريد أن يفرض وجوده بأية وسيلة، وسرعان ما ينهار. فصعب عليه أن يجد مكانا بين سيقان عملاقة. إنه هنا يطالب بحقه فى الحد الأدنى فى الوجود. وهيهات أن يسمع صوته. وإذ بنا نجد حولنا من كنا نتوقع لهم مستقبلا باهراً تخلفوا عن الركب وانزووا، يتحدثون عن النجوم، بدلا من أن يتحدثوا عن السيقان العملاقة التى تحجب عنهم الرؤيا. وبعضهم نجدهم فجأة يتراجعون مختبئين، أو يندفعون فجأة دون مبرر كى يكونوا على وفاق مع الكل، لكن الكل لا يقبلهم. فمع المحنة لا مفر للبطل أن يقدم القرابين إلى سدنة المعبد أو ينتحر.

★★★

نحن هنا الآن بصدد تحديد من هو الفنان ومن هو مدعى الفن. نحن هنا الآن بصدد تحديد ما هو الفن أصلا وما هو موقف الفنان. أظنه «بودلير» الذى نزل إلى الطرقات التى تموج بالسائرين يهتف ضد كلاب السلطة وضد زوج أمه. أما هنا فقد صرح مسئول كبير فى وزارة الثقافة بأنه نجح فى إدخال كل المثقفين إلى حظيرة وزارة الثقافة، وأنا واثق أنه لا يعرف معنى لفظ حظيرة. على كل لقد صرحت بأنى لست من النوع الذى يدخل فى حظيرة.

يجب على الفنان أن يبدأ من نقطة جوهرية وهى أن فان جوخ مزق ملابسه الكهنوتية ليضمد بها أجسادا محترقة. إنها صفعة على وجه الكنيسة والسلطة.

ألقيت بنفسى فى تاكسى. وجدت السائق قد وضع فى كاسيت سيارته غناء كالهدير يختلف عن كل شرائط الغناء المخنثة التى يضعها سائقى التاكسى. قلت له من هذه التى تغنى. قال إنها جوليا بطرس مغنية لبنانية جديدة، وهى تغنى للحرية، وعن الذين يحرمون الأطفال من الابتسامة، وللجنوب المحتل فى لبنان، والشباب الواعى فى المنطقة العربية مهووس بها، خصوصا إن أقامت حفلة فى لبنان. قلت له معلوماتى توقفت عند الرحبانية. قال لى : هل رأيت آخر أيام سقراط؟ قلت له : للأسف فاتتنى لظروف صحية، هل رأيتها أنت؟.

قال : نعم، رأيتها أول مرة فى مكان لم يكن كما يجب، وكان علىّ أن أشترى حذاء، ففضلت أن أؤخر شراء الحذاء وأذهب لأراها للمرة الثانية. قلت ألهذه الدرجة؟ قال : أجل، فنحن فى القاهرة محرومون من المسرح، فالمسرح لدينا

أصبح ملهاة للسكارى، نكات فجة وإسقاطات جنسية. إنه لم يعد مسرحاً على الاطلاق. سألت : وما الذى أعجبك فيها؟ أجاب : الجدية، تضافر العناصر من أجل إقامة عمل جدى له قيمة. إنك تلمح الجدية فى كل شئ : من الموسيقى إلى الإضاءة إلى التزام الكومبارس فى تحركاتهم. وكل هذه العناصر تجمعت لتقول لنا مضمونا واحداً أن البطل يقول لا ويذهب الى الموت، نحن أصبحنا نفتقد هذا فى مصر، يقولون أن قديماً حتى الستينيات كان لدينا مسرح، وكانت لنا الريادة فيه. سألته : ما سنك؟ قال ثمانية وعشرين، ومازلت فى كلية التجارة لأنى أساعد أهلى بالعمل كسائق تاكسى. ثم عطلنا عن الحديث صوت المؤذنين فى الميكروفونات. فقلت هذا إزعاج وليس دينا. فقال أنهم لم يدركوا معنى الآية الكريمة : «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير». لو لديهم ذرة من عقل لوضعوا كلهم تسجيل الشيخ محمد رفعت للآذان، فلم يصل أحد إلى الآن إلى مستواه. إنه يخيل لى أن الشيخ محمد رفعت لو سعل فسعاله سيكون ربانيا. استطردنا فى الحديث، وجدته يلقى بالجريدة جانباً فى عصبية قائلا : تصور أن من غبائه أن يرثى زميلا له ويصفه بمرونة البطل الذى يغير موقفه حسب المتغيرات، لو طبقنا هذه المقولة لما وجد تاريخا للشعوب، ولا وجد محمد ولا وجد عيسى. أجبته : ولا وجد تقدم للتاريخ ولا كانت هناك حضارة ولا علم ولا فن، فتاريخ العالم سطره من قالوا لا. ثم قلت له : دعنا من هذا، ما آمالك فى الحياة. قال لى آمالى متواضعة، أن أقرأ أكثر من هذا وأن أكون مكتبة موسيقية. وحان موعد نزولى فشكرته قائلاً : كنت مختنقا وكنت أنت بمثابة أنبوبة الأكسوجين على أنفى.

حين نزلت من التاكسى شعرت بسعادة وأنا أنظر إلى أشعة الشمس الذهبية وقد انسكبت على جدران المنازل. كان سائق التاكسى بالنسبة لى كأنه يد دافئة شدت على يدى فى حلكة باردة أشعر فيها بالضياع، فالفنان دائماً ليس فى حاجة إلى الدعاية أو إلى وصاية الدولة. إنه فى حاجة من حين لآخر لمثل هذا الحنو الإنسانى.

تذكرت الزعيم الكردى «أوجلان» الذى قبض عليه الأتراك ليعدموه. سيصبح أسطورة مثل «زاباتا» و«جيفارا». أثنان فقط سيعيشان فى وجدان شعبهما : الثائر المستعد للذهاب للموت، والفنان الأصيل، لأن كلا الأثنين تحددهما كلمة لا.

زوسر مرزوق

ومعرضه الخامس والعشرون

بقلم: محمود بقشيش

أقام المثال «زوسر مرزوق» معرضه الخامس والعشرين بأتيليه القاهرة للفنانين والكتاب، بعد فترة انقطاع - كادت تطول - لولا انفعاله الغاضب على ما آل اليه المسرح المصرى.. إفلاس فى الفكر والخيال.. وألهمه هذا الغضب بتماثيل هذا المعرض.. وكان قد استغرقه المسرح سنوات، تحول خلالها «المثال» الى مهندس للديكور ومخرج لبعض العروض التجريبية. جاء غضبه الأخير حافزا لوصل ما كان قد انقطع مع ابداعاته الأولى فى فن النحت. ولم يكتف بأن يستلهم من واقع المسرح معرضا ناقدا له، بل نظم سلسلة من الندوات، جمعت بين نقاد المسرح وفنانيه، استهدفت تشخيص حالته وطرح الحلول الممكنة لمشكلاته. ولأننى ناقد للفنون الجميلة ولست ناقدا للمسرح فسأكتفى بتقديم تجربته الابداعية فى مجال «النحت».

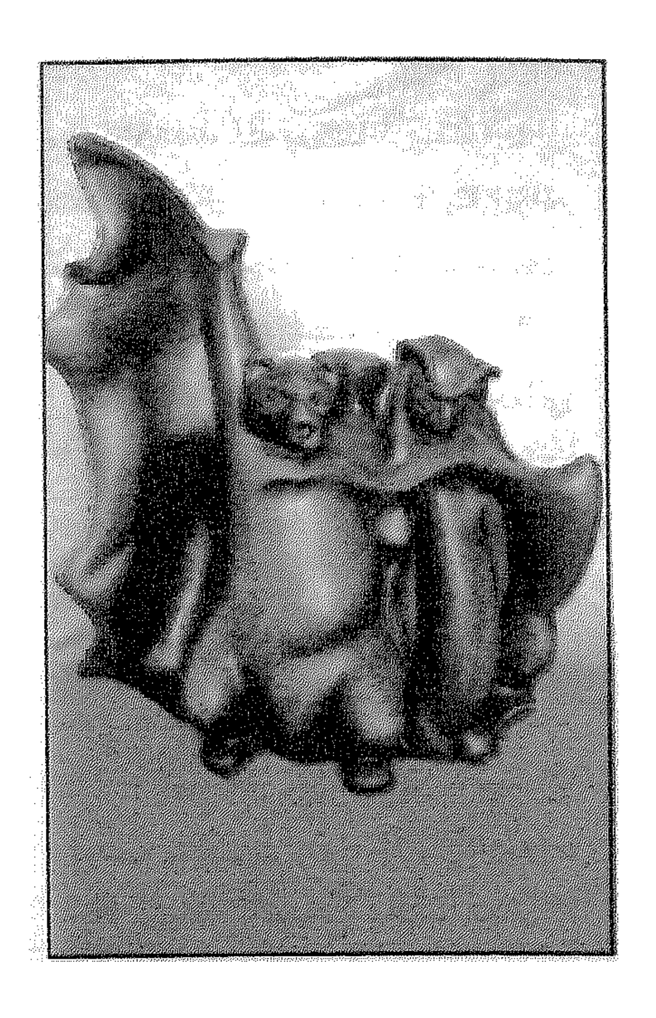
أقام معرضه الأول سنة ١٩٦٥، بعد تخرجه فى كلية الفنون التطبيقية سنة ١٩٦٤. أذكر أن ذلك المعرض قد قوبل استقبالا حسنا لما به من موضوع محورى جرىء - نوعا ما - ولم يكن الحال وقتها قد وصل الى الموقف الحالى، حيث انتصر الارهاب الدينى فى إلغاء مادة «الطبيعة الحية» من الكليات الفنية.. على أية حال لم تكن تماثيله عن المرأة تحفل بالتفاصيل الوصفية، فقد كان يراوغها بالتلخيص والتجريد الهندسى، لكن لأن كل عطايا الأنوثة اسطوانية المعمار فقد غلبت على تماثيله الاستدارات. وبالغ بها عندما تكون المبالغات مبررة عند منطقة الحوض ومنطقة العفة. وفى تجارب لاحقة انفلتت تلك الاستدارات من أسر انتمائها إلى



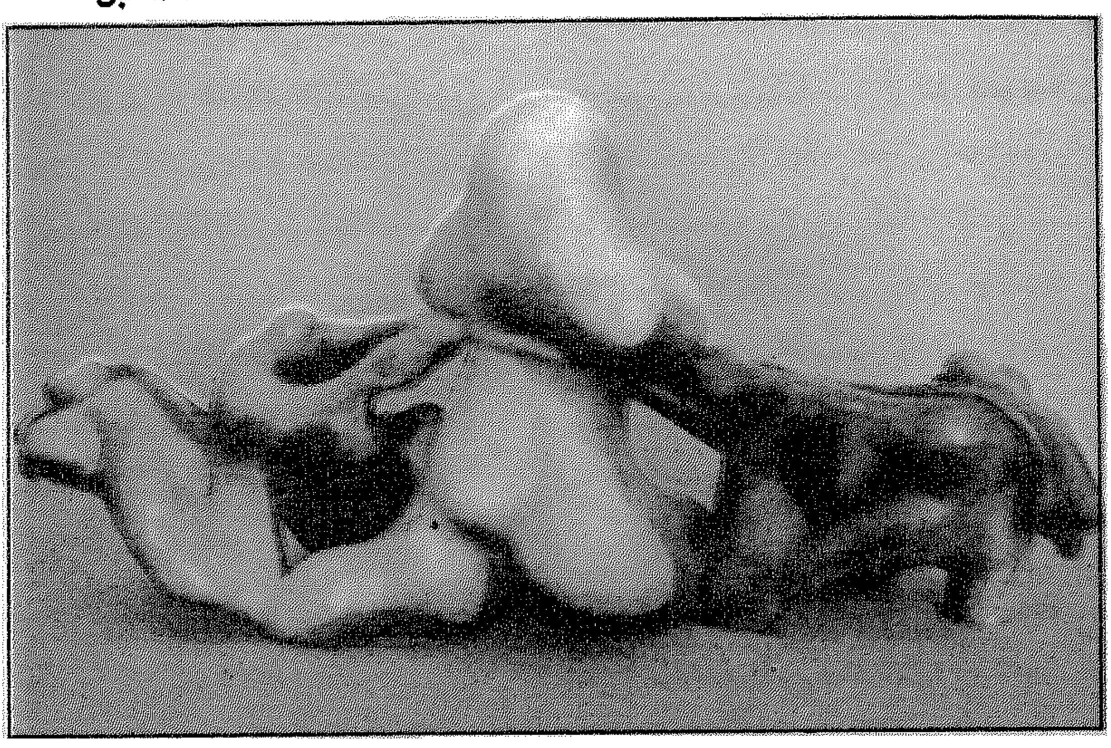
الفنان زوسر مرزوق

خفافيش للمثال:

زوسر مرزوق



شد الحبل



كيان الأنثى لتكتمل بذاتها فى منحوتات مستقلة. وتتشعع من أشكالها الكروية والبيضاوية ما يمتد بالاشارة إلى الجسد وإلى ثمار الطبيعة على السواء.

واستعارة مجسماته من المرأة نعومة ملمسها.. وبدت فى طراوتها أقرب الى مادة الكائن الحى منها الى مادة الجماد التى يشكل بها الفنان عمله الفنى، أكدها بأن أضاف الى سطوح تماثيله ألوانا معبرة. وهو يعد من أوائل الفنانين المصريين الذين قاموا بتلوين أعمالهم - إن لم يكن أولهم - فبدت وكأنها كيانات حية تتنفس وتنبض - على حد تعبير الفنان بيكار - وإذا كان من سبقوه من المثالين قد جمعوا فى العمل الفنى الواحد بين بنائية العنصر الهندسى ورقة العنصر العضوى فقد ضحى زوسر مرزوق بالعنصر الهندسى بصورة تكاد تكون «كلية». وإذا تصادف وأنشأ كتلة رأسية فإنه لا يبقيها على حالها بل يقاوم انتصابها بتهذيب حدودها الخارجية باقتحامات اسطوانية لولبية!.

احتفاء بالأنوثة.. ونقد للمسرح!

إذا جاز لنا أن نلخص تجربة معرضيه : الأول سنة ١٩٦٥. والأخير سنة ١٩٩٩ فإنه يمكننا أن نقول : إن معرضه الأول كان احتفاء بأنوثة المرأة، أما الاخير فكان نقداً لاذعا موجها ضد سلبيات المسرح المصرى الراهن، الأول احتفاء لا يخلو - أحيانا - من الميل الى الدعابة الناقدة، أما الأخير فإن الميل الى النقد كان صريحا عبر مشاهد مسرحية مؤداه بأدوات النحت الملون. من أمثلة الدعابة الناقدة فى مراحله الأولى، تمثال من الجص المباشر (٤٠×٤٠سم) أنجزه فيما بين سنة ١٩٦٦ - ١٩٦٧. وعنوانه يفسره وهو : (الرجل لعبة المرأة) تجلت المرأة مترامية الجسد، مفعمة بالأنوثة، تضع فوق فخذها الممتلىء، متين البنية رجلا أشبه بطفل، أما معرضه الأخير الذى يحمل عنوان «المسرح وآفاق العولمة» فقد تناسلت من كياناته العضوية مشاهد مسرحية تحمل عناوين، منها : «صراع» حيث ينتظم المشهد ثلاث وحدات أو ثلاث قوى، تحتل مكان الصدارة بينها كتلة برتقالية تتنازعها قوتان: قوة اليمين ذات اللون الأزرق وقوة اليسار ذات اللون الأحمر. والكتل الثلاث المتصارعة لا تفصح عن هويتها. وما يظهر منها لا يجعلنا على يقين من حقيقتها إن كانت تنتمى الى عالم الحيوان أم البشر.

وينتقل الفنان إلى عمل آخر مستعينا بمبضع الناقد، أسماه: «ضغوط» ويمثل العمل كيانات أشبه بالضفادع، بعضها فوق بعض، ملونة باللون الأزرق الداكن، تواجه مشاهديها بأفواه شرهة دامية. والعمل - كما هو واضح - صورة ناقدة لواقع يراه الفنان قاتما . ويدفعنا هذا التراكم العشوائي الغثياني الى ترقب لحظة سقوطه. ويواصل الفنان انتقاداته الغاضبة فى عمل آخر بعنوان «خفافيش الليل» يجمعها فى مظاهرة هتافية، تقود غيرهن الى ماهو بديهى: المجهول المعتم!.. غير أن المكاشفة النقدية ليست هى الوجه الوحيد فى معرض زوسر مرزوق، فهناك من الأعمال ما يكشف عن لحظات من التأمل الوجودى،. وتمثل تلك التأملات وصلا بمرحلة الثمانينات عندما بدأ يلون تماثيله ومجسماته. وهو يلون أعمال معرضه الأخير أيضا لكى يشدد بها من حرارة التعبير، مثل تلوين أفواه الضفادع بلون الدم، لينفرنا من القبح، والدلالة الرمزية للألوان: الزرقاء والحمراء والبرتقالية واضحة فى تمثال صراع» واسقاطاته السياسية مقروءة أيضا. ويتجلى زوسر مرزوق، أحيانا، فيلسوفا وجوديا فى عدد من الأعمال، مثل : تمثال «احتواء» حيث تبدو كتلة أشبه بالرحم، محتويا كتلة جنينية تحيطها بالحماية من كل جانب. وفى عمل آخر تنفلت الكتلة الجنينية المستديرة وتدور بلا غاية ولا أمل فى التوقف. ويحيلنا العمل الى خارج حدوده المنظورة فى الوجود والمصير الانسانى.

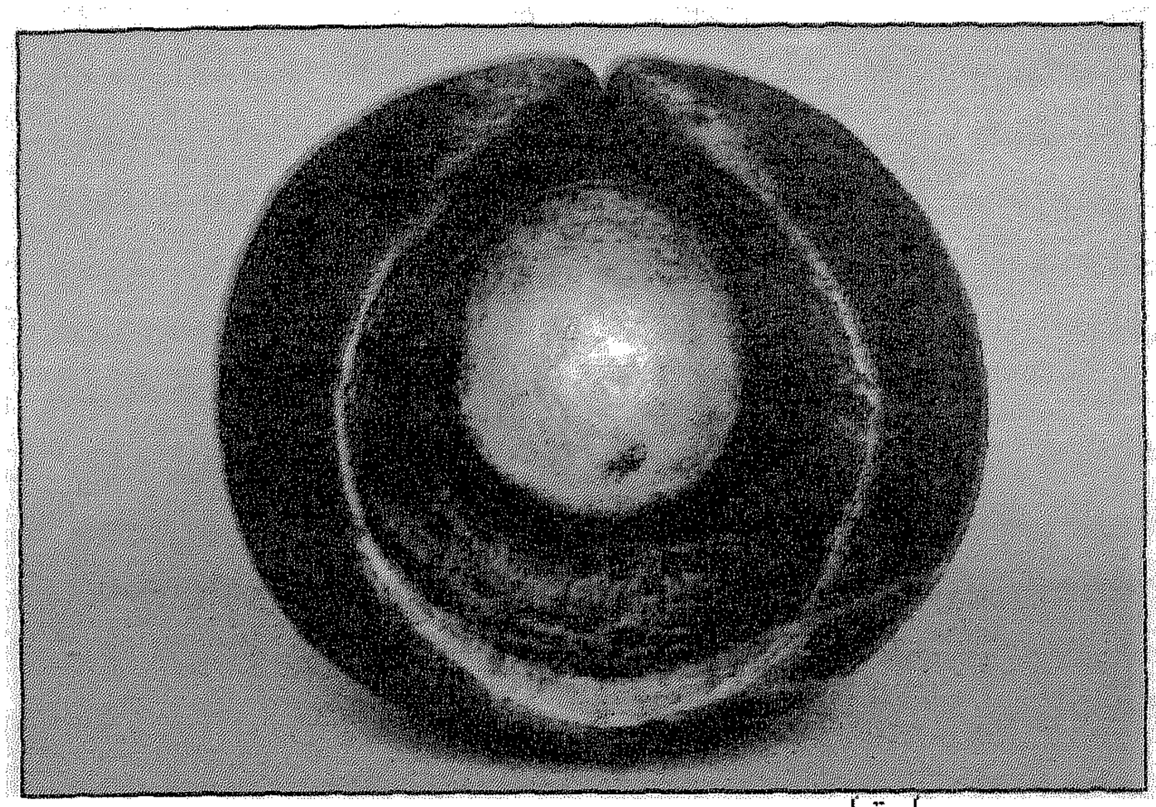
نظرة الى ما فات

على أن زوسر مرزوق يستلهم من الموروث الابداعى المصرى القديم ما يحاول به أن يؤكد أنه قادر على الانفلات، أحيانا، من أسر اجترار الذات، فقد استلهم شكل المنحوتة المصرية الرائعة : منحوتة القطة. وعندما انتقلت من المتحف الى معرض زوسر ظهرت بأسلوب زوسرى عضوى!.

جسدها فى نصف دائرة اسطوانية، تتكيء خلفيتها على مسطح الأرض - من ناحية - تتصل برأسها بالناحية الأخرى من المسطح، تاركا بين كتلتيها : كتلة الرأس وكتلة الخلفية فراغا بينيا أشبه بقوس نصر!.

سلوات التوقف!

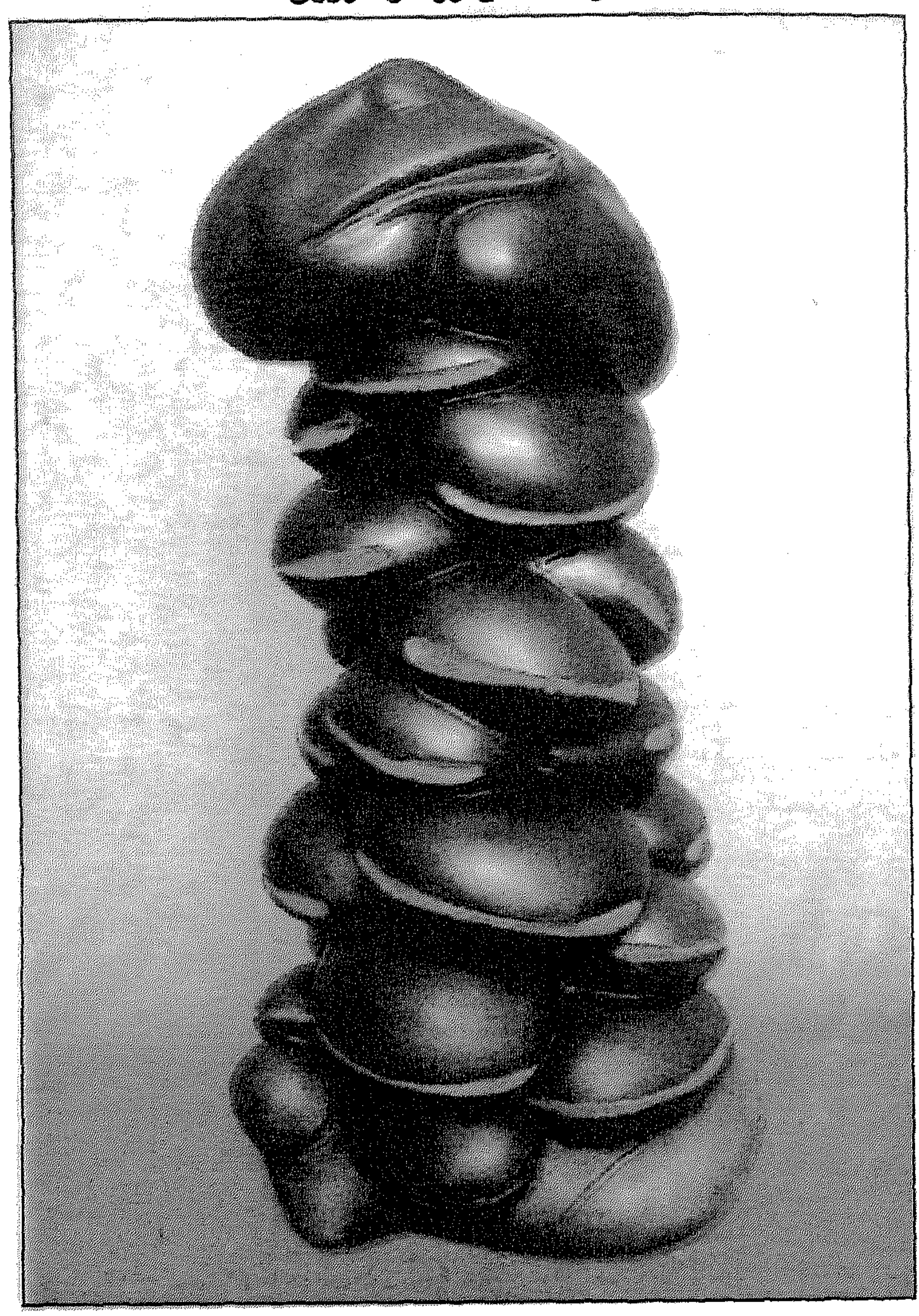
دعى زوسر مرزوق لاقامة معرض بمدينة نيويورك سنة ١٩٨٣. وهناك فوجىء مفاجأة سارة، عندما قررت لجنة فنية تابعة للأمم المتحدة اقتناء تمثال له عن الأمومة.



احتواء....

ولما كان قد تعهد - شأن كل الفنانين المبعوثين للخارج بعدم بيع أى عمل فنى خارج مصر. فرفض الفرصة المتاحة له. واقترح عليه المسئولون بأن يكبر تمثاله الذى سيعود به وأن ينجز التمثال الآخر لهيئة الأمم المتحدة. ونفذه بالفعل فى مدة ستة شهور. واختار للتمثال خامة ارتبطت بالنحت المصرى القديم وهى خامة الجرانيت، بمقاس ٤٠٠ سم × ٢٥٠ سم × ١٥٠ واقتنته الأمم المتحدة. وعند العودة سنة ١٩٨٤ كانت فى انتظاره كارثة. فقد اكتشف ان كل تماثيله ومقتنياته الشخصية قد دمرت أو تلاشت فى ميناء الاسكندرية. وأحدثت تلك الكارثة دويا اعلاميا وقتها. ويستحق عرضها التفصيلى مقالة خاصة. ما يعنينا فى هذا السياق هو أن كارثة مثل تلك التى وقعت مع زوسر مرزوق كانت كفيلة بايقافه الى ما لا نهاية. وكاد يستسلم لها لولا غضبه من أحوال المسرح، ذلك الغضب الذى أثمر اضافة جديدة الى ابداعاته السابقة.

ضغوط للفنان زوسر مرزوق



قصة قصيرة

بقلم :
أحمد محمد حميده
بريشة :
محمد سالم



– تعرف يابني بيت محمود الناشف، أبو عبير..؟

صوت نحيل مضعضع. لامس أذني وأنا بدكان البقالة الصغير. مشغولا برص علب سمن على رف جانبي .. وبنظرة حذر لمحت وجه الرجل خيالا ثابتا .. قلت لأصرفه :

– ولا محمود الطرى أعرفه ..

واجهني بصلب بدنه على الباب، وغضون الوجه القمحي تتلاقى حول عينين ضيقتين

تمسحان الرفوف شبه العارية ..

- ولا تعرف واحدة اسمها هدى، أم عبير ..؟

تركت علب السمن. وتوقفت منتبهـا له ومتفرغا، وبضجر ينمو ..

- أنت عاوز مين ..؟ عاوز إيه بالضبط ...؟

أزاح طاقية رأسه الأشيب إلى الوراء بعفوية، وهرش مقدمة الرأس وهو يلتفت إلى الشارع كحائر يتذكر ويقول :

- أنا جيت هنا قبل كده .. جيت فعلا .. لكن الظاهر نسيت ..

- نسيت ...؟

امتدت يدى خفية وأغلقت درج النقود، واقفا بحذر الحواس المتحفزة وراء ثلاجة الجبن والزبادى التى تفصلنى عنه ..

قال مستغربا ..

- المنطقة دى اتغيرت خالص ..

- المنطقة هى هى .. اعتراه ضيق مفاجىء ..

- لا ... يا أخى .. أنا فاكر كويس .. البيوت كانت قصيرة عن كده بس أنا تهت عن البيت خالجنى شك - قلت

- بيت مين ...؟

- محمود الناشف يابنى ..

- أقصد البيت .. ملك مين ...؟

- والله ما أنا عارف .. بس هو ساكن فوق . آخر دور السطح.

من حوض قطانه التيلى المكرمش، دعك صدره المشعر الشائب ونظر الى البيوت المتشابهة .. قلت ..

- البيوت كتير وزى بعض .. لازم عنوان .. معك عنوان ...؟

- الشارع اللى جيت منه أوله محطة السكة الحديد ..

- كل الشوارع اللى تبدأ عند السكة الحديد ..

- أنا فاكر كويس باب البيت، كان لونه أخضر .. أيوه .. وقدامه عتبة عالية شوية ..

- كل البيوت اللى هنا أبوابها خضرا وقدامها عتب عالى ...

أحنى رقبته نحوى .. قال شبه مندهش من نفسه ..

- أنا كنت فوق شوية. من ساعة بس .. البنت قالت لى انزل صل الجمعة . نزلت .. دخلت الشارع . والجامع. اللى جانبك هناك .. بس .. ولما خرجت .. مـوش عارف .. شمال واللا يمين .. بس أنا فاكر أنى مشيت شوية صغيرين من البيت للجامع ..

تبدل حذرى الضجر إلى أسى ..

- الشارع اللى أنت جيت منه ما كان فيه علامة؟.

ملهوف الصوت

قال ..
- أيوه .. كان فيه واحد خردواتي ..
- كل الشوارع اللى هنا واللى هناك فيها خردواتية ..
قال بغضب اليائس ..
- الله يلعن دى عزومة ..
ونظر لساعة عتيقة تحيط معصمه المعروق .. ولانى ظهره، وتطلع إلى البيوت . نهاية الشارع .. والشوارع الموزعة ..
قال بأسى الحائر :
- ياريتنى ماجيت من البلد .. ما أنا كنت قاعد هناك ..؟!
كان الأسى يتغلغل فيّ .. يرقق لسانى ..
- وأنت جاى من أى بلد ..؟
- كفر الزيارت ..
قلت النهاردة الجمعة وآجى أطل على البنت وجوزها .. بقالى مدة ماجيت .. يا دوب حطيت الشيلة فوق .. وقعدت

قصة قصيرة

أرتاح شوية من السلم ونزلت أصلى الجمعة أصل جوزها بعيد عنك عيان بصدره. كان شغال فى شركة فرفرة
- وساكن فوق السطوح ...؟
- فى السابع .. واسمه محمود الناشف - اتحال على المعاش المبكر .. وهو دالوقت أرزقى على باب الله ..
أجهدنى التذكر غير المجدى .. حملت مقعدا ..
- على كل حال .. أنتظر شوية .. خد الكرسى وأقعد ..
قدمت له المقعد .. وضعه قدام باب الدكان .. قلت ..
- يمكن يشوفك حد يعرفك من اللى طالعين من الجامع، أو يشوفك جوز بنتك ..
لم كورنيش قفطانه التيلى .. ملوثا كان بنثار طين يابس .. قال :
- هو فى الشغل دالوقت .. والبنت فوق مع بنتها ولا حد يعرفنى ..
جلس يعالج الصمت بالنظر الحائر، وأعالج بصمتى ضيقى الذى اعترانى . قال:
تصدق أنى نسيت محفظتى بالفلوس فوق فى الشيلة ...!!
قلت شبه مندهش ..
- ياه ه ه ... فلوسك كمان فوق، يعنى لو عاوز ترجع بلدك ماتعرفش؟
أدركت مدى ما يتقنه من مسكنة ربما تؤدى أخيرا لطلبه نقود للسفر ..
- تاخد فلوس ...؟
لكن بكي فجأة كأن دموعه كانت مخبأة وراء جفونه المتهدلة . قال..
- تشكر يابنى .. تشكر .. أقعد شوية أحسن .. يمكن ...
رفع طرف قفطانه ليفرك الطين اليابس.. وغافل نفسه ، وجفف

دمعه بطرف كمه .. بدا سرواله السفلى أبيض يستر نصف ساقيه المشعرتين .. تقلقل بدنه فوق حافة الكرسى وراح يدقق النظر فى وجوه العابرين الخارجين توا من الجامع .. يتمهلون بسير مطمئن، يتمتمون ، يحملون المسابح ويتحدثون .. يتفرس الملامح .

واحدا بعد واحد .. يتابع بتحركات رأس ، حتى لايفوت نظره وجه أحد. حتى إذا تواروا سكن شاردا ...

أرقبه بعينى ، أنا الواقف خلفه بدكانى .. أرقب انكماش أخاديده المتفاقمة .. تتداخل بحزن وغربة ... سألته ...

– تعرف حد منهم ممكن يوصلك ...؟

كان قفاه المولى نحوى يتجمد كأن بدنه يتضاءل رويدا فوق الكرسى .. قال :

– والله يابنى ما أعرف .. بس يمكن ... يمكن ...

شملنى صمت مستغرب .. الشارع قد انتهى من الرجال .. تركوا ظلاله تموج برأسه فبدا محزون القلب وساكن ..

خامد البدن ومضغوطا حتى خلته خيالا ..

أخرج علبة سجائر صفيح – لف واحدة – أشعلها وراح يدخن وحده .. تبسمت، وقلت له وأنا أتناول براد الشاى والكوب الزجاجى لأغسلهما فى الحوض المجاور ...



– تشرب شاى ..؟

ساهما كان ينفث دخانه الشحيح ببطء، وكمن يحدث نفسه بتساؤل أسيان ..

– الوقت بيمر .. الواحد ممكن يرجع بلده إزاى ..؟

وليت له ظهرى، أواجه الحوض، وهو يواصل تساؤله ..

– بس البنت ممكن تقلق علىَّ، وممكن تنزل تدور علىَّ فى الشارع .. نهض فجأة . نظر حوله .. تحرك ببطء المتردد نحو منتصف التقاطع .. توقف هناك وحده ..

نظرت. وعدت إلى البراد والكوبين .. وضعت السكر .. والشاى .. على الموقد الكهربى .. متوقعا عودته .. إلا أننى أرسلت نظرى إلى التقاطع ، كان قد اختفى..



تجديد التربية والثقافة من طه حسين الى حامد عمار

بقلم:
د. محسن خضر



تعد أغنية البجعة الأخيرة للمفكر الأسبانى الرفيع فدريكو مايور ثاراجوثا مدير عام منظمة اليونسكو، والتى تنتهى فترة رئاسته للمنظمة الدولية هذا العام كتابه الأخير «دفاتر المستقبل» والذى يعالج قضايا المستقبل الإنسانى من خلال محاور التنمية والاقتصاد والبيئة والتعليم، وفيه يقدم رؤيته الخالصة كعالم مرموق فى العلوم والكيمياء، ومسئول دولى رفيع عن مستقبل البشرية ، وفيه ينظر الى المستقبل نظرة أخلاقية وانسانية ، داعيا الى تبنى برامج للسلام والتسامح واحترام الآخرين. وتعزيز قيم الديمقراطية والمشاركة وتعبئة الموارد واحترام حقوق الانسان.

والكتاب الأخير للمفكر العربى الكبير د. حامد عمار «نحو تجديد تربوى ثقافى»، يستدعى المشابهة مع كتاب مايور. وهو الإصدار الخامس للمؤلف ضمن سلسلة عنوانها (دراسات فى التربية والثقافة)، صادرة عن مكتبة الدار العربية للكتاب بالقاهرة.

التعليم والنهضة القومية

تستدعى رؤية حامد عمار رؤية قديمة متجددة لطه حسين فى كتابه الشهير «مستقبل الثقافة فى مصر» والذى حمل تصوره عن مستقبل التعليم والثقافة فى مصر بعد عقد معاهدة ١٩٣٦، فكانت رؤية فكرية أشبه بالوصلة يتواءم فيها التعليم والثقافة، بل إن طه حسين يخصص للتعليم ثلثى فصول كتابه إيمانا منه بأن التعليم هو قاطرة النهوض للمجتمع المصرى، وانه على مستوى الكم (مجانية التعليم) وعلى مستوى الكيف (دور التعليم التنويرى) فسوف يكون التعليم أحد

المحددات الرئيسة فى خروج مصر من عثرتها . وهو ما حاول طه حسين أن ينجزه من موقع المسئولية عندما حقق مجانية التعليم الثانوى سنة ١٩٥٠، وما استكملته ثورة يوليو على صعيد الثورة الاجتماعية، حيث أسلم التعليم بدوره الديناميكى فى هز سكون المجتمع المصرى، وإعادة خلخلة خريطته الطبقية مانحا الطبقة الفقيرة، والبرجوازية الصغيرة فرصة غير مسبوقة فى التاريخ المصرى الحديث فى الحراك الاجتماعى والتمتع بحياة أفضل، وإن ظلت مسألة كيف التعليم، ودوره التنويرى النقدى الابداعى غير متحققة على أرض الواقع حتى يومنا هذا كما حلم طه حسين.

ومن الدال أن يهدى حامد عمار كتابه المشار اليه الى طه حسين واسماعيل القبانى معا. وكأنه يؤكد ركيزتى التعليم فى الكم والكيف، فى العرض والجوهر، فى الشكل والمضمون معا.

توأمة الثقافة والتعليم

يطور الدكتور عمار نظرية طه حسين فى توأمة الثقافة والتعليم مستوعبا آثار ثورة وسائل الاتصال والمعلوماتية وهو ما لم يكن مطروحا بهذا العمق فى الثلاثينيات عندما كتب طه حسين كتابه .

فتتلاقى عند حامد عمار المقاصد المعيارية للتوأمة بين التعليم والثقافة فى الاساليب والانشطة والمؤسسات. وتوأمة التعليم والثقافة هو الذى يزود الانسان بموارد لتكوين ذلك الوعى الانسانى ، بما يحفزه الى أفضل السبل لتطوير وجوده من خلال فكر مبدع. وضمير اجتماعى حر. وفعل مؤثر خلاق.

ويشبع التعليم والثقافة الحاجات الانسانية مما يتيح الفرصة لانبثاق طاقات التنمية البشرية البدنية والعقلية والاجتماعية والروحية والجمالية ، وهى ركائز عمران الوطن وتحقيق جوهر إنسانية الانسان.

على أن الدكتور عمار يحدد التوجهات المحورية لتوأمة الثقافة والتعليم باعتبارها نهج الدخول فى القرن الواحد والعشرين وهى:

- استكمال مهمة تحقيق ثقافة قومية مشتركة لكافة المصريين.
- ارساء مقومات وقيم العدل الاجتماعى.
- ترسيخ مقومات المنهج الديمقراطى فى إدارة شئون الحياة على مختلف مستويات القرار والفعل سواء الحكم الديمقراطى وديمقراطية المجتمع فى مؤسساته .
- المهمة الرابعة لدور توءمة الثقافة والتعليم هو تأسيس نهضة حضارية مشتركة فى توجهاتها، وديناميه حركتها. قادرة فى مراحل تطورها على تجاوز إشكالياتها وأزمات مخاضها، وحل تناقضاتها (قديم وحديث، ديمقراطية وشورى، دولة دينية ودولة مدنية.. الخ).

فى ضرورة التجديد الثقافي التربوي

يعى د. عمار بالمأزق الحضارى العربى، ولذا فإن عنوان الكتاب يشير ضمنا الى الأزمة طارحا «التجديد» كبوصلة للخروج من عنق الزجاجة أو

الكهف الأفلاطوني الذي يعطل قدرات الامة ويشل حركتها.

وهو يرفد التعليم بالثقافة في سعيه للتجديد باعتبارهما من المواقع الاستراتيجية الفاعلة مجتمعيا . ويتم التجديد التعليمي من خلال تهيئة المناخ الملائم لتعظيم ناتج العملية التعليمية وفي التفاعل المثمر بين المعلمين والطلاب، والاهتمام بمؤسسات اعداد المعلم وتكوينه العلمي والمهني الثقافي، وتمويل التعليم. وسياسات القبول.

أما في مجال الثقافة فتقوم الاولوية الاستراتيجية على توفير مناخ الحرية في الانتاج الثقافي شكلا ومضمونا. ويعلي د. عمار من شأن الثقافة العلمية ونستدعي دراسته المهمة «العلم هدفا ووسيلة» في هذا الصدد، الى جانب التركيز على المضمون الجمالي الامتاعي.

ودور المثقفين أساسي عنده في تحقيق هذا التجديد من خلال ما يشكلونه من مهمات طلائع المثقفين على تنوع خلفياتهم . وذلك من خلال ما يشكلونه من تنظيمات وروابط وجمعيات تبلور رؤية مشتركة، وتعبئة مؤثرة وفكر نقدي.

إن منظومة التعليم والثقافة تشكل الازمة والحل معا. وهي قاطرة تحريك المجتمع العربي نحو آفاق أبعد مثلما آمن طه حسين، ومن قبله بدرجات مختلفة رفاعة الطهطاوي والشيخ المرصفي والنديم وقاسم آمين وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى، ود . هيكل وغيرهم من المتقدمين ، وكما أمن اسماعيل صبري عبدالله، وزكي نجيب محمود ويحيى الرخاوي وعبدالعظيم أنيس ونبيل نوفل وسمير نعيم وحسن حنفي وسامي خشبة وسليمان حزين ومحمود أمين العالم وجابر عصفور ومراد وهبه واسماعيل المهداوي وسعيد اسماعيل علي ومحمد السيد سعيد وغيرهم.

في ضرورة الابداع

إن وعي الكاتب بقضية التعليم، وخطورتها تجعله يخصص كتابه في جزئه الاكبر لقضية التعليم على حساب قضية الثقافة، وإن كان د. عمار قد سبق له معالجة الثقافة وقضاياها في أكثر من مؤلف ، وإن تناوله من منظور اجتماعي في مؤلفاته في «بناء البشر» وفي «بناء الانسان العربي» «والتعليم هدفا ووسيلة».

ولذا فهو يطرح مجموعة من الاسئلة تعترض المهتم بالتجديد التربوي مثل: لماذا تشكلت أوضاع التعليم بالصورة التي عليها حاليا؟ وما أثر العوامل والقوى المجتمعية الحالية على هذا التشكيل؟ ثم ما هي العوامل والقوى المجتمعية ومتغيراتها التي تستدعي التجديد؟ وما هي الرؤية المستقبلية لحركة التعليم في ملاءمتها أو فاعليتها مع الظروف والمتغيرات المستجدة؟ وأخيرا ما هي الشروط اللازمة لتجديد التعليم وتطويره؟.

إن حامد عمار يعي بعجز الحلول التقليدية في مواجهة أزمتنا ، ولذا فهو يدعو الى الموقف الابداعي في التعليم والثقافة وهو ابداع مركب: معرفي، عملي علمي تكنولوجي ، جمالي، وديمقراطي.

والابداع عنده نتاج لمجمل العمليات العقلية للتفكير الانساني في تفاعلها . وهو قمة الهرم فيها، ومحصلة لمنظومة التفكير

العلمي بموضوعيته وخبراته. وبقدر ما تتيحه منظومة التعليم والثقافة من مناخات ومعرفة ومهارات وقيم ورموز تسهم في تحرير الانسان وحريته تتجدد الحيوية الذاتية في خلايا المجتمع من خلال أساليب مبدعة وفنون مبتكرة للتجديد والتغيير ، ويتضمن الكتاب مجموعة من الدعاوى التعليمية ، والقضايا الساخنة، والافكار المحركة للواقع التعليمي ومن بينها.

- توسيع فرص التعليم العالي والتأكيد على مجانيته.

- مواجهة ظاهرة الدروس الخصوصية.

- إعادة النظر في نظم الاعارات الجامعية.

- اعادة السنة التعليمية المحذوفة في المرحلة الاولى من التعليم (السنة السادسة).

– التأكيد على قيمة المساواة المجتمعية بين الجنسين.

- تعميم الالزام في مرحلة التعليم الاساسي ومده إلى المرحلة الثانوية.

- تنمية القدرات والمواهب المتميزة في التعليم.

- التجديد في مناهج وأساليب تكوين المعلم.

إن السمة الحركية للتعليم في فكر حامد عمار تبدو جلية في هذا الكتاب، فالتعليم فاعل ومفعول معا. مستقل وتابع. الازمة والحل، ولذا فهو يحدد خطة عمل أشبه بالمسئولية للتعليم كي يحقق التعليم أعلى قيمة مضافة الى الرصيد الثقافي القائم:

١ - الاهتمام بتكوين الإنسان الكلى المتكامل لا الجزئي المجزأ.

٢ - الاهتمام بتكوين الاستقلالية في الرأي والرؤية من عمليات التفكير العلمي والتفكير النقدي الحواري.

٣ - التركيز على عنصري الدهشة والاستمتاع في العملية التعليمية .

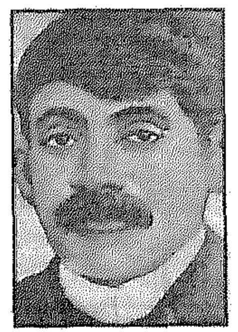
٤ - تنمية أخلاقيات العمل والاتقان.

٥ - توسيع فرص المناقشة والتساؤل والعمل التعاوني الجماعي.

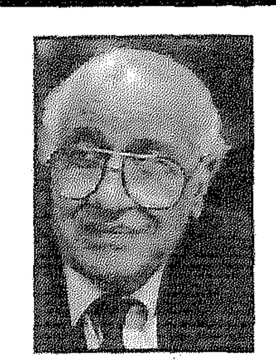
بناء البشر أولا

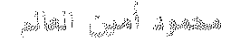
اذا كان مايور يشعر بالتفاؤل في كتابه «دفاتر المستقبل» في امكانية تحقق «التنمية المستدامة» Sustainable De-

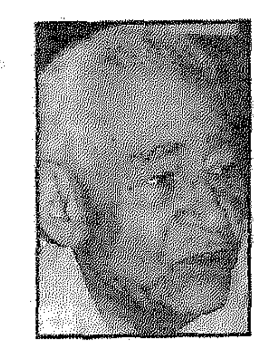




قاسم أمين — أحمد لطفي السيد — سلامة موسى







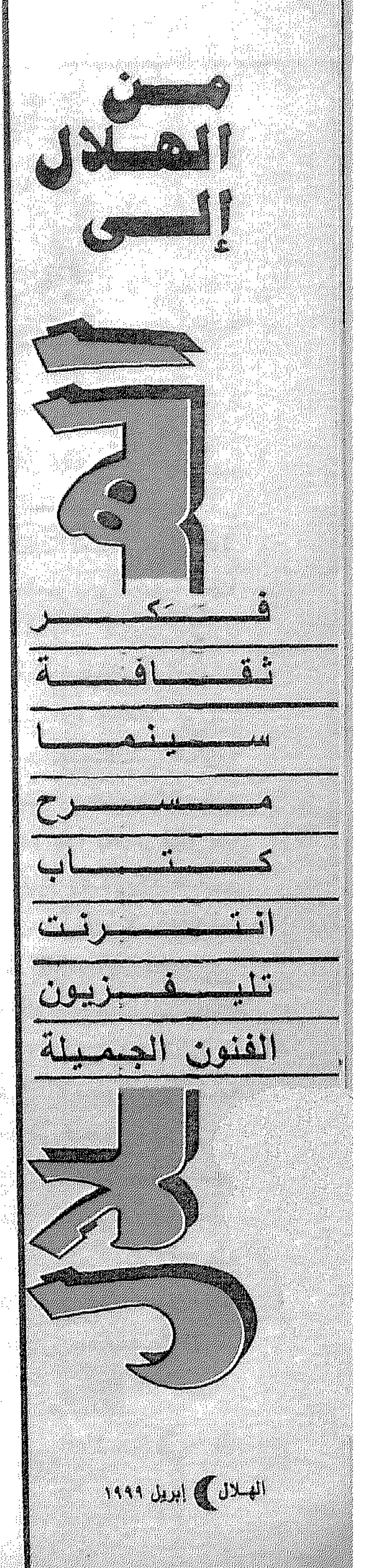


محمود أمين العالم — سليمان حزين — د. محمد حسن هيكل

velopment والمنطلقـــة بدورها من مفهوم التنمية البشرية، والقادرة على تلبية حاجات الانسان فى الحاضر والمستقبل، فان مفكرنا الكبير يعى أهمية التنمية البشرية التى تحول مواردنا من وجود بالقوة الى وجود بالفعل. ولذا فإن أهم تحدياتنا عنده تعظيم التنمية الدائبة من خلال البشر، والتنمية البشرية هى محور رسالة التعليم عامة، ومهمة التعليم ترتبط بارساء مقومات التنمية الذاتية أو ما يسميه المؤلف الكفاءة المجتمعية التى تؤدى الى استنهاض الطاقات الكافية، وهى التحدى الذى يتطلب من التعليم أن ينميه مقومات الاستجابة المنشودة فى خريجيه: معرفة ومهارة ووعيا وقيما وفعلا . ويدعو د. عمار الى اعطاء الاولوية للتعليم مشروعا قوميا لمصر حتى عام ٢٠١٧ مع نهاية الخطة الخمسية السابعة.

أهم ما يميز فكر حامد عمار ايمانه اللامحدود بالقدرة الانسانية. وهى سمة تتصل بمشروعه القديم منذ الستينيات «بناء البشر» ويتحقق ذلك عبر شرطين لكل انسان. الحرية والكرامة وهو يؤكد فى كتابه الراهن على ذلك الايمان العميق «الأهم هو قدرة البشر على خلق ذاتها وعلى توليدها ونموها، واذا كانت الموارد الطبيعية والمادية قابلة للنضوب. فإن البشر مورد لا ينضب فكرا وعملا. بل إنه قادر على تخليق موارد جديدة غير مألوفة الايمان العميق بالبشر وحقهم وكرامتهم وامكاناتهم الكامنة هو ما يصل فكر طه حسين بحامد عمار وفدريكو مايور ثاراجوتا. وللتعليم مسئولية قيادية فى تحقيق ذلك. وتكلمة الثقافة فكلاهما يعنى تحرير وتحريك الانسان الى آفاق أرحب.

فى الصفحة قبل الأخيرة من كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» يحلم طه حسين فيرى مصر وقد «انجاب عنها الجهل وأظلها العلم والمعرفة وشملت الثقافة أهلها جميعا». وما أظن أن حلم حامد عمار بعيد عن حلم طه حسين، وإن كان أقرب الى التحقيق منه بفعل الزمن والارادة.



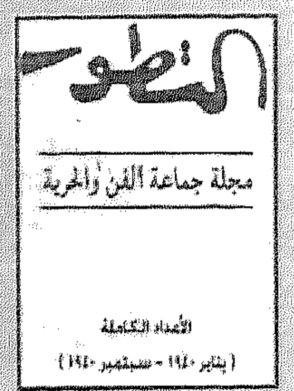
• مجلات :

التطور: العوز للفقراء والثقافة للأغنياء

هشام قشطة حالة خاصة فى عالمنا الثقافى، له شغف بماضينا الثقافى، وقد ربطته بالكاتب الراحل أنور كامل، أحد وآخر أعضاء جماعة الفن والحرية، صداقة خاصة، فتشرب منه مبادىء وأفكار الجماعة، ولذا قدم مجموعة من المطبوعات المختلفة، غير التقليدية، باسم «الكتابة الأخرى»، كان من أبرز ما طبعته فى الفترة الأخيرة كافة الأعداد السبعة من مجلة «التطور» التى كانت لسان حال جماعة الفن والحرية، والتى صدرت خلال عام ١٩٤٠.

وأهمية هذا الحدث. أن قشطة قد أعاد إلى الحياة مطبوعة، كان الكثيرون من المثقفين يتحدثون عنها باعتبارها حالة ما لبثت أن اختفت، وكان على الباحثين أن يذهبوا إلى دار الكتب لمطالعتها أو الرجوع إليها من أجل بحوثهم، لكن بطباعة هذه الأعداد السبعة فى مجلد واحد، ساعد فى إعادة الحياة إلى هذه المجلة التى أثارت جدلا طويلا إبان صدورها، وبعد أن توقفت طوال نصف قرن من الزمان.

نحن أمام مجموعة من الكتاب، لهم إتجاههم، وأفكارهم المرتبطة بالحرية، وكما جاء على لسان أنور كامل، صاحب الامتياز ورئيس التحرير، فى العدد الأول تحت عنوان «اتجاه جديد»: «نحن نعتقد أن المجتمع المصرى بحالته الراهنة مجتمع مريض فاقد الإتزان فمقاييسه الخلقية مختلة، وأوضاعه الاجتماعية الاقتصادية مختلة، وأثر هذا الاختلال تراه واضحا فى أعراض الإنحلال المتفشية فى عناصر القوة فيه، فالشباب المتعلم من جهة يقضى وقته فى



الأحلام المريضة نتيجة لما يعانيه من كبت لميوله ونزعاته، وسواد الشعب من جهة أخرى يعيش فى أبشع حالات الفقر والبؤس، والمرض نتيجة لانعدام روح العدالة فى النظم التى يخضع لها».

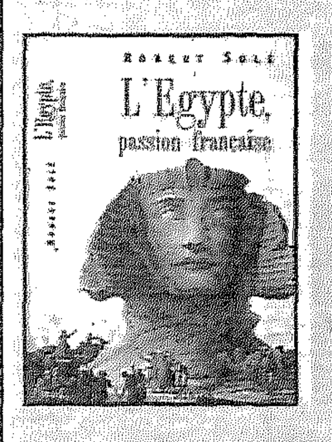
ومن الواضح أن المجلة كما جاء فى المقدمة، تقف إلى جوار الفقير وتناصره، وقد نشرت فى عددها الأول كلمة كتبها أحمد حسنين باشا قبل ذلك بخمس سنوات تحت عنوان «جولة فى الأحياء الفقيرة».. وصف فيه أحوال الفقر والرجال والنساء فالطرق قذرة والأزقة مبتلة متسخة، والفضلات ملقاة على الجانبين، والمساكن كالكهوف ضيقة منكمشة، أما النساء فشاعت القذارة فى أنفسهن وبيوتهن وأولادهن.

والكتابة هنا موجعة، وصادقة، ولذا فإن العدد الأول من المجلة الصادر فى يناير ١٩٤٠، يعبر عن لسان حال الجماعة وفكرها، وقد بدا العدد منقسما إلى قسمين، الأول مهتم بثقافة وأحوال هؤلاء الفقراء الذين كُتب عنهم، مثل مقال «دعوة للتفكير فى حالة المجتمع المصرى» كتبه عبدالمغنى سعيد، قال فيه «متوسط دخل الفرد فى مصر ١١ جنيها فى العام كما قدره صدقى باشا، أو ١٠ جنيهات كما قدره الدكتور الشافعى أستاذ الإحصاء بكلية التجارة».. ومقال «الفكر فى خدمة المجتمع» بقلم على كامل، ثم كتب فؤاد دويدار الذى كان ضد إلغاء البغاء، ونادى بالإبقاء على البغاء،: «إن ما يتخذ من احتياطيات لمكافحة البغاء بقيد أسماء البغايا فى السجلات والرقابة من جانب الحكومة لم يلق نجاحا كبيرا من وجهة النظر الطبية البحتة»..

ومن الواضح أن الثقافة الرفيعة الخاصة، وليست ثقافة الفقراء، هى لسان حال المجلة، من مقال عن سيجموند فرويد، ونحو فن حر، ومقال عن «بول الوار» شاعر العيون المخصبة.

● كــتــب :

مصـر ولـع فرنسـى



تأليف : روبير سوليه

ترجمة : فرج لطيف، دار المستقبل العربى ١٩٩٩

لايمكنك أن تفصل السياسة عن الثقافة، حين تتحدث عن الولع الفرنسى بمصر .. وقد بدا هذا واضحا فى الكتاب الذى ألفه روبير سوليه بعنوان «مصر ولع فرنسى» وترجمه فرج لطيف، والمفروض ان سوليه روائى ومثقف فرنسى من اصل مصرى، ولذا فان كتابه لابد ان يكون عن الثقافة، لكنه لم يستطع ان يمنع نفسه من الحديث عن السياسة بدءاً من مقدمته التى اشار فيها الى انهيار العلاقات الفرنسية المصرية سياسيا ثم ثقافيا عقب العدوان الثلاثى على مصر مما أدى إلى رحيل آلاف الفرنسيين إلى بلادهم وتدهور الوجود الثقافى والتعليمى الفرنسى فى مصر لعقد من الزمن على الاقل .

ويقول سوليه فى مقدمته : «إننى مصرى بالمولد لا تجرى فى عروقى قطرة دماء فرنسية واحدة وقد اكتشفت فرنسا بانبهار حين كنت فى الثامنة عشرة من عمرى».

وكتاب سوليه من أربعة محاور كبرى المحور الاول تحت عنوان «التقاء عالمين» رجع فيه الى الجذور التاريخية القديمة والحديثة منذ ان جاء الحجاج من اوروبا عبر مصر متوجهين الى الحجاز، ولحق بهم التجار والفضوليون ثم اغراءات الغزو ووصول بونابرت والحنين إلى الوطن والعودة من مصر واستعانة محمد على بالخبرات الفرنسية. كما توقف سوليه عند مكانة شامبليون فى حل رموز حجر رشيد ومكانه مسلة ميدان كونكورد فى قلوب الفرنسيين كما توقف الكاتب عند بعض الكتاب الفرنسيين الذين جاءوا إلى الشرق وخاصة إلى مصر ومنهم ماكسيم وكامب وآخرون .

وفى حديثه عن الثقافة الفرنسية فى مصر فان سوليه لم يمنع نفسه قط من التوغل فى عالم السياسة والاقتصاد


روبير سوليه

من الهلال
إلى الهلال

والمنظور الاستعماري «أسماه غزوا» لفرنسا في مصر، ولذا فان المحور الثاني يتوقف عند طموحات الفرنسيين الكبرى مثل استعراض ديلسبس لطموحاته، والدور الاجتماعي والسياسي والثقافي من العثور على كنوز ماريت مؤسس المتحف المصرى ودور الخديو اسماعيل فى بناء مصر الحديثة ثم تأليف اوبرا عايدة.

وفي المحور الثالث من الكتاب توقف سوليه عند السياسة مجدداً من خلال ما أسماه بانجلترا الخادعة. وقد أفرد سوليه آراء متناقضة لكتاب فرنسيين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فالكاتب اوجين فروماتان يقول : هذا الشعب وديع ومرح الى اقصى الحدود بالرغم من بؤسه ومن خضوعه انه يضحك من كل شئ ولا يثور غضباً، وفى مكان آخر يكتب نفس الشخص انه شعب متسول انهم شحاذون بالسليقة وكلمة بقشيش توجز مفردات اللغة المعتادة كما ان حركة مد اليد هى مجمل حركاتهم الايحائية انهم يطلبون احسانا ويلحون فى الطلب ويتابعونك بقولهم: بقشيش .

اما المحور الرابع فقد توقف سوليه عند مرحلة الاضمحلال الثقافى تبعا لما حدث سياسيا وشهد نهاية عصر فتم النظر الى الدبلوماسيين كجواسيس. ويقول سوليه عن الهوس بمصر فى التسعينات أنه ليس جديدا ولا خاصا. بفرنسا وينغمس الفرنسيون فى الهوس بمصر منذ طفولتهم. ولاريب انهم يفعلون ذلك اكثر من الغربيين الآخرين بصفة خاصة بسبب ارتباطات بلادهم الخاصة بمصر منذ قرنين من الزمان، ويظهر هذا الهوس بمصر كما كان يحدث قديما من خلال الرسم والمعمار والنحت والزخرفة الداخلية او الموسيقى، لكنه اصبح اكثر تعاظماً بفضل وسائل الاتصال الحديثة.

وفى ختام حديثه يلقى سوليه بالعتاب على الفرنسيين انهم نظروا إلى مصر من جانب واحد. هل يجب التذكير بأن مصر لا تقتصر على الفراعنة ولم تتوقف عند البطالمة؟ .

ويقول الكاتب إن الغرام الذى تتم معايشته من خلال ربط الماضى بالحاضر يتجدد بلا انقطاع وينجو من مخاطر الولع العقيم ذلك لاننا نسعى اليوم مثل الأمس الى الحكم عليه من ثماره، ثم يتساءل ماهى ثمار هذا الغرام ؟ .

الحلم والسجن والحصار



ليس من الضرورى أن تكون «المذكرات السياسية» هى ما تخطه أقلام من كانوا فى موقع أو آخر من مواقع السلطة ، بل قد تكتبها أقلام رجال اشتغلوا بالسياسة على نحو دفعهم بعيدا عن السلطة ، بل جعلهم فى موقع المواجهة لها والخصومة معها ربما طوال حياتهم !. من هذا النوع كتاب يحمل العنوان الذى يتصدر هذا الكلام ، وأضاف إليه مؤلفه «عبد الخالق الشهاوى» عبارة : «رحلة مناضل مصرى» .

وتبدأ رحلة هذا المناضل الذى جاوز السبعين من أيام كان صبيا صغيرا فى قريته «البرامون» من أعمال المنصورة ، وتفتحت رؤيته مبكرا على «الصراع الطبقى» داخل عائلته ذاتها بين أغنيائها الذينَ منهم الوجهاء والعمد ، وفقرائها أمثاله ، حيث سن الجد المؤسس للعائلة قانونا لها يجعل معظم الملكية فى يد من سيخلفه فى منصب العمدية ! .

ويتعلم الصبى فى مدرسة القرية ويحفظ القرآن ، ثم ينتقل إلى المعهد الدينى فى دمياط ويتعرض للاعتقال فى هذا الوقت المبكر ، بعد حادثة القصاصين التى تعرض لها الملك فاروق ، وكان له ولبعض أقرانه موقف خاص من المظاهرات التى قامت لتهنئة الملك بنجاته ، عبر عنه أحدهم بالاستشهاد بالآية الكريمة : «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة»!

وينتهى المطاف بالفتى إلى أن يلتحق بكلية دار العلوم بالقاهرة ، حيث يدفعه حلمه بالعدل الاجتماعى إلى اعتناق الماركسية والانضمام إلى المنظمات الشيوعية السرية ، وبعد ثورة ٢٣ يوليو ، يزج به فى السجن الحربى بالاسكندرية ، ويشرف على الموت بسبب الحبس فى زنزانة منفردة مفتوحة

«على البحرى» فى عز البرد وأرضها مغمورة بالمياه ويداه مقيدتان «خلف خلاف» خلف ظهره بالقيد الحديدى !.

ويتعرض للموت مرة ثانية عند ترحيله إلى معتقل الواحات ، حيث تم تقييده فى «الحجلة» ، التى تضم ثلاثين فردا من المعتقلين ، وذلك حينما يتحرك القطار فى المحطة قبل أن يفرغ المعتقلون المقيدون على هذه الهيئة من النزول من عربة المواشى التى تضمهم !.

ويصف الكاتب فى أواخر كتابه معركته داخل القطاع العام، الذى ألحق به بعد أن انتهت خصومة المنظمات اليسارية مع الثورة ، كانت المعركة الجديدة ضد الفساد وتصرفات بعض المسئولين من ذوى الذمم الخربة ، حتى أنهم نقلوه وهو بدرجة مدير عام إلى وظيفة «رئيس السعاة» ! فلبس القبقاب وشمر عن ساعده ومسح مكاتبهم حتى جعلها تبرق ! حتى انتصر الحق وزهق الباطل ! .

ولم يخل كتاب «الشهاوى» من شعر بعضه منظوم وبعضه منثور، فى التعبير عما لاقاه من أهوال . كما أن نقده قد امتد إلى المنظمات الشيوعية التى عمل بها ، من ذلك ذكره لقصة الخلاف داخل الحزب الشيوعى حول تقويم الوضع قبل ثورة ٢٣ يوليو ، حيث كان من رأى الرفيق عامر (عبد الرحمن شاكر) أن البلاد مقبلة على ثورة ضد النظام الملكى ، ومن رأى الرفيق خالد سكرتير الحزب (المرحوم د . فؤاد مرسى) أنه يكفى المطالبة باسقاط رئيس الديوان الملكى حافظ عفيفى ، ولكن الضباط الأحرار كانوا من رأى شاكر ، وأسقطوا النظام الملكى برمته بعد شهور قليلة من هذه القصة !.

ربيع شتا

● مسرح :

المحارم فى بيت لحم



حينما سمع البعض عن مسرحية بيت من لحم، والتى تعرض فى بيت زينب خاتون لفرقة مسرح الشباب إدارة المخرج الشاب خالد جلال، وهى معدة عن قصة قصيرة بنفس الاسم للكاتب الكبير يوسف ادريس ساد الصمت بيننا. وكسر حاجز الصمت أحد الزملاء قائلا : الغريب أن من تصدى لهذا الموضوع الشائك فتاة صغيرة معيدة بالمعهد العالى للفنون المسرحية هى رشا خيرى اشفقنا جميعا عليها، وقلت أن التناول سيكون صعبا فكل منا قرأ قصة يوسف ادريس ونعلم أنها من القصص الجريئة خاصة انها تتناول أزمة الفقر فى المجتمع المصرى، والتى تدفع أحياناً إلى اللجوء لزنا المحارم لعدم قدرة الشباب على الزواج وايضا عدم تحصنهم بالقدر الكافى من العلم والدين. قررت مشاهدة المسرحية . كنت قد أعجبت بأداء رشدى الشامى عندما زاملنى بالتمثيل فى إحدى المسرحيات بمسرح الطليعة، وأيضا عندما قام بدور الضرير فى مسرحية «حمام شعبى» اخراج ايميل شوقى وادهشنى اداؤه فى بيت من لحم فلا يخالجك الشعور لحظة بأن من يقف ويتحدث أمامك ليس كفيفا. اتقن رشدى الشامى أسلوب اداء الشخصية سواء فى الحركات أو اثناء الحوار حتى الصمت احيانا فقد تلبست الشخصية هذا الممثل القدير. استطاعت رشا خيرى فى سلاسة ويسر وجرأة تحسب لها ايضا أن تتفهم ما أراد كتابته يوسف ادريس بين السطور فى قصته، وأعادت تركيبها فلم يكن يوسف ادريس يريد فقط احداث الدهشة لدى المشاهد بقضية زنا المحارم بقدر ما أراد أن يؤكد على أن الفقر يورث الكفر وليس بعد الكفر ذنب وهل يضير الشاة اقترافها الزنا بعد كفرها بمجتمعها .

الأم الممثلة منال زكى اتقنت دورها هى وبناتها الثلاث الممثلة انتصار فى دور زينب والممثلة امانى يوسف فى دور عائشة والممثلة هند حسنى فى دور مريم، فى تناول ممتع لقصة يوسف ادريس بيت من لحم بعد أن أعدت للمسرح حيث استطاع المخرج الشاب عاصم نجاتي أن يعزف سيمفونية، أدواتها صحن دار زينب خاتون كمكان مستقل السلم والشرفة والأبواب والديكور البسيط لهشام جمعة والذى يدل على وعيه بفلسفة

المسرحية، مستغلا بعض صناديق الملابس التى كانت تستخدم عادة فى الريف ويستبدل بها الفقراء الدواليب كخزانة لملابسهم وحاجياتهم وسرير اسود ذو عواميد، والذى مازال يستخدم فى الريف حتى الآن، وأيضا فى بيوت الفقراء فى القاهرة وبعض لوازم المعيشة الأخرى البسيطة. وقد استغل عاصم نجاتى الاضاءة الموحية واستطاع توظيفها فى هذا المكان المتسع المفتوح بما يتفق مع روح النص واجاد ادارتها فاروق غنيم واشرف عبد الباقى .

جمع بين الشقيقات الثلاث الاحساس بالضياع والشقاق بينهن على اشياء تبدو تافهة ولكنها بالنسبة لهن شيئا كبيرا كالتفاوت بينهن في نسب الجمال، وعلى رداء مستعمل حصلت عليه احداهن من مخدومتها وكذلك الأمنيات بالزواج ولكنها ككل امنيات الفقراء دائما لا تتحقق مع حالة الضياع ومهانه الخدمة والجهل فمن اين يحصلن على التنوير وهن يعشن في هذا الظلام الدامس ، وشعورهن بالتواجد فى بيت لم يعد به رجل يحميه ويلم شملهن ويجعل للأسرة طعما ومذاقا خاصا. لذلك اجمعن على زواج امهن من الرجل الوحيد الذى يدخل عليهن البيت الشيخ محمد «رشدى الشامى» ليقرأ بعض السور أو للتغنى ببعض التواشيح فالأمل فى زواج الأم لعل ذلك يكون دافعا للرجال الآخرين بالزواج منهن فيخرجن من اطار حياتهن الحالكة السواد .

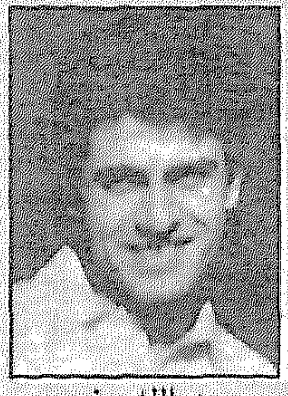
المخرج والمعدة اصرا على أن يكون النداء الأخير فى المسرحية هو المطالبة بالخاتم وكأنه حق مقدس للفتيات بعد كل المعطيات والمقدمات التى جاءت بها المسرحية من واقع مر واليم.

المنهج الواقعى واضح فى هذا العرض فمعالجة موضوعات الفقر والفروق الطبقية اساس فى المذهب الواقعى فى الفن وان كان المخرج قد طور واقعيته فاصبحت كوميديا الواقعية السوداء فشر البلية ما يضحك.

جعلت الكاتبة الاكتشاف من جانب الأم عندما فاجأها الزوج بسؤاله عن سبب خلع خاتمها فى الفراش ثم تأتى المطالبة من جانب الفتيات بالخاتم لكن الأم ترفض فى لوعة وحسرة على بناتها.

عدلي عبد السلام

الأيـــام المخمـــورة



سعد الله ونوس

«كثيراً ما حلمنا ، أننا سنترك لكم زمناً جميلاً ووطناً مزدهراً . ولكن علينا أن نعترف ودون حياء ، أننا هزمنا وأننا لم نترك ، إلا زمناً خراباً وبلاداً متداعية». بهذا الاعتراف المرير بدأ سعد الله ونوس إهداء أعماله الكاملة إلى ابنته ديمة . إلى جيلها والأجيال التى تليها ويختتم أقواله متمنياً أن تكون هذه النبرة الكئيبة مجرد تهويمة مرض، ويود أيضاً أن تكون الطاقات المخزونة فى أعماق هذا الجيل أقوى من هزيمته هو وجيله . ومن هذا الاعتراف المرير واحساس الهزيمة كتب ونوس الأيام المخمورة وكانت آخر نصوصه المسرحية ، وظل هذا الإهداء أو الاعتراف المرير يطاردنى حين قرأت النص .. وأيضاً وأنا أشاهد العرض فى مسرح الهناجر إخراج مراد منير أو حين أعيد عرضه فى مسرح السلام ، فثمة اعتراف مرير بالهزيمة .. وهى هزيمة المناضل القوى الذى أدى دوره بجدارة وكانت اللحظة التاريخية أقوى .

يقدم ونوس فى الأيام المخمورة شخصيات لا يثق فى قدرتهم على الفعل على الرغم من الرغبة الملحة لديهم فالقوى الفاعلة أيدلوجياً وتاريخياً أقوى منهم ويعتمد النص البناء السردى فى صورة لوحات تأخذ شكل التقطيع فكل لوحة نموذج يشكل موقفاً ما ضمن الإطار الزمنى للعائلة «إطار النص» ، هذا الإمتداد الذى يأتى بين الإرتداد إلى الماضى والعودة إلى الحاضر «اللحظة الآنية »، يطرح فى النهاية خاتمة مفتوحة فليس ثمة بناء درامى محكم ولا صراع يأخذ شكل مواجهة واضحة وإنما شخصيات متناقضة متعددة الصفات ومعظم الأفراد فى الأيام لا يملكون أية أبعاد خاصة ، فالقوى الفاعلة التى هى البناء العميق للنص ليس الشخصيات من خلال أفعالها، وإنما مفهوم الأيام المخمورة الذى يطرحه ونوس كبناء عميق للنص فى مقابل البناء العميق للحياة التى عاشها هو فى تلك الأيام وصاغها فى صورة فعل الأيام المخمورة ضمن حكاية مبعثرة، وواقع الشخصيات يتخطى فيها الوعى الذاتى والفردية إلى الدوافع المرتبطة بالصراع الأيدلوجى ليطغى مفهوم التسيس الذى أختطه ونوس لنفسه على طبيعة الأحداث وتسلسلها المتداعى من البداية إلى النهاية وعلى سيرورة الحكاية .. فلا



من الهلال إلى الهلال

شىء سوى طفل فى السادسة يشاهد أمه تعود بامرأة عجوز شديدة الهزال هى جدته تعود فيما بعد أن يراها مستلقية على الأرض ويداها معقودتان فوق بطنها ، وفى ذلك الوقت امتنع الأقارب عن زيارة البيت وايقن الحفيد أن فى العائلة «دملاً» يتستر عليه الجميع فلابد أن يفقأه حتى يستقر الجميع فى اسمه وهويته وفى النهاية لا شىء سوى أن الناس تتمايل والأيام مخمورة .

أدرك مراد منير البناء السردى والتزم بالحكايات المبعثرة وتحولت العملية الإخراجية إلى نقل وتصوير للنص والالتزام بالارشادات الإخراجية من المؤلف وافتقد في احيان كثيرة إلى صياغة العلاقات المكونة للعمل عبر التشكيلات على الخشبة هذه العلاقات التى يحكمها مفهوم الأيام المخمورة. ومن الواضح أن هذا الالتزام جاء عن وعى وادراك ورغبة فى ذلك ربما يختلف البعض معها . فجاء العمل على المفردات الجمالية للسرد من خلال خشبة مسرح فارغة فى أغلب الأحيان وحين تمتلىء بالديكور يكون تقليدياً فالمفردات المستخدمة واقعية عن عمد لبلورة العلاقة بين الانسان والواقع حال ردها إلى القيم الاجتماعية والايدلوجية المعمول بها .

فبعد أن اختارت سناء «سمية الألفى» الانعتاق والخروج من بيتها وأسرتها والحياة مع حبيب الشمالى «خالد الصاوى» رغم اختلاف المذهب والعقيدة لم يحدث شىء وكانت ردود الفعل فى الأسرة باهتة وضعيفة ، ثورة لمدة دقائق وعاد كل إلى حياته ، الأب شغل بتجارته والابن سرحان الذى ترك الجامعة وصار فيما بعد بمشاركة أخته ملك اللذة تاجر البغاء واصيبت الصغيرة ليلى بالخرس فهى وحدها التى حملت سر أمها، ولم يبق سوى الابن الأكبر الذى أخذ على عاتقه عار أمه لتنتحر فى النهاية فهو عاجز عن الفعل وفى النهاية لم يبق إلا ملك اللذه الذى ينصح إبن اخته «الراوى» والذى يرمز للجيل الحالي قائلاً «مهما تقنع الانسان وموه حاجاته بالأخيلة والأكاذيب فإن مدار الحياة الفعلى سيظل يدور حول الرغيف والفرج، وحقيقة الإنسان النهائية هى الفضلات فلا شىء سوى الفضلات» ويعلن الحفيد الذى صار شاباً بعد اكتمال الحكاية أو بالأحرى انهيارها : وجدت الدمل دمامل والطريق إلى الحقيقة متاهات وفجوات . فلم أجد أمامي إلا أن اتخيل وأركب المشاهد وبدلاً من الحقيقة أعدت صياغة العائلة فى رواية.

جرجس شكرى

● سينما :

السينما الرقمية ؟

لقد اقترب القرن القادم فى مجال صناعة السينما أكثر مما نتصور ولقد أصبحت الاختراعات والتطبيقات الحديثة فى هذه الصناعة مثل الصوت الرقمى والصورة ثلاثية أبعاد ودور العرض متعددة الشاشات، كلها أمور عادية وأساسية وإن أخذت فى القدم الثورة الحقيقية فى هذا المجال سوف تكمن فى الموقع الذى ستحتله النسخة الفيلمية من العمل السينمائى والمتعارف عليها بأنها النسخة من فئة ٣٥ ملليمترا أو ٧٠ ملليمترا فالاتجاه الآن يسير نحو إلغاء العمل بهذه النسخة تماما.

استبدال آلان العرض التى تقوم باستخدامها بأخرى رقمية وقد كانت أول معالم هذه الثورة ظاهرة كل الظهور فى معرض جرى مؤخراً فى مدينة «دينڤر الأمريكية» ، حيث تم فيه جمع شامل لأكثر من ١٤٠ مسئولا فى شركات دور العرض المختلفة لمشاهدة أول أجيال هذه الأجهزة الجديدة التى تمثلت فى صورة ستة أجهزة جديدة، تقوم باسقاط صورة على شاشة يتجاوز عرضها الـ ٤٠ قدما. وكل المتخصصين الذين حضروا هذه التجربة أصبحوا على يقين أن المستقبل بالفعل قريب وقد حاز جهازان على اعجاب الحاضرين بوجه خاص، هما من تصنيع شركتين كبيرتين الأولى يابانية والأخرى أمريكية. وقد وضح بعد العرض أن الحاجز بين جودة العرض السينمائي التقليدى والعرض من ڤيديو حديث، أصبح ضيقا للغاية وأخذت الفروق بين جودتى الصورة فى الاختفاء شيئا فشيئا كلما تقدمت البحوث.

وبالطبع مع تطور كهذا سوف تشهده الأوساط السينمائية، بدأ التفكير فى الخطى التى سوف تتخذ من أجل تحويل ٣٤ ألف شاشة عرض فى الولايات المتحدة وحدها، لكى تتكيف على العمل بالنظام الجديد و٥٠ ألف شاشة عرض أخرى وهو عدد تقديرى فى بقية أنحاء العالم. وقد قدرت تكلفة تحويل كل شاشة عرض بحوالى ٨٠ ألف دولار. والمعروف أن شركات الانتاج فى هوليوود وحدها تقوم بإنفاق مبالغ هائلة فى عملية

طبع نسخ الأفلام وشحنها إلى مختلف أنحاء العالم.

والسؤال الذى يبرز الآن هو من الذى سيقوم بدفع تكاليف التحويل من النظام القديم إلى النظام الجديد. ويبدو أنه سيكون من المؤكد أن تقوم اتفاقات بين أصحاب دور العرض والموزعين على هذه الأساسيات. وقد اقترحت الشركة الأمريكية المنتجة والمطورة لهذه التكنولوچيا الجديدة، أن تقوم بأعمال التركيبات لأجهزتها الجديدة، وبالتالى أعمال الصيانة للأجهزة الالكترونية الجديدة، وذلك مقابل حقوق استغلال لدار العرض المطورة، يتم الاتفاق عليها أما الموزعون فهم فى حيطة لأنهم لا يريدون طرفا ثالثا يقف بينهم وبين دور العرض حيث تعرض أفلامهم. وقد قام بعضهم بالتفكير باعطاء نسبة من ايرادات الأفلام، إلى دور العرض ولكن سوف يكون على الأخيرة دفع تكلفة التحويل بالكامل.

ومن خطط استخدام هذه التكنولوچيا الجديدة، الاستفادة منها فى المجال العلمى والتعليمى فى الولايات المتحدة وأوروبا وامكانية تحويل بعض الصالات لهذا الغرض.

أما العقبات التى تبرز على هذه الساحة المستقبلية، وقد كانت أول براهينها وجود ثلاثة أنظمة للصوتيات الآن (الدولبى والدى تى - إس، ونظام سونى) وكلها أنظمة رقمية منافسة لبعضها البعض، أن يكون هناك أيضا عدة أنظمة رقمية لعرض الفيلم مما سوف يعقد هذه السوق أكثر وأكثر. والهدف الآن هو توحيد الأنظمة الجديدة أو صناعة أنظمة قريبة من العمل من بعضها البعض. وفى هذه الحالة سوف تتمكن هذه السينما الرقمية من بث أفلامها هى الأخرى عبر الأقمار الصناعية أى سوف تستغنى عن شحن الأفلام على أقراص (سى دى) أو شرائط بالتالى يمكن لدور العرض أن تستفيد من هذا التناغم بين هذه التكنولوچيا الجديدة والهوائيات، وبجعلها شاشات لبث البرامج والأحداث الرياضية على الهواء مباشرة، ويعمل منظرو هذه الأنظمة على الإحالة دون «قرصنة» هذه التكنولوچيا لكى لا تكون هناك نسخ غير قانونية من هذه الأعمال.

وعلى العموم فهناك معرض قادم سوف يتم فيه عرض مقارن بين جهازين للعرض الالكترونى وآلة عرض سينمائية ٣٥مم عادية، ليتم تقرير مصير هذه التكنولوچيا الجديدة، هل سيكون استخدامها فى القريب العاجل أم على الأمد البعيد.

شريف عوض

● مـــــؤتمرات :

مؤتمر أدباء الدقهلية وحق الأديب فى التكريم



مصطفى السعدنى وسمير عبد الباقى

المؤتمر الأول لأدباء الدقهلية الذى عقد فى منتصف مارس يعد بداية جادة. حتى لايضيع الجهد الثقافى لأبناء إقليم نشط من أقاليم مصر، اتسم ابناؤه منذ بداية القرن وقبله بمميزات قد لا نجدها على امتداد مصر كلها.

ولنستعرض فى عجالة فمما أثرت الحياة الفكرية والثقافية والفنية المصرية بعامة .

فمن المنصورة رأينا أحمد لطفى السيد وعلى محمود طه ورائد الرواية المصرية د. محمد حسين هيكل والدكتور عبدالقادر القط متعه الله بالصحة وسعد الدين وهبه وأنيس منصور والمثال محمود مختار ورياض السنباطى وأم كلثوم وفاتن حمامة وأمينة السعيد.. رأيناهم يبدعون فى كل مجالات الفكر والثقافة والفن .

فكيف تمر السنوات ولا نجد ميلاد شاعر فى قامة شاعر الجندول على محمود طه، ولا ملحن يصل إلى ما وصل اليه رياض السنباطى صاحب أعذب الألحان وأرق النغمات ، ولاسياسى ولا كاتب رواية مثل الدكتور هيكل صاحب رواية «زينب» إذن ما الذى حدث طوال فترة طالت من الزمن، ولم نجد هذا الرقم الذى تميزت به المنصورة ؟.

صحيح لدينا الكثيرون منهم د. يسرى العزب وفؤاد حجازى وسمير عبد الباقى وعماد الدين عيسى، لكنهم انشغلوا بالحياة الصعبة ، وفى أحيان كثيرة غاب النقد عن انتاجهم وكان التكريم واجبا لعدد من هؤلاء الادباء ، حتى يواصلوا مسيرة العطاء ، كذلك يتواصل العمل الأدبى ، ويزداد الانتاج الذى هو

فى الأصل ترجمة حقيقية لكى تؤدى الثقافة دورها، وليحقق الأدب الدور المنشود منه .

افتتح محافظ الدقهلية اللواء فخر الدين خالد عبده المؤتمر وكان ضيفا على المؤتمر العالم المعروف الدكتور أحمد مستجير، كما جاءت كوكبة من العلماء والإعلاميين لكى يتعرفوا على أدباء الدقهلية المكرمين وإنتاجهم الفكرى .

وكانت الندوات التى تناولت الشاعر سمير عبد الباقى والقاص فؤاد حجازى فرصة حقيقية لكى يتعرف رواد هذه الندوات على إنتاج تميز بالصدق، واعتمد أغلبه على البيئة التى تزخر بها الدقهلية، هذا المجتمع الزراعى الفريد فى بابه جمالا في الطبيعة وتفاعلا فى الأحداث اليومية المعاشة .

ولقد كان للدور الذى قام به كل من الدكتور مصطفى الرزاز ومصطفى السعدنى مدير عام ثقافة المنصورة الأثر الكبير فى إنجاح فعاليات مؤتمر أدباء الدقهلية، ومن بينها تقديم مسرحية العشرة الطيبة لخالد الذكر سيد درويش، ومسرحية الملك جلجل للأديب فؤاد نور ومن إخراج رجائى فتحى، أداء فرقة بيت ثقافة شربين المسرحية، بالاضافة إلى الأمسيات الثقافية التى قدمت فى بيوت ثقافة دكرنس وشربين وميت غمر والسنبلاوين.

لقد كانت البداية حلما لأبناء هذا الاقليم ، الذى كان يصدر فى السبعينات مجلة المنصورة ومجلة مصر التى خصصت لنشر ابداعات أبناء المنصورة ، وكل مثقف يحرص علي وجود هذه الاصدارات لكى يرى أدبه النور.. ينطلق من محافظته لكى يصل الى العاصمة ، ثم يحقق الذيوع والانتشار.

إننى كواحد من أبناء هذا الاقليم اضم صوتى لتوصيات المؤتمر فى أن يرى انتاج القاص المخضرم فؤاد حجازى النشر من خلال الهيئة المصرية العامة للكتاب.. كما ينبغى أن يكون شهر مارس من كل عام هو موعد اللقاء السنوى لأدباء الدقهلية، وليزداد التفاعل الثقافى، ولتقال كلمة حق هى التى تحفز الأديب الحقيقى على مواصلة ابداعه وإنتاجه المتميز ..

عاطف مصطفى

عندما يحس الحجر !


جون بول فيليب

«انها مليئة بالحياة .. يغمرها الاحساس» .

هكذا رأى المثال الفرنسى الشهير جون فيليب لو كل أحجار مدينة اسوان الجرانيتية المنتشرة حول المدينة ، وفى أحشائها ، انه لا يراها كائنات خالدة ، شاهدة على تاريخ الحضارات ، والبشر فقط ، بل إنه يتعامل معها ، كأنه قادر على أن يجعلها تعبر للناس عن مشاعرهم الجوانية .

ليس هذا فقط بالنسبة لحجارة اسوان ، بل لأى حجر فى الكون ، قابل أن يتشكل تحت أزميل النحات ومعوله ، ولذا فان عينى النحات تختلف تماما عن أعين كل البشر فى النظر إلى الاحجار .. فقد سافر چون بول إلى السويد ، واليابان ، واستقر فى ايطاليا ، فقط ، من أجل مخاطبة الحجر ، وتحويله إلى كيان يولد الاحساس .

هذا هو ما يمكنك أن تشعر به ، وأنت تحضر وقائع سيموزيوم النحت الدولى الرابع الذى يعقد فى الفترة بين ٨ فبراير الماضى إلى الثامن من ابريل الحالى ، ومن أجل التأكيد على ما ردده المثال الفرنسى فإنك لو وجدت نفسك لبعض الوقت قريبا من متحف النوبة ، حيث يعكف المثالون ، ومساعدوهم من عمال النحت (الارتيزان) ، فان أذنيك سوف تنساب إليها سيمفونية خاصة ، متناسقة النغمات من ضربيات تلك الأزاميل فوق صخر الجرانيت ، والبازلت البالغة الصلادة .

وأهمية التناغم هنا ، أن هناك فرقا واضحا بين تكسير الصخور بالآلات الحديثة ، وبين العزف على سطوحها الخارجية من خلال الضرب بالشاكوش ، والإزميل ، انه أشبه بالعزف ، حيث تتكامل هذه السيمفونية الغريبة ، مع التصاق الإنسان بالطبيعة ، فالحجر أحد مكونات هذه الطبيعة ، هو فى أغلب

الأحيان قد تشكل مع غيره من الاحجار ، حتى إذا نظرت إليه خَيّل إليك أن هناك مثالا ، لا مثيل له ، قد قام بنحته على مر الدهور ..

والسيموزيوم ، أو ورشة النحت كما أفضل تسميتها ، قد شهدت تلاحما بين من يستخدمون الأزميل كأداة تعبير ، جاءوا طوال أربع سنوات من أنحاء متفرقة من العالم ، من تشيكوسلوفاكيا جان لو بلازا ، ومورلوس من تكساس ، وسامتو سا من بيرو ، وسو جيساكى اليابانى ، والصينى جودى ماو ، ومولميو من الكونجو ، وندا رعد من لبنان ، ومن مصر هناك محمد رضوان ، وعصام درويش ، وفان تلبيان ..

وقد اقام هؤلاء النحاتون فى أسوان عدة شهور ، يتبادلون حواراتهم بالأزاميل مع الحجارة ، ثم صارت أعمالهم نواة لمتحف مفتوح ، أقيم فى أعلى الجبل ، فى مكان يطل على الخلود من كل أرجائه ، فتعددت فيه مدارس النحت ، واتجاهات فنانيه واحجام أعمالهم .

من الهلال إلى الهلال

من الواضح أن هذا السيموزيوم الذى يقيمه صندوق التنمية الثقافية ، وترعاه محافظة أسوان ، قد ولد غريبا ، سواء من خلال اسمه ، أو من خلال الفن الذى يمثله ، فجمهور هذا الفن مقل حسب طبيعته ، ولذا فان السؤال المطروح هو : لماذا؟.. وقد جاءت الاجابة ، بعد سنوات ، وربما ستأتى أيضا بعد فترة ، فهو فن ثقيل ، يتم انجازه فى شهور طويلة ، وربما فى سنوات ، وأهم ما اسفرت عنه هذه الورشة هو دخول بعض العمال ، الذين يقومون فقط بأعمال الضرب على الحجارة ، بالتصميم ، والنحت ، كما أن أبناء الصعيد طالبوا بأن تتاح لهم فرص لنحت أعمالهم تحت رعاية السيموزيوم ، وهو الذى يختار بشكل أكاديمى فنانيه كل عام ، ولذا فمن الأهمية اكتشاف اجيال أخرى من الفنانين القطريين ، الذين لم تتح لهم الفرصة أن يلتحقوا بالجامعات ، أو بكليات الفنون الجميلة .



فى السيرة النبوية بين الحقيقة والوهم

بقلم: د.إبراهيم عوضين

كتب الدكتور محمود على مراد فى مجلة الهلال الصادرة فى أول يناير ١٩٩٨ مقالا تحت عنوان: (سيرة ابن هشام.. هل أنصفت الحقيقة) أوضح فى ثنايا المقال وفى ختامه أن استفهامه- فى العنوان- إنكارى، يقرر به مجافاة سيرة ابن هشام للحقيقة. فرددت عليه فى مقال نشر فى مجلة الهلال الصادرة فى أول مايو سنة ٩٨ ، قدمت فيه من النصوص الواردة فى الكتاب نفسه- وبالحوار العقلى- ما يوضح المفاهيم الغائمة، ويبرز النصوص الغائبة، ويبين أن ما ألصق بالكتاب- فى جملته- تهم باطلة.

فكتب الدكتور مقالا تحت عنوان (نظرات فى السيرة النبوية.. سيرة ابن هشام) نشر فى مجلة الهلال الصادرة فى أول يونيو ٩٨ ، ذكر فيه أن له ملاحظات على ما أورد الدكتور عوضين من آراء، قد تسنح له الفرصة لابدائها، ولكنه سيرد على سؤال مهم طرحه الدكتور فى عبارته: «أيعيب القبيلة، أو يعيب محمدا صلى الله عليه وسلم قيام قبيلته بدور القبيلة العربية عموما فى حماية أبنائها، ومنعهم من أى معتد، لأنها ترى فى ذلك امتهانا لها وانتقاصا من مكانتها؟!).



الموضوع الأساسي

ويرجع الدكتور مراد أهمية هذا السؤال إلى أن موضوع حماية أبى طالب، وحماية قبيلة عبد المطلب، ومن ورائها قبيلة بنى هاشم للرسول صلى الله عليه وسلم هو فى الواقع الموضوع الأساسى الذى تعالجه سيرة ابن هشام فى الفترة المكية، من بدء البعثة حتى وفاة أبى طالب قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً.

ولا أدرى كيف توصل الدكتور إلى هذا الحكم، ولا أين هو الواقع الذى أتاح له ذلك؟ .

أهو نظره فى الموضوعات التى تناولتها سيرة ابن هشام فى هذا الجزء، هو الذى بين له: أن موضوع هذه الحماية هو الشغل الشاغل للمؤلف، أم هو عدد الصفحات التى شغلت بالحديث عن الحماية.. حيث توصل الدكتور إلى أن الصفحات التى قدمت فيها هذه الحماية تفوق فى العدد الصفحات التى قدمت فيها الموضوعات الأخرى؟! وفقا لما يغرم به تلاميذ المستشرقين من الاعتماد على الاحصاء فى كل حالة، سواء كان للاحصاء فيه أهمية أم لا، وسواء كان الاحصاء دقيقا منتجا، أم كان غير دقيق وغير منتج.

أيا كان مناط هذا الحكم.. أقرر أن الدكتور- بإصراره على دعواه تلك- اضطرنى إلى النظر فى هذا الجزء من الكتاب بخصوصه، بحثا عن الموضوع الرئيسى فيه، فلم يكن أمامى إلا أن أستعرض أبرز الأحداث التى تناولها الكتاب فى تلك المدة- أو فى ذلك القسم - حتى نرى أين تجلس الحقيقة المتوجة، لا الحقيقة المتوهمة.

فوجدت أن أكثر من سبعين حدثا

أصيلا قدمها ابن إسحاق فى هذه المدة- أو فى هذه المساحة من الكتاب- من بينها تسعة أحداث فقط تتعلق بأبي طالب، منها حدث إجارته أبا سلمة ابن أخته، وحدث وفاته، فتكون جملة الأحداث المنسوبة إلى أبى طالب فى علاقته بالرسول صلى الله عليه وسلم سبعة أحداث فقط تشكل أقل من ١,٠ أحداث المدة.. مما يؤكد أن موضوع الحماية ليس- كما يزعم الدكتور- هو الموضوع الأساسى، خصوصاً أن الناظر المنصف لا يغيب عنه: أن ابن إسحاق ما ذكر أبا طالب فى أى من هذه الأحداث السبعة إلا من خلال الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس العكس- كما توهم عبارة الدكتور- ولا ذكره بهدف تمجيده، أو تمجيد أحد من أسرته، إلا بما يقدمه لمحمد صلى الله عليه وسلم من واجب تفرضه عليه عوائد القبيلة نحو أى ابن من أبنائها، بحيث يوسم من يشذ عن ذلك بما يستحقه من ازدراء، كما كان الحال مع أبى لهب عبد العزى بن عبد المطلب، كى يثوب إلى رشده، وينهض بواجبه نحو واحد من أبناء إخوته.

ولما رجعت النظر فى عدد الصفحات التى شغلت- فى هذه المدة- بعبد المطلب، وأبى طالب، وعدد الصفحات التى شغلت بمحمد صلى الله عليه وسلم وجدت: أن لا مكان للمقارنة، لأن ابن إسحاق ما ذكر عبد المطلب، ولا أبا طالب إلا عرضاً فى أثناء ذكر نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم، كلما استدعى ذكره الحدث الذى يتناوله، وليس كما زعم الدكتور، ولا كما توهم عبارته، فكل ما شغل بعبد المطلب من الصفحات لا يتجاوز خمس عشرة صفحة متناثرة بين صفحة (٥٠)- حيث الحديث عن اعتراض أبرهة- إلى صفحة (١٨٠) حيث الحديث عن وفاته.. وفى هذه الصفحات تحدث ابن إسحاق عن عبد المطلب فى اعتراضه أبرهة، وفى حفر زمزم، وفى توليه السقاية، وتحليته الكعبة بالذهب، ونذره ذبح ولد من أبنائه وتزويجه ابنه عبدالله، ثم وفاته.

فأين هذا من عدد الصفحات التى شغلت بالحديث عن محمد صلى الله عليه وسلم صراحة؟ .

هذا التساؤل على فرض التسليم للدكتور بتلك القسمة لأن حقيقة الأمر تقول إن الحديث عن عبدالمطلب ومن سبقه ومن لحق به، إنما هو فى الواقع حديث عن محمد صلى الله عليه وسلم لأنه حديث يعرف بإسرته.

ثم.. مع سلسلة المقارنات الخادعة

ويبدو أن أسلوب المقارنة استهوى الدكتور، حتى ملك عليه أقطار نفسه، فلم يقف عند ذلك الحد، ولكنه فكر وقدر، ثم فكر وقدر، ثم نظر.. فرأى أن طريق المقارنة يمكن أن يحقق مقصده من ابن إسحاق ويمده بالدليل على أنه لم ينصف الحقيقة، فاستطرد يقارن..

٢- قارن بين ما ذكره ابن إسحاق من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك المدة المكية- وهى كما يقول لا تملأ ربع صفحة- وبين ما ذكره ابن إسحاق

من شعر أبى طالب الذى بلغ به سبع قصائد، تضم (١٦٧) بيتا.

ولا أدرى كيف راقت هذه المقارنة للدكتور- مع طول التفكير، والتقدير، والنظر- دون أن يتنبه إلى: أن الواقع الحى يفرض قلة- أو ندرة- المتداول من الكلام الشخصى للرسول صلى الله عليه وسلم، لأن تلك المدة كانت موزعة بين الدعوة السرية، وبداية الجهر بالدعوة، حين أمره سبحانه وتعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين، ثم هو صلى الله عليه وسلم- فى المرحلتين- كان مشغولا بالدعوة، ولا مجال أمامه لأن يجيب المشركين إلا بما ينزل عليه من القرآن الكريم، أما أبو طالب- شيخ بنى هاشم، وصاحب المركز المرموق فى قريش- فما كان هناك ما يشغله عن قول الشعر على فرض التسليم بصحة ما نقله ابن إسحاق منسوبا إليه- ليواجه من أرادوه أن يتخلى عن واجبه نحو ابن أخيه ومكفوله.

فلم يكن أبو طالب ومحمد صلى الله عليه وسلم خصمين، تعقد بينهما مثل تلك المقارنة، ولا كانا فى مضمار يسابق أحدهما الآخر، وإنما هذا فى واد، وذاك فى واد آخر.

٣- وقارن بين موقف عبد المطلب مع أبرهة، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع عمه، فرأى: أن ابن إسحاق قدم عبد المطلب- فى حديثه مع أبرهة- واثقا، معتزا، متحديا. بينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم- فى حديثه مع عمه- مستخزيا بين يدى عمه، يبكى، حين ظن أنه يتخلى عن حمايته، فأرانا محمدا لا يملك إيمان جده الوثنى.

وهكذا قرت نفس الدكتور لأنه أثبت أن ابن إسحاق اهتم بتعظيم عبد المطلب، والغض من قدر محمد صلى الله عليه وسلم، ليرضى عنه الخليفة العباسى!! .

ولا أستطيع أن أصف دهشتى من هذه المقارنة، ولا من تلك النتيجة! .

فأين عبد المطلب، فى موقفه تجاه المعتدى الغازى- حين هدده يغزو الكعبة، من محمد صلى الله عليه وسلم- فى موقفه تجاه عمه، وكافله، ورأس أسرته وقبيلته- حين ظن أنه سيتخلى عنه، ويسلمه إلى سفهاء قريش؟! .

ثم.. أين الحقيقة والصدق فيما نقله الدكتور من كلام ابن إسحاق؟! .

إن الدكتور- لكى يحقق من ابن إسحاق ما أراده- التفت إلى ما ذكره ابن إسحاق، من أن الرسول صلى الله عليه وسلم استعبر فبكى، فوصف الدكتور ذلك بأنه من الرسول صلى الله عليه وسلم استخزاء! .

وأغفل عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم، التى واجه بها عمه، وسبقت بكاءه فقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته».

[السيرة النبوية: ٢٧٨/١]

ولا أعتقد أن الدكتور يغفل ذلك إلا لإمعانه فى إلصاق هذه التهمة بابن إسحاق.

ولو كان السعى إلى الحقيقة هو

المقصد، لما أغفلت هذه العبارة، ولما اغفل عن أن بكاء محمد لم يكن استخزاء- كما ذكر- لأنه بكاء ابن أمام أب ضعف عن حماية ابنه أو بدا ضعيفا، فهو الاستجابة للعاطفة البشرية الفطرية، وليس الاستخزاء.

ثم.. ألا يحق لنا أن نسأل الدكتور- وقد سمعنا صوت محمد صلى الله عليه وسلم الذى يتحدى جبروت قريش-: أين ثقة عبد المطلب واعتزازه وتحديه، من تلك الثقة والاعتزاز والتحدى.. على ما بين الموقفين من اختلاف؟!! .

وهكذا.. يتبين أن الدعوة إلى تلك المقارنات، إنما هى واحدة من وسائل الخداع والتضليل التى كثيراً ما يلجأ إليها المستشرقون وتلاميذهم- والتى يجب أن لا تجوز على المتلقى، ولا تخدعه- يبدو أن الدكتور استجاب لها.

ومن هذه الوسائل الخداعية كذلك: القول بأن ابن إسحاق جعل من أبى طالب شاعر مكة الوحيد، الجدير بهذا الاسم.

ولا أدرى- كذلك- كيف سوغ الدكتور لنفسه قول هذا، على الرغم من أن السيرة ما قصرت على شعر أبى طالب، وإنما قدمت- مع أبى طالب- أكثر من خمسة عشر شاعراً، فى مناسبات مختلفة.

هذا إلى أن ابن هشام عقب على أطول قصائد أبى طالب- وتتكون من ٩٠ بيتا- بقوله: هذا ما صح لى من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

[السيرة: ١/٢٩٨]

لا حدود للحماية الربانية

عندئذ.. لا يسعنى إلا أن أسأل الدكتور: ماذا كنت تريد من مؤلف، يحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فى مواجهة قومه بهذا الدين؟! أكنت تريده أن يزيف الواقع، ويقول: إنه لم يواجه من قومه بالمعارضة؟ أم كنت تريده أن يزيف الحقيقة ويقول: إن محمدا كان فى كل مرة يدفع الله عنه بمثل ما دفع عنه، حين أغفل أم جميل عنه، فلم تره، وحين أفزع منه أبا جهل.. إلخ ما ذكرته من مظاهر الدفع الإلهى عن محمد صلى الله عليه وسلم؟!.

ألا ترى: أن ما حدث من أبى طالب كان- مثل الذى حدث من فحل الإبل- كذلك من الله تعالى، حيث ألقى فى قلب العم حب ابن أخيه، فقام بحمايته، فالله سبحانه وتعالى يدافع عنه بالوسيلة التى يراها- لا التى تراها أنت أو انا- حتى إنه تعالى لينصر هذا الدين بالبار، كما ينصره بالفاجر، وينصره بالإنسان، كما ينصره بالحيوان، وينصره بالقوة المعتادة، كما ينصره بالقوى الكونية المفاجئة، من رياح، وأمطار، ورعود، وبروق.. إلخ.

هذا.. إلى أن واجب الكفالة التى انتقلت إلى أبى طالب، من عبد المطلب نحو اليتيم.. ألزمه برعايته صغيرا، والقيام بالدفع عنه كبيراً، خصوصاً أنه وحده كان العم الشقيق.

[السيرة: ١/١٩٣]

ولو أن الدكتور حاول التعرف على توجهات القبيلة العربية وعوائدها التى كانت تقوم منها مقام الدستور، لأدرك أن حماية أبى طالب وعشيرته لمحمد صلى الله عليه وسلم أمر طبيعى، لا يتجاوز الحمد عليه درجة الحمد على الالتزام بالواجب المقرر، فهو لم يكن شذوذا من أبى طالب وعشيرته، يستحقون عليه مزيداً من الحمد، كما يتقرر مما بذله آخرون- غير أبى طالب- من حماية لإخوتهم، أو لأبنائهم، أو لمن استجار بهم من المسلمين كذلك.

فالدارس المنصف، المتجرد عن الهوى إذا عرف من الكتاب نفسه: أن رجالا من مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، وجمع آخر- فقالوا له وقد خشوا شره: إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا، فإنا نأمن بذلك فى غيرهم، قال: هذا فعليكم به فعاتبوه، وإياكم ونفسه.. ثم قال: احذروا على نفسه فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا، قال: فقالوا: اللهم ألعنه، من يغرر بهذا الحديث؟ فوالله لو أصيب فى أيدينا لقتل أشرفنا رجلا، فتركوه ونزعوا عنه.

[السيرة: ١/٣٤٢]

أقول: إن الدارس المنصف، حين يتلقى مثل هذا الخبر، لا يملك إلا أن يسلم بأن القوم جميعهم كانوا على تلك القيمة، التى تفرض عليهم حماية أبنائهم من أى معتد، لأن فى الاعتداء عليه امتهانا للقبيلة نفسها، مهما كان الدافع لهذا الاعتداء!.

نعم.. لقد كان الإلتزام بحماية القبيلة لكل أفرادها- وحماية كل من يجير أفرادها- من أبرز القيم التى يعتز بها العرب جميعا ، حتى إنه ليكفى أن يجير الواحد منهم إنسانا، حتى يصبح هذا الإنسان فى مأمن تام، كأنه واحد من أفراد قبيلة المجير، دون نظر إلى معتقده.

١- فهذا عثمان بن مظعون، المسلم العائد من الحبشة، يتوقع ما ينتظره على أيدى سفهاء قريش، فيدخل فى جوار الوليد بن المغيرة- ونعلم من يكون الوليد ابن المغيرة فى محاربة الإسلام- ويظل فى أمان من أى معتد، إلى أن يرد على الوليد جواره، فيذهب الوليد إلى مجتمع القوم ليعلنهم بذلك.

[١/٣٩١]

٢- وهذا أبو سلمة بن عبد الأسد يدخل فى جوار أبى طالب، فيعلن حمايته إياه، حتى إن رجالا من مخزون مشوا إليه قائلين: يا أبا طالب ما هذا؟ منعت منا ابن أخيك محمدا، فما بالك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال : إنه استجار بى، وهو ابن أختى، وإن أنا لم أمنع ابن أختى، لم أمنع ابن أخى.

فقام أبو لهب. فقال: يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ- يعنى أبا طالب- ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه أو لتقومن معه فى كل ما قام فيه، حتى يبلغ ما أراد، فقالوا بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبه- يعنون أبا لهب- وكان لهم وليا

ناصراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[٣٩٣/١]

٣- وهذا أبو بكر حين خرج مهاجرا، ثم بدا له العود، دخل فى جوار ابن الدغنة- أخي بنى الحارث بن بكر- فلم تمتد له يد بأذى، إلى أن ضج القرشيون من صلاته فى مسجده خارج منزله، وخشوا أن يؤثر فى صبيانهم ونسائهم.. فمشوا إلى ابن الدغنة يطلبون منه أن يكف أبا بكر عما يصنع.. إلخ القصة.

[السيرة: ٣٩٤/١]

أترى أن ابن إسحاق حين ذكر أولئك الذين قاموا بحماية أبنائهم أو إخواتهم، أو من يجيرون.. ذكر ذلك بفلسفة عباسية، وأنه كتبه بسبب ولائه للخليفة العباسى المنصور؟! أم إن تلك الفلسفة العباسية إنما كانت مقصورة على أبى طالب فى حمايته للرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص؟! .

واضح جلي: أنه لا هذا ولا ذاك، وانما هو فلسفة التتلمذ على المستشرقين، والافتتان بمناهج بعضهم فى معالجة التاريخ الإسلامي، والقضايا الإسلامية معالجة تقوم على طمس الحقيقة وإنكارها- أو التشكيك فيها- بشتى الحجج الواهية، المتظاهرة بالمنهج العلمي، والدفاع عن الحقيقة، وتجلية الإسلام الحق.

إن حماية أبى طالب وعشيرته لابن أخيه، مثل حماية هشام بن الوليد لأخيه، مثل حماية الوليد بن المغيرة لعثمان بن مظعون، مثل حماية أبي طالب لأبى سلمة مثل مناصرة أبى لهب لأخيه فى ذلك، مثل حماية ابن الدغنة لأبى بكر.. كلها سلوك قبلي، يصدر فيه كل فرد عن قيمة مقررة، تقوم فيهم مقام الدستور غير المكتوب، بحيث يدرك كل فرد منهم: أنه لو قصر فيها لحقه من المذمة والعار ما يظل عالقا به طوال حياته وبعد مماته.

وإنى لأعجب من قراءة ما قاله أبو طالب: «إنه استجار بى، وهو ابن أختى، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخي».. أقول: إنى لأعجب من قراءة ذلك، واغفاله وما يتضمن من حرص على هذا الالتزام القبلي، سواء كان المحمى أبا سلمة أم كان محمداً، بل إنه ليقدم حماية ابن أخته على حماية ابن أخيه..! .

ثم.. أهي فلسفة عباسية، أم فلسفة علوية؟!

وتزداد تعجباً من تلك الفلسفة الاستشراقية فى تفسيرها أحداث التاريخ الإسلامى، حين نجدها تجعل من ابن إسحاق- فى سيرته- داعما للفلسفة العباسية، وذلك بسبب إبرازه دور أبى طالب فى حماية الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولو أن الدارس المنصف تجرد من الهوى، وتخلص من الفلسفة الاستشراقية، لتنبه إلى أن هذا المسلك من ابن إسحاق- لو كان حقيقة- كان كفيلا بأن يعرضه لأخطر ألوان العقاب، إذ كيف يجلس فى كنف الدول العباسية، ثم ينسب ذلك الفضل- فى حماية الرسول صلى الله عليه

وسلم- إلى أبى طالب، ويبـــــرزه هذا الإبراز؟! .

أوليس أبو طالب هذا والد على بن أبى طالب، والد العلويين الذين كانوا يمثلون القوة الأخطر عليهم، بعد التخلص من الأمويين؟! .

أفلا يجد الدكتور مراد فى ذلك تنويها بأحقية العلويين فى الخلافة، ودفعهم إلى مقارعة العباسيين لانتزاع حقهم المسلوب، وهم لم يكونوا بعيدين عن ساحة الصراع فى تلك الآونة، بل إن العباسيين كانوا يترصدونهم، ويحسبون لهم ألف حساب.

فلو أن ابن إسحاق- ببراعته فى تزييف التاريخ- أراد خدمة الفلسفة العباسية، أو عالج الأحداث بمنطق هذه الفلسفة، لاتجه إلى اختراع حدث ينسب للعباس بن عبد المطلب، حتى يحقق هذا التزييف التاريخى الذى يريد به خدمة الفلسفة العباسية.. خصوصاً أن العباس- وكان لا يزال على دين قومه- أبى إلا أن يحضر أمر ابن اخيه، ويتوثق له ليلة العقبة، فلما جلس كان أول متكلم، فقال: يا معشر الخزرج- وهو إطلاق يشمل الأوس والخزرج- إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعه فى بلده.. إلخ هذا الحديث المستفيض.

[السيرة: ٢/٤٩-٥١]

ولكن يبدو أن ابن إسحاق لم يكن على هذا القدر من البراعة فى التزييف، أو أن بنى العباس لم يكونوا على ذلك القدر من البصر والذكاء الذى يكشف لهم تلاعب ابن إسحاق بهم، حيث دعا للعلويين، وهو يوهمهم أنه يدعو للعباسيين.

محمد صلى الله عليه وسلم وحاجته إلى الحماية الربانية

ثم إن أى مـــسلم لا يشك لحظة أنه صلى الله عليه وسلم كان فى حاجة إلى حماية ربه، منذ درج فى الحياة، وأنه سبحانه أمده بتلك الحماية فى أنسب الأوقات وبأنسب الوسائل، حتى بلغ الرسالة على خير وجه، فأوصل إلى الإسلام- هو وأصحابه- مشرق الأرض ومغربها فى أقل من خمسة وعشرين عاماً.

ولكن.. يخيل إلىّ أن الدكتور مراد ظن أن تلك الحماية الربانية يجب أن تقصر على بعض الوسائل والأسباب فقط، فإذا قيل بأنه كان من بين تلك الوسائل إنسان، دفع هذا القول، ورفضه من أساسه بحجته أنه صلى الله عليه وسلم ما كان محتاجا إلى حماية أحد.. وتزداد البلة طينا- فى تقدير الدكتور- إذا نسبت تلك الحماية إلى عمه الشقيق ، وكافله من بعد جده ! إذ هو صلى الله عليه سلم- مع هذه الوسائل الكونية فى تقدير الدكتور- ليس محتاجا إلى حماية أحد من الناس.

فلو أننا تلقينا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا المنطق الذى يفترضه الدكتور، لكان علينا أن ننكر تلك الأخبار التى تقول: إنه عقد اتفاقا مع اليثربيين ليمنعوه من المعتدين، ولكان علينا أن ننكر ما روى عن اختفائه فى الغار هو وصاحبه حين تحين فرصة المغادرة، وكان علينا أن ننكر قيامه بإعداد جيش من المسلمين، وقيامه برد غارات قريش وأوليائها فى تلك

الحروب المتواصلة طوال مقامه بالمدينة، ولكان علينا أن نتعجب من نزول تلك الآيات المتتابعة فى الإذن بالجهاد، والنهوض لرد المعتدين وقتالهم.. إذ كان يكفيه أن يحرس هو ومن معه بعدة فحول، أو أن يواجه جيوش المشتركين بإشارة من يده! .

إنها يا سيادة الدكتور- على فرض صحتها جميعها- حالات فردية، جرت على يديه من باب المعجزات المادية، لتلفت أنظار المعاندين إلى أنه ذو خصوصية ربانية، ولكنه صلى الله عليه وسلم- مع كل هذا- خاضع فى كل شئونه الحيوية- لقانون الأسباب والمسببات الذى أقام المولى سبحانه وتعالى الحياة عليه، وهذا ما يعنيه القول الكريم: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ».

[فصلت: ٦]

فابن إسحاق- كما ترى- إنما جعل حماية الرسول صلى الله عليه وسلم من الله، وأما عمه أبو طالب، وأما رهط الخزرج فإنما هو سبب، شأنه وشأنهم فى ذلك، شأن الملائكة، والنعاس، والمطر، والريح، والحيوانات، وغير ذلك من الأسباب والوسائل التى تسلك فى عداد جنود الله. «وما يعلم جنود ربك إلا هو».

[المدثر: ٣١]

ولماذا يقف الدكتور عند حماية أبى طالب للرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يقف عند حماية أبى القيس بن الأسلت- من الأوس- له صلى الله عليه وسلم، حين استغل ما بينه وبين قريش من مودة ومصاهرة، فأقبل يدعوهم إلى الكف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينهاهم عن حرب بعضهم بعضاً، إذا هم لم يكفوا عن أذى الرسول؟! .

[السيرة: ١/ ٣٠٠]

أليست تلك حماية واحد من الناس، فى هذه المرحلة، تماثلها حماية أبى طالب فى أول أمره؟! .

إن الدارس الأمين لو قرأ السيرة بالعقل المجرد عن الهوى، لما فاته قول ابن إسحاق: «فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم، وانجاز موعوده له، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم لقى فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً..».

[السيرة: ٢/ ٣٧]

اضطهاد المسلمين من قبائلهم لم يكن كله تعذيبا

ومن الأوهام التى كانت وراء التجنى على ابن إسحاق اعتقاد أن القبيلة العربية كانت تسحب حمايتها لابنها الذى يخرج على قوانينها أو معتقداتها.

ولو أن الدارس أخلص نفسه من المؤثرات الخارجية لتنبه إلى أن القبيلة العربية كانت تفرق- فى هذه الحالة- بين المعاونة والحماية، فهى لا تعاون ابنها الخارج عليها فى نهجه الجديد، وقد تقاومه بطريقتها الخاصة بها، متى اجتمع أمرها على ذلك ، ولكنها ما كانت لتسمح لأى

إنسان آخر من القبائل الأخرى أن يعترض طريقه، أو يتعدى عليه، لأنها كانت على اعتقاد راسخ بأن هذا الاعتداء إنما هو اعتداء على القبيلة مجتمعة، واستهانة بكيانها.. لم تكن تلك القيمة القبلية مقصورة على صيانة أبنائها وحمايتهم، بل كانت تشمل حماية من يجيره واحد من أبنائها، أيا كانت هويته!

ولقد رأينا تلك القيمة واضحة جلية فى إجارة أفراد من قبائل مختلفة لطائفة من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، حين عادوا، وخشوا على أنفسهم البطش من قبائلهم.

ومن هنا.. يستطيع الدارس المنصف أن يتفهم موقف قبائل قريش من أبنائهم المسلمين، ويعرف أنه كان يختلف باختلاف موقعه الاجتماعى، فالمستضعفون يواجهون بالتعذيب، والأشراف يواجهون بالمقاطعة، أو الشتم والسب ، أو اللمز والغمز ، أو بالتشويش عليهم، والدعاية ضدهم، حتى يفقدوهم التأثير فى الاخرين، أو حتى يطمئنوا إلى شئ من ذلك.

جعفر بين الفرار من الاضطهاد والتعذيب، والفرار لمواصلة الدعوة

ويستطيع هذا الدارس أن يتفهم: أن السر فى تفكير أبى بكر مثلا فى الهجرة لم يكن الفرار من التعذيب، ولكنه كان البحث عن ناس آخرين يواصل فيهم الدعوة إلى الإسلام، ولذلك فإنه لما رجع عن قراره، رأى أن يسلك طريقاً آخر فى الدعوة، مستغلا حماية ابن الدغنة له، فقد «كان له مسجد عند باب داره فى بنى جمح، فكان يصلى فيه، وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ القرآن استبكى، فيقف عليه الصبيان، والعبيد، والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة قائلين: إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأته فمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما يشاء».

(السيرة: ١/٣٩٦)

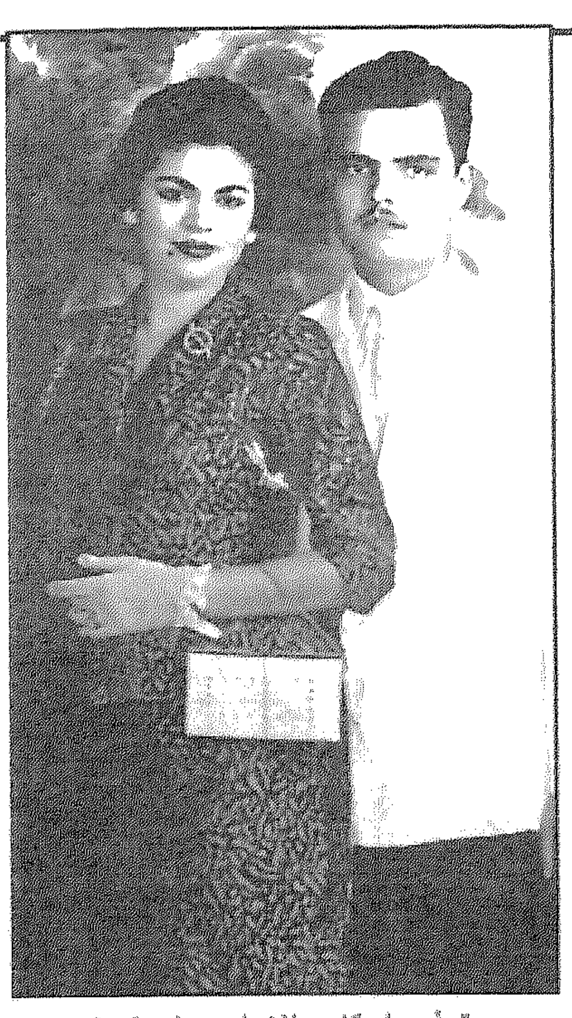
فما كان باستطاعة قرشى أن ينال من أبى بكر ما دام فى حماية ابن الدغنة، وما كان سعى القرشيين لكف أبى بكر عن صلاته وقراءاته مطلقا، ولكنه كان لكفه عن ذلك خارج بيته، خشية على أبنائهم، وبتعبير أوضح: كان سعيهم لكفه عن الدعوة إلى الإسلام.

وكان هذا من أبرز ألوان الاضطهاد الذى يصيبون به كثيرا من المسلمين – ولذلك رد أبو بكر على ابن الدغنة إجارته – وكان هذا وراء هجرة كثيرين ممن هاجروا إلى الحبشة – كما ذكرت فى المقال السابق – مثل جعفر بن أبى طالب.

ولكن الدكتور يأبى إلا أن يجعل هجرة جعفر فرارا من الاضطهاد وإلا أن يجعل هذا الاضطهاد متمثلا فى رؤيته قبيلته تعذب أبناءها المسلمين، وذلك حتى يصل إلى النتيجة التى قصد فرضها فى البداية، وهى: كيف يحمى أبو طالب ابن أخيه، فى الوقت الذى لم يستطع فيه أن يحمى ابنه؟! .



لبيب رزق وزوجته (الوالد والأم)



صورة فى اعقاب الزواج عام ١٩٥٩
يونان لبيب رزق وزوجته

التكوين

سلامه موسى والمجلة الجديدة أكثرها أثر فى تكوينى الثقافى

يونان لبيب رزق

أظن أن هناك صعوبة علمية ونفسية أن أضع سيرة ذاتية Au-tobiography عن شخصى، وهى صعوبة تصدر عن أسباب عديدة:

● فمن ناحية لم نعتد فى الشرق عموما، وفى مصر خصوصا، وضع مثل هذه السير الذاتية، وحتى عندما يحاول البعض كتابة مذكراته، فإن تلك الكتابة يحوطها كثير من المحاذير بحكم كثرة المساحيق التى يضعها صاحبها على وجهها إلى الحد الذى تفتقد معه كثيرا من أسباب مصداقيتها، أما عندما يتوخى الصدق فإن تلك السيرة قد تحدث كثيرا من أسباب الانزعاج فيما حدث من المحاولة التى قام بها الدكتور لويس عوض قبل أن يتوفى بفترة قصيرة.

● ومن ناحية أخرى فإن رجلا مثلى وقد قضى عمره فى تدريس التاريخ وكتابته يصعب عليه كثيرا ان يكتب عن نفسه.. السبب أنى فى كل تلك الكتابات ظللت حريصا أشد الحرص على الفصل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى، كما ظللت أعلم أجيالا من طلابى كيف يفعلون ذلك، وكيف ان غلبة الذاتية يؤدى فى نهاية الأمر إلى الانتقاص من القيمة العلمية لما يكتبون، بينما تطلب منى الهلال اليوم ان أسقط كل ما تعلمت وعلمت.. المهم أمرى إلى الله، وها أن أفعل فى محاولة تقديم ما هو ذاتى فى قالب موضوعى !.

الميلاد

٢٧ أكتوبر عام ١٩٣٣ فى حى شعبى هو القللى، ولكن فى دار يحمل آثار عز غابر، فالبيت كان يعرفه الجيران، باسم «بيت المأمور» ويحترمون ابناءه على نحو ظاهر، والسبب: ان جدى لابى، رزق ابراهيم، كان مأمورا لقسم الازبكية فى بدايات العقد الثانى من القرن حين أقام هذه الدار، وكان مثلها مثل الدور القديمة تكاد تكون مقصورة على أهل المأمور.. شقيقه يحتل شقتين فى الدور العلوى، وأبى وعمى يحتلان شقتين متقابلتين فى الدور الأوسط، أو الوسطانى، كما كان يسميه قاطنوه، أما الدور الأرضى وكانت له حديقة يرتفع فيها نخلتان وشجرة كافور فقد كان فى الغالب خاليا، وأعتقد أنه كان مخصصا قبل أن أولد لضيوف صاحب البيت.. رزق إبراهيم.

بداية الوعى

ولدت على بنتين، هكذا كنت أنا، ومن ثم كان من المفروض ان اتلقى قدرا من التدليل لا يحظى به الآخرون، وهو ما لا أتذكره.. السبب أننى منذ ان وعيت على الدنيا لم اعرف ابى كثيرا، فقد كان موظفا صغيرا، غير انه آثر ان

يترك الوظيفة، ومع انه كان الاوسط بين اخوته الذكور إلا انه فضل ان يكون فى صحبة ابيه الذى كان قد ترك وظيفته فى البوليس وانصرف لزراعة عزبة كان يمتلكها فى قرية الوزيرية، إحدى قرى مديرية كفر الشيخ، وكانت تزيد قليلا على الخمسين فدانا، والشىء الغريب ان اختى الكبرى التى كانت تتمتع بقدر ملحوظ من الجمال قد استأثرت بكل التدليل الذى حرمنا منه أنا واختى الوسطى، ولعل ذلك ما جعلنى التصق بها لعلى أنال قدرا مما تحظى به، وكنت أسعد بمصاحبتى لها فى الأوتوبيس الذى كان يقلنا إلى مدرسة فى شبرا.. مدرسة السلام هى فى الابتدائى وأنا فى الروضة.

فى يوم عصيب من أيام شتاء عام ١٩٣٩ وبعد ان عدنا من المدرسة وجدنا البيت وقد اشتعل بالصريخ والبكاء، ورأيت أختى الكبرى، أطال الله فى عمرها، وهى تشارك فى الهستريا التى ملأت البيت تفلت من يدى ووجدت نفسى، وأنا الطفل الذى لم يتجاوز العام السادس تائها فى خضم هذا الذى يجرى، وخرجت من تلك الهستريا بأن أبى، الذى لم يكن قد تجاوز الأربعين وقتئذ قد توفى وتركنا فى مهب الريح، فلا وظيفة ولا إرث، إذ كان القانون حتى ذلك الوقت يحرم ابناء الابن المتوفى قبل أبيه من إرثهم فى جدهم، غير ان الرجل انقذ الموقف قبل ان يودع الدنيا بعد ابنه بأقل من اربعين يوما، ووضع وصية حصل بها اولاد لبيب على نصيبهم من ارث جدهم، وكان النصيب الذى مكن أمى من الابحار بنا فى خضم الحياة الصعبة ساعية الى الوصول بى وباخواتى الى بر الأمان.

ما أذكره من تلك الفترة فى البيت أن والدتى التى لم تكن قد تجاوزت الرابعة والثلاثين قد انكفأت علينا تربينا بصرامة بالغة، ورغم انها لم تكن قد حصلت على أية شهادات، شأنها فى ذلك شأن الغالبية العظمى من بنات جيلها، غير انها كانت تجيد القراءة والكتابة، ومع انى كنت كثيرا ما أبتأس من تلك الصرامة، خاصة أنها كانت تنزل بى تعنيفا، واحيانا ضربا لأسباب كانت تبدو لى وقتئذ هينة، إلا انى فيما بعد أدركت ان غياب أبى المبكر هو الذى دعاها الى اتباع هذا الاسلوب ، فقد آلت على نفسها ان تقوم بدوره مع دورها كأم بالطبع، وكنت أدرك كم كانت تعانى من ذلك عندما كنت ألاحظ انها كلما ضربتنى لخطأ ارتكبته كانت تنخرط فى البكاء، الأمر الذى كان يدفعنى الى استرضائها ليس خوفا منها بل عطفا عليها.

ظروف وفاة أبى، وكانت اختى الكبرى قد انتهت من تعليمها بعد ان حصلت



د. يونان لبيب بصحبة الدكتور احمد عزت عبدالكريم

على الشهادة الابتدائية، دفعت امى إلى أن تخرجنى من مدرسة السلام فى شبرا، وكانت مختلطة، الى مدرسة ابتدائية فى القللى، كان بها احد ابناء عمى، ابراهيم نجيب، والذى استكمل تعليمه فيما بعد حتى اصبح ضابط بوليس.. اسمها مدرسة القديس انطونيوس، وهى مدرسة أهلية كانت تديرها احدى الارساليات، وكانت مصاريفها فى حيز امكان ابناء الطبقة الوسطى الصغيرة، وكان اغلبهم ينحدرون من آباء من صغار الموظفين.

المدهش، فيما أذكره الآن ان تلك المدارس كانت تعنى اشد العناية بتدريس اللغة العربية، وكنا نطلق على معلم هذه اللغة لقب «الموسيو» مثله مثل بقية المعلمين، إلا انه كان افضل من مشايخ كثيرين يقومون على تعليمها.

أثر فىّ الرجل، واسمه الموسيو عطا الله ، تأثيرا بالغا، فقد كان قاسيا اشد القسوة، وفى ذات الوقت عطوفا اشد العطف، وقد حظيت بعطفه اكثر مما عانيت من قسوته ، فكثّيرا ما كان يلقى علينا ابياتا من الشعر ويطلب منا تفسيرها وعندما كان يعجز بقية تلاميذ الفصل عن ذلك كان يدعونى للاجابة التى غالبا ما كنت اوفق فيها، والمكافأة كانت فى العادة ان انجو من العلقة التى يلقاها الآخرون وقليلا من كان يضع فى يدى قطعة من البونبون كنت آتيه بها على بقية زملائى الذين يخرجونْ بآثار العصا، التى كان يسميها «العروسة» ولا أدرى حتى هذه اللحظة لماذا كانت هذه التسمية.

فى تلك الفترة، وحتى حصولى على

الشهادة الابتدائية عام ١٩٤٦، بدأت قراءاتي خارج الكتب المدرسية، وكانت في روايات الجيب التي أخذها خفية من وراء اختي الوسطى التي كانت مغرمة بها، وتأثرت كثيرا بقصص الحب الرومانسية التي حوتها تلك الروايات فضلا عن شخصية اللص الظريف أرسين لوبين التي قدمها الكاتب الفرنسي المشهور موريس لبلان، ومن جانب آخر بدأت ألتقط الصحف من الكبار.. عمي الذي كان يعيش في الشقة المقابلة، وكان من قراء جريدة المصرى، وزوج عمتي التي كانت تعيش في دار ملاصقة، وكان من قراء جريدة الأهرام.

وأذكر اني كنت اول من يتلقى عمي، وكان يعمل في وزارة الحربية، عند دخوله عائدا من عمله، لأحمل معه الفاكهة التي غالبا ما يأتي محملا بها، بينما كان الهدف الحقيقي أن اقتنص منه الجريدة لاكون أول قرائها من أهل البيت، وعادة ما كنت أذهب الى عمتي بعد القيلولة لأبحث عن الاهرام الذي يأتي به زوجها، وكان موظفا في السكة الحديد، لانكب على قراءته، غير اني اعترف هنا ان إقبالي على المصرى كان يفوق كثيرا إقبالي على الأهرام، في نفس الفترة كان الرجل قد بدأ يشترى بانتظام جريدة اخبار اليوم التي كان أول ظهورها في نوفمبر عام ١٩٤٤، وقد اغرمت بها كثيرا، حتى انه كان يسمح لي باقتنائها بعد ان يقرأها، وكنت أسعد كل يوم سبت عندما اعود بهذا الصيد الثمين الى شقتنا لأقرأ كل كلمة فيها، وقد لاحظ أهل البيت، خاصة ابن عمي الذي كان يكبرني بأربع سنوات، شدة ولعي بالقراءة، عندما كنت ألتقط بعض الجرائد التي كانت حتى ذلك الوقت الأداة الاساسية للف السلع، لأنكب على قراءتها، وكثيرا ما كان يسخر مني لذلك، خاصة عندما تكون الجريدة قديمة أو مهلهلة !.

تفتح الوعي

بعد ان اتممت المرحلة الابتدائية الحقتني والدتي بمدرسة الايمان الثانوية بجزيرة بدران، وكان ابن عمي قد سبقني اليها واذكر اني كنت أقلده في كل ما يفعل.. تعلم لعب كرة السلة فتعلمتها واصبحت ضمن فريق المدرسة، بدأ يلعب الورق، الكونكان، فتعلمته واصبحت أشاركه مع اصحابه الذين كانوا يكبرونى في السن في لعبها.. الامر الوحيد الذي اختلفت معه فيه كان نهمي الشديد للقراءة، مما جعلني اكثر توفيقا منه في الدراسة، حتى ان السنوات الاربع التي كانت تفصل بيننا في العمر، قد تناقصت الى ان اصبحت سنة واحدة في التعليم في اواخر المرحلة الثانوية.

في تلك الفترة انتقلنا من «بيت

المأمور» بعد ان صادرته مصلحة التنظيم للمصلحة العامة، ويقع مكانه الآن معهد الخدمة الاجتماعية بالقللي، وانتقلنا الى بيت آخر في نفس الحي كان يمتلكه احد الاقارب، زوج احدى بنات عمي، وكان من اغرب الشخصيات التي صادفتها في حياتي.

صحيح انه كان مثل حميه موظفا في وزارة الحربية، غير انه كان قد سبق له ان انخرط في مدرسة المعلمين العليا غير انه لم يستكمل دراسته بها، الامر الذي ظل يحز في نفسه كثيراء، فقد اراد ان يكون من اول ابناء جيله الحاصلين على شهادة عالية، وقد حاول ان يعوض ذلك باقتناء مكتبة تجمع بين شتى صنوف المعرفة، طب وتاريخ وجغرافيا، دوائر معارف وأطالس.. الشيء الغريب الذي أتذكره انني كلما كنت اشاهده يقرأ بعض محتويات تلك المكتبة، مع العلم انه قد باع بيتا كان يملكه لاقتنائها !.

من ضمن ما احتوت عليه هذه المكتبة دولابا كاملا يضم مجلدات أهم المجلات المحترمة التي كانت تصدر في ذلك الوقت أو قبله.. الهلال.. المقتطف، والمجلة الجديدة التي كان يصدرها ويحررها المفكر المصري الكبير سلامة موسى.

وكان صاحب المكتبة لا يضن عليّ بين الحين والآخر باستعارة بعض ما في مكتبته، الى ان ضاقت شقته بكثرة ما فيها فاستأذن والدتي بان يحتل في شقتنا مكانا صغيرا لدولاب المجلات، فأذنت له وكان من حسن حظي فقد بدأت اقرأ محتوياته دون استعارة بعد ان سمح لي الرجل بذلك.. كل ما يطلبه مني ان اعيد أيا من المجلدات التي اقرؤها الى مكانه في الدولاب، ولم يكن مطلبا عسير التلبية!.

وأعترف الآن ان «المجلة الجديدة» على وجه التحديد كانت أكثر ما أثر في تكويني الثقافي، وفي البداية اصبت بصدمة من بعض كتابات الاستاذ سلامة موسى غير التقليدية، غير اني بعد بعض الوقت استمرأتها ثم بعد وقت اطول ادمنتها، فقد فتح الرجل امامي عوالم مجهولة ومبهرة من الفكر الانساني، حتى أني كثيرا ما كنت أقرأ بعض ما يكتب مرة واثنين وثلاثة !.

أما في مدرسة الايمان التي قضيت فيها خمس سنوات (١٩٤٦ ـ ١٩٥١) فقد كانت الدراسة تقليدية غير انها حفلت بالرموز.. زعماء الطلبة الذين كانوا يدفعونا للاضراب والخروج في مظاهرات تجوب شوارع جزيرة بدران.. ولازلت اذكر الهتاف التقليدي وقتئذ.. زعيم الامة: النحاس: النحاس حبيب الامة: النحاس، ناظر المدرسة، واسمه لبيب بسطا، وكان شخصية مبهرة، فمع انه كان يقوم بكل العمل الاداري إلا انه كان لا يتردد في الدخول الى فصل

تغيب استاذه ليلقى فيه درسا فى الكيمياء التى كان متخصصا فيها، بعض المعلمين الذين اذكر منهم الآن مدرس التاريخ.. الاستاذ لبيب حنا، وكان احد كوادر الحركة الشيوعية وقتئذ، وكثيرا ما كان يعتقل، وكلما عاد إلينا بعد فترة اعتقاله يزداد اكبارنا له ، وكنت أراه شخصية اسطورية تضحى فى سبيل ما تعتقد، وكثيرا ما كنت اتمنى ان احذو حذوه، وهو ما لم يحدث (!)، الاستاذ محفوظ مدرس الكيمياء الذى اخذ على نفسه تدريب فريق كرة السلة الذى انضممت اليه، وكان طفلا كبيرا فما ان تنتهى الدراسة حتى يخلع معطف المعمل الابيض ويجرى فى وسطنا داخل الملعب(!).

خلال أعوام المرحلة الثانوية عرفت الطريق الى سور الازبكية فلم تكن ظروفنا المالية تسمح باقتناء الكتب الجديدة، وتعلمت قواعد اللعبة فى هذا السور.. ان تشترى رواية او كتابا بثمن يتراوح بين قرشين وخمسة قروش، ثم ما ان تنتهى من قراءته حتى تعيده الى نفس المكتبة لتبدله بكتاب آخر مقابل ثمن زهيد لا يتجاوز قرشا واحدا، وبسبب نهمى الشديد للقراءة فقد كنت استنفد اغلب مصروفى الشخصى الذى لم يكن يتجاوز ثلاثين قرشا فى الشهر فى هذه اللعبة.

المهم انى حصلت على اغلب ثقافتى خلال تلك الفترة من رافدين.. السور ودولاب اسكندر افندى حنا القابع فى شقتنا، وقد لاحظت فى نفسى خلال تلك الفترة ميلا واضحا للقراءات التاريخية، خاصة بعد ان قرأت من على سور الأزبكية المجموعة الكاملة لروايات جرجى زيدان، التى نجحت فى ان تنقلنى للجو التاريخى للحقبة التى تتناولها الرواية بعبقرية مدهشة، الى ان انتقلت للمرحلة الجامعية.

مرحلة النضوج

بعد أن حصلت عام ١٩٥١ على التوجيهية، كما كانت تسمى شهادة إتمام الدراسة الثانوية وقتئذ، وكنت قد تجاوزت السابعة عشرة بشهور، بدا لى المستقبل شديد الالتباس على ضوء حقيقتين، أولاهما أنه لم يكن فى البيت من خاض تجربة التعليم الجامعى، خاصة وأن ابن عمى الذى كان بمثابة القدوة لى قد التحق بكلية البوليس قبل ذلك بعام، الأمر الذى لم أجد معه من ينصحنى داخل البيت .. وكان كل هم أمى أن ألتحق بالجامعة دون أن تعرف فى داخل الجامعة كليات، وفى داخل الكليات أقسام (!) الحقيقة الثانية : أن مدرسة الإيمان قد اقتصر الصف الخامس فيها على التخصص العلمى الأمر الذى دفعنى إلى أن أحصل على التوجيهية من القسم العلمى لا القسم الأدبى بغض النظر عن ميولى، خاصة

وإنى كنت أعانى دائما من الفشل فى مادة الهندسة لضعف شديد فى قدرة التصور المكانى لا زلت أعانى منه حتى يومنا هذا!.

فى البداية تقدمت للالتحاق بكلية العلوم بجامعة عين شمس، التى كانت تسمى وقتئذ بجامعة إبراهيم باشا الكبير، وكان مقرها بالعباسية، غير أنى كنت متردداً آملا بينى وبين نفسى أن ألتحق بكلية الآداب، وما أن علمت أن الكلية التى ضمتها نفس الجامعة، وكانت تقع فى شبرا، تقبل الحاصلين على توجيهية القسم العلمى حتى حزمت أمرى وتقدمت إليها، وكنت ضمن الدفعة الثانية من أبناء هذه الكلية.

ومن حسن الحظ أنه لم يكن هناك مكتب تنسيق فى ذلك الزمان، ولم يكن هناك من يراجعنى .. فقد هم أمى، كما سبقت الإشارة أن ألتحق بالجامعة .. أى جامعة !.

فى شبرا وفى كلية الآداب الوليدة التى كانت لاتزال تحبو فى عامها الثانى، نموت مع هذا الوليد ولنحو عقد ونصف، منذ أن وطأتها أقدامى فى شتاء عام ١٩٥١، وحتى نلت درجة الدكتوراه منها فى صيف عام ١٩٦٧، وكانت سنوات البهجة والنضوج.

نوعية الزمالة فى الجامعة شئ مختلف، فهى زمالة لاتصنعها علاقة الجوار فى مقعد فى الفصل، وإنما تقوم على الاختيار وهو اختيار لا يقوم بالضرورة على التماثل ولكنه كثيرا ما يقوم على الاختلاف الذى يصنع لونا مع الحوار الدائم ويخلق شكلا من التكامل حين يجد كل زميل ما يفتقده عند الآخر، وهو الأمر الذى يحول الزمالة إلى صداقة ثم صداقه حميمة تبقى فى العادة إلى آخر الحياة، وهو ما حدث لى بالنسبة لصديق واحد على الأقل .

ثم إن تلك الفترة كانت لاتزال تعرف العلاقات العاطفية الجميلة التى تتحول إلى شكل من الحب الرومانسى، الذى كثيرا ما ينتهى بالارتباط الأبدى وهو ماحدث لى أيضا حين نشأت علاقة من تلك العلاقات الجميلة بينى وبين زميلة كان يفصلنى عنها ثلاث سنوات فى الدراسة والتى أصبحت فيما بعد رفيقة العمر بعد أن تزوجنا فى أعقاب تخرجها عام ١٩٥٨.

أما بالنسبة لتكوينى العلمى فقد تفتحت عيناى فى تلك الفترة على عالم خفى لم أكن أعرف عنه شيئا من قبل عالم الحوار مع الآخرين بعد أن كان مقصورا من قبل على الحوار مع النفس، ومثل هذا العالم فضلا عما يتيحه من تصادم الآراء وتوالد الأفكار فإنه يحفز المشارك فيه على القراءة والإطلاع ليصبح طرفا أصيلا فى عملية الحوار تلك .

وتبدو أهمية ذلك من طبيعة الفترة



لقطة نادرة فى كلية آداب عين شمس مارس ١٩٥٥



د. يونان لبيب رزق فى مناقشة إحدى الرسائل الجامعية

التى قضيتها فى الجامعة (١٩٥١ - ١٩٥٥) فترة نهاية العصر الملكى والتحول الذى شهدته مصر بعد قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وماعرفته خلال سنيها الأولى من فوران عام سياسى واجتماعى وصدامات كانت تدفع المصريين خاصة طلاب الجامعة إلى الانحياز الاجتماعى والسياسى وكنت بحكم نشأتى فى أسرة تنتمى للطبقة الوسطى الصغيرة، وبحكم تأثرى بكتابات سلامه موسى الفابية أكثر انحيازاً للفكر اليسارى، وإذا كان هذا الانحياز قد بدا فى أغلب كتاباتى فيما بعد إلا أنه لم يتحول فى أى وقت إلى الانخراط فى العمل التنظيمى لأى من الجماعات السياسية القائمة، علنية كانت أو سرية .

ولاأدرى بالضبط السبب الذى دفع بى إلى هذا العزوف .. ربما الخوف من الاعتقال أو التعذيب خاصة وإنى كنت أتابع أخبار ما يحدث لمن يتعرضون لذلك، وربما رغبت فى الاحتفاظ بحريتى فى اتخاذ المواقف تبعا لما يمليه على تفكيرى دون الرضوخ لقيود تنظيمية قد تحد من تلك الحرية .

حبى للدراسات التاريخية

وفى هذا العالم المدهش .. عالم جامعة النصف الأول من الخمسينات جاء انجذابى يوما بعد اليوم للدراسات التاريخية ليس فقط بحكم دخولى قسم التاريخ، وإنما قبل ذلك أنه عالم استدعاء شخوص الماضى وضخ الدماء فى عروقها، ولو على الورق .. وفى هذا العالم جاء إعجابى ببعض من تلك الشخوص كان محمد على فى طليعتها، وكان نابليون بونابرت فى ذيلها !.

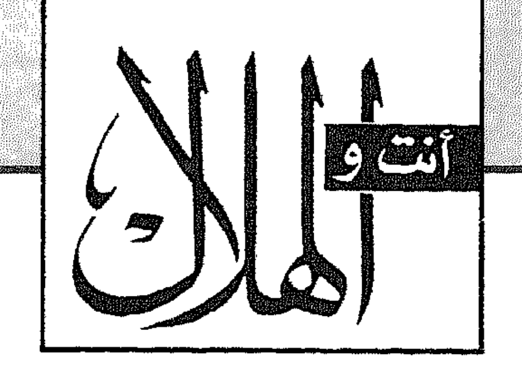
فى هذا العالم أيضا تعرفت على نماذج عظيمة من الأساتذة .. أساتذة

هذا الزمان، كان أكثرهم تأثيرا فى الدكتور أحمد عزت عبدالكريم ، أستاذ التاريخ الحديث ورئيس القسم وقتئذ .. رجل ربع القامة يرتدى نظارة سميكة كان يبدو من ورائها صارما أشد الصرامة إلى أن تقترب منه فتشعر أنه أب حنون .. بالغ الحنان، وأظن أن الدكتور عزت فضلا عن أستاذيته قد أشبع فى نفسى ما ظللت افتقد اليه لسنوات طويلة منذ أن فقدت أبى الشعور بالبنوة، وأن هناك أباً حقيقياً يرعانى ويهتم بمصلحتى ومستقبلى !.

أذكر أيضا من هؤلاء الدكتورة زينب عصمت راشد، وكانت أستاذ تاريخ حديث أيضا ويبهرنى فيها أنها رغم جمالها الفائق كانت ملتزمة بدروسها وأبحاث طلابها أشد الالتزام. ولا أنسى لها تقريظها لأول بحث أعددته فى تلك المرحلة، وكان من أهم أسباب ولعى بالمادة التى كانت تقوم بتدريسها لنا .. مادة تاريخ أوروبا الحديث. فى هذا العالم ثالثا خرجت فى قراءاتى من العام إلى الخاص فقد بدأت فى الاطلاع على الدراسات التاريخية، ولم تقتصر اطلاعاتى، كما يحدث من طلاب هذا الزمان على ماهو متصل بالمواد الدراسية، بل تعداها إلى القراءة فى الكتابات الموسوعية، ودخلت عوالم إميل لودفيج وكارل بروكلمان وابن إياس والجبرتى وكان غرامى بالغا بهذا الأخير !.

عرفت قدماى فى تلك الفترة طريقها إلى مكتبة الكلية والتى بدأت بداية قوية، كذا دار الكتب بباب الخلق حتى أصبحت زبونا دائما لقاعة المطالعة ونشأت علاقة وثيقة بينى وبين العاملين فى تلك القاعة، وحفظ أهم أرقام المراجع العربية منها والانجليزية، غير أن الخطوة الهامة فى هذا السبيل كانت معرفتى بالدوريات القديمة، وقد وضعت يدى وقتئذ على صحافة ما قبل الحرب العالمية الأولى خاصة الجريدة التى كان يرأس تحريرها أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، وكان ثانى الشخوص بعد سلامة موسى الذى ترك فى نفسى بالغ الأثر، وقعت فى تلك الفترة أيضا على كتاب تخليص الإبريز الذى وضعه رفاعة الطهطاوى عن فترة بعثته فى فرنسا، وأخذت أتابع كتابات الرجل ورأيت فى عمله تحت عنوان «المرشد الأمين للبنات والبنين» دستورا يمكن على أساسه إعادة تنشئة فتيان وفتيات المصريين، وكان ثالث الشخوص الذين تركوا بصمة غائرة فى عقلى قبل قلبى .

وفى مايو عام ١٩٥٥ حصلت على درجة الليسانس بعد أن كنت قد شارفت بدايات النضج الحقيقى، الأمر الذى تسلحت به عندما خضت غمار الدراسات العليا، فى ذات الكلية .. آداب عين شمس، وتحت إشراف نفس الأستاذ الأب .. الدكتور أحمد عزت عبدالكريم ، وهذه قصة أخرى !..



اعرف لغتك العربية

اللغة العربية عميقة المعنى قادرة على تحقيق أهداف المتكلم فى سهولة ويسر . ولكل كلمة خصوصيتها فى التعبير عن المعنى الدقيق ومن أمثلة ذلك :

الحمد والشكر : الحمد هو الثناء على ما فى الغير دون أن يستفيد منه الحامد ، أما الشكر إنما يكون بعد إسداء معروف .

النوى والبعاد : كلا الكلمتين تعنى الاغتراب ، لكن النوى تعنى البعد عن الأحباب فقط ، أما البعاد فتعني الابتعاد عنهم وعن غيرهم .

السير والسرى : كلا الكلمتين تعنى المشى .. لكن كلمة السرى تعنى السير فى الليل فقط ، بينما السير يحدث فى أى وقت .

القافلة تسير : ونعنى بها الرفقة المسافرة ، سواء أكانت ماضية فى طريقها أم عائدة ، والقفول هو الرجوع ، إنما سميت قافلة بمعني راجعة تفاؤلا بالسلامة ، وتوقعا للرجوع ، ونسى الناس أصل التسمية .

ذهب الشيء برمته : وتعنى ذهاب جميعه ، رغم أن الرمة هو الحبل الذى يربط به الشيء إلا أن الحبل لا يتبادر الآن الى الأذهان .

محمد اسماعيل الجاويش
شبراخيت - بحيرة

التليفزيون والقرن الحادى والعشرون وتطور الرياضيات !

ترددت وأنا أكتب عما يقدمه التليفزيون فى أيامنا هذه من إعلانات غريبة تستفز المشاهد الذكى ، فقد أخذنا التليفزيون الى أرض الأحلام لنشاهد أطفالا لا يلعبون الأتارى ، ورأيناهم يتبارون على ماتش «فوت بول» ، ثم رأينا لعبة أخرى هى توجيه موتوسيكل يسير بأقصى سرعة .. إلخ .

ربما كانت هناك أمثلة أخرى ، لكن على أية حال تلك الأمثلة تكفى ، فقد أجازها التليفزيون مثلما أجاز الترويج للمشغولات اليدوية فى الوقت الذى نسمع فيه ليلا ونهارا أن مصر تستعد للدخول فى القرن الحادى والعشرين .. طبعا إحدى سمات العصر هى المعلومات والتعامل معها عبر أحدث الأجهزة ، وقد سمعنا أن هذا تم أو فى الطريق ..

لكن هل امتلاك الأجهزة وتشغيلها هو دخول في العصر أم هو فقط محاكاة من على السطح، فالعصر الحديث ليس فقط امتلاك جهاز وتشغيله .. إنه عصر الإبداع العلمى والتطور ..

مراكز البحوث يتزايد عددها ، والشبكات تسهل متابعة الجديد فى أى رقعة من العالم . والتطور مستمر والرياضيات هى الأخرى تطورت ، ولهذا أقول إن تعليم الرياضيات يجب أن يحظى بالخروج من عالم التلقين الذى عانى منه الشباب فى العشرين سنة الأخيرة ويجب أن يتحرر من النماذج الجاهزة الحل ، لذا قبل أن نطالب التلميذ بالإبداع، يجب مطالبة المدرس بالإبداع .

ليلى الشربينى

الهلال : تلقت «الهلال» نبأ وفاة كاتبتنا العزيزة ليلى الشربينى ، والتى كانت تسهم بآرائها من خلال الهلال ، وننشر هذه المساهمة التى وصلتنا قبل وفاتها بأيام قليلة، تغمدها المولى الكريم برحمته.

رسالة حب وتقدير

أخى رئيس تحرير «الهلال» تحية الإعزاز والتقدير ، وإنه لمن دواعى سرورى ما ألحظه من تطوير فى مجلتنا ومن ثراء وعمق موضوعاتها، وإننى أشد على يدك وأبارك سعيك الدءوب فى الرقى فى أعداد الهلال .

أهدى سلامى وتقديرى ومشاعر العرفان بالجميل للأخوين الكريمين الدكتور محمد رجب البيومى والدكتور محمود الطناحى على ما يخطانه من بحوث عميقة وقيمة تتصف ببلاغة الاسلوب وجماله، وتشد القارىء اليها شدا ، وتأسره أسرا، لا يقوى علي الفكاك منه .. إننى أرجو أن يزينا الهلال كل شهر ببحوثهما الجادة الرصينة .. متعهما الله سبحانه وتعالى بالصحة وطول العمر .

محمد جويرو ـ منزل حرب ـ تونس

الهلال

إن التحية بيننا متبادلة أيها الصديق العزيز من أبناء تونس الخضراء ، والتى دأب أبناؤها علي التواصل الثقافى مع أشقائهم من الأدباء المصريين .. والحب بيننا موصول، والهدف واحد وهو مزيد من الارتقاء بثقافتنا العربية ، وأن تقدم الهلال لقرائها دائما كل جديد ، من خلال خيرة كتابنا ومفكرينا العرب والمصريين .

قصيدة

قــــصــــيــــدتى إليك أغنيــــة
سـمـعـتـهـا وكنت مـا أزال أحـفظ الغناء
وكنت انتـشى بالصـوت والتـرديد والنداء
وكنت اشـتـهى التـرنيم كـالأطفـال
يجـــربون اللحن فى التـــرحـال
يقلدون الطيـــر فى التـــغـــريد
ومـــثلهم قـــبـــست مـــا تردد الأنواء
وفـجـأة ... تحـولت قـصـيدتى لعـاصـفـة
تد مـدم الرياح بين الأرض والسـمـاء
فـضـاع لحنى الرقـيق عندمـا
رجـعـت بالتـذكـار للمـسـاء
فـرجع التـذكـار مـا نسـيت من غناء
يزلزل الفضاء

د. حسنة عبد الحكيم عبد الله
كلية بنات عين شمس

روح التعاون من أجل التطور

ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين ينبغى أن تتغير مفاهيمنا وأن نحترم الرأى والرأى الآخر بهدف الوصول إلى القرار الصحيح للوطن والمواطن، اختصارا للوقت ، وبدلا من الدخول فى جدل ونقاش لا يفيد .

إن ما تشهده مصر الآن من طفرة اقتصادية بما حقق جذبا للاستثمارات سواء بأموال المصريين أو غيرهم يدفعنا للاستفادة من هذه الميزة التى افتقدناها لعقود طويلة، وهذا حرى بأن يسود بيننا نوع من روح التعاون والتكاتف والبعد عن الأنانية حتى نحجز لنا مكانا فى هذا التطور المذهل الذى يتم حاليا ، وهذه التكتلات الاقتصادية التى نشهدها فى كل يوم .

حسن منتصر
فارسكور

التكامل العربى

صـــحـــا النيل الكريم بلا توان — وأشـــرق فى العـــروبة مـــهـــرجـــانى

وأيقظ بالتكامل فـــجـــر وعى — أعـــاد الى يمينى صـــولجـــانى

فـــأهلا بالتكامل والتـــدانى

وبين الرافـــدين لنا شـــقـــيق — وفـى بـردى ولـبـنـان عـــــريـق

لأنت بمصـــرنا حـــصـن حـــصـين — يصـــد عن العـــروبة كل جـــان

فـــأهلا بالتكامل والتـــدانى

سعيد عبد القوى محمد

بنى سويف

رحيل أشهر قارئة للهلال فى البرازيل

رسالة رقيقة وصلتنا من القارىء خليل سعيد طيفور من البرازيل يقول فيها :
لقد توفيت أشهر قارئة للهلال في جويانيا جوياز بالبرازيل، واسمها هيفاء الحلو يازجي عن عمر يناهز ٩٤ عاما وهى تقرأ الهلال منذ عام ١٩٢٠. وقد حرص والدها الذى يعيش فى البرازيل واسمه برهان الحلو على قراءة الهلال منذ عام ١٩١٣ . .. والهلال تأسف لرحيل هذه القارئة التى عاصرت أهم وأبرز المجلات الثقافية فى الوطن العربى ، والتى ظلت لأكثر من قرن من الزمان تصدر بلا توقف تضفى مزيدا من الثقافة والتنوير فى حياتنا المعاصرة .

الفـــلاح

أشـــرق نـور الســـمـــاء — يتـــلألأ بـالضـــيـــاء

يملأ الدنيـــا بريقـــا — لامـــعـــا مـــثل السناء

يخـــرج الفـــلاح يســـعي — فى نشـــاط ووفـــاء

ســـبح المولي وأصـــبح — يدعـــو مـــولاه البـــقـــاء

رافـــعـــا كف الضـــراعـــة — لا يميل الى الشـــقـــاء

يرجـــو صـــحـــتـــه تدوم — دون مـــال أو غـــنـــاء

ينـــثـــر الحب ويروى — مـــاء من رب الســـمـــاء

يكبـــر الزرع وينمـــو — يـأتى زرعـــه بالنمـــاء

يحـــرث الأرض بجـــد — بالكفـــاح وبالوفـــاء

أحمد نادى بهلول ـ الاسكندرية

رحلة فؤاد

أيا من تنور فى خاطرى بقولك : أهلا .. وياشاعرى
بعينين فيها يثور الحنين وخدين لاحا .. لكى تقهرى
أيغفو على شفتيك العقيق ليسهر - من لوعة - ناظرى؟

يتوه الفؤاد .. بوادى الخيال ويقتات .. بالنغم الحائر
ويأخذنى .. للأمانى الحسان لدرب من الليل .. كالعنبر
أيكشف لى الليل .. عن سره وعن حكمة الأمس .. والحاضر ؟

أحب الحياة : ارتحالا وعشقا وأهوى انطلاقى .. كالطائر
أسافر دوما .. ولو بالخيال لدنيا من الحسن .. فى خاطرى
فأغشى أزاهرها .. كالفراش أرف ترف .. بعطر ثرى

وفى الليل أصغى لهمس النجوم وأرنو لبدر الدجى .. الساهر
يؤرجحنى الوهم فى حيرتى أسافر فى سحرك الغامر
أحن .. تحنين ياحلوتى حنين القصيدة .. للشاعر

محمد عبد الوهاب

رسالة من العنكب المصرى

جرى ذكرنا نحن أمة العناكب عندكم بنى البشر على أننا من الحشرات ، وهو اسم اطلقه الباحثون قديما على الحشرات والعناكب وأشباهها، وكذلك الفئران وحتي الثعابين، وهذا ما لا يجوز فى عالمنا المعاصر ، فالحشرات بالمفهوم الحالى هى حيوانات مفصلية الأرجل ، لها ثلاثة أزواج من الأرجل وقرنان للاستشعار ، مع جملة من الصفات الأخرى تميزها عما عداها من مفصليات الأرجل ، تلك الشعبة التى تضم مع الحشرات، طوائف العنكبيات والقشريات وعديدة الأرجل ،وكل منها لها مميزاتها ، ويهمنى هنا طائفة العنكبيات التى تضم العديد من الرتب المختلفة

أهمها رتبة العناكب ورتبة العقارب مع أبناء عم آخرين لنا من الكذارب «العقارب الكاذبة» والعناكش «عناكب الشمس» والحصادات والسقارب وغيرها .

إذن العنكبيات غير الحشرات ، في المفهوم العلمي الحديث ، ووضعنا التصنيفي من عالم الحيوان هو كالتالي : رتبة العناكب إحدى رتب طائفة العنكبيات من شعبة المفصليات كبرى شعب المملكة الحيوانية : وأنعم بهذا من حسب !!.

وبعد الحسب والنسب ، لزوم تعريف ما لا يعرفه معظم البشر ، لزم بيان أهميتنا نحن أمة العناكب ، إذ أن الإنسان يرى أن كل الكون إما ذو نفع له أو ضرر عليه. والحقيقة أن العناكب ذات نفع كبير للإنسان ، فعملنا الرئيسى هو التهام الحشرات ومعظمها يؤثر على اقتصاد الإنسان ، سواء كآفات تهاجم محاصيله الزراعية ، أو كناقلات للأمراض تهدد حياته ، ونحن نخلصه من كل هذا لوجه الله الكريم ، لا نرجو جزاء ولا شكورا ، هذا بالإضافة الى أن العناكب «وليس كل العنكبيات» لا تهاجم النباتات على الاطلاق فنحن أمة مفترسة ، لا نعرف الغذاء النباتى ولا نعرف التطفل على الآخرين ، سواء من النباتات أو من الحيوانات ، مع ملاحظة أننا نستخدم فى صيدنا غددا تفرز السم لشل الفريسة .

وقد يتساءل البعض منكم ، أين تعيش العناكب ؟ والحقيقة أننا نعيش فى كل مكان على سطح الأرض اليابسة ، عدا المناطق القطبية والمغطاة بالجليد ، فتجدنا فى كل القارات عدا المنطقة القطبية الجنوبية ، وتنتقل صغارنا مع الهواء الى ارتفاعات عالية حتى قمة افرست ، والبعض منا يعيش فى مناطق المد بين صخور الساحل ، ومنا نوع يسكن الماء بصفة دائمة ، وأنواع أخرى تنزل الماء للصيد فقط «أليس منكم صيادون أيضا» ؟..

وختاما أحب أن أوضح لكم أنه إذا كان كل ما على الأرض ، هو لنفع الإنسان ، فلماذا لا يتعرف الإنسان علي الثروة التى حباه الله بها وسخرها لخدمته ، وهل من العقل أن يجهل الإنسان مقدار ثروته ، ومقدار ما يمكن أن يجنيه من وراء تلك الثروة ، نحن ثروة لكم ، فحاولوا أن تعرفونا ، حتى لا تكون بيوتكم أوهن من بيوتنا .

هشام الحناوى

أرجوحة الزمان

يؤرجحنى الزمان بكفتيه ... فلا أدرى بأيهما مكانى
فطورا فى قرار القاع ألقى ... وطورا فوق أجنحة الأمانى
فلست بشارب إلا سرابا ... ولست بهارب مما دهانى
زمانى حقل ألغام أمامى ... وعيناه المخيفة ترمقانى !
فكيف أسير والدنيا ضباب ... وأين أفر من قدر دعانى ؟

شعبان صقر
قنا ـ إسنا ـ عزبة صقر

النبع والساقى

شربت الآهة الظمأى ... بكأس ملؤها نارى
أأدنو والمنى تنأى ... مفزعة بإعصارى
أسائل فى الجوى نفسى ... أيأفل نجم ألحانى
تشرد أحرف الأمس ... رياح عند شطآنى

بشرى بشير

د. يوسف خليف صاحب الإبداع المتميز

د. يوسف خليف أحد رموزنا الفكرية مرت ذكراه دون أن يلتفت إليه أحد ، وتعلم أنه كان من كتاب «الهلال» وصاحب الإبداع المتميز .. حصل يوسف خليف على جائزة الدولة التقديرية وجائزة الملك فيصل ، فضلا عن أنه شارك بجهد كبير فى البحث الأدبى وقدم للمكتبة العربية مجموعة مهمة من الدراسات التى تناولت تاريخ الشعر العربى ، ومناهج النقد الأدبى فى الثقافة العربية .

تتلمذ د. خليف على يد د. طه حسين عميد الأدب العربى ، وعمل فى مجمع اللغة العربية ثم مدرسا فأستاذا للأدب العربى بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة .

من أهم كتب د. يوسف خليف : تاريخ الشعر العربى فى الكوفة وكتابه المهم عن الشاعر ذى الرمة .

رجب عبد الكريم الخولى
حلوان ـ المعصرة

إلى أصدقاء الهلال

●● القارىء العزيز المهندس باهر سرى .. نشكرك علي اقتراحاتك وموضوعاتك الشيقة التى ترسلها تباعا إلى باب «أنت و الهلال» وآخرها المشروع الذى اطلقت عليه «اقتراح مشروع كهرومائى» يعود بفوائد كثيرة على الوطن .

.. هذه الاقتراحات لها مؤسسات خاصة يمكن أن تتقدم بها لعلها تجد طريقها إلى النور ومن بينها أكاديمية البحث العلمى .

●● القارىء عادل فرج عبد العال : وصلت إلينا محاولتك القصصية بعنوان «تمزقات» وتحتاج إلى أن تكتب كثيرا وتقرأ كثيرا لتحقق ما تصبو إليه .



الكلمة الأخيرة

«تكريمى أنا الماركسى - فى دير مسيحى» !

محمود أمين العالم

كانت دعوة مفاجئة .. غمرتنى بالسعادة .. كنت أعرف أنطلياس هذه البقعة الصغيرة على حافة بيروت. وأعرف مقاومتها البطولية للاحتلال الإسرائيلى لبيروت، ولكنى لم أكن أعرف «الحركة الثقافية» بها التى تفضلت بدعوتى إلى حفل تكريمى لى ولاثنين آخرين من العلماء العرب، هما الأب جوزف حجّار المؤرخ السورى، والدكتور ناصر الدين الأسد الأستاذ الأكاديمى الأردنى. هذا إلى جانب خمسة آخرين من المثقفين والعلماء اللبنانيين. وكانت هذه الدعوة بمناسبة إعلان بيروت عاصمة للثقافة العربية لعام ١٩٩٩، وفى إطار معرض للكتاب تقيمه هذه الحركة كل عام فى دير مار إلياس بانطلياس.

عرفت من أمينها العام الأستاذ چورج أبى صالح فى لقائى به فى القاهرة قبل سفرى إلى بيروت أن هذه الحركة الثقافية قد تأسست عام ١٩٧٨، وأنها اختارت العمل الثقافى لمواجهة الحروب التى اندلعت عام ١٩٧٥ للقضاء على لبنان الدولة، والمجتمع والاقتصاد والثقافة. ثم تضاعفت معرفتى بأنشطتها عند لقائى فى بيروت بأمين سرها الأستاذ هيكل ضرغام. ثم استشعرت رسالتها الإنسانية العقلانية المتفتحة بلقائى برئيسها الأب أنطوان ضَو ، الذى وجدت فى شخصيته تجسيدا حيا لهذه الرسالة النبيلة.

وفى الثالث من مارس (آذار) كانت ليلة الافتتاح فى القاعة الكبرى لدير مار إلياس بأنطلياس. واقتصرت على كلمات رصينة من رئيس الحركة الثقافية وباسم رئيس الجمهورية وباسم رئيس الوزراء ثم من بعض رؤساء المؤسسات الثقافية الرسمية. وبدأت فى اليوم التالى ليالى التكريم فى ذات القاعة الكبرى. وكان حظى تقديما سخيا من المفكر اللبنانى الدكتور أنطوان سيف تمنيت أن أستحقه، ثم توجتنى المفكرة والباحثة والمناضلة اللبنانية الدكتورة فهمية شرف الدين بكلمات ذهبية تفيض كرما ومودة فى تقييم جهودى المتواضعة فى الأدب والفكر والعمل السياسى ، مما أشعرنى أنها تضاعف من إحساسى بالمسئولية وتشحذ طاقتى على المواصلة !.

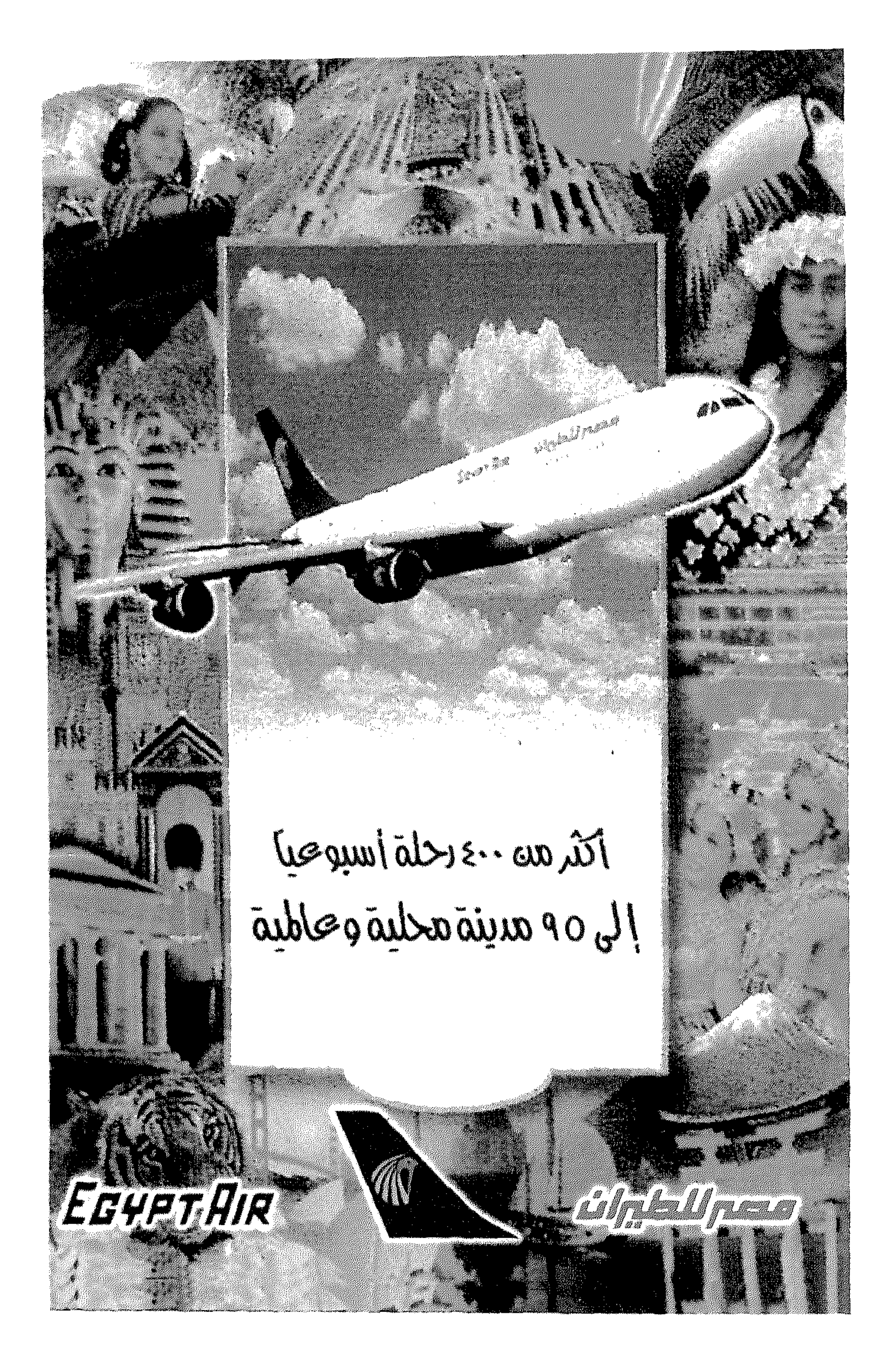
وعندما وقفت لأشكر «الحركة الثقافية» وكلمات التكريم، لم أجد أبلغ من حكاية صغيرة:

قلت للجمع الكريم. أنا من أسرة دينية مسلمة شديدة التدين وبخاصة أبى. وعندما مات أبى انشغلت طوال أيام ثلاثة بإجراءات الدفن والعزاء ولم تدمع عينى دمعة واحدة خلالها. وفى اليوم الرابع ذهبت إلى كنيسة سان چورج وسط القاهرة التى تعودت أن أذهب إليها لأستمع إلى الموسيقى وما أن بدأ اللحن الموسيقى وكان لموتسار حتى اندفعت أبكى بكاء عنيفا. وهكذا بكيت أبى الشيخ المسلم فى كنيسة. والليلة أجد نفسى مكرما – أنا الماركسى – فى دير مسيحى! هل هناك ما هو أعمق من هذا تعبيرا عن لقاء الإنسان بالإنسان، هذا اللقاء الذى ينبغى ألا يحول دونه أى اختلافات دينية أو فكرية أو طائفية أو قومية ! وما كان فى مقدورى أن أختتم كلمتى بغير تحية للشباب والطلبة اللبنانيين الذى اقتحموا الأسلاك الشائكة حول أرنون وحرروها بأيديهم من محاولة التوسع الإسرائيلى، فقلت إنها ليست عملية نكتفى بتحيتها، بل هى ظاهرة لابد من تعميمها. فما أكثر الأسلاك الشائكة فى بلادنا العربية التى تحيط بمختلف قيم الديمقراطية ، وحرية التعبير والرأى والاعتقاد والإبداع بحقوق الإنسان عامة والمرأة خاصة والتنمية الشاملة ، والوحدة العربية والتوسع الإسرائيلى إلى غير ذلك.

ولابد من الفعل الأرنونى أى العمل من قاعدة الجماهير لاقتحام هذه الأسلاك بمختلف الوسائل المتاحة ، ولخصت هذا فى شعار هو «ياجماهير الأمة العربية تأرننوا ضد هذه الأسلاك التى تحيط بمصالحكم وقيمكم وتطلعاتكم النبيلة» وبهذا يصبح الفعل الأرنونى – لو صح التعبير ، على أن المهم المعنى – أسلوبا للعمل الشعبى القاعدى خروجا من هذه الوصاية والبلادة المفروضة على حركة الجماهير العربية .

وهكذا أصبحت الدعوة إلى انطلياس تكريما وبهجة روحية ودرسا ديمقراطيا .

فتحية للحركة الثقافية بأنطلياس وتحية للشعب اللبنانى العظيم .



أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيا
إلى ٩٥ مدينة محلية وعالمية
EGYPT AIR
مصر للطيران

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه

روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

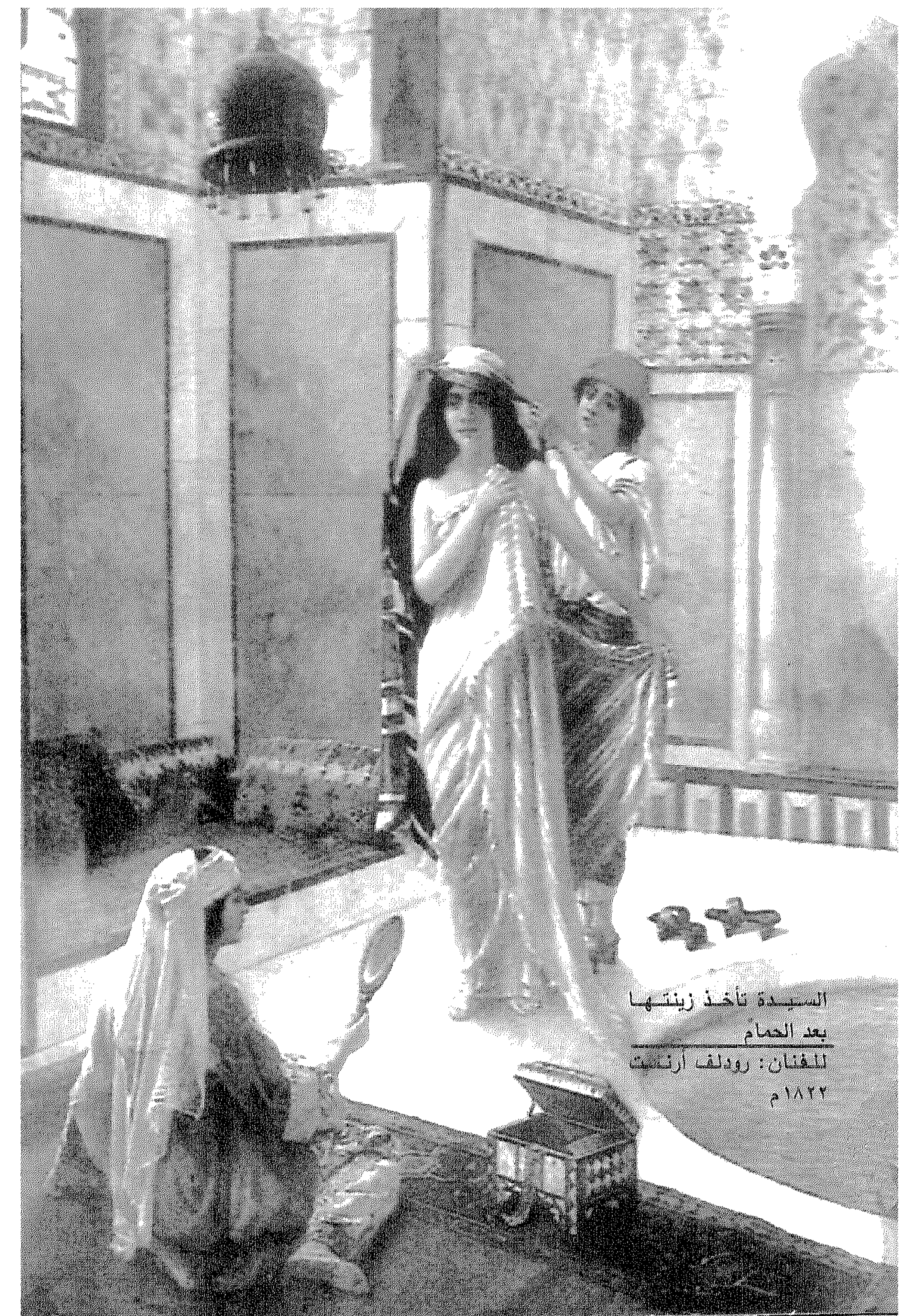
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨١٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس ٢٨٢٧٠١٢

الهلال

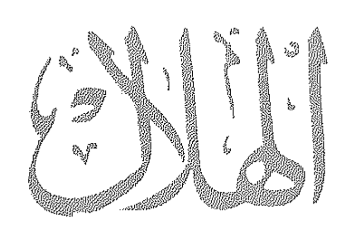
مايو ١٩٩٩ • الثمن ١٥٠ قرشا

نشأة الزعيم

سعد زغلول الأزهري الفقيه



السيدة تأخذ زينتها بعد الحمام
للفنان: رودلف أرنست
١٨٢٢م



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام السابع بعد المائة

مايو ١٩٩٩ ● محرم ١٤٢٠ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت . ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

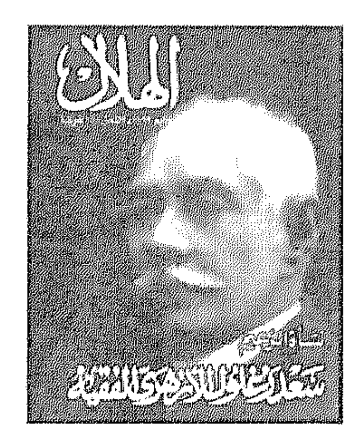
ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ١.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



الغلاف تصميم : حلمى التونى

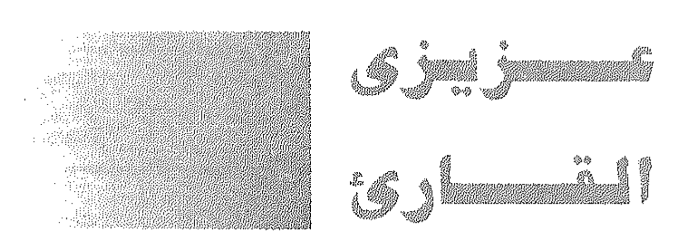
فكر وثقافة

فنـــــون

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة



الاسكندرية تحمل صولجانها

غدا.. الاسكندرية عاصمة مصر الثقافية.

هذا هو ما تؤكده الشواهد، فالعابرون بسياراتهم يوميا، بمنطقة السلسلة، يرون العروس وقد بدأت تستعد لحفلها الذهبى.. ليلة زفافها على عريسها الابدى..

العروس هى بناية ضخمة، تطل على البحر، تشهد أمواجه اللازوردية القادمة من الأفق، حاملة عبر نسائمها أريج الثقافات المختلفة.

أما العريس فهو كل ما تركه الانسان من معرفة قديمة، وحديثة، مصاغة بأساليب العصر الحديث.

هى مكتبة الاسكندرية.. بثوبها الجديد..

الآن، تحول البكاء على الاطلال، والتراث المحترق، الى أغنيات ينشدها البناءون، الصاعدون الى قمة البناية، لوضع اللمسات الأخيرة.. ومثلما قال «كونفوشيوس»: «بدلا من أن تلعن الظلام اضئ شمعة» ، فان فى الاسكندرية منارة دورها اضاءة القرن الواحد والعشرين، وعروس مشرقة تؤكد لكل العالم ان الحضارة جاءت من هنا..

وأهمية بناء هذا الصرح، ليس فى لملمة الكتب، والوثائق القديمة، والحديثة. ولكنه فى الأول تطبيق حقيقى للدعوة التى تنتهجها معظم دول العالم منذ فترة طويلة، للاهتمام بالتراث المشترك للانسانية مثل البحار التى تشترك فيه عدة دول.

والبحار هى نوافذ ثقافات العالم، يأتى من خلالها التجار، والزوار، والمفكرون، ورجال

العقائد. ويلتقون، يختلفون، ويتكاملون، فاختلاف الحضارات والثقافات والعقائد لم تكن أبدا وسيلة للتنافر، بل هى تكامل النوع البشرى..

وكما قال الشاعر الفرنسى بول فاليرى فى إحدى قصائده:

لماذا لا تثرينا اختلافاتنا؟ .

وقد كانت المكتبات دوما بمثابة ذاكرة الناس، وتواريخهم الوجدانية المسجلة، ولا شك أن المكتبة الأكثر شهرة فى التاريخ هى تلك التى بناها البطالمة قبل ثلاثة وعشرين قرنا، حين كان الثغر عاصمة للعلم والمعرفة، فان البناية الجديدة، بمثابة صولجان، تقبض المدينة على اطرافه، لتؤكد انها لا تزال تحتفظ بمكانتها التاريخية.

لا شك ان المدينة قد فقدت الكثير من اسهمها بعد احراق المكتبة، ونظر اليها الناس باعتبارها مدينة «كانت» صاحبة مجد فى الماضى، وتعاملوا معها على أنها مدينة تنام طيلة العام فى احضان البحر، تستيقظ فقط طوال اشهر الصيف عندما يذهب اليها المصطافون..

ورغم التاريخ الطويل للمدينة، فان اسمها مقرون بالمكتبة التى قيل ان بطليموس الأول قد أسسها عام ٢٩٠ قبل الميلاد، وقد انشئت فيها دار العلم على نمط مدارس اثينا الفلسفية، وبخاصة أكاديمية افلاطون.

إذن، فوجود مكتبة، يعنى بالضرورة شيئين : وجود ازدهار حضارى فى المنطقة المحيطة بها، ثم تعكس المكتبة من مقتنياتها على هذا المكان، اى ان المكتبة هنا ليست عالما جامدا، بل كيانا حيا يتحول الى مُستقبل ومرسل.

لذا، تدل المؤشرات الخاصة بنظام تأسيس البناية، وتقسيم إداراتها الى ان المكتبة ستحمل الماضى بين جنباتها وتنطلق نحو المستقبل.. فقد تم تصميم المكتبة على نفس النمط والتطور الذى اعدته مؤسسة «كاب جيمنى».. الفرنسية، لمكتبة فرنسا الجديدة، وهو تصميم اذهل المتخصصين فى كل انحاء العالم.

إن افتتاح مثل هذا المشروع الضخم، يعد أثقل مسئولية ثقافية على أبناء الثغر التى لابد أن تضم مؤسسات ثقافية تضارع أهمية المشروع، من دور نشر، وصحف تحمل اسم المدينة وهويتها، حيث صار على المدينة، الآن، أن تتخلى عن التبعية الثقافية للقاهرة، ولم لا تكون هى العاصمة الثقافية، وقد صارت تحمل صولجانها؟ .

المحـــــرر

من تاريخ الزعيم الخالد

سعد زغلول الأزهري الفقيه

بقلم :
د.محمد رجب البيومى



سعد زغلول

●● لا يمل الحديث عن سعد زغلول ، فقد كان قلب الأمة النابض بآمالها وآلامها ، لم يجئ به جيش ليتزعم ، ولكن هتفت به قلوب الناس قبل ألسنتهم ، وعرف ذلك كل المعرفة فبذل أقصى ما فى وسعه ليرضى نفسه المجاهدة قبل أن يرضى أحباءه المخلصين ●●

وقد كتب تاريخ سعد بإفاضة وإشباع ، كتبه أحباؤه فانصفوه ، وكتبه خصومه فجحدوه ، وكتبه المحايدون فوجدوه أهلا للإجلال والإغرار ، ولكن ناحية من نواحي سعد لم يتسع القول فيها منتهيا إلى مداه ، تلك هى نشأته الأزهرية شابا يافعا ، وما ألهمته من حب للشريعة الإسلامية ، وذود عن حياضها، وقد كتب الزعيم مذكراته بادئا بعهد المحاماة وما تلاه ، فطوى ما قبل ذلك من عهود ، وذلك هو المتوقع ، لأن الذى يكتب مذكراته لا يبدأ بها فى عهد التلمذة الغضة ، إذ هو حائر لا يزال يلتمس الطريق ، ولا يرى أنه أهل لأن يسجل حياة لم تتفتح براعمها بعد عن عبيرها الفواح ، وقد كان سعد بعد ائتلاق شمسه مشغولا بحاضره المنافح عن ماضيه السالف ، فقد سلاه سلوا لم يخل من حنين يراوحه فى أوقات الصفاء ، وكأن أبا العلاء المعرى قد عناه حين قال :

ولقد سلوت عن الشباب كما سلا   غيرى ولكن للحزين تذكر !

وإذا كان سعد قد ترك حديث النشأة دون تسجيل ، فقد هيأ الله من يعود إليها بالبسط من زملاء العلم فى الأزهر ، والأدب فى الصحافة ، والثورة فى مجلس جمال الدين ، والصحبة فى ندوات الاستاذ الإمام محمد عبده ، ذلكم هو قريعه الجبار مثله تماما ، إبراهيم الهلباوى ، وقد شاء الله أن يكون الهلباوى خصما لزميله فى أكثر اتجاهه ، وقد انضم إلى الحزب المناوئ عن ارتياح حتى عد من كبار مفكريه ، ولكنه منذ فارق سعد الحياة فى سنة ١٩٢٧م انقلب ذاكرا تاريخ سعد ، يتحدث عنه فى مجالسه الخاصة ، ويستجيب لمن أراد من الصحافيين كتابة ذكريات عنه. وذاكرة الهلباوى عجيبة عجيبة ، فهى تدخر من ملابسات العصر وأحداث الزمن ما لم يلم به بسواه ، وقد دعاه أستاذنا الكبير أحمد أمين إلى أن يكتب تاريخ الإعلام من معاصريه ، ولكن اشتغاله بالمحاماة ، وتهافت الناس على دفاعه المتصل دون انقطاع حتى فى عهود الشيخوخة ، قد حال دون أمنية الدكتور أحمد أمين .

تحدث إبراهيم الهلباوى عن نشأة سعد ، فذكر أنهما كانا يسكنان فى منزل واحد ، وأن سعدا كان مرفها فى المسكن والملبس بالنسبة لزملائه ، إذ كان يرتدى الجبة والقفطان مثل المشايخ الكبار ، على حين يرتدى الهلباوى «الزعبوط» كما كان شديد الاهتمام بدروسه الدينية ، إذ جعل يذاكر طيلة الليل دون أن يهمل ذلك إلا لزائر أو

مرض ، وقد أراد الهلباوى معابثته ، فتحزب مع الزملاء ضد سعد لأنه كان يسهر وحده ، ويشعل المصباح بالزيت ، فعليه أن يقوم بنفقته ، لأنهم لا يسهرون مثله ، وكان سعد من كون نشأته محاورا لبقا ، فقال لزملائه وقد اشتد الجدل حول اختصاص سعد بالقراءة وحده ، إذا كان نور المصباح فى الشارع يضئ لامرأة تغزل الصوف فى منزلها ، أتطالب بقدر انتفاعها بالضوء الخارجى ؟ كذلك أنا . المصباح متقد ، وأنتم تنعمون بنوره ، فإذا استفدت منه بالقراءة فهو حق لكم قد أهملتموه ، وشاعت القضية بين الطلاب فناصروا سعدا .

فى فقه الشافعية

على أن الذى لم يذكره الهلباوى فى نشاط سعد الأزهرى ، أن الشيخ المبتدئ ألف كتابا فى فقه الشافعية وهو تلميذ ناشئ ، ألفه من خلاصة الدروس التى كانت تلقى عليه، ثم يقوم بالمراجعة فى الملازم الأزهرية ويلخص ما سمع وما قرأ ، حتى استوى له مؤلفا شاع بين الطلاب ونفذ بعد طبعه سريعا .

يقول الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى فى الجزء الثانى من كتاب «الأزهر فى ألف عام» :

«كان المغفور له الشيخ المراغى شيخ الأزهر السابق يحتفظ فى مكتبته بنسخة منه (من كتاب سعد) وذات يوم كان لطفى السيد باشا يزوره فى داره بحلوان ، وجرى الحديث عن التأليف والمؤلفين ، فقال لطفى باشا «إن بين الزعماء السياسيين نوابغ لو تفرغوا بعض الوقت للتأليف والإنتاج لأفادوا فائدة عظيمة» ، وهنا ابتسم الشيخ المراغى وقال لصديقه لطفى باشا : هل تعلم أن المرحوم سعد زغلول باشا ألف كتابا فى الفقه ، فتطلع لطفى باشا متعجبا ، وسأل أين هو ؟ فقام الشيخ المراغى إلى مكتبته وجاء بالكتاب إلى لطفى باشا ، ونظر إلى الغلاف فإذا تحت عنوان الكتاب (ألفه الفقير إلى الله تعالى الشيخ سعد زغلول الشافعى المذهب من طلاب الأزهر الشريف)» .

أقول لابد أن تكون نسخة الشيخ المراغى فى مكتبته ، فهل من مهتم بها ؟ يقدمها للقراء نموذجا لتأليف شيخ موهوب لم يمض عليه فى الأزهر غير خمسة أعوام ، ثم سما إلى التأليف ، ووجد المال فطبع ونشر ، وجل أساتذته يقرءون الملازم ولا يؤلفون ! إن للعظماء فى بلاد العالم متاحف تضم آثارهم العلمية والمعيشية معا ، فهل جمعت آثار سعد؟ وقد خطب أكثر من مائة خطبة سجلتها الجرائد ! وهل جمعت مراثيه وقد بلغت ما تحتل عدة أجزاء ؟ ووراء ذلك كله هذا المؤلف الوجيز للشيخ الصغير فى الفقه والتشريع !!.

لم أترك حديث الهلباوى بعد ، فله عن غرام سعد زغلول فى عهد الطلب قصة شائقة بديعة ، تدل على أن مؤلف الفقه قد اتقد وجدانه بلهيب الشوق فى صباه الغض ، وأنه لم يكتم حنينه عن أهله وذويه، بل أعلن شاكيا ، وسعى إلى الزواج فلم يحظ بما يريد ؟ أما كيف كان ذلك ، فقد حكاه الهلباوى ، ولكنى لا أعلم أين قال ؟ وفى أى صحيفة نشر ؟ إلا

أن الدكتور زكى مبارك نقل قول الهلباوى فى مقال بديع نشره بمجلة الرسالة تحت عنوان «غرام سعد زغلول» بتاريخ ١٩٤٢/٨/٢٤ السنة العاشرة :

كيف وقع هذا الغرام ؟! وقع هذا الغرام فى حى الأزهر ، وبه بيت (الجوهرى) وهو حينئذ من بيوتات الأصالة فى مصر ، وكان قريبا من مسكن سعد ، حيث اختص بغرفة نظيفة يسكن بها مع أخيه أحمد فتحى زغلول ، وسعد شيخ يرعى أخاه ، ولابد أن يكون مثال الصون والعفاف أمامه ، فهو مثله الأعلى ، كان يجلس معه فى الحجرة صامتا ، ولا يستطيع أن يظهره عن ذات نفسه ؟ وكيف يقع فى وهم طالب المدارس أن الشيخ الأزهرى مشغول بالحب والهيام ! وقد انطلق سعد إلى دواوين الشعر ينسخ ما بها من قصائد الغزل ويقرؤها فى الحجرة متسليا ، ومن بينها قصائد ابن الفارض التى لاقت قبولا لديه، ثم إن الشاعر صوفى من كبار الأولياء فهل يظن أحمد فتحى شيئا فى قراءة أخيه لشاعر متصوف ولن يصل بخياله إلى أن كريمة الجوهرى قد فتنت أخاه ! ثم برح الهوى بسعد ، فأطلع أخاه فى القرية على مكنونه ، وكان فى الأخ عطف ومودة . فاستجاب لشقيقه ، وأسرع معه إلى بيت الجوهرى يطلب ابنته لأخيه ، ولم يكن ذلك غريبا فى هذا العهد ، إذ كان كثير من طلبة الأزهر متزوجين ، صيانة لنفوسهم من الشبهات ؛ منهم من يترك زوجته لدى أسرته ، ويعود إليها إذا اشتاق ، ومنهم من يسر الله له ، فوجد السكن والمعاش وعاش مع زوجته فى القاهرة ، وهذا ما كان يأمله سعد ، ولكن الوالد اعتذر لصغر سن الفتاة ، وهو اعتذار آلم الشاب العاشق كل الألم ، وكان أول ما قرره أن يرحل عن الحى ، لأن أمر الرفض قد ذاع ، ولابد أن العيون ستأخذه فى مراحه ومغداه ، بل من يدرى لعل الفتاة هى الأخرى قد استراحت إلى رأى أبيها ! فأملها أكبر من أن يتعلق بطالب فى الأزهر ! وهى بنت تاجر كبير .

لم يبرح هوى الفتاة يعتاده ، ولكن اشتغاله بمعالى الأمور فى وطنه ، واقترانه بسيدة من فضليات النساء أخذ يضع الرماد على الحجر الذى اتقد أياما طوالا ، وتوالت طبقات الرماد حتى كاد يخمد اللهيب !.

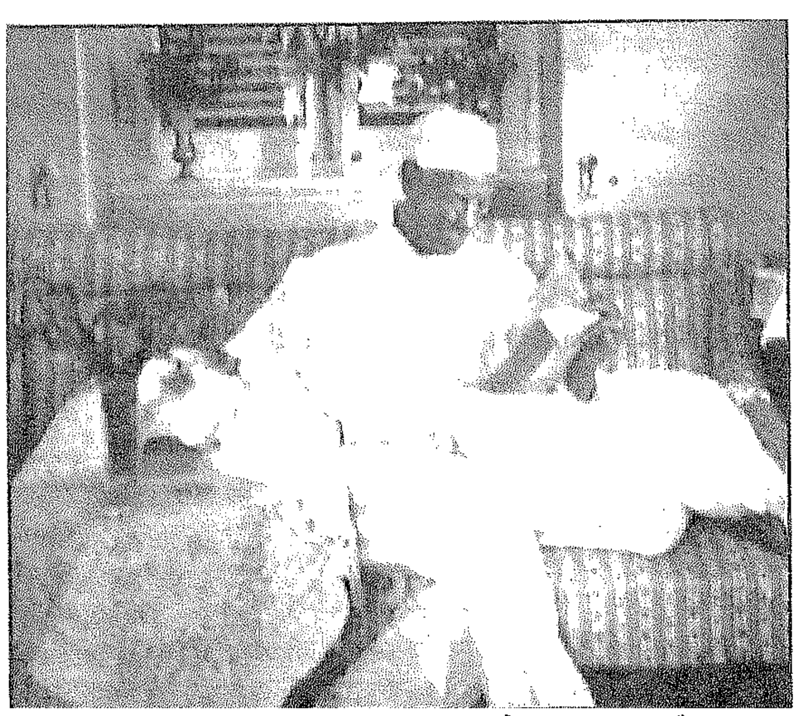
ثم ماذا ؟ طارت الأيام بذكر سعد حين أصبح زعيم الأ مة ، وقد رجع من منفاه رجوع القائد الفاتح فأقيمت الحفلات لاستقباله فى كل حى من أحياء القاهرة ، ومن بينها حى الأزهر ، حيث أقيمت به حفلتان ، أقام الأزهريون إحداها ببيت البكرى وأقام التجار ثانيتهما بمنزل الجوهرى ، ودخل سعد المنزل الذى رد خطبته من قبل ، فرأى ازدحام الرجال فى الفناء ، وازدحام السيدات فى الشرفات ، يقول الدكتور زكى مبارك «التفت سعد باشا ذات اليمين وذات الشمال وسمح لعينيه بدمعتين محرقتين هما التحية لهواه الذى ذهب إلى غير ميعاد» التحية فقط يا مبارك ! المسألة أحر وأوجع !.

أقول لقد سمح سعد لعينيه بدمعتين محرقتين ! فماذا صنعت العينان الأخريان ؟

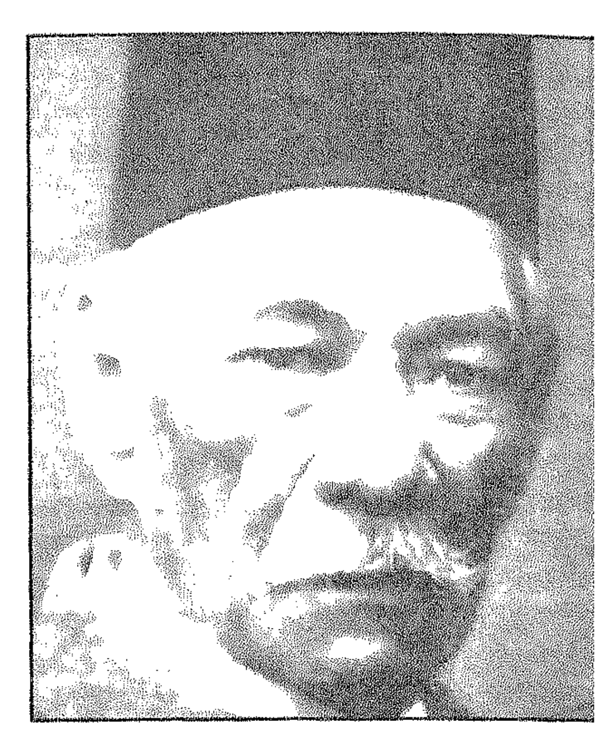
سعد زغلول وصفية زغلول ووالداها فى بيت الأمة







لقطة لسعد زغلول فى المستشفى







أذكر أن طالبا فقيرا من طلاب كلية الحقوق قد تقدم لخطبة فتاة فى ريف الدقهلية ، فرفض والدها ، وآثر بها ابن فلاح ، لأن والده يملك خمسة أفدنة سيرثها بعد حين ، ومضت الأيام فإذا الطالب وكيل نيابة فى عاصمة بمحافظة مرموقة ، وإذا الزوجة المسكينة تذوى وتضمر فى منزل الزوجية ، وفى أيامها الأخيرة ، قالت لها أمها ، لا بأس عليك ، ستشفين ، وتعيشين ، فانتفضت المريضة صارخة ! نعم أعيش هنا ! وقد خسرت وكيل النيابة الذى يسكن فى البندر !! وجعلت تبكى !! وكيل النيابة الذى يسكن فى البندر! يبكيك فقده يا سيدتى !! إيه إيه !! كيف بمن خسرت زعيم الأمة ، وبطل الجهاد ،! هل هتفت بشجونها ؟ لا أدرى !.

سياسة الحكم وعدل الحاكم

ولم نقرأ كتاب الفقه الذى ألفه سعد ، فنعلم هل اقتصر على العبادات من طهارة وصلاة وزكاة وصوم وحج ، أم انتقل إلى شئون الحياة الدنيا من بيوع ومعاملات وقضاء وسياسة حكام ! يخيل إلى أن اتصاله بمجالس جمال الدين قد نقله نقلة شاسعة من فروع الفقه التقليدية إلى المسائل المهمة فى دنيا التشريع ، نقله إلى سياسة الحكم ، وعدل الحاكم ، وطريقة انتخابه ! دليل ذلك أنه نشر قبل قيام الثورة العرابية بأقل من عام مقالا تحت عنوان (فى الشورى والاستبداد) أعادت نشره جريدة البلاغ بعد رحيله ، وسجله الأستاذ الدكتور محمد كامل الفقى فى كتابه (الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة) الذى صدر فى الأربعينيات ، قال فيه : «ولقد فرض على الأمة الإسلامية أن تقوم طائفة منها ، وظيفتها الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حفظا للشريعة من أن يتجاوز حدها المعتدون ، وصونا لأحكامها من أن يتعالى عليها ذوو الشهوات ، فينتهكوا حرمتها ، ويخلوا نظامها ، وتجرفهم عن العمل بها الأهواء إذا تركوا وشأنهم ، ولم يأخذوا على أيديهم فى الاسترسال مع داعيات الشهوات ، فلم يجعل الله الشريعة فى يد شخص واحد ، يتصرف فيها كيف شاء ، بل فرض على العامة أن تستخلص منها قوما ، عارفين لجلب كل ما يؤيد جانب الحق ، ويبعد كل ما من شأنه أن يحدث خللا فى نظامه ، وانحرافا فى أوضاعه العادلة» .

وقد وضح من هذا أن تصرف الواحد فى الكل ممنوع شرعا ، وأن الرعية يجب عليها أن تجعل الحاكم والمحكوم بحيث لا يخرجون عن حد الشريعة الحقة ، فمن رامها فقد رام أمرا شرعيا قضت به الشريعة وحتمته على الحاكم والمحكوم جميعا ، بحيث لو منعناه ، لاكتسبنا بذلك إثما مبينا» .

كم وددت أن أنقل المقال أجمعه ! ولكن ما استشهدت به ينبئ عن فحواه ، وقد كتبه سعد قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ، كتبه وقد أشرب روح التشريع دما وعصبا ، فنطق بما اعتقد ، وقضية الشورى فى الإسلام كانت شغله الشاغل وشغل أستاذه الإمام محمد

عبده ، وأذكر أن مجلة الأديب (أكتوبر سنة ١٩٧٠) نشرت رسالة ودية بعثها سعد إلى أستاذه فى منفاه ببيروت ، تدل على أن الأستاذ الإمام قد أرسل مقالة لأحد كتاب لبنان لتنشر فى مصر ، تحت عنوان (الشورى فى مصر) فنشرت كما أراد الإمام ، ثم كتب إلى سعد يتساءل عن أثرها فى الشعب فرد عليه تلميذه قائلا :

«فقد طلبت أثر مقالة (الشورى فى مصر) فى الأذهان المصرية ، وأفكار أهل الحل والعقد عنها فلم أجد لها خبرا ، وإنما رأيت أذهانا خامدة ، وأفكارا كاسدة ، كما تعهدون ، وفوق ذلك رأيت ذهولا وسباتا وحيرة واندهاشا» وفى الرسالة ما يدل على أن الإمام ببيروت كان يطلب من سعد كتبا فى اللغة والدين والتاريخ فيسارع بإرسالها باسم صديق للإمام ، ليسلمها إياه ، كيلا يصادر المسئولون ما يرسل إلى النازح المغترب من أسفار ، وكأنها مخدرات يتناولها التجريم .

ولعل أبرز ما اهتم به سعد حين ولى الوزارة من تحقيق رغبات الإمام هو إنشاء مدرسة القضاء الشرعى لأن الإمام قد زار المحاكم الشرعية مفتشا ، وكتب عن القضاة إذ ذاك تقريرا أليما يبين الهوة السحيقة التى انحدر إليها قضاة لا يعرفون شيئا عن الأحكام ، وفيهم من يستمع إلى الكتبة أشباه العوام فيصدر عن أمرهم ، وهم جميعا فى الجهل سواء ، وفيهم من يفرض المصالحة على المتخاصمين فرضا كيلا يتورط فى حكم لا يعرف صوابه من خطئه ، وفيهم من يجعل البدهيات من قواعد الحساب والإملاء ، لذلك رأى الإمام أن تنشأ مدرسة للقضاء الشرعى تعدّ القاضى إعدادا لا يقل فى مستواه عن زميله القاضى بالمحاكم الأهلية ، ولكن الخديوى عباس رفض اقتراح الإمام لتبقى له السيطرة فى اختيار من يشرفون من القضاة على المجالس الحسبية وحصر التركات. ومات الشيخ محمد عبده وهو آسف لإهمال اقتراحه ، فلما ولى سعد وزارة الحقانية رأى أن ينشئ المدرسة اقتناعا بفكرة أستاذه التى لمس صوابها بتجربته إذ كان يعرف من أحوال القضاء الشرعى ما يحتم العمل على إصلاحه ، وهاجت عليه بعض الصحف بتأثير الخديوى ، ولكن سعدا أصر على إعداد جيل من القضاة يفهمون الشريعة الإسلامية على وجهها الصحيح ، ويلمون بشذور من الدراسات الحديثة فى التربية والاجتماع والقانون المدنى المطبق فى المحاكم الأخرى ، جازما أن الشريعة الإسلامية لا تجد تطبيقها المشرق إلاّ على أيدى قضاة فقهاء ، ولمح الخديوى إصرار سعد على تحقيق مشروعه ، فصمم أن يرأس مجلس الوزراء ليحول دون التنفيذ ، وكانت جلسة حرجة دافع فيها سعد عن المشروع بقوة ، وفَنّدَ ما أثاره عباس من اعتراضات ، فانتصر الحاضرون لاتجاه سعد ، وتلك مسألة خصها الأستاذ عباس محمود العقاد بتحليل وافٍ ختمه بقوله (لقد جاء سعد إلى مجلس الوزراء ، وهو معوّل على أمر من أمرين : إما مدرسة القضاء أو الاستقالة» وقد تم له ما أراد ، ونحن نعرف أن تلاميذ

مدرسة القضاء هم الذين كتبوا الفقه الإسلامى بلسان العصر مشاركين الأفاضل من فقهاء الأزهر الشريف ، وهم جميعا أمل مشرق تحقق على يد الزعيم الأمين .

وكان سعد زغلول هو رئيس الوزراء الوحيد الذى تعلم فى الأزهر الشريف منذ عرفت مصر النظام الوزارى برياسة نوبار باشا إلى الآن ، وكأن اتصاله الشديد بشريعة الله أحد معالم توفيقه فى المحاماة والقضاء ! وأقول فى القضاء عن عمد ، لأن سعدا كان يخالف القانون المصرى منحازا إلى حكم الشريعة فى بعض ما يراه صائبا مستقيما ، وكتاب الأستاذ عبده حسن الزيات (سعد زغلول من أقضيته) يضرب ما يدل على ذلك من المثال ، واستشهد فى هذا المجال بقضية شهيرة حكم فيها سعد بشرع الله مخالفا القانون المصرى عن ثقة أكيدة بصلابة موقفه ، وكان زملاؤه من القضاة الأجانب (حينئذ) يضيقون به ، وكذلك غلاة المتفرنجين من قضاة مصر الأصلاء ! ولكنهم يحارون فى نقض ما سجله من الحيثيات ، فيسكتون على ضجر متأفف !.

تطبيق قواعد الشرع الإسلامى

ذكر الأستاذ عبده حسن الزيات ، أن بعض واضعى اليد ، فى قضية من قضايا الوقف أراد أن يتملك العين لمضى المدة المقررة فى القانون المدنى وهى خمس سنوات ، ولكن سعدا رحمه الله نظر إلى حق الأيتام الضائع ، لو اعتمد على هذه المدة القصيرة . فحكم بأن قواعد الشرع الإسلامى هى وحدها التى يجب أن تطبق فى هذا المجال ، فإن الوقف لا يتقادم فى حكم الله إلا بعد ثلاثة وثلاثين عاما ، وبذلك أرضى ضميره وحكم بما ينقذ حق الأيتام. وقد تعرض قاسم أمين للحكم فى قضية مماثلة فاتجه إلى تطبيق القانون المدنى ، لأن الشريعة ليست ذات محل فى الحكم القضائى . وكان من العجب أن يصدر حكمان متعارضان فى مسألة واحدة ! وقد عقب على ذلك الأستاذ عبده حسن الزيات بقوله «هكذا انتصرت المحافظة المعتدلة إذ لم يضع سعد حجابا بين القاضى الأهلى وحكم الشريعة .. وبعد أن أشار الأستاذ الزيات إلى قضايا مماثلة قال : «إن احترام سعد للشريعة الإسلامية ، والاعتراف بحقها فى أن يطبقها قضاة المحاكم الأهلية فى بعض المواد أمران واضحان لديه على نحو ما بيناه» وقد ذخرت المكتبة الحقوقية بطائفة من الكتب القانون تجعل رأى الشريعة فى مجال الفقه المقارن صاحب الرجحان ، وأصحابها معرفون بالعمق والاتئاد .

وفى أخطر القضايا التى شهدها هذا العصر - قضية الإسلام وأصول الحكم - كان رأى سعد الزعيم الرئيس واضحا لا يحتمل اللبس ، إذ لم يشأ أن يسكت عن باطل أخذ يموه به من لا يعرفون شيئا عن أحكام الإسلام ممن يسرهم أن يكونوا مجددين ، ولكن فى طريق واحد فحسب ، هو طريق الهجوم على الإسلام وحده ، وكأنهم بذلك يتزلفون إلى جهات يسرها أن تلتقى مع التبشير فى نهج متفق ، وقد كتب سكرتير سعد خلاصة رأيه

فى هذه القضية ، ونشرتها الصحف صريحة غير مجمجمة ، وجاء الدكتور محمد عمارة فسجلها فى مقدمته الضافية لكتاب الإسلام وأصول الحكم ، ! ص : ١٠٩ .

قال سعد عن الكتاب : «لقد قرأته بإمعان لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب ، فعجبت أولا : كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى مثل هذا الموضوع ؟ لقد قرأت كثيرا من المستشرقين فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبدالرازق ، لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه ، بل بالبسيط من نظرياته ، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيا ، ولا هو بنظام يصلح للحكم ، فأى ناحية مدنية من نواحى الحياة ، لم ينص عليها الإسلام ؟ كالبيع أو الإجارة أو الهبة أو أى نوع آخر من المعاملات ؟ ألم يدرس شيئا من هذا فى الأزهر ، أو لم يقرأ أن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهودا طويلة كانت أنضر العصور ؟ وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد ، وهى آمنة مطمئنة فكيف لا يكون الإسلام مدنيا دين حكم ؟

وأعجب من كل هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة ؟ أين كان هذا الشيخ من الدراسة الأزهرية الدينية ؟ إننى لا أفهم معنى الدعوة المتحيزة التى تثيرها جريدة السياسة حول هذا الموضوع ، وما قرار هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ من زمرتهم إلاّ قرار صحيح لا عيب فيه ، لأن لهم حقا صريحا بمقتضى القانون أو بمقتضى العقل والمنطق أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم ، فهذا أمر لا علاقة له مطلقا بحرية الرأى التى تعنيها السياسة !.

قال السائل (الحزيرى) لعل ما يغيظ السياسة هو أن العلماء لم يندفعوا من تلقاء أنفسهم إلى هذه المحاكمة، وإنما كانوا مسوقين – على رأيها – بجهة يهمها تأييد مركز الخلافة فاستعانت بنفوذ العلماء .

سعد : أعرف ذلك ؟ ولكن مهما كان الباعث ، فإن العلماء فعلوا ما هو واجب حق ، وما لا يجوز أن توجه إليهم أدنى ملامة فيه ! والذى يؤلمنى حقا أن كثيرا من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى ، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد ، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار ، خطأ كانت أو صوابا ، دون تمحيص ولا درس، ويحددون تشجيعا على هذا التحيز فيما تكتبه جريدة السياسة وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبدالرازق ، ومن تسميتها له بالعالم المدقق ، والمصلح الإسلامى، والأستاذ الكبير ...... إلخ وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى ، وبين قواعد الإسلام الراسخة التى تصدى كتابه لهدمها !».

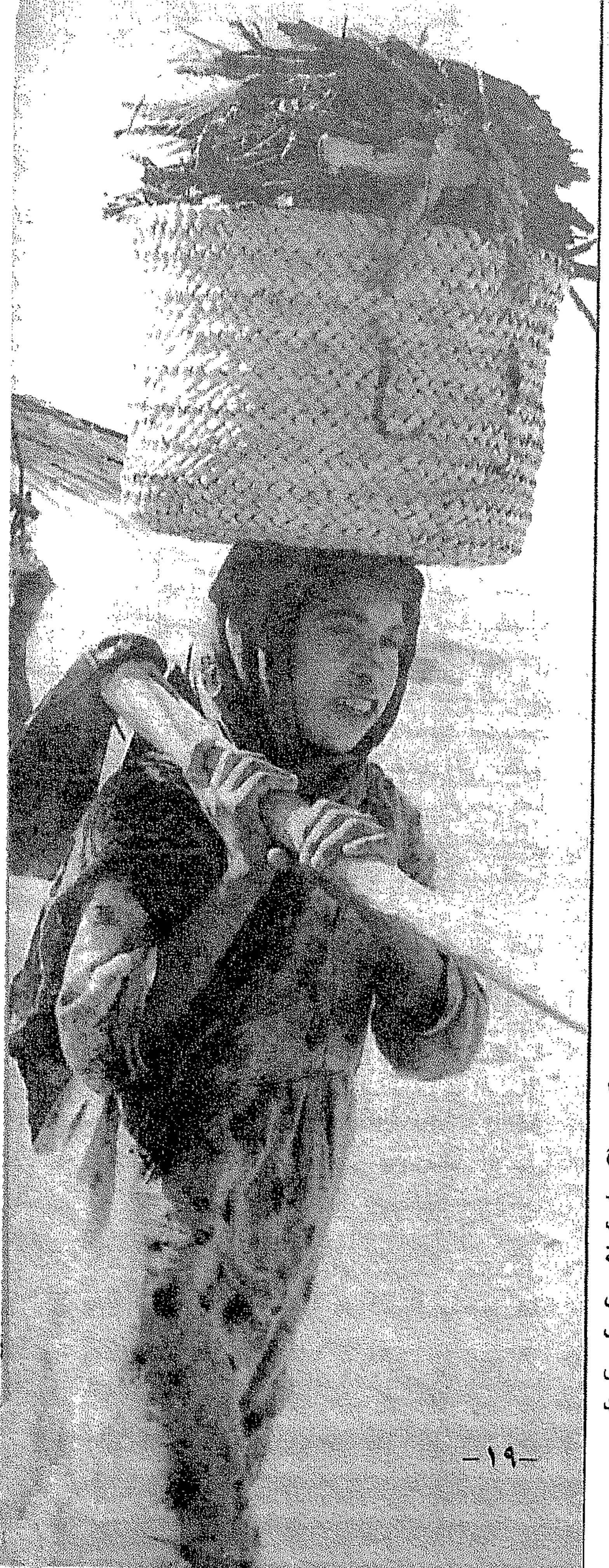
هذا هو رأى سعد الفقيه الأصولى الضليع ! فماذا تقول فى قوم لا يعرفون شيئا عن الإسلام ثم يتحدثون فى أصول الحكم فى الإسلام ؟ ويناصرون كل من جابه الإسلام بالعداء .

انطلاق المرأة و(تدجين) الرجل !!

هل يحمل ويلد الرجل بدلا من المرأة ؟!

بقلم : د . أحمد أبو زيد

مهما اختلفت الآراء حول المرأة ودورها فى المجتمع المعاصر وما ينتظر أن تكون عليه صورة العلاقات بينها وبين الرجل فى ضوء المتغيرات الحديثة فإن ثمة إجماعا على أنها قامت بدور مؤثر فى تشكيل الحضارة الانسانية وأن إحدى مراحل الحضارة ارتبطت بالمرأة ارتباطا عضويا ونعنى بذلك مرحلة نشأة الزراعة وقيام المجتمع الزراعى المستقر بعد مرحلتى الجمع والالتقاط من ناحية والصيد والقنص من الناحية الأخرى. فالمرأة لها دور كبير فى (استئناس) النباتات البرية بحيث يرى بعض علماء الأنثربولوجيا أن الزراعة (اختراع أنثوى) بعد أن لاحظت المرأة دورة الحياة فى النباتات البرية وكذلك نتيجة لرغبتها فى توفير القوت لأطفالها حين يعزّ الصيد والقنص .



ويعتبر اكتشاف الزراعة على أيدى المرأة من أهم الثورات الحضارية فى تاريخ الجنس البشرى نظرا لما ارتبط به من قيام المجتمعات القروية المستقرة ونشأة كثير من النظم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية بحيث نجد أحد كبار علماء الأنثربولوجيا الامريكيين وهو وليام هاولز يقول فى كتابه (ما وراء التاريخ) الذى قمنا بترجمته الى العربية منذ سنين : (إنه لو تعيّن علينا أن نختار أعظم وأجلّ تغير واحد طرأ على التاريخ البشرى كله حتى وقتنا الحالى لكان هو استئناس الطعام وتدجينه) . فالزراعة لا تعنى مجرد تفليح الأرض وإنما هى تعنى فى الوقت ذاته قيام أسلوب متكامل للحياة يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الحياة السائد فى الجماعات المتنقلة التى تعيش على قنص الحيوان او على الرعى .

منذ ذلك الحين تحددت مكانة المرأة ودورها فى المجتمع فارتبطت بالبيت وانحصر دورها فى رعاية الأسرة وتربية الأولاد واعُتبر البيت هو (مملكة المرأة) بينما اعتبر العالم الخارجى على اتساعه وتنوع وتباين مظاهر الحياة فيه هو عالم الرجل الذى لا تكاد المرأة تشاطره فيه إلا فى الحدود التى يحددها الرجل نفسه لها وبذلك احتلت المرأة مركزا ثانويا فى عالم يسيطر عليه الرجل اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا بل ودينيا . ولم تفلح المرأة فى تغيير هذا الوضع إلا بقدر يسير نسبيا بعد الثورة الصناعية التى أتاحت لها فرصة العمل خارج البيت ومشاركة الرجل كثيرا من أوجه النشاط دون أن تتساوى معه تماما وإن بدأت المرأة تتحرك أولا على استحياء فى المطالبة بتحقيق المساواة فى الأجور مع الرجال ثم ازدادت

هذه الحركات جرأة وضراوة للمطالبة بما أصبح يعرف بحقوق المرأة الى أن أقرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٢ الاتفاقية الخاصة بحقوق المرأة ثم اعلان عام ١٩٧٥ عاما دوليا للمرأة . وقد وجد ذلك الاعلان استجابة قوية لدى كثير من الدول بحيث نجد كوبا – على سبيل المثال – تقرر أن يكون يوم ٨ مارس (وهو اليوم الذى أضربت فيه عاملات مصانع النسيج والملابس فى نيويورك عام ١٨٥٧ للمطالبة بالمساواة فى الأجور) هو تاريخ سريان قانون الأسرة الجديد الذى أصبح الرجال بمقتضاه ملزمين بأن يشتركوا مع زوجاتهم فى القيام بأعباء المنزل ، وانتقلت هذه الدعوى الى غيرها من المجتمعات ، بحيث أصبحت تؤلف مطلبا عادلا للمرأة يقابل الآن بكثير من المقاومة والرفض من جانب الرجل كما أسفر عن كثير من ألوان السلوك العدائى ضد المرأة فى المجتمعات الغربية وبخاصة أمريكا.

والمؤشر الواضح الذى يشير إلى هذا الموقف الجديد الناشىء عن حركات تحرير المرأة الى جانب مظاهر العنف ضد المرأة هو ظهور حركة مضادة للحركة النسائية فى امريكا يُطلق عليها اسم حركة الرجال أو الحركة الرجالية Men's Movement كنوع من التعبيير عن رفض الرجل للتغيرات التى طرأت على المجتمع من جراء خروج المرأة إلى العمل وإهمال البيت والزوج والأولاد وازدياد مساحة استقلال المرأة اقتصاديا عن الرجل وتحررها السلوكى .

وقد ظهرت حول هذه الحركة كتابات كثيرة تحاول تعرف ملامحها وأهدافها . وبعض هذه الكتابات صدرت عن نساء من رائدات حركة التحرر النسائى ولذا جاءت فى معظمها مليئة – كما هو متوقع – بالسخرية من الرجال ، ولكنها سخرية تخفى وراءها كثيرا من القلق إزاء الهدف النهائى من تلك الحركة وهل هى حركة محافظة أو رجعية ترمى الى استعادة الأوضاع القديمة التى كان الرجل يحتل فيها مكانة أعلى من مكانة المرأة والتى كانت تتحكم فيها تقاليد وقيم (الذكورة) . ولكن هذه الشكوك لم تمنع من أن يوجد من بين هؤلاء الكاتبات من ترى بارقة أمل فى أن تنتهى الحركة الرجالية الى رسم الحدود والحقوق والواجبات والالتزامات والمسئوليات بين الجنسين بكل دقة وعلى أسس موضوعية تعتمد على التفكير العقلانى والتقدير السليم لمتغيرات العصر والأوضاع الجديدة التى يُحتمل قيامها فى عالم الغد، وهى أوضاع قد تكون فى صف المرأة أكثر مما هى فى صف الرجل حيث يُحتمل أيضا أن تكون سوق العمل أكثر احتياجا للقدرات النسائية منها لإسهامات الرجل .

وقد وصل الأمر فى ذلك بإحدى رائدات الحركة النسائية فى أمريكا وهى جلوريا شتاينم الى أن ترى أن المرأة ذاتها ترغب وتتمنى من صميم قلبها أن تنجح الحركة الرجالية وتقول فى ذلك : (إننا نكاد نموت شوقا من أجلها) لأن نجاحها سوف يؤدى فى آخر الأمر إذا سارت هذه الحركة فى الطريق المنطقى السليم الى تقدير الرجل للصعوبات والمتاعب التى تعانى منها المرأة من جراء

انفرادها بتحمل الأعباء المنزلية ورعاية الأطفال الى جانب عملها فى الخارج .

بل إن جلوريا شتاينم تأمل بل وتتوقع أن يساعد نجاح هذه الحركة على تخلّص الرجل من بعض القيود التقليدية التى تفرض عليه التحفظ فى التعبير والإفصاح عن عواطفه ومشاعره وانفعالاته نحو المرأة وأن يتحرر من ذلك الجمود العاطفى والتبلد الوجدانى الذى يسيطر على سلوكه ازاء الجنس الآخر وأن يحل الاهتمام والتعاطف محل ذلك الموقف السلبى بل والعدوانى الذى يتراوح بين اللا مبالاة والعنف والإيذاء البدنى والنفسى والذهنى الذى يمارسه الرجل نحو المرأة فى المجتمع الأمريكى . وواضح من ذلك أن المرأة ترى فى الحركة الرجالية ذاتها مجرد فرصة لترويض الرجل بما يتلاءم مع رغباتها واحتياجاتها ومع مبادىء الحركة النسائية .

والواقع أن المرأة لا تزال تعانى حتى فى المجتمع الامريكى الديمقراطى كثيرا من القهر رغم كل مظاهر التحرر والاستقلال والانطلاق الذى قد يصل الى حد التسيّب - على الأقل فى نظر بعض الثقافات المحافظة . وتذكر جلوريا شتاينم فى مقدمة كتاب طريف ظهر عام ١٩٩٢ عن (استجابة النساء للحركة الرجالية) أن امرأة من كل أربع نساء تتعرض أثناء حياتها مرة على الأقل للاغتصاب الجنسى وأن الذى يقوم بذلك الاعتداء فى الأغلب أشخاص عاديون من غير معتادى الاجرام. وقد أسفرت احدى الدراسات التى أجريت فى بعض الجامعات الامريكية حول حوادث العنف والاغتصاب عن أن ٥١٪ من الطلاب الذكور ذكروا صراحة أنهم لن يترددوا عن اغتصاب زميلاتهم فى الدراسة إذا ضمنوا عدم اكتشاف امرهم وأمنوا شر تعرضهم للعقاب (وليس الفضيحة) . كذلك دلت بعض الدراسات على أن العنف داخل الأسرة هو السبب الرئيسى فى حالات وحوادث الإيذاء الجسدى الذى تتعرض له النساء فى أمريكا، وأن أخطر مكان بالنسبة للمرأة هناك ليس هو الشارع ولكنه البيت ، كذلك تدل بعض الدراسات على أن أكبر سبب وحيد وراء حوادث قتل النساء ليس هو السرقة أو المخدرات أو هجوم رجال العصابات وإنما هو العراك العادى مع رجل عادى .

وقد تكشف هذه الدراسات عن مدى عمق واتساع الفجوة القائمة بين الرجل والمرأة وعن أن قوة الرجل الفيزيقية كثيرا ما تكون هى العامل الذى يحسم الأمور فى العلاقات ، المضطربة بين الجنسين ، كما قد تكشف عن أن ثمة نوعا من التناسب الطردى بين تمتع المرأة بحريتها واستقلالها وبين تدهور النظرة اليها والالتجاء الى العنف فى التعامل معها وأنه ينظر الى المرأة على أنها مجرد (أنثى) وليست (قيمة) فى ذاتها كما هو الشأن فى بعض الثقافات التقليدية . وهذا الاستنتاج هو نوع من الانطباع الذى نخرج به من قراءة البحوث والدراسات التى تجرى حول هذا الموضوع فى المجتمعات الغربية ومقارنتها بالأوضاع القديمة ، وكلها نتائج تدل فى آخر الأمر على تغير نمط القيم السائدة فى المجتمع الغربى فيما يتعلق بالنظرة الى المرأة فى مجتمع لا تزال تسيطر عليه - رغم كل شىء - الأيدلوجيا الذكورية أو أنييولوجيا السلطة الأبوية إن صحّ التعبير وسواء أفلحت الحركة الرجالية أم لم تفلح فى سد الفجوة فى العلاقات المضطربة بين الرجل

والمرأة فى المجتمع الغربى فإن ثمة من الدلائل ما يشير إلى أن احتياجات سوق العمل فى المجتمع الغربى سوف تكون عاملا حاسما ليس فقط فى تشكيل تلك العلاقة بل وأيضا فى تغيير طبيعة وتركيب الأسرة وبالتالى فى تغيير كثير من النظم الاجتماعية ذات الصلة بالتركيب العائلى القائم الآن والذى يستند إلى قيام علاقة دائمة (أو يفترض لها الديمومة) بين الزوجين وبخاصة فى حالة وجود أطفال . ومع أن احتياجات السوق لا تزال حتى الآن فى صالح الرجل مع وجود أعمال ترتبط بالضرورة وإلى حد كبير بقدرات المرأة الجثمانية والذهنية والوجدانية مثل أعمال السكرتارية والتمريض والتدريس للمراحل الأولى فإن ثمة ما يشير إلى إمكان حدوث تغييرات جذرية سوف تقلب الأوضاع الحالية رأسا على عقب وتؤدى الى تبادل الأدوار بين الرجل والمرأة بل وقد تؤدى الى حدوث بطالة هائلة بين الرجال دون النساء ، وهو وضع ليس من السهل أن يتقبله الرجل حيث تترك البطالة فى العادة فى نفس الرجل آثارا سلبية أعمق بكثير من تلك التى تتركها لدى المرأة وذلك بحكم القيم السائدة حتى الآن فى المجتمعات الإنسانية بشكل عام ، والتى تجعل العمل بالنسبة للرجل قيمة اجتماعية وليس مجرد نشاط اقتصادى أو وسيلة لكسب العيش .

فالعمل عنصر أساسى فى تكوين الهوية الاجتماعية وتحقيق الذات والمحافظة على الكيان بالنسبة للرجل وليس كذلك بالضرورة بالنسبة للمرأة – على الأقل بمثل هذه الدرجة من القوة والعمق فلا يزال التصور السائد فى كل المجتمعات الانسانية على اختلاف درجات التقدم أو التخلف هو ارتباط المرأة بالبيت



ورعاية الزوج والأطفال رغم كل الجهود التى بذلتها الحركات النسائية لتغيير ذلك التصور .

ومع ذلك فثمة ما يشير إلى أن التغيرات التكنولوجية المتسارعة سوف تقلب الميزان بالنسبة لسوق العمل واحتياجاته . فالعالم يتحرك الآن بسرعة نحو عصر تسوده وتسيطر عليه تكنولوجيا المعلومات والإلكترونيات الدقيقة وما إليها من مجالات تجذب المرأة بدرجة أكبر - فى بعض التقديرات - من الرجل، أو على الأقل يمكن للمرأة أن تنافس فيها الرجل بقوة وكفاءة بحيث يبدو أنه ليس من المستبعد أن يأتى الوقت الذى تصبح فيه المرأة هى قوة العمل الرئيسية فى العائلة وأنها هى التى تكسب عيش وقوت أطفالها بل وزوجها إلى حد كبير . وسوف يترتب على ذلك حدوث تغييرات كبيرة فى العلاقة بين الجنسين كما سوف يستتبع ردود فعل متباينة من جانب الرجل وازدياد حالة التوتر والعداء وأحداث العنف ضد المرأة نتيجة لشعور الرجل بالخزى والضعف والرغبة فى إثبات الذات والتعلق بتقاليد وقيم السيطرة والرجولة أو الذكورة ، وإن كان هذا لن يمنع من وجود رجال يستطيعون التكيف بسرعة مع الوضع الجديد . وقد تتسع مساحة قبول هذا الوضع بالتدريج بحيث تنعكس الأدوار تماما فتصبح المرأة هى التى تعمل فى الخارج بينما يصبح البيت هو مملكة الرجل ولو ضمن نطاق محدود .

ويبدو أن الاكتشافات العلمية الحديثة فى مجال البيولوچيا سوف تساعد على إتمام هذا الانقلاب أو تلك الثورة الاجتماعية الجديدة التى سوف تكون المرأة أهم العناصر الفعالة فيها . فثمة أبحاث وكشوف تشير إلى إمكان أن يتولى الرجل عملية (الحمل) ثم (الولادة) أى أن يؤدى الدور الذى ارتبط بالمرأة منذ نشأة الحياة ، وخلال عشرات القرون الماضية ، وبذلك يتم (استئناس) الرجل و (تدجينه) تماما بحيث يرتبط بالبيت وبالأعمال المنزلية وبتربية الأطفال . فالمرأة تمثل إذن تهديدا بالنسبة للرجل وللرجولة بالمعنى أو المفهوم السائد حتى الآن ، وهو تهديد يجب أن يأخذه الرجل مأخذ الجد وأن تنظر اليه الحركة الرجالية الحالية بعين الاعتبار .

***

ولكن أين نحن في مصر والعالم العربي من هذا كله ؟

قد يكون بيننا وبين التحول الى مجتمع تكنولوجى تتحكم فيه تكنولوجيا المعلومات والإلكترونيات المتقدمة المعقدة التى تؤدى عن الإنسان كثيرا من الأعمال التى يقوم بها فى الوقت الحالى أمدّ بعيد جدا نظرا للتخلف الواضح فى مجال العلوم الحديثة . ومع ذلك فثمة من البوادر ما يشير إلى أننا نسير بخطى حثيثة نحو هذه النهاية .

فمزاحمة المرأة الرجل فى العمل مع قلة فرص العمل المتاحة ، والنجاح الذى أحرزته المرأة فى معظم الأعمال التى أُسندت إليها بما فى ذلك الأعمال القيادية والرئيسية التى تتطلب اتخاذ قرارات حكيمة وصائبة تدعو إلى إعادة النظر فيما قد تصبح عليه العلاقة بين الرجل والمرأة فى ضوء الأوضاع الراهنة والتى قد تزداد تأزما إذا لم تكن هناك إمكانات أكبر تتيح

فرصا أكثر للعمل والكسب وتساعد على إقامة حياة عائلية مستقرة ومتوازنة .

ولقد وجدت حركة التحرر النسائي طريقها الى مصر والعالم العربي وإن يكن بدرجات متفاوتة وأدى ذلك الى ظهور بعض اتجاهات الرفض والتمرد عند المرأة - في مصر على سبيل المثال ، واتخذ هذا الرفض شكل الخروج على كثير من قواعد السلوك والقيم التقليدية المتوارثة ، كما هو الحال في ازدياد حالات العلاقات الجنسية أو شبه الجنسية المتحررة والانحرافات المتزايدة بين الجنسين والتي تتخفى أحيانا تحت ستار الدين مثل الزواج العرفي وزواج المتعة وزواج المسيار وما إليها . بل إن هذا التمرد قد يأخذ أشكالا أكثر عنفا ضد الرجل كما هو واضح في حالات قتل النساء للرجال أو رئاسة المرأة لعصابات السطو والتهريب والتجارة في المخدرات أو حتى أعمال البلطجة على ما حدث منذ وقت قريب جدا في مصر في حالة المحامية التي ترأست مجموعة من البلطجية اشتركت معهم في جريمة قتل لنزاع على ملكية قطعة أرض ، أو ارتكاب المرأة المتعلمة وبعض سيدات الأعمال جرائم الحصول على المال العام أو عمليات النصب على البنوك والمصارف ثم الهروب من البلد الى أن تسقط العقوبة بمضي المدة وهكذا . فهذه كلها حركات ناجمة عن التمرد على الأوضاع الاجتماعية القائمة - وذلك إذا نحن استبعدنا الدوافع الإجرامية الأخرى - كما أنها تهدف على الأقل في بعض الحالات إلى إثبات الذات والمغالاة والمبالغة في ذلك إن حد التطرف . ويقابل ذلك بغير شك حالات العنف من جانب الرجل بما في ذلك حالات الاغتصاب التي ازدادت بشكل يكاد يجعل من هذه التصرفات ظاهرة اجتماعية تعبر عن الرفض للعلاقات والأوضاع والقيم والسلوكيات التقليدية .

فالمجتمع المصري والمجتمع العربي بشكل عام يمر الآن بحالة من التغير السريع التي أفقدته كثيرا من توازنه القديم الراسخ وهو ما يتمثل في تراجع القيم التقليدية وظهور قيم جديدة (مستوردة) بفعل وقوة تأثير أساليب الاتصال والإعلام والانفتاح اللا محدود على ثقافات العالم الخارجي . ولكن هل يصل بنا الأمر إلى أن يتحول (انطلاق) المرأة - وهو أمر مرغوب - إلى (انفلات) وأن يتم استسلام الرجل تماما مما يعني استئناسه أو على الأصح تدجينه ؟ وهل يمكن أن تقوم حركة رجالية عقلانية ورشيدة تحاول أن تصل الى نوع من سيادة قيم المشاركة والتفاهم والتعاطف ، أو حتى الشراكة الكاملة بكل ما يتطلبه ذلك من تحول في النسق الاجتماعي ونسق القيم ولكن دون أن يؤدي ذلك التحول الى التشكيك في دور العائلة أو التساؤل عما إذا كانت العائلة شكلا اجتماعيا طبيعيا أم أنها تنظيم مصطنع من أجل سيطرة الرجل على المرأة وبالتالي ليس ثمة ما يدعو إلى بقائها أصلا . كما تتردد حول ذلك بعض الآراء في الخارج ؟!

أقوال معاصرة

● «إما أن نحتفل هذا الشهر «أبريل» بتأسيس حلف الأطلسى، وإما أن نمشى فى جنازته».

بوب دول
مرشح الحزب الجمهورى لرئاسة الولايات المتحدة فى الانتخابات السابقة

● «ما هو أسوأ من الغرب: العداء الأعمى له؟!»

الكاتب الفلسطينى محمود الزيماوى

● «القرن المقبل، كالراحل، سيكون أمريكيا!»

المؤلفة الفرنسية اليزابيث كريميو
صاحبة كتاب الزعامة الأمريكية

● «الأنظمة العربية لا تدرك أهمية السينما»

المخرج السورى سمير ذكرى

● «كلما قلت مجوهراتى، زادت مكانتى»

الممثلة البرازيلية
فرناندا مونتنيجرو

● «أفضل طريقة للفشل، هى أن أفكر فى الجوائز، وأنا أؤدى دورى»

توم هانكس
الفائز بالأوسكار مرتين

● «ميزة الإنسان الكبرى هى قدرته على تنويع ردود أفعاله، وتغييرها حسب المواقف المختلفة»

الدكتور فؤاد زكريا

● «التليفزيون المصرى لا يحرص على تقديم الجديد»

الكاتب الساخر يوسف عوف

● «الموسيقى الكلاسيكية الهادئة تنمى قدرات الطفل على الاستيعاب والانصات والربط بين الأشياء»

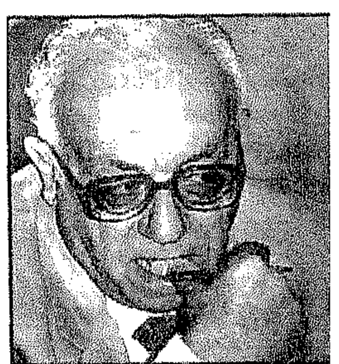
الدكتورة سوزان هالام
بمعهد التعليم بلندن

● «أومن بحتمية الديمقراطية»

مولود حمروش
رئيس وزراء الجزائر الأسبق



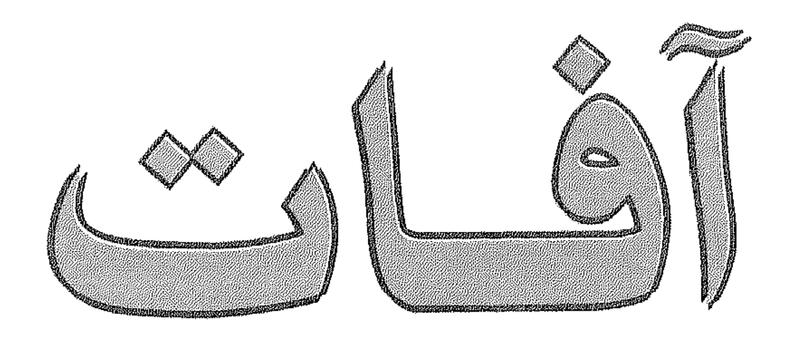
بوب دول



د. فؤاد زكريا



مولود حمروش



عند الجذور

بقلم :د . مصطفى سويف

على امتداد أكثر قليلا من أربع سنوات متصلة، منذ أكتوبر سنة ١٩٩٤ وحتى فبراير سنة ١٩٩٩، نشرتُ على صفحات مجلة «الهلال» ذات النهج الوقور، ثلاثين مقالا أعالج فيها ما اعتبرته أعمدة أساسية تقيم بنيان مجتمعنا المصرى، وهى تحتاج إلى كثير من أعمال الإصلاح والترميم والصيانة حتى يمكن لمسيرة الحياة أن تستمر، وللأجيال القادمة أن تصمد فى وجه أنواء تزداد مع الأيام عتوا، وحتى يمكن للواعين من أبناء تلك الأجيال أن يشاركوا فى صنع شروط البقاء وإبداع ما يضمن تنامى طواعيتها يوما بعد يوم وجيلا بعد جيل.

وقد توزعت موضوعات هذه المقالات بين ثلاثة أبواب رئيسية : يختص أولها بما يمكن اعتباره محور المحاور الذى بدونه لا تقوم للحياة الاجتماعية قائمة، فهو يضم بداخله موضوعات العمل والهوية الوطنية والإنجاز الحضارى. وكان خيط الاهتمام الواصل بين هذه الموضوعات الثلاثة هو رد الاعتبار لهذه الأمور جميعاً لتنهض من كبوة أصابتها فى حياتنا على امتداد العقود القليلة الماضية. وقد اعتبرت الحديث فى هذا الباب بموضوعاته الثلاثة موجهاً إلى كل من يعنيه أمر هذا البلد من أبنائه أياً كان نصيبه من الفكر والسلطة.

أما الباب الثانى فقد اتجهت بالحديث فيه إلي المثقفين بوجه خاص، لا لأن الثقافة تكسبهم امتيازاً بعينه يعلى من شأنهم على حساب مواطنيهم، ولكن (على العكس من ذلك) لأن حظهم الذى أصابوه من الثقافة يلقى عليهم بمسئوليات لا سبيل إلى التنصل منها، وهى مسئوليات تتناسب وما نتوسمه لديهم من علم، أومن شحذ لقدرات بعينها كالقدرة على تحليل معطيات الحاضر واستشراف توجهات المستقبل، أو القدرة على تكوين رؤية متكاملة، أو مهارة طرح الأسئلة ذات الطبيعة الناقدة .. الخ. لهذه الأسباب مجتمعة اتجهت بالحديث إلي المثقفين بهذا الباب الثانى من مقالاتى، وتحدثت فيها عن واجبات كبرى ثلاثة نتوقع منهم أن يولوها عنايتهم : هى العمل بكل ما أوتوا من جهد ووقت على إطلاق طاقة الإبداع فى الأمة؛ والسعى إلى تنشيط كل ما من شأنه أن يحقق التواصل بين الأمة كممثلة لحضارة بعينها وممثلى الأطر الحضارية الأخرى من شعوب الأرض ممن نتوسم لديهم الإصرار على الارتقاء بالفكر والفعل والوجدان؛ والدأب على حث مجتمعنا على اللحاق بركب العلم فكراً وإنجازاً آملين أن يصبح السعى فى هذا السبيل بعد ذلك نهجاً لا نرضى بغيره بديلا (وأقصد بذلك النهج العلمى فعلا لا قولا فحسب).

وأخيراً فقد اتجهت بالباب الثالث إلى ما اعتبرته أعمالاً تتناول البنية الأساسية لصرح مجتمعنا فى المستقبل كما نريده، وأوضحت أن المجالات الكبرى لهذه الأعمال هى : القضاء على الأمية، والعناية الصادقة والبصيرة بشئون التعليم، وإصلاح أحوال البيئة ولاسيما فيما يتعلق بأبعادها الاجتماعية.

ركائز الوهن الاجتماعى

بإمكان القارئ الكريم أن يتخيل العوامل التى أسميتها بالأعمدة الرئيسية لإقامة صرح المجتمع أعمدة مقامة (فى إطار رسم هندسى) كخطوط رأسية على مستوى أفقى فى منظور المكان. وباستطاعته كذلك أن يتصور مجموعة العوامل التى سوف نتحدث عنها فى السطور القليلة التالية على أنها خطوط أفقية (فى إطار الرسم نفسه) تمتد عبر

آفات عند الجذور

تلك الأعمدة. هذه العوامل الأخيرة هى مانسميه بركائز الوهن القومى. بعبارة موجزة إذا ما تخيلنا مجتمعنا المصرى باعتباره عالمنا الحياتى فسنجد أن هذا العالم تتقاسمه خطوط طولية تتقاطع معها خطوط عرضية، تصور الأولى أعمدة قيام البنيان المجتمعى وقد أحصيناها تسعة، وتشير الثانية إلى ما نعتبره آفات أو عوامل مرضية تنخر فى كيان المجتمع، وقد أحصيناها عشرة.

وفى مقالى الراهن سوف أكتفى بتقديم أربعة من هذه العوامل المرضية واحدا بعد الآخر بما يسمح بتحديد هويتها، فيتوفر لنا بذلك أساس لكى نتعرفها حيثما ظهرت، وعن أى وجه أسفرت.

وقبل أن أنتقل إلى هذا التقديم أرى أن أمهد للحديث بنقطتين من شأنهما توفير مزيد من وضوح الفهم ودقته : أما الأولى فمؤداها أن مقدرات الإصابة بأضرار هذه العناصر ليست وقفا على أى عمود من أعمدة البنيان التى سبق أن تحدثنا عنها، فلا هى وقف على شئون التعليم، ولا على أمور صيانة البيئة، ولا على دروب النشاط العلمى فى المجتمع ..الخ، لكنها مستقلة عن هذه الأعمدة (أو قنوات البناء الاجتماعى) بمعنى أنها يمكن أن تصيب بآثارها الضارة أيا من هذه القنوات أو بعضها أو تصيبها جميعا، وبمعنى أن الإصابة يمكن أن تقع بأقدار لا حصر لها وبأشكال شديدة التباين من الخلل أو الإرباك أو الشلل. هذا عن النقطة الأولى. وأما الثانية فتشير إلى أن هذه الآفات تنشط فى شكل حزم أو عائلات (لا فرادى)، يسود بين مفردات كل حزمة منها قدر من الترابط يفوق قوة العلاقة بين أية مفردة وأية مفردة أخرى فى عائلة أو حزمة أخرى. وقد يكون من المفيد للقارئ ولى معاً أن أمضى فى تقديم تلك الآفات من خلال تجمعاتها لأنها تجمعات تكشف عن جذر مشترك يزيد من معرفتنا بهوية هذه الآفات وبشروط نشاطها أو تنشيطها. وتنتمى الآفات الأربع التى أكرس المقال الحالى للحديث عنها إلى حزمة نسميها «سيادة الإعلامية فى الحياة».

الإعلامية فى حياتنا الاجتماعية

الإعلام شئ والإعلامية شئ آخر، ومع أننا جميعا نعرف معرفة حدسية ما هو الإعلام، فلا بأس مع ذلك من الوقوف على تعريف وصفى يبرز للذهن معالمه وخصائصه الرئيسية : فالإعلام نشاط تمارسه وسائل مجتمعية بعينها (كالصحافة بجميع مستويات تطورها والإذاعة المسموعة، والإذاعة المرئية، والدعاة...الخ). وتعكس هذه الوسائل (من

حيث الشكل والمضمون معاً) مدى متسعا يمثل الأيديولوچية السائدة في المجتمع بجميع عناصرها الفكرية والقيمية، ويتفاوت اتساع هذا المدى من مجتمع إلى آخر حول ما يمكن اعتباره العناصر المركزية فى هذه الأيديولوچية، وتكون وسائل الإعلام فى نشاط دائم لترسيخ هذه الأيديولوچية بماينشره من أنباء عن أحداث بذاتها، وبما يدخله على هذه الأحداث من تصنيف وتفسير (أوتبرير) .. هذا تعريف نقدمه دون أن ندخل فى مناقشته تفصيليا ولكننا نرتضيه مؤقتا لكى نقضى حاجة يتطلبها الحديث الراهن. والإعلام يعتبر بهذه الصورة جانبا من جوانب الحياة الاجتماعية بوجه عام والحياة الاجتماعية الحديثة بوجه خاص. ولا يوجد مجتمع فى عالمنا الحديث بدون جهاز للإعلام له وظائفه المهمة بالنسبة للداخل (أى داخل المجتمع) والخارج على حد سواء. هذا عن الإعلام.

أما الإعلامية فشئ آخر، فعلى حين يقوم الإعلام كنشاط مجتمعى نجد أن الإعلامية نشاط (وتوجه) فردى. وبينما نتبين أن الإعلام نشاط مشروع تبدو الإعلامية نشاطا مستهجنا، وينظر إليها على أنها امتداد سرطانى لنوع خبيث من الأثرة أو الأنانية، لأن الأنانية نفسها خصلة مرذولة إذ تنطوى على توجه عدوانى من الذات نحو الآخر. ومعنى ذلك فى نهاية الأمر أن الإعلامية مرفوضة لثلاثة اعتبارات، فهى أولا تقوم على الأنانية بما تعنيه من عدوان على الغير، وثانيا تقوم بنقل سلوك عدوانى من مستواه الفردى أصلا إلى مستوى العدوان على المجتمع، وثالثا، نجد أنها فى هذا السبيل تستغل (بدون وجه حق) جهازاً مجتمعياً لقضاء مصلحة فردية. هذه هى الإعلامية. ومن الجلى والأمر كذلك أنها شئ والإعلام شئ آخر.

سيادة الإعلامية فى حياة المجتمع

هناك أربع آفات من بين العشر التى أشرت إليها يقترن نشاطها زيادة ونقصاناً بتسيد الإعلامية فى حياة المجتمع، وهذه هى :

١ - تغليب الكم على الكيف.

٢ - الشكل على المضمون.

٣ - تفضيل النشاط سريع العائد (قصير المدى) على النشاط بطئ العائد (طويل المدى).

٤ - العمل اللحظى على العمل الممتد.

وفيما يلى نقدم شرحاً موجزاً لهذه الآفات ثم نحاول أن نوضح المنطق الكامن وراء اقترانها بالإعلامية فى الحياة.

فأما عن آفة «تغليب الكم على الكيف» فهذه عملية تتجه إلى صرف أفكار

آفات عند الجذور

المواطنين عن مستوى كفاءة الخدمة التى يطلبونها وإغرائهم بأن يقبلوا عوضا عن ذلك حجما كبيراً لهذه الخدمة عند مستوى من الكفاءة أقل (قليلا أوكثيرا) مما كانوا يطلبون. أما عن صنوف الأذى المترتبة على هذه الآفة فهى متعددة، يتعلق أخطرها بتحديد الجانب الخاص بتهبيط مستوى كفاءة الخدمة، المقدار، وأى عناصر الخدمة يجوز النزول به وأيها لا يجوز. وعلى سبيل المثال فى هذا الصدد إذا سلمنا جدلا بشعار «التعليم كالماء والهواء» لتبرير تغليب الكم على الكيف فى هذا المجال فهل يمكن تحت أى تبرير قبول ما وصل إليه مقدار التدنى (التدريجى) لمستوى كفاءة العملية التعليمية منذ التطبيق النشيط لذلك الشعار حتى الآن؟

وننتقل بالحديث إلى الآفة الثانية : «تغليب الشكل على المضمون»، وهذه عملية تنطوى على اختفاء الوظيفة التى تقوم بها هذه المؤسسة أو تلك من بين المؤسسات الاجتماعية ومع ذلك فالمؤسسة باقية. وأفضل مثال نضربه فى هذا الصدد هو ما يحدث تحت أنظارنا وأسماعنا لبعض القوانين؛ فالقوانين فى مجموعها واحدة من المؤسسات الاجتماعية مهمتها إدخال أنماط بعينها من الضبط الاجتماعى على عدد من سلوكيات الأفراد ومن نشاطات مؤسسات اجتماعية نحو بعضها البعض ونحو الأفراد .. الخ . ومع ذلك نلاحظ صدور سلوكيات ناشزة عن القوالب أو القواعد القانونية المعروفة، فنسميها سلوكيات لاقانونية. ومع زيادة انتشار هذه السلوكيات والنشاطات وزيادة درجة نشوزها نتكلم عن انحدار المجتمع نحو مزيد من التمسك بشكليات القانون دون مضمونه، لأن أحدا لايجرؤ على أن يدعو بأمانة وصراحة إلى تنفيذ الخطوة التالية منطقيا وهى الإلغاء الرسمى الصريح للقانون (رغم تفاقم حجم الخروج عليه). وما يحدث فى حالة المؤسسة القانونية يحدث بالنسبة لمؤسسات أخرى كثيرة فى الحياة الاجتماعية. ومع استشراء هذه الظاهرة نتكلم عن آفة تغليب الشكل على المضمون.

ثم نأتى إلى الآفة الثالثة، وهى أولوية النشاط سريع العائد على النشاط بطئ (أوبعيد) العائد، والمثال الذى يوضح حقيقة هذه الآفة نستمده من مجال الجهود التى يفترض أنها تبذل فى السبيل إلى معالجة مشكلة تعاطى المخدرات. فمن المعلوم لخبراء هذا المجال أنه بحاجة إلى كثير من المشروعات طويلة المدى (بعيدة العائد)، فى مقدمتها إنشاء نظام لإعادة تأهيل المدمنين. وجدير بالذكر أن إنشاء هذا النظام مسألة متعددة الجوانب والخطوات، وتحتاج إلى تعاون عدد من الجهود التى

تقوم على تخصصات متشعبة، كما أنها لن تؤتى ثمارها إلا بعد وقت طويل نسبيا، ومع ذلك فهى ضرورية بمعنى أنه لا يمكن التحدث بدون ذكرها عن معالجة حقيقية لمشكلة التعاطى على الصعيد الاجتماعى. ومع ذلك فماذا نرى وماذا نسمع؟ ندوات ومؤتمرات تعقد ثم تنفض حول موضوع التعاطى. فهل تغنى هذه الندوات والمؤتمرات وما يصحبها من مظاهر وأحاديث (يجرى بثها فى وسائل الإعلام) هل هذه تغنى عن عملية إنشاء نظام لإعادة تأهيل المدمنين؟ كلا طبعا. فلماذا تستمر إذن؟ هذا هو السؤال الجوهرى. والإجابة هى : لأن هذه الجهود تعطى عائدا سريعا، فهى تظهر أصحابها بمظهر المهمومين بهموم المجتمع، ولكن بالكيفية التى تعنيها الأمثال الشعبية من قبيل : «الصيت ولا الغنى»، و«الخرطوش اللى ما يصيبش يدوش»، و«لا قينى ولا تغدينى»..الخ.

وأخيراً نتحدث عن الآفة الرابعة، وهذه أمرها معقد بعض الشئ. وقد تبدو هى والآفة السابقة كأنهما شئ واحد، وهذا غير صحيح؛ والمثال الذى يوضحها نستمده كذلك من عالم مشكلة المخدرات. ففى النصف الثانى من الثمانينيات هاجت الدنيا وماجت، ما بين وسائل الإعلام ومجلس الشعب، حول خطر ماحق وقع على البلد وذلك بظهور مخدر الهيروين على وجه التحديد بين مضبوطات الإدارة العامة لمكافحة المخدرات. واستمر هذا الهيجان حتى شهر يوليه سنة ١٩٨٩. وعندئذ صدر القانون رقم ١٢٢ لسنة ١٩٨٩ بإدخال تعديلات قوية على قانون المخدرات رقم ١٨٢ لسنة ١٩٦٠. وسرعان ما انحسرت أمواج الهيجان بل وتوقفت مظاهر الاهتمام العام توقفا يكاد يكون تاما، سواء فى وسائل الإعلام، أو فى أروقة مجلس الشعب. وشيئا فشيئا أصبح هناك قدر من الضيق بالإبقاء على قدر ولو محدودا من تعبيرات الاهتمام العام، وكأنه حدث اقتناع عام بين يوم وليلة بأن عملية صدور القانون كانت هى نفسها الحل، وأن الحل تم فعلا وانتهت مشكلة المخدرات من البلد (بما يشبه السحر) وهكذا تم العمل فى سبيل معالجة مشكلة المخدرات فى صورة عمل لحظى، بدأ وانتهى (أوكاد) فى لحظة صدور القانون.

الآفات والإعلامية

تلك هى الآفات الأربع موصوفة وصفا موجزا بما يكفى للوفاء بما هو مطلوب من المقال الراهن. وتبقى بعد ذلك ست آفات اجتماعية أخرى ليكتمل العدد عشرة، وذلك ما نرجو أن نعرضه فى مقال تال.

ولكن يبقى أمامنا أن نجيب عن السؤال التالى:

آفات عند الجذور

كيف ترتبط هذه الآفات الأربع التى فرغنا للتو من الحديث عنها، كيف ترتبط بما نسميه تسيد الإعلامية فى حياتنا الاجتماعية الحاضرة؟ وإلى القارئ تسلسل الإجابة، الأصل فى هذه العمليات الأربع أنها تندرج ضمن عمليات الفساد التى قد تتسلل على سبيل التحلل أو التآكل فى ثنايا الوظائف الاجتماعية السوية، ومن ثم تتجه المجتمعات (بقدر ما فيها من طاقة بناءة) تتجه مبكرا إلى إنشاء الآليات الكفيلة بالصيانة ضد نشوء تلك العمليات واستشرائها، وتنهض هذه الآليات بمهام بعينها من قبيل المتابعة أو المراقبة المستمرة للأداء الاجتماعى فى هذا المجال أو ذاك، والتقويم الدورى لمستوى هذا الأداء، وإدخال التعديل المناسب فى التوقيت المناسب كنتيجة للتقويم .. الخ. هذا هو الأصل فى أمر هذه الآفات وكيفية نشوئها، وفى أساليب الوقاية منها أو التحصين ضدها. ولكن تحت وطأة عاديات التاريخ والسياسة قد يختل الأداء لأسباب بعينها، وللأسباب نفسها أو مايتعلق بها تنهار آليات المتابعة والتقويم والصيانة، فلا تلبث عمليات التحلل والتآكل أن تدب فى البناء الاجتماعى وتنخر فى أعمدته أو مسالكه الوظيفية. إلى هنا والمسألة برمتها تندرج ضمن ظواهر الحياة الاجتماعية التى تلم بالناس على غفلة منهم. ولكن إذا صاحب ذلك سيادة الإعلامية فى الحياة كتوجه ضاغط وجاذب بحيث أصبحت تشكل مناخا يكاد يغلف الجميع فهناك احتمال أن تنشط قوى اجتماعية مختلفة (ممثلة فى طلائعها من جماعات من المنتفعين، وفى طلائع هذه الجماعات من نجوم المنتفعين) لتوظيف هذه الآفات نفسها، ويبدأ هذا التوظيف بتدشينها كمنظومات قيمية لتوجيه العمل الاجتماعى، ثم لا يلبث هذا التوظيف أن يتجاوز مرحلة التدشين إلى مرحلة الدعم والتبرير باختلاق قوالب للتنظير، ويعلو شأن نجوم المنتفعين فى هذا المناخ، ويرتبط علو شأنهم بمزيد من تفريد الإعلامية، فتتخلق وتتعدد أساليب الإعلامية بتعدد النجوم ونمو مهاراتهم، ولا تلبث أن تتخلق شبكة من خيوط القوى الإعلامية تمسك بتلابيب العقول المحيطة فى المجتمع فتربك حركتها وتشل فاعليتها.

ومع ذلك يبقى أمام هذه العقول باب النجاة مفتوحاً إذا أصر أصحابها على إثارة السؤال الأولى البسيط حول المستوى المتحقق فعلا من أداء الخدمات المطلوبة، فإثارة هذا السؤال تظل هى بادرة المسيرة نحو المراجعة والتصويب.

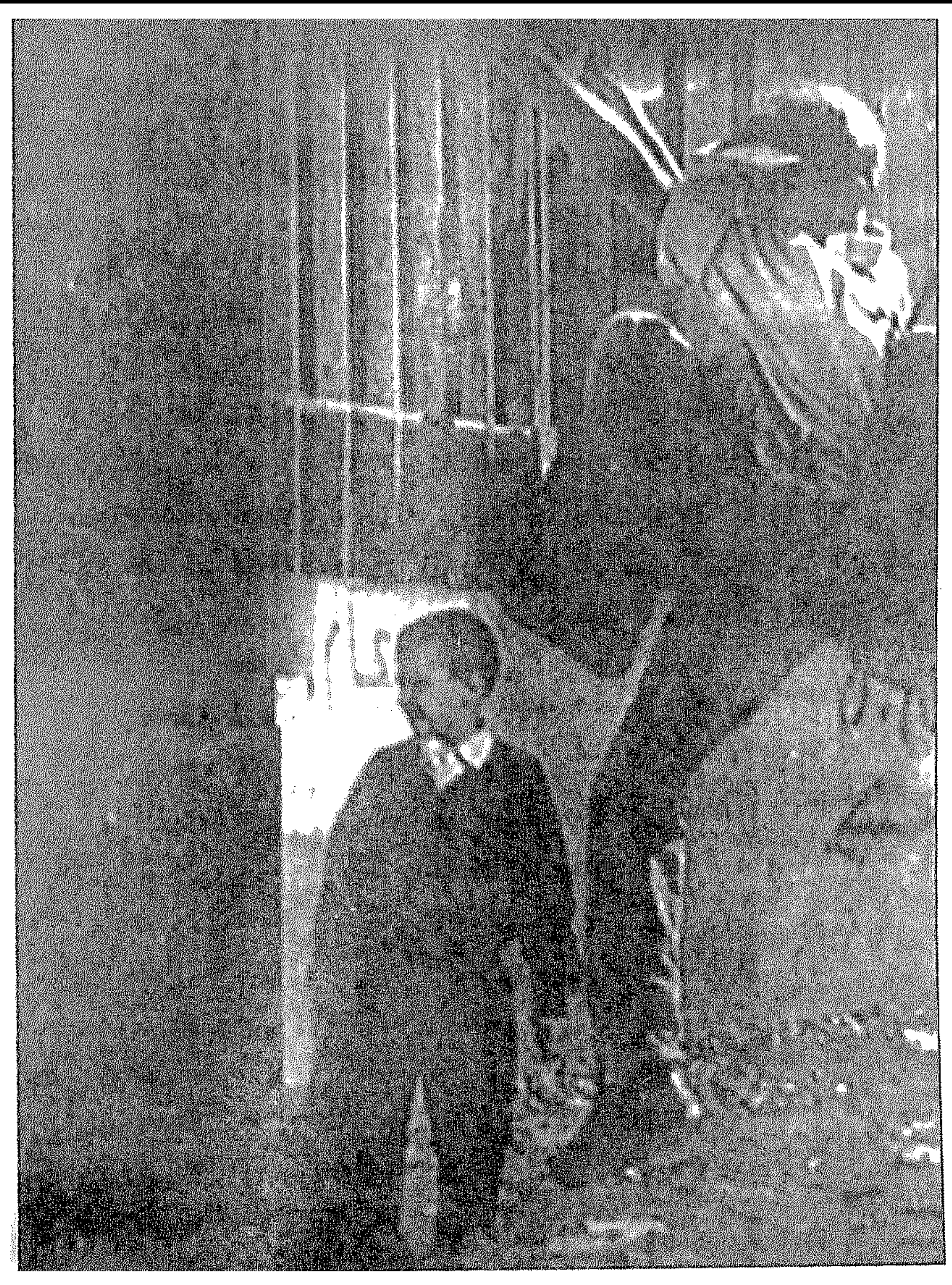
«مدارس بلا تعليم وتعليم بلا مدارس»

بقلم : د. حامد عمار



د. شكرى عياد

أهدانى صديقى الجليل أ . د شكرى محمد عياد كتابه الذى صدر أخيرا بعنوان «مدارس بلا تعليم، وتعليم بلا مدارس» ، وأحسب أن القارىء سوف يتوقف قليلا عن الدافع الذى حدا به إلى معاودة الكتابة فى مجال التربية والتعليم ، إنه المشهور بالجهد المتميز والفكر المبدع فى ساحات النقد الأدبى، والتى استحق على ما أنتج فيها من أطايب الثمرات ، تقدير مختلف المؤسسات الثقافية فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية ، بأرفع جوائزها ، وأغتنم فرصة كتابه الجديد، لأزف إليه تهنئة أخوية وموضوعية مستحقة على ما يحفل به ذلك الكتاب من تجليات الفكر العميق والخبرة الواعية فى عديد من قضايا التعليم والثقافة ، فضلا عن محاولته للقفز فوق أشواكها.



وليس ثمة غرابة أو مغامرة فى أن يخوض المؤلف غمار تلك القضايا من دراسات المجال التربوى المتخصصة: ومرد ذلك إلى أنه قد التحق بعد تخرجه فى كلية الآداب بالمعهد العالى للمعلمين، وحصل على دبلوم فى التربية وعلم النفس عام ١٩٤٢ ، وقد تزاملنا معا فى هذا المسار فى نفس العام . ومن الواضح أن بذور تلك الدراسة وخبراته التعليمية اللاحقة قد ظلت كامنة لتزدهر فى هذا الكتاب ، ولعله فى السنوات القليلة الماضية قد عاودته الإصابة بحرفة التربويين ، لكن معالجته التربوية تتسم بتمثل الخبرة ، ولا تلجأ إلى ما يلجأ إليه أمثالنا من المحترفين القابعين فى داخل مفاهيمهم ومصطلحاتهم ومجرداتهم ، هذا فضلا عما هو معروف عن المؤلف من أسلوب رائق سلسل طازج.

والكتاب ، وهو يلامس الواقع التربوى ملامسة لصيقة ، ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، هى : حديث إلى الآباء والأمهات، ومدارس بلا أسوار ، وبمن ندخل السباق؟ وموضوعات هذه الأقسام غنية حاشدة بالفكر والخبرة والتاريخ والتأمل والرؤية الناقدة والرأى ، وفى مساحة واسعة من هموم التعليم . وتمتد فى تطرقها إلى المشكلات والمسئوليات والسياسات والمؤسسات والآباء والأمهات والمعلمين والطلاب ، وفى داخل المدرسة وفى خارجها من مؤسسات ثقافية وإعلامية ، ولعله من العسير على المرء فى حدود هذا المقال أن يفى المؤلف وكتابه حقهما من التقدير والتعريف ، وبخاصة حين ألفيت بعد قراءتى أن ما يجمع بيننا من رؤى وتوجهات فى قضايا التعليم أكثر بكثير مما نتباين فيه . ونظرا لأهمية موضوع اللغة العربية وتعليمها وإثرائها ، واستمتاعا بما أورده حولها أحد أعلامها من منظور مبدع، فقد آثرت تخصيص هذا المقال لذلك الموضوع ، مقتطفا كثيرا مما حرره ، مضيفا إليه من عندياتى بين الحين والآخر .

حال اللغة العربية

يصف المؤلف حال اللغة العربية بأنه «ليس على ما يرام» سواء فى التعليم المدرسى أو على المستوى المجتمعى ، ويشخص هذه الظاهرة العامة بأنها «تحلل لغوى .. وأنه لابد أن يؤدى إلى تحلل قومى» إذا ما استفحل الأمر ، وتشمل هذه الحال قصور دور المدرسة فى مناهجها وطرائق تدريسها ، وإلى عدم اتقان الأجيال الناشئة من الشباب لمقومات ألسنتهم وأقلامهم ، بل يتعدى ذلك إلى معظم الكبار ممن لا يحسنون استعمال لغتهم ، ويضع هذا التحلل اللغوى فى سياق ما يجرى فى المجتمع من متغيرات العولمة ، والتى نجم عنها التكييف الهيكلى للاقتصاد المصرى بما يمكنه من الاندماج فى سوق الاقتصاد العالمى. ويعتبر تملك مهارات اللغات الأجنبية أداة مهمة للتعامل مع مجريات تلك السوق ، وما يهيمن عليها من المؤسسات الأجنبية والمتعدية الجنسية والبنوك الدولية وعمليات الاستثمار والتجارة استيرادا وتصديرا ، واستتبع ذلك ضرورة مزاحمة اللغات الأجنبية للغة العربية فى التعامل مع الخارج وفى

الداخل لخدمة الخارج أيضا ، ومع توجه التعليم إلى قبلة الخارج أخذت تلك اللغات تحتل منزلة متميزة لدخول سوق العمل فى قطاعاته الأجنبية ذات الدخل المرتفع ، وغدت معرفتها شرطا لمن يتطلع إلى مناصب مرموقة وأجور مجزية من أجيال اليوم والغد .

ومن ثم انتشرت مدارس اللغات فى التعليم العام ، كما بدأت الجامعات الخاصة تشق طريقها بمقررات تدرس باللغات الأجنبية ، ومع تعليم كثير من المقررات بجامعاتنا فى كليات الطب والهندسة والعلوم والصيدلة ، بلغة أجنبية، زحف الطلب الضاغط لهذه اللغات على مقررات فى كليات أخرى لم تكن تصطنعها من قبل من بينها كليات التجارة والحقوق والتربية ، ومع مغريات السوق وعالم «البيزنس» تنفتح أبواب العمل لخريجى الجامعة الأمريكية ، كما يتم الاتفاق على إنشاء جامعة فرنسية وأخرى ألمانية مع نهاية هذا القرن ، وهكذا يتسع الطلب على من يتقنون لغات أجنبية ، ليتنامى معه العرض من مؤسسات اللغات فى مختلف مراحل التعليم من رياض الأطفال إلى الجامعات ، وتنضاف مطالب السوق حاليا تبريرا لهذه الموجة مع ما ساد من الزعم بأن اللغة العربية لا توفر للطلاب القدرة على متابعة الحركة العلمية فى العالم المتقدم - تنضاف لترسخ التعليم باللغات الأجنبية كضرورة مجتمعية، ولا يتسع المجال هنا لمناقشة الفرق بين تعليم اللغة الأجنبية كمادة من مواد الدراسة من ناحية وبين جعلها لغة التعليم لمناهج الدراسة من الناحية الأخرى.

ونحن مع الطرف الأول وإتقانه للغة أجنبية إلى أقصى درجة ، مع إدراكنا لما يحدثه الطرف الثانى من صعوبات تعليمية فى فهم مضامين المعرفة العلمية لدى الطلاب حين يجهدون فى الفهم المزدوج لكل من العلم ولغته الأجنبية .

ومع العولمة ورموزها الحياتية والمجتمعية أصبح استعمال الكلمات الأجنبية فى الحديث وفى المصطلحات الأجنبية - رغم تعريبها - فى البحوث والدراسات والمحاضرات ، رمزا من رموز الاقتدار والمعرفة والتحضر والمكانة ، وسادت محلات السوبر ماركت ، والبوتيكات وإضافة حرفى «كو» إلى المحلات التجارية ودكاكين الحرفيين ، هنا شركة نادركو وهناك محل حنفيكو ومصنع فريدكو ، بل رأيت أخيرا فى إحدى وثائق هيئة رسمية لفظ «الجندر» بعد لفظ الجنس/ النوع ، توضيحا للمعنى الغربى.

وهكذا يفسرون لنا الكلمة العربية بكلمة أجنبية ، ومع لوثة التغريب الطاغية يؤثر نفر من قومنا استخدام اللغة الأجنبية أو ألفاظها ، ليس بسبب قصور فى مهاراتهم اللغوية ، وإنما لعدم الرغبة الملحة فى استخدامها ، مما يشى لا شعوريا بعدم احترامها بل وعدم احترام ذاته ، وياللهول حين نستمع إلى بعض المتخصصين فى اللغة العربية يقحمون دون مبرر كلمات أجنبية حين يتحدثون عن آدابها أو طرق تدريسها !! .

والواقع أن نفاذ السلع الأجنبية إلى

الأسواق يصاحبه نفاذ القيم الأجنبية ، ومنها منافسة اللغات الأجنبية وثقافتها للغة القومية وثقافتها . ويضيف المؤلف إلى عوامل الزعزعة في قيمة لغتنا العربية مخاطبة الإذاعة والتليفزيون والمسرح للجماهير باللهجات العامة في معظم برامجها ، وهي قنوات ذات جاذبية وتشويق وإصغاء لدى كل من الصغار والكبار . وإلى جانب ذلك كله تفرض الأمية وحركة الهجرة من الريف إلى المدن ثقافاتها الفرعية ، ولغتها المحكية وألفاظها ومصطلحاتها وفجاجاتها أحيانا .

لغة الأم هى اللغة الأم !

ومن اللمحات المضيئة في مفهوم اللغة العربية لدى المؤلف عدم استحسانه في تعليمها على أنها «اللغة العربية الفصحى»، ويستند في ذلك إلى مقولته بأن «الفصحى – حسب قوانين الفصحى – اسم تفضيل مؤنث ، ومذكره أفصح ، والتفضيل يعني المقارنة ، والمقارنة لا تعني الاختلاف بل التفاوت في الدرجة ، فاللغة العربية الفصحى لغة أفصح من لغة الاستعمال العادي ، وليست لغة أخرى » . ومع ما للغة من قيم فكرية ووجدانية واجتماعية ، فإن المؤلف يفضل تسمية لغتنا التي نعلمها باسم «العربية الأساسية أو العربية المشتركة أو اللغة القومية أو اللغة الأم» في مقابل لغات أقوام أخرى نطلق عليها مسمى اللغات الأجنبية . وفي مواضع أخرى من الكتاب يطلق عليها أيضا «لغة الثقافة» ، إنطلاقا من أن اللغة هي صانعة الثقافة بمعانيها ورموزها وتداعياتها ، وهي قناتها وأداتها التي (توحد أفراد المجتمع وطبقاته لتجعلهم أمة) فمن خلالها يتم التواصل والتفاعل والتبادل فيما بينهم جميعا من أجل العيش المشترك .

ويؤكد المؤلف كذلك أن مفهوم اللغة يعني كيانا حيا ناميا في حالة تطور متصل مع تطور حياة الأمم وعناصر ثقافتها المادية والفكرية ومع تجاربها التاريخية . ويجسد هذه الظاهرة حين يضرب المثل بأن «اللغة التي اكتبها الآن تختلف إلى درجة كبيرة عن اللغة التي كتبها الجاحظ أو ابن المقفع – تختلف – مع أنها هي نفس اللغة ، كما تختلف ملامح الشاب عن الصبي ، أو الكهل عن الشاب ، وكما تختلف لغتهما أيضا ، والشخص واحد» في مسيرة حياته .

التعليم والتعلم للغة الأم

وفي ضوء تلك الأهمية البالغة لدور اللغة في اكتساب الثقافة القومية وانتاجها، وفي ضرورة معالجة ما اعتراها من تحلل وتشوه ، يرى المؤلف أن إيقاف هذا التردي وتنمية المهارات اللغوية ، يتطلب المعالجة على ثلاث جبهات من حياة المتعلم وهي جبهة المرحلة السابقة لدخول المدرسة وفي رحاب الأسرة ، فمرحلة التعليم المدرسي ، ثم جبهة المجتمع كله بمؤسساته الثقافية والإعلامية والعلمية .

وفي نطاق الأسرة يلحظ المؤلف اهتمام الأسرة ومساعدتها للطفل في تعلم اللغة المحكية من خلال مواقف التعبير عن احتياجاته وتفاعله مع أفراد الأسرة منذ السنة الثانية أو الثالثة ، وتقوم الأسرة بتصحيح أخطائه عند نطق الحروف

وعندما يبدأ فى تركيب الجمل . بيد أن ذلك الاهتمام والتصحيح يقل أو يتوقف عندما يتقن الطفل لغة الأم المحكية ، ولا تظهر محاولات للترقي بتلك اللغة إلى مستوى اللغة المكتوبة ، أى لغة الثقافة . وبعبارة أخرى يضعف النمو اللغوى للطفل، وتبدأ الفجوة بين لغة الحياة الجارية ولغة الثقافة ، وتؤكد الأبحاث العلمية التجريبية الارتباط بين اقتران النمو العقلى والفكرى للطفل من ناحية وبين اطراد استثارته للنمو اللغوى من الناحية الأخرى، ولهذا يتضح الدور الفعال للأسرة فى استدامة التنمية لمدركاته اللغوية والعقلية فى مرحلة الطفولة المبكرة.

وفى جبهة الأسرة ، كما فى الجبهتين الأخريين ، تنمو المهارات اللغوية من خلال ما يسميه المؤلف بالنشاط اللغوى العملى الذى يتألف من جانبين ، أحدهما استقبال فى السماع والقراءة ، والآخر ، إرسال يتمثل فى التعبير والكتابة ، وفى هذه المرحلة الباكرة من حياة الطفل يتغذى السماع عن طريق القصص التى تحكى للطفل بطريقة منتظمة ، سواء أكانت من القصص التقليدية الشعبية المألوفة أم عن طريق قراءة الوالدين له من كتب قصص الأطفال المصورة ، ومن المفيد أن يتخلل عملية القصص حديث بين الطفل ومن يحكي أو يقرأ له ، وأن يتم هذا اللون من النشاط بما يشعر الطفل باهتمام المرسل دون إيحاء منه بشعور الملل أو الضجر ، وفى كثير من البلاد الأجنبية توجد لمرحلة الطفولة المبكرة كتب مصنوعة من القماش تقدم للطفل ، ويشجع على مجرد تقليبها، وعلى التوهم بأنه يقرأ منها ، ويحرص الكبار على الاستماع إليه والحوار معه حول ما يقوله عنها . وبذلك تغرس بذور الصداقة الحميمة بين الطفل والكتاب ، ومع التعبير عما يقرأ أو يحكى يتحقق الجانب الآخر من نمو المهارات اللغوية فى الكتابة عن طريق تقديم أوراق وأقلام ملونة ليمارس الطفل «الشخبطة» فيها بداية ثم يحاول الرسم حين يتقدم به العمر منذ الثالثة أو الرابعة من عمره .

وخلاصة رأى المؤلف تتركز فى أن التعليم والتعلم للغة فى مرحلة الطفولة المبكرة فى جبهة الأسرة والحضانة ورياض الأطفال إنما يتم من خلال النشاط اللغوى العملى الذى تمثل روح اللعب وسياقها محوره الرئيسى فى عمليات الاستماع والقراءة والتعبير والكتابة بالصورة التى أشرنا إليها ، يلعب الطفل باللعب ، وبالكتاب، وبالكتابة وبالمشاهدة لأفلام الكرتون وألعاب الكمبيوتر ، ويحدثنا ونتحدث معه فى خلال ذلك كله، ساعين إلى تنمية خبراته ومفرداته وجمله وأساليب تعبيره ، واستثارة خياله وتوسيع آفاقه للتعرف والاستكشاف لما يرى ويسمع مع تنامى البيئة التى يتحرك فيها . ومع هذا النشاط اللغوى العملى، بتنوع مواقفه وأدواته وتفاعلاته ، يتنامى رصيد الطفل اللغوى، ويحس بنمو قدراته العقلية والاجتماعية على التواصل والتعبير ، ومن ثم يصبح وقد تهيأ لتعليم مهارات القراءة والكتابة والتعبير حيث يتم تمهيد الأرضية التى

يمكن أن يغرس فيها تعلم تلك المهارات فى رموزها وأشكالها ودلالاتها المكتوبة فى المدرسة الابتدائية.

ذلك هو الأسلوب والمنهج التربوى السليم الذى ينبغى أن تعتمده مؤسسات دور الحضانة ورياض الأطفال - كما تعتمده الأسرة - فى تهيئة الطفل للتعلم فى المراحل التعليمية التالية ، بيد أننا نلحظ أن كثيرا من أولياء الأمور يتعجلون تعليم أبنائهم وبناتهم القراءة والكتابة فى تلك المؤسسات ويطالبونها بذلك ، وتتجلى هذه الرغبة لديهم حين يرسلون أطفالهم إلى رياض الأطفال الخاصة فى إطار مدارس اللغات ، إذ يتوقعون ويفرحون حين يجدون أطفالهم ينطقون ويقرأون ويكتبون كلمات باللغة الأجنبية كبداية لاتقانهم لغة أجنبية توفر لهم فى المستقبل فرص العمل المرموق فى سوق العولمة ، ومن التجارب العلمية ما يشير إلى أن تعلم لغة أجنبية فى هذه المرحلة يثقل أعباء النمو فى تفكير الطفل ويشعره بعدم الاهتمام باللغة الأم، وهو لم يكتمل لديه الرصيد الأساسى من مكوناتها ، ومن المفارقات ما نلحظه من استمرار كثير من مدارس اللغات فى الاستجابة لمطالب الآباء فى مخالفة لتعليمات وزارة التربية والتعليم .

ويتلو هذه الجبهة من شروط النشاط اللغوى التعلم فى مرحلة المدرسة الابتدائية فاتحة التعليم والتعلم لمهارات اللغة الفصحى، سماعا وقراءة وتعبيرا وكتابة ، وما يرتبط بذلك كله من فهم واستمتاع برموز اللغة ودلالاتها ، ويؤكد المؤلف أن مهمة المدرسة هى الانتقال التدريجى بالطفل من اللغة المحكية التى تعلمها فى البيت إلى اللغة الفصحى «لغة الثقافة إذ يفضل هنا تسميتها كما أشرنا» ، ويتم هذا التدرج «بإحلال كلمة محل كلمة، أو صيغة محل صيغة ، أو تركيب محل تركيب، أى بإجراء أقل ما يمكن من التعديلات فى الجملة المحكية. ويكون هذا ملحوظا فى الكتب التى تؤلف للطفل». ولما كان اكتساب اللغة الفصحى يتحقق بواسطة القراءة أكثر من السماع أصبح من الضرورى التأكيد على هذه الأولوية فى القراءة ، وعلى التحول من القراءة الجهرية إلى القراءة الفردية الصامتة ، فى الفصل وفى المكتبة وفى البيت ، ولا يتولد عشق القراءة إلا بمزيد من القراءة لإشباع تلك الهواية. وتأسيسا على تلك القاعدة لا يعجب المرء من هبوط مستوى الاتقان والاستمتاع بمهارات اللغة العربية الأم قراءة وكتابة ، حين يعلم الاقتصار على كتاب مطالعة وحيد فى مرحلة التعليم الابتدائى والاعدادى ، يتألف من تعرف على مهارات القراءة والكتابة فى السنتين الأولى والثانية فى الابتدائى ، ويضم فى السنوات التالية مجموعة متناثرة من الموضوعات والقصص والأناشيد والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويقوم التلاميذ بقراءتها كما يقوم المدرس بشرح كلماتها وتراكيب جملها ، وهكذا تتحدد مستويات النمو اللغوى من حصاد هذا الكتاب الأوحد، ولا يتيح المقرر للتلميذ مصادر أخرى مناسبة تشبع نهمه للقراءة

بعد أن سيطر على آلياتها . والواقع أن عشق القراءة ، وتكوين مواطن قارئ فيما بعد لا يتحقق إلا من خلال توفير كتب وقصص متنوعة يستمتع بها التلميذ فى قراءة حرة لا تثقلها معانى المفردات وتراكيب الجمل ومسائل الإعراب ، ولعله من الضرورى أن توفر مثل هذه الكتب الملائمة لسن التلميذ وخبرته خلال مرحلة التعلم الأساسى ، سواء فى مكتبة الفصل أو مكتبة المدرسة ليختار الطالب من بينها، كما يطلب منه الاطلاع على بعضها كجزء من المقرر عليه من دروس المطالعة .

وفى هذه المرحلة من مراحل التعليم تغرس بذور هواية القراءة التى يكون لها مردود مباشر وغير مباشر فى سلامة التعبير كلاما وكتابة ، ومن منا لا يعجب حين يرى الأجانب يمسكون بكتاب فى القطار أو الطائرة أو فى أى فترة للانتظار فى عيادة طبيب ، وهل لنا أن نجعل من إهداء كتاب لتلميذ نوعا من الهدية سواء لتميزه فى التحصيل الدراسى ، أو هدية له فى المواسم والأعياد ، بدلا من إعطائه نقودا ليشترى بها «البومب» لفرقعته فى أيام الأعياد وأوقات الفراغ .

نعود إلى مؤلفنا لينقلنا إلى دور النشاط اللغوى العملى فى تعليم اللغة الأم، والذى تثقله المناهج المدرسية بالنحو والصرف والإعراب والإنشاء المصطنع فى كثير من الأحيان . ومع تقديره لدور النحو فى ضبط المعانى والدلالات ، إلا أنه يرى «مهما يسرناه أو أكثرنا من التدريبات عليه ، فالنشاط اللغوى العملى أهم منه» وهو ما أشرنا إلى نماذجه وأدواته فيما سبق، وإذا لم يشر الكتاب إلى ذلك الجدل الذى ما يزال يدور حول : أيهما أفضل فى البدء بتعلم القراءة ، الطريقة الكلية أم الطريقة الجزئية ، أو هل نبدأ بالكلمات والجمل، أم بالحروف والمقاطع الصوتية ؟ والحاصل أن الأبحاث لم تقطع برأى فصل فى هذا الشأن ، ولعل المزج بينهما والارتباطات والتحليلات المستفيدة من فاعلية خصائص كل منهما هو أنجع أسلوب لفاعلية القراءة ، وهو جهد فنى إبداعى وليس علميا ، يقوم به المدرس وهو يتعامل مع تلاميذه ومع قدراتهم الاستيعابية لمهارات القراءة وهذه هى بلاغة المعلم حين تتوافق طريقة تعليمه مع مقتضى الحال كما يقال. ويعود المؤلف ليؤكد فى أكثر من موضع على النشاط اللغوى العملى تعبيرا فى تصوير موقف للمحادثة بين الطلاب أو عن طريق التمثيل والخطابة والمناظرة ، وفى مجال الكتابة عن طريق عمل مشترك لإصدار صحيفة حائط أسبوعيا ، أو فى التراسل من خلال كتابة خطابات فيما بينهم . كما يرى أن مثل هذه الأنشطة اللغوية ينبغى ألا تقتصر على ما يعرف بفترات «النشاط المدرسى» وإنما تجب ممارستها فى حصص تعليم اللغة العربية ذاتها .

وفى خاتمة هذا المقال تجدر الإشارة العاجلة إلى ما أفاض فيه المؤلف من الدروس المستفادة من تاريخ بناء الحضارات والثقافات لدى الدول الصناعية على محاور الحرية والعلم والتطوير ، مما

وتعليم بلا مدارس

كان له أثره الهائل فى الجبهة المجتمعية ، والتى تنكبت جبهتنا بمؤسساتها الاجتماعية والثقافية طريق هذا التوجه ، ومن ثم لم يدع هذه المحاور دون أن تتجسد فى مضامين كتب القراءة التى تقرر على المتعلمين ، باعتبارها زادا وروحا لإثراء لغة الثقافة وتطوير آفاقها وفى هذا الصدد يذكرنا بضرورة أن تشمل كتب المطالعة موضوعات علمية ، لكى تظل العربية لغة ثقافية حية ، إذ أن حاجة ثقافتنا إلى العلوم الطبيعية والبيولوجية ليست بأقل من حاجتها إلى العلوم الإنسانية ، «وكلا القسمين يدخل فى صياغة النظرة العالمية التى تشكل روح الثقافة »، ويقرر أن انقطاع التزاوج بين هذين القسمين للثقافة قد وسمها بالتخلف، بل إنه «أفقر الأدب ذاته ، فظل يدور فى حلقة مفرغة ، وغلبت عليه سذاجة التفكير وضحالة العواطف » .

ولقد كان زواج الأدب بالعلم فى بداية عصر النهضة الثقافية منذ الثلاثينيات زواجا مباركا ، أغنى شعر الزهاوى فى العراق، والعقاد فى مصر من خلال عكوفهما على القراءات العلمية وتأثيرها فى نتاجهم الأدبى . كذلك كان لمعاصريهما من العلماء اسهامات أدبية ، فضلا عما أغنوا به الثقافة من ترجمات علمية ، ومن هذا الجيل شبلى شميل وأحمد زكى وفؤاد صروف وإسماعيل مظهر وسلامة موسى . وإذ يتأمل المؤلف فقر ثقافتنا المعاصرة ، فى هذا الصدد يعزو ذلك إلى أن «علماءنا ما عادوا يشاركون فى بناء الثقافة العامة، كما أن أدباءنا ما عادوا يطمحون إلى متابعة التقدم العلمى أو حتى تحصيل أوليات العلوم الحديثة» ومع أن هذا التشخيص صحيح فى جملته إلا أننا نتفاءل بصحوة ثقافية وبخاصة فى مجال اهتمام فريق من العلماء وبعض المؤسسات الثقافية لإشاعة الثقافة فى جانبها العلمى، تبسيطا وترجمة وندوات ومؤتمرات .

كذلك لا ينسى المؤلف ما جرى فى اللغة العربية من تطور جدير بأن يجد نصيبه فى الكتب المدرسية التقليدية وفى مراجعة لمفهوم النصوص والأساليب والإنشاء . ومع سنة التطور فى الأمم بتطور أوضاعها زمانا ومكانا، تتطور لغتها تبعا لذلك كما سبقت الاشارة .

وهكذا وضع د. شكرى عياد حال اللغة فى سياقاتها التعليمية والمجتمعية ، ووضع فاعلية تعلمها فى دائرة النشاط اللغوى العملى بمختلف مجالاته وإمكاناته، وبذلك لم يختزل ما أصاب اللغة من تحلل وتدنٍ فيما يردده بعض المتخصصين من نقص درجاتها فى الامتحانات أو فى عدم الاهتمام بالنحو والصرف أو بالأساليب والنصوص .

لكن معالجته للقضية أوضحت تلك اللحمة المترابطة بين اللغة والتعليم والعلم والحرية والتطور والثقافة ، وما تقتضيه من سعى متابر متكامل على مختلف الجبهات للترشيد والتصحيح والتطوير. وذلكم هو السبيل الأمثل لكى تصبح اللغة العربية الأم، لغة حية فى مجتمع حى ، وفى ثقافة متجددة .

الشخصية العربية

بقلم : د. شكرى محمد عياد

إذا سألك شخص ما، ولنفرض أنه صديق، أو حتى صديق حميم:
- قل لى من فضلك، هل عندى شخصية؟
فأغلب الظن أنك ستنظر إليه بشىء من الدهشة. أما إن كان صديقا حميما، فأغلب الظن أن موقفك لن يختلف عن موقف الزوج الذى تسأله زوجته بعد عشرين سنة زواج «هل تحبنى؟» سيكون جوابك على أرجح الاحتمالات :
- أنت جرى لعقلك حاجة.
أما إذا لم تكن العلاقة بينكما متينة بحيث تسمح بمثل هذا الجواب، فأغلب الظن أنك ستحكم على الفور بأن هذا الإنسان مهزوز الشخصية.

أما إذا رأيت هذا العنوان «الشخصية العربية» على غلاف كتاب، فلا شك أنك، على الأقل، ستمد يدك لتقلبه، وإذا رأيت اسم المؤلف «السيد ياسين» الذى تقرأ له فى الأهرام، ولعلك تعلم أيضا أنه عمل سنين طويلة فى «المجلس القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية»، ورأس قسم الدراسات الاجتماعية فى «مركز الدراسات الاستراتيجية» بجريدة الأهرام سنين طويلة أخرى - ففى هذه الحالة قد تسرع باقتناء الكتاب، إذا سمحت ميزانيتك .

وفى هذه الحالة لا يمكننى أن أعلق أو أستنكر.

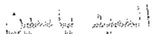
فأنا أيضا شوّقنى عنوان الكتاب واسم مؤلفه، وانتهزت أول فرصة كى أفرغ له، وقرأته من الغلاف إلى الغلاف، بدون توقف. ولكننى عندما وصلت إلى الفصل الأخير، كنت قد

سقطت في حالة من الاكتئاب سوف تعرف أسبابها حين أعرض عليك تجربتي مع الكتاب بشيء من التفصيل.

● طبيعة الشخصية العربية

من الفصل الأول كنت أسأل نفسي: ماذا جرى لي؟ ماذا جرى لنا جميعا؟ كيف يمكننا أن نجعل ما كتب تحت تأثير هزيمة ٦٧ مؤشرا على طبيعة «الشخصية العربية» ؟ من حقنا أن نشعر بالمرارة والسخط، من حقنا أن نلعن أنفسنا، من حق الشباب الذى يشعر أنه خُدع، أن يطالب بمحاكمة المسئولين عن الهزيمة، من حق شاعرنا أن يكتب «هوامش على دفتر النكسة» ويسبنا بكل كلمات السباب التى يمكن نشرها، حتى يشفى أنفسنا منا - كل هذا طبيعى، وصحى، ولكن هل يجوز لنا أن نعد ردود الأفعال الوقتية هذه (وكلها يمكن أن تجمع تحت تسمية واحدة : الرفض الانفعالى للهزيمة) كلاما علميا ؟ نعم، يمكن - بل يجب - أن تجرى أبحاث علمية فى أسباب الهزيمة، وهى - بالتصنيف العلمى الدقيق - أسباب سياسية عسكرية، أما أن ترد الهزيمة إلى سبب واحد،





أساسى، وهو «الشخصية العربية»، فمعنى ذلك أن العرب قد قرروا أن يتجمعوا، ويذهبوا بقضهم وقضيضهم إلى مكان واحد حيث ينتظرون الموت، كما جاءت الأخبار عن بعض الجماعات الأصولية فى الغرب، وقيل فى اليابان أيضا، الذين يتجمعون ليقوموا بطقس الانتحار الجماعى قبل أن تقوم الساعة. وهى حكاية شائعة عن الأفيال، ولا أصل لها فى العلم، ولكن فتحى غانم استوحاها فى روايته «الأفيال». ولو ذهبنا نبحث عن تأثير الهزيمة فى الشعر والقصص - أى فى الأدب الابداعى بصفة عامة - لوجدنا الكثير الكثير، منه ما عبر عن تأثير إيجابى، أعد منه شعر الغضب، والتحدى، حتى ولو كان هذا خطابيا، وذاك تحقيرا للذات، ومنه ما عبر عن تأثير سلبى، أعد منه الاندفاع، بلا تروٍّ،

فى تقليد النزعات السلبية والانحلالية (هكذا وصفت نفسها - وإن كنا نسمى ذلك كله حداثة) فى أدب الغرب .

● دراسة اجتماعية نقدية

كان أمام الاستاذ السيد ياسين (وهو الذى عرفناه أول ما عرفناه بكتابه «التفسير الاجتماعى للأدب») مادة غزيرة لدراسة اجتماعية نقدية عن «أدب النكسة» هذا . وقد استعمل هذا العنوان فعلا فى عناوين الفصل الأول من كتابه «أدب النكسة». ولكنه لم يقصد بكلمة «الأدب» مدلولها الشائع فى الثقافة العربية، وهو الفن اللغوى، بل قصد معنى آخر، أخذ يشيع مع الأسف، فى ثقافتنا أيضا، وكان من المحتم علينا أن نقلد الغربيين فى كل شىء، حتى حين يستعملون اللفظ الواحد لمعنيين مختلفين. وهذا المعنى هو «الكتابات» بوجه عام، سواء ما كان منها أدبيا أو علميا، وسواء ما كان من هذا «العلمى» ما يلتزم منهجا علميا أو ما يكتفى بمجرد حشد المعلومات الصحيح منها وغير الصحيح. وأسأل نفسى لماذا لا نسمى هذا الانتاج الذى يخرج من المطابع «كتابات» كما ينبغى أن يسمى، وهى الكلمة التى تترجم أصل كلمة «أدب» في لغاتهم .

وهكذا لم أجد فى كتاب «الشخصية العربية»، كلاما عن «الأدب» . وجدت كلاما عن «الشخصية العربية» كما تصفها أعمال، يُشك فى كونها علمية، لكتاب عرب وغير عرب، مع كون البداية بغير العرب، بدءا من التصورات الغربية من القرن السابع (الميلادى) حتى الوقت الحاضر، باعتبار أن هذه الخلفية التاريخية تمثل امتدادا غير منقطع، وان تغيرت الصورة تبعا لتغير ميزان القوى بين الطرفين، هذا الى جانب أن الكتاب الاسرائيليين قد استغلوا الصورة النمطية التى ترسبت فى وجدان الغربيين عامة عن الانسان العربى ليبرروا أعمالهم العدوانية. وهكذا يبدو لنا الكتاب فى مجمله نوعا من رد الفعل إزاء الدعاية الإسرائيلية. وقد نتساءل عن قيمة «رد الفعل» هذا وهو موجه للقارىء العربى فقط، فى حين أن الدعاية الإسرائيلية موجهة كلها نحو الغرب .. وجدير بالالتفات أن المؤلف العربى ينوه ببعض الدراسات الإسرائيلية القليلة التى تناولت الشخصية العربية بالبحث العلمى

الموضوعى. ولكنه يردف ذلك بقوله :

«الفئة الثانية، دراسات علمية دعائية، وهذه الفئة هى التى تعنينا فى المقام الأول فى دراستنا هذه. (تأكيد الكلمات لكاتب هذا المقال) ذلك أن خطورتها تكمن فى أنها ليست مجرد كتابات دعائية يكتبها كتاب غير متخصصين، ولكن من يكتبونها هم علماء اجتماعيون اسرائيليون يتقنون استخدام لغة العلوم الاجتماعية، ويتوجهون بكتاباتهم إلى جمهور الباحثين الاجتماعيين فى البلاد الغربية، وإلى الرأى العام الغربى المثقف بوجه عام. والهدف الرئيسى لهذه الكتابات هو تشويه الشخصية القومية العربية» (ص ١٥٠ من الطبعة الرابعة).

● التأثر بالصورة المشوهة

إن الجمهور المعنى فى الحالتين، وهو الجمهور الغربى، لن يصل إليه رد الفعل العربى إلا بصورة ضعيفة جدا، إما عن طريق قارئ عربى قادر على توصيله، وإما عن طريق قارىء غربى يعرف العربية، وكلاهما - على الأرجح - قادر على رؤية الزيف فى التحليلات الإسرائيلية، وإيضاحه للآخرين، ولكننا لا نستبعد أن يكون هناك ما هو أخطر : أن يكون القارىء العربى نفسه قد بدأ يتأثر بهذه الصورة المشوهة، أن يكون قد بدأ يفقد ثقته بحاضر أمته ومستقبلها، أن يكون رغم رد الفعل (الانفعالى) القوى برفض الهزيمة، قد اضطرب (عقليا) أمام الواقع الذى هدم كل تصوراته ، ومن ثم أصبح هو نفسه مستعدا لقبول كل ما يلقى عليه من لوم. ومعنى ذلك أن المناخ النفسى العربى أصبح مهيأً لقبول أى تفسير يجيئه من الخارج - سواء شعر أن هذا «الخارج» هو العدو نفسه أم طرف ثالث «محايد» فى الظاهر. هذه هى حالة «الانكسار» التى تجعل النهوض ومواصلة الصراع أمرا بعيد المنال. والخط الفاصل هنا بين نقد الذات - وهو أمر مطلوب، بل ضرورى للنمو والتقدم - عقب كل تجربة مهما يكن حظها من النجاح أو الفشل، وبين الانكسار والوقوع فى أسر الشعور بالنقص أمام العدو - وهو ما يعمل العدو جاهدا لتحقيقه إذ إن الانتصار لا يتم بدونه - أقول: إن الخط الفاصل بين نقد الذات وانطباع الصورة الذليلة التى يتمناها العدو يمكن أن يكون خطا مبهما جدا. والدليل على ذلك ما يلاحظه المؤلف من اتفاق ظاهر بين بعض السمات التى ينسبها الباحثون الإسرائيليون للشخصية القومية العربية وتلك التى ينسبها الباحثون العرب الى هذه الشخصية (مثل

الاهتمام بالمصلحة الفردية أو العائلية أكثر من المصلحة العامة والهروب من مواجهة الواقع بشتى الحيل - ص ٢٥٢)، ويحذرنا من هذا الاتفاق الظاهرى، لأن الكتاب الاسرائيليين يتعمدون التشويه، أما الكتاب العرب فيقصدون إلى «النقد الذاتى». وعندنا أن العبرة ليست بالتسمية، بل بسياق الفعل. فالتشويه جزء من عملية الهدف منها تثبيت الهزيمة، بتحويلها إلى انكسار، والنقد الذاتى جزء من عملية التعلم . وهنا يحق لنا أن نتساءل عن مفهوم «الشخصية القومية»، مع أى العمليتين هو أكثر اتفاقا ؟.

وإنما نطرح هذا السؤال الذى يمكن أن يبدو بعيدا عن موضوعية العلم (بما أننا لا ننظر إلى صدق المفهوم فى ذاته، بل إلى صلاحيته لأغراضنا) لأن مفهوم «الشخصية القومية» محل شك كبير من الناحية الأكاديمية المحضة، كما أوضح المؤلف نفسه .

فإذا تجاوزنا عن الصورة الفلكلورية التى توجد لدى شعب ما عن شعب آخر، ارتبط - بعلاقة ما (مثل صورة القائد التركى فى الكوميديا الشعبية المصرية) فالاستخدام العلمى الوحيد لمفهوم «الشخصية القومية» كان مرتبطا بأهداف عسكرية، ومحدودا بهذه الأهداف ، كما أنه لا يمكن التحقق من صدقه أو ثباته بطريقة علمية، لأن العمليات العسكرية، بداهة، تعتمد على عوامل كثيرة أهم منه، كما أن القدرة على استخدامه بطريقة ناجعة، هذه القدرة تتوقف الى حد كبير على ذكاء من يستخدمه، وطريقة تصرفه. والنموذج «الكلاسيكى» لهذه الأبحاث هو البحث الذى قامت به العالمة الانثروبولوجية الأمريكية روث بندكت عن الشخصية القومية اليابانية لحساب المخابرات الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية.

بالطبع هناك دراسات لا حصر لها عن «الشخصية» عموما، بل إننا لنستطيع القول إن علم النفس كله هو دراسة لجانب أو آخر من «الشخصية» ولكن هناك أيضا دراسات عن «الشخصية» ككل، تعتمد طرائق البحث العلمى التجريبى وأهمها الاختبار والقياس والتحليل (الذى يتم فى مثل هذه الدراسات بطريقة رياضية ويسمى التحليل العاملى)،

ولكن هذه الدراسات لا تكفى، كما لا تكفى نظريات التحليل النفسى عند فرويد أو يونج أو غيرهما، لإقامة دراسة علمية منهجية «للشخصية القومية». وأظهر الصعوبات هى تحديد المجموعة البشرية التى يصح أن يجرى عليها بحث كهذا .

● البحث عن شخصيتنا القومية

إذن: لا العلم، ولا الفطرة السليمة يسمحان لنا بأن نبحث عن «شخصيتنا القومية» ! لندع هذا البحث لغيرنا، إن كانوا أعداء أو أصدقاء. ولنظهر براعتنا دائما فى أن نفاجئهم بخطأ تصوراتهم. إن مجتمعاتنا العربية فى حالة تغير مستمر، مذهل. ونحن فى حاجة حقا إلى جهود المئات من الباحثين النفسيين والاجتماعيين والانثروبولوجيين لبحث هذه التغيرات السريعة الهائلة وتأثيرها على النسيج الاجتماعى والبنية النفسية للفرد. ولكنهم يجب أن يكونوا أحرارا كل الحرية فى التعامل مع أى ظاهرة أو واقعة يمكن أن تثير حساسية ما هنا أو هناك. فالعلم لا يخلق المشكلات بل يحلها. ولكى يحلها يجب أن يراها بوضوح تام. ولكى يراها رؤية علمية يجب أن يسلط عليها كل الأضواء التى يملكها.

وليكن أول ما نفكر فيه عندما نعالج مشكلة ما بطريقة علمية أن نصفها الوصف الصحيح أولا، ثم نبحث عن المنهج المناسب لحلها، وقد يكون مركبا من مناهج عدة. هزيمة ٦٧ لم تكن هزيمة لشىء اسمه الشخصية القومية، ولكنها كانت هزيمة سياسية وعسكرية. بدليل أن نصر ٧٣ قد محاها. ولم تكن تلك «الشخصية القومية» قد تغيرت فى السنوات الست التى بينهما، إنما تغيرت السياسة، وتغيرت العسكرية. واعتقدنا، ومازلنا نعتقد، أن هزيمة ٦٧ كان فى طيّها خير عظيم للسياسة العربية، والعسكرية العربية، وإن جاءت حرب الخليج الثانية (وقد عقد لها الاستاذ ياسين فصلا أخيرا فى الطبعة الرابعة من كتابه) بمصائب كثيرة للعالم العربى. وكان الخطأ هذه المرة أيضا عسكريا وسياسيا. ولم يكن للشخصية القومية العربية شأن به، وأحسب أن التجربة – رغم مرارتها – لم تكن بغير فائدة لأهل السياسة وأهل العسكرية، وأقل فائدة نرجوها: أن مزيدا من الحرية لأهل الرأى والعلم، ومزيدا من الثقافة السليمة للجماهير كفيلان بمنع مثل تلك الأخطاء فى المستقبل، وفتح الأبواب أمام الشعوب العربية لتبنى مستقبلها بأيديها .

النباتات المهندسة وراثيا

هل هى أغذية فرانكنشتاين ؟ !

بقلم : د. أحمد مستجير

يثير التقدم العلمى طول عمره مشاكل جديدة بديلاً عن المشاكل القديمة التى يقوم بحلها، وتقوم ضده عادة، وضد ما يتولد عنه من تكنولوچيات جديدة جبهات تعارضه وتحاول تشويه صورته ، وتطلب العودة إلى القديم المريح الذى تعودنا عليه، والذى كان هو الآخر يوماً ما جديداً وكريها ! تقوم جماعات المعارضة هذه بتضخيم مثالب الجديد ، فتبرز عيوبه وتهول منها وتضيف إليها وتلح عليها فى شتى وسائل الإعلام، وتتجاهل فى الوقت نفسه فوائده وكل ما قد يقدمه من خير للمجتمع ، حتى يخافه الناس ويتوجسون منه الشر فيعرضون عنه. والغريب أن العلماء أنفسهم هم أول من يكتشف المثالب إن وجدت ، وهم أول من يتحدث عنها، وهم أول من يبادرون بالعمل على علاجها وتلافيها - كذا الطريق السوى للعلم.

ولقد أثارت التكنولوچيا الحديثة للهندسة الوراثية ، وتثير، ضجة فى أيامنا هذه ملأت الأسماع. توسل «اللاضيون» الجدد بكل ما يحرك عواطف الناس ويخيفهم ويمس معتقداتهم، حتى أطلقوا على الأطعمة المحورة وراثيا اسم أغذية فرانكنشتاين! ستسبب هذه الأغذية السرطانات وتنشرها - خذوا بالكم - ستسبب الحساسية للكثيرين منكم وستقلل مقاومة الجسم وتضعف مناعته . يقولون هذا ولا نسمع الآن منهم أنهم يعارضون استخدام الإنسولين البشرى الذى تنتجه بكتريا محورة بإضافة چين بشرى إلى مادتها الوراثية ينتج الإنسولين، ينسون هذا الأمر تماماً ، رغم أنه بالطبع من «أدوية فرانكنشتاين»! وينسون أمر حيوانات المزرعة المحورة وراثيا بچينات بشرية لتنتج في ألبانها عقاقير للبشر. يقولون هذا وينسون إخوتنا من البشر يقتلهم الجوع إذ يتزايد تعداد سكان الأرض وتتصحر الأراضى ويقل الماء العذب ! ما هى القصة؟

● بداية القصة

يزداد تعدادنا نحن البشر ، سيصل عددنا قريباً جداً إلى ستة بلايين نسمة. مساحة الأرض الزراعية كما هى ، إن لم تكن تتآكل بالتصحر. كيف يمكن أن نوفر الطعام لكل هذه الأفواه . ضاقت، واستحكمت حلقاتها. عندئذ يلهم الله العلماء من عباده بأفكار جديدة تفتح سبيلا لاستغلال ما وفره سبحانه لهم من موارد.

بدأت القصة فى عام ١٩٥٣ عندما نشر واطسون وكريك بحثا من صفحة واحدة وصفا فيه التركيب الجزيئى لمادة الوراثة (الدنا). حوّل هذا البحث علم الوراثة تماماً، وقلبه رأساً على عقب، ونقله إلى طريق غريب واسع لم يطأه من قبل بشر. اتضح أن المادة الوراثية لكل الكائنات الحية، من البكتريا حتى الإنسان، مؤلفة من نفس المكونات. وكان من الطبيعى والأمر كذلك أن يتساءل العلماء : إذا كان الله قد خلق الجهاز الوراثى لكل الاحياء من نفس المادة، أفلا يمكن أن ننقل جزءاً من المادة الوراثية من كائن إلى كائن آخر؟ هل من الممكن أن نجرى جراحة وراثية نطعم بها المادة الوراثية لكائن ببعض من چينات كائن آخر؟ نعنى، هل من الممكن أن نجرى «الهندسة الوراثية» ؟

وعلى عام ١٩٧٣، بعد عشرين عاماً من بحث واطسون وكريك، نجح العلماء فعلاً فى إجراء الهندسة الوراثية. نجحوا فى إتمام تطعيمات چينية بين أنواع

مختلفة من البكتريا ، وبين البكتريا والڤيروسات ، وبين البكتريا وضفدع زينوبس . وبدأت ثورة الهندسة الوراثية.

سنون عشر تمر. وفى عام ١٩٨٣ نجح إيلاج أول چين غريب فى نبات. كان النبات هو نبات الطباق. ثم أخذ عدد النباتات المهندسة وراثيا يتزايد حتى يصل فى عام ١٩٩٥ إلى أكثر من ستين نوعاً ، كان أهمها : شلجم الزيت والذرة وبنجر السكر والبطاطس والطماطم وفول الصويا والقطن. انتشرت التقنية إذن وبدأ استخدامها فى الكثير من بلاد العالم ليصل عدد الدول التى تجرى التجارب الحقلية على المحاصيل عبر الچينية (أى المهندسة وراثيا) إلى أكثر من ثلاثين دولة أهمها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وكندا وهولندا وألمانيا واستراليا . وتنوعت الصفات التى يعمل العلماء على نقل چيناتها من شتى المصادر الحية إلى نباتات المحاصيل : تنوعت من مقاومة لمبيدات الأعشاب ، إلى زيادة فترة تخزين الثمار، إلى تحسين الصفات التصنيعية للثمار، وزيادة قيمتها الغذائية ، إلى مقاومة الڤيروسات والحشرات والفطريات والبكتريا. ولقد حظيت صفة مقاومة مبيدات الأعشاب بالذات بأكبر قدر من الاهتمام لأن الحشائش تسبب خسائر تتراوح قيمتها ما بين ١٠ و٢٠٪ من قيمة المحصول.

وعلى عام ١٩٩٥ كانت الوكالة الأمريكية لحماية البيئة قد وافقت لأول مرة على نشر أول محصول تجارى مهندس وراثيا: بطاطس تقاوم خنفساء كلورادو. ثم بدأت المساحات التى تزرع بالمحاصيل عبر الچينية تتزايد . فى عام ١٩٩٦ زرعت الولايات المتحدة نحو ثلاثة ملايين فدان بمحاصيل مهندسة وراثيا، وارتفعت المساحة عام ١٩٩٧ لتصل إلى ما يقرب من عشرة ملايين فدان ، منها أكثر من نصف مليون فدان من ذرة عبر چينية.

فى ذلك العام كان ٢٥٪ من محصول القطن و١٥٪ من محصول فول الصويا و٨٪ من محصول الذرة بالولايات المتحدة ناتجا عن بذور محورة وراثيا . ولقد قدر أن يصل ثمن ما يباع من البذور المهندسة وراثيا على عام ٢٠٠٠ إلى ما لا يقل عن ستة آلاف مليون دولار.

أصبحت النباتات المحورة وراثيا معنا. ستتزايد نسبة ما يصل إلى موائدنا منها . هل سنتعود عليها بالتدريج حتى ننساها؟ ثم إنها تختلط بمنتجات نباتية أخرى غير محورة، وذلك أثناء النقل والتسويق والتصنيع . فول الصويا مثلا يدخل فى نحو ٦٠٪ من الأغذية المصنّعة .

هل تدخل المنتجات المحورة إلى غذائنا دون أن ندرى فى صحبة منتجات نباتية أخرى «بريئة» ؟

لم يظهر حتى الآن نبات واحد مهندس وراثيا يؤذى الإنسان بالشكل الذى يروج له اللاضيون الجدد الآن . ما هى المثالب التى وجدها هؤلاء إذن ليضخموها ويخيفوا الناس منها؟

● الجينات الواسمات

زراعة الأنسجة تقنية بسيطة أتقنها العلماء الآن، تُنَمَّى فيها خلايا النبات فى مستنبت غذائى. يمكن للمهندس الوراثى أن يولج ما يود من جينات غريبة فى هذه الخلايا وهى فى المستنبت، لتنمّى بعد ذلك إلى نباتات كاملة تحمل الجين أو الجينات الغريبة التى يرغب المهندس الوراثى أن يحور بها نباتاته . لكن نسبة الخلايا التى تستوعب الجينات الغريبة نسبة منخفضة للغاية ، كما أن النسبة منها التى تعمل بها هذه الجينات وتفصح عن نفسها نسبة هى الأخرى محدودة جداً.

كيف يستطيع المربى إذن أن يتعرف على هذا العدد القليل جداً من الخلايا التى اقتنصت الجين الغريب المرغوب ؟

كان من الضرورى أن يضيف المربى بجانب هذا الجين المرغوب جينا آخر واسماً ، يمكن به أن يميز الخلايا التى استوعبت الجين الذى يهمه أصلاً . استُعملت إذن جينات واسمة تضفى على الخلية مقاومة بعض المضادات الحيوية كالكانامايسين والتترامايسين والبنسلين. فبعد أن تُعَرَّض الخلايا للجين المطلوب نقله مرتبطاً بجين مقاومة المضاد، تنقل إلى بيئة غذائية أخرى تحتوى على هذا المضاد نفسه، فتموت كل الخلايا التى لم تستوعب الجين ويبقى منها فقط ما استوعبه . هنا يقوم المربى بتنمية هذه الخلايا الباقية إلى نباتات كاملة مهندسة وراثيا تحمل الجينين كليهما ، ويكاثر منها .

يعمل الجهاز الهضمى للإنسان والحيوان كحاجز طبيعى للدنا، فحموضة أمعاء الانسان والحيوان تحلل معظم الدنا. لكن تبقى منه نسبة غاية فى الضآلة بالأمعاء والدم، ولقد تنتقل إذن إلى بكتريا الأمعاء، فيعيش من هذه البكتريا ما يقاوم المضاد الحيوى، ليسود فى الامعاء . من شأن هذا أن يقلل من فعالية المضادات الحيوية عند علاج الانسان أو الحيوان بها. تقل هذه الخطورة كثيراً مع المادة النباتية المطبوخة، لكن الحيوانات كما نعلم تأكل الفول مثلا دون طهى. لكن ، لنا هنا أن نتذكر أن حيوانات المزرعة ومنذ نحو خمسين عاماً تتعاطى فى علائقها مضادات حيوية مثل البنسلين

والتتراسيكلين، وأن استخدام مثل هذه المضادات فى غذاء الحيوان قد تزايد كثيراً منذ منتصف الثمانينات، نعنى أن حيوانات المزرعة قد طورت بالفعل بكتريا مقاومة للعديد من المضادات الحيوية. ولنا بالطبع أن نتوقع مثل هذا فى المستشفيات، فالقرائن تشير بوضوح إلى أن الكثير من البكتريا قد طور مثل هذه المقاومة.

غير أن حل هذه المشكلة من جذورها يمكن أن يتم ببساطة بأن يستخدم العلماء واسمات أخرى غير هذه، مثلاً واسمات لمقاومة مبيد أو آخر من مبيدات الأعشاب نكشف بها عن الخلايا المهندسة وراثيا، بديلاً عن واسمات مقاومة المضادات الحيوية، أو واسمات تنتج ما يسبب لونا فى وجود مواد كيماوية معينة تضاف إلى المستنبت الذى تنقل إليه الخلايا بعد تعريضها للجينات الغريبة .

● الحساسية

فول الصويا ينقصه واحد من الأحماض الأمينية العشرة الضرورية لغذاء الانسان، هو المثيونين . (وعلى الذكر، ينقص الفول البلدى حمضان ضروريان هما المثيونين والسستين). وإضافة الجين المسئول عن هذا الحمض بالهندسة الوراثية إلى الفول سيرفع بالتأكيد من قيمته الغذائية . قام الباحثون بالفعل بنقل الجين من المادة الوراثية لجوز البرازيل إلى المادة الوراثية لفول الصويا ، فأصبح الفول غنيا بالمثيونين. لكن، انتقل مع الجين من الجوز جين آخر ينتج مواد تثير نفس الحساسية التى يسببها الجوز للبعض، نعنى أن هذا الفول المحور وراثيا قد تسبب فى استجابات أليرجية عند من لديهم أصلا حساسية لجوز البرازيل.

هناك نسبة من الناس تتراوح ما بين ١ و٢٪ لديهم حساسية طبيعية لهذا النوع أو الآخر من الغذاء، لأطعمة كاللبن والبيض والسمك والجوز وفول الصويا والأرز والمشمش والفراولة. تنتج هذه الحساسية عن وجود بروتينات خاصة بهذه الأطعمة تقدح زناد استجابات أليرجية تظهر فى صورة ربو أو إكزيما أو حمى القش. ولقد تؤدى أيضاً حبوب اللقاح التى يجمعها النحل من النباتات عبر الجينية إلى مشاكل حساسية ، ذلك أن بروتينات حبوب اللقاح عبر الجينية قد تبقى فى العسل لبضعة أسابيع، ومنها ما يسبب الحساسية لدى البعض. وبالنظر إلى ما نتوقعه من تزايد أعداد النباتات المحورة وراثيا فى الريف، فقد أصبح من الضرورى أن يؤخذ هذا الأمر بما يستحقه من جدية . ولقد بدأ العلماء فى

اتخاذ الخطوة الحاسمة لمواجهة هذه المشكلة، وذلك بتجديد تركيب الچينات التى تشفر للبروتينات المسببة للحساسية، حتى يمكن تجنبها عند نقل الچينات من النباتات المعروف أنها تسبب الحساسية للبعض ، بل إنهم يحاولون الآن حذف هذه الچينات بالهندسة الوراثية من ذات النباتات التى تثير الحساسية ، فلقد أزيل من الأرز تجريبيا چين لبروتين يسبب الحساسية .

● الأثر على البيئة

ربما كانت أهم الصفات التى يعمل عليها الوراثيون الآن وينقلونها إلى النباتات الاقتصادية عند التحوير الوراثى هى صفة مقاومة مبيدات الأعشاب ، حتى يمكن للمزارع أن يرش حقول المحاصيل المهندسة لهذه الصفة ، فتموت الحشائش ولا يتأثر المحصول. وهناك تخوف من أن تتهاجن النباتات المحورة وراثيا مع أقاربها من الحشائش البرية فتنقل إليها صفة مقاومة المبيد. الدخن والشوفان مثلا يتهاجنان مع الشوفان البرى. ولقد تبقى بالحقل بعد حصاد المحصول بقايا من المبيد تؤثر فيما يزرع بعده من محاصيل ، ولقد يتبقى أيضاً بعد الحصاد نباتات محورة وراثيا لتظهر كحشائش مقاومة فيما يعقبها من محاصيل ، كما يحدث مع الشلجم المهندس وراثيا إذا تبقى فى حقول القمح بعده ليقاوم كل المبيدات العشبية التى تستخدم على القمح. ثم إن الأرجح أن يتسبب انتاج المحاصيل المحورة لمقاومة مبيدات الأعشاب فى زيادة قدر ما سينثر من هذه المبيدات فى البيئة، الأمر الذى قد يؤدى إلى أن تطور الحشائش مقاومة ضدها ، أو إلى انقراض بعض الأنواع النباتية البرية، وإلى زيادة أعداد من يتسممون بالمبيدات فى الريف.

تتحلل معظم مبيدات الأعشاب فى التربة ، وچينات مقاومتها ترفع بالفعل من غلة المحاصيل المهندَسة بها ، ولا تختلف المحاصيل المهندَسة من الناحية الغذائية عن غير المهندسة. أما تطوير الحشائش لصفة مقاومة المبيدات فهو لا يختلف عما نتوقعه من استخدام المبيدات الحشرية ، أو عند تطعيم النباتات وراثيا بچينات لقتل الحشرات ، إذ تقوم الحشرات بتطوير مقاومتها للمبيدات، حتى أن نصل إلى وضع تسمم فيه المبيدات البيئة ولا تسمم الحشرات. ولقد بدأت مثل هذه البوادر تظهر حتى مع القطن الذى هُندس لمقاومة الحشريا بإضافة چينات مأخوذة من بكتيريا تحيا بالتربة . ثم ان الكثير من چينات مقاومة مبيدات الأعشاب توجد طبيعيا فى البيئة، فى بعض البكتريا وفى

بعض نباتات المحاصيل مثل البرسيم الحجازى.

● الچينات الحساسة دينيا

لو أنّا هندسنا نباتات تحمل چينات من الأبقار، فهل يقبل الهندوس أن يأكلوها؟.. لو أولجت فى النباتات چينات مأخوذة من الخنزير، فهل يوافق المسلمون واليهود على أكلها ؟ يقول بعض علماء المسلمين إن الچينات تحمل معها هويتها ، فالچين من الخنزير يظل چين خنزير أينما حل، بينما يرى بعض اليهود أن الچينات تأخذ طبيعة الكائن الذى تنتقل إليه، فالچين من الخنزير يصبح چينا نباتيا إذا أولج فى المادة الوراثية للنبات. هذا أمر يجب أن يترك لرجال الدين ليقرروا فيه ما يرونه، وفى الوقت نفسه ليس ثمة سبب حقيقى لاستخدام چينات هذين الحيوانين فى هندسة النباتات وراثيا . ثم هناك مشكلة أخرى مع النباتيين الذين لا يتعاطون الأغذية الحيوانية . هل النبات المطعم بچين حيوانى يعتبر من الأغذية الحيوانية ؟ مشكلة عليهم بالطبع أن يحلوها.

● إمكانات توفرها الهندسة الوراثية

لكن الامكانات المذهلة التى تقدمها الهندسة الوراثية للنباتات تفوق كثيراً كل ما يوجه إليها من مثالب. فعلى سبيل المثال، تقدر نسبة ما يفسد من الفواكه والخضراوات بنحو ٥٠٪ من المحصول ، ولقد أنتجت إحدى الشركات الأمريكية طماطم اسمها فليڤر سيڤر، لا تختلف عن الطماطم المألوفة من الناحية الغذائية، لكنها يمكن أن تبقى معروضة على الرف بضعة أسابيع دون أن تفسد، وكل ما يعيب هذه الطماطم هو أنها تحمل چينات تشفر لمقاومة المضادين الحيويين: الكانامیسين والنيومايسين. وتبذل الآن جهود واسعة لنقل الچين المسئول عن هذه الصفة إلى الكثير من الفواكه والخضراوات.

ولقد أمكن بالهندسة الوراثية تغيير تركيب درنات البطاطس بچين منقول من بكتريا كولاى يرفع كمية النشا بنسبة تصل إلى ٢٠٪ . كما هُندست محاصيل مرتفعة الحلاوة باستخدام چين التوماتين وچين مونيللين، ولهاتين المادتين حلاوة تبلغ بضعة آلاف حلاوة السكر . ويجرى العمل على إضافة حمضى اللايسين والتربتوفين الأمينيين إلى حبوب الذرة، وحمضى السستين والمثيونين فى بعض البقوليات. ولقد أمكن تطوير أرز عبر چينى، فى بذوره إنزيم لعلاج مرض التليف الكيسى، وموز عبر چينى تحتوى ثماره على ڤاكسين الالتهاب الكبدى ب : وكما

يقولون، تكفى زراعة ٢٤ فدانا من هذا الموز لتطعم كل أطفال المكسيك . ويجرى الآن العمل فى مشروع الجين الأزرق (بلو چين) من أجل أسواق البلوچينز ، بل لقد تمكنت شركة مونسانتو بالفعل من تصنيع قماش أزرق من هذا القطن لا يحتاج إلى صبغة، ولونه ثابت.

● وبعد

فالنباتات المهندسة وراثيا ستثرى مائدتنا، سترفع المحصول وتقلل الفاقد، سترفع القيمة الغذائية للنباتات، ستقاوم الحرارة والملوحة فى التربة وفى ماء الرى، ستسهم فى توفير الدواء . هى ضرورة فى زمان تزايدت فيه الأفواه تطلب الطعام. كيف تكون - كما يقول اللاضيون الجدد - أغذية فرانكنشتاين ؟

لكن هناك وجهة أخرى . فالمنتج الحقيقى لكل هذه النباتات المحورة وراثيا شركات عملاقة متعددة الجنسية. والهدف الأول لمثل هذه الشركات هو الربح . وتأخذ هذه الشركات الأصول النباتية من دول العالم الثالث ، الموطن الأصلى لنحو ٩٥٪ من نباتات المحاصيل ، فلقد قام فلاحو هذه البلاد عبر آلاف السنين باختيار هذه النباتات وتحسينها مع الزمن حتى أصبحت «اقتصادية». تسطو الشركات على هذه النباتات وتأخذها جاهزة بما تحمله من عشرات الآلاف من الچينات ، وتضيف إليها چيناً أو بضعة چينات، ثم تحصل على براءة فيصبح ملكية خاصة لها، ثم تفرض شروطها على كل من يود زراعته حتى من أصحابه الأصليين الذين بالطبع لم يسجلوا براءة لنباتاتهم البلدية!

سأنهى هذا المقال بذكر الشروط التى تفرضها إحدى الشركات على من يود زراعة فول الصويا الذى أنتجته وسجلت براءته، وذلك كما جاءت بكتاب «طعامنا المهندس وراثيا» لمؤلفه ستيفن نوتنجهام :

● يدفع المزارع رسم تكنولوچيا قدره ٥٠ دولاراً عن كل شيكارة بذور تزن ٥٠ رطلاً.

● للشركة الحق فى تفقد وتفحص الزراعة لمدة ٣ سنوات.

● على المزارع أن يستخدم مبيد الشركة للأعشاب ، ولا غيره.

● على المزارع أن يتنازل عن حق الاحتفاظ بالبذور الناتجة لديه أو إعادة زراعتها أو بيعها لغير الشركة.

● إذا أخل المزارع بالاتفاق فعليه «أن يدفع للشركة تعويضا يعادل مائة ضعف الرسوم السارية آنئذ لچين مبيد الأعشاب مضروبا فى عدد وحدات البذور، بالإضافة إلى أتعاب المحاماة» .

يخاطر المزارع بذلك بفقد مزرعته !

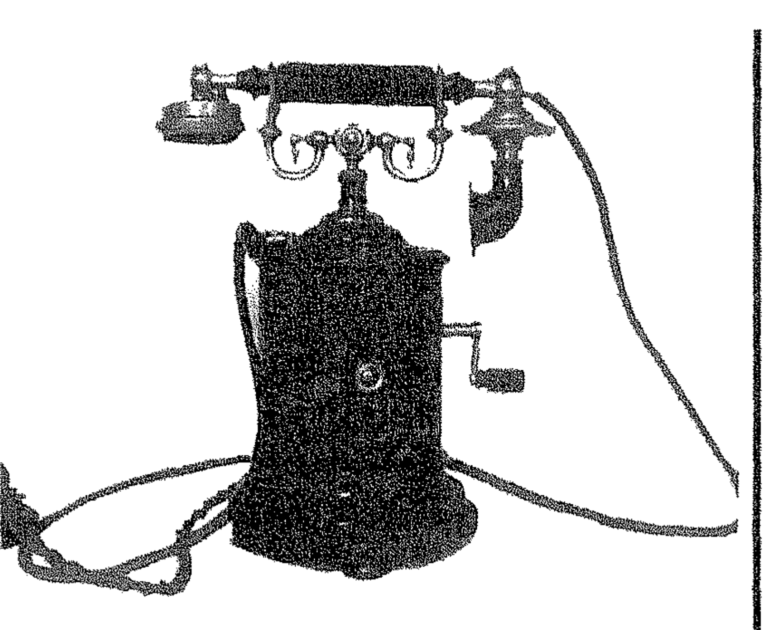
.... إلا إذا كانت أغذية فرانكنشتاين تعنى أغذية شركة فرانكنشتاين!!

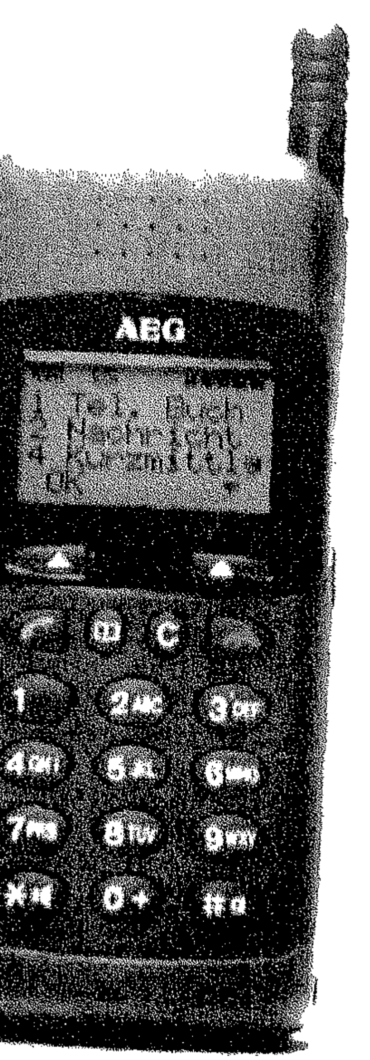
ماذا حدث للمصريين ؟

المحمول ونصف قرن من حياة التليفون فى مصر

بقلم : د.جلال أمين

يُروى عن الرسام الفرنسى الشهير أوجست رينوار، أن صديقاً له جاءه ليخبره عن اختراع خطير ظهر حديثا، ولم يكن رينوار قد سمع به، وهو التليفون . وصف هذا الصديق جهاز التليفون لرينوار، وكيف يستخدم فى التخاطب بين شخصين قد تفصل بينهما عشرات الكيلو مترات. سأله رينوار: «ولكن فلنفرض أن جرس التليفون دق فى منزلى أثناء انهماكى فى الرسم، هل يتعين علىّ أن أترك الرسم حينئذ وأذهب لأجيب عليه؟» «قال صديقه: «نعم» . فأجاب رينوار متعجبا: «ففى أى شىء أختلف إذن، فى هذه الحالة ، عن حالة الخادم الذى أدق له الجرس فيهرع إلىّ؟»





هذا الخطر الذى تنبــأ به رينوار، ورفض أن يستسلم له أصبح الآن حقيقة واقعة، وإن كنا قد استسلمنا له استسلاما كاملا.

فـأصـبـحـنا نسـمـح لكل من هبّ ودبّ أن يسـتـدعينا «بجـرس التليـفون،» من أى مكان، وفـى أى وقت من النهــار أو الليل، وأيا كــان العمل الذى قد نكون مشغولين به، مهما أو غير مهم ، استجابة لوازع خفى وغير مفهوم، أو لأمل غـــامض فى أن تنطوى هذه المكالمة المجهولة على تحقيق لأمل قديم لنا لم يتحقق حتى الآن.

لم يكن شيوخ الوهابية القدامى، على خطأ تام إذن، عندما رفضوا فى البداية، ما عرضه عليـهم الملك عبـدالعزيز آل سـعـود منذ نحـو سبعين عاما، من إدخال التليفون فى المملكة السعودية، فقد توجّسوا من الأمر شرّاً مثلما توجس الرسام الفرنسى، وإن كانوا قد عبروا عن خوفهم بطريقة مختلفة تماما، فقد قالوا «إن شيئا يحمل الصوت إلى هذه المسافات البعيدة لابد أن يكون من عمل الشيطان، ومن ثم فـهـو حـرام» . عطّل هذا الاعـتـراض من جانب شـيوخ الوهـابيـة دخول التليفون إلى السـعـودية بعض الوقت، حـتـى اسـتـقـر الرأى هناك على أن مسألة الحلال والحرام لا تتعلق بجـهـاز التليفون نفسه بل بما يسـتـخدم فـيه، فالتليفون حلال إذا استخدم فيما هو حلال ، وحرام إذا اسـتـخـدم فـيـمـا هو حرام. ووضع الأمر على هذا النحو يبدو معقولا تماما، وهو يعـبّـر عن وجـهـة نظر مـعظم الناس الآن، فى التكنولوجيا الحديثة. فالتكنولوجيا - فى الرأى السائد - أداة محايدة لا يمكن إصدار أحكام أخلاقـية أو دينية عليـها، وإنما يتحـدد موقف الأخـــلاق والدين منهـا بما توجــه إليــه من

استخدامات، سواء كان الأمر يتعلق بالتليفون أو التليفزيون أو الفيديو أو السينما .. الخ .

ومع هذا ، ليس هذا فى الحقيقة ما تؤدى إليه نظرية المفكر الكندى «مارشال ماكلوهان»،الذى عبّر عن رأى له شبه فى الواقع برأى الشيوخ الوهابيين فى التليفون، فقد نشر ماكلوهان فى أواخر الستينيات كتابا بعنوان : «The Medium is the Message» - يلخّص عنوانه هذا الرأى وهو أن الاداة أو التكنولوجيا هى نفسها الرسالة، أى أنها تنطوى فى ذاتها على موقف أو بعبارة أخرى إنها ليست مجرد أداة محايدة وإنما هى بطبيعتها تحدد مضمون الرسالة التى تنقل عن طريقها. فمتى دخل التليفون تحتم استخدامه استخدامات معينة ، وتحتم استبعاد نوع آخر من الاتصالات أو العلاقات: وقل مثل هذا عن السينما أو الفيديو .. الخ ، فالعلاقات التى تتم عن طريق الاتصال التليفونى لابد بالضرورة أن تكون مختلفة عن العلاقات التى تتم مباشرة بين شخصين دون وساطة التليفون ، ولابد أن يؤثر هذا الجهاز وطبيعته الخاصة على نوع ما يقوله شخص لآخر.

يبدو أن الحقيقة تقع فى الوسط بين الرأيين: أى بين اعتبار التليفون أداة محايدة مائة بالمائة، وبين اعتباره هو صاحب التأثير الحاسم فى نوع ما يجرى من حديث . التليفون ينقل فى كل عصر وكل بلد ما يفضل أهل هذا العصر وهذا البلد قوله من خلال التليفون، ولكن التليفون من ناحية أخرى يؤثر بدوره تأثيرا بالغا فى مضمون ما يقوله الناس بعضهم لبعض. هذه العلاقة المتبادلة هى ما سأحاول أن أتتبعه فى تاريخ التليفون فى مصر خلال نصف القرن الماضى : كيف تأثر التليفون بما جرى فى المجتمع المصرى وكيف أثّر فيه، وذلك من خلال ما رأيته وسمعته بنفسى .

مكالمات مقتضبة !

لا أذكر أن التليفون كان يلعب دورا مهما فى حياتنا خلال الأربعينات، فكان الجرس نادراً ما يدق على الاطلاق، والمكالمات كلها تقريبا، ودون استثناء، لوالدى. وقد أذكره وهو يتلقى مكالمة ولكنى لا أذكر أنى رأيته يقوم هو بالاتصال بأحد. لاشك أن التليفون قد دخل بيتنا بسببه هو وله هو، والمكالمات سريعة ومقتضبة غاية الاقتضاب لتحقيق غرض واضح ومحدد سلفا، ولم يكن الغرض من إدخاله بالطبع أن يستخدمه شباب أو صبية البيت الحمقى، ولا حتى والدتى التى لم تكن تتصور أن ترغب فى استخدامه إلا لكى تكلم ابنتها المتزوجة، ولكن هذه الابنة لم يكن فى بيتها تليفون أصلا.

من أول ما تعيه ذاكرتى من أحداث تتعلق بالتليفون الحادث الطريف التالى، والذى يعود إلى نحو سنة ١٩٤٥. كنت فى سنواتى الأولى فى المدرسة الابتدائية وكان فى كتاب المطالعة المقرر علينا موضوع يدور حول التليفون، إذ لابد أن مؤلفى الكتاب رأوا ضرورة أن يكون ما يقرؤه التلاميذ عصرياً ومتابعاً لأحدث التطورات. فى هذا الموضوع من موضوعات كتاب المطالعة يسأل صبى اسمه إبراهيم صديقا له اسمه خليل: «ما رقم تليفونك يا خليل؟» فيجيب خليل: «رقم تليفونى ٦٢٠٤٧»، هكذا كان الرقم بالضبط. لازلت

أذكر، ولا أشك فى صحته، لأنه كان هو رقم تليفون منزلنا فى هذا الوقت وسبب ما حدث من أحداث . أما كيف تسرّب رقم تليفوننا إلى كتاب المطالعة فالأرجح أن السبب هو أن أبى، الذى كان أحد المراجعين لكتاب المطالعة، قد احتاج إلى وضع رقم فى الموضوع، ولم ير بأسا من وضع رقم تليفونه هو ، دون أن يخطر بباله ما يمكن أن يترتب على ذلك . ذلك أنه فى حوالى منتصف شهر فبراير من كل عام ، وهو الوقت الذى يصل فيه تلاميذ المدارس فى دراستهم لكتاب المطالعة، إلى هذا الموضوع ، موضوع التليفون، حتى يبدأ تليفون منزلنا فى الدقّ ، منذ أن يعود التلاميذ من مدارسهم إلى أن يخلدوا إلى النوم، الجميع يسألون عن خليل، ولا ينقطع رنين التليفون فى منزلنا حتى ينتقل التلاميذ إلى الموضوع التالى!

الاتصال تليفونيا فى غياب أبى!

فيما عدا هذا الوقت من السنة ، وهو على كل حال لم يكن يستمر أكثر من أسبوع واحد أو أسبوعين ، كان التليفون نادرا ما يدق على الاطلاق، ولم يكن يحتل أى أهمية تذكر فى حياتنا ولا يأتى ذكره عى اللسان إلا لماما . لا أذكر قط أن أبى نادى على أحد الأولاد أو إحدى البنات قائلا إن هناك من يطلبه أو يطلبها فى التليفون . فإذا أراد أحد إخوتى الكبار (الذكور بالطبع لا الإناث) أن يتصل بأحد فى التليفون فلابد أن يتم هذا فى غيبة أبى وإلا اعتبر الأمر تصرفا ناقص الحياء .أما استخدام التليفون من وراء ظهر أبى فقد كان مستحيلا ماديا ، فالتليفون ثابت فى مكانه كالصخر، وثقيل الوزن كالمدفع. له مكان محدد لا يفارقه على رف صغير على الحائط ، وسلكه قصير لا يسمح بنقله حتى لو فكر أحد فى ذلك !

لابد أن يتوقع المرء من كل ذلك أن المكالمات التليفونية كانت قصيرة للغاية، ونادرا ما كانت تستخدم للتعبير عن المودة أو الغضب، ناهيك عن الحب أو أى مشاعر إنسانية أخرى. كان الاتصال التليفونى يجرى لغرض معين لتوصيل رسالة معينة، وتنتهى المكالمة بمجرد وصولها ثم يتبادل السلام باختصار وتقفل السكة. لم يكن السبب فى ذلك محاولة الاقتصاد فى التكاليف، بل كان السبب تكنولوجيا من ناحية، واجتماعيا من ناحية أخرى .

أما السبب التكنولوجى، فقد ذكرته، وهو صعوبة نقل التليفون من مكان لآخر، وأما السبب الاجتماعى فهو عدد ونوع العائلات التى كانت تحوز التليفون فى ذلك الوقت.

كان هذا العدد ضئيلا للغاية، إذ لا أتصور أن تكون نسبة العائلات التى كانت تحوز التليفون فى مصر فى الأربعينات تزيد بأى حال على ٥٪ من السكان. فسكان الريف كلهم، الذين كانوا يشكلون أكثر من ٨٠٪ من السكان فى ذلك الوقت ، لم يكونوا يعرفون التليفون باستثناء بعض المسئولين من أمثال مأمور المركز والعمدة ، وحتى هؤلاء كان الوصول اليهم بالتليفون عملا شاقا ومرهقا. وسكان المدن كانوا لايزالون يعتبرون التليفون من الأشياء الكمالية جدا، التى لا يحصل عليها إلا الباشوات وبعض البكوات ونسبة صغيرة من المهنيين.

تغيّر الأمر فى الخمسينات. كانت الثورة

قد قامت فى مطلعها وفتحت الباب واسعا أمام نمو الطبقة الوسطى فزاد عدد التليفونات زيادة سريعة. ومع زيادة عدد التليفونات وانتشارها تغيرت أمور كثيرة . فقد بدأ موضوع المكالمات التليفونية يتغير، ولم يعد مقصورا على الأمور المهمة ذات الغرض العاجل الذى لا يحتمل انتظار وصول خطاب أو حدوث مقابلة وجها لوجه. أصبح التليفون يدق لمجرد التهنئة بالعيد أو السؤال عن الصحة، وزاد استخدام ربة البيت للتليفون ، للسؤال عن ابنتها المتزوجة وعن آخر ما فعله زوجها بها، بل ولكى تسأل البنت المتزوجة أمها عن الطريقة الصحيحة لصنع المحشى، وزاد عدد المكالمات التليفونية التى يتلقاها الأولاد لترتيب رحلة أو مقابلة أمام إحدى دور السينما. ولكن استمر من المحظور بتاتا أى مكالمة «عاطفية» بين أحد الأولاد وصديقة له ، إذا وجدت ، ولا يمكن أن يتصور مثل هذه المكالمات بين إحدى البنات وصديق لها، إذا فرض وكان له وجود، فإذا اكتشفت مكالمة من النوع الأول عوقب الولد عقابا صارما، وإذا تصوّرنا وحدثت الثانية ، اعتبر ذلك وكأنه زلزال يهدّ كيان الأسرة برمتها، ويجعل سمعتها مضغة فى الأفواه إلى الابد.

ولكن لحسن الحظ أنه لم يكن هذا أو ذاك بالحادث المتوقع أو المحتمل. فلم يكن هناك الكثير من «العواطف» أصلا لكى يجرى التعبير عنها بالتليفون أو بغيره، أو بالاحرى كان الجزء الأكبر من العواطف مكبوتا ليس من المسموح التعبير عنه، فى الأحلام والخيال ممكن، وفى المقابلات الشخصية وجها لوجه صعب جدا، وفى التليفون فى حكم المستحيل.

كانت لاتزال الأغانى المنتشرة من نوع أغنية محمدعبدالمطلب:

«أقوم من النوم أقول يا رب عدّلها - بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر أعدى لها».

وكانت أغانى عبدالحليم حافظ وأمثالها الأكثر جرأة وصراحة، لازالت فى بدايتها.

★ ★ ★

طرأ تغير مهم على التليفون فى العشر سنوات التالية، جعل وضع التليفونات فى مصر فى منتصف الستينات مختلفا تماما عما كان عليه فى الخمسينات. كانت فترة العشر سنوات (٥٥ - ١٩٦٥) من أكثر العقود فى هذا القرن اتساما بالجدية فى الاهتمام بالتنمية الاقتصادية فى مصر، إن لم تكن أكثرها على الاطلاق، تجمع لمصر خلالها الكثير من الموارد من جراء تأميم قناة السويس وغيره من التأميمات والمعونات الأجنبية، فضلا عما بقى من الأرصدة الاسترلينية التى تراكمت لمصر خلال الحرب العالمية الثانية. ولكن هذه العشر سنوات شهدت أيضا مستوى عاليا من الانفاق على مختلف قطاعات الاقتصاد المصرى: زراعة وصناعة وخدمات . كانت أيضا فترة اهتمام جدى بإعادة توزيع الدخل لصالح الطبقات الدنيا، إذ لو صح القول بأن مصر عرفت الاشتراكية فى أى فترة من تاريخها، فقد كانت هذه العشر سنوات هى هذه الفترة، لا قبلها و لا بعدها. قبل هذه العشر سنوات (٥٥ - ١٩٦٥) كان الكلام عن الاشتراكية حلماً ، وبعد هذه العشر سنوات كان الكلام عن الاشتراكية كذباً .

● أغراض أخرى !

انعكس هذا فى حالة التليفون فى مصر. فقد كان من الطبيعى أن تزيد الحاجة إلى التليفون بشدة، من جانب الحكومة، التى امتد نشاطها إلى كل شىء وكل جزء من مصر، وزادت السلطة المركزية قوة على قوة، وأمسكت بكل شىء بيد من حديد، واحتاجت الحكومة فى ذلك إلى عدد لا يحصى من التليفونات الجديدة. وقد امتد نشاط جهاز المخابرات المصرى حتى شمل كل مكان وكل شخص، وأراد القائمون على هذا الجهاز أن يكون لديهم ملف عن كل كلمة أو همسة قد تهدد النظام حقا أو توهما ، فزادت حاجة هذا الجهاز أيضا إلى استخدام التليفون. ولكن الطبقة الوسطى أيضا كانت تنمو بسرعة بسبب اتساع النشاط الحكومى من ناحية ، وإجراءات توزيع الدخل من ناحية أخرى، فزاد الطلب على التليفونات بشدة من الأفراد والأسر، بالاضافة إلى الطلب الحكومى.

مع كل هذا لم تر الحكومة أن لتوسيع شبكة التليفونات أولوية عالية فى برنامجها للتنمية أو فى خطتها الخمسية، وفضلت عليه الاستثمار فى الصناعة والزراعة ، فتوسعت فى مد الخطوط التليفونية ولكن بحساب، وحرصت على أن توزّع هذه الخطوط الجديدة طبقا لترتيب دقيق للأولويات ، فبعد مراعاة بعض المحسوبيات ، مما لا يمكن تجاهله، كان التليفون يعطى للأهم ثم للأقل أهمية.

كانت نتيجة هذا أننى، عند عودتى من بعثتى الحكومية بالخارج لدراسة ا

لاقتصاد، وقد انفردت أنا وزوجتى بمسكننا الخاص، وأردت أن يكون لى تليفون، تبيّن لى أن المطلب عسير للغاية، وظللت بضع سنوات وأنا مدرس بالجامعة، كلما احتجت بشدة إلى إجراء مكالمة تليفونية، أترك بيتى إلى أقرب بقّال فأستخدم تليفونه، وكانت نتيجة ذلك أن عرف البقال كل أسرارى العائلية والوظيفية. أما إجراء مكالمة لبعض أقاربى فى أوروبا فكان يحتاج إلى إجراءات أشد تعقيدا ، وقد يحتاج إلى تخصيص يوم بأكمله ، وذلك لإنجاز مكالمة لا تزيد مدتها على ثلاث دقائق. ذلك أن الأمر كان يحتاج إلى الذهاب إلى مكتب السنترال ، فأدفع أولا قيمة المكالمة ثم أخبر الموظف برقم التليفون الذى أريد الاتصال به فى الدولة الأوروبية، وهنا يبدأ الموظف فى اتصالات منهكة للقوى بينه وبين موظفة تجلس فى مكتب السنترال المركزى فى شارع رمسيس، ويأخذ الموظف، بسبب طيبة قلبه وتعاطفه القوى مع مشكلتى، فى مخاطبتها بعبارات غاية فى الرقة مثل أن يقول لها «ياعروسة» ، وإن كان أحيانا يخاطبها بقوله «يا راديون »، حتى تعطف عليه الآنسة فى مكتب السنترال المركزى وتطلب له الرقم الذى يريده.

قد يستغرق جلوسى فى مكتب السنترال ثلاث أو أربع ساعات حتى يدق الجرس فى الدولة الأوروبية ، وكثيرا ما كان يحدث بعد فوات الأوان ، إذ يكون الشخص المطلوب قد خرج لشأن من شئونه. فى هذه الحالة أكون بالخيار بين أن أعاود الكرّة من جديد فى يوم آخر، أو أن أعود فى اليوم التالى لتقديم طلب لاسترداد قيمة المكالمة التى لم تتم، وهذا يستدعى أن يتصل مكتب السنترال فى الحىّ الذى أسكنه، بمكتب السنترال المركزى طالبا

ردّ المبلغ الذى دخل فى خزينة الحكومة دون وجه حق.

● الواسطة

لم يكن ينفع فى هذه الحالة أن يكون لقبك «بيك» أو «باشا» . فأولا، كانت هذه الألقاب قد ألغيت منذ سنة ١٩٥٣، وثانيا كان البكوات والباشوات القدامى قد أصبحوا، فى منتصف الستينات، أقل الناس سلطة ونفوذاً . وإنما كان حالك يكون أفضل بكثير إن كنت تعرف ضابطاً مهما، أو حتى أن تكون لك صداقة أو معرفة بأحد العاملين بمكتب وزير المواصلات . كان مدير هذا المكتب من أكثر الناس أهمية فى ذلك الوقت، بسبب قربه من قائمة الأسماء التى سوف يركب فى بيوتها تليفون. فإن لم تكن تعرفه، فقد كان الأفضل لك أن تحاول التعرف عليه، فإن كان هذا متعذرا أو كنت من ذلك النوع من الناس الذى لا يجيد الرجاء أو ليس لديك سلطة يمكن بها أن ترد بها هذا الجميل، فستظل بلا تليفون إلى ما شاء الله.

كان هذا هو بالضبط حال أخى حسين، وكان قد أصبح فى منتصف الستينات موظفا لا يستهان به فى السلك الدبلوماسى. وكان قد عاد لتوّه من سفارة مصر فى موسكو، واستقر فى مسكن جديد فى القاهرة حتى تأتى فترة خدمته الجديدة بالخارج، وقدم طلبا للحصول على تليفون وظل ينتظر وصوله دون جدوى. نعم، لقد اشترى تليفونا جميلا لا ينقصه إلا الرقم والسلك ، ولكن مرت سنوات إقامته فى مصر كلها دون أن يأتيه خطاب يخبره بأن ترتيبه فى تركيب التليفون يسمح الآن ببث الحياة فى هذا الجهاز الصامت.

كان هذا بعض الثمن الذى دفعناه للاشتراكية فى الستينات. ولكنه لم يكن كل الثمن ولا أهم جزء منه. فقد اقترنت الستينات بظاهرة جديدة تماما هى بدء الرقابة على المكالمات التليفونية، إذ بدأ جهاز المخابرات يستخدم هذه الرقابة فى اكتشاف ما يدبر من مؤامرات ضد النظام، بل واكتشاف الميول النفسية الدفينة لدى المتكلمين بالتليفون، وحقيقة مشاعرهم نحو نظام الحكم. وحيث إنه لم يكن من الممكن لدى المتكلم أن يعرف على وجه اليقين ما إذا كانت مكالمته تخضع الآن للمراقبة أو لا، مع تأكده من أن هذه الرقابة تمارس من حين لآخر، فقد فرض الناس ، من ذوى الاتجاهات السياسية المختلفة ، رقابة قاسية على أنفسهم فيما يقولونه فى التليفون وما لا يقولونه. وقد امتدت هذه الرقابة حتى على الخطابات، فكثيرا ما كان يصلك خطاب من الواضح أنه فتح ثم أعيد إغلاقه، وعلى المظروف ختم أو ورقة ملصوقة تقول إنه «فتح بمعرفة الرقيب» ، مما زاد شعور شرائح واسعة من الطبقة الوسطى، وعلى الأخص من المثقفين ، بأنهم يعيشون فى سجن كبير. وكان هذا هو الوقت الذى شاعت فيه نكتة تتندر بكلمة مصطفى كامل الشهيرة «لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا» ، إذ عدّلت النكتة من الجزء الأخير من هذه المقولة فأصبح «لوددت أن أكون مصريا بالخارج» !

★★★

قد يُنظر إلى هذا الذى حدث للتليفون فى مصر فى الستينات على أنه ثمن للاشتراكية، وقد يبدو هذا للبعض ثمنا زهيدا إذا قورن بما حققته الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا من مكاسب فى هذا العقد، وقد لا يبدو الأمر كذلك

لآخرين. ولكن المؤكد ، الذى يتفق عليه الجميع، أنه خلال العشر سنوات التالية، وهى فترة (لا اشتراكية ولا رأسمالية)، التى امتدت بين منتصف الستينات ومنتصف السبعينات ، كان الثمن الذى دفعناه جميعا، أيا كانت طبقتنا الاجتماعية، أعلى بكثير. فهذه الفترة لم تعرف لا تنمية ولا تليفونات.

كانت حرب ١٩٦٧ قد ضربت الاقتصاد المصرى ضربة قاصمة أصبح معها الاستمرار فى التنمية شبه مستحيل، فالجيش يراد إعادة بنائه، وسكان مدن القناة يجرى تهجيرهم وإعادة إسكانهم، وبترول سيناء قد أصبح فى يد الاسرائيليين ، وقناة السويس مغلقة، والمعونات الخارجية انخفضت بشدة. كانت النتيجة ليست فقط تأجيل الاستثمارات الجديدة بل إهمال تجديد وصيانة المرافق العامة القديمة إهمالا شديدا، اللهم إلا ما كان منها مسألة حياة أو موت، كاستبدال أنابيب الصرف الصحى لمدينة مهمة سياسيا، كمدينة القاهرة مثلا .

ما الذى يمكن أن نتوقعه للتليفونات فى هذه الفترة؟ كان الطلب على التليفونات قد استمر فى النمو بالطبع، وإن لم يكن بنفس معدل نموّه فى الستينات، ولكن لم يكن لدى الحكومة مال يمكن أن توجهه لمثل هذه الأمور الكمالية، فى ظروف ركود اقتصادى، ونضوب موارد العملات الأجنبية، وسخط شعبى عام بسبب ما حدث فى ١٩٦٧، لم يكن من الممكن اعطاء التليفونات أولوية ، لا عالية ولا منخفضة، ومن ثم تدهور حال هذا المرفق تدهورا شنيعاً ، حتى إذا بلغنا منتصف السبعينات، كانت الصورة قد أصبحت كوميدية تماما بقدر ما كانت مأساوية. كانت حيازة المرء لجهاز تليفون، بل ولرقم وخط تليفونى، لا يعنى الكثير فى الواقع، «فالحرارة» لا تدب فى التليفون إلا لماما، وإذا رفعت السماعة ووجدت فى التليفون أى حرارة فأنت شخص سعيد الحظ، ميمون الطالع، أما إذا لم تجد حرارة، وهو الغالب الأعم، فسوف يتوقف نوع سلوكك على نوع شخصيتك ومزاجك ومدى ما تتحلى به من صبر. وقد شاع بين الناس فى هذه الفترة توجيه النصائح حول المسلك الأمثل فى مواجهة انعدام حرارة التليفون. فالبعض كان ينصح بالانتظار حتى تأتى الحرارة من تلقاء نفسها، وآخرون كانوا يرون أن الانتظار لا ينفع ولابد من الضغط عدة مرات على الزّر الذى توضع عليه السماعة. فإذا حدث وجاءت الحرارة فإن فرصة استجابة التليفون للرقم الذى تطلبه بعيدة الاحتمال، وهنا أيضا كان البعض ينصح باتباع طريقة معينة فى إدارة قرص التليفون، فزعم بأن الضغط بطريقة معينة على هذا القرص قد يؤدى إلى نتيجة إيجابية.. وهكذا .

فى مثل هذه الظروف كان شعور من فشل منذ الستينات فى الحصول على خط تليفونى أقل وطأة من ذى قبل، فالذى قدم طلبا للحصول على تليفون فى منتصف الستينات ولم يرد على طلبه حتى منتصف السبعينات، بدأ يشعر بنوع من المساواة بينه وبين من حصل بالفعل على رد وأصبح يحوز تليفونا، إذ لم يبد ثمة فارق كبير بين حيازة تليفون وعدم حيازته .

لم يكن الأمر فى أوائل السبعينات

مقصورا على التليفونات بالطبع. إذ لم تكن المرافق الأخرى بأحسن حالاً . كانت مياه الصرف الصحى يتكرر طفحها كل بضعة أيام فى بعض من أهم أحياء القاهرة، ناهيك عن الحال فى المدن الأصغر والأحياء الأقل أهمية. كما تكرر انقطاع الكهرباء عن البيوت وأظلمت كثير من الشوارع، إما بسبب تكرر سرقة الكابلات أو «اللمبات» ، أو بسبب تعذر الانفاق على شبكات الكهرباء، كذلك بدت مياه الشرب عاجزة عن الوصول إلى الأدوار العليا، والشوارع بدأ يظهر فيها كل يوم مطب جديد أو حفرة بسبب تهالكها وسوء تعبيدها.

● ضربة للتأديب !

بدت مصر وكأن شخصاً ما يعاقبها عقابا قاسيا على سوء سلوكها فى العشر أو العشرين سنة السابقة، وأن حرب ١٩٦٧ (أو بالأحرى هجوم ١٩٦٧، فقد كان ما حدث فى الواقع هجوما مباغتا سرعان ما انتهى دون حرب تذكر) كانت ضربة للتأديب حتى تعلن مصر ندمها وأسفها ونيتها فى أن تفعل ما يطلب منها.

وقد فعلت مصر ذلك فبدأت الأمور تتغير ابتداء من منتصف السبعينات ولو ببطء شديد. وتمخض هذا، فيما يتعلق بالتليفونات، عن تقديم قرض لمصر ببليونين من الدولارات لاصلاح الشبكة القائمة ومد خطوط جديدة. فلما بلغنا منتصف الثمانينات كانت حال التليفونات قد أصبحت مختلفة تماما: توقف الناس عن الكلام عن التليفونات وشرعوا يتكلمون بالتليفون بالفعل. ظل المصريون بضع سنوات يستغربون، إذا سمعوا صوتا كالحرارة بمجرد أن يرفعوا السماعة، ويستغربون أكثر إذا ما أداروا قرص التليفون بالرقم المطلوب أن يسمعوا بالفعل صوت الشخص الذى يريدون سماعه. هجم الناس هجوما عاصفا طالبين الحصول على هذا الجهاز الذى أصبح يشتغل بالفعل، وأبدوا استعدادهم لدفع المبلغ المطلوب لتركيب ما كان يسمى وقتها «بالتليفون الفورى» . ولكن حتى هذا لم يعد ضروريا بعد فترة قصيرة. إذ أصبح تركيب التليفون يكاد يكون فوريا دائما ومع ارتفاع دخول شرائح واسعة من المصريين خلال الفترة (٧٥ - ١٩٨٥) بسبب شيوع الهجرة إلى دول النفط، حصلت شرائح اجتماعية جديدة على تليفون، وهى التى لم يكن يدور بخلدها يوما أن تحوز مثل هذا الجهاز العصرى. ومع تحسن الشبكة وانتشار السنترالات زاد أيضا وجود التليفون فى القرى، وإن ظل مقتصرا فيها على الميسورين.

فى منتصف الثمانينات إذن، لم يعد التليفون ذلك الجهاز الارستقراطى كما كان فى الأربعينات، الذى يقتصر وجوده على بيوت الباشوات والبكوات، ولم يعد مجرد جهاز لاستخدام المهنيين والشرائح الميسورة من الطبقة الوسطى، كما كان فى الخمسينات والستينات ، ولم يعد ذلك الجهاز الصامت الذى ينطبق عليه وصف العصر الفيكتورى للأطفال (شىء يمكن أن يُرى ولكنه لا يمكن أن يُسمع)، بل أصبح الآن، فى منتصف الثمانينات، شيئا حياً يُرى ويُسمع وشائع الاستخدام. كذلك فإنه لم يعد ذلك الشىء الثقيل الثابت فى مكانه كالصخرة، بل أصبح شيئا خفيف الوزن، طويل السلك، يسهل نقله من حجرة لأخرى، بل لقد بدأ يشيع استخدام ذلك التليفون الذى لا يحتاج إلى سلك على الاطلاق ، أى (اللاسلكى) الذى ينتقل معك دون أى قيد، من حجرة لأخرى ومن دور إلى دور.

● تغير الأسلوب

من السهل أن يخمن المرء ما كان لابد أن ينتج عن هذه التطورات التكنولوجية من تأثير على العلاقات الاجتماعية، وعلى مضمون المكالمات التليفونية نفسها، مما يؤيد قول مارشال ماكلوهان (إن الأداة هى نفسها الرسالة). فالمكالمات فى ظل هذا التقدم الخطير ليس من الضرورى أن تتم بمسمع من الجميع، ومن ثم فقدَ ربّ الأسرة سيطرته على ما يجرى من خلال التليفون. ومع سهولة الحصول على تليفون ، وزيادة عدد الناس الذين يمكن الاتصال بهم عن طريقه، فقد ربُ الأسرة أيضا احتكاره للتليفون . أصبح من الممكن الآن استخدام التليفون فى الفارغ والملآن، وفى الاتصال بالمهمين وغير المهمين. ومع انخفاض نفقة الحصول على التليفون ونفقة المكالمات التليفونية بالنسبة إلي الدخل، وانتشار التليفون بين شرائح اجتماعية أوسع، وأقل اتصالا بأنماط الحياة الغربية، بدأت «تقاليد استخدام التليفون» تتغير تغيرا ملحوظا. فقد طالت مدة المكالمات التليفونية بدرجة كبيرة، إذ إن من العادات المصرية الصميمة وغير المألوفة فى الغرب، عدم الدخول فى الموضوع المقصود دخولا مباشرا، بل لابد من التحيات والسؤال عن صحة من تتكلم معه وعن أنجاله نجلاً نجلاً، كما أن من المستهجن إنهاء المكالمة إنهاء قاطعاً بمجرد تحقيق المقصود منها، بل لابد أن يتراخى الكلام بالتدريج وتبادل التعبير عن مختلف العواطف والتمنيات قبل وضع السماعة.. كذلك بدأ يقل استخدام كلمة «آلو» أو «هالو» الغربية، فى افتتاح المكالمة، وبدأ يزيد استخدام العبارة العربية «السلام عليكم» ، مع شيوع التدين من ناحية، وارتفاع نسبة من أمضوا بضع سنوات فى دولة عربية من دول الخليج.

★★★

حدث بعد عشر سنوات أخرى تطور جديد فى مصر لم يكن أحد ليتوقعه أو حتى ليحلم به، مما يمكن أن يحمل فى طياته ثورة حقيقية فى الاتصال التليفونى، لا يمكن مقارنتها بأى تطور سابق فى هذا الميدان. فالتليفون لم يتحرر فقط من الالتصاق بمكان معين، ومن السلك القصير أو الطويل، بل أصبح الإنسان –أيا كان مكانه، فى المنزل أو الطريق العام ، فى مبنى مسقوف أو فى وسط الحقول، فى عرض البحر أو وهو محلق فى طائرة فى السماء – قادراً بعملية لمس بسيطة على تبادل الحديث مع أى شخص على ظهر البسيطة.

لقد دخلت مصر فى منتصف التسعينات عصر «المحمول» . والمقصود بالمحمول هنا، على الرغم مما ينطوى عليه اللفظ من معنى التدليل والإعزاز، ليس طفلا بل تليفون. والمدهش أن هذا التقدم التكنولوجى الخطير أصبح من الممكن مشاهدته فى شوارع مصر ونواديها ومطاعمها وجامعاتها وشواطئها، وهى الدولة المتخلفة اقتصاديا بالنسبة لغيرها، أكثر مما تشاهده فى شوارع لندن أو باريس. بل وقد امتد المحمول إلى شرائح اجتماعية أدنى نسبيا فى السلم الاجتماعى، من الشرائح التى امتد اليها فى المجتمعات الأكثر ثراء. ولكن يبدو أن هذا لا يجب أن يكون مدهشا على الاطلاق. فالمفروض أن نكون قد تعوّدنا على أن أشياء اخترعت فى الأصل لتحقيق أهداف محددة فى البلاد التى اخترعت فيها، أصبحت عندنا تستخدم ، لا لتحقيق هذه

الأهداف، بل كرمز من رموز الصعود الاجتماعى. حدث هذا للسيارة الخاصة، وللتليفزيون والفيديو والدش. وها هو ذا يحدث للتليفون المحمول.

● الاختراع العجيب !!

فالمحمول اخترع فى الأساس لتوصيل رسائل قصيرة لا تحتمل الانتظار حتي يصل رجل الأعمال إلى مكتبه أو منزله، فيستخدم المحمول في إرسال أو استلام رسائل أثناء وجوده فى سيارته أو فى الطريق العام أو فى أى مكان خارج حجرة مكتبه. التقط المصريون هذا الاختراع العجيب بمجرد ظهوره، فاستخدمه بعض رجال الأعمال فيما اخترع له، ولكن الاقبال الأشد عليه كان ممن يريد أن يظهر بمظهر رجل الأعمال، أو أن يبدو أمام الناس فى هيئة الرجل المهم، الوقت عنده من ذهب، ولا تحتمل مكالماته الانتظار، فإذا به يحمل المحمول إلى المسرح أو السينما فيدق الجرس أثناء المسرحية أو القطعة الموسيقية أو الفيلم، أو يحمله في الطريق العام فيلفت نظر المارة إليه، أو في المطعم حيث يلتفت إليه المحيطون به مبهورين مفتونين. وخطر لبعض الآباء والأمهات الميسورين أن يعطوا لأولادهم وبناتهم محمولاً للاطمئنان على فلذات أكبادهم فى كل لحظة وكل مكان، فدخل المحمول الجامعات حيث يثير به الطلبة الميسورون غيرة الطلبة غير الميسورين. لقد أصبح الأمر شبيها بالسيارة اللعبة التى تعطيها لطفل ليمثل أمام نفسه وأمام الناس أنه أصبح يقود سيارة مثل أبيه، دون أن تكون السيارة قادرة بالطبع على الانتقال من مكان لآخر إلا بتحريك الطفل لقدميه فى أسفل السيارة. ولكن هذا لا يمنع بالطبع من أن يظن الطفل أنه قد أصبح قائد سيارة حقيقى.

قد يبدو الأمر وكأنه ينطوى فقط على ما يثير الضحك أو السخرية دون أن يكون شيئا عظيم الخطر. ولكن الواقع ، فيما يبدو لى ، غير ذلك. فالمحمول يحمل في طياته تطورا قد يمثل نقلة نوعية تختلف اختلافا جذريا عن كل التطورات السابقة التى لحقت بالتليفون . لقد أصبح منظر الشخص وهو يتكلم فى الطريق العام بصوت مسموع، يشخط وينطر، أو يضحك ويقهقه ، وأنت لا ترى فيمن يشخط ولا تسمع ما يضحكه، أصبح المنظر مؤذيا لسبب لم أهتد لكنهه بعد. كما أصبح صوت المحمول، يأتيك خلال انهماكك فى حديث ودى مع صديق أو فى مناقشة مهمة مع زميلك فى العمل، فإذا بهذا الصديق أو الزميل ينصرف عنك كليّة للكلام مع شخص تجرّأ دون إذن فتدخل بينكما ، وكأن له الحق فى أن يعكّر صفو أى شخص، ويقطع أى حديث، فى أى وقت وأى مكان، لمجرد أنه حائز لهذا الجهاز التكنولوجى المدهش . إن كل هذا يحمل في طياته شيئا أخطر من مجرد تطور آخر فى تكنولوجيا الاتصال.

إن هذا المحمول ، وأمثاله لن يغير فقط من مضمون الحديث الذى يقال من خلاله، كما سبق أن نبهنا مارشال ماكلوهان ، بل إنه ينبىء بإضفاء طابع قبيح للغاية على العلاقات الاجتماعية، بل هو طابع شيطانى، يذكّر المرء بلاشك ، بالخوف الذى عبّر عنه الرسام الفرنسى رينوار منذ نحو مائة عام، والخوف الذى عبّر عنه شيوخ الوهابيين فى المملكة السعودية، منذ نحو سبعين عاما، دون أن يكونوا على دراية تامة بمعنى هذا الطابع الشيطانى بالضبط '





محمود محمد الطناحي

أديبا ومحققا

بقلم: د. محمود على مكى

●● لم نكد نجفف دموعنا ونفيق من وقع فجيعتنا فى وفاة العلامة الكبير محمود محمد شاكر (٧ أغسطس ١٩٩٧م) حتى رزئنا برحيل تلميذه محمود الطناحى، ونحن أوسع ما نكون أملا فى أن يكون خليفته ومواصل مسيرته العلمية، ولا سيما فى مجال تحقيق التراث وخدمته. وكأن شاعرنا القديم كان يصور مصابنا فى العالمين الجليلين حينما قال:

مصاب ولم أمسح يدى من قسيمه
وجُلَّى وما نَفَضْتُ من أُخْتِها رُدْنِى

على أن الملابسات التى أحاطت بما تم من قدر الله فيهما قد اختلفت بين الفقيدين. فقد كانت وفاة محمود شاكر وهو على مشارف التسعين من عمره بعد صراع مع المرض امتد طوال أكثر من عام، وكنا نتابع إلحاح العلة عليه يوما بعد يوم، ونفوسنا تتقطع عليه حسرات ونحن نراه يذبل عضوا فعضوا، الى أن نفذت فيه إرادة الله. وأما محمود الطناحى فقد اختطفته يد الموت فجأة فى مارس ١٩٩٩ م وهو لم يجاوز الستين إلا بسنوات قليلة، وكان فى كامل عافيته، فقد كنا نلتقى به قبل وفاته بأيام وهو كالعهد به نشاطا جمًّا وحيوية دافقة، وكأنه نبت حصده منجل الموت وهو فى تمام روائه ونضرته. وهكذا لم يمض عام ونصف عام حتى لحق التلميذ بشيخه، فربطت إرادة الله بينهما فى الحياة، ثم سوى بينهما الموت:

والموت أجور حاكم وكأنه
في الناس قسما بالسوية عادل

★★★

ولد محمود الطناحى عام ١٩٣٥م فى محافظة المنوفية، وانتقل الى القاهرة وهو فى الثامنة من عمره، وحفظ القرآن الكريم وهو فى الثالثة عشرة، فالتحق بمعهد القاهرة الدينى التابع للأزهر الشريف، فحصل منه على الشهادة الابتدائية ثم الثانوية سنة ١٩٥٨، والتحق بكلية دار العلوم وحصل على شهادة الليسانس فى علوم اللغة العربية والشريعة الاسلامية سنة ١٩٦٢. وواصل دراساته العليا فنال شهادة الماجستير فى قسم النحو والصرف والعروض عام ١٩٧٢، ثم الدكتوراه عام ١٩٧٨.

هذه فى سطور رحلة محمود الطناحى فى طريق التعلم والدراسة، وهى رحلة استغرقت أكثر من أربعين عاما، وأما حياته الوظيفية فقد بدأت منذ تخرجه فى دار العلوم، إذ عُيِّن فى سنة ١٩٦٢ معيدا بمعهد الدراسات العربية فى الجامعة الأمريكية، ولكنه انتقل بعد سنتين الى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، فعمل خبيرا به طيلة سنوات دراسته العليا أى حتى حصوله على الدكتوراه سنة ١٩٧٨. وأكسبه هذا العمل - الذى كان يتعاون فيه مع عالمى المخطوطات الكبيرين رشاد عبدالمطلب وفؤاد سيد - خبرة واسعة بكنوز التراث العربى فى سائر أنحاء العالم. فكان المعهد يعهد إليه بالاشتراك فى البعثات التى كان يوجهها إلى البلاد التى احتوت خزائن كتبها على نوادر المخطوطات: تركيا عام ١٩٧٠ والمملكة المغربية عامى

١٩٧٢ و١٩٧٥، والمملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣ وجمهورية اليمن الشمالية عام ١٩٧٤. وكان الهدف من هذه البعثات دراسة ما فى خزائن تلك البلاد من مخطوطات وانتقاء النادر منها لتصويره وحفظه فى معهد المخطوطات حتى تكون تحت تصرف المحققين والباحثين.

وبعد أن نال درجة الدكتوراه انتدب استاذا مشاركاً بقسم الدراسات العليا بكلية الشريعة وكلية اللغة ألعربية بجامعة أم القرى فى المملكة العربية السعودية، وظل يباشر عمله فى التدريس بتلك الجامعة حتى عودته النهائية لمصر فى سنة ١٩٨٩. وفى سنة ١٩٩١ عين أستاذا مساعدا بكلية الدراسات العربية والاسلامية بجامعة القاهرة فرع الفيوم، ثم رقى استاذا فى سنة ١٩٩٥، وانتقل للعمل فى كلية الآداب بجامعة حلوان فى قسم اللغة العربية. وخلال هذه السنوات اختاره مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية خبيرا به، كما انتخب عضوا بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربى فى معهد احياء المخطوطات العربية فى منظمة اليونسكو العربية. وكانت شهرته فى مجال معرفة التراث وتحقيقه مؤدية الى أن يختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة خبيرا فى لجنة المعجم الكبير، وكان عمله خلال السنوات الأخيرة فى هذه اللجنة مثريا لها بما كان يقدمه من تحقيقات ومراجعات تشهد بعلمه الواسع بالتراث ومعرفته العميقة بمظانه والتمرس بتحقيق مخطوطاته. وبلغ من تقدير المجمع لجهوده أن كثيرا من أعضائه رأوه جديرا بأن يرشح لعضوية المجمع، لولا أن وفاته المفاجئة حالت بيننا وبين اسعاد الحظ لنا بذلك.

وأما جهود محمود الطناحى العلمية فى التحقيق والتأليف فقد بدأت منذ تخرجه. إذ أخرج فى سنة ١٩٦٣ بالاشتراك ثلاثة أجزاء من كتاب «النهاية فى غريب الحديث والأثر» لمجد الدين ابن الأثير، ثم انفرد بتحقيق الجزأين الأخيرين من هذا الكتاب. وفى السنة التالية نشر - مشتركا مع زميله الفقيد عبدالفتاح الحلو - كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» فى عشرة أجزاء، ثم أعاد نشر هذا الكتاب الموسوعى سنة ١٩٩٢، بمزيد من التنقيح والاضافة فى هذه الطبعة الثانية.

وتوالت بعد ذلك أعماله فى تحقيق نصوص تراثية بالغة القيمة منها «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين» (مكة

المكرمة) لتقى الدين الفاسى (١٩٦٩)، وكتاب «الغريبين» - غريبى القرآن والحديث - (١٩٧٠)، وجزأين من معجم «تاج العروس» للمرتضى الزَّبيدى - السادس عشر والثامن والعشرين - (١٩٧٦ - ١٩٩٣)، و«منال الطالب فى شرح طوال الغرائب» لمجد الدين ابن الأثير (١٩٨٣)، وقد حصل بتحقيقه لهذا الكتاب على الجائزة الأولى فى تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية، وكتاب «الشعر» لأبى على الفارسى (١٩٨٨)، و«أمالى ابن الشجرى» (فى ثلاثة أجزاء - ١٩٩٢).

وجهود محمود الطناحى فى هذه المصادر التى قام بتحقيقها تضعه فى مصاف كبار العلماء الذين نهضوا بهذه الرسالة الجليلة، من أمثال عبدالعزيز الميمنى وعبدالسلام هارون ومحمود شاكر رحمهم الله وأثابهم على ما قدموه لأمتهم من غيرتهم على تراثها الفكرى وخدمة له، والمقدمات التى كان يكتبها الطناحى لما نشر من هذه الكتب تعد فى ذاتها كتبا اصيلة تحدد أصول المنهج الذى ينبغى أن يلتزم به من يضطلع بالتحقيق، وما أكثر ما يتسوّر على هذا الميدان من ليس له بأهل، فإذا بهم يهدمون من حيث ظنوا أنهم يبنون، **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾**. ويكفى أن أحيل القارىء على تقديم الطناحى لكتاب «الشعر» لأبى على الفارسى، فقد أوضح فيه - ببيانه الجلي البديع - كيف يسىء للتراث من يظنون أنهم يحسنون العمل فى نشره، ونبه على أوجه الخلل فى الطرق التى يتبعها هؤلاء، ثم رسم خطوط المنهج القويم لتحقيق كتب التراث، وهو المنهج الذى كان هو أول الملتزمين به.

النشر العلمي

ولمحمود الطناحى بعد ذلك مؤلفات أصيلة دار كثير منها حول هذا الموضوع الذى قضى معظم سنى حياته فى خدمته، وهو النشر العلمى لتراثنا الفكرى، أذكر منها «مدخل الى تاريخ نشر التراث العربى». و«الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»، و«نبذة فى تاريخ الطب العربى» وغير ذلك من التحقيقات والمراجعات والفهارس التى تعد نماذج لما يجب أن تكون عليه الفهرسة للكتب التراثية، وهو عمل يخطىء من يظنه جهدا آليا تكميليا لتلك الكتب،

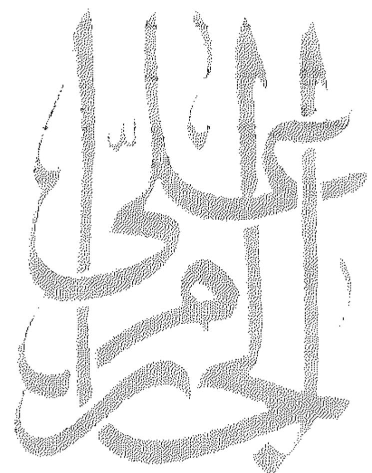
وإنما هو لون من ألوان التأليف يفرض على من يمارسه من دقة النظر وحصافة الرأى ما يلتزم به المؤلف الأصيل.

وما أكثر ما نجد فى تعليقات محمود الطناحى ومقدمات الكتب التى نشرها من آراء يصحح بها كثيرا من: أحكام تتردد فى الكتب المدرسية وغير المدرسية وكأنها مسلمات ثابتة، ومنها ما ورد فى تقديمه لأمالى ابن الشجرى من «أن كثيرا من الدارسين يخطئون حين يسرفون فى تقسيم عصور الفكر العربى الى عصور علو وعصور انحطاط . وإن المتتبع لحركة الفكر العربى فى عصوره المختلفة يروعه هذا الحشد الهائل من العلماء وطلاب المعرفة. وقد شمل هذا النشاط العالم الاسلامى كله، مشرقه ومغربه، ولم يفضل عصر أو مصر سواهما الا ما يكون من بعض الفروق الهينة التى تفرضها طبائع الزمان والمكان. أما حركة العقل العربى من حيث هى فلم تخمد جذوتها، ولم تسكن حدتها، بتغير الحكام وتبدل الأيام، وإن أردت أن تعرف صدق ما أقول فانظر الى ما اشتمل عليه القرنان السادس والسابع (الهجريان) من كبار المفكرين والعلماء، وأنت تعلم أن هذين القرنين قد شهدا أعنف هجوم تعرضت له الأمة الاسلامية : الحروب الصليبية، والغزوة التترية، وقد كان هذا الهجوم الكاسح كفيلا بالقضاء على هذه الأمة الإسلامية لولا دفع الله وصيانته».

★★★

لقد شغلنا تتبع جهود محمود الطناحى العلمية عن جانب آخر من جوانب شخصيته، وهو خلقه وسلوكه فى حياته وعلاقاته بمن حوله. والحقيقة أن الجانبين مرتبطان أشد الارتباط، فالعالم الذى يعرف حق العلم عليه لا يمكن إلا أن يكون فاضلا يعرف حق أسرته ومجتمعه عليه. وهكذا كان محمود : لقد اتصلت الأسباب بينى وبينه على مدى سنوات طوال، فلم أعرف فيه إلا دماثة الخلق، وطيب العشرة، وحب الخير للجميع. يجمع ذلك الى التواضع وعدم الادلال بعلمه، والوفاء لأساتذته وزملائه، وعفة اللسان. لقد حورب حتى فى رزقه، ولكنى لم أسمعه يذكر أحدا بسوء، حتى أولئك الذين آذوه لم يجر على لسانه الا طلب المغفرة لهم. وفى ذلك من نبل النفس والترفع عن الصغائر ما لا نجده الا فى نماذج نادرة من الرجال.





لغويا نحويا

بقلم :

د . محمود الطناحى

آخر مقال كتبه الأستاذ الدكتور محمود الطناحى قبيل رحيله المفاجيء!

●● الشعر باب العربية ، والشعراء الكبار هم أقدر الناس على معرفة أسرار العربية ، والوقوف على دقائقها ، ثم الحرص عليها والذود عنها ، وماكان ذلك إلا لأنهم قرأوا فأكثروا القراءة، وحفظوا فجوّدوا الحفظ ، ولن تجد شاعراً كبيراً إلا ووراءه رصيد ضخم من القراءة المحيطة الجامعة للغة في مجالاتها المختلفة، ويظهر هذا الرصيد فيما يسميه أهل زماننا «المعجم الشعرى» للشاعر : حروفاً وأبنية وتراكيب ودلالة ●●

على الجارم «رحمه الله» ، واحد من كبار الشعراء الحفظة العلماء الضابطين ، وكانت هذه سمة الجيل كلّه ، شعراء وناثرين ، مع تفاوت يسير بينهم ، برزق الله المقسّم على خلقه ، نعم كان هذا الجيل جيل الجد والتحصيل ، جيل لم يرفع عينه عن القراءة، ولم يشغله عنها حديث وثرثرة عن التجربة والإبداع والخلق والمعاناة ، فإن من الملاحظ الآن أن الأدباء والشعراء يتكلمون أكثر مما يقرأون ، ويستمعون أكثر مما يتأملون ، وقد قال ابن قيم الجوزية : «من لم تنفعه عينه لم تنفعه أذنه» .

وأنت إذا نظرت إلى ماكان بيد ذلك الجيل من الكتاب المطبوع ، وجدته شيئا

نزراً قليلا ، ولكن هذا النزر القليل صنع رجالاً ، وشاد ثقافة . واليوم كثرت المطبوعات ، وقلت القراءة .

وداعية أخرى إلى العجب : أن الكتاب المطبوع في ذلك الزمان لم يكن معتنى به ، من حيث التحقيق والتوثيق وحسن الإخراج ، فلم تكن مناهج تحقيق النصوص قد استقرت ، ولم تكن وسائل الطباعة الحديثة قد عُرفت ، ومع كل ذلك فقد أقام هذا الكتاب «المَطبوع» المحدود ، الساذج في إخراجه ، حضارة سامقة ، أضاءت ديار العرب والإسلام كلها ، وما أشبَّه أدباءَ ذلك الزمان إلا بتاجر صنع، بيده رأس مالٍ محدود ، ولكنه استطاع بلباقته وحسنٍ تأتيه أن يحرك هذا المال المحدود ، ويغدو به ويروح، ليصنع منه ثروة ضخمة .

كان هذا هو طريق الجارم وأدباء زمانه ، أخلصوا أيامهم للقراءة والتحصيل، ووعت ذاكرتهم هذه النغمات الجليلة التي حملها بديع الشعر وكريم النثر ، في موروثنا الحافل . وحين تهيأت لهم أدوات القول والإبانة ، خالط الطارفُ التليد ، وذاب مال المورِّث الجامع في مال الوارث الرشيد ، أو كما قال صديقنا عبداللطيف عبدالحليم ، عن شاعرنا الجارم «ويطلّ على هذا المحفوظ المذخور من علٍ ، فإذا بمحفوظه يتوارى ليبرز كَلامه هو» .

وإذا كانت هذه الكلمة اليوم عن «على الجارم» اللغوى النحوى ؛ فإن ذلك يلتمس من جانبين : الجانب الأول : نشاطه التأليفي والبحثي ، من حيث هو معلم للغة العربية ، ثم كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية ، ثُم من حيث هو عضو مؤسس من أعضاء مجمع اللغة العربية .

والجانب الثاني : إبداعه الشعرى ، من حيث هو شاعر كبير ، في شعراء عصره ، وشعراء ذلك الزمان كانوا – كما قلت – من اللغة والنحو بمكان مكين .

وقبل الحديث عن هذين الجانبين ، أود أن أشير إلى شيء من تلك المكانة اللغوية التي اقتعدها الجارم عند علماء عصره ، فهذا الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي ، وهو محدّث العصر ، وواحد من مدرسة الأفذاذ في تحقيق النصوص ونشرها يذكر أنه كان يلجأ إلى على بك الجارم ، ويعرض عليه عمله في تحقيق كتاب «الرسالة» للشافعي ، وكان ممّا عرضه عليه كلمة «النذارة» وهي مضبوطة في المخطوطة بكسر النون ، ولم يرد ذلك في المعاجم المتداولة ، ولكن المخطوطة بقلم الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي ، وعليها خطه عام ٢٦٥ هـ وهذا تاريخ مهم جدا في علم المخطوطات . يقول الشيخ أحمد شاكر : «ومن أقوى الأدلة على عنايته بالصحة والضبط ، أنه وضع كسرة تحت النون في كلمة «النذارة» وهي كلمة نادرة ، لم أجدها في المعاجم إلا في القاموس ، ونصّ على أنها عن الإمام الشافعي . وهي تؤيد ما ذهبتُ إليه من الثقة بالنسخة ، وتدلّ على أن الربيع كان يتحرى نطق الشافعي ويكتب عنه عن بيّنة ومن الطرائف المناسبة هنا أني عرضت

هذه الكلمة على أستاذنا الكبير العلاّمة أمير الشعراء على بك الجارم ، فيما كنت أعرض عليه من عملى فى الكتاب ، فقال لى : «كأنك بهذه الكلمة جئت بتوقيع الشافعى على النسخة . وقد صدق حفظه الله».

الجارم لغويا ونحويا

ثم نعود إلى هذين الجانبين اللذين يُلتمس منهما عناية الجارم باللغة والنحو .

ففيما يتصل بالجانب الأول فقد كان لعلى الجارم أثر ظاهر فى تأليف الكتاب المدرسى ، الذى كان يقدّم لطلبة المدارس ، فى المرحلتين : الابتدائية والثانوية ، ومن خلاله يتعلمون النحو والبلاغة والأدب . فكانت هذه الكتب التى اشترك فى تأليفها مع نفر من كبار علماء عصره : المجمل فى الأدب العربى ، والمفصل فى الأدب العربى، والبلاغة الواضحة ، ثم ذلك الكتاب الجهيرُ الصوت ، الذائع الصيت «النحو الواضح» ويقول النحوى الكبير الأستاذ إبراهيم مصطفى ، فى شأن سلسلة (النحو الواضح) : «وهى كتب بارعة فى الشرح والتوضيح ، وفى تقريب النحو وتيسيره ، وقد أراحت مئات من المعلمين ، ويسرت على ألوف من المتعلمين، وأزاحت عن هذا العلم سحباً من النفور والكراهية كانت تحيط به وتصدّ المتعلمين ، ثم شاعت فى البلاد العربية ، وصارت كالمنهاج لتعليم النحو ، وأحدث أسلوبها فى الشرح والتأليف مدرسة ، أخذ المعلمون يتبعونها ويؤلفون على مثالها ، محاكين أو مقلّدين».

والكتاب المدرسى فى ذلك الزمان كان يقوم عليه كبار الأدباء والشعراء ، أمثال : حفنى بك ناصف ، والشيخ أحمد الإسكندرى ، والشيخ مصطفى طموم ، وأحمد بك العوامرى ، فكان ذلك الكتاب مهاباً جليل القدر ، وكان يُنظر إليه بتوقير شديد ، على غير ما نراه الآن من النظر إلى الكتاب المدرسى نظرة استخفاف وازدراء ، بل إن هذا الوصف «كتاب مدرسى» قد صار مجلبة للتنقص وطريقاً إلى المعابة ، وآية ذلك أنه لا يحسب فى موازين الأستاذ الجامعى ، فلا يؤخذ فى ترقية ، ولا يقدم إلى جائزة . ولاشك أن الذى كره إلى الناس ذلك «الكتاب المدرسى» أنه يتخذ الآن سبيلاً للتربح وجمع المال .

وفى طريق الكتاب المدرسى قام الجارم بعمل جليل آخر ، هو تقديم عيون التراث إلى النشء الصغار من تلاميذ المدارس ، ومن ذلك تلك الطبعة من «البخلاء» للجاحظ ، التى أخرجها مشتركاً مع أحمد العوامرى ، ثم كتاب «الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية» لابن الطقطقى ، مشتركا مع الجغرافى الكبير محمد عوض إبراهيم ، وكتاب «المكافأة وحسن العقبى» لأحمد بن يوسف الكاتب ، مشتركا مع أحمد أمين ، وكتاب «تهذيب الأخلاق» لمسكويه ، مشتركا مع نفر من كبار الأساتذة . فانظر ماذا كان يقدم لطلبة المدارس فى تلك الأيام ؟.

فهذا هو الشطر الأول من أثر على الجارم ، فى التأليف اللغوى والنحوى ، سقته على سبيل الوجازة والاختصار .

أما الشطر الثانى منه فمجلاه نشاطه فى مجمع اللغة العربية ولجانه ، وقد كان الجارم أحد الأعضاء المؤسسين للمجمع ، واشترك فى لجانه كلها ، فرسخ تقاليد مجمعية لازالت باقية إلى الآن ، وملأ اللجان باقتراحاته ومناقشاته ، مما هو مذكور ومسطور فى مجلة المجمع ومحاضره .

ومن بحوثه واقتراحاته :

الترادف - طرق تكميل المواد اللغوية - المصادر التى لا أفعال لها - وضع قواعد جديدة يستعان بها فى اشتقاق الأفعال من الجامد - بحث فى فَعيل بمعنى مفعول وبمعنى قابل للفعل - الجملة الفعلية أساس التعبير فى اللغة العربية - الوضع بطريق المجاز - مراتب وضع الألفاظ - مشروع تيسير الكتابة العربية - مصطلحات الشئون العامة .

ومن مجموع هذه البحوث والمقترحات أحب أن أقف عند أمرين اثنين ، يظهر فيهما تضلع الجارم من اللغة ، وصبره على تحصيلها ، واحترامه لها :

الأمر الأول : ذلك البحث الذى وسمه (بالمصادر التى لا أفعال لها) وقد أقام الجارم هذا البحث على ما ذكره ابن سيده فى صفحة (٢٢٣) من الجزء الرابع عشر من المخصص (باب أسماء المصادر التى لا يشتق منها أفعال) وقد انتهى ابن سيده إلى أن هناك أربعة وخمسين مصدراً لا أفعال لها .

يقول الجارم : «وقد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب فى المعجمات ، فظهر أن لجميعها أفعالاً ، عدا سبعة منها» . ثم أخذ رحمه الله فى ذكر كلام ابن سيده ، ثم تعقبه بما فى المعاجم: الصحاح واللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمصباح المنير .

والأمر الثانى : ما ذكره عن «غريب اللغة» ، قال : «وإذا كانت لدينا ذخيرة مغمورة فى اللغة فلم لا نستعملها ونحييها ، وننقلها من بداوتها إلى نور الحضارة ؟ والاستعمال كفيل بصقلها واستساغتها» .

ويعود مرة أخرى إلى «غريب اللغة» فيقول ، وهو يتحدث عن المعجم الكبير : «فإن هذا المعجم سيشتمل على كل شىء ، من حديث الكلام الصحيح وقديمه ، مشهوره وغريبه ، ذائعه ونادره» .

وقضية «غريب اللغة» من القضايا الشائكة العسرة فى زماننا هذا ، فكثير من الناس ينادون الآن بهجر الغريب من الكلام ، واستعمال السهل القريب ، وما أظنهم ينادون بذلك إلا لسببين : السبب الأول : عدم معرفتهم بكثير من هذا الكلام الغريب ، والإنسان يستوحش مما لا يعرفه وينكره ، على ما قال ربنا عز وجل : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يونس - ٣٩ .

والسبب الثانى : أنهم يخلطون بين

«الغرابة في اللغة» والغرابة في «البلاغة» . فالغرابة في البلاغة يراد بها : الكلام الحوشى المستكره ، أصواتا ودلالة ، على ماهو مذكور في كتب البلاغيين .

أما غرابة اللغة فهي شيء آخر . فالغريب من الكلام - كما ذكره أبوسليمان الخطابي (٣٨٨ هـ) - «وهو الغامض البعيد من الفهم ، كالغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل .. ثم إن الغريب من الكلام يقال به على وجهين : أحدهما أن يراد به بعيد المعنى غامضه ، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر . والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار ، ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب ، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها ، وإنما هي كلام القوم وبيانهم ، وعلى هذا ماجاء عن بعضهم ، وقال له قائل : أسألك عن حرف من الغريب ، فقال : هو كلام القوم، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه».

أقول : واللهم نعم : «الغريب هو كلام القوم» وعدم أنسنا به أو استعمالنا له ، لا يخرجه عن دائرة كلام العرب ، وعلى أن الاستعمال ليس بدليل على الحسن ، كما يقول ضياء الدين بن الأثير

ومعلوم أن كلام العرب على وجهين : واضح وغريب ، ذكر هذا ونبه عليه واضع أول معجم عربي : الخليل بن أحمد الفراهيدى ، قال في مقدمة كتاب العين : «بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين ، وهو أقصى الحروف ، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب : الواضح والغريب».

وهذا الغريب من كلام العرب قد يكون له ما يقابله من الواضح ، فلك أن تعدل عن غريبه إلى واضحه ، مع فقر في معجمك اللغوى ، أنت مسئول عنه ومؤاخذ به ، عند تفاضل أقدار الكاتبين . وقد لا يكون له مايقابله من الواضح ، فلا معدى لك عن معرفته واستعماله ، والجهل به حينئذ مزرٍ بصاحبه ، ومضيق عليه سبل القول ومنادح الكلام ، ولا يحس لذع هذا، ويستشعر المحنة فيه إلا الشعراء ، من حيث هم محتاجون دائما إلى وفرة من الألفاظ وسعة في الكلام ، لا يفتحهما لهم ذلك الكلام السهل القريب .

ودعوة الجارم إلى استحياء الغريب من اللغة إنما هي دعوة في حق موضعها؛ لأن هذا الغريب من صميم اللغة ، والدعوة إلى هجره والتجافي عنه ليست من البر بهذه اللغة الشريفة ، بل هي عدوان عليها، وتحيف لشطر كبير منها . وهذه الألفاظ التي ينكرها بعض أهل زماننا ويستبشعونا لست تجدها في النصوص الأدبية فقط ، من شعر ونثر ، بل إنك واجدها في كتب الأنساب والتاريخ والبلدانيات (الجغرافيا) وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة ، وسائر ما كتب الأوائل من علومهم وفنونهم.

وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة في استحياء تلك الألفاظ التي يتحاشاها الأدباء والشعراء في زماننا هذا؛ زهادة فيها أو جهلاً بها ، أو

استسهالا للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة ، فيقول فى واحدة من كريم شعره :

كم لفظت جهدت مما نكررها
حتى لقد لهثت من شدة التعب
ولفظة سجنت في جوف مظلمة
لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما قد تولي القارظان بها
فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب

ثم صدق شعر الجارم مقترحه ، فكثر فى شعر الغريب كثرة ظاهرة ، وهذا مثلٌ واحدٌ من شعره ، من قصيدته فى مدح الشيخ الإمام محمد عبده :

المجد فوق متون الضمر القود
تطوى الفلا بين إيجاف وتوخيد
إذا رمت عرض صيهود مناسمها
رمت إليها الليالى كل مقصود
أو مزقت طيلسان الليل من خبب
كست خيال الأمانى ثوب موجود
مولاى علمتنى كيف الثبات إذا
لم يترك الرعب قلباً غير مزءود

على أن مما يجب التنبه له أن جميع شعراء النهضة الشعرية الحديثة ، بدءاً من محمود سامى البارودى حتى شاعرنا على الجارم كانوا عارفين بهذا الغريب من الكلام ، وكانوا لا يخلون شعرهم منه ، بل إن أمير الشعراء المعاصرين وعلمهم الكبير أحمد شوقى كان مكثراً من استعمال ذلك اللون من اللغة ، وله منه أعاجيب ، منها قوله :

خلوا الأكاليل للتاريخ إن له
يداً تؤلفها دراً ومخشلبا

فانظر إلى «المخشلب وهو خرز يشبه الدر من حجارة البحر ، وليس بدر ويقال انه لفظ نبطى، والعرب تقول الخضض» فهذه الكلمة ، هل يطيقها أحد من أهل زماننا ؟

لقد استخرجها شوقى من محفوظه من شعر أبى الطيب المتنبى ، وذلك قوله :

بياض وجه يريك الشمس حالكة
ودر لفظٍ يريك الدر مخشلبا

وقد ظهر لى من قراءة شعر الجارم أن كثيراً من هذا الغريب الذى فاض به شعره إنما واتاه من دربة طويلة مع النصوص الشعرية المأثورة ، ولم يأته من قراءة كتب اللغة أو المعاجم فقط . وآية ذلك أن بعضاً من تراكيبه الشعرية إنما انتزعه مما استقر في محفوظه من شعر الأوائل:

فمن ذلك قوله من قصيدة فى ذكرى المولد النبوى الشريف :

إذا صال لم يترك مصالاً لصائلٍ
وإن قال ألقت سمعها البلغاء

فالشطر الأول منتزع من قول معاوية ابن أبى سفيان ، يمدح عبدالله بن عباس رضى الله عنهم :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل
مصيب ولم يثن اللسان على هجر

وقوله :

غضبان رد إلي اليافوخ عفرته
ومن يصاول ليثاً وهو غضبان
لقد حمينا أباة الضيم حوزتنا
من أن تباح ودناهم كما دانوا

فهذا شعر ينظر إلى شعر الشاعر الجاهلى شهل بن شيبان ، المعروف بالفند الزمانى :

مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان
ولم يبق سوى العدوا
ن دناهم كما دانوا

وقوله من قصيدته فى سعد زغلول باشا :

إن أم المجد مقلات فكم
سوفت بين جنين وجنين

منتزع من قول الشاعر:

بغاث الطير أكثرها فراخاً
وأم الصقر مقلات نزور

وقوله من قصيدته فى محمد محمود باشا :

طارت شعاعا وهولاً مثلما عصفت
هوج الرياح برمل البيد فى البيد

مأخوذ صدره من قول قطرى بن الفجاءة ، من شعراء الخوارج :

أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال ويحك لن تراعي

وفي القصيدة نفسها يقول :

من كل أروع عنوان الجهاد به
قلب ركين ورأى غير مخضود

وفى هذا البيت شميم من قول حسان ابن ثابت ، يرثى عثمان بن عفان ، رضى الله عنهما :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

وفى هذه القصيدة أيضا :

ترنو إليه فتغضى من مهابته
فالطرف ما بين موصول ومصدود

ويحمل بعض هذا التركيب أثر قراءة لشعر الفرزدق، وهو قوله يمدح على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، المعروف بزين العابدين :

يغضى حياءً ويغضى من مهابته
فما يكلم إلا حين يبتسم

ويقول الجارم فى الأسرة العلوية :

شمس العداوة والحسام مجرد
فإذا انطوى فملائك أطهار

وصدر البيت مسلوخ من قول الأخطل، فى بنى أمية ، من قصيدته البانخة فى عبدالملك بن مروان :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

ويقول فى مدح أحمد لطفى السيد باشا :

ففى سكتة المبهور أصدق مدحة
وكل كلام بين حق وباطل

وفى ذلك المديح نوع شبه بقول عيسى ابن أوس ، فى الجنيد بن عبدالرحمن ، أمير خراسان :

مدحتك بالحق الذى أنت أهله
ومن مدح الأقوام حق وباطل

ومن مرثية الجارم فى صديقه «أبوالفتح الفقى» يقول – وهى من قصائده الجياد :

كل ابن أنثى فى الحياة إلى مدى
والمرء فى الدنيا إلى ميقاته

وهو ينظر إلى قول كعب بن زهير

رضى الله عنه ، فى «لاميته» الشريفة «بانت سعاد فقلبى اليوم متبول» :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوماً على آلةٍ حدباء محمول

ويقول الجارم فى مدحه للفاروق ملك مصر السابق ، ويهنئه بعيد الفطر :

هنيئاً لك العيد الذى بك أشرقت
منازله بشراً ضاءت رحائبه

وصدر البيت من قول المتنبى يمدح سيف الدولة ، ويهنئه بعيد الأضحى :

هنيئاً لك العيد الذى أنت عيده
وعيد لمن سمى وضحى وعيدا

ومن شعره فى قصيدة ضمنها بعض ذكرياته بعد عودته من أوربا :

يلقى بها أينما ألقى عصاه بها
أهلاً بأهل وأصهاراً بأصهار

ولا ريب أن الجارم قال هذا البيت وفى محفوظه قول الأول :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة
نزوع نفسٍ إلى أهلٍ وأوطَان
تلقى بكل بلادٍ إن حللت بها
أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيران

ومن قصيدة للجارم فى ويلات الحرب العالمية الأولى ، يقول :

لج به الموت فأودى به
وحز منه الليت والأخدعا

وآخر البيت من قول الشاعر الأموى الصمة بن عبدالله القشيرى :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى
وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

ويقول فى وصف جريدة لم يسمها :

وكنت صحيفة الأبرار حقاً
تلقتك الكنانة باليمين

وقد نظر فى ذلك إلى قول الشماخ ، فى عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

. ومن مرثيته لصديقه محمود فهمى النقراشى باشا ، يقول الجارم :

شيئان ما عيب البكاء عليهما
فقد الشباب وفرقة الألاف

وهذا من قول الشاعر :

شيئان لو بكت الدماء عليهما
عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما
فقد الشباب وفرقة الأحباب

وهذه القصيدة التى رثى بها الجارم صديقه النقراشى ، هى من أعلى شعره فناً وإحكاماً ، ومن أغربه لغةً وبيانا ، وقد أقامها على البحر «الكامل» ، واختار لها الفاء المكسورة روياً ، وأولها :

ماء العيون على الشهيد ذراف
لو أن فيضاً من معينك كافى

وأحسب أن الجارم حين جالت هذه القصيدة فى نفسه : موضوعاً وبحراً ورويا ، إنما كان يستدعى من مذخوره أخرى باذخة لأبى العلاء المعرى ، يرثى فيها أبا أحمد الموسوى ، الملقب بالطاهر ، وهو والد الشريف الرضى ، والشريف المرتضى . ومطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف
مال المسيف وعنبر المستاف

و«المستاف» هي إحدى القوافي التي انتزعها الجارم من قصيدة أبي العلاء . قال :

ذكرى كحالية الرياض شميمها
راح النفوس وراحة المستاف

وليست «المستاف» وحدها هي التي انتزعها الجارم من قوافي أبي العلاء في هذه القصيدة ، فهناك أخريات ، تراها في القصيدتين . وهي : الألاف - عبد مناف - دراف - الرجاف - الأصداف - الأطراف - الرعاف - ثقاف - الأسياف - قوادم وخواف - الضافي - قواف - الأشراف - سلاف - المصطاف - الأعطاف - المئناف .

ومع ذلك فتبقى في قصيدة الجارم قواف ، هي من كيسه ومن حر ماله ، ومن أحلاها وأعذبها وأخفها دماً ، مع عربية أصيلة ، قوله :

إن الفتى ما فيه من أخلاقه
فإذا ذهبن فكل شيء «مافي»

والحذف هنا بعد «مافي» جميل جدا .

وهكذا يكون الشاعر الكبير : تمتلئ نفسه بموروث الكلام : شعراً ونثراً ، ويجري هذا الموروث في دمه جريان الدم في العروق ، وتخالط بشاشته قلبه وعقله ، ثم يفيض على لسانه ؛ شريف المحتد موصول النسب ، ولكنه يبدو هو في نفسه سامق الهامة ، عالي الطول ، كذلك الطول المتوارث في بني عبدالمطلب .

ومن وراء ذلك كله فللجارم في شعره استعمالات دالة على بصره باللغة والتصريف ، يقول في إحدى قصائده :

هبني رجعت إلى الأوتار رنتها
فهل لشرخ الصبا واللهو رجعان

والفعل «رجع» هنا استعمله الجارم متعدياً فنصب به «رنتها» ، وكذلك استعمله متعديا في قوله :

وقفت تجدد آثارها
وتنشر للعرب أشعارها
وترجع بغداد بعد الفناء
تحدث للناس أخبارها

وفي هذه القصيدة نفسها يقول :

ترد الشبيبة للصالحات
وترجع للدين هتارها

وهذا الفعل الثلاثي «رجع» يستعمل لازما ومتعديا ، فيقال : رجع الحق إلى صاحبه ، ورجعت أنا الحق إلى صاحبه ، وهذا هو الأفصح أن يستعمل «رجع» متعديا ، فيقال : رجعت الكتاب إلى صاحبه ، ولا يقال : أرجعته ، إلا في لغة لهذيل ضعيفة .

وعلي تلك اللغة الفصيحة جاء القرآن الكريم ، قال تعالى : «فإن رجعك الله إلى طائفة منهم» سورة التوبة ٨٣ ، وقال تعالى : «فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن» سورة طه ٤٠ ، وقال تعالى : «ترجعونها إن كنتم صادقين» سورة الواقعة ٨٧ ، وقال تعالى : «فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار» سورة الممتحنة ١٠ ، وقال تعالى : «أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا» سورة طه ٨٩ ، ثم جاء المصدر من الثلاثي أيضا ،

فقال تعالى : «إنه على رجعه لقادر» سورة الطارق ٨ .

ومن ثقافة الجارم اللغوية أيضا استعماله الفعل «أمل» مخفف اللام ، فقال:

إذا أمل الفتى فالهزل جد
وإن يئس الفتى فالجد هزل

وأكثر ما يستعمل الناس هذا الفعل مشدداً «أمل» إلى حد أن هذا الفعل المخفف - مع سلامته اللغوية ومجيء اسم الفاعل واسم المفعول منه مجيئا صالحاً «آمل ومأمول» - قد خفي على بعض النحاة الأوائل ، وهو أبو نزار الحسن بن صافى بن عبدالله البغدادى ، المعروف بملك النحاة المتوفى (٥٦٨ هـ) فقد أثر عنه أنه قال : «وأمل ، لم أسمعه فعلاً ماضيا» وقد رد عليه ابن الشجرى ، وذكر له أن اللغويين حكوه وأجازوه ، وذكر له شيئا من شواهده ، ومنها قول المتنبى :

حرموا الذى أملوا وأدرك منهم
آماله من عاذ بالحرمان

ومن فقه الجارم باللغة أيضا استعماله كلمة «سائر» بمعنى «باق» ، يقول من قصيدة فى رثاء الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى :

تمرُّ به مرا فيسبيك بعضه
وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره

واستعمال «سائر» بمعنى «باق» هو الفصيح الأكثر ، مأخوذ من السؤر ، وهو ما يبقى فى الإناء ، ويرى بعض اللغويين أنه هو الصواب ، ولا صواب غيره ، يقول مجد الدين بن الأثير : «السائر : الباقى ، والناس يستعملونه فى معنى الجميع ، وليس بصحيح» . ومثل ذلك قال ابن الجوزى والحريرى ، لكن المرتضى الزبيدى حكى عن بعض أئمة اللغة والتصريف أنه يجوز استعمال «سائر» بمعنى الجميع .

ويستشهد أصحاب الرأى الأول بشواهد كثيرة من النثر والشعر ، ومن أحلى شواهده قول عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى ، ويعرف بأبى قطيفة :

لهم منتهى حبى وجل مودتى
وصفو الهوى منى وللناس سائره

★★★

وهكذا تضلع الجارم من لغته وفقهها، وعرف لها حقها فيما كتب وفيما نظم ، فأحلته هذه المنزلة الرفيعة بين شراء زمانه، واقتعدت له مكاناً عالياً فى ركب الشعراء العظام ، على ماقال هو يصف شعره ، فى مقدمة الجزء الثانى من ديوانه.

«شعر نصر الفصحى فنصرته ، وصان لها ديباجتها فصانته» .

وكما صان الجارم العربية فصانت له شعره ، فسيصونه الزمن أيضا ، فيبقيه طرياً غضاً على الألسنة ، مصوناً فى تلافيف القلوب ، على ما قال حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

مصون الشعر تحفظه فيكفى
وحشو الشعر يورثك الملالا

الفصحى والعامية

فى مواجهة غزو اللغة الأجنبية

بقلم : صافى ناز كاظم

وصلت القحة ببعض المسئولين عن قنوات تليفزيونية إلى التأكيد بحتمية إنتصار اللغة الإنجليزية- (اللهجة الأمريكية!) - لتصبح اللغة الساحقة للساننا العربى، فقالت إحداهن إنها تلقن مشاهدها الطفل كلمات مثل «ميلك» مستغنية عن «لبن» أو «حليب» لأنها مصرّة على مواكبة المستقبل - (ونحن دالفين إلى سنه ألفين!) - الذى تعى تماما سيادة اللغة الانجليزية فيه، وأنها لذلك حريصة على أن تأخذ بيد مشاهدها الطفل حثيثا نحو آفاق ذلك المستقبل الذى لن يكون للساننا العربى فيه مكان أو مكانة!

هذا كـلام سمعته منقولا، فأتمنى أن يكون مـجـرد نميـمـة وأنبـاء فاسق إلى أن نتبين، حتى لا تجبرنا الأيام الحالكة الظلمة على أن نزداد جهامة، ولا بأس أن نظل نحسب حدود معركتنا اللغوية ممتدة بين الفصحى والعامية، بعد أن أصبح من المؤكد الآن إستمرار العامية فى قصفها الثقيل وهى تتقدم بخطوات واثقة لتحتل مواقعها البارزة وتكون عناوين رئيسية للصحف والمجلات القومية والمخصخصة، أو لغة صياغة لمقالات بأكملها، وقد أخذت شرعيتها - (وانتهينا!) - كوسيلة للتعبير الفنى وأصبح رصيدها فى إنتاج الشعر والقصة والرواية - (ناهيك عن المسرح والسينما والغناء) - يطاول لغة الفصاحة الفصحى وينافسها. وإذا كان المثل العراقى القائل «الذى يرى الموت يفرح بالسخونة»، من الأمثلة التى تعجبنى لأنها تحدد الموقف العملى من المصائب وتعيين الإختيار أو العزاء بنسبة الخسارة ومنطق «قضاء أخف من قضاء»، فلا شك أن مصيبتنا فى تفشى العامية - (بألفاظها النابية أحيانا) - أهون كثيرا من اكتساحٍ وهيمنةٍ للغة أجنبية - (بمدلول ذلك النابى دائما!).

والحقيقة أن مجمع اللغة العربية لديه، من جملة تراثه الزاخر بالأبحاث الجليلة - (المحبوسة للأسف فى خزائنه) - أبحاث تناولت ظاهرة المد العامى وحللته وحاولت فهمه وتقييمه من دون تعسف أو تعصب، منها بحث شيق وعميق وغاية فى الظرف تحت عنوان: «موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى»، للأديب والعلامة رائد الرواية العربية فى تجربتها الناضجة **الأستاذ محمد فريد أبو حديد**. وقد تقدم أبو حديد بهذا البحث - من ٥٢ سنة - إلى مجلس المجمع فى دورته الثالثة عشرة، الجلسة الثانية والعشرين بتاريخ ١٩ مايو ١٩٤٧ م، بعد أن أصبح عضوا بالمجمع عام ١٩٤٦ م.



محمد فريد أبو حديد

وتندهش عند قراءتنا لهذا البحث - (الذى نخرجه من مخبئه ونعرضه مختصرا لفائدة مجددة) - لحجم التعاطف الذى أبداه أبو حديد للعامية ومدى إحترامه لها بما يؤكده من العنوان أنها «لغة عربية!»، فكيف كان ذلك؟

★★★

يبدأ **أبو حديد** بحثه بإنعاش ذاكرتنا بهذه البديهية: «ليست اللغة العامية فى اللغة العربية بدعا فى تطور اللغات، بل هى مثل جديد يدل على أن اللغة ما هى سوى مظهر من مظاهر حياة الشعوب. والذى يتتبع تاريخ العربية الفصحى يستطيع أن يدرك أنها كانت تتغير وتتطور دائما فى ألفاظها وأساليب تعبيرها حتى بعد أن جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم بلغة قريش وخلع عليها نوعا من الثبات جعل تطورها محدودا. وقد كان للإتصال بين اللغة العربية والقرآن الكريم أثران: الأول، أن اللغة العربية إحتفظت بصورة كادت تكون مستقرة مدة تزيد على ثلاثة عشر قرنا، وصار التراث الثقافى المتخلف من تلك القرون كلها ملكا سهل التناول لكل من يقرأ الفصحى إلى يومنا هذا. والأثر الثانى، أن اللغة العربية منذ استقرت فقدت كثيرا من المرونة الضرورية لتطور اللغات ولا سيما فيما يتصل بالحياة اليومية والمعاملات، فنشأ من ذلك شئ من الإنفصال بين لغة الثقافة والأدب والفكر، وبين لغة الأسواق والمعاملات اليومية وما إليها.. ومازال ذلك الإنفصال يتزايد.. حتى أصبح من الضرورى لمن أراد الإتصال بالتراث الثقافى والفكرى أن يتوفر على دراسة اللغة الفصحى.. وهكذا أصبحت الفصحى دراسة بعد أن كانت أداة الحياة فى كل ميادينها.. وقد كان من أول ما هجم على العربية الفصحى من آثار تطور الحياة شيوع اللحن فيها، ولهذا الأمر دلالة كبرى فإنه ينم عما شعرت به الشعوب المتكلمة بالعربية من ثقل وطأة حركات الإعراب وصعوبتها على الناس..»

★★★

ومن هنا يرصد **أبو حديد** الموقف الذى وجد أصحاب اللغة العربية أنفسهم إزاءه يضطرهم للإختيار بين خطتين، فيقول فى هذا: «.. إما أن يختاروا تطوير لغتهم والبعد بها عن صورتها الأولى واسقاط الإعراب جملة واحدة وفى هذه الحالة كان الذى ينتج هو أن تستمر اللغة العربية لغة التعامل وتندفع فى تطورها إلى غايته، وكان هذا لابد يؤدى بها آخر الأمر إلى أن تصير لغة جديدة إلى مدى كبير. وإما أن يختاروا تجميد لغتهم والمحافظة على صورتها والإقبال على

درسـهـا وضـبطهـا والإحـتـفـاظ بكل خصائصها... ولقد إختاروا الخطة الثانية فى حماسة عجيبة.. وكانت حركة ضبط اللغة العربية ودراستها والحرص على بقاء صورتها من أعجب الحركات وأقواها فى تاريخ اللغات كافة.» ونتيجة لذلك تولدت اللغة العامية وميدانها الحياة كلها للكافة. ويذكر أبو حديد أن الإنفصال الذى نشأ فى اللغة العربية بين لغة للخاصة والثقافة، ولغة للحياة والأسواق قد بدأ «.. منذ أول التاريخ الإسلامى ومازال يزداد حتى بلغ مداه الذى نراه اليوم بين لغة المثقفين القارئين وبين لغة التعامل الحر، وذلك يشبه ما حدث فى بلاد أوروبا إذ تطورت اللغة اللاتينية فى الوطن اللاتينى وما يليه من البلاد التى كانت لغة الثقافة فيها هى اللاتينية، ونشأت من ذلك اللغة الإيطالية والفرنسية والإسبانية وتباعدت الصلة بين اللاتينية وبين سلالاتها.. وقد حدث مثل هذا التطور إلى حد كبير فى اللغة اليونانية فإن اليونانية اليوم ليست هى اليونانية القديمة وإن كان المصدر واحدا..» ويرى أبو حديد أن البعد بين العربية الفصحى وبين العربية العامية لم يكن مثل ذلك البعد الذى أشار إليه بين لاتينية أمس وإيطالية اليوم، إلا أنه يحذر من استمرار التباعد بين العربية الفصحى والعربية العامية لأنه: «.. لو حدث مثل هذا التباعد لما كان للأمم العربية مفر ولو بعد حين من أن تقف مرة أخرى فى موقف الإختيار بين أحد أمرين كل منهما ينطوى على أضرار كبيرة، الأول: أن تختار الإتصال بالتراث القديم الماثل فى اللغة الفصحى وتضحى فى سبيل هذا الإتصال بأعز ما عند أمة حية.. وهو إتصال الشعب الذى يتكلم بأصحاب الفكر الذين يكتبون.. والأمر الثانى: أن نختار الحياة الحاضرة والمستقبلة مضحين بكنوز الثقافة القديمة وما فيها من أصول حضارتنا ومثلنا العليا.. نعود إلى حيث بدأت الأمم أول خطواتها نحو الحضارة إلى أن نستطيع بعد أحقاب طويلة تحصيل ثروة فكرية جديدة تصلح لأن تكون غذاء لعقول أمة حديثة». وعلى ذلك يحدد أبو حديد رفضه للإختيارين ويدعو إلى تفكير جدى صريح قبل أن نقع فى الورطة إلى مداها، ومن ثم يقترح: «الخطوة الأولى.. هى أن نتأمل فى حال هذه اللغة العامية وأن نحاول تحديد خصائصها وما بلغته فى تطورها، ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك فى صراحة عما يجدر بنا أن نفعله للمحافظة على حياتنا

الفكرية أولا، ولتجنب كل ما يمكن تجنبه من الخسارة ثانيا.»

★★★

يحدد **أبو حديد** أربع مسائل يراها جديرة بالإهتمام: المسألة الأولى: الألفاظ العامية، والمسألة الثانية: قواعد اللغة العامية، والمسألة الثالثة: أسلوب اللغة العامية، والمسألة الرابعة: الأدب العامى.

★★★

ومما يراه فى الألفاظ العامية أن الكثرة الكبرى منها إما عربية قرشية صحيحة وإما محرفة عنها تحريفا قليلا، وإما عربية من لهجات قبائل أخرى غير قريش أو محرفة عنها تحريفا قليلا. ويضرب المثل على عربية ألفاظ العامية فيقول: «.. فأمامى الآن على مكتبى: قلم، مجلة، كتاب، قزازة حبر - (أى قارورة حبر) - علبة سجاير، حتة بنور (حت الشئ، البُلور والبلّور)، وقلب اللام إلى النون كثير فى اللغة كما هو معروف.. ورق، منفضة، كبريت، سفنجة، خرامة، تقالة.. الخ. ولو شئت أن أذكر كل ما فى الغرفة لم أجد سوى ألفاظ جوهرها عربى وكثير منها لا يزال سليما..»، ويرى فى قواعدها ما مفاده: «.. وهكذا يمكننا أن نقول إن اللغة العامية قد كونت لنفسها قواعدها النحوية والصرفية وأصبحت لها صورها وأصولها المعترف بها فالخروج عنها يعتبر خطأ..» بعدها يرصد الفروق الواضحة بين أسلوب الصياغة العامية والفصحى فى أربع نقاط حتى يخلص إلى قوله: «ومهما يكن من الأمر، فإنما نريد أن نوجه النظر إلى أن اللغة العامية قد ابتكرت لنفسها نظاما كاملا فى تعبيرها وأصبح الخروج عنه خروجا عن طريقة معترف بها. ومن ثم يمكن أن نقول إن العامية قد كادت تصير لغة قائمة بنفسها فى قواعدها وفى أسلوبها، فإذا أردنا أن نردها إلى الفصحى كان علينا أولا أن نحصر تلك المميزات لكى نلتمس السبيل الطبيعية المؤدية إلى غايتنا، فقد نجد عند حصر هذه الأساليب أن فيها ما يساعد على تطوير اللغة الفصحى نحو ما هو أسمى مع الاحتفاظ بسلامتها، فنكسب بذلك مكسبا مزدوجا».

★★★

وتأتى المسألة الرابعة: الأدب العامى لتكون من أبدع مقاطع البحث حين يفرد المجال لنماذج من الشعر العامى مختارة من أزمنة مختلفة فيها ما ينسب لصفى الدين الحلى:

طرقت باب الخبا قالت من الطارق
فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لى من ثغرها بارق
رجعت حيران فى بحر أدمعي غارق

وفيها من قول القبارى أبو عبد الله خلف بن محمد من علماء عصر قلاوون المملوكى: «ومن أساء لك كن إنت محسن..» ويقول أبو حديد: «.. إذا نظرنا إلى الأزجال القديمة.. فقد كانت قريبة إلى الفصحى لا يكاد ينقصها إلا حركات الإعراب.. ثم أخذت لغة الأزجال تنحدر تدريجيا وتبعد عن الفصحى فى لفظها وتركيبها».. ويعطى نموذجا من كلام ابن عروس من عصر نهضة الأدب التى أعقبت أيام إبراهيم بك ورضوان بك وعلى بك الكبير:

النذل له طعم مالح
وله خصايل ذميمة
القرب منه فضايح
والبعد عنه غنيمه

وحين يعطى مثالا من كلام الشيخ الفحام – من عصر محمد على باشا – يستدرك أبو حديد ولا ينسى أن يقول: «ولكن الأمر لم يخل من السمو إذا كان القائل من العلماء..» ويصف قطعة من «زجل» الشيخ الفحام بأنها رائعة تقول:

«فى بحر حسنك والغرام والجمال – كام فى محاسن منهلك من هلك – وان كان عذولى شبّهك بالهلال – يا بدر من لا يعرفك يجهلك – فى بحر عشقك زاد شجونى شجن – من مدمعى بحر الجوى قد وفّى – وجه منادى الشوق علىّ سأل – بالوجد والبلبال وطال واكتفى»

عبدالله النديم

ويعطى نموذجا من كلام عبد الله النديم بصفته من الأزجال المتأخرة التى تقرب من لغة العامة «وإن كانت لا تزال تسبقها إلى تطور بعد تطور، وهى دائما مستمرة فى الإنفصال عن العربية الفصحى» :

«اسمع حكاية تهدى الشوق لابن الذوق
وتعجب الإنسي والجان

رأيت جدع فى ايده مكبّه زى القبة
فقلت أهلا بالمنصان
مدّيت له إيدى أكشفها لجل أعرفها
قال ارتجع يا شيخ رسلان
فقلت له بدّى اتفرج حد مُحرج؟
قال لى تعالى فى البستان
طاوعت شورته ومشينا على رجلينا
حتى رأينا غصن البان..»

وعن الحركة التى بدأت للإرتفاع بلغة «الزجل» يقدم أبو حديد نموذج ترجمة عامية طريفة لرباعيات الخيام للأستاذ حسين مظلوم يقول فيها:

«..................

غرد الطاير بألحان النديم
فى طلوع الشمس بالصوت الرخيم
املا كاسك واغتنم صافى النسيم
دى سنين العمر غايتها الزوال
ما ارتفع طير فى السما إلا انحدر»

ويعلق أبو حديد على هذه المحاولة بقوله: «ومن هذا المثل يظهر أن اللغة العامية إذا أرادت أن تعالج موضوعا أدبيا بعدت عن لغة العامة، فلا هى عربية سليمة، ولا هى عامية بحتة. ومن هذه الأمثلة يمكن أن نرى كيف أن اللغة العامية نفسها تتعرض لمثل الخطر الذى تعرضت له اللغة الفصحى، فهى دائما فى تطور وتجدد تساير العصور المختلفة إسفافا أو سموا..»

★★★

يستخلص **أبو حديد** بعض أمور متعلقة بالعامية أهمها:

«١- أن اللغة العامية ألفاظها عربية على الأكثر مع شئ كثير من التحريف فى النطق بقصد التخفيف والتيسير.

٢- أن أسلوبها قد استقر على صورة اعتادها الناس، وفى ذلك الأسلوب خلاف كبير للأسلوب العربى الفصيح.

٣- أن اللغة العامية لا تزال تتطور عصرا بعد عصر، وأن هذا التطور ناشئ من حياة الناس، فهى وليدة الحياة نفسها، وفيها من المرونة كل ما للكائن الحى.

٤- أنها أداة صالحة للتعبير الأدبى الساذج، فإذا أرادت التعبير عن المعانى الدقيقة السامية كان لا مفر لها من الإقتراب من الفصحى.

٥- أن العامية ليست مجرد مسخ أو تشويه للعربية بل قد أصبحت لغة قائمة بذاتها، ولها قواعدها وأصولها، وإذا شذ عنها شاذ عُد ذلك خروجا عن طريقة مقررة».

ويبلور **أبو حديد** بالنهاية هدفه من

البحث «.. الذى يمهد السبيل إلى جعل لغة الكلام تقترب من اللغة الفصحى..» ولا ينسى أن يتساءل: «.. ألا يمكن أن نقبل فى الفصحى غير ما يصح فى لغة قريش؟، هل نجعل الأصل هو منع ما لم يستعمل فى الفصحى من قبل أم نجعل الأصل إجازة كل ما يمكن إجازته، ما دام قائما فى لغة الحياة؟، ألا يمكن أن نتجرد من التحيز إلى أساليب القدماء فى الكتابة والتعبير إذا كانت لا تعبر حقا عن إحساسنا وتفكيرنا؟ إن الأسلوب ما هو إلا القالب الذى نصوغ فيه أفكارنا ونصور فيه مشاعرنا، فهو من إملاء الإحساس والنفس، ويمكننى شخصيا أن أقول إن كثيرا من الأساليب العامية أصدق أداء للمشاعر من بعض الأساليب القديمة.. ولو استطعنا أن نتجرد من قيود الأساليب المنقولة لسهل علينا تطوير الفصحى بحيث تقترب من العامية خطوة جريئة فى الطريق السوى، بغير أن يعود ذلك بضرر على الفصحى بل يكسبها قوة وشبابا..»

★★★

وهكذا أيها الإخوة والأخوات، فبينما يحاول «أبو حديد» أن يدعو ببحثه إلى خلق التواصل بين نخبة الفصحى وعموم الخضم الشعبى، نجد حضرات البعض، من الشجرة المُرّة التى تميل لأهل برّة، يسعون إلى سلخنا عن كل عزيز لدينا بمفردات من الإنجليزية المضحكة - (مثل ترينج المأخوذة من تريننج سوت - بدلة التدريب - والإنتركام المأخوذة من الإنتركوميونيكيشن - الإتصال الداخلى-، وأم رأفت التى لا تقرأ ولا تكتب تقول: دفعت كاش!، بدلا من فورى لقطا من إعلانات المذياع المرئى.. الخ!) - ويتنهد الصدر متنفسا بصعوبة - (بسبب التلوث والغيظ) - داعيا: اللهم لا تُرِنَا مكروها إلا فى هؤلاء الأوغاد - ثمار الشجرة المُرَّة - و«أوغاد» مفردها «وغد»، وهى فصحى وعامية، ومن معانيها فى قاموس المنجد: «ضعيف العقل. الأحمق. الدنئ» .

★★★

رحم الله محمد فريد أبو حديد في ذكراه الثانية والثلاثين ١٨ مايو هذا العام ١٩٩٩ م .



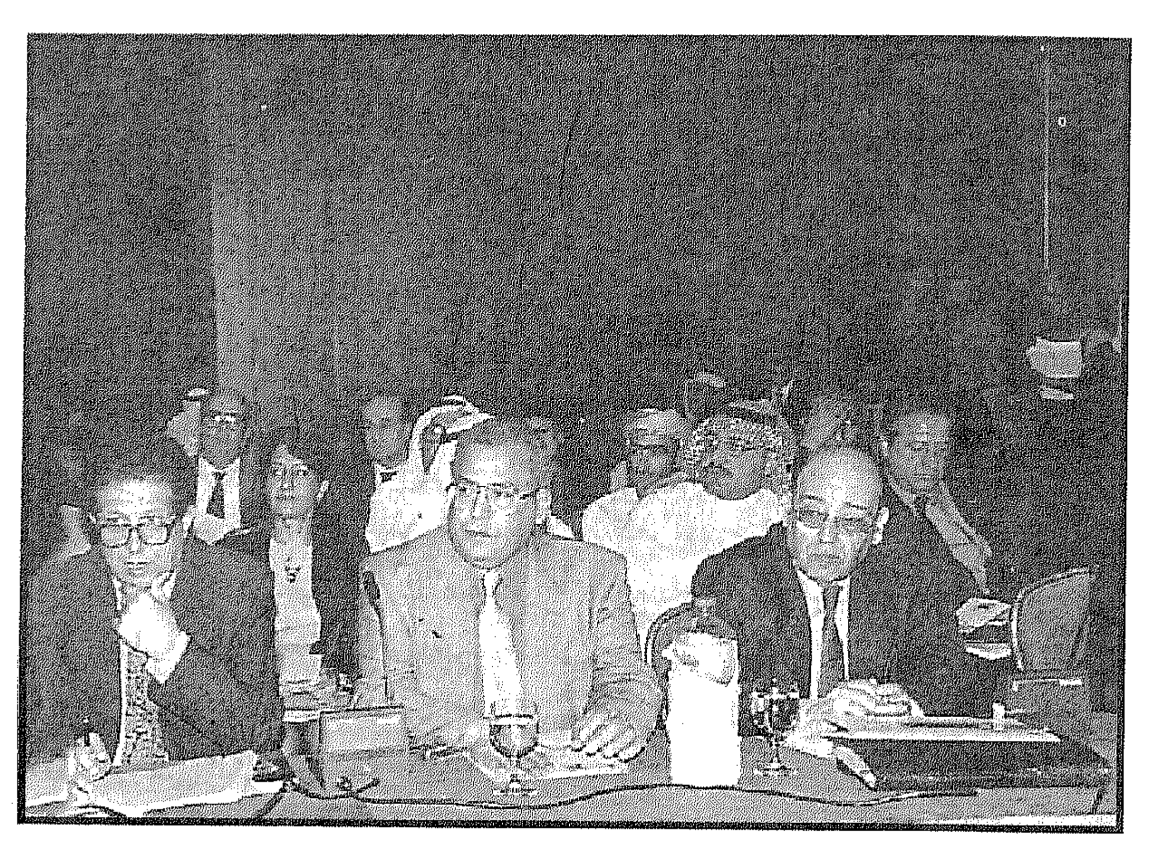
مستقبل المجلة الثقافية

بقلم: مصطفى نبيل

احتفلت الكويت بمرور ٤٠ عاما على صدور مجلة العربى. وأقامت بهذه المناسبة ندوة دعت إليها عددا من الكتاب والمفكرين من جميع أنحاء الوطن العربى، وقامت بتكريم من ساهموا فى بناء هذا الصرح الثقافى، و«مجلة العربى» بالنسبة للكويت مثل صحيفة الأهرام بالنسبة لمصر، وتعتبر المجلة الثقافية الأولى فى الخليج، وهى المجلة الثقافية المهمة لدى القارىء العربى.

وجاء رئيس تحريرها الحالى د. محمد الرميحى، بعد مؤسسها د.أحمد زكى الذى كان رئيسا لتحرير مجلة الهلال، وبعده الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين الذى كان رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال، وتولى مسئولية تحرير مجلة الهلال فى فترات مختلفة والذى تولى رئاسة تحرير مجلة العربى حتى منتصف عام ١٩٨٢، ويعود أحد أسباب نجاحها إلى التناغم بين رؤساء تحريرها، فجاء كل منهم يكمل البناء الذى أقامه سابقه. وأواصر العلاقة بين مجلة الهلال ومجلة العربى عميقة، وأشعر أن لنا نصيبا فى هذا الاحتفال الثقافى، خاصة وقد سبق وعملت مديرا لتحرير مجلة العربى.

ويأتى حديث الذكريات التى رواها أحمد السقاف أحد الرواد الذين لعبوا دورا مهما فى مشروعها مع الراحل الكبير عبد العزيز حسين، وصدرت



بشير بن سلامة (تونس) وجابر عصفور ومصطفى نبيل

مجلة العربى قبل استقلال الكويت، ومع الآمال الكبيرة فى عالم عربى متحرر، أصدرتها دائرة المطبوعات والنشر عندما كان يتولاها الشيخ صباح الأحمد، ويروى السقاف المناقشات التي سبقت إصدارها، وكيف تم الاتفاق مع. د.أحمد زكى، والذى تم خلال زيارة السقاف للقاهرة فى بداية عام ١٩٥٨، فقد كان مرشحا بين ثلاثة، هم د. محمد عوض محمد وبشر فارس، ورجح الكثيرون د.أحمد زكى .. ويروى السقاف .. «أبلغت د.أحمد زكى أنه مشروع ضخم، هدية متواضعة من الكويت للقارىء العربى وخدمة للعلم والثقافة، ولا نرجو من ورائه دعاية أو مغانم أو مكاسب» .. بعد أن أتفق الجميع على أن د. أحمد زكى هو العالم الوحيد الذى يصلح لرئاسة تحريرها، وأن اسمه يكسبها الرواج والاحترام لدى القارىء، وعندما اجتمعت به فى بيته فى المعادى - يقول السقاف - وعرضت عليه الفكرة، طلب يومين للتفكير، وافق بعدها دون أن يساوم أو يسأل عن الراتب، وأعلمته أن راتبه سيكون ٣٠٠ جنيه .. ويحكى كيف تم الاتفاق على شراء أرشيف صور دار الهلال نظير ألف جنيه، ثمنا

لأربعة آلاف صورة قام باختيارها د. أحمد زكى بنفسه.

ويأتى بعد حديث الذكريات الواقع بتداعياته وآماله وآلامه، واستبشر الكثيرون بهذا الاحتفال بما يحييه من ذكرى الأيام الجميلة، بعد أن استغل البعض الجراح والآلام التى أعقبت العدوان العراقى على الكويت، وحملوا مسئولية ماجرى للفكرة العربية!» وعملوا على حصار وإضعاف الاتجاه العربى فى الكويت، ومازالت مجلة العربى صلة وصل بين الكويت ومحيطها العربى، وجاء فى افتتاحية العدد الأول فى ديسمبر ١٩٥٨ .. «إن الكويت للعربى منزلا» وصورة الغلاف فتاة حلوة مع تمر العراق، وكتب الكاتب المرموق محمد مساعد الصالح أن هذه الفتاة أصبحت جدة وهى زوجة شقيقه.

واعتبر الكثيرون هذا الاحتفال تأكيدا على ظهور تيار قوى يتجه ببصره نحو المستقبل. ويدرك أن تحديات المستقبل أكبر من آلام الماضى. وأنه لا يمكن الإفلات من حكم الجغرافيا، وها هو عصر النفط وقد قارب على الزوال، سواء بانخفاض أسعاره أو ظهور بدائل اقتصادية له، ويقوم النشاط التجارى تقليديا فى الكويت على تجارة الترانزيت لكل من إيران والعراق ، وعانت تجارة الترانزيت خلال الحرب العراقية الإيرانية، ثم جاء الغزو العراقى ليقضى على تجارة الترانزيت مع العراق، واحتلت دبى وغيرها من موانىء الخليج الدور التقليدى للكويت!.

ومن اللافت للنظر طبيعة المناقشات التى جرت فى اللقاء الذى تم بين المدعوين للندوة والشيخ سعد العبدالله والتى تركزت حول المستقبل وضرورة تجاوز الماضى لكى تبقى الكويت على العهد بها متمسكة بالعروبة والديمقراطية، وهى الدولة الصغيرة التى ترتفع قامتها وتزيد قيمتها بدوريها الثقافى والعربى .

أزمة الثقافة

ونأتى إلى المناقشات التى دارت فى ندوة العربى، والتى تركزت حول أزمة المجلات الثقافية، ذلك الموضوع القديم المتجدد، وسبق مناقشته فى ندوة أقيمت بمناسبة العيد الفضى لمجلة العربى، وفى ندوة أخرى فى بداية التسعينات دعا إليها المجلس

الوطنى فى الكويت.

وتخيل البعض أنه لكى يجامل مجلة العربى فعليه أن ينال من غيرها من المجلات الثقافية، رغم أن المثقف الحقيقى يحتفى بكل منبر ثقافى، ويرحب بالمنافسة بين هذه المنابر، كوسيلة لتحسين الأداء ورفع مستواه.

وجنح أحد المتحدثين إلى التعميم الذى ألبسه ثوبا أكاديميا مزيفا، أو لعله قدم ماتصوره الحداثة أو مابعدها، ومال فى بحثه إلى العودة إلى بعض التجارب القديمة متجنبا الخوض فيما هو قائم، وشغله الماضى عن الحاضر، وردد أقوالا تدخل فى باب الزرائع أو هى القوالب المحفوظة، وحمل المجلة الثقافية مسئولية كل ما حل بالأمة من كوارث، وكأنها البديل عن الأحزاب السياسية والمجالس التشريعية، غافلا عن أن المجلة الثقافية هى جزء من الحياة الثقافية، والثقافة جزء من المجتمع، وتتحدد مسئولية المجلة الثقافية بالفرص المتاحة أمامها.

وحان الوقت لكى نذهب إلى ماوراء الظاهر ونغوص فى الأعماق،. ونتناول التفاصيل بدلا من التعميم، ونتناول المصاعب الحقيقية، بدلا من مجرد الوقوف عند تجارب آفلة، والتفريق الدقيق بين التجاربُ ذات الظروف الخاصة وتلك التى تقود الى قواعد عامة، والكف عن مجرد النزوع العاطفى والحنين الى الماضى الذى يعطى ألقا وسحرا خاصا على تجارب قديمة، وما لم يعرفه البعض أو ما لم يطلعوا عليه فهو بالنسبة إليهم غير موجود.

وتناولت الندوة مناقشة تجربة مجلة «العربى»، بعدما حققت مع مجلة «الهلال» انتشارا عربيا، وأصبحت كل منهما سجل الثقافة العربية، وتمكنت كل منهما أن تصل للقارىء العربى، وخلقا معا تيارا فكريا حول القضايا العربية، وأكد الجميع أهمية «المجلة الثقافية»، فمجالها العقل والخيال، ويبدأ التجديد والتحديث فى المجتمع من المعقول قبل وصوله للواقع والسياسات .

ومنذ «روضة المدارس» أول مجلة ثقافية ظهرت فى القاهرة، وتولى رئاسة تحريرها رفاعة رافع الطهطاوى، وحتى «رسالة» أحمد حسن الزيات، وتلعب المجلات الثقافية دورا حيويا فى حياتنا.

وربما لايحتاج إلى دليل أهمية المجلة الثقافية، ويكفى ماكشف عنه أخيرا من إنفاق المخابرات الأمريكية على مجلة «انكونتر» ومجلة «حوار» كما ظهر أيضا العديد من المجلات التى تهدف إلى التأثير فى العقل العربى، مثل مجلة «المختار» الترجمة العربية لمجلة «ريدرز دايجست»، والتى تصدر بالألوان الزاهية والورق المصقول، والتى ابتدعت من أجل جذب القارىء المسابقات والجوائز، وأخذت تروج للقيم الأمريكية، وآفاق الربح الواسع، وتقدم المثل الأعلى، وهو ذلك العصامى الذى أصبح يملك الملايين!.

وتبين أن المجلة الثقافية أداة فكرية تزرع الأفكار كما تبذر التقاوى، ومع الوقت يتحقق النماء ويتم الحصاد، وانتبهت الأحزاب السياسية فى مصر منذ وقت مبكر فى النصف الأول من هذا القرن، وأنشأت مجلات ثقافية لعبت دورا مهما، أشهرها، «البلاغ الأسبوعى»، التى أصدرها حزب الوفد، و«السياسة الأسبوعية» التى أصدرها حزب الأحرار الدستوريين .

العام والخاص

وهناك فكرة خاطئة ترددت كثيرا والتى ترى أن أحد أسباب أزمة المجلة الثقافية، هو نوع المشروع وهل هو مشروع عام أو خاص، فالمشروع العام يتمتع بحرية أقل على الخوض فى القضايا الحيوية، ويطالب هؤلاء برفع سيطرة الدولة عن الحياة الثقافية، ويطالب آخرون - فى ذات الوقت - الدولة بتقديم الدعم والمساندة للثقافة، ويرى أحد الأبحاث أن المجلة الثقافية إما أن تكون مع الدولة فتسقط فى هوة الدعاية والتبرير، وتجنح إلى ربط الثقافة بالإعلام، وإما تقف ضد السلطة وتمارس دورها فى المعارضة والتحريض، ولا أعتقد أن الأمور تسير على هذا النحو، فهناك مهام عديدة تؤديها المجلة الثقافية بصرف النظر عن كونها خاصة أم عامة، والمسألة هى مدى ما تتمتع به المجلة الثقافية من شخصية إعتبارية وميزانية خاصة، ومدى مايكفله لها النظام القانونى من حماية، ومدى مايتمتع به المجتمع من تقاليد ديمقراطية تحمى حرية الرأى والفكر .

وأثبت العديد من التجارب أن

المجـــــلات التـى تـكـون مـــجـــرد بوق لبـــعـض الحكومـــات ومـــبـــررة لأعـــمـــالـهـــا، ســرعـــان مــاتسـقـط وتتـحـــول إلى نشـرات دعـائيـة ينصرف القراء عنها. كمـا ظهـر العـــديد من المبـــادرات الفردية التـى تحولت إلى مؤسسات ثقافية قادرة



حوار حول أزمة المجلات الثقافية

على الاســتـمــرار وتجـاوز العـقـبـات وتحـقيق التوازن الإقتصادى المطلوب. وبالطبع يمكن إغلاق المجلة الخاصـة فـى ظل الحكومـــات الاســتـــبـــدادية والمجتمعات اللا ديمقراطية، ويتوقف نجاح المجلة الثقافية على قدرتها على الوصــول إلى آخــر هامش للحــرية، والوصـول إلى حـافة الأسلاك الشائكة، كما أنه لايأتى القيد على حرية الكاتب من الدولةً وحـدهـا، بل يأتـى أحيـانا من الإرهاب الفكرى الذى يضع قيدا أشد على الحرية وعلى الأفكار الجديدة، مما يقتل المبادرات ويجفف الخيال.

تحديات المستقبل

إذن .. مـاهـى طبيـعة أزمـة المجلات الثقافية، وماهـى طبيعة التحديات التى تواجـهها فى المستقبل؟. لم تعط الندوة الاهتـمـام الكافى لهذه القـضـيـة ومن مظاهر الأزمـة أن الأسئلة التى طرحها الفكر العـربى على صـفـحـات المجلات الثقافية لاتزال فى الجوهر ذات الأسئلة التى تحتدم بها الثقافة العربية اليوم، فكيف تظل الأسئلة كل هذا الوقت دون تغيير..؟! فـأين الخطأ، وماهـو مـصـدر التقصير؟، وهل معنى ذلك أن التأثير لايتـجـاوز السطح أو الشكل، ولا يمس جوهر الأوضـاع العربية، وأن التغيير لحق بـعض النخب المثـقـفـة، ولم يصل إلى الجذور الشعبية؟!.

فمـثـلا .. لاتزال قضـيـة العلاقة بين التراث والعصر، بين التقليد والتـحـديث، بين النقل والعـقل مـحل خـلاف ونزا ع،

ولاتزال العلاقة بين الأنا والآخر، موضع تفسيرات ومواقف متباينة تتراوح بين الدعوة للاندماج فى ظل النظام العالمى الجديد على حساب خصوصيتنا وهويتنا، أو الرفض المطلق، أو محاولة التوفيق والتلفيق بين الهوية العربية وبين الغرب!.

ولماذا يستمر التعصب ورفض الآخر والبعد عن السماحة مع كل الجهد الثقافى المبذول..؟!.

وكيف تؤدى المجلة الثقافية دورها فى المستقبل، من أجل التأثير أو حتى ثبات هذا الدور فى المرحلة الصعبة المقبلة، في عالم يتغير، وأمام التحدى المتمثل فى أدوات المعرفة الجديدة الكاسحة، ومع تراجع دور «الكلمة» وشيوع ثقافة «الصورة»، التى طغت عن طريق الفضائيات والكمبيوتر والانترنت، وما أصاب عادة القراءة فى بلادنا من انحسار؟.

وهل يكفى رقم التوزيع العالى، فى ظل دعم مالى بلا حدود، ليساهم فى الإفلات من الأزمة، أم أن المجلة يمكن أن تكون محدودة التوزيع وعظيمة التأثير معا.

وإذا أخذنا نعدد أسباب الأزمة، فلاشك أن أكبر المخاطر تتمثل فى الرقابة التى تحجب حركة انتقال المجلات الثقافية بين البلدان العربية، والتى تحول بينها وبين تناول القضايا الحيوية تجنبا لهذه الرقابة، كما أنه وجدت فى الماضى منابر ثقافية تقرأ فى كل أرجاء الوطن العربى، واليوم هناك أكثر من مجلة ثقافية، فى كل قطر عربى، واتزدحمت الساحة بالعديد من المجلات، مما صعب فرص متابعتها.

ويرجع البعض أسباب الأزمة إلى ارتفاع أسعار الشحن التى كانت فى الماضى تتمتع بالدعم كجزء من دعم الثقافة، هذا ما أعلنه خلال الندوة إبراهيم نصر أهم مسئول عن توزيع المجلات فى البلدان العربية، وذكر أن ذلك أدى إلى اختلال فادح فى التوازن بين تكلفة العمل الثقافى الرفيع المستوى وعائده، مما يجعل القارىء يقف عاجزا على تحمل أعبائه .

هذا هو جدول الأعمال المطلوب لكل من يهتم بمستقبل المجلات الثقافية، وهو جدول أعمال ندوة قادمة..

أيها الفاتن

شعر : سليم الرافعى – لبنان

أيهـا الطيف فى الكرى لا تزرنى ومـضـة خـالجت دخـانا ورؤيا

يا حـبـيـبى .. هل أنت جـذوة نار بعد شمس النهـار فى الليل تحيا ؟

أحـرقـتنى الأحـلام حـمـرا وأبقت جـسـد الشـوق فى الرمـاد سـويا

يا حـبيبى .. ناغيت طرفك-يسمو لهـبـا عـاطرا .. وكـرمـا شـهـيـا

قل : سـلام عليك من غـيـر نار أى حـب فى النـار كـان نديا؟

يا حبيبى .. من الشعاعات غنّى فلك الحب مـؤنسـا ونجـيـا

عـابر أنت فى الهـوى أم مـقـيم ضـاحك أنت أم عـبوس المحيـا ؟

ينشـد الخلد عـاشق مـسـتـهـام قـال للخـد : كن دمـا أبديا ..

يا حـبـيـبى .. فى كل عطف دلال منك وعـد مـرفـرف فـوق لقـيـا

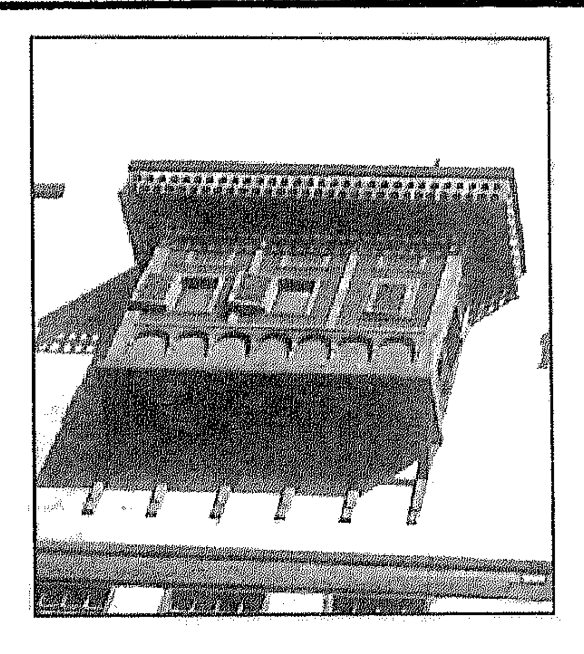
أنت أعـتى .. أم .. أنت ألين قـدا أيهـا القـد .. لم تزل عـبـقـريا

أيهـا الفـاتن الموسـوس تيـهـا إن للحب فـوق تيـهك رأيا

قـبلة تعـبـد الخـدود .. ونار تعـبـد النار أنطقت شـفـتـيـا

أنا حلم من وعـدك الحلو رهن لحـريق يفـوح منك شـذيا

غـابة أنت .. أى سـحـر ينادى عـالما فى الغمـوض والروع : هيّا



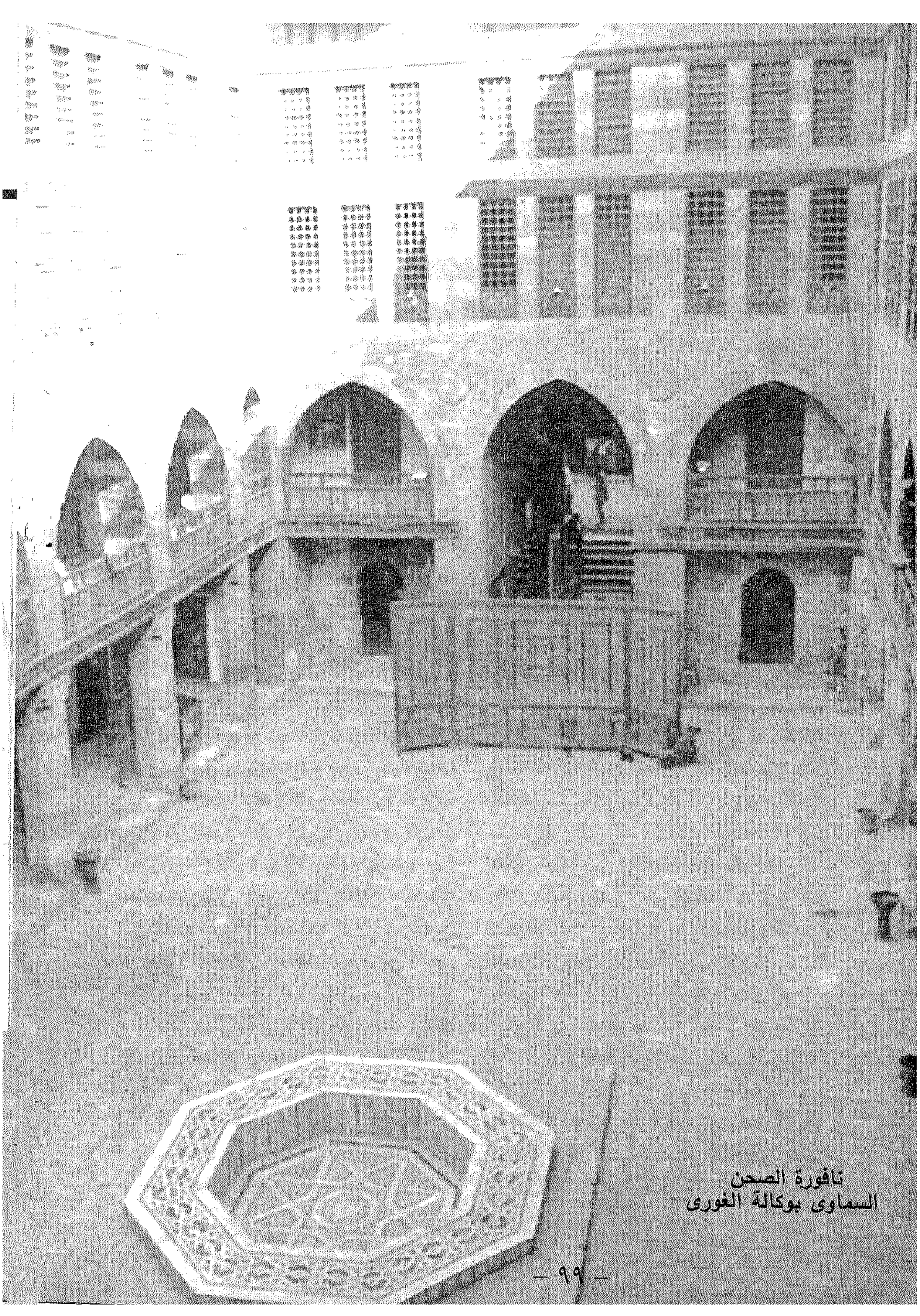
وكالة الغورى

المسافة بين القلب والجسد!

بقلم: عز الدين نجيب

ما طول المسافة بين القلب والجسد؟.. بطول حبل الوريد؟.. فإذا كانت كذلك، فلأى شيء يصلح أحدهما إذا انقطع الوريد أو انفصل القلب عن الجسد؟..

وبالرغم من بديهية الإجابات، فلا مفر من طرح تلك الأسئلة، فى زمن تتزعزع فيه كل الثوابت وتختل القيم، زمن تنهب فيه أو تحرق الرموز الحضارية فى وضح النهار، ثم يبحث لها عن قميص يوسف الملطخ بالدم، بعد أن زعم إخوته أن الذئب أكله، وهم قاتلوه! .



نافورة الصحن
السماوى بوكالة الغورى

بالأمس أُحرق قصر المسافرخانة، وكانوا قبلها بشهور مديدة قد اقتلعوا منه قلبه، حين أفرغوه من الفنانين التشكيليين، بعد أن أصبح حياتهم وأصبحوا حياته، ومع ذلك اتهموهم بالجريمة، حتى وهم مقتلعون من «جسدهم»، لكن حماة الحمى من رجال الآثار لم يجدوا كبش فداء غير الفنانين، حين انقشعت على ضوء تقرير الدفاع المدنى عن الحريق تلك التهمة التى وجهوها فى البداية إلى القمامة الملقاة خارج المبنى، حيث أثبت التقرير أن الحريق بدأ من داخل المبنى وهو خال إلا من حراسه، ومازال الجناة أو المتسترون عليهم يرتعون، ويملكون الجرأة على تسليط الاتهامات على الأبرياء، وهاهم - فى حُمّى بحثهم عن ستارة يسدلونها على عارهم فى المسافرخانة، يفتحون اليوم جبهة جديدة فى موقع آخر، ضد الفنانين والحرفيين فى وكالة الغورى، بعد أربعين عاما من وجودهم فى مبناها، وهم يعمرونها بحب الفن وحميمية الانتماء، ويصونونها قدر ما يصونون فنهم، وأى انتماء أقوى من أن الحرفيين قد تفتح وعيهم عليها منذ الطفولة، حين جاءوا إليها صغارا يتعلمون على أيدى شيوخ الصنعة الرواد، وشبّوا فى هذا المكان وقد تغلغل عبقه فى نسيج أرواحهم، وحفظوا فى القلوب كل حجر فيه، وقد صاروا اليوم من كبار الحرفيين، يبهرون العالم بسحر أناملهم، من خلال نقوشهم على أوانى النحاس المكفتة بالفضة، وعلى الصوانى والصناديق الخشبية المطعمة بالصدف والعظام، وعلى نوافذ الزجاج المعشق بالجص، وعلى قطع الأثاث العربية الدقيقة، وقطع الخرط العربى للمشربيات، ومن خلال زخارف الخيام ومشغولات الحلى الفضية والأزياء التقليدية المطرزة والأوانى الخزفية والمعلقات النسجية والموشاة بالزخارف اليدوية.. إلخ.. إلخ.

صرخة!

واليوم يصرخ الأثريون، عبر الحملات الصحفية الصاخبة، مطالبين بطرد هؤلاء، لأنهم يهددون المبنى بكارثة أكبر من كارثة المسافرخانة، فالفنانون والحرفيون ليسوا فى نظرهم إلا مجموعة من المخربين والهمج والماجنين، يعيثون فى المبنى الأثرى فسادا، ويتسببون فى تشققه وانهياره وتعرضه للحريق، ومن ثم فلنحرر المبنى من هذا الاستعمار ولنجعل منه مزارا سياحيا نظيفا، و«بلاتوه» لتصوير أغانى الفيديو كليب!

وتستجيب اللجنة العليا لتطوير القاهرة الفاطمية لهذه الصرخات، فتقرر إخلاءه فورا، ليبدأ ترميمه ضمن خطة تشمل المنطقة بأسرها. ولايوجد عاقل يعترض على الترميم، بل لقد كان هذا مطلب الفنانين والقائمين على مركز الحرف التقليدية بوكالة الغورى منذ سنوات، لكن ما يدعو للتساؤل هو: هل يقصد إخلاء مؤقت أم نهائى حسبما ينادى حماة الآثار؟، وسواء كان هذا أو ذاك، فهل خصصوا أماكن بديلة لمن يشغلون المبنى؟، وأين هى؟، وإذا لم يكونوا قد فعلوا، فما مصير خمسين فنانا يشغلون مراسم به، وستين حرفيا يعملون فى أكثر من عشرة أقسام، وإدارة عامة لمراكز الحرف التقليدية والتشكيلية قائمة

بهذا المبنى بقرار من رئيس الوزراء، وخطط رسمية للإنتاج والمعارض والتسويق والأنشطة الثقافية المستمرة؟... وحتى لو قيل إنها فترة مؤقتة لحين انتهاء الترميم، فما طولها؟.. إن خبرة المسافرخانة تقول إن فترة الترميم قد تزيد على عشرين عاما، وخبرة الزلزال الأخير الذى ضرب العديد من الآثار تقول إنها قد تزيد على سبع سنوات، فأين يبقى «المهجرون» خلالها؟، وما مصيرهم بعدها؟

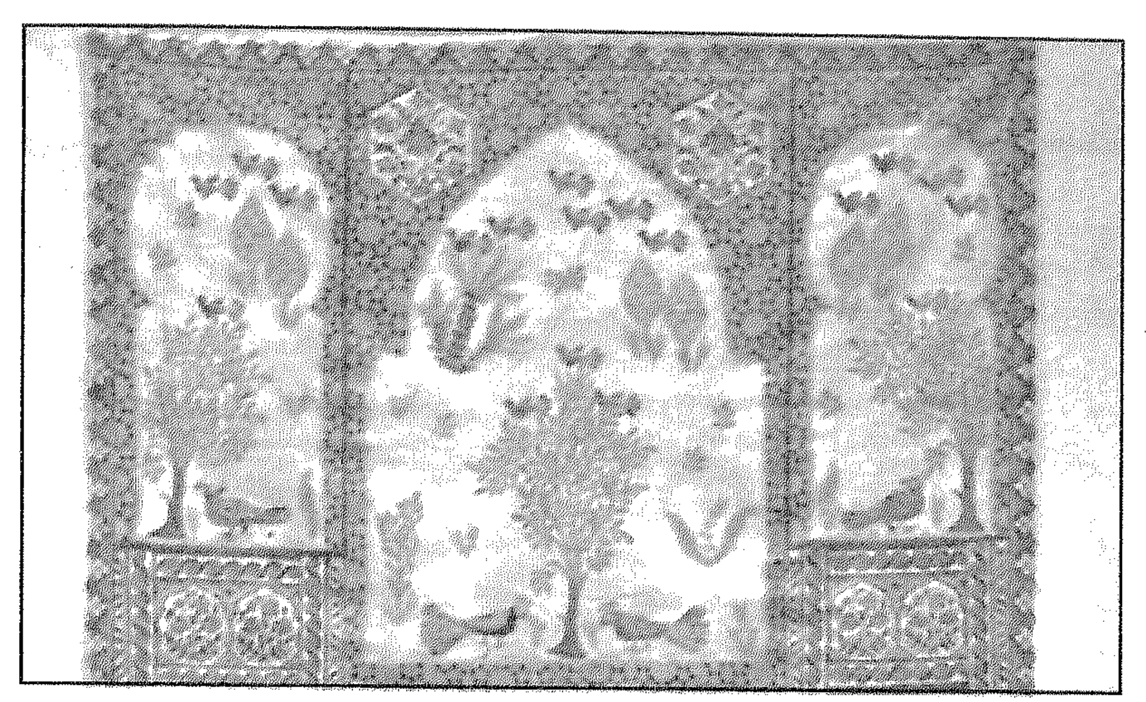
إن شيئا من ذلك كله لم يدر بخلد اللجنة الموقرة أو المجلس الأعلى للآثار، بينما يؤكدون أن الإخلاء سوف يتم لا محالة ليبدأ الترميم فى يوليو القادم.

★★★

وقياسا على حملة حماة الآثار لتحريرها من الغاصبين، وعلى موقف اللجنة العليا صاحبة القرار الغامض، وعلى عدم اهتمام الدولة - أصلا - بوجود جهاز مستقر لرعاية الحرف التقليدية، وجودا يتناسب مع موروث مصر الحضارى منها، بل قياسا على اغلاق أجهزة وزارة الثقافة ذاتها مجالس الدعم الضرورى حتى عن الجهاز القائم حاليا بوجوده الهامشى، ناهيك عن إغلاقها مجالس الدعم عن الفنان التشكيلى وعدم توفير أسباب الرعاية له، قياسا على كل ذلك، فإن السيناريو المتوقع هو: إغلاق ملف مراسم الفنانين إلى أجل غير مسمى، وتوزيع العاملين فى مجال الحرف التقليدية على المراكز الصغيرة المتفرقة بالقاهرة لحين إشعار آخر، وتخزين القيادات المالية بالإدارة العامة المختصة إلى أن تبلغ سن المعاش الوشيك، وهكذا ينال جميع الأطراف الراحة الأبدية من وجع الدماغ المزمن، أما التراث الحرفى فله رب - أو سوق - يحميه!!

وبالرغم من أن الحكم بالتشريد قد صدر قبل المداولة أو سماع الدفاع، وقد لا تجدى اليوم استغاثة الضحايا فى تغييره، فإن الأمانة التاريخية تقتضى وضع كل الحقائق أمام الرأى العام، حول الاتهامات الموجهة إلى الطرفين المطلوب اقتلاعهما من مبنى الوكالة، ليكون شاهدا وشريكا. وقبل ذلك، فلعله من الضرورى أن يعرف القارىء شيئا عن تاريخ المبنى ومراحل استخدامه.

يعد مبنى وكالة الغورى إحدى المنشآت المعمارية المهمة للسلطان قنصوة الغورى آخر سلاطين دولة المماليك (إذا استثنينا نائبه طومان باى الذى تولى الحكم نيابة عنه عدة شهور قبل مقتل الاثنين على أيدى السلطان العثمانى سليم الأول فى كل من موقعة مرج دابق بسوريا وباب زويلة بالقاهرة عام ١٥١٧م)، وكان الغورى رجل فن وأدب وعلم وتأمل، يملك موهبة فنان حقيقى، يقرض الشعر وله ديوان يستحق القراءة، وكان يحرص على إقامة مجلس يومى للشعراء والأدباء والموسيقيين، إذ كان عاشقا للسمر والطرب رغم تدينه وورعه. أما عشقه للعمارة وجمالياتها فإن آثاره الباقية لاتزال شواهد على ذلك، مثل المسجد والمدرسة والضريح والوكالة، التى بنيت



تصميم فني يستلهم مفردات الفن الإسلامي

إحدى المعلقات الفنية لفنانات وكالة الغوري

أعمال الفنانين والحرفيين تزين وكالة الغورى

قرب نهاية عصره، أى أوائل القرن السادس عشر، فعمرها إذن يكمل خمسمائة سنة بعد أعوام قليلة. أما وظيفتها فإنها كانت بمثابة نقطة التقاء لقوافل التجارة بين الدول فى العصور الوسطى، جامعة لكل الصناعات النفيسة، وليست كغيرها من الوكالات فى ذلك العصر، التى كان كل منها يخصص لنوع معين من البضائع، ونظرا لاستقبالها تجارا ورجال أعمال من مختلف البلدان، يقيمون فترات هم وأسرهم فى مصر، فقد زودت بأجنحة للسكن للرجال والنساء، وبمشربيات يطل بعضها على الصحن السماوى للمبنى، ويطل بعضها الآخر على شارع التبليطة (الشيخ محمد عبده حاليا)، وهى أجنحة يمثل كل منها فيلا داخلية من ثلاثة طوابق: اثنان للسكن والأوسط للمرافق والخدمات، وقد سبقت بذلك نظم العمارة الداخلية المتقدمة فى أوربا بعدة قرون.

دور مهم

من ذلك ندرك مدى أهمية الدور الذى قامت به للانفتاح على العالم الخارجى، ولتشجيع التبادل التجارى الذى يستتبع غالبا نوعا من التبادل الثقافى والسياحى، لكن مايتوفر من معلومات عن استغلال المبنى خلال العصور التالية لا يكاد يذكر، كل ما نعلمه أنه ترك مهجورا لفترات طويلة نهبا لكل عابر أو طامع، حتى أن العديد من الأشخاص وضعوا أيديهم على بعض حجراته وادعوا ملكيته، بل حصلوا على أحكام من القضاء بذلك، وأذكر أن أحدهم جاءنى يوما - فى بداية عملى مسئولا عن الوكالة عام ١٩٩٣ - بإعلان على يد محضر بحكم من المحكمة لتمكينه من تسلم عدة حجرات بالمبنى، ولم يكن أمامى - قانونيا - غير الامتثال، إلا أننى اعتبرتها قضية قومية، وجازفت برفض التنفيذ متحملا المسئولية وحدى، لكن الله سلم، وخرج أصحاب الدعوى بغير رجعة، كل هذا وحماة الآثار لا يدرون شيئا!

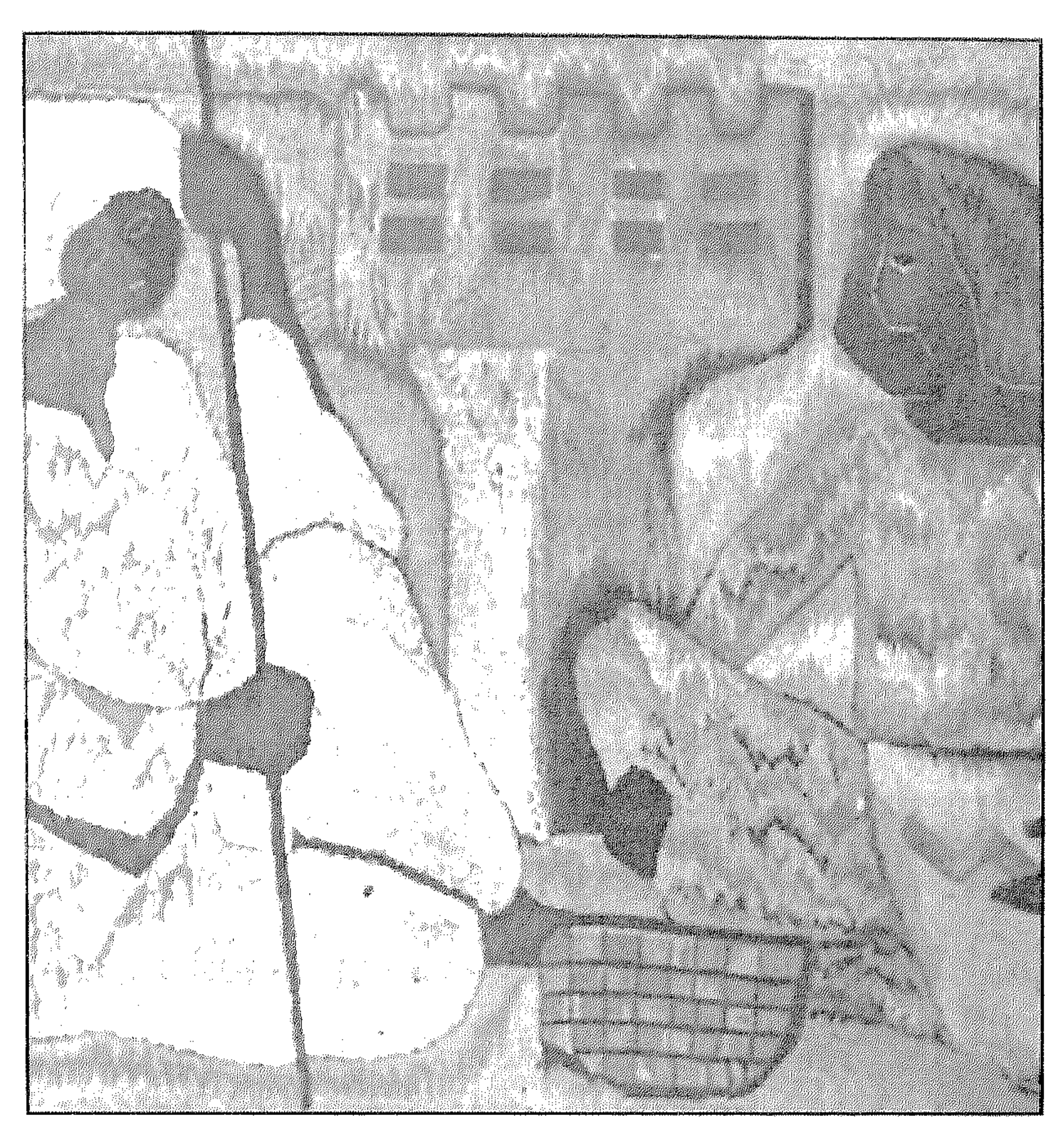
وقد تبادلت الإشراف على الوكالة خلال القرن الحالى - قبل ثورة ١٩٥٢ - عدة وزارات، مثل الأوقاف والشئون الاجتماعية، الأمر الذى يفسر ادعاء البعض ملكية أجزاء منها، واستخدامها فى فترات معينة ملجأ للأيتام أو مأوى للمشردين أو حتى مقرا لحانوتى، ولاتزال آثار هذه الاستخدامات الجائرة بادية فى بعض الأماكن، حتى أنشئت وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ بقيادة ثروت عكاشة، الذى جاء حاملا مشروعا ثقافيا وحضاريا متكاملا لاستغلال مثل هذه الأماكن كمقار لإحياء الحرف التقليدية الوثيقة الارتباط بها وبتاريخها، وكذلك كمراسم للفنانين والكتاب بل والأثريين، حتى يكونوا حميمى الصلة بالتراث والبيئة التاريخية والهوية المصرية التى تشم عبقها من كل شبر بالمنطقة، فكانت وكالة الغورى والمسافرخانة للفنانين التشكيليين، إلى جانب الحرفيين بالوكالة، وكان بيت السنارى بالسيدة زينب لبحوث الفنون التقليدية، وكانت سراى المانسترلى بالروضة لمركز الفن والحياة، وكانت مدينة الفسطاط الإسلامية بمصر القديمة لمركز الخزف الذى كان يرأسه الرائد سعيد الصدر، فى الوقت الذى كان يشرف على المواقع الأخرى مبدعون ورواد مثل حامد

سعيد وصلاح طاهر وعبد القادر رزق وخميس شحاته ومحمود عفيفي، وكان من بين الحاصلين على مراسم وأماكن للإلهام في وكالة الغورى فنانون مثل صلاح طاهر، وكتاب مثل عبد المنعم الصاوى، وعلماء آثار مثل سعاد ماهر، فهل كان كل هؤلاء - وعلى رأسهم ثروت عكاشة - جهلة غلاظ المشاعر لايدركون خطورة استعمال الأثر في غير وظيفته الأصلية، أو كانوا أقل حميّة ووطنية من حماة الآثار اليوم؟!

وكانت ثمرة ذلك الحوارالحضارى داخل الوكالة - بين محترفات الحرفيين والتشكيليين والمؤلفين - موجات من الاشعاع الذوقي والجمالى امتدت قرابة العشرين عاما، وتمثلت في حركة عارمة من التبادل الفنى والثقافى بين مصر والعالم الخارجي، بعد أن نجحت سلسلة المعارض الطوافة التى انطلقت من الوكالة إلى جميع أنحاء مصر، حيث سخرت من أجلها إمكانات لا تتوافر اليوم فى هيئة قصور الثقافة بكل ملايينها وأجهزتها وجيشها الجرار، إضافة إلى إقامة مرسم جماعي للهواة، كان يقوم بالتوجيه فيه فنانون وأساتذة مرموقون، وقد أضاف إلى الحركة الفنية أسماء معروفة نعتز بها اليوم، وانتقل أصحابها تباعا إلى مراسم مستقلة داخل الوكالة، ومازالوا يشغلونها حتى الآن.

● الحياة تدب من جديد

وإذا كانت قد مرت بالوكالة فترة من الجمود ومن شحوب الأضواء منذ النصف الأخير من السبعينيات حتى أوئل التسعينيات، بسبب التغيرات في التوجهات الثقافية نحو اهتمامات بديلة ليس هنا مجال عرضها، فقد دبت الحياة فيها من جديد، وزهزهت الأضواء والألوان والألحان فى جنباتها منذ بداية عام ١٩٩٣، لتعيد مجد الأمس بل تتفوق عليه، بعد أن أنشئت الإدارة العامة للمراكز الفنية على أساس مشروع ثقافى وحضارى متكامل، للانطلاق برسالة الحرف التقليدية من هذه القاعدة ومن المراكز الفنية الأخرى التابعة لها، حتى ذاع صيتها، وفاز حرفيوها بأرفع الجوائز وأنواط التكريم فى شتى المحافل الدولية وأصبحت هى فى حد ذاتها نقطة جذب عالمى فى هذا المجال، فأقيمت بها مهرجانات وورش عمل دولية وعربية ومؤتمرات وندوات فنية وثقافية. ويبدو أن هذا بالذات كان سبب استياء الأثريين الذين لا يسعدهم أن ينسب النجاح إلى غيرهم. ورغم أنهم فرضوا رسوما لزيارة الوكالة، حتى على الزائرين للمعارض والمراسم وورش الحرفيين التى لا تتبعهم، مما زاد من مواردهم المالية على حساب الجهة المنتجة للأنشطة، فإنهم لم يبالوا بمد يد الترميم والصيانة للمبنى، حتى بعد أن تزايدت شقوقه فى أعقاب زلزال ١٩٩٢، خاصة فى المفصل بين المبنى الحجرى القديم وبين الجناح الأمامى المشيد حديثا بالأسمنت والخرسانة، وهو أمر غير مفهوم: فكيف أجيز استخدام مواد وتقنيات وليدة القرن العشرين فى ترميم بناء يعود إلى أوائل القرن السادس عشر؟!،



لوحة طباعية يدوية من إنتاج مركز الفن والحياة والمعروضة بوكالة الغورى

وكيف نام ضمير الأثريين عن هذا الفعل القبيح طوال تلك السنين؟!

بيد أن الأمر الأكثر إثارة للدهشة، هو أن هيئة الآثار تركت المبنى بدون دراسة لمسار الصرف الصحى به، وهى تعلم أن هناك العشرات من دورات المياه المستخدمة على امتداد مئات السنين، حتى بعد أن ظهرت بوادر لهبوط صحن الوكالة السماوى نتيجة لتشبع الأرض بالمياه، وكانوا يجيبون على صرخاتنا المتلاحقة بأن ذلك يرجع إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية فى المنطقة كلها ولا حيلة لهم فى درئها، إلى أن استجابت الهيئة أخيرا، وكشفت على قنوات الصرف، لتكتشف أنها غير متصلة بمجارى الصرف العمومية، لأن الوكالة

كانت تعتمد على آبار قديمة حسب النظام التقليدى، وقد انسدت جميعا، وأمكن إنقاذ المبنى فى الوقت المناسب بمد الصرف الصحى من داخله إلى الشبكة العمومية بالخارج، وكان ذلك منذ ثلاث سنوات فقط!.. فما كان يمكن أن يكون مصيره لو ترك لتقدير الأثريين؟!

★★★

وحرصا على سلامة الأثر من أية أخطار قد تنجم عن شبكة التوصيلات الكهربائية القديمة، رصد المركز القومى للفنون التشكيلية ميزانية لتغييرها، وطلب من المسئولين بهيئة الآثار التصريح ببدء العمل بها تحت إشرافهم، إلا أنهم رفضوا، بزعم قرب موعد بدء مشروع الترميم الشامل للمبنى، مع أنه لا يوجد تناقض بين هذا وذاك، مما يترك شبح الخطر ماثلا يهدد المبنى فى أية لحظة، فى الوقت الذى لن يضير المبنى إصلاح شبكة الكهرباء به حتى عند ترميمه!

وحتى إذا صدقت النوايا لإجراء الترميم، فإنه لا يتطلب إفراغا كاملا للمبنى بل يمكن بمنتهى البساطة تنفيذه جزئيا - مع وجود العاملين به - وفق خطة زمنية وفنية، مثلما حدث سابقا فى العديد من المواقع، خاصة وأن الجزء الذى يحتاج إلى ترميم معمارى يوجد عند الواجهة الأمامية بعيدا عن أماكن الحرفيين والعاملين، ولا يستغرق إنجازه وقتا طويلا، أما الأجزاء الداخلية فلا تحتاج أكثر من عمليات تجميلية سطحية، لأن البنية الأساسية للوكالة قوية متماسكة، فليبدأوا الترميم فورا إذا شاءوا، وسوف يجدون كل التعاون من جميع الأطراف.

أما إذا رأى الخبراء - بعد معاينة دقيقة - حتمية تفريغ المبنى بالكامل، فليختاروا موقعا بديلا يمكن الانتقال إليه مؤقتا لحين الانتهاء من الترميم، مثل وكالة بازرعة بشارع الجمالية، التى أوشكت عمليات الترميم القائمة بها منذ سنوات على الانتهاء، وتستطيع استيعاب الجميع بغير استثناء، على أن تتم إعادة توصيلات الصرف الصحى إلى جميع حجراتها كما كان الحال بها فى الأصل، فمن غير المعقول أن يعمل فنان فى مرسمه أو حرفى فى ورشته دون دورة مياه أو مصدر قريب للماء، وليضعوا من الضوابط الصارمة ما يشاءون لترشيد الاستخدام.

إذا كنا نؤمن حقا بأننا شركاء فى الوطن، وفى صنع الثقافة القومية، وإذا كنا حريصين حقا على تحقيق الاستمرارية لعطائنا الحضارى، فلتتماسك أيدينا جميعا: أثريين وحرفيين وفنانين ومثقفين، ولنقف صفا واحد يتبنى مشروعا قوميا للنهوض بالفنون والحرف التقليدية، متمثلا فى صرح وكالة الغورى، وما أجمله من صرح، وما أنبله من رمز، ومن «مولِّد» جبار للطاقة الثقافية، يضيء الوعى، ويشحن ذاكرة البصر والبصيرة بآيات الجمال قديمه وحديثه، وإلا فإن التاريخ لن يغفر أبدا لمن يقطع حبل الوريد بين القلب والجسد، بين صناع الجمال وبين الشعب!

كريستال وشكسبير وأشياء أخرى

بقلم : مصطفى درويش

●● عدت إلى القاهرة بعد ستة عشر يوما، خارج البلاد. قضيت بعضها في ربوع ألمانيا.. وبعضها الآخر فى ربوع النمسا، متنقلا بين مدن صغيرة وكبيرة، تحتضنها جبال الألب، بقممها التى تناطح السحاب.

وتلك الأيام كانت والحق يقال، أياما سعيدة، لم يعكر صفوها سوى حرب ضروس اشتعلت نيرانها فجأة فى قلب البلقان وضحايا تطهير عرقى من نساء واطفال وعجزة مسنين أراهم على الشاشة الصغيرة، مشردين فى أرض خراب ●●

ولن أتحدث هنا عن دهشتى بما رأته عيناى، خاصة فى النمسا، وهو كثير.

لن أتحدث عن الدهشة الحبلى بالفرح والتوهج عندما وجدتنى على قمة أعلى جبل فى جنوب ألمانيا، تحيط بى جبال شواهق، متوجة بالثلوج، والشمس فوقى ساطعة، والسحاب تحتى يمر سريعا، وكأنه على ميعاد.

صوت الموسيقى

ولا عن سالزبورج، حيث لا يعلو صوت على صوت الموسيقى، وحيث وجدتنى عبر دروبها أسير إلى البيت الذى ولد فيه موزار.

ولا عن فيينا بقصورها الشامخة، وحدائقها الغناء، مرصعة بتماثيل أباطرة أسرة الهابسبورج تلك الأسرة التى حكمت الامبراطورية النمساوية، زهاء ستة قرون من عمر الزمان، وبتماثيل اساطين النغم، أمثال «موزار»، «شوبرت»، «بيتهوفن» وستراوس.

فمـا أكثر الاقلام التى أفاضت فى الكتابة عن كل هذا، وبعضها لمفكرين كبار. •

ولأننى أمقت التكرار فسأكتفى بالكتابة أولا، وباختصار عن متحف عجيب تبنت فكرة تشييده شركة سفاروفسكى للكريستال (١٩٩٥)، وذلك احتفالا بتأسيس تلك الشركة، قبل مائة عام (١٨٩٥). والكتابة ثانيا عن الفيلم الوحيد الذى شاهدته أثناء الأيام الثلاثة التى مكثتها فى فيينا، وهو «شكسبير عاشقا».

عجائب الدنيا السبع

وأبدأ بالمتحف العجيب، واسمه «عوالم الكريستال» لأردد الكلمات التى جاءت على لسان «الزاكلنش» خبيرة محطة «سى. ان . ان» فى الأزياء.

وفى كل ما له صلة بالجماليات ، تعبيرا عن اعجابها الشديد بكل ما شاهدته فى ذلك المتحف من غرائب الكريستال.

فماذا قالت؟

قالت من بين ما قالت عنه هذه الكلمات «إنه عمل مبهر شأنه فى ذلك شأن عجائب الدنيا السبع».

وفى مقدمة تلك العجائب ، كما هو معروف ، أهرامات الفراعين.

وعوالم الكريستال ابدعه اندريه هيللر، بتمويل من أصحاب شركة سفاروفسكى للكريستال ودون أى دعم من أية جهة حكومية أو غير حكومية.

وقد شاركه فى الإبداع نفر من الفنانين التشكيليين والموسيقيين الموهوبين.

ومبنى المتحف مكون من ثلاثة أدوار، على أرض تقدر مساحتها بألفى متر مربع، فى جوف تل صناعى، مغطى بالنجيل، اتخذت واجهته شكل وجه انسان، له عينان من الكريستال يتغير لونهما من حين لآخر، وفم يتدفق منه الماء على شكل شلال.

بيت جحا

فإذا ما دلفنا من باب فى ذلك التل الأخضر ، أخذنا نمر عبر دروب كريستالية ملتوية، ملففة كأنها بيت جحا ، لا يباح لنا فيها من ضروب المشاهدة إلا الدهشة المنطوية أحيانا على قدر كبير من الإبهار وأحيانا أخرى على قدر لا يستهان به من الخداع اللذيذ.

ومما يعرف عن كريستال سفاروفسكى وشعاره البجعة، أنه فى توهجه أقرب إلى الأحجار الكريمة، لاسيما الماس .

وان أردت ان تسعد بلقاء هذا التوهج، فما عليك إلا أن تشد الرحال إلى «واتنز» على أرض النمسا.

وإن أردنا لوطننا نهضة صناعية وفنية فما على أرباب الصناعة والفن إلا أن يجعلوا ذلك المتحف العجيب قبلتهم، يحجون إليه بدل المرة ، مرات.

مذبحة الأبرياء

وشكسبير عاشقا ليس له علاقة

بالنمسا ولا بالكريستال، لا من قريب أو بعيد.

كل ما هنالك أننى، وبينما كنت هائما فى شوارع فيينا، مهموما بمذبحة الأبرياء فى كوسوفو إذا بى اقرأ ملصقا للفيلم، مفاده أنه بدار سينما اسمها «بورج» ويعنى بالعربية «البرج» حيث يجرى عرضه فى نسخته الأصلية الناطقة، بالانجليزية .

ومعروف أن عرض أى فيلم أجنبى بلغته ، أى غير مدبلج إلى اللغة الالمانية ، امر نادر سواء فى ألمانيا أو النمسا.

وما كدت أقرأ الملصق حتى بيت النية على مشاهدة الفيلم.

ومن حسن حظى أنا، ومن معى، اننا نجحنا فى شراء تذاكر لاربعة مقاعد، وان كانت فى اول صف، ليس بينها وبين الشاشة سوى بضعة أقدام.

العدوان

أقول من حسن الحظ لأن شكسبير عاشقاً لم يكن قد جرى عرضه بعد فى دور السينما عندنا واغلب الظن ان نسخه عند مجيئها إلى أرض مصر ستتعرض بلا رحمة لعدوان مقص الرقيب.

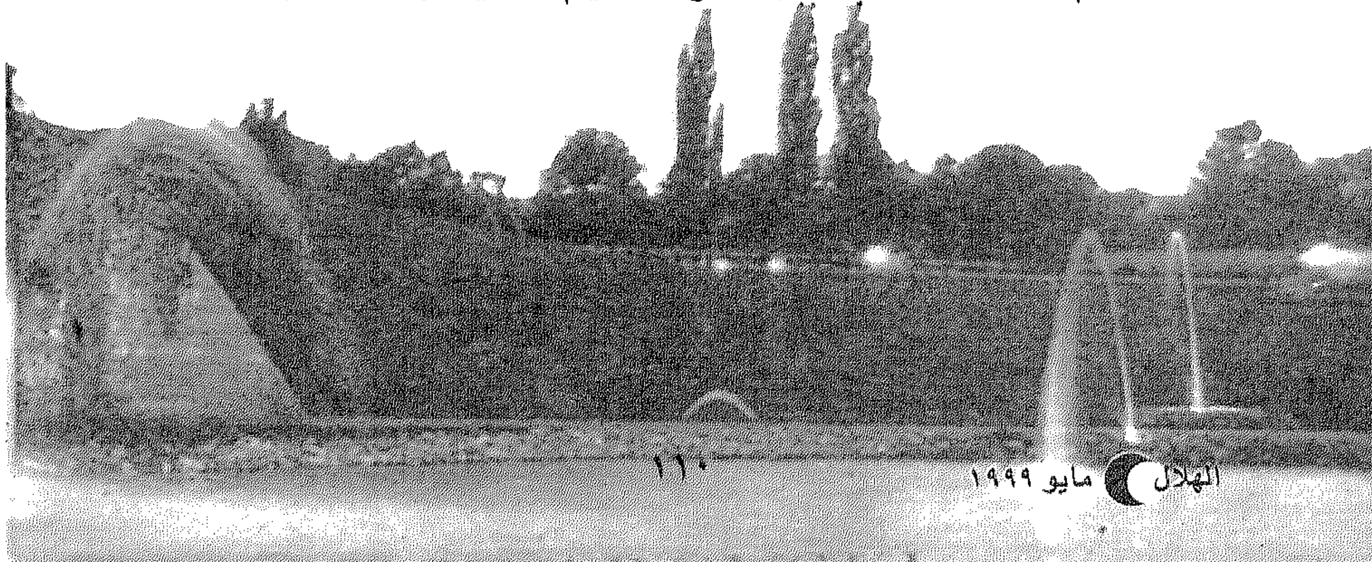
ومن مفاجآت الأوسكار ترشيحه لثلاث عشرة جائزة، من بينها اوسكار افضل فيلم ومخرج وممثلة رئيسية ومساعدة وسيناريو مبتكر وموسيقى تصويرية وديكور وتصميم ملابس.

ولا يغيبن عن البال انه بفوزه بسبع جوائز أوسكار ، قد خرج بذلك من المضمار متغلبا على «انقاذ الجندى رايان» الذى لم يفز إلا بخمس فقط.

والغريب فى امر «شكسبير عاشقا» فوزه بجائزة أفضل فيلم، دون جائزة أفضل مخرج، التى فاز بها، وللمرة الثانية «ستيفن سبيلبرج» صاحب «قائمة شندلر» ومنتج «امير مصر».

مخرج الملكات .

ومخرج الفيلم الفائز، وهو البريطانى «جون مادن» قد فاجأ العالم، قبل عامين، بفيلم «السيدة براون» تدور قصته حول

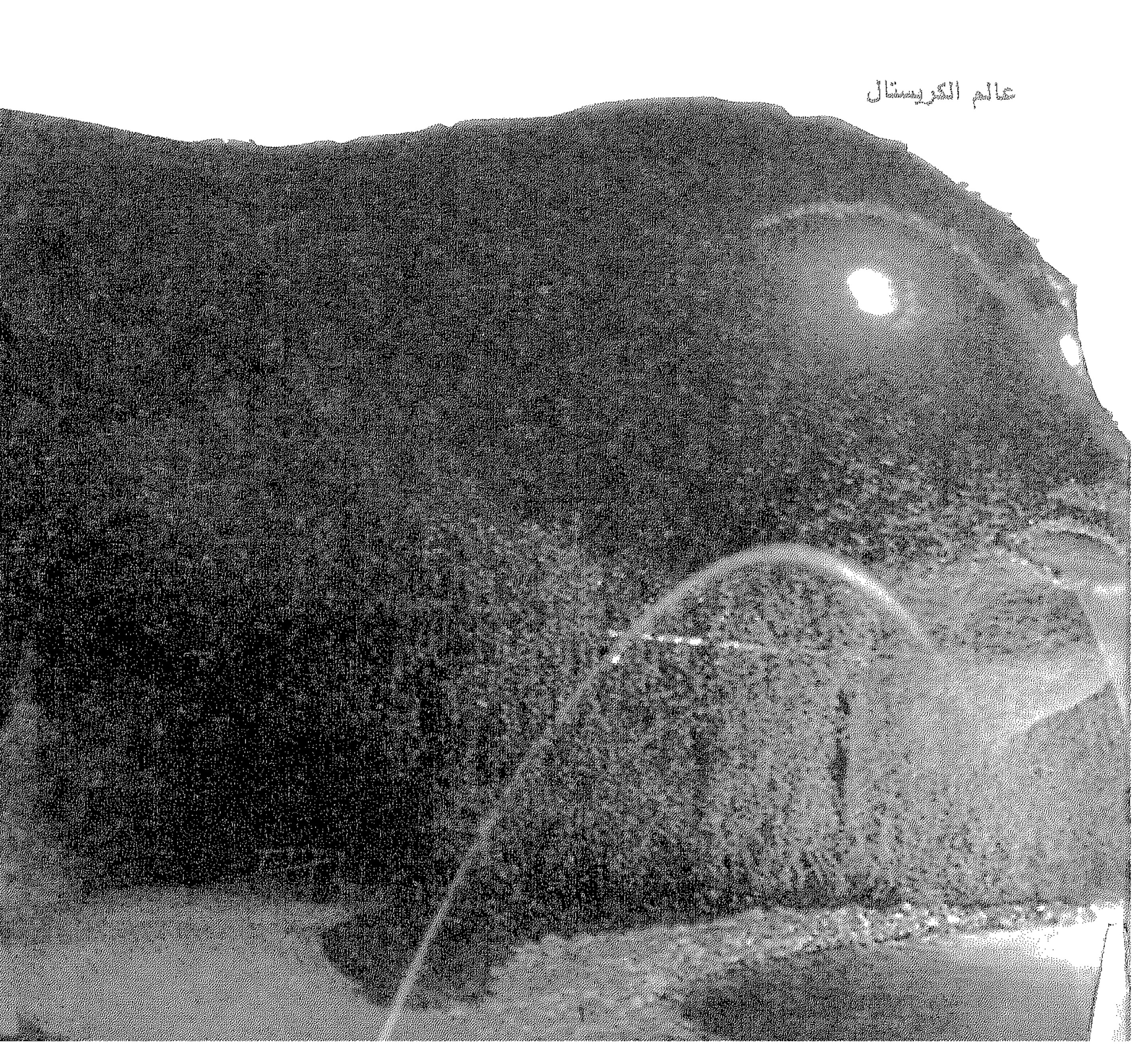


«فــيكتــوريا»، تلك الملكة التى حكمت الامبراطورية البريطانية، لاكثر من ستين عـامـا و «جـودى دنشن» التى لعـبت دور الملكة المتسيدة على امبراطورية لا تغرب عنهـا الشـمس، هى نفس الممـثلة التى لعبت دور الملكة أليزابيث» فى فيلم «مادن» الفائز بالأوسكار.

وعن أدائها لدور الملكتين «فيكتوريا» و«اليزابيث» جرى ترشيحها للأوسكار مرتين. هذا، ولئن لم يكتب لها الفوز بها فى المرة الأولى إلا انه جرى تتويجها بها فى المرة الثانية، وذلك، رغم انها لم تظهر على الشاشة إلا مدة لم تزد على دقائق ثمانية.

والحق إن أداءها لدور الملكة العذراء، واداء «جوينيث بالترو» الفائزة بأوسكار

عالم الكريستال





جودى دنش فى دور الملكة اليزابيث

افضل ممثلة رئيسية ، كلاهما كان رائعا بكل المعايير.

معجزة التحولات

و«بالترو» تلعب فى الفيلم دور فتاة «ڤيولا» خلبت لبت الشاعر شكسبير .

وبفضل حبه لها، الذى اخذ يتحول شيئا فشيئا الى حب مستحيل بفضله عاد اليه هاتف الابداع.

ودور «بالترو» وان كان فى الظاهر يبدو سهلا، فإنه فى حقيقة الأمر، من النوع المسمى بالسهل الممتنع.

ويكفى ان نشاهدها ، وهى فى احضان شكسبير، ثم وهى على خشبة المسرح متنكرة فى صورة رجل، تلعب دوراً فى مسرحية للشاعر، لاتزال فى دور التكوين، أسماها مؤقتا «روميو واثيل ابنة القرصان».

ثم وهى امرأة تلعب دور «جوليييت» بعد ان حول الحب المستحيل تلك المسرحية من كوميدية إلى تراجيدية أسمها «روميو وجولييت».

مولد نجمة

يكفى ذلك، ليزيل أى شك فى ان نجمة قد ولدت، نجمة حبتها السماء بسخاء حضورا مذهلا وقدرة على حسن الأداء أهلتها للفوز بالاوسكار، وهى لاتزال فى عمر الزهور.



فيولا أم جوليت

ودور شكسبير في الفيلم يؤديه «جوزيف فينيس» شقيق الممثل «رالف فينيس» الذى سبق وان رأيناه متقمصا شخصية ضابط نازى ، متعطش للدماء في «قائمة شيندلر» وضابط بريطانى عاشق فى «الانجليزى العليل».

ومن المؤكد انه أدى هذا الدور الصعب على خير وجه.

فليس سهلاً أداء دور فنان اجتمع الشك فى نفسه، على نحو جنح به إلى الاعتقاد بان جعبته اصبحت فارغة ومن ثم ففى غير مقدوره الابداع.

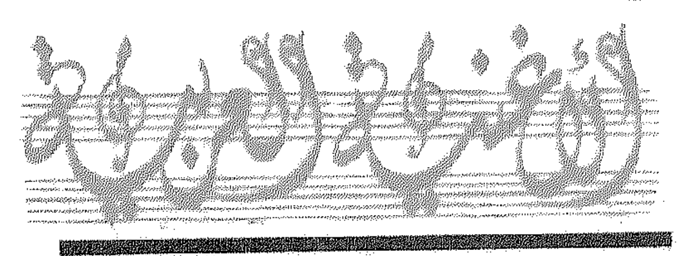
سر الإعجاز

وختاما، يظل لى ان اقول ان روعة الفيلم واعجازه إنما ترجع فى الاساس إلى السيناريو، الفائز هو الآخر بالأوسكار.

ولا غرابة فى هذا فابداعه شارك فيه ثلاثة كبار هم «توم ستوبارد» الكاتب المسرحى الانجليزى المنحدر من أصل تشيكى، و«مارك نورمان» الكاتب الروائى والمسرحى الأمريكى، و«ادوارد زفيك» المخرج الأمريكى الشهير وصاحب «مجد» «اساطير الخريف» «شجاعة تحت النار» و«حصار».

ومما يميز السيناريو نجاحه فى المزاوجة بين المرح الجامح والرومانسية الدافقة، بين الحقيقة التاريخية وتحليق الابداع بين العاطفة ونزوات الخيال .

رأى فى..



الشمس والغربال

حسنى أبو المعالى (★)

هيمنت على الساحة الفنية الموسيقية والغنائية ، قرابة أكثر من نصف قرن من الزمن، صورة مقلوبة فى العلاقة بين الملحن والشاعر والمطرب، أركان الأغنية العربية ، فاحتل المطرب موقع الصدارة فى الأغنية إعلاميا وشعبيا بينما توارت العناصر الرئيسية التى صنعت الأغنية والمغنى عن الأضواء بصيغة ظالمة تجافى الحقيقة وتربك المفاهيم والموازين حول الإبداع والمبدعين فى عالم الموسيقى، وأقصد بهما الملحن والشاعر، وبما أن الشاعر له قنواته المتعددة فى التعريف عن إبداعه وقصائده من خلال الإصدارات وأعمدة الصحف، يبقى الملحن هو الخاسر الوحيد فى هذه الصفقة الغنائية .

وإذا كنا نغفر للسواد الأعظم من المتلقين جهلهم بما يجرى خلف كواليس الأغنية، فإن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة تتحمل المسئولية الكبرى فى طمس الحقيقة وحجب الأضواء ، بقصد أو بدون قصد، عن الملحن وتسليطها لصالح المطرب ، فعملت باجتهاد أقل على كشف عناصر ودور كل منها ، وقدمت الأغنية باسم المطرب وليس بأسماء أصحابها الحقيقيين وأعتقد بأن دور الملحن فى الأغنية لا يختلف فنيا عن دور المخرج فى السينما والمسرح ، ولهذا

(★) موسيقى من العراق يقيم بالمغرب.



فإننا لا نقدم الأفلام بأسماء أبطالها من الممثلين وإنما بأسماء مخرجيها ، وعلى هذا الأساس فإن التقديم المنصف لأية أغنية باعتبارها عملا موسيقيا يجب أن يمر عبر الملحن أولا والشاعر ثانيا ثم المطرب ، فنقول مثلا أغنية (كلمات) للفنان إحسان المنذر قصيدة الشاعر نزار قباني وغناء المطربة ماجدة الرومى ، لأن الأغنية هى إحدى مخلوقات وروائع الملحن الذى يحاول بجميل ألحانه وسحرها أن يسمو بالقصيدة إلى عالم حالم .

وقد لمعت فى سماء الأغنية العربية نجوم وأقمار فنية كثيرة لمطربين ومطربات من مصر والعراق والمغرب ولبنان وسوريا والخليج ، ونالت (أغانيهم) بل أصواتهم إعجاب الجماهير العربية من الماء إلى الماء، فمنهم من رحل وأفَلت (أغانيه) مع رحيله ، ومنهم من صمدت (أغانيه) فأحيته من جديد وأضاءت ومازال تضىء أسماعنا بالشدو والنغم الجميل بالرغم من رحيل الأجساد ، كأم كلثوم كوكب الشرق والعندليب عبدالحليم حافظ ، وناظم الغزالى، ومحمد الحيانى ، واسمهان ، وماجدة عبدالوهاب ، وليلى مراد ، ومحمد عبدالمطلب وفايزة أحمد ، أما الأحياء الذين لايزال عطاؤهم الفنى مستمرا فنذكر منهم : المطربة الكبيرة فيروز ، والفنانة وردة الجزائرية ، ونعيمة سميح ، وعبدالهادى بلخياط ، وصباح فخرى ، ولطفى بوشناق ، ومن الجيل الجديد : أصالة نصرى ، وسميرة سعيد ، وأنغام محمد على ، وذكرى التونسية ولطيفة وراغب علامة ، وعمرو دياب ، ومحمد ثروت وغيرهم من الذين يسعون إلى التربع على عرش الأغنية العربية بعد رحيل معظم روادها الكبار .

لاشك أن مشروع أي أغنية لا يولد إلا من رحم الكلمات أولا ، فهى الأرضية التى يبنى فوقها الملحن ألحانه ويهندسها نغمة نغمة حتى تنمو وتترعرع ثم تكبر بين حنايا ريشته وأوتاره لتصبح عروسا جميلة تسمح للموزع بالتدخل بذوقه الرائع ليفصل لها ثوب زفافها استعدادا لاستقبال العريس المنتظر ألا وهو المطرب .

● المبدع الحقيقى

فما هو دور المطرب فى الأغنية ؟ ومن هو صاحب الأغنية ومبدعها الحقيقى ؟ باستثناء بعض الأعلام الموسيقية المبدعة التى ساهمت فعلا فى صنع الأغنية وخلقها وكانت أغانيها وألحانها الرائعة دليلنا فى الهوى والشباب كالموسيقار محمد عبدالوهاب ، وسيد درويش ، وسيد مكاوى ، ومحمد فوزى ، وفريد الأطرش، وملحم بركات ، وأحمد البيضاوى ، وعبدالوهاب الدكالى ، ومحمد غبده ووديع الصافى ، وأخيرا وليس آخرا كاظم الساهر ، فإن باقى المطربين والمطربات الذين استمعنا إليهم واستمتعنا (بأصواتهم) يتوهمون عندما ينسبون تلك


ليلى مراد


عبدالمطلب

الأغنيات التي يؤدونها لأنفسهم حتى وإن دفعوا (مهوراً) مالية كبيرة مقابل شرائهم للحن والكلمات ، وقد ساهم الكثير منا فى تعزيز هذا الوهم عندما صفقنا للمطرب وحده دون أن نلتفت إلى الملحن والشاعر وهما يحترقان أحاسيس ومشاعر فى هندسة الأغنية وبنائها وإضاءة أروقتها شعرا وألحانا، فالإبداع يبقى من حق مبدعيه الحقيقيين لا يباع ولا يشترى ، علما بأن نجاح الأغنية لا يمر دائما عبر أصوات المطربين، بدليل أن قسما من الأغانى التي أنشدتها بعض الأصوات الجميلة لم تحظ بالقبول الواسع كغيرها من خالدات الأغانى بسبب تدنى مستوى ألحانها ، بالإضافة إلى أن جيل الأغنية الشبابية نجح بعضهم بفضل ألحان الأغانى وإيقاعاتها المتنوعة لا بفضل أصواتهم ، ولهذا فهم يبحثون عن الملحن المقتدر والشاعر المتميز، فإن الجيد من ألحان الأغانى قديمها استمر وجديدها اشتهر .

● العزف بالصوت

إن المطرب لا يعدو أن يكون سوى أحد العازفين فى الفرقة الموسيقية ، فناناً يعزف بآلة موسيقية ناطقة بالحروف والكلمات ، يعزف ولكن بصوته محاولا ترجمة أحاسيس المبدع الحقيقى للأغنية ألا وهو الملحن وكذا الشاعر ونقلها إلى المتلقى ، ودور المطرب لا يختلف فى إطار التوزيع الموسيقى عن دور العازف المنفرد (السولو) فى لحظة تتصاعد فيها المشاعر إلى ذروتها لإحدى المقاطع الموسيقية نيابة عن آلة الكمان أو آلة العود أو آلة القانون أو آلة الناى. ومن البديهى أن يكون صاحب الصوت فنانا ماهرا يمكنه أن يعزف بصوته بشكل جيد، وإلا سيكون عنصرا متطفلا على الأغنية. أما الملحن فهو المصور على مستوى الخيال الموسيقى، والصانع على مستوى تكوين النص الموسيقى ، والمبدع على مستوى ألحان الأغنية التى تسافر إلى أذن المتلقى فتدخل قلبه بأنغامها ومقاماتها طواعية سواء من خلال صوت الملحن نفسه أو من خلال أصوات أخرى لمطربين ، فالمتلقى أساسا لا يطرب للأغنية إلا من خلال ألحانها الجميلة ، والمطربون وكذلك العازفون على اختلاف آلاتهم الموسيقية إنما يؤدون ويرددون ما جاء به الملحن ، ولا شك أن أداء الأغنية يمر عبر أصوات عديدة، فيشترك أحيانا أكثر من مطرب فى أغنية واحدة «دويتو» و «أوبيريت» وينفرد أيضا أكثر من مطرب لأغنية واحدة كأغنية «لا تكذبى» قصيدة الشاعر كامل الشناوى والتى رددها كل من نجاة الصغيرة وعبدالحليم حافظ وكذا صاحبها وملحنها الموسيقار محمد عبد الوهاب وأعادت الفنانة نجاة غناء مجموعة كبيرة من «كلاسيكيات» الفنان محمد عبدالوهاب ولكن بموافقة هذا الأخير باعتباره ملحنا للأغانى ، وليلى غفران آدت أغانى لعبد


لطفى بوشناق


لطيفة

الحليم أقصد «لمحمد الموجى» وبموافقته أيضا ، وقد ظهرت فرق للانشاد تفننت وأدت الموروث الجميل من الأغانى الكلاسيكية بطريقة كورالية رائعة بعيدا عن الصوت الأول الذى غنى تلك الأغانى ، وهناك فنانون من أشهر العازفين لآلة الكمان ممن أغدقوا علينا سيلاً من الطرب مثل العازف سعد محمد حسن والعازف عبود عبدالعال وغيرهم أغانى عندما قدموا لنا بأصوات آلاتهم الموسيقية وبعزفهم الرائع أغان خالدة للقصبجى ورياض السنباطى وعبدالوهاب وعاصى الرحبانى ناهيك عن بعض الأصوات الجميلة غير المعروفة من مطربى الكباريهات والحفلات الخاصة والأعراس الذين يرددون كل ليلة نسخا من أجمل الأغانى الشهيرة بإحساس عال يضاهى أحيانا ما قدمته الأصوات «الأصلية» ، ولكن بفضل الألحان الجميلة التى أبدعها الملحنون. فالأغنية على ضوء ما قدم هى من صنع الملحن ونتاجه الفنى، ولا يمكن أن نقدمها إلى الجمهور إلا باسمه وليس بأسماء المطربين، ولا يجوز أن ننسب هذه الأغنية أو تلك فى كل مرة إلى من يؤديها ، كما لا يصح أن نضع كل من حفظ قصائد المتنبى ورددها فى مكانة الشاعر ، وكل من عزف سيمفونية الدانوب الأزرق بمكانة شتراوس!

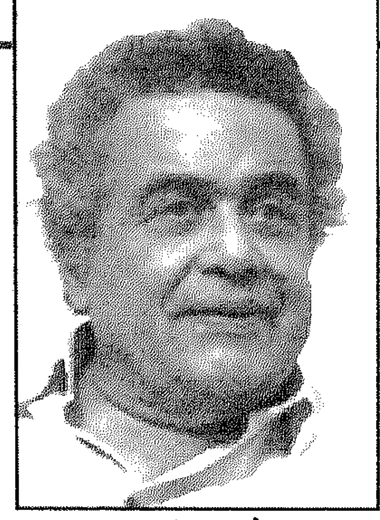
● وسطاء الفن ،

فالعازف والمطرب وكذلك فرق الانشاد لم يكونوا سوى (وسطاء فن) بين الملحن صاحب الأغنية والمتلقى، علما بأن معظم (هؤلاء الوسطاء) قد غنموا بجهد الملحن وموسيقاه أموالا طائلة عن طريق الحفلات وشركات الإنتاج والمناسبات الفنية لم ينل الملحن منها سوى حسرته وهو يرى ألحانه تتحول ذهبا لحساب غيره ، لكن الجهة الوحيدة التى حسمت الأمر لصالح الملحن والشاعر هى جمعية المؤلفين والملحنين والناشرين للموسيقى (Sacem) عندما حافظت على حقوقهم وممتلكاتهم الفنية ، وخصصت لهم تعويضا ماديا ولكنه تعويض متواضع جدا لقاء تلك الألحان والكلمات. ومع ذلك فإننا لا نرى فى الصورة إلا المطرب وهو يقف أمام الملحن كشجرة تغطى الغابة. تصوروا لو أن موسيقار الأجيال الفنان الكبير محمد عبدالوهاب لم يكن واقفا أمام موسيقاه كمطرب ، فأين كنا سنجده اليوم بين زحمة الألحان والأصوات ؟ وهل كان سيحظى بما ينعم به الآن من الشهرة ؟ أعتقد بأن بعض الملحنين الكبار قد (اضطروا) لإعادة تسجيل بعض الأغانى من ألحانهم بأصواتهم واقتحموا ميدان الغناء ولو فى حدود ضيقة فى محاولة منهم لتعريف المتلقى ونزع الاعتراف منه بأحقيتهم فى الإبداع والشهرة مثل الفنان الكبير رياض السنباطى (عودت عينى على رؤياك) و(أشواق) ، والفنان سيد مكاوى (يا مسهرنى) و(أوقاتى بتحلو) والفنان زكريا أحمد (الورد جميل) وغيرهم .

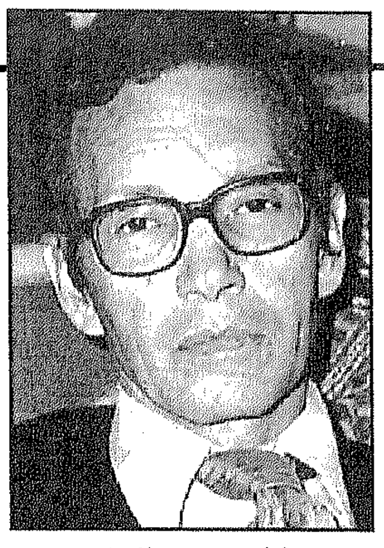
إن دعوتى لإنصاف الملحن لا تعنى بالضرورة تجاهلا للأصوات الاستثنائية الجميلة ودورها فى نجاح الأغنية. ولا هو انتقاص من المطربين والمطربات وخاصة الرواد منهم وفى مقدمتهم سيدة الطرب العربى أم كلثوم ، فقد كانت كما هو معروف ذات شخصية فنية قوية إلى جانب سحر صوتها المتميز، وما من أغنية رددتها إلا وكانت تتدخل فى هندسة ألحانها

وتساهم في معالجة كلماتها حتى تترك بصماتها الواضحة عليها. وهكذا كان العندليب الأسمر عبدالحليم حافظ. وكذلك كانت ولاتزال كروانة العرب المطربة فيروز. إلا أن الحديث عن المطرب وجمال صوته لا ينبغي أن ينسحب على الأغنية كموسيقى وألحان لأننا كثيرا ما نخطئ عندما نبدى إعجابنا الشديد بالمطرب من خلال إعجابنا بالأغنية التي هي نتاج الملحن. والمنطق لا يقبل أن نحول تراث الملحن من موسيقاه الرائعة كتراث فني لصالح المطرب الذي لا يملك من هذه الأغاني سوى حنجرته وصوته الجميل فقط.

وتختلف حظوظ المطربين والمطربات إلى نظراء لهم على صعيد الشهرة والانتشار، إلا أن القاسم المشترك لدى الجميع هو غياب اسم الملحن واسم الشاعر عن الجمهور سوى في بعض المناسبات المحدودة. والغريب أن تقوم وسائل الإعلام بمتابعة المطرب في مشواره الفني والاحتفاء به ورصد حركاته وسكناته، وتختلق قصصا وحكايات عن مغامراته العاطفية، وتحتفل بذكراه كل عام بعد رحيله بينما تمر ذكرى الملحن يتيمة كسحابة صيف، خجولة حتى من الإشارة إلى معاناته في خلق الأغنية، بعيدة عن مستوى حجم إنجازاته الفنية العظيمة، أتساءل: من يتذكر من العرب اليوم الملحن محمود الشريف سوى نخبة محدودة من الوسط الفني؟ ذلك الفنان الذي احترق اجتهادا لأجل موسيقاه الجميلة وألحانه الرائعة كي يضيء نجم كل من محمد قنديل، وعبدالعزيز محمود، محمد عبدالمطلب، وكارم محمود، ومن يقف وراء نجاح المطربين الكبار؟ ومن صنع عبدالحليم حافظ صاحب أوفر الحظوظ نصيبا من الشهرة لولا كمال الطويل، ومحمد عبدالوهاب ومحمد الموجي ذوو أجمل الألحان التي غناها العندليب إلى جانب الشعراء سمير محجوب ونزار قباني وحسين السيد ومأمون الشناوي وعبدالوهاب محمد؟ وكذلك الحال بالنسبة للرحبانية مع فيروز، والملحن إحسان المنذر مع راغب علامة (لبنان) والفنانين القصبجي ورياض السنباطي والشعراء أحمد رامي وابراهيم ناجي مع كوكب الشرق أم كلثوم، والملحن محمد سلطان مع فايزة أحمد (مصر)، وصالح الشهري مع عبدالمجيد عبدالله (السعودية)، وكذا الملحن عبدالقادر الراشدي والملحن عبدالقادر وهبي والشعراء أحمد الطيب العلج وعلى الحداني مع نعيمة سميح ولطيفة رأفت (المغرب)، والملحن د. جمال سلامة وعبدو منذر مع ماجدة الرومي والملحن طالب القره غولي، وكذا كوكب حمزة مع سعدون جابر وحميد منصور (العراق) والاخوة الشرنوبي وحلمي بكر من مصر والملحن محمد محسن من سوريا مع مجموعة كبيرة من المطربين والمطربات وبليغ حمدي مع وردة الجزائرية وميادة الحناوي والقائمة طويلة. وخلاصة ما أود قوله هو أن الملحن شمس في سماء الأغنية العربية وما من كوكب أو نجم فني يضيء في كبدها إلا بفضل ألحانه الخالدة. فقد آن لنا أن نعيد الصورة الفنية إلى وضعها الطبيعي ونمنح كل ذي حق حقه ونعمل على إنصاف الملحنين وخاصة المجهولين منهم الذين خطف المطربون شمس إبداعاتهم وباتوا، هم، في الظلام.



فتحى غانم





شادى عبد السلام

«جبل» فتحى غانم و«مومياء» شادى عبدالسلام

بين دراما «الردينجوت» ودراما «الخلجات المجطعة»

«أنت أرستقراطي لهذا أنت ملحد ، إنك لم تعد تعرف شعبك» .

«شاتوف - شياطين ديستويفسكى»

بقلم : د. فهمى عبدالسلام

منذ أكثر من ثلاثين عاماً، صدرت رواية الجبل للروائى الكبير الراحل : فتحى غانم، ولم تأخذ هذه الرواية المهمة الجميلة حظها اللائق من الاهتمام والحفاوة النقدية، لأسباب غير مفهومة.

وتعتمد رواية الجبل على واقعة حقيقية تتعلق بسرقة الآثار من مقابر الفراعنة الواقعة فى البر الغربى بمدينة الأقصر. ولصوص الآثار هم أبناء قرية القرنة (الجرنة بلهجة أهل الصعيد) ، الذين يعيشون فى كهوف ذلك الجبل.

أحداث الرواية تقع في الأربعينات إبان الحكم الملكي. وتعهد الحكومة المصرية إلي أحد كبار المهندسين ببناء قرية نموذجية لأهل الجرنة، فيقوم المهندس المصري بتصميم وتنفيذ قرية نموذجية بالقرب من الجبل، وتفاجأ الدولة والمهندس بأن الأهالي يرفضون النزول من الجبل، ويرفضون كذلك الحياة في القرية النموذجية، مفضلين ألا يغادروا كهوفهم التي تشاركهم بها السحالي والثعابين. ويبدأ الصراع بين المهندس والحكومة من خلفه في جانب ، وأهالي الجرنة في الجانب الآخر، فالمهندس يصر علي نزول الأهالي والأهالي يقاومون المهندس والحكومة بكل الطرق.

المدهش أن واقعة سرقة الآثار على أيدى فقراء الجبل، التى أثارت فتحى غانم كمادة روائية ثرية، هى نفسها أثارت الفنان الراحل شادي عبدالسلام الذى ألف وأخرج فيلم المومياء عن الواقعة نفسها «اشترك علاء الديب مع شادى عبدالسلام فى كتابة الفيلم». على الرغم من أن شادى وفتحى غانم قد إنطلقا من الواقعة نفسها، فإن التناول الدرامى لكلا العملين جاء معبراً عن مبدعه وعن رؤية هذا المبدع وعن موقعه من الأحداث . ومن المعروف أن السينما تعتمد على لغة الصورة فى الأساس، وأن الرواية تعتمد على الكلمة المكتوبة كأداة للتعبير، إلا أن كلا من الفيلم السينمائى وكذلك الرواية المكتوبة، يجمعهما عنصر أساسى، وهو الدراما، والدراما فى النهاية هى الدراما، سواء كانت مكتوبة أو مرئية، ومن ثم يجوز لنا أن نقارن بين التناول الدرامى عند شادى عبدالسلام والتناول الدرامى عند فتحى غانم، وسوف نبدأ بفتحى غانم وهو يغوص عميقاً فى التربة المصرية، تحديداً فى ذلك الجزء المهمل المظلوم من بلادنا فى صعيد مصر.

الرواية مكتوبة بلسان الراوى، والراوى لا ينتحل اسماً وهمياً، فالراوى هو فتحى غانم، الموظف الشاب بإدارة التحقيقات التابعة لوزارة التعليم، وقد عمل فتحى غانم بهذه الوظيفة قبل أن يغادرها إلى عالم الصحافة والأدب، وتبدأ الرواية حين تقوم إدارة التحقيقات بتكليف المحقق الشاب فتحى غانم بالسفر إلى الأقصر، لاجراء تحقيق عن وقائع سرقات واختلاسات، والشكايا التى وردت من أهالى الجرنة ضد المهندس، واتهامات المهندس للأهالى بسرقة الآثار وتشويه سمعة مصر، والتحقيق فى أسباب رفض الأهالى النزول إلى القرية النموذجية التى أنفقت عليها الدولة الأموال الطائلة. من هنا تبدأ الرواية.

● عالمان لا يلتقيان

ومنذ أن يضع الراوى أقدامه فى القطار المتجه إلى الصعيد، لا تكف عيناه عن التقاط المفارقة ورصدها فى اقتدار. ففى القطار يكتشف الراوى أن الصعيد ليس واحداً (مثل كل شىء فى مصر). فقطار الصعيد يحوى داخله عالمين لا يلتقيان، أولهما عالم الدرجة الأولى، عالم المقاعد المكيفة والحقائب الجلدية الأنيقة،

التى تحوى داخلها الثياب الصوفية الفاخرة وأربطة العنق وزجاجات العطور الفرنسية والروب دى شامبر، وهذا العالم الثرى المترف يقابله عالم الدرجة الثالثة، عالم السلة الرخيصة التى بها الشاى والسكر وزجاجة الزيت، عالم السلة الفقيرة الملقاة بين المقاعد الخشبية، عالم الدولة ورجالها وأثريائها فى الدرجة الأولى، يقابله عالم الفقراء والواقعين من «قعر القفة» فى الدرجة الثالثة.

خلال الساعات الأولى لوصول الراوى إلى مدينة الأقصر، تبدأ تلك المقابلات المحزنة فى مطاردة الراوى، إذ يلتقى الراوى بالمصادفة بزميل دراسته فى كلية الحقوق الذى يعمل وكيلاً للنيابة بالأقصر، ويتم هذا اللقاء فى بهو فندق «الونتر بالاس»، وتبدأ عين الراوى فى التقاط مظاهر زيف وخواء عالم وكيل النيابة وحياته. فعلى الرغم من شعور وكيل النيابة الأعزب بالوحدة الشديدة، وعلى الرغم من رغبته الشديدة فى التحدث إلى أى إنسان، إلا أن وكيل النيابة يجد نفسه مضطراً للجلوس وحيداً فى الونتر بالاس لقتل الوقت، متعالياً فى مظهره، ومسكيناً وحيداً داخل نفسه ، كى يحفظ للنيابة هيبتها!.

وحين يقضى الراوى ليلته فى مسكن وكيل النيابة، يستيقظ الراوى على صديقه وهو يقدم له شاى الصباح، وقد ارتدى الفانلة و«اللباس». ويرصد لنا الراوى مظاهر البؤس والفوضى التى تملأ مسكن وكيل النيابة، فالسرير سفرى صغير اتسع لهما بالكاد، ومكان الثياب المتسخة ما هو إلا مسمار فى الحائط، والكرسى المكسور، هو مكان الثياب النظيفة والطشت وباجور الجاز.. ويتجول وكيل النيابة فى الشقة بالفانلة و«اللباس»، مطرقعاً بالقبقاب الخشبى، معلناً احتجاجاً عالى الصوت على الحياة فى هذا المسكن.

● فوضى فى كل مكان

ويركب الراوى المركب النيلى الفقيرة كى ينقله إلى البر الغربى لمقابلة المهندس، وتتذكره الفوضى على ظهر المركب بالفوضى التى رآها فى مسكن وكيل النيابة، والفوضى على ظهر المركب فوضى واضحة وصريحة، فهؤلاء البسطاء لا يخجلون من فقرهم ومن فوضى حياتهم، أما وكيل النيابة، ابن القاهرة ، فهو يخجل من فقره وفوضى حياته وبؤسها، فيغلفها بالبذلة الإنجليزية الصوف، وبعطر «الإكينتسون» وبالبريانتين الفاخر وبالحذاء ماركة كنج، بعدها يتحول وكيل النيابة إلى رجل أنيق. وهذا الذى كان يقف ضجراً بالفانلة و«اللباس» ومطرقعاً بالقبقاب، بعد دقائق سوف يجلس على منصة الاتهام، بالبريانتين وبالطربوش الأحمر والوشاح الأحمر على الصدر، حيث سينظر إلى المتهمين وإلى القاعة فى تعال وغطرسة.

هذا الرصد للتناقضات بين عالمى بسطاء الصعيد وفقرائه من أهل الجبل، وبين أهل الكوزموبوليتان (وكيل النيابة والأميرة ومفتش الآثار... إلى آخره)، يدين بها فتحى غانم إلى رؤى أوزوالد إشبنجلر بفهمه العميق لفلسفة التاريخ والحياة. فالمدن الكبرى عند إشبنجلر توصم أهلها بالخواء وبالزيف والتكلف

والاصطناع لأن المدينة نفسها شكلاً اصطناعياً من أشكال الحياة. والمدنية تربك الفلاح ابن التربة. وابن المدينة هو ذلك الشكاك المرتاب العملى الواقعى الذى لا يعرف التقاليد ولا يفهمها ولا يحترم كبار السن. وفى رواية «الجبل»، طبق فتحى غانم هذه القاعدة على حياتنا، ولأننا لسنا بأصحاب المدنية الأصلية، وإنما نحن واقعون تحت سطوة المدنية الغربية شديدة الجاذبية ، لهذا سنجد تشوهاتنا أكثر عمقاً وأكثر فداحة من تشوهات ابن نيويورك أو لندن.

وفى القرية يتقابل الراوى مع عشيقة الرسام الفرنسى رودان ، التى تقول «لقد أفسدنا عقليتكم فى الشرق، حتى فى الصين سمعتهم يرددون هذا الكلام، أنتم تريدون تحويل كل شىء إلى باريس، لا المدن الكبيرة فقط، لكن كل قرية وكل كوخ تحلمون بأنه لابد أن يصبح كباريس يوما ما، تدخله الكهرباء والكباريهات والكتب والأفكار والانهيار الخلقى وانعدام الذوق وضياع الفن، لقد فرت عشيقة رودان تبحث عن مأوى تلجأ إليه، لكن باريس ظلت تلاحقها فى كل مكان.

وإذا كانت المدنية الأوربية تجثم على أنفاسنا إلى هذه الدرجة، ففتحى غانم المهموم بقضايا الوطن يتساءل فى حيرة «أما من وسيلة لكى نطور حياة الشعب ولا نفسد إنسانيته» !؟ هل التطور ثمنه هذا الخواء وذلك الزيف !؟.

فالمدنية عند إشبنجلر هى المال وهى الإنحلال ، وهى عند فتحى غانم هى بالاضافة إلى كل ذلك، لأنه مصرى، هى التشوهات التى لا أول لها من آخر والتى لا تخطر على بال، فيقول «القاهرة تحولت فى عينى إلى كتلة ضخمة من التفاهة، ليس فيها رجال، ليس فيها مشاكل، فيها ضجة حمقاء وصخب أبله.. هذه هى القاهرة وإدارة التحقيقات». هذه كلمات الراوى بعد أن عرف حياة أهل الجرنة ببؤسها وبأحزانها الصادقة العميقة.

ويتصادف أن تأتى رحلة الراوى إلى الأقصر، فى الوقت نفسه الذى تقوم به إحدى أميرات الأسرة الحاكمة بزيارة إلى الأقصر، وسيرة هذه الأميرة تملأ الرجال الجوف، ضحايا الكوزموبوليتانية المشوهة (الموظفون فى تفتيش الآثار ووكيل النيابة والشرطة ورجال الونتر بالاس والمهندس)، تملأ سيرة الأميرة نفوسهم بالرهبة، فحين يمر موكبها (ومعها عشاقها من الشبان الأمريكيين) فى بهو الونتر بالاس، تحيط بها الرهبة والقداسة، اللذان يعبران عن نفسيهما بالصمت الذى ران على بهو الونتر بالاس، فوكيل النيابة كان حريصاً ألا يغادر البهو إلا بعد أن تمر الأميرة، «كان مرور الأميرة لحظة مقدسة عند صديقى، فتجمد فى جلسته ، وربما منع نفسه من التنفس، وكف قلبه عن الخفقان، وتنهد بشدة، وأخذ نفسه بقوة بعد أن مرت. أما فى مبنى تفتيش الآثار، فقد سرت حالة من الزهو والتعالى والعنجهية فى المبنى كله، لأن كبير مفتشى الآثار كان يصحب الأميرة وهى تتفقد معبد هابو. وفى المركب النيلى يقف الراوى يستمع إلى كلمات عالم الدرجة الثالثة الواقعين من قعر القفة، وتتحول الأميرة وسيرتها التى تبهر ذلك العالم الزائف وتسحقه، حولها هؤلاء البسطاء النافذو النظرة إلى مجرد امرأة، وأسقطوا عنها

جبل فتحى غانم

بكل بساطة أية أوهام أو أية قداسة زائفة، فهى مجرد امرأة، يروون عن ضياط حرسها القصص، وينظرون إليها كأنثى يشتهيها الرجال، ويؤكدون فى ثقة أنهم الرجال الجديرون بها.

«بذمتى يا رجالة تتلهط لهط، خشمها عم بينجط عسل، ولا بطنها يابوى عم يترجص زى العجين الخمران» عندما يسمع الراوى تلك الكلمات التى نفذت إلى قلب الحقيقة بصدقها وبساطتها يسجل «وشعرت لكلماتهم براحة نفسية غامرة».

● فراغ وخواء

ويستمر الراوى بعينه الناقدة فى الرصد والالحاح على المعنى الكبير الذى يؤكده المرة تلو الأخرى، فى المفارقة واللا إتصال القائم بين العالمين، عالم الدولة والكوزموبوليتانية المشوهة بزيفها وفراغها وخوائها، وعالم البسطاء الحزين الصادق. فيصل الراوى إلى القرية النموذجية كى يقابل المهندس الكبير الذى يبدو ضجراً وعصبياً ويتأوه قائلا «أوه ياربى.. المفروض أن البنت تلبس برتقالى علشان اللون يمشى مع الحيطة» ويتعجب الراوى، وهو ينظر إلى صبية حافية الأقدام تحمل آنية فوق رأسها.. ويعبر المهندس الذى يريد أن يمدين أهل الجرنة عن عذابه الشديد لرفض أهل القرية النزول للسكن بها، ويتحدث المهندس عن القباب العالية التى تغنى عن تكييف الهواء، ودورات المياه المزودة بالسيفون، ويشرح المهندس للراوى حركات المصلين كأنهم لن يصلوا، بل سيرقصون الباليه على مسرح حديث جيد الاضاءة. ويزفر المهندس قائلا:

«أوه يا ربى انهم يتحدثون عنى فى العالم كله ولا أحد يهتم بمشروعى فى مصر».

ويستكمل الراوى بقية الوقائع التى يعرفها، من حسين على بطل الرواية، فالقرية ينام رجالها طيلة النهار، فإذا ما حان الليل، يبدأ الرجال بالتنقيب داخل كهوف الجبل، للبحث عن مقبرة فرعونية تحتوى على كنز من كنوز الفراعنة، وأهل القرية لديهم قناعة راسخة أنهم أحفاد هؤلاء الفراعنة، وأن مقابر الجبل هى مقابر الأشراف، «للملوك مقابرهم والملكات مقابرهم أما هنا فهذه مقابر أجدادهم الأشراف، وأنهم حينما يأخذون شيئاً من هذه المقابر، فهم يستردون ميراثهم الطبيعى، والعمدة ينظر إلى رسوم المقابر وفى عينيه الحنين نفسه الذى تشعر به حينما تتأمل صورة قديمة لقريب عزيز مات. تمر الشهور والسنون، وأهل الجبل يكحتون الصخر مغامرين بحياتهم، يتحدون قسوة الجبل، ويتحدون مكر الفراعنة، ويسقط القتلى قرباناً للذهب، إذ يسقط أحد الرجال فى بئر بلا قرار، أو فى هاوية سحيقة، أو يلقى حتفه تحت سقف ينهار، وعندما يكحتون ويكحتون طويلاً دون أن يجدوا شيئاً، أو حينما يصلون إلى سرداب ويكتشفون أن القبر قد سرق من قبل، يدب اليأس فى قلوب الرجال، ويصيح أحدهم فى مرارة ويأس:

«دهب المساخيط مرصود، دهب المساخيط ما حوالهش إلا الموت وتجطيع الايدين، مكتوب علينا الفجر يا رجالة، ما الناش منه خلاص». وفى صباح يوم تستيقظ أسرة هذا اليائس فتجده قد اختفى، يسافر الرجل مشياً على قدميه، أو فى مركب نيلى إلى الشمال، حيث سيعمل فى بناء العمارات، وسيتزوج هناك

ويستقر، وينسى زوجته الأولى وأولاده وأهله، وأهل الجبل.

يقاوم العمدة هذا اليأس، فيشحذ نفوس الرجال برؤية أحد أولياء الله الذى يأتى للعمدة فى المنام، ويدله على مكان الكنز، ويحدثهم العمدة عن الأوانى الذهبية التى رآها فى الرؤيا وكثرتها وأشكالها، فيلهب حديث الذهب حماس الرجال مرة أخرى، وتتحدث النساء عن الحلى التى سوف يشترونها عندما يجدون الكنز، ويبدو للجميع أن الكنز قريب المنال، فيبدأون فى كحت جديد وسرداب جديد وموتى جدد.

وخلال اللقاءين بين الراوى والعمدة، وبين الراوى وعلى حسين، نتعرف على المصائر التى حاقت بأهل الجبل، لقد إنهار السرداب على والد حسين على، فبترت ساقاه وعاش كسيحاً، وتزوجت ابنته مريم من العمدة، وبعد فترة تستأنف القرية فى كحت سرداب والد حسين، وبعد أن انتهى الرجال من الكحت، وأثناء نومهم يفكر الكسيح الذى كان قد بدأ يفقد قواه العقلية، أن السرداب الذى فقد فيه ساقيه ينتهى إلى الكنز، وأن أهل القرية سوف يأخذون الكنز، وسيتركونه لأنه عاجز «وشيلته تجيلة»، فيزحف الرجل الكسيح ويدخل السرداب، حيث يستأنف الكحت وحده، فتشعر ابنته مريم بالقلق لغياب أبيها وأصوات الكحت تترامى إليها من السرداب، فتزحف حتى تصل إلى أبيها الذى كان قد فقد عقله، فظن أن الرجال قد أتوا ليأخذوا الكنز الذى فقد ساقيه من أجله، وفى ظلام السرداب الرهيب ينقض الأب الملتاث الهائج على مريم بالمعول فيمزقها ويستأنف الكحت، وينهار السرداب فوق الأب وجثمان مريم التى مزقها المعول.

وبعد فترة طويلة لا يجد حسين والعمدة ورجال الجبل أمامهم ، سوى المصير الدامى المكتوب عليهم ، فليس أمامهم سوى الكحت والكحت والكحت، وفى السرداب نفسه الذى إلتهم الأب ومريم وتلطخت جدرانه بدمائهم، وبعد كدح هائل يستمع الرجال إلى المعول وهو ينهال على الصخر، فيأتى صوت الرنين الذى يعرفونه، خلف الرنين تجويف ، يبدأ الحماس وتترقب النسوة ويتم المعاهدة على أن الكنز سيوزع بعدل الله فلا كبير ولا صغير، ويتم الاتفاق على أن الذى سيسدد الضربات الأخيرة هما حسين والعمدة، وفى لحظة رهيبة يكتشف الرجلان أن السرداب يفضى إلى بير، بير بلا قرار، لقد خدعهم الفراعنة مرة أخرى، ويعوى صوت حسين فى البير منادياً على مريم وعلى أبيه :

يابوى .. يابوى.. يا مريم يامريم انتو فين يابوى.

ويبكى حسين وهو ينادى مريم وأباه.

يتعمد حسين أن يجعل الراوى ينصت إلى أغنية مغنى الجبل، الذى يتغنى عن بهية التى تتساءل عمن قتل ياسين:

أحكم يابيه النيابة. جدامك مظاليم / عوج الطربوش على ناحية وحكم بأربع سنين/ اتنين فى الباب العالى واتنين فى الزنازين/ وعد ومكتوب يابوى ومسطر على الجبين.

يستمع الراوى إلى هذا الشعر الحقيقى الرقيق فى الموال والشكوى الصادقة الحزينة، كتعبير عن حيرة حسين وأهل الجبل، وعن علاقة الدولة بهؤلاء المظاليم، ويتذكر صديقه وكيل النيابة بطربوشه المعوج، سيسأل وكيل النيابة

اسمك وسنك ومهنتك ، بعدها س : هل كحت الجبل وسرقت الآثار، سيجيب حسين: نعم كحت الجبل لكنني لم أسرق، وسيتنهد وكيل النيابة ظفراً لأنه انتزع الاعتراف الكامل من المتهم حسين على ، سيتم ايداع حسين على فى السجن حيث تنتهى المسألة هكذا، وكأن السطور الأربعة فيها حياة حسين وحياة أهل الجبل جميعاً، ومشاكلهم كلها، تم اختصارها فى سؤالين وجوابين واعتراف ثم سجن.

●●●

وقبل أن يغادر الراوى الأقصر كلها عائداً إلى القاهرة، يجد فى القرية مشادة كلامية بين ثلاثة رجال، المقاول الذى يريد أن يجعل القرية فندقاً، ومندوب وزارة التعليم الذى يطالب بتحويل القرية إلى استراحة لطلاب المدارس، والمهندس يقاتل لكى ينزل الأهالى إلى البنايات. وتتحول سخرية الراوى إلى قرف وغثيان «كل الكلام الذى اسمعه الآن ينتهى إلى المصلحة الشخصية، المقاول يبحث عن الربح من وراء الفندق، والموظف السمين يبحث عن مشروع جديد يتباهى به أمام الوزير، والمهندس حريص على سمعته العالمية.. ولا أحد يذكر أهل الجبل».. وتنتهى الرواية والأسئلة مفتوحة كالجراح تلسع عقل الراوى كلسع البعوض عن جدوى إدارة التحقيقات كلها... وبعد أكثر من خمسة وثلاثين عاماً من كتابة تلك الرواية المهمة، لازالت القرية النموذجية تجسيدا لمشروعات الدولة الفاشلة، لقد ذهب الكلام الأجوف الذين كانوا يتشدقون به عن تحسين حالة الفقراء الذين يعيشون فى الكهوف، وظهرت الأسباب الحقيقية للروائى الكبير فتحى غانم، فسجل أن «الأسباب الحقيقية الكامنة وراء المشروع كانت ربحا شخصيا أو مجدا شخصيا، ومن يدرى ماذا ستأتى به الأيام، من أفكار أخرى لرجال ذوى أطماع جديدة فى هذه القرية». ومنذ عدة شهور قرأنا فى الجرائد عن سكان قرية الجرنة الذين هاجموا القرية النموذجية وأحرقوها، فلازال الجبل هو ملاذهم وحائطهم الأخير، ولازال هناك من المسئولين يصرون على أن يغادر الأهالى جبلهم كى يسكنوا فى القرية النموذجية، دون أن يقدموا لهؤلاء المساكين عملاً يرتزقون منه ..!!.

السؤال الآن: أين دراما شادى عبدالسلام من كل هذه الملحمة الدامية التى أبدعها الراحل فتحى غانم، الحقيقة أن دراما شادى تتوارى بعيداً بعيداً حينما تطل دراما فتحى غانم العذبة الشجية التى تحمل أوجاع أهل الجرنة، فهذه الملحمة الدموية اختزلها شادى عبدالسلام إلى أحزان هاملتية تنتاب ونيس الابن الذى يموت أبوه، فيكتشف أن أباه وقبيلته كانوا من لصوص الآثار، فيهيم ونيس فى الوديان والجبال، يطرح الأسئلة الملتاعة الهاملتية ، التى لا علاقة لها بالصعيد ولا بخشونته ولا بحياته الشاقة وكدح أهله الطويل من أجل البقاء ، فالدراما عند شادى فى المومياء جاءت ذهنية مفتعلة ، لأن شادى لم يعرف الصعيد، ولم ينظر عميقاً إلى تربته كما فعل فتحى غانم الروائى الكبير المهموم بقضايا شعبه.

البابا .. والرحلة الإبراهيمية

تعقيب على مقالـــة ..

بقلم : د. محمد سليم العوا



فى العدد الماضى من الهلال كتب الصديق العزيز الأستاذ مصطفى نبيل مقالة مهمة عن الرحلة التى يتردد أن البابا يوحنا بولس الثانى يتمنى القيام بها تقليدا لما يسمى برحلة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

وحين كنت فى زيارة رتبها سفيرنا المتميز لدى الكرسى الرسولى السفير حسين الصدر ، لعدد من مؤسسات الفاتيكان والكليات الجامعية ومراكز البحوث فيه ، خلال شهر مارس الماضى سئلت مرتين على الأقل عن رأى المسلمين فى هذه الرحلة ، وهل سيكون بإمكان البابا ترتيب دعوة - وتأكيد حضور - بعض القيادات الإسلامية للصلاة معه ومع ممثلين للمسيحية واليهودية فى أرض سيناء ؟.

وكان جوابى فى كل مرة أن القيام برحلة روحية شىء مهم فى حياة الإنسان . ونحن - المسلمين - يحج القادرون منا الى مكة المكرمة لزيارة البيت الحرام

والصلاة فيه، ويحرصون على زيارة المدينة المنورة التى هاجر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وأقام فيها دولته . ويجدون فى ذلك متعة حقيقية لا تدانيها متعة أية رحلة أخرى .

وغير القادرين يعيشون حياتهم كلها فى شوق عظيم للقيام بهذه الرحلة وأداء مناسكها ، لأن الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة التى لا يسع قادرا على أدائها إلا يؤديه .

ولكن رحلة الحج المفروضة بالقرآن الكريم شيء، والرحلة التى يتحدثون عن رغبة البابا فى القيام بها، ودعوة مسلمين ويهود ومسيحيين للصلاة معه فى سيناء شيء آخر تماما ، ورحلة الحج عند المسلمين هى التى تخلد ذكرى ابراهيم ورحلته من مصر الى الشام ثم الى مكة المكرمة ، ونداء الناس الى الحج كان أول من قام به هو إبراهيم عليه السلام امتثالا للأمر الربانى «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهودا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» سورة الحج : «٢٧ ـ ٢٨» .

والمسلمون لا يعبدون الله إلا بما شرع لهم أن يعبدوه به . ومناسك الحج كلها مأخوذة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى حج بأصحابه وقال لهم : «خذوا عنى مناسككم» والصلاة كذلك ، أمرنا أن نصلى كما صلى فقال لأصحابه : «صلوا كما رأيتمونى أصلى» وهكذا العبادات كلها .

فلا يحل لمسلم أن ينشيء عبادة جديدة، أو يتابع أحدا فى إنشائها مهما تكن المناسبة أو السبب . والصلاة فى كل دين خاصة بأتباعه ، يؤديها المؤمنون بهذا الدين بطريقتهم ، فى الأوقات التى تحددها تعاليمه ، وبالطريقة التى تنقلها إليهم نصوصه . ولا تجوز فى الإسلام الزيادة على العبادات المنصوص عليها ولا النقص منها . فالزيادة بدعة والنقص خطيئة .

ولذلك قلت للسائلين: إن المسلمين لا يستطيعون قبول دعوة للصلاة مع غيرهم من أهل الأديان ، لا فى سيناء ولا فى غيرها ، ولا يستطيعون القيام برحلة البابا معه ، لأنها عبادة لم تشرع فى دينهم.

وقلت للسائلين أيضا : إنكم تزعمون أن البابا يوحنا بولس الثانى يريد أن يبدأ هذه الرحلة من القدس . ونحن العرب ـ مسلمين ومسيحيين ـ نعتبر القدس أرضا محتلة . وخطاب وزير خارجية الفاتيكان الي البطاركة الكاثوليك منذ شهور قليلة أكد أن هذا هو موقف الفاتيكان أيضا :

إن القدس أرض محتلة ، وزيارة البابا للقدس تحت الاحتلال لن تفهم إلا على أنها فى أقل الأحوال ـ سكوت عليه وسوف

تفسرها إسرائيل على أنها مباركة مسيحية كاثوليكية له . فهل يقبل البابا أن ينسب اليه مثل هذا ؟ وهل يرضيه أن يشعر ملايين المسلمين والمسيحيين العرب أنه لا يهتم باحتلال هذه المدينة المقدسة وبما تجريه إسرائيل فيها من تغيير سكانى ينال المسيحيين والمسلمين على السواء ؟.

ومصر التى ستكون فى قلب الرحلة ، ومحطتها النهائية ليست بالبلد الصغير الذى يزار «مرورا على الطريق» بمناسبة زيارة مكان آخر مهما يكن هذا المكان مهما . إن من حق مصر أن تفرد بالزيارة، وتخص بها ، وتقصد لذاتها ، لا بالإضافة إلى نشاط البابا فى رحلة أخرى.

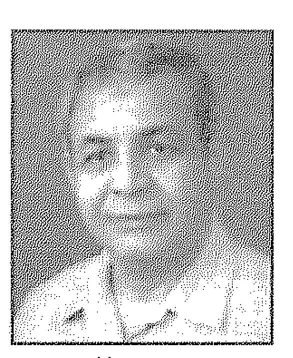
والمواطنون المسيحيون فى مصر عدة ملايين غالبيتهم العظمى من الأرثوذكس ، ومن حق كنيستنا الوطنية أن تكون فى قلب زيارة البابا لمصر وأن يستقبل زعيم الكاثوليكية فى العالم بما يليق بمكانته من رأس الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية ، وهذا كله لا يتاح لو كانت زيارة مصر «على هامش» الرحلة البابوية .

وفى العالم العربى نشاط مهم للعلاقات الإسلامية المسيحية يقوم به الفريق العربى للحوار الإسلامى المسيحى، وهو فريق يضم متطوعين من المهتمين بالشأن الإسلامى المسيحى ، وتمثل فيه الكنيسة الأرثوذكسية المصرية وكنائس الشرق العربى كلها ، ولهذا الفريق المعبر عن المسلمين والمسيحيين العرب موقف من قضية «التراث الإبراهيمى» أعلنه فى المؤتمر المهم الذى عقده فى بيروت فى صيف عام ١٩٩٨ خلاصته أن التراث الإبراهيمى هو تراث التوحيد الذى بعث به الأنبياء جميعا «صلوات الله عليهم» وليس تراث شعب بعينه ، ولا هو ميراث نسب ينتج عنه «شعب مختار» كما تزعم الأساطير الإسرائيلية . فيستطيع كل مؤمن موحد أن يستحضر صلته بإبراهيم عليه السلام من خلال هذا التوحيد الذى لايحتاج إلى ارتحال لتأكيده أو إعلانه ، ولذلك فإبراهيم لا يرتبط بمكان دون آخر ، وإنما يرتبط بالإيمان الذى لا يبارح صاحبه أيا كان المكان الذى يوجد فيه .

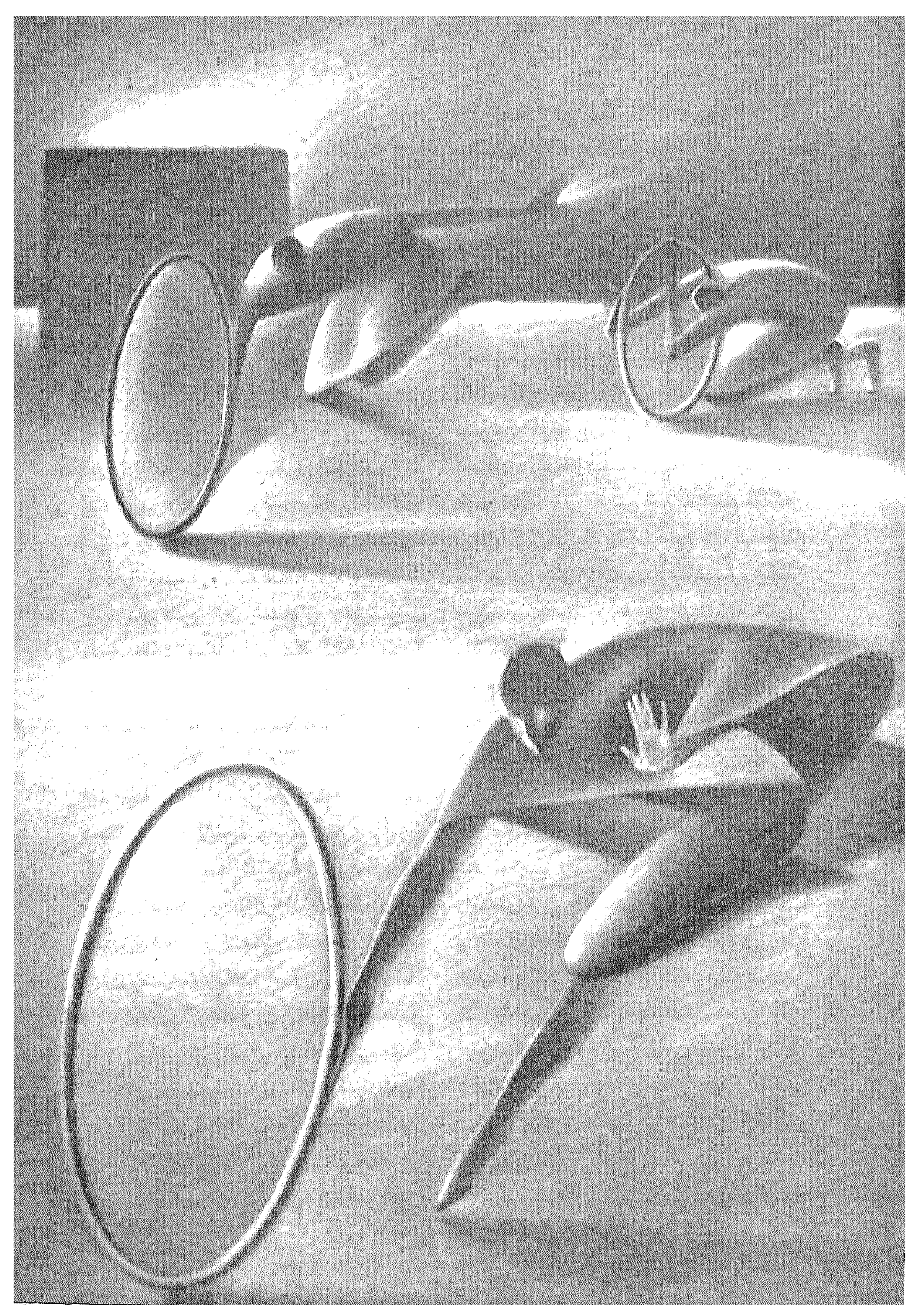
ولذلك قلت لمحدثىّ - فى كل مرة - إننى أتمنى أن يزور البابا يوحنا بولس الثانى مصر ، وأن يستقبل من أهلها وحكومتها كما ينبغى أن يستقبل ، ولكننى لا أتمنى أن يكون ذلك ضمن رحلته الروحية ، وأقطع منذ الآن أن أى مسلم لن يستطيع مشاركته هذه الرحلة ، أو الصلاة التى يريد إقامتها فى سيناء ، وسوف يسبب جرحا عميقا أن يأتى فى معيته الى سيناء ممثلون لليهود الصهاينة بزعم مشاركته فرحة الرحلة وختامها .

سيد سعد الدين
وملامح فن مصرى

بقلم : محمود بقشيش


سيد سعد الدين

أقام الفنان «سيد سعد الدين» معرضا استعاديا فى قاعة الأوبرا للفنون المرئية إحياء لذكرى كريمته التى اختطفها الموت وهى فى الثامنة عشرة ربيعا وإحياء لمرحلة فى الفنون الجميلة بمصر، كان يحتفى فيها بالإتقان وبكل محاولات إكتشاف خصوصية جمالية للإبداع المصرى، قبل الغرق فى طوفان الانتحال من النموذج الـ «أورو - أمريكى» . وقد ساند صناع القرار الثقافى إشعال الحرب ضد لوحة الحامل وتمثال الصالون. وخصصت الوزارة للعبث إحتفالا سنويا يحمل عنوان «صالون الشباب» وأغدقت عليه من ولائم الجوائز ما يزيد أضعافا على أكبر جوائز الدولة الرسمية، وهى جائزة الدولة التقديرية التى لا ينالها الفائز إلا بعد أن يكون قد بلغ الستين على الأقل - ولمرة واحدة فى تاريخه!.



التطرف والتطرف المضاد

إذا كانت حفلات الولائم السنوية قد أعلت من شأن الانتحال من «أصداء الدادية» - التى اتخذت لها مسميات جديدة تليق بإدعاءات دراويش التنظير - فقد جاء ذلك الطوفان حافزا لبعض الموهوبين على التمسك بما وهبهم الله من قدرة وحساسية فى المجال الذى سبقهم إليه موهوبون آخرون، أرسوا دروبا ممهدة إلى تقبل الإضافة إليها لا النفى. ويعد الفنان «سيد سعد الدين» من هؤلاء الموهوبين الذين لمعت أسماؤهم منذ أوائل السبعينات، وبالتحديد سنة ١٩٧٢ عندما اشترك فى معرض لإحياء ذكرى الزعيم جمال عبد الناصر بلوحة عنوانها (زيارة إلى راحل) ولفتت اللوحة الأنظار إليها . أما لوحته الثانية التى أكدت موهبته وكانت مستلهمة - أيضا - من موضوع الموت كان عنوانها (أنشودة إلى راحلين) . وفازت اللوحة بالجائزة الثانية لصالون القاهرة . بهاتين اللوحتين قدم «سيد سعد الدين» شهادة ميلاده كفنان أراد لفنه منذ البداية، أن يتناسل - جماليا - من الموروث المصرى القديم (خاصة فى مجال النحت) ومن موضوعات تحفل بها البيئة الإجتماعية، والمعمارية والطبيعية بمصر . وبدلا من انخراطه - شأن آخرين - فى طوفان الانتحال والتبعية للغرب التزم طريق البنائين ذلك الطريق الذى بدأه المثال المصرى العظيم «محمود مختار» ، وأكده مبدعون من أجيال مختلفة أمثال : محمود سعيد ومحمود موسى وحامد عويس وأحمد عبد الوهاب وآدم حنين وحسين بيكار الذى تأثر به أكثر من أى فنان آخر. واللافت للنظر أن كل هؤلاء البنائين قد استلهموا بدرجات متفاوتة - جمالية النحت المصرى القديم وما يتشعع منه من إيحاءات روحانية، يلتقط منها كل مبدع ما يتسق مع مكوناته الفردية المتفردة . إختار سيد سعد الدين طريق البناء المعمارى والتجسيم النحتى . واتسق هذا الاختيار مع مكونات سيد سعد الدين الشخصية التى اتسمت بصلابة فى مواجهة المحن وبعضها كان فادحا مثل رحيل كريمته.

إصرار

عند تأمل شهادة ميلاده الفنى التى أجازتها لوحتاه : (زيارة إلى راحل وأنشودة إلى راحلين) نجد أنه لم يكتف بالإيحاء بالبعد الثالث (العمق المنظورى فى اللوحة الكلاسيكية) بل أراد أن يشعرنا بأن عناصره مجسمة تجسيما نحتيا. وفى هذين العملين وغيرهما من بعض أعماله يظهر الرسام سيد سعد الدين وقد تقمص روح النحات - المصرى القديم على وجه الخصوص - واتسمت لمساته وقتها بالكثافة والخشونة وكأنما يصور ضربات

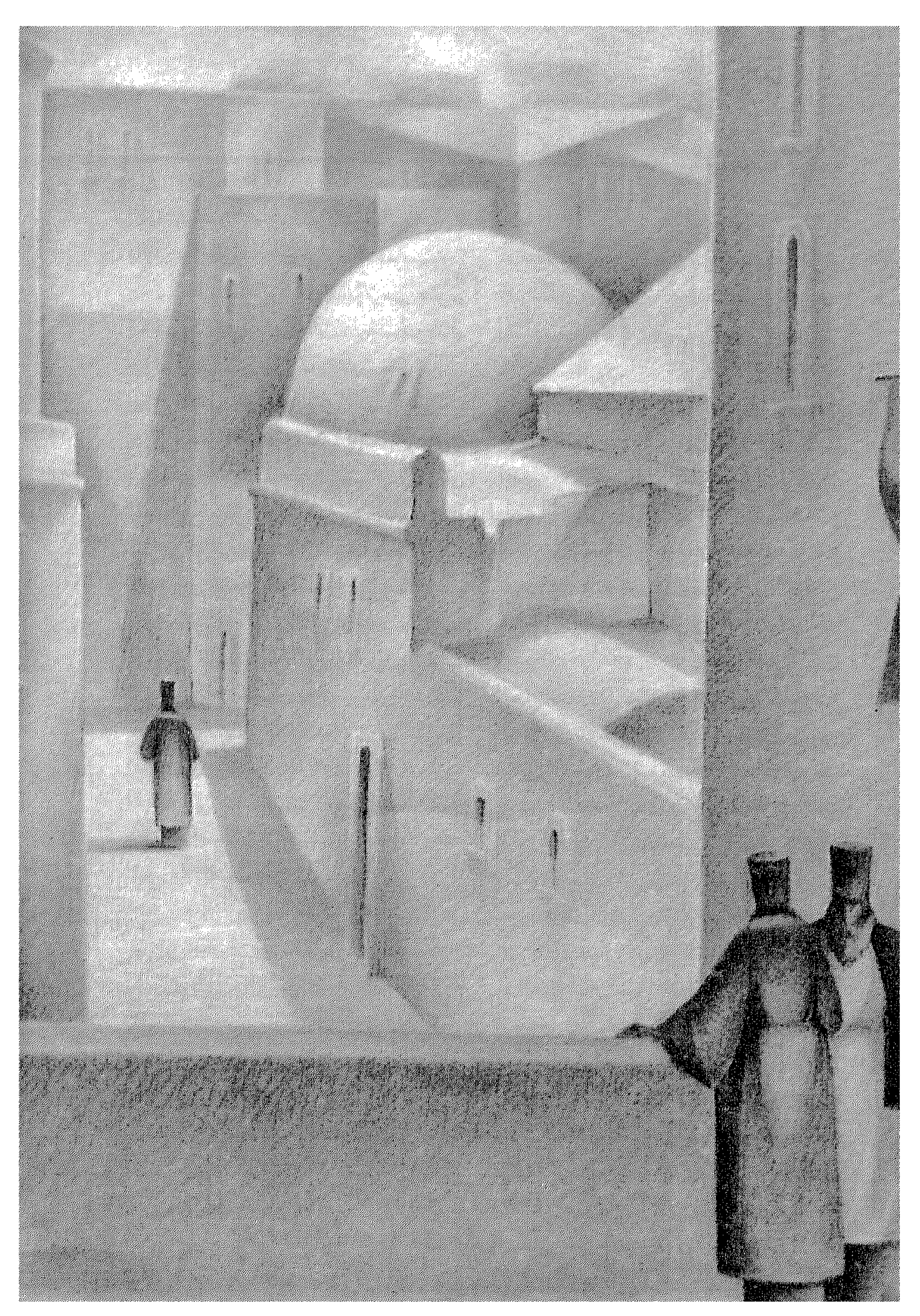
الإزميل فى الحجر . واتسمت عناصره بالإيجاز النافر من ثرثرة التفاصيل . ولأن كتل النحت لا توجد إلا فى حيز مكانى كذلك فعل الفنان مع شخوصه. وأقام لها مسرحا يكاد يكون حقيقيا . ووزع الكتل على خشبة المسرح مثلما يفعل مخرج المسرح ففى لوحة «أنشودة إلى راحل». على سبيل المثال - تنهض المجاميع منشدة نشيدا جماعيا أمام مدافن الموتى . يسود اللوحة نسيج بنى اللون ودرجاته واللوحتان فى جانب من جوانبهما - إستذكار لبعض أساليب عصر النهضة الأوروبية (فى النسب الرياضية للتكوينات والاحتفال بالمنظور الثابت والإهتمام بالمقابلات بين عناصر المقدمة والخلفية) غير أنه يلجأ، فى ذات الوقت إلى استلهام - صراحة الكتل ونقائها مثلما تتجلى فى المنحوتات المصرية القديمة.

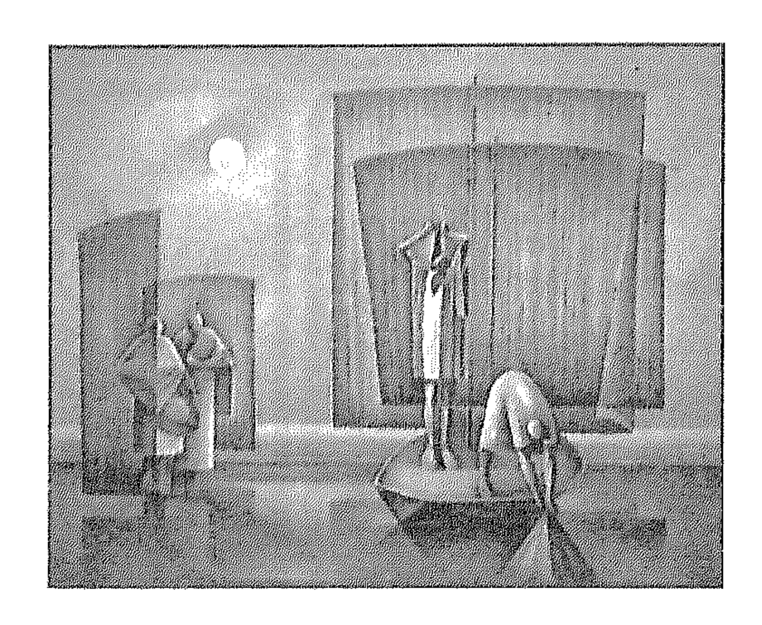
بين الكل والجزء

إن الكل - فى عديد من لوحاته - يقوم بدور «الجزء» وبدلا من العناية بالمكنات التعبيرية لأجزاء الجسد الإنسانى فإنه يكتفى بالإيحاءات المعمارية للشخوص والإيحاءات النفسية للظلال، فالطفل الواقف أمام الحائط فى لوحة (زيارة إلى راحل) لا نكاد نلمحه، غير أن حوار الكتلة وظلها الواقف أمام الحائط والظلال الممتدة لشخوص لا نراها والكتلة البعيدة لعنصر إنسانى فى مواجهة مقبرة، كل هذا يرسب فى النفس شعورا بالرهبة والألم.

من وحى الدواب

خرج سيد سعد الدين من إيحاءات الموت القاتمة إلى صخب الأسواق ومواكب المتصوفة ولاعبى التحطيب وسيدات البيوت وأطفال الحارة والحيوانات الأليفة التى اختار منها موضوع الماعز والحمير . وبلغ من اهتمامه بموضوع الحيوانات الأليفة أن خصص لها معرضا أطلق عليه عنوان (من وحى الدواب) ظهرت حيواناته - فى أغلب اللوحات - فى متتابعات تُذَكّرُ باللوحة الجدارية الجميلة المسماة بـ (أوز ميدوم) للفنان المصرى القديم. وهو يثبت دوابه فى أوضاع مشابهة للطبيعة الصامتة غير أنها تبدو متماسكة، متوحدة فى كيان واحد. وأسرة يصعب أن تقتلع منها فردا دون أن يحدث خلل . ويبدو الفنان هنا مستفيدا - إلى حد ما - بالأسلوب «التكعيبى المصر» - إن صح التعبير - حيث تتسع السطوح المشطوفة (فى الأسلوب التكعيبى) لتصبح أقرب إلى المسطحات العريضة، واضحة المعالم، فى النحت المصرى القديم أما عجينة اللون التى كانت كثيفة فى اللوحتين المشار إليهما من قبل وكذلك بعض اللوحات الأخرى فقد خفّت.





من أعمال الفنان
سيد سعد الدين

من وحي النيل

هو عنوان لوحة، استغرق تنفيذها والدراسات المصاحبة لها نحو سبع سنوات، مقاسها ١٢٠×٩٠ سم . ونال عنها الجائزة الأولى من المجلس الأعلى للفنون والآداب. وكعادته لايترك مساحة مهما قل شأنها للمصادفة . اتسمت اللوحة بالبناء الهندسى، الرياضى المحكم، أسقط على الأشكال إضاءات كشافية دافئة تميز عناصر المقدمة عن عناصر الخلفية. وتمثل اللوحة مهرجانا للأشرعة (أعلى اللوحة) ومهرجانا موازيا للبشر (أسفل اللوحة) وكانت البطولة من نصيب الأشرعة تجلت عملاقة، شامخة أسطوانية كأنها أعمدة من معابد الأقصر، فيما يظهر البشر متراصين أشبه بمنشدى «كورال» بلا ملامح تميز أحدهم من الآخر وإنما هم كتلة واحدة، تجلس أو تنتصب . إن صفحة النهر بدت - باختياره وبراعته - زجاجية لمَّاعة تتلقف مرحبة بالإضاءات الكشافية المسرحية، محاطة بكل ما هو أنيق، شفاف مغر ومغو بالولوج إلى دنيا الأحلام! .

ابتهالات الأب الفنان

يدهش المرء وهو يتأمل مجموعته الأخيرة التى استلهمها من مأساة رحيل ابنته الشابة . يدهش المرء لقدرة الفنان وقدرة الفن - على السواء - فى تحويل الحزن العميق إلى جمال خالص، يتجلى بالرقة والعذوبة وصفاء الإيمان بإرادة الله . وتبدو اللوحات التى صيغت بلون القلم الرصاص المتقشف ودرجاته أشبه بزفاف سماوى لعروس من البشر لا نراها ولكننا نستشعرها عبر أسراب من الطيور الطليقة السعيدة بانفلاتها من القيود وتظهر بوابات النخيل، سامقة رشيقة ، لا مثيل لها فى الواقع، وتصل بسموقها ما بين الأرض والسماء.

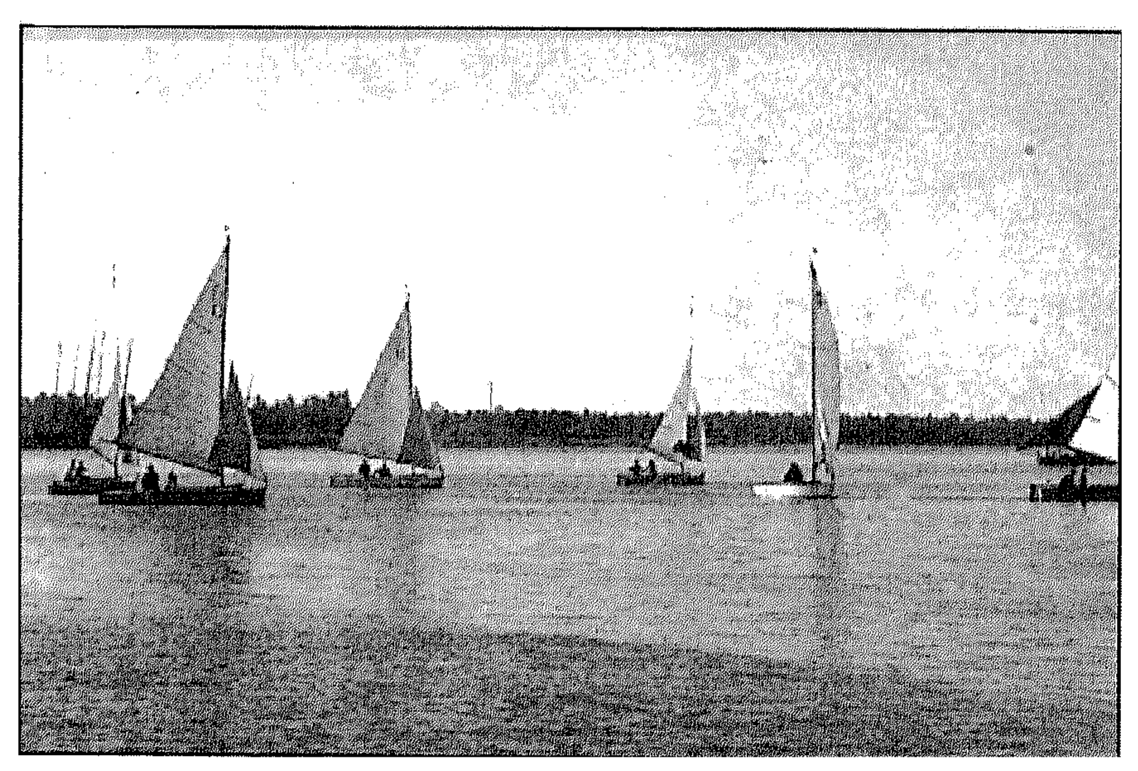
فى البدء .. كان النيل

محمود قاسم

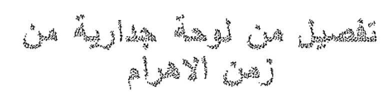
تري هل توقف الزمن فى مصر عند عصر بعينه ؟

هذا هو ما يحدث بالنسبة للكثير من الأوربيين ، والعالم الغربي ، إنهم يرون مصر وقد توقف قطارها فقط عند عصر الفراعنة..

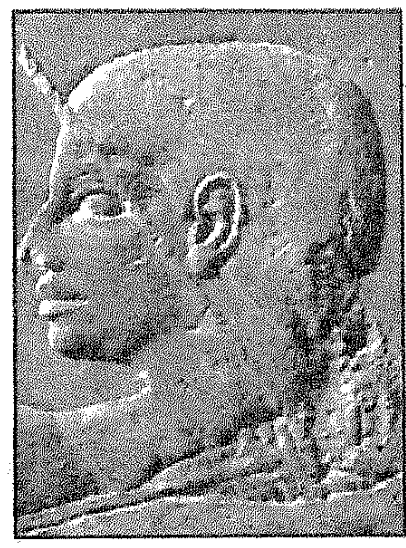
ولو تصفحت أغلفة الكثير من المجلات والمطبوعات الفرنسية الصادرة خلال الاسابيع الماضية، فسوف تكتشف ان اسم مصر كان يحتل جزءاً كبيرا من الأغلفة رغم سخونة الأحداث في منطقة البلقان ومناطق عديدة أخرى من العالم ، منها الشرق الأوسط وآسيا..



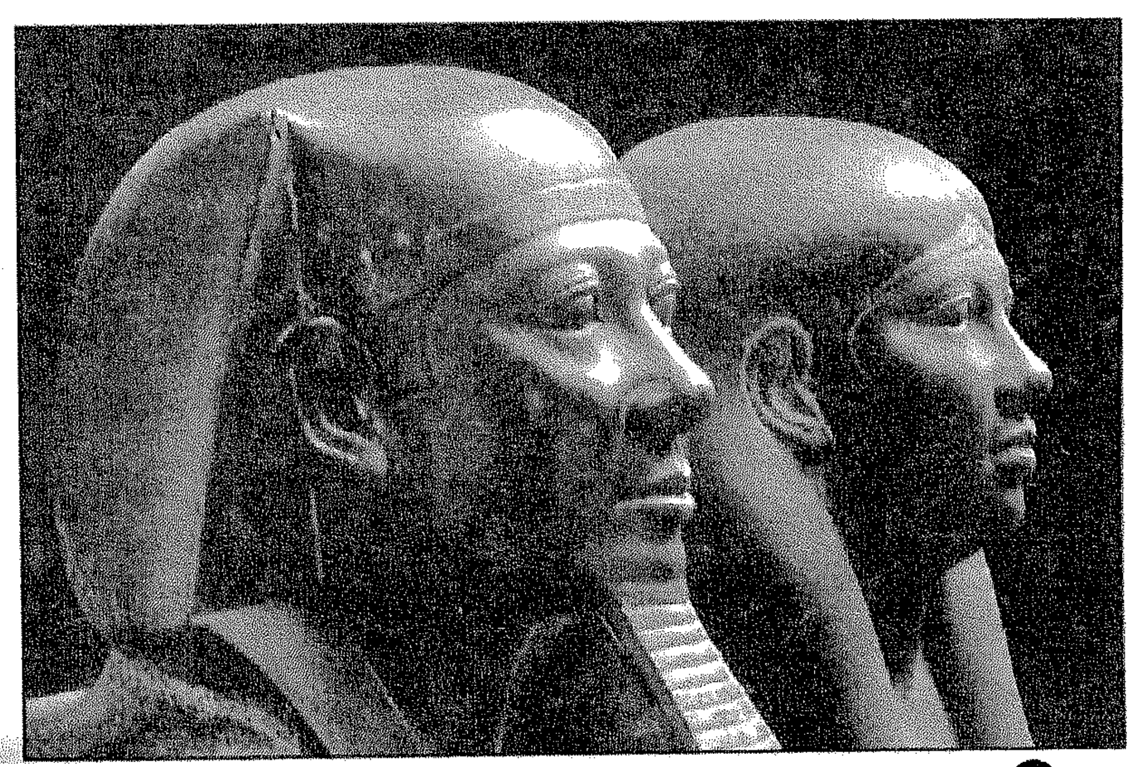
الوزير حميونو أدهش الباحثة الفرنسية بفتنته



تفصيل من لوحة جدارية من زمن الاهرام



منقرع وزوجته . تفاصيل لتمثال جميل



لكن . عندما تنظر إلى فحوى الصفحات الطويلة بداخل كل مجلة – حدث هذا في الاكسبريس، ولوبوان – ، فسوف تجد مجدداً، أن مصر هنا فقط ارض الفراعين القديمة بما حققوه ، مما يثير السؤال .. ألم يروا فينا سوى وجهنا القديم.

حتى ولو كان هذا الوجه هو الجميل المثير الغامض، وحتى لو كان هذا الوجه يجلب لنا السائحين، والباحثين ، فلاشك ان هذا يتطلب أمرين ، ان يكون لنا نحن المعاصرين وجه آخر يجذب الانتباه ، وان نحقق في تاريخ الحضارة ما يدفعهم إلى النظر إلى مصر وكأن الزمن موجود دائما من حولها.

هذه الاحتفائية بمصر تأتي من خلال معرض مقام فى الجران باليه .. للفن المصرى فى عصر الاهرامات اى فى الفترة بين عامى ٢٧٠٠ و ٢٢٠٠ قبل الميلاد . وهى الفترة التى تسميها الباحثة دومنيك بارت في مجلة لوبوان – ١٠ ابريل – بعصر الفراعنة الذهبى.

فى البدء كان النيل..

هكذا تحدثت مجلة الاكسبريس من خلال كاتبتها فرانسواز مونييه فى ٨ ابريل ، مشيرة إلى ان النهر العظيم كان يأتى بالمياه من بعيد، ويسكب الخيرات على جانبيه ، صانعا من مصر واحة متميزة بين الصحراء الغربية، وشبه الجزيرة ، وطوال ثلاثة قرون، راح الملوك يكدسون الكنوز الفنية، ويساعدون على صناعتها مخلفين وراءهم آثاراً ساحرة ، يحكي كل منها عن انجازاتهم وحيواتهم سواء فوق المعابد أو المقابر أو المسلات وكان همهم ان يضاعفوا من انجازاتهم دون أن يدروا ان هذا سوف يزيد من عدد زوارهم فى عصرنا الحالى من كل انحاء الدنيا.

وحسب المجلة فان الفترة الاكثر خصوصية هى زمن الاسرات الاولى ، حيث حاول الفراعنة اختراق الارتفاعات ، فشيدوا الاهرامات بهذا العلو الشاهق فوق الهضاب.

الفرنسيون سعداء بهذه المناسبة لان كل هذا التاريخ المجيد ، بفنونه ، يأتى اليهم لاول مرة ، وهم الذين يعلنون دوما ان لديهم عاطفة خاصة تجاه مصر، خاصة تاريخها الفرعونى ، الذى ساهموا كثيرا فى كشف الغازه وغموضه، فهذه المقتنيات ، قد خرجت من أقبية المتاحف فى مصر – على حد تعبير مجلة الاكسبريس، كى يراها الناس ، وهى ليست قادمة من مصر فقط، بل تم تجميعها من متاحف اوربية وامريكية عديدة كى تتكامل للمرة الاولى . لمدة ثلاثة اشهر بدأت من التاسع من ابريل الماضى

إلى الثانى عشر من يوليو القادم ، بما يتيح لاكبر عدد من عشاق مصر القديمة ان يشاهدوا كنوزها، ليس مرة واحدة بل اكثر من مرة.

ويضم المعرض قرابة ٢٠٠ منحوتة ، وقطعة من الحلى ، ولاشك ان أجمل هذه المقتنيات جاء من المتحف المصرى.

وحسب دومنيك بارت، فان المصرى الذى عاش فى الامبراطورية القديمة كان واثقا فى نفسه ويؤمن بالقدر . ولذا فقد اعطى لمعبوده كل مظاهر التقديس والاحترام. وقد عكس فنه ورما رغبة الحاكم وقوة المملكة التى يحكمها . لكن هذا لايعنى ان المحكوم لم يكن له نصيبه من الفن الراقى فقد ضم المعرض اربع تماثيل من «مقبرة العمال» تختلف فى أساليب ابداعها، وفى طول كل منها، وفى بصمات الفنان الذى صممها بأنامله.. مما يعنى ان الفنان المصرى كانت له شخصيته ، ولم يكن مجرد حرفى ماهر .

وقد وقفت نفس الكاتبة أمام تمثال للوزير حمبونو، وقد علتها الدهشة لروعته ، وكتبت فى مقال منفصل من الملف الذى فتحته لوبوان (٦صفحات ملونة) ، فبدأت كتابتها على هذا النحو.

«انه الحياة مكثفة . هذا التمثال للوزير! فكل شىء فيه ، دقة وصف جسد شخص تقلد أعالى المناصب . إنه أحد الذين اشرفوا على انشاء هرم خوفو ، وقد بدت التفاصيل فى روعتها ، حتى من خلال الاظافر ، وشكل الجبهة ، وتناسق الاكتاف المستديرة التى توحى أنه فى الثلاثين من العمر» .

وبدت الكاتبة كأنها روائية من الذين كتبوا عشقا فى أجساد الرجال، فى الروايات الاباحية فراحت تصف كيف شاهدت التمثال، وكيف بدا فى عينيها ، إنه تمثال رجل فى المقام الاول اكثر منه وزيرا، احست بعينيه رغم أنه تمثال، وتوقفت عند ما اسمته «فتحة الفم».

وقد حكت الكاتبة كيف تم اكتشاف التمثال قبل عامين في سرداب ، كان اميز ما فيه هو الطريقة التى بدا عليها تمثال الوزير فأهم ما يميز هذا الوزير، كأنك ترى «روحه» (كا) خارجة منه مما يوحى بأنه لايزال على قيد الحياة فى مملكة الموتى: «اجعل من مقبرتك سكنا جميلا» ، أو كما كان يردد الاسلاف «منزل الموتى هو الحياة الأبدية».

اذن فالفن المصرى القديم، ليس عن الموت، بل هو الحياة ، فالمصريون وضعوا فى كل مقابرهم ما يجعلهم يتعلقون بالدنيا، مثل ادوات الزينة بالنسبة للمرأة كأن تجد قنينة الكحل بجوار المرأة ، كأنها ستقوم لتضع منه ، وتعاود النوم مرة أخرى.

وقد اجرت مجلة «الاكسبريس» حوارا مع باسكال فرنوس مؤلف كتاب «حول الهة مصر» قال فيه : هذا العالم الدينى البالغ التعقيد لديه اصلان مختلفان. انه يشمل المؤمنين الأوائل الذين جاءوا ، ربما من آسيا ، والسكان الذين جاءوا بعد ذلك من مكان آخر فى أفريقيا ، وذلك فى القرن العاشر قبل الميلاد ، اى قبل التاريخ، وعندما تغير المناخ فى القرن الخامس قبل الميلاد، صارت السواحل صحراء . فزحف الرهبان نحو النيل، واختلطوا بالفلاحين والصيادين والذين يسكنون على حافتى النهر منذ أمد طويل. ولذا فإننا نجد فى كل الثقافة المصرية بعض الدلائل التى تذكرنا بهذا التاريخ البعيد.

وحسب المؤلف فان الفراعنة كانوا يغيرون دوما من اسماء آلهتهم.

وقد توقفت المجلات الفرنسية عند مقتنيات فنية بالغة الاهمية ، تعكس انبهار محررى هذه المجلات الذين زاروا المعرض قبل افتتاحه، من هذه المقتنيات التى حازت اعجاب ودهشة الجميع ، تمثال «الجزار» وهو يمثل جزارا مصريا وقد انحنى على ذبيحته، بعد أن قام بربط أقدامها بالاحبال وشرع فى ذبحها، ومثل هذا التمثال ، هو واحد من الاعمال العديدة التى نحتها الفنان المصرى وتصور الحياة اليومية لدى المصريين.

كما توقفت هذه المجلات أيضا عند تمثال الملك منقرع وزوجته فى الأسرة الرابعة ، وقد بدت أغلب تفاصيل جسدها ، ولفت بيدها اليسرى حول ظهر زوجها الذى يبدو شابا يافعا قويا ، بينما اكتست ملامحها النوبية بجمال وضاح ، خاصة انفها وشفتيها.

وهناك تمثال مشابه ، قام نفس النحات بعمله للملك منقرع .. وقد وقف شامخا ايضا بين ابنتيه اللتين تشبهان امهما، وقد امسك باطراف انامله اصابع ابنته التى تقف على يساره ، أما الابنة الثانية فقد ألصقت كتفها بأبيها ، وبدت حاملة نفس الشموخ.

لاشك ان من اهم ظواهر المعرض، هو ظهور عدد كبير ، وبالغ الاهمية من المطبوعات الملونة الفاخرة الطباعة حول مقتنيات المعرض - منها ١٥ كتابا على الاقل ، تحمل عناوين مثل .. «الفن المصري فى عصر الاهرامات والفن المصرى تأليف ليزمانيش، والفن المصرى تأليف سيرجيو دونادونى و الفن الظاهر فى مصر الفرعونية ، حقول.. و قصة مصر القديمة و مصر القديمة فى اللوفر» وفى قلب مصر القديمة وأهرامات الملكات» وغيرها من الكتب.

قصة العدد



بقلم : عبدالرحمن منيف

بريشة : سميحة حسنين

الى جانب داود باشا، غير بعيد عنه، وهو يدخل الى بغداد منتصرا، بعد ظهر ذلك اليوم من شباط، كان عزرا بن سليم روفه.

لقد عاد عزرا، عاد اخيرا ظافرا، وها هو يحتل موقعا متقدما على كثيرين في الموكب، وقد حرص، وبذل جهدا، لكي يبقى متقدما، وان يراه الناس فى ذلك الموقع.

بدا لكل من رآه فى ذلك اليوم الشتائى الدافئ متألقا يضج بالغبطة والمباهاة. كان لا يصدق ما يرى وما يسمع، مثل فتاة اكتشفت فجأة جسدها وقد اشرأب، ورأت جمالها فى عيون الآخرين الذين لم يكونوا قادرين على إخفاء دهشتهم وإعجابهم وهم ينظرون.

وبقدر ما كان عزرا جزءا من الموكب المنتصر، كان متفردا وملهوفا وهو ينظر الى الوجوه بإمعان، ليتعرف على الأقرباء والأصدقاء، وليكتشف بشكل خاص

مـا إذا بقي شئ أو اثر من خـصـمـه اللدود : ساسون. سوف يعرف ذلك بكل تأكيد من خلال وجوه الناس، وجوه الذين تعاطف معهم أو عاداهم. لقد عاهد نفسه ان يعرف كل شئ قبل ان يصل الى حيه، الى بيته، وقبل ان يسمع بأذنيه الأخبار الكثيرة التى لابد ان تكون بانتظاره، والتى حصلت اثناء غيابه خلال الشهور الماضية.

لن يغفر لساسون، وسوف لن ينساه أبدا. لقد كان السبب الذى اضطره لأن يغامر بحياته، لان يواجه المصاعب والأخطار، وان يبقى شهورا طويلة بعيدا عن بيته وأهله.

كانت رحلته الى الشمال محفوفة بالأخطار، منذ اللحظة التى غادر فيها بغداد. كاد يقع فى ايدى إحدى الدوريات، لولا الرشوة التى دفعها لينقذ نفسه، أو كما قال له داود باشا بعد ان التقيا بالقرب من اربيل، وبعد أن سمع ما وقع له عند أسوار بغداد:

– بهذى الفليسات اشتريت روحك، وانكتب لك عمر جديد، يا عزرا افندى!

أما وهو يجتاز أحد الجبال فقد تعرض لعاصفة ثلجية كادت تودى به. كما واجه فى ليالى البرد والانتظار اخطارا كبيرة، وكاد يقع أسيرا قرب كركوك. كيف يمكن أن ينسى هذه المصاعب والأخطار، ويغفر لساسون؟ لقد جاء وقت الحساب، وسيدفع ساسون الثمن مضاعفا الآن.

كان، وهو يقلب نظراته فى الوجوه، يشعر بالغبطة والقوة معا. لقد انتصر أخيرا. صحيح ان النصر ليس له وحده، ولكن ما كان هذا النصر ليتم بدونه، وبدون تلك المغامرة التى لم تأت وحدها، أو بالصدفة، وإنما هيأ لها بكثير من الذكاء، ودفع الأمور لكى تأخذ هذا المسار.

حين يستعرض عزرا كيف حصلت الأحداث يشعر ان المال وحده لا يستطيع ان يفعل شيئا اذا لم يقده عقل وهاج، عقل يعرف ما يجب ان يفعل ومتى يفعله، وهذا ما صنعه تماما فى الشهور الاخيرة. تصرف بهدوء ومرونة حين تطلب الامر ذلك، واتخذ القرار الجرئ فى الوقت المناسب.

الآن، وهو يسمع الهتافات كيف تدوى فى استقبال داود باشا، يقول لنفسه : «يمكن للإنسان ان يكسب المال اذا كان بارعا وواتاه الحظ، كما يمكن ان يكسب بالصدفة أو بالقوة، ولكن الاكثر اهمية ان يجعل هذا المال وسيلة لمال اكثر، لقوة اكبر، من اجل السيطرة» وتخيل نفسه كيف سيكون قويا، وصاحب الكلمة الاولى، بعد أن اصبح صراف باشى.

حين يتذكر الخطوات التى اتخذها من أجل ان ينتصر، يعتبر أن امرين كانا الاكثر اهمية: العقل والجرأة. كان عاقلا بالمقدار الضرورى، فقد كتم عواطفه بعد ان رفض تعيينه صراف باشى. لم يرفع صوته احتجاجا. لم يعلن الحرب مباشرة على سعيد باشا. ترك رفض التعيين يمضى وكأنه لايعنى له شيئا، وبعد أن هدأت العاصفة بدأ العمل الحقيقى.

بعد العقل، أو معه، كانت الجرأة.

لو أن واحدا غيره كان مرشحا لمركز صراف باشى ورفض، لبدأ الحرب فورا، لكنه لم يفعل. حتى لما أراد ساسون ان يستدرجه الى الحرب كان عاقلا ولم يستدرج. قابل محاولات ساسون باعصاب باردة وكأن الامر لايعنيه، اذ كان يصدر عن قناعة أساسية: الحرب التى

يؤقتها الآخرون، ويدعونك لخوضها، ستكون فيها مدافعا، والدفاع، اغلب الاحيان، نصف خسارة أو خسارة مؤجلة.

اما عن جرأته فيكفي، لكى يرضى عن نفسه، انه رفض مصالحة ساسون، لكنه لم يعاد الآخرين فى البداية، حين اراد ساسون؛ عاداهم حين اراد هو، وبعد أن انجز المهمة التى لايمكن لغيره ان ينجزها. وكانت هذه الخطوة الطلقة قبل الاخيرة التى توجه لسعيد باشا ولحمادى، والتى جعلتهم يترنحون، ومعهم ايضا نابى خاتون وكل رجال سعيد، وهاهم الآن يسقطون. وأخذت تتبدى له صورة ساسون: طويل، متين الجسد، لكن ابرز ما يميزه عن الآخرين تلك الابتسامة الرخوة، والتى سرعان ما تتحول الى ضحك صاخب. حتى رأسه، وهو يتحرك كبندول الساعة، فكأنه يريد ان يجعل الآخرين يرون فرحه، اما طوله فقد رسم لنظراته مساقط عالية، بحيث يبدو كأنه ينظر الى البعيد، مما يترك انطباعا انه قادر على تحقيق كل شئ، خاصة حين يشرب كأسا أو اثنتين مع الوالى سعيد، او حين يكون مع رجاله المقربين.

الآن جاء وقت الحساب. سوف يلقنه درسا لن ينساه ابدا، وسوف يثبت له ان الشئ الذى يتعذر كسبه عن طريق المال هو العقل. فالعقل ميزة يختص بها بعض الناس، قلة من الناس، كى يكونوا اقدر من غيرهم واقوى، وهذا ما لم يستوعبه ساسون جيدا، افترض ان للجنة بابا واحدا، وكان مطمئنا حين وقف حمادى عند ذاك الباب، وكان وحده يسمح ويمنع، ولم يتصور ان يكون للجنة ابواب اخرى، او يمكن

اختراعها عند الضرورة!

كان يحس منذ وقت مبكر انه أولى من ساسون بمنصب صراف باشى. لم يقل ذلك لسعيد باشا أو لحمادى مباشرة، ولكن جعلهم يتأكدون انهم بحاجة ماسة اليه ولخدماته، فهو يعرف كيف يكون موجودا ومفيدا فى الوقت المناسب، ولا يتردد فى اتخاذ قرارات قد تكلفه مالا لايستعاد، ومع ذلك لايتأخر فى ان يقوم بها.

ليس هذا فقط، فاخوه حسقيل الذى ترك بغداد مبكرا واستقر فى اسطنبول، كان يريده الى جانبه، وقد حاول ان يستقدمه الى هناك، لكن عزرا كان يؤجل تلبية هذه الرغبة مرة بعد اخرى، كطريقة غير مباشرة للرفض، لانه يحب بغداد، ولا يقوى على فراقها، كما كتب مرة لحسقيل، وكان فى الحقيقة يعبر عن مشاعر وردة، زوجته، اكثر مما يعبر عن مشاعره.

أما عواطفه هو، فمن جملة اسباب تعلقه بهذه المدينة شعوره انه فيها اقوى من اى مكان آخر، لانه يعرف كل شئ : الناس والاماكن وحتى الطقس، الامر الذى لن يتاح له فى مدينة اخرى، خاصة اسطنبول، حيث يذهب الكثيرون الى هناك، لكن الذين يستمرون قلة، وهذه القلة تظل خاضعة للرياح التى لاتتوقف عن العصف طوال ايام السنة، ومهما بلغ الواحد من القوة يمكن ان ينتهى فى لحظة.

بعد ان تعذر على حسقيل اقناعه، ومن اجل ان تكون العائلة قوية فى اسطنبول وبغداد معا، ويسند كل جناح الآخر، لابد أن يكون عزرا صراف باشى، وهذا ما حاوله حسقيل عن طريق خالد افندى، ثعلب العراق الاغبر.

لما فشلت المحاولة، كان وقع الفشل على الذين حاولوا اقوى مما ظهرت على عزرا افندى. فقد تظاهر، أول الامر، انه لا يدرى، وانه يفاجأ بالموضوع، ثم قال ان المنصب، لو اسند اليه، سوف يشغله عن متابعة مصالحه الكثيرة، مما سيلحق به خسارات لايحتملها، خاصة وان عليه ديونا واجبة التسديد، ولا تحتمل اى تأخير أو تأجيل، وشكر الله ان مثل هذه الرغبة لم تلق استحسانا لدى الوالى، لانه يستطيع ان يفيده فى مجالات اخرى.

كان الغيظ بالغا اقصاه فى قلب عزرا، لما عرف برفض اقتراح خالد افندى ان يعين صراف باشى، لكن لم يترك لهذا الغيظ ان يبلغ عقله او يؤثر على مظهره وسلوكه. كتب لحسقيل عن الليالى الثقيلة التى لم ينم خلالها نتيجة الرفض الفظ الذى صدر عن حمادى، قبل ان يصدر عن اى إنسان

آخر. ولان الرفض اقترن بكلمات نابية مليئة بالسخرية وبالحركات البذيئة، وبالتهديد ايضا وكان يريد من هذه الرسالة ان يبلغ خالد افندى الموقف تجاهه، وماذا يعنى للسلطان وللرجال الذين حوله، اكثر مما كان يلوم حسقيل أو يؤنبه. ولم يتأخر حسقيل فى اطلاع خالد افندى على مضمون الرسالة، وان يزيد عليها الكثير، كوسيلة إضافية للتحريض، مع ان خالد افندى لم يكن بحاجة الى ذلك، لان رجاله فى بغداد لايبخلون عليه بالمعلومات والاخبار!

وكتب حسقيل الى عزرا رسالة طويلة، ليس فقط ردا على رسالته، وما ورد فيها من نقاط، بل وما يفكر فيه ايضا. جاء فى مقطع من هذه الرسالة .. : «ولدينا من الأخبار، وحتى من المعلومات، عن الوالى والذين حوله الكثير، لكن

نحتاج الى أدلة ملموسة، أدلة دامغة، لحمل الكبار هنا على اتخاذ القرار. يجب ألا تبالغ فى تصور قوتنا او قدرتنا على تحقيق كل شئ، ولعل فى محاولات خالد افندى دليلا يكفى. اطلب منك ان تكون معتدلا، كى نستطيع ان نحقق ما نقوى على تحقيقه الآن .. والا فان أمورنا كلها ستضطرب فى اسطنبول، وكذلك فى بغداد، فانتبه يا عزرا. احم نفسك وأسرتك، واحم اكبر عدد من الأقرباء والأصدقاء، لان الشجاعة، فى أحيان كثيرة، أن يبقى الإنسان حيا، فالحياة لا تتوقف عند هذه المحاولة فقط».

وهنا بدأ العقل، ليس لحماية صاحبه وحده، بل ولتوظيف كل ما فيه من إمكانيات ومواد من أجل خوض المعركة الحقيقية، خاصة وأن الطرف الآخر، سعيد والذين حوله، اصبحوا شديدى السخاء فى تقديم ما يساعد من أجل هذه المعركة!

ومن يلبد عند المنعطف، بانتظار الفرصة المناسبة، لابد أن تواتيه، وعليه أن يعرف كيف يلتقطها، ثم كيف يحولها الى قوة لا يمكن أن تقاوم، وهذا ما فعله عزرا. اذ ما كادت تطلب اسطنبول ما يستحق لها، وأكدت على ضرورة تسديده، حتى التفت سعيد الى الذين حوله، خاصة صراف باشى ساسون، والتفت ساسون الى الآخرين. أمكن تأمين جزء مما هو مستحق، لكنه لم يكن يكفى، أما عزرا فدفع قليلا، بحجة الديون وضرورة تأديتها فى أوقات لايمكن ان تتأخر. تبرعت نابى خاتون بمبالغ «لكى يبقى راس والينا مرفوع» وتنازل حمادى عن أراضى المسيب للدائنين،

بعد أن تعهدوا بدفع ما يستحق على هذه الأراضى خلال السنين الثلاث الأخيرة، وان يدفعوا مبلغا من المال!

وابلغهم خالد افندى ان هذا لايكفى، وعليهم دفع كل ما هو مستحق .. والا

فهم هذا التهديد ولم يفهم، لكن الذين يحبون داود، وكان بعضهم فى السراى، وآخرون قريبين من حمادى، نقلوا اليه ما تقول اسطنبول، وفهم داود الرسالة، وبدأ يستعد.

ولان عزرا عند المنعطف لا يغادره، بانتظار لحظة الإشراق، «والى ان يخرج المرئى الى جيب التمام، حيث يلتقى الخطان، ويكون المجرى وفيه الأمان» كما تعود ان يقول محب الدين المرادى، فقد التقط الخيط، وكان قبل ذلك قد فهم الرسالة. ويتذكر آخر لقاء له بداود، قبل ان يرحل هذا الاخير الى الشمال، فقد ردد ما قاله محب الدين:

- السعد ممتزج والبروج بمنزلة الاكليل، ولابد أن اسير، فاذا لم نلتق هناك نلتقى هنا، والله هو المدبر، وهو الميسر، وعليه التوكيل!

ولم يتأخر عزرا فى تنفيذ ما كلفه به سعيد باشا.

فهذه البارات التى تحملها البغال من اسطنبول، ذهابا وإيابا، لا تساوى قيمة علف الحيوانات التى تنقلها، ولا تعنى شيئا فى الذهاب والعودة، فلماذا تصر بغداد، أو صراف باشى على وجه التحديد، على ان يجعلها فى رحلة دائمة؟ والى متى تظل اسطنبول تدفع رواتب الذين يحسبون هذه البارات فى الذهاب والعودة؟

لم تتأخر المراسلات ولم تطل : «ابقوا عندكم البارات، لا ترسلوها فيما يستحق لدار الخلافة، واذا احتجتم الى مزيد منها، فسكوها عندكم، ولا حاجة الى المزيد من المكاتبات».

ولئلا يظن عزرا ان رفض تعيينه كصراف باشى غضب كلى من الوالى، فقد كلفه سعيد باشا بسك هذه العملة، «حتى يفرح الفقراء وان زعل اصحاب البغال» واضاف بنوع من النشوة:

- اليوم بارة، ويجى اليوم اللى ندق به ليرة الذهب، ياعزرا افندى!

ولم يتأخر عزرا افندى فى الاستجابة لما طلبه الباشا.

اندفع الى العمل بهمة وحماس، وبطريقة تبدو شديدة البراءة طلب من الاسطة محيى الدين ان يوضع اسم الوالى سعيد على القطع النقدية، كى تميز ويعرف انها سكت فى بغداد. والاسطة الذى ابدى استغرابه ان لاتحمل هذه القطع الطغراء واسم السلطان، كما هى العادة، رد عزرا افندى على هذا الاستغراب بابتسامة

واسعة وبكلمات شديدة الوثوق:

- له .. له يا ابو زكى .. هذى البارات قيمتها ما تسوى ويكلف سكها اكثر من قيمتها، وصار الاتفاق ان يكون عليها اسم الوالى بدل اسم السلطان.

- متأكد .. عزرا افندى؟

- على بختك يا ابو زكى .. قابل آنى اسوى فد شى بدون امر افندينا!

- عفوا .. عزرا افندى، بس.

- على مسئوليتى، اسطة، انت مالك لازم، دق وامش!

- عليه توكلنا.

ولم يتردد عزرا فى ان يخص نفسه بالكيس الاول الذى خرج من دار السك، وكان مملوءاً بالبارات، حمله الى البيت، دفن مقدار النصف فى أرض الحديقة، بالقرب من شجرة برتقال، وطلب من ابن أخته، فكرى، ان يملأ

قصة العدد

جيبين داخليين بهذه القطع النقدية، وان يسلمها لخاله، والذى بعث يستدعيه الى اسطنبول «لان مركزا هاما ينتظرك، وستفرح به كثيرا، ووصولك اليوم افضل من الغد». وحين بدأت القافلة رحلتها الى اسطنبول، قال عزرا لفكرى يوصيه:

- .. وتسلم عليه، وتسلمه الصوغة، وتقول له : رطب بغداد لحق، والدبس هذى السنة اكثر وأحلى من السنين اللى فاتت، وعليكم الباقى.

أما وردة، زوجة عزرا، حين رأته يحفر الى جانب شجرة البرتقال، فقد ادركت ان التهديدات التى كان يطلقها بدأت تتنفذ، وان مغادرته اصبحت وشيكة، اذا لم يكن اليوم، ففى الغد بكل تأكيد.

كانت وردة أما كبيرة حتى لعزرا نفسه. كانت تلومه، بعض الاحيان، لتهوره، وتعتب انه لايشاورها، لايأخذ رأيها، لكنها مثل اى ام تغضب، تذهب الى مسافة معينة، ثم ترجع أو تتراجع. تفعل ذلك دون ان تعلن هزيمتها، اذ تعتبر الرجال، مهما بلغوا من العمر، اطفالا بحاجة دائمة الى النصح والرعاية، وانهم اصبحوا هكذا لانه لم تحسن تربيتهم!

الليل المتأخر، وبعد أن اعاد عليها توصياته كلها، ما يجب أن تفعل، ولا تفعل، وابلغها عن الاموال التى له، وبسرعة عن الاموال التى عليه، وضع فى يدها وظل يحرك، المفتاح الخاص بالخزنة الكبيرة، والموجودة فى مستودع الطحين، وقد وعت وردة كل التفاصيل من المرة الاولى، ومع ذلك اعادها عليها، لئلا تنسى، كما أكد اكثر من مرة. ومع اول انوار اليوم الجديد، وقد استعد لمغادرة بغداد

متوجها الى بعقوبة، «من أجل المطالبة بدين» فيما لو سئل، أو سئلت وردة، بعد أن يكون قد تجاوز الاسوار وأصبح بعيدا، فى ذلك الصباح الباكر قالت له وردة، وقد خنقتها الدموع:

- أينما ذهبت، والى اى مكان تصل اليه، اكتب لنا وسوف نأتيك، سوف نتبعك!

- رد وبدا متلعثما :

- لن أتأخر، سوف أعود، خاصة اذا رافقتنى دعواتكم والصلوات!

- ولا تنس ان تتذكرنا.

- كيف أنسى، كيف أغفل، وانا الذى لايقوى على الفراق، ولكنها مشيئة الله!

وغادر بغداد باتجاه الشمال ليلتحق بداود.

قبل ان ينقضى يومان، عرضت القطع التى تم سكها على السراى، لما رآها حمادى صرخ والشرر يتطاير من عينيه:

- سواها بنا ابن اليهودية؟

وتراكض رجال السراى لجمع القطع النقدية، والقبض على عزرا. جمع القسم الأكبر من هذه القطع، أما عزرا نفسه فكان قد اختفى. جرى البحث عنه فى كل مكان، لكن لا أحد رآه أو سمع عنه شيئا أما حين سئلت وردة فردت وهى تدارى خوفها:

- راح على الحلة حتى يحصل ديونه اللى اكلها الناس، شنو تريدون نعيش من الهوا ؟ ممنوع نحصل فلوسنا؟

وبعد قليل، وكأنها تخاطب نفسها، لكن تريد للذين جاءوا للسؤال ان يسمعوا:

فوق الزينة والمعروف، والصبر على الدين سنين، صار طلب الدين، شعرة منه، حرام؟

- هاى وين صارت؟ منو يقبلها؟

ولم يتأخر صدور فرمان السلطان بعزل سعيد، والطلب اليه ان يذهب الى حلب، وان يضع نفسه بتصرف واليها.

كتب اليه حسقيل، وقد حمل التتار الرسالة الى اربيل مع فرمان عزل سعيد وتعيين داود واليا على بغداد. كتب فى الرسالة يقول : «سوف تعرف ان البارات التى بعثتها اصبح الواحد منها يعادل الآلاف، بل وأؤكد لك ان كبار الوزراء ورجال الحاشية يتمنون مجرد رؤيتها. اتوقع أن تكون قد احتفظت بعدد منها، لأنها ستكون ذات قيمة كبيرة فى المستقبل، ولابد أن تباع بأثمان خيالية، وسوف يتوارث هذه القطع النقدية جيل عن آخر، وسيكتب التاريخ فى قادم الأيام كيف أصبحت البارة اثمن من ليرة الذهب، ليس ذلك فقط، سوف يقال ان بارة قضت على اكبر الولاة فى العراق».

وقرر عزرا ان يكتب رسالة اقرب الى الوصية، حين ارتدت قوات داود باشا عن أسوار بغداد،

وكادت تلحق بها هزيمة ساحقة. كتب عزرا تلك الرسالة فى لحظة حزن، لكن يشكر الله أنه لم يرسلها، وتركها بين أوراقه حتى اذا مات، وسلمت تلك الأوراق الى أسرته لابد أن تقرأ وتنفذ فى يوم من الأيام. كتب فى تلك الرسالة : «وتركت لكم ثلاثة أنواع من الثروة : مالا اذا عرفتم كيف تتصرفون به سوف يتضاعف من جيل الى جيل، وتركت لكم علاقات تحميكم من غدر الزمان وتقلب الأيام، وتركت لكم سمعة تحول التراب الى ذهب، وتجعل كل حاكم يتلمس رأسه قبل ان يعاديكم، فاعرفوا أين يجب أن تضعوا أقدامكم، ومن تصادقون ومن تعادون»، أما خالد افندى، ذئب الصحراء الاغبر، فقد قال لحسقيل، وكان لا يعرف كيف يدارى فرحه :

– هذه البارة ستكون مثل شفرة المقصلة .. وستقطع!

وبعد أن هز رأسه مرات عديدة دلالة الاقتناع، تابع كأنه يخاطب نفسه:

– لدينا الآن الورقة الرابحة، اذ بعد ان تصور سعيد نفسه اكبر من السلطان، وتجرأ على وضع اسمه على النقود بدل اسم مولانا، فلا أحد يعرف ماذا يمكن آن يفعل غدا..

والتفت الى حسقيل:

– يجب ان يحمل رأس هذا المغرور الى اسطنبول، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه أنه اصبح اكبر من مولانا السلطان!

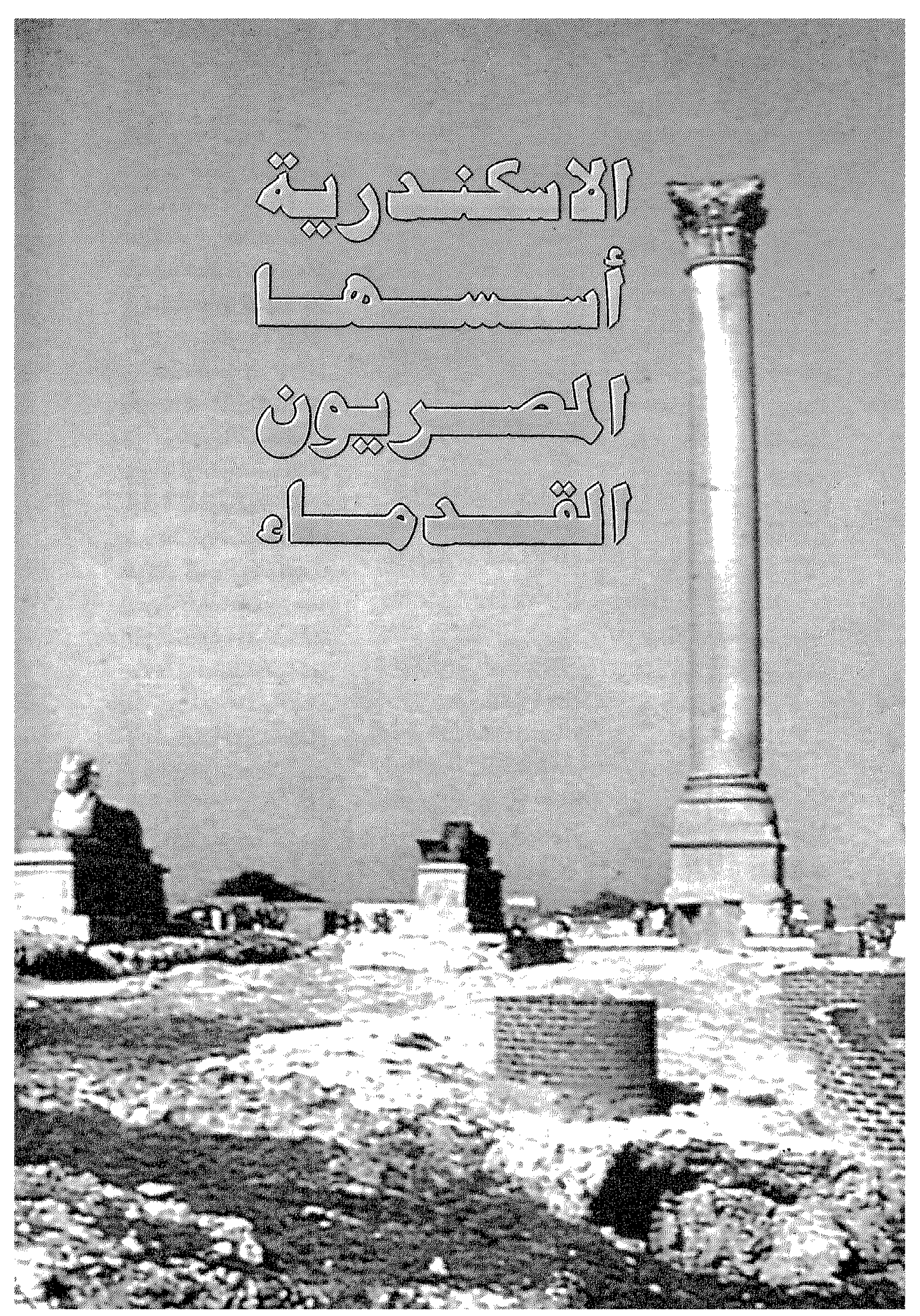
مرت هذه الذكريات والأحداث فى ذهن عزرا، وهو يضبط حركة حصانه ليكون فى طليعة الموكب، اقرب المرافقين الى الوالى داود باشا. ورغم حرصه الذى لم يفتر فى ان يبقى هكذا، كان يتحقق من الوجوه عله يقرأ فى قسماتها بعضا من أخبار الشهور الماضية، وأخبار ساسون بشكل خاص.

قال لنفسه، وقد اصبح الموكب عند مشارف السراى : «اذا كان الكبار، سعيد وحمادى ونابى خاتون، انهزموا، وتساقطوا، فكيف يمكن ان يفلت ساسون؟»

ولا يعرف ان سمعه أحد، وهو يلكز حصانه، يقول:

– درابين بغداد ضيقة، واذا ما تنشاف اول يوم تنشاف تانى يوم .. وين راح تروح يا ساسون!

وإذا فات من حوله سماع صوته، فقد لاحظ عدد من المرافقين ان حصان عزرا جمح قليلا وتغيرت خطواته، لكن سرعان ما امتثل بعد ان شد اللجام!


الاسكندرية
أسسها
المصريون
القدماء

بقلم: أحمد عبدالفتاح

هذا مقال جديد حول نشأة مدينة الأسكندرية، كتبه متخصص، ولاشك انه يفتح باب الحوار حول ما فنده الباحث من أسباب، والهلال تفتح ابوابها للحوار حول ما جاء فى المقال.

عندما نتحدث عن «راقودة» يتبادر الى الذهن الاسكندرية الاصلية، السابقة لعصر الأسكندر، والتى أنشأها المصريون القدماء فى هذه البقعة العبقرية الواقعة بين البحر الابيض قبالة «فاروس» من الشمال، وبحيرة مريوط من الجنوب، والى الجنوب الغربى من البقعة التى اختارها الاسكندر لتخطيط راقودة جديدة أطلق عليها اسمه «الاسكندرية»، ولندرة الأعمال الأثرية بهذه المنطقة فما زالت راقودة مجهولة لدينا الى حد كبير، وتتحدث عنها المراجع باقتضاب وايجاز شديد كلما مر ذكرها

ويرى ايفاريستور بريتشا مدير المتحف اليونانى السابق، أن المرتفعات التى تشغلها الآن كل أطلال معبد السيرابيوم، ومنطقة كوم الشقافة هى موقع راقودة - غير أننا نرى وبناء على بضعة أعمال أثرية أجريت فى بقاع متفرقة حول النطاق الذى حدده بريتشا - انه يمكن حاليا أن نعتبر أن اقصى نقطة يمكن أن تصل اليها حدود راقودة للشرق هى شارع العطارين، وغربا شارع الترعة المحمودية، ومن الشمال البحر، والجنوب بحيرة مريوط.

ويذكر سترابون أن راقودة كانت بمثابة قرية كان سكانها من الصيادين، ورجال حرس السواحل، غير انه تلاحظ أن سترابون قد كتب ذلك حوالى عام ٢٤ ق . م وعند زيارته للاسكندرية اى بعد حوالى ثلاثة قرون من انشائها؛ واضافتها الى راقودة، بينما أقدم نص ورد إلينا للآن يتضمن عبارة (راقودة) نص هيروغليفى يرجع لعهد بطليموس الأول. ويلاحظ ان المخصص للمدينة للفظ (را - قدت) هو المخصص للمدينة فى النصوص المصرية، ويبدو من ذلك أن راقودة كانت مدينة عندما انشئت الاسكندرية للشمال الشرقى منها، وليست قرية كما ذكر سترابون بعد ذلك التاريخ بثلاثة قرون تقريبا - كذلك وجود جزيرة فاروس قبالتها وورود ذكرها فى الانشودة الرابعة من أوديسية هوميروس. وهناك عناصر طبوغرافية وأثرية ماثلة امامنا بالرغم من الغموض الاثرى الذى ما يزال يكتنف راقودة ترجع لوجود مدينة مهمة أقدم من عصر الاسكندر وخلفائه البطالمة.

وعدا ما يميز راقودة من طبيعة بحرية، وحربية، انها كانت فى عزلة نسبية عن باقى أجزاء مصر يتقاطر اليها من حين لآخر سكان المناطق المحيطة بها من دلتا النيل، والغرب بل انه يمكن التصور انه كانت هناك حركة تبادل بين كل من راقودة ونقراطيس، وماريا على مدار التاريخ كانت أهم مظاهره ذات طبيعة ديموجرافية، ولا يعزب عن الذهن اللحظة ان بحيرة مريوط وقناة كانوب كانتا الوسيلة الاولى لهذا الاتصال.

ولدينا عوامل عدة ترجح أن راقودة كانت مدينة بالغة الأهمية قبل عصر الاسكندر :

أولا : عثر المهندس الفرنسى «جونديه» عام ١٩١٠ م على بقايا ميناء هائل غارق اسفل مياه البحر للجنوب الغربى من جزيرة فاروس، وتمثل هذه البقايا سلسلة متوازية تقريبا من الارصفة، او حواجز الأمواج تتجه من الشرق إلى الغرب وتوازى الساحل تقريبا. وقد بلغ طول الرصيفين أو الحاجزين ٢٥٠٠ مترا!! والعرض ٦٠ مترا، والارتفاع عشرة أمتار، وقد قدرت مساحة ما اسماه (جونديه) الميناء الغربى بـ ٦٥٠ هكتاراً ويوجد بناء صغير سمى - ميناء الحرب - كما ذكر جونديه بناء اخر تجاريا بين خليج كل من الميناء الغربى، وخليج الانفوشى، وقد اختير موقعه هنا لتجنب تأثير الرياح الشمالية الغربية التى تعوق الملاحة فى الميناء كما تم تحديد مدخل الميناء على نحو يشير الى احاطة تامة للظروف الطبيعية بالمكان.

ويرى البعض ان هذا الميناء قد شيد باسلوب بناء الاهرامات ويرجع تاريخه الى عصر الدولة القديمة - كما يذهب البعض الى أزمنة سحيقة ضاربة فى أغوار تاريخ البحر الابيض كما تشير الى علاقة بين مصر، ومدن بحر ايجة.

ثانيا : هو توفر مصدر للماء العذب بوقوع المكان على بحيرة مريوط، وتوفر المياه العذبة يعد جوهرا اساسيا للحياة، ونواة تكوين المدن على امتداد التاريخ البشرى فضلا عن عناصر الغذاء، والمراعى التى يوفرها وجود مياه النيل فى المكان، غير انه بالنسبة لهذا الموقع تحديدا فالعاملان البحرى والنيلى قد اجتمعا على نحو عبقرى لتحديد مستقبله ومصيره طوال العصور.

ولا يمكن تصور أن الاسكندر الاكبر كان ليقوم بتخطيط راقودة الجديدة او «الاسكندرية القديمة» لولا توفر عناصر الحياة الرغدة، وخطورة المكان فى آن واحد التى فطن لها المصريون القدماء من قبل، غير ان ما قام به الاسكندر الاكبر هو فقط تعديلات فى المكان تتلخص بوصل جزيرة فاروس براقودة لتوفير وسيلة سريعة للانتقال بين شطرى الاسكندرية، ثم اجراء تخطيط عمرانى طبقا للفكر الاغريقى الجديد المتمثل فى

الشوارع المتقاطعة وتحديد مرافق المدينة فى آن واحد بـ «قرار سياسى» وليس طبقا لتدرج تاريخى كما تم فى راقودة بمعرفة الفراعنة على الأغلب.

ثالثا : تكوين ارض راقودة المرتفع الذى يمثل جوهر المناخ الملائم لانشاء مدينة، حيث الهواء الاكثر جفافا، وكذا امكانية السيطرة للبقاع المحيطة بها والتى تضحى ذات طبيعة عسكرية من آن لآخر للاطماع المحيطة بمصر والعزلة النسبية لهذا الركن من مصر بصفة خاصة.

رابعا : عثر باساس عامود السوارى (عامود دقلديانوس) وبين انقاض معبد السيرابيوم وكذا طبقات الرديم على كتل منقوشة بالهيروغليفية من بقايا أبنية، وكذا تماثيل لملوك من الحقبة الفرعونية من تاريخ مصر من بينها آثار لكل من سيتى الأول (١٣١٢ - ١٣٠٠ ق.م) رمسيس الثانى (١٣٠٠ - ١٢٣٥ ق. م) بسماتيك الاول (٣٦٣ - ٦٠٩ ق . م).

يرجع اقدمها بأساس العامود الى عصر الدولة الوسطى اى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد، وبالرغم مما يتردد ذلك على لسان علماء حملة نابليون (١٧٩٨٠ - ١٨٠١ م) من أن البطالمة قد زينوا الاسكندرية من بقايا مدن فرعونية من بينها هليوبوليس، فان الامر بعد حفائر السيرابيوم التى اجريت خلال الاجيال الماضية، وكذا ما انتشل من آثار غارقة منذ قليل يستدعى اعادة النظر فى هذه المقولة التى ظلت لزمن طويل بمثابة معتقد أثرى فيما يختص بآثار الاسكندرية الفرعونية.

خلال الحقبة الاغريقية الرومانية شهدت راقودة حركة للحياة فقد اقيم بها اعظم معابد البحر الابيض خلال الفترة الاغريقية - الرومانية بمصر وهو معبد السيرابيوم الهائل الذى بالرغم مما اصابه من التخريب فقد بدت عاجزة عن محو آثاره تماما بالرغم من الاحداث التى شهدتها الاسكندرية ديانة سيرابيس فى حقيقتها تصورات كاهن مصرى قديم يدعى (مانيتو) كان ذا ثقافة خاصة فقد وضع كتابا فى تاريخ مصر فى بداية العصر البطلمى مع زميله الاغريقى (تيموثيوس) المولود فى اليوزيس بلد الاسرار المقدسة لديميتر ربة الزراعة والحبوب والعالم السفلى لتفسير إرادة ملكية لبطليموس الاول فيما يخص بإله غامض كانت عبادته فى جنوب روسيا رأى الملك فيما يرى النائم انه يرغب فى ان يأتى الى مصر وماهو فى حقيقته الا صياغة مصرية - إغريقية معاصرة باهرة للمعبود المصرى اوزوريس الذى كانت عبادته راسخة فى المكان من قبل أن يأتى الاسكندر والبطالمة، وذلك لايجاد تآلف بين الشعبين المصرى والاغريقى فى صياغة سياسة تتسم بالعبقرية السياسية.

وقد أقيم هذا المعبد على انقاض معبد قديم لأوزوريس فى المكان من عصر راقودة، وظل خلال العصر البطلمى والرومانى معبدا رسمياً للدولة حيث عثر بين انقاض بقايا المعبد الرومانى الذى أقامة هدريان على الأغلب، وعثر على

تمثال للمعبود سيرابيس على هيئة ثور ضخم من البازلت الاسود المصقول، وأسفله كتابة اغريقية تؤرخ إقامة التمثال وهو التمثال الموجود الآن فى قاعة رقم (٦) بالمتحف اليونانى الرومانى، كذلك تمثال نصفى للمعبود فى هيئة انسان ذى شعر غزير، ولحية كثيفة، وعينين غائرتين واسعتين، ويحمل أعلى رأسه سلة الاسرار المقدسة، ووجه مشرب بماء الذهب الذى بقيت آثاره الضئيلة.

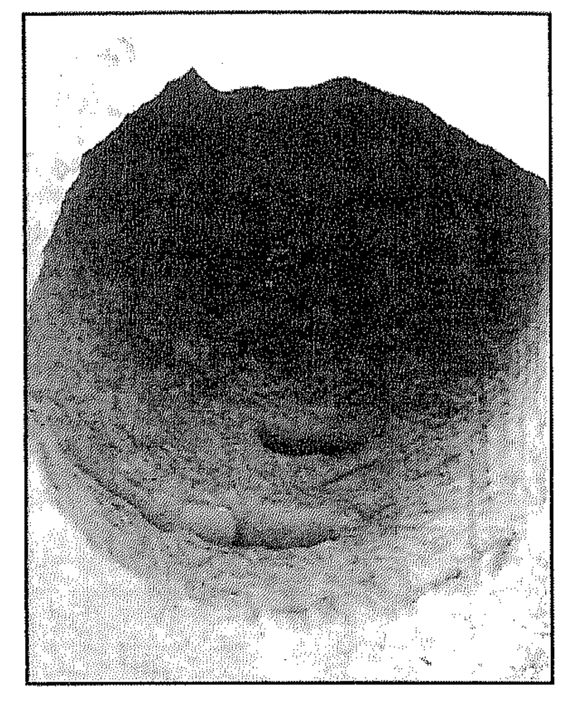
وقد عثر على العديد من الآثار الأخرى التى تؤرخ للفترة البطلمية كتماثيل الألهة الاغريقية وتماثيل لأبى الهول المصرى، تمثل التأثر بمدارس الفن الاغريقى من الرخام اصلا، وهما التمثالان القامان حاليا للجنوب من أرضه وتماثيل لملوك مصر القدامى التى سلفت الاشارة اليها.

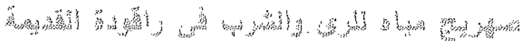
كذلك عثر على صهاريج للمياه، وآبار، وبقايا حمامات ومغاطس رومانية، وللغرب بناء مربع منحوت فى الصخر بأكمله يؤدى الى صالة فى باطن الصخر كانت تبدو لطقوس الاعياد القديمة، وكانت الدهاليز الشمالية تحوى تمثالا للمعبود سيرابيس على هيئة الثور، كذلك عثر على آثار الحقبة المسيحية فى المكان الذى أقيمت به كنيسة يوحنا المعمدان بعد تجديد المعبد الوثنى، واعلان المسيحية دينا رسميا للدولة بقرار الدولة البيزنطية الحاكمة لمصر.

القدرة على الإبداع

ولعل من أكثر بقايا السيرابيوم تأثيرا فى النفس بل اشدها إثارة بقوة تأثير راقودة خلال العصور، العامود الهائل القائم الآن المنحوت بأكمله من جرانيت أسود، والمؤرخ بعد دقلديانوس طبقا لبقايا النص الاغريقى الموجود بأعلى الجانب الغربى من القاعدة للاثر وهو يوضح قدرة المصريين على الابداع، ويعلن عن مجد الاسكندرية القديم، والغريب انه ما زال مصقولا بالرغم من الرياح ونوات الاسكندرية العنيفة خلال فصول الشتاء لقرون طوال، وكذا بالرغم مما اعترى ارض المدينة من هزات أرضية أضاعت معظم مبانيها، كذا بالرغم مما لحق بالمكان من تخريب فى عصر البطريرك ثيوفيلوس ٣٩١، وكذا الوالى قراجا فى عصر صلاح الدين الايوبى.

وقد اكتنف هذا العامود الاساطير الشعبية، والعالمية فما زال أثرا خالدا من راقودة القديمة، التى بقيت اثارها من بين ما اقامه الاسكندر الاغريقى، كذلك عثر رجال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) على بقايا استاد منحوت فى الصخر للجنوب من السيرابيوم، وهو الاستاد الوحيد الذى عثر عليه من بين عمائر المدينة فيما نرى وفى نهاية القرن الماضى عثر على مجموعة من المقابر الوثنية اليونانية الرومانية للشمال الغربى من السيرابيوم من اهمها الاثر الخالد المعروف بالكتاكومب الرومانى المنحوت بأكمله فى باطن الأرض الصخرية عدا طابق علوى كان موجودا، وذلك عام ١٩٠٠ بالجزء الموجود بالمنطقة المعروفة لدينا بكوم الشقافة.





صهريج مياه للرى والشرب فى راقودة القديمة

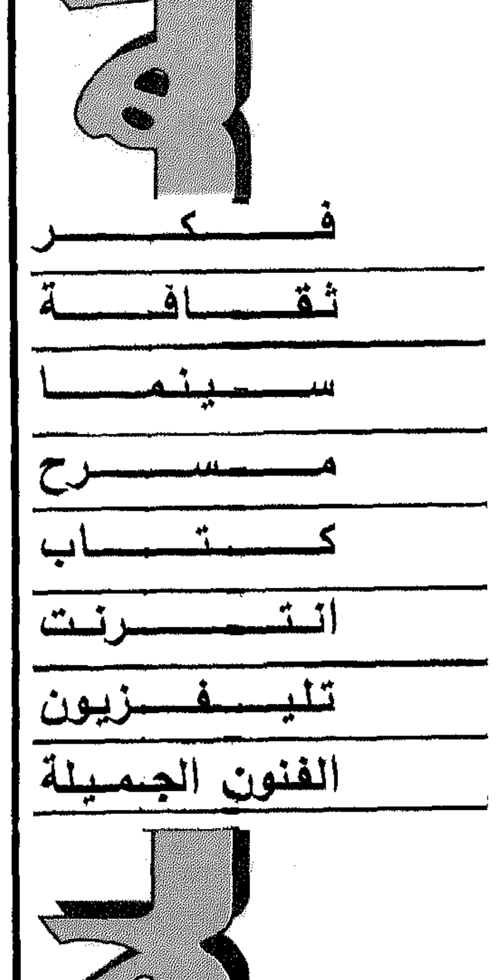


أحد الكهوف الأثرية
من عصر راقودة القديمة

ويمثل الطرف الجنوبى الشرقى من جبانة الاسكندرية مدى أهمية راقودة خلال القرن الثانى الميلادى، ومدى حركة الحضارة الحافلة بها، وقد ثبت أن الاثر استمر مطروقا خلال الفترة من القرن الثانى (فترة العصر الرومانى حتى القرن الرابع) حتى أغلق نهائيا واختفى عن العيان، وقد نحت فى الصخر فى الاصل لعائلة وهذا واضح من التمثالين الموجودين أمام المقبرة الرئيسية، وربما كان يجرى فى عروقهما الدماء المصرية الرومانية. كما أثبتت النقوش الجدارية فى غرفة الدفن مدى غلبة الثقافة الغربية فى تقاليد العقائد الجنائزية، وتصورات العالم الآخر، وكذا وجود وجه ميدوزا، واشارات باكوس إله الخمر والعالم السفلى، وكذا شارات النمسيس المصرى الذى يوضح المدى الذى افسحته العقائد المصرية للعقائد الاغريقية والرومانية فى المكان.

كذلك عثر على تماثيل من الرخام ببئر القاعة الدائرية، وبقايا رماد متحللة بمكان مجاور كان مجهولا ربما كان مدفنا عتيقا لكهنة السيرابيوم، كذلك عثر فى منطقة كوم الشقافة على بقايا للحياة اليومية لقدامى السكندريين المسيحيين، وكذلك أوانى شراب ملونة برسوم شعبية مصرية الطابع.

ويمكن القول بأن معول التنقيب يشهد أن راقودة القديمة مازالت خفية عن العيان أسفل طيننا الثرى، ومازال تحته ركام العصور القديمة فى المنطقة التى تطل على البحر الابيض من الشمال، وبحيرة مريوط من الطرف الآخر.



● كتاب

الرقص التركى

تأليف: متين آند

ترجمة: مركز اللغات والترجمة: اكاديمية الفنون

قل لى كيف ترقص؟ أقل لك من انت!

فالرقص ليس فقط أحد الفنون القديمة فى تاريخ البشر، بل هو أيضا بصمة شخصية للشعوب، فإذا كان لكل شعب لغته، واسلوب حياته، فان الرقص هو أحد وجوه هذه الحياة البارزة، باعتبار انه يعبر عن البشر فى أحسن أحوالهم، فى لحظات البهجة، والافراح.

ومن هنا جاءت أهمية التعرف على كيف يرقص الآخرون، وأساليب حياتهم المرتبطة بالرقص. وهذا سبب أهمية كتاب من طراز «الرقص التركى» تأليف: متين آند الذى أصدرته أكاديمية الفنون.

وتقوم فلسفة الكتاب على اساس ان منطقة الاناضول تمتلك مفردات ثرية ورائعة من ايماءات وحركات الرقصات، وذلك منذ ان جاء الاتراك من آسيا الوسطى واستوطنوا السهل الاناضولى، فعاشوا هناك قرونا طويلة.

وحسب ما جاء فى الكتاب، فان الفلكلور فى تركيا يتكون من عناصر متغايرة، ومع ذلك فانه لا يفقد القدرة أبدا على اضافة وخلط مكونات وعناصر جديدة. وهناك مصادر واتجاهات لشكل الرقص فى تركيا، أولها ثقافة شبه الجزيرة الاناضولية القديمة طوال فترة استمرت آلاف السنين حيث استوطنتها نماذج للحضارات المختلفة.

أما التأثير الثانى فهو تأثير آسيا بما لديها من الطقوس الشامانية لمنطقة اورال التى أخذت منها الأمة التركية أصلها. أما التأثير الثالث فكان سلبيا، حيث ان الاسلام ادخل التحريم على وجه الخصوص مانعا النساء من الرقص مع الرجال.

لكن، ظل الرقص يتطور فى تركيا، على مستويين مختلفين، وفى خلفيتين ثقافيتين: الخلفية الحضارية الأولى



ترجع الى استانبول عاصمة الامبراطورية، ثم ان الفلاحين الاتراك الذين يمثلون ٨٠٪ من عدد السكان مازالوا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم على مر العصور.

لذا فان أهم الرقص فى تركيا هو الشعبى، الذى يستخدم فى كثير من المناسبات، فبعض هذه الرقصات كانت تستخدم فى العصور الوسطى تعبيرا عن بعض الطقوس الخاصة بالخصب والنماء.

وقد شرح الكاتب الكثير من طقوس الرقص المرتبطة بالعادات، كالافراح وليلة الحناء بالإضافة الى رقصات الطبقات الخاصة بالدراويش الصوفيين.

ورغم تحريم الرقص فان الفكرة الصوفية جاءت عن استخدام كل من الرقص والموسيقى كجزء من الابتهال لتحظى بالتقبل.. ومن هنا نبعت فكرة الرقص الوجدانى المقدس حيث تجد فى التكية ضروبا عديدة من التأمل والرياضة الروحية والتركيز والصلاة والصيام.

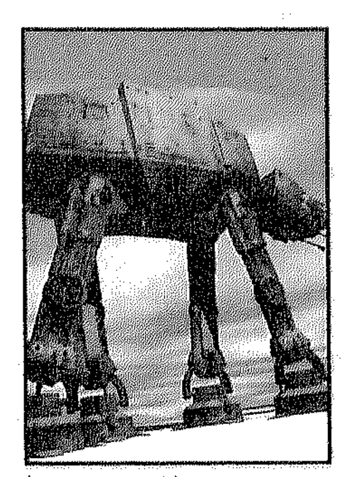
وقد توقف الكتاب عن الرقص الشعبى الذى يتسم بالتسلية، وهو يحدث بشكل كامل بهدف المشاركة وليس لتقديمه للمشاهدين.

كما ان رقص تحريك العرائس قد انتشر فى تركيا، بأشكالها المختلفة، حيث كان لهذا الفن وظيفة ذات طقوس وسحر. وفى بعض الاحيان كانت تتحول هذه الوظيفة الى التسلية المجردة، ووجد شكل فريد لهذا الفن فى المناطق الريفية.

أما الرقص الحديث، الوافد، فقد بدا فى الباليه الكلاسيكى. ويقول الكاتب: إن الرقص الشعبى يعد الهاما لفن الباليه، ولكن له أيضا مكانة لا ينكرها أحد، مما دعا الى انشاء فرقة باليه للفن الشعبى منفصلة عن فرقة الباليه. وهناك رأيان فى هذا: هل من الممكن أن يدب النشاط فى فن الرقص الشعبى. أم هل يحقق امكانية من خلال الباليه الكلاسيكى!.

● سينما

نجاح الأفلام الأمريكية فى كتاب جديد


حرب النجوم

ظهر فى الأسواق العالمية أخيراً ، أحدث كتاب للناقد السينمائى «بيتر بارت» الذى يشغل حالياً منصب رئيس تحرير مجلة «ڤارايانى» الأمريكية العريقة. والذى شغل من قبل عدة مناصب مهمة فى مختلف ستوديوهات هوليوود الكبيرة، فأصبح لديه حصيلة لا يستهان بها عن خفايا صناعة السينما فى عاصمتها الشهيرة.

الكتاب الجديد يحمل عنوان «الإيرادات : الأفلام الناجحة والفاشلة والصيف الذى أكل هوليوود»، ويعنى الكتاب بتحليل الأفلام الأمريكية التى عرضت بالذات فى فترة الصيف الماضى لعام ١٩٩٨ وأسباب نجاحها أو فشلها، ويستعين «بيتر» فى تحليله بعدة أمثلة سينمائية، شاهدنا معظمها فى مصر ، أى نالتنا هذه الحملات الدعائية القوية التى تحرص هوليوود على مصاحبتها لكل فيلم، على أنه الفيلم الذى يجب ألا يفوتك.

ومن هذه الأفلام ، فيلم «جودزيلا» الذى صاحبته دعاية قوية فى جميع الوسائل المسموعة والمرئية ، قبل وصوله إلى دور العرض بستة شهور أو تزيد، ولأن هذه الحملة تكلفت عشرات الملايين من الدولارات تضاف إلى تكلفة الفيلم نفسه التى تعدت المائة مليون دولار ، فإن حصيلة إيرادات الفيلم بعد عرضه فى الولايات المتحدة وسائر أنحاء العالم ، رغم ضخامتها، يمكن اعتبار الفيلم على أساسها أنه لم ينجح على الأقل النجاح الذى كان يرجى له .

ويعلق «بيتر» على فيلم مثل «جودزيلا» أو «أرماجيدون» الذى صاحب عرضه فيلم آخر يعالج نفس الموضوع (النيزك الذى يقترب من كوكب الأرض ويكاد يدمرها) ، أن هوليوود تعانى من مشكلة فى الإبداع وفى العثور على أفكار جديدة للأفلام التى تزيد تكلفة صناعتها والدعاية لها، يوماً بعد يوم.

ومع زيادة التكلفة ، بدأت الاستوديوهات الكبرى فى

مشاركة بعضها البعض فى انتاج الأفلام الباهظة الكلفة ، حتى لا تتحمل وحدها خسارة استثماراتها وذلك فى حالة فشل الأفلام تجارياً . وفى خضم هذا الانتاج الباهظ ، دخل شريك ثالث بين الاستوديوهين اللذين يتقاسمان انتاج الفيلم الواحد، وهو الشريك التسويقى الذى يكون إما سلسلة من مطاعم الأكل السريع ، أو من محلات الألعاب الشهيرة ، وهو المسئول عن التسويق للفيلم بالألعاب وبالوجبات قبيل وأثناء عرضه . وبتعدد الشراكة فى انتاج الأفلام الأمريكية، تتفرع صناعة القرار الذى تتشعب روافده وبالتالى تقل نسبة المخاطرة فى السينما التى هى نوع من الفن ، فيقل الإبداع والعثور على أفكار جديدة ، أو المغامرة باعطاء الفرصة للمخرجين والممثلين الجدد، وينحصر إعطاء الأدوار الكبيرة فى الأفلام الضخمة، على النجوم الكبار المعروفين والموثوق فى كونهم مفاتيح لشبابيك التذاكر.

وبالحديث عن النجوم ، يرى «بيتر بارت» أنهم وحدهم الذين يكسبون من وراء صناعة السينما ، إذ ارتفعت أجور بعضهم إلى خمسة وعشرين مليون دولار ، والاستوديو بعد أن يقوم بتكلفة الفيلم واعطاء العاملين فيه أجورهم ، يجد أنه تحصل على قشور مالية بعد عرض الفيلم . ويعلق «بيتر» ساخراً أن الأفلام التى تحقق عائداً حقيقياً وملموساً هى أفلام الرسوم المتحركة ، لأن اشتراك النجوم الكبار فيها لا يكون بأجورهم فى الأفلام التى يمثلون فيها بشحمهم ولحمهم.

وبالنسبة لعام ١٩٩٩، يتوقع «بيتر بارت» أن يصاب العديد من الأفلام الجديدة بالأذى أو بالفشل، أما فيلم ضخم - مثل «حرب النجوم - خطر الشبح» الذى يقدمه المخرج «چورچ لوكاس» بعد ابتعاده عن الاخراج منذ ٢٢ عاماً حين قدم أول أفلام سلسلة «حرب النجوم» . والأفضل أن تبتعد هذه الأفلام عن يوم عرض هذا الفيلم الجديد حتى لا تغرق من هذه الحملة الدعائية القوية التى بدأت منذ أواخر العام المنصرم.

شريف عوض

• إذاعــة

كل هذه الاذاعات المتشابهة .. لماذا؟


حمدى الكنيسى

بدأت الاذاعـة فى مـصـر منذ أكـثـر من نصف قـرن كمحطات اذاعية أهلية ، ثم أصبحت هناك الاذاعة المصرية فـقـط دون السـمـاح لهـذه الاذاعـات بالبث نهـائيـا نظرا لتجاوزاتها الأخلاقية وما يمكن أن ينسحب من جراء هذه التجاوزات على المستمع.

بدأت إذاعـة البـرنامج العـام وبعـد سنوات طويلة بدأ الاهـتـمـام بالعـالم العـربى فنشـأت اذاعـة صـوت العـرب ثم تلتـهـا اذاعـات جـديدة ومـتـعـددة.. منهـا اذاعـة الشـعب والبـرنامج الثـانى، وتنامت هـذه الاذاعـات وكـثـر عـددها فـأصبح عندنا اذاعـات وادى النيل - فلسطين - الشـرق الأوسط - الشـبـاب والرياضـة - القـرآن الكريم وشـبـكة الاذاعـات الاقليـمـيـة والتى تضم وحـدها عـشـر اذاعـات، وألغيت اذاعة الشعب عام ١٩٩٠.

اذا نظرنا الى كل هـذا العـدد من الاذاعـات ناهيك عن الاذاعات الموجهة والأوربية.. سنجد أن هناك خريطة اذاعية واحـدة فى شكلهـا وفـى مـضـمـونهـا تسـيـر عليـهـا كل هذه الاذاعات المتعددة مع تغيير اسم الاذاعة فقط.. ولولا وجود صوت المذيع أو المذيعة على برامج كل محطة وهو يقول:

«اذاعة كذا من القاهرة تقدم » لما استطاع المستمع أن يمـيـز نوعـية هـذه الاذاعة أو تلك الا بـصـعـوبة شـديدة جـدا فيما عدا اذاعة القرآن الكريم التى تتخذ من القرآن وعلومه والسنة منهجا مميزا لها وتبـتـعـد عن كل ألوان الموسـيـقى وهى بهذا تتميز فى أذن المستمع دون أدنى مجهود.

خريطة كل اذاعة تشتمل على الدراما، وبح الصوت فى ضـرورة وجـود سـمـة مميزة لكل مـحطة اذاعـية من خـلال مـا تقـدمـه من تمثـيليـات ولكنهـا مـحـاولات ضـاعت فى الهـواء وسـاد التنافس بين هذه المحطات وليس التكامل كـمـا كنا نريد.. نفس الموضـوعـات ونفس المـمـثلين ونفس المؤثرات الصـوتيـة ونفس الموسـيـقى تقـريبـا ونفس الشكل.. وكـذلك المنوعـات.. لا تسـتطيـع أن تميز بـرنامج منوعـات لمحطة عن الأخـرى.. البـرامج الخـاصـة.. البـرامـج الأدبيـة.. بـرامج المقابلات واستـضـافة المستمع أو المسئول أو الفنان.. برامج

الخدمات.. حتى موجز الأنباء والنشرات الاخبارية.. والفترات المفتوحة.. للأسف نفس الشكل ونفس المضمون.. كل هذه المحطات وكل هذا الكم الهائل من ساعات الارسال لا يخرج عن خريطة واحدة تحكم وتتحكم.

فى مصر نخيرة من العقول المفكرة والمبدعة من إعلاميين اذاعيين، وصحفيين، وكتاب، ونقاد، وأساتذة جامعات وعلماء فى كل المهن والتخصصات.. فى مصر صرح حضارى اسمه المجالس القومية المتخصصة.. فى مصر مجلسان للشعب والشورى.. هل يمكن أن يخرج من أى من هذه المؤسسات فى يوم ما خريطة اذاعية جديدة مسموعة ومرئية؟ أعتقد أن هذا يمكن أن يحدث، فالخريطة الجديدة تعيد صياغة العقل المصرى وتؤهله لدخول القرن الجديد.

أحمد علام

● **موسيقى**

أوبرا عايدة.. بوب ميوزك.. من المستفيد؟

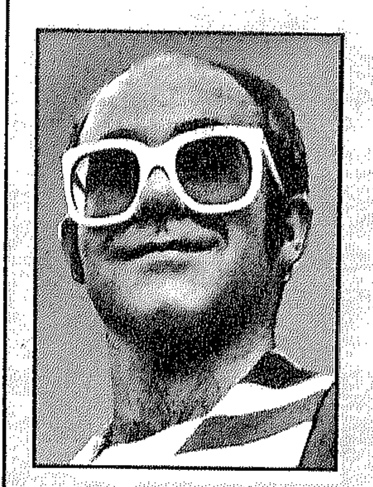
ليطمئن كل عشاق الموسيقى الحديثة..

فكل الاوبرات الغنائية العالمية ستتحول إلى موسيقي واغانى «البوب».. واذا كان فريق البى جيز قد حول إحدى سيمفونيات بتهوفن إلى ايقاع يرقص عليه جون ترافولتا (ديسكو) فى فيلم «الليالى الملتهبة»، فان المطرب البريطانى السير التون جون قد قرر تحويل أوبرا «عايدة».. الى موسيقى البوب.

حدث ذلك فى البومه الأخير «الصورة الأخيرة» حيث قرر أن ينزل الموسيقى الكلاسيكية من عليائها، وغرفها المغلقة، ليسمعها عشاق الموسيقى الخفيفة، والاغنيات الشبابية فى الصالات المفتوحة، والواسعة، ويقول المطرب الذى لمع فى العامين الماضيين بأغنية «شمعة فى الريح» التى غناها فى جنازة الأميرة ديانا.

«لقد جذبتنى القصة، لأنها تحكى قصة حب بين شخصين من عنصرين مختلفين ومن اوساط اجتماعية ودينية متباينة. وذلك عكس ما هو معروف عنى، باعتبار اننى شخص مراوغ».

وقد جاءت التجربة مثيرة مدهشة، فقد قام التون جون



التون جون

باعداد ألبومه، الذى يتضمن ٢١ أغنية عن الأوبرا فى واحد وعشرين يوما، باعتبار انه معروف بأنه صاحب ايقاع سريع فى التأليف، ويرد التون جون حول هذا الأمر: ظللت متوقفا عن التلحين طوال عامين، لم ألحن شيئا، ولكن عندما جلست امام البيانو، تدفقت هذه الألحان فى داخلى بشكل غريزى.. وراحت تنجع فى مخيلتى..

ومن الواضح ان التون جون لم يود أن تكون تجربته الجديدة اقل نجاحا من اعماله الأخيرة، ففى عام ١٩٩٤ حصد شريطه الغنائى «الملك الأسد» عشرات الملايين من الدولارات، عقب نجاح الفيلم الذى انتجته شركة والت ديزنى.

الشريط الجديد شهد حالة جنونية جديدة للمطرب الملحن الذى استعان بأكثر من ١٥ مطربا ومطربة لشدو «عايدة» بصورتها الجديدة، كل على طريقته، مثل تينا تيرنر، و«سبايس جيرل».. و«جانيت جاكسون» و «ستنج»، وبويز تو، وغيرهم..» تركت مطلق الحرية لضيوفى كى يفعلوا ما يحلو لهم على الشريط. وقد استعنت بالعديد من المطربين الزنوج، حتى يعبر الشريط عن عنصرية قصة عايدة».

تقول مجلة «لوبوان» الفرنسية فى عددها الصادر فى ٣ ابريل الماضى ان النتيجة كانت رائعة، طالما أن هناك مديرا للالحان مثل التون جون، فقد قلت المخاطر المألوفة بفضل ما قام به المطربون، وسيتم عرض عايدة بشكلها الجديد فى شيكاغو خلال الخريف القادم كمسرحية غنائية، ثم ستعرض فى برودواى حتى ربيع عام ٢٠٠٠.

السؤال الآن.. لا شك ان لعايدة ارتباطا قويا بتاريخنا المعاصر، فهل نستفيد من شكلها الجديد؟.

● ملتقى الثقافة

الخيال .. الثقافة .. الوطن
ثمانون عاماً على قيام ثورة ١٩١٩

لم يترك حدث كبير فى تاريخ مصر المعاصر أثراً، مثل ما تركته ثورة ١٩ الشعبية فى شتى المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية ، ورغم أنها تعتبر ثورة مغدورة

من الهلال إلى الهلال

وأجهضت بعض فعالياتها الكبيرة ، لأسباب عديدة، وللتآمرات المختلفة والمتشابكة من قبل الاحتلال الانجليزى آنذاك من جهة، ومن جهة أخرى السلطة (الشرعية) الممثلة فى السلطان/ الملك، وحوصرت هذه الفعاليات الثورة المتفجرة ، ووجهت بشتى الوسائل دون هوادة ، ودون أدنى تقدير لشعب هب يطالب بحريته واستقلاله.

ولذلك لم يكن من المتوقع أن تمر هذه الذكرى الثمانون التى حلت فى مارس الماضى، مرور الكرام ، دون أن تنتبه لها المؤسسات الثقافية الكبيرة الرسمية وغير الرسمية، وما أكثر هذه المؤسسات والأجهزة، بارك الله فيها، وما أكثر الاحتفالات التى تقوم بها هنا وهناك ، أما الحدث الثورى الشعبى هذا لا يستحق عناء كبيراً للتحضير والتجهيز ، وفى يوم الذكرى اكتفت جريدة الوفد بنشر خبر فحواه بأن قيادات حزب الوفد ذهبوا لزيارة قبر الزعيم سعد زغلول ، وزيارة قبر خالد الذكر مصطفى النحاس ، ويبدو أن الندوتين اليتيمتين اللتين أقيمتا على المستوى الرسمى ، بالتنسيق بين دار الكتب وحزب الوفد لم يحيطا بالموضوع ، وكأنه نوع من تخليص الضمائر فحسب ، وليس بحثاً مخلصاً ، واعادة صياغة الأحداث برؤية عصرية ، خاصة أن هذا الحدث الكبير لم يصغ إلى الآن الصياغة الصحيحة والوافية ، ومازال يحتاج إلى جهود كبيرة لوضعه فى سياقه الطبيعى والصحيح ، من حيث أن ثورة ١٩ ظلمت أشد الظلم من قبل المؤرخين واعتبرها الكثيرون ثورة البورجوازية وكبار الملاك قياساً على القيادة الرسمية آذاك، والآن وقد ظهرت مذكرات وسير ذاتية ووثائق ورسائل متبادلة بين زعماء الثورة ، فقد تتيح هذه الوثائق قدراً كبيراً من الرؤية حول هذه الثورة.

وتأتى أهمية هذا الاحتفال بتكريس «الحس الوطنى»، فى مرحلة جد ، قد غابت هذه الاحتفاليات الوطنية لحساب التكريس للإحتفال بالآخر فى الفن والأدب والفكر ، دون إفساح هذه المساحة الضيقة التى تستطيع أن تتنفس فيها هذه الذات الوطنية المخنوقة .

وبهذه المناسبة أقامت جماعة «الورشة الإبداعية» بالقاهرة احتفالاً على مدى ثلاثة أيام بعنوان «الخيال

والثقافة والوطن في ثورة ١٩» شارك في هذا الاحتفال حشد من الباحثين من أجيال مختلفة ورؤى متعددة «د.فخرى لبيب ، د. سيد البحراوى ، د. فتحى أبو العينين عماد بدر الدين أبو غازى ، هدى النعيمى، عفاف عبد المعطى، غادة نبيل، الحسين عبد البصير، بيومى قنديل، أمجد ريان، محمد عبد السلام العمرى، ايات ريان». كما شارك المستعرب اليابانى ايچى ناجاساوا ببحث في كتاب «التاريخ الذى أحمله على ظهرى» بعنوان يف رأى الطفل سيد عويس ثورة ١٩».

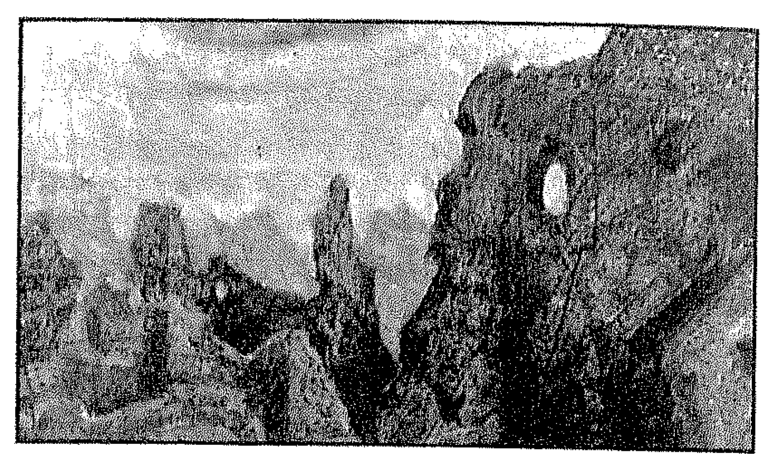

سعد زغلول

رصد الباحثون الآثار والقيم الأدبية والفكرية والفنية، وتطرقت البحوث بالطبع إلى الروايات التى تناولت الحدث (ثلاثية نجيب محفوظ - عودة الروح للحكيم، قنطرة الذى كفر لمصطفى مشرفة) وأوضح عماد أبو غازى دور المثال مختار فى الثورة ، كما أنه لم يكن من الممكن اغفال الروح المصرية الخالصة التى ظهرت فى ثورة ١٩ ، والبحث عن الهوية بين تيارات متعددة ومتضاربة، ورصد ذلك الروائى الحسين عبد البصير فى بحث عن الاتجاه الفرعونى والمصرى فى الرواية المصرية فى الثلاثينات والأربعينات..

لا تستطيع عجالة مثل هذه أن تشمل جميع جوانب التظاهرة الوطنية الايجابية - حتى بالإشارة إلى العناوين ، ولكن اللافت للنظر أنه مازالت كثير من الأحداث التى وقعت فى ثورة ١٩ تبحث لها عن مدقق وموثق وصائغ عادل لها، وكما أننا نلحظ أن ثورة ١٩ بين الثورتين (العربية ويوليو) وجدت تمثيلاتها المتعددة فى (الاقتصاد والأدب والفكر والعمارة .. الخ).

أما كل هذه الأمور لم تبحث إلى الآن بحثاً يليق بها ، ولم تقرأ فى هذه المناسبة إلا هذه المقالات التى ينشرها د. يونان لبيب رزق فى الأهرام كل خميس ، لكن الأمر يحتاج إلى ندوات ولقاءات وحلقات بحث متعددة ، ولذلك أهمس فى أذن الدكتور جابر عصفور ، وهو جدير بذلك، ألا يترك عام ١٩٩٩ ينصرم دون أن يعطى لهذا الحدث قيمته ، فيفسح المجال للاحتفال بهذه الذكرى فى المجلس الأعلى للثقافة ، وإعادة إصدار بعض وثائقها، ونشر كتابات أدبائها ومفكريها وشعرائها ، إنه حدث يحتاج إلى حشد كل الطاقات لإلقاء الضوء على الذات والهوية الوطنية المصرية التى تتنازعها الآن رياح كثيرة.

شعبان يوسف



نداء اللوحة

«نداء اللوحة» كان عنوان المعرض رقم ١٩ للفنان التشكيلي عز الدين نجيب والذى أقيم بقاعة بيكاسو بالزمالك فى الفترة من ٤ - ٢٠ إبريل الماضى .

ضم المعرض ٣٥ لوحة زيتية استوحاها الفنان من واحة سيوه التى تربطه بها علاقة خاصة منذ ١٢ عاما ، حيث كانت موضوعا لمعرض خاص له عام ١٩٨٧ .

قدم عز الدين نجيب فى هذا المعرض رؤية جديدة من نفس المكان بعد أن زاره مرة أخرى فى الخريف الماضى ، وقد اختار منظورا تعبيريا يجمع بين الواقع والأسطورة ، ويزاوج بين الطبيعة والرمز ، موحيا بقدرة الإنسان على الصمود والتماسك فى مواجهة المتغيرات العاصفة بالإنسان فى نهاية القرن العشرين ،كما يجعل من الحلم الرومانسى من خلال أطلال مدينة شالى القديمة بسيوه ، وسيلة لبعث الحياة فى تراثها العريق ، من أجل تعميق الهوية المصرية فى مواجهة رياح العولمة .

وهو يجمع بين الرسم وكتابة القصة القصيرة والنقد الفنى ، وله مؤلفات عديدة فى كل منها إضافة إلى دوره فى إحياء الحرف التقليدية ، من خلال عمله كمدير عام للمراكز الفنية بوزارة الثقافة منذ عام ١٩٩٢ حتى الآن .

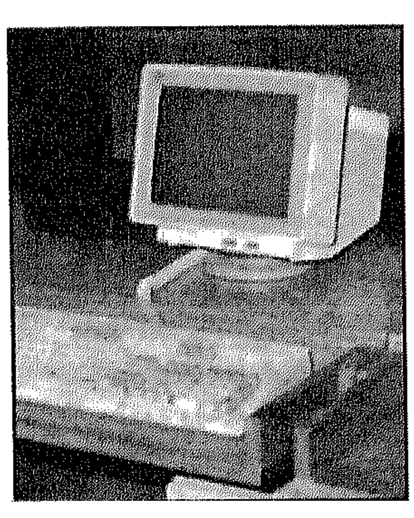
وضم معرضه الأخير الي جانب اللوحات الحديثة من إنتاج عامى ٩٨ ،٩٩ مجموعة من أعمال معرض ١٩٨٧ عن سيوه أتاح من خلالها للمشاهد عقد مقارنة بين الرؤيتين بعد ١٢ عاما على التجربة الأولى ، وتعميقا لوحدة الموضوع وتواصله بالنسبة للفنان والمجتمع .

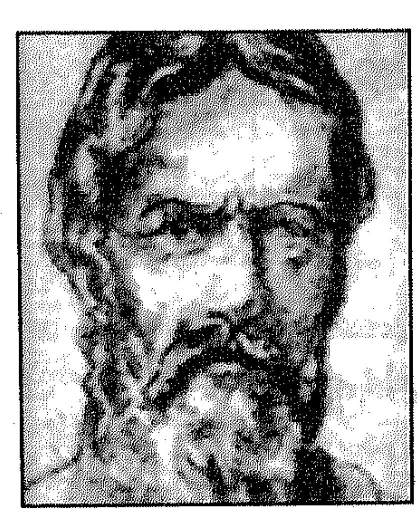
عاطف مصطفى

من الهلال
إلى الهلال

بين الرياضة البحتة وحدس الفنان

بقلم : حسن سليمان





أرسطو

منذ أشهر كتبت مقالا عن التباين بين الفن والعلم. فوجئت بمقال يرد على، لم يكن بالمقال منهج علمى، ولم يعارض أو يدحض رأيى فاعتبرت المقال كأن لم يكن، لكن الفكرة نفسها وهى أن هناك التقاء ما بين الفنان والعالم فكرة تستحق أن نتوقف عندها وأن نناقشها ونستوفيها فكرا، خصوصاً وأن كهنة المعابد القديمة كان مشهورا عنهم مع حسهم المرهف للفن وتفوقهم فى نظريات البناء والاشتقاقات الزخرفية سيطرتهم على علوم الرياضيات والهندسة والفلك . وكذلك كان الفلاسفة العظام، حتى وصل الأمر بأرسطو أن يطلب أن يكتب على قبره : «من لا يحس بعلم الرياضة لا يقف على قبرى» .

أخذ الأمر يراودنى فى أن أضع يدى على نقاط الالتقاء، خصوصا وأن ابنتى فى المدرسة أتت لى بكتاب الهندسة كى أساعدها، أجبتها بأنى لا أستطيع، لكنى فوجئت بها تقول: لكنه عن الفن. ولدهشتى وجدت أن ثلث الكتاب الأول كله عن محاولة تحقيق الاتزان والتكامل فى أعمال فنانى عصر النهضة عن طريق الرياضة البحتة، وأن الأعمال غطتها بالكامل الخطوط والدوائر والمثلثات والأوتار وس،ص واشتقاقات لا آخر لها. ولم ألبث حتى تذكرت مجلات عن الفن كانت لدى صديقة ألمانية . ودهشت إذ وجدت أن بعض الصور كانت تشرح بمعادلات رياضية، وأنهم أحيانا ما يستشهدون ببعض النوتات الموسيقية. إذن نحن الآن أمام لغة جديدة لشرح الأعمال الفنية سيعجز عنها قطعا الفنانون ذوو النظرة الأكاديمية الضيقة المحدودة، وتذكرت فى التو الأمثلة التى أوردتها فى مقالى السابق عن محاولة أينشتين شرح الاتزان فى تمثال موسى لميكائيل أنجلو، ومحاولة رياضى فك طلاسم سحر صور منوندريان عن طريق معادلات لا أدرى إن كان قد وفق فيها أم لا، وأخيراً اهتديت إلى أن عالم الرياضة البحتة سيلتقى حتما بالفنان خلال سنوات قليلة، وأن هذا الالتقاء كان دوما موجودا، ولكنهم كانوا غير واعين به منذ تفوق كهنة المعابد القديمة فى كلا الفرعين.

سألت المرحوم الدكتور «محمود بكرى» أستاذ الرياضة البحتة بجامعة القاهرة: هل تستطيع أن تحدد لى ماهية وأهمية الرياضة البحتة ؟ فأجاب: إن عالم الرياضة الآن قد اقترب من الفنان، ووظيفته تتوافق كثيراً مع وظيفة الفن . وبعد مناقشة طويلة استطعت أن أضع يدى على أن الرياضيات تمتد مع التقدم الحضارى فى مساحات ثلاث:

أولا: كإحدى الوسائل المهمة التى لا يمكن الاستغناء عنها لخدمة المجال العلمى والتكنلوجى فى الدراسات التى تسبق أى تطور آلى الغرض منه رفاهية الإنسان.

ثانيا: كمنهج بحث تجريدى عن حقيقة الظواهر العلمية والطبيعية . منهج يبعد عن الإطار التطبيقى، والغرض منه إزاحة الستر عن غموض الكون بالذهاب فى الأبعاد الرياضية اللانهائية.

ثالثا: إنه كفن من الفنون جزء من النمو الحضارى ككل، فن فى مقدوره أن يعبر عن عظمة الإنسان، كما أنه يمتاز بالقدرة على أن يجعل الإنسان يشعر بضآلته أمام شئ يسمى الحياة.

وبهذا نستطيع بسهولة أن نكتشف الوشائج الوسيطة التى تربط الفن بالتكنيك والرياضة البحتة. والحقيقة أنه

بسرعة، لم نكن نتوقعها، اقتحمت الرياضة البحتة حياتنا اليومية، حتى أمسينا فى لغتنا الدارجة نستعمل بعض الاصطلاحات الخاصة بها مثل «القاسم المشترك الأعظم» و «نظرية الكم» و «النمو الأسى» . وقد دعم من تغلغل الرياضة البحتة الآن بروز الكمبيوتر فارضا نفسه كأحد منجزات التقدم التكنلوجي، وهو وليد شرعى للرياضة البحتة، سيطر الكمبيوتر وأضحى يستخدم فى حياتنا اليومية. أجل تغلغل الكمبيوتر فى جميع مجالات العالم الحديث، وأصبح من وجهة نظر الجميع لا يمكن الاستغناء عنه.

وهكذا سلطت الأضواء على الرياضيات بطريقة جديدة، وبصورة لم تعرفها البشرية خلال تاريخها الطويل.

★ ★ ★

من البداية لابد أن أعترف أن حديث المتخصص فى هذا المجال قد يكون صعب الفهم . كذلك من الصعب على أن ألج الموضوع مع عدم تخصصى فيه، خاصة وأن الرياضيات البحتة بشكل ما هى عالم مجرم إلا على المتخصص فيها، وهى ليست شيئا ملموسا نحدده فى منطق مكتوب . وعلى الرغم من أننا لا يمكننا تحديد منطق لها، إلا أن لها منطقها الخاص لدى الرياضيين، منطقا قد يبتدئ من فرض خاطئ.

وهنا يلتقى المنطقان : منطق الفنان مع منطق عالم الرياضيات . فالفنان يحدده كذلك هذا المنطق فى محاولة دءوبة للوصول إلى الصواب . محاولة الوصول للكمال، إلى أفق يمتد دائماً. وقد أبحنا لأنفسنا هنا أن نأخذ من المنطق الميتافيزيقى أو الصوفى تعبير «الكمال المطلق» الذى لا وصول إليه.

يدرك الجميع الآن أهمية الرياضة البحتة، واستمرار احتياج الإنسان الملح لها من خلال تطور آلاته وأبحاثه التى لن تنتهى، لكن لا يعايشها سوى المتخصص فيها. ونلمس نحن منجزاتها الظاهرة فقط، ومن أهمها الحاسب الإلكترونى كما سبق وألمحنا.

وإذا كنا لا نرى من الرياضة البحتة غير تطبيقاتها، إذن فهى التجريد الذى يذهب فى اشتقاقات لا آخر لها، لكن لقربها من الفن سيكون من السهل على تحديد انطباعى عنها.

الكمبيوتر والتطبيقات الرياضية

والواقع أن أهمية الرياضة البحتة ترجع إلى أبعد من هذا بكثير، ترجع إلى عمق التاريخ ذاته، إلى عمق الاهتمام الزائد بها من كهنة المعابد فى كل

الحضارات . وكان أثرها الملموس حينذاك يتضح عن طريق غير مباشر كما هو حادث الآن: من العمارة إلى التصميمات الزخرفية البسيطة بقسوة نظامها وإحكام بنائها، لكن الكمبيوتر مكننا من أن نجنى الآن ثمرة التطبيقات الرياضية فى كل وقت ومكان بطريقة مباشرة : من اتخاذ القرارات سواء كانت سياسية أو اقتصادية، ومن العلوم الإنسانية إلى استخدامات المعمارى والفنان لها.

لقد أصبح الذكاء البشرى الآن يتجلى فى إمكانية صياغة أى شئ فى قالب رياضى، وهذا ينطبق على كل المجالات، ومن المعلوم أن صياغة المشكلات العلمية بطريق رياضية تساهم عادة فى حلها وتطويرها والكشف عن نقاط ضعفها . لكن البعض كثيرا ما يغفلون أهمية هذه الوظيفة على الرغم من معايشتهم ظواهر تطبيقاتها. لكننا نلتمس لهم العذر.. فالرياضة تكوين تجريدى، ومن الصعب النظر إلى هذا التكوين كما لو كان هو والواقع الناتج الذى استنبطناه منه شيئاً واحدا . إن الاختلاف هنا- مع الفارق- أشبه بخريطة طبوغرافية لمنظر طبيعى. فمهما كان كمال هذه الخريطة فهى لن تكون المنظر الطبيعى ذاته.

إن الخريطة الرياضية تساعد الرياضى على الفهم والفعل . فحل بعض جزئياتها يقوده إلى التطبيق وإيجاد الحلول . والأمر فى الرياضة أن قلة هى التى فى استطاعتها قراءة هذه الخريطة . هذا هو منهج الرياضة الآن. وأيا ما كانت مستويات التجريد الرياضى فإنه يفضى يوما ما إلى واقع تطبيقى مهما طال الزمن. وعلى هذا يجب ألا نبتعد عن مهمة الرياضة البحتة فى الحياة . وأن ندرك أن العقول الإلكترونية على سبيل المثال، التى نجدها فى كل المجالات، ليست مظهرا أو شكلا للرياضيات، بقدر ما هى نتيجة تمخضت عن ارتباط الرياضيات بالإمكانيات التكنولوجية الدقيقة فى مجال الإلكترونيات، على الرغم من أنها بوجه عام ستظل مرتبطة بالقاعدة الرياضية، نظرا لطبيعة تكوين برمجتها.

★ ★ ★

إن غاية الرياضة كفن هى الوصول إلى المعرفة، وأن تبتكر بنيات جديدة . وعادة ما تكون هذه البنيات بداية لنظريات غير مألوفة وشديدة التجريد . إلا أنها بمرور الوقت تصبح كاملة، متكاملة، ملموسة، خاصة عندما تصل إلى مرحلة التطبيق لاستخدامات تكنلوجية جديدة . وهكذا دواليك: التجريد يصبح ملموسا ثم يصبح تجريدا من جديد. كما أن

التحقيقات الجديدة فى مجال أبحاث البنية الرياضية قد فتحت لنا طريقا جديدا للمعرفة وللفهم أكثر، ذلك عن طريق ما يسمى بـ «الطريقة البديهية» . لكننا نستدرك فنقول: إن هذه البديهية ليست على نحو ما يفهم منها ظاهرا، إنما هى جزء أصيل فى الإطار الذى يحدد عالم الرياضيات . وتأتى لحظة على عالم الرياضيات مع إغراقه وتمرسه تصبح هذه الطريقة جزءا من تكوينه، ومن الخطأ فصلها عنه وتسميتها ببديهيات. فلقد وجدت لدى الرياضى قواعد أساسية تحكمه وهو بسبيل تأسيس أية بنية رياضية.. هذه القواعد صار يطلق عليها فى الحقل الرياضى البديهيات، وإن لم تكن بالنسبة لنا كذلك.

وأكثر من عمل فى هذا الحقل، وأشدهم حساسية، «هايزنبرج» الذى تشارف حساسيته حساسية الفنان . فقد كان يستنبط النظم البديهية عن طريق الخبرة والحدس، حتى أنها تبدو أحيانا وكأنها وضعت جزافا.

وفى هذا الجانب غير المعروف نسبيا للقاعدة العريضة من الناس يكمن الكثير من معضلات وغموض الرياضيات، لكن يكمن فيه ايضا الكثير من سحرها.

ونظرا لما يرتبط به هذا الفرع من حدس وتعدد للظواهر وتطورات متغايرة ومفاجئة، نجده يتعارض مع مطلب الدقة الصارمة التقليدى الذى تمتاز به الرياضيات بوجه عام.

هذا المنطق.. منطق البداهات الرياضية يدفع بنا فى اتجاه النظرة الشمولية للكون، وهو بالتالى يمتاز بروح المغامرة التى يتسم بها إبداع الفنان . ومهما كان من شأن الحرية التى تنبع من هذا المنهج، بما تنطوى عليه من حدس وإحساس وتجل، فإن الإطار الصارم والمحدد بقوانين حادة يظل هو العامل الحاسم الذى يصل بنا إلى حقيقة رياضية.

سحر اللعبة

على أية حال فجاذبية الاتجاهات الحديثة فى الرياضة البحتة لا تقاوم لمن يدركها . لكن مثل هذا السحر يجب ألا يكون هدفا فى حد ذاته . ومع سحر اللعبة يجب ألا تضيع منا علاقتنا وحسنا بالحيز الفراغى، والاشتقاقات العددية.

وفى محيط الطريقة البدهية، أى هذا النوع الحديث من القياس، نشأت نظريات جديدة مثل : الهوموتوبيا، والنظرية العامة للمعاملات التفاضلية، والبنية الجبرية والهندسية، وكلها دراسات ذات طبيعة تخصصية فرضت نفسها وساهمت فى

إيجاد حلول لمشكلات متعددة لها طبيعة خاصة . ولسنا هنا بصدد شرح هذه النظريات، أو توضيح التطورات الناتجة عنها، أو ذكر الإضافات الجديدة التى أحدثتها فى مجالات بعيدة كل البعد عن مجالها الأصلى.

ورب سائل يسأل : وما فائدة مثل هذا الكلام لشخص غير متخصص ليس فى قدرته فهم الخطوط العريضة للنظرية وطرائقها المستخدمة ؟ ليس لدي من إجابة غير أنى أطمح إلى الإشارة إلى الأهمية القصوى لهذا الحقل . فستأتى، وربما بعد زمن قصير، تلك اللحظة التى سيحتاج فيها المرء لتعميق هذه الأفكار والمفاهيم، للربط بين الظواهر والتطبيقات فى مجالات الفنون والعلوم والتكنيك . والحقيقة أن هذه اللحظة قد أتت.

وسواء أردنا أم لم نرد سيرتبط الفن مهما طال الوقت أو قصر، بالرياضة البحتة عن طريق الكمبيوتر وغيره من الإنجازات التكنيكية . وآنذاك سنجد أن الأفكار المجردة، التى قد تبدو فى وقت ما غير مجدية، أفكار ذات أهمية ساطعة . ومن هذه الزاوية تتجسد لنا هذه الأفكار كبشير بيوم آت لا محالة، فليس من شك فى أن أية نتائج لدراسات نظرية سليمة سوف تجد يوما ما مجالا للتطبيق، وسيكون لها تأثيراتها البعيدة المدى على التطور الاجتماعى.

ومع إصرارى على استبعاد أى قدر من المصطلحات والمفاهيم المتخصصة التى أعجز عن فهمها والإحساس بها إحساسا كاملا، فإنى أتوقف عند كلمات «هيرمن فيل» التى تقول: «لكى يصل الإنسان إلى المعرفة والفهم، ويتنبأ بما سيحدث بعد ذلك عن طريق النماذج النظرية، عليه أن يلجأ إلى الرياضيات وإلى استخدام لغة التجريد الرياضى ومنهجه الفكرى ونتائجه».

ومن المدهش أن هذا البنيان الفكرى «الرياضيات» لم يقم أساسا من أجل هذا الغرض، بل كانت اللعبة غايتها اللعبة نفسها . ومن الواضح كذلك أن التطبيقات وآثارها العملية، حتى وإن كانت شاهدا على عظمة الرياضيات، إلا أنها لم تكن الدافع أصلا لعمل الرياضى.. إذن ماذا كانت تلك الدوافع؟

إنها لدى عالم الرياضيات شئ آخر.. إن دوافعه لارتياد آفاق متجددة للمجهول تكاد تماثل دوافع الفنان . فإذا حاول المرء تحديدها فسيجد نفسه مضطرا لاستخدام تعبيرات مألوفة مثل : حب الاستطلاع، الرغبة فى ارتياد المجهول، فرحة الاكتشاف، اللعب من أجل اللعبة ذاتها .

وهنا يتحول الأمر عن اللعب من أجل اللعب إلى جدية الفن، فتقترب الرياضيات فى دوافعها من الدوافع الفنية.

وكما هو الحال فى الفن فليس من السهل تحديد ما هو قيم وأصيل بدقة، إذ يدخل فى التقييم مدى النبوغ والعبقرية، وفتح آفاق جديدة، وتعميق التفاعل مع مشكلات الفن نفسه، والصياغة... وهكذا الأمر بالنسبة للرياضة البحتة، وهو ما يدفعنا إلى تصنيفها ضمن مجال الفنون، وإن كانت تفتقد إلى شئ مهم لكنه غير حاسم بالنسبة للكيف، ألا وهو القاعدة العريضة المرتبطة بالجمهور، وأما فيما عدا ذلك فالتشابه كبير بين الفن والرياضيات.

لقد أضحت الرياضيات جزءا من الحضارة التكنلوجية. وبالضبط كما يوجد فى الفن ما يسمى بالفن بالتطبيقى، كذلك يمكن أن نطلق على بعض مجالات الرياضيات «الرياضيات التطبيقية» . ولكن البعض يتحفظون على هذه التسمية، لأنهم يربطون بين التطبيق وما يرتبط به من المجالات الجديدة المهمة للرياضة البحتة، والتى هى نتائج حتمية لها، فى حين نجد أن البحث الحر فى العلاقات الرياضية يعتبر أصلا فى ذاته، كما يعتبر بعيدا عن تلك المجالات التى تهتم بموضوعات تلبى احتياجا ما لدى الانسان . لكن ما يحسم الأمر هو أن منهج التفكير واحد بالنسبة للرياضة البحتة والرياضة التطبيقية، فهما يتماثلان فى المقاييس والدقة والقيمة . ومن هنا فإن الفرق بينهما نسبى.. أو متدرج. إنهما يسيران فى طريق واحد، والحدود الفاصلة بينهما غير ثابتة، ومن الممكن أن يهبط موضوع كامل من أحد الأبراج العالية للرياضة البحتة إلى عالم الواقع، والعكس صحيح أيضا، فقد ينتقل الاهتمام من ميدان التطبيق إلى ميدان التنظير.

وهكذا الأمر فى الفن . فقد تتطور الصورة نتيجة تطور ما فى أحد المجالات التطبيقية، وقد يحدث العكس . المهم هو أن التفرقة بين الرياضة التطبيقية والرياضة البحتة أمر صعب ويمكن الاستغناء عنه أحيانا . بيد أنه من العسير إنكار أو تجاهل وجود أشكال من الصراع بين مجالات الرياضة البحتة والرياضة التطبيقية . وفى مجالنا هذا كان فى استطاعتنا أن نضرب صفحا عنها، لو لم يكن لتلك الصراعات جوانبها المؤثرة، والتى تتضح مثيلات لها أيضا فى مجال الفن ، بين الفن والفن التطبيقى.

قضايا التكنلوجيا والفن

وبالمثل بمكننا أن نلمس أوجه التباين بين البحث من أجل المعرفة، والبحث من أجل التطبيق العملى . وهو شئ لا ينبغى

أن يجعل المرء يقلل من الأهمية المرتبطة بكل ما يحيط بكل قضايا التكنلوچيا والفن. فما تصبغه الرياضيات بصبغتها قد يختلف كثيرا عن الصبغة، وعن الواقع الذى استنبطت منه . لكننا يجب أن نعترف ونقر بكل التناقضات بين المجالات التطبيقية والأبحاث النظرية، وهو لن يكون مضرا، بل على العكس نجده من قوة الرياضيات والفن فى مجالى النظرية والتطبيق.

وبصرف النظر عن تلك الأهمية البالغة، والتى فرضت نفسها بكل متناقضاتها الآن فى مجالى الرياضيات والفن وعلاقتهما ببعضهما البعض، إلا أن الأمر مازال يحتاج إلى التنوع الواسع فى مجال العمل والدراسة والبحث العلمى، ابتداء من المجالات التى تستهدف الناحية العملية وانتهاء بالنظريات المجردة التى ستحقق أهدافها وأهميتها فيما بعد. يتجسد هذا فى مجالى الكمبيوتر والتكنلوجيا، وبالتبعية، بعد ذلك، فى الفن.

إن العمل فى حقل الرياضيات البحتة يحتاج إلى حدس الفنان وحساسيته المرهفة، وهذا ما يجب ألا يغيب عن بالنا أبدا . وهكذا نجد أن منطق الرياضة البحتة صار يتداخل مع منطق الفروع الأخرى للفكر حتى تجلت أهمية الرياضة البحتة فى كل المجالات، وأصبح تغلغلها فى كل حقول الفن والفنون البديلة مسيطرا علينا فى حياتنا اليومية وأمرا مسلما به . لكن أهمية الرياضة البحتة ترتكز على أن منطق وبدهيات الرياضة دائما يدفع إلى الحس بالنظرة الشمولية للكون، من الإيقاع الذى يحدد تنفسنا، إلى الإيقاع الذى يحدد علاقتنا بمسار مجالات المجرات فى الفلك. إنه حس يقترب من الصوفية فى أبعادها النفسية وعلاقة الجزء بالكل . وهنا نستشف روعة كلمات أرسطو : من لا يشعر بالرياضيات لا يقف على قيرى . ولن أتعرض فى هذه الأسطر بالذات للعلاقة أو الفرق بين الفن والعلم، فكثيراً ما تعرضت له خلال مقالاتى السابقة . كذلك أصررت على أن أؤكد أن هناك وشائج واحدة تربط بين العلم والرياضة من جهة والفنان من جهة أخرى. وقطعا سيستفيد الفنان من تلك العلاقة، وهذا ما سيستشفه القارئ بمفرده، وهو أصلا صلب موضوعنا .

★ ★ ★

وفى القريب العاجل يستطيع علماء الرياضة البحتة فك طلاسم الحضارات القديمة، وخصوصا حضارة قدماء المصريين . وسيتضح جليا أن هذا التكامل والجمال المعمارى لم ينتج عن رهافة حس تلقائى فقط، بل عن وعى بوظيفة الفن وجماله، مع إلمام كامل بعلوم الرياضة البحتة والهندسة. وكان ذلك من أسرار الديانات القديمة، يعرفه فقط كهنة المعابد . حينئذ تتحقق المقولة أن لا جديد تحت الشمس.

الكتاب غير مجدٍ حياتي

حسين نصار

«الثقافة واحدة من الكلمات اللغوية الغريبة. فما أكثر من يستعملونها من المتكلمين. وكل منهم يرى أنه يعرف معناها حق المعرفة . فإذا اجتزنا منطقة الحديث الى النقاش حول ما تحتوي عليه من أمور ، والحدود التي يجب وضعها للفصل بين هذه الأمور وغيرها من الأمور التي لا تدخل في مجال الثقافة كان الاختلاف الكبير ، حتى قيل إن هناك ما يقرب من خمسين تعريفا لها ، وبديهي أن هذه التعريفات لا تتعارض ، وإنما يضيق بعضها ، ويتسع بعضها الآخر أحيانا ، ويعارض بعضها بعضا في مجرد التعبير أحيانا .

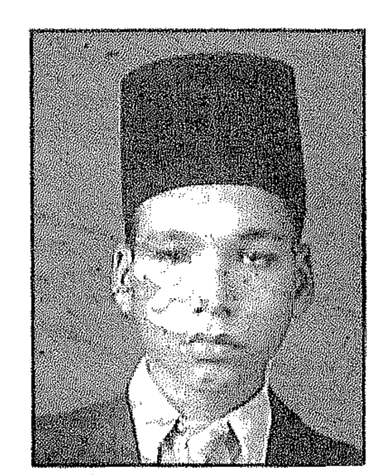
ومهما يكن الأمر فانني أنطلق في مقالي هذا من تصور أن الثقافة هي المعارف المتنوعة التى يتلقاها الانسان بشتى الطرق ، ويتمثلها ، فتوجهه في سلوكه وتصرفه .»

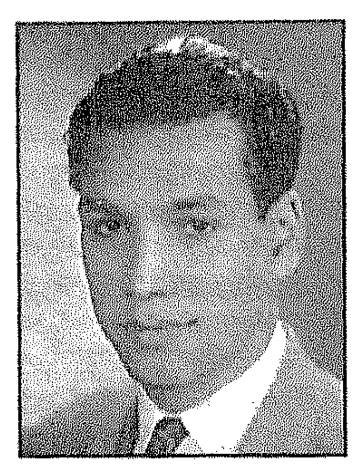


الدكتور حسين نصار

وأود أن أميز فى الثقافة بين صنفين : صنف قد أسميه ذاتيا ، وآخر مكتسبا . وأعنى ما يتلقاه الفرد - فى طفولته وصباه خاصة ثم فى رجولته - من ثقافة، تبثها فيه أسرته وأصدقاؤه ومن يتعامل معهم، فهى إذن ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه، يتلقاها دون إرادة أو جهد منه، بل قد يسعى عندما يعى الأمور إلى التخلص من بعض عناصرها.

وهذا الصنف يتلقاه الذكر والأنثى، الجاهل والمتعلم، الفقير والغنى ، مع


فى الثانوية العامة سنة ١٩٤٣


حسين نصار فى الصغر

تنويعـات يسـيـرة بينـهم، تضـاف اليـهـا تنويعـات كائنة بين الطبـقات الاجتمـاعيـة التى ينتمون اليها ، والبيئات الجغرافية التى ينشأون فيها.

إذا اتـفق القــارىء مـــعى فى هـذا التـصــور، كــان لنا الحق أن نعـتـقـد أن الطفل المصـــرى - فـى أى مــوقع ولد - يعـيش فى مـركـز ثقـافـة واسـعـة ممتـدة الأبعـاد تبـدأ مع بدء العـمران البشـرى ، وتسـتـرفـد من الشـرق والشـمـال، القـريبين والبـعـيـدين . وفى وسـط هذه الـثـقـافـة ، عشت كما عاش أترابى في مدن الصعيد من أبناء مطلع الربغ الثـانى من القــرن العشرين .

أمـا الثقافة المكتسبة فإرادية وفردية: يريدها الإنسان، ويسعى إليها، ويمتاز بها - بمدى رحـابتـهـا وتنوعهـا ومصـادرهـا - فرد عن فرد .

وهى ثقافة متعددة المنابع ، فتـحتـاج - من أجل ذلك - إلى حديث مفصل ، يستقل كل جزء منه بأحد هذه المنابع . وأحب أن أبدأ بالمنابع الضحلة عندى .

وأولها المسرح. فيمكن أن أدعي أننى قضـيت العشـرين عامـا الأولى من عـمرى دون أن أراه . فلم يكن بـالصــعـيـد كله مسـرح قـائم ، ولم يزر مـدينتى اسيوط فى هذ المدة إلا فـرقـة رمـسـيس مـرتين فـيـمـا أذكـر. وكـان المســرح المدرسى هـزيلا، لا تراه المدرسة الثـانوية الأمـيرية التى كنت أحدْ تلاميـذها إلا فى مـدد مـتـبـاعـدة كل البعد، بحيث لا تترك فى الذاكرة معلما ما.

وهكذا جـئت إلى القــاهـرة لألتــحق بالجامعة ، ولكن مصروفى لم يكن يسمح لى بالتردد على المسرح فامتدت فترة البعد عنه إلى مـا بعـد تـخـرجى فى الجـامـعـة، وتعيينى فى الإذاعة المصرية.

ولذلك نشـأت افـضل السـينمـا على المسرح .

وثانـى المنابع مـعـارض الفن رسـمـا كان أو نحتا أو غير ذلك وكان حالها فى أسيوط حال المسرح أو أكثر ظلاما . فلا أذكر أننى رأيت شيئا منها هناك. ولكن كان هناك ما يعوض هذا الفقر. فقد كان الرسم والأشـغـال اليـدوية من مـواد الدراسة . وكان القائمون عليهما - شأن جـمـيع المدرسين فى ذلك العـهـد دون استثناء - محبين لعملهم حريصين على تلامـيـذهـم ، راغـبين فى الارتقـاء بهم ومـعـهم . ولذلك عندمـا جئت الى مـدينة المتاحف والمعارض - القاهرة - كنت من الحريصين على التردد عليها، وبخاصة أنها لا تكلف إلا أجرة المواصلات اليها، وكان ذلك أمرا مقدورا.

وثالث المنابع الحـفلات الموسيـقـيـة الآلية. وكانت أشد فقرا فى أسيوط، لأنها كـانت مـعدومة تمامـا، ولكن صلة - قـدر لهـا أن تطول وتشـتـد وتتسع - نشـأت بينى وبينها فى القاهرة . فقد قدمت دار الأوبرا القديمة حفلات صباحية مخفضة للتلاميذ وهيئات التدريس مدة طويلة. ومـازالت دار الأوبرا الحديثة تخـفض اسـعـار الدخـول للتـلامـيـذ ، وتقـدم اشتراكات عائلية مخفضة للأسرة التى يزيد عمر ربها على ستين سنة.

وقد كان ما حصلت عليه من الدارين من أروع الزاد الثقافى وأمتـعه . فقد حرص القائمون عليهمـا على استقدام اشـهـر المؤلفين الموسـيـقـيين ، والفـرق وقائديها .

الكتاب وأنا

لم يكن من المتـوقـع أن يكون للكتـاب شأن أى شأن فى حياتى . فقد نشأت فى أسرة من صغار التجار، يستطيع بعضهم القراءة والكتابة ، ويستطيع بعضهم الآخر أن يكتب اسمه، ولكنه لا يستطيع أن يكتب أو يقرأ شيئا غيره، وأعتقد أن منهم من لم يكن حتى على هذه القدرة .

وأمـا جيلى أنا فـيتكون من اثنين من أبناء الأعمام لم يتجاوز أحد منهم التعليم الابتدائى أو ما يشبهه .

وإذن لم يكن فى بيتنا الكبيـر- فـقد كان البيت يضم اعمامى جميعا إلا واحدا هـاجـر الى القـاهرة فى وقت لا أدريه - وإذن لم يكن فى هذا ا لبيت الكبير، فيما أعتقد غير القرآن الكريم .

ولكن أبى كان ذا طموح خاص دفعه الى أن يلحقنى بالتعليم الابتـدائى ومـا بـعـده ، على الرغم من أنه لم يكن أغنى إخوته ، بل كان منهم من يفوقه كثيرا .

ووصلت فى التـعليم الابتـدائي إلى السنة الثالثة، فوقع الحدث الذى كان له أثر واضح فى مجرى حياتى. فقد كان مدرس اللغة العربية شابا حديث التخرج فى دار العلوم، يمتلىء حـبـا للعـربيـة ، وحماسا للتعليم، ورعاية لتلاميذه.

طلب من كل واحـد منا أن يعطيـه

عشرين خردة (تعريفة بلهجة القاهرة، أو نصف قرش)، فأعطيناه ذاك فاشترى بما جمع منا عددا من الكتب جعلها نواة لمكتبة فصلنا وكرر هذا الفعل كل شهر فيما أذكر .

ومن الطبيعي أن كل واحد منا حرص على أن يقرأ هذه الكتب التي أنفق فيها مصروفه الخاص، الذي كان سيشتري به ما شاء من الحلوى.

ثم أحبني هذا المدرس حبا كبيرا ، يغلفه إعجاب قوي بما اعتقده فيّ من تميز.

ومن هذا الوقت عرفت الطريق الى القراءة ، وعرفت معه أن احترام الانسان - ولو كان صبيا في مقتبل العمر - لنفسه، ولعقله، وسعيه الى التميز، هي الأمور التي تكسبه حب من حوله وإعجابهم وقد تدفعهم الى تقديم العون له إن احتاج إلى شيء منه .

ومضت الأيام والتحقت بالمدرسة الثانوية وإذا بي أكتشف أن في أحد الشوارع المتفرعة عن طريقي الى المدرسة مكتبة تبيح القراءة فيها مجانا وتدعى مكتبة البلدية، فجعلتها مقرى الدائم طيلة الإجازات الصيفية الخمس، بل وبعد أن التحقت بالجامعة ، منذ أن تفتح أبوابها صباحا إلى أن تغلقها قرب العصر.

ولم يكن قد تبين لي هوى معين في القراءة ، فكنت أقرأ كل ما تقع عليه عيناي، وتصل اليه يداي . ولا أذكر مما قرأت في هذه المدة إلا كتابا على وجه اليقين ، وبعض القصص إن صحت الذاكرة.

أما الكتاب فهو دراسة الاستاذ محمود محمد شاكر للمتنبي ، وهو دراسة قيمة زادها مؤلفها قيمة في الطبعة الثانية ونال عليها جائزة الملك فيصل العالمية، وما أظن أن سبب تذكري لهذا الكتاب احساسي بقيمته ، وأنا في هذه السن المبكرة . ربما كان السبب اتصالي بالمؤلف بعد ذلك ، وقيام علاقة متينة بيني وبينه، ولكنني أعتقد أن ذاك كان أحد مشجعات التذكر وليس دافعه، وإنما الدافع شخصية المتنبي التي تصلح لأن يفنى فيها المراهق، ويتخذ منها قدوة ولو قدوة فكرية وجدانية .

وأما القصص ، فقد كنت أقرأ مثل غيري من أبناء عمري مغامرات أرسين لوبين وشرلوك هولمز ، ولكن ما أعنيه مجموعة الروايات الرائعة التي قام بترجمتها كبار المترجمين من أدباء مصر، وأصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وعرّفني صديق لي يكبرني من طلبة الأزهر بمجلة الرسالة، ثم أتاني في أحد الأيام بكل ما كتب مصطفى صادق الرافعي فيها ، فاحتجبت يومين أو ثلاثة لا أفعل شيئا غير قراءتها ، لأفرغ منها سريعا ، وأعيدها إلى صاحبها . وأذكر أن كثيرا مما كتب كان يبكيني أو يكاد .

المسابقة

وأخيرا فتح لي الكتاب فرصة العمر التي غيرت مجرى حياتي تغييرا تاما، فقد



د.حسين نصار مع ابنه ايمن نصار الذى اصبح استاذا بطب بنها، وابنه ياسر نصار الأستاذ المساعد بطب قصر العينى



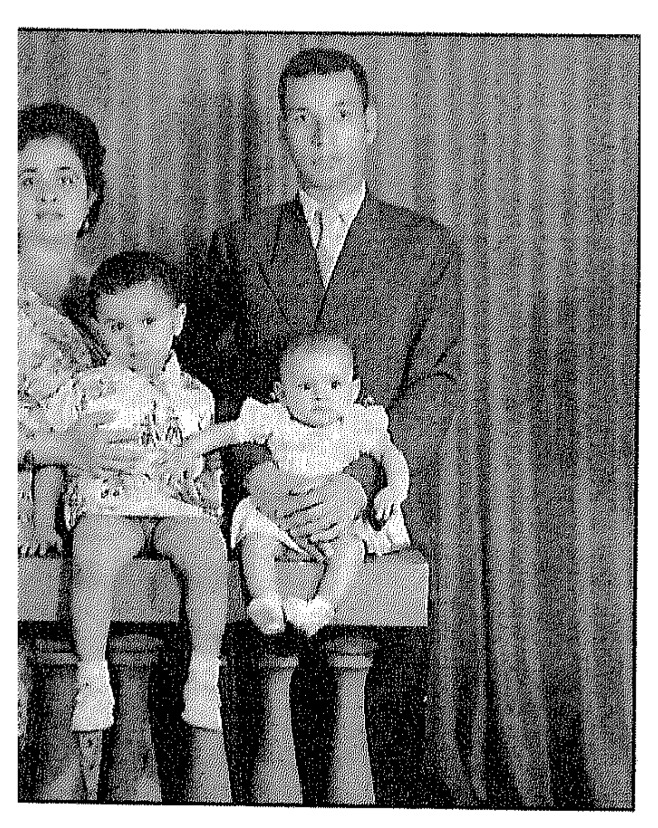
لقطة بمعهد الفنون المسرحية عام ١٩٨١، الدكتور حسين نصار مع زكى طليمات وعبد الحميد توفيق زكى

وصلت إلى الثانوية العامة. وفى أثناء العام الدراسى أعلنت علينا المدرسة ما كان يسمى فى ذلك الوقت المسابقة. وكانت تدعو الطلاب أن يختار الواحد منهم مادة من مواد الدراسة ، ليؤدى فيها امتحانا خاصا، فإذا اجتازه بتفوق، منح مجانية التعليم الجامعى فى أى كلية التحق بها . وكان هذا الامتحان يفرض على المتقدم للدراسة كتبا محددة ، لا صلة لها ببرنامج الدراسة . وقد اخترت مادة اللغة العربية ، وحصلت على المجانية فى السّنوات الأربع التى قضيتها فى الجامعة. ودون هذه المجانية ربما تعذر علىّ التعليم الجامعى .

وكان الفضل فى ذلك للدكتور طه حسين الذى أنشأ هذه المسابقة عندما كان مستشارا لوزارة المعارف، ثم للدكاترة زكى مبارك الذى تناول الكتب التى حددت لنا فى المسابقة بالتحليل والنقد فى صحيفة البلاغ، وقبل ذلك لحبى للكتاب .

وأعتقد أن ابتدائى فى الاطلاع غير المحدد فى سن مبكرة ، قبل أن تتضح الميول، وتحكم قبضتها على صاحبها ، هو الذى جعلنى - فى حياتى كلها - أتوسع فى القراءة ، ولا أقتصر على تخصص معين لا أعدوه الى غيره .

قد يظن بعض القراء أن مثل هذه الحياة لم تعرف الهواية ولا المرح، ولم تحظ بقسطها من الطفولة والصبا، وأننى أحبذ ذلك. وهذا تفكير مخطىء كل الخطأ فقد كنت ألعب كرة القدم فى مدرستى الثانوية إلى أن أصبت فى قصبة ساقى



مع الأسرة ، حسين نصار والزوجة وابناهما أيمن وياسر عام ١٩٦٠

إصابة بليغة فاضطررت الى الابتعاد وكنت أتردد على دار السينما الوحيدة فى اسيوط مرتين أسبوعيا، لأنها كانت تغير البرنامج فى منتصف الأسبوع بسبب كونها الدار الوحيدة. وكنت عضوا دائما فى الرحلات أثناء التعليم الجامعى. وعندما بلغت السنة الرابعة انتخبت رئيسا لجمعية قسم اللغة العربية التى كانت تشرف على جميع ألوان النشاط الثقافى والاجتماعى والترفيهى .

وفى أثناء المرحلة الجامعية ، كانت مكتبة الجامعة العامة - وهى إلى اليوم تقف إلى جوار مبانى كلية الآداب، وكنا نظنها حينذاك تابعة لها - كانت هذه



فى العراق عام ١٩٦٥ ، د. حسين نصار مع طالبات وطلاب كلية الآداب جامعة بغداد

المكتبة مقرى فى كل أوقات الفراغ فى الصباح ، وكانت دار الكتب مقرى فى المساء ، إذ كنت أسكن فى حى الحسين وكانت هى فى باب الخلق . وقد وصل الأمر الى أن كثيرا من الناس كانوا يظنوننى موظفا فى دار الكتب ، وأن صداقة خاصة ربطت بينى وبين العاملين فى المكتبتين . بل كان أملى عندما تخرجت أن أعين فى إحداهما إن لم يقدر لى أن أكون معيدا بالكلية. ولكن القدر كان يخبىء لى اختيارا هو الإذاعة .

وفى المرحلة الجامعية وبعدها عرفت الطريق الى الكتاب الانجليزى. فقد كان الكتاب من سلسلتى پليكان Pelican وپنجوين Penguin بخمسة قروش، فكان فى الإمكان شراء الواحد من مدة إلى أخرى. وإلى جانب ذلك ، كانت القاهرة تمتلىء بالكتب التى كانت القيادة الانجليزية تصرفها للجنود، فيبيعونها بعد الفراغ من قراءتها ، فنشتريها نحن من المكتبات التى انتشرت فى شارع طلعت حرب وقصر النيل، الواحد بقرش واحد أو بقرشين .

خطة لشراء الكتب

وبعد أن صرت أحد العاملين فى الدولة، وصار لى راتبى الذى أستحقه عن عملى، وصار لى - الى جواره - نشاط فى المجلات والإذاعة يجلب لى دخلا آخر، خصصت ٥٪ من دخلى البعيد عن راتبى لشراء الكتب أستقطعها فور تسلم ما



د. حسين نصار مع مجموعة من طالبات وطلاب كلية الآداب جامعة القاهرة

أستحق، وأضعها في مظروف خاص ، لا أخلطها فيه بأي نقود أخرى، ولا أنفق منها شيئا مهما صغر في غير شراء الكتب. وهكذا صارت مكتبتي على شيء من الغنى.

وقد أفدت افادة واسعة من أسفاري خارج مصر الى السعودية والعراق والسودان لأعمل في جامعاتها . ولما كنت وحيدا فقد كنت أقضي وقتي كله في مكتبات هذه الجامعات أو في شقتي أقرأ ما استعرته منها .

وتستحق رحلتي الأولى إلى السودان ذكرا خاصا، فقد كنت واحدا من أربعة رجال كلفوا بإنشاء أربعة أقسام من أقسام كلية الاداب في فرع جامعة القاهرة في الخرطوم فكلفني أ.د.عبد العزيز السيد المدير الأول لهذا الفرع، بالتردد على مكتبات القاهرة ، واختيار ما أجد فيها من الكتب العربية والانجليزية التي تثرى الدراسة في قسم اللغة العربية وآدابها ، ففعلت. ووصلت الكتب إلى الخرطوم في وقت لا يحسب قِصَراً، وما أسرع ما افتتحت المكتبة . فَعكفت على قراءتها كلها، رُفاً بعد رُفٍّ لأنني كنت أنا الذى أختارها كما قلت .

وتقدمت السن وكثرت المشاغل، فصرت أبحث في عناء عن وقت مهما قصر لأمضيه في قراءة حرة، فأكاد لا أجد. لا أقول إني لا أقرأ، لا ، ولكنى أقرأ ما أكلف به للفحص والجوائز والترقيات ، وما

تجبرني عليه كتابة مقالاتي وكتبي. وإنما ما افتقدته هو القراءة البعيدة عن ذلك، وترضي رغبتي ، وتشبع وجداني وتثرى فكري. ولذلك فإن نصيحتي الى الشباب أن يكثر من القراءة ويكثر. لا ملل ولا كلل، فإن الشباب هو وقت التثقيف الواسع.

وكانت مكتبتي تقتني - اضافة الى الكتب - عددا من المخطوطات والمصورات والميكروفيلمات . ولكنها - لما كانت تحتاج الى معاملة خاصة لا يمكن أن أوفرها لها - أهديتها الى دار الكتب ومكتبة الجامعة.

وأعتقد أن ما تحويه مكتبتي من تراث عربي أدبي ولغوي ذو قيمة خاصة . وإضافة الى ذلك لا تفتقد عنصر الجمال الفني ، الذي يتجلى في عدد من المصاحف ذوات الإطارات التي افتنّ فيها رسامون بارعون، ويتجلى في الكتب التي تضم صورا لذخائر الفن الفرعوني في النحت والرسم، وذخائر الفن الإسلامي في الخط والعمارة، وذخائر كبار المصورين الأوروبيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

لقد علمني الكتاب كثيرا، ومن أهم ما وهبني القدرة على الانسحاب من الحياة الصاخبة. فجعلني أقدر على أن أفقد الشعور بما يدور حولي من صخب، وألجأ الى القراءة بل والكتابة في النوادي والمقاهي ، وفي البيت وأبنائي الصغار يمرحون في حجرتي .

قد يتساءل قارئ : أهذا مقال عن الكتاب في حياتي أم هو مقال عن حياتي؟

ولا فرق، فعضو هيئة التدريس الجامعي في الدراسات الإنسانية ، والأديب، والمثقف ، يجب أن يكون الكتاب حياته .

وهواي الحق، والأول ، ومتعتي في الحياة، والمنبع الثرى لما يشاء الإنسان من ثقافة.. أعني الكتاب .

لا أطعن بذلك في وسائل التثقيف الاخرى من صحف ومجلات وإذاعة وتليفزيون ، فإنها ضرورية بل لا يعادلها الكتاب في بث الثقافة العامة في السنوات الأولى من الطفولة . وما أبعد الفرق بين معارفنا الفقيرة في طفولتنا والمعارف التي تخترق أسماع أطفال اليوم، وتقع عليها عيونهم على شاشات التليفزيون .

ولكن الكتاب لا يفرض على المتلقي شيئا، وإنما يقدم له ما يختاره أو ما يحتاج اليه . والكتاب لا يجبره على وقت محدد يتلقى فيه وانما يترك أمامه الوقت فسيحا ليختار منه ما شاء. والكتاب يحتاج الى إعمال الفكر في أثناء الاطلاع عليه ليتم الفهم . ويؤدي هذا الإعمال الى تهيئة الذاكرة لتحتفظ به ، وتخلطه بقديم ما تلقت، بل قد لا تكتفي بالخلط وتتجاوزه الى المزج والدمج ، فتنشأ تصورات فكرية جديدة. وهذه جهود لا تقتضيها سهولة المنح ، وبخاصة من الإذاعة والتليفزيون وما أشبههما .

ومن حسن حظ شباب اليوم أن يكون لديهم فرقة الاوبرا السيمفونية، وفرقة المعهد العالى للكونسرفتوار ، فى الموسيقا الغربية وفرقة الموسيقا العربية. وفرقة أم كلثوم، فى الموسيقا العربية .

وينطبق كل ما قلت عن الموسيقا على الباليه. وقد شهدت مصر بعد إنشاء أكاديمية الفنون نهضة واضحة فيه وفرقة متقدمة ولكن الرعاية انحسرت عنه فى فترة لاحقة كان لها أثرها الى اليوم. ولعل الأكاديمية تستطيع أن تخلص من هذه العثرة، وأن تعنى بشباب المعهد ، وتستقدم لهم المتيسر الآن من الفنانين الروس ، لتستعيد نهضتها بل لتصل الى ما هو أرقى .

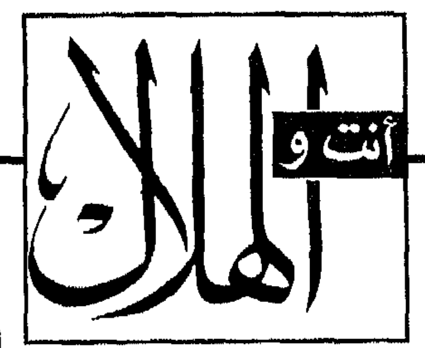
ويصل بنا الحديث الى الصناعات الشعبية وإن لم تجد حيزا فى حياتى، على الرغم من مولدى فى مدينة صناعة السجاد والعاج. فالدول المتقدمة تعنى بهذه الصناعات عناية واسعة من أجل التشجيع والتطوير والتجديد. وقد شاهدت بعض آثار هذه العناية فى إيران فى العهد الملكى، وخصصت له جائزتين من جوائز أكاديمية الفنون العشرة .

أما السينما فقد كانت هواى منذ وعيت إلى نفسى . فقد كان فى أسيوط دار شتوية للسينما، وأخرى صيفية، وكانت كل منهما تقدم فيلمين فى الاسبوع. وكان سعر الدخول فى مقدورنا للدخول فى الفيلمين. ولذلك كانت السينما موضع نزهتنا ومتعتنا الوحيد .

كانت نافذة اطلعنا منها على أكبر مدن أوروبا وأمريكا، وعلى الحياة فيهما بما تنطوى عليه من أسر وأفراد ومجتمعات ومشاكل وآمال وعواطف.. إلى آخر ما تعنى به الرواية السينمائية .

وقد انتقل حبى للسينما للقاهرة. واتصل ترددى على دورها التى تعددت وتنوعت واختلفت اهتماماتها. ولا أنسى سينما قاعة يورت فى الجامعة الامريكية، فقد قدمت لنا روائع السينما العالمية بأسعار زهيدة. ومن حسن حظ شباب اليوم انشاء نوادى السينما، العامة والخاصة، فى بعض النقابات والأندية. فإذا كنا نحن نشأنا على السينما الامريكية والانجليزية، وفى القاهرة عرفنا الفرنسية والإيطالية ، فقد اتسع المجال بعد ذلك، وكاد يشمل العالم كله. ولنادى السينما وبرنامج أوسكار فى التليفزيون فضلهما الكبير فى هذا المجال .

ولم أنقطع عن التردد على دور السينما إلا عندما تغير جمهور مشاهديها وساء تصرفهم ، وامتد بى العمر، وعوضنى التليفزيون عنها .



البابا .. والرحلة التاريخية

عالجت «الهلال» الرحلة التى ينتوى بابا الفاتيكان القيام بها ويتتبع خلالها خطى سيدنا إبراهيم بموضوعية وبشكل علمى محدد، فضلا عن أنه يواجه بعدد من المشاكل، بعد أن أعلن نيته لزيارة الشرق الأوسط.

فسوف يزور بيت لحم بناء على دعوة وجهها إليه ياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية، ولا يرحب الاسرائيليون بزيارته لمدينة الناصرة، كما يعارض الامريكيون بشدة زيارته إلى العراق.

ومازالت زيارته للجزيرة العربية محل بحث ودراسة .. فهل تذلل هذه العقبات، ويقوم البابا بهذه الرحلة التاريخية .. «رحلة العمر» ؟!

زياد أحمد
إيطاليا - روما

الهلال وعصر من التنوير

لاتزال مجلة الهلال تلعب دوراً ثقافياً خالداً فى صياغة العقل العربى، ومحاولة العودة به إلى عصر التنوير ثانية، وذلك بما تجمعه فى مادتها بين الأصالة والمعاصرة وذلك من خلال صفوة أساتذة الجامعات المصرية والأدباء والصحفيين.

ولكن لا أعلم السر فى إفتقاد مجلتنا الغراء إلى المقال ذى الطابع الإنسانى، وعندما أقلب فى مكتبتى القديمة أجد أعداداً بأكملها تخصص عن قضية إنسانية مثل الحب، ففى عدد الهلال سبتمبر سنة ١٩٤٩ نجد الأستاذ العقاد يتناول فى مقاله «هل المرأة خالدة؟» وفى نفس العدد نجد لمحقق التراث الكبير أحمد أمين مقالاً عن «هل الغيرة عمياء؟»، كذلك فقد افتقدت مجلتنا الغراء إلى التسلية والمرح وأحدث الاختراعات والنوادر حيث كانت توضع فى هوامش المجلة، كذلك فقد غابت عن صفحات الهلال «ندوة الهلال» والتى كان يلتقى فيها أساطين الفكر والأدب فى مصر والوطن العربى حيث يناقشون قضية ثقافية ويدلى كل مثقف بدلوه فى هذه القضية، أضف إلي ذلك عدم التركيز على مشكلات الشباب الاجتماعية على العكس مما كان يحدث من رد د. أمير بقطر عميد كلية التربية بالجامعة الأمريكية على مشاكل الشباب ووضع حلول عصرية لها. فما أحوج الشباب لمثل هذا الباب على صفحات مجلتنا الغراء !

علاء الدين عمرو حمودة
كلية الاعلام - جامعة القاهرة

أنت والهلال

الهلال : ياسيدى لماذا لا تتوقف أمام المقالات التى يتناولها د. عبدالعظيم أنيس ود. أحمد مستجير فى العلم والهندسة الوراثية، وأيضا مقالات الدكتور مصطفى سويف والدكتور أحمد أبوزيد ود. جلال أمين وتضم أغلب ما ذكرت حول المرأة وقضايا المجتمع والتعليم .. ويكفى هذه المقالات التى نالت جائزة فى معرض الكتاب هذا العام.. ماذا حدث للمصريين للدكتور جلال أمين.

لابد من مسايرة التطور الذى يحدث، فضلا عن إصدارات كثيرة لدار الهلال تقوم بهذا الدور إلى جانب دور مجلة الهلال .

نداء

أنادى كل مصرى ومصرية	نداء العقل للنفس الأبيه -
لنجعل نصب أعيننا جميعا	بناء قرى الزروع السندسيه
تضاف إلى قرى قامت وأخرى	يد البناء أبقتها بقيه
نعبىء فى الشباب لكى نراها	تفيض بما يصون الآدميه
إلى الصحراء ما وجدت مياه	بباطنها وما دامت سويه
إلى سيناء أو توشكى تعالوا	لتبقى جنة الدنيا فتيه
لنبنى منزلا ونمد حقلا	يلبى حاجة ليست خفيه
نواجه حاجة الأبناء زاداً	نواجه للبطالة فى المعيه
عدا هذا نعيش على استيراد	يقوض من إرادتنا القويه
وساوى المال مكتنزا حبيساً	بناء الدور في أرض عفية
وما أغنى عن الإنتاج شيئا	ولا فض الزحام كأولويه
ولا هدأت نفوس الناس بالاً	وزاد البؤس فى عيش البريه
رغيف الخبز يقنع كل حى	بغير الخبز لا معنى لحرية

السيد عصر
منشية الرحمن - الفيوم

ثورة عبدالناصر وأحلام الشعب

قرأت بشغف مقال الدكتور فكرى اندراوس «عبدالناصر والموضوعية الغائبة» المنشور بعدد إبريل ٩٩ من مجلتنا الهلال، وتعليقى على بعض النقاط كالتالى :

١ - من عاصر حكم عبدالناصر يرى بالفعل أن الشعوب العربية ومعها شعوب أخرى

كانت تعيش فيما يمكن أن نسميه «بالحلم الجماعى» يتمثل فى القومية العربية، والوحدة، والتحرر، وليس هذا بالأمر الهين الذى يمكن التخلى عنه بسهولة.

٢ - صناعة الآلهة ليست صناعة مصرية خالصة، فهذه صناعة تختص بها معظم شعوب المنطقة التى تعودت منذ نشأتها على الملكية - ممالك الفينيقيين والحيثيين والفراعنة والفرس والعرب.. إلخ.، فحتى الشعوب التى تتمتع الآن بالنظام الجمهورى يتنامى بينها وبين حكامها ما يمكن أن نسميه بالتعود أو العلاقة العاطفية، بحيث يصبح من الصعوبة بمكان أن تتخلى هذه الشعوب عن حكامها أو يتخلى الحاكم عن شعبه !.

٣ - لقد كانت ثورة عبدالناصر متوقعة وضرورية، بعد سنوات من الاستعمار، لهذا فقد حدث هناك نوع من التزاوج بين أحلام عبدالناصر وأحلام شعبه، لهذا أيضا كانت الانجازات والأخطاء مشتركة بين الاثنين، والأسباب التى أدت إلى النجاح أو الفشل مشتركة أيضا .

٤ - إن الديموقراطية، مسئولية مشتركة بين الشعوب وحكامها، فلا يسأل عنها الحاكم فقط بل الشعوب كذلك «وبمثل ما يكونون يُولى عليكم!».

فلا يمكن أن نتصور مثلا أن يتولى حكم أمريكا زعيم مثل جمال عبدالناصر، أو يتولى الحكم في بلد من بلدان المنطقة العربية رجل مثل كلينتون .

عادل شافعى الخطيب
عضو اتحاد الكتاب

نــــــار

بيدى أهرقت الكيروسين على جسدى

وهرعت إلى عود الكبريت..
بيدى أمسكت النار إلى الأبد
وتركت لها نفسى بيدى
ناديتُ النار بأشواقى .. وصرخت بها من أعماقى
ياناري : إنى مشتاق .. بل إنى أكبر مشتاق
ياناري:
كونى حراً وحروبا .. كونى موتاً وغروبا
فأنا المفتون الصبُ أنا .. لن أندم يوماً وأتوب

ياناري : إني مشتاق .. بل إني أكبر مشتاق
أشباح الليل تخوفني .. وضياؤك دوماً ينصفني
فأسير ولا أرهب ليلاً .. قد كاد - بدونك - يتلفني

عبدالعزيز محمد الشراكى
المنصورة - مدينة الفردوس

الاختطاف

فى عدد مارس ١٩٩٩ كان موضوع «الاختطاف» هو الذى اهتمت به الهلال وكان أيضا موضوع الغلاف والمقال الأول، وأبرز ما فى هذا المقال الشيق تميزه كمعالجة لحدث سياسى شغل العالم، وأبرز كل الطرق التى نراها فى عمليات الاختطاف الشهيرة، وآخرها ما حدث لعبدالله أوجلان.

إنه بحق قدم عملا فكريا واستفدنا من هذه المعالجة.

على محمد أحمد
الاسكندرية

قرارات الزمن الثقيل

من أراد أن يصعد بالانسانية
الى قصورها العليا يُنفى
ويمحى من الوجود
عند حلول القرن الواحد والعشرين
تقطع أوردة الشعراء
واحدا واحدا ..
تلك هى قرارات الغد
ثقيلة هى أثقل من همومى
أقرت بها البشرية
عندما تحاميت لمبادئ
آبادها الناس
عندما تشدقت لمشاعر بيعت

في أسواق العشق الكاذب
أقرت بها حبيبتى
عندما احتفظت بالجريدة التى امسكتها
فى درج مكتبى
قالوا وقالت
أصبح من أنصار التمرد السياسى
ماذا لديك ياسياسة المستقبل
غير سرقة النعال أثناء الصلاة
غير إبادة الإنسان
عندما يدرك أنه إنسان ..

تامر العفيفى

خاطرة :
« لا خوف عليه »

أتعرفين لم ، صرخت بين قدمى أمى ؟

كنت أتوقع أن أراك بانتظارى فى حجرة الولادة ! كان جزعى عليك يفوق التصور. أدرت عينى فى الفضاء لم أر شيئاً الاّ أنف القابلة كهراوة شرطى، فارتعبت وتقطعت أنفاسى، وكدتُ أموت.. تناولتنى القابلة من ذراعى وعلقتنى كقطة ميتة، وانهالت ضرباً على قفاى .

آه ياأمي .. آه ياحبيبتى .. أين أنت خذينى إليك ، أوجعتنى هذه العجوز الحمقاء .

أخذتنى رعدة من البرد، كل شيء من حولى مخيف.. ساءلت نفسى: ترى أهؤلاء القومُ يسكنون المنجمد؟ وتمر ساعة.. وأخرى، وأنا بانتظارك ياحبيبتى .. أبكى بجزع محموم، وصوت القابلة يزعجنى .. يثير بى رغبة للفرار!! : ويلك ياملعون.. ما بك؟ شويتنا بسياط زعيقك، ماذا تريد ؟

نظرتُ ناحية أمى .. كانت المسكينة تغطّ فى غيبوبة وصمت، ووجهها يعلوه الشحوب. قلت : أريد حبيبتى، إنها تنتظرنى فى الصالة. غير أن القابلة لم تفهم ما أريد! دثرتنى بخرقة وكتفت يدى ورجلى وشدت حول جبينى عمامة من قماش خفيف، كادت أن تحجب الرؤية والقتنى فى السرير، وألقت علىّ ملاءة ، وولت إلى بيتها تشيعها بعض النسوة،

وهى تقول :

لا خوف عليه، إنه رجل عنيد، يرفض أن أشد رجليه ويديه ويكلمنى بلغة لا أفهمها، بعد ساعة سيهدأ، عندما تفيق أمه وتأخذه إلى صدرها .

سامى جبر يعقوب
الجماهيرية الليبية - هون

أبوح لمن ؟!

أبوح لمن ؟!
وكل الأماني استدارت
ودارت رحي الخطوب
وضاع الطريق
وصار الفؤاد حطاما
وهذى الحياة غروب
غروب
وكل الليالى استطالت
وطالت أيادى السهاد
وأنت .. أطلت علىّ البعاد
أبوح لمن ؟!
وأية أنثى أراها
أقول : سعاد !

محمود المصلى
شربين - دقهلية

التاريخ والمؤامرة

فى إحدى مقالاته يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل: «أنا من مدرسة تؤمن بأن التاريخ ليس مؤامرة ولكن المؤامرة قد توجد فى التاريخ»..

وترونى أميل كثيراً لهذا الرأى، إذ أنه ليس من المعقول أن كل ما يقع فى الشرق من أحداث هو نتاج مؤامرة من صنع العقل الغربى.

أذكر أن أحد الأصدقاء قال لنا ذات مرة أن بعض الشرقيين يظنون أن الرجل الغربى

يستيقظ فى الصباح الباكر ولا هم له سوى التفكير فى حياكة مؤامرة جديدة ضد الشرق !!.

وهنا لا أنفى وجود المؤامرات ولكن ليس إلى هذا الحد المبالغ فيه.. ليتنا نفكر بصورة أكثر منطقية وأكثر واقعية فى تفسير أحداثنا ..

ليتنا نطرح نظرية المؤامرة بعيداً تلك النظرية التى صارت موجودة بشكل شبه دائم فى كتابات وتحليلات كبار كتابنا وصحافيينا إذ ساد التفسير التآمرى للأحداث وصارت المؤامرة هى الشماعة التى تُعلق عليها الأحداث.. فالتاريخ وكما علمنا الأستاذ هيكل ليس مؤامرة ولكن المؤامرة من الممكن أن توجد فى التاريخ.

رامى عطا صديق
كلية الاعلام - قسم صحافة

« لا تغتم »

هى ليست أول أحزانك
هى ليست آخر أحزانك
هل تعرف أحزانك كم ؟
فلسوف تسلمك الأيام من همٍ
إلى حيث يكون هنالك همْ
فأنا لا أعرفُ كيف السيفُ يُسلْ
لكنى أعرفُ - سيدتى - كيف الوردُ يُشم
أنا لا أقدرُ أن أشعل ثورة ...
للثورةِ جانبها المؤلم
كذابٌ من يزعُم أن ليسَ بالثورةِ دمْ
أنا رجلُ أطيب من ظنك
أخيب من ظنك
أنا رجل أشبه بالأم
رجل يعرف كيف يذوب - كل مساء - للأطفال حكايا
رجل يعرف كيف يهدهد - كيف يضم
لا تغتَم

على شندى - القاهرة - المعادى

اليوم الأخضر

هناك مناسبات كثيرة تذكرنا بالحب والترابط .. ففى اليابان يحتفلون باليوم الأبيض فى منتصف مارس من كل عام، وهو مثل احتفالنا فى مصر بيوم الحب..

أهم ما يقدمه اليابانيون فى احتفالهم باقات الزهور تعبيرا عن عميق الحب.. الزوج لزوجته، والعامل لرئيسه والابن لأمه. نتمنى أن يكون لدينا يوم مثل هذا اليوم نقدم فيه الزهور والورود التى تعد فى قيمة الذهب وأغلى الهدايا التى اعتدنا تقديمها فى عيد الأم وعيد الحب، وليكن هذا اليوم هو «اليوم الأخضر»

سامح ميخائيل - كلية الاعلام - جامعة القاهرة

ردود للأصدقاء

● أحمد نادى عبدالرحمن بهلول - المندرة بحرى - ديروط - أسيوط : شكراً على مساهمتك بقصيدتك «نشيد بلادى» .. ونرجو أن تصلنا مساهمات شعرية تكون مضبوطة فى الوزن .

● د. أحمد عبدالحافظ عبدالباقى - منيا القمح - شرقية : حديثك عن «دور الطب فى البيئة الصحية» له أهمية خاصة فعلا لكن العناصر التى ذكرتها فى كلمتك غير مترابطة.

● علاء العوانى - طنطا - سيجر : قصيدتك «بقايا» هى محاولة كما ذكرت فى رسالتك، وهى تحتاج لمحاولات كثيرة حتى تتحقق لها عناصر القصيدة ! .

● عاصم فريد البرقوقى: حرصنا على تقديم «العلم والهندسة الوراثية بالكاريكاتير» كنموذج قدمه الدكتور أحمد مستجير من خلال كتابه ، لكى يبسط هذا العلم ويوضحه لكل مهتم بهذا المجال المهم .

● ابتسام عبدالوهاب عز الدين -زفتى - غربية : شكرا على كلماتك الرقيقة الخاصة بالهلال، والتى تصدر منذ سبتمبر ١٨٩٢ وعمرها يصل إلى ١٠٧ أعوام وهى أولى المجلات الثقافية التى أدت دورا مهما فى رسالة التنوير للعالم العربى كله ..

أما محاولاتك النثرية والشعرية فنتمنى أن تهتمى بها لكى ترقى إلى مستوى النشر.



الكلمة الأخيرة

حسابات الأطلنطي الخاطئة

د. عبدالعظيم أنيس

فى خطاب الرئيس كلينتون المتلفز يوم ٢٤ مارس الماضى ، حدد أهداف الهجوم الجوى لحلف الأطلنطي على يوغوسلافيا كما يلي بالحرف الواحد !

الهدف الأول : نحن نضرب لحماية الآلاف من المواطنين الأبرياء في كوسوفو من الهجوم الصربي المتصاعد .

الهدف الثانى : أن نبعد الصراع فى كوسوفو عن زعزعة الاستقرار في الدول الصديقة المجاورة (يقصد ألبانيا ومقدونيا) فهذه الأقطار سوف تتضعضع بموجات المهاجرين اللاجئين من كوسوفو بسبب الاضطهاد الصربي لهم .

الهدف الثالث : إن حلف الأطلنطي تدخل بهدف منع وقوع حرب أكبر، لاخماد برميل بارود فى قلب أوربا انفجر مرتين في هذا القرن وأدى إلى كوارث عالمية .

والآن وقد مضى على هجوم الأطلنطى عدة أسابيع نتأمل الهدف الأول المعلن ، فلا نجد أن حلف الاطلنطى قد نجح فى حماية ألوف اللاجئين بل فى الحقيقة أدى إلي تشريد نحو نصف مليون من سكان كوسوفو ، في العراء دون أن يتوفر لهم شيوخا ونساء وأطفالا أى رعاية تليق بهم كبشر سواء من الغذاء أو الرعاية الصحية ، بل إن وكالات الأنباء أذاعت مؤخرا أن صواريخ الأطلنطى وطائراته ضربت عن طريق الخطأ قوافل سيارات اللاجئين الذاهبة إلى ألبانيا فقتلت فى حادثة واحدة ٧٥ من اللاجئين وجرحت أكثر من خمسين ، وقال بعض اللاجئين فى أحاديثهم لتليفزيون M.B.c أنهم حائرون بين اضطهاد الشرطة الصربية لهم ، وبين هجوم طائرات الأطلنطي عليهم ، وهم يهربون .

فإذا جئنا للهدف الثانى الذى ذكره كلينتون ، فسوف نجد أن هذه الدول الصغيرة بالذات هى التى امتلأت باللاجئين وبالتالى تعرضت – ومازالت – لهزات شديدة فى اقتصادها .

أما الهدف الثالث فهو إدعاء سخيف يدل علي أن كلينتون قد نسى مبادىء تاريخ القرن العشرين.

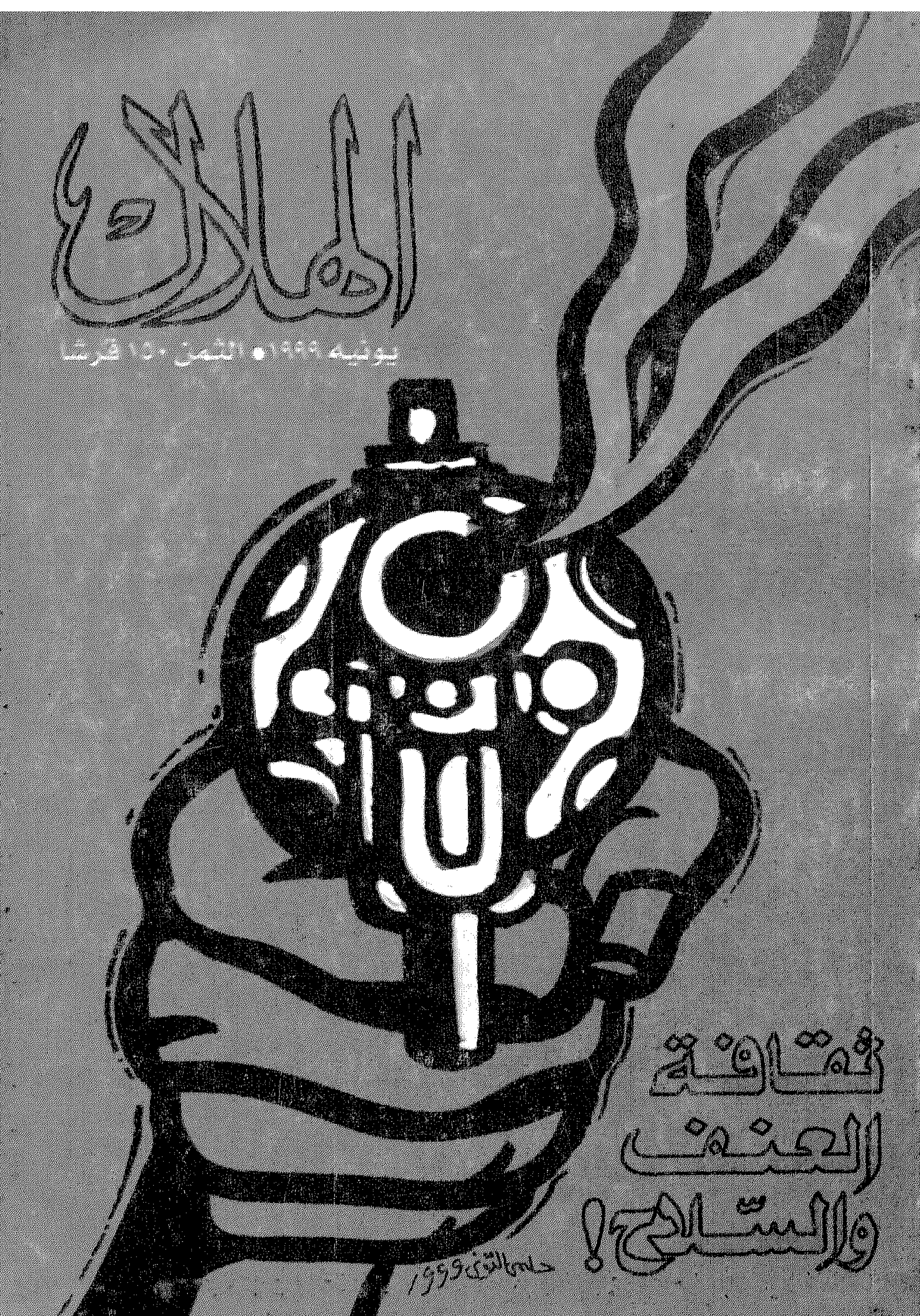
إنه بالتأكيد يشير فى الهدف الثالث إلي الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية.

لكن الحرب العالمية الثانية لم تبدأ من البلقان ، ولم تكن لها علاقة بالصراع فى البلقان . فهل لا يعرف كلينتون هذه الحقيقة البسيطة .

حتى الحرب العالمية الأولى لم تنفجر بسبب الصراع في البلقان وإنما لأن الدول الأوربية الكبيرة اختارت أن تقف فى صف أو آخر من صفوف الصراع فى البلقان ، وفعلت ذلك من أجل مصالح اقتصادية وسياسية لها .

إن الأهداف التى تحدث عنها كلينتون تثبت أن حلفاء الأطلنطي يلعبون اللعبة الخاطئة .. صحيح أنهم نجحوا فى تدمير البنية التحتية ليوغسلافيا وأضعفوا قواتها المسلحة ، ولكنهم نجحوا فى زرع مشكلة فى أوربا أكبر بكثير مما كانوا يتصورون ، ولهذا بدأت أوربا (ألمانيا- فرنسا) تتردد فى استمرار هذا العمل العسكرى وتبحث عن حل يحفظ ماء الوجه ، ويدخل الأمم المتحدة فى البحث عن نهاية .. أليس لهذا بدأ كوفى عنان يتحرك بعد صمت؟ .


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه



الهلال
يونيه ١٩٩٩ • الثمن ١٥٠ قرشا
ثقافة
العنف
والسلاح!
حلمي التوني ١٩٩٩


إهـــــــداء2006
ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام السابع بعد المائة

يونيه ١٩٩٩ ● صفر ١٤٢٠ هـ

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمى التونى المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

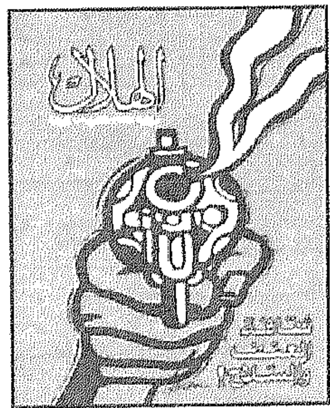
ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ الصفاة - الكويت - ت/ ٤٧٤١١٦٤13079

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

فكر وثقافة



الغلاف

بريشة الفنان : حلمى التونى

دائرة حوار

الأبواب الثابتة

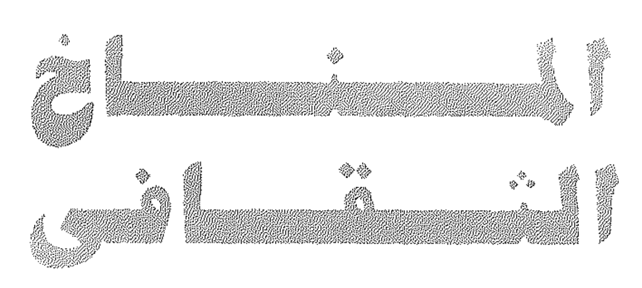
فنون

ندوة الهلال

قصة وشعر

التكوين

عزيزى القارئ:



■ يسود المناخ الثقافى الراهن، جو مشبع بالسموم والأحقاد، يتنابذ خلاله المتخاصمون بالألقاب، ويتبادلون الاتهامات، وينزعون إلى الشخصى بدلاً من الموضوعى، وهو مناخ مثبط للهمم، لايدفع إلى الإبداع والبناء، ولايساعد على قيام العمل الثقافى بدوره فى توحيد الأمة على أهدافها وحول قضايا الثقافة الوطنية، وجعلها تيارا عاما يسرى فى أوصالها..

وعلينا أن نسلم بوجود انقسام فى صفوف المثقفين بين فريقين لكل منهما لغته وأدواته ومنهجه، فسنن الكون تؤكد أنه لابد من الصراع بين الأفكار الجديدة والأوضاع القديمة.

ونتساءل .. متى يتحول الخلاف إلى قوة دافعة..؟، عندما يسير فى طريقه الصحيح ويلتزم بقواعد الحوار الموضوعى، ومقارعة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان. وعلينا أن نعترف - أيضا - أن هذا المناخ جزء من المناخ العام السائد، والثقافة بطبيعتها وثيقة الصلة بالمناخ العام فى المجتمع، ولا يشجع هذا المناخ على التطلع إلى المستقبل، ولايعطى فرصة للتأمل والغوص فى القضايا الراهنة ولا التطلع إلى المستقبل والمدى البعيد.

ولايساعد هذا المناخ على الاستفادة من حرية الفكر والتعبير التى نعيشها، وهو ما نفخر به ونعتز، ولايساعد على العمل من أجل سيادة قيم التنوير الحقيقى التى تتمثل فى إعمال العقل فى نقد الواقع ، ولا على أن نتفاعل إيجابيا مع إنتاج الثقافة العالمية من فنون وآداب راقية وإنجازات علمية وقيم رفيعة.

وتغيب خلال هذا المناخ حقيقة أنه لايملك طرف مهما أوتى من الحكمة الحقيقة كاملة، وعلى من يتوق إلى الوصول إليها البحث عنها، من خلال سماع أفكار كافة الأطراف والاتجاهات، والإنصات بتواضع لكل صاحب تجربة.

وفى هذه الأوضاع تمضى السياسة الثقافية بدون استراتيجية وبدون هدف رئيسى، ويستمر التخبط والحيرة والالتباس فى قضايا جوهرية، مثل التردد والمراوحة بين الخاص

والعام، بين ضرورة التخطيط لأعمال فنية وبين آليات السوق والجرى وراء أذواق المستهلكين، بين النظر إلى الثقافة كخدمة والنظر إليها كسلعة.. رغم أن الثقافة الرفيعة خدمة مثل التعليم أو الصحة تماماً، وهى جزء أصيل من مسئولية المجتمع كله.

وعلى المجتمع كله يقع عبء نشر المعرفة ممثلة فى الكتاب المهم، وتقديم أرفع المسرحيات العربية والعالمية، ويقتصر دور المجتمع على تقديم الثقافة الرفيعة، وأن يترك الجانب التجارى أو الترفيهى الخالص إلى القطاع الخاص.

وعلى المجتمع أن يجعل أسعار الخدمة الثقافية فى متناول من يحتاج هذا العمل الرفيع .

وفى الأنظمة السياسية المختلفة تلقى الفنون الراقية رعاية الدولة ودعمها. وليس صحيحاً أن هذا الدور يقتصر على الدول الاشتراكية، فهى توجد مثلا فى كل من فرنسا واليونان، رغم أن الاحتياج الأكبر لها فى دول العالم الثالث، التى تزداد فيها الفجوة بين النخبة وبقية المواطنين، وحتى تواصل البلاد سيرتها نحو القرن المقبل، فعليها أن تعمل على التقارب الثقافى بين شرائح المجتمع، وأن تستعين بما توافر لديها من خبرات.

ويجب أن يتركز دور أجهزة وزارة الثقافة على إنتاج ما يمكن أن نطلق عليه الصناعة الثقيلة فى الثقافة، تلك الأعمال ذات التكلفة العالية. وأن تسعى إلى المواهب والكفاءات وتحتضنها وتمد لها يد العون وتفتح أمام أصحابها الطريق للإنتاج الفكرى.

فهل حان الوقت لتجديد الدعوة إلى عقد مؤتمر عام للمثقفين، يضع نهاية لتلك الحيرة بين المشروع العام والمشروع الخاص، وحتى ينتهى التضارب بين الاتجاهات والأفكار، ويحشد المفكرون جميعاً فى تيار واحد، ويتفق الجميع على أن القيمة الثقافية تشكل جزءاً أساسيا من التنمية الشاملة؟!

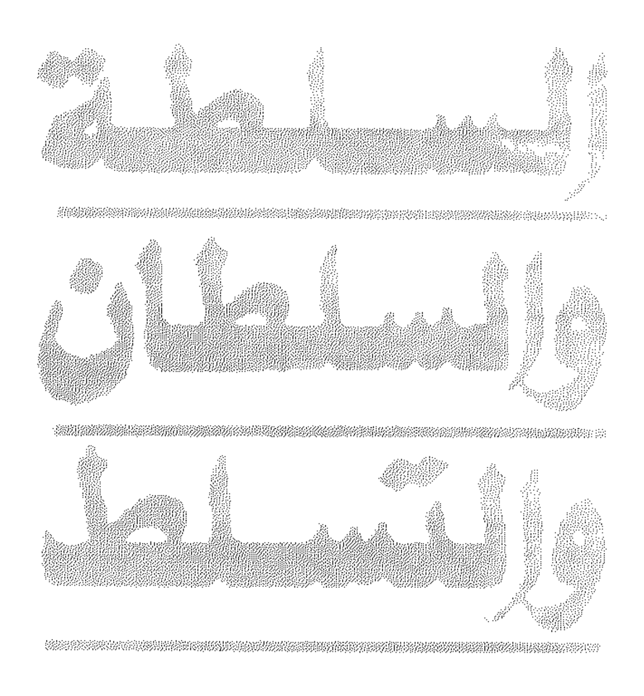
فأيا كانت التحديات فإن العمل الوطنى يتطلب التمسك بما بقى لنا من الإمكانيات.

وأن توضع خطة متفق عليها لإنقاذ آثارنا الإسلامية والقبطية والفرعونية المعرضة للتلف بسبب الإهمال والمياه الجوفية، وأن نواجه المافيا التى تحاول تهريب آثارنا إلى الخارج.

وأن تقوم الثقافة الجماهيرية بالنهوض بالحالة الثقافية فى ريف مصر وبين جماهير الأحياء الشعبية.

وعندها يتغير المناخ إلى وضع أفضل.

المحرر



بقلم : د. مصطفى سويف

تسرى فى حياتنا آفات اجتماعية قادرة على أن تصيب بأفدح الضرر أى ركن من الأركان التى نعتبرها الدعامات الرئيسية للمجتمع، كالتعليم والإنتاج والخدمات.. وغيرها. وتكشف هذه الآفات عن نفسها فى مظاهر جزئية لا حصر لها، وهو ما يجعلها تفلت من قبضة الإدراك الواضح عند الكثيرين، وهذا بدوره يجعل رصدها وتقويم خطر آثارها أمرا متعذراً فى معظم الأحيان. وليس أفضل من هذا الإدراك المفتت أو الجزيئى لكى تتوه الحقيقة، ويضل الناس سبيلهم إلى الحق والصواب، ثم لا يلبثون أن يصيبهم الإعياء وتنضب آمالهم فى اصلاح الأحوال. لذلك رأيت أن من أوجب واجباتى فى هذا الشأن أن أجمع شتات هذه الآفات، فأحدد معالم كل منها، وأبرز كنهها، ومن ثم دلالتها، فإذا وفقت فى مسعاى فسوف يكون من شأن ذلك إذا صحت العزائم أن يتيسر التصدى لها، والعمل الجاد على إضعاف شوكتها، وربما الأمل فى استئصال شأفتها والقضاء على عوامل توطنها واستشرائها

وقد أحصيت هذه الآفات فوجدتها عشراً، رصدت فى مقال سابق أربعا منها، هى : **تغليب الكم على الكيف، والشكل على المضمون، والنشاط سريع العائد على النشاط بطيء العائد، والعمل اللحظى على العمل الممتد**. وأوضحت فى حديثى عن هذه الآفات الأربع أنها تترابط فيما بينها مكوّنة حزمة أو عائلة فكأنها تشد أزر بعضها بعضا، ومن ورائها محور هو الفاعل فى هذا الترابط، هذا المحور هو: **غلبة الإعلامية فى الحياة الاجتماعية**، وخاصة فى مجال العمل العام.

وفى مقالى الراهن أتقدم خطوة إلى الأمام فأتحدث عن ثلاث من الآفات الست الباقية: هى : **تغليب المركزية، والاتباعية ، والمحسوبية** . وهذه تتآزر معاً بفعل محور أساسى واحد هو غلبة التسلط فى حياتنا الاجتماعية، أما الآفات الثلاث المتبقية بعد ذلك فهى الإهدار، وانخفاض كفاءة الإنتاج، وتدنى مستوى الخدمات . وهى نواتج حتمية لمنظومتى الإعلامية والتسلطية، فأرجو أن أفرد لها مقالا آخر فى مقبل الأيام.

السلطة والسلطان والتسلط :

السُّلطة هى التغلُّب أو التمكُّن . وفى تراثنا اللغوى أن للسلطة وجهين، هما : السلطان ويكون التغلب فيه بالحجة والبرهان، والتسلط أو السلاطة ويكون بالبطش والقهر. وفى حدود مصطلحاتنا أو مفاهيمنا المعاصرة، فإن السلطة مفهوم محايد، وهى فى تحققها فى واقع الحياة الاجتماعية قد تقترب من الشكل الذى نصفه بالشكل الديمقراطى وهو الذى يقوم على احترام إنسانية الآخر ممثَّلة فى رأيه وتوجهه، أو تقترب من الشكل الذى نصفه بالتسلط أو السلاطة أو الاستبداد. والسلطة بمعناها المحايد مكوّن مهم من مكونات الحياة الاجتماعية، فهى الآلية المجتمعية التى يتم من خلالها تحقيق درجة معينة من تآزر الإرادات لإطلاق طاقة الفعل الجماعى.

وفى ضوء ما تكشف عنه بحوث علماء الحضارات لم تعرف الإنسانية فى تاريخها كله مجتمعا واحداً (بدائيا أو غير بدائى) عاش بدون آلية للسلطة . ولكنها عرفت أشكالا لا حصر لها من تنظيم هذه السلطة (كمؤسسة وممارسة).

أما التسلط فشىء آخر: التسلط شكل من أشكال توظيف السلطة لخدمة أغراض فئوية، أو شللية ، أو فردية. ويعتمد هذا التوظيف أساساً على عمليات القهر فى إدارة شئون الجماعة. ومؤدّى هذا التوضيح أنه كلما إتجه توظيف السلطة إلى خدمة جزء محدود

من المجتمع بدلا من خدمة المجتمع ككيان متكامل أصبحنا بصدد شكل بعينه ومستوى بذاته من التسلط. ويزيد هذا الشكل وهذا المستوى وضوحا كلما ضاقت حدود الهدف المخدوم. وجدير بالذكر في هذا المقام أن علماء النفس يتحدثون عن مجموعة من الخصال المزاجية والتوجهات الفكرية إذا تجمعت معاً أدت إلى تخليق نموذج الشخص المتسلط أو التسلطي أي الذي ينزع إلى التسلط في إدارة علاقاته بالآخرين. وجدير بالذكر أيضا النظم الاجتماعية الأقرب إلى التسلط توفر مناخا ملائما لازدهار الشخصية التسلطية، كما أن شيوع هذا النموذج من نماذج الشخصية في المجتمع يمثل عاملا من العوامل التي تسهم في بقاء النظم الاجتماعية التسلطية وترسيخ جذورها.

التسلط والآفات الاجتماعية :

ثلاث آفات اجتماعية بالغة السوء تجد شرط بقائها الأمثل فيما يوفره مناخ التسلط في الحياة الاجتماعية، هذه الآفات هي: الإفراط في المركزية، وتغليب الاتباعية، وتكريس المحسوبية. وجدير بالذكر أن كلا من هذه الآفات تقوم كمنظومة من القيم والأساليب التي تحكم العمل الاجتماعي، شأنها في ذلك شأن الآفات / المنظومات الأربع التي تحدثت عنها في مقال سابق. وفيما يلي أقدم ما قل ودل من الحديث عن الآفات/ المنظومات الثلاث الجديدة.

المركزية :

المقصود بهذا المصطلح في حديثنا الراهن مركزية اتخاذ القرار؛ أتحدث في هذه الفقرة عن الكيفية التي تدار بها الجامعات كمثال لتحقق آفة المركزية عندنا. وقد اخترت في هذا الصدد نظام إدارة جامعاتنا لأنني أدرى بالكثير من شئونها وقد قاربت على إكمال خمسين عاما من العمل المتواصل بها. ولكي يكون كلامي في هذا الشأن واضحا ودقيقا بحيث لا يتيح الفرصة لإثارة المجادلات العقيمة رأيت أن أعتمد على نصوص القانون المنظم للعمل الجامعي، وهو القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢، ومذكرته الايضاحية.

يشير البند أ تحت عنوان «المجالس والهيئات الجامعية»، الوارد بالمذكرة الإيضاحية إلى ما يأتي : «عني المشرع بتفصيل اختصاصات مجلس القسم.. باعتباره القاعدة الجامعية الأساسية... إلخ». في هذه العبارة نجد أن النص

صريح على أن مجلس القسم هو القاعدة أو الوحدة الأساسية التى يقوم عليها الهيكل الجامعى. وترد فى صلب القانون إشارات متعددة تؤكد هذا المعنى. وهذا كلام مقبول عقلا مادام القسم هو أقرب الكيانات الجامعية إلى مباشرة العملية التعليمية والبحثية فى أخص خصائصها، وهو توضحه تفصيلا المادة ٥٥ من القانون، إذ تنص على اختصاصات مجلس القسم باعتباره السلطة المشرفة على إدارة العمل فى القسم. وفوق مجلس القسم يأتى مجلس الكلية، ثم مجلس الجامعة، ثم المجلس الأعلى للجامعات. والمفروض أن هذه المجالس (ومجالس أخرى بينية مثل مجلس شئون التعليم والطلاب، ومجلس الدراسات العليا والبحوث) فى مجموعها إنما تقوم إعمالا لمبدأ أساسى هو أن الذى يدير شئون العمل الجامعى هو المجالس أساساً. ولا يتعارض ذلك مع وجود رؤساء الأقسام، وعمداء الكليات، ورؤساء الجامعات، فهؤلاء موكلون أساساً بتنفيذ قرارات المجالس التى يرأسونها، بالاضافة إلى قرارات المجالس الأعلى (إذا وجدت) كل فيما يخصه.

وهذا كله كلام جميل، ولكنه كلام ناقص؛ والذى ينقصه هو العنصر الخاص بالسطة الحقيقية، أى سلطة اتخاذ القرار الذى هو الخطوة الأولى نحو العمل التنفيذى. فماذا عن هذا العنصر؟.

الإجابة الأمينة هى : يحتوى القانون على ٣٨ مادة (من أصل ٢١٢ مادة)، وتنص هذه المواد الثمانى والثلاثون فى مجموعها على أن سلطة اتخاذ القرار واجب التنفيذ مسلوبة دائما من المجلس صاحب الشأن، ولا يصدر القرار واجب التنفيذ إلى من سلطة أعلى، أضرب لذلك مثلا المادة ٥٩ من القانون؛ تنص على ما يأتى : «يقدّم رئيس مجلس القسم بعد العرض على مجلس القسم تقريرا إلى العميد فى نهاية كل عام جامعى عن شئون القسم العلمية والتعليمية.. إلخ». يمكن للقارىء أن يلاحظ فى هذه الصياغة أن رئيس مجلس القسم غير مكلف بالحصول على موافقة مجلس القسم على التقرير السنوى عن نشاط القسم، كل ما هو مكلف به هو العرض على مجلس القسم، ولا قيمة بعد ذلك لموافقة المجلس أو عدم موافقته على فحوى التقرير. وهكذا يتضح فى هذه الجزئية أنه لا سلطان لمجلس القسم على صياغة التقرير الذى يصف نشاطه على مر العام الجامعى.

أضرب مثلا آخر، المادة ٦٥: تنص هذه المادة على ما يأتى : «يعيّن رئيس الجامعة أعضاء هيئة التدريس بناء على طلب مجلس الجامعة بعد أخذ رأى مجلس الكلية أو المعهد، ومجلس القسم المختص... إلخ». ويلاحظ القارىء هنا أن رئيس الجامعة غير مكلف بالحصول على موافقة مجلس الكلية المختصة، ولا على موافقة مجلس القسم المختص، ولكنه مكلّف فقط بأخذ رأى كل من هذين المجلسين، ولا قيمة بعد ذلك لموافقة الكلية المختصة والقسم المختص أو عدم موافقتهما. وهكذا تنطق هذه المادة بحقيقة أن مجلس الكلية ومجلس القسم لا سلطان لهما على تعيين أعضاء هيئة التدريس فى المنظومتين الواقعتين (اسماً لا فعلا) تحت إدارتهما.

هاتان المادتان ٥٩ و٦٥ تقدمان نموذجا واحدا (من حيث الهيكل الأساسى لكل منهما) يتكرر على امتداد ثمان وثلاثين مادة فى قانون الجامعات. وباستطاعتى أن أضرب أمثلة أخرى مما ورد فى المواد ٥٧، ٧٢، ٧٣، ٧٦.. إلخ. وهى جميعا تكرر النموذج نفسه، ومؤداه سلب سلطة اتخاذ القرار التنفيذى من المجالس الأدنى وترحيلها إلى سلطة أعلى (وقد تكون هذه مجلساً، وقد تكون فرداً هو رئيس الجامعة أو وزير التعليم العالى). ولكن يكفينى ما قدمت من إيضاح على ضوء ما ورد فى المادتين ٥٩، ٦٥ من القانون.

هنا يلزمنى التعقيب بنقطتين: **أولاهما** ما أرجوه ألا يساء فهم ما قصدت إليه من طرح هذا المنظور ، فليس المقصود بهذا الطرح الإساءة تصريحاً أو تلميحاً إلى أى من الأساتذة رؤساء الجامعات، ولا إلى أى وزير تولى مسئولية التعليم العالى، ولا إلى أى مجلس من تلك التى تعلو فى مراتب التدرج الهرمى فوق مجلس القسم، فهؤلاء جميعا لهم فى نفسى كل التوقير والاحترام. ولكن المشكلة التى نحن بصددها فى هذا المقام لا علاقة لها بزاوية النظر الشخصية هذه من قريب ولا من بعيد. المشكلة، بنظرة موضوعية، هى أننا بصدد نظام لتشغيل الجامعة يكرس المغالاة فى مركزية اتخاذ القرارات التنفيذية. ومن ثم يترك الكثير من لبنات العمل الجامعى مسلوبة الإرادة. هذا هو جوهر القضية المطروحة والتى يجب علينا أن ننظر فيها ملياً. أما التعقيب الثانى فهو ما أستطيع أن أجزم به للقارىء من أن المركزية فى تشغيل الجامعة تكشف عن نفسها فى أمور أخرى كثيرة تفوق كما وكيفا ما نستشفه فى المواد القانونية التى

أشرت إليها. ولكني أكتفي في هذا الصدد بإيضاح ما تشف عنه مواد القانون فذلك أحرى أن يكون أشد اقناعا من ملاحظات أخرى كثيرة.

وفي ختام هذه الفقرة أستطيع أن أقرر أن الإدارة المركزية لشئون الجامعة بالصورة التي أوضحتها تعتبر أخف وطأة بكثير مما يجري في هذا الشأن في جميع مرافق الدولة الأخرى، بل وفي جميع مؤسسات العمل غير الرسمية أيضا. وهذا ما عنيته بقولي في بداية الحديث إن المركزية واحدة من آفاتنا التي تنخر في جميع الأركان التي تقوم عليها أو بها حياتنا الاجتماعية.

الاتباعية :

ثم نأتي إلى الحديث عن الاتباعية. وتتمثل بأوضح صورها في تغليب الحلول التقليدية (أي التي سبق تطبيقها) لمشكلات الحياة التي تعرض لنا من حين لآخر، مفضلين هذه الحلول على التوجه إلى صياغة حلول مبتكرة. والأمثلة على شيوع الاتباعية في حياتنا العامة لا تقع تحت حصر. غير أن الأمثلة التي أضربها هنا لن تكون من طراز الأمثلة التي استعنت بها في شأن آفة المركزية، أي لن تكون في شكل شرح وتوضيح لصياغات قانونية تكرس الاتباعية، ومع ذلك فهذه الآفة لا تقل حضورا في حياتنا العامة، ولا إضراراً بدعائم البنيان الاجتماعي عن حضور المركزية وقدرتها على إيقاع الضرر بالدعائم من جذورها إلى فروعها.

وإلى القارىء بعض الأمثلة. أما المثال الأول فمستمد من وقائع حياتنا الاجتماعية الرسمية التي ظلت تقع إلى وقت قريب، وهي تدور حول موضوع التوقيت الصيفي، وما يقضي به من تقديم ساعاتنا (ساعات اليد والحائط ... إلخ) ساعة من الزمن، وهو ما يعني أساساً أن يبدأ يوم العمل مبكرا ساعة عن موعد البدء في الشتاء. ومع أن هذا الموضوع بدأ العمل به والترويج له في الخارج منذ سنوات الحرب العالمية الثانية لما تبين أنه يخدم الاقتصاد الوطني في وقت تحتاج البلاد فيه إلى هذه الخدمة أشد الحاجة، مع ذلك فقد ظل الاعتراض عليه قائما لدينا إلى وقت قريب دون تقديم أية حـ ـة تستحق النظر، بل وقد أفلح المعترضون عليه في إثناء الحكومة مؤقتا عن الأخذ به، أفلحوا في ذلك أكثر من مرة كان آخرها منذ حوالي عشرين عاما.

أضرب مثالاً آخر: لعل نسبة معقولة من القراء (ممن هم حول الأربعينات من العمر وما بعدها) لا يزالون يذكرون الجدال الذي استمر سنوات حول

موضوع إحلال الرياضة الحديثة محل الرياضة التقليدية فى التدريس فى مدارس التعليم الأساسى لدينا.

والأمر هنا ينطوى على رفض الأخذ بمشورة خبراء التخصص وتوظيف هذه المشورة فى ترشيد العملية التعليمية، ولم يتمكن أهل التخصص من التغلب على هذه المقاومة إلا بعد سنوات طوال ضاعت على المجتمع وعلى أجيال من الدارسين، ومثال ثالث مشابه للمثال السابق؛ فلعل القراء أنفسهم لا يزالون يذكرونه، وهو يتناول الجدال المشحون بالغضب و... إلخ الذى أثير حول محاولات إدخال ما يعرف باسم الطريقة الكلية فى تعليم القراءة فى مدارس المرحلة الابتدائية. وكان الاعتراض فى هذا الشأن ينطوى على رفض الأخذ بآراء خبراء التخصص. ثم هناك مثال رابع يصل بنا إلى قمة الكوميديا السوداء فيما ينطوى عليه من دلالات؛ فقد اكتشفت أجهزة الدولة أننا ظللنا نسدد «الجزية» التى كانت واجبة السداد علينا إلى الدولة العثمانية (فى الزمان الغابر)، ظللنا نسدد هذه الجزية إلى الدولة التركية الحديثة حتى سنة ١٩٥٧!! إلى هذا الحد من السخف تبلغ سطوة الاتباعية لدينا فى إدارة شئون الدولة، لأنه ما على الموظف العام إلا أن يقتّفى أثر الموظف السابق عليه فى إجراءات العمل.

المحسوبية :

وأخيرا وليس آخراً نأتى إلى المحسوبية: والمقصود بها تفضيل شخص على آخر لاعتبارات لا علاقة لها بكفاءة الأداء، ولكن لأن لهذه الاعتبارات علاقة بوضعه فى شبكة العلاقات الاجتماعية: كأن يكون هذا الشخص المفضَّل مقرباً من فلان (صاحب الجاه، أو المال، أو السطوة)، أو من أقربائه... إلخ. ومن هذا المنطلق يرتبط مفهوم المحسوبية بالشللية. وقد عرف المواطنون موضوع المحسوبية هذا من زمن طويل، ولكن رغم هذه الألفة التى طال عليها الزمن فقد ظل الضمير العام رافضاً إياها، بحيث كان يرغم المستفيدين منها على التخفى إعمالاً لبقية من حياء، إلى أن أتى على البلد حين من الدهر أعلن فيه عن تدشين المحسوبية أسلوباً معتمداً رسميا، ولكن تحت اسم مستعار هو «أهل الثقة» (فى مقابل «أهل الخبرة») ، على أساس أن أهل الثقة لابد أن يلقوا التفضيل. وكما هى العادة فى عصور التسلط (أو السلاطة) كان باب الاجتهاد مغلقاً، وكان المجال مفتوحا للشراح وحدهم، فقدموا تبريراتهم فى مقالات صحافية صريحة واضحة. ولكن

لما كان جوهر المحسوبية في الضمير العام الذى لا يمكن تغييره بين يوم وليلة فقد طاشت جهود الشراح في هذا الصدد، ومن ثم عادت الآفة إلى أساليبها القديمة في التخفي، ولا سيما في الحالات التي يقترن فيها الذكاء باستفادة المحاسيب.

الآفات ومناخ التسلط :

بانتهاء الحديث عن الآفات الاجتماعية الثلاث التي أفردنا لها هذا المقال يكون الأوان قد آن لبيان علاقاتها بمناخ التسلط. وفى هذا الصدد فإن آفة المركزية هى الآفة ذات الارتباط المباشر بمناخ التسلط، بل تكاد تكون هى التعبير الصريح عن هذا المناخ بحيث يمكن أن نصنع منها مقياساً لدرجة التسلط فى إدارة شئون المجتمع سواء داخل مؤسساته، أو فيما بين هذه المؤسسات بعضها البعض ، أو فيما بين المجتمع كوحدة متكاملة وسائر المجتمعات التى يتألف منها المجال الدولي.

ومن خلال تفعيل المركزية تنشط آفتا الاتباعية والمحسوبية، الأولى يبطنها الخوف أساساً، والثانية يحفزها الطمع أو التطلع غير المشروع.

وكلما عمقت وتشعبت مسالك التنظيم المركزى فى إدارة شئون المجتمع ازدادت آفة الاتباعية تمكنا من نفوس المواطنين ، واستشرت آفة المحسوبية فى تقنين القنوات الفعلية المنظمة لتوزيع الحقوق والواجبات.

وأخيرا :

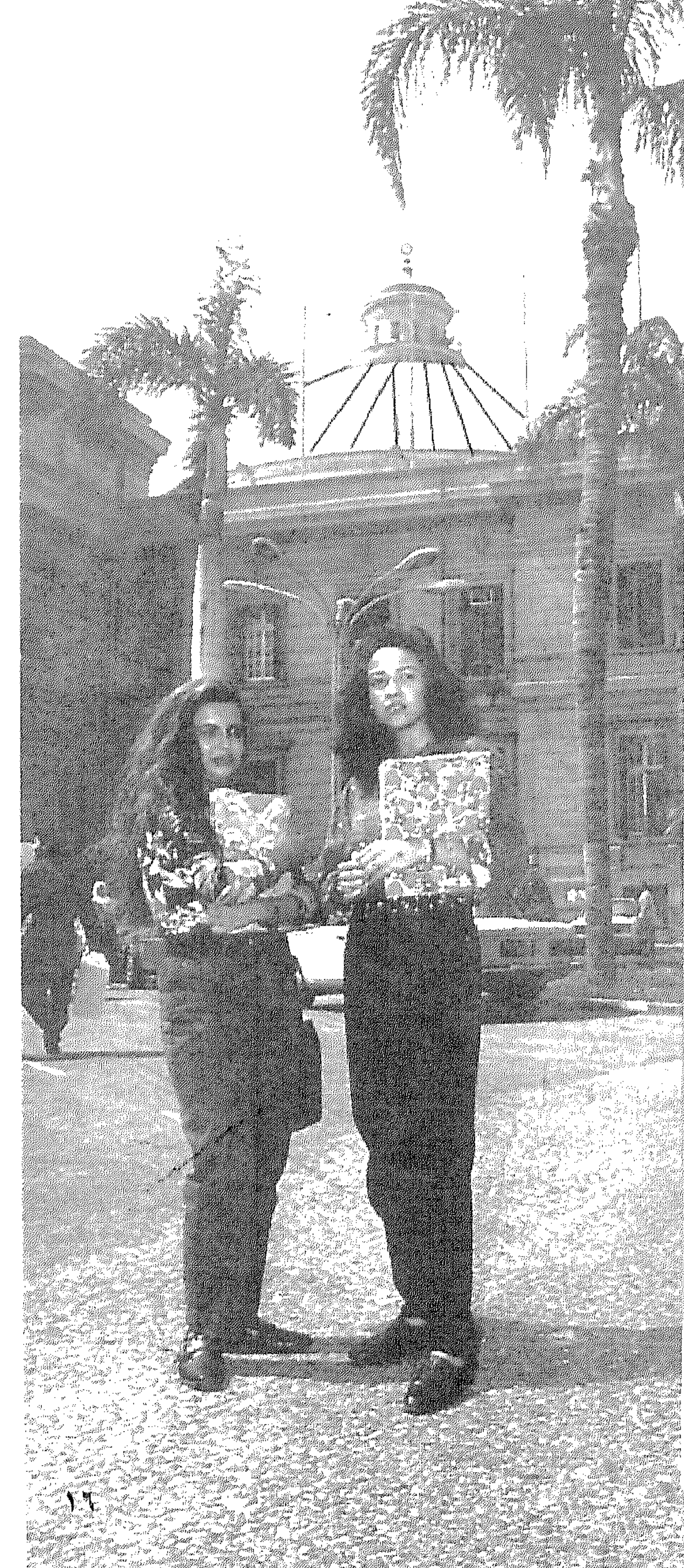
إذا جمعنا فى وعاء الذاكرة بين ما أوضحناه في سطور هذا المقال، وما بيناه فى مقال سابق حول الآفات التى تضرب عند الجذور، استطعنا أن نكون صورة صادقة لواقع الحال، أن معظم آفاتنا الاجتماعية تتحلق حول محورين رئيسيين، هما: الإعلامية ، والتسلط. وجدير بالذكر أن ما قدمناه فى هذا الصدد مجرد رصد لمظاهر تلك الآفات، ولم نشأ أن نعكر صفو الرؤية بالخوض فى مسألة الأسباب أو المبررات. كان مطلبنا محددا منذ البداية حتى النهاية ، وهو الرصد وبيان شبكة العلاقات بين مكوّنات الصورة فحسب. وجدير بالذكر أيضا أن الآفات كما وصفناها يسهم فى توطنها واستشرائها المؤسسات الرسمية للدولة، والمؤسسات غير الرسمية فى المجتمع والمواطنون الأفراد كذلك، ومن ثم فلا سبيل إلى انقشاع الغمة بغير إسهام الأطراف الثلاثة معاً.

الرسائل الجامعية و ساعة ثم تنقضى

بقلم:

د. محمود الطناحى

هذا المقال كتبه الراحل د.محمود الطناحى قبيل وفاته وكأنه يكتب وصيته الأخيرة.



الدراسات العليا الجامعية هى أعلى درجات السلم التعليمى، وهى ذؤابته وسنامه، وهى غاية كل طالب علم ومنتهى أمله، ثم هى الصورة الصادقة للأمم وحظها من التقدم والرقى، ولجامعاتنا المصرية فى ذلك قدمة وتاريخ وأثر (يسعدنى كثيرا أن أرى فى المؤتمر العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، وعن يمينه الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، وعن يساره الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، وهما من تلاميذه، ومن أعلام الأمة العربية) .

والذين شاهدوا مناقشة الرسائل الجامعية فى الخمسينات والستينات ثم يشاهدونها الآن يرون فروقا واضحة بين ما كان وماهو كائن، ولست من الذين يرون الماضى خيرا كله، وأن الحاضر شر كله، ففى الناس بقايا خير، كما يقول الحافظ الذهبى (سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٥٠) ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، كما يقول العز بن عبدالسلام (البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/ ٣٧٩) ولكننا بإزاء مقارنة وموازنة ليست فى صالح الحاضر.

ولست أريد من هذه الفروق، الفروق العلمية، فلذلك حديث آخر، وإنما أريد تلك الفروق التى تتصل بالهيئة التى تتمّ بها مناقشة الرسائل، ثم بأسلوب بعض الأساتذة المناقشين فى استقبال ذلك الأمر الجلل، وطريقتهم فى إدارة الحوار.

وأول ما يلقاك أيها القارىء الكريم من ذلك فى الماضى تلك الهيبة الخاشعة التى تحفّ بأعضاء هيئة المناقشة حين يدخلون القاعة؛ لأنهم قضاة، ومجالس القضاء مصحوبة دائما بمظاهر الجلال والوقار، ويظل أعضاء المناقشة مدّة المناقشة كلّها على هذا الحال من الجد والصرامة، أذكر يوما حضرت فيه مناقشة، وكان رئيس الجلسة الأستاذ عباس حسن رحمه الله، وكان فيه بَأْو وصرامة، وحين استقر على المنصة هو وزميلاه نظر فوجد باقات من الورد أمامه وأمام الطالب، فاستدعى العامل، وقال له: ارفع هذا، هل نحن فى فرح؟

ويسرى هذا الجد إلى الحضور جميعهم، فلا كلمة ولاتعليق، ولاتسمع إلا همسا، وإذا بدا للطالب أن يتظرف ليخفف من حدة مناقشيه، أعيد بقسوة إلى حالة الوقار والجد، أذكر مرة للأستاذ عباس حسن أيضا، أنه أورد على الطالب ملاحظة تتصل بالدقة فى نقل الأرقام من المصادر، فقال للطالب: أنت ذكرت رقم الصفحة (٢٤٥) والصواب (٢٥٤) فقال الطالب: لا بأس يا أستاذنا، فقد حصل

فيها قلب مكاني! فما كان من الأستاذ عباس حسن إلا أن نهره بقوة، وقال: عيب ياولد (القلب المكاني في علم الصرف هو تقديم حرف على حرف، ومثاله في الفصحي: جنب وجبذ، وجاه ووجه، وفي العامية: أرانب وأنارب، ومسرح ومرسح، وزنجبيل وجنزبيل).

ثم لم يكن يسمح فيما مضى لأحد من الحضور أن يعلق على مايدور من مناقشة، بل لم يكن الحديث يتجه إليهم أصلا، وإنما الكلام بين المناقش والطالب ليس غير، ثم لم يكن يسمح للأطفال بحضور تلك المناقشات.

أما اليوم، فالأساتذة يدخلون في موكب بهيج من الضحك والانبساط والتطلّق، ويسرى هذا كسابقه إلى الحضور، فترى القاعة تموج بالانشراح والبهجة والتعليقات الحلوة، والأطفال يتقافزون ويمرحون في القاعة، وقد جيء بهم ليروا (بابا) في يوم عرسه، والنساء يزغردن عند إعلان النتيجة، بل إني سمعت إحداهن تنشد لقريبها الطالب:

ياشجره ياحلوه يامفرّعه

شرفت اعمامك الاربعه

هكذا والله.

ثم تجرى المناقشة مصحوبة أيضا بتلك الحال من البهجة والتطلّق، والمزاح مع الطالب، ونعم نحن نتبسّط مع أبنائنا في المرحلة الجامعية الأولى، بلون من المفاكهة، لندفع عنهم أسباب الملال، ثم لنغريهم باستقبال مايرد عليهم من ألوان العلم، أما في هذا اليوم الكبير فلا، وإن جاء شيء من ذلك فيكون في أضيق الحدود.

وأسوأ ما يكون هو التوجّه إلى الحضور بنوع من طلب الرضا والاستحسان، أو التماس التأييد والنصرة، وكل ذلك يجرّ إلى المشاركة في المناقشة، وهذا عيب قادح فادح، فالكلام في هذه المواطن إنما يكون للجالسين على المنصة والطالب ليس غير.

أما ما يكون من تقارُض الثناء بين أعضاء المناقشة، فهو باب واسع جدا، وأظهر ما فيه قول المناقش الثاني: إن زميلي الجليل الذي سبقني قد كفاني مؤونة الكلام في كثير من القضايا، وهذا الكلام قد يكون صحيحا، ولكن استفاضته وتفشّيه وتتابع المناقشين عليه أذهب الثقة به.

فهذا ما كان من حديث المقارنة بين الهيئة التي كانت تتم عليها المناقشات في الماضي، والهيئة التي تتم عليها الآن.

حديث عجيب!

أما الحديث عن أسلوب بعض الأساتذة المناقشين في استقبال ذلك الأمر الجلل، وطريقتهم في إدارة الحوار، فهو حديث عجب، ولا سبيل إلى استقصائه وبلوغ الغاية منه، وأول ما تأتيك به المقارنة بين ما كان وما هو كائن في هذا الصدد: أن الأستاذ المناقش فيما مضى كان يدخل إلى المناقشة وهو محتشد، قد أخذ للأمر عدته، وجمع له أدواته، وكانت مناقشته تطول جدا؛ لأنه أعطى الرسالة حظها من النظر والتأمل، فقرأها كلّها، أما اليوم فأنت تحس من أول لحظة بأن الأمر هين، بل هو بالغ السهولة.

وبدءة ذي بدء فإني أقول بحق وبصدق

إن عند كثير من الأساتذة الجامعيين علما، ولكنهم لايخـرجـونه، ليس ضنا به ولا كزازة، ولكنهم لايبذلون جهدا في قراءة الرسالة الجامعية، لأنهم يزنون الأمور بميزان العائد المادي، فماذا تعطيك الرسالة من المال؟ إن كتابة ثماني صفحات في مجلة كذا تعطيك ثمانمائة جنيه (٨٠٠) مع الشهرة والرنين، ونعم إن الكتابة في هذه المجلة الفنية لاتتاح لكثير منهم، لكن هناك وجوها أخرى من الكسب تعطي أجزل مما تعطيه الرسالة الجامعية، ولذلك فإن بعضهم لايقرأ الرسالة كلها، بل يكتفي منها بصفحات قليلة، يوزعها على امتداد الرسالة أثلاثا أو أرباعا، فلا يخرج علمه كله، فهو كما قال الله تعالى: «ولا ينفقون إلا وهم كارهون» التوبة ٥٤.

وعدم قراءة الرسالة كاملة يفضي أحيانا إلى خلل شديد، أعلم يقينا أن رسالة جامعية للدكتوراه نوقشت وأجيزت بمرتبة الشرف الأولى، وقد اكتشف الطالب بعد المناقشة أنه قد سقط منها في أثناء التجليد نحو مائتي ورقة، وكان موضوع الرسالة تحقيق نص من نصوص النحو. وفي الغالب لايقرأ الأساتذة النصوص المحققة كلها، وهذا هو الذي حجب عنهم اكتشاف هذا السقط.

ومن أمارات الاستخفاف أن بعض الأساتذة يصرح في أول مناقشته بأنه اعتاد ألا يتجاوز ساعة واحدة، كأنه يريد أن يطمئن المشرف والمناقش الثاني والجمهور والطالب، ويظل الحضور ينظرون في ساعاتهم، وحين توشك الساعة أن تنقضي يرتفع صوت واحد من الحاضرين: الساعة خلصت يادكتور، فيرد عليه الدكتور: لا ياخويا، فاضل دقيقتين، ساعتك غير مضبوطة، ويتضاحك الجميع. ومن هنا فقد زالت أسباب الخوف والهيبة عن كثير من الطلبة، وأصبح بعضهم يُنشد بعضا:

وماهي إلاّ ساعة ثم تنقضي
ويذهب هذا كلّه ويزول

ولكن الفرق بين «ساعة» ذلك الدكتور و«ساعة» هذا الشاعر فرق كبير، فساعة الدكتور ساعة زمانية، ستون دقيقة ليس غير، أما ساعة الشاعر فيراد بها مطلق الوقت، الذي قد يتجاوز مدى الساعة الزمانية.

ومن أعجب ما رأيته من علامات الاستخفاف أن زميلا كان يناقش بجواري فقال للطالب: والله يابني أنت حظك حلو، أنا قرأت رسالتك في القطار! قطار يادكتور؟ كيف يحدث هذا؟ ألا تحتاج إلى مرجع تعوّل عليه أو تصحح منه؟ ولهذا يدخل الطالب لجنة المناقشة محتشدا جامعا، حتى إذا رأى ذلك كله سكن روعه، وهدأت نفسه، ثم تلا قوله تعالى: «فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين» سبأ ١٤.

والسَّوأة السَّوْآء، بعد ذلك هي هذه العامية القبيحة التي يستكثر منها بعض المناقشين، ويدير عليها حواره كله، فتسمع مثلا أمثال هذه العبارات: واخد بالك من الحتة دي - خد بالك من الرأي دوّت - كده هوّت - إحنا بنتكلم عشان خاطر نعلمك يابني - نبُصّ نلاقي (أي ننظر نلاقي). هذا شيء محزن حقا، لاينبغي

السكوت عليه أو المصانعة فيه، ونحن نلم أحيانا بالعامية فى أسلوب الربط، ولكنها العامية المقبولة، التى تأتى فى حدود ضيقة، لكن الذى نسمعه الآن من بعض المناقشين يتعدى أسلوب الربط والحدود الضيقة، إنه يكاد يسرى فى أثناء المناقشة كلها، إنك لو أغمضت عينيك، وسمعت بعض المناقشين لظننت أنك فى موقف أحمد حلمى أو القُللى، والمنادى ينادى: واحد دكرنس، واحد المنصورة، وقد سرت هذه العدوى إلى شباب المعيدين، طلبت يوما من أحدهم شيئا، فقال: حاضر ياعسل! فقلت: ماهذا يابنى؟ لاينبغى أن تستعمل مثل هذه الألفاظ، فقال: لقد سمعتها من فلان وفلان وفلان، وذكر أسماء كبيرة، فلما سمعت هذا قلت له: خلاص يا حلاوة ـ براءة ـ أنت كده فى السليم، فنظر إلىّ نظرة انتصار، فهممت أن أقول له «متبصليش بعين رديّة شوف إيه اللى عملته فى شرح الألفيه» (بالمناسبة أنا مدرس نحو، أدرس لطلبتى شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ولا أرضى به بديلا)، وهكذا يتسلل إلينا البلاء، وتسرى بيننا العدوى، فلا نملك لها صرفا ولاتحويلا:

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد
بعدوى فما أعدتنى الثُّؤَبَاءُ

ورحم الله شيخنا أبا العلاء، والبيت من قصيدة بازخة، اطلبها فى اللزوميات، واقرأها وأقرِئها تلاميذك.

ومع هذه العامية البغيضة التى ذكرتها فإن بعضهم يتحرّى الفصحى، ولكنه يُخلِّط تخليطا شديدا فى أبنية الأسماء والأفعال، ثم يلحن ولا يعطى الإعراب حقه.

وإذا كنا قد أخذنا على بعض المناقشين الليونة والاستخفاف، فإننا نأخذ على بعضهم أيضا اصطناع الشدّة والقسوة، واللجوء إلى الصياح والجلبة وقعقعة السِّلاح، والنظر إلى الطالب على أنه ذبيحة يتناولها بالمدى والسكاكين، ومحاولة إحراجه وإلجائه إلى أضيق الطرق، ثم ما يكون من تضييع الوقت فى أشياء هينة، كالحديث عن علامات الترقيم والأخطاء المطبعية، والفرق بين المصادر والمراجع، ثم التهويش بما لا دليل عليه، كأن يقول المناقش: لقد سكتّ عن أشياء مهمة لضيق الوقت! إن الأشياء المهمة يازميلى العزيز لاينبغى تجاهلها أو السكوت عليها، وإلا فلم كانت هذه المناقشات العلنية؟ ثم إن مثل هذا الكلام يوقع الطالب فى حرج؛ لأنه يوحى للحاضرين أنه قد وقع فى الخطأ إلى أذنيه، ثم هى إلصاق تُهم لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه.

وأمر آخر خطير جدا: ان المشرف قديما كان يشترك مع زملائه فى مناقشة الطالب، وتدور مناقشته حول مخالفة الطالب عن أمره فيما رسمه له من خطة الرسالة، أو بأنه حين قرأ الرسالة كاملة ظهرت له جهات من النقص يرى ضرورة تنبيه الطالب عليها، وأذكر أن الأستاذ عمر الدسوقى، وكان مشرفا على أخى وعشيرى عبدالفتاح الحلو، رحمهما الله جميعا، أذكر أنه حمل عليه حملة شديدة فى المناقشة، فاقت مناقشة الآخرين: الدكتور عبدالحكيم بلبع رحمه الله، والدكتور عبدالقادر القط، أطال الله فى

عمره.. أما الآن فالمشرف يتعصب جدا للطالب، ويسوؤه أن يعرض له أحد بنقد أو ذم، وكأنه هو كاتب الرسالة. وهذا لايصح، فالمشرف يجب عليه أن يخلي بين الطالب ومناقشيه إلا إذا اقتضى الأمر توضيح مبهم، أو رفع التباس، ويحسن أن يكون هذا بعد انتهاء المناقشة حتى لايسقط الثقة بالمناقشين.

ومن أسوأ ماتراه الآن من تعصب بعض المشرفين أنه إذا رأى حدةً من بعض المناقشين اتجه إلى الطالب وغمز له بعينيه، يعني «فوت» وهذا شيء ردىء جدا، يراه الحاضرون بوضوح، ويخرجون يتندرون به، فيقولون: «شفت لما الدكتور غمز له بعينه!» هَاْ هَاْ هَاْ.

ومن هموم هذه المناقشات الجامعية أيضا: أن بعض الرسائل تتناول شخصيات معاصرة تعيش بيننا الآن، وتدعى تلك الشخصية لحضور المناقشة، وفي رأيي أن ذلك لايجوز؛ لأنه ربما تعرض أحد المناقشين لنقد تلك الشخصية أو القسوة عليها، فيكون في ذلك حرج على الجميع، وأذكر أن صديقا لنا أعد رسالة عن شيخنا محمود محمد شاكر - برد الله مضجعه - وكان ذلك في حياته، ودعي شيخنا لحضور المناقشة، فأبى وقال: لا أحب أن أضع الأساتذة في حرج، أو أضيق عليهم سبل القول.

ومابقي من شجون هذه المناقشات الجامعية إلا أمران:

الأول: تقدير درجة الرسالة، وفي هذه المسألة مداخلات كثيرة، أعرِف بعضها وأُعرض عن بعض، فالذي أعرفه منها: أن بعض المناقشين - بدواعي إدخال السرور على المشرف والطالب والحضور - يوحي في أثناء المناقشة بما سيكون عليه التقدير، حتى إذا أعلن يكون قد فقد حرارة المفاجأة ونشوة الفوز، ومن ذلك أن درجة الامتياز ومرتبة الشرف الأولى قد كثرتا جدا، ولو أجريت إحصاء بين الامتياز وجيد جدا، لوجدت الدرجة الأخيرة ضئيلة بالنسبة إلى أختها.

ومن أعجب العجب أن المناقشة تكون حامية جدا، ويدخل المناقشان وجوها من النقص كثيرة على الرسالة، ثم تخلو اللجنة للمداولة، وتكون المفاجأة حصول الطالب على الامتياز أو مرتبة الشرف الأولى (ويادار مادخلك شر)، وأذكر أني كنت أناقش طالبا في رسالة دكتوراه، ووجهت إليه أنا وزميلي مؤاخذات كثيرة، وحين خلونا إلى تقدير الدرجة أصر المشرف على مرتبة الشرف الأولى، وأصررت أنا وزميلي على التي هي دونها، فغضب المشرف غضبا شديدا، فقلت له: أيها الزميل العزيز، ألست ترى أننا وجهنا إلى الرسالة سهاما كثيرة؟ فقال: بلى، فقلت: وأنت تصر على أن تعطيها الدرجة العليا، قال: نعم، قلت: مارأيك لو جاءتنا رسالة أخرى بهذا العنوان والموضوع وقد خلت من كثير من المؤاخذات التي أخذناها على رسالة تلميذك، ماذا كنا نعطيها من التقدير؟ فحار وأبلس، ثم قال: خلاص يادكتور، أعمل معروف متحرجنيش مع الطالب!.

ومن الأمور المؤسفة أيضا: أن الطالب حين يحصل على تقدير لايعجبه يواسيه المشرف قائلا: والله يابني أنا كنت عاوز أعطيك التقدير الذي تحبه، ولكن الزملاء

غلبونى على أمرى، وهذا لا يصح لأن رأى اللجنة جماعى، والمجالس أمانات.

ومن قضايا تقدير الدرجة: التفرقة أحيانا بين المعيد الذى يعمل داخل الكلية وبين الطالب الذى يتقدم من الخارج، فالأول يعامل برفق، ويدخل إلى حلبة المناقشة هادئا مطمئنا لأنه يعرف ما سيؤول إليه أمره، والثانى هو ونصيبه، وما ذلك إلا لأن المعيد يُنظر إليه على أنه زميل المستقبل، وبعض الكبار يحبون أن يتخذوا يدا عند الصغار، ولله فى خلقه شئون.

ونعم إن بعض الشرفاء لايعرفون هذه التفرقة، ومن ذلك ماحدث أخيرا فى كلية دار العلوم، حين أصر بعض الأساتذة على رفض رسالة دكتوراه قدمها مدرس مساعد بالكلية، لأنه قد ظهر أن الرسالة مسلوخة من كتب بعض الأساتذة، والغريب أن ذلك السارق قد وجد من يساعده وينتصر له من داخل الكلية، وبالله نستدفع البلايا!

وهذا السارق إنما جرّأه على السرقة وأغراه بها أنه وجد بعض الأساتذة الكبار يسرقون ويدينهم القضاء، ثم لاتفعل الجامعة معهم شيئا، فمن حق هذا الطالب السارق أن ينشد قول الشاعر:

سرقتُ مالَ أبي يوماً فأدَّبَني
وجُلُّ مالِ أبي ياقومنا سَرَقُ

والأمر الثانى: أن مقدم الرسالة يتلقى تصحيحات كثيرة وتعديلات كثيرة على رسالته، وبعد أن يحصل على الدرجة والتقدير، يخرج وكأن شيئا لم يكن، وحين يطبع الرسالة ويخرجها إلى الناس لا يعتنى كثيرا بالإصلاحات التى قدَّمها له أساتذته، بل إن بعضهم يبلغ به اللؤم أنه حين يخرج الرسالة كتابا مقروءا يُسقط منها الشكر الذى قدمه للمشرف وللمناقشين، ومن العجب أن بعض الذين يفعلون هذا شباب طيبون، وأصحاب فضل وعلم، ولكنها العدوى التى تجتاح الناس كالوباء العام.

والرأى عندى أن الطالب لا يُجاز على رسالته الإجازة المشفوعة بالدرجة إلا بعد أن يقدم نسخة من رسالته محررة ومستفيدة من إصلاحات أساتذته، فإذا ما أخرجها للناس بآفاتها وبإسقاط أسماء مشرفه ومناقشيه سُحبت منه، وأعلنت فضيحته على الناس.

فيا زملاء نا الأعزاء: أعرف أن عندكم علما كثيرا، ولكنى أدعوكم أن تخرجوه للناس ولاتضنّوا به، واعلموا أن ماتؤجرون عليه من المجلات الغنية، وبرامج التليفزيون الخليجية إنما أخذتموه باسم الجامعة الضخم، وبالطيلسان الجامعى الفضفاض، فأنتم فى الأصل معلّمون، فأعطوا الجامعة حقها عليكم، وأخلوا وجوهكم لطلبتكم، وأعطوهم حظّهم من العناية والتوجيه، وخُذوهم بالجد، ثم أعيدوا للرسائل الجامعية بهاء ها ووقارها وشرفها.

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

● «التسامح لا يعنى إضعاف القيم، فالافكار يجب الرد عليها بالافكار».

عطاء الله مهاجرانى
وزير الثقافة والارشاد الاسلامى فى إيران

● «اليسار الغريق يستعرض جهله أو نفاقه الكريه تحت صرخات السلام».

الكاتب الاسبانى خوان غويتسولو

● «الشهادات العلمية لها تاريخ صلاحية، ما لم تتابع بالتعليم والتدريب».

د. إسماعيل سراج الدين
نائب رئيس البنك الدولى

● «الكاتب المستقل عن السلطة فى مصر، وكان استقلاله ماديا ومعنويا، استثناء نادر».

المستعمر الفرنسي ريشار جاكسون

● «ما يجرى فى الدراما العربية بشكل عام والسورية بشكل خاص عبارة عن خيمة سيرك ملون، وعلى غير أساس».

الممثل السورى بسام كوسا
مؤدى دور الكواكبى فى فيلم تراب الغرباء

● «القراءة وكتابة الشعر، النظام الوحيد فى حياتى».

الشاعر السعودى محمد مُسيَّر مباركى

● «لا واجب وطنيا أكبر من فهم حقائق العالم الذى نعيش فيه، وأخذها بعين الاعتبار».

نائب رئيس الوزراء اليوغسلافي السابق فوك دراشكوفيتش

● «علينا أن نطرح القضايا الفكرية والابداعية ونناقشها بكل حرية، وجرأة، حتى نخرج من مرحلة السديم».

الشاعر المغربي محمد بنيس

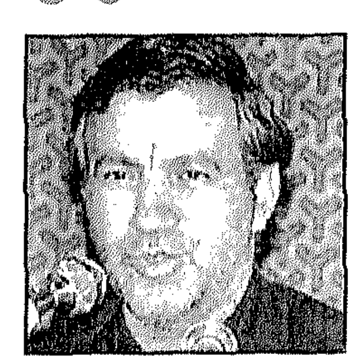
● «لست مغرورا ، ولكننى استعرض عضلاتى الموسيقية على المسرح».

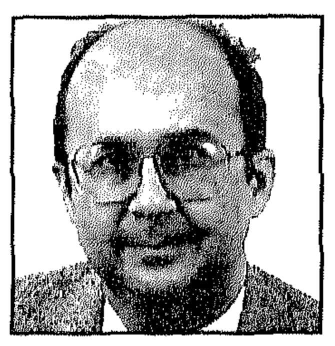
عازف العود العراقي نصير شمة

● «أي عمل فنى ينطوى على قصة للصدفة والانجاز».

الناقد الامريكي جون لار

اقـوال مـعـاصـرة


عطا الله مهاجرانى


د. اسماعيل سراج الدين


نصير شمة

محمود محمد الطناحى

عالم التراث والمحقق الموسوعى

بقلم : د. أيمن فؤاد سيد

فى صباح يوم الثلاثاء السادس من ذى الحجة ١٤١٩ هـ/ ٢٣ مارس ١٩٩٩ فاجأنِى مِحدثى فى الهاتف بأن الدكتور محمود محمد الطناحى دعى فأجاب، وخسرت مصر والعالم العربى بوفاته عالما فردا ظل يعمل فى دنيا التراث والمخطوطات العربية قرابة الخمسين عاما.



الطناحى صغيرا فى المعهد الدينى

عرفت محمود الطناحى أول ماعرفته فى ربيع سنة ١٩٥٨، وكنت ما أزال فى المرحلة الابتدائية، وكان هو فى معهد القاهرة الدينى ـ شابا نحيلا مرحا ـ يتردد على والدى فى منزلنا فى الحلمية كل يوم جمعة، يقرأ مع والدى أثناء تحقيقه لبعض كتبه، وشرح لى بعض ما يعن لى فى دراسة منهج اللغة العربية، ومنذ هذا التاريخ توطدت علاقتى به، علاقة تلمذة وصداقة وزمالة وأخوة، فكان لا يمضى أسبوع دون أن نلتقى مرة أو مرتين فى منزلنا حتى وفاة والدى رحمه



د. محمود الطناحى يوم حصوله على الدكتوراه ومعه محمود محمد شاكر واحمد المانع

الله سنة ١٩٦٧، ثم فى مجلس العلامة المحقق المرحوم محمود محمد شاكر الذى جمعنا مع نخبة من فضلاء العلم والأدب ثلاثين عاما، وطوال هذه الصحبة عرفت فيه صفاء الطبع وكرم الخلق ودماثته والطبيعة المرحة وروح الفكاهة والظرف وحسن الحديث وطلاوته، وهو قبل كل ذلك عالم بمعنى الكلمة حَصَّل علمه من بطون الكتب وأفواه الرجال ومجالسة العلماء، ووعت حافظته أخبارا وشواهد وعلوما عديدة قل أن اجتمعت عند غيره من أهل جيله.

ولد الدكتور محمود محمد الطناحى بكفر طبلوها بمحافظة المنوفية يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٣٥، وانتقل مع أسرته إلى القاهرة وهو فى الثامنة، وأقام فترة صباه وشبابه بحى باب الوزير بالدرب الاحمر فى وسط القاهرة التاريخية بعبقها ومساجدها ورائحة التاريخ المنبثة فى كل أرجائها، وكان دائم الاستشهاد بما سجلته ذاكرته عن هذه الفترة وهذه المواقع، وأتم حفظ القرآن الكريم برواية حفص وهو فى الثالثة عشرة وحصل على الابتدائية الأزهرية سنة ١٩٥٣ ثم التحق بمعهد القاهرة الدينى لاستكمال دراسته الثانوية التى أتمها فى سنة ١٩٥٨.

وفى سنة ١٩٥٧ لاحظ أحد أساتذته فى معهد القاهرة الدينى، وهو من أصدقاء والدى رحمهما الله، ذكاءه وحبه للعلم والمعرفة مع رِقَّة حاله، فعرَّفه على والدى - وكان أمينا لمخطوطات دار الكتب فى ذلك الوقت، فأعجب به وحرص على مساعدته

فجعله ينسخ بعض المخطوطات بالأجر لمجموعة من المستشرقين الذين كانوا يترددون على دار الكتب في ذلك الوقت، فنسخ أجزاء من «الوافي بالوفيات» للصفدي الذي كانت تخرجه جمعية المستشرقين الألمان، وعرّفه على المستشرق الألماني هانس روبرت رويمر وهو ينشر الجزء التاسع من كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر» لابن أيبك الدواداري فعاونه في نسخه ومقابلته وفهرسته (١٩٦٠)، وفعل الشيء نفسه مع المستشرق الانجليزي مارسدن جونز الذي كان يعمل على نشر كتاب «المغازي» للواقدي (١٩٦٤).

مهنة نسخ الكتب

كانت دار الكتب في ذلك الوقت، وقسم المخطوطات بصفة خاصة، مقصد العلماء والباحثين العرب والمسلمين والمستشرقين والمصريين بطبيعة الحال، فتعرف في قاعة المخطوطات على وجوه هؤلاء الناس (حمد الجاسر وإبراهيم شبوح، وشاكر الفحام، وحمد الكبيسي وعبدالكريم العثمان وإسماعيل الأكوع ومحمد بن شريفة.....)، وفي هذه الفترة التي كان قد التحق فيها بدار العلوم عمل بتصحيح الكتب في واحدة من أعرق المطابع المصرية المعنية بإخراج كتب التراث، مطبعة «عيسى البابي الحلبي» الموجودة بخان جعفر قرب المشهد الحسيني، وقد ساعدته هذه المرحلة على تحصيل الكثير من المعارف التي أفادته في قابل أيامه، فمهنة نسخ الكتب كان يقول عنها والدي رحمه الله الذي عمل في بداية حياته أيضا بنسخ الكتب، هي مهنة العلماء كياقوت الحموي صاحب «معجم الأدباء».

تَخرَّج محمود الطناحي في كلية دار العلوم عام ١٩٦٢ وعمل فور تخرجه محاضرا في مركز الدراسات العربية بالخارج (CASA)بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وعندما فكر معهد المخطوطات العربية التابع في ذلك الوقت لجامعة الدول العربية في الاستعانة بعدد من شباب الباحثين المتخصصين كان محمود الطناحي مع زميليه عبدالفتاح الحلو وعلي نو الفقار شاكر هم من وقع عليهم الاختيار، فألحقوا بالعمل في المعهد سنة ١٩٦٥، فتوثقت صلته بالعاملين في المعهد وخاصة عالم المخطوطات المعروف رشاد عبدالمطلب الذي كان دائم الذكر له هو ووالدي رحمهم الله والإشادة بفضلهما كلما ورد حديث عن المخطوطات العربية.

وهذا المعهد أحد أجرأ المشروعات التي حققتها جامعة الدول العربية نشأ في سنة ١٩٤٦ بغرض تصوير أكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية المتفرقة في مكتبات العالم عن طريق إيفاد بعثات علمية متخصصة تختار هذه المخطوطات، ثم تضع صورتها بعد فهرستها تحت تصرف العلماء في المعهد للإطلاع أو الحصول على صور مكبرة لها، وتوالى على إدارته منذ إنشائه نخبة من العلماء العرب المتخصصين من أمثال يوسف العُشّ وصلاح الدين المُنَجِّد، ولكن أمر

المعهد الآن فى حاجة إلى عناية المسئولين به وتوفير الإمكانات الضرورية له ليقوم برسالته التى بدأها منذ أكثر من خمسين عاما.

أسهم محمود الطناحي في بعثات المعهد بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٥ حيث زار مكتبات كل من تركيا والمغرب (مرتين) والسعودية واليمن، واختار من نوادرها عددا كبيرا، مازالت صوره محفوظة بمقر المعهد بالقاهرة . وقد اكتشف في هذه البلدان بعض المخطوطات المجهولة التى لم يكن يعلم الناس عنها شيئا، والتى لم تدرج فى فهارس المكتبات، ومن بين النسخ الفريدة التى صورها من بعثتي المغرب نشر كتاب «منال الطالب فى شرح طوال الغرائب» لمجد الدين بن الأثير عن نسخة وحيدة وجدها فى الخزانة العامة بالرباط سنة ١٩٧٥.

كان محمود الطناحي هو وريث تلك المدرسة الجليلة التى أحبت المخطوطات العربية ووقفت عليها مالها ومنحتها كل حياتها: مدرسة محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي وأحمد تيمور وأحمد زكى وفؤاد سيد ورشاد عبدالمطلب. وكانت مصاحبته للأخيرين ذات فائدة كبيرة عليه، فقد أفاد من معرفتهما بتمييز الخطوط وردها إلى عصرها الذى كتبت فيه، وبالمخطوطات النادرة وأماكن وجودها، وفضل النسخ بعضها على بعض، والمظان التى يُرْجَع إليها فى التعريف بها.

عشقه لتحقيق التراث

كما أن تلمذته على شيوخ المحققين محمود محمد شاكر وعبدالسلام هارون والسيد أحمد صقر ومحمد أبوالفضل إبراهيم الذين كان دائم التردد على مجالسهم ومجالسة العلماء المترددين عليهم فتحت أمامه الباب واسعا فى التعرف على هذا الفن الذى انقرض رجاله الآن، وبلغ من إعجابه بهم أنه أهدى إليهم ومعهم أحمد محمد شاكر وعبدالعزيز الميمنى الراجكوتي وأحمد راتب النفاخ كتابه «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى» (١٩٨٤).

ومن بين المشايخ الذين تردد عليهم محمود الطناحي وتلقى عنهم مجلس شيخ المقرئين الشيخ عامر السيد عثمان، وقد كتب عنه فى سنة ١٩٨٤ «وهذا الرجل الذى قطع الثمانين من عمره الآن، لايزال يقرىء ويفيد، وأوقاته كلها مشغولة بالإقراء، وقد تخرج على يديه مئات من مختلف فئات الناس، انتشروا فى القاهرة والبلدان العربية والإسلامية، ينشرون النور والهدى، وله ـ رضي الله عنه وأطال عمره ـ فوق علمه بفن القراءات وطرقها، حس دقيق فى صفات الحروف ومخارجها وتخليصها والوقوف ومواقعها» (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ٤٩).

كذلك فإنه كان دائم التردد على المكتبات التى تبيع الكتب يتابع ما تخرجه المطابع، ويجالس العلماء المترددين عليها.

حصل محمود الطناحي على درجة الماجستير فى النحو العربى من كلية دار العلوم عام ١٩٧٢ بتحقيق كتاب «الفصول الخمسون» لابن مُعطى ودراسة آرائه

النحوية (١٩٧٧)، كما حصل على درجة الدكتوراه من الكلية نفسها عام ١٩٧٨ برسالة موضوعها (ابن الشجرى وآراؤه النحوية مع تحقيق تسعة وأربعين مجلسا من الأمالي لابن الشجرى).

وفى أعقاب حصوله على الدكتوراه انتقل الدكتور محمود الطناحى للعمل أولا كباحث في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم استاذا بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعة نفسها، وفى خلال هذه الفترة (١٩٧٨ ـ ١٩٨٩) شارك بالتدريس فى علوم النحو واللغة والعروض. وألقى عددا من المحاضرات العامة من أهمها محاضرته عن «التصحيف والتحريف» التى نشرها سنة ١٩٨٤ كملحق لكتابه «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» وكون مدرسة من الذين أشرف على رسائلهم أو شارك فى مناقشتها.

إسهامات علمية

وفى سنة ١٩٨٣ دعته جامعة الموصل للمشاركة فى الندوة التى عقدت هناك عن «أبناء الأثير: عزالدين ومجد الدين وضياء الدين» بمناسبة مشاركته فى تحقيق كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» لمجد الدين بن الأثير، كما عمل أستاذا زائرا فى كل من جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض (١٩٩١)، وجامعة الكويت (١٩٩٤)، وجامعة العين بالإمارات العربية المتحدة (١٩٩٧)، وشارك فى إلقاء محاضرات على الطلبة الذين حضروا الدورات التى نظمتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى عن فهرسة المخطوطات فى القاهرة (١٩٩٤)، واستانبول (١٩٩٤)، ولندن (١٩٩٥)، وفى هذا العام نفسه شارك فى ندوة «تاريخ الطباعة العربية فى القرن التاسع عشر التى أقامها مركز جمعية الماجد للتراث والثقافة بدبى، وفى العام التالى دعته كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبى (الإمارات العربية المتحدة) للمشاركة فى تقييم برامجها.

وبعد عودته إلى القاهرة سنة ١٩٨٩ اختير خبيرا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فأسهم فى أعمال لجانه المتخصصة إسهامات مهمة تشهد له بها محاضر جلسات هذه اللجان، ولم يشفع علم الدكتور محمود الطناحى وسعة معارفه وتنوع انتاجه، له فى دخول الجامعة فى مصر، فتأخر دخوله إليها كأستاذ مساعد سنتين حيث عين فى كلية الدراسات الإسلامية بجامعة القاهرة فرع الفيوم، كما أنه كاد يؤخر عن ترقيته إلى درجة الأستاذية لولا التدخل الشخصى لرئيس الجامعة!. وفى سنة ١٩٩٦ انتقل الدكتور الطناحى أستاذا بكلية الآداب جامعة حلوان وشغل منصب رئيس قسم اللغة العربية (٩٦ ـ ١٩٩٧) وظل يعمل بها إلى أن وافاه أجله فى ٢٣ مارس ١٩٩٩ رحمه الله وغفر له.

إنتاجه العلمى

أ ـ الكتب المحققة

١ ـ كان أول ما أخرجه الدكتور



محمود الطناحي كتاب من أهم كتاب التراجم بالاشتراك مع زميله الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو هو كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي في عشرة مجلدات (صدرت طبعته الأولى عن مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٧٦، وصدرت طبعته الثانية عن هجر للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٩٢.

٢ ـ وبالإشتراك مع الطاهر أحمد الزاوي أخرج في خمسة أجزاء (الثلاثة الأولى بالاشتراك والرابع والخامس بالانفراد) كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» لمجد الدين أبي السعادات بن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤). وحدثني رحمه الله أنه عند صدور الجزء الأول من هذا الكتاب أعلنت عنه مطبعة الحلبي في جريدة الأهرام القاهرية قائلة صدر حديثا كتاب.. بتحقيق الطاهر أحمد الزاوي وآخر، فكان يحمل الجريدة ويقول لأصدقائه «أنا هذا الآخر» !

٣ ـ وعقب وفاة والدي رحمه الله طلب منه الأستاذ أحمد بن محمد المانع ـ أطال الله في عمره ـ أن يكمل تحقيق الجزء الثامن المتبقي من كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لتقي الدين الفاسي المكي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ (مطبعة السنة المحمدية ١٩٦٨).

٤ ـ الغريبين ـ غريبي القرآن والحديث ـ لأبي عبيد الهروي المتوفى سنة ٤٠١ هـ، الجزء الأول، (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٠).

٥ ـ تاج العروس شرح القاموس، للسيد محمد مرتضى الزبيدى، الجزءان السادس عشر والثامن والعشرون (الكويت ١٩٧٦ ، ١٩٩٣).

٦ ـ الفصول الخمسون فى النحو لابن معطى المتوفى سنة ٦٢٨هـ (مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٧٦).

٧ ـ منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لمجد الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٨٣).

٨ ـ أرجوزة قديمة فى النحو لليشكرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، فى كتاب دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، مطبعة المدنى ١٩٨٢.

٩ ـ كتاب الشعر ـ أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب لأبى على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، جزءان (مكتبة الخانجى ١٩٨٨).

١٠ ـ أمالى ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ، ثلاثة أجزاء (مكتبة الخانجى ١٩٩٢).

١١ ـ ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، لأبى عبدالرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ (مكتبة الخانجى ١٩٩٣).

١٢ ـ أعمار الأعيان، لأبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (مكتبة الخانجى ١٩٩٤).

ب ـ مؤلفاته :

١٣ ـ مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ـ مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، مكتبة الخانجي ١٩٨٤.

١٤ ـ الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، مكتبة الخانجى ١٩٨٥.

١٥ ـ فهارس كتاب الأصول فى النحو لابن السراج المتوفى سنة ٣١٦ هـ، مكتبة الخانجى ١٩٨٦.

١٦ـ الفهرس الوصفى لبعض نوادر المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٩٣.

ج ـ مقالات :

١٧ ـ فهارس كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام، مجلة البحث العلمى بجامعة أم القرى، العدد الرابع ١٤٠١ هـ.

١٨ ـ فهرس الأشعار لكتاب ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى المتوفى نحو سنة ٣٩٥، مجلة معهد المخطوطات العربية ٣٧ (١٩٩٣).

١٩ ـ كتاب الفرق لثابت بن أبى ثابت ونسخته الثانية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٥١ (١٩٧٦).

٢٠ ـ ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى وشىء من التحليل والعروض، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٦٦ (١٩٩٠).

٢١ ـ المتنبى للأستاذ محمود محمد

شاكر ، تقديم، موسوعة عصر التنوير، الجزء الأول ـ دار الهلال، القاهرة ١٩٩٢.

٢٢ ـ الرسالة للإمام الشافعي تحقيق أحمد محمد شاكر، تقديم، موسوعة عصر التنوير، الجزء الثاني ـ دار الهلال، القاهرة ١٩٩٢.

٢٣ ـ من إعجاز القرآن، القلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن للأستاذ محمود رءوف أبوسعده، تقديم، دارالهلال ـ الجزء الأول ١٩٩٣.

٢٤ ـ مجد الدين بن الأثير وجهوده في علم غريب الحديث، بحوث ندوة أبناء الأثير ـ جامعة الموصل ١٩٨٣.

٢٥ ـ النشر: واقعه وأولياته وتنظيم حركته، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤١ (١٩٩٧) ٢٤٩ ـ ٢٥٥.

٢٦ ـ محمود محمد شاكر ـ قصة قلم لعايدة الشريف، تقديم، كتاب الهلال ١٩٩٧.

٢٧ ـ كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلى تأليف: سيف ابن عمر التميمي، تحقيق: الدكتور قاسم السامرائي، عرض ونقد، في كتاب قطوف دانية مهداة إلى ناصر الدين الأسد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٩٧.

٢٨ ـ التنبيه على خطأ «الغريبين» للحافظ أبي الفضل بن ناصر، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ـ مكة المكرمة ١٩٧٩.

٢٩ ـ جموع التكسير والعرف اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٧١ (١٩٩٢).

٣٠ ـ شرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي، تأليف ابن بري المصري المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ـ عرض ونقد: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٧٢ (١٩٩٣).

٣١ ـ قضية انقاذ المخطوطات ـ ما تحقق وما لم يتحقق، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤٠ (١٩٩٦).

٣٢ ـ كتاب صنعة الشعر لأبي سعيد السيرافي تحقيق نسبته ونفذ نشرته، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤١ (١٩٩٧).

وبالإضافة إلى ذلك فقد نشر العديد من المقالات بمجلات «الرسالة» و«الهلال» و«المجلة» و«الثقافة» و«الكتاب العربي» و«الشعر» بالقاهرة و«العربي» بالكويت و«دعوة الحق» بالمغرب.

أما الحديث عن ظرفه وخفة ظله فقد كان يملأ المجلس الذي يوجد فيه بهجة وسرورا وكانت كلماته حبيبة إلى كل قلب، خفيفة على كل سمع، يمزج الفائدة العلمية بالنكتة العذبة.

رحم الله محمود الطناحي وجزاه عن ما أسهم به في نشر تراث لغة القرآن خير ما يجزى العلماء، اللهم إنا نسألك أن تتغمد ذنبه وأن تمهد عذره وأن تنير قبره وأن تجعله مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

ثقافة السلاح والعنف الأمريكية تتحكم فى شخصية الفرد وتتغلغل فى جذور المجتمع

الخط الواصل بين المهاجرين الأوائل .. ومرتكبى مذبحة «كولمباين»

بقلم : محمود أحمد

بعد مرور أسابيع عديدة على الحادث المفجع فى مدرسة «كولمباين» الأمريكية، كانت المشاعر لا تزال جياشة بالغضب والألم. وظلت جموع غفيرة ترتاد المكان لتضع أكاليل وباقات الزهور فى الموضع الذى شهد المأساة، حيث قتل صبيان مراهقان ١٢ من زملائهما وأحد المدرسين.. ثم قتلا نفسيهما. وجاءت شخصيات عديدة ، فى مقدمتهم «آل جور» نائب الرئيس الأمريكى ، للإعراب عن مشاركة أسر القتلى أحزانهم.. ولكن الحادث المأساوى فى النهاية لم يكن، كافيا لكى يحزم المجتمع الأمريكى أمره ويتخذ اجراء حاسما ونهائيا، لمنع وصول الأسلحة النارية إلى كل من يريد.. وخاصة الصغار . فعلى الرغم من الصدمة التى سببها الحادث الرهيب، فى تلك المدرسة الثانوية التى تقع على أطراف مدينة «دنفر» عاصمة ولاية «كلورادو» ، وعلى الرغم من الضجة الهائلة التى أعقبته.. يبدو أن «ثقافة العنف والسلاح» ، المتغلغلة فى أعماق المجتمع الأمريكى ، لا تزال أقوى من أى شىء آخر !! .





فى البداية ، ظن كثيرون من ذوى النيـة الحسنة ، أن هذه المأسـاة كافية فى حد ذاتها لتحويل التيار وفرض الرأى الغالب بضرورة وضع تشريع صارم للحد من انتشار الأسلحة النارية الفردية على النحو السائد فى الولايات المتحدة منذ قرون . ذلك أن حرية الافـراد فى شـراء واقتناء - واسـتخدام - هذه الاسلحة لا مـثيل لهـا فى أى مكان فى العـالم! وفى الوقت الذى يبلغ فيه تعداد سكان الولايات المتحدة نحو ٢٤٠ مليون نسمـة، نجد أن عـدد الاسلحـة النارية الفـردية يصل الى ٢٢٠ مليون قطعة سلاح.. أى بواقع قطعة لكل فـرد تقـريبـا.. كـمـا أنه يمكن لأى امريكى يبلغ الثامنة عشرة من عمره أن يدخل الى أحـد مـحـلات بيع السـلاح ويشـترى مسـدسـا أو بندقية آلية .. هكذا بكل بساطة ودون أى عقبات .. تماما كما يشترى قميصا أو علبة سجائر.. أو قلم رصاص !!

ولكن انتـشـار السـلاح فى أيدى الأمـريكيين ليس مـجـرد «ظاهرة» يمكن كبـحـهـا نتيجة لوقوع حادث مـأساوى كـالذى شـهـدته مدرسـة «كولمباين». وقد كان أصحاب النية الحسنة الذين راودهم الأمل فى إصـدار تشـريع ، أو اتخـاذ اجراءات حـازمـة لتـقـيـيد حـرية اقـتناء السلاح، يعرفون هم ايضا أن الأمر ليس بهذه البساطة.. ويدركون أن هناك قوى غـلابّة ، يصنعـهـا تضـافـر المصـالح والضـغوط السـياسـية والمالية، والتى لابد أن تقاوم اتخاذ خطوة ذات مغزى فى هذا الاتجاه. ولكن القليلين فقط، على الارجح، هم الذين يدركون حقيقة الجذور التاريخية والنفسية التى أدت عبر السنين الى نشأة جمـاعـات الضـغط وفـرضـت «حق» الفرد

الامريكي في اقتناء وحمل السلاح.. وهو حق أصبح من الصعب اليوم انتزاعه وان مال البعض - خاصة في اعقاب حادث مثل ذلك الذى وقع فى «كلورادو» - إلى تضييقه «بعض الشيء» ووضع بعض الضوابط له .

وقد حدث من قبل في الثمانينات ، وأيام كان رونالد ريجان رئيسا للولايات المتحدة، أن أثيرت ضجة كبرى ضد حرية - أو فوضى - حمل السلاح في أمريكا. كان الرئيس ريجان قد تعرض لإطلاق النار عليه في حادثة مشهورة ، ولم يصب يومها بأذى، وإنما اصيب حارسه الشخصى «برادى» الذي أدت اصابته الى أن أصبح مشلولا وعاش منذ الحادث في حالة عجز كامل. وقتها، انتهت الضجة إلى ماسمى بقانون «برادى» حيث جرأ الكونجرس الامريكي لأول مرة على اصدار تشريع يقيد من حرية الامريكيين - وإن فى أضيق الحدود - في اقتناء وحمل السلاح .

هذه المرة، وإثر الضجة التي احدثها مصرع الضحايا الخمس عشرة في «كورادو» كان طبيعيا ان تطرح مرة أخرى اقتراحات ومطالبات بتقييد حرية امتلاك وحمل السلاح . وخرجت المقترحات الاولي من البيت الابيض، تحمل اسم الرئيس الامريكي «بيل كلينتون» شخصيا، وتتركز بنوع خاص على البنود التالية :

- منع الاحداث من شراء الاسلحة النارية تماما، ورفع سن المسموح لهم بشراء اسلحة فردية من ١٨ الى ٢١ سنة.

- حظر امتلاك الشبان الصغار للاسلحة نصف الآلية الهجومية .

- مساءلة اولياء الأمور في حالة تمكن الاحداث الذين في رعايتهم من الوصول الى الاسلحة واستخدامها .

- مطالبة تجار السلاح بتزويد الاسلحة النارية بأقفال امان يتعذر على الاطفال معالجتها .

- تشديد العقوبات على تسهيل حصول الاحداث على الاسلحة النارية .

واعتبرت هذه المقترحات بمثابة مشروع لتسديد احكام «قانون برادى» وزيادة فاعليته .. خاصة بالنسبة للمراهقين والأحداث . ولكن العديد من الجماعات الأهلية المهتمة بالموضوع أكدت أنها غير كافية ، وذلك لأن جرائم وحوادث إطلاق النار تعود بشكل اكبر إلى تفشى العنف في «الثقافة الأمريكية» والتى تعكسها أفلام السينما والتليفزيون وألعاب الفيديو وشبكات الانترنيت ولا يعتقد حتى أشد الامريكيين تفاؤلا أن الادارة الامريكية ، لا الآن ولا فى المستقبل القريب، يمكنها أن تستجيب لمطالبات هذه الجماعات بفرض حظر صارم على اقتناء وحمل السلاح، وقد عبر عدد من كبار المعلقين في الصحف الامريكية عن ذلك فاعربوا عن عدم اعتقادهم بأن الادارة يمكنها التدخل من أجل تغيير هذا الجانب المدمر من الثقافة الامريكية ، وأن الحل الاسرع والاسهل هو فرض تشريعات تجعل اقتناء السلاح اكثر صعوبة مما هو عليه الآن !

الكونجرس .. في مواجهة السلاح

وعلى الرغم من أن مقترحات الرئيس كلينتون جاءت مخيبة لآمال الكثيرين - وفي مقدمتهم اسر ضحايا مدرسة

«كولمباين» – الذين كانوا ينشدون اجراءات اكثر فاعلية تكون بحجم المأساة التى وقعت وأكثر قدرة على منع تكرارها .. إلا أنهم ظلوا يأملون فى سرعة تقديم هذه المقترحات الى الكونجرس لاستصدار تشريع عاجل بها . ولكن الأيام أخذت تمر دون تقديم المقترحات التى ظهرت الى الوجود قبل مرور نحو ٢٤ ساعة على المأساة . وعندما سئلت «فيكتوريا فالنتاين»، وهى متحدثة باسم البيت الأبيض، عن سبب تأخر تقديم المقترحات إلى الكونجرس، وكان ذلك بعد مرور نحو أسبوعين على الحادث، اضطرت إلى الاعتراف بأن مقترحات الرئيس لم توضع بعد فى صورة مشروع قانون .. واكتفت بالقول إن ذلك سيتم «قريبا» ..

اما داخل الكونجرس نفسه، فقد كان الموقف يدل بوضوح على أن هناك ضغوطا تبذل لمقاومة أية اجراءات فعالة تهدف الى تقييد «حرية» امتلاك وبيع السلاح. وقالت صحيفة «الواشنطن بوست» تعليقا على ذلك ، إن افرادا معدودين من اعضاء الكونجرس هم الذين يبدو انهم يعبأون باتخاذ اجراء قوى يمكن تنفيذه . أما الأغلبية ، فإنهم «يختبئون فى مقاعدهم» بمجرد ظهور أى محاولة للربط بين ما يقع من جرائم وبين كميات الاسلحة النارية التى تغرق الاسواق . وذهبت الصحيفة الامريكية إلى أبعد من ذلك ، فاتهمت هذه الكثرة من أعضاء الكونجرس بأنهم أجبن من أن يواجهوا جماعة الضغط القوية (اللوبى) التى تعمل على ضمان واستمرار حرية بيع وامتلاك الاسحلة للامريكيين . والمعروف ان هذا (اللوبى) يعتبر الأقوى نفوذا فى الولايات المتحدة على الإطلاق (اقوى حتى من اللوبى الإسرائيلى) .. وتحتل مركز الصدارة فيه «اتحاد البندقية الوطنى "National Rifle Association"

وقد ألمحت «الواشنطن بوست» ، فى مقال نشر فى ٢ مايو ٩٩ ، الى وجود ما أسمته بالروابط المالية المتينة بين هذه الجمعية وبعض اعضاء الكونجرس .

الغريب، أنه عندما اراد زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ ، السناتور الجمهورى «ترينت لوت» مناقشة الموضوع، إذا به يدعو زملاءه الى رفض مقترحات كلينتون التى وصفها بانها «رد فعل عصبى» «knee-jerk response» وكرر «لوت» اراء كان قد سبق له أن أبداها حول الموضوع، مفادها أن مثل هذه الاجراءات تعتبر غير مجدية «لان الشبان سيحصلون على الاسلحة على أى حال»!!

كذلك فإن موقف السناتور «توم داشيل»، زعيم الاقلية الديمقراطية، جاء فاترا رغم أنه من حزب الرئيس. فقد أدلى بتصريح فى أعقاب الإعلان عن مقترحات كلينتون، ذكر فيه أن المهم هو مدى إمكانية تنفيذ هذه الافكار أو غيرها من الناحية العملية .

وقال : «يجب أن نعترف بأن لدينا قوانين كثيرة فى هذا المجال، على المستوى الفيدرالى وعلي مستوى الولايات، ولكنها لا تنفذ بشكل جيد» ..

أما رئيس مجلس النواب «دينيس هاستيرت» فإنه اكتفى بأن اقترح – بالاشتراك مع السناتور «لوت» – الدعوة الى مؤتمر وطنى حول الثقافة التى يعتنقها او ينتهجها الشباب الامريكى. والغرض من عقد المؤتمر ، على حد تعبيره هو تمحيص بعض القضايا المهمة

التي تواجه الطلاب والمجتمع الامريكي عامة.. بما في ذلك الأفلام ووسائل الميديا الحديثة (كالانترنيت)، والمخدرات والصلاة في المدارس ومسئولية الآباء .. الخ

شارلتون هيستون .. يتحدى !

وسط هذه الضجة شهدت مدينة «دينفر»، عاصمة كلورادو ، حدثا صنعته المصادفة البحتة ولكنه كان بالغ الدلالة .

ذلك أن لوبي السلاح القوى كان يستشعر منذ بعض الوقت أنه يفقد مقومات قوته تدريجيا وانعكس ذلك على منظمته الاساسية او المركزية وهي «اتحاد البندقية الوطني NRA» التي اخذت عضويتها تضمحل الى أن وصلت الى ٢،٨ مليون عضو .. فقط .

وكان أن استجمع قادة اللوبي قواهم واختاروا رئيسا جديدا لاتحاد البندقية هو الممثل الامريكي الشهير والمخضرم .. «شارلتون هيستون» الذي عولوا عليه كثيراً لإعادة جمع الشمل وحشد القوى المبعثرة وأعد الممثل الشهير خطة زمنية مدروسة بعناية تتضمن عقد مؤتمرات في كبريات المدن الأمريكية لحشد التأييد للاتحاد وأفكاره التي تقوم أساسا على حرية الفرد الأمريكي في امتلاك وحمل سلاحه الشخصي .

واشتملت خطة هيستون على عقد مؤتمر كبير بمدينة «دنفر» في الأول من مايو الماضي يستمر أربعة أيام . ولكن ، لسوء الحظ ، كانت «دنفر» قد شهدت مأساة إطلاق النار في المدرسة الثانوية قبل عشرة أيام من انعقاد المؤتمر .. مما فجر ثورة في صدور اهالي المدينة ضد اقتناء واستخدام السلاح الذي يحصل عليه الأحداث بسهولة لا مثيل لها في العالم كله . وسارع العمدة « ويلنجتون ويب» إلى الاتصال بالممثل الكبير ليرجوه إلغاء المؤتمر أو إرجاء عقده .. ولكن هيستون رفض متعللا بأن الوقت قد تأخر كثيرا بحيث أصبح إلغاء المؤتمر – والذي يشارك فيه ٣ آلاف عضو– في حكم المستحيل. ولكنه قبل، كحل وسط ، اختصار فعاليات المؤتمر لتقتصر على يوم واحد بدلا من أن يستغرق أربعة أيام.

وبالفعل ، انعقد المؤتمر في أحد الفنادق الكبرى بالمدينة، ووقف «شارلتون هيستون» يلقي كلمة الافتتاح التي لم يستطع فيها أن يتجنب الحديث عن المأساة التي وقعت قبل أيام في هذه المدينة بالذات. ولكنه دافع بقوة عن « حق» الفرد الأمريكي في اقتناء السلاح وحمله.. رافضا أي ربط بين هذه الحرية وبين ما يقع من حوادث تستخدم فيها الاسلحة النارية .

أما أهالي ضحايا مدرسة «كولمباين»، والذين كانوا قد شكلوا بدورهم اتحادا اطلقوا عليه اسم «تحالف كلورادو ضد عنف السلاح» فإنهم استنكروا عقد المؤتمر في مدينتهم .. وقال «تيد باسكو» متحدثا باسمهم : نحن نريد أن يعرف المسئولون عن اتحاد البندقية هذا اننا لا نرحب بهم في ولايتنا، لا الآن ولا في المستقبل وإلى الأبد ! وكان بضع مئات من أهالي واصدقاء الضحايا قد خططوا لإقامة قداس في القاعة الرئيسية لمجلس مدينة «دنفر»، وقد سار عشرات منهم إلى الفندق حيث ينعقد مؤتمر اتحاد البندقية .. ولكن لحسن الحظ أن المشهد اقتصر على طوافهم بالفندق احتجاجا ، دون وقوع حادث او مواجهة !

وفى الداخل ، كان صوت «شارلتون هيستون» يدوى عبر مكبرات الصوت مهاجما السياسيين ووسائل الإعلام والانتهازيين الذين حاولوا تحقيق مكاسب من وراء حادث مدرسة «كولباين» كما فعلوا فى مرات سابقة .

السينما .. وثقافة السلاح

هل كانت المصادفة هى التى جاءت بهذا النجم السينمائى الشهير الى مسرح المأساة، ووضعته فى هذا الموقف بالتحديد مدافعا عن «حق» الامريكى فى بيع وشراء وحمل وامتلاك واستخدام السلاح ؟!

ذلك أن السينما الأمريكية ربما تكون هى أفضل من عبر ، على مدى عشرات السنين وعن طريق عدد لا يحصى من الأفلام، عن العقدة الحقيقية فى مأساة مدرسة «كولباين» وما سبقها وما قد يلحقها من مآس. وقد عملت السينما الأمريكية، دون خطة مسبقة، على إلقاء الضوء على جانب مهم من جوانب الشخصية الأمريكية وكيف تكونت - وتعقدت - سيكولوجيتها بحيث اصبحت «ثقافة السلاح» أو بالأحرى «ثقافة العنف» جزءا اصيلا من تركيبة هذه الشخصية وصحبتها من عصور رعاة البقر والغرب المتوحش حتى عصر الفيديو والانترنت !

وربما لا يكون .. «شارلتون هيستون» واحدا من النجوم الذين جسدوا ابطال الغرب الامريكى على الشاشة .. فقد اشتهر بتمثيل دور «موسى» فى فيلم «الوصايا العشر». وعدد من الافلام التاريخية الأخرى. ولكن سواه من النجوم وخاصة فى عصر ازدهار السينما حوالى منتصف القرن العشرين، قدموا أعمالا تشرح بكل وضوح كيف جاء الامريكى المهاجر الى هذه الارض الجديدة ليتبين أنه لاحياة ولا استمرار بل ولا قيمة له إن هو لم يمتلك سلاحا .. ويتقن استخدامه . وفى هذه «الادوار» برزت اسماء كانت لها شهرة مدوية : جريجورى بيك . وجارى كوبر، وراندولف سكوت، وبيرت لانكاستر، وجون واين الذي اطلقوا عليه اسم «مستر امريكا» وصنعوا له تمثالا هائلا وضعوه على مدخل مدينة السينما هوليوود !

إن هؤلاء النجوم، وكثيرين غيرهم، جسدوا صورة حية لما كان عليه الأمريكى الاول الذى لم يعتمد على شىء - وهو يروض الأرض الجديدة ويطرد سكانها الاصليين - قدر اعتماده على قوته وسلاحه. وكان البقاء للاقدر على استخدام السلاح والأسرع فى إطلاقه ، فى تلك الحقب المبكرة ، كما كان الاقوى والأكثر عنفا وشراسة هو الأقدر على بسط النفوذ وامتلاك الارض والثروة .

وفى أحد افلام الغرب الشهيرة ، وهو فيلم «شين» الذى جسد دوره على الشاشة الممثل الراحل «آلان لاد» .. يقول بطل الفيلم لصبى صغير مبهور بمسدسه ذى المقبض العاجى والذى كان يشهره ويطلقه بسرعة البرق .. «إن قيمته تساوى قيمة من يحمله»!

وهو قول .. يبدو أن صداه لا يزال يتردد فى صدور المراهقين الامريكيين الذين يستطيع اى منهم ان يدخل الى أى محل لبيع السلاح، فيشترى مسدسا او بندقية آلية.. يسير به مزهوا او يطلقه على زملائه، تماما كما فعل الصبيان الصغيران اللذان صنعا تلك المأساة البائسة فى المدرسة الثانوية بولاية كلورادو !!!.

الشخصية المصرية

لا أظن أن عبارات مثل «الشخصية القومية» أو «العقل العربى» يمكن أن تدرس دراسة علمية بالمعنى المفهوم فى العلوم الاجتماعية . فهذه العلوم لم تعد تكتفى بتدوين الملاحظات عن الوقائع المشاهدة (مثل التاريخ الطبيعى) بل أصبحت تعتمد أكثر فأكثر على القياس والإحصاء ، وتستخدم من طرق البحث ما يتفق مع هذا المنهج (مثل الاستبيان وتحليل المحتوى والاختبارات بأنواعها .

ولكن تلك الكلمات التى نحن بصددها

• تعالج - فى جميع الأمثلة التى رأيناها - بطريقة انطباعية تشى بطبيعتها الانفعالية. فقد يكون الانفعال مشبعاً بالقلق ، والخوف من فقدان «الهوية» - كما فى حالتنا نحن العرب ، أو نحن المصريين - وقد يكون الانفعال مصطنعا ، الغرض منه بث الخوف والتمهيد للعدوان ، كما فى تلك الكتابات الغربية ، ومعظمها صحفى - التى تصور شخصية العربى النموذجى، أو المسلم النموذجى ، بصورة شخص مقنع يحمل فى يده مدفعاً رشاشاً.

فهذه الأحوال الانفعالية ، الصادقة أو المفتعلة ، هى التى يمكن أن تنسجم مع مفاهيم واسعة غامضة مثل الشخصية القومية والهوية الوطنية والعقل العربى والأصالة والمعاصرة الخ . وتحويل هذه المفاهيم المجردة إلى مدركات محسوسة يمكن أن تعالج بالأساليب العلمية مهمة عسيرة ، وقد يجد العلم الصحيح من الأفضل له أن يتخلى عن هذه المفاهيم ولا يجعل لها مكانا فى معاجمه ، وإن كان العلم الزائف يرحب بها ويستخدمها للتمويه على جماهير القراء بغية تحقيق أهداف معينة ، أو لمجرد الإيهام بأن ما

بقلم : د. شكرى محمد عياد

يكتب تحت هذه العناوين البراقة يمثل علماً راقيا.

ولكننا نخطىء إذا حسبنا أن استبعاد مفهوم «الشخصية القومية» من دائرة العلوم الاجتماعية يعنى استبعاد هذا المفهوم من الدراسات العلمية عموماً . فليس من الضرورى أن نقصر «العلم» على الأشياء التى يمكن إخضاعها للاختبار والقياس ، وإلا فإن العلم يكون مقصوراً على الماديات ، أى على العلوم الطبيعية وما تعلق بأذيالها من العلوم الاجتماعية الحديثة ، وتستبعد «القيم» من مجال الدراسة العلمية ، أو تعامل على أنها ناتج إضافى للأوضاع المادية . ولكن الذين يعتقدون أن القيم المطلقة - الحقيقة المطلقة والخير المطلق والجمال المطلق - لها وجود موضوعى سابق على الوجود المادى للطبيعة والإنسان - هؤلاء المؤمنون يقبلون مفاهيم كثيرة لا يمكن اختبارها أو قياسها ماديا . وقد كانت «الفلسفة» تتعامل مع هذه المفاهيم إلى أن خضعت الفلسفة لمنطق العلم فاستبعدت كل هذه المفاهيم التى تعد «وراء الطبيعة» أى وراء المادة . وكانت الفلسفة قطب الرحى للعلوم التى تسمى العلوم الإنسانية أى تلك العلوم التى تبحث فى «الإنسان» بوصفه كياناً متكاملاً لا يمكن فهم جميع أسراره من خلال القوانين المادية وحدها . فالآن أصبحت الفلسفة ، بهذا المعنى ، تهدم نفسها (إلا مابقى منها مستنداً إلى الدين) ، وهربت منها فروعها - وعلى رأسها علم النفس وعلم الاجتماع - مكونة مايسمى اليوم العلوم الاجتماعية ، وكأن هذه التسمية الأخيرة لافتة موقوتة سوف تنزع حالما يتم التحاق هذه العلوم بالعلوم الطبيعية .

قضية القيم

لم يكن بد من هذا الاستطراد إلى موقف الفكر المعاصر من قضية القيم عموما . فهذا الموقف هو الذى يحدد طريقة تعاملنا مع مفاهيم كثيرة تعد غامضة ولا محل لها من البحث العلمي ، ومنها القضية التي نحن بصددها الآن ، قضية «الشخصية القومية» .

فهذه القضية ترجع فى أصلها إلى ما يسمى «الثقافة» . من المسلم به أن فى العالم ثقافات كثيرة ، لا ثقافة واحدة . وإن كنا نقول إن الثقافات تهاجر ويتصل بعضها ببعض ويؤثر بعضها فى بعض مكونة ما نسميه ثقافة أوربية حينا ، مع

أنها مكونة من ثقافات متمايزة إنجليزية وفرنسية وألمانية الخ . ومن المسلم به أيضا أن «الدين» عنصر مهم فى أى ثقافة. والدين فى جوهره قيم مطلقة . وما نسميه «الشخصية القومية» لايمكن أن يوجد إلا إذا اعتمد على «ثقافة قومية» تمنح هذه الشخصية وحدتها التى تسمح لنا بأن نتكلم عنها باعتبارها مفهوماً واضح المعالم . ومادامت الثقافة القومية مرتبطة بالدين فالشخصية القومية مرتبطة بالدين أيضاً ، أى أنها مرتبطة بالقيم : فلذلك هى تستعصى على وسائل البحث الاجتماع الحديث ، وإذا أرادت أن تبقى فلابد لها من أن تجد مأوى آخر .

أين هذا المأوى وقد نقضت الفلسفة بناءها ، أو حلت خيمتها أسبابا وأوتادا ؟ لم يبق للقيم موضع فى الدراسات المعاصرة إلا مع الدراسات الأدبية .

وإلى جوار الأدب ، دراسة وإبداعا ، يقوم علم فريد بين العلوم الاجتماعية : علم الأنثروبولوچيا ، أو دراسة الإنسان ، أو دراسة الثقافات . ففى هذا الجوار إذن ينبغى أن تنزل دراسة «الشخصية القومية» . ونقول إن الأنثروبولوچيا» علم فريد بين العلوم الاجتماعية ، وقريب من الأدب ، لأنه يقوم على التعاطف بين الدارس وموضوع الدراسة . نعم ، إن كل عمل إنسانى ، أيا كان نوعه ، يتطلب نوعا من الحماسة من قبل القائم به كى ينجزه بصورة مرضية ، ولكننا إذا استثنينا الأعمال الفنية جاز لنا أن نعمم الحكم بأن العامل أو العالم - سيان - يجب أن يتجرد من ميوله الشخصية لكى يرى موضوع عمله أو دراسته بأكثر ما يمكن من الشمول والدقة ؛ غير أن الدارس الانثروبولوجى لا يرى موضوعه رؤية على درجة من الصدق إلا إذا «شعر» عقلا ووجداناً بهذا الموضوع ، فموضوعه وهو الثقافة - كيف يعيش الناس فى مجتمع ما وكيف يفكرون - سيبقى مغلقاً أمامه إذا لم يستطع أن يعيش كما يعيشون ويفكر كما يفكرون . هذا شرط ضرورى لأى دراسة انثروبولوجية ميدانية . أما الدراسات الأنثروبولوجية النظرية التى تتناول شكلا ما من أشكال الثقافة ، معتمدة على مصادر شتى ، فلابد لها من فهم «القيم» التى تتجه نحوها الثقافة بجميع أشكالها ، وفهم القيم لا يتم بعمل

عقلي محض ، دون انطباع شعوري .

تقول الدكتورة علياء رافع في تقديم كتابها «الشخصية المصرية : دراسة أنثروبولوجية للمدرسة المصرية للفن والحياة» : «إن المساحة بين الذات والموضوع المدروس ستظل دائما موجودة على الرغم من المحاولة الدائمة للاقتراب والتوحد . وقد لا أظهر سرا إذا قلت التعرف على هذه المدرسة قد لاقى عندى قبولا كبيراً وتقديراً عظيماً على المستوى الشخصى للتقارب الفكرى والمعنوى الذى يجمعنى وهذه المدرسة . فهى تعبر فكريا وعمليا عن إيمان نشأت عليه ، لا يتشدق بالألفاظ ولكنه يظهر فى الأعمال ، وتعبيد الطريق كى يرتبط الفكر والعمل ، العلم والفن ، الثقافة والدراسة ، الروح والجسد، الحياة ومعناها ، الدين والحياة ، الفهم والواقع ، النهضة ومقوماتها» (ص١٥) .

لعل الكاتبة كانت فى غنى عن هذه العبارات الخطابية الأخيرة ، ولاسيما أنها تناقض التقرير العلمي المقتصد الذى بدأت به الفقرة . ولعلها لو عرفتنا بعلاقتها الواقعية بهذه المدرسة ، وهل جاءت من طريق الفكر أولا ، أو من طريق الفن أولاً ، لأعدتنا إعداداً أفضل لفهم الفصول التالية. ولكن ثمة أسئلة أخرى ، أكثر أهمية ، يثيرها العنوان نفسه : فهل يمكن أن تكون الدراسة الأنثروبولوجية لمدرسة فكرية أو فنية معينة ، دراسة للشخصية المصرية ؟

الثقافة المصرية

إذا كان فى استطاعتنا أن نتحدث عن شخصية قومية ما ، الشخصية المصرية فى هذه الحالة ، على أنها النموذج الذي نستخلصه بوسائل البحث الأنثروبولوجى ، وهى الاتصال الحميم والرصد الدقيق ، ويمكننا أن نقول عنه إنه يمثل الثقافة المصرية ، أى طريقة المصريين فى الحياة وأسلوبهم فى التفكير والسلوك ، فهل نكون قد أحسنا الاختيار عندما نستخلص هذا النموذج من جماعة صغيرة تسمى نفسها «مدرسة الفن والحياة» ؟ فما بالك إذا اقتصرنا على سيرة رائد هذه المدرسة، الأستاذ حامد سعيد ؟ إن هذا هو ما تفعله الكاتبة . وحجتها «أن الشخصية التى نريد أن نقيمها والحضارة التى يجب أن تبعث من جديد قد تكون ملاذنا فى هذا التيه الذى فرضه علينا العصر بكل متغيراته السريعة ، وتقلباته الحائرة ، إذ إنه على الرغم من كل ما أحرزه هذا العصر من تقدم علمي وتكنولوجى إلا أن وعيه بقيمة الإنسان يتضاءل ، وهذا التضاؤل قد أفصح عن نفسه فى تلك الحركات التى تبحث عن

معنى للحياة ، ولكنها تضل الطريق فيصبح العنف أو السلفية أو التجمد بعض الوسائل التى يدافع بها الإنسان المعاصر عن فقدان المعنى وضياع الغاية من الحياة» (ص٢٩) .

وتسلم بأن «الحياة» التى تدرسها «ليست حالة منتشرة ، ولكنها مسعى مطلوب» وفى رأيها أن مثل هذه الدراسة تقدم إسهاما من الأنثروبولوجيا المصرية للعلم والمجتمع» (ص٣٧) .

وتضيف :

«هذه الدراسة إذن ليست دراسة للشخصية القومية National char-acter† كما هى موجودة اليوم فى المجتمع، وإنما هى دراسة لنموذج حى لدعوة مستقبلية تقوم على أساس حياة معاشة» .

سيرة المصريين القدماء

وهى بهذه العبارة الأخيرة لا تنقض العنوان الذى وسمت به بحثها ، ولكنها تؤكد مخالفتها لمفهوم «الشخصية القومية» كما استعمله دارسون آخرون ، فهى لا تصف واقعا ، بل تصور نموذجاً ممكنا ، ودليل إمكانه أنه تحقق بالفعل فى حياة الشخصية التى تدرسها . نحن إذن أمام دراسة تمزج الأنثروبولوجيا باليوتوبيا (الحلم بحياة فاضلة) . وهى - اتباعا لصاحب السيرة - تجد النموذج الأول فى سيرة المصريين القدماء ، التى تتجلى فى أعمالهم الفنية ، ولكنه نموذج استمر على مدى التاريخ ، من العصر القبطى إلى العصر الإسلامى . وسره يتلخص فى كلمة : «الوحدة» . وحدة الإنسان مع نفسه أولاً ، ثم وحدته مع الطبيعة متمثلة فى بيت يهيىء له السكينة والاكتمال الروحى. على أن «البيت» لا يلبث أن يتسع ليشمل المجتمع ، والإنسانية ، والكون كله . هذه الوحدة الشاملة هى الهدف الأسمى للحياة وسبيلها حركة دائمة نحو الأعلى ، قطباها الحرية والعمل .

هذه خلاصة - لابد أن تكون مبتسرة - للشخصية المصرية كما كانت ، أو كما نتمنى أن تكون ، وكما استخلصتها الكاتبة من حياة الأستاذ حامد سعيد . ولكن لماذا نصف الشخصية التى لها هذه السمات بأنها «مصرية»؟

تجيب الكاتبة على هذا التساؤل بقولها:

«لو لم تكن الثورة الزراعية التى قامت فى مصر والتى نشأ عليها المجتمع المصرى بكل تعقيداته وبكل بنائه الروحى والمادى ، لكان لزاماً أن ينشأ هذا المجتمع فى مكان آخر على سطح الأرض ، وإلا لظلت البشرية فى ظلام الجهل» .

«إذن هذه البداية التى خطتها ورسمتها الحياة المصرية لها قيمتها الإنسانية العالمية . وليس هذا من قبيل الرأى الفردى ولكنه الواقع العلمى لتطور الحياة على هذا الكوكب» (ص١٤٨) .

وصحيح أن هذا الرأى ليس رأيا فرديا للكاتبة ، ولا للأستاذ حامد سعيد (إذا كانت تروى عنه) ، فقد قال به كثير من علماء المصريات ، أمثال هنرى برستيد صاحب الكتاب المشهور «فجر الضمير» ، وقد استشهدت به الكاتبة عدة مرات . ولكن هذا الفرض التاريخى لا يمكن أن يلغى تطوراً استمر عدة آلاف من السنين «على هذا الكوكب» ، وفى مصر ، مثل سائر بلاد العالم ، ولا ينفى أن الثورة الزراعية أعقبتها ثورة صناعية ، فهل نفترض أن «الشخصية المصرية» بقيت على حالها ، لم تتغير ؟ وإن صح هذا الفرض ، فهل يكون فضيلة لهذه الشخصية المصرية ، أم يكون جموداً شبيها بالموت ؟

كثيراً ما تندفع الكاتبة ، فى حماستها لهذا النموذج ، إلى ما يشبه الدعوة لإحيائه ، بصفاته الآنفة الذكر ، فى ظروف العالم المعاصر ، وكثيراً ما تستخدم ، فى سياق هذا الإحياء ، كلمة حديثة جدا ، كلمة «التنمية» ، التى أظنها ، ولست من الخبراء ، اصطلاحاً للرأسمالية العالمية لا يقصد بها فى النهاية إلا توسيع السوق ، الذى يعني مزيداً من الاستهلاك ، أى مزيداً من الاستنزاف لثروات الطبيعة ، ولا أظنه يتلاءم مع الحياة الفاضلة التى يتمناها حامد سعيد ، والتى عاشها بشجاعة وأمانة ، لا تتوفران إلا لقلة من الفلاسفة .

ولكن الكاتبة كانت أقرب إلى الدقة والوضوح عندما قالت إنها تستخدم هذا المفهوم «الشخصية المصرية» باعتباره «رمزاً» ينبسط ، كالمروحة ، على دلالات متعددة (ص٣٦) ، ثم عندما وصفت هذه الدلالات ، فى ختام بحثها ، بالمثالية ، وتمنت أن تعود من جديد .

فى حصاد القرن العشرين



التاريخ السياسى للعرب

بقلم : د .عاصم دسوقى

خلال القرن العشرين انشغل العرب بقضايا التحرر من الاستعمار سياسيا واقتصاديا، وبتحقيق الوحدة العربية منذ بدأت فكرة العروبة فى أواخر القرن التاسع عشر فى مواجهة الرابطة العثمانية . وفى سعى العرب لتحقيق هذين الهدفين شغلوا بالصراع ضد الصهيونية مما كان له تأثيره على مختلف الاستراتيجيات العربية.

فى مطلع القرن العشرين كانت المنطقة من الخليج شرقا الى المحيط الاطلسى غربا التى أخذت اسم «العالم العربى» فيما بعد، تخضع للنفوذ الأجنبى بشكل مباشر أو غير مباشر: انجليزى وفرنسى واسبانى وايطالى، فضلا عن التبعية القديمة للدولة العثمانية فى العراق وسوريا الكبرى. ولم تكن تلك المنطقة تعرف فى الخريطة السياسية بالعالم العربى، بل كانت أجزاؤها تعرف بعدة أسماء: فهناك شمال افريقيا ويضم تونس والجزائر والمغرب الأقصى (مراكش) وليبيا على سبيل التجاوز. وهناك المشرق الذى يضم بلاد العراق وسوريا وبلدان الجزيرة العربية. ومصر والسودان تعرفان هكذا.

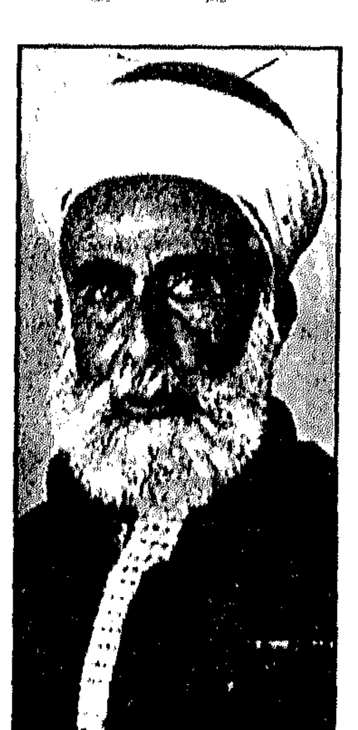
وكانت المقاومة الوطنية للغزو الأجنبي لاتزال قائمة بدرجة أو بأخرى ضد فرنسا فى كل من تونس والجزائر ومراكش، وضد انجلترا فى كل من مصر والسودان والجنوب العربى (عدن) . وضد ايطاليا فى ليبيا . أما بلاد العراق وسوريا الكبرى فكانت لاتزال ولايات عثمانية، بالاضافة إلى باشوية جدة دون سائر الحجاز الذى كان إمارة مستقلة يحكمها أشراف قريش. وأما قلب الجزيرة العربية وجنوبها فكان عبارة عن وحدات مستقلة، فهناك عسير ويحكمها الأدارسة، وحائل تحت حكم آل شمر. ونجد تحت حكم آل سعود واليمن تحت حكم الامامة الزيدية.

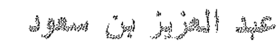
غير ان عدم تكافؤ القوة بين المقاومة العربية من جهة والقوى الأجنبية من جهة أخرى، جعل من السيطرة الاستعمارية واقعا مستمرا، زاد من وطأتها ما حدث محليا وعالميا ابتداء من عام ١٩٠٨ . ففى ذلك العام استولت جمعية الاتحاد والترقى على السلطة العثمانية، وهى حزب سياسى مركزى استهدف ايجاد «قومية تركية» بتتريك العناصر غير التركية فيما تبقى من الامبراطورية العثمانية. وكان من شأن تلك السياسة التخلى عن سياسة اللامركزية التى اشتهرت بها الدولة العثمانية طوال تاريخها، وكانت احد أسباب استمرار سيطرتها.

فكرة العروبة

وكانت بلاد سوريا أول من شعرت بوطأة سياسات الحكم الجديد فى تركيا، ومن هنا اشتعلت حركة الانفصال عن الرابطة العثمانية الدينية وذلك فى اطار فكرة العروبة التى تميز العرب عن الأتراك. وفى المقابل بدأت السلطات التركية تلاحق عناصر الانفصال بكل شدة وخاصة

الشريف حسين





عبد العزيز بن سعود



الأمير فيصل بن الحسين



أعضاء جمعيتي العربية الفتاة والعهد. وفي ١٩١٢ أرسلت تركيا واليا جديدا على الحجاز «وهيب باشا» ، وليس على باشوية جدة كما كان متبعا أيام السلطنة العثمانية وبتعليمات محددة لضم بلاد الحجاز إلى الحيازة التركية. وهنا توجس الشريف حسين أمير الحجاز خيفة من الاتجاه الجديد للحكومة التركية، وتوقع الصدام معها. ومن باب استشراف المستقبل ارسل ابنه عبدالله «الذى أصبح امير شرق الأردن» الى القاهرة لاستطلاع رأى السلطات البريطانية فيما يمكن ان تفعله فى حالة نشوب الصدام وبما يسمح بالمحافظة على منصب الشرافة. وفى القاهرة التقى عبدالله باللورد كتشنر المعتمد البريطانى الذى أبرق لوزارة الخارجية بالموضوع. غير ان الخارجية البريطانية لم تعد بشيء محدد، ولكنها فتحت ملفا للمسألة لترجع إليه فى الوقت المناسب.

ثم جاء الوقت المناسب عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى فى صيف ١٩١٤ وانضمت تركيا الى جانب المانيا والنمسا ضد انجلترا وفرنسا ومعهما روسيا وايطاليا فيما بعد، اذ بادرت بريطانيا باعلان حمايتها على مصر، فانقطعت الصلة القانونية التى كانت تربط مصر بالدولة العثمانية. ومنعت الخديو عباس حلمى الثانى من العودة الى مصر وكان يقضى اجازة صيفية فى استانبول. وعينت عمه حسين كامل بلقب السلطان بدلا من الخديو.

وكان كتشنر قد غادر مصر الى لندن واصبح وزيرا للحرب. وهناك تذكر موضوع الشريف حسين والحكومة التركية، ومن ثم بدأ التفكير فى كيفية استغلال الموقف لأضعاف تركيا فى جبهات القتال، فكان ما كان من أمر اندلاع الثورة العربية الكبرى فى يوليه ١٩١٦ من الحجاز لاسقاط الحكم التركى فى بلاد سوريا الكبرى والعراق واعلان مملكة عربية فى شبه الجزيرة العربية. وحول كيفية قيام هذه الثورة وحدود المملكة المزمع اعلانها، تمت مراسلات شهيرة بين الشريف حسين والسير هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر بلغت عشر رسائل ابتداء من يولية ١٩١٥ الى مارس ١٩١٦ وعرفت تاريخيا بمراسلات الحسين ـ مكماهون . وفى تلك الرسائل يوافق الحسين على ان تخرج من مملكته المرتقبة مناطق استراتيجية حيوية : الاسكندورنة الى مرسين وديار بكر

«شمال سوريا والعراق» بحجة انها غير عربية، والبصرة وبغداد لاحتلالهما لدواعي الحرب، وعدن لأنها محمية بريطانية ، وامارات الخليج «ساحل عمان» لوجود اتفاقات مع شيوخها. ومنطقة تقع غرب دمشق - حمص - حلب لأجل خاطر فرنسا.

الثورة على الاتراك

وهكذا وفي يولية ١٩١٦ أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك، وأطلق الرصاصة الأولى على القلعة التركية بمكة. وفي ديسمبر ١٩١٦ بويع ملكا على العرب، وتقدمت قواته في بلاد سوريا حتى دخلت دمشق في أكتوبر ١٩١٨ ، وتراجعت أمامه القوات التركية حتى غادرت سوريا. وإلى هنا وانتهى دور الشريف إذ لم يكن في نية بريطانيا حقيقة تكوين مملكة عربية بزعامة الحسين، ذلك انها كانت تقصد فتح جبهة داخلية على الأتراك تجعلهم يسحبون قواتهم من جبهة القتال لتخفيف الضغط على روسيا. والدليل على ذلك أنه وقبل ان تبدأ مراسلات الحسين - مكماهون بنحو أربعة أشهر كانت ثمة مباحثات سرية تجرى بين بريطانيا وفرنسا ودخلتها روسيا وايطاليا فيما بعد حول التصرف في أراضي الدولة العثمانية في المشرق في حالة انتصار الحلفاء، وهي المباحثات التي انتهت باتفاقية سايكس - بيكو في مايو ١٩١٦ «مارك سايكس عضو مجلس العموم البريطاني والخبير بالشرق الأدنى، وشارل بيكو قنصل فرنسا في بيروت» . وكانت تلك الاتفاقية أساس سياسة الأنتداب التي أقرتها عصبة الأمم في ١٩٢٢ بحيث أصبحت بريطانيا منتدبة على العراق وفلسطين . وفرنسا منتدبة على سوريا ولبنان. وهكذا. وعندما صدر تصريح بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ بشأن عطف بريطانيا على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين كان في بال الساسة الانجليز ان فلسطين سوف تدخل في دائرة نفوذها بعد انتهاء الحرب.

بريطانيا والتوازنات

غير انه سرعان ما أقدمت بريطانيا على اجراء بعض التوازنات لصالح «حلفائها» في المنطقة . فنراها تتخلى عن انتدابها على العراق ليصبح مملكة مستقلة توج عليها الأمير فيصل بن الحسين «١٩٢١» تعويضا له عن دولته التي فقدها في دمشق التي كان قد أعلنها غداة الثورة في ١٩١٦. ولما أعرب الامير عبد الله الأخ الأكبر لفيصل عن غضبه

لتجاهله، اقتطعت له بريطانيا أرضا شرق نهر الأردن ليصبح أميراً عليها «١٩٢٢» . وتغمض بريطانيا عينها عن توسعات عبدالعزيز بن سعود حين يعلن نفسه سلطانا على نجد في ١٩٢٢ ويدخل الطائف في العام التالى «١٩٢٣» ثم مكة «١٩٢٤» ويعلن نفسه ملكا على الحجاز ثم يعلن المملكة العربية السعودية في ١٩٣٢ من قلب الجزيرة وحتى السواحل الغربية. وفي الوقت نفسه كانت بريطانيا قد بدأت خطوات انشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين.

وقبل ان تندلع الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٩ كانت تبعية العرب للنفوذ الاجنبي قد توثقت اكثر وأكثر من خلال سلسلة من المعاهدات : مع الاردن في ١٩٢٨ ، ومع العراق في ١٩٣٠ ، ومع مصر ١٩٣٦ . وفي اثناء الحرب وفي ٢٩ مايو ١٩٤١ صرح انتوني إيدن وزير خارجية بريطانيا ان بلاده تشجع تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية والسياسية بين البلدان العربية، وان بريطانيا سوف تؤيد أية خطة في هذا السبيل تلقى موافقة عامة. ثم عاد ايدن ليؤكد ذلك التأييد امام مجلس العموم البريطاني «٢٤ فبراير ١٩٤٣» بناء على سؤال بشأن ما فعلته بريطانيا لاقامة اتحاد فيدرالي من الدول العربية، اذ قال أن بريطانيا تنظر بعين العطف الى كل حركة من العرب في هذا السبيل اذا ما أقدم العرب عليها.

هل هناك علاقة بين التصريح الأول لايدن وحركة رشيد عالي الكيلاني في العراق الموالية للالمان، واتجاه الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين نحو الألمان، وتراجع قوات الحلفاء أمام الألمان الذين وصلوا الى شمال افريقية واصبحوا قاب قوسين او ادنى من الحدود المصرية، وخشية بريطانيا من انحسار نفوذها في البلاد العربية، ومن ثم أرادت استثمار المسألة العربية وتشغيلها كما فعلت اثناء الحرب العالمية الأولى «ثورة الشريف حسين ١٩١٦» ليست هناك اجابة يقينية للربط بين الموقف السياسي في الحرب وبين التصريح ولا يمكن نفي الربط بينهما ايضا.

على كل حال.. تلقفت حكومة الوفد في مصر التشجيع البريطاني . ووجه مصطفى النحاس رئيس الحكومة دعوة الى الدول العربية للتشاور بشأن اقامة منظمة عربية. وانتهت المشاورات في الاسكندرية اواخر ١٩٤٤ باقامة جامعة الدول العربية «مارس ١٩٤٥» وبصرف

النظر عن أوجه النقد التى يمكن توجيهها للجامعة الا ان اقامتها فى حد ذاته يعد انجازا عربيا ملحوظا انذاك.

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ العالم يشهد تغيرا فى العلاقات الدولية فى مراكز القوى، إذ خرجت بريطانيا وفرنسا من الحرب متهالكتين . وانتقل مركز قيادة الغرب الرأسمالي الى الولايات المتحدة الامريكية التى أخذت تتطلع لوراثه النفوذ الاوروبى فى العالم. وبدأت الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى الشيوعى والغربى الرأسمالى «ابتداء من ١٩٤٧» . وقد استفادت حركة التحرر الوطنى والاجتماعى فى العالم الى حد كبير من التناقض القائم بين المعسكرين . ولقيت ايضا كثيرا من المتاعب. وفى إطار تلك الحرب تحقق الاستقلال السياسى لكثير من البلاد العربية «ليبيا فى ١٩٥١ ، والمغرب وتونس ١٩٥٦ ، والجزائر فى ١٩٦٢ بعد معارك دامية منذ ١٩٥٤ ، وامارات الخليج خلال المدة من ١٩٦١ - ١٩٦٨ ، وعدن ١٩٦٧ . وسقطت الملكية فى مصر بثورة ١٩٥٢ وفى العراق ١٩٥٨ والامامة فى اليمن ١٩٦٢ . ومن قبل كانت سوريا ولبنان قد تخلصتا من الانتداب الفرنسى فى ١٩٤٦ واعلنت الجمهورية فى كل منهما».

وفى مناخ الحرب الباردة بين المعسكرين نمت بين قوى التحرر الوطنى فكرة الحياد الايجابى وعدم الانحياز لأى منهما. وكانت مصر الدولة العربية الوحيدة التى اسهمت فى صياغة موقف الحياد الايجابى فى باندونج ١٩٥٤ . وكانت باندونج بداية الدخول فى معارك ضارية ضد الاحلاف التى أرادت الولايات

انتونى ايدن

أمين الحسينى

السلطان عبد الحميد

المتحدة الامريكية ان تربط المنطقة العربية بها ابتداء من حلف بغداد ١٩٥٥ ، وقد تحملت مصر عبدالناصر عبء المواجهة مع الغرب فى هذا الخصوص. وكان الثمن باهظا اذ نجحت قوى الغرب الاوروبى الامريكى التى لم تكن ترضى بغير الاستقطاب بديلا، فى اختراق الصفوف العربية بسلاح المصالح والمنافع بحيث ترك عبدالناصر الذى رفض المساومة على المبدأ. يواجه المواقف المعادية للحياد الايجابى عاريا من التأييد العربى الفعال والحقيقى.

وعندما اختفى قادة الحياد الايجابى من المسرح السياسى ومنهم عبدالناصر «توفى فى سبتمبر ١٩٧٠» كان المبدأ قد أصبح حبرا على ورق رغم استمرار الاجتماعات الدورية لدول المجموعة، بحيث كانت أنباء تلك الاجتماعات تقابل بابتسامة لها مغزاها من المراقبين .

والحق ان مواجهة الغرب الاوروبى ـ الامريكى للحياد الايجابى وعدم الانحياز لاستقطاب شعوبه كانت تتزامن مع حصاره للمعسكر الشيوعى الذى بدأ الخلل يدب فى أوصاله منذ استقطب الغرب منظمة تضامن العمالية فى بولنده فى مطلع الثمانينات. وما هى الا بضع سنوات حتى فوجىء العالم بانهيار حكومات الاحزاب الشيوعية فى المعسكر الشرقى (١٩٨٩ ـ ١٩٩٠) ، وبدأت عملية تفكيك كياناته الكبرى الممثلة فى الاتحاد السوفييتى ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا. وتحول الخطاب الايديولوجى فى تلك البلاد الى الخطاب البرجماتى الامريكى. وقد رأت الدوائر المحافظة فى الحكومات العربية فى هذا الانهيار انتصارا كبيرا لها، لأن تلك الدوائر كانت تعادى بشدة التوجهات الاشتراكية التى أخذت بها مصر عبدالناصر، وجزائر بومدين. وعراق قاسم وسوريا الاسد «حزب البعث» بدرجة أو بأخرى ، وانهالت اقلام المثقفين المرتبطين بتلك الدوائر المحافظة للنيل من الاشتراكية وتشييعها بدموع الفرح.

وفى يناير ١٩٩٥ أعلنت منظمة التجارة العالمية فى اطار تطوير اتفاقية الجات «١٩٤٧» بهدف فتح الاسواق الانتاجية والثقافية دون شروط. على طريق تأسيس نظام عالمى جديد يقفز على الحدود والهويات القومية والدينية للشعوب. وكانت البلاد العربية من اوائل البلاد التى انضمت الى هذه المنظمة دون تحفظات رسمية الا من الندوات التى يعقدها المثقفون للحديث عن الهوية

والعولة. وهكذا وأمام سوق العالمية تضيع خصوصية القومية العربية التى ناضل العرب من اجلها منذ اواخر القرن التاسع عشر.

إنشاء وطن قومى لليهود !

ومن القضايا التى شغلت العرب منذ مطلع القرن وحتى نهاياته قضية انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين برعاية بريطانية . وكان استيطان اليهود حول القدس قد بدأ فى اربعينات القرن التاسع عشر بعد انسحاب محمد على من بلاد الشام تطبيقا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ ، وفى غفلة من السلطات العثمانية التى يفاخر انصارها بأن السلطان عبدالحميد لم يوافق على بيع اراضى لليهود فى فلسطين أو إنشاء وطن قومى لهم هناك. ولكن هؤلاء الانصار لم يلتفتوا الى ان الادارة العثمانية لم تمنع هجرة اليهود وتكوين مستوطنات حول القدس بأسماء عبرية بلغت ثمانى عشرة مستوطنة فى اواخر القرن ١٩ بحيث عندما عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة «بال» بسويسرا فى ١٨٩٧ كان فى البال امكانية تحقيق المشروع بناء على ذلك.

على ان العرب لم يدركوا خطورة الموقف إلا بعد إذاعة تصريح بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ومكاشفة الامير فيصل بن . الحسين قائد ثورة ١٩١٦ فى مؤتمر الصلح بباريس (فرساى) عام ١٩١٩. ومساومته على الاعتراف بالدولة العربية فى دمشق مقابل الوطن القومى لليهود فى فلسطين. ثم ما كان من تقرير انتداب بريطانيا على فلسطين فى ١٩٢٢ وانشاء الوكالة اليهودية. ومنذ تاريخ الانتداب الذى تولاه هربرت صمويل البريطانى الصهيونى لم تتوقف المصادمات العربية اليهودية، وكان ابرزها ثورة ١٩٣٦ بقيادة عز الدين القسام التى كانت فاتحة ارسال اللجان البريطانية والامريكية للتوصل الى تسوية. وقد اسفرت هذه اللجان التى بدأت بلجنة بيل البريطانية فى ١٩٣٧ عن تقسيم فلسطين الى وطنين-وطن يهودى واخر فلسطينى . ولكن ونتيجة للنفوذ الاجنبى فى المنطقة وخاصة البريطانى لم تستطع الحكومات العربية الاعلان عن رفضها لمشروع بيل فى التقسيم فما كان من التجمعات الشعبية الا ان عقدت مؤتمرا فى «بلودان» فى ذات العام للوقوف ضد التقسيم ولكنه لم يكن اكثر من احتجاج بصوت مرتفع. وفى نوفمبر ١٩٤٧ اعترفت الأمم المتحدة بمشروع التقسيم الذى رفضه العرب ثم دخلوا

حربا خسروها في مايو ١٩٤٨ فى اليوم التالى لاعلان دولة اسرائيل باعتراف امريكى وسوفييتى.

سلام مع إسرائيل

ومنذ ذلك التاريخ بدأ عصر الشتات الفلسطينى واصبحت القضية الفلسطينية تتمحور حول ازالة دولة اليهود وفى الوقت نفسه البحث عن وسائل لتوطين اللاجئين. ومع قيام ثورة يولية ١٩٥٢ والاعلاء من شأن القومية العربية، بدأ تنظيم مقاطعة اسرائيل، وتحديد علاقات العرب الخارجية فى ضوء سياسات الدول الاجنبية بالنسبة للقضية. وبدا ان العرب متفقون على هذا *الهدف الذى اتضحت* معالمه فى اكثر من مناسبة لعل أبرزها كان اثناء حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ ثم فى حرب ١٩٧٣ . غير ان اعلان السادات بأن حرب اكتوبر هى آخر الحروب كان من شأنه الدخول فى عملية «سلام» مع اسرائيل تتخطى الحاجز النفسى ضد اليهود كما انتهى اليه تصور السادات للصراع. وكانت معاهدة مارس ١٩٧٩ بين مصر واسرائيل أولى المعاهدات التى كانت تعتبر بدرجة او باخرى تحقيقا لهدنة رودس ١٩٤٩، مما يجعل المرء يتساءل فيم اذن كانت الحروب اذا كان العرب يعودون فى عام ١٩٧٩ الى ما تقرر دوليا فى ١٩٤٩ .

وبعد مصر دخلت الأردن فى عملية السلام ووراءها منظمة التحرير الفلسطينية صاحبة القضية عبر مباحثات من مدريد إلى أوسلو التى انتهت باعلان السلطة الوطنية الفلسطينية على الناس وليس على الارض. ومن الملاحظ ان الموقف يتجمد عند هذا الحد اذ ان اسرائيل كما يبدو من ظاهر الاحداث انها لا توافق على اعلان دولة فلسطين التى

مصطفى النحاس



عبد الناصر



الملك فاروق



كان من المقرر اعلانها فى ٤ مايو ١٩٩٩. لان اسرائيل تربط الموضوع برمته بقضية الامن التى ليس لها حدود. والعرب يوافقون على كل هذا من باب الحكمة .

حلم الوحدة !

وهكذا.. عندما يتسأمل المرء فى صفحات الحركة السياسية للعرب فى القرن العشرين باتجاه القضايا التى شغلتهم وما انتهت اليه ونحن فى نهاية القرن، لا يخرج بنتيجة ايجابية فى المجمل العام لما كانوا يستهدفونه رغم ان الشكل الظاهرى لنتائج الاحداث قد يوحى بغير هذا.

لقد بدأ القرن بحلم الوحدة العربية، وينتهى بالقول بأن الوحدة يجب أن تتحقق بناء على مطلب الشعوب وليس الحكومات. وبدلا من تقوية الجامعة العربية كأداة للوحدة، تتكون اتحادات اقليمية قد لا تتفق مصالحها مع الاتجاه العربى العام.

وبدأ القرن بالحركة الوطنية للتحرر السياسى والاستقلال عن الامبرياليات ، وينتهى بالوقوع فى قبضة الاحتكارات الدولية الكبرى ممثلة فى صندوق النقد الدولى والشركات المتعددة الجنسية.

وبدأ القرن بالحديث عن الدولة القومية والهوية القومية، وينتهى بتراجع الخطاب العربى والحديث عن العالمية والتعاون فى اطار السوق المفتوحة، والحديث عن الشرق اوسطية. وبدلا من تجاوز الحدود السياسية التى اصطنعها الاستعمار. تتأكد وتنشب خلافات حولها بين اكثر من طرف لم يجدوا سوى الحرب وسيلة لتصفيتها.

وبدأ القرن بالصراع ضد الوجود الصهيونى . وينتهى بالاعتراف بهذا الوجود.

وبدأ القرن بتجمع اليهود من الدياسبورا. وينتهى بدياسبورا فلسطينية.

وبدأ القرن برسم مستقبل المنطقة العربية فى الدوائر الغربية، وينتهى بضبط الحركة السياسية للعرب على ايقاع نغمات الغرب الاوروبى الامريكى.

وبدأ القرن بالتحرر الاجتماعى فى ضوء نتائج عصر النهضة العربى الذى تبلور فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وتمحورت ابعاده حول التنوير والمواطنة والتسامح. وينتهى بعلو مد السلفية، وتعميق الطائفية . واتهام التنوير بالمروق عن الدين.

وبعد .. لست اجد سوى عبارة عبدالقادر المازنى «حصاد الهشيم» لوصف ما انتهت اليه السياسات العربية فى القرن العشرين !

كتاب بريطانى جديد :

يكشف الخداع الإعلامى

القوانين السرية للأنباء البيضاء والرمادية والسوداء

بقلم : مجدى شرشر

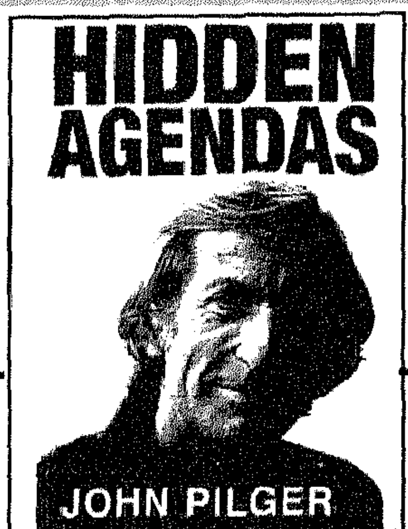
جون بيلجر صحفى بريطانى من أصل استرالى نشأ فى سيدنى ، وانتقل إلى بريطانيا أوائل الستينات ليلتحق بصحيفة الديلى ميرور ، وعمل بعدها مراسلاً حربياً ومؤلفاً ومخرجا، فاز مرتين بأرفع جائزة صحفية فى بريطانيا «صحفى العام» عن تغطيته لحربى فيتنام وكمبوديا، وحصل على عدة جوائز عالمية مثل جائزة السلام وجائزة منظمة (صحفيون بلا حدود) . ووصفت صحيفة الاندبندت كتابه «بأنه تفسير أخلاقى للشئون الدولية فى عصر يدعو كل ما فيه إلى السخرية» .

فى هذا الكتاب يعرى بيلجر أعمال الخداع ويحل شفرة اللغة ويكشف الإهمال والنسيان والتجاهل الذى يمنعنا من فهم كيف يسير العالم الذى نعيشه.

فالمنسيون المهملون الهامشيون هم أبطال هذا الكتاب ، وقضيته هى السلطة والقوة والدعاية والرقابة والتفاهة وقضايا الشعب.

يبدأ بيلجر بنفسه ويروى كيف كانت لعبة الكركيت هى جواز مروره إلى بلاط صاحبة الجلالة. فحين هبط لندن فى شتاء قارس البرودة لم تشهده لندن منذ العصور الوسطى فى يناير ١٩٦٣ ، توجه إلى صحيفة الديلى ميرور لا يحلم سوى بوظيفة هو فى أمس الحاجة إليها بعد نفاد آخر جنيه من المائة جنيه التى اقترضها من والده، حتى يستطيع أن يشترى معطف «بيرتون» ثم يهجر بعدها لندن إلى مكان أكثر دفئا ، وقابل مايكل كريستيا





نسين مساعد رئيس التحرير المسئول عن التحقيقات ، الذى بادره بالقول .. «عظيم، أسترالى نعم هذا هو ما نريده»، وعندما سأله عن خبرته السابقة أجاب لقد مارست الإنتاج . فسأله هل تجيد الكركيت فرد عليه بيلجر بالإيجاب ، فرحب به مايكل ليعمل بالميرور من الغد هكذا بدأت رحلة بالغة الاثارة والعمق مليئة بخفايا هذا العالم بكل مافيه.

الشعب والشيطان!

وفى الميرور لمس بيلجر مدى تسامح الصحيفة على نقيض تام من العالم الوحشى الذى عاشه فى إستراليا. هذا التسامح الذى سمح لصحفى صرف مرتبه لعدة أشهر رغم تغيبه لعدة أشهر خشية تعرض مالكيها للانتقاد فيما لو عثر على هذا الصحفى ميتا وحيدا .

كانت تلك تقاليد الصحافة التى امتدت لتطال القراء أيضاً . فكل رسالة وكل مكالمة هاتفية من القراء تلقى الاهتمام الجاد واللائق .

عصر الميديا

فى بريطانيا يتمتع التليفزيون البريطانى الآن بمصداقية أكبر من أى تليفزيون فى أى بلد آخر . وإذا كانت هيئة الإذاعة البريطانية تتخفى وراء واجهة النزاهة والحياد فإن أخبارها باتت أكثر نفعية ونمطية وفقا لمتطلبات السوق .

وتعود مصداقية هيئة الإذاعة البريطانية من خلال صحفها إلى أن التحيز الموجود فى البلدان الأخرى أمر مستقر ومفهوم حتى وإن كان لا يتم الاعتراف بوجوده على الدوام . ومنذ ميلاد هيئة الإذاعة البريطانية فان هذا التحيز يعمل من خلال قبول أوجده وعززه نظام أبوى: فالرأى العام يساس ولا يخضع لعملية غسيل مخ . وفى مقدمته غير المنشورة لروايته مزرعة الحيوانات شرح چورج أورويل كيف أن الرقابة فى المجتمعات الحرة هى بالقطع أكثر تقدما

وتطورا عنها في الدول الديكتاتورية ، «فالأفكار غير الشعبية يمكن إخراسها ويمكن ابقاء الحقائق غير المقنعة طي الكتمان دونما حاجة إلى فرض حظر رسمي» ، وقد تغير الكثير منذ أن كتب أورويل مقدمته قبل نصف قرن لكن يظل جوهر ما قاله سليما وصحيحا. ولا يختلف الصحفيون عن غيرهم على أولويات ونماذج السلطة القائمة، وعادة مايتم إقناع الطموحين من شباب الصحفيين بأن الانسان العادي يصنع منه صحفيا لامعا، بينما إطاعة السلطة الأعلى والانصياع للخبراء هو الطريق المهني الصحيح.

كتاب بريطاني جديد

ويهذه الطريقة وحدها تتسلل الأساطير والأوهام إلى السواد الأعظم دون أن يلحظها أحد ومن دون أن يتحداها أحد . وكتب صحفي شاب يقول لازلت أتعلق بمثاليتي لكن من أعمل معهم ينظرون لي بغرابة شديدة لإيماني الحقيقي بالديمقراطية وبالرسالة الحقيقية لوسائل الاعلام ويقولون دعها تنفعك . ومن يجرؤ على التساؤل عن طبيعة النظام القائم فإنه يقامر بابعاده عن التيار الرئيسي فيما يصفه صحفي متمرس بأنه نوع من الدفاع المهذب ..

ويرى بيلجر أن غالبية الصحافة الجادة في بريطانيا لا تعدو أن تكون مجرد ذراع مواز للحكومة ووعاء اختبار للتخطيط الذي تضعه المؤسسة كمنبر يقصر الجدل السياسي الجاد على المراكز الرئيسية للسلطة وفي المقام الأول لترويج القوة الغربية على امتداد العالم.

وأحد أهم الوظائف الفعالة لمسئولي تلك الصحف هو تخفيف لوم تلك السلطة بسبب الحروب والإرهاب والفقر المفروض على قطاعات عريضة من البشر وسلب الموارد وقمع حقوق الإنسان . ويتم انجاز هذه المهمة عن طريق الإغفال أو التجاهل العمد على نطاق واسع و«وأد القضية» أو «قتلها» وبتكرار الحقائق الجاهزة والتعتيم على الأسباب.

وأوضح مثال لذلك ما ذكره المؤرخ مارك كوريتيس عام ١٩٩٦ . بأنه اكتشف تلالا من الوثائق تشير إلى مساندة بريطانيا سرا لانتهاكات حقوق الإنسان في دول مثل اندونيسيا وتركيا وكولومبيا لكن الصحافة لم تكلف نفسها مشقة الخوض في مثل تلك القضايا.

الحرية

وتلعب اللغة والإصطلاحات دورا حيويا فشعارات تحظى بشعبية طاغية مثل «الديمقراطية» و«الحرية» و«الاختيار» و«الاصلاح» قد فرغت من معناها ودلالاتها اللغوية ليصير الكفاح من أجل الاستقلال إرهابا والقتلة ضحايا، وتيسرت هذه المهمة بسبب التقدم التكنولوجي ووهم «مجتمع المعلومات» الذي يعني تركيز ملكية مزيد من «الميديا» في يد قلة من التكتلات .

ومن عجب أن هذه القضية الخطيرة لا تحظى بمناقشة عامة رغم وجود أدلة على

قلق الرأى العام تجاه القوانين السرية التى تحكم سلطة «الميديا» وتأثيرها على حياتهم.

فضلا عن هذا فان مناقشة قضية الرقابة الذاتية تعد من المحرمات . وأبرز مثل على هذا هو الجدل الذى دار عام ١٩٩٧ بين إدارة هيئة الإذاعة البريطانية ومقدمى برامج الأحداث الجارية نتيجة تعيين خمسة مديرين تنفيذيين للإشراف على كافة البرامج . واحتج مقدمو البرامج بأن هذا التعيين سيحول هيئة الإذاعة البريطانية إلى نموذج آخر من شبكة «سى. إن. إن» الأمريكية، ويجعل منها مؤسسة أحادية الصوت، ورد المراسل تيرحال كيانى بالحديث عن طهارة صحافة المبادىء الراسخة وهى تراث الصحفيين ورسالتهم ومهمتهم، وقال إننى أفضل التشرد فى شوارع لندن على أن أساوم حول هذه القضية.

ويطالب بيلجر بأن تحتل هذه القضية حيزا أكبر متقدما فى مناهج الدراسات الاعلامية التى تسعى لتشكيل العقلية المستقلة الناقدة للصحفيين لكن نادرا ما تجرى دراستها . فالدارسون يدرسون المسئولية الجماعية للمواعظ التى تستر تحيز الدولة وراء حجاب المبادىء المقدسة .

ومن بين تلك المبادىء المقدسة الحقائق الثلاث التى وصفها لورد رايث مؤسس هيئة الإذاعة البريطانية وهى «النزاهة» و«الموضوعية» و«التوازن» ، وعادة ما يتم الالتزام بهذه الحقائق الثلاث فيما عدا الوقت الذى يتعرض فيه النظام المستقر للتهديد.

وكتب روبرت ميللر فى ذروة الحرب الكورية عام ١٩٥٢ أنه كانت هناك وقائع وروايات ملفقة معينة نشرها رؤساء التحرير والناشرون، وكان الكثيرون ممن يرسلونها يعرفون أنها مفبركة لكن كان علينا أن نكتبها لأنها نشرات صادرة عن القيادة العسكرية المسئولة، وقد صدرت لننشرها رغم علم المسئولين إنها غير حقيقية.

ولا يخفى أيضاً أن أحداث حرب فيتنام أذيعت فى التليفزيون من وجهة النظر الأمريكية . وكشفت لقطة تسريبت عن توجيهات اجتماع المراجعة الاسبوعى لهيئة الإذاعة البريطانية بضرورة الالتزام بالتغطية الصحفية لحرب فوكلاند بالبيانات الرسمية.

وفى ١٥ مايو ١٩٨٢ صرح إدوارد هيث رئيس الوزراء البريطانى السابق لشبكة «آى. تى. فى» بأن الأرجنتين طلبت ادخال ثلاثة تعديلات على خطة السلام مشيرا إلى أنها كانت تعديلات طفيفة ما كان يمكن رفضها لكن تاتشر رفضتها وتم تجاهل المبادرة، ومضى الغزو قدما.

وعصر الميديا هو الذى سمح لإدارة بحوث المعلومات بالخارجية البريطانية «إدارة الحروب السياسية» بتشغيل عشرات الصحفيين فى فليت ستريت باستخدام الدعاية «البيضاء»، وهى الدعاية الحقيقية والدعاية الرمادية «الصحيحة فى جانب منها» والدعاية السوداء «الزائفة». وهى تقوم بدس

الوثائق الرسمية المزورة والقصص المفبركة والموضوعات الملفقة على وسائل الإعلام.

وفي هذا العصر كشفت الجارديان عام ١٩٩١ عن تلقي خمسمائة من الشخصيات البريطانية البارزة لمقابل مادي من وكالة المخابرات الأمريكية، بينهم تسعون صحفيا وإذاعيا. وفي هذا المناخ تدخلت المخابرات البريطانية «إم. أي. فايف» على مدى أربعين عاماً ورفضت طلبات تعيين تقدم بها صحفيون معروفون باستقلاليتهم لأنهم غير «مأمونين» ويتباهى بعض الصحفيين بأنهم يرغبون في تقديم خدماتهم دون مقابل.

وفي عام ١٩٩٢ أعلنت لجنة داخلية في وكالة المخابرات المركزية أن الوكالة تقيم الآن علاقات ممتازة مع وسائل الاعلام، فلدينا علاقة ساعدتنا على تحويل قصص القتل المخابراتي إلى قصص ناجحة.

والسلام الأمريكي «الباكس أمريكانا» الذي حدده المخطط الأمبريالي جورج كينان «بأن للولايات المتحدة حقا أدبياً في التدخل في أي مكان في العالم، وأن تفعل هذا من دون شفقة وأن تخرب وتدمر الحكومات التي تتجرأ على الإعراب عن استقلاليتها بدءاً بإيطاليا وانتهاءً بإيران وسواءً كانت شيلي أم أندونيسيا.

وفي كتاب جون مكارثي والصحافة روى الصحفي المتمرس أودين بايلي كيف تحول هو وزملاؤه إلى أدوات للمكارثية بمسايرة الدعاية الرسمية وعجزها عن التشكيك في ترضياتها أو معرفة القوة التي تقف وراءها.

فالصحافة الموضوعية الحقيقية على حد قول الصحفي الأمريكي كي دي أولمان ليس مجرد الحصول على المعلومة الصحيحة فقط بل إستشراف المغزى الحقيقي الصحيح للحدث. انها صحافة تشكل اختبارا للزمن فهي لا تستمد شرعيتها من «المصادر المطلعة» بل بكشف التاريخ ونشره. إنها الصحافة التي لا تبدو تغطيتها صحيحة وقت نشرها فقط بل هي الصحافة التي تتأكد حقيقة صدقها بعد عشرين أو ثلاثين أو خمسين عاماً.

الحيتان

شهدت التسعينات بداية توجه يقوم على ابتلاع الأكبر والأغنى ليس الأصغر بل ابتلاع معظم وسائل الاعلام العالمية أي مصادر المعرفة. ففي أمريكا ابتلعت شركة ديزني شركة الإذاعة الأمريكية واشترت شركة سومتر ريدستون شركة بارامونت للاتصالات واندمجت شركة تايم وارنر مع تيرنر (سي. إن. إن) لتكوين أضخم احتكار لوسائل الاعلام في العالم. وأصبح روبرت مردوخ أكبر مالك لمحطات التليفزيون في الولايات المتحدة، وتملك صديقه جون مالوني نسبة (٢٣) في المائة من كافة محطات الكوابل في العالم. وفي بريطانيا تسيطر شركتا جرانادا وكارلفون على شبكة «أي. تي. في»، أما التليفزيون الرقمي فحكر على مردوخ.

وفي قمة الحيتان بين مردوخ ومالوني

كان هدف مردوخ هو الحفاظ على سرعة التطور التكنولوچى بما يفوق سرعة آليات التنظيم القديمة بما يتجاوز السياسيين وواضعى القواعد المنظمة للعمل فى أى مكان فى العالم .

وفى عصر الميديا أصبحنا نستقى (٩٠) فى المائة من الأخبار والأحداث من مصادر تتحكم فيها قلة قليلة أكثر غنى وقوة. فوكالات الأنباء العالمية الكبرى الاشوستيدبريس ووكالة الأنباء الفرنسية رويترز تقدم لنا الجانب الأعظم من التدفق الاخبارى ، ولا تحظى القارة الافريقية سوى بأقل من خمسة فى المائة وتتركز أساساً على كوارث القارة.

أما التليفزيون فتحتكره شبكتا ملفرموث رويترز - فيزنيوز سابقا وشبكة التليفزيون العالمية «WTN» وتقدم رويترز خدماتها لـ ٨٤ تليفزيونا فى العالم يشاهدها نصف مليار مشاهد، أما «WTN» فيشاهدها ٣ مليارات مشاهد ، وتأتى «بى بى سى» فى المرتبة الثانية ثم الانترنت بعدها.

وفى عصر الميديا وبحلول عام ألفين سيتمكن بث الصحيفة لمختلف انحاء العالم عن طريق القمر الصناعي الرقمى فى غضون عشر ثوان مقابل ساعة على الانترنت.

وبعد أن أصبحت تكنولوچيا الاعلام اداة باهرة فمع الاسف الشديد لم تصبح وسائل الصحافة التقليدية وحدها هى البالية بل أيضاً تقاليد الأمانة و«الشرف».

وفى أجواء كاميرات التجسس وأفراد الأمن الذين يجوسون صالات التحرير يتلاشى الصحفيون الحقيقيون .

السلطة الخامسة

وفى هذا المناخ تتقدم العلاقات العامة لترسخ قدمها بدلا من التقاليد المهنية العريقة ، ففى عام ١٩٨٠ فاق عدد مستشارى العلاقات العامة والصحفيين الذين توظفهم الشركات فى واشنطن عدد الموظفين الفيدراليين.

واستشهد ناعوم تشومسكى بقول العالم الإسترالى الكيس كارى أن القرن العشرين تميز بتطورات ثلاثة على قدر كبير من الأهمية السياسية وهى:

نمو الديمقراطية ونمو قدرات الشركات ونمو دعاية الشركات ضد الديمقراطية ،وقد لجأ مجتمع الاعمال الأمريكى إلى صناعة العلاقات العامة ثم انتقلت العدوى إلى بريطانيا فبقية الدول الأوروبية لدرجة حذر معها توم بياستوف من تحول العلاقات العامة إلى «سلطة خامسة».

عولمة أم استعمار جديد؟

حين انتهت الحرب الباردة سرعان ما دبت الفوضى فى أوصال النظام العالمى الجديد، ويبدو أنها فوضى مقصودة أو متعمدة حتى ينفرد قطب العالم الأوحد بالقدرة على السيطرة على النظام العالمى - هذا النظام الذى تتلاشى فيه ملامح الدولة القومية، وتصبح معانى كالوطنية تخلفا مابعده تخلف، عالم تسود فيه

شريعة الذئاب وكلمة سر النظام العالمى الجديد هى العولمة . أى عالم «الخمس» فاحش الثراء والأربعة أخماس المعدمين . وفى لقاء سان فرانسيسكو ١٩٩٥ وفى فندق فيرمونت نزل الأثرياء الذين تتضاءل أمامهم شخصيات ألف ليلة وليلة استضافت قاعة التاج - مسرح الاحتفال بالانتصارات المدوية - بدعوة من رئيس الاتحاد السوفييتى السابق ميخائيل جورباتشوف خمسمائة من أبرز الشخصيات القيادية العالمية فى المال والسياسة والاقتصاد، ومن كل القارات لتحديد معالم طريق اقامة حضارة جديدة فى القرن الحادى والعشرين. وبالطبع غاب الصحفيون المشاغبون عن هذا الحدث الذى يصاغ فيه مستقبل البشرية . فلا مجال لهؤلاء الصحفيين المتطفلين فلم يحضره سوى ثلاثة صحفيين فقط . حدث يمثل هذه الأهمية المصيرية يشارك فيه ثلاثة صحفيين فقط بينما يحتشد الالاف لتغطية أحداث أشد تفاهة بكثير . نموذج مثالى للقضايا المهملة Hidden aj-gerdao.

كتاب بريطانى جديد

فى هذا اللقاء نحت اصطلاح بالغ الدلالة لعالم العولمة مصطلح Tittg tinment .

أى : مزيج من الترفيه المخدر والتغذية يمكن به السيطرة على سكان العالم المحبطين .

وعالم العولمة هو عالم عصر المدن وملامحها المطارات والفنادق والمطاعم والغرف المكيفة التى لا يدخلها الهواء الطبيعى، والتى يعيش فيها سادة العالم الذين يظلون حبيسى نفس المكان حتى وان طافوا أرجاء العالم . مدن يقطنها الاثرياء فقط كل ما فيها ومن فيها مسخر لخدمتهم . وليذهب الآخرون إلى الجحيم . فى العولمة يصعد المتطرفون إلى السلطة ويستشرى الاندماج الوحشى لعقود الرأسمالية إلى ابشع صورها الأولى . تصور مثلا اندماج بنك دويتشه الالمانى مع مؤسسة بانكر ترست الأمريكية ليشكلا مؤسسة مالية تبلغ أصولها (٨٠٠) مليار دولار.

هذا هو العالم الذى يخرج فيه أمثال تونى بلير رئيس بريطانيا ليقول إن المعارك الايديولوچية للقرن العشرين قد انتهت . والمهم الآن هو «الانتعاش» و«النمو» و«العمالة المرنة» والعودة للعمل بأجر يومى وما عداها فهو السراب.

وهكذا صارت العولمة أحد أهم ملامح الحرب الباردة الجديدة «الباكس أمريكانا» وفيها تتحول مؤسسات بريتون ودوز «صندوق النقد والبنك الدوليين» إلى مجرد أدوات لتنفيذ السياسة الأمريكية إلى جانب المؤسسات المالية الدولية الأخرى مثل بنك التنمية الاسيوى وبنك الأمريكتين وبنك التنمية الافريقى.

وتستند العولمة على مايسمى بالديمقراطية الجديدة . التى تدار أولاً وأخيراً بواسطة رأسمالية قوية تمول العملية السياسية وتقدم للناخبين مجموعة

من الزعماء للاختيار بينهم، وهؤلاء الزعماء يشتركون في الرأى حول معظم الأمور لكن تتنوع أساليبهم القيادية .. وهكذا يتم ضمان أن تظل السياسة العامة صحيحة سياسيا . وهذه الديمقراطية الجديدة تجعل من اليسير على الشركات العابرة للقوميات أن تبسط نفوذها، وعلى وسائل الاعلام العالمية أن تشكل الرأى العام.

لكن بيلجر يختلف مع بقية معارضى الشركات العابرة للقوميات إذ يرى أنها ليست المعادل للدول المستقلة بل هى قوات الصاعقة للقوى الامبريالية والولايات المتحدة وأوربا واليابان، وأسلحتها منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية ومنظمة التجارة العالمية ولا هم لها سوى فتح بلدان العالم أمام التنافس . فنسبة (٧٠) فى المائة من الإستثمارات الأجنبية ليست لاستثمارات حقيقية على الاطلاق بل هى مجرد أموال لشراء وتجريد ملكية الشركات المحلية، ناهيك عن صناديق الاستثمارات الخاطئة التى تستهدف تحقيق أقصى عائد فى أقصر وقت رغم مايحيط بها من مجازفات.

تلك بعض جوانب العولمة التى نستدرج إلى فخها الذى يختزله البعض فى مجرد تقنيات ووسائل تكنولوچية وعلمية، لكن جوهرها فى المقام الأول مجموعة قيم تشكل جوهر الثقافة الغربية التى يتم ترويجها من خلال طمس وتفكيك الهوية الخاصة بكل أمة وإبهار المستهدف بالعولمة.

فى الهجمات المتتالية على العراق للإجهاز على ما تبقى من كيانه كدولة، وتقسيمه إلى دويلات تصبح فيما بعد هى النموذج السائد لادارة المنطقة تحدثت الأنباء عن أن القاذفات الثقيلة طراز بى ٥٢ التى تجوب المنطقة تلقى ويلاتها على أبناء الشعب العراقى، تنطلق من قاعدة دييجو جارسيا . وربما لا يعرف الكثيرون شيئا عن دييجو جارسيا. فهى ليست سوى مستعمرة بريطانية فى المحيط الهندى لكن لا تعادلها قاعدة أخرى فى أهميتها لخبراء الاستراتيجية كقاعدة لاعادة التزود تقع بين قارتين.

وفى تغطية الضربات الجوية قال معلق بهيئة الإذاعة البريطانية ان دييجو جارسيا غير مأهولة بالسكان وهذا قول يجافى الحقيقة تماماً.

فالجزيرة جزء من ارخبيل شاجو كان من المفترض أن يحصل على الاستقلال مع موريشيوس (الافريقية) عام ١٩٦٥، ومع هذا وبالحاح من الحكومة الأمريكية أبلغت حكومة هارولد ويلسون الموريشيوسيين أنه لن يكون بوسعهم الحصول على حريتهم وإستقلالهم إلا بمقابل واحد هو التخلى عن جزيرة دييجو جارسيا. وضربت حكومة بريطانيا الديمقراطية عرض الحائط بقرار الأمم المتحدة الذى يدعو إلى عدم إتخاذ أى اجراء من شأنه تقسيم أرض موريشيوس أو انتهاك سلامة أراضيها، وفعلت

بريطانيا العكس تماماً وأقامت مستعمرة جديدة في المحيط الهندي وسرعان ما اتضح السبب . ففي سرية تامة قامت وزارة الخارجية البريطانية بتأجير الجزيرة لواشنطن لمدة خمسين عاماً مع خيار مد الإيجار تلقائياً لعشرين عاماً أخرى . لكن البريطانيين يحبذون نفي هذا الأمر الآن ويفضلون الاشارة اليه باعتباره «ترتيبا دفاعياً مشتركاً» بما يخالف الواقع المرير الذي آلت إليه الجزيرة لتصبح قاعدة أمريكية لإعادة التزود ومقبرة نووية أمريكية ، وفي عام ١٩٩١ استخدم بوش الجزيرة لقصف العراق وفي نفس العام أبلغت وزارة الخارجية البريطانية حكومة موريشيوس بأن السيادة على الجزيرة موضوع غير قابل للتفاوض.

وحتى عام ١٩٦٥ كان شعب إيلويس هم سكان دييجو جارسيا الأصليون . من ١٩٦٥ حتى ١٩٧٣ رحل أبناء إيلويس من منازلهم وشحنوا على سفن وطائرات أقلتهم إلى موريشيوس . وفي عام ١٩٧٢ طمأنت وزارة الدفاع الأمريكية الكونجرس بأن الجزيرة غير مأهولة بالسكان. وأن إقامة قاعدة في الجزيرة لن يثير أي مشاكل سياسية خاصة بالسكان . وعندما سئل عن السكان الأصليين كذب مسئول بوزارة الدفاع البريطانية وقال ليس في ملفاتنا شيء عن السكان الأصليين أو عن حدوث عمليات ترحيل .

لكن منظمة معنية بحقوق الأقليات خلصت إلى أن بريطانيا طردت السكان الأصليين دون خطة مسبقة لتوطينهم وتركتهم نهبا للفقر، وقدمت لهم تعويضا هزيلا وعندما زادته قرنته بالتخلي عن حقهم في العودة إلى وطنهم، وخلال ترحيلهم لم يسمح لهم بحمل إلا ما ندر من متعلقاتهم الشخصية،لينتهي بهم الحال في احياء موريشيوس الفقيرة يعيشون في بؤس وشقاء لا يعرف عدد الذين ماتوا منهم بسبب المجاعة والأمراض.

ألا يشكل هذا الإرهاب انتهاكا للبند التاسع في الاعلان العالمي لحقوق الإنسان، لكن لا أحد يجرؤ على الحديث ففي العالم الجديد يمنح الإرهابيون أنفسهم وحدهم الحق في وصف الآخرين بالإرهاب، وفيه أيضاً يمنح القتلة الذين استخدموا أسلحة الدمار الشامل أنفسهم حق الوصاية على الآخرين بدعوى حرمانهم من امتلاك أسلحة الدمار الشامل . ولا تغيب عن الذاكرة جريمة قنبلتي هيروشيما وناجازكي أو استخدام القوات البريطانية والأمريكية في حرب الخليج الثانية لقذائف اليورانيوم المستنفد (دي يو) ويبلغ العمر النصفي الإشعاعي لهذا العنصر (١٢٥) ألف عام . العمر النصفي الإشعاعي هي المدة التي يتحلل فيها نصف عدد ذرات المادة المشعة وبذلك تتضاءل الفعالية الاشعاعية إلى نصف كميتها، وهي نفس الموت الذي نشروه بقتل ربع مليون عراقي والتسبب في وفاة أكثر من سبعمائة ألف طفل عراقي بسبب الحصار، واستخدام النابالم لضرب الجنود المنسحبين ودفن (٧٠) ألف جندي عراقي أحياء في خنادقهم وكل هذا من أبشع الجرائم التي لاتزال قضايا مهملة.

مجــرد ذكــريات

بقلم :

د. ماهر شفيق فريد

«مجرد ذكريات» (دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ١٩٩٩) كتاب للدكتور رفعت السعيد المثقف الراديكالى ، والمناضل السياسى ، مؤرخ الحركة الشيوعية المصرية فى خمسة مجلدات تقع فى أربعة آلاف وخمسمائة صفحة ، وصاحب روايتين (لم أر أيا منهما) . والكتاب - رغم عنوانه الذى يشى بالتواضع - سيرة ذاتية أو على الأقل شذرات من سيرة ذاتية. إن الذكريات، والمذكرات ، والاعترافات ، واليوميات ، والشهادات الشخصية ، والمراسلات كلها أشكال من الكتابة تندرج تحت باب السيرة الذاتية، وحديث المرء عن حرفته هو أيضا - شكل من الترجمة للذات . فكتابات صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى ومحمد أبو سنة وفاروق شوشة وعبدالمنعم عواد يوسف وحسن فتح الباب وسعد دعبيس وغيرهم عن حياتهم فى الشعر ، أو تجربتهم الأدبية ، إنما هى سير ذاتية . و«أوراق العمر» للويس عوض ، وكتاب محمود الربيعى عن حياته ، و«الليالى» لطه وادى ، ومذكرات ثروت عكاشة فى الثقافة والسياسة ، و«العيش على الحافة» لشكرى عياد ، و«واحات العمر» لمحمد عنانى ، و«حكايات من جزيرة فاروس» لمحمد جبريل ، وباب «التكوين» الذى تقدمه «الهلال» فى كل شهر ، كلها ألوان من السير الذاتية، حياتية وعقلية ووجدانية .



إلى أى مدى يستطيع كاتب السيرة الذاتية أن يقدم صورة «صادقة» لحياته ؟ يرى البعض - ومنهم الدكتور صمويل جونسون صاحب كتاب «سير الشعراء» وموضوع كتاب بوزول المشهور - أن المرء أقدر من يكتب سيرته الخاصة ، لأنه أعرف من غيره بتفاصيل حياته وحركات عقله ووجدانه وبواعثه وأهدافه . لكن لآخرين - مثل أندريه موروا كاتب التراجم الفرنسى الأشهر - على ذلك تحفظات كثيرة : فهناك عنصر النسيان الذى قد يطغى على الكاتب كما قد يطغى على غيره ، وقد ينسى المرء - كما علمنا فرويد - أمورا لأنها مكدرة أو تحمل التزامات يريد التهرب منها أو ذات صبغة انفعالية مؤلمة . وهناك النسيان المتعمد لأسباب جمالية ، فقد يغض الكاتب الطرف عن أمور فى حياته لأنها ستكون أشبه بالنتوء الشاذ الذى يشوه تناسق كتابه وتناسب أجزائه ، أو لأنها قد تكون عديمة التشويق من شأنها أن تمل القارئ ، أو لأنها عادية بلا دلالة . وهناك الدافع التخيلى الذى قد يطغى على الكاتب فتكون له الهيمنة على الوقائع . وهناك تقاليد المجتمع والمواصفات المتعارف عليها والتى تستحى من كشف النقاب عن أعمق خبرات المرء وأكثرها خصوصية ، خاصة الجنسى منها ، وهناك ميل الذاكرة إلى أن تعيد صياغة الأحداث وتعيد إنتاجها بعد وقوعها مما يغير من طبيعتها ويحور معناها . هذه كلها - فى رأى موروا - عقبات تعترض كاتب السيرة الذاتية ولكنها لا تمنع إخراج سير بديعة مثل كتاب الأديب الانجليزى إدموند جوس «الوالد والولد» (نقله إلى العربية فؤاد اندراوس) عن علاقة الكاتب المؤلمة بأبيه .

ولد رفعت السعيد فى ١١ أكتوبر ١٩٣٢ (يوم وفاة أحمد شوقى) بمدينة المنصورة . وهو لا يحدثنا بالكثير عن حياته الباكرة وإنما ينتقل مباشرة إلى تجربة دخوله المعتقل وهو فى ميعة الصبا ويتيح لنا إطلالة على محتويات

مكتبة جده التى بدأ يتغذى على محتوياتها وهو يقارب الثالثة عشرة : «صحيح البخارى - كتب الجاحظ جميعا - دواوين المتنبى - لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء المعرى - كتاب الأغانى بمجلداته جميعا - لماذا أنا ملحد لإسماعيل أدهم - نظرية داروين لإسماعيل مظهر - نقد الفكر المادى لمحمد فريد وجدى - وكتب بلا نهاية لشبلى شميل وولى الدين يكن والعقاد وطه حسين، ومجموعات المقتطف والجامعة والرسالة والثقافة واللطائف المصورة» (ص١٩) . هذه بعض المؤثرات العقلية التى صاغت فكره ، وفيما بعد انضافت إليها كلاسيات الماركسية . وفى المعتقل زاد من معرفته بالانجليزية حتى أتقنها (صنع إدوار الخراط مثل ذلك بالفرنسية فى معتقله) . والقسم الأكبر من الكتاب وصف لجهاده السياسى من أجل قيم الاشتراكية والعدل والديمقراطية ، مع لمحات شائقة عن دهاليز عالم الصحافة حيث صراعات الكبار ، مستخفية تارة وصريحة تارة أخرى : على ومصطفى أمين ، هيكل ، خالد محيى الدين (الذى يكن له كاتبنا محبة غامرة) ، موسى صبرى ، أنيس منصور ، إلخ ...... ومن السجن يخرج إلى الطابق التاسع - مثوى الكبار - مديرا لمكتب خالد محيى الدين فى مؤسسة أخبار اليوم .

لحظات القوة والضعف

وعبر صفحات الكتاب تمر وجوه كثيرة أمام القارئ على شكل لقطات خاطفة قد لا يستغرق مرور اللقطة منها أكثر من دقائق قليلة ، ولكنها تحفر ذاتها فى ذاكرة القارئ. هكذا يتحرك أمامنا موكب يضم نجيب سرور ، وحسن دوح ، وناهيد أبو زهرة (القاضى الشاعر وكنت أراه فى الستينيات فى ندوة نجيب محفوظ بكازينو صفية حلمى بميدان الأوبرا) ، الدكتور سليمان الطماوى ، يوسف صديق ، عقيل مظهر (ابن المفكر اسماعيل مظهر) ، يوسف السباعى .. نرى هؤلاء الرجال جميعا فى لحظات قوتهم ولحظات ضعفهم، بشرا زالت عنهم هالات الشهرة وأقنعة السلطة ، كما نرى الجو السياسى فى سنوات ما قبل الثورة وبعدها : الإخوان المسلمون، الوفد ، مصر الفتاة ، والحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) . كانت مصر آنذاك فى فترة غليان سياسى ، وجيشان اجتماعى عميق ، وبحث عن أيديولوجيا تتراوح بين أقطاب الأصولية الدينية والنزعات الفاشية والليبرالية الغربية والفكر الاشتراكى بكل درجاته : من الإصلاح الفابى المتدرج

إلى ماركسية لنين وستالين وتروتسكى . ويرصد رفعت السعيد هذه التشنجات كلها بدرجة ملحوظة من الموضوعية والحياد (مع التسليم باستحالة الحياد المطلق فى مثل هذه الأمور) ناسيا دوره الخاص ، أو متناسيا إياه ، لأنه على ذكر من أخطار النرجسية وتوثين الذات الكامنة عند كل منعطف لمن يضطلع بمهمة كالتى اختار أن يضطلع بها هنا.

ومن اللوحات التى يرسمها رفعت السعيد باقتدار وبراعة محمد أبو ابراهيم الذى نزل ضيفا على أهل السجن : «كان شقيا شهيرا اشتهر باسم ابن بمبة ، قتل تسعة واختفى فى المزارع مروعا للجميع . ثم ولأسباب انتخابية اتفق مع أحد أقارب الباشا ابراهيم عبدالهادى رئيس الوزراء أن يسلم نفسه ، مع ضمان أن تسقط عنه التهم ويفرج عنه ، ويكون من رجال الحزب السعدى) .-كنا فى الحوش فى وقت الفسحة ودخل علينا هذا الرجل المرعب الذى أخاف كل سكان المديرية وما أحاط بها . شاب نحيل أسمر هادئ وديع ، شارب مبروم بعناية غير مبالغ فيها . جلابية صوف . كوفية ضخمة تلف رأسه كعمامة وما تبقى منها يحيط بعنقه . حيانا بهدوء : أهلا يا أفندية . كان الجميع يخافونه فى مبالغة زائدة ، وأوامره تصدر لتنفذ فورا . وحتى عم عبده تضاءل أمامه وأصبح مجرد منفذ لتعليماته» (ص٥٥).

وتحضر أم هذا الرجل المخيف لزيارته فإذا به يستحيل أمامها ولدا مطيعا مؤدبا لا يرفع صوته فى محضرها : «سمراء عجفاء دقيقة الحجم . جلبابها الأسود يكنس الأرض، ملامحها صارمة ، اندفع نحوها ليقبل يدها . رفعت يدها وصفعته صفعة مدوية ، وانهالت شتائمها مع صفعاتها على الرأس المنكس فى طاعة مستمتعة : فضحتنا يا كلب . عامل شقى وابن ليل . طيب خد . وانهالت عليه ضربا وركلا ، وهو خاضع كقط أليف يستمتع بقسوة حنان الأم . ولم تتوقف إلا عندما بدأ يستعطفها : خلاص يا أمه . أبوس إيدك يا أمه . تبت يا أمه .

قبلت توبته . وتوقفت . عدل عمامته وجلس سعيدا مع أمه . وانسحبنا نحن (ص٥٦) .

لمحات لا تنسى

هذه لمحات إنسانية لا تنسى تذكرنا ببعض ما يرويه العقاد فى «عالم السدود والقيود» عن عتاة المجرمين ممن كانوا لا يترددون فى قتل الناس لأهون سبب ولكنهم يستوصون بالصبر والحلم فى معاملة نزلاء السجن من كبار السن، احتراما لشيخوختهم ، مهما أمعن هؤلاء فى استفزازهم . وكانت تكفى

لطمة واحدة من أيديهم القوية لكى تجندلهم .

ويخرج القارئ من الكتاب بشعور هو مزيج من المودة والاحترام لهذا المناضل العنيد الذى لا يريد أن يخلع على نفسه صفات أسطورية أو يرسم لها صورة مثالية . إنه ، على ثقافته السياسية العميقة ، راغب أبدا فى التعلم واكتساب مزيد من الخبرات . وقد علمته الحياة دروسا : «أن يمايز بين الأفراد وما يفعلون ، وبين الفكرة وما تهدف إليه» (ص٧١) ، إن «المسئولية عبء ثقيل ، وانها تتطلب من المسئول قلبا حانيا وباردا وجافا فى آن واحد» (ص١٢٦) ؛ إن هناك فارقا كبيرا بين النضال الهادف والشغب غير المسئول (ص ١٤٩) . لم يكن الثمن الذى دفعه رفعت السعيد كى يتعلم هذه الدروس بالثمن الزهيد ، فقد دفعه غاليا من شبابه وعمره وسعادته وحريته ورزقه ، وقد نضج على نار الخبرة – سارة أحيانا وأليمة فى أكثر الأحيان .

لكن أعظم ما فى هذه السيرة تشويقا هو موقف الكاتب من جمال عبدالناصر ، ذلك الزعيم عظيم المجد والأخطاء كما وصفه الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى . إن موقف رفعت السعيد منه – إذ يعانى فى سجونه ويرقب إهدار آدمية المعتقلين فيه – أشبه بموقف بعض أبطال روايات نجيب محفوظ من ذلك البطل شبه الاسطورى : مزيج من الحب والكراهية، من القبول والرفض ، من الامتثال والتمرد . هذا الازدواج الوجدانى الماثل فى المؤخرة من أكثر ما يمنح هذه السيرة الذاتية طابعها الدرامى ، وثراء تعارضاتها الفكرية والوجدانية .

ليس فى لغة رفعت السعيد جمال يذكر (ثمة أخطاء لغوية فى صفحات ٤١ ، ٦١ ، ٧٥ ، ٨١ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٨٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٩١ لا أريد أن أوذى سمع القارئ أو بصره بها) . فهو ليس أديبا وإنما هو – كما قلت فى البداية – مثقف ومؤرخ ومناضل وصحفى . لكن كتابه ليس «مجرد» ذكريات كما يحاول أن يوهمنا . إنه فصل من تاريخ مصر الحديث ملئ بمواقف البطولة والفداء كما أنه ملئ بمواقف الجبن والنذالة . وقد أتيح لهذا الفصل مؤرخ نزيه (بقدر ما يسع الطبيعة البشرية أن تكون) رسم لها صورة مأسوية لكنها لا تخلو – هنا وهناك – من بوارق النور ، ومن دواعى الأمل فى المستقبل ، ومن بواعث الثقة فى خيرية الطبيعة البشرية رغم كل شئ ، كما لا تخلو مما يدعو إلى الابتسام .



الحرب العنصرية الكبرى في «فلسطين» أوربا!

بقلم: عبد الرحمن شاكر

هل يمكن أن يكون تدخل حلف شمال الأطلنطى، المعروف باسم «الناتو»، فى الحرب بين الصرب والألبان فى إقليم «كوسوفو»، من نوع تدخل الجيوش العربية ضد العصابات الصهيونية فى فلسطين فى عام ١٩٤٨؟، وأن يكون هذا التدخل ذريعة وستارا لطرد الألبان من هذا الاقليم تماما كما طرد العرب الفلسطينيون، ليحل الصرب محلهم كما حل اليهود فى فلسطين؟. فإذا قيل إن الجيوش العربية التى تدخلت فى فلسطين كانت «متخلفة» وينقصها السلاح الجيد والقيادة المنظمة، فإن حلف شمال الأطلنطى لديه أحدث الأسلحة وأكثرها تطورا، وأفضل القادة العسكريين، ولكن تنقصه شجاعة الرجال!

يريدها حربا «نظيفة» فى معسكره لا جريح لديه ولا قتيل! لذلك يكتفى بالقصف الجوى المدمر أى نعم.. ولكن هيهات أن يوقف المذبحة العنصرية البشعة التى فتكت بعشرات الألوف من ألبان كوسوفو ودفعت بمئات الألوف منهم إلى خارجها فى أشنع ظروف الهجرة وأشدها بؤسا.. تماما كما هُجِّر العرب من فلسطين وعلى صورة أشد هولا!.

أقل ما كان على حلف الناتو أن يفعله من أجل وقف المذبحة العنصرية فى كوسوفو، أن يسمح بتسليح جيش تحرير كوسوفو الألبانى، ذلك إذا ما كان صادقا فى نواياه المعلنة، وإذا كان أكثر صدقا فكان عليه أن يقدم لهم هذا السلاح هم ومن يتطوعون فى صفوفهم وخاصة من جارتهم ألبانيا! ولكنه لم يفعل، تماما كما حظر وصول السلاح إلى مسلمى البوسنة، وترك الصرب يفتكون بهم كما يشاءون بكل ما لديهم من أسلحة الدولة اليوغوسلافية التى ورثوها وما تمدهم به روسيا. بل إن مشروع إقرار السلام فى كوسوفو الذى وضعه حلف الناتو ويُضرب اليوم «سلوبودان ميلوسوفيتش» رئيس الصرب لكى يوافق عليه، ينص فى أحد بنوده على نزع سلاح جيش تحرير كوسوفو الألبانى!. هل ينقصنا العذر بعد ذلك إذا ما استربنا فى النوايا الحقيقية لهذا الحلف، وقد استراب بالفعل كثير من الناس قبلنا ولديهم الكثير مما يقولون عن الدوافع الفعلية لحلف الناتو فيما يقوم به، وخاصة زعيمته الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية؟ يقولون إن الولايات المتحدة الأمريكية قد اتخذت من الحرب العنصرية فى كوسوفو ذريعة لبسط سيطرتها على البلقان، وإلحاق البقية الباقية من دوله بحلف الأطلنطى وطرد النفوذ الروسى كلية من شرق أوربا، فإذا كانت قد فعلت ذلك سلميا بالاغراء والتودد فى بعض بلدان شرق أوربا، ونجحت فى ضم بولندا والمجر وتشيكا إلى حلف الناتو عن هذا الطريق، فلا بأس من أن يتم ذلك بالعنف وبالاكراه مع يوغوسلافيا، التى يسيطر عليها الصرب ويحلم قادتها «بصربيا الكبرى» لذلك يستمرون فى تحالفهم مع الروس - أقربائهم السلاف - ومؤخرا طلبوا الانضمام إلى الاتحاد «السلافى» بين روسيا وبيلا روسيا، ذلك الاتحاد الذى استبعدت منه أوكرانيا، لأن الأكثرية من سكانها يعتنقون المذهب الكاثوليكى!.

بينما يعتنق المذهب الأرثوذكسى السلاف فى روسيا وبيلاروسيا وصربيا.

لذلك يتعاطف اليونانيون - الأرثوذكس - مع الصرب رغم عضويتهم فى حلف الناتو والمسألة العنصرية فى البلقان وشرق أوربا تتداخل فيها العوامل الدينية مع العوامل القومية مع المصالح الاقتصادية على نحو معقد. ومن ظواهرها كانت حرب البوسنة، حيث حارب الصرب سكانها المسلمين رغم كونهم سلافا مثلهم، أما أوكرانيا السلافية بدورها كما تقدم، فهى تنتظر اليوم الذى تستطيع فيه الانضمام إلى حلف الاطلنطى، بعد أن يتم القضاء نهائيا على المهابة الروسية!.

وبناء عليه يتوقع المراقبون أن تكون يوغوسلافيا غدا، بعد أن يتم تركيعها بالضربات الجوية القاصمة لحلف شمال الأطلنطى، هى «عروس» الانضمام إلى هذا الحلف، وأن «مهرها» سوف يكون هو إعادة إعمارها على يد الشركات الأمريكية ورءوس الأموال التى سوف تتدفق عليها على نحو لم تحلم به من قبل!. وبذلك تكون الحرب التى يشنها حلف الناتو حاليا فى البلقان، وإذا لم تكف مشكلة كوسوفو، فهناك مشكلة «الجبل الأسود» التى يمكن أن تثور فى أى لحظة، هى مقدمة لبسط النفوذ السياسى والاقتصادى معا للولايات المتحدة الأمريكية فى تلك المنطقة، وإذا كان الصرب الآن يقاطعون البضائع الأمريكية ويدمرون محلات «ماكدونالد» ويطالب المتحمسون منهم بالاعتماد على البضائع الروسية! فإن روسيا ذاتها متهالكة على البضائع الأمريكية وحالة اقتصادها منهكة، وأملها الوحيد هو فى المساعدات الغربية، وقد تم «إلزامها الأدب» فى الحرب الدائرة فى البلقان عن طريق تقديم ستة مليارات دولار إليها من صندوق النقد الدولى! أما الاقتصاد الغربى الذى كان يميل إلى الركود، فبدأت تدور عجلاته بكل طاقتها لتعويض حلف الناتو وسلاح الجو الأمريكى عما فقده ويفقده من ذخائر، وقد نفد مخزونه بالفعل من صواريخ «كروز»! وبعدها سوف يأتى الدور على شركات الإعمار لاعادة بناء يوغوسلافيا!.

رغم أن حلف الناتو، يضع من بين شروطه لوقف القتال فى البلقان، إعادة اللاجئين الألبان إلى موطنهم فى كوسوفو، فإن الطريقة التى يتم بها توزيع أعداد كبيرة من هؤلاء اللاجئين إلى بلاد أخرى، بعضها بعيد جدا، قد يجعل هذه العودة حلما بعيد المنال، تماما كما هو الحال فى فلسطين! فما معنى مثلا أن يتم ترحيل عدد منهم إلى جزيرة «جواتينامو»



طفلة من كوسوفا تنظر الى المجهول وبكاء حار من أمها !

فى بحـــر الكاريبى، تلك الجـــزيرة التى تسيطر عليها الولايات المتحدة الأمريكية، والتى تشبه الاقامة فيها، الاقامة فى أحد السـجـون الأوربيـة القـديمـة فى أعـالى البحار! فى جو استوائى خانق بالنسبة لهـؤلاء الأوربيـين الذى يرحلون إليـهـا؟!. وبعض الأمـاكن النائيـة التى يوجـه إليـهـا هؤلاء البـؤسـاء سـوف تكون بهـا إغراءات للبـقـاء حـيث هم، مـثل النرويج وكندا واسـتـراليا، وخـاصـة أن إعـادة إعـمـار كوسوفو سوف يستغرق وقتا طويلا قبل أن يصـبح فى مـقـدورهـم العـودة، وحـتى بالنسبة لبعض البلاد القريبة التى يتوجه إليها بعض اللاجئين، فإن تركيا يمكنها أن تقبل استـضـافة أعداد منهم إلى أجل غيـر مسـمى بفضل قرابة العرق والدين والتـاريخ، فـضـلا عن ألبـانيـا التى يشـبـه وضـعـهـا بالنسـبـة إلى كـوسـوفـو وضع الأردن بالنسبة إلى فلسطين! البلد الوحيد الذى يسـوده الحـرص على إعـفـائه من



حتى رغيف الخبز يصل إلى النازحين بصعوبة

استمرار اللاجئين الألبان على أرضه هو مقدونيا خشية اختلال التكوين الديموغرافى لها ما بين الصرب والألبان، إلا إذا كان هذا الاخلال مقصودا ليكون ذريعة لتدخل آخر طبقا لمجريات الأمور!.

وعلى أية حال، فمن المستبعد أن تعود كوسوفو كما كانت لأهلها الألبان، فهذا الأقليم الذى يوصف بأنه «درة» البلقان، سوف يكون هو الغنيمة الكبرى لمن ستكون له السطوة وبيده مقاليد الأمور، فهو معروف بثرواته الطبيعية وكنوزه المعدنية، وتصفه بعض التقارير بأنه «الرئة الاقتصادية» لصربيا، لذلك تحرص عليه كل الحرص، فهذا الاقليم ينتج ٧٥٪ من خام الرصاص والزنك، و٦٠٪ من الفضة، و٢٠٪ من الذهب، و٥٠٪ من النيكل، وبه ٧٩٪ من احتياطى الفحم، و١٠٠٪ من احتياطى البسموس، و٦١٪ من احتياطى الماغنيسيوم، وبه كميات كبيرة من البوكسيت الحديدى الجاليوم،

والجرمانيوم، والستالوت، والمنجنين، والكوين، والحديد، والنحاس، والزئبق، فضلا عن الرخام والكوارتز والتلك والدلوميت. ومع ذلك فاقليم كوسوفو هو من أفقر أنحاء أوربا لسياسة الصرب العنصرية ومذابحهم المستمرة، التى لم تنقطع إلا فى فترة الحكم الشيوعى أيام تيتو على الأخص، من بعد الحرب العالمية الثانية، إلى موت تيتو ثم انهيار النظم الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا، ولقد كان تيتو هو الذى منح كوزوفو حكما ذاتيا، عصف به خلفاؤه.

الستر الذى ذهب:

نعم كانت الشيوعية بمبادئها فى المساواة بين الأجناس واتباع العقائد المختلفة سترا وغطاء على كثير من السخائم والآفات العنصرية الكامنة فى تلك البلدان، والتى تفجرت بعد سقوط الشيوعية على هذا النحو المروع فى شرق أوربا وفى روسيا ذاتها.

وربما كان التطبيق «السلافى» للشيوعية أو الاشتراكية فى شرق أوربا هو أهم العوامل المؤدية إلى سقوطها وسوء سمعتها فى العالم!.

فمن ناحية كانت هذه البلاد فى معظمها متخلفة فى تطورها الصناعى والاقتصادى عامة، ولقد كانت الماركسية بمذهبها فى الاشتراكية العلمية، تتوقع أن يكون الميدان الطبيعى لتطبيق الاشتراكية هو فى بلدان الغرب الصناعية المتقدمة، بحيث تصبح المساواة ما بين الطبقات الاجتماعية تقدما حقيقيا، أما تطبيقها فى بلاد متخلفة اقتصاديا فقد أدى إلى نشوء ما يسمى بالطبقة الجديدة، من الحكام وأتباعهم الذين يحتكرون خيرات المجتمع ويلقون إلى شعوبهم بالفتات، ولقد كان صاحب تعبير «الطبقة الجديدة» هو ميلوفان دجيلاس نائب رئيس الدولة اليوغوسلافية، الذى أبعد بسبب تأليفه كتابا بهذا العنوان وزج به فى السجن!.

لم يمنع التطبيق السيئ للاشتراكية فى شرق أوربا من ظهور النزعات العنصرية والعصبيات العرقية الكامنة مثل البكتيريا المتحوصلة فى أجساد تلك المجتمعات. كانت الصهيونية واحدة من أهم وأخطر تلك الأوبئة، فالخزر القوقازيون الذين اعتنقوا اليهودية فى أواخر القرن الثامن، كانوا بعض ضحايا سياسة الترويس التى فرضها القياصرة فى القرن التاسع عشر هم والمسلمون

التتر، والمسيحيون من أتباع المذهب الكاثوليكي في أوكرانيا وبولندا، كانت سياسة الترويس هذه تقضي باجبار سكان الامبراطورية الروسية على التكلم باللغة الروسية وارتداء الملابس الروسية واعتناق المسيحية على المذهب الأرثوذكسي.

والصرب الآن يمارسون «التصريب» في «كوزوفو» على طريقة الترويس الروسية ضد المسلمين الألبان أو السلاف في البوسنة والهرسك! أما اليهود الخزر ضحايا الترويس، فما أن تحررت بلادهم بعد الحرب العالمية الثانية من القهر النازي، حتى تحولوا إلى وحوش كاسرة تعتمد الأساطير الدينية، مثل حكاية أرض الميعاد في فلسطين، لاغتصاب تلك الأرض وطرد سكانها منها، وكان النازحون من يهود روسيا وشرق أوربا هم المدد البشرى لتلك الحركة الاستعمارية الصهيونية التي رعتها بريطانيا العظمى ثم آلت إلى النفوذ الأمريكي.

والآن يعتمد الصرب أسطورة مشابهة لاستعباد الألبان في كوسوفو، وهي ادعاء أن كوزوفو هي أصل دولتهم لأنه منذ حوالي ستة قرون وقعت موقعة كوزوفو الشهيرة في التاريخ، واحتل الأتراك العثمانيون تلك البلاد ولكن السلطان مراد العثماني قتل في تلك المعركة التي كان يقودها قائد صربي! رغم أن الألبان وقتها كانوا حلفاء الصرب في المعركة ولم يكونوا قد اعتنقوا الاسلام بعد!.

وحينما بدأت عملية التطهير العرقي في كوزوفو والبوسنة والهرسك قبلها، كانت دعوى الصرب أنهم يطهرون أوربا من الارهاب الاسلامي، والأصولية الاسلامية، وهي ذات الدعوى التي تشكل عقيدة حلف الناتو التي لقنها بعد سقوط الشيوعية واختفائها كعدو تاريخي للغرب، فهل بعد أن وجد الناتو وأصحابه أنفسهم مضطرين ولو في الظاهر إلى الدفاع عن المسلمين الألبان، ضد المتعصبين الصرب، سوف تبقى تلك الدعاوى على حالها؟ علما بأن ما ينتظر الغرب في واقع الأمر، بعد أن تنتهي المعركة الحالية، هو المواجهة مع الارهاب السلافي، الذي بدأت بوادره مع ما نشرته بعض الصحف البريطانية بأن المخابرات الروسية شرعت تمد عناصر صربية بوسائل تكنولوجية للقيام بعمليات إرهابية ضد لندن وواشنطن، سوف تكون بالتأكيد أشد خطرا بكثير مما قد يكون في أيدي جماعات مماثلة من العرب أو المسلمين!.

دائرة حوار

المصادر الفكرية لمعارك طه حسين

بقلم : فوزى ناصف

أفصح الدكتور جلال أمين فى سؤاله: بمن تأثر طه حسين؟ (هلال) أبريل ١٩٩٩م - ذى الحجة ١٤١٩هـ، عن أنه كان يهمه بوجه خاص أن يعرف المصادر الفكرية التى استقى منها طه حسين فكرتين أساسيتين طرحهما بكتابه (فى الشعر الجاهلى)، وهما:

أولا : الزعم بأن الشعر الجاهلى منحول كله، ونسب إلى الجاهلية رغبة من ناحليه - المسلمين - فى إعلاء شأن الإسلام!

وثانياً : الزعم بضرورة أن يتحرر الباحث العربى من قوميته وعصبيته ودينه عند التعرض للبحث فى الأدب العربى، فلا يتقيد إلا بمنهج البحث العلمى!

وقد تلطف الدكتور جلال أمين فى تعليقه على ادعاء الدكتور طه حسين بأن منهجه العلمى الذى اعتمده فى معالجة هذه القضية - المدوية - هو منهج الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى الشك، فقال إن إقحام طه حسين لمذهب ديكارت فى هذا الأمر لا يبدو مبرراً تماماً، وقد لا يكون سائغاً بالمرة؛ إذ إن مبدأ الشك الديكارتى يعمل فى مجال البحث عن مدى سلامة اعتقادنا بوجود الأشياء وجوداً حقيقياً خارج الذهن، ولا يجوز استخدام هذا المبدأ لتأييد القول بالشك فى أى شىء؛ وإلا لجاز للشخص الذى يسيطر عليه الشك فى سلوك زوجته مثلاً، أن يستند فى تبرير شكه إلى مبدأ ديكارت ولو لم يكن لديه أى مبرر معقول لذلك!

أين الحقيقة ..؟

هذه القضايا الثلاث الكبرى، مسها الدكتور أمين مس النسيم العابر على الخدود وعلى أوراق الورود، من خلال حديثه المبسط عن كتاب (**تعليم طه حسين** Taha Husain's Education) الذى صدر منذ شهور قليلة فى بريطانيا باللغة الإنجليزية للدكتور عبد الرشيد محمودى، ونوه الدكتور جلال عن أنه يلقى ضوءاً ساطعاً على الطريقة التى كان يعمل بها عقل طه حسين، منذ نشأته الأولى وحتى كتابته لكتاب (**مستقبل**

الثقافة في مصر) سنة ١٩٣٨م.

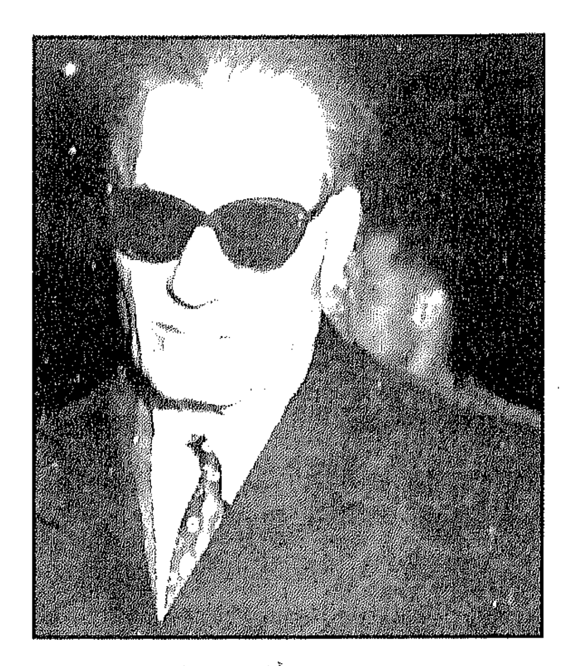
ففي قضية زعم انتحال الشعر الجاهلي، التي كثيراً ما اتُهم طه حسين بأنه أخذ فكرتها من المستشرق اليهودي الإنجليزي دافيد مارجوليوث، يدفع الدكتور محمودي هذا الاتهام عن طه حسين فيذكر أولاً إنكار طه حسين له، وتأكيده أنه لم يقرأ دراسة مارجوليوث إلا بعد سنة من نشر كتاب (في الشعر الجاهلي) ، ويرجح محمودي أن كُلاً من طه حسين ومارجوليوث قد تأثر بمصادر مشتركة، ويشير إلى تأييد مارجوليوث نفسه لهذا التفسير في تعليق له نشر سنة ١٩٢٧م عما وُجه إلى طه حسين من اتهام... ويتعقب محمودي بدايات تفكير طه حسين وكتاباته حتى يعثر على البدايات الأولى لهذه الفكرة عند طه حسين، فيجدها ترجع إلى الفترة ١٩١١ - ١٩١٤م أي قبل صدور (في الشعر الجاهلي) ، مارس ١٩٢٦م، بنحو خمسة عشر عاماً، إذ عبّر فيها طه حسين عن الشكوك نفسها في أصل الشعر الجاهلي، متأثراً، في رأي الدكتور محمودي، بأستاذه المستشرق اليهودي الإيطالي كارلو نالينو، الذي استمع طه حسين إلى محاضراته في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) عن تاريخ الأدب العربي في ١٩١١ - ١٩١٢م..!



جوانب الحقيقة

هذا ما قرره عبد الرشيد محمودي وطه حسين ودافيد مارجوليوث ولكن يبدو أن الحقيقة جوهرة مضلعة مضيئة يبرق نورها من جوانب متعددة :

وأولها : أنه عند إنشاء الجامعة



د. طه حسين

المصرية الأهلية سنة ١٩٠٨م، كتب مصطفى صادق الرافعي - على صفحات (الجريدة) التي كان يرأسها أحمد لطفي السيد منذ ١٩٠٦ وحتى ١٩١٤م - داعياً إلى أن تعتني الجامعة الوليدة بدراسة الأدب العربي، وتشجيع تأليف كتب قيمة في تاريخه. ثم اتخذ الرافعي خطوة عملية في هذا المجال فألف كتابه (تاريخ آداب العرب) ، في ثلاثة مجلدات، ليكون من الكتب التي تُدرّس لطلاب هذه الجامعة، وأصدره في سنة ١٩١١م ؛ التي ذكر الدكتور محمودي أن طه حسين قرر أنه استمع خلالها إلى محاضرات نالينو عن انتحال الشعر الجاهلي... وفي (تاريخ آداب العرب) عرض الرافعي - عَرضاً مفصّلاً - لقضية الإنتحال (في) الشعر الجاهلي، واستقصى ملاحظات نقاد الأدب العربي ومؤرخيه القدماء حولها، وعلى رأسهم ، بالطبع ، محمد بن سَلاّم الجُمَحي (١٣٤ - ٢٢١ هـ حوالي ٧٥٣ -

٨٣٦م) في كتابه الأشهر (**طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين**) الذى صدر منذ أكثر من ألف عام قبل أن يتناولها المستشرقون الأوروبيون فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، وتحديداً ابتداءً من سنة ١٨٦٤م - المستشرق تيودور نويلدكه Tr. Noel-deke - ثم فى سنة ١٩٠٣م المستشرق و. ألوارْدْ W. Alwardt - ثم فى سنة ١٩٢٥م المستشرق دافيد مارجوليوث David Margoliouth .

والطريف ، فى هذا الجانب من جوانب الحقيقة : أن طه حسين قد انتقد كتاب الرافعى (**تاريخ آداب العرب**) على صفحات (**الجريدة**) فى سنة ١٩١٢م، التى كان خلالها لا يزال يستمع إلى محاضرات نالينو، قائلا بالحرف إنه : «لم يفهم من هذا الكتاب حرفاً واحداً».. ثم إنه لما أصدر كتابه (**في الشعر الجاهلى**) سنة ١٩٢٦م عاد وقال بالحرف أيضا:

«إن الرافعي قد فطن فى كتابه (تاريخ آداب العرب) لما يمكن أن يكون من تأثير القصص وانتحال الشعر وإضافته إلى القدماء، كما فطن لأشياء أخرى قيمة»..!

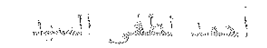
قامت الضجة الكبرى ، وألف الرافعي سنة ١٩٢٦م كتابه (**تحت راية القرآن**) كما ألف غيره عدة كتب للرد على كتاب (**في الشعر الجاهلى**).. وأحيل طه حسين إلى النيابة التى حققت معه **وانتهت إلى أن هذا البحث ليس من عمله، بل سبقه به المستشرقون ومنهم مارجوليوث فى بحثه المنشور فى يوليو ١٩٢٥م**، وانتهت النيابة إلى حفظ الأوراق لعدم كفاية الأدلة على توافر القصد الجنائى لدى طه حسين...

فكيف أثبت الدكتور عبدالرشيد محمودى إنكار طه حسين لأخذه عن بحث مارجوليوث، وتأكيده أنه لم يقرأه إلا بعد سنة من نشر كتابه (فى الشعر الجاهلى) ...؟

ومن الطريف كذلك أن عدلي يكن رئيس الوزراء آنذاك ، وكُلاً من عبدالخالق ثروت وحسين رشدى - رئيس مجلس الشيوخ وقتها - وهما من رؤساء الوزارات السابقين، وعلى الشمسى وزير المعارف، وعبد العزيز فهمي وأحمد لطفى السيد من الوزراء السابقين، وعباس محمود العقاد، من الكتاب المرموقين، ساندوا طه حسين فى تلك القضية إلى أقصى مدى.

وثاني جوانب الحقيقة في هذا الموضوع : أن الأدب العربى القديم، وهو أقدم أدب حي فى العالم كله، ترجع نشأته إلى أكثر من ستة عشر قرناً، حيث نشأ في بادية «نجد» شعراً غنائياً فى شكل سمي «القصيدة»، ويُعد امرؤ القيس، الذى وصل بهذا الفن إلى ذروته ، من تلاميذ مدرسة نجد التى ترجع إلى ما قبل القرن الرابع الميلادى والتى انتشرت فى سائر الجزيرة العربية حوالى القرن السادس الميلادى، مثلاً أعلى يحتذى ، كما





أحمد لطفي السيد



مصطفى صادق الرافعي



عدلي يكن

تمتاز القصيدة العربية باختلاف شكلها عن شكل القصائد المعروف فى جميع الآداب العالمية الأخرى ؛ إذ تبلغ أبياتها عادة من ستين إلى مائة بيت تلتزم كلها بحراً واحداً وقافية واحدة.. كان هذا الأدب العربى ، نثره وشعره، غير مكتوب لفترة طويلة، ويعتمد فى روايته على السماع إلى أن بدأ تدوينه، فى عصر التدوين العربى خلال القرن الثانى الهجرى – الثامن الميلادى – وجَمَعَ الشعر العربى رواة اشتهر كل منهم بمجموعة من الشعر تنسب إليه، وكان من رواة الشعر العربى رواة ثبوت صادقون، كما كان منهم رواة متهمون بالوضع والانتحال كذابون... فمن الرواة الموثوق بروايتهم كان أبو عمرو بن العلاء، المتوفى سنة ١٥٩ هـ، وهو أحد القراء ومن رجال النحو واللغة ، والمُفضَّل الضبى ، المتوفى سنة ١٧٠ هـ وتسمى مجموعته (المفضليات)، والأصمعى، المتوفى حوالى ٢١٥ هـ ومجموعته تسمى (الأصمعيات)... وكان من الرواة المشكوك فى روايتهم: حماد الراوية ، المتوفى سنة ١٦٤ هـ، وخلف الأحمر ، المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وثالث يسمى جَنَّاداً .. وهكذا.

وكان على رأس الرواة الثبوت الصادقين المؤرخ العالم الأديب محمد بن سلام الجمحى ، المتوفى حوالى ٢٢١ هـ الذى أثبت ما تنبه إليه أبو عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى وغيرهم، من دخول انتحال كثير فى الشعر الجاهلى، وألف ابن سلام كتاب (طبقات فحول الشعراء) الذى يعتبر أول كتاب أثار، فى تفصيل، مشكلة الإنتحال فى الشعر الجاهلى، وقد ردها إلى عاملين :

١ – القبائل التى كانت تتزيد فى شعرها لتتزيد فى مناقبها.

٢ – الرواة الوضاعين.

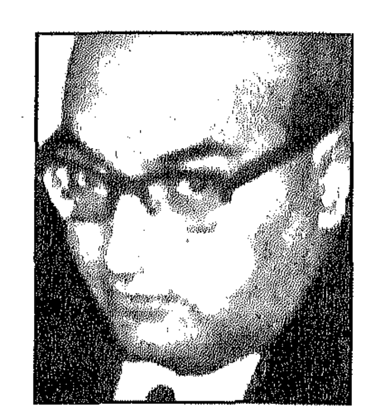
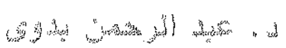
فهذه القضية، إذن ، قضية عربية قديمة تثبت مدى رقى علوم اللغة والأدب والنقد والتاريخ عند مؤرخينا القدماء ، ونزاهتهم وتجردهم لحقائق العلم الصحيح...

وقد يعجب القارىء هنا كيف أن طه حسين لم يسمع عن (طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين) لابن سلام، ولا (تاريخ آداب العرب) للرافعى، ولا (أصول الشعر العربى) لمارجوليوث – حسب تأكيده وتأكيد الدكتور محمودى..؟!

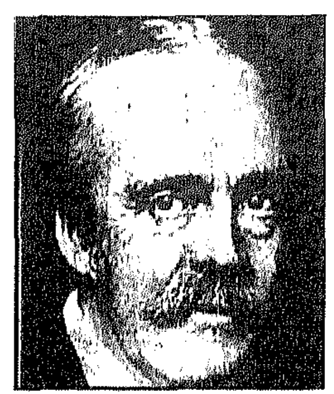
ماذا يقول المستشرقون ..؟

والجانب الثالث للحقيقة في هذه القضية أن المستشرقين قد وقعوا على مشكلة الانتحال (في) الشعر الجاهلي، وعرفوها عن طريق اطلاعهم على تراث كل من المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وابن سلام وكتاب (**طبقات فحول الشعراء**) الذي صنف فيه كلا من الشعراء الجاهليين والإسلاميين في عشر طبقات، وأفرد منهم أصحاب المراثي وشعراء القرى، وفاضل بين الشعراء على أساس كثرة الشعر وجودته وتعدد أغراضه، وحقق فيه نصوص الشعر الجاهلي تحقيقاً علمياً فريداً... ثم ... وبالأسلوب الذي صار منهجا معروفاً عن المستشرقين - وهو أسلوب طرح الاشكالات بالتدرج، بأن يبدأ أحدهم بادعاء ما، ثم يأتي بعده من يتوسعون تدريجياً في هذا الإدعاء حتى يفتعلوا منه قضية كبرى - بدأ نويلدكه، ١٨٦٤م، **بالتنويه عن وجود (انتحال) في الشعر الجاهلي**، ثم تبعه آلوارد، ١٩٠٣م، فأعلن تشككه في (**صحة الشعر الجاهلي عامة**) باستثناء عدد قليل من القصائد زعم أنها يمكن التسليم بصحتها مع استمرار الشك في صحة ترتيب أبيات أو ألفاظ كل منها .. ثم ردد هذه المزاعم كل من المستشرق الإنجليزي وليم موير، ١٨١٩ - ١٩٠٥م، والمستشرق الفرنسي رينيه باسيه، ١٨٥٥ - ١٩٢٤م، وابنه المستشرق هنري باسيه، ١٨٩٣ - ١٩٢٦م، والمستشرق الألماني كارل بروكلمان، ١٨٦٨ - ١٩٥٦م، والمستشرق المجري جولد زيهر، ١٨٥٠ - ١٩٢١م، والمستشرق الإيطالي كارلو نالينو، ١٨٧٢ - ١٩٣٨م، والمستشرق الإنجليزي دافيد مارجوليوث، ١٨٥٠ - ١٩٤٠م، الذي نشر مقالة في اثنتين وثلاثين صفحة من عدد يوليو ١٩٢٥م من (**مجلة الجمعية الملكية الآسيوية) الإنجليزية المتخصصة في نشر بحوث المستشرقين باللغة الإنجليزية - توجد أخرى بالاسم نفسه في باريس باللغة الفرنسية - تحت عنوان : أصول الشعر العربي**
The Origins Of Arab Poetry
فادعى (إنتِحال الشعر الجاهلي كله) ، وزعم أن الشعر الجاهلي لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون(!) يعرفون التوحيد وما في الإسلام من بعض صفات الله، والحساب، ويوم القيامة ... (!)

وقد يكون من المفيد هنا التنويه عن أن كتاب (**الأصنام**) لمؤلفه محمد بن الكلبي المتوفى سنة ٧٦٣م، فيه من الشعر الجاهلي ما ينقض زعم مارجوليوث... فضلاً عما هو معروف من أن قدماء المصريين - قبل الجاهليين وقبل إسماعيل وإبراهيم - قد عرفوا ديانة التوحيد وما في الاسلام من مثل يوم القيامة والحساب وبعض صفات الله... فإذا كان مارجوليوث



د. عبد الرحمن بدوي


حسين رشدي


بالفور

لم يسمع عن (**كتاب الموتى**) وإيزيس وأوزوريس فهلاً سمع عن كتاب المؤرخ اليهودي هنري برستيد: (**فجر الضمير الإنساني**) ... والذي يزعم أن موسى انتحل التوراة من أناشيد أخناتون...!؟

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه: (**دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي**) : «إن موضوع صحة الشعر الجاهلي قد شغل الباحثين الأوروبيين منذ عام ١٨٦٤م، ووصلوا فيه إلى نتائج لا تزيد كثيراً عما وصل إليه ابن سلام الجمحي «١٣٤-٢٢١هـ» أي قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون.. كما امتازت دراساتهم باستعمال النقد الفيلولوجي الدقيق على النحو الذي سبقهم إليه ابن سلام الجمحي الذي وضع هو وغيره من علماء اللغة والأدب والنقد أساس هذا النوع من النقد...».

فماذا قال طه حسين...؟

إن الجانب الرابع للحقيقة، هنا، أن الجامعة المصرية أصدرت في العام نفسه ١٩٢٥م قراراً بنقل أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب الدكتور أحمد ضيف إلى كلية دار العلوم، وتعيين الدكتور طه حسين، أستاذ التاريخ اليوناني والروماني «!» أستاذاً للأدب العربي بدلاً منه، فشرع في تدريس جميع العناصر الواردة في بحث مارجوليوث عن انتحال الشعر الجاهلي كله، لطلابه، غداة عودته من حضور الاحتفال العالمي بافتتاح الجامعة العبرية بالقدس في فلسطين بالسنة نفسها ١٩٢٥م ؛ هذه الجامعة التي افتتحها السير آرثر جيمس بالفور صاحب الوعد الإنجليزي المشئوم في نوفمبر ١٩١٧م، والذي كان سبقه وعد فرنسي أشأم صدر بباريس في يونيو من العام نفسه ١٩١٧م!... ثم إنه أصدره كتابا في مارس ١٩٢٦م تحت عنوان: (**في الشعر الجاهلي**) صدَّره بإهدائه بكل إجلال ومهابة إلى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا..! أما المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، ١٨٨٣-١٩٦٢م، فكان يقول : «إننا حين نقرأ طه حسين نقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا».

التحرر من الدين

ولقد انزعج الدكتور جلال أمين كثيراً من فكرة طه حسين الأخطر، ألا وهي ما

تضمنه كتاب (فى الشعر الجاهلى) من حتمية أن يتحرر الباحث فى الأدب العربى من أى قيود تفرضها عليه قوميته أو عصبيته أو دينه... ثم اطمأن الدكتور أمين إلى أن الدكتور محمودى يبين أن المصدر الذى تأثر به طه حسين فى هذا الصدد هو المستشرق الفرنسى بول كازانوفا Casanova المتوفى ١٩٢٦م تاريخ صدور (فى الشعر الجاهلى) ، والذى تتلمذ عليه طه حسين أثناء دراسته بفرنسا فى سنتي ١٩١٦م و١٩١٧م «!» وأشرف على رسالته للدكتوراه عن ابن خلدون... ويقتطف محمودى من كتابات طه حسين عن كازانوفا ما يحمل ثناءً عظيماً على موقفه من الدين عند بحث تاريخ الأدب... ومنهجه التاريخى غير المتحيز «!» حتى فيما يتعلق بالقرآن الكريم نفسه...

وخلاصة منهج كازانوفا هى أن القرآن كتاب ألفه «محمد» وليس وحياً إلهيًا من عند الله.. وتطبيقاً لهذا المنهج كان طه حسين يكلف طلابه بكتابة بحوث فى نقد القرآن باعتبار أنه «نص» أدبى غير مقدس بل كسائر كتب الأدب. ويقول طه حسين بكل صراحة إنه لم يفهم القرآن فى الأزهر وفهمه فى فرنسا على كازانوفا.

وكان المستشرق الإنجليزى جيب Gibb المولود ١٨٩٥م، يقول: «إن الفكرة التى رمى إليها طه حسين هى تحرير الأدب العربى من القيود التى ترتبط بالعلوم الدينية، وحتى يدرس الأدب لنفسه، ولا يكون وسيلة لفهم القرآن والحديث».

وقالها طه حسين فى الصفحة السادسة والعشرين من الطبعة الأولى لكتابه (فى الشعر الجاهلى) :

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخى، فضلاً عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات صلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى» ...!

قد قالها ألف مستشرق ومستشرق من قبل ومن بعد فما حركت شعرة في بدن الأمة، فلما قالها الأزهرى السوربوني فى مارس ١٩٢٦م ، وسانده عدلى يكن رئيس الوزراء وحسين رشدى رئيس مجلس الشيوخ ورجالات الدولة المستعمرة ، كانت قنبلة لا تزال زلزلتها ترج الأركان ■

مفاهيم التعدد الحزبى في الدولة الإسلامية

بقلم: د. محمد عمارة

الحزب - وجمعه: الأحزاب - هو: كل طائفة أو جماعة جمعهم الاتجاه إلى غرض واحد سياسيا كان ذلك الغرض، بالدرجة الأولى، أو غير سياسى.. وغلب - فى الواقع الحديث والمعاصر - إطلاق مصطلح الحزب على التنظيم الذى يجمع جماعة من الأفراد تشترك فى تصور واحد لبعض المسائل السياسية، وتكون رأيا انتخابيا واحدا..

ومصطلح «الحزب»، فى الأصول الإسلامية - قرآنا وسنة - وكذلك فى تجربة الدولة الإسلامية الأولى، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم - ليس مرفوضا لذاته، وبإطلاق .. وليس مقبولا لذاته، وبإطلاق.. وإنما معيار القبول لمصطلح الحزب،ومن ثم للتحزب، والتنظيم الحزبى من ثم، هو مضمون الأهداف والأغراض والمقاصد والمبادىء التى قام لها وعليها هذا الحزب..

فالشرك والمشركون حزب.. ولكنه ملعون ومرفوض.. وأولياء الشيطان حزب.. ولكنه ملعون ومرفوض.. بينما نجد أولياء الله حزبا مقبولا وموضع ثناء.. وكذلك المؤمنون أنصار رسول الله، صلى الله عليه وسلم هم حزبه، المنخرطون فى الجهاد لنصرة الدين..

فصراع الإسلام، قائم أبدا بين «حزب» الشرك والكفر والشيطان، وبين «حزب» التوحيد والإيمان.. حزب الله.. فالمصطلح مقبول أو مرفوض باعتبار المبادىء والمقاصد.. والتحزب، أى انتظام الناس فى أحزاب خاضع، من حيث القبول أو الرفض، إسلاميا، باعتبار المعايير الحاكمة للتنظيم الحزبى، وليس للمصطلح بإطلاق، ولا للتحزب والتنظيم الحزبى بإطلاق..

لقد كان المشركون أحزابا (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما) - الأحزاب:٢٢ - وكذلك كان حالهم عبر تاريخ الرسالات السماوية

(جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب. كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد. وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب) - ص: ١١-١٣.

وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم نقرأ: «اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» - رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وكما أن للشيطان حزبه (حزب الشيطان) وهو (يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) - فاطر: ٦- .. فإن لله، سبحانه وتعالى، حزبه (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) - المائدة :٥٦ - .. والذين (رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون) - المجادلة: ٢٢.

وفي أدبيات عصر النبوة أطلق مصطلح «الأمير» على رسول الله صلى الله عليه وسلم، باعتبار رئاسته للدولة، وكذلك أطلق مصطلح «الحزب» على أنصاره، ويروى أنس ابن مالك أن الأشعريين - وفيهم أبو موسى الأشعري - عندما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودنوا من المدينة، كانوا يرتجزون، يقولون:

غدا نلقى الأحبة .. محمدا وحزبه!»

- رواه الإمام أحمد بن حنبل

بل، ويروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، «إن نساء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، كن حزبين ، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله...»!.

هذا عن المصطلح .. فهو مستخدم، ومعيار القبول له أو الرفض هو مقاصد الحزب وغايات التحزب.

التعددية الفكرية

أما المشروعية الإسلامية للتنظيم والتحزب، فلاشك أنها مرتكزة على الإيمان بمشروعية التعدد في الآراء والتوجهات، فالمجتمعات التي تعتمد مشروعية «التعددية الفكرية» هي التي تعتمد تعددية التنظيم والانتظام في الأحزاب.

وإذا كان الإسلام قد تحدث عن وحدة «الدين»، من لدن آدم إلى محمد، وعبر كل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد تحدث عن التعددية في «الشرائع» لأمم الرسالات.. (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه..) - الشورى: ١٣ - ... (..لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة..) - المائدة: ٥- ..... فالدين واحد، أزلا وأبدا.. والشرائع متعددة، أزلا وأبدا، كذلك..

فهنا وحدة .. وتعددية في إطار الوحدة!.

والإنسانية وحدة واحدة، من أب واحد وأم واحدة، لكنها تتعدد في اللغات والألوان، أي في الأقوام.. (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء..) - النساء: ١ -.. (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين) - الروم : ٢٢ ..

فهنا، أيضا، وحدة في الإنسانية، وتعددية في إطار هذه الوحدة!..

والأمة الإسلامية وحدة.. (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) - الأنبياء: ٩٢ - ... وفي إطار الأمة الواحدة تقوم

وتتمايز الأمم، أي الجماعات، التي تجتمع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون) - آل عمران: ١٠٤...

فوحدة الأمة.. يشهد إطارها تمايز الجماعات المجتمعة على القيام «بالفروع»، الموصلة إلى إقامة أصول الاعتقاد..

التمايز التنظيمي

وإذا كان التمايز في التنظيم الحزبي، على النحو الذي نفهمه اليوم من مصطلح «الحزب»، هو من ثمرات التطور في الحياة الفكرية والسياسية - وهو تطورتتمايز فيه الحضارات والعصور والمجتمعات - فإن التجربة السياسية لدولة الإسلام الأولى قد شهدت من «المؤسسات» ماديشبه» التمايز التنظيمي - ولانقول الحزبي - على نحو من الأنحاء.

● فـ «هيئة المهاجرين الأولين» - التي ضمت «القيادات القرشية» التي «سبقت إلى الإسلام» -أبو بكر ، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو عبيدة بن الجراح.

هيئة المهاجرين الأولين هذه كانت تنظيما له اختصاصات دستورية في الخلافة والدولة وشئون المجتمع الإسلامي.

● وهيئة النقباء الاثني عشر» - التي تكونت بالاختيار من الأنصار الذين عقدوا مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، عقد تأسيس الدولة الإسلامية في بيعة العقبة - هذه الهيئة - التي ضمت: أبو أمامة، أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء ابن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة بن دليم، والمنذر بن عمرو ابن خنيس، وعبادة بن الصامت، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر.

هذه الهيئة قد كانت تنظيما ذا اختصاصات دستورية في حياة الدولة الاسلامية، لقد كانت هيئة الوزراء - المؤازرين - كما كانت هيئة المهاجرين الأولين هي هيئة الأمراء - المتأمّرين-!

● وفي ترجمة ابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ ١١٦٠ - ١٢٣٣م) للصحابية الجليلة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (٣٠ هـ ٦٥٠ م) - وكانت مبرزة في الشجاعة والخطابة - ما يشير إلى «جماعة نسائية»! لنساء المدينة، قامت وتألفت للمطالبة بحقوقهن الموازية لما يبذلن في المجتمع الجديد من جهود!..

وكانت أسماء هذه قائدة في هذه «الجماعة».. وابن الأثير يتحدث عن ذهابها إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، ممثلة لهذه «الجماعة»، ومتحدثة باسمها.. فيقول: إنها قد ذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس مع الصحابة، فقالت: يارسول، «إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين، يقلن بقولي، وعلى مثل رأيي...».. ثم عرضت قضيتهن.. وأجابها رسول الله صلى الله عليه وسلم.وطلب منها إبلاغ جوابه إلى «جماعتها» - «انصرفي يا أسماء، وأعلمي من وراءك من النساء...»!..

فنحن هنا أمام «جماعة نسائية»..

ويعبارة الصحابية أسماء بنت يزيد، فهي «جماعة نساء المسلمين»!..

تلك إشارات لـ «مؤسسات.. وتنظيمات.وجماعات» في المجتمع الإسلامي الأول، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

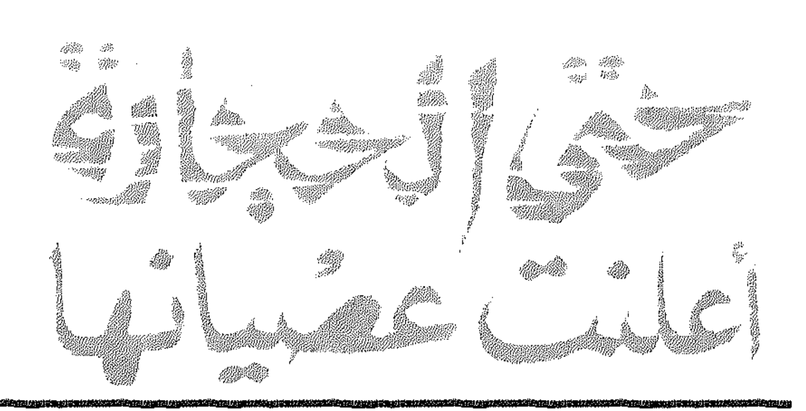
ولقد شهدت هذه القسمة من قسمات الحياة الفكرية والسياسية - قسمة التنظيم - الأحزاب - تطورا مواكبا لتطور الضرورات والمقاصد والغايات.

● فكانت الفرق الكلامية تنظيمات سياسية، تميزت في «المقالات» - أي «النظريات» - وفي الوسائل التي اعتمدتها لوضع هذه «المقالات» في الممارسة والتطبيق. فللخوارج مقالات، ومنهج في الوصول لتحقيق مقالاتهم، وكذلك الحال عند المعتزلة، وعند الشيعة، بفصائلها المتعددة، المعتدلة منها والمغالية، العلنية منها والسرية.

أما عصرنا الحديث، فلقد انتقل بالتنظيم الحزبي إلى طور جديد، ففيه عرفت مصر، مثلا، وقبل غيرها من البلاد الإسلامية، (الحزب الوطني الحر)، الذي بدأ سريا، على يد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، في سبعينات القرن التاسع عشر الميلادي، والذي قاد الثورة العرابية (١٨٨١-١٨٨٢م)، ثم شهدت - مع كثير من البلاد الإسلامية - تنظيم «جمعية العروة الوثقى» - السري - الذي رأسه الأفغاني، وكان نائبه الإمام محمد عبده (١٢٦٦/١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، والتي صدرت مجلة «العروة الوثقى»، بباريس، لسان حاله.. ثم «الحزب الوطني»، الذي قاده مصطفى كامل (١٢٩١-١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ -١٩٠٨م)، و«حزب الأمة»، الذي كان فيلسوفه أحمد لطفي السيد (١٢٨٩-١٣٨٣ هـ ١٨٧٢ -١٩٦٣م).. و«حزب الإصلاح»، الذي كونه الشيخ علي يوسف (١٢٨٠ -١٣٣١ هـ ١٨٦٣ - ١٩١٣م)، و«حزب اللامركزية الذي ضم قيادات الإصلاح في الولايات العربية العثمانية، وجمعية أم القرى «جمعية تعليم الموحدين» - السرية التي تحدث عنها عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠-١٣٢٠هـ١٨٥٤ -١٩٠٢م) في كتابه (أم القرى).

● فلما انتهت الحرب العالمية الأولى، وطوى الاستعمار الغربي صفحة الخلافة العثمانية، واكتمل الاحتواء الغربي لعالم الإسلام وأقطار الشرق، وأصبح النموذج الغربي - الليبرالي، والشمولي - هو النموذج الحضاري الذي تروج له دوائر الفكر السياسي ومنابر الإعلام ومعاهد التعليم.. غدا الطابع الغربي، في التنظيم الحزبي، نمطا شائعا في حياة العرب والمسلمين.. سواء في قواعد التنظيم أو في النظريات السياسية والاجتماعية التي هي مقاصد وغايات التنظيمات والأحزاب.

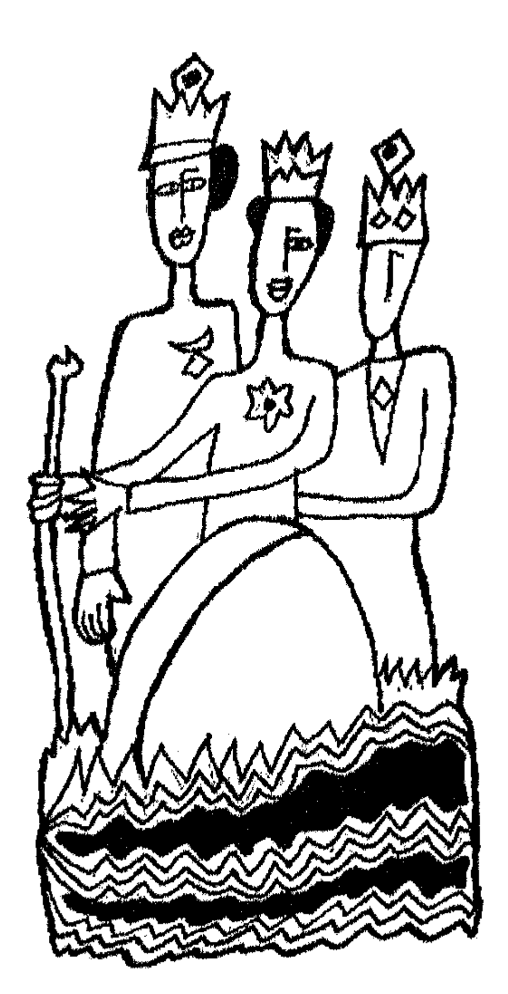
ولقد كان طبيعيا، أمام خطر الاستلاب الحضاري الغربي، أن تبرز عوامل اليقظة الإسلامية، لتدافع عن الهوية الإسلامية، وأن تتخذ من التنظيم السبل والأدوات لتحقيق مقاصد البعث الحضاري الإسلامي، استئنافا للنهوض، ومواجهة للتحديات سواء منها ما كان تخلفا موروثا عن السلف، أو غزوا بالفكر غير الملائم جاءت به دول الاستعمار.



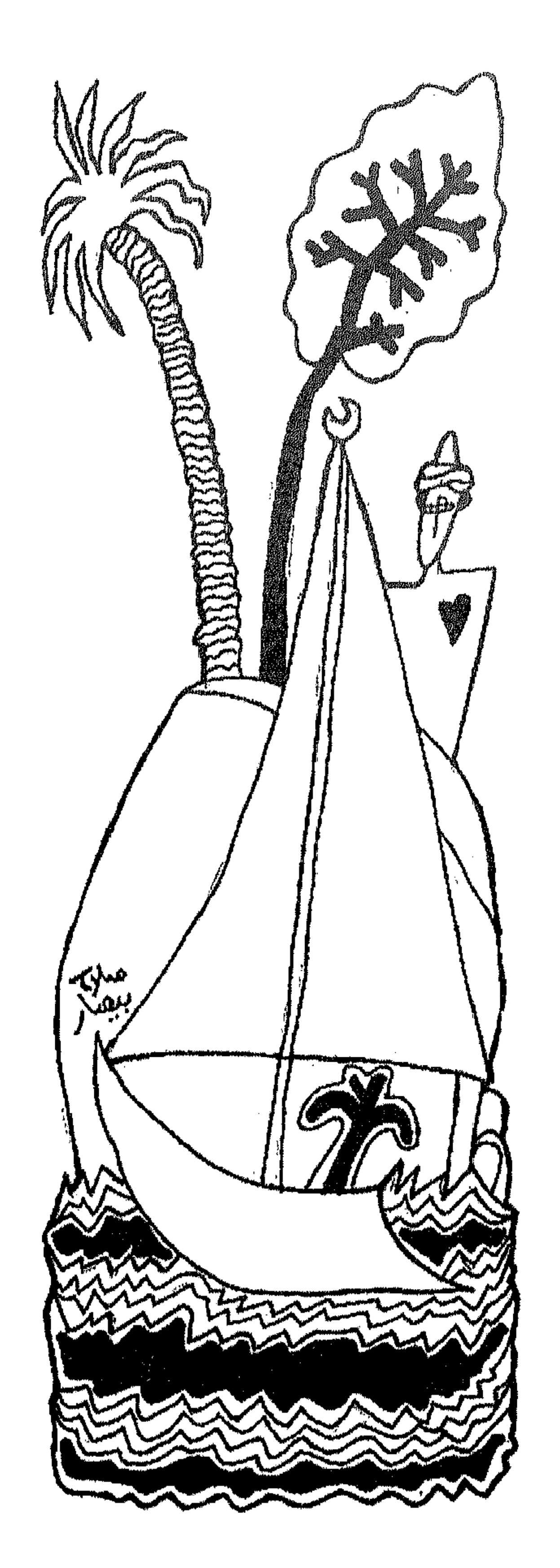
حتى الحجارة أعلنت عصيانها

شعر : فاروق جويدة

(بينما كان عمال «الهدد» يهدمون كوبرى أبوالعلا توقفت أدوات «الهدد» فجأة أمام حجر ضخم فى قلب النيل .. وقالوا إنهم سمعوا فى الليل أنينه) .



حَجرٌ عتيقٌ فوق صدر النيل
يصرخ فى العراءْ ..
وقف الحزينِ على ضفاف النهر
يبكى فى أسًى
ويدور فى فزعٍ
ويشكو حزنه للماءْ
كانت رياح العُرى تلفحه فيحنى رأسه
ويئن فى ألم وينظر للوراء ..
يتذكر المسكين أمجاد السنين العابرات
على ضفاف من ضياء
يبكى على زمن تولى
كانت الأحجار تيجاناً وأوسمة
تُزيّن قامة الشرفاء
يدنو قليلاً من مياه النهر يلمسها
تعانق بؤسه
يترنح المسكين بين الخوف .. والإعياء
ويعود يسأل
فالسماء الآن فى عينيه ما عادت سماءْ ..
أين العصافير التي رحلت



وكانت كلما هاجت بها الذكرى
تحن إلى الغناء
أين النخيل يعانق السحب البعيدة
كلما عبرت على وجه الفضاء
أين الشراع على جناح الضوء
والسفر الطويل .. ووحشة الغرباء
أين الدموع تطل من بين المآقى
والربيع يودع الأزهار
يتركها لأحزان الشتاء
أين المواويل الجميلة
فوق وجه النيل تشهد عرسه
والكون يرسم للضفاف ثيابها الخضراء ..
حجــر عتيق فــوق صــدر النيل يبكى فى العراء ..
حجر ولكن من جُمُود الصخر ينبت كبرياءْ
حجر ولكن فى سواد الصخر قنديلٌ أضاء
حجر يعلمنا مع الأيام درساً فى الوفاء ..
النهر يعرف حزن هذا الصامت المهموم
فى زمن البلادة .. والتنطع .. والغباء ..
حجر عتيق فوق صدر النيل يصرخ فى العراء
قد جاء من أسوان يوماً
كان يحمل سرَّها
كالنور يمشى فوق شط النيل
يحكى قصة الآباء للأبناء ..
في قلبه وهجٌ وفى جنبيه حلم واثق
وعلى الضفاف يسير في خيلاء ..
مازال يذكر لونه الطينى
فى ركب الملوك وخلفه
يجرى الزمان وتركع الأشياء ..
حجر من الزمن القديم
على ضفاف النيل يجلس فى بهاء
لَحوُه عند السد يحرس ماءه

وَجدُوُه فى الهرم الكبير
يُطل فى شمم وينظر فى إباء
لمحوه يوماً ..
كان يدعو للصلاة على قباب القدس
كان يقيم مئذنة تُكَبِّر
فوق سد الأولياء
لَمحوه فى القدس السجينة
يرجم السفهاء ..
قد كان يركض خلفهم مِثْلَ الجواد
يطارد الزمن الردىء يصيح فوق القدس
يا ألله .. أنت الحق .. أنت العدل
أنت الأمن فينا والرجاءْ
لا شىء غيرك يوقف الطوفان
هانتْ فى أيادى الرجس أرض الأنبياءْ
حجر عتيق من زمان النبل
يلعن كل من باعوا شموخَ النهر
فى سوق البغاء
وقف الحزين على ضفاف النهر يرقب ماءه .
فرأى على النهر المعذب
لوعةً .. ودموعَ ماء ..
وتساءل الحجر العتيق
وقال للنهر الحزين أراك تبكى
كيف للنهر للبكاء ..؟
فأجابه النهر الكسير :
على ضفافى يصرخ البؤساءْ
وفوق صدرى يعبث الجهلاء
والآن ألعن كل من شربوا دماء الأبرياء
حتى الدموع تحجرت بين المآقى
صارت الأحزان خُبزَ الأشقياء
صوتُ المعاول يشطر الحجر العنيد
فيرتمى فى الطين تنزف من مآقيه الدماءْ
ويظل يصرخ والمعاول فوقه

والنيل يكتم صرخةً خرساءْ

★★★

حجرٌ عتيقٌ
فوق صدر النيل يبكى فى ألمْ
قد عاش يحفظ كل تاريخ الجدود وكم رأى
مجدَ الليالى فوق هامات الهَرَمْ
يبكى من الزمن القبيح
ويشتكى عجز الهمم
يترنح المسكين والأطلال تُدمَى حوله
ويغوص فى صمت التراب
وفى جوانحه سأمْ
زمنٍ بنى منه الخلودَ وآخرٌ
لم يبقِ منه سوى المهانة والندم
كيف انتهى الزمن الجميل
إلى فراغٍ .. كالعدمْ

★★★

حجر عتيق
فوق صدر النيل يصرخ
بعد أن سئم السكوتْ ..
حتى الحجارةُ أعلنت عصيانها
قامت على الطرقات وانتفضت
ودارت فوق أشلاء البيوتْ
فى نبضنا شىءٌ يموتْ
فى عزمنا شىءٌ يموت
فى كل جحرٍ فى ضفاف النهر
يرتع عنكبوتْ ..
فى كل يومٍ فى الربوع
الخُضرْ يولدُ ألفُ حوتْ
فى كل عش فوق صدر النيل
عصفورٌ يموتْ ..

★★★

حجر عتيق





لم يزل فى الليل يبكى كالصغار
على ضفاف النيل
مازال يسأل عن رفاقٍ
شاركوه العمرِ والزمنَ الجميلْ
قد كانت الشُطآن فى يومٍ
تداوى الجرح تَشْدُو أغنياتِ الطُّير
يُطربُها من الخيل الصهيلْ
كانت مياه النيل تعشق
عِطْرَ أنفاس النخيلْ
هَذى الضفاف الخضرُ
كم عاشت تغنى للهوى شمسَ الأصيلْ
النهر يمشى خائراً
يتسكع المسكين فى الطرقاتِ
بالجسد العليل
قد علَّموه الصمتَ والنسيانَ
فى الزمن الذليلْ
قد علموا النهر المكابر
كيف يأنس للخنوع
وكيف يركع بين أيدى المستحيلْ ..

★★★

حجرٍ عتيق فوق صدر النيل يصرخ فِي المَدَى
الآن يُلقينى السماسرة الكبار إلى الرِّدَى
فَأموت حزناً ..
لا وداعَ .. ولا دموعَ .. ولا صدَى
فلتسألوا التاريخ عنى
كل مجد تحت أقدامى ابتدا
أنا صانع المجد العريق ولم أزل
فى كل ركن فى الوجود مُخلَّدا
أنا صحوة الإنسان فى ركبِ الخلود
فكيف ضاعت كل أمجادى سُدَى
زالت شعوبٌ وانطوت أخبارها
وبقِيتُ فى الزمن المكابر سيداَ

كم طاف هذا الكونُ حولي
كنت قُدّاساً .. وكنت المعبَدَا
حتى أطل ضياء خير الخَلْق
فانتفضت ربوعي خَشيةً
وغدوتُ للحق المثابرِ مسجِدا
يا أيها الزمن المُشَوَّهُ
لن تراني بعد هذا اليوم وجهاً جامِدا
قولوا لهمْ
إن الحجارة أعلنت عصيانَها
والصامتُ المهموم
فى القيدِ الثقيل تمرَدا
سأعود فوق مياه هذا النهر طيراً مُنشدَا
سأعود يوماً حين يغتسل الصباح
البِكْرُ فى عين الندَى ..
قولوا لهم
بين الحجارة عاشقٌ
عَرفَ اليقين على ضفاف النيل يوماً فاهتدى
وأحَبَّه حتى تلاشى فيه
لم يعرف لهذا الحب عمراً أو مدى
فَأحبَّه فى كل شيءٍ
فى ليالى الفرح فى طعم الرَّدى ..
من كان مثلى لا يموت وإن تغير حَالهُ ..
ويدا عليه .. ما بَدا
بعضُ الحجارة كالشموس
يغيب حيناً ضوؤُها
حتى إذا سقطت قلاع الليل وانكسر الدّجى
جاء الضياء مغرِّدًا
سيظل شيء فى ضمير الكون يُشعِرُنى
بأن الصبح آت إنَّ موعده غدًا
ليعُودَ فَجْرُ النيل من حيثُ ابْتدا ..
لِيعُودَ فجرُ النيلِ مِن حيثُ ابْتدا

بقلم :
وديــع
فلسطيــن



قرياقص ميخائيل
عمدة فى لندن من صعيد مصر

كنت حديث عهدٍ بالعمل فى الصحافة ، أتلمس طريقى فى دروبها الشاسعة ، وأحاول الإلمام بأخبار السابقين من أعلامها ، والتعرف بكبار العاملين فى ميدانها ، عندما أقبل على مكتبى فى جريدة «المقطم» رجل قصير بدين ، فى يسراه عكازة ، غاضت عيناه وشاب شعر رأسه ، وقال لى بلهجة صعيدية محببة وبروح ودية رقيقة «أنا قرياقص ميخائيل ، فهل تسمح لى بأن أجلس معك قليلاً للتعارف؟» فرحبت به وأنا أسائل نفسى : «من يكون هذا القرياقص ميخائيل ، وأية جامعة تجمعنى به» ؟ وبسبب عفويته وعذوبة شخصيته ، لم أملك إلا أن أعير له أذناً صاغية ، فقال : «إننى زميل لك ، أعمل بالصحافة فى لندن حيث أعيش منذ خمسين عاماً متطوعاً لخدمة القضية المصرية وقضايا العرب جميعاً»



قرياقص ميخائيل (إلى اليمين) يستقبل بعض ضيوفه على باب منزله فى لندن يتوسطهم الأمير سعود بن عبدالعزيز (الملك السعودى فيما بعد) وإلى يمينه حمد الباسل باشا عضو البرلمان وإلى يساره محمد توفيق رفعت باشا الذى تولى وزارات المعارف والمواصلات والخارجية وكان أول رئيس لمجمع فؤاد الأول للغة العربية . وظهر خلفهم من اليمين عثمان محرم باشا وزير الأشغال والصحفى محمود أبو الفتح والصحفى محمد نجيب

ثم أخرج من حافظته كتيباً عنوانه : «جهاد شاب وطنى» ألفه عنه توفيق حبيب، وهو «الصحفى العجوز» الذى كان يحرر فى جريدة «الأهرام» عموداً يومياً بعنوان «على الهامش» ، كما أخرج مجموعة من الكتيبات المطبوعة باللغة الانجليزية عنوانها «نشرة مصرية» Egyptian Journal ومجموعة أخرى عنوانها «تذكارات» Souvenirs ومجموعة ثالثة عنوانها رسائل دورية Circulars صادرة عن مكتب الأنباء والاستعلامات المصرى فى لندن المنشأ فى عام ١٩١٠ وهو - كما جاء فى عنوان الرسائل «أقدم مكتب مصرى مستقل فى العالم المتحضر». ثم قال : «لن أزعجك بالحديث عن نفسى ، وستعرف من أنا عندما تطالع

هذه الكتيبات التى أهديك إياها» . وانصرف معتذراً عن إضاعة وقتى ، ومبدياً اغتباطه بالتعرف بصحفى شاب تابع ما كان ينشره من مقالات الصدر فى الجريدة المسائية العتيقة «المقطم» سواء وهو فى لندن أو بعد وصوله إلى القاهرة . ووعد بأن يزورنى فى اليوم التالى لمزيد من التعارف .

وعكفت فى المساء على مطالعة هذه الكتيبات ، فبهرتنى شخصية هذا الرجل الذى خرج من أعماق الصعيد وهو شاب لم يظفر بأى دراسة عليا ، وجعل من لندن مستقره ، ونصب نفسه محامياً متطوعاً عن قضايا أمته . فإذا قرأ مقالاً فى جريدة انجليزية ينكر فيه كاتبه على مصر حقها فى الاستقلال ، رد عليه مفنداً حججه ، وإذا سمع تصريحاً لسياسى بريطانى ضد مصر ، تصدى له بالرد والمحاجة . وقد أعانه على ذلك تمرسه بالتقاليد الغربية التى أكسبته من المصداقية ما جعل منه لساناً خليقاً بالاحترام فى أدغال الصحافة البريطانية زمن الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس !

فى مدينة المراغة ، مركز جرجا ، محافظة سوهاج ، ولد قرياقص ميخائيل عام ١٨٨٧ فى أسرة قبطية . ولما بلغ سن التلقين ، ألحقه أبوه بمدرسة بسطابك فى سوهاج ، وكانت من أكبر المدارس وقتها ، وانتقل منها بعد ذلك إلى كلية الأمريكان فى أسيوط ، ثم التحق بمدرسة الأقباط الكبرى بالقاهرة حيث أتم المرحلة الثانوية وعمره ١٦ عاماً .

وكان وهو طالب مولعاً بقراءة الصحف ومتابعة أخبار الجهاد الوطنى فى سبيل الاستقلال . فلما عين مدرساً فى مدرسة أهلية فى بلدة ميت يشار بمحافظة الشرقية - وصار بعد ذلك ناظراً لها - أخذ يراسل جريدة «الاجبشيان جازيت» وصحيفتى «المؤيد» للشيخ على يوسف و«الوطن» لجندى إبراهيم .

ولكنه برم بالتعليم ، وازور عن ميدانه بعد أربع سنين ، واتخذ من الإسكندرية مقراً له فى عام ١٩٠٨ ، وفيها تتلمذ على يدى أستاذ أيرلندى ، قرأ عليه طائفة من كتب الأدب الانجليزى ودربه على الكتابة باللغة الانجليزية . وفى الثغر ، أنشأ «المكتب المصرى للأخبار والاستعلامات» وفتح له فى عام ١٩١٠ فرعاً فى لندن .

وكان المعتمد البريطانى فى مصر السر إلدون غورست قد استخف بالحركة الاستقلالية المصرية ، فانبرى له قرياقص ميخائيل يرد عليه بمقال بعث به من الإسكندرية إلى جريدة التيمس اللندنية .

ولكن الجريدة ردته إليه معتذرة عن عدم نشره . فبعث بنفس المقال إلى جريدة بريطانية أخرى هى «بول مول جازيت» التى نشرته فى مكان بارز من صفحاتها، مما شجع قرياقص ميخائيل على مكاتبة الصحف البريطانية ، بل شجعه على السفر إلى لندن والإقامة فيها حتى يناوىء الاستعمار البريطانى فى عقر داره .

واستكمالاً لأدواته ، التحق بكنجز كوليج وبغيرها من المعاهد البريطانية التى تسمح بدراسات حرة ، حيث درس القانون الدولى وقوانين النشر والصحافة والقانون الانجليزى وتاريخ الشرق الأدنى وتاريخ أصل الشعوب ومبادىء الفلسفة والمنطق وعلم النفس وتاريخ الاقتصاد والمال . والتحق بمعهد الصحفيين فى لندن رغبة فى الحصول منه على «دبلوم فى الصحافة» ، ولكن المعهد أباه عليه بسبب نشاطه السياسى . كما أن «نادى الصحافة بلندن» أنكر عليه عضويته لنفس هذا السبب .

ورغبة من قرياقص ميخائيل فى الاستقرار المالى ، أنشأ فى لندن مكتبة الأسد الأحمر Red Lion للتعامل فى الكتب القديمة ، ووقع فى أثناء ذلك على مستندات قوامها ۸۰۰ مستند عن أيام الخديو إسماعيل ، وكثير منها بخط الخديو نفسه أو بخط ابنه الأمير إبراهيم حلمى . فلما انتهى خبرها إلى الملك فؤاد، أصدر أمره بشرائها ولاسيما لأنها تميط اللثام عن الخطط الواسعة النطاق التى كانت تدبر لعزل الخديو توفيق وإعادة أبيه إلى دست الحكم .

وعندما أعلن فى الصحف عن بيع متروكات المحامى الانجليزى برودلى - الذى دافع عن أحمد عرابى باشا عام ۱۸۸۲ وألف كتاباً بالانجليزية عنوانه «محاكمة عرابى باشا والعفو عنه» The Trial and pardon of Orabi pasha ، دخل قرياقص ميخائيل المزاد العلنى واشترى هذه الأوراق ثم أودعها خزانة فى البنك حتى لا تتعرض لمكروه ، وبقيت فى حيازته إلى أن آلت بعد ذلك إلى الحكومة المصرية.

وكان من عادة قرياقص ميخائيل عند اقتنائه أى كتاب عن مصر أن يفتح صفحة المراجع . فإذا تبين أن فيها مرجعاً لم يسبق له اقتناؤه ، سواء أكان كتاباً أم مجلة ، طاف بالمكتبات البريطانية بحثاً عنه . وإن لم يهتد إلى ضالته ، نشر إعلانا مأجوراً فى الصحف مبدياً فيه رغبته فى شراء هذا المرجع . وكثيراً ماكان يتلقى

رسائل ممن يقتنون هذا المرجع من أى صقع من أصقاع الإمبراطورية البريطانية سواء أكانوا فى روديسيا أم فى جنوب إفريقيا أم فى الهند أم فى استراليا أو كندا ، فيبادر إلى شراء المرجع المطلوب منهم . ومع الوقت صارت لديه مكتبة فريدة عامرة بالمؤلفات الانجليزية القديمة والحديثة عن مصر ، وظل يحتفظ بها ويحرص عليها وينميها إلى أن علت سنه وضعف بصره وخشى عليها من التبديد فى المستقبل ، ولاسيما لأنه لم يتزوج ولم يكن له إلا ابن تبناه قرياقص بعد وفاة أبيه المصرى وكان ثمرة حب بين هذا المصرى وسيدة انجليزية ، فلما نشبت الحرب العالمية الثانية جندته الحكومة البريطانية ولقى على التونى - وهذا هو اسمه - مصرعه فيها . وعندما علم الدكتور طه حسين بأمر هذه المكتبة ، أوعز وهو وزير للمعارف باقتنائها ، وضمت إلى دار الكتب المصرية.

وكان قرياقص ميخائيل يشترك فى وكالات لقصاصات الصحف البريطانية ، توافيه فى كل يوم بكل ما ينشر عن مصر فى جميع صحف الجزيرة البريطانية ، فيستعين بها فى إعداد ردوده على افتراءاتها . ولما تقدمت به السن لم يقطع اشتراكه فيها ، بل صار يوافينى بها بانتظام لأستعين بها فى عملى الصحفى .

وكانت حركة الزعيم سعد زغلول باشا قد اختارته وكيلاً لها فى بريطانيا ، فكثف من نشاطه السياسى أثناء الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، مما أوغر عليه صدر السلطات البريطانية التى بادرت باعتقاله ، وبعد أربعة أيام رحلته إلى مصر حيث كان ينتظره اتهام جديد ملفق بأنه عضو فى «جماعة الانتقام» وهى جهاز سرى يأتمر بأوامر سعد زغلول باشا ويضم ٢٨ شخصاً ، وهدفه خلع السلطان واغتيال الانجليز وقلب نظام الحكم . وكان على رأس المتهمين فى هذه القضية عبدالرحمن فهمى بك - مدير بنى سويف السابق - وإبراهيم عبدالهادى باشا الذى تولى عدة وزارات ورأس الوزارة فيما بعد ، وتوفيق صليب الذى صار فى وقت لاحق مديراً للمطبوعات والصحفى حامد المليجى . (وفى مذكرات سعد زغلول التى نشرها مصطفى أمين فى ١٩ أغسطس عام ١٩٦٣ بجريدة «الأخبار» حديث عن هذا الجهاز السرى) .

وقد نظرت هذه القضية أمام محكمة عسكرية بريطانية ، واستمرت ثلاثة أشهر - عدا نحو عامين قضاهما المتهمون رهن

الاعتقال – وانتهت بتبرئة قرياقص ميخائيل ، وإن كان الجنرال البريطاني الذى رأس المحكمة خاطبه بقوله : «إن المحكمة قررت بعد تردد شديد الإفراج عنك» . (وقد أملى قرياقص ميخائيل علىّ مذكراته حول هذه القضية ، ومازلت أحتفظ بها دون أن تسنح فرصة لنشرها).

وبعد تبرئته عاد إلى لندن ليمارس نشاطه المتعدد الجوانب كصحفى يراسل عدداً من الصحف المصرية ، وكمدير لشركة قرياقص ميخائيل المحدودة للتجارة والاستيراد ، فاستقرت أوضاعه المالية ، واقتنى بيتاً واسعاً صار قبلة للمصريين الذين يزورون بريطانيا ، بل استضاف فيه الامبراطور هيلا سلاسى امبراطور الحبشة عندما لجأ إلى بريطانيا هرباً من الغزو الإيطالى لبلاده ، والأمير سعود بن عبدالعزيز ولى عهد المملكة العربية السعودية (وملكها فيما بعد) والخديو المخلوع عباس حلمى الثانى وسماحة الحاج محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر وغيرهم . وكان يضع سيارته بسائقها تحت تصرف كبار المصريين والعرب الزائرين لبريطانيا ، وكأنه وكيل أعمال متطوع لكل من يقصد بيته ، فهو عمدة صعيدى ، وبيته هو «دوار العمدة» ، وموائده تقدم عليها الأطعمة المصرية بعدما صارت مدبرة بيته الانجليزية تتقن صنعها بإشرافه . وقد مازحه صديقه مجد الدين حفنى ناصف بمقطوعة زجلية قال فيها :

أخو كل مصرى لازم له قريب
وضامن وشاهد وتحت الطلب
معلم ، مترجم ، مؤلف ، أديب
ومكتب مخدم ، وبياع كتب
وده كله راجع ياابن الحلال
لأكل «الملوحة» وعيش الضره
منيش قادر أفسر وجود الاحتلال
دا حتة صعيدى فتح لندره !

وظل قرياقص ميخائيل محافظاً على صعيديته فى لهجته وفى مسلكه اليومى ، حتى فى أسفاره . وقد رأيته يجمع أشياءه فى «قفة» وهو يهم بركوب الطائرة عائداً من القاهرة إلى لندن .

واقتنى قرياقص ميخائيل حديقة على نهر التاميز مجهزة بمرسى للزوارق والسفن الصغيرة وبحمام سباحة ، فتنازل عنها للحكومة المصرية لتكون منتدى للطلبة المصريين الذين يدرسون فى بريطانيا .

ولكن هاله أن الحكومة فى ذلك الوقت خشيت من أن «يتجمهر» الطلبة المصريون فى هذه الحديقة ويمارسوا نشاطاً

سياسياً غير مرغوب فيه ، وتخاذلت عن تسلم الحديقة وتركتها للإهمال ، فاضطر قرياقص إلى استردادها . وكان يملك إلى جوارها مسكناً رغب فى التنازل عنه لتحويله إلى بيت للطالبات المصريات اللائى كن يدرسن فى انجلترا ، فعدل عن ذلك بعد تجربته الفاشلة مع الحديقة .

وفى عام ١٩٥٠ أذاعت وكالات الأنباء العالمية أن حكومة الحبشة (إثيوبيا) تتفاوض مع شركة أمريكية على بناء خزان على بحيرة تانا ، وخافت مصر أن تترتب على هذا المشروع نتائج خطيرة تحيق بمشروعاتها فى الرى والزراعة ، ولاسيما لأن مصر كانت فى ذلك الوقت بلداً زراعياً فى حين كانت الصناعة فى مهدها . وتذكر وزير الأشغال عثمان محرم باشا أنه التقى فى بيت قرياقص ميخائيل فى لندن بإمبراطور الحبشة ، وأنس وقتها ماكان بين الاثنين من مودات وثيقة . فأبرق إلى قرياقص داعياً إياه إلى المجىء إلى القاهرة للاشتراك فى مناقشات حول مشروع خزان تانا معه ومع وزير الخارجية الدكتور محمد صلاح الدين باشا . فلبى قرياقص دعوة عثمان محرم باشا الذى كلفه بعد ذلك السفر إلى أديس أبابا لبحث الموضوع مع صديقه الإمبراطور . وهذا رحب بقرياقص ترحيباً كبيراً ، وأكد له أن حكومة بلاده ستولى آراء مصر بشأن مشروع خزان تانا كل عناية وتقدير وأصدر أوامره إلى الوزراء المختصين بدراسة كل ما يتلقونه من بيانات واقترحات من حكومة مصر . ولم يكتف الامبراطور بذلك ، بل وجه خطاباً إلى عثمان محرم باشا أشاد فيه بما قدمته مصر من مساعدات أدبية ومادية للحبشة فى حربها مع إيطاليا الفاشية ، وقال إن بلاده لن تتصرف بمفردها فى مشروع الخزان .

وقد سئل قرياقص عن المحن التى مرت بحياته فقال إنه اعتقل مرتين ، وحوكم مرة فى تهمة تآمرية عقوبتها الإعدام ، ونجا من الغرق ثلاث مرات ، وهبطت طائرته هبوطاً اضطرارياً مرتين ، ودس له السم مرتين من جانب «أصدقاء».

وفى شهر سبتمبر عام ١٩٥٦ أصيب قرياقص ميخائيل بفالج ، فبعث إلى جميع أصدقائه ببطاقة مطبوعة ينبئهم فيها بمرضه وعجزه عن الرد على رسائلهم ، واعداً بالكتابة بعد إبلاله من هذه الوعكة . ولكن المنية أنشبت فيه أظفارها ، وآن لجثمانه أن يستريح فى ثرى مصر بعد نقله إليها بالطائرة.

وليس أدل على الشخصية الفريدة التى كان ينعم بها قرياقص ميخائيل من

أن رجلى دين أحدهما قبطى والآخر مسلم رثياه فى جريدة «الأهرام» بعد وفاته .

ففى ٢ أكتوبر عام ١٩٥٦ كتب القس الدكتور إبرهيم سعيد رئيس طائفة الأقباط الانجيليين مقالاً فى «الأهرام» قال فيه : «فى الواقع كان قرياقص سراً من أقدس الأسرار ، ولغزاً بين الرجال ، إذ كان بسيطا غاية البساطة فى مظهره ، عميقاً غاية العمق فى تفكيره وجوهره ، وكان يبدو للصغار وديعاً كالحمل ، ولكنه اشتهر بين الكبار بعزة النفس .. لقد فهم آداب الانجليز ، وأدرك ماخفى من عاداتهم وما استتر ، لكنه ظل محتفظاً بطابعه المصرى الصعيدى الصميم ، حريصاً كل الحرص على لهجته الصعيدية الفخمة ، معتزاً بالمراغة مسقط رأسه .. جعل من بيته مقصد كل مصرى مغترب فى لندن ، وقبلة أنظار أعضاء البعثات ، فكان يستضيفهم على اختلاف درجاتهم ودياناتهم .. وكان الكل ينادونه «بأنكل مايكل» .

وأضاف القس إبرهيم سعيد قوله : «وأن نسيت ، لن أنسى يوماً تصدى فيه للورد بيفر بروك ملك الصحافة السكسونية، فذكرت إحدى الجرائد الناطقة بلسانه خبراً غير صحيح عن مصر ، فتحداه صديقنا قرياقص تحدياً جريئاً حتى أرغمه على الاعتذار . ومتى علمنا أن اللورد بيفر بروك تحدى يوماً سراى بكنجهام ، أدركنا ما له من سطوة ونفوذ . غير أن قرياقص علمه كيف يحترم المصرى وكيف يرعى الحق فى الكلام عن مصر» .

وفى يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٥٦ نشر فضية الشيخ أبوالوفا المراغى، مدير المكتبة الأزهرية (وبلدياته) ، مقالاً فى نفس الجريدة قال فيه : «كان قرياقص فى الرعيل الأول من رجال مصر الأحرار الذين أسهموا فى الجهاد فى فجر نهضتها ، واشترك مع سعد زغلول وإخوانه فى الحركة الوطنية ، ووقف قلمه وجهوده على الدفاع عن قضيتها فى صحف لندن وصحف مصر ، وأشاد الخطباء من المسلمين والأقباط على منبر الأزهر إذ ذاك بمساعيه وجهوده .. ومن آيات نبله وإنصافه أنه تزعم – وهو قبطى – حملة للدفاع عن الإسلام وعن الأزهر ضد بعض الإنجليز فى الجرائد الإنجليزية، واستطاع بسلوكه النبيل أن يحتل مكاناً ممتازاً فى المجتمع الانجليزى» .

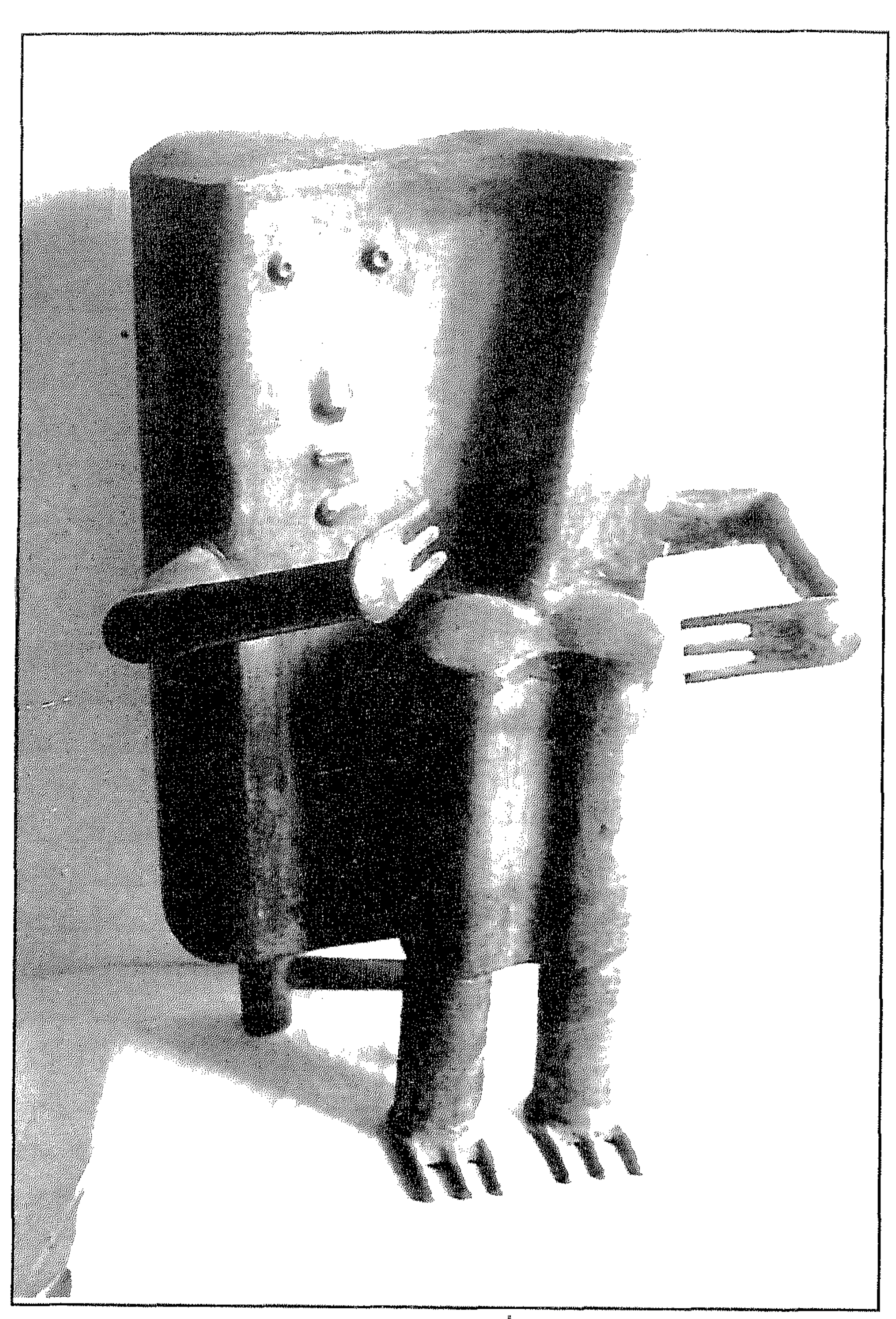
هذه ملامح من شخصية هذا الرجل الفذ الذى يصدق فيه قول الشاعر القروى رشيد سليم الخورى «حامل فوق همه هم شعبه» .



ومعرض جديد

بقلم : محمود بقشيش

أقام المثال صبحى جرجس معرضاً لآخر أعماله النحتية بقاعة «كريم فرنسيس» . وهى قاعة مخصصة للتجارب الحداثية فى الفنون المرئية . والتماثيل كلها منفذة بمعدن النحاس المسبوك . وهى إحدى الخامات التى تعلق بها الفنان منذ ظهوره فى الحركة الفنية المصرية فى أواسط السبعينات عندما أقام معرضه الأول بقاعة عرض كانت تسمى وقتها باسم قاعة «إخناتون» وتسمى الآن قاعة «أرابيسك» بعد تحولها من قاعة عرض إلى مطعم . وترك صاحب المطعم ممراً لعرض اللوحات على مرتادى المطعم من السياح !.



استرخاء من أعمال المثال صبحى جرجس

كانت تماثيله صغيرة الحجم ، لا تزيد كثيراً عن حجم كف اليد . وكانت تتسم بتلقائية الأداء وخشونة المظهر ، أشبه بإبداعات الفنانين الفطريين . وكأنما أراد للطفل الكامن داخله أن يتجلى بمعابثة مادة الشمع اللينة قبل أن يثبتها فى معدن البرونز الذى يستطيع مقاومة عوامل الفناء، حتى يحفظ لصدق اللحظة العابرة صفة الدوام . أذكر أن ذلك المعرض قد قوبل وقتها بشىء غير قليل من الدهشة ، ليس من الجمهور العادى فقط بل من النقاد أيضاً . وقد وصف بيكار تجربة صبحى جرجس وقتها بأنها أقرب إلى عبث الأطفال - وبالتحديد أقرب إلى عجين الفلاحة أمام فوهات أفران الدور الريفية . وذلك قبل أن ينقلب بيكار نفسه من مستنكر لقيمة الفنان إلى معجب مؤيد له ولفنه !.. وربما كنت الناقد الوحيد - وقتها - الذى سانده وأقنعه بأن الإلحاح على الذاكرة الجمعية أمر ضرورى إذا أراد الفنان الصادق لفنه أن يحقق تعاطف الغير معه، وهو ماحدث معه بعد ذلك وأصبح الآن أحد الرموز اللامعة فى مجال النحت المصرى المعاصر .

هل اختفى ذلك الطفل ؟!

تجيب علينا مجمل مراحله الفنية بلا وتؤكد بأن ذلك الطفل لا يزال حياً رغم بلوغ الفنان سن السبعين (!) وهو طفل عابث وشاعر فى آن واحد . كان ومايزال محطماً لكل القواعد الأكاديمية لفن التمثال ، لهذا قابل ما يقابله أمثاله فى حقل التدريس بكلية الفنون الجميلة ، من إهمال لم يأبه له مستدفئاً بإيمانه بالطريق الذى اختاره لنفسه وبالمتعة التى تتحقق بفعل الإبداع . قال فى الكلمة الاعترافية التى قدم بها نفسه فى المعرض : «أنا عاشق للمجسمات التى أقوم بعملها وشديد النرجسية معها» ولحسن حظه وحظنا أنه حافظ على تلك الطفولة وتلك الشاعرية وإن تعددت تجلياتها بحكم الزمن وتنامى الخبرة الشخصية .

إحياء تجربة سابقة

لا يستطيع فنان صادق مع نفسه وعصره أن يسجن خياله ومشاعره وأفكاره فى دائرة الاجترار وإلا حكم على موهبته بالموت . لهذا استلهم صبحى جرجس من تجاربه الشخصية فى الفن ومن تجارب النحت العالمى طريقاً ناقض به طريق الأداء التلقائى/ العشوائى الذى تواتر فى معارض السبعينات والثمانينات. وظهرت أعمال له فى العقد الأخير تحتفل بالبناء المعمارى/ المدارى . ولم يتخل - رغم أناقة البناء وسكونيته - والتى يمتد إيحاؤها - بوعى منه أو بغير وعى - إلى

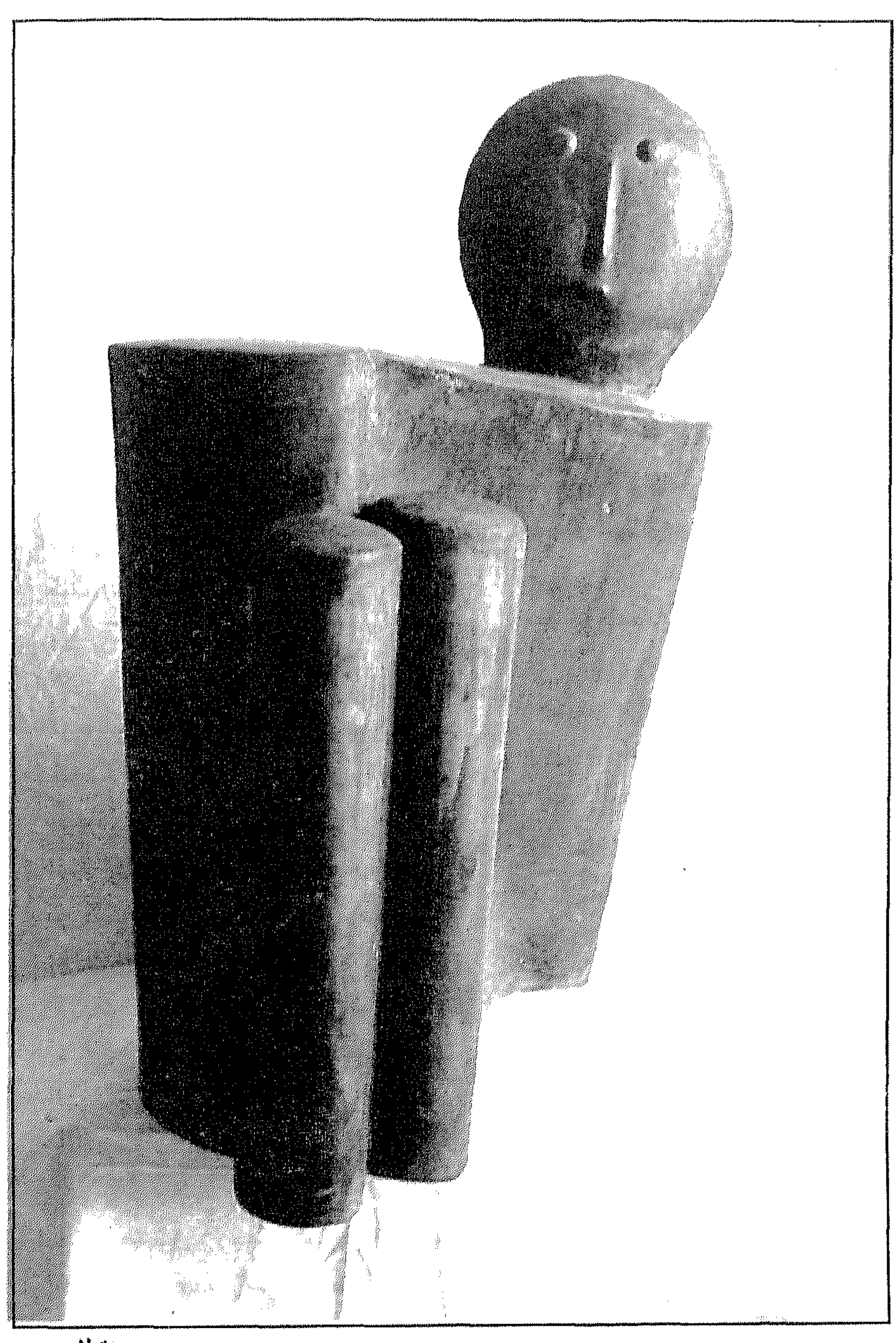
جماليات النحت المصرى القديم - لم يتخل عن براءة طفله القديم ، كذلك لم يتخل قط عن العنصر الإنسانى .

الثابت والمتغير

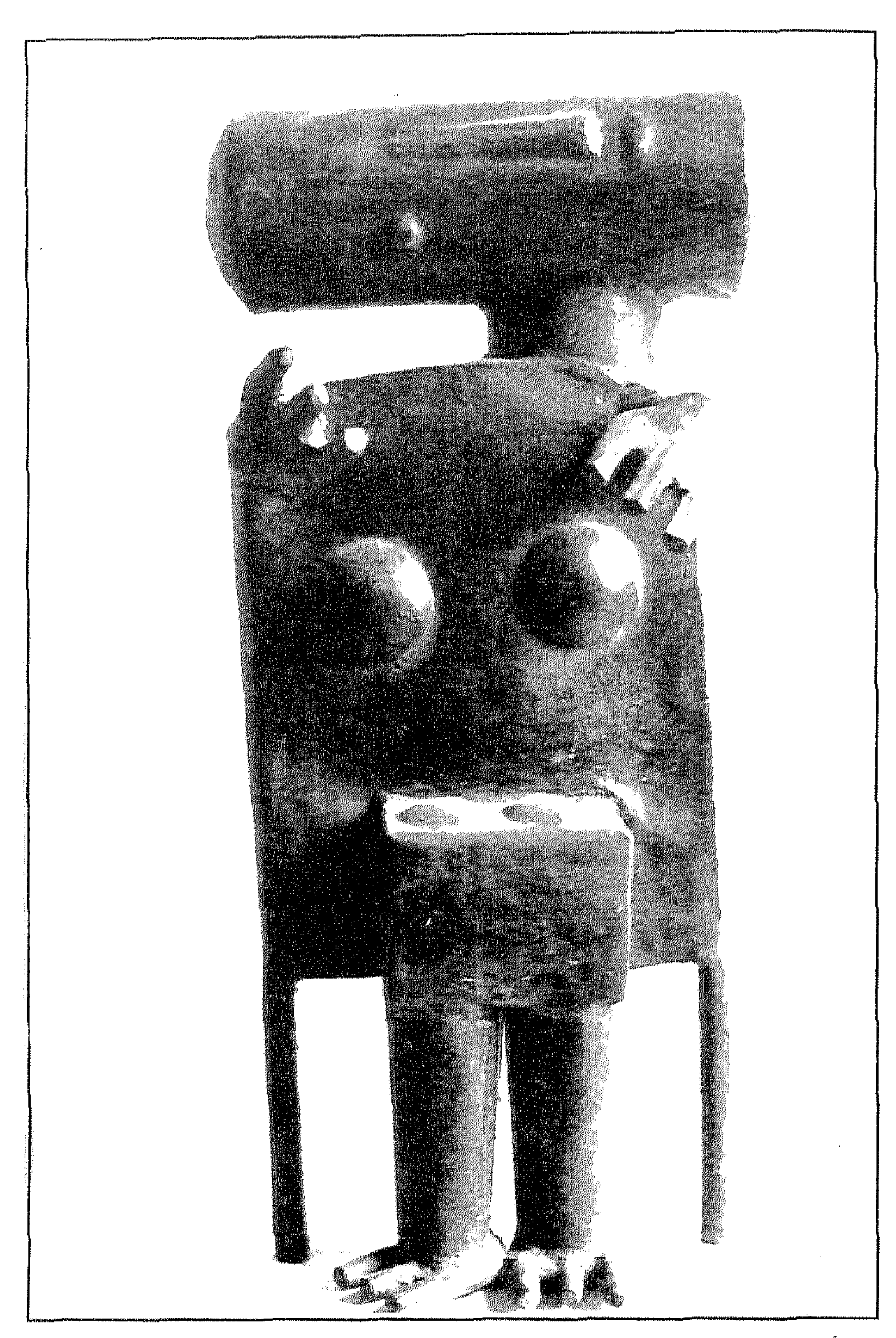
يمكن تقسيم رحلته فى الإبداع النحتى إلى قسمين مختلفين ؛ تجمعهما صفات مشتركة وتميز كلا منهما صفات أخرى . ففى مجال «الشكل» كان يسود الميل إلى التسطيح - أو بدقة - الميل إلى ترقيق الكتل ، للدرجة التى تقترب فيها من كثافة المسطحات الورقية ، دون أن يجازف بالمشابهة مع أعمال المثال «كالدر التى يتلاعب بها الهواء الطلق بل استعار من «الفن التجميعى» : «تجميع العناصر سابقة التجهيز» بعض مظاهره التى ترمز أحياناً إلى مأساة الاغتراب فى عصرنا . لهذا ظهرت له أعمال تمثل شخوصاً معلقة فى الفراغ أو تهوى من علٍ وتظهر أحيانا أخرى ملتصقة أو محاصرة داخل دوائر لا أمل فى الإفلات منها . وعندما انتقلت رقائقه العشوائية إلى سياق البناء التجسيمى تخفف من الإيحاءات الحكائية والمسرحية ، غير أنه احتفظ لمرحلة البناء بشىء من طفولة البدايات وإن احتفاظه بها محسوب ، بحكم شروط البناء فى الفراغ وما يستلزمه من تصور ذهنى/ رياضى ، فأنت عندما تنشىء مبنى معماريا - مهما كانت أغراضه - لا تستطيع أن تكون تلقائياً بالقدر الذى تستطيعه وأنت تجرى خطوطاً ورسوماً حرة على الورق . إضافة إلى ذلك فإن هذا البناء الذى يشترط ذهنية هندسية/ رياضية حاكمة يشترط حالة موازية للمتلقى . لهذا لم يكن من باب المصادفة أن تحصد تلك الأعمال ذات الطابع البنائى/ التركيبى على جوائز مهمة وأن تحصل لصاحبها على ماهو أهم من الجوائز وهو احتفاء نقاد الفن - على اختلاف مناهجهم - بتلك الأعمال .

إنسان صبحى جرجس !

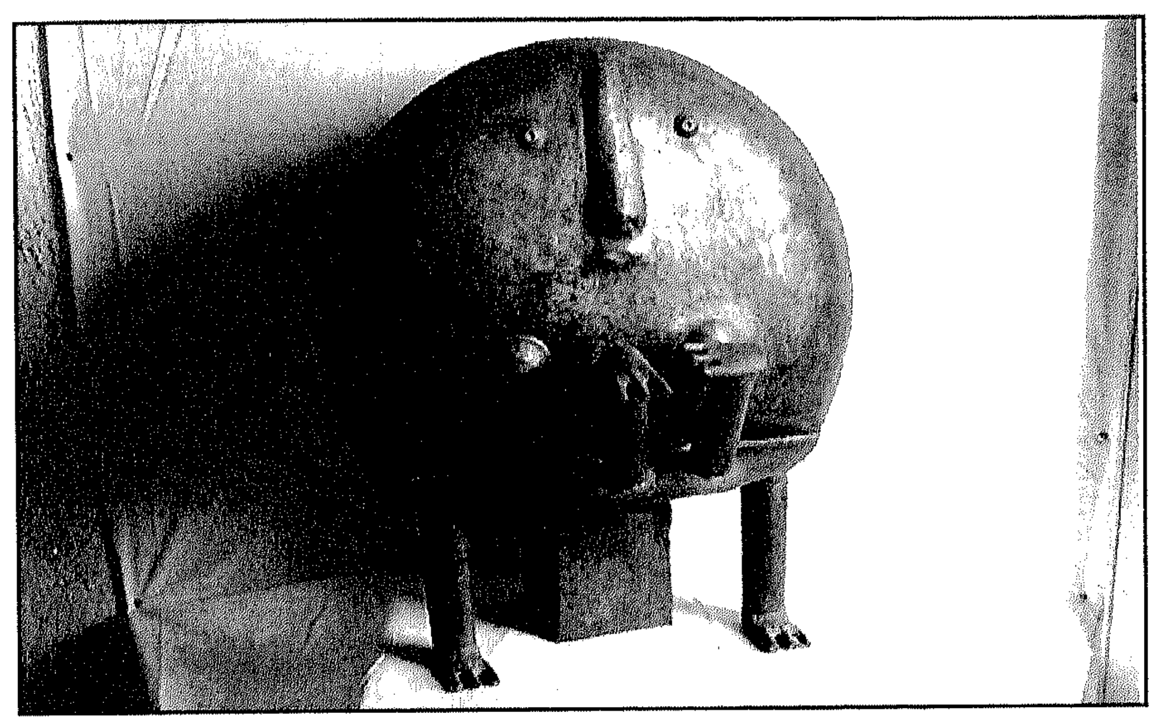
انصرف صبحى جرجس - إلا فيما ندر - عن التجريد بأنواعه - وإن أفاد منه بطبيعة الحال ، غير أنه كان حريصاً كل الحرص على حضور الإنسان أو ما يدل عليه . وكان حرصه الأكبر هو ابتكار شكل إنسانى ، غير مسبوق ، من نبت خياله . واجتمعت لهذا الإنسان المتخيل مجموعة من الملامح الثابتة : وجه كامل الاستدارة أو قريب منها ، أطراف ذات ثلاثة أصابع، لا فرق فى الشكل بين اليد والقدم ، أشبه بشوكة الأكل . ويتكرر الرقم (٣) فى المثلث متساوى الساقين الذى يجمع فى قاعدته بين عينين أشبه بالفوهتين ، وفى قمته يظهر فم يبدو كأنه فى طريقه إلى الاكتمال !.. والوجه بشكل عام طفلى



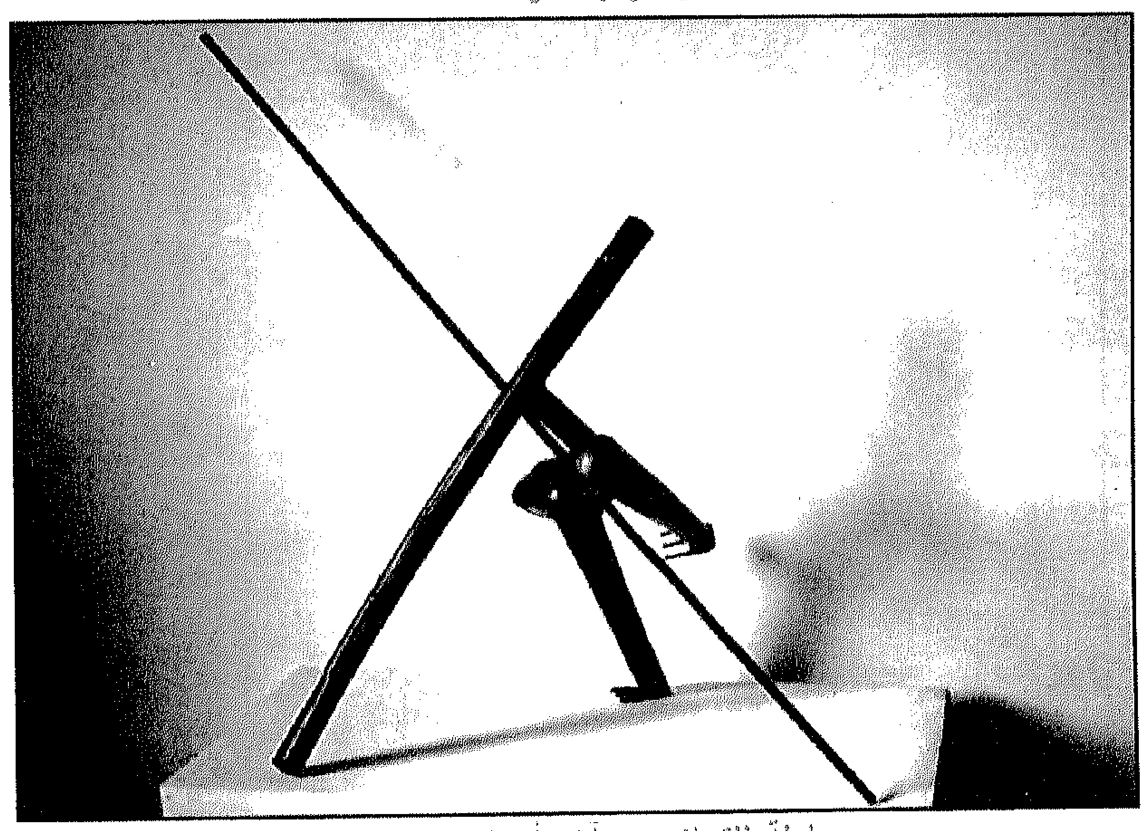
تطلع ..



الأنثى

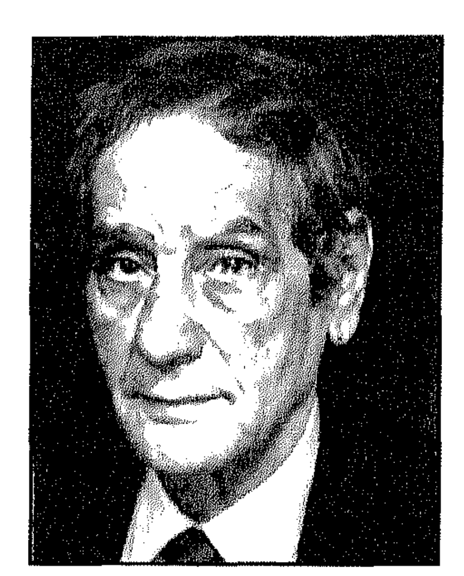


من كوكب آخر



محاولة للتوازن .. آخر أعمال الفنان

الملامح أقرب إلى وجه العروسة الخشبية ، جامد ، خالٍ من التعبير ، غير أن طفله القديم يظهر فجأة ليباغتنا بأوضاع غير متوقعة للأذرع والسيقان فيشيع فى الكتلة اضطراباً محسوباً . وتحسب العينين ، للوهلة الأولى ، فوهتين ، سرعان ما يتبدل إيحاؤهما عندما يسقط عليهما ضوء عارض وظل منعكس ، فنستشعر حركة همسية معبرة . وهو يختزل التفاصيل مكتفياً بمبدأ «ماقل ودل». وتنوب الأشكال الاسطوانية للإيحاء بأعضاء الجسد المختلفة ؛ فهى توحى تارة بالجسد كله ، وتارة ببعض أجزائه . ولست على يقين إن كان الفنان صبحى جرجس قد استلهم تلك الأشكال الاسطوانية من لوحة (مان راى) التى شكل فيها من لفائف التبغ الاسطوانية تكويناً لامرأة جالسة أم لا . وعلى الرغم من انصرافه عن المشابهة مع الواقع فإنه يلتقط أحياناً من أعضاء المرأة ما يلطف من هندسية الشكل وصرامته ، فهو يستلهم أحياناً شكل الثدى الأنثوى ويترجمه إلى كتلة كاملة الاستدارة أو شبه كاملة . ولأن الإنسان ليس مجموع أعضائه بل هو قيمة جوهرية ، لهذا يجمع كل أعضائه فى سلة واحدة وربما يكون الفنان صبحى جرجس قد تأثر بتمثال القبلة للمثال العالمى «برانكوزى» .



الفنان المثال صبحى جرجس

عمل استثنائى
أم بداية طريق !

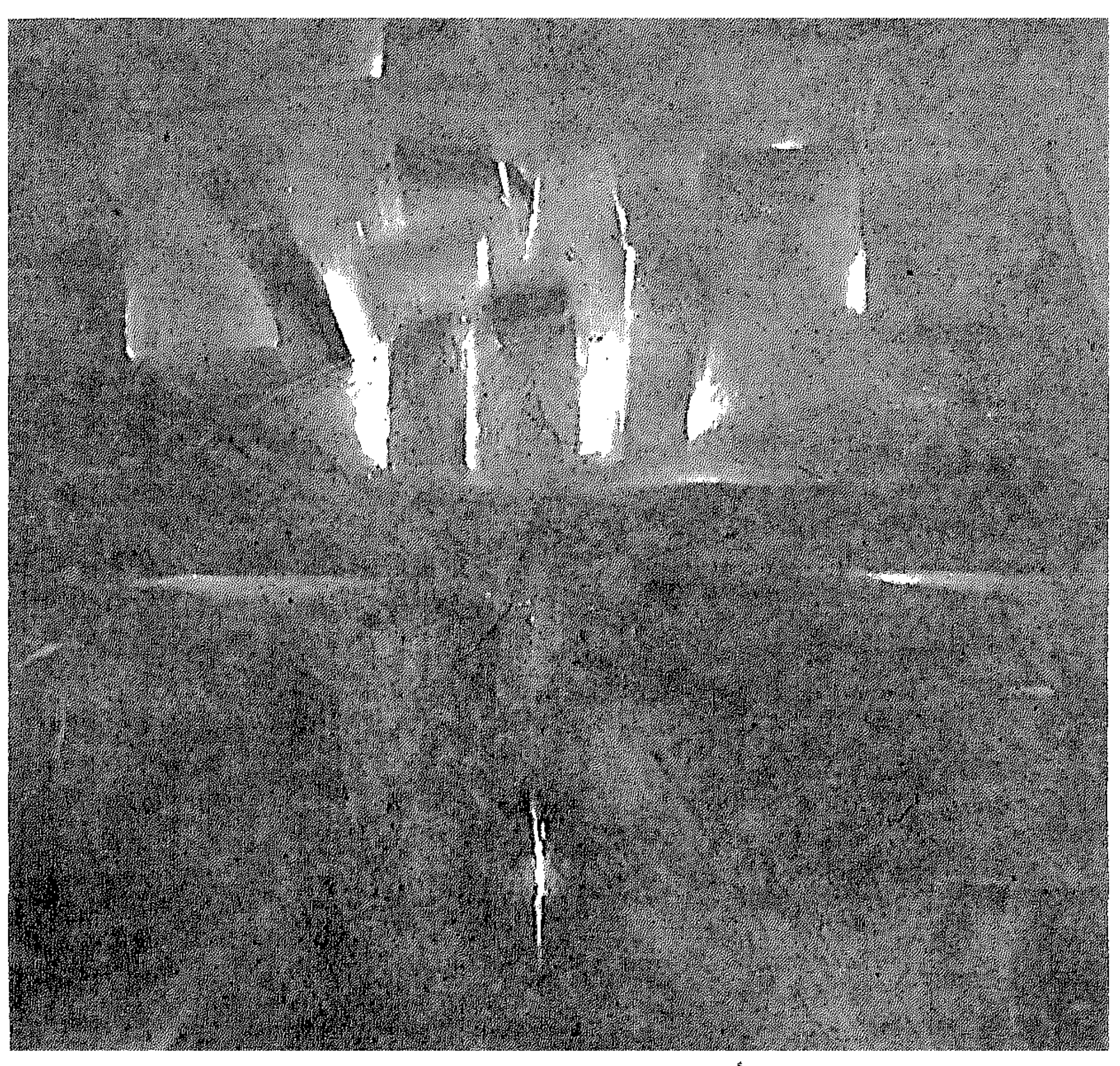
ضم معرضه عملاً استثنائياً خالف به انحيازه إلى ظهور العنصر الإنسانى ظهوراً لافتاً . والعمل يغلب عليه الطابع التجريدى الهندسى ولم يظهر من الإنسان هذه المرة إلا أطرافه ثلاثية الأصابع ، على أن الإضافة الحقيقية بهذا التمثال هى ظهور ميل واضح إلى علاقات ديناميية بالفراغ البينى والفراغ المحيط . والعمل عبارة عن عمودين سوداوين يتقاطعان تقاطع ضربات لعبة التحطيب الشعبية . إن هذا العمل ، على أية حال ، هو آخر أعمال الفنان صبحى جرجس فهل يكون إشارة لبداية طريق جديد .. ربما ! ●

جولة المعارض (٣)

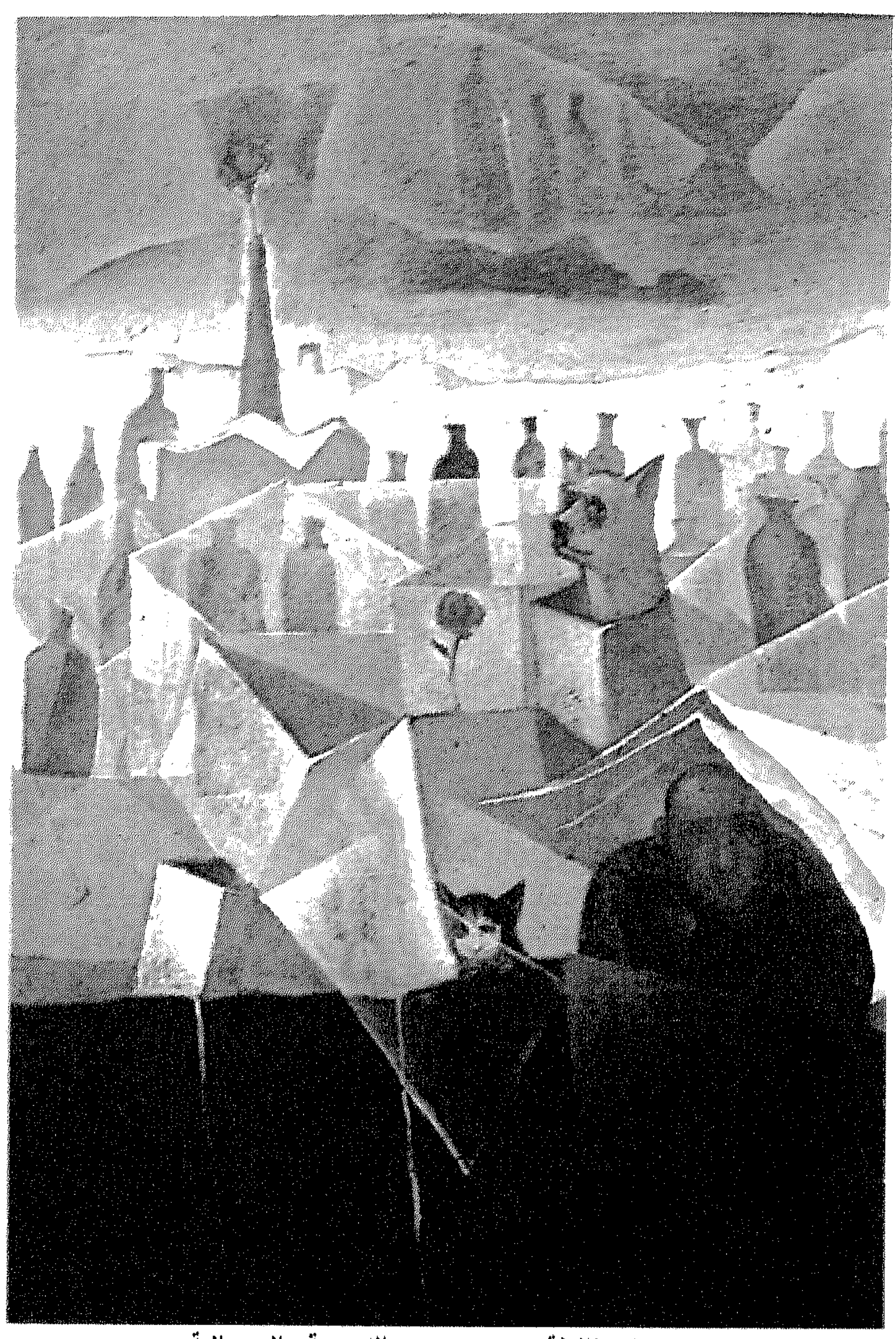
الفنان محمود بقشيش

من «العودة إلى البديهيات» إلى ملاحم الضوء !!

بقلم : صلاح بيصار ● تصوير : فاروق عبدالحميد



هكذا يتألق الضوء كالوميض ينبعث من الظلمة



«الرجل والقطة» .. مزيج من التعبيرية والسيريالية.

«العودة إلى البديهيات» .. دعوة تبناها الفنان محمود بقشيش فى منتصف السبعينيات تعنى إعادة الاحترام لتلك الخامات البسيطة والفقيرة التى انصرف عنها معظم الفنانين استخفافا بإمكاناتها إلى خامات أخرى نطالعها فى الأساليب الأوروبية الحديثة ، والتى يمثل بعضها امتدادا للدادية من حيث العبث وبذر الفوضى واللامعنى .

جاءت تلك الدعوة تأكيدا على قيم الأداء وأيضا لتثبت أن حجم الفن الحقيقى ليس بالمساحة، ولكن بعمق الرؤية وعمق الحساسية .

ولقد أثمرت مع محاولة ترسيخ قيم ومفاهيم الإبداع الحقيقية عن هذا المعرض الذى أقامه بقشيش عام ١٩٧٧ بنفس العنوان .

جاءت اللوحات التى تضمنها المعرض فى أكثر من ٣٥ لوحة كلها فى حجم الكف أو بطاقة الدعوة ومنفذة بالقلم الرصاص .

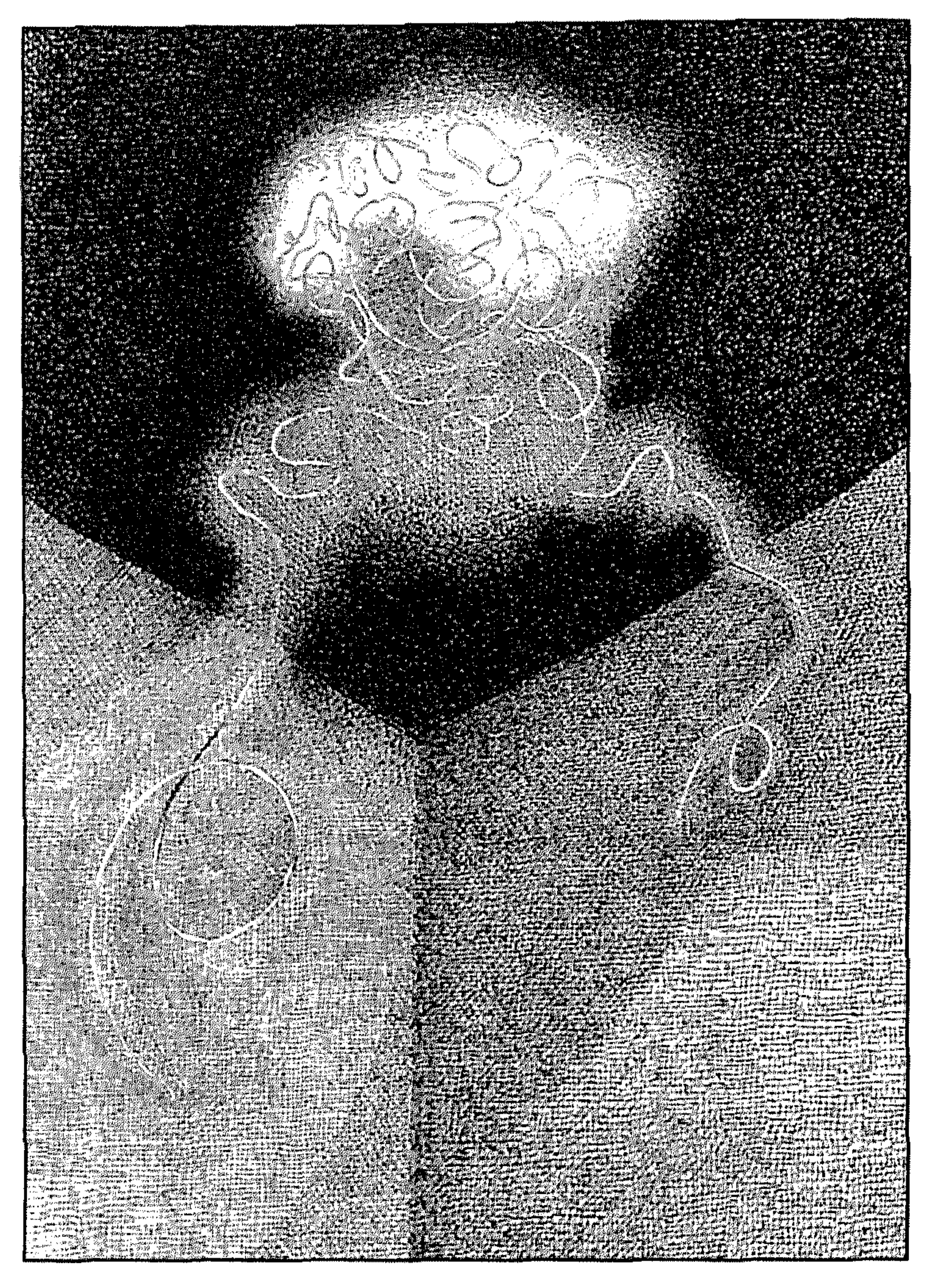
فى إحدى اللوحات كانت تطل ثلاث نخلات .. كل نخلة تكاد تهتز على السطح من شدة الضوء الذى ينساب هادئا نعسانا يومض ويهمس فى شاعرية .. كان شعاعا من نور تحول فيما بعد باتساع تجربة بقشيش الى ملاحم ضوئية ، كما تحولت تلك اللوحات الصغيرة إلى أخرى صرحية مسكونة بشلالات النور وينابيعه كنوافير الأحلام .

وفى معرضه الاستعادى الأول والذى أقيم بقاعة دار الأوبرا بعنوان «يتحدث الضوء» ، ويمثل مراحل عديدة من أعماله تتأكد قيمة الضوء وهذا الحوار المستمر بين توأم النور والظلام !!.

فطوال رحلة بقشيش مع الفن وحتى الآن ظل الضوء ونيسه الودود والمطمئن والمراوغ .. يهمس ويتألق ويتواري ويتسع وتشتد سطوته وسط العتمة .. يخرج من كل اتجاه .. لا يعرف له مصدرا ولا نعرف كيف جاء ومن أين بدأ ؟ .

وإذا كانت ثنائية الضوء والظلام أو النور والعتمة منذ عصر النهضة وحتى بداية القرن العشرين يتعامل معها الفنان باعتبارها آلية لا تستطيع الكتلة أن تتخلق أو تتشكل بدونها .

ومن هنا جاءت لوحات رمبرانت التى تمثل أزهى عصور النهضة فى احكام إسقاط النور على اعماله واستخدامه التضاد النورانى فى صوره الزيتية والحفرية ،كما فى لوحة زوجته «ساسكيا» وأيضا لوحته «وردية الليل الشهيرة» والتى



الهمس والتوهج يتحاور النور والظلام



التفاؤل والأشراق فى زهور الفنان بقشيش

امتدت بمساحة ٤×٥ أمتار وغيرها من أعماله فى هذا الاتجاه .

كما كانت لوحة «آكلى البطاطس» مع بداية الفن الحديث لفان جوخ لمجموعة من الفلاحين تجمعوا تحت المصباح حول هذا الضوء الواهن الذى يطل فى شحوب تمثل صورة لعتمة الضوء كآلية درامية معروف مصدرها.

إلا أن الضوء عند بقشيش فى أعماله عموما من البدايات الأولى.. هو ضوء تعبيرى.. تحرر من المصادر الثابتة وتحول إلى شكل آخر ومعنى مختلف.. هو هنا يعطى للعناصر أبعادا جديدة يخرج بها

من طبيعتها المادية إلى كائنات ميتافيزيقية يقل رسوخها وتخف كثافتها بين التوهج والانطفاء وبين الحركة والسكون.. وفى كل الأحوال لا تفقد هذا الدبيب الهامس الذى يثير فينا الدهشة والتساؤل ويدعونا إلى التفاؤل والإشراق.

الليل والنهار

فى أعمال الفنان بقشيش العديدة والمتنوعة بالأبيض والأسود يدخل الليل فى النهار ويخرج النهار من الليل وينساب هذا الحوار الشاعرى.. حوار النور والظلام يُشكل عالما من الإنكسارات والتموجات والسطوح ، تطل خلاله كوى ومنافذ وممرات ودروب وكثبان وركام من الأشياء وفتحات صغيرة تمثل اختزالا لتلك البيوت التى تحتضن بعضها البعض وتحتضن الهرم ، تلك الوحدة التراثية التى تتفجر بالضوء.. مما يجعله رمزا أبديا مخبوءا بالأسرار.

هنا نلتقى وجها لوجه مع مدينة شديدة الإنسانية مسكونة بالأنفاس.. مسكونة بهذا النبض الإنسانى الذى لا نرى إلا ملامحه الروحية تتجسد من خلال حركة الضوء.

فى مدينة بقشيش نشعر بالطمأنينة والألفة.. ونشعر بالسلام والمودة فهى مدينة مفتوحة على الأضواء فى أحيان كثيرة تحتضنها الكثبان الرملية ويتوسطها الهرم.. وتمتد فى أفقها سحابة ضخمة تتفجر بالضوء!!.

ومن هنا ليس غريبا أن يحصل محمود بقشيش على أول جائزة للدولة تخصص لفن الرسم عام ١٩٨٧ ، كما حصل على جائزة التحكيم فى بينالى القاهرة الرابع عن لوحات مرسومة بأقلام «الربيدو جراف».

الضوء الملون

جاءت أعمال الفنان محمود الملونة بامتداد ثلاث مراحل.. جمعت إحداها مزيجا من التعبيرية والسيريالية تمثل مشاعره الذاتية وانعكاس الواقع عليها.. ففى لوحة الزفاف يطل علينا هو وعروسه فى ثوب الزفاف داخل بلورة شفافة وفوقهما هذا الحيوان الثقيل الرابض الجاثم أشبه بالخرتيت داخل مساحة مربعة.. وكأنه يعكس مع حواريات الضوء حوارية جديدة تجمع النقيضين أيضا: الفرح والعبوس والرقة والغشم ولحظة السعادة الخاطفة ووطأة الزمن.

جاءت أيضا فى هذا الاتجاه لوحة «زغرودة حلوة» و«الرجل والقطة» والتى تمثل جموعا من الزجاجات الشفافة والعلب الفارغة يخرج من إحداها رأس ذئب ، وفى مقدمة اللوحة نطالع رجلا وقطة ووردة داخل انكسارات وسطوح ضوئية شفافة ، وكأنه يعكس لعبث الحياة التى تتضمن الساكن والمتحرك متمثلا فى

الزجاجات والورود والروح والجسد فى الرجل والذئب كما تجمع القطة بين الضراوة والألفة.. وتسبح تلك الأعمال فى شجن الضوء والظلام.

وفى لوحات الكثبان الرملية المغسولة بالضوء.. وكان مثيره الجمالى هذا اللقاء الحميم بينه وبينها بالقرب من شاطئ بحر بلطيم.. جاءت حوارا آخر.. حوار الرمال للأفق.. حوارا لونيا بين الأصفر الأوكر بدرجاته والأزرق التركوازى والأزرق السماوى.. تتلوى فيه الكثبان فى انحناءات وإرتفاقات وليونة تسترخى فى استقبال تلك اللحظة التى تتوحد فيها مع بلورية الأفق السماوى الشفاف.

لكن تظل لوحاته المسكونة بالتشكيلات الملونة من تلك السطوح والمنافذ والفتحات التجريدية.. تموج بينابيع الضوء الصافى.. يذوب من فرط الرقة والشاعرية وتبدو فى اتجاهين.. من الألوان الطيفية متمثلة فى الأزرق والبنفسجى والبرتقالى والأحمر إلى تلك الألوان البركانية.. الأحمر النارى مع الأزرق والأسود.. تطل تلك اللوحات بمثابة ابتهالات تتصاعد حدتها فى لحظة وتهدأ فى لحظة.. تومض وتبرق وتضج بالفرح.. تعكس مع الرهبة والرعشة تناسل الضوء الشاعرى الحالم والضوء المتوهج.

فى معرض الفنان محمود بقشيش الاستعادى الأول تحدث الضوء بلغات عديدة.. بكل الألوان المقطرة وباح لنا بأسراره فى مساحات سعيدة من الرقة والحيوية.

تحية إلى أعمال باهرة بعمق ما أضاءت.



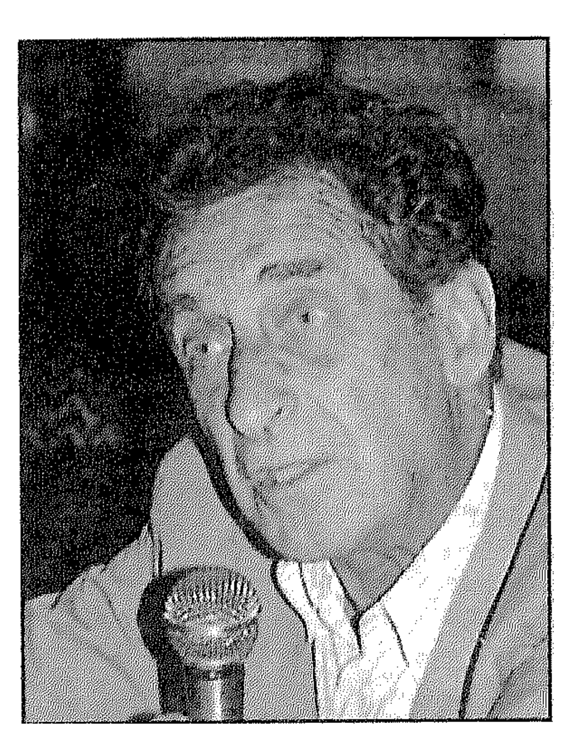
تفصيل من احدى لوحات الفنان بقشيش



ندوة الهلال مع الكاتب الفرنسى جان لاكوتير

العالم روايـة مرعـبة وجميلة

السفـر الى مصــر متعة الفـرنسيين


المستشرق الفرنسي جان لاكوتير

كلما جاء كاتب فرنسي ، له مكانته إلى مصر ، تحرص «الهلال» على استضافته مع نخبة من المفكرين والأدباء لقراءة افكاره عبر الحوار ، وللتواصل الفكرى فيما بين الكاتب ومعاصريه .

في البداية جاء جاك بيرك المستشرق المعروف ، ثم اندريه ريمون صاحب كتاب مهم عن مصر العثمانية ، وفى الشهر الماضى ، زار مصر ، وجاء الى مجلة الهلال ، الكاتب والمؤرخ والصحفى المعروف جان لاكوتير وهو واحد من أشهر كتاب السير الذاتية فى العالم المعاصر .

ولمصر فى قلب وكتابات لاكوتير مكانة خاصة ، فهو الذى قدم «جمال عبد الناصر» بشكل رائع الى الغرب فى كتابه عنه ، كما انه ألف كتابه المعروف «مصر فى عنفوان الحركة» ، فضلا عن كتابه الشهير عن «شامبليون» .. مكتشف طلاسم حجر رشيد ، واللغة الهيروغليفية .. وقد عاش لاكوتير على فترات عديدة فى مصر ، وصدر له أكثر من ثلاثين كتابا فى السير الذاتية ، منها «هوشي منه» ، و«اندريه مالرو» و«شارل ديجول» وآخرون ، فضلا عن سيرته الذاتية بعنوان «مهمة حول الكاتب» ..

وقد حضر ندوة الهلال للحوار مع لاكوتير نخبة من الكتاب هم :

- كامل زهيرى (كاتب)
- محمد عودة (كاتب)
- مصطفى درويش (ناقد سينمائى)
- نبيل سعد (مترجم كتاب شامبليون)
- كاترين فارحى (المركز الثقافى الفرنسى)

وقد بدأ اللقاء الملىء بالحرارة والمودة ، بحديث من كامل




كامل زهيرى



مصطفى درويش



محمد عوده

زهيرى حول مكانة مجلة الهلال فى الثقافة المصرية منذ إنشائها عام ١٨٩٢ ، ودور مجلاتها فى نشر التنوير بمصر والعالم العربى لاكثر من قرن من الزمان .

كامل زهيرى : يسعدنى أن استقبل الصحفى الكاتب المؤرخ جان لاكوتير لاسباب عديدة فمجلة الهلال لها تقليد مع كتاب فرنسيين كثيرين ممن عرفوا مصر وأحبوها، إننا استقبلنا المستشرق جاك بيرك عام ١٩٦٨ ، وكان معه المؤرخ الكبير الدكتور محمد أنيس ، ونشر اللقاء فى مجلة الهلال ، واذكر أيضا اننا استقبلنا اندريه ريمون عاشق القاهرة العثمانية والحديثة وقد نشر أيضا اللقاء عام ١٩٩٤. واليوم نلتقى مع جان لاكوتير.

لاكوتير يعتبر فى رأيى قمة ناجحة بين الصحفيين الذين أصبحوا كتابا ثم مؤرخين ، ونحن فى الصحافة نحس بميول أدبية أكثر من السبق الصحفى ، اذكر ان جان لاكوتير حين كان يراسل جريدة لوموند فى مصر لمدة أربع سنوات ، كان لا يحرص كثيرا على السبق الصحفى ، بل كان يحرص على الدراسة والتوثيق ، والبحث، وقد يكون هذا لميوله الأدبية الكامنة وقت ان كان صحفيا نشيطا لجريدة لوموند .

وأذكر كذلك زوجته السيدة سيمون لاكوتير كانت احدى الصحفيات النشيطات جدا ، وقد كتبت معه عدة كتب عن مصر ، ولعلها الصحفية الوحيدة التى تنبأت بحرب ١٩٦٧ فى احدى الجرائد الاقليمية الفرنسية .

وقد كان جان وسيمون لاكوتير نموذجين رائعين فى فترة هامة جدا فى تاريخ مصر ، وحين عاد لاكوتير الى جريدة لوموند ، واصل رسالته للدفاع عن العالم الثالث ، لأنه تبنى الدفاع عن استقلال الجزائر ، وجذبته حركة التحرر الوطنى فى آسيا وأفريقيا ، وكان كاتبا ، ومحللا ودارسا.

هذا ولم يكن كتابه عن عبدالناصر، أو هوشى منه إلا مرحلة لانه كتب عن الرجبى ، ثم قدم لوحات لشخصيات متعددة مثل ليون بلوم ، واندريه مالرو ، وديجول ومنديس فرانس .

وكما احب لاكوتير مصر ، أحببنا ديجول لأسباب مصرية ، وغير فرنسية ، لانه اقام مرتين فى مصر، والقى محاضرات فى الجامعة الامريكية ، كما كتب القصيدة الشعرية الوحيدة فى جريدة «لايورس اجيبسيان» المصرية . وهى عن حب الوطن .

قد لا اخرج عن الموضوع ، اذا تحدثت عن خطابين كتبهما ديجول الاول الى حسين باشا سرى عام ١٩٤٢ ، يشكر فيه الحكومة المصرية للاعتراف بلجنة فرنسا الحرة ، وعدم الاعتراف بحكومة فيشى .

وهناك أيضا خطاب وجهه ديجول الى الرئيس عبد الناصر بعد الهزيمة ، وفيه معنى ان تخسر معركة ولكن لا تخسر الحرب .

أعود الى لاكوتير ، حاولت ان اتابع رحلته فى الكتابة بين الصحافة والكتابة ، ووصوله الى موقف المؤرخ ، رغم انه يدعى انه ليس له منهج فى كتابة التاريخ . ولكن هذا الكم الكبير من الصفحات في كتبه يبرر استرجاعنا لمقولة فولتير «لا وقت للاختصار» ومن هنا متعة الاستماع الى لاكوتير وهو يكشف اسرار مهنته ، وعمله كمؤرخ ، وفن الكتابة ، كيف صار لاكوتير، جان لاكوتير !.

أقول ان كل كتاب للكاتب يثير خوف القارىء من حجمه ، لكن ما ان يبدأ قراءة السطر الأول حتى يستمر الى نهاية المؤلف ، وذلك بسبب موسيقية اللفظ ، وموسيقية الأفكار ، مثلما كان يردد بول فاليرى .

حقا انها فرصة جميلة ان نطلع القارىء العربى على اعترافات ، كاتب ومؤرخ مهنته ، واحب مصر أيضا .

خسارة المعركة وخسارة الحرب

چان لاكوتير : انا اشكر صديقى كامل زهيرى ، وارى اننى عندما اود رفع معنوياتى، وارى صورتى الحلوة فاننى آتى الى القاهرة ، واشكره لذكر اصدقاء، مثل بيرك ، وريمون، فكلاهما متخصص فى الاستشراق ومصر، وأما انا فلست سوى عابر عاشق . وفى نفس الوقت اشكره لذكر زوجتى ، وما قاله نقلا عن فولتير فانا ليس لدىّ وقت للاختصار ومع ذلك فكتابى الأخير عن جريتا جاربو مختصر يقع فى حوالى مائة واربعين صفحة.

كما اشكره ايضا لذكر مرحلة العلاقات بين الجنرال ديجول ومصر وعبدالناصر ، وفكرة خسارة المعركة ، غير خسارة الحرب، مرتبطة بالفترة التى قضاها ديجول فى القاهرة، ولو مكثت فى القاهرة مدة اطول، لقمت بتاليف كتاب مع كامل زهيرى ، يكون اسم زهيرى قبل اسمى وينشر فى دار الهلال .

واذا سمحتم فلنتبادل الآراء ، وفيما يخص منهجى التاريخى ، احس اننى افتقد الى

منهج فى الطريقة ، وهذا يعنى ان لدى طريقتى فى الطبخ . ومعروف أن المطبخ الفرنسى يختلف عن المطبخ المصرى .

تشرشل وانا .. وشجرة النيل

محمد عودة : نحن نرحب بجان لاكوتير الذى لن ينساه جيلنا ، فقد كان اول من استطاعوا تفسير ثورة يوليو للغرب ، كما تمكن من تفسير فرنسا للعرب فى فترة عصيبة للفرنسيين ، وكان كتابه عن مصر من اول الكتب الموضوعية الشاملة عن ثورة يوليو ، والذين قرأوا هذا الكتاب تأثروا به كثيرا . سواء كانوا مصريين أو أجانب ، كما ان من قرأوا كتابه الأخير بعد وفاة عبد الناصر ، ووصفه جنازته لا يمكن ان ينسوا كتاباته أبدا .

وأعتقد أن تفسيره لمصر وفرنسا ، ساعد فى تكوين علاقات حقيقية ، بين البلدين وسط فترة عاصفة ابان ثورة الجزائر والهند الصينية ، ونريده ان يفسر لنا مصر الآن ، وفرنسا الآن ، ونحن فى مطلع القرن الحادى والعشرين . كيف يرى فرنسا ، وكيف يرى مصر ، وكيف يرى العلاقات بين فرنسا ومصر ؟.

جان لاكوتير : أشكر محمد عوده لسؤاله ، وليس هناك تبرير لسؤاله سوى صداقتنا القديمة والسؤال خطير ، جداً، وأحب أن أقول اننى موجود فى مصر منذ ثلاثة أيام ، وأننى أرى فى مصر حيوية وقدرة على البناء والاستمرار، الحياة تتدفق فيها بالشباب ، وأراها كشجرة تنمو بشكل مستمر ، وانا القادم من بلد مستقر سكانيا . وأرجع الى ونستون تشرشل الذى كان يرى النيل والدلتا ، مثل نخلة جذعها طويل ممتد وعليها تاج من الخضرة، وأنا أراها هكذا ، مورقة ، وموردة .

ويجب ان نلفت النظر الى خطورة زيادة عدد السكان ثلاث مرات فى ثلاثين عاما . ونظرا لما اعرفه عن الشعب المصرى ، فانا لا أخشى من ذلك الانفجار فهو لايؤدى الى الحرب لدى شعب يحب السلام . لاشك ان هذا يطرح مشاكل كبرى للحكام الذين عليهم معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى تنتج من هذا . لكن يتضح الآن ان كل النقاشات التى كانت تجرى حول بحيرة ناصر والسد العالى ، تجد تبريرها اليوم ، والا صار الموقف مأساويا لو لم يكن السد موجوداً .

أما بالنسبة لفرنسا ، فمن الصعب ان أتكلم عنها ، ويمكن القول ان فرنسا تختلف عن مصر ، فبعد ان عادت اليها حريتها ، وصلت الى مستوى من الاستقرار، وتجد نفسها أمام مسألة حول كيف يوزع النشاط الانسانى فى مجتمع مؤسسى ، وكيف تواجه الدولة البطالة ، وقد فشلت فى هذا الاصلاحات الاشتراكية ، وهى مشكلة تواجهها كل اوربا الغربية ، وقد واجهتها الولايات المتحدة ، بالليبرالية المرنة ، وهو حل مؤقت فقط ، حيث حققوا انجازات مؤقتة ، وصار امامنا مشروع كبير ، هو توحيد اوروبا ! وهو توحيد صعب ، لانه ناتج عن تقاليد مختلفة ، ومتضادة .

فليس هذا التوحيد مهددا بأى شكل من الأشكال للعالم الآخر ، لكن مشكلته الآن ، ان الولايات المتحدة ، كانت طرفا فيه ، حيث ساعدته ايام الحرب الباردة باعتباره حاجزا يقف امام العالم الاشتراكى ، اما اليوم ، فانها تحب أن تهيمن عليه بالحرب أو بالسلم ، انن

فكيف يمكننا الدفاع عن استقلالنا هذا هو المطروح فى فرنسا الآن .

الفرنسيون ومصر طوال قرنين

نبيل سعد : اسمحوا لى ان اتحدث عن شامبليون ، ففى الفترة التى عاشها شامبليون كانت فرنسا تعيش حالة من عدم الاستقرار الحقيقى ، حيث تغير الحكم فى فرنسا ابان حياته (٤٢ عاما) عشر مرات ، مما أثر على العلاقات حتى اليوم ، ولو كانت فرنسا مستقرة ابان عصر محمد على ، لتغيرت الأمور بالتأكيد.

لقد شعرت ابان اقامتى الطويلة فى فرنسا ان هناك صورة «نمطية» عن مصر. ولاشك ان لهذا أسبابه التاريخية . والسؤال هو : كيف نعدل من «النمطية» الموجودة ، لدى الانسان الذى يحب مصر، وعرف عنه عمق التفكير ؟.

چان لاكوتير : الحديث عن عصر شامبليون مهم للغاية ، ففى هذا العصر ، كانت فرنسا بلدا اقل عنفوانا . كانت هناك دول قوية روسيا ، وانجلترا ، وكانت البلاد الآسيوية والافريقية فى حالة نعاس ولم تكن المانيا قد تشكلت بعد .

وفى بداية القرن التاسع عشر ، لم تكن فرنسا دولة مستقرة ، كان هناك نظام آخر فرنسى ، يتغير ، وقد كان على محمد على ان يتعامل مع نظام أكثر قوة ، واعتقد ان محمد على قد اتجه الى فرنسا لأنه كان هناك صراع شديد مع القوة الانجليزية . حيث كانت هناك خصومة شديدة بين فرنسا وانجلترا ، ومن ناحية اخرى فان النظام فى حكم نابليون قد نظر الى محمد على كحاكم أجنبى جاء من الخارج ليحكم مصر بالطريقة النابليونية .

واعتقد انه من الصعب تحليل العلاقة بين مصر وفرنسا فى تلك الحقبة . لكن من الواضح ان العلاقة التى تولدت بين البلدين قد عكست انشطة فرنسا فى القرن التاسع عشر فى مصر ، وهى ليست فقط مفسرة فى التكنولوجيا ، والعلوم ، بل كانت هناك أشياء أخرى غامضة تحدث فى نفس الفترة ، وبصورة تلقائية . شهد عليها العلماء ، والباحثون والاطباء والمهندسون . كان هناك شيء غريب بين بلاد وادى النيل ، وبلادى فى الشمال حيث ظهر شخصان لهما دورهما ، شامبليون الذى اكتشف تاريخ مصر منذ آلاف السنوات ، والثانى شخص اكثر غموضا هو ديلسبس الذى كان وراء حفر قناة السويس.

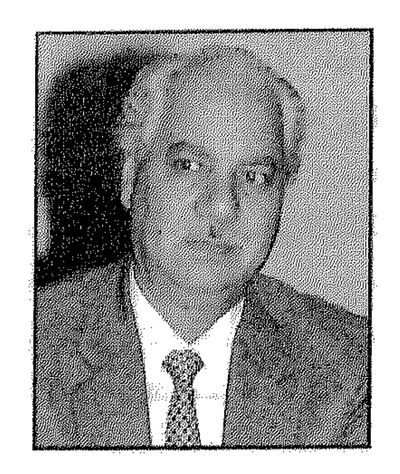
لقد أخبرنى طه حسين أن قناة السويس كانت خدمة فرنسية لمصر ، ولكنه قال ان هذه القناة سببت الكثير من المتاعب لمصر ، فبدونها ، كان يمكن ان تكون البلاد اكثر تحررا من الاحتلال الانجليزى .

وفى القرن العشرين لعبت فرنسا دورا سيئا مع انجلترا ، بالنسبة لعلاقتها مع مصر وقد ظللنا نحصد بذور هذه العلاقة التى تنم عن مرض سيىء أصاب الامبراطورية الفرنسية ، وذلك من خلال دور فرنسا فى حرب السويس ، ثم الفترة الطويلة التى احتل فيها الفرنسيون الجزائر حتى عام ١٩٦٢ .

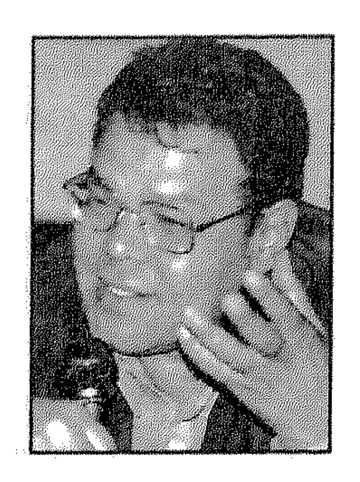
نحن نعرف أن هذه الاوراق شديدة الغرابة ، بما فيه الكفاية ، وذلك تبعا للمواقف تجاه فرنسا وانجلترا ، ويسوقنا هذا الى الحديث عن الامبريالية الانجليزية ، وما فعلته مع



نبيل سعد



عاطف مصطفى



محمود قاسم

الامبراطورية الفرنسية فى حملة السويس ، لكن موقف الجنرال ديجول عام ١٩٦٧ اعاد بيننا علاقة افضل مماثلة لعلاقاتنا فى الجزء الاول من القرن التاسع عشر. والآن يمكن القول اننا نشكل معا قوة تحالفية اكثر ثراء، فى وقت كانت تبدو فيه الولايات المتحدة اكثر قربا وتعاطفا مع اسرائيل .

ورغم ان هناك بضع نقاط اختلاف ، وهذا حق ، لكن مصر تعيش بشكل مضاعف فى قلب فرنسا ، خاصة اليوم. فالسفر الى مصر بالنسبة للفرنسيين هو أجمل أنواع السفر ، وذلك منذ اكثر من قرن ونصف ، فأبناء الطبقة المتوسطة فى انحاء فرنسا، يأتون لاكتشاف سقارة ، وارتياد الفنادق الجديدة بأسوان ، وركوب النيل أجمل انهار العالم . وهناك من ناحية أخرى حكومة مستقرة ، وعاقلة ، لها أفكارها العصرية ، وعلى قمتها رئيس عاقل له وجهة نظره ، هو حسنى مبارك ، ثم هناك مجموع المصريين الذين كان لهم موقفهم أثناء حرب الخليج ، وموقف مبارك الحكيم ، فى وقفته ضد العنف الذى حدث احيانا فوق وادى النيل .

هناك تداخل عميق بيننا سواء فى الانتاج الادبى ، والسينمائى ، والشعر والموسيقى . نحن شعبان كل منا يعرف الآخر فلدينا الكثير من الكوادر السياسية والدبلوماسية والثقافية المشتركة . مثل العلاقة القوية التى كانت تربط بين اندريه جيد وطه حسين ، والأدب المصرى مقروء جيدا فى فرنسا ، واضرب مثلا على ذلك بادب نجيب محفوظ ، وكذلك الامر بالنسبة للسينما ، منذ الاعمال الاولى ليوسف شاهين ، وأيضا بالنسبة للموسيقى والفن التشكيلى ، حيث عبرت المدارس المختلفة عن عشقها لمصر والمصريين .

مصر الآن قوة ثقافية ، وهى عاصمة العالم العربى ، وهناك جسر دائم بين مصر وفرنسا فى مجالات الفنون والاداب، فالقاهرة جوهر ثقافى ، وعاصمة عالمية ، وهى تتقدم

نحو العواصم الأخرى ، باريس ، لندن ، وغيرهما ، الآن الفرنسيون يقرءون الثقافة العربية، والعرب يقرءون الثقافة الفرنسية، من خلال الادب والموسيقى والسينما ، والفن التشكيلى .

قوة الخيال .. وسحر الواقع

الهلال : ينتشر الآن لدى العرب رواية للسيرة الذاتية ، لماذا لم يعتبر النقاد كتابك «مهمة حول الكاتب» بمثابة رواية سيرة ذاتية ؟ .

جان لاكوتير : لدىّ نوعان من السيرة الذاتية . الأول عبارة عن حوار أجراه معى صديقى صحفى نشر فى عام ١٩٧٤ ، عبارة عن حوار مع صحفى عنوانها «حبر من دماء»، وترجمتها تعنى «القلق» ، نشرت فى سلسلة كتب تحمل عنوان «كبار الصحفيين» . وفيه حكيت الكثير من القصص . والكثير من الاخطاء التى ارتكبتها ، وتكلمت عن حكاياتى فى الهند الصينية ، وعن مرحلة عملى فى مصر ، كما حكيت عن جمال عبد الناصر ، وعن الجنرال ديجول ، ورويت الكثير عن القصص الغريبة فى حياتى .. هذا هو كتابى الاول .

أما كتابى الثانى فهو «مهمة حول الكاتب» الذى بدأته بحوار مع صديقى الصحفى جان كلود جيلبو ، ثم أعدت كتابة هذا الحوار السابق على لسانى عن حرية الكاتب، وحدوده والدور الذى يلعبه فى مجتمعه وعالمه ، وعن اختياراته ، وميثاقه مع مجتمعه . انه كتاب شريف بما يكفى . وقد دونت فيه كافة ما يهمنى حول الكاتب .

الهلال : لماذا لا تعتبر سيرتك الذاتية رواية ، مثلما يفعل كتاب آخرون منهم باتريك موديانو ؟

جان لاكوتير : انه امر مختلف ، موديانو روائى ، اما انا فبكل وضوح لست روائيا ، لاننى لا امتلك قوة التخيل الابداعى ، ثانيا انا ارى العالم فى حدود ذاته كرواية رائعة ومرعبة تماما ، وجميلة تماما. بالتأكيد ربما ان العالم لم يعد يعطى روايات مثل «الاخوة كرامازوف» لكننى اكتب عن العالم من خلال مقالاتى ، وفى العالم اشياء غريبة ، اكثر دهشة مما فى الخيال ، مثل جنازة جمال عبد الناصر فى مصر ، فهى عمل يكتب من أجله صفحات اقوى من الخيال .

عندما كتبت سيرة عبد الناصر الذاتية، كان ناصر فى تلك الحقبة شخصية تثير اهتمام الفرنسيين ، وحققت هذه السيرة نجاحا هائلا ، وبيع منها عشرين الف نسخة . حسنا ، انها مهنتى، وانا اكسب منها ، وقد حدثنى صديقى جيل لوروا ، وهو مناضل يكتب العديد من الكتب والقليل من الروايات عن الجزائر ، ان ما كتبته عن عبدالناصر ليست رواية ولكنها شىء آخر ، قال لى انه كتاب لا يكتبه الا باحث ، لكن كتابه عن السلطان عبدالحميد يمكن ان يبيع ١٠٠ إلف نسخة. انا لم اختر مثل هذه الطريقة فى الكتابة ، انا لى طريقتى التى اكتب

بها ، لكن كل عناصر الرواية قد تجدها فى كتابى عن جمال عبد الناصر وهو كتاب عن الزعيم والشعب أيضا.

كلنا .. نحب جريتا جاربو

مصطفى درويش : كان من اول الكتب التى قرأتها بالفرنسية هو كتابك «مصر فى عنفوان الحركة» وقرأت به تعبير « les mufles» الذى لا أجد له مرادفا سليما فى العربية، ترى هل المقصودون بهذا التعبير موجودون الآن ؟.

السؤال الثانى ، وانت الموسوعى ، لاحظت انه لم يكن لك اهتمام بالسينما ، ولا بالنجوم ، وفجأة حسبما أخبرتنا انك قمت بتأليف كتاب عن جريتا جاربو ، ما سر اهتمامك أخيرا بالسينما ؟.

جاك لاكوتير : كانت كلمة « les mufles» شائعة تستخدمها جرائد مثل «لوبرو جريه اجيبسيان» و «لا بورص اجبسيين» وهو تعبير كان يتردد فى القاهرة والاسكندرية عن الشباب الذى يلاحق النساء بالمعاكسة فى الشوارع . ولا اعرف ماذا تعنى الكلمة باللغة العربية . يجب ان تبحث عن اصل الكلمة . لكن هذا التعبير كان موجودا فى تلك الآونة .

أما عن اهتمامى بالسينما ، فان الامر قديم للغاية ، بالنسبة لجيلى ، حيث كنا نعشق السينما ، نرى افلاما من كافة الجنسيات ، من السينما الامريكية والفرنسية. كانت هناك افلام المانية مهمة ، ولم تكن هناك افلام بريطانية كثيرة جذابة فى تلك الفترة سوى بعض افلام تشارلز لوتون ، كنت أحب السينما كثيرا . ويمكنك ان تجدنى اتحدث عن السينما فى كتابى الاول «مصر فى عنفوان الحركة » هناك صفحات عن السينما المصرية ، وخاصة عن «ريا وسكينة» لصلاح ابو سيف انه فيلم رائع ، وايضا عن يوسف شاهين الذى أصبح صديقا .

اعتبر ان السينما فن هام فى حياتنا الاجتماعية ، سواء فيما يخص المشاعر ، والتقاليع والاتجاهات ، وعن حياتنا الاجتماعية ، والطموحات ، انها مهمة للغاية ، وأنا لم اكتب حتى الآن عن نجم كبير ، الا بعد ان طلب منى ناشر معروف ان أؤلف كتابا عن نجم معروف ، وقد اقترحوا علىّ اسم جريتا جاربو . حدث هذا من خلال مخابرة تليفونية سببت لى الرضاء.

فجاربو اسم مؤثر بالنسبة لى . ولم تكن صاحبته بعيدة عن أحلامى وفى حياتى ، كانت حبى الأول . وقد اسعدنى الحظ ان اقابل جريتا جاربو مرة واحدة فى حياتى بأحد شوارع باريس ووجدت نفسى انا الخجول الذى لم امش وراء امرأة قط فى الشارع ، اسير وراء جريتا جاربو فى شارع ريفولى بجوار اللوفر، مما ترك اثرا قويا ، كتبت عنها فى جريدتى،

ولم أكف عن الحلم بها ، وظل هذا الحلم يلازمني حتى اعددت الكتاب الصغير الذي تحدثت فيه عن بعض افلامها مثل «الملكة كريستينا» و «آنا كارينينا» و «نينوتشكا» و «غادة الكاميليا» كما ان هناك فيلما آخر مأخوذا عن بيرانديللو وهو «كما تريدني» الذي لم اره قط بطولة اريك فون ستروهايم . كان الأمر بالنسبة لى لحظات مليئة بالسعادة ، اتمنى ان تكون السعادة التي كتبتها ، بها بمثابة تكريم لجاربو ان تنتقل الى القارىء ، وان اكون قد ألفت عنها كتابا أقرب الى الفيلم .

القاهرة .. تتضخم !

محمد عودة : ما رأيك فى التعددية ، والهيمنة الأمريكية ؟.

جان لاكوتير : تشير كل الظواهر ان هناك قطبا واحدا الآن ، فليس هناك اى منافس للقوة الامريكية . وتتمثل السيطرة الامريكية فى الاقتصاد والتكنولوجيا . ربما ان الوضع المالي متوازن فى اوربا ، لكنه لا يشكل قطب مواجهة . هناك الآن قوة امريكية ، ويمكننا ان نعرف الى اى حد ستذهب ، وهناك أشياء تحدث احيانا تعكس المواقف ، مثل فضيحة كلينتون ، وقد تصرف الكونجرس بحماقة ولكن الشعب الامريكي قد تصرف إزاءها بذكاء، وقد اكدت فضيحة كلينتون ان امريكا اكثر عقلا مما نعتقد .

واعتقد ان الهيمنه الامريكية سوف تستمر لوقت طويل ، وان العمر لن يمهلني ان اعيش وأرى غير ذلك ، فقد تمت أمركة العالم تقنيا ، وبوسائل الاتصال والسينما، فالتأثير القوى للسينما الامريكية جعل السينما فى كل العالم تتضاءل ، هناك اذن خط أحمر للسينما فى الدول الأخرى على سبيل المثال .

الهلال : نود ان نعرف بالنسبة للسيد لاكوتير ، عم سيكتبه عن هذه الزيارة عقب عودته الى فرنسا وما الذى لفت نظره اثناءها ؟.

جان لاكوتير : قلت فى البداية اجابة على سؤال آخر ، انه يبدو لى ان هناك حالة تفجر ، مصر تتقدم بشكل حيوى غريب ، فعندما وصلت الى القاهرة عام ١٩٥٣ كان عدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة . وفى كل مرة آتى الى القاهرة اجدها تزداد عددا ، والآن تبدو القاهرة الكبرى وقد حملت بأكثر من ١٥ مليون الى ٢٠ مليون نسمة ، انه اتساع ضخم ، اشبه بما يحدث فى مكسيكو سيتى هناك الحيوية ، كأنها غابة واسعة ، وفى هذا الازدحام يبدو كأن الناس ستصطدم ببعضها ، وهذا خطر . لقد قضيت فى القاهرة ثلاثة أيام . وسمعت من اصدقاء لى ان مصر هى اقل البلاد عنفا فى العالم الآن ، فهنا العنف اقل من اى مكان آخر ، وهو امر مدهش ، وفى المنازل ، والشوارع يحس الناس بوجود الأمن ، والمواصلات فى

القاهرة مليئة بالحركة والزحام ، وقد قالت لى كاترين فرحى مثلا انه رغم كل هذا ، فالحياة تسير .

الفراعنة فى بلاد الغال

كامل زهيرى : فى النهاية اشكر الصحفى ، الكاتب المؤرخ جان لاكوتير ، لانه أعطى للقراء الشباب الذين يقرأون اللغة العربية جزءا من اراء عاشق لمهنته ، وعاشق لمصر ، وعند الحديث عن العلاقات المصرية الفرنسية ، فاننى اوافق

جان لاكوتير

انه رغم ان مصر وفرنسا قريبتان جدا لاسباب متعددة ، فالعلاقات لم تبدأ منذ الحملة الفرنسية ، بل ان المصريين القدماء حاربوا فى جنوب الغال فى القرن الرابع فى فيلق طيبة الرابع ، مع الجيش الرومانى ، وان ٤٤٠٠ ذهبوا الى الغال ضمن فيلق الجيش الرومانى وحتى الآن فان اسماء بعض شهداء الاقباط موجود على خاتم مدينة زيورخ ، مما يدل ان المصريين عبروا الى الشمال . وهناك القديس باخو موس (باخوم) ، ومورشيوس و (أو موريس) . مما يدل ان العلاقات قديمة جدا.

وقد توقفت عند عبارة جميلة قالها لاكوتير انه لا يحتاج الى الخيال الروائى امام الواقع، فقد شاهد جنازة عبدالناصر ، وهو مشهد لا يمكن ان يتكرر ، ونحن شاهدنا حريق القاهرة وهو امر لا يمكن ان يتكرر ، ونحن فى علاقتنا المصرية الفرنسية لا نحتاج الى خيال كى نكتشف ان علاقتنا قوية وقديمة جدا . وانه بدلا من صدام الحضارات الذى رفع شعاره الآن، ندعو الى المزيد من حوار الحضارات ، ويمكن ان نقدم من المزيد من التعريف بالثقافة الفرنسية ، والثقافة العربية المصرية . وكما قال لاكوتير فان ادباء مصر يقرأون فى الادب الفرنسى والادب الروسى ، لدرجة انه وصل الحب ان حافظ ابراهيم تُرجمت له رواية البؤساء ، لفيكتور هيجو دون ان يعرف الفرنسية ، فكتبها بالعربية ، مما يعنى ان القارىء العربى قرأ «البؤساء» بالفرنسية، كما قدمها حافظ ابراهيم .

مقدمة لأغنيات الآنسة مى

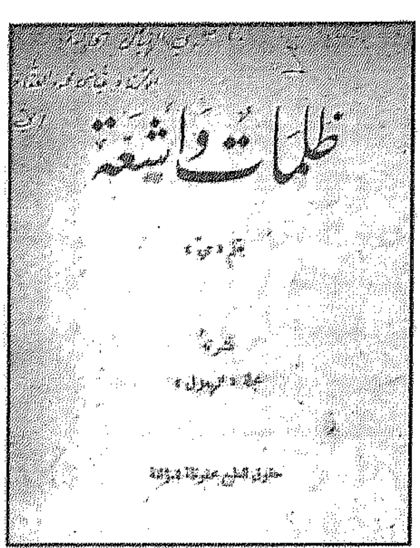
بقلم : صافى ناز كاظم

● الآنسة مَىْ، هى مارى إلياس زيادة، ولدت فى مدينة الناصرة بفلسطين ١١/٢/١٨٨٦م وتوفت بالقاهرة ١٩/١٠/١٩٤١م، ودفنت بمقابر الطائفة المارونية بمصر القديمة ٢٠/١٠/١٩٤١م. جاءت إلى القاهرة من فلسطين لتستوطن مصر عام ١٩٠٨م مع والديها: أبيها المدرس إلياس زيادة، الذى كان قد ترك بلدته شحتول بلبنان ليعمل فى فلسطين حيث تزوج من أمها الفلسطينية المثقفة نزهة معمر، وقد إمتلك فى مصر جريدة «المحروسة» .

كان لها شقيق واحد توفى فى طفولته فمست حادثته قلبها وتحركت طاقتها الإبداعية الشاعرة منذ صباها بتأوهات الحزن الأخضر ، الذى يجتنب لذاته أحزان البشر فيتواسى بها ويواسى الآخرين بلغة يفهمها كل صاحب نفس نبيلة . إختارت إسمها الجديد من أول حرف فى اسمها «مارى» وآخر حرف منه : «الميم» و«الياء» لتصبح «مَىْ» . حرصت على صيغة «بقلم الآنسة مى»، حاذفة «زيادة»، لا تلحقها باسمها إلا فى الأوراق الرسمية . كان الشعر هو أول أشكال كتابتها ، وحين وصلت أرض مصر وهى فى الثانية والعشرين كانت تحمل معها ديوانها باللغة الفرنسية «أزاهير الحلم» مؤكدة سماتها الأصيلة منذ البداية وهى : الرومانسية ، والمثالية، والأخلاقية، وكلها - كما نعرف - حزمة واحدة. إلتحقت بالجامعة المصرية لمدة ثلاث سنوات ، بين أعوام ١٩١١م حتى ١٩١٥م، زاملت فيها الدكتور زكى مبارك الذى كان يناديها مداعبا «مدموازيل صهباء» إشارة إلى معنى إسمها «مى» باللغة الفارسية وهو «خمر». أستاذاها الرئيسيان هما : أحمد لطفى السيد ويعقوب صروف، اللذان تحمسا لمواهبها الثقافية والأدبية والإبداعية وقدما لها كل الدعم والتشجيع. على يد أحمد لطفى السيد وتوجيهاته تعلمت اللغة العربية والخط وأجادتها إجادة تامة لكن هذا لم



الآنسة مي





غلاف الكتاب بإهداء العقاد

يمنعها من إضافة ظلال من معرفتها السابقة باللغات التي تمكنت منها تمكنا لا يملكه إلا أبناء تلك اللغات وأولها : الفرنسية ثم الإنجليزية ثم الألمانية ثم الإسبانية مع السيريانية . الخ . وبسبب تلك الحصيلة اللغوية الغزيرة إستطاعت أن تتميز بأسلوبها العربي الأدبي المصقول بأصول التمكن من اللغة العربية مع التألق بلمسات الإستفادة الواعية من إطلالاتها على حقول اللغات الأجنبية . عندما صدر لها كتابها «ظلمات وأشعة» – الذي نشرته لها مجلتنا الهلال في يناير ١٩٢٣م ، مطبعة الهلال بشارع نوبار نمره ٤ مصرا – أشارت إليه في سجل مؤلفاتها باعتباره : «مجموعة قصائد منثورة» ، وقسمته إلى ثلاثة أجزاء: الكتاب الأول : من كوة الحياة، والكتاب الثاني: نحو مرقص الحياة، والكتاب الثالث: في مرقص الحياة. وتعود بعض قطع هذا الكتاب إلى عام ١٩١٢م وعام ١٩١٣م وعام ١٩١٦م وهي لم تزل في عشرينياتها . وهي بهذا الكتاب تعد بحق من رواد «قصيدة النثر» وإن لم تهتم بتسطيرها في شكل القصيدة . كما فعل الكثير منا – وأنا منهم والمتضرر يعود إلى كتابي رومانتيكيات الصادر عن دار الهلال ١٩٧٠م – هي إذن شاعرة ، شاعرة والشعر بلا جدال هويتها الأولى ولم تكن «مي» شاعرة فقط بكتابتها الشعر، لكنها عاشت حياتها بعقل الشعراء ، ومشت خطواتها برؤية الشعراء، وأحبت، وصادقت ، وخاصمت بدلالات الشعر وإيقاعاته، ولذلك فلم يكن من السهل على الكثيرين فهمها والتواصل معها على خط الإرسال، والتلقي الصحيح والدقيق. حين إنتصرنا لمي ومنعنا «مؤامرة» نقل رفاتها إلى بلدة أعدائها وخصومها في شحتول بلبنان في شهر فبراير الماضي، أحسست بضرورة إنتاج فيلم سينمائي عن «الآنسة مي» يعيد إليها صورتها الوضاءة ، النابهة، الشاعرة المحبة للبشر والوطن والعروبة ومصر ولبنان ، والذي يؤكد على أن محنتها لم تكن «مأساة النبوغ» – كما أسمتها الأستاذة سلمى حفار الكزبري

فى مجلديها الهامين عنها - بل هى مأساة وقوع تلك الشاعرة العظيمة فى فخ إحتيال زمرة لصوص تم لهم ما أرادوا من سرقة مالها ومتاعها وتحفها ولو بإدخالها زوراً وظلماً وبهتاناً مستشفى العصفورية للأمراض العقلية، وتغطية الجريمة بأساليب الإشاعات الخسيسة والحكايات الملفقة، وذلك فى الفترة ما بين ١٩٣٥م حتى نهاية ١٩٣٨م، وقد قاومت «مى» الشاعرة الرومانسية المثالية الأخلاقية هذه المحنة بكل ما أوتيت من صلابة وعناد وحسم وقد سخّر الله لها لفيفا من المنقذين فى لبنان ومن كل مكان فى الأرض العربية : لبنانيون، جزائريون، فلسطينيون ، سوريون، مصريون، عراقيون .. الخ.

المهم أثناء قراءتى لمادة «الآنسة مى» ، أعدت قراءة «ظلمات وأشعة» ووجدت فيه قلب مى وجوهرها وأخرجت منه مقتبسات - بإختيارات عين شاعرة - من كلمات لها أحسست أنها صوتها المغنى - كانت تغنى فعلا وتعزف العود والبيانو والأورج، حتى بعد محنتها كتبت لإحدى صديقاتها تخبرها أنها إشترت عوداً جديداً ، ليس مثل عودها الجميل الذى سرقته الأيدى العابثة اللصة، لكنه كما قالت : «عود له أوتار»! - ورأيت وأنا أرتب كلمات «مى» أنها أغنيات تنتظر الملحن الذى يعرف كيف تنطلق النغمات ويغنيها صوت نسائى يعرف كيف يستحضر قلب مى، ونفس مى، حضارتها وطفولتها، رقتها وصلابتها، عنوبتها وقدرتها الإستشهادية على قتال الباطل.

أغنيات من كلمات الآنسة مى ، إختيارات وإقتباسات صافي ناز كاظم.

١ - بين عامين:

بين شطى الماضى والمستقبل،
يجرى نهر الحياة.
ليصب فى بحر الأبدية،
فإلى بحر الأبدية ، أيها العام الراحل،
وأنت أيها العام الجديد ، إلينا،
طفلا جميلا

★★★

رحماك ، أيها العام ، رحماك،
كتبت اسمك يد الزمان على باب الوجود،
فساعدنا لننقش أسماء نا على باب السعادة.
رحماك أيها العام الجديد،
الإنسانية تتألم فارفق بها،
رحماك أيها الطفل الحبيب.

★★★

تعال نعطك القبلات،
على جبينك قبلة الرجاء،
على ابتسامتك قبلة الوداد،
وعلى يديك قبلة التوسل،
هذه أمانينا عند قدميك فلا تدسها،
... ضمها إليك فتحيينا....

●

نشيد نهر الصفاء

هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية،
وتحولت الورود إلى أشعة سحرية،

هنا اغتسل قوس قزح،
فترك فى الماء من ألوانه،
ألحانا فضية،
ومن دماء الأحلام،
ألوانه السرمدية.
هنا بعث الأفق بأسراره مع خيوط من الأثير ذهبية،
هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات المياه،
فامتزج النور بالظلام،
وتلاشت اليقظة بالمنام.
هنا ناحت حمائم الشعر وغنت أطيار الأنغام،
هنا لثمات النسيم شوق وهيام،
ومداعبة الموجة للموجة تبادل نظرة وابتسام،
وجمود الشاطىء حقد على فتور الليالى
ومعاكسات الأيام،
هنا إرتعاش الأوراق على الغصون،
تحية ، همت من مقل الكواكب ، وسلام،
هنا ليلة أنوار وفجر ظلام ....

★★★

حينما يمر الفجر على قمم الجبال،
يرى صورته،
ثم يأتى الغروب،
والشفاه المتحركة بالصلوات،
الساكنة بالتأملات،
هنا عيدان الأشجان تبكى،
تبكى بقلب جريح

★★★

المياه لا تموت ولا تحيا،
تعيد ذكرى الماضى،
وتكرر أصوات الأفراح،
وتردد الآهات.
هنا لغز من ألغاز الحياة،
وليلة من ليالى الزمان،
وأنا لغز أمام هذا اللغز،
وليلة إزاء هذه الليلة،
أهيم وحيدة على الشاطىء الحزين،
أنظر ولا أرى،
أسمع ولا أفهم،
أبحث ولا أجد،
فؤادى يخفق مع فؤاد النهر الخفى،
ونفسى قيثارة لغز حى تائه فى ظل الغصون.

★★★

من أين وإلى أين؟
من أين وإلى أين؟
من أين تأتين أيتها المياه،
وإلى أين تذهبين؟
من أين أتينا وإلى أين نذهب؟
المياه تتدفق مهللة مكبرة،
من أين وإلى أين؟

★★★

جمعت الحصى الملونة الجميلة،
أيتها الجواهر،
سأحملك معى إلى وادى النيل
لتذكّرينى،
بالعواطف فى فؤادى أمام نهر الصفا.
سيرى، أيتها المياه،
سيرى واتركينى،

أسقى النباتات والأعشاب،
ضعى لآلىء فى ثغور الورود،
رطبى صدر الأرض الملتهب،
ترنمى فى وحدة الوادى،
اسردى حكايتك،
اندبى، هللى ، اصرخى ، اهمسى،
انشدى ، انحبى ، اطربى ، احزنى،
سيرى أيتها المياه ، ودعينى أبكى،
لقد تلبد جو فكرى بالغيوم القاتمة
وقلبى ، ما لك وله؟،
منفرد حزين ....

٣ - الأشرار أولى بالرحمة!

لا ، لا ،
ليس الأشرار إلا ضحايا البشر،
وضحايا نفوسهم،
هم أولى بالرحمة!

٤ - المغرد الصامت:

طائر صغير،
نسجت أشعة الشمس،
ذهب جناحيه،
وانحنى الليل عليه،
فترك من سواده،
قبلة فى عينيه،
طائر صغير،
فى قفص،
كان عشه،
أحببته شهوراً طوالاً،
غرد لكآبتى فأطربها،
ناجى وحشتى فآنسها،
غنى لقلبى ، ونادم وحدتى ،
والآن ، صمت الطائر المغنى،
فما أتعس القلوب الشديدة التأثر....

●

٥ - العيون :

العيون ، ألا تدهشك العيون؟
العيون بأحلامها،
والعيون بتنوعها،
والعيون بحلاوتها،
والعيون بما يتناوبها من قوة وعذوبة.

★★★

العيون التى تشعر،
العيون التى تفكر،
العيون التى تتمتع،
والعيون التى تترنم،
وتلك التى عسكرت فيها الأحقاد والحقائظ ،
تلك التى تتسع أمام من تحب،
وتتكمش أمام من تكره،
وتلك سائلة من أنت؟
وكلما أجبتها زادت إستفهاما....

٦ - أنت : أيها الغريب

لى بك ثقة،
وقلبى يفيض دموعاً،
سأفزع إلى رحمتك،
عند اخفاق الأمانى،
وأبثك شكوى أحزانى،
أنا التى ترانى طروبة طيارة!

★★★

سأدعوك أبى وأمى،
وسأدعوك قومى وعشيرتى،
أنا التى أعلم أن هؤلاء

ليسوا دوماً بالمحبين،
وسأدعوك أخي وصديقي،
وأبكي أمامك،
أنا التي أسير محفوفة بجناحين،
متوجة بإكليل،
وأنت لا تدرى!

★★★

سأتسمع إلى جميع الأصوات،
علّي أعثر على لهجة صوتك،
وأبتسم فى المرآة ابتسامتك،
فى حضورك سأتحول عنك،
لأفكر فيك،
وحين تغيب،
أتحول إليك،
كل ذلك،
وأنت لا تعلم!

★★★

كيف أنت تطرب،
وكيف تشتاق،
وكيف تحزن؟
إلى أى درجة تستطيع أنت أن تقسو؟
إلى أى درجة تستطيع أنت أن ترفق،
لأعرف كيف أنت تحب؟

★★★

يتصاعد الشكر لك بخوراً،
لأنك أوحيت إلىّ،
ما غاب عنه الآخرون،
أتعلم ذلك،
أنت الذى لا تعلم،
أتعلم ذلك،
أنت الذى لا أريد أن تعلم!

★★★

من أنت؟
وماذا كنت؟
أكنت وحيا من فيض شاعريتى؟
وطيفا من أطياف شوقى وعذابى؟
أم أنت حقيقة مرت،
إلى الشواطىء النائية؟

●

٧ - عند قدمى أبى الهول :

جئت ناديك أنشد الإختلاء وراء تلال،
فى حضن السكوت غير المتناهى،
تتالى شعوب ودول،
وأنت هنا رابض أمام أهرام،
فى وجه الفضاء تغالب الفناء،
فريداً على وثير الرمال فى مملكتك،
مملكة الكتمان والجلال والإيماء،
أسأل : ما هى الحياة؟
سألت طويلاً،
وبكيت غزيراً،
حتى طلبت الموت.

★★★

يا أبا الهول ، يا حارس الصحراء،
أتعرف معنى سوسن الماء،
وزهرات عرائس النيل؟

★★★

•نصفك فى الرمال الُمِغيرة، على علاك،
ومازلت ترقب الشمس وتبتسم،
إبتسامك الدائم أمل يتجدد.....

سينما
عابثة .. لاهية
وأخرى جادة .. واعية

بقلم : مصطفي درويش

الحديث عن السياسة في السينما المصرية، ومابينها وبين السياسة في السينما الامريكية من فروق حديث يطول .

فحتى الآن ما قام حول تلك الفروق من جدل لم يزل في حاجة إلي المزيد من الكلام .

ونظرا لضيق المقام ، فلن أدخل في خضم ما يستوجبه هذا الجدل من بحث وتفكير، مكتفيا بالوقوف عند ثلاثة أفلام فيها من السياسة الشيء الكثير .

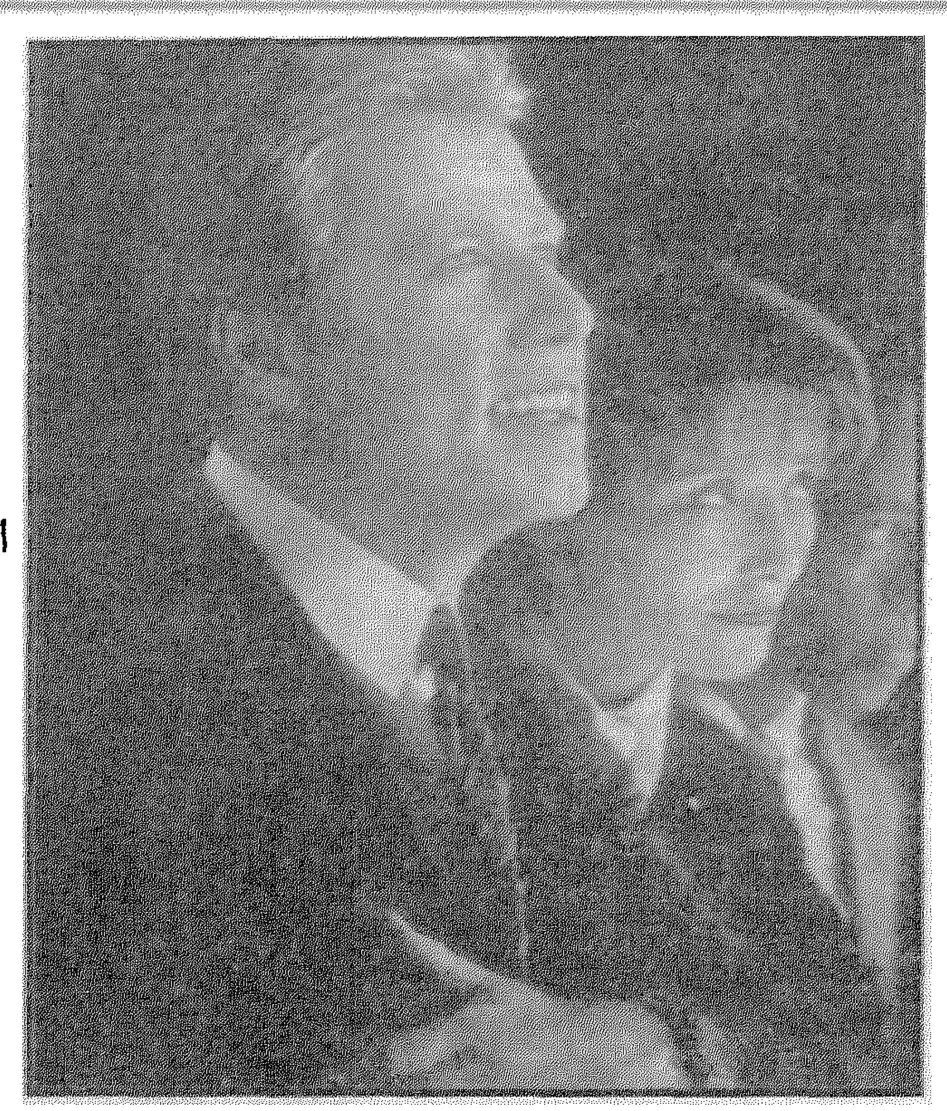
وعلة ذلك الوقوف أنه قد يعين علي استكشاف بعض ما بين السياسة في السينما عندنا وعندهم وراء المحيط من فروق ، الأمر الذي قد يساعد مستقبلا علي الاحتياط في الحكم والاعتدال في التقدير .

وعلى كل فالأفلام الثلاثة التى وقع عليها الاختيار هى فتاة من اسرائيل (مصرى)، والسلطة المطلقة وغراميات رئيس وكلا الفيلمين من انتاج مصنع الأحلام وأبدأ بفتاة من اسرائيل لاقول انه أول فيلم روائى طويل لمخرج شاب اسمه ايهاب راضى .

وقوام فيلمه سيناريو يزعم أصحابه وهم نفر من محترفى كتابة سيناريوهات مفتعلة ، مفتقدة الروح، أنه معاد للتطبيع مع اسرائيل ، يقول لدعاته لا .

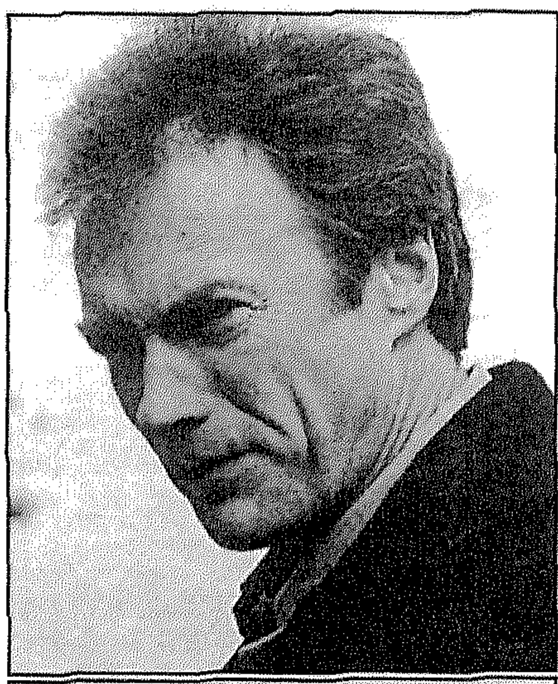
غلوّ وهوى

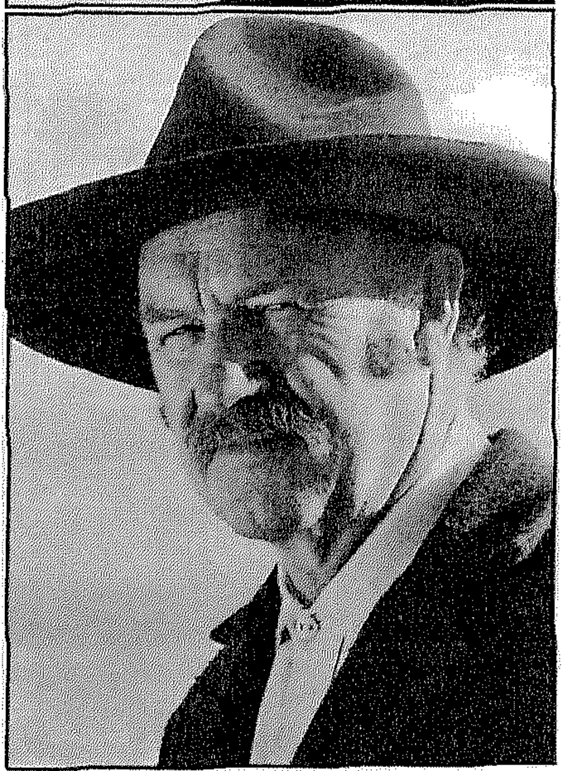
ومما يعيب هذا السيناريو، غلوه فى كل شىء على نحو أفقد الفيلم أية



ترافولتا
أم كلينتون

ايستوود ممثل ومخرج





جين هكمان رئيس وقاتل

مصداقية .

فاليهود فيه لا يسعون فقط الى توسيع رقعة أرض اسرائيل بحيث تمتد من الفرات الى النيل، وانما يسعون كذلك الى إحكام قبضتهم على العالم بأسره، عملا ببرتوكولات حكماء صهيون .

وفى سبيل تحقيق هدفهم هذا لا يتورعون عن استعمال أحط الوسائل والاساليب .

ومما يعرف عن تلك البرتوكولات أن أحدا لم يسمع بها، الا فى مستهل القرن العشرين عندما جرى نشرها داخل روسيا القيصرية سجن الشعوب فى ذلك الزمان (١٩٠١) .

وكان الغرض من النشر إثارة النعرات العنصرية والدينية ، وذلك لصرف أنظار شعوب القيصرية عن قضية المطالبة بالحرية والاستقلال .

وأول ذكر لتلك البرتوكولات فى الفيلم جاء على لسان عبدالغنى درويش، استاذ التاريخ ، ووالد الشهيد ويؤدى دوره محمود ياسين وذلك فى أثناء مساجلة حامية بفندق هيلتون بطابا، جرت بينه وبين الدكتور يوسف استاذ علم الاجتماع فى إحدى الجامعات الاسرائيلية، ويؤدى دوره «فاروق الفيشاوى» وسرعان ما تأيدت مقولة ابى الشهيد عن تلك البرتوكولات وتأكدت، عندما اعترف ذلك الدكتور الاسرائيلى فى لحظة نشوة ، بأن

وأخرى جادة واعية

هيمنة اليهود على العالم هي المراد .

لعنات وإغماءات

ومن مظاهر الغلو الاخرى ، مسلك كل من رتيبة أم الشهيد وتؤدى دورها رغدة وابى الشهيد فهى لا تكف عن النواح على ابنها الذى قتله اليهود غدرا قبل عشرين عاما، فى أثناء حرب الأيام الستة.

ولا تكف عن صب اللعنات على القوم الكافرين من بنى اسرائيل .

وإذا ما لمحت نجمة داود حول عنق رجل أو إمرأة أغمى عليها ، أو أصابتها حالة غثيان .

وهو أى أبو الشهيد ما أن عرف أن الدكتور يوسف اسرائيلى حتى أصيب بحالة دوار ، أعقبتها حالة قيء فى دورة مياه الفندق حيث تعقبه ذلك الدكتور ، متذرعا بغسل كفيه اللذين ما أن مسهما الماء حتى تحول فى نظر ابى الشهيد الى دماء .

ونفس الغلو نراه متمثلا فى مسلك طارق شقيق الشهيد ويؤدى دوره خالد النبوى .

فما أن قام بانقاذ ليزا الفتاة الاسرائيلية من غرق أكيد حتى أغرته بمعسول الكلام ، وحتي هام بحبها ناسيا حبيبته المصرية وتؤدى دورها حنان ترك.

وما أن عرض عليه الدكتور يوسف ابو ليزا أو عمها لست أدرى وظيفة فى اسرائيل بمرتب شهرى قدره عشرة آلاف دولار حتى ضحى بالوطن والاهل والخلان .

طريق جهنم

وفى نهاية مفتعلة أشد افتعال اذا به، اى طارق يعود عائما فى الخليج الى حضن أمه وأبيه، مضحيا من أجل الوطن العزيز بآلاف الدولارات ، وبفرصة ذهاب ذهبية الى أمريكا أرض الاحلام .

والأكيد أن كل هذا الغلو وغيره كثير قد اساء الى الفيلم ، والأهم اساء اساءة بالغة الى قضية عادلة جوهرها الامتناع عن التطبيع مع اسرائيل حتى ازالة آثار العدوان والحق انه ليس عندى ما أقوله سوى الحوقلة وترديد المثل القديم، الطريق الى جهنم مفروشة بالنوايا الحسنة !!

والآن ، وقبل التطرق إلى الفيلمين الأمريكيين وكلاهما عن الرئاسة الامريكية، وما تلوكه الالسن حولها من اتهامات قوامها الانجراف الى الانحراف والفساد، أرى من المناسب القاء بعض الضوء على ما حدث لمؤسسة الرئاسة بالولايات المتحدة فى أثناء العقد الأخير من القرن العشرين.

من المعروف عن تلك الرئاسة انه كان لها والى عهد قريب هيبة وجلال .

فرؤساؤها ، بدءا من جورج واشنطن وانتهاء بجورج بوش كانوا محل احترام وتوقير .

حقا ، كانوا يتعرضون من حين لآخر

لانتقاد سياستهم الداخلية والخارجية على نحو شديد اللهجة والاستهجان .

ولعل خير مثل على ذلك انتقاد سياسة كل من ليندون جونسون ، وريتشارد نيكسون الاول بمناسبة التورط فى مستنقع فيتنام وكان أهم المنتقدين لسياسته الخارجية الصحفى اللامع والتر ليمان .

والثانى بمناسبة فضيحة ووترجيت التى انتهت به مستقيلا ولا أقول مطرودا من فردوس البيت الابيض .

وأن تتعرض سياسة الرئيس الامريكي للنقد الحاد لامر طبيعى فى دولة ديموقراطية يسودها حكم القانون .

فالديموقراطية كما يعرف عنها، انما تتميز على ماعداها بانها تجعل سلطة الحكم قابلة للنقد والمحاسبة والتغيير وأيا ما كان الامر فقد استمر الاحترام والتوقير ، لرئيس الولايات المتحدة لقرنين أو أكثر من عمر الزمان وذلك الى إن حدث شيء لم يكن فى الحسبان هو فوز ويليم جيفرسون كلينتون فى انتخابات الرئاسة قبل سبعة أعوام .

الفتنة الكبرى

فمع دخوله البيت الابيض وممارسته سلطات الرئيس من المكتب البيضاوى أخذت الشائعات تنتشر حول استغلاله النفوذ ، مع زوجته هيلارى وقت أن كان حاكما لولاية اركنسو فضيحة (وايت ووتر) وحول تهربه من التجنيد ، وتعاطيه مخدر الماريوانا، وهو فى ريعان الشباب، وحول تسيبه الجنسى وجنوحه الى التحرش بالنساء .

وتحت تأثير تلك الشائعات أخذت منزلة مؤسسة الرئاسة ومعها منزلة الرئيس الامريكى فى الانحدار حتى وصلت الى الحضيض بافتضاح علاقته بالمتدربة ، مونيكا لوينسكى ، وما ترتب عليها من آثار بينها إحالته الى المحاكمة امام مجلس الشيوخ مجتمعا، تحت رئاسة قاضى قضاة المحكمة العليا .

وهذا أمر غير مسبوق فى تاريخ الولايات المتحدة فمنذ حرب الاستقلال والانسلاخ عن الامبراطورية التى تغيب عنها الشمس، لم يجر احالة اى رئيس أمريكى منتخب الى محاكمة من ذلك القبيل .

صرخات وهمسات

وبداية وقبل انكشاف أمر الفضيحة شغف مصنع الاحلام فى هوليوود بالشائعات المحيطة بكلنتون .

ولم يلبث أن أعد العدة لانتاج أفلام تعرض لحياة الرؤساء من منطلق الهزؤ والتحقير من شأنهم فى أغلب الاحيان.

وهنا أذكر على سبيل المثال ثلاثة أفلام «السلطة المطلقة» ، و«هز ذيل الكلب» «غراميات رئيس وصحته»، «ألوان أولية» .

والفيلم الأول أقدم الافلام الثلاثة، اذ



(رغدة) أم الشهيد فى فتاة من اسرائيل

يرجع تاريخ انتاجه الى عام ١٩٩٦ ، وهو من إخراج وتمثيل النجم كلينت ايستوود الذى لا يخفى انتماءه للجمهوريين .

أما الفيلمان الآخران فكلاهما من انتاج عام ١٩٩٧ .

والأول من اخراج «بارى ليفنسون» وتمثيل روبرت دى نيرو ، وداستن هوفمان.

والثانى من إخراج مايك نيكولس وتمثيل ايما ثومبسون و جون ترافولتا واول ما يلاحظ على مخرجي الافلام الثلاثة إنهم جميعا قد سبق لهم الفوز بالاوسكار ولأنه لم تتح لى فرصة مشاهدة هز ذيل الكلب حيث أنه لم يجر عرضه عندنا حتى الآن فسأكتفى بالكلام عن فيلمى ايستوود ونيكولس .

واختيار عبارة السلطة المطلقة اسما لفيلم ايستوود تعنى الكثير .

فبها تبدأ جملة مفيدة تنسب الى الشاعر وليم شكسبير وتجرى على النحو الآتى «السلطة المطلقة تفسد مطلقا» .

أم الجرائم

والسؤال الذى يرد على البال ما هى علاقة الفيلم بكلينتون وأفعاله المشينة التى هزت العالم ولا تزال ؟.

السلطة المطلقة ، والحق يقال انما يدور وجودا وعدما حول جريمة بشعة اقترفها رئيس أمريكى من صنع الخيال اسمه آلان ريشموند ويؤدى دوره النجم

جين هكمان الفائز مرتين بالاوسكار وأحداثه تبدأ هادئة لا علاقة لها بالسياسة والبيت الابيض، لا من قريب ، ولا من بعيد.

فلوثر ويتني بطل الفيلم ويؤدى دوره ايستوود واحد من ابطال الحرب الكورية.

ومع ذلك فقد تحول من بطل الى لص مجوهرات ، متعته الفن والنبيذ ومصاحبة الجميلات .

وها هو ذا ، قبل أيام من الاعتزال ، قد قرر وداع اللصوصية بضربة معلم توفر له حياة لذيذة تجنبه مخاطر الاستمرار في ممارسة مهنة صفر من الأمان .

وسرعان ما نراه متسللا الى قصر منيف في أثناء غياب صاحبه البليونير والتر سليفان مع زوجته الشابة بعيدا في جزر البهاماس .

وبينما هو ، بعد قيامه ليلا بتعطيل أجهزة الانذار داخل حجرة نوم البليونير، يغرف من الاحجار الكريمة، والعملات النادرة والدولارات ما يشاء ، وبغير حساب.

رجل وامرأة

إذا به يسمع أصواتا واذا به من مخبئه يرى رجلا وامرأة يدخلان الحجرة ، وهما من السكر يترنحان.

وما هي إلا لحظات حتى استبان له إن الرجل ليس الا رئيس الجمهورية يعربد مع امرأة البليونير. ولأمر ما ، هو سادية الرئيس انقلب اللعب والهزار الى شجار انتهى بعد صرخة استنجاد من الرئيس الى موت المرأة اللعوب برصاص حرسه الخاص .

أما كيف حاول الرئيس مع مساعديه اخفاء معالم الجريمة وكيف انكشف المستور فذلك ما يحكيه الفيلم بتفصيل قوامه التشويق .

ولن أعرض لأى من أحداثه بالتفصيل مكتفيا بأن اقول أن الرئيس عوقب على جرمه عقابا شديدا .

الصعود الي الهاوية

ومدار الفيلم الثاني غراميات رئيس ليس رئيس الولايات المتحدة وانما أحد المتطلعين الى الفوز بترشيح الحزب الديموقراطى لمعركة الرئاسة فجاك ستانتون في الفيلم ويؤدى دوره ترافولتا لايزال حاكما لاحدى الولايات الامريكية .

و حتى يصعد من حاكم ولاية الى منصب رئيس الولايات عليه أن يخوض معركتين رئيسيتين الاولى ضد منافسيه داخل الحزب المتطلعين مثله للفوز بالترشيح .

فاذا ما كتب له الانتصار فيها خاض معركته الثانية ضد مرشح الحزب الجمهورى أو أى حزب آخر، وذلك من أجل الفوز بالرئاسة لمدة أربعة أعوام .

والفيلم لا يتناول الا أحداث المعركة

الاولى التى تنتهى بانتصار ستانتون على خصومه المنافسين له داخل الحزب .

وشخصية ستانتون كما رسمها سيناريو ألين ماى المأخوذ عن قصة للصحفى جوكلاين تشبه الى حد كبير شخصية الرئيس كلينتون

الأصل والصورة

وترافولتا فى تقمصه لتلك الشخصية ، سعى جاهدا الى تقليد كلينتون في كل شيء حتى ادق التفاصيل .

قلده فى حركاته ، فى تصرفاته فابتسم مثلما يبتسم ، وأكل بنهم مثلما يأكل وتكلم بنبرة مثلما يتكلم .

ولكن شيئا واحدا لم يستطعه ترافولتا، ذلك الشيء هو تمثيل ما فى شخصية كلينتون من بعد ثقافى عميق بدونه ما كان فى وسعه الفوز برئاسة أغنى وأقوى دولة فى عالمنا لا مرة واحدة مثل بوش وانما مرتان مثله فى ذلك مثل إيزنهاور ، ونيكسون وريجان .

والسؤال لماذا هذا الجهد الذى بذله ترافولتا من أجل تقليد كلينتون بالذات دون غيره من الرؤساء الشيء الاكيد أن اصراره على تقليد كلينتون انما يرجع الى أن جون كلاين صاحب القصة المأخوذ عنها الفيلم كان أحد خبراء الدعاية فى أثناء حملة كلينتون من أجل اختياره مرشحا عن الحزب الديموقراطى ، قبل ثمانية أعوام .

حكمة التغيير

وقد ضمن القصة تجربته مع كلينتون أثناء تلك الحملة مع ادخال بضع تغييرات طبيعية من بينها تغيير اسماء المشاركين فيها ، فمثلا استبدل اسم جاك ستانتون باسم كلينتون واسم سوزان ستانتون، باسم هيلارى.

ولأن القصة كاشفة ، ولا أقول فاضحة، لاشياء كثيرة فى سيرة سيد وسيدة البيت الابيض فقد آثر مؤلفها أن يجرى نشرها دون ذكر اسمه ، ولا حتى اسم بديل .

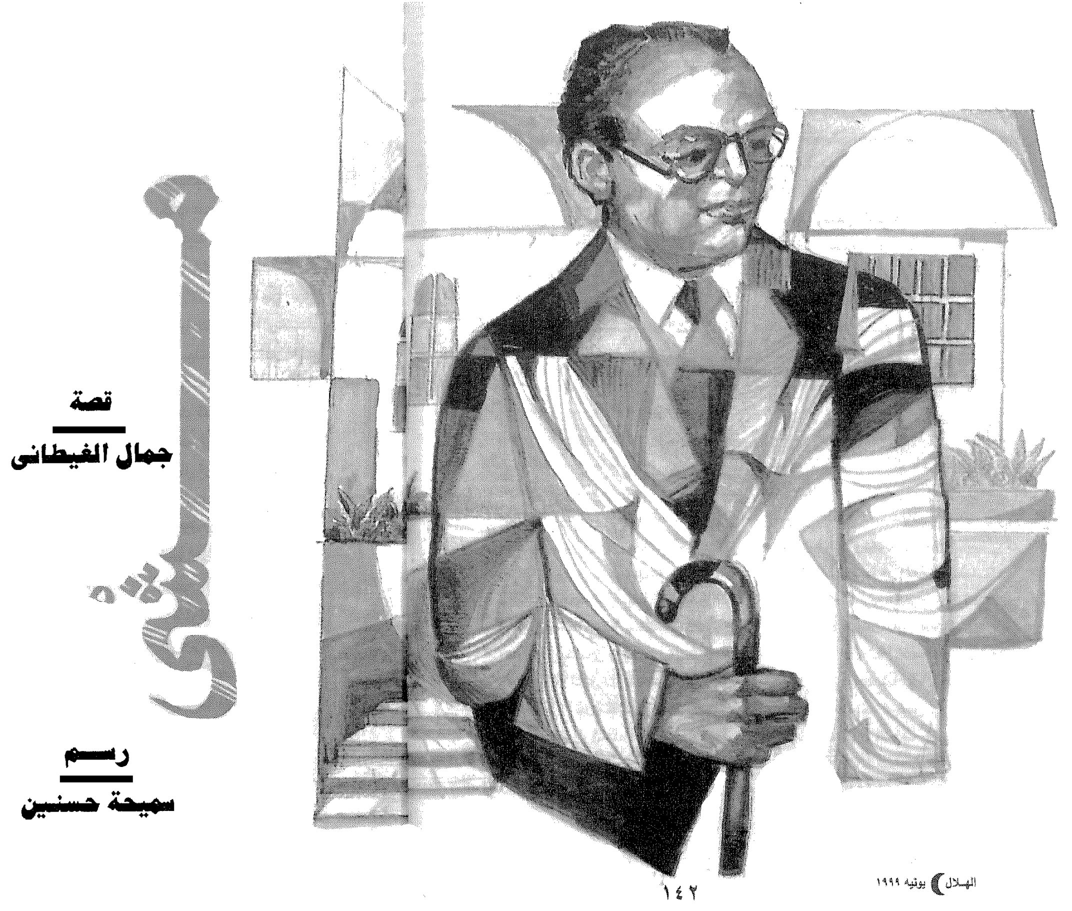
وهكذا بقى اسم مؤلفها مجهولا، ومحل تخمين وسائط الاعلام ، حتى تم شراء حق ترجمتها الى لغة السينما .

وكان المشترى المخرج نيكولس الذى دفع ثمنا لها مبلغا جاوز الثلاثة ملايين من عزيز الدولارات .

وهو فى ترجمته لها ، قد راعى ألا يكون الفيلم جارحا للرئيس .

ومن هنا كثرة الحذف والتخفيف .

ومع ذلك فالفيلم جاء دامغا لحمى السباق الى السلطة ، للاستهانة بالقيم وللتشدق بالمبادىء السامية، مع خيانتها فى أكثر من حين..



قصة

جمال الغيطانى

رسم

سميحة حسنين

"

خرجت من باب الفندق متنسماً ، مشرعاً لتلقى كل آت ، تائقاً للملامح المألوفة والمجهولة عندى ، كل ما تدركه حواسى حميم ، مألوف وإن جهلت بعضه ، أو استعصت على التفاسير، المكان هادىء ، الهواء جاف رغم قربه من حافة البحيرة ، عند الناصية القريبة درت مع البنايات القديمة نسبياً ، رأيت عمارات المشروع كما يسميها العاملون وسكان الناحية ، أرض خلاء منذ زمن قديم ، لم يقدر أحد على الحفر فيها أو دق الأساس لأى بناية لاحتوائها كما قيل على آثار قديمة تمت إلى العصر الحجرى ، ما قبل عصر الأسرات وحتى الآن توجد لافتة واضحة لكل عابر تحذر من الاقتراب لتبعية المنطقة لهيئة الآثار . غير أن

نفوذ الشركة التى أسسها عدد من الشخصيات المتنفذة كان أنجع وأقوى ، خططوا وأقاموا الأسوار ، ونظموا حملة إعلانية ، وسووا أمورهم مع الهيئات التنفيذية ، أطلقوا أيديهم وخلال عامين ظهرت تلك المنطقة الحديثة ، المقسمة بعناية، بيوت ذات ارتفاعات متساوية ، خمسة طوابق لكل منها ، مداخلها فسيحة تتقدمها حدائق صغيرة ، تنافس السكان فيما بينهم فبثوا الشجيرات وتعهدوا الزهور حتى تعجب السكان القدامى وأقدموا على التجول فى الشوارع المتوازية المتقاطعة بحذر

المشروع مشيد باستطالة ، ثمة شارع رئيسى يتخلل الناحية ويصل إلى حافة أرض خلاء تقع إلى الغرب ماتزال مسورة ، ولم يقطع أحد بوضعها ، قال موظف الاستقبال فى الفندق إنها تضم جزءا من غابة متحجرة وضعت تحت حماية اليونسكو مباشرة ، وقال من يأتينى بطعام الإفطار إنها ملك لرجل قوى النفوذ ، شديد البطش ، متمكن ، لكنه مشغول ، يظهر دائما فى التليفزيون ، يبدو متجهماً، ينوء بأثقال المسئولية . الأرض مسورة بأسلاك شائكة ، تقع ناحية الغرب، تتناثر عبرها نباتات عشوائية بعضها يشبه الصبار ، والآخر أجهله ، تتدرج فى النزول حتى تختفى قرب البحيرة وتتيح بذلك رؤية الخلاء الأجدب الممتد إلى الغرب.

لم أكن بحاجة إلى العصا ، لكننى أمسكت بها امتداداً للعادة التى استمرت أكثر من شهرين، إضافة إلى خشيتى وقوع الدوار المفاجىء ، أو اقتراب كلب ضال ، الخلاء المحيط فسيح ، قصى غرباً وشرقاً حيث الجبال التى تحوى محاجر الجير وأنواعا من الرخام الأبيض النادر . لم أصحب زوجتى التى أبدت قلقاً ، لكننى امتثلت تماماً لنصائح الطبيب . قال إن المشى يجب أن يتم بمفردى ، الحديث خلاله يكلف مجهوداً إضافياً لاداعى له . يرهق القلب طرى الجراح ، مازلت فى حاجة إلى دربة واعتياد على الخطو.

أبدأ متمهلاً ، معظم المرحلة الأولى هادىء ، كأنى أمضى إلى موعد مازال بينى وبينه فسحة كافية ، أرتب أمورى ، أحاول استيعاب الملامح ، من الأفضل أن يتعرف الإنسان على الأرض

التى يخطو فوقها ، معالمها ، المبانى المميزة ، تتسرب إليه خاصية الموضع ، يندمج شيئا فشيئاً ، أثار المشروع إعجابى ، واجهات جميلة تبدو متشابهة لأول نظرة ، لكن مع شىء من التدقيق يمكن ملاحظة الفروق الأساسية فى التصميم ، إضافة إلى ما أحدثه السكان من تعديلات ، لكنها فى الحقيقة غير مخلة ، ثمة التزام جماعى يندر أن يلحظ مثله فى مواقع مماثلة ، الهواء شفاف ، مغاير لما يبدو عليه فى الطريق الموازى الذى يطل الفندق عليه ، الحدائق الصغيرة منسقة، هادئة ، تتنوع أشجارها حديثة الغرس، وأزهارها، بعضها متفتح رغم برودة تلك الأيام من السنة، معظم الأبواب الرئيسية من زجاج مؤطر بالمعدن القوى ، الصلب ، تتخلل المبانى مساحات

قصة قصيرة

من فراغ ، بعضها شبه مستطيل ، لكنه لايمضى فى مستوى واحد متصل، إنما تنزل به درجتين أو ثلاثا ، ثم يستقيم .

ثمة ساحات مربعة أو مستطيلة تطل عليها النوافذ والشرفات الخلفية. أرجوحة أطفال بيضاء اللون ، أماكن انتظار العربات محددة ، منخفضة قليلا عن مستوى الطريق ، المداخل المؤدية جيدة الرصف ، ثمة نسمات هادئة لم استطع تحديد مصدرها تماماً لكنها بثت عندى هدوءاً وامتناناً غامضاً لكثيرين تتداخل ملامحهم، كل من أسهم بقدر فى وصولى إلى هذه اللحظات ، وذلك المكان ، كنت تواقاً إلى الخطو ، إلى السعى ، إلى التوثب غير أننى أكبح فتتبدل التعابير على ملامحى ، أصل إلى نهاية الطريق ، تنثنى استقامته مع سور الحديقة التى تحيط البناية الأخيرة من ثلاث جهات . تشرف على الأرض المسورة ، أرى انطلاقة الفراغ ، الشمس المكتملة ، الوهاجة ، أحاول التحديق لجزء من الثانية غير أننى أرتد على الفور . يعشينى الضوء ، أحيد صوب زرقة السماء الصافية تماما ، تقترن باللون اللازوردى الذى مررت به أثناء إفاقتى ، مع عبورى مراحل الوفادة الأتم ، أنسبه إلى درجات الأزرق تجاوزاً ، ذلك أننى لم أعرف له مثيلاً ، ليست له مرجعية ، حتى ولا تلك المنبسطة ، الحاوية .

أستدير إلى الطريق الموازى ، ألاحظ بعض المطبات الصناعية ، لابد منها للحد من سرعة

المندفعين أثناء القيادة ، خاصة من الفتيان ، المكان لا توجد به نقاط مرور ، بل إنه خلو من أى شرطى ، هكذا شأن المناطق الجديدة فى البداية ثم يفد الضباط والجنود فيما بعد ، تبدو تفاصيل البنايات مغايرة، لابد أنه نموذج آخر ، تختلف المساحات الداخلية ، ولكن العناية بادية ، وعين النظافة سارية ، حافظت على معدل توالى خطواتى ، عند نهاية الطريق ومع بدء عودتى إلى الموازى سأزيد قليلاً ، يمكننى الآن تحديد الوقت الذى تستغرقه لفة كاملة حول المشروع ، مهما أقدمت فإن حذراً خفياً يبطىء حركتى ، لكن تعرفى الكامل على الموقع سيجعلنى أكثر جرأة ، رغم خلو النوافذ والشرفات من أى شخص، غير أن وجودهم بالداخل مدرك ، ثمة

قصة قصيرة

حضور يضفيه البشر على البنايات حتى وإن لم يظهروا للمارة أو المتطلعين من الخارج ، الستائر المسدلة ، أصداء الضجة الخافتة ، الحركة، حتى سكون القوم وهجوعهم يبدو من خلال النوافذ الموصدة والجدران الصماء ، كل ما أرى يبدو مناسباً وموائماً ، مع تعاظم الزحام وزيادة التلوث فى العاصمة المكتظة كان صعباً أن أجد المكان الملائم لتلك الفترة التى يجب أن أعبرها بدقة وبغير حيدة عما قدره الطبيب المعالج .

موسيقى تنبعث من مكان ما ، لا أقدر على تحديده ولكن العزف يبدو منبعثاً من داخل إحدى شقق تلك البناية القريبة من الخلاء الموازى.

تعثر النغمات ، إعادتها . يعنى التدريب ، ربما بداية أو مجاهدة ، كلاهما مثير للحنين ، باعث لصور غامضة ، حددت النقطة التى بدأت عندها أصغى إلى الأنغام، يحتاج سماع الموسيقى منى إلى تركيز يقتضى الانقطاع والتفرغ، تماما كالقراءة . نصحنى الأصدقاء بوضع سماعتى جهاز تسجيل صغير ، أقطع بهما ملل المسافة ، كنت أتأمل تلك البنية التى تدخل فى نفس توقيتى إلى غرفة العلاج الطبيعى، تتخذ موقعها فوق آلة السير ، تبدو مستغرقة تماما ، عندما أصغت إلى الطبيب فى اليوم السابق على سفرى يتمنى لى طيب الرحلة ، فوجئت بانفعالها المفاجىء ، تهلل ملامحها، ابتسامتها المشمسة .

«تعود غداً إلى الوطن..»

قصة قصيرة

«نعم .. أصل بعد غد في الرابعة والنصف..»
هزت رأسها مرات .
«رائع .. رائع .. حظ طيب ..»
لم نتبادل كلمة واحدة حتى ذلك الحين ، كأن أمرها كله متعلق بي . لوحت بيدها ، ودعتني حتى خروجي من الغرفة ، ومثلت ملامحها عندي إلى الأبد ، كانت ترتدي قميصا أزرق تتداخل به نقوش بيضاء ، الزي الموحد للرجال وللنساء هنا في الطابق العاشر حيث يقضي المرضى الأيام العلاجية بعد صعودهم من غرفة الرعاية المركزة في الطابق السابع . أستعيدها في هذه المنطقة النائية بامتنان وفضول كلي ، ما اسمها؟ أين هي الآن؟ أتجاوز الناصية المؤدية إلى الفندق حيث أقيم ، إنها المرة الثانية التي أخطو عبر هذا الطريق.

لكن..
هل رأيت هذا البناء ؟ هل كان قائما هنا ؟
سور يحيط بحديقة تطل منها بعض الأشجار، قدرت إعادة غرسها ، إلا إذا كانت من الأنواع سريعة النمو ، مبنى من ثلاثة طوابق ، مستطيل ، كيف لم ألحظه؟
يتوسط السور باب من حديد ، لافتة فوقه ، المدرسة الفندقية الخاصة، لا ألمح أحدا ، أسرع الخطى ، فلأحاول الحفاظ على الإيقاع ، إذا لاح ارهاق أتمهل ، إذا استمر أتوقف على الفور، كافة التعليمات ماثلة ، تقف امرأة شابة في شرفة بالطابق الأول ، كيف أبدو لها ؟، لا يعلق بصري بها إلا جزءا من الثانية ، أقترب من نهاية البيوت ، المنحنى ، الأرض المسورة التابعة لهيئة الآثار .
أتمهل مضطراً ، السماء رمادية ، أقرب أو هكذا تبدو ، تغيرت درجة الضوء ، الأفق أنأى ، والمباني التي كانت تبدو متقاربة الآن متباعدة ، غيوم وافدة ، عالقة ، متوسطة الارتفاع ، متفرقة ، تميل الشمس إلى الغرب ، لا يقتصر تأثير الضوء على إيضاح انكسار النهار واقتراب العصر ، لكنه طال سائر المرئيات ، كأني أسعى في منطقة أخرى مغايرة لتلك التي عبرتها منذ فترة قصيرة ، كافة الواجهات تغيرت ، غمرتها ظلال غامقة ، دخل على حضورها شيء! كما اتخذت هيئتها وضعاً مترقباً ، هل أضفى حالتي على الموجودات ؟
ربما ..

الموسيقى مجهولة المصدر .

استعيد لحظات جد بعيدة ، عندما كنت أقطع وسط المدينة وحيداً في أيام العطلات قاصداً المقهى بعد الظهر ، انبعاث موسيقى هادئة ، دثرتها الستائر والأبواب الموصدة ، لكنني قادر على تحديد موقعها وقتئذ، كانت تسرى من داخل كنيسة ، مدخلها شاهق ، جدرانها من حجر، تتبع طائفة مقرها بلد أوروبي ، مازلت أحتفظ باللحن وما يستدعيه ، أما الواجهات فترسل عندى أسى وحنينا إلى أزمنة لم أعشها أو لم أمر بها بعد، هذا مغاير لما عرفته خلال العام الأخير ، ماتزال نظرتي وداعية ، ومثولي ملوحا لكافة ما أراه ، إذا نزلت مكاناً يداخلني يقين أنها المرة الأخيرة ، وإذا مررت بلحظة يشي فيها القلب

قصة قصيرة

بتجاويه ، أصغى إلى دقاته الواهنة ، لكم تعثرت وبدلت من إيقاعاتها في الأيام التالية للعملية . قالت صاحبتي .

«حاول أن تنسى ذلك..»

بتلقائية أجبت

« لا أستطيع ..»

مع بلوغي الحد الشرقي للمشروع أبتسم، بالتأكيد أنا أفضل حالاً الآن ، أتوثب ، بل إنني على وشك أن أبلغ حد الجرى ، لكن أحاول الاحتفاظ بالإيقاع الذى بلغته ، ألا أستجيب للاغراءات الطارئة ، بعد بلوغي الحد الغربي أتدرج في التمهل حتى أبلغ ما بدأت به ، قطعت المكان الآن مرتين ، أبدأ الثالثة بالانحدار غرباً ، فعلا .. لم يكن اختيار الطبيب لهذه المدينة عبثاً ، الهواء مغاير ، فيه طزاجة ، من المهم المشي في فراغ نقى ، ترتفع نسبة التلوث في القاهرة، يصبح المشي مجهداً ، مرهقاً ، هنا يمكن أن تطول المسافة ولا تقتضى مجهوداً ملحوظاً ، بعض النوافذ مفتوحة . نساء يقفن في الشرفات ، عددهن ملحوظ ، يجرى شاب طويل وإلى جواره كلب ضخم مشدود إليه برباط وثيق ، أتمهل لحيظة ثم أستأنف ، أخشى الكلاب ، المدرسة الفندقية ، إذن لم ألحظها في المرة الأولى ، لكن الباب مفتوح ، أمامه يجلس حارس يرتدى جلباباً وعمامة ، إنه خفير، ينظر إلى نقطة ما. و لم يتطلع إلىّ رغم ندرة المارة .

سأنتبه هذه المرة إلى المعالم البارزة التى لايمكن أن تتغير في وقت يسير . رغم أن المباني

تبدو في عمومها متشابهة لكن مع التدقيق يمكن ملاحظة بعض الفروق ، وربما كان الأمر مختلفاً تماماً من الداخل ، لاحظت مثلا أن المداخل لاتتشابه ، لكل منها وضعه في مواجهة فراغ الطريق ، الممرات المؤدية بلاطها مختلف واتساعاتها مغايرة . لا يمكن تحديد تلك اللحظة التى تمثل فجأة من الذاكرة . يصعب تحديد اسم اليوم ، أو السنة حتى ، لكن درجة الضوء ناصعة ، ومياه النافورة بيضاء ، تتدفق بترتيب محكم ، منسابة ، ميدان الأوبرا القديم ، بالتأكيد .. يوم جمعة . من يدرى ؟ ربما .

أقترب للمرة الثالثة من نهاية الطريق عند الحد الغربى أستدير إلى الاتجاه الجنوبى ، عند بلوغى الناحية الموازية يجب أن أهدىء خطاى ، تقدمى يجب أن يكون أقل اندفاعا ، يستحسن أن يستمر المشى لدورة أخرى ، وإلا أضطر إلى توقف مفاجىء ، غير أننى أتمهل قبل بلوغى الناحية الأخرى . من هنا يمكن رؤية انطلاقة السماء ، متابعتها فى امتدادها، كأن غيمة ضخمة حجبت الضوء مرة واحدة ، مع أن السماء خلو تماما حتى من الغيوم الصغيرة. غمق النهار حتى لم أعد قادراً على رؤية الأفق الذى اندمج بالأرض ،وحدتهما العتمة ، إدراكي لوجود السور الذي يحد أرض الآثار أكثر من قدرتى على تمييزه ، ما يدهشنى عدم الاتساق بين ما أقطعه من وقت خلال الدورة الواحدة ، وما يحدث من تغيير فى الوقت ، ماذا يجرى ، وأى إيقاع يحكم هذه المنطقة ، أعرف المكان إلى حد ما ، بدأت أضواء خافتة تلوح من وراء النوافذ ، لكن ماتزال مصابيح الطريق مطفأة ، كنت مضطراً إلى التمهل، التطلع إلى الأرض خشية الانزلاق من فوق الرصيف ، أو حفر مفاجئة ، بدلاً من النظر إلى الواجهات ، ومحاولة تخيل ما يجرى من حيوات وراء تلك الجدران، تأثرى بوقفة أننى تنظر إلى اتجاه ما.

تهرع دقات قلبي ، أبطىء فيركض النبض ، وينالنى وهن غامض ، أصعب ما يقضى الام غير معتادة ، لكل جسد قاموس مواجعه . أما المفاجىء منها فمثير للخشية ، أغلقت المداخل، ولاح الفراغ شتوياً مع أننا لم نبلغه بعد ، مازالت أيامه بعيدة ، لم أكن قادراً على التحديد .

● كتاب :
حوار الاستشراق

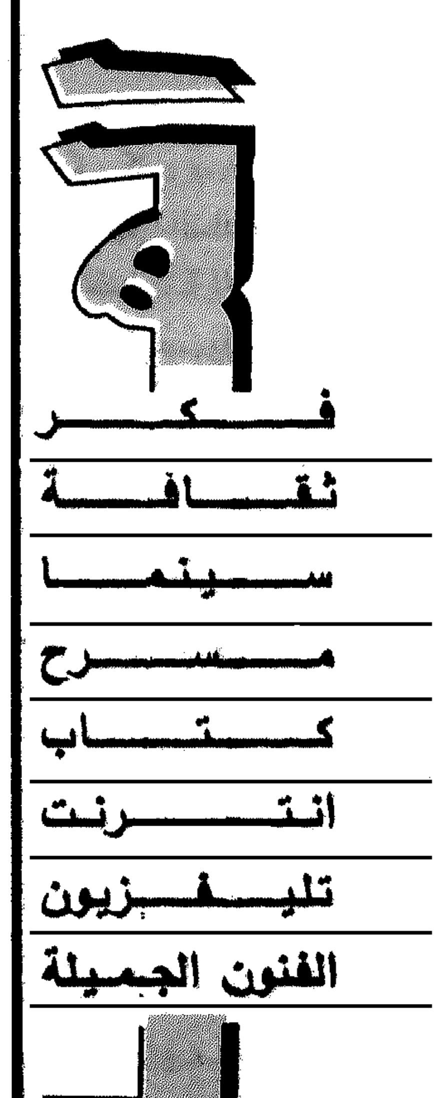
سيظل الاستشراق موضوعا جدليا، مؤرقا، لايتفق حوله كافة الأطراف، سواء فيما يتعلق بدوره الثقافي، أو الاجتماعي، لدرجة أن نقد الاستشراق قد بلغ في ثقافتنا العربية إلى مرحلة بعيدة المدى، وصار على جدول أعمال كثير من الباحثين العرب والشرقيين، الذين ينتمون إلى اتجاهات ومواقع فكرية وسياسية متباينة.

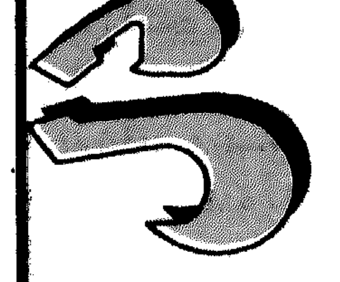
ولذا، فالاستشراق مادة بحث مهمة، لتقديم المزيد من الكتب، يحمل كل منها وجهة نظر صاحبها، ومبرراته، وتفنيداته، وتطلع علينا دور النشر بين حين وآخر بالجديد من الكتابات ومن أحدثها، وليس آخرها الكتاب الذي أعده الباحث أحمد الشيخ «وهو غير الروائي المعروف بهذا الاسم» الذي عاش في فرنسا أكثر من عشرين عاما، حيث التقى بالعديد من المستشرقين المعاصرين، وأغلبهم من فرنسا، وراح يحاورهم، ثم نقل هذا الحوار إلى الورق، وجمع كافة الحوارات في كتاب بعنوان «من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: حوار الاستشراق».

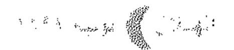
ومن الواضح أن الكاتب قد صنع مائدة مستديرة صنعها بنفسه مع كتاب لهم مكانتهم في هذا العالم، التقى بهم على فترات متباعدة، وقام بترتيب اللقاءات معهم بشكل عفوي، كي تكون في النهاية حوارات تعبر عن وجهة نظر قائلها، مثل جاك بيرك، وماكسيم رودنسون، ومحمد آركون، وأندريه ميكيل، وايف لاكوست، وجان ديجو، وعددهم تسعة عشر باحثا في مجال الاستشراق.

وأهم مافي كتاب الشيخ أنه توقف عند الجيل المعاصر من المستشرقين، الذين لايزالون يعملون في هذا الحقل، وهم يمكن أن ينفوا عنهم صفات التصقت بسابقيهم، بأن لهم أهدافا استعمارية، ولكن البعض يحاول المساس بالعقيدة، بينما يرى البعض الآخر أن «الإدراك الديني تجربة روحية حدسية»، ولايمكن التقاطها بالمناهج التحليلية والنقدية، وهؤلاء الذين يكونون خارج نظام ديني لايمكنهم اقتناص دلائل التجربة التي يمارسونها داخل هذا النظام.

ولاشك في أن الذي دفع بالكاتب إلى إجراء هذه الحوارات، هو انطلاق الحوار النقدي حول كل من الاستشراق والاستغراب في الفترة بين منتصف عام ١٩٨٦ وحتى أوائل عام ١٩٨٨،









حيث عقدت ندوات ومؤتمرات وظهرت كتابات جديدة، تتناول العلاقة بين الاستشراق والاستغراب.

وقد جاءت عبارات مهمة في أحاديث البعض، من المهم التركيز عليها، فروجيه ارناليز يردد أن المستشرقين يتم انتقادهم لأنهم غير مسلمين.

● ملتقى الثقافة:

الشعر دون تصفيق حاد

لن أقول «الشعر يأتي من الجنوب»، أو يأتي من الشمال، او يستقر وينمو ويترعرع في القاهرة، لأن الشعر في أي مكان هو الشعر، لكن الذين يتحركون ويحركون كتاباتهم في ظل إعلام واسع، وصحافة منتشرة، وندوات تعقد هنا وهناك، دون أن ترقى هذه الكتابات الشعرية إلا إلى الوصول إلى طبلة الأذن بالكاد، هؤلاء لهم شأن آخر غير الشعر.

هذه مقدمة أراها مناسبة لما شهدته في محافظة قنا من احتفاء بالثقافة، وعلى وجه الخصوص «الشعر»، وعلى مدى يومين سمعت أكثر من ثلاثين شاعرا يقرأون بحماس شديد، هذا الحماس الذي يكتسى بقدر من الريبة والرهبة من شعراء جاءوا من القاهرة للاستماع لهم، وربما الحكم عليهم، وربما الانصراف عن أشعارهم بعد مشقة السفر التي تكبدناها ـ جيئة وذهابا ـ أو نسيان ما قرأوا، أو إهمال ما أنشدوا

على مدى يومين حمل الشعراء قصائدهم وقرأوها في جلال يليق بحضرة الشعر حينما يكون، وفي قاعة تعرف جيدا الاحترام، والإنصات، وتسليم الأذن والروح تماما لما يقال حتى لو كان الذي ينشد في الثامنة عشرة من عمره، كما لوحظ أن شبابا كثيرين ومجيدين حقا، لايخطيء الواحد منهم في القراءة من حيث القواعد اللغوية، وقصائد تغلب عليها الحالة الإيقاعية، وحالة الإنشاد، لاقتراب هذه المدن أو القرى من حالات الطرب المستمرة مثل المولد والذكر والابتهالات الدينية، وغيرها لما يعطي لقصيدة التفعيلة الإيقاعية مساحة للانتشار والتحقق والتجويد أكثر من المساحة التي تتوافر لقصيدة النثر، لأنه ـ في تصوري ـ أن قصيدة النثر في أحد أوجهها تتمرد على حالة الطرب هذه من أجل تفتيتها إلى شظايا لا نظامية، ولذلك فقصيدة التفعيلة في القرى والنجوع والأقاليم التي لم تعمل حركة التمدين فيها

من الهلال
إلى الهلال

عملا كبيرا، هى بنت هذا الواقع ومنسجمة انسجاما كليا وطبيعيا معه. ويبقى شعراء «قصيدة النثر» فى هذه المواقع فى حالة تأثر ولهاث، وأحيانا تقليد لشعراء واقع آخر غير واقعهم، وتزداد حالة المثاقفة والمعاظلة الشعرية في هذه القصائد، ولكل قاعدة ـ بالطبع ـ استثناءات.

هذا الكلام يردده الشاعر أمجد ريان في ظل مناسبة بقدر كبير من طيبة القلب، وهو يطلق مصطلحات مثل «شعراء الحداثة»، و«شعراء مابعد الحداثة» فى سهولة يحسد عليها، وغالبا هذه السهولة ينزلق إليها نقاد كثيرون غير الصديق المخلص والمتفانى الشاعر أمجد ريان، وغالبا أن فريقا من الجمهور، يردد ويصدق مقولات النقاد، ولكن مالاحظته على الأصدقاء الشعراء والذين تابعوا الندوة بقدر كبير من الانتباه لم تنطل عليهم هذه المقولات والتنظيرات المحمولة إليهم من القاهرة، فى شكل محاضرات ودراسات، وهذا ما همسوا لى به، وعلقوا على كثير مما يقرأونه من دراسات فى المجلات المتخصصة، لنقاد كبار، وكانت ملاحظاتهم ذكية وحادة ومدهشة، لكن البعد والعزلة ـ قاتلى الموهبة ـ والضمائر القاهرية المستريحة، والتى تملك كل أدوات السلطة، والآذان التى لاتسمع، والعيون التى لا ترى إلا القريب والسريع الفائدة، كل ذلك لا يوفر أدنى اهتمام إلى هذه الطاقات والمواهب المهملة، لذلك سمعت عن شعراء موهوبين حقا، توقفوا عن الكتابة والإبداع، وقاطعوا المنتديات لإحساسهم بعدم الجدوى، والمدهش .

وأيضا الشاعر الذى يعتبرونه الأب الروحى للأجيال الجديدة هناك وهو «محمد نصر يس»، تكفى مشاركته بالحضور، رغم دوره المؤثر، والرجل الرقيق ـ طلعت صالح مدير القصر، والذى يحاول بقدر الإمكان أن يكون مثالا جيدا.

شعبان يوسف

حسن حنفى يقول نصف الحقيقة

فى واحدة من الندوات الأقرب إلى المعركة الفكرية، تناطح فيها مفكرون من فصائل مختلفة، هم أقرب جميعا إلى اليسار المصرى، عقدت لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة الشهر الماضى ٢٧ / ٤/ ١٩٩٩ - ندوة لمناقشة كتاب المفكر وأستاذ


د. حسن حنفى

من الهلال إلى الهلال

الفلسفة د. حسن حنفى، حوار الأجيال، الذى صدر مؤخراً عن دار قباء بالقاهرة، فى أربعة عشر فصلاً، خصص كل فصل منها لمناقشة أفكار أحد المفكرين، الذين أثروا حياتنا الفكرية وأضافوا إلى المكتبة الفلسفية العربية، مثل طه حسين وعبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود .. وآخرين، انتقاهم د. حسن حنفى للحوار معهم من خلال وشائج العلاقة التى تربطه بهم، ولو بعدت بينهم السنون .

شارك فى الندوة د. صلاح قنصوة والمفكر محمود أمين العالم ود. على مبروك ود. مجدى عبد الحافظ . وفى البداية أشار د. حسن حنفى إلى منهجه الذى اتبعه فى هذا الكتاب، والدافع إلى نشره، وأكد أنه درء للخطر الذى نسمعه بين الحين والآخر، على ألسنة البعض بأننا جيل بلا أساتذة، وحاول أن يثبت أنه لا يوجد جيل بلا أساتذة، بل يوجد تراكم تاريخى وفلسفى، منذ إنشاء جامعة القاهرة، وتدريس الفلسفة بها منذ عام ١٩٢٥ وحتى نهاية القرن العشرين . وأراد د. حسن حنفى أن يقيم حواراً مع هؤلاء المفكرين السابقين، عساه يكون حواراً يخلق التعددية فى ظل الخصومة القائمة بين التيارات الفكرية، من أجل إحياء الاتفاق على عقد اجتماعى موحد، وإن عزّ هذا الحوار، فنتحاور عبر الأجيال بلا تقييم، وبلا حكم بالصواب أو الخطأ، وإنما هو إعادة إنتاج، بمعنى: لو بعث طه حسين وأحمد أمين وعبد الرحمن بدوى، فماذا هم قائلون الآن؟. وحسن حنفى فى هذه الحوارات يتحدث بلسانهم بعد انقضاء العقود والقرون، ولولا السابقون ما جاء الأحدثون . هذه إعادة الإنتاج يراها د. صلاح قنصوه خطة حميدة، لأنها فى مصلحة القراء فى نهاية الأمر . لا جديد فيها إلا المقال الخاص بنصر حامد أبو زيد، الذى يخصص له مائة صفحة من خمسمائة هى مجموع صفحات الكتاب . وهذا البحث جاء عرضا ونقداً لأفكار أبو زيد، وليس تكريما أو احتفالاً به. إلى جانب فصل جديد عن المفكر الملاوى قاسم أحمد. أما بقية الأبحاث فقد جاءت على عجلة من أمرها.

ويستنكر د. صلاح قنصوه عدم السؤال عن المستقبل فى حوار الأجيال، كما يتهم د. حسن حنفى بالافلاس، الذى دفعه إلى إثارة الثنائيات التى على شاكلة الوافد والموروث، والأصالة والمعاصرة، وهى القضية التى ناقش حسن حنفى على أساسها نصر حامد أبو زيد، والذى يراه أنه تطور - أبو زيد - من البحث النظرى الخالص، إلى المجال اليومى، ومن هموم العالم إلى هموم المواطن. وكأن الاهتمام باليومى ليس مطلوبا من المشتغلين بالفلسفة، بل يرى حسن حنفى العيب فى أن ينتهى

الأمر بالمفكر إلى الكتابة فى الصحف والمجلات غير المحكمة .
أما المفكر محمود أمين العالم فهو يرى أن حسن حنفى صاحب مشروع حضارى متكامل، ويعبر عن مرحلة من مراحل التجديد فى الفكر الدينى والعربى عامة، ولا يقف عند تجديد الشريعة، بل يسعى إلى تجديد العقيدة نفسها، فهو يصف نفسه بأنه فقيه من فقهاء المسلمين. وأما الكتاب فهو امتداد لفكر حسن حنفى فى حواره مع هؤلاء المفكرين الذين اختارهم لقربهم من مشروعه الخاص، فى حين لم يعرض لمشروعات أخرى، مما يجعل القارىء يتساءل عن غياب الحوار مع سلامة موسى أو أمين الخولى أو خالد محمد خالد أو العدوى أو حسين مروة أو الجابرى أو مهدى عامل .. وهو ما يعنى أن الاختيار لم يكن اعتباطيا، بل كان السبيل للتعبير عن نفسه منذ البداية .
ويرى العالم أن الحجج التى ساقها حسن حنفى فى حواره مع طه حسين ركيكة ويرى فى قضية الانتحال غير الرأى العلمى الموضوعى. وفيما يخص دراسته عن عبد الرحمن بدوى فيرى العالم أن أحكامه فيها بالغة القسوة وفي منتهى التعسف، إذ لا يمكننا أن نقل من الجهود الجبارة التى بذلها بدوى فى الترجمات والتحقيقات، ولا تقل من مشروعه النهضوى، وهى كتابات أغنت المكتبة العربية، ولا ينبغى أن نحدد كما فعل حسن حنفى لأى مفكر ما يكتبه، ونفرض عليه اختيار رؤية معينة، ويخلص إلى القول بأن حسن حنفى افتقد الرؤية الشاملة فى تحليله لسيرة عبد الرحمن بدوى الإبداعية.

مجدى حسنين

● فن تشكيلى :

عندما ينظر لك الوجه .. هو يعرفك

كارميللو استرانو الناقد الفنى الإيطالى والفيلسوف فى علم الجمال يقول عن أعمال الفنان عادل السيوى «إن الأسطورة لديه هى ـ بألفاظ الفنان ـ ما يجب أن يعاد ابتكاره».
وهذا صداه والتعبير عنه موجود فى فكر الفنان الطبيب النفسى، وهاجر عيادات الأطباء ومصحاتهم، اختار هجرته إلى الفن والحياة وجعل عنوان معرضه الأخير الذى أقيم فى الفترة من ٧ أبريل إلى ٥ مايو بمجمع الفنون بالزمالك، وضم مجمل

الأعمال فى الفترة من ١٩٩٥ ـ ١٩٩٩ «وجوه».

والفنان نفسه يعترف: «تتهافت ملامحنا الآن فى حضور أى وجه قديم، وجه له مشاعر لحظة أخرى نستدعيها فقط كاستثناء»، وهذا الحنين الممض لوجه مضى «وطاقة حضور إنسانى نتباعد عنها بإصرار وبسرعة فيما يشبه الحماقة الجماعية» هو الذى يحاول السيوى أن يضع يده عليه.. يحاول أن يلم شمل الذات المغدور بها أو العصية أو المعاقبة على ما لا تعرفه.. البحث عن شىء لنتمسك به يؤكد إحساسا رحميا بالمتاهة، كما هو صائب عندما يسمى الوجه قشرة الروح، الوجه يسقط علينا أو نأتيه للتأمل، الزمن يتكأكأ عليه ـ وعلى الجسد ـ ثم يهبط كل شىء عبر الوجه إلى بئر الذات وتفور براكينها عليه بعد ذلك.. فنتذكر حتى من نصنفهم كوجوه عابرة أو مجهولة أحيانا.

توجد وجوه يأخذ منها عادل السيوى موقفا عقائديا وأخلاقيا.. ليست هى وإنما الذى تنتمى إليه.. الملوك. فى معرضه نحن لسنا بإزاء مايمكن وصفه فى أى تصوير على أنه بورتريه يقود إلى التعرف على الشخوص الممثلة «للملوك»، مثلا فى الملحمة التى تحمل هذا الاسم.

الوجه يسطع ببشارته.. عادل السيوى يثقب المرئيات لأنها تثقبه ويقدم مشهدية تلو مشهدية. وحين ننظر إلى وجوهه نرى انحيازه للثقافى والاجتماعى أكثر من النفسى بينما يفيض ـ خارج الأعمال الكبيرة ـ فى تأمله الساخر، يغوص فى النفسى الظاهرى.. من كثرة تصنيفات وأوصاف الوجوه هنا تقول لنفسك وماهو الوجه الذى تركه الفنان؟.

يقدم السيوى ست لوحات متقابلة ويمنحها اسما: «حكاية الملوك».

هناك الحكاية الأولى والحكاية الثانية وهكذا ليس بالمعنى السردى الشهرزادى تماما، لكنها مسلسل متصل رغم ذلك ويطلعنا داخل الوجوه.. بل يدربنا على أن نرى المخبوءات التى يطمسونها. وانكشفت له لأن «لكل ملك حكاية صغيرة».

ولايخطىء الرائى العلاقة بين الأيديولوجيا والجمال فى هذه الأعمال.

فى «المبتسمون» و«الضاحكون» يسخر منا.. بشكل صريح.. بل يكاد يكون معجبا وهو يتفرج، ونحن نستحق السخرية لكننا أيضا



من معرض الفنان
عادل السيوى

من الهلال إلى الهلال

نستحق الرثاء ولهذا يملك المحب ـ والفنان محب كبير ـ أن يسخر كما يريد لأنه يقوم قبلها بنقد الذات وهو مايعين على احتمال جداريته «الوجه ومابعده» التى أنجزت عام ١٩٩٧، وتغطى جدران قاعة كاملة من الأرض إلى السقف فى مجمع الفنون ـ باستثناء جدار واحد لأنه لا حائط هنا فهو المدخل الذى يفضى إلى القاعة. وقد رفع السيوى لوحاته على حامل عريض قدر الإمكان لتعويض النقص أو القصور فى القاعة، واستبدل على العمودين الجانبيين اللذين يقابلك أحدهما على اليمين فور الدخول وتنتهى إلى الآخر فى جهة اليسار وأنت تخرج فى سيمترية واضحة ـ استبدل الصندوقين الكرتون المغلقين بواقع صندوق لكل عمود أو ربع حائط كما فعل عند عرض العمل فى بينالى فينيسيا عام ١٩٩٧ بمرآة «للبداية والنهاية» بدت مقصوصة مثل أشكال ورق القص واللصق وذلك على شكل سيلويت انعكاسى لرأس رقبة أو وجه مرآة داخل إطار كرتون لتنظر، ويفاجئك وجهك وتكتمل الدائرة ـ الحياة ـ الارتداء من محاولة معرفتها ومعرفة الآخر وكل محاولات التواصل والسعى والتفتيش، أى كل مافى صندوق باندورا ـ إلى الذات، نكون فى أثناء هذا قد اجتزنا رحلة من التهشيم بمعنى التلاشى أو الملاشاة التى يفرضها علينا فى بعض أجزاء الجدارية والطمس والإعتام للملامح والتضبيب عبر الجدران الأربعة التى استخدم فيها الفنان خامات متنوعة على كرتون ومرايا وخشب لتوحى أيضا بالتشابه والتجاور والتكرار فى الرحلة، أما فى مجموعة «الرضا» ـ خارج الجدارية ـ أو صورة «وجه القمر» أو الأعمال الصغيرة المائية «الحسى»، «الشجاع» مثلا، فيهل علينا بالدفء، والغواية الحقيقية لهذا المعرض عندما تكتشف وأنت مازلت لم تنته من تأمل الصور كلها أن الاختلاف محسوس ومضىء وواضح فكل وجه يختلف تماما ـ رغم التشابه الخادع بالكاد ـ عن الوجوه الأخرى.

«الوجه ومابعده» احتفاء بالخامة التى يمسك فيها الصانع بهذا الكم من المرايا الصغيرة والفحم ليخلق فعلا بقايا وجوه اختار لها.. بل لكل وجوهه الاستطالة والمغالاة فيها، كما اختار لون الذهب الطاغى الحضور ولا أعرف هل هذا نتاج ـ كما يرى بعض النقاد ـ لتأثيرات من ألوان التاريخ الفرعونى التى نعرفها «الفيروزى والذهبى والأحمر»، نعم الذهبى هو اللون المهيمن الذى يسجنك داخله منذ اللوحات الأولى بعد أن تدخل لكنه مثلا يتعامل مع الأحمر والأزرق والأخضر ـ بندرة نسبية هذا حقيقى ـ ولكن ربما يشجع على أن نحسده.. على ذلك الهياج وكل ذلك الانتشاء العنفوانى بالصارخ

والقوى.

«الوجه ومابعده».

مابعده؟

لن أضع عندنا قريبا من اللانهائية من النقاط؛ لأن نظرة متأملة لهذا العمل كفيلة بأن تجعلك هادئا وغير خائف.. بل يمكنك.. حتى أن تغامر بالابتسام أمام ذلك المابعد.

السيوى الذى يقيم المعارض الفردية والجماعية منذ تفرغ للفن وحده فى عام ١٩٧٩ يستحق ماهو أكثر ـ حقيقة ـ من كلمة شكر.. يستحق ـ وبدون صخب ـ قبلة على الخد.

غادة نبيل

● دراما تليفزيونية

الدراما السورية فى مصر

عرضت القناة الثالثة بتليفزيون مصر مسلسلا سوريا من خمس عشرة حلقة انتهت فى السادس من أبريل ١٩٩٩ .. تدور أحداث المسلسل حول الطفل نبيل الذى توفى أبوه وتركه هو وأمه شبه معدمين.. تزوجت الأم بدافع الحاجة من سكير غليظ القلب عديم الخلق، فأذاق الأم واليتيم صنوفا من العذاب، ولم ينقذ هذا اليتيم إلا صديق للأب المتوفى صاحب شركة لإقامة المشروعات العمرانية، حرمه الله هو وزوجته من الأبناء، فأخذا هذا الطفل إلى بيته، ورعاه هو وزوجته أفضل رعاية، وأعادا إدخاله المدرسة فنشأ نشأة أفضل وواصل تعليمه.

فى هذه الأثناء ولدت هذه الزوجة ـ سلوى ـ ابنة أسمتها ـ ندى ـ نشأت مع الصغير نبيل وكأنهما شقيقان.. إلى أن تخرج نبيل فى كلية الهندسة وأصبحت ندى فى المرحلة الثانوية وهنا شعرت الأم سلوى بخطورة وجودهما معا، فعملت على إبعاد نبيل عن البيت، ونجحت فى ذلك وفى الوقت نفسه أرادت التقريب بين ابنتها وابن خالتها رغم معارضة الزوج، ولكن الزوج مات وأصبح على ندى أن تقبل الزواج من ابن خالتها إرضاء لرغبة أمها.

لولا اللهجة السورية لتخيل المشاهد أنه مسلسل مصرى.. فكل ما فى هذا المسلسل مصرى الروح حتى بعض الأمثال الشعبية والديكور واللزمات مثل: لحم كتافى من خيره، وغيره كثير من الأمثال ولهذا لم نشاهد فى الحقيقة مسلسلا سوريا، كما كان المسلسل الذى أذيع منذ عام تقريبا وكان باسم «خان الحرير» فلقد رأينا الحارة

من الهلال
إلى الهلال

السورية والخان أو المحل السورى والعادات السورية المتميزة وبالذات في حلب مكان الأحداث.. أما في حلقات: «ابتسامة على شفاه باردة» فالموضوع وأماكن التصوير وغيرها كما قلت كانت تقليدا للدراما المصرية وهو تقليد لايرقى إلى الأصل حتى ولو كان محكم البناء وهو ما يحسب لمظهر الحكيم وكذلك يحسب له حسن اختياره للممثلين، فكان كل في دوره مثل فاديا خطاب وأماني الحكيم وجهاد سعيد ومعذرة لعدم معرفة أسماء بقية الممثلين. ولكن أذكرهم بأدوارهم كالطبيب صديق الأسرة وزوجته والأم الحقيقية لنبيل والجزار ومساعده والطفل الذى قام بدور نبيل صغيرا وغيره كثير مثل من قام بدور حسن ومن قامت بدور الزوجة له.

وتبقى في النهاية وجهة نظر متعددة الجوانب.. لماذا مثلا لانختار من كل بلد عربي شقيق مسلسلا يقدم الحياة الحقيقية والمتميزة لكل بلد عربي شقيق.. سوريا والأردن ولبنان والعراق ودول المغرب العربي والسودان والخليج.. لماذا لانفسح مكانا لهذه الدول تقدم أعمالها الدرامية كما يفسحون هم كل شاشاتهم للأعمال المصرية.. يعرفون عنا كل شيء ويتابعون مايجرى في مصر بكل الحب والتقدير ولا نعرف عن نجومهم شيئا ولا عن أعمالهم الدرامية وبالتالي تغيب عنا صور الحياة في هذه البلاد الشقيقة.

أحمد علام

● مسرح

خاير بك ظالم بلقب ملك الأمراء

أكد فكرى النقاش في عرض ملك الامراء أنه كاتب متميز كما أظهر العرض أن عمرو دوارة، مخرج مسرحي جاد فقد أوصلاني إلى حالة من الشجن والأسى طوال العرض. كما أعادا إليّ ذلك الزمن الجميل الذى كنا نشاهد فيه أعمالا مسرحية جادة.

أما المخرج عمرو دوارة فلم ينجرف للنغمة السائدة التي تطالب بوضع البهارات في العمل الفني، ملك الأمراء مليئة بالصراع بين شعب لا حول له ولا قوة مغلوب على أمره وحاكم ظالم غير أن صانعا مصريا ماهرا شجاعا رفض العمل في إصلاح مدرسة خاير بك الظالم الذى قتل السلطان الغورى، وحل محله، وظل يؤرقه هذا الفعل حتى مماته مقنعا نفسه بأنه لو لم يفعل ذلك كان الغورى سيتغدى به قبل أن يتعشى به. وهو يرى أن الشعب المصرى مجموعة من الرعاع لايستحقون الشفقة يتحلقون فقط لتدخين الحشيش.. اهتم المؤلف



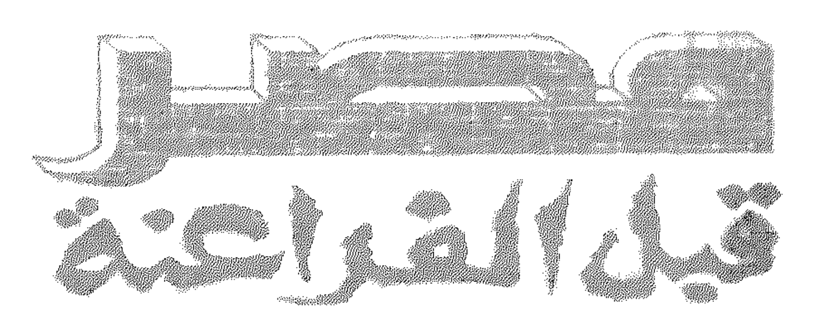
من الهلال إلى الهلال

بتسريب هذه المعلومات عن طريق بعض المشاهد التى تتجمع لتعطى فى النهاية رؤية محددة لفكرى النقاش عن المصريين والمماليك فى هذه المرحلة التاريخية القاسية ، أظهر فيها الكاتب قسوة خاير بك الذى يقطع أذنى وأنف متقال حارس زوجته (سيد رؤوف) وهو من كان يقدم له الخمر والطعام دون سبب قوى غير متعة التعذيب التى تتلذذ بها مع غلامه زين، وفى وجود شيخ جليل هو الشيخ الدشطوطى والشاعر الدماطى، منتهى الاستهتار والإجرام، غير أن التاريخ يحكى عن خاير بك ماهو أفظع من ذلك فقد عرف عهده التوسيط، وهى شطر الرجال نصفين بإشارة من أصبعه.

مع كل مظاهر الغطرسة وكراهية هذا الملك المملوكى للمصريين وحبه للسلطة فقد ظهر منهم ثلاثة أنواع الأول من يعاقر استنشاق الحشيش والاكتفاء بالفرجة على خيال الظل الذى يفضح خاير بك وأسرته، خاصة أن زوجته التركية «ماجدة حمادة» لم يكن يعجبها أسلوب حكمه وحبه للغلمان والخمر، وتتشاجر معه دائما إلى درجة التعدى عليه بالقول والفعل، ونوع آخر من الرجال وهم أولئك الشرفاء الذين صارعوه بالقول والمحاججة بالدين كالشيخ الدشطوطى (إبراهيم الدالى) والشاعر الدماطى (حمدى هيكل)، وشخصية البساطى (محمود مسعود) ذلك الصانع الماهر الذى قطع ملك الأمراء خاير بك يده اليسرى لرفضه العمل فى إصلاح مدرسته، وقد أدى محمود مسعود شخصية المغلوب على أمره المضطهد والمقهور أداء مقنعا خاصة عندما واجه خاير بك مواجهة عنيفة، معلنا أمامه أن نهايته الجحيم. وقد أظهر المؤلف أن المرأة المصرية من قديم قوية لا تلين فى الشدائد. ساندت زوجها وأعلنت رأيها فى مواجهة الظلم، وحرصا من المؤلف على تصوير خاير بك بالخسة جعله يستخدم القضاء غير العادل وشهود الزور للإيقاع بالبساطى، أدت جليلة محمود دورا مناسبا لإمكاناتها وأمتعت بأدائها المنغم فى إضافة كم كبير للإحساس بالأسى والشجن.

نجح عمرو دوارة فى توظيف أدوات العرض المسرحى من ملابس وديكور بشكل مناسب للمهندسة مهيرة دراز وتشغيل عرائس للفنان اسماعيل الموجى وإضاءة تميزت بتناغمها مع المفردات الأخرى. وقد استحدث تقديم فقرة أدائية لأحد الأبطال وقت الإظلام فى أحد أركان المسرح تمكن الإدارة من تغيير الديكور مؤكدا بها صلب الحدث.

عدلى عبدالسلام



مصر قبل الفراعنة

نشأة الحضارة المصرية القديمة

بقلم : د. رشدى سعيد

بهرت الحضارة المصرية القديمة الأبصار وشغل ظهورها - والذى بدا وكأنه جاء مفاجئا - المشتغلين بعلوم الآثار - فحتى بداية القرن العشرين كانت أقدم آثارها المعروفة. هى الأهرامات الهائلة التى تربض على الضفة الغربية للنيل فيما بين الجيزة والفيوم - وكان هذا الظهور المفاجىء لحضارة على هذه الدرجة من التقدم محيرا للناس الذين ظن الكثيرون منهم أن هذه الحضارة لابد وأن تكون قد نشأت بوصول أقوام جاءوا من خارج مصر حاملين معهم تراثا طويلا من الحضارة نقلوه إليها بعد أن استقروا فيها - على أن هذا التفسير أصبح أقل قبولا بعد أن تم الكشف فى أوائل القرن العشرين عن حضارات متقدمة سبقت عصر بناة الأهرام بل وعصر الأسرات الفرعونية كلها بأكثر من ألفى سنة.

وعلى الرغم من أن الكتابة لم تكن قد عرفت فى عصر ما قبل الأسرات هذا ، إلا أن هذا العصر كان على درجة كبيرة من التقدم فقد عرف الناس فيه الكثير من الفنون التى لابد وأنها شكلت الأساس الذى أدى إلى نشوء الحضارة الفرعونية - ففى هذا العصر عرف الناس الزراعة واعتمدوا عليها فى حياتهم واستقروا فى قرى جذبت عددا كبيرا من السكان لم تعهده البلاد من قبل كما عرفوا صناعة الفخار وصهر المعادن وفن البناء - وفى هذا العصر أصبح المجتمع طبقيا وانقسم

دورات المطر	منحنى المطر والحضارات في الصحراء (مطر ← / ← جفاف)	العصر ق.م	الحضارات والممالك في وادي النيل

عصر الاضمحلال الأول

الدولة القديمة

الدولة العتيقة

٣٫٠٠٠ - ٤٫٠٠٠ - ٥٫٠٠٠ - ٦٫٠٠٠ - ٧٫٠٠٠ - ٨٫٠٠٠ - ٩٫٠٠٠ - ١٠٫٠٠٠

العصر الحجري الحديث: المعادي – العمري – مرمدة بني سلامة – الفيوم أ

عصور ما قبل الأسرات: نقادة ٣ – نقادة ٢ – نقادة ١ – البداري

نهاية العصر الحجري القديم: الفيوم ب – ؟ – الكاب

دورات المطر: الرابعة – الثالثة – الثانية – الأولى

الحضارات في الصحراء: المتأخر – المتوسط – المبكر (العصر الحجري الحديث)

منحنى المطر بين سنة ١٠٫٠٠٠ و ٢٠٠٠ ق.م يبين تقلباته والحضارات التي عاصرت هذه التقلبات في وادي النيل وفي جنوب صحراء مصر الغربية.

فيه العمل بين الرجل والمرأة وظهرت فيه الطقوس الدينية التي عبرت عن الكون والفساد والخلود ، والتي مثلتها دورة الزراعة حيث ينبت الحب ثم يموت ثم يبعث في الموسم التالي ، ودور المرأة حيث الخصوبة والميلاد والوفاة.

وفي ثلاثينات القرن العشرين تم اكتشاف حضارات يعود تاريخها إلى أكثر من ألف سنة قبل حضارة عصر ما قبل الأسرات استقر الناس فيها في وادي النيل ، وعرفوا الزراعة التي لم تكن تشكل إلا جزءا صغيرا من اقتصادهم. وفي هذا العصر الذي يعرف باسم العصر الحجري الحديث كان الناس يستخدمون أدوات شكلوها من حجر الصوان ، لصيد الحيوان البري والأسماك والطيور التي كان عليها جل اعتمادهم.

وأدى البحث في الصحراء بدءا من ستينات القرن العشرين إلى الكشف عن حضارات عرفت الزراعة قبل أن تعرف في وادي النيل بأكثر من ثمانمائة سنة ـ وبهذا الكشف أصبح عند المؤرخين سجل طويل ومتعاقب من الحضارات التي تأسست على الزراعة خلال ما لا يقل عن خمسة آلاف سنة قبل ظهور حضارة الفراعنة في سنة ٣٠٠٠ ق. م. وقد تغير وجه مصر خلال هذه السنوات عدة مرات قبل ان تظهر حضارة الفراعنة ، التي بلغت شأوا عاليا في تنظيمها الاجتماعي ومستواها التقني.

وفي هذا المقال أعرض لنتائج البحوث المتعلقة بذلك الجزء من التاريخ الموغل في القدم ، والذي سبق حضارات وادي النيل والذي جرت أحداثه في الصحراء المصرية والتي كانت في ذلك الوقت السحيق مطيرة وأكثر اخضرارا عما هي عليه الآن ، مما جعلها مستقرا لأقوام كثيرين ومسرحا لنشاط إنساني كبير كان أكثر تقدما من ذلك الذي كان يعرف في وادي النيل نفسه، والذي لم يكن يسكنه في ذلك الوقت إلا عدد قليل من السكان تجمعوا في مستوطنات صغيرة ومتفرقة حول ضفاف النهر في النوبة والصعيد ، يعيشون على الصيد وجمع الثمار ـ ولم يكن النهر في ذلك الوقت السحيق معطاء كما نعرفه اليوم بل كان نهرا متقلبا يصعب التنبؤ بأحواله ، فقد كان الفيضان يأتيه في اندفاع مفاجيء في موسم الصيف وتكاد تجف مياهه في فصل الشتاء ـ

مصر تصبح أرضا قاحلة خلال العصر الجليدي الأخير (٧٠,٠٠٠ - ١٢,٠٠٠ سنة قبل الآن) .

وتعود نشأة أرض مصر بحالها الراهن وبدء استيطانها الحديث إلى ما لا يزيد عن اثنى عشر الف سنة مضت - فقبل ذلك التاريخ ولفترة تزيد على ٦٠٠٠٠ سنة كانت أرض مصر قاحلة تعانى من تأثير عصر الجليد الأخير الذى عم العالم فى تلك الفترة ، والذى امتد فيه الجليد من الأقطاب ليغطى أجزاء كبيرة من العروض العليا من الأرض ، حيث أخذ يتراكم فوقها حتى بلغ سمكه حوالي ثلاثة كيلو مترات فوق كندا وشمال الولايات المتحدة وحوالى الكيلو مترين والنصف فوق وسط أوروبا - وفى هذا العصر انحبس جزء كبير من الماء فوق الأرض على صورة جليد فنقص منسوب ابحر وانخفض حتى وصل الى أقل من منسوبه الحالى بأكثر من مائة وأربعين مترا - وبانحسار البحر تعرت أجزاء كبيرة من قاعه التى كان عمقها يقل عن هذا المنسوب الجديد ، وأصبحت أرضا - وهكذا تعرى قاع بحر الشمال واتصلت الجزر البريطانية بالقارة الأوروبية واسكندناوة وفقد بحر البلطيق اتصاله بالمحيط الأطلنطى وأصبح بحيرة صغيرة ومغلقة ليس لها مخرج إلى المحيط العالمى - وفى البحر الابيض المتوسط تعرى مضيق مسينا واتصلت جزيرة صقلية بإيطاليا ، كما تعرى الجزء الأكبر من البرزخ الذى يفصل جزيرة صقلية عن أفريقيا - وانكمش شرق البحر الأبيض المتوسط وتعرت أجزاء كبيرة من قاعه وامتدت أرض مصر إلى مسافة كبيرة بداخل البحر الأبيض المتوسط.

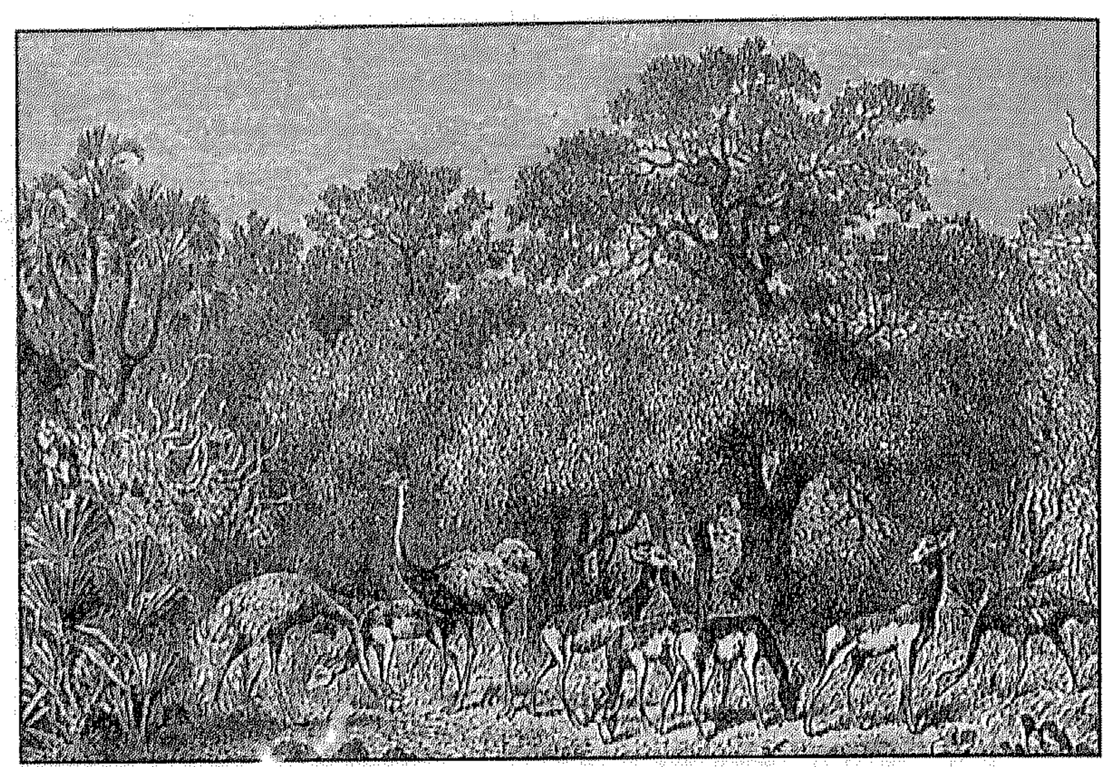
وفى هذا العصر انخفضت درجة حرارة الجو بين ست وثمانى درجات مئوية وقلت الأدطار واتسعت الصحارى وهجرها من كانوا ـ يشون فيها إلى أماكن أكثر أمنا ، وى مصر اشتد الجفاف وهجر صحاريها من كان سكن بها ولم يعثر بها على أية بقايا لانسان فى ذلك العصر ، وانحصرت بقايا الإنسان الذى عاصر العصر الجليدى الأخير فى عدد قليل من المستوطنات حول النيل ، وفى هذا العصر كان تصرف النهر قليلا إذ لم تكن تصله أية مياه من الهضبة الاستوائية التى قلت أمطارها وفقدت غاباتها فشحت المياه فى النيل الأبيض الذى امتلأ بالرمال التى كانت تذروها الرياح من الصحارى التى أحاطت به فى ذلك الوقت - ولم يكن يصل النيل من المياه

إلاّ من الهضبة الاثيوبية التى قلت أمطارها أيضا والتى كانت تأتى إلى مصر فى موسم الأمطار فى دفعات قليلة ومتفرقة.

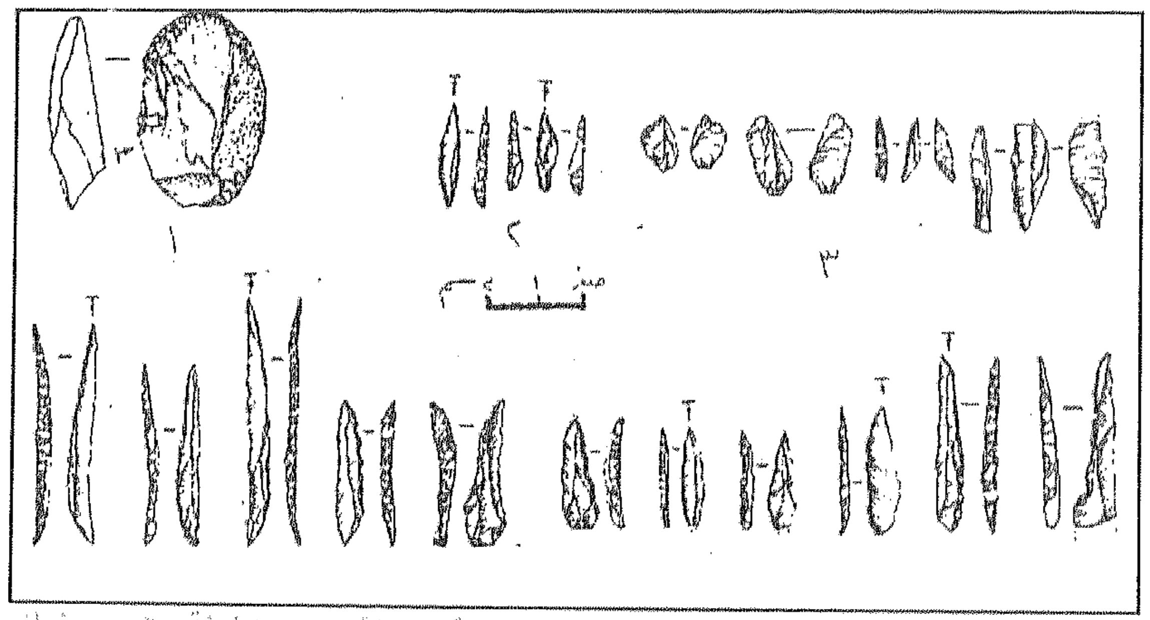
مصر خلال فترة امطار ما بعد العصر الجليدي الأخير - عندما أصبحت الصحراء خضراء (١٠,٠٠٠ ـ ٤,٥٠٠ سنة ق.م.)

وبانتهاء عصر الجليد حدثت تغيرات بعيدة المدى على اتساع العالم كله ـ فمنذ حوالى ١١,٠٠٠ سنة مضت ارتفعت درجة الحرارة وقارب الجو أن يكون فى دفئه مثل العصر الحديث.. وتراجع الجليد الذى كان يغطى أكثر من ربع نصف الكرة الشمالى من أجزاء كبيرة منه وبدأت النباتات والحيوانات تغزو هذه الأجزاء وتستوطن العروض العليا من سطح الأرض بعد أن كانت قد هجرتها لآلاف السنين ـ كما تراجعت الصحراوات التى كانت قد انتشرت واتسعت مساحاتها خلال عصر الجليد ، وانكمشت بعد سقوط الامطار على اجزاء كثيرة منها نتيجة لانطلاق الماء الذى كان محبوسا فى ثلاجات العصر الجليدى على هيئة مطر ـ وتبع تحسن الجو وتساقط الأمطار هجرة وانتقال الإنسان إلى هذه الجبهة الجديدة التى انفتحت أمامه بعد سنوات طويلة من القفر سعيا وراء الصيد وجمع النبات . وقد شهدت هذه الفترة التى أعقبت تراجع الجليد انطلاقة تقنية هائلة كان لها أكبر الأثر فى تطور المجتمعات الإنسانية ففيها اكتشف الإنسان الزراعة وعملية استئناس الحيوان وصناعة الفخار وصهر المعادن وفيها قام بتأسيس القرى وأول المدن المحاطة باسوار.

وفى مصر استمرت الفترة المطيرة التى أعقبت العصر الجليدى الأخير حوالى ٥٥٠٠ سنة تقدمت خلالها جبهة الأمطار الموسمية التى تتساقط اليوم على الساحل الأفريقى إلى الشمال فحملت أمطارها الصيفية لأجزاء كبيرة من الصحراء الكبرى فاخضرت بعد قفر وأصبحت جاذبة للسكان .. أما نهر النيل فقد زادت تصرفاته زيادة كبيرة فى هذه الفترة حتى كادت تصبح أكثر من ثلاثة أضعاف تصرفات اليوم ـ ولم تكن هذه الزيادة بسبب تزايد الأمطار فى منابع النيل الحالية فقط بل وبسبب اتساع هذه المنابع فقد تسبب سقوط الأمطار فى شمال السودان وجنوب مصر فى تنشيط الكثير من الوديان الجافة فى الصحراء التى أصبحت تجرى فيها المياه إلى النيل فى موسم الأمطار.



بحيرة تشاد كما رآها ناختيجال فى سبعينات القرن التاسع عشر - ومثل هذا المنظر لابد وأنه كان شائعا حول البحيرات التى رصعت صحراء مصر وشمال السودان خلال الفترة المطيرة التى أعقبت تراجع ثلوج العصر الجليدى الأخير (بين ١٠,٠٠٠ ، ٤,٥٠٠ ق.م)



أدوات حجرية من العصر الحجرى الحديث من منطقة النبطة ، ١ - مكشطة ، ٢ - مخراز للتثقيب ، ٣ - أنصال مظهرة

ويتقدم جبهة الأمطار الموسمية إلى الشمال خلال هذه الفترة المطيرة تزحزحت المناطق النباتية معها ، وتغير لاندسيكب الصحارى فى شمال السودان وجنوب مصر تغيرا كبيرا ، وغطت احراش السفانا واشجار السنط والتى تكثر اليوم فيما بين خطى عرض ١٧ ، ٢٠ درجة شمالا الجزء الأكبر من صحراء مصر الجنوبية وحتى خط عرض ٢٦ شمالا.

وعلى الرغم من أن الأمطار لم تزد أبدا على مائة ملليمتر فى العام فى معظم صحارى مصر فإنها كانت كافية لكى تتجمع فى المناطق الواطئة لتكون بحيرات موسمية ولتتغطى بنبات كثيف ـ وهكذا كانت صحراء مصر مرصعة بالبحيرات الكثيرة خلال موسم الأمطار ـ ولم يكن من غير المألوف خلال هذه الفترة ان يجد المرء فى صحراء مصر منظرا كذلك الذى رآه ناخيتجال الرحالة الألمانى المشهور فى القرن التاسع عشر حول بحيرة تشاد.

وقد تغلبت الاحوال المناخية خلال هذه الفترة المطيرة فقد تخللتها فترات قصيرة من الجفاف كما تقلبت خلالها كمية الأمطار . وقد اثرت هذه التقلبات المناخية على بحيرات منطقة الساحل فقد كان منسوبها يرتفع عندما تكثر الأمطار وينخفض عندما تقل ـ وقد درست هذه المناسيب ورفعت شواطئها على خرائط فى حالة بحيرة تشاد التى كانت قد اختفت كلية منذ حوالى ٢٠,٠٠٠ سنة فى اوج عصر الجليد الأخير عندما اشتد الجفاف، وعادت البحيرة للظهور مرة أخرى عندما بدأت الأمطار تتساقط منذ اكثر من ١٠,٠٠٠٠ سنة مضت وأخذت تنمو وتتسع مع سقوط الأمطار حتى بلغت مساحتها فى أوج إحدى ذروات المطر إلى اكثر من ٤٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع أى ستة عشر ضعف مساحتها الحالية. ويستطيع الدارس لتقلبات مناسيب بحيرات الساحل ولتصرف النيل على طول الفترة المطيرة التى اعقبت العصر الجليدى الأخير أن يميز أربع ذروات للمطر فصلتها عن بعضها البعض فترات قصيرة من الجفاف كما فى الشكل.

الإنسان والصحراء خلال الفترة المطيرة.

وفى خلال الفترة المطيرة نزل الإنسان بالصحراء واستقر فى أماكن كثيرة منها وعلى الأخص حول البحيرات الموسمية التى رصعتها ، وكان معظم من نزل الصحراء واستقر فيها من رعاة الأبقار وكان استئناس البقرة من أهم العوامل

التى مكنت الإنسان من الاستقرار فى هذه البيئة الصحراوية القاسية ، فقد كانت تمثل المصدر المأمون للغذاء المتجدد فى اللبن والدم - ويبدو ان الصحراء المصرية كانت من أقدم مناطق الصحراء الكبرى فى استئناس هذا الحيوان والذى انتشر منها الى مختلف مناطق الصحراء الكبرى وحتى المحيط الأطلنطى.

وقد جذبت دراسة آثار بقايا الإنسان فى مختلف ارجاء الصحراء الكبرى اهتمام الكثير من العلماء . ولعل من اكمل الدراسات وأكثرها إثارة هى تلك التى جرت بمنطقة جبل النبطة بصحراء النوبة بجنوب مصر ، والذى يقع حوالى مائة كيلو متر إلى الغرب من ابو سمبل وهى منطقة شديدة الفحولة فى الوقت الحاضر. وتقع أهمية النبطة فى انها تمثل واحدا من أكبر أحواض التصريف بجنوب الصحراء الغربية مما يجعلها غنية بالماء عندما تتساقط الأمطار - هذا بالاضافة إلى أنها كانت من أقدم مناطق الصحراء الكبرى فى استئناس الأبقار وفى اكتشاف الزراعة ونشوء المجتمع الطبقى.

وتعاقب على منطقة النبطة أقوام كثيرون وحضارات مختلفة منذ سكناها حوالى سنة ٨٥٠٠ ق. م. ولم يهجرها الناس الا بعد الجفاف الشديد الذى لحق بالصحارى المصرية حوالى سنة ٤٥٠٠ ق.م وتنتمى كل الحضارات التى تعاقبت على منطقة النبطة الى العصر الحجرى الحديث وهو عصر تميز باستخدام أهله أدوات من الحجر على شكل انصال صغيرة لم يزد طولها على السنتيمتر الواحد او الاثنين شكلت على هيئة صفارة او شوكة او استدق طرفها - وتتميز هذه الأدوات بامكان استخدامها فى اغراض مختلفة فكانت تركب على عمود خشبى، او على عظمة طويلة وتستخدم كسكين او منجل او رأس سهم . وقد لعبت هذه الأدوات الصغيرة الحجم دورا مهما فى تحسين مهارات الإنسان فى الصيد وجمع النبات . ومن الملاحظ هنا ان سكان الصحراء استخدموا هذه الأدوات وعرفوها قبل سكان وادى النيل الذين عاصروهم والذين كانوا لايزالون يستخدمون أدوات آخر العصر الحجرى القديم الكبيرة الحجم والأقل فعالية فى الأداء.

إنسان العصر الحجري الحديث المبكر (٨٥٠٠ - ٦٧٠٠ ق.م) .

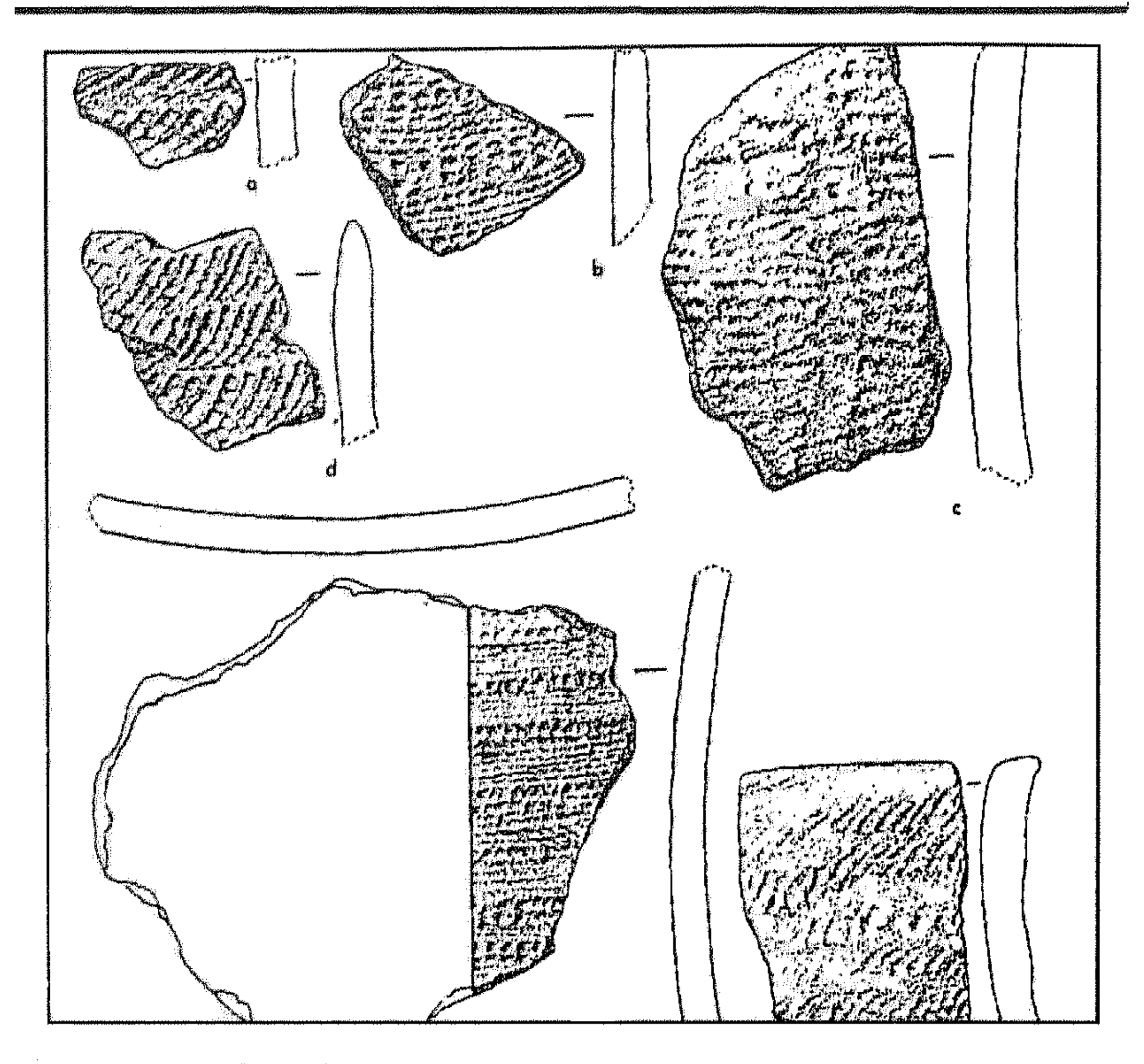
ترجع أقدم آثار الإنسان فى الفترة المطيرة التى اعقبت عصر الجليد الى فترة

أمطار الذروة الثانية منها ولا تعرف فى رواسب فترة ذروة المطر الأولى أية بقايا انسانية ، اذ يبدو ان الانسان لم يعرف طريقه الى الصحراء خلالها او ان نشاطه فيها كان موسميا وصغيرا ولم يترك اثرا يذكر. وفى فترة الذروة الثانية للأمطار والتى امتدت لحوالى ١٨٠٠ تطورت المجتمعات الانسانية التى سكنت الصحراء تطورا كبيرا ، وانتقلت من حالة البداوة إلى الاستقرار وتغيرت طرق معائشها وتقدم تنظيمها الاجتماعى تقدما كبيرا.

وكان اول من حط بمنطقة النبطة اقوام من الرحل الذين كانوا يجيئون الى الصحراء فى موسم الأمطار سعيا وراء الرزق والصيد وجمع النبات. ويهجرونها فى موسم الجفاف ولم يترك هؤلاء الأقوام الذين ترددوا على هذه المنطقة لحوالى الألف عام آثارا كثيرة ، فبالاضافة إلى بعض الأدوات الحجرية من طراز العصر الحجرى الحديث المبكر فقد تركوا القليل من كسر الفخار وحجر الرحا. ولا يوجد هناك أثر لسكن أقيم فى هذه الفترة إلاّ فى آخرها - ومن مخلفات هؤلاء الأقوام بقايا المواقد الكثيرة التى انتشرت فى كل مكان والعديد من عظام الغزال والأرنب البرى والقليل من عظام الأبقار التى يظن بعض العلماء أنها كانت مستأنسة، وإذا صح هذا الظن فإن هذه الإبقار تكون أقدم الأبقار المستأنسة على الإطلاق وهى تسبق اى سجل آخر بما لايقل عن ألفى سنة - ووجود الأبقار فى هذا الجزء من الصحراء الذى لم تكن تطوله أمطار غزيرة يشير الى ان هذه الأبقار لابد وأنها سبقت إلى هذه المكان - فالابقار حيوانات عطشى تحتاج إلى ان تشرب كل يوم حتى تبقى على قيد الحياة ولذا فإن هذا المكان لا يمكن أن يكون موطنها الطبيعى بل لابد أنها سبقت اليه.

ولا يعرف بالضبط المكان الذى جاء منه أول سكان النبطة وأغلب الظن أنهم جاءوا من منطقة نيل النوبة التى كانت موطنا للأبقار البرية ، ومن المرجح ان هذه المنطقة بذاتها هى التى كانوا يعودون إليها فى موسم الجفاف.

وبعد ألف سنة من حياة البداوة هذه وحوالى سنة ٧٥٠٠ ق.م وبعد فترة قصيرة من الجفاف بدأ الناس فى الاستقرار فى منطقة النبطة فبنوا المساكن ودقوا الآبار وحرقوا الفخار الذى كثر واصبح شائع الاستخدام . وقد وجد مع كثيب رمل فى المنطقة بقايا أقدم قرية



فخار من العصر الحجري الحديث المبكر من منطقة النبطة

فى مصر صفت منازلها فى صفين متوازيين وبها ثلاثة آبار. وحفر مبطنة بالحصير كانت تستخدم فى تخزين الحبوب. ويشير وجود الآبار وتنظيم المساكن فى صفوف مستقيمة الى نشوء نوع من التنظيم الاجتماعى المتشابك تدرجت فيه السلطة بحيث أصبح من الممكن لأفراد بعينهم إعطاء الأمر وفرض القرار.. على ان ظهور هذه السلطة لم يؤد الى تباين فى الثروة فقد ظل المجتمع مساواتيا وكانت كل المساكن متشابهة وان كان بعضها اكبر مساحة من بعضها الآخر ولكنها لم تكن تحتوى على ما يميزها عن غيرها من أدوات أو مقتنيات. وكانت المساكن على شكل أخصاص دائرية او بيضاوية الشكل اقيمت على

أعمدة مدت بينها لفائف الحصير او الأغصان أو ليّست بالطين وتراوح طولها بين ٤ الى ٦ امتار وعرضها بين ٢ و ٢.٥ متر - وكان بكل منها موقد أو اكثر امتلأت حفره بالرماد والفحم النباتي وبقايا الغذاء المحروق - أما ارضيات المساكن فقد غطت بعدد وفير من شقف الفخار الذي كان مزينا بخطوط مموجة تشبه تلك التي زينت فخار الخرطوم الذي عرف في نيل السودان بعد هذا التاريخ بأكثر من ألفي سنة وكان الفخار يشكل في فرن مفتوح فلم يكن قد عرف بعد حرقه في الأفران.

وقد أمكن التعرف في رماد الغذاء المحروق بالمواقد على أربعة واربعين نوعا من النباتات التي كانت كلها برية ولم تستأنس بعد . وكل هذه النباتات تعيش اليوم في منطقة الساحل الأفريقي ووجودها في جنوب مصر يعطى دليلا آخر على تقدم جبهة الأمطار الموسمية خلال هذه الفترة إلى الشمال . ومن النباتات التي لعبت دورا اساسيا في اقتصاديات غذاء هذا الزمان نباتا الذرة العويجة والدخن واللذان كانا يجمعان على نطاق واسع ويخزنا في حفر التخزين.. ويبدو أنهما كانا يطحنان أيضا كما يتضح من كثرة أحجار الرحا التي وجدت بالمنطقة.

انسان العصر الحجري الحديث المتوسط - ٦٥٠٠ - ٥٧٠٠ق.م)

وبعد فترة من الجفاف التي استمرت حوالي المائتي عام نزل بالنبطة اقوام جدد بحزمة جديدة من الأدوات الحجرية الأكثر تقدما ، والتي تنتمي إلى العصر الحجرى الحديث المتوسط وبنوع جديد من الفخار الأكثر زخرفة بنوا لانفسهم مساكن ثابتة كان معظمها دائرى الشكل وغائصا تحت الارض بعمق يتراوح بين ٣٠ ، ٤٠ سنتيمتراً . وكان الجزء الغائص منها مبطن ببلاطات من الحجر والقائم منها مغطى بالحصير او مليس بالطين وكانت المساكن منثورة في أرضياً . المنخفض او فوق الكثبان الرملية التي كانت تغطى أجزاء منه وفي مجموعات يتراوح عدد مساكنها بين اثنين وستة . كما كانت هناك مواقع كثيرة فوق الهضبة المطلة على المنخفض غطت بكسر الفخار وبالادوات الحجرية ولم يكن بها اثر لمسكن كما كان هناك موقع على شاطىء البحيرة الموسمية غنى بالمخلفات التي ملأت حفرا كثيرة والتي تنم على ان الموقع لابد وانه كان مكان تجمع عدد كبير من الناس .

ويوحى توزيع أمكنة الاقـامـة على هذا النحو بأن استيطان منطقة النبطة فى هذا العصر كان موسميا فكان الناس يسكنون المنخفض فى موسم الجفاف حيث يمارسون نشاطهم فى الرعى وجمع النبات والزراعة كل عائلة أو عائلة ممتدة فى مكان ويرسلون أولادهم للرعى فى الهضبة العالية ثم ينتقلون جميعا فى موسم الأمطار الى مكان واحد على شاطىء البحيرة يتجمعون فيه ليشتركوا معا فى القيام بما يبدو وانه كانت طقوسا خاصة . ولم يكن بمكان التجمع هذا اى مسكن بل كان مليئا بالمواقد وحفر المخلفات التى زاد عمقها على المترين ، كما كانت به كمية كبيرة من عظام الأبقار لعلها اكبر كمية من هذه العظام التى وجدت فى أى موقع آخر. وإذا اخذنا ما يفعله رعاة الأبقار المحدثون فى الكثير من بقاع افريقيا اليوم كقياس فيمكن القول بأن موقع شاطىء النبطة القديم كان مكانا يتم فيه طقمن تقديم الابقار كقربان فى المناسبات العامة كالخطوبة او الزواج او الوفاة، واذا صح القياس فلابد من التسليم بأن مجتمع العصر الحجرى الحديث بالصحراء كان على درجة عالية من التنظيم الاجتماعى والوعى بما هو فوق الطبيعة . وفى هذا المقام يكون مجتمع النبطة بصحراء مصر من أقدم ان لم يكن اقدم المجتمعات التى بلغت هذا الشأو من التقدم الحضارى .

ولعبت الابقار ثم الماعز (او الخراف) الذى ظهر لأول مرة حوالى سنة ٥٨٠٠ ق.م. دورا اساسيا فى اقتصاديات هذه المجتمعات ، كما لعبت اعمال جمع النبات دورا لا يقل أهمية فى تأمين الغذاء وتظهر اهمية عملية جمع النبات فى العدد الكبير من أحجار الرحا التى تنتشر فى أرضيات المستوطنات وكانت الذرة العويجة والدخن من النباتات البرية التى اعتمد عليها سكان هذا العصر كسابقيهم من سكان العصر الحجرى الحديث المبكر فظلا يجمعان بطريقة مكثفة ولمدة طويلة قبل أن يستأنسا ويزرعا حوالى سنة ٦٠٠٠ ق.م وبعد عدة مئات السنين من تاريخ استيطان جماعات العصر الحجرى الحديث المتوسط. واذا صح ان نباتى الذرة العويجة والدخن قد استئنسا فى ذلك التاريخ المبكر فإن ذلك يعنى ان اكتشاف الزراعة حدث فى الصحراء قبل ان يحدث فى وادى النيل بما لايقل عن ثمانمائة سنة على الأقل.

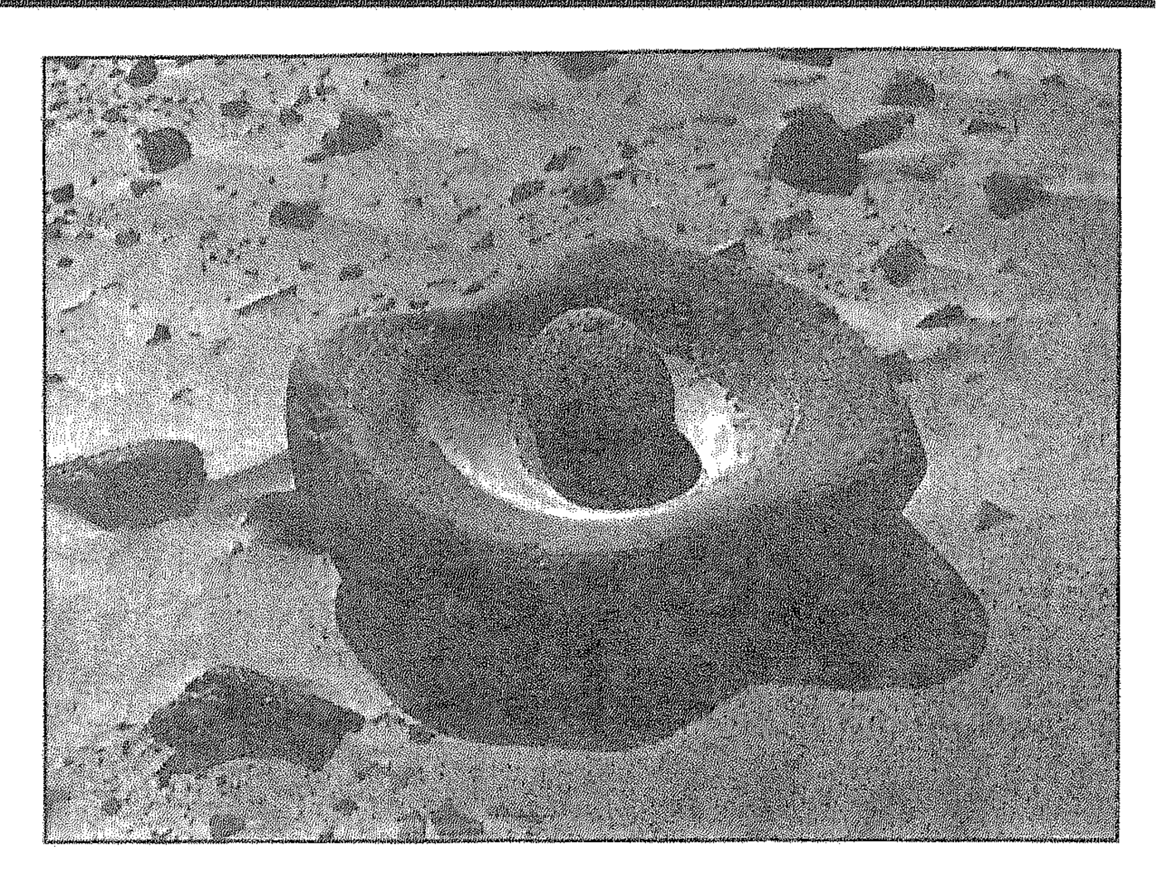
جفاف الالفية السادسة قبل الميلاد (٥٧٠٠ ـ ٥٣٠٠ ق.م.

ويعتبر عصر الجفاف الذى جاء فى نهاية العصر الحجرى الحديث المتوسط ذى اهمية خاصة فقد شهد بدء تغير نظام نهر النيل الذى اصبح عند نهايتها ، ومع مجيىء الذروة الرابعة لأمطار الفترة المطيرة التى اعقبت تراجع عصر الجليد مقاربا لنظامه الحالى مما جعل العيش فى ظله أمنا ونشوء الحضارة فيه ممكنا . وفى فترة الجفاف نقصت كمية المياه التى تصل إلى نيل مصر وانقطع وصولها عن الفيوم ولم تعد تصل إلى المناطق العالية حول الوادى . وهكذا هجر الناس الفيوم والمناطق العالية حول النيل ورحلوا إلى المناطق الواطئة. وعندما عاد النيل إلى الارتفاع فى سنة ٥٣٠٠ ق.م لم يعد تصرف النهر كبيرا كما كان قبل فترة الجفاف بل اصبح فى حدود المائة والخمسين مليار متر مكعب فى السنة . ومثل هذا التصرف يعتبر عاليا بمقاييس زماننا الحديث ولكنه كان يعتبر كافيا فى الوقت القديم لكى يجعل من النهر مكانا صالحا للعيش وقابلا للاستغلال دون تقنية خاصة . وهكذا انتقل مركز الحضارة إلى وادى النيل ودخلته تقنيات العصر الحجرى الحديث بعد ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة من دخولها إلى مراكز الحضارة بالصحراء.

(٥٣٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م).

واستوطن الصحراء فى آخر العصر الحجرى الحديث اقوام تركوا وراءهم مستوطنات واسعة بها مواقد كثيرة ، كان بعضها مبطنا بالاحجار وكانت حزمة الأدوات الحجرية المستخدمة اكثر تقدما كما كان الفخار المستخدم مزينا فى أطرافه وشبيها بفخار حضارة البدارى اقدم حضارات عصر ما قبل الأسرات بوادى النيل والتى جاءت بعد هذه الحضارة بحوالى الألف سنة . ولم يكن بمستوطنات الحجرى الحديث المتأخر مساكن إذ يبدو ان سكانها كانوا كثيرى التنقل فلم تكن امطار الذروة الرابعة من الفترة المطيرة منتظمة.

واستمر شاطىء النبطة مركزا لتجمع السكان فى موسم الأمطار كما كان فى العصر الحجرى الحديث المتوسط. وأضيفت إلى الطقوس القديمة إقامة مقابر ضخمة لدفن الابقار وكذلك إقامة انصاب احتفالية ضخمة من الأحجار وهى شبيهة بتلك التى عرفت فى أوروبا بعد ذلك بمئات السنين والتى سميت المغليث Megalith وفى منطقة النبطة جرت تسع احجار ضخمة يصل ارتفاعها بين ٢ ، ٣ أمتار

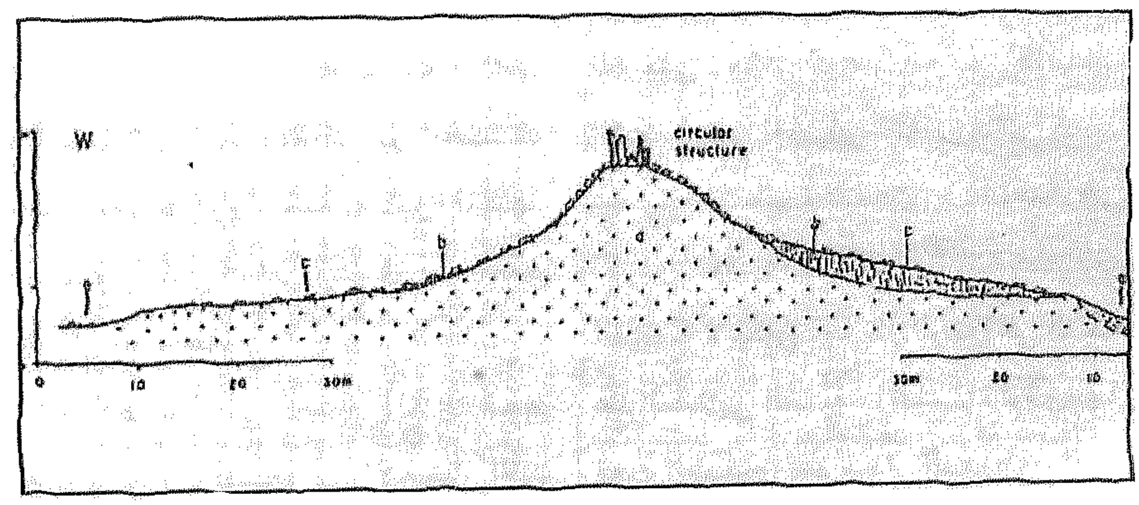


حجر الرحى الذى كان يستخدم فى طحن الحبوب

لكى تنصب فى صف واحد يصل طوله حوالى ٥٠٠ متر ويتجه إلى شمال الشرق. ولا يعرف سبب أو مغزى نصب هذه الاحجار ولكن وجودها يثبت ان المجتمعات الصحراوية لم تعد مساواتية كما كانت على طول تاريخها الاقدم . بل اصبحت طبقية تميزت فيها نخبة صغيرة امكنها تسخير باقى الناس للقيام بمثل هذه الاعمال الضخمة.

وبالاضافة الى أنصاب المغليث فقد وجدت أنصاب اصغر من الاحجار التى صفت فى دائرة بلغ قطرها أربعة أمتار فوق كثيب رمل بجوار شاطىء بحيرة النبطة القديمة . ويبدو ان هذه الدائرة كانت تستخدم كتقويم ولرصد الانقلاب الصيفى . وكان الرصد يتم بين الانصاب القائمة على ناحيتى الدائرة والتى كانت جميع انصابها الاخرى مستوية على الارض . ومن الملاحظ ان الانصاب القائمة لا يكون لها ظل لمرتين فى السنة عند انقلابى الصيف والشتاء لوقوعها تحت الشمس عند مدار السرطان الذى

دائرة التقويم بمنطقة النبطة : (أعلى) الأحجار القائمة والتى كانت تستخدم للرصد باللون الأسود وباقى الأحجار التى كانت نائمة على بطنها غير مظللة (أسفل) مقطع فى كثيب الرمل الذى رصت فوقه أحجار دائرة التقويم



كانت تقع عليه منطقة النبطة . وكان لهذين اليومين اهمية خاصة فى الكثير من الحضارات القديمة.

وتدل صناعة الفخار المتقدمة وطرق الزراعة المطرية وانصاب المغليث ودائرة التقويم على ان حضارة هذا العصر كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من التقدم فى التنظيم الاجتماعى والمعرفة التقنية .

وعاصرت هذه الفترة حضارة العصر الحجرى الحديث التى ظهرت فى وادى النيل والتى توجد اقدم آثارها فى منطقتى الفيوم ومرمدة بنى سلامة الواقعة بصحراء الخطاطبة الى الغرب من فرع رشيد . وفى الفيوم توجد اقدم مستوطنات هذا العصر حول شواطىء بحيرة موريس القديمة التى كانت تملأ منخفض الفيوم والتى عرفت حضارتها اسم حضارة الفيوم . وفيها مورست الزراعة لأول مرة فى وادى النيل ولكنها لم تلعب الدور الأكبر فى توفير الغذاء فقد كانت هناك مصادر اخرى كالاسماك ولحوم الابقار والخراف والخنازير المستأنسة ولحوم الحيوانات البرية كالغزال وفرس النهر والفيل والتمساح . وكان لسهولة الحصول على الغذاء من مصادر اخرى غير الزراعة السبب فى كثرة تنقل المستوطنين وعدم استقرارهم فى مكان واحد والذين لا يعرف انهم بنوا لانفسهم مسكنا على اى درجة من الثبات أو انهم بنوا القرى.

على ان كل ذلك تغير مع بدء الجفاف الكبير الذى لحق بالصحراء حوالى سنة ٤٥٠٠ ق.م عندما ظهرت فى وادى النيل حضارة الزراعة والاستقرار والتى تزامن ظهورها مع بدء الهجرات الكبرى من الصحارى المحيطة بوادى النيل . اما سكان صحراء مصر الغربية فلا يعرف بالضبط إلى أى مكان هاجروا وان كان من المؤكد ان بعضهم ذهب الى نيل السودان حيث احتفظ وحتى يومنا هذا بحضارة رعى الابقار التى عرفوها . وأن البعض الآخر نزل وادى النيل حاملين معهم حضارتهم المتقدمة التى يبدو انها كانت أحد الروافد المهمة التى اثرت وتفاعلت مع الحضارات المحلية وحضارات الهجرات الأخرى التى وفدت على وادى النيل من صحارى الشرق ، والتى يبدو انها تأثرت بموجة الجفاف الكبرى التى لحقت بها ايضا فى تشكيل حضارة عصر ما قبل الاسرات بوادى النيل.

انتهت تجربتي مع الماركسية عندما اكتشفت سعيي إلى تحقيق الذات لا تحقيق العدالة

عبدالوهاب المسيري



١ - النشأة الأولى



د. عبدالوهاب المسيرى

نشأت فى أسرة كانت تنتمى إلى ما يمكن تسميته «البورجوازية الكبيرة الريفية»، وهى بورجوازية كبيرة فى دخلها وفى فرديتها، ولكنها كانت تعيش خارج الإسكندرية والقاهرة، أى تعيش فى الريف، لم تتأثر بعناصر التغريب التى كانت تضرب بأطنابها فى البورجوازية الحضرية، ولذا ظلت هذه البورجوازية الريفية محتفظة بالقيم المصرية والعربية والإسلامية، ولم تبحث عن الجاه والأبهة، ومعظم أعضاء هذه البورجوازية كانوا أعضاء فى حزب الوفد أو على الأقل متعاطفين معه (لم يكن والدى يشارك هذه الطبقة توجهاتها، فقد كان متعاطفاً للغاية مع الحزب السعدى!).

كما كانت دمنهور مدينة حديثة

بها كثير من سمات المدن الحديثة، كما كانت دمنهور مدينة تجارية توجد فيها عائلات تجارية عريقة وكانت، إلى جانب هذا، من أكثر المدن تصنيعاً في العالم (بالنسبة لعدد السكان) في النصف الأول من القرن العشرين (حسبما قرأت في إحدى الدراسات) بسبب وجود عدد كبير من محالج القطن فيها ولكن دمنهور، مع هذا، كانت على مستوى من المستويات قرية كبيرة.

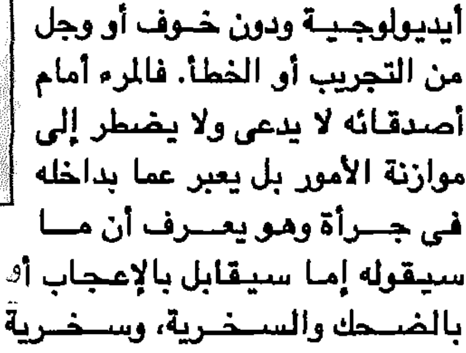
في طريقنا إلى مدرسة دمنهور الثانوية، كنا نمر على حقول يزرعها فلاحون نشتري منهم الطماطم أو الخس، والمدرسة ذاتها كانت توجد في وسط الأراضي الزراعية، وكانت دمنهور مركزاً للقرى المجاورة يأتيها الفلاحون يوم الاثنين (يوم السوق).

ودمنهور ، باعتبارها مدينة / قرية، كانت تعيش داخل إطار صارم من القيم والشعائر الدينية والعرفية التي تضبط حركة كل شيء: من يُقَبِّل يد مَنْ؟ مَنْ يُفسح الطريق لمَنْ؟ ما هي واجبات كبار العائلات، وما هي حقوقها، وما هي واجبات الأهالي وحقوقهم؟ .

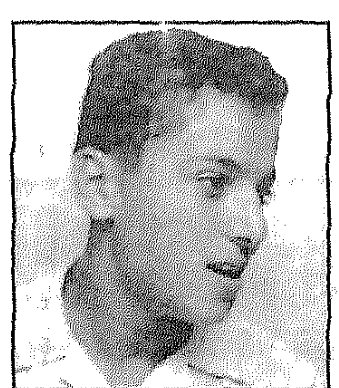
ومن المقولات الشائعة التي تكاد تكون بدهية أن المجتمع التقليدي يمحو الشخصية الفردية للمرء. ومما لا شك فيه أن عملية الضبط الاجتماعي المباشر في المجتمع التقليدي تضع حدوداً على الفردية، ومع هذا كان هناك كم هائل من الشخصيات ذات السمات الفذة في حياتي في مجتمع دمنهور التقليدي، ففي إطار أسرتي الممتدة، لم يكن أبي هو الشخصية الوحيدة الطاغية، كما هو الحال في الأسرة النووية، إذ كان هناك نماذج أخرى يمكنني أن أحذو حذوها ومن خلالها تمكنت من أن أتجاوز والدي وأن أتحرر منه.

ولعل هذا التنوع الذي يسم المجتمع التقليدي يعود إلى التسامح الذي يتسم به، وقد ظهر هذا التسامح في علاقتنا بالأقباط وكنت ألاحظ أصدقاء خالي الأقباط من أعضاء حزب الوفد، وكيف كانوا جميعاً يقفون صفاً واحداً ضد الإنجليز والملك. باختصار شديد، علاقتنا بإخواننا الأقباط في هذا المجتمع التقليدي كانت علاقة طيبة ومستقرة.

ومن أهم التجارب في حياتي الفكرية الوقت الذي قضيته في مقهى المسيري لصاحبها الأستاذ عبدالمعطي المسيري (رحمه الله). ترددت عليها مرة أو مرتين قبل دخول الجامعة، وجلست على هامش جماعة الشعراء والفنانين والقصاصين والمفكرين والمثقفين ومحبي الثقافة. وبعد دخولي الجامعة أصبحت عضوا أساسيا في تلك الجماعة التي كانت تلتقي في المقهى، في جو كله مودة ودون استقطابات



أيديولوجية ودون خوف أو وجل من التجريب أو الخطأ. فالمرء أمام أصدقائه لا يدعى ولا يضطر إلى موازنة الأمور بل يعبر عما بداخله فى جرأة وهو يعرف أن ما سيقوله إما سيقابل بالإعجاب أو بالضحك والسخرية، وسخرية الأصدقاء مفعمة بالحب



فى السنة الثالثة ثانوى
عام ١٩٥٣



فى البحرية المصرية
عام ١٩٦٠



(بين التعاقد والتراحم)

كانت مدينة دمنهور مدينة تجارية حديثة تسود فيها العلاقات التعاقدية التى تسود فى المدن والمجتمعات الحديثة (أى أنها كانت تنتمى لنمط الجيسيلشافت Gesselleschaft على حد قول علماء الاجتماع الألمان). ولكن تحت القشرة الحديثة كان يوجد مجتمع تقليدى، جماعة مترابطة متراحمة (جماينشافت Ge-meinschaft) لم تكن العلاقات فيها مبنية على المنفعة واللذة وحسب، إذ كانت هناك اعتبارات أخرى غير مادية وغير أنانية تشكل مكوناً أساسياً فى هذه العلاقات (مثل العصبية والشرف).

ولعلنا لو درسنا خلفية كثير من المثقفين المصريين (وخصوصا الثوريين) سنلاحظ أنهم عاشوا فى مرحلة انتقال من المجتمع التراحمى إلى المجتمع التعاقدى، ولعل هذا يفسر الخلفية الريفية لكثيرٍ من مثقفى مصر ممن لعبوا دوراً فى تاريخ مصر السياسي والثقافى الحديث.

ولأننى عشت هذا الانتقال بكل جوانبه (وتدعم إحساسى به حينما انتقلت من دمنهور إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى نيويورك، أى انتقلت من مجتمعات أقل تعاقدية إلى مجتمعات أكثر تعاقدية، إلى أن وصلت إلى مانهاتن قمة التعاقد) أقول بسبب هذا كله أصبحت ملاحظاً قويا لعلاقات التعاقد والتراحم، وأصبح التناقض بينهما أحد أهم المقولات الأساسية فى خريطتى الإدراكية للعالم.

فعلى سبيل المثال كنت ألاحظ علاقة والدى بالعمال داخل متجرنا وبكل من يعملون عندنا، كان والدى ولا شك هو صاحب العمل الذى يدفع لهم أجورهم، يقتر ويغدق عليهم حسبما يراه مناسباً، ولكن التفاوت الاقتصادى (والصراع الطبقى) كان يقلل من حدته العلاقات التقليدية التراحمية والواجبات الاجتماعية والأخلاقية الملقاة على عاتق والدى باعتباره (معلم كبير) وصاحب عمل، وأسلوب حياة العمال وصاحب العمل كان واحداً، الأعياد هى هى، والأحزان هى هى، واللغة هى هى، وطريقة الطعام هى

هى، الجميع كانوا يحتفلون بمولد النبى، الجميع كانوا يلبسون بنفس الطريقة (فالملابس الغربية كانت لاتزال هامشية)، والجميع كانوا يصلون سوياً ويعملون سوياً ويقضون أوقات فراغهم سوياً، وكان أولاد التجار والعمال والموظفين ينفضون عن أنفسهم انتماءاتهم الطبقية بعد الظهيرة ليشتركوا سوياً فى اللعب، فلم تكن اللعب الإلكترونية الحديثة قد ظهرت بعد، وكان يُعاد تشكيل الهرم الحاكم حسب المهارات الشخصية.

(من الشك إلى الإيمان)

وفى سن الخامسة عشرة، برغم أننى نشأت فى مجتمع تقليدى زحف الشك إلى نفسى، وخلّف فىّ فراغاً، فلم يعد من الممكن قبول الأطر القديمة، وكان لابد أن يملأ هذا الفراغ العقائدى (أو الأيديولوجى). وبما أننى كنت ثائراً ضد الظلم الاجتماعى كان من الحتمى تقريباً أن أتوجه للماركسية، وقد أعطانى صديقى سعيد البسيونى (أستاذى الحقيقى عبر حياتى) بعض الكتب عن هذا الموضوع، ثم فتحت المكتبات السوفييتية التى كانت تبيع الكتب السوفييتية و(الماركسية) بأسعار رخيصة، فاشترينا الكثير منها، وبدأت أقرأ فيها بنهم، وكان اهتمامى بالماركسية فكرياً فى بداية الأمر إلى أن التقى بى أحد أعضاء «حدتو» وجندنى عضواً فى الحزب عام ١٩٥٤، وفوجئت بتصعيدى فى الحزب نظراً لمعرفتى باللغة الإنجليزية والمصادر الأولية للفكر الماركسى، وقد قمت بترجمة كتاب ماوتسى تونج عن التناقض عام ١٩٥٧ (لعلها كانت أولى الترجمات إلى العربية)، ومن الطريف أننى بموضوعية كاملة كنت أبين لهم فى الحزب أنه يجب ألا أصعَّد بسبب خلفيتى البورجوازية ولابد من اختبارى والتأكد من «نقائى الأيديولوجى»، ومع هذا، استمروا فى تصعيدى ووجدتنى مسئولاً عن خلية، وعضواً فى لجنة منطقة الرمل (على ما أذكر)، وقد انتهت تجربتى الماركسية حين اكتشفت الاتجاهات النيتشوية عند كثير من الماركسيين، وأن ما كانوا يسعون إليه هو نوع من أنواع تحقيق الذات وليس تحقيق العدالة الاجتماعية.

المهم فى تجربتى «الماركسية» القصيرة أنها أتاحت لى فرصة التعرف على بعض النماذج الإنسانية عن قرب، كما أننى استوعبت بعض المقولات الماركسية مثل دور التاريخ واللحظة التاريخية فى تحديد مواقف الأفراد وتوجيهاتهم، كما أن الماركسية دعمت من بعض الاتجاهات الكامنة فى مثل رفض الظلم والاستغلال، والأكثر من هذا زودتنى الماركسية بأرضية نقدية أقف عليها لأطل على بيئتى البورجوازية فى مصر، ثم فيما بعد على بيئتى الأمريكية فى الولايات المتحدة، فمن خلال الماركسية أمكننى الاحتفاظ بالبُعد التقليدى وباستقلالى عما حولى وبمقدرتى على رؤيته فى كليته ، ومن ثم تجاوزه.

٣ - رحلتى الفكرية

ولكن رغم هذه الرحلة المادية فى حياتى بدأ الشك يدخل إلى قلبى نتيجة لمجموعة من الهزات حدثت أولى الهزات العنيفة حينما رزقنى الله ابنتى نور. كانت

لحظة ولادتها لحظة فارقة فى حياتى إذ وجدت نفسى أنا العقلانى المادى وجهاً لوجه مع معجزة جعلتنى أغرق فى التأمل: طفلة تولد وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسعتين من حولها، ثم ترتبط بأمها على الفور.

وبدأت أتأمل فى هذا الكائن الجديد الذى دخل حياتى : هل يمكن أن يكون كل هذا نتيجة تفاعلات كيماوية وإنزيمات وغدد وعضلات؟ هل هذا الكل الإنسانى هو جماع أعضائه المادية وثمرة الصدفة، أم أن هناك شيئاً ما يتجاوز السطح المادى ؟ هل الانسان فعلاً جزء من الطبيعة، لا يفصله فاصل عنها، خاضع لقوانينها وأهوائها (كما يقول المنهج المادى الصارم)، أم أن فيه أسراراً وأغواراً؟ وفوجئت أننى، رغم شكوكى الفلسفية وتصوراتى المادية، أكتب قصيدة تحاول استكناه هذا الحدث من خلال صور شعرية دينية، إذ إن الصور المادية لم تعد كافية، فقد أصبحت ظاهرة الإنسان بالنسبة لى ظاهرة غير مادية غير طبيعية، معجزة بكل المعايير المعروفة لدى ، وهكذا ظهر هذا التناقض بين الإنسانى والطبيعى، الذى يشكل حجر الزاوية فى رؤيتى للعالم.

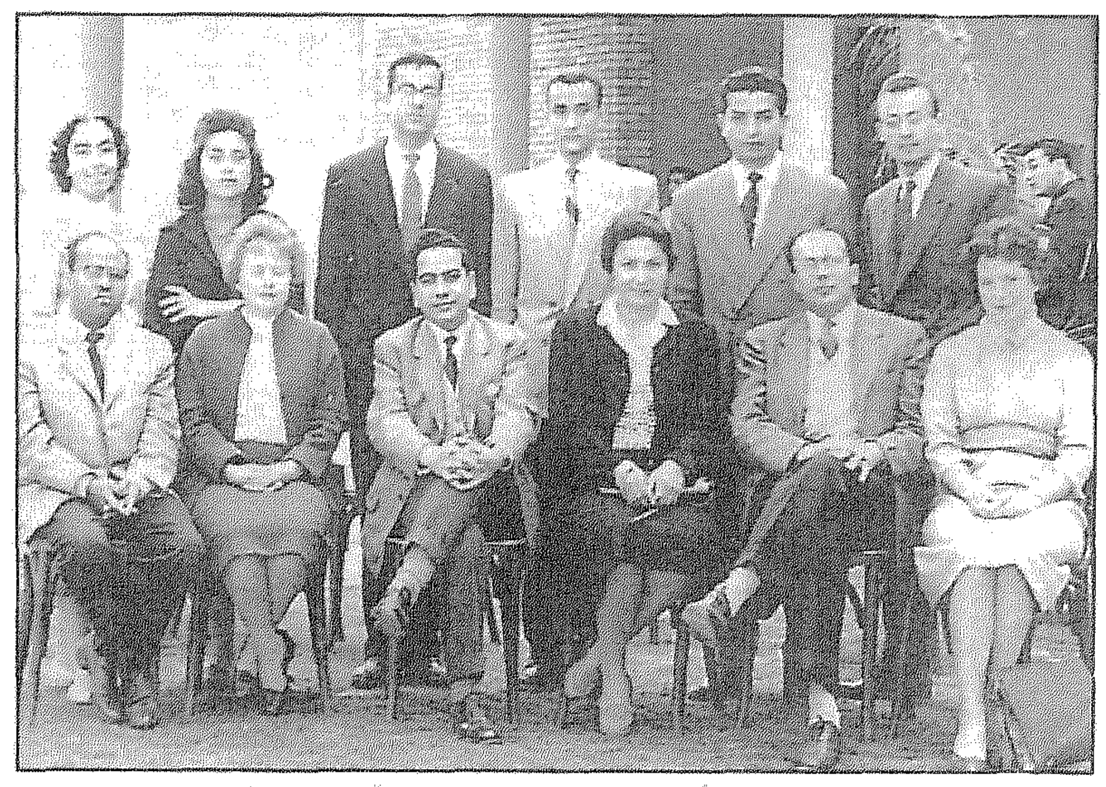
ومن الأمور التى لاحظتها بشكل مباشر وهزت مقولاتى المرجعية أننى اكتشفت إبان إقامتى فى الولايات المتحدة أن كل أصدقائى إما من أصل كاثوليكى أو يهودى (باستثناء أستاذى، فكان بروتستانتياً ولكن من جماعة بروتستانتية هامشية)، وأنا هنا أتحدث عن أصولهم الدينية لا عن انتمائهم الدينى الفعلى (فمعظمهم كانوا ملحدين أو غير مكترثين بالدين). وبدأت هذه المسألة تحيرنى، أى أننى اكتشفت الدين كمقولة تحليلية وليس مجرد جزء (غير حقيقى) من بناء فوقى ليس له أى أهمية فى حد ذاته، ويمكن تفسيره (كشفه - فضحه) فى إطار العناصر الاقتصادية، وأن المكون الدينى ليس مجرد قشرة وإنما هو جزء من الكيان والهوية.

ومن الظواهر الأخرى التى استرعت انتباهى وأثارت قلقى فى بداية الأمر أننى كنت دائماً أتصور أن الحضارة الغربية هى حضارة الفردية وأن حضارتنا هى الحضارة الشرقية الجمعية ، هكذا تعلمنا وهكذا أدركنا الكون (وطبعا كان هناك الأطروحات «العلمية» الجاهزة التى تفسر هذا: اقتصاد رأسمالى - فكر حركة الاستنارة - المسيحية الغربية ... إلخ). ولكننى حينما ذهبت إلى هناك، لاحظت أن ثمة نمطية مذهلة فى أشكال الحياة، وفى الأنماط الإنسانية، فوجدت أن الشخصية السائدة شخصية برجماتية تبدأ بتأكيد ذاتها تماماً ولكنها تنتهى بالتكيف مع ما حولها وبالاستجابة المباشرة لما يأتيها من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية، وتُعيد صياغة نفسها بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات.

وحينما قارنت بين الأنماط الأمريكية حولى والأنماط المصرية التى عرفتها فى



يصافح الرئيس جمال عبدالناصر فى عيد العلم عام ١٩٦٠



عبدالوهاب المسيرى مع أعضاء الجمعية الانجليزية فى كلية الآداب عام ١٩٥٨

مصر (حتى أواخر الستينات)، وجدت أن عالم الإنسان المصرى أكثر امتلاء وأكثر صلابة، فهو قادر على الحب وعلى الكره، وعلى التعاون والتآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته، وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة ، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع، أما الإنسان الأمريكى، فهو مؤمن تماماً بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيده تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

(اللا عقل الغربى)

وتوالى اهتزاز المقولات والأفكار المرجعية. كانت البارتيزان ريفيو من أشهر المجلات الفكرية فى الولايات المتحدة ، وكان رئيس تحريرها، الأستاذ وليام فيلبس من ضمن أساتذتى، وأعجب بى وكان يدعونى للحفلات التى تقيمها، مما كان يتيح لى فرصة الحديث مع كبار الكتاب الأمريكيين ومع الشباب المثقفين الواعدين، فكنت أحدثهم بحماس شديد (باعتبارى واحداً منهم) عن الإنسانية (الهيومانية) humanism والاستنارة والعقل والعقلانية الغربية، فكنت أفاجأ بأنهم يتحدثون عن اللاعقل واللاوعى والمخدرات والعبث والأساطير والفن البدائى والوعى الكونى والذوبان فى الكون والبنيوية، كما لاحظت تزايد الإشارات السلبية إلى مفهوم الإنسانية الهيومانية والإشارات الساخرة إلى الاستنارة، واكتشفت ساعتها أننى الداعى الوحيد للاستنارة فى صحراء اللاعقل الجليدية، واكتشفت أن الحضارة الغربية قد دخلت مرحلة جديدة، فالحضارة الغربية التى عرفناها ونشأنا على الإعجاب بها، بعقلانيتها وإنسانيتها، كانت تعالج سكرات الموت بعد أن سدد نيتشه ضربته الأولى، وبعد أن توالت الضربات من كيركجارد ونيتشه إلى هايدجر وهتلر.

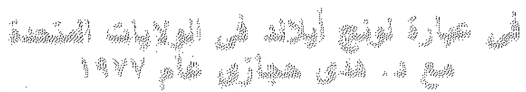
أذكر جيداً أننى حينما بدأت التدريس فى مصر عام ١٩٦٩ أعطيت محاضرة عن الاستنارة الغربية نوهت فيها بمناقبها العديدة ولكننى فى المحاضرة التالية كنت أدرِّس الشعر الإنجليزى الحديث، وكان الدور على قصيدة ت، س، إليوت «الأرض الخراب The Waste Land»، وبينما كنت ألقى محاضرتى، أحسست بسخفي الشديد، إذ تساءلت كيف يمكن لحضارة الاستنارة أن تنتهى فى ظلمات الأرض الخراب؟ كيف يمكن أن أبشر بالحضارة الغربية باعتبارها حضارة الاستنارة من الساعة التاسعة حتي الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة، ثم أبين لنفس الطالبات أنها فى واقع الأمر حضارة الأرض الخراب من الساعة العاشرة حتى الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة؟ كان لابد أن أجد تفسيراً كلياً قادراً على تفسير هذا التناقض، هذه الوحدة الكامنة خلف التنوع، بل خلف التناقض الظاهر الواضح!.

واستمر تسديد الضربات لإيمانى بعقلانية الغرب، فقد تذكرت - شأنى شأن الكثيرين من مثقفى العالم الثالث -



فى كلية الاداب جامعة الإسكندرية
عام ١٩٦٠





فى عبارة لونج أيلاند فى الولايات المتحدة
مع د. هدى حجازى عام ١٩٧٧

صورة التقطتها عام ١٩٦٣ فى جامعة ييل تبين التفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة (كل أصحاب الأحذية بيض وكل ماسحى الأحذية سود)

الإمبريالية الغربية، وأنها هى التى كانت تعوق التحديث فى بلادنا، وتتعاون مع النظم الفاسدة، وتقوم باستغلال خيرات آسيا وأفريقيا ونهب العالم، تساندها فى ذلك القوة العسكرية والأيديولوجيات العنصرية مثل «عبء الرجل الأبيض» وهى أيديولوجيات أبعد ما تكون عن العقلانية.

وقد لاحظت (شأنى شأن أى عربي مقيم فى الغرب) تأييد الغرب غير المتحفظ لإسرائيل (الدولة اليهودية!) والتعاطف الكامل مع ضحايا النازية الذى يصاحبه فى الوقت ذاته إنكار كامل للجرم الصهيونى الغربى ضد الفلسطينيين وعدم الاكتراث بضحايا الغارات الإسرائيلية. حيرنى هذا الأمر فى البداية، وحاولت أن أهمشه عن طريق تصنيفه باعتباره مجرد «استثناء» للقاعدة العامة أو «انحراف» عن المسار الرئيسى. لكن التأييد الغربى للدولة الصهيونية كان من الشمول والقوة بحيث كان من المستحيل تفسيره على هذا الأساس. وبدأت أرى تأييد الغرب لإسرائيل كجزء من نمط أكبر، وهو الإيمان الكامل بشريعة القوة والغاب لا شريعة العقل والعدالة.

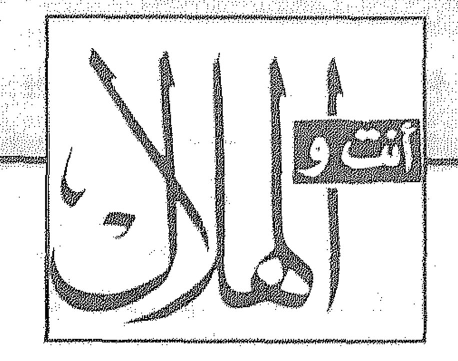
ولم تكن الإمبريالية الغربية والتأييد الغربى للمشروع الصهيونى هو الأمر الوحيد اللاعقلانى فى هذه الحضارة الغربية، إذ كان هناك دائماً مشكلة الأمريكيين السود وما يتعرضون له من اضطهاد غير مفهوم .

ومن الأمور التى حيرتنى بعض الوقت إقبال الأمريكيين النهم (وأحياناً المرضى) على الجنس، وانشغالهم الشديد به لدرجة غير مألوفة (فالرئيس كلينتون ليس، بأية حال، نموذجاً فريداً). بينما مجال الإشباع الجنسى متاح بشكل ديمقراطى مذهل. وهنا اهتزت مقولة مرجعية أخرى وتحول الجنس من كونه مجرد فعل جسدى لإشباع الرغبة الجنسية إلى موضوع للدراسة والتأمل، أى أصبح موضوعاً فلسفياً. وبدأت أسأل لعل الارتواء الجنسى مرتبط بمكونات أخرى غير مادية، ولعل هذه العناصر ليست مجرد قشرة وإنما لها علاقة قوية بالجنس والإشباع الجنسى، ولعل الجوع الذى أشاهده فى الولايات المتحدة والذى ليس له أى تفسير مادى مباشر (هل يمكن تفسير سلوك الرئيس كلينتون بشكل مادى؟) لعله يعود إلى «رؤيتهم» المادية للجنس، كما لو كان الجنس شيئاً طبيعياً مادياً، مسألة غدد وعضلات وحسب، مسألة محايدة تماماً لا تختلف عن أى عملية بيولوجية أخرى (مثل تناول الطعام)، فهم لم يدركوا أن الجنس مسألة إنسانية مركبة مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية. وأن عدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة، هو أحد أسباب عدم الارتواء، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى، يترك كيانهم الإنسانى بلا إشباع (مرة أخرى التناقض بين الطبيعى والإنسانى) أو لعلهم أدركوا تركيبة الجنس على المستوى الفردى، أما على المستوى الاجتماعى،

وهو المستوي الذى يتحكم فى رؤية الإنسان لنفسه، فالأمر جد مختلف ، فالصورة التى تشيعها وسائل الإعلام هى صورة الجنس السهل المباشر، الذى لا يسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أى توابع : أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير فى الهوية.

الامبريالية النفسية

وكان لادراك الإمبريالية النفسية أثره العميق علىّ. والامبريالية النفسية هى امبريالية قررت توسيع رقعة السوق لا عن طريق الانتشار الأفقى فى الخارج (الذى يتطلب القوة العسكرية) وإنما عن طريق الانتشار الرأسى داخل النفس البشرية ذاتها ، التى تتحول إلى سوق دائم الاتساع تسيطر عليه هذه الإمبريالية وتوجهه وتطرح فيه كماً هائلاً من السلع، ثم تلقى فى روع الفرد (الذى يقف عارياً ضعيفاً وحيداً أمام وسائل الإعلام) أن هذه السلع لا تحقق «منفعته» وحسب بل و«سعادته» (أى لذته) أيضاً. وقد نجحت هذه الإمبريالية فى تسخير كل الطاقات خاصة صنّاع الصور image وسيطرت بشكل شبه كامل على الإنسان الأمريكى، وقد وصلت إلى الولايات المتحدة فى وقت كانت تهيمن فيه مدرسة النقد الجديد New Criticism على كثير من أقسام الأدب الإنجليزى . ومدرسة النقد الجديد تركز على قراءة النصوص وتبتعد بقدر الإمكان عن التفسيرات التاريخية والاجتماعية (دون أن تهملها تماماً). فالنص الأدبى – حسب تصور دعاة هذه المدرسة – بناء مكتف بذاته يشبه إناء الزهور، يمكن فهمه من الداخل دون حاجة إلى فهم سياقه أو خلفيته التاريخية. وكانوا يرون أن داخل كل عمل فنى عظيم يوجد إدراك للتناقض paradox الذى يسم الوجود الإنساتى . بل إنهم كانوا يرون أن ما يميّز الظاهرة الإنسانية عن الظاهرة الطبيعية هو هذا التناقض الذى بوسع لغة الشعر التعبير عنه، فهى يمكنها الحديث عن الشيء ونقيضه فى ذات الوقت، على عكس لغة العلم المجردة التى لا يمكنها التعامل إلا مع القوانين العلمية المجردة ومع الشيء أو نقيضه، ومن هنا يصبح الشعر والمجاز مسائل لصيقة بالوجود الإنسانى ذاته، ولا يمكن التعبير عن المشاعر الإنسانية إلا من خلالها، ورغم أننى لم أتبنَّ رؤية مفكرى النقد الجديد للنص الأدبى باعتباره كياناً مستقلاً، مكتفياً بذاته، ولا للتناقض باعتباره الصورة المجازية الأساسية ، وحاولت دائماً أن أرى النص الأدبى باعتباره تعبيراً عن لحظة تاريخية يحتوى على عناصر مركبة عديدة، قد يكون التناقض أحدها، ولكنه ليس بالضرورة أهمها، على الرغم من كل هذا فقد تأثرت تأثرا عميقاً بمقولات مدرسة النقد الجديد النقدية والفلسفية ، خاصة هذا التمييز بين الظاهرة العلمية (الطبيعية المادية) والظاهرة الإنسانية، وهذا الشك العميق فى العلم باعتباره نموذجاً قاصراً عن التعبير عما هو إنسانى.



مستقبل المجلات العربية وضرورة إيجاد حل جذرى

طرح الأستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير قضية مستقبل المجلات الثقافية فى الوطن العربى ، وذلك من خلال مقاله فى عدد مايو الماضى - وقد تطرق إلى أزمة المجلات الثقافية فى المنطقة والأزمة فيما أرى هى إنعكاس لإشكالية العقل العربى وأمية ثقافية ، وقهر للعقل العربى ، وانحسار للإبداع والخلق ، وما يواجه الثقافة العربية من تحديات فى الوقت الراهن .

علاء الدين عمرو حمودة
كلية الإعلام - جامعة القاهرة

الهلال :

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تعالج فيه مجلة الهلال هذه القضية الهامة ، وتحدث الهلال عن المأزق الذى تعيشه المجلات الثقافية ، خاصة حينما تواجهها مشكلات إمكانية دخولها إلى الوطن العربى ، وأحيانا ارتفاع أجور الشحن وغيرها ، مما لا يتيح للمثقف العربى الإطلاع على ما تتضمنه من كتابات وأفكار ينبغى التعرف عليها .. كما نادى أكثر من مرة بضرورة إيجاد حل لتلك المشكلات .

المعلم العاشق

وعلمت غيداً مثل شعرى فصادنى ... من السرب ريم هدَّنى وهو الغر
وعلمنى بالحسن وهو مقرر ... على كل قلب والعيون له جسر
له الصفحة الأبهى التى هى وجهه ... وعيناه عنوان وخاتمه الثغر
ووشى من الرسم الإلهى لاعب ... بنبض شعورى وهو عندهم الشعر
وجيد كأحلام الحرير وفتنة ... كأشهى ثمار الصيف أنبتها الصدر
أغازله بالعين يقرأ موجتى ... ويمتد إرسالى فيجرفنا البحر
تقبله أحلام صحوى : سريره ... فؤادى وأهداب العيون له ستر
إذا ما تثنى طار شوقى مراقصا ... فذاب على نار الخيال له خصر
رقيق .. له قلبى رقيق وقدّه ... هو العدل كم يحلو بمثلى له الجور !
أتيت إليه رافع الرأس منكراً ... فلما سقى عينى أطاح بى السكر

أحمد السيد - عمان - الأردن

ياسين عبد الغفار شاعراً متصوفاً

تحدثت الصحف بإسهاب عن الدور الكبير للدكتور ياسين عبد الغفار الذى فقدته مصر فى الشهر الماضى ، وهو العالم الذى توصل إلى الفيروس الثامن للسرطان الذى يهاجم الكبد ، لكن أود أن أضيف جديداً عن الراحل الكبير .. فلقد كان قارئاً للسيرة ولكتب التصوف وله شعر نظمه مثلما فعل أحمد شوقى على نهج بردة البوصيرى :

يقول فى قصيدة له :

حمداً لمن بعث الأمين بأمره — بشرى ورحمة للأنام بأسره
وحباه أفخم رتبة بين الورى — واختصه بولائه وببره
الرحمة المهداة أفضل مرسل — الصادق المصدوق فى أخباره

إلى أن يقول :

من ذاق طعم هو الحبيب محمد — لم يلق بؤساً أو ردى فى دهره
فاقصد حماه هائماً بغرامه — واخلع عذارك وارتشف من خمره
واطرب ولا تخش الملامة فى الهوى — فالصب ليس مؤاخذاً فى سكره

واهتز الموسيقار محمد عبد الوهاب طربا حينما قرأ هذه القصيدة، وقال لطبيبه ياسين عبد الغفار أعطينها ألحنها وأغنيها: وابتسم الرجل ابتسامته الهادئة المعروفة، وقال لعبد الوهاب : دعنى أعيد النظر فيها .

فلما أعاد النظر ، وجد ما اعتنقه بالتصوف أسئلة علمية ليس عنها إجابة ، ووقف أمامٓ ما يؤكده المتصوفة من أن آدم رأى اسم الرسول على عرش الله ، وقف وقفة الحيرة رغم رسوخ إيمانه فكتب :

إن قيل كيف يجوز هذا كله — فى منطق الإنسان أو فى فكره
أن يخطىء الإنسان فهم حقيقة — فالذنب فى عقل الفتى وقصوره

رحم الله ياسين عبد الغفار الذى أفنى حياته من أجل مريض ينعم بالشفاء ، ورسالة مدوية فى كل أنحاء الدنيا .

فيصل كمال الدين - القاهرة

النداء الأخير

طرق باب بيتى
قلت من الذى حضر ؟
قال طارق ..... طارق
على الضفة ينتظر
قلت أابن زياد
أم من رعاة البقر ؟
قال من الْبدو – من الاعراب – من الحضر .
فاعل مجد وضمير من الأزمنة مستمر .
فتحت بابى مرحبة بذاك الخبر .
إذ على الباب ممرات
وآثار لوقوف القدر .
قلت من أنت ومن أين حضرت ؟
أابن العاص أم حفيد عمر ؟
قال من الجبال من التلال من ذاك المنحدر .
هذه أعشاب من القمم من الحفر .
لتشفى أبناء عصرك من داء ينتشر .
قلت هذا صحيح وهل له فى هذا الزمان أثر .
قال غلى ذاك العشب واملئى الكؤوس للبشر .
إنه الحب وما من الحب مفر .
قلت سأفعل حبا فى البشر .
سأفعل يا ضمير أمتى
يا ضمير العرب المستتر
سأفعل حتى ينادينى الموت وتأوينى الحفر .

فلة ميهوب شوشان
تونس – منزل عبد الرحمن

لمصلحة من نشوه قياداتنا الوطنية ؟!

كتب الدكتور رجب البيومى مقاله فى عدد مايو الماضى بعنوان «سعد زغلول الأزهرى الفقيه» فقال (وكان اتصاله الشديد بشريعة الله أحد معالم توفيقه فى المحاماة والقضاء) .

وقال المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في أحد مؤلفاته (إن سعد زغلول وهو فى منفاه كان يداعب أحد زملائه قائلا له «مالك يا فلانٌ تحمل كل هذا الهم والألم فى المنفى .. إذا كان فى مصر نساء وخمر فإن ها هنا خمر ونساء» !.

ثانيا : كان بجوار قريتنا عزبة اشتهرت باسم عزبة زغلول ، ومازالت حتى الآن تشتهر به ، إلا أن الناس كانوا يشيرون إليها أحيانا باسم آخر هو عزبة نادر الشيخانى .. وسألت أبى وكان من رجال التعليم عن السبب فى أن لهذه القرية اسمين فقال لى : هذه العزبة كانت من ممتلكات سعد باشا زغلول ، إلا أنه خسرها على مائدة القمار أمام الخواجة نادر الشيخانى وهو لبنانى كان يقيم فى مصر .

السؤال ببراءة شديدة ، هل صحيح ما قاله د. البيومى عن ذلك الاتصال الشديد لسعد زغلول باشا بشريعة الله ؟!.

نبيل عبد الرحمن دريك - طنطا

الهلال :

سعد زغلول بعد بلوغه سن الستين قاد ثورة ١٩١٩ ولم يترك فرصة للعمل الوطنى ضد الاحتلال إلا وقام بها ..

وبالنسبة للقمار فكتب عنه فى مذكراته ، والجهد الكبير والنضال لكى يتخلص من هذا الداء .

وقيمة هذا الزعيم الوطنى أنه إنسان مثلنا جميعا له ضعف البشر وقوته ، ولكنه استطاع أن يتغلب على نقاط ضعفه وقاد الثورة فى مصر .. وقدم فى مذكراته اعترافا بنقاط ضعفه وكيف استطاع أن يتغلب عليها ..

سؤالنا : هل من مصلحتنا أن نشوه كل قياداتنا الوطنية ، فواحد يهاجم سعد زغلول والآخر يفترى على جمال عبد الناصر .

فماذا سيبقى من رموزنا الوطنية ؟!.

رثاء عالم
الطناحى فى عرس الخالدين

مصاب الضاد فى فقد الطناحى ... عذارى الشعر تندب فى نواح
بكارة لفظها غابت وضاعت ... وصرح العلم شيع فى الصباح
تجمد دمع عينى فى ذهول ... يردد حائراً مات الطناحى !
فمن هذا الذى يثنى عليه ؟ ... وذلك فى الغدو وفى الرواح !
ومن يعطى نبات الفكر ليلى ؟ ... ومن سيواسى قيسا فى الجراح ؟
وبنت العامرية فى شرود ... ومن لفنون شاكر والأقاحى ؟
ألا يا قيس فلتهجر بعيدا ... بنات الضاد صرن من السفاح
ألا يا قيس فلتندب عظيما ... ولا تبكى العذارى فى صياح
صياح زائف لا خير فيه ... فهل تشفى نفوس بالجراح ؟
لسان الذكر طيب كل ترب ... وقلب الطهر يزهو فى انشراح
ألا يا قبر فلتهدأ قليلا ... أتاك العلم من كل البطاح
ألا يا قبر كرمه افتخارا ... بتقديم الزرابى والأضاحى
وبث الشافعية باقتدار ... ثمار الصبر تجنى بالكفاح
فلابن أثير والسبكى انتماء ... فلولا الفضل ما عرفا براح
بنى الهروى مجدا فى السماء ... وذلك حين أظهره الطناحى
وحققت النهاية فى حديث ... به ظهر الغريب من الصحاح

د . طلبة عبد الستار أبو هديمه
كلية اللغة العربية - إسلام أباد

أين حق الشعب الفلسطيني؟!

تمر خمسون عاما على قيام اسرائيل . وأيضا يمر نصف قرن على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان .

فهل حقوق الإنسان أن يطرد شعب من وطنه ويحل محله شعب آخر ؟!.

ابراهيم شومان - الاسكندرية

الهلال :

قبل الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ لم يكن لاسرائيل وجود ، وإن كانت الأمم المتحدة أقامت بموجب قرار تقسيم فلسطين الصادر فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ لجنة لتتسلم إدارة فلسطين، كلما سحبت سلطة الانتداب البريطانى قسما من قواتها لإفساح المجال أمام إقامة مجالس حكومية مؤقتة فى الدولتين اليهودية والعربية .

سارعت أمريكا وجواتيمالا وموسكو بالاعتراف بإسرائيل لكن برغم ذلك فرض على اسرائيل قرار التقسيم، وإعادة اللاجئين إلى ديارهم ودفع تعويض عن أملاك الذين لا يرغبون فى العودة .

على مدى ٥٠ عاما ضاعت حقوق الشعب الفلسطينى .. ولم يستفد الفلسطينيون من هذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، ووقفت الدول الكبرى تساند اسرائيل ويضيع حق الشعب الفلسطينى بشكل ساخر ، وما يحدث الآن للفلسطينيين ، دليل دامغ على الكيل بمكيالين دون خجل !!.

حلم

جاء الشتاء مبكراً — وطفا على الأرض الصقيع

والليل يظلم حولنا — والحلم يأبى أن يضيع

والخوف يزحف شاهرا — شبح الخرافات المريع

وأنا أخاف من الشتا — ء ، أنا أموت مع الصقيع

الشمس ترفض موعدى — وكذاك يرفضه الربيع

يوما نظرت إلى السما — ء ، نجومها عقد بديع

ورأيت قلبى باكيا — يطفو على بحر الدموع

ويلم أيام الشبا — ب ، يلم من نفق الهجوع

ويقول يوما قد نفيـ — ق وتحتوى شمس الطلوع

إيمان عطيفى
الشيخ شبل - سوهاج

من وحي الهجرة

يـا أكـرم الخـلق   من سـام ومن حام
أنت المـلاذ لنـا   من كل أو هـام
ما أجـمل الذكـرى   تأتـى بأنسـام
الحـب موعـدها   فى كل أعـوام
يا يـوم هجـرته   يا خير أيـام

سعيد عبد القوى - بنى سويف

وديع فلسطين
وجيل يحترم كلمته

تابعت ما كتبه الكاتب وديع فلسطين عن الآنسة مى فى عدد ابريل الماضى من الهلال. وهذا الكاتب أعتبره من الجيل الذى قدم الكثير للقارىء العربى ، فضلا عن أنه أول من كتب عن نجيب محفوظ ، وعن رواياته الأولى ، كما تنبأ له بالعالمية منذ الأربعينات .

من خلال جهوده فى مجال الصحافة نال العديد من الجوائز وله ما يقرب من ثمانية عشر كتابا، ما بين تأليف وترجمة من أشهرها كتاب قضايا الفكر فى الأدب المعاصر ، بخلاف مقالات منشورة فى العديد من المجلات .

فتحية للهلال التى تحرص على أن تقدم لنا كتابات هذا الجيل الذى يحترم الكلمة ، ويتفانى فى كل ما يكتب.

بريد الأصدقاء

** الصديق أحمد نادى عبد الرحمن بهلول - المندرة بحرى - ديروط .
وصلت قصائدك الثلاث ، ومنها قصيدة مصر والتى تقول فى بعض أبياتها :
نخيل جنب شطآن   ونيل يروى ظمآن
وورد أحمر اللون   ونرجس حلو وسنان
وأهرام حضارات   لها الأديان بنيان
فشكراً أيها الصديق على إسهاماتك المستمرة فى الهلال .

** الصديق السيد محمد على عصر - منشية الرحمن - الفيوم .

وصلت قصيدتك التى تشير فيها إلى محاربة تعاطى المخدرات، وهذا النوع من القصائد صعب فى وزنه وايضاح الفكرة شعرا. إقرأ القصيدة مرة أخرى ، وسوف تحصر مواطن الضعف بها .

** الصديق عاطف عبد المجيد - المنشأة الكبرى - القوصية

أولا يا صديقى لا أحد يطلق على نفسه (الشاعر) كلقب قبل اسمه مباشرة ، فقد كان أحمد شوقى يطلق اسمه مجردا دون كلمة شاعر مع أنه أمير الشعراء .. ود . ابراهيم ناجى بكل ما كتبه من شعر ونثر كان يحب أن يناديه أصدقاؤه بناجى فقط، أما القصيدة فتحتاج إلى الوزن ووضوح الفكرة .

فأنت تقول فى البيت العاشر :

فافترشى اللحظة شريانى خشينى من فضلك سمّى

بل ظلى داخـــل أوردتى الآن دعـــوتك لتــأمى

فما معنى كلمة (خشينى) وكلمة (لتامى) .. هل هذا شعر جديد ؟!

** الصديق ماهر الشاملى - عضو الجمعية المصرية لرعاية المواهب :

نشكرك على مشاعرك الطيبة تجاه مجلة الهلال .. لكن الشعر الذى أرسلته .. شعر عامى ، ونحن فى باب «أنت والهلال» لا ننشر سوى الشعر الفصيح .

** الصديق أحمد أحمد البحيرى - العزيزة - المنزلة دقهلية .

لم نفهم يا أخى ماذا تريد ، نود منك ردا واضحا على مقال الدكتور فكرى اندراوس وبشكل علمى منظم ، وليس كلاما فى حد ذاته إننا أصبحنا نرفض أى شعارات زائفة.

** الصديق جمال محمد عبد ربه - قرية بهيج - أسيوط :

فى قصيدتك «الحسن الأثيم» تقول :

الله أكبر أى هـدب يذبح أم أى سحر فى عيـــونك يسبح

أم أى ذنب اشتهاه عاشق سلب الجنان وصار باسمك يشطح

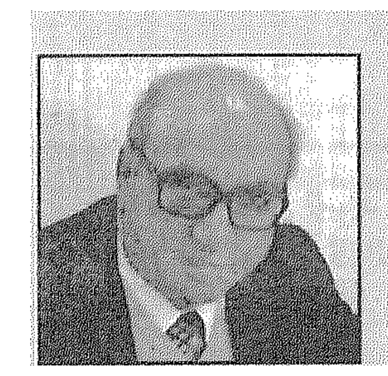
أم أى صخر قُدَّ منه فؤادك منى الوصـــال ومنه هجر جارح

لكنه ســيظل ركنا يرتجى ككعبة تهــفو إليها جـــــوانح

إقرأ الأبيات جيدا ..الوزن مكسور ، والمعانى غير مفهومة .. حاول يا صديقى واقرأ دواوين الشعر لتحقق أمنيتك كشاعر .

** الصديقة إيمان العطيفى - الشيخ شبل - المراغة - سوهاج.

قصيدتك «الحب والخوف» من الشعر العامى ، ونحن ملتزمون فى «أنت والهلال» بنشر الشعر الفصيح .. نرجو قراءة المزيد من دواوين الشعر، وفى انتظار إنتاجك .



حكاية عن سليمان فياض

أبو المعاطى أبو النجا

فى الصفحة الداخلية من الكتاب التذكارى الذى صدر حديثا عن «دار المريخ للنشر» لصاحبها الأستاذ عبد الله الماجد، تحية تقدير للكاتب سليمان فياض بمناسبة بلوغه السبعين من عمره المديد والذى يضم مجموعة من الشهادات والمقالات النقدية التى اشترك فى كتابتها مجموعة من الكتاب والنقاد من أصدقاء الكاتب ومحبيه، وعارفى فضله، فى هذه الصفحة الداخلية توجد عبارة أطلقها ذات يوم صديقنا العزيز الكاتب الروائي الأردنى غالب هلسا عن «سليمان فياض» تقول العبارة: «إنه يبذل أقصى جهده لكى يبدو شريرا»!

وتلخص هذه العبارة البليغة الساخرة والساحرة ملمحاً أساسيا فى شخص صديقنا العزيز سليمان فياض، وحين طلب منى الهلال أن أكتب له فى الصفحة الأخيرة من الهلال شهادة قصيرة عم سليمان فياض بهذه المناسبة، وكنت قد شاركت فيها بعدد من الشهادات والمقالات فى الكتاب التذكارى، فقد وجدت أنه من المناسب -- الذى أرجو أن يكون مناسبا حقا - أن أروى فى هذه الصفحة القصة التى كانت وراء هذه العبارة الساخرة والصادقة التى أطلقها يوما «غالب هلسا».

«حدثت هذه القصة فى أوائل صيف عام ١٩٥٦، وكنا مجموعة من الأصدقاء، انتهينا منذ أيام من أداء الامتحان النهائى الذى سنتخرج بعده فى كلياتنا الجامعية، ونبدأ حياتنا العملية فى تلك الأيام كان من الممكن بالنسبة لمن يتخرج فى الجامعة أن يحلم بوظيفة ممكنة، كما كان ممكنا أيضا للكثيرين أن يحلموا بأن تكون لهم زوجة وبيت بعد وقت قريب!

وفى كازينو قصر النيل جلسنا نحتفل بهذه المناسبة، وإذا لم تحنى الذاكرة فقد كانت هذه الجلسة تضم من الأصدقاء «غالب هلسا» و«خالد الساكت» الأردنيان وسليمان فياض ووحيد النقاش وفاروق شوشه وكاتب هذه السطور، وفجأة أخرج غالب هلسا من حافظة أوراقه ورقة راح يطويها ثم يقطعها إلى أجزاء صغيره، ويعطى كل واحد من الأصدقاء قطعة من الورق تكفى لكتابة اسم واحد منا. ثم قال: «إننا جميعا يمكن أن تصبح لنا زوجات بعد قليل، (جميع من حضروا تلك الجلسة تزوجوا فيما بعد عدا غالب هلسا) وأريد أن يتصور كل واحد فينا أنه يمر بظروف يحتاج فيها إلى أن تسافر زوجة المستقبل إلى مكان بعيد، وتحتاج إلى شخص من الأصدقاء الموجودين فى هذه الجلسة ليسافر معها إلى ذلك المكان، وعلى كل واحد منكم، أن يكتب فى هذه الورقة اسم الصديق الذى يثق فيه، ويطمئن إلى أن تسافر زوجته برفقته فى هذه الرحلة ووافقنا جميعا على المشاركة فى هذه اللعبة، وحين بدأت عملية فرز الأوراق اكتشفنا جميعا أننا - باستثناء سليمان فياض - طبعا ، قد كتبنا فى أوراقنا اسم سليمان فياض!

من الصعب أن أصف رد الفعل الذى ظهر على وجه سليمان فياض ولا أن أذكر الكلمات التى قالها لنا جميعا:

لكن يقول الراوى: يا سادة يا كرام منذ ذلك التاريخ وسليمان فياض يبذل قصارى جهده لكى يبدو شريرا دون جدوى!!


أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيا
إلى ٩٥ مدينة محلية وعالمية
EgyptAir


روايات مصرية للجيب